

السِّيَرُ الْمَعْرِفِيُّ

فِي الْأَدَبِ الْعَرَبِيِّ

تأليف

عبد الله كنون

٣-١

التَّبَوُّغُ الْمَغْرِبِيُّ

في الأدب العربي

التَّبْوِغُ الْمَغْرِبِي

فِي الْأَدَبِ الْعَرَبِيِّ

تأليف

عَبْدَ اللَّهِ كَنْوَن

المجلد الأول

مقدمة الطبعة الثانية

هَذَا الْكِتَابُ

لما ألفتُ هذا الكتاب ، لم أكن أهدفُ به الى تمييز أدب المغرب بميزةٍ ليست في الأدب العربي العام ، ولا الى تخصيصه ببحث مستقل يجعله في نظر المغاربة أو غيرهم كتاباً خاصاً بأدب قطر من أقطار العروبة على حدِّته ، وإنما كان مقصودي الأهم من تأليفه ، هو بيان اللبنة التي وضعها المغرب في صرح الأدب العربي الذي تعاونت على بنائه أقطارُ العروبة كلُّها ، وذكر الأدباء المغاربة الذين لم يُقَصِّروا عن إخوانهم من المشاركة ومغاربة بقيّة أقطار المغرب العربي في العمل على ازدهار الأدبيات العربية على العموم .

وذلك لأنني رأيت منذ نشأتي الأولى إهمالَ هذا الجزء من بلاد العروبة في كتب الأدب وكتب تاريخ الأدب ، حتى لقد تُذكر تونس والجزائر ، وبالحُرَى القيروان وتلمسان فضلاً عن قرطبة واشبيلية ، ولا تُذكرُ فاس ومراكش بحال من الأحوال . وظننتُ أولاً أن ليس لبلادي في هذا المجال مشاركة ، وإنما حسبها ميادينُ البطولة والجهاد والفتح ، ولذلك لا يسعُ المؤرخين وكتاب التراجم الا أن ينوهوا بشخصيات يوسف بن تاشفين ، وعبد المؤمن بن علي ، ويعقوب المنصور ، وأبي الحسن المريني ، وأضرابهم من أبطال المعارك وأرباب الحكم والسُلطان ، ويُثَنِّوا على أعمالهم ومساعدتهم في خدمة الاسلام ، وتوطيد دولته ؛ في حين أنهم لا يُعَيِّرون اهتماماً لرجال العلم والأدب ، ولا يُعرِّجون على ما كان لهذا الوطن العزيز من صولة في عالم الفكر وميدان العِرفان .

ثم لما بحثتُ ونقبتُ ، وجدتُ كنوزاً عظيمة من أدبٍ لا يقصُر في مادته عن أدب أي قطر من الأقطار العربية الأخرى ، وشخصياتٍ علمية وأدبية لها في مجال

الانتاج والتفكير مقامٌ رفيع . ولكنّ الاممال قد عفشى على ذلك كله ، وعدم الاهتمام بجمعه في كتاب ، والتسنيه عليه في خطاب أدّى الى وادّه ، فاحتاج الى من يبعثه من مرقدّه .

وقد شئتُ عن ساعد جدّي ، وأنا يافع لم يَبْقُل بعدُ عارضي ، فتنبعت جميع ما وصلت اليه يدي من آثار أدبية مغربية ، وأخبار عن أدباء المغرب وعلمائه ، ممّا وقفتُ عليه في الكتب والأوراق والمحافظ ، أو تلقّيته من أفواه المشائخ والأدباء والأقران ، وجمعتُ ذلك كلّهُ في كتاب النبوغ ودفعتُ به الى المطبعة منذ بضع وعشرين سنة ، لعلّي أرفع الضيمَ عن بلادي ، وأثبتُ مركزها في حظيرة العلم والأدب ، على ما هو عليه مركزها في السياسة والحرب أو أعظم .

ولقد وُفِّقْتُ الى ما أردتُ أو بعضٍ مما أردتُ ، على ضعف وسائل المادية والأدبية في ذلك الحين ، فكان للكتاب صدّى بعيدٌ في الداخل والخارج ، نبّه الزملاء والناشئين بعدُ الى العناية بهذه الناحية من تاريخهم ، وأثار اهتمام الباحثين والمُعْنِيّين بهذه الشؤون في الشرق والغرب ، حتى قال فيه أميرُ البيان المرحوم الأمير شكيب أرسلان « ان من لم يقرأه فليس على طائل من تاريخ المغرب العلمي والأدبي والسياسي » وصار العلامة الأستاذ كارل بروكلمان ، الحجةُ في تاريخ الأدب العربي يعتمدُ في ملحقات كتابه العظيم ، عن تاريخ هذا الأدب . ولا يُمكنني في هذه المُجَالَةِ أن أستوعِبَ أسماءَ جميع الأدباء والكتّاب الذين تناوَلوه بالنقد والتفريط في مُخْتَلِفِ الصحف والمجلات منذ صدوره الى الان . ولكني أُشير الى إقرار العالم الايطالي الشهير جيوفاني بيانكي في مقال له بمجلة الشرق الحديث^١ عن الكتاب « بإبرازه للمساهمة التي أبدتها المغرب في الآداب العربية ، تلك المساهمة التي أهملتُ حتى اليوم ، ولم تُقدَّر كما كان ينبغي » وهذه هي الغاية التي من أجلها الفتُ النبوغ . وكذلك أُشير الى ما جاء في مقال عنه للدكتور محسن جمال الدين ، نُشِرَ بمجلة الأديب البيروتية منذ عهد قريب^٢ وهو قوله : « ان فضيلة هذا الكتاب في أنه يختص بدراسة

١ - انظر ترجمته في مجلة العالم العربي (عدد اول سنة ثانية) بقلم المشرق « اميليو بوسي » ، وكان الكاتب اطلع على الترجمة الاسبانية للكتاب .

٢ - عدد سبتمبر ١٩٥٨

أدب بلاد المغرب الأقصى وتاريخه ويستخرج النصوص من خزائنها النادرة ، ذات الخطوط النفيسة ، ويعرضُ لنا نماذجها الحسنة . ودراسة شخصياتها المعتبرة- وهو بعيد عن ابتذال القول وضعف الرأي ... والذي يدرس منا كتاب « النبوغ المغربي » فستُدْهِشُهُ هذه الوفرة الزاخرة من أسماء الرجال والمؤلفات والنصوص ، ويتأكد بعدها أن أغلب أصحاب حِرْفَةِ الأدب عندنا أو حَمَلَةِ العلم في جامعاتنا ، لم يسمعوا بها أو يقتنوا من آثارها ، أو يحفظوا بعض أشعارها ونثرها ، وما عمل المؤلف المفضل ، والصديق الكريم الا صِنْحَةً داوية ، ودعوة حارة ، وعُرساً مُشْمِراً لجيله الحاضر ، ولأجيالنا القادمة في الوطن العربي كافة ، وفي عالم الحضارة العالمية الواسعة ، وهذا وصفٌ للمجهود الطائل الذي بذلته في تأليف النبوغ ، بقلم استاذ جامعي يعرف قيمة البحوث المبكرة التي لم تُنْسَجْ على منوال سابق .

وكان المرحوم الاستاذ سعيد حُجِّي يُعْلِنُ عنه في جريدة المغرب عند صدوره بهذه العبارات « حادث خطير في تاريخ المغرب ، ظهورُ كتاب النبوغ المغربي في الأدب العربي ، أول كتاب من نوعه ، وأوفاهُ في موضوعه » ، وألقى بأحد نوادي سلا محاضرة عنه بعنوان (خطوة عظيمة في تاريخ الفكر المغربي) نشرها في العدد الثامن وما بعده من الملحق الثقافي لجريدة المغرب .

ثم كانت موافقةً عجيبةً أن أعلنَ في مصر عن جائزة للدولة قدرها خمسمائة (٥٠٠) جنيه ، خُصِّصَتْ لمن يؤلف عن الأدب العربي في القطر المصري ، من الفتح الاسلامي الى العصر الحاضر .. فكتب الأستاذ حُجِّي مُعلِّقاً على هذا النبأ بالملحق المذكور ما يلي : « من حُسن الصُدْف أن تهتم وزارة معارف مصر بوضع جوائز عن الأدب المصري في الماضي ، في نفس الأسبوع الذي يصدر فيه كتاب مغربي عن الأدب المغربي في ذلك الماضي ، فيكون المغرب أسبق الى تلك المفخرة من كل الأمم الناطقة . بالضاد ولكن يجب أن نتساءل ماذا ينال مؤلفنا من تقدير ادارة العلوم والمعارف ، وما يستحقُّه من تشجيع من جمهور المثقفين ؟ فنحن نُهيبُ بتلك الادارة الى الاهتمام بهذا المؤلف الحافل ، ونزجو أن تشتري منه بضع مئات من النسخ تقديرًا لمجهودات مؤلفه الثمينة ، وتشجيعاً لمثل هذه المباحث القيمة . » وقد كان الجوابُ على هذا النداء النبيل هو صدورُ قرار عسكري بمنع رَوَاج الكتاب ، ومُعاقبة من تُضَبِّط عنده نسخة منه . ونصُّ ما كتبته جريدة السعادة ،

لسان حال حكومة الحماية ، بعددها رقم ٤٥٩٢ في هذا الصدد تحت عنوان بلاغ عسكري (أصدر سعادة الجنرال خليفة سعادة القائد الأعلى للجنود بالنسابة أمراً يقضي بمنع الكتاب الملعون بالنبوغ المغربي في الأدب العربي الصادر باللغة العربية في تطوان من الدخول الى المنطقة الفرنسية بالمغرب الأقصى ، وكذلك بيعه وعرضه وتوزيعه ، ومن خالف ذلك يعاقب بمقتضى القوانين المقررة ..)

وإذا كان لهذا القرار دلالة فهي تأكيد لكون الكتاب عملاً وطنياً فوق كونه عملاً أدبياً ولذلك استعق أن يحظى من الاستعمار الفرنسي الغاشم بهذا الجزء الظالم .. وكان أن ثارت ثائرة الصحف الوطنية بتطوان ضد هذا التدخل العسكري الاستبدادي في شؤون الفكر والثقافة ، فكتبت كل من جريدة « الحرية » وجريدة « الوحدة المغربية » مقالات نارية تنتقد فيها القرار المذكور وتندد بالحرية الفرنسية المزعومة ، مما جعل الصحافة الاستعمارية تصاب بالسعار ، فتصب جام غضبها على الوطنية المغربية عموماً ، وتخصني بحملات عدائية انتهزها الأذئاب والمنافقون ، فلم يقصروا في الأذى والضرر .

ومن الانصاف أن أقول ان هذا كان في الجنوب أو المنطقة السلطانية إذ ذاك . وأما في الشمال أو المنطقة الحليفية ، فقد تلقت الكتاب بقبول حسن من لدن السلطة ، واقتنت منه ادارة المعارف كمية من النسخ ، وزعتها على المكتبات والمعاهد في المنطقة . ثم لما ترجم إلى الاسبانية بمعرفة الاستاذين خير ونيمو كريبو أورد ونيز ومحمد تاج الدين بوزيد ، قابلته المحافل الأدبية في أسبانيا بمزيد من التقريظ والتقدير ، وبلغ الأمر أن وصلتني رسالة من وزارة الخارجية الاسبانية بتاريخ ١٨ نوفمبر ١٩٣٩ تعلمني بان وزارة المعارف العمومية لهذه البلاد ، قد منحتني درجة دكتوراه شرف للآداب من جامعة مدريد بمناسبة صدور كتابي النبوغ المغربي في ترجمته الاسبانية ، وتدعوني الى زيارة اسبانيا في رحلة تستغرق شهراً على نفقة الحكومة . وجاءت هذه التحية الكريمة في الوقت المناسب ، فمحت من نفسي آثار المعاملة السيئة التي عومل بها الكتاب من السلطات الفرنسية وعملاتها ، ورددت الجواب بالشكر وعرفان الجليل ولكنني أجلت السفر الى أن يشاء الله تجنباً للقليل والقال .

هذه قصة كتاب النبوغ المغربي باختصار ، من لدن التفكير في وضعه وجمعه ،

الى ما بعد طبعه ومنعه . والآن وقد مرت على ظهور طبعته الأولى هذه المدة الطويلة ، وكثر الطلب عليه من مختلف الجهات وخصوصاً بعد استقلال المغرب ، وتوجه الأنظار الى هذه البلاد التي كانت محاطة بستار حديدي من نظام الحماية ، يمنع الاتصال بينها وبين شقيقاتها العربيات ، والأوطان الإسلامية الأخرى ، وسائر العالم الحر ، فان الحاجة أصبحت جدّاً ماسّة إلى إعادة طبعه ، وتقديمه وثيقةً وسنداً الى جميع هؤلاء الذين يهمهم الوقوف على تاريخ المغرب الفكري وماضيه الحضاري . ولكن بعد مراجعته طبعاً وتجديد النظر في محتوياته من مادة وفكرة وترتيب ، ضرورة أن المعلومات التي كانت لدينا زمن تأليفه هي غير المعلومات الآن ، والتفكير وسائر وسائل العمل ، قد تطورت بتطور الزمن ، فلم يكن بُدّ من ادخال تعديل جوهري عليه يتلخص فيما يلي :

أولاً -- اضافة المواد الجديدة التي وقفنا عليها بعد ، سواء فيما يرجع الى تراجم الأشخاص أو الآثار الأدبية ، أو الدراسات الموضوعية التي تناولناها في مختلف العصور ، فقد ظهرت في عالم الطباعة كتب مهمة لها اتصال وثيق بموضوعنا كمجموعي رسائل موحدية ، ورسائل سعديّة ، ورايع البيان المغرب لابن عذاري ، ومغرب ابن سعيد ، والفصون اليبانة ، ورايات المبرزين له ، واطلعنا على الحماسة المغربية للجرّاوي ، ونثر الجمان لابن الأحمر والمدارك للقاضي عياض ، ورحلة ابن رُشيد ، وغير ذلك من المخطوطات النادرة التي تحتوي على موادّ أساسية في الموضوع كان من الضروري أن تُضاف الى أماكنها وتُكتمل عناصر البحث .

ثانياً - تصحيح بعض الأغلاط التي وقعت لنا في كتابة بعض التراجم ، ونسبة بعض الآثار الأدبية والعلمية لغير من هي له ، والحكم في بعض المسائل بما ظهر لنا خلافه وما الى ذلك . ويقوّي الداعي الى هذا التصحيح أننا رأينا الذين كتبوا في موضوع الأدب المغربي يقلّدوننا في تلك الأغلاط ، سواء الذي صرّح منهم باعتبار النبوغ من مراجعته ، والذي لم يُصرّح بذلك ، وهو أمر مؤسف يدلّ على ضعف الهَمَم ، وكلال العزائم ، في الذين تصدّوا حتى الآن لهذا البحث ، على الرغم من تيسير صعبه ، وتذليل عقابه . ولذلك كان لزاماً علينا أن تُبادر بتصحيح كل غلط من هذا القبيل ولو للمحافظة على هذه الثقة (العمياء) التي وضعها فينا الزملاء الكرام.

ثالثاً - تحرير بعض الفصول من التأثير السياسي ، والعاطفي الذي كَتَبَتْ به ، نتيجة لما كان المغرب يمرُّ فيه من ظروف سياسية ، وأحوال اجتماعية 'معاكسة' لمطامحه العليا ، وآماله الكبرى ، في الوحدة والاستقلال ، والتطور داخل إطار العروبة والاسلام .. ومن أخطر ذلك السياسة البربرية التي انتهجها الاستعمار الفرنسي للتفرقة بين عناصر المواطنين المغاربة ، وتأليب بعضهم على بعض أخذاً بمبدأ فرق تسد .. فكان الكتاب كلما سنحت الفرصة ، يحمل على هذه السياسة حملة شعواء ، ويوجهه القارئ المغربي في الاتجاه السليم المجاني لهذه العنصرية المقيتة ، والذي هو الحق والصواب ، فالآن لما شالت نعمة الاستعمار ، وفشلت سياسته في هذا الصدد ، لم يبق موجب لذلك التوجيه ، أو على الأقل للتهجة الشديدة التي كتب بها ذلك التوجيه .

رابعاً - تحوير في التصميم الذي وُضِعَ عليه الكتاب ، فنحن لقلّة المعلومات التي كانت عندنا عن العصر المرابطي أو لضعف استعدادنا في استخراج هذه المعلومات من تضايف الكتب والمراجع العامة ، كنا أدجننا هذا العصر في العصر الموحيدي . والآن وقد توفرت لدينا معلومات قيمة عن المرابطين وعهدهم ، فصلنا عصرهم عن عصر الموحيدين ، وخصّصناه بدراسات مهمة عن الاتجاه السياسي ، والحركة العلمية ، والحياة الأدبية ، وميزناه بخصائصه التي ينفرد بها عن العصر الموحيدي . وبالطبع فقد خلّصنا هذا العصر أيضاً من الاشتباكات التي كانت تجمع بينه وبين العصر المرابطي ، لما كانا متداخلين ؛ وبذلك نكون قد أعدنا كتابة العصر الموحيدي من جديد ، كما أننا كتبنا العصر المرابطي كله ابتداءً .

ويُضَافُ الى هذا التحوير تقسيم الكتاب الى ثلاثة أجزاء ، فالجزء الأول للدراستات ، والثاني للنتائج التشرية ، والثالث للنتائج الشعرية ، وقد كان قبل 'مقسماً' الى جزئين فقط يجمع الجزء الثاني بين دفتيه المنتخبات الشعرية والنثرية معاً .

والى هذا فقد أضفنا زيادات كثيرة الى غالب الفصول ، وخاصة فيما يتعلق بنهضة الفنون ومشاركة المرأة في مختلف مجالات النشاط الفكري للشعب . وبعض الكلمات في هذا الصدد ، وهي 'جهد مقل' ، تفوق ما كُتِبَ بشأنه في بعض التواريخ العامة الأدب العربي جملةً .

ولا حاجة بي إلى القول إنَّ روح البحث المجرّد التي سيطرت على الكتاب في طبعته الأولى هي التي تنقِصُه في طبعته الثانية ، وأن التثبت والتحري وعدم إلقاء الكلام على عواهنه ، هي الموازين القِسط التي تحكّمت في كل جملة من جملته ، إن لم أبالغ فأقول في كل كلمة من كلماته . ومع ذلك فما أبرّئه من نقص ، ولا أحاشيه من خطأ ، لعلمي بأن الكمال لله . وأن العصمة لا تكون إلاّ لشيء . والله المسؤول أن يكسبوه حُلل القبول ، وأن يجعله ساداً للفراغ الذي يشعر به الجميع في هذا الباب « ولولا فضلُ الله عليكم ورحمته ما زكي منكم أحدٌ أبداً ولكن الله يزكي من يشاء ، والله سميعٌ عليم » .

طنجة في ربيع الثاني ١٣٨٠

وأكتوبر ١٩٦٠

عبدالله كنون الحسني

عرض وتحليل

عرض وتحليل

بقلم المحرم الأيرشكيب أرسلان

كتب أمير البيان الأمير شكيب أرسلان رحمه الله بحثاً مستوفى عن كتاب النبوغ المغربي حين صدوره في صورة عرض وتحليل . ونحن نثبت هنا القسمين المنشورين منه بجريدة « الوحدة المغربية » الفراء الصادرة بمدينة تطوان في عددها ٢٢٤ و ٢٣٤ المؤرخين في ٤ صفر و ٢٩ ربيع الثاني ١٣٦١ ، وتقدمهما بين يدي الكتاب توجيهاً له وتحية :

١

قرأتُ الجزء الأول من هذا الكتاب الممتع الذي أخرجه للناس فذّاً في بابه السيد الشريف ، والعلامة الفطريف الأستاذ عبدالله كنون من مفاخر القطر المغربي في دورنا الحالي . وقد كنتُ أعهد نفسي من بين المشاركة ، الرجل الذي اطلع أكثر من غيره في تاريخ المغرب وأهله ، وأنعم النظر فيما يتعلق بثقافته وسياسته وسائر شؤونه ؛ ولكنني رأيتُ نفسي بعد أن طالعت هذا الكتاب الصغيرَ حجْماً ، الكبيرَ قدره كأنني لم أعلم عن المغرب قليلاً ولا كثيراً ، وكدتُ أقول إن من لم يطلع على هذا الكتاب لا يحقُّ له أن يدّعي في تاريخ المغرب الأدبي علماً ، ولا أن يُصدر على حركاته الفكرية حكماً . وكما قيل في كتاب « نفح الطيب » للعلامة المغربي أنه كتاب نفّس الطيب من غصن الأندلس الرطيب ، وكلام وزيرها لسان الدين بن الخطيب ، الذي من لم يقرأه فليس بأديب ، يمكنُ أن يقال إن من لم يقرأ كتاب « النبوغ المغربي في الأدب العربي » فليس على طائل من تاريخ المغرب العلمي والأدبي والسياسي ؛ بل هذا الكتاب في موضوعه أجدر بالاطلاق الشامل من كتاب « نفح الطيب » في موضوعه ؛ وذلك بأن نفّس الطيب على جلاله قدره حشر بين دفتيه غشاً وسميناً ، وعالياً ونازلاً ، وأطال حيث ينبغي الاختصار ، وأوجز حيثُ النفوس تشاق إلى النبوغ المغربي - م ٢

الاطالة والاكتثار . وأيضاً فقد يكون الأديب أديباً ولم يقرأ « نفح الطيب » ، فأما « النبوغ المغربي في الأدب العربي » فهو خلاصة منخولة ، وزُبْدَة مخوضة ، استخلصها صاحبها من مئات الكتب المصنفة ، وألوف من الأحاديث التي لَقِفَهَا من أفواه العلماء الذين أخذ عنهم ، وقلما رأيت مؤلفاً جمع المعنى الكثير في اللفظ القليل ، وجاء في ضمن ٢٥٠ صفحة بالعريض الطويل في درجة هذا التأليف الذي هو ثمرة تحقيق وتدقيق ، ودرس عميق لم يخرج الى قراء العربية أحسن منه في بابهِ .

أشار العلامة مصنف « النبوغ العربي » في مقدمة كتابه الى جمعه فيه بين العلم والأدب والتاريخ والسياسة ، والى تصويره الحياة الفكرية في المغرب ، من لدن قدوم الفاتح الأول الى يوم الناس هذا ، ولَعَمْرِي إن من قرأ هذا الوعد الذي جزم به المؤلف اعتقد في البدء أنه بالغ فيه جداً ، وحمّل نفسه إحدًا ، وزعم الإحاطة بموضوع تعجز عنه المجلة ، ولا تقني به الكتب الجُمَّة ، وادّعى فتح مغالِق تنوء مفاتيحها بالعُصْبَة . إلا أنه عندما يبدأ القارئ بالمطالعة ، يجد المؤلف قد وعد فأنجز ، وقرب الأقصى بلفظ مُوجز ، وكان فعله محققاً لقوله ، وقد مزج في كتابه بين الحركات الفكرية والحركات السياسية مزجاً عجيباً ، حقق فيه الصلة الطبيعية التي لا تكاد تنفك في كل دَوْر من أدوار الأمم بين العلم والسياسة ، بحيث لا يرقى الواحد منها إلا رقي الآخر برُقيته كاللازم والمألوم . وهو وإن لم يكن توخى ذكر الفتوحات والمغازي ، ولا حاول استقصاء مآثر السيف في جانب مآثر القلم ، فقد ضمن في تضاعيف كلامه على تطور الحركات العقلية في المغرب من لدُن الفتح العربي الى الآن ، لحة دالّة يفهم منها القارئ تطور السياسة وتعاقب الدول المختلفة التي سادت المغرب من ذلك اليوم الى الآن ، فلا يسير المطالع لهذا الكتاب إلا على ضوء من أول الكتاب إلى آخره ، ولا يكاد يُشكّل عليه فيه مسألة ، ولا يستعجم موضوع ، ولا يفتقر مقام الى مقال . وهو كَمع هذا كله من الكتب المختصرة ، فكأنما أراد به صاحبه لا مثلاً للتاريخ فحسب ، بل مثلاً للبلاغة .

ومن أول ما شغل المؤلف به ذهن القارئ قضية خفاء الأدب المغربي على المشاركة ، وإنكار كثير من هؤلاء لكثير من مزايا إخوانهم المغاربة . وهو غير ملوم في الاحتفال بهذه القضية ، وفي كونه نصّ عليها في أول كتابه ، لأن للمغاربة حقاً

في المطالبة بكانهم في الأدب العربي الذي هم من جملة حَمَلَة أَلُوَيْتِهِ ، بل من نخبَة
'عُمَّارِ أُنْدِيَّتِهِ' ، ولكن الأمر على حد ما قال الشاعر :

والنَّجْمُ 'تستصغر' الأبصار' رؤيته والذنبُ 'للطَّرف' لا للنجم في الصغر
فالشاركة الذين يعزُّو إليهم إخوانهم المغاربة جهل مقامهم في الادب ليس منهم
واحدٌ يَلْزُ في جملة العلماء المحققين ، وإنما هم من صغار المتأدبة الذين علموا شيئاً وغابت عنهم
اشياء . ولم تكن قبل اليوم علاقاتُ العالم بعضها ببعض كما هي في هذا العصر ، الذي جعلت
فيه الاختراعات العلمية ومظاهر أسرار الكهرباء ، القاصي قريباً والمجهول معلوماً
والبلدان النائية بلدأ يكاد يكون واحداً ، والأسفار المشتطة سفراً قاصداً . وقد كان
المغرب من قبل في زاويةٍ من الأرض ليس وراءها الى الغرب سوى بحر الظلمات . نعم
لم يزل المغرب كما كان من الجهة الجغرافية ، ولكنه أصبح اليوم قريباً بالباخرة والطائرة ،
والسِّلْكي والسِّلْكي والهاتف والراديو ؛ فصار الشرقيُّ يعرفُ عن المغرب وأهله
في اليوم الواحد ما لم يكن يعرفه في السنة بطولها . فالان إذا جهل الشرقي أحوال
المغرب وعميت عليه مآثره ، يكون جديراً باللوم ، وحقيقاً بالراء لقصور معارفه .
فأما عمَّا مضى فلا يتوجه اللوم وأسبابُ الاتصال قليلة ، ووسائل التعارف محدودة .

ولا تنسَ الانحطاط الذي طرأ على العالم الاسلامي شرقيّه وغربيّه ، فانه في مقدمة
أسباب جهل بعض أجزائه بأحوال البعض الآخر . ولا تنسَ أيضاً تكالب الاستعمار
الأوربي ، وكون أممٍ شروطه الفصل والقطع والضرب بالأسدَاد بين البلاد المستعمرة
وأخواتها ، والأمم المستضعفة ومن تمت إليهم بصلة دين أو نسب أو لغة . فهذا كله
جعل أمور المغرب مجهولةً عند غير المحققين من أهل الشرق . ولو كان الاستقلال
السياسي موفوراً للعالم الاسلامي ، لمَّا وقع من التجاهل والتناكر هذا الذي وقع أخيراً
وجعل الأخ لا يعرف شيئاً عن أحوال أخيه ؛ فقد عهدنا عندما كان الاسلامُ اسلاماً ،
وكانت الرجال رجالاً أن الحركات الفكرية إذا شاعت في الشرق شاعت في المغرب ،
وإذا نبغ شاعر أو كاتب في أحدهما تناقل الناسُ أقواله للآخر ، وإذا كتب الإمام
الغزالي كتاباً في أقصى الشرق تدارسهُ الفقهاء في أقصى الغرب ، وعملَ به الموحدون
والغزالي بعدُ في الحياة . وإذا ألَّف سعدُ الدين التفتازاني كتاباً في 'خراسان' أو ما
يليهما تكلَّم عليه ابنُ خلدون في فاس أو تونس في 'عرض كلامه على مَلِكَة المشاركة في
العلوم العقلية' ، والتفتازاني لا يزال حيّاً . وإذا ألَّف ابن هشام كتاباً في النحو وهو

في مصر ، ولم تكن المطبعة قد عُرفت يومئذٍ ، لم تمضِ أشهرٌ حتى امتلأت أسواق
الورّاقين في مدن المغرب بنسخ هذا الكتاب وابن هشام يومئذٍ حيٌّ ؛ وجعله مثل
ابن خلدون موضوعاً في مقدمته لذكر ملكة المتأخرين في علوم العربية ، وهلمّ
جراً . فالرقيُّ الفكري متّصلٌ بالاستقلال السياسي اتصال النتيجة بالمقدمة . ولقد
فقدت في الأدوار الأخيرة من العالم الاسلامي أسبابُ الاتصال بما طرأ من التفكك ،
ومصير بلاد الاسلام طرائقٌ قَدّداً ، تليها دولٌ مختلفة ، أكثرها خارج عن الاسلام ،
بل أكثرها عدوٌ للاسلام كاشحٌ يعمل لمحوه من الدنيا . ومن المعلوم أنه لا يعمل للاسلام
غيرُ دول الاسلام نفسها ، فلا عجب بعد هذا أن يحل بعضنا مكان بعض وأثر
بعض ؛ بل العجب أن تعلم اليدُ اليمنى باليد اليسرى ونحن على ما نحن عليه من
تفكك الأجزاء وتقطع الأوصال ، والسياسة كاقلناهي والأدب شريكا عَسَنان ،
وفرّسا رهان .

وقد أصاب الأستاذ صاحب « النبوغ المغربي » في عدم إطلاقه القول على المشاركة
أنهم جاهلون بأقدار المغرب ، فانه قيّد ذلك بقوله « انكار كثير من المشاركة لكثير
من مزايا المغاربة » وفي هذا القيد قد أخرج محرّر هذه السطور من هذه الجملة
الحاسرة ، فاني على ما بي من قصورٍ وتقصير ، وعيوبٍ تضيق فيها المعاذير ، أقدرُ
أن أدّعي بحقٍ سبقٍ غيري من جميع العالم العربي الى معرفة مزايا المغرب وأهله ،
وإنجاب عدم التفرقة بحال من الأحوال بين مغرب ومشرق ، أقول هذا من باب
التحدث بنعمة الله .

٢

عالم السيد عبد الله كنون في صدر كتابه هذا حادثين جليلين هما من أهم حوادث
الفتح الاسلامي في العالم ، وهما إسلام البربر ، هذه الأمة العظيمة التي لولا دخولها في
الاسلام لكانت بلاد شمالي افريقيا كلها أقطاراً معادية للاسلام ، مُناوئة للعروبة
بخلاف ما هي عليه الآن من الاعتصام بها وتكوينها جزءاً لا يتفكّ من أجزاء العالم
الاسلامي ولا يقل شأنها فيه عن مصر والشام وجزيرة العرب والأناضول وفارس
وهلمّ جراً ؛ بل حصناً منيعاً تتكسر على جوانبه هجمات الأمم التي لا تطيق وجود
الاسلام في الأرض . وكذلك حادثُ استعراب البربر الذين أصبحوا بتأثير الدين

الحنيف واللسان العربي الشريف كتلة واحدة هم والعرب ، يعادون من عاداهم ويوالون من والاهم ، ويكونون دائماً واحداً على من سواهم ، وإن وجدت في الأحياء بين الفريقين منازعات ومشاجرات فلا تكون إلا من قبيل تنازع قبائل العرب أنفسهم بعضها مع بعض ، أو من باب المنازعات العائلية التي لا تمنع أصحابها من الاتحاد على الأجنبي وتناسي جميع الأحقاد بإزاء الخطر العام ، وهذا على حدّ المثل العامي القائل ... (أنا وأخي على ابن عمي ، وأنا وابن عمي على الغريب .) والله در القائل ..

وَذَوِي ضَبَابٍ مُضْمِرِينَ عَدَاوَةً قَرَحَى الْقُلُوبَ مُعَاوِدِي الْأَكْنَادِ
نَاسِيَتُهُمْ بَغْضَاءَهُمْ وَتَرَكْتُهُمْ وَهُمْوَ إِذَا ذَكَرَ الصَّدِيقُ أَعَادِي
كَيْفَا أَعَدُّهُمْوَ لَا بُعْدَ مِنْهُمْوَ وَلَقَدْ يُجَاءُ إِلَى ذَوِي الْأَحْقَادِ

بل البربر في المواقف العامة هم أقرب إلى العرب من العرب بعضهم إلى بعض . ولئن كان التاريخ قد روى بين العرب والبربر غاصبات شعبية عامة كما جرى في الأندلس مثلاً بعد فتحها بقليل وأوجب نكوصاً كانت عواقبه السيئة فيما بعد . فقد ندر وقوع هذه الحوادث ذات الشكل العام بين الأمتين وغلب عليها الشعور بالوحدة الاسلامية حتى صارنا مصداق قوله تعالى : « ان هذه أمتكم أمة واحدة » وأنا ربكم فاعبدون .

ولا ننسى ما قام به البربر في التاريخ الاسلامي من جلائل الأعمال في الذب عن حوض هذه الملة ، سواء على أيدي المرابطين أو الموحدين أو بني مرين أو غيرهم ، مما يجعلهم في مقدمة صفوف المجاهدين الذين تتباهى بآثارهم أمة محمد ، وعلى كل حال يمكننا أن نقول بحسن اعتناء البربر وتأخيرهم مع إخوانهم العرب حملة القرآن الأولين إمتدت جزيرة العرب من شرقي البحر الأحمر الضيق إلى شرقي الأوقيانس الاطلنطيقي الواسع ، فصارت هذه الأقطار كلها سلسلة عربية إسلامية غير منفصلة ولا متعصبة . وهذا قد وفاء حق الاستاذ كنون ، وأوضح أسباب انتشار الاسلام من أول الفتح بين الأمة البربرية ، وذكر من

هذه الأسباب التي أوجبت إقبال البربر على هذا الدين زرافاتٍ ووحداثاً ، ونبذهم ما عداه ، ما لا يقدرُ العدوُّ الألدُّ والحصمُ الأعَدَدُ أن يُكابِرَ فيه أو يتعامى عنه ، وذكر الخلفاء الذين في أيامهم ازداد انتشار الإسلام بين البربر مثل عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه ، الذي أرسل اليهم طائفةً من الفقهاء يعلمونهم القرآن وأصول الدين . ولا عجب وهو الخليفة العادل الورع المقرون اسمه باسم عمر بن الخطاب رضي الله عن الاثنين ، حتى قيل في عدلها عدلُ العُمَريين ، وسارت الأمثال في ورع الثاني كما سارت في ورع الأول ، وروى المؤرخون أنه لما كثرتِ أسلام القِبْط في مصر وارتفعت الجزية عن أسلم منهم ، شكوا عاملُ مصر إلى عمر بن عبد العزيز نُقصانَ الجباية عما كانت عليه ، وذلك بسببُ 'فشو' الإسلام في القبط ، فأجابته بتلك الكلمة الشهيرة... ويحك إنَّ محمدًا لم ينجيء جابياً ، وإنما جاء هادياً . إذن كان جديراً بهذا الخليفة الورع أن يهتم بالاستقصاء في أسلام البربر ، والإمعان في تأديبهم بآداب القرآن حتى غرسَ فيهم هذه النجابة المعروفة ، وأوقدَ في قلوبهم هذه الحمية الإسلامية التي لم تفارقهم من ذلك اليوم . وذكر ماثر موسى بن نُصير رحمه الله في هذا الباب حتى لم يمسّ الا قليل فظهر الطابعُ العربي على البربر ، ونبغَ فيهم العلماء والخطباء بالعربية الفصحى ، وحسبك شاهداً طارق بن زياد الذي خطب قبل الموقعة التي هُزمَ فيها لندَرِيق ملك الأندلس ، تلك الخطبة الطنثانة التي لو حاول مثلها قُسُّ بن ساعدة ، أو سَحْبَان وائل ، لم يأت بأفصح ولا بأبلغ منها ، ولقد كنتُ أفكر ملياً في أمر هذه الخطبة وأقول في نفسي .. هنا لغزٌ من ألغاز التاريخ لا ينحلُّ معناه بالسهولة فقد اتفقت الروايات على كون طارق بن زياد بربرياً 'فحاً' ، وكذلك اتفقت الروايات أيضاً على كونه هو لا غيره صاحب الخطبة الرنانة الممدودة من انغذجات الخطب العربية فكيف يمكن التلفيق بين هذين الأمرين المتناقضين، وأنسى لطارق البربري مثل هذه العربية ، وكنتُ أفكر في أن طارقاً قد يكون أحسن تعلم العربية كما أحسن ذلك كثيرٌ من أبناء جيله ، وكما تعلّمت العربية رجالُ فارس حتى بُزوا في العربية أقرانهم من أنفُس العرب ، ولكني لم أكن مستريح البال من جهة إتقان طارق للعربي الفصيح وبلوغه فيه هذه الدرجة العليا، وكان يحزُّ في صدري أن تلك الخطبة كانت بلاغتها في المعنى، وإنما وضمها رواة العرب في هذا القالب الفصيح الذي سحر الألباب ، وما زلتُ

متردداً في هذا حتى جاءني ثَلَجُ اليقين على يد الأستاذ عبدالله كنون الذي جزم بأن هذه الخطبة النادرة إنما كانت من جملة ثمرات انطباع البربر بالطابع العربي البحت^١.

ثم أشار الأستاذ الى مثار الخلاف لأوّل الفتح بين العرب والبربر ، فلم تأخذه المصيبة للعرب الذين هو منهم ، بل من أشرف بيوتاتهم ، سبيل المؤرخ الصادق الذي لا يحابي في الحق ، بل سبيل المسلم العامل بمقتضى شريعته ، الحافظ قوله تعالى « إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ » الرّأوي حديث رسوله صلى الله عليه وسلم وهو : « ليس مِنّا من دَعَا الى عَصِيَّةٍ . » فذكر أن مثار النزاع بين الأمتين كان استبداد العرب بوجوه المنافع ، واستشارهم بمناصب الدولة من أيام الامام ادريس رضي الله عنه ، فكان هذا الأمر سبباً للتنافس بين الفريقين في المغرب ، وأنا أقول ان هذا الأمر نفسه قد كان سبباً لتنافسهما في الأندلس منذُ اوائل الفتح ، حتى إن فريقاً من البربر بلغ منهم السُّخْطُ أن تركوا الجهاد في الطُغْرَفُ الشّالي من بلاد الجلالة حيث كان منهم العدد الأغلبُ من المجاهدين ، فأصبحت تلك الثغور عورة ، ورجع الأسبان فاستولوا عليها ، وكان بذلك مبدأ المقاومة الاسبانية ونموُّ شوكتها ، ولم تزل مع الزمن تنمو

١ - يستشكل بعض الباحثين صدور خطبة طارق بن زياد منه وهو بربري "فح" ، يستبعد أن تكون له هذه العارضة القوية في اللغة القرية ، حتى يأتي بتلك الخطبة البليغة . وهو استشكل في غير محله ، (أولاً) لأن طارق بن زياد ان كان أصله بربرياً فقد نشأ في حبر الروبة والاسلام ، بالشرق ولم يكن هو الذي أسلم أولاً بل والده ، بدليل اسمه زياد فانه ليس من أسماء البربر ، ولا شك أنه كان من مُسلّة الفتح المغربي الأول ، وأنه انتقل الى المشرق حيث تولاه موسى بن نصير ونشأ ولده في هذا الوسط العربي الذي كوّنهُ وثقّفهُ . (ثانياً) لأن نبوغ غير العرب في اللغة العربية منذ اعتناقهم الاسلام أمر غير بدّع حتى يستغرب من طارق ، وهو قد نشأ في بيت اسلامي عربي . فعندنا سلمان الفارسي الذي قضى شطر حياته في بلاد عجمية فلما أسلم بعد ذلك تفتق لسانه بالعربية الى أن قال فيها الشعر ، وبينه المضروب به المثل في الاعتزاز بالاسلام واعتباره هو نسله الذي يفرّج به ، اذ افتخروا بقبس أو بنمي ، لا يخفى على أحد.

ومثل ببربري آخر ، غير طارق وهو عكرمة مولى ابن عباس الذي قال فيه الشعبي : ما بقي أحد أعلم بكتاب الله من عكرمة ، ومقامه في العلم والرواية لا يُجْهَلُ ، (ثالثاً) لأنه ليس في الخطبة من صناعة البيان ما يجمع نسبها لطارق ، وبلاغتها في نظرها إنما ترتكز أولاً وبالذات على معانيها ، والماني ليست وفقاً على عربي ولا عجمي . ثم يمكن أن يكون وقع في هذه الخطبة بعض تصرف من الرواة بزيادة أو نقص ، ونحن قد صححنا فيها بالفعل احدى عبارات التي لم تكن واضحة الدلالة على معناها ولكن هذا لا ينفي أصل الخطبة ولا يصح أن يكون حجة للشكك في نصها الكامل. هذا رأينا ولكل وجهة ، والأمير شكيب رحمه الله لشدة المودة التي كان يخصنا بها جعلنا حجة في صحة نية الخطبة لطارق ولنا هناك .

وتزداد حتى آلت الى ما آلت اليه ، مما لا حاجة الى ذكره ، ولو كان قوئنا العرب عملوا يومئذ بقاعدة المساواة الاسلامية ولم يحاولوا أنفسهم على اخوانهم الجدد ، ولم يجعلوا في الاسلام عالياً ونازلاً لما كان وقع ذلك الحرق الذي انتهى في الاندلس بذهاب الملئك ووقوع الملئك ، ونجمت عنه في افريقيا نفسها أضرارٌ جسيمة لا شك فيها .

وقد ذكر صاحب النبوغ المغربي هذه الحقائق في عرض كلامه على تاريخ الحركة الفكرية في ذلك القطر العظيم ، وذلك لما تقدم لنا من اتصال الحركة الفكرية بالحركة السياسية والحركة الاجتماعية الى الحد الذي لا يمكن معه ذكر احدهما من دون ذكر الاخرى ، ونبه الأفكار الى نقطة هي من الأهمية بمكان ، وهي السؤال لماذا لم يكن في المغرب الاندماج تاماً كما وقع في الشام والعراق والاندلس حيث قد القت العروبة يجرانها وعمت السهل والوعر ، ولم يبقَ ثمرة الاقطار عريية لا تفتقر عن جزيرة العرب في شيء ؟ فاورد على الفرق الواقع أسباباً معقولة سنخوض فيها بفصل تال .



أول تقریظ

أول تقریظ

كان أول تقریظ للنبوغ المغربي هو ما كتبه صديقنا العلامة الأديب السيد الحاج محمد بن البيه الناصري حين اطلع عليه وهو يطبع بطوان . فنحن اعتزازاً بصداقة هذا الأخ الكريم واعتداداً برأيه الجليل في الكتاب نجل تقریظه هنا في المقدمة وفاء وذكرى . ونصه :

كل من درس تاريخ الادب العربي في المغرب الاقصى على وجه العموم فانه لا بد ان يخرج بنتيجة طيبة تقضي بان منبیت المقاربة منبیت طیب يخرج نباته باذن ربه بل يشهد لأهله الأوبة الأحرار بالنبوغ الفطري ، والتفوق الفكري ، والذكاء النادر ، والذهن الحاضر .

ومن كابر في ذلك فليستعرض امامه ما تدفقت به يراعة صديقنا الاستاذ الاكبر ، الذي أعظم التاريخ عمله وأكبر ، المرشد المذهب ، والناصح المشذب ، ذي الاعمال الجليلة والخلق السني ، ابي محمد سيدي عبدالله الكنوني الحسني ، لا زال يرتفع في مجبوحه العيش الهني ، في هذه الصفحات البيض التي بيض بها وجه وطنه ، واستخدم في استخراج دفائننا فائق مواهبه وفطنه ، فسد بها في الادب العربي اكبر ثلثه ، وسجل بها في سجل الخلود نبله وعلمه ، بيض الله وجهه يوم تبيض وجوه وأتاه في نفسه وشعبه ما يؤمله ويرجوه ، على اكمل الوجوه .

ايها الصديق العزيز :

لقد فقت بهذا العمل الجليل شيوخلك واقرانك حتى برزت في الميدان ، على الشيوخ والكهول والشبان ، فكنت لهم في هذا البحر الخضم اعظم ريتان ، اذ مثلت النهضة المغربية فكرياً وأديباً وسياسياً في الإبتان ، فاستحققت ان يُرفع ذكرك ، ويخلق بأفكاره فكرك ، فنقول :

يَا بَنِي الضَّادِ تَحَلَّوْا بِالنَّبُوغِ الْمَغْرِبِيِّ
فَهَوَ وَاللَّهُ مِثَالُ الشُّقُوفِ الْعَرَبِيِّ
مَثَلُهُ صَفَحَاتُ مِنْ تُحِيطُ أَدَبِي
يَتَجَلَّى فِيهِ ذَوْقُ لَلْفَتَى الْحُرِّ الْأَبِيِّ
مَوْقِظُ الشَّعْبِ بِشَعْرِ مُشْعِرِ كُلِّ غَيْبِي
وَبَذَرُ كَنْثِيرٍ مِنْ صَحَاحِ الْجَوْهَرِيِّ
بَذَرُ أَعْلَامِ عُلُومٍ فَضُلُوا كُلَّ سَرِي
إِذْ أَتَى بِالْعَمَلِ الْفَذَّ الْجَلِيلِ الْعَبْقَرِيِّ
وَتَحَرَّى صَوْبَ صِدْقٍ فِيهِ بِالْحُرِّ حَرِي
فَلْيَعِشْ حُرّاً طَلِيقاً فِي سَمَاءِ الْفِكْرِ السَّنِيِّ
رَأْفَلاً فِي خَيْرِ عَيْشٍ كَامِلٍ الْقَصْدِ هَنِي

وكتبه عن عجل صبيحة ٢١ صفر الخير عام ١٣٥٧ هـ وهو على جناح السفر عبد
ربه تعالى محمد بن اليمني الناصري الرباطي عفا الله عنه .

مقدمة الطبعة الأولى

بسم الله الرحمن الرحيم
وصلّى الله على سيدنا محمد وآله وسلم

فاتحة الكتاب

هذا كتابٌ جمعنا فيه بين العلم والادب والتاريخ والسياسة وزمينا بذلك الى تصوير الحياة الفكرية لوطنا المغرب وتطورها في العصور المختلفة من لدن قدوم الفاتح الاول الى قريب من وقتنا هذا ؛ فالحركة العلمية وما طرأ عليها من نشاط وفتور ، في جميع العصور ، مبسّطة فيه أحسن البسط . والسياسة واتجاهاتها التي كانت تتخذها بحسب طبيعة كل دولة مُفصّلة فيه تفصيلاً مستوفى . وهكذا التاريخ بقسميه السياسي والأدبي ؛ ومنه التراجم . وقد احتوى جملةً وافرةً من تراجم الملوك والوزراء والقواد والفاتحين والعلماء والأدباء والفقهاء والمتصوفة وغيرهم .

والأدب لا نقول الا أنه الروح المتغلغلة فيه والحلّة التي يبدو فيها للناس بل نقول اننا ما تعرّضنا لغيره من الابحاث الاخرى الا للربط حلقات البحث الموصل الى اكتناه حقيقة ماضينا الادبي وتجليته على منصّة العروس ليشاهده من كان يجادل فيه ومن ثمّ كان اسم هذا الكتاب (النبوغ المغربي في الادب العربي) .

وقد كثر عتب الادباء في المغرب على اخوانهم في المشرق لتجاهلهم إياهم ، وانكار كثير منهم لكثير من مزاياهم ، ولكن أعظم اللوم في هذا مردود على اولئك الذين ضيعوا أنفسهم وأهملوا ماضيهم وحاضرهم حتى اوقعوا الغير في الجهل بهم والتقول عليهم ، وهو معذور وحسبه انه لم يُقصر تقصيرهم بل سعى فأخفق ولا عيب على من بلغُ جهده . ونحن نعتقد اننا بتقديم هذا الاثر الضئيل الى الدوائر العلمية سنزِيلُ كثيراً من التوهّم والتظنن في تاريخ المغرب الادبي وسنرفع حجاب الخفاء عن جانب مهم من الحياة الفكرية لاهل هذا القطر . وسوف ينقضي تجنّي اخواننا من بُحاث الشرق

على آثارنا وتحاملهم على آدابنا لان ذلك لم يكن منهم عن عمد وسوء قصد وانما هو ارتياء واجتهاد .

أما عن ترتيب الكتاب فاننا جعلناه على جزأين وخصصنا الجزء الاول للبحث والاستنتاج والثاني للآثار الادبية . ثم الجزء الأول خمسة عصور : عصر الفتوح ، ونعني بها الفتوح الاولى وفتح مولاي ادريس . وعصر الموحدين وفيه الكلام على المرابطين . وعصر المرينيين وفيه الكلام على الوطاسيين . وعصر السعديين . وعصر العلويين . والجزء الثاني قسمان : قسم المنشور وقسم المنظوم . وانما اخبرنا الآثار الادبية الى الجزء الثاني ولم نذكر ادبيات كل عصر معه رغبة في عدم توقف المطالع وتلهيه عن مواصلة البحث وتكوين فكرة عامة عن جميع العصور مع ما في ضم تلك الآثار بعضها الى بعض من تأليف مجموعة ادبية نفيسة تكون وحدها دليلا ناطقا على ما للوطن العزيز من ماض ادبي حافل . هذا على كثرة ما اغفلناه منها (لأن قرينا قصرت بهم النفقة) ولولا ذلك لخرجت هذه المجموعة مضاعفة عما هي عليه .

وفضيلة هذا الكتاب في أنه ليس لقطر من أقطار العروبة اليوم نظيره ، اذ أن جميع كتب الادب وتاريخه عامة تنظم البلاد العربية جمعاء - ما عدا المغرب بالطبع . وعمل مثل هذا لا يخفى على العارف ما يقتضيه من جهود جبارة ومشاق عظمى واذا تذكرت - مع ذلك - ان مصادر هذا البحث الجليل ، هي أقل من القليل ، ومع قلتها فان كثيرا منها محفوظ في الخزائن الخاصة التي لا طمع في الوصول اليها بجان او مال ، فانه يكون أسبق منا الى طلب الخارج والتماس المعاذر فيما عسى أن يكون وقع لنا من التقصير والزلل والخطأ والوهم ولا سيما مع السرعة في اخراجه للناس لشدة الحاجة اليه وكثرة الطلب عليه وكان يلزم ان يبقى سنين طويلة تحت التهذيب والتنقيح .

وهناك نقطة سوف لا يماري أحد من قراء هذا الكتاب في أنه امتاز بها عن كثير مما تخرجه مطابعنا في هذه الايام وهي أنه ليس فيه حرف واحد كُتِبَ

انتصاراً للنفس او تعريضاً باحد تعلقاً لشخص أيتاً كان ، ولست أبالي بعد هذه ما يوجد فيه من عيب او يوصف به من نقصان .

ولا اضع القلم من يدي قبل ان اتوجه بكلمة شكر وثناء الى الاخ العالم المؤرخ الواعية السيد عبد السلام ابن سودة الذي أمدني بكثير من الفوائد والمعلومات ، وسوَّغني من الخزانة السوديّة القيّمة كل ما لم يكن في اختها الكنونية من الاصول والمستندات . وإني احمد الله على أن لم يجعل عليّ لأحد - غيره - منّة في هذا الامر ، وأغنائي عن « مَدْرَقَة » الخزانين الذين هم مُصيبة العلم في هذا القطر ، حتى المكتبة العامة بالرباط على مساس الحاجة الى كثير مما فيها لم يقدر لي أن ارجع اليها في شيء للعجز بيني وبين السفر في غالب المدة التي كنت أشتغل فيها بهذا الكتاب .

ولا أنجسُ بقية الخلاء ، حظوظهم من الشكر والثناء ، كالاديب السيد محمد العربي الزكاري الذي نقل الكتاب بخطه الجميل من مبيّضته والاستاذ الكبير الحاج محمد بنونة الذي اعتنى بتصحيح جلته ، على كثرة شغله وكتب اسمه بالقلم الكوفي الجميل ، والعلامة السيد محمد داود الذي صحح بعض الملازم ايضا ولم يزل مهتماً بأمره منذ الايام التي كان يصدر فيها السلام حتى لقد همّ بطبعه على نفقته وتقديمه هدية لمشتركي مجلته لو لم يضطر الى توقيفها بعد . والشريفين المرحوم السيد عبد السلام القصري والسيد محي الدين الريسوني والسيد محمد العرفاوي والسيد عبدالله بناني والسيد عبد السلام الطنجي والسيد محمد العربي ابن جلون ، كل واحد على ما بذل من جهد او مال في سبيل اخراج هذا الكتاب والحرص على اتمام طبعه منذ اكثر من ثلاث سنين حين قدّم إلى المطبعة - فالله تعالى يجازيهم جميعا عن العلم والأدب خيرا .

واني لأسجّل لهم هذا الذكر الحسن هنا قياماً بالواجب الذي يحتتمه الاخلاص والمروءة والدين ، فما شكر الله من لم يشكر الناس . نسأله تعالى أن يلهمنا رشدنا ويقينا شراً أنفسنا وينفعنا بما علمنا ويزيدنا علماً وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم .

عصر الفتوح

الْفَاتِحُونَ الْحَقِيقِيُّونَ

لم يتم فتح المغرب كله الا في زمن يزيد بن معاوية سنة ٦٢ هـ ، على يد 'عقبة بن نافع' ، ذلك البطل العظيم الذي غامر بنفسه ، وأقحمها المخاطر في سبيل نشر الدعوة الاسلامية وبثها بهذه الأصقاع . ففي الحقيقة إن هذا الفتح الأول لبلاد المغرب ، وما كان سابقاً عنه ، إنما هو مقدمة وتمهيد له .

وأول ما 'فتح' من البلاد طنجة ، ثم 'وليلي' ، وهما اذ ذاك حاضرتا المغرب ، ثم استرسلت الفتوح بعد ذلك في سائر القبائل المغربية ، التي كانت تنقطع الاطماع دونها لتحصنها ومناعتها وشدة بأسها ، والتي طالما حاولت إيقاف جيش الفتح الاسلامي عند حده ؛ فقاتلها 'عقبة' قتالاً ذريعاً واستنزلها على 'حكمه' . ثم تقدم إلى البتوس ؛ ففتح تارودانت عاصمته ، ومضى لا يلوي على شيء ، حتى وقف بساحل المحيط الأطلسي ، حيث رفع يده الى السماء وقال : « اللَّهُمَّ اشهد أنني بذلت الجهود ، ولولا هذا البحر لمضيت في البلاد أقاتل من كفر بك ، حتى لا يُعبد احدٌ من دونك . » فانتشر الاسلام بالمغرب من أقصاه الى أقصاه ، وبدأ يُصارع الوثنية المستحكمة فيه . ولولا قتل 'عقبة' بنموذجة من مدن الزّاب ، بعد ذلك بسنتين لما بقي لها معه ظهور 'ألبسة' في المدة القريبة . ولكن وقوع ذلك الحادث المؤلم في مثل تلك الظروف الحرجة ، كان ضربة لازب على عدم نجاح الآمال المتعلقة باستقرار الحالة ، بعد الفتح ، واستتباب الأمن والراحة المتيسر في ظلها كل عسير ، والممكن معها تذليل جميع الصعوبات القائمة بأعمال الفاتح الكبير .

اضطرب الحبل بعد موت 'عقبة بن نافع' ، وانتقضت الامور بافريقية الشمالية ، وعمت الفوضى وغلبت الفتن . وجرت بعد ذلك حوادث كثيرة لا شأن لنا بها ؛

١ - هي المدينة الرومانية الأثرية المسماة « قالو بيليس » *Colubilis* الواقعة بمقربة من زرهون ، وكانت عند قدوم الامام ادريس ما تزال عامرة .

فكان من النتائج المتحتمة الوقوع أن توقفت دواليب الحركة الإسلامية ، وضعفت العوامل والأسباب الباعثة ، والمشوكة الى الدخول في الإسلام ، حتى ارتد عنه من كان أسلم حديثاً ، ولم 'تحالط' بشأسته قلبه .

وفي زمن الوليد بن عبد الملك سنة ٨٧ هـ ، قدم موسى بن نصير والياً على افريقية . فقبض على زمام السلطة بيد من حديد ، وضبط الشؤون واستصلح الأحوال ، فأصبحت البلاد ترحب في 'بجوحة الأمن والنظام' ، وتتمتع بسكينة وطمانينة لا عهد لها بهما من قبل . فكان هذا هو الفتح الثاني الحقيقي ، وقد قاتل المرتدين عن الإسلام ، وبذل قصرة في حملهم على الرجوع إليه ، والتمسك بحبله المتين . وكان يشترى العبد يظن انه يقبل الإسلام من بعد أن 'يجرب' فطنته ويُمحص عقله ، ثم يُضي عتقه ويتولاه .

وهكذا شيد صرح الإسلام في 'افريقية' ، والمغرب ، وأقام دعائمه على السياسة الحكيمة والسيرة العادلة ، فلم يبق 'يخشى عليه الانتقاض' بعد هذه الجهود العظيمة ، والمتاعب الجسيمة .

وفعلاً فقد استمر الحال على ذلك سنين عديدة ، انصرف العزم فيها الى تعمير الخراب وتجديد المندثر . وفي اثناها 'فتحت الأندلس بجيوش المغاربة المسلمين الصادق الإيمان' . وكان يُظن أنه لما 'يرجع' السيف الى غمده ، 'ينصرف العزم الى ترقية مستوى البلاد العلمي والأدبي' ، بعد رقيتها عمراناً واقتصاداً وسياسة . ولكن خطراً جديداً أصبح يهدد هذا القطر المغربي القليل الحظ . فلم 'يتح' له ان يجاري الاقطار الإسلامية الاخرى في النهضة والتجدد ، والأخذ بأسباب الحضارة والتمدين ، بعد أن ظن أنه اجتاز دور الإنشاء والتكوين . ذلك هو خطر 'الخوارج' النازحين إليه من الشرق ، المضطهدين من حكوماته ، حيث إنهم لم يحدوا مجالاً فسيحاً لترويج بدعتهم وبث دعايتهم في أمن وأمان مثل المغرب . وقد قاسى منهم الأمرين ، وذاق

١ - 'يطلق مؤرخونا إفريقية على المغرب الأدنى والأوسط ونحن نلهم في ذلك احياناً .

٢ - دخل الدعاة الخوارج الى المغرب من العراق في أوائل المائة الثانية ، فبنوا دعوتهم بين المغاربة وتلقاها عنهم رؤوس القبائل ، ففتت في دعاتهم . وكانت خوارج المغرب إباضية ومفرية ، وهما فرقتان معروفتان من فرق الخوارج .

بسببهم من المحن والأهوال صنوفاً وألواناً ، حيثُ لعبوا دوراً خطيراً في حوادثه السياسية وأثاروا فتناً وحروباً ، كان كلٌ من العرب والمغاربة في غنى عنها . غير أن هذه الحال لم تدُم ؛ فقد شاء الله أن تنجلي ، وينجلي معها كلٌ ضير وضرر على مستقبل البلاد .

فبينما الإيمان متذبذب ، والشعور الديني أخذ بالضعف لبُعد العهد بالهداة المرشدين السَّاري اليهم نور النبوة ، أمثال عُقبة ، وموسى . وفيما الأقوال والخلافات المذهبية رائجة ، ونزغات الملحدين ووساوس اهل الضلالات متسرِّبة الى نفوس هذا الشعب الفطري الساذج ، إذ أتى ادريسُ بن عبد الله ، فاراً بنفسه من الرشيد الذي اضطهد شيعته الخارجين عليه ، وشتَّتْهم شذراً مذرّاً . فكان دخولُ هذا الفرع الزكي الى المغرب فاتحة عصرٍ جديد ، طالما تأقت له النفوس واشترأبت اليه الأعناق .

وما ولىّ عَثْرَى البلاد المغربية ، حتى وفدت عليه القبائل معلنةً بمبايعته ، داخلةً في طاعته . فبدأ أعماله بتأسيس الدولة الادريسية سنة ١٧٢ هـ بمعونه إسحق ابن عبد الحميد الأوربي والي مدينة ويلي ، وسعي مولاه راشد . وهي أول دولة عربية مستقلة في المغرب . وبعد أن توطّد له الملك ، جهّز الجيوش واستنفر المقاتلة ، وخرج غازياً يضربُ في بلاد المغرب طولاً وعرضاً ، حتى دوّخه جميعه ، وقضى على حركات الخوارج وسكّن فتنهم المندلعة السَّيب ؛ فلم تقم لهم بعدها قائمة . ثم تقدّم الى تلمسان ففتحها سنة ١٧٣ هـ ودخلها ، فنظر في أحوالها . وبني بها مسجداً ثم عاد الى ويلي ، وقد استقام له امر المغرب ، وتمّم له اقتطاعه من جسم الخلافة العباسية ، وإزالة كل سلطة دينية او سياسية ، كانت لها عليه . وكان هذا هو ثالث الفتوح الاسلامية المهمة .

كيف انتشر الإسلام في المغرب

هكذا كان تطور الحركة الاسلامية وسيرها بالمغرب مدّة قرن كامل . وهكذا كان حرص ولائهِ العرب شديداً على إشادة معالم الاسلام بهذا القطر ، وتثبيت أركانه وإقامة دعائه . حتى ارتكز فيه ارتكازاً قوياً ، وتمكن من نفوس سكّانه أيما تمكن .

فأصبح وكأننا آوَى الى وطن وسكن هما أعرفُ به منه بهما . فكيف تم ذلك ؟ وما هي العوامل والاسباب التي سنت الوصول الى هذه الغاية ؟

١ / إن المغاربة الذين كانوا قد اعتادوا حياة الفوضى ، وألقوا التمرد والعصيان ، بعد ان تمكن منهم العرب وكسروا شوكتهم ، أصبحوا مقتنعين بعدم إجداء المقاومة عنهم وذهاب كل مجهوداتهم في الدفاع سدّى ، لما رأوه من شدة مراس العرب للحروب وطول مغالبتهم لاعدائهم . فلم يسعهم ، والحالة هذه ، الا الإذعان لسطوتهم وتسليم مقاليد الامور اليهم . فساسوم بالحكمة والانصاف ، وأخذوهم بالعدل والمساواة ، حتى أووا الى ظل الطاعة ، واخلدوا الى الكينة والهدوء .

هناك تذوقوا طعم السلم لأول مرة ، وانصرفوا الى ادارة شؤونهم وتدبير مصالحهم . وبدأوا يشعرون بهناء الحياة ، ويحذون لذاتها .

ثم نظروا فيما تخلف بأيديهم من عادات الوثنية ، وبقايا الديانات الأخرى المهرقة . فلم يجدوا في ذلك شفاء غلثهم ونقع أوامهم ؛ فأخذوا يتطاولون بأعناقهم الى الدين الجديد الذي جاء به الفاتحون الأقوياء ورأوه موفقاً بأغراض الحياة ومآربها ، ضامناً لمصالح البشر في المعاش والمعاد . فكان منه إليه خير داعية ومرشد ، أنار أمامهم السبل ، وأبان لهم معالم الرشد . وسرعان ما استألمهم الى جانبه ، وادخلهم في حظيرته . وكان اكثرُ ظاهراته تأثيراً عليهم ثلاثاً .

١ - يُسرُ شريعته ، وسماحته غير المحدودة . فكلُّ تعاليمه هيّن سهل ، يمكن الإحاطة به والقيام عليه في غير تعب ولا عناء . والإسلام كما لا يخفى ، دين الفِطرة الخالي من التكاليف الشاقة التي تجعله عبئاً ثقيلاً على كواهل معتنقيه . اذ ليس فيه الا ما ينطبق على النظر والمصلحة العامة .

ب - 'حسن' معاملته لكل من يدينُ به ويحتمي بحماه ، فما هو إلا أن يتعلق بسبب من أسبابه ، حتى يُصبح عضواً عاملاً في جماعته الكبيرة ، لا يميزه عن بقية اعضائها بتميز ، ولا يفصل بينه وبينهم فاصل . واعتبر ذلك في ابن الكاهنة المغربية و

المشهورة في التاريخ بطول مقاومتها للإسلام ؛ ومحاربتها للآتين به ، حتى ماتت ' ،
فانه ما لبث ان وُلِّيَ على قومه بعد إسلامه ، ولاته حسن بن النعمان عامل
عبد الملك بن مروان على إفريقية ، الذي قاسى من أمته الأمرين .

ج - رفق الولاة المسلمين وعدلهم ، وتشربهم بروح الديمقراطية الحق التي جاء بها
الاسلام ، مع ما كانوا عليه من الأخلاق الفاضلة والسجايا الكاملة . حتى لقد أكبر
هؤلاء المغاربة ديناً أنجب مثل أولئك الرجال الأفذاذ ، وكوّن مثل تلك الشخصيات
الكبيرة التي يندُر وجودها في التاريخ .

على أن المغاربة لم يُعادوا الإسلام في أول الامر . ولم يُقاوموه تلك المقاومة العنيفة ،
إلاّ لجهلهم بحقيقته ، وعدم إحاطة علمهم بحجاسه ومزاياه . وقد فطن لذلك الولاة
العرب بعد حين ؛ فرتّبوا لهم الفقهاء والقراء يُلقّنونهم العربية ويُبصّرونهم بالدين .
فلما اكتنھوا كنهه ، وعرفوا حقيقته ، وقرّسوا بتعاليمه السامية وآدابه العالية ،
أصبحوا من أكبر دُعائه وأحمى أنصاره . فجاهدوا في سبيله الجهاد الأكبر ، وبذلوا
النفس والنفيس لإبلاغ دعوته الى أقاصي البلاد . فهم الذين فتحوا الأندلس وسهّلوا
طريقها للعرب ، وما زالوا بعد ذلك حاميتها وذادتها الى آخر العهد بها . وهم الذين
اقتحموا مجاهل إفريقية ، وجعلوا الهداية الإسلامية والثقافة العربية إلى السوادين كما
هو معلوم .

استعْرابُ المغاربة

نتيجة "طبيعية" أن يستعرب المغاربة بعد إسلامهم ، ويتعلموا لغة التنزيل الذي هو
دستور الإسلام وأقنومُه ، والمصدرُ الأول لجميع أحكامه وتعاليمه . فأنما بالعربية
تفهم أصوله وفروعه ، وتُقرّرُ شرائعه وأحكامه . على انه اذا كانت الاسلام ، دينُ

١ - هي الكاهنة دأمية التي ترعّت قوما جراوة ، وفاتلت الملمين في جبال أوراس فهزمتهم ، وكان
عليهم حان بن النعمان ولم يلبث أن جاءه المدد من الشرق ؛ فكرّ عليها وأوقع بها ويجوعها
سنة ٧٤٥ هـ .

الظفرة والخلق القويم ، مستعداً بذاته للانتشار ؛ فكذلك هذه الفصحى ، لغة البيان والشعر ، تمتلك برقيتها القلوب ، وتستلِب العقول . وأخيراً بالشعب الذي دخله معاً ، فرحّب بها واحسن اقبالها ، أن يشهد التطور العتيد ، والفتح الجديد في مزاجه وعقليته وحياته العامة .

ولقد سارت العربية في المغرب أول الامر بسير الإسلام ، مترسمة خطاه متبوعة آثاره . حتى إنها لو كانت بقيت من ذلك الوقت تنمو وتُسَمِّر ، لكانت الآداب العربية قد أتت أكلتها من ذلك الوقت أيضاً ؛ ولكن عوائق كثيرة حالت دون سيرها المطرد ، وتقدّمها المستمر . فتأخرت بذلك النهضة الادبية في المغرب ، وتقدمت في الأندلس ، التي 'فتحت بعده' ، حيث لم تجد في طريقها شيئاً من تلك العراقيل .

وأول ما بدأ نشاط هذه الحركة ، في أيام حسان بن النعمان الفسّاني ، أحد ولاة إفريقية من قبل عبد الملك بن مروان . فانه كان من المهدين السبيل لتقدم الثقافة العربية واستقرار الحضارة الاسلامية بالمغرب . فدوّن الدواوين ، ورسم اللغة العربية ، أي جعلها لغة الدولة الرسمية ، فأوجب بذلك تعلّمها على السكّان ، المسلمين وغير المسلمين . ثم بعد ذلك ، أنزل عمر بن عبد العزيز بإفريقية والمغرب عشرة من الفقهاء يعلمون الناس القرآن ويفقهونهم في الدين . كذلك فعل موسى بن نصير ؛ فرتّب عدداً من الفقهاء والقراء للغرض نفسه . وهذه كلها محاولات كان لها نتائجها الطيبة ، وأثرها المحمود في سرعة استعراب المغاربة ، وطبعمهم بالطابع العربي الصميم . كما شوهد ذلك يوم فتح الأندلس ، حيث خطب طارق بن زياد وهو مولى مغربي لموسى بن نصير ، خطبته المشهورة في جيشه الذي أناف على اثني عشر ألف جندي ، فيهم ثلاثمائة فقط على أكثر تقدير من العرب ، فقهرهم الجيش كله ، وأثرت فيه تأثيرها البليغ المشهود في اندفاعه الى حومة الوغى ، وتهافته على الموت بإيمان وحاس . فكيف يفسّر هذا بغير سرعة انتشار العربية ، كالسرعة التي انتشر بها الاسلام ؟

أما الأمر هكذا ، فما الذي قضى عليها بعد ذلك ، وأوقف سيرها لأمد بعيد جداً ؟ هنا مضلة الأفهام ، ومزلة الأقدام . والذي يظهر لنا أنها تلك الفتن والحروب التي نشبت بين العرب والمغاربة فيما بعد . والتي كان مشارها التعصب الأعمى والعنصرية المقيتة . ومما لا شك فيه ، ان بعض الحصون والمعازل المنيعه التي لم يكن

وصلها الإسلام أو وصلها ولم يتمركز فيها ؛ لم يكن للعربية ان تهاجمها أو تتمكن فيها . فالبربرية ، ولو أنها انهزمت أمامها ، لم تجد خيراً من أن تحتفظ بالرّمق الباقي منها في ذلك البعض من الحصون والمعاقل . وهناك حقيقة ، في شَعَفِ جِبَالِ الأَطْلَس ، كان مُتَرَبِّعُها ومُقِيلُها ، حيث بقيت تتنازع البقاء . فآناً تجدُ من يأخذ بضَبْعِها من مُتَعَصِّبَةِ المَغَارِبَةِ ومتحمسين ، أو مَن لَاناقَةَ له ولا جَمَلَ في هذا الامر ، وانما هم بذرُ الشقاق والخلاف بين العنصرين المتمازجين والجنسين المتحدّين ، فتنهض وتستوي ؛ وآناً تبقى مهمة مندوّدة ، لا يؤبّه لها ولا يحفل بها ، وذلك غالب أمرها . بل فيما عدا عَصْرِ الفتوح الذي نحن فيه ، وفيما بعده بقليل ، لم يبق لها بجانب العربية ظهور ولا صَوْلَةٌ مطلقاً . وخصوصاً بعد قيام الدول العربية البحت من بني مرين والسعديين والعلويين ، كما ستجد تفاصيل ذلك في تضاعيف هذا الكتاب .

الصَّرَاعُ بَيْنَ الْعَرَبِ وَالْمَغَارِبَةِ

إذا عُدنا لذكر الصَّرَاعِ القائم بين العرب والمغاربة ؛ فلسنا نقصِدُ صراعاً دينيّاً من نوع ما سبق ، فنكونَ نَقَضْنَا حكمنا بأن المغاربة لم ينتقضوا على الإسلام أولاً ، إلاّ لأنهم جهلوه فعادوه ، وإنّا نقصد هذا الصراع السيامي الطويل الذي ثارت عوامله بين العنصرين المتنافسين فيما بعد ، بسبب تداول الحكم وتنازع السلطة .

ولعل مَثَارَ النزاع أولاً إنما كان لأجل استبداد العرب بوجوه المنافع ، واختصاصهم بالمناصب العالية في الدولة ، فبدأت المطالبة بالمساواة في الحقوق . ثم استفحل الداء فبدأ المغاربة يشعرون بالخطر يتهدّد بهم ، وأنهم ان لم يتلافوا الحال ، ربّما أفضى الأمر الى محو وجودهم السيامي . فهاجت حميتُهم وثارت عصيَّتُهم ، وهبّوا مندفعين كالسيل الجارف يُريدون في البدء نيْلَ حقوقهم المهضومة ، وثبتت مركزهم المتضعع . ثم لما استحلوا الظفر واستمرّوا طعم الظهور ، لم يبقوا قانعين بما حصلوا عليه . فتعلّقت آمالُهم بالملك والإمارة ، وساروا في سبيلهم متحمسين .

ونستشهد التاريخ في إثبات هذا الرأي ؛ فنجد أن أول ما وقع هذا الاستبداد في دولة الإمام إدريس ، حيث يتحدث المؤرخون أنه في سنة ١٨٩ هـ وفدت عليه وفود العرب من بلاد إفريقية والأندلس ، في نحو خمسمائة فارس من القيسية والأزد ومذحج وبني محصب والصدف وغيرهم . فسُرُّ بوقادتهم وأجزل صلاتهم وقرَّبهم ، ورفع منازلهم وجعلهم بطانته دون المغاربة . فاعتزَّ بهم لانه كان فريداً بين هؤلاء ، ليس معه عرب ، فاستوزر عمير بن مصعب الأزدی ، واستقضى منهم عامراً بن محمد بن سعيد القيسي قيس عيلان الخ كما في القرطاس . ولكننا نلاحظ انه لم يظهر أثر سيء هذه السياسة الاستثنائية كما يحسن أن تسمى ؛ في ذلك الحين على عهد الإمام إدريس . ولعل ذلك يرجع لما كان له ولهم من عظيم المنزلة عندهم ، وصدق المحبة فيه . فلم يكونوا ينظرون إلى أعماله بعين الشك والريبة ، كما نظروا إلى أعمال أولاده من بعده . ولأنَّ الأمر في أوائله قلما ينتبه إليه ، فلا يظهر ما يكون نتيجة له أو أثراً عنه . وكلُّ ما نريد أن نقوله ، هو ان هذا السلوك كان مبدأ الاستبداد على المغاربة ومنشأ الخلاف على العرب ؛ وان لم يظهر أثر ذلك إلا بعد أن تدهورت سياسة الإدارة واختلَّت إدارتهم ، فقويت الهمم وشدَّت العزائم على مقاومتهم والسعي في مناوراتهم .

فظهر على مسرح التاريخ موسى بن أبي العافية فجداً في أثر الدولة الفنية يُصلي رجالها نيراناً مُستعيرة ، ويشنُّ عليهم كل غارة شعواء ، حتى قوَّض أركانها المتينة وهدَّ بُنيانها الشامخ وكاد يستأصلهم ، لولا أن أخذت الناس الشفقة عليهم ، فمنعوه منهم ، فأقْلَع عنهم خزيان حقيقاً . وما كاد يستريح ويأخذ في تدبير شؤونه حتى انبرى له بنو عُبيد فساقوه بعصام . ومن هنا تعلم أن المغاربة لم يكونوا يُريدون الانفراد بالسلطة أول الأمر ، وإنما كانوا مغلوبين على أمرهم ومضروباً على أيديهم ؛ فأرادوا الدفاع عن أنفسهم ونيل حقوقهم المضمومة ؛ وإلاَّ فإن أبا عبد الله الشيعي كان يدعوهم إلى بيعة الفاطميين العلويين . وهل كانوا بالمغرب إلاَّ داخلين في دعوة بمائلة ومبايعين للأدارة العلويين ؟ فلا يخلو هؤلاء الخارجون معه إمّا ان يكونوا مغرورين او مُنتهزين الفرصة للحصول على مطامعهم في ظل الدولة الجديدة على حد قول الشاعر :

إذا لم يكن للمرء في دولة امرئ نصيبٌ ولا حظٌ تمَّتْ زوالها

وما ذاك عن بُغْض لها غيرَ أَنَّهُ يَرْجِي سواها فهو يَهْوَى انتَقَالَها

وكان ظهور الدولة الفاطمية على مسرح السياسة المغربية سبباً لقيام نزاع كبير بينها وبين الأمويين أصحاب الاندلس ؛ على المغرب . فما كانت تُتَظَفَأُ لظى الحرب بينهم إلاّ وتشتعل من جديد . وقد لقي المغرب من جرّاء ذلك عَنَتاً شديداً ثم قامت دولة مَغراوَة وبني يَفْرَن فكانت دولةً مغربيةً محضةً ، وانت لم يرَ المغربُ على عهدهما إلا الحروب الطاحنة والفتن الداخلية الماحقة ؛ فكان عهداً مظالمًا توقفت فيه جميع الحركات الناشئة من علميّة وأدبية ، وانقرض العُمران ، وكادت الفوضى تقضي على هذه البلاد ؛ لو لم يتداركها الله بعبد الله بن ياسين مؤسس دولة المرابطين .

الوسط الفكري في هذا العصر

رأينا كيف تأخر فتح المغرب الى ما بعد مُنتصف المائة الأولى للهجرة ، وأنه لم يقرّر قرارُهُ بعد الفتح الأول ، ولا سكنت تأثيرته . بل سرعان ما قتل الفاتح في إحدى جولاته بمدن إفريقية ، وعادت البلاد كلها الى عهد الفوضى والاضطراب ، مما دعا الى تجريد حملة ثانية على هذا الإقليم بقيادة موسى بن نصير ، رأبت منه الصّدع ورتقت الفتق ، وشغلت المغاربة الى حين بالعبور الى الاندلس والقتال في تلك البلاد التي كانت الى الامس القريب تستتبّعُهُم وتتحكّم فيهم .

وفما بين هذين الفتحين كان كثير من المغاربة لم يفهموا حقيقة الدعوة الاسلامية ولم ينظروا الى العرب الا كما كانوا ينظرون الى الرومان والروم وغيرهم ، ممن وغل عليهم ودوّخَ أقطارهم من قبل قصد الاستغلال والاستئثار . ولقد قالت الكاهنة داهية لقومها : « انما تطلب العرب من المغرب مُدنه وما فيها من الذهب والفضة ، ونحن انما نريد المزارع والمراعي ، فالرأي ان تحرّب هذه المدن والحصون ونقطع أطباع العرب عنها » . وبالطبع فان من يكون هذا رأيه في القوم لا يقبل ما أتوا به من شرع ودين ، ولا يتأثر بما يحملونه من علم وعرفان .

ونقلَ عن ابن أبي زيد القيرواني أنه قال : ارتدت البربر اثني عشرة مرة ،

من طرابلس إلى طنجة ، ولا شك أن هذا الكلام إن أريد به الردّة الحقيقية ، فإنما يتنزّل على أقوام من البربر لا على جميعهم ، وإن أريد به الثورة والعصيان وشقّ العصا على الدولة ، فهو صحيح في مجلته . على أن الخلفاء والولاة الذين تتابعوا على حكم المغرب لما تنبّهوا إلى وجوب تعليم المغاربة وتلقينهم مبادئ الدين الحنيف ، فرتبوا لهم الأئمة والفقهاء يعلمونهم ويرشدونهم ، أمنوا بعد ذلك من انتقاضهم وعرفوا السبيل إلى تفهيمهم حقيقة ما جاءوا به . ومن يومئذ لم تعد ثورات المغرب والحروب التي نشبت بعد ، إلا تمرّداً على الولاة الظالمين أو فتنة يوقدّها ذوو الأغراض من الخوارج وأصحاب المطامع السياسيّة ، ويستغلّثون فيها المغاربة البرءاء أسوأ استغلال .

وفي الحقيقة إنّ جناية الخوارج على المغرب لا تعادلها جناية ، فإنها تسببت في انقسامه على نفسه ، وتسليط بعضه على بعض ، مما أدّى إلى بقاءه زهاء ثلاثة قرون طعنة لئران الحروب وميداناً لتجريب الحظوظ ، وهو في كل ذلك إنما يزداد سوءاً حالة من ناحية انتشار الجهل وعدم الاستفادة ، مما أتى به الفاتحون العرب ، حملة الهداية الاسلاميّة ومنوّرّو الشعوب .

وثمة عامل آخر ، إلى جانب انعدام الاستقرار واضطراب الأمن ، كان له اسوء الأثر في عدم استفادة المغاربة مبكراً من علوم العرب وآدابها وبطء نهضتهم وظهور المثقفين فيهم ؛ ذلك هو أن المغرب لبعده عن مواطن العرب الأصليّة أو التي توطنوها بعد الفتح الاسلامي ، لم يتخذ العرب مقراً لهم ومسكناً ؛ وانما كانوا يحلّون في إفريقية وعاصمتها القيروان ، التي كانوا هم المنشئين لها والمصّرين ، أو يجتازونه إلى الأندلس ، حيث يجدون أنفسهم في بلاد شبه مستقلة عن قاعدة الخلافة وطائلة السلطان . ولذلك ما لبث الجناحان المغربيان الشرقي والغربي ، أن نهضا وحلقا ، فتكوّنت في إفريقية الأغلبية ، وفي الأندلس الاموية ، حركات فكريّة وأوساط علمية وأدبية راقية ، بخلاف المغرب الذي لم يكن يستقرّ فيه إلا أفراد قلائل من الولاة العرب ، أو بعض الجنود من جفاة الأعراب الذين ليسوا في قبيل ولا دبير من شؤون الفكر وحياة العلم والأدب . وهم مع ذلك قليل وقليل جداً ؛ حتى إنّ جيش طارق بن زياد الذي فتح الأندلس لم يكن فيه إلا ثلاثمائة عربي أو ثلاثة عشر على الخلاف في ذلك ، وهو اثنا عشر ألفاً ... وقد علّمت أن إدريس الثاني استقبل في سنة ١٨٩ هـ وفود العرب من بلاد إفريقية والأندلس وهم نحو الخمسمائة فارس فقرّبهم واستأنس بهم

لأنه كان فريداً بين المغاربة ليس معه عرب ... وما هو خطر خمسة فردٍ في قطر يُعدهُ سكانه بالملايين؟ فلا جرم إذا بقي المغرب على جهله وتأخره ولم يُسرع إلى التطور والتعريب والنقل عن اساتذته الجُدُد كما نقل عنهم أشقاؤه وخيرانه .

على أننا إن صوّرنا الحياة الفكرية في هذا العصر بهذه الصورة القائمة ، فلا نمره بدون ان 'نشير' الى ذلك البصيص من النور الذي كان يومضُ خلالها أحياناً ، منبعثاً من مصدر الإشعاع بفاس ، أعني جامع القرويين ... فمن المعلوم أن هذا المسجد الذي يعدُّ أقدم جامعة علمية في العالم الإسلامي ، قد أسس في هذا العصر ، وبالضبط في سنة ٢٤٥ هـ . وكانت التي بنّته سيّدة فاضلة من مهاجرة القيروان ، تُسمّى أمّ البنين الفهريّة .

ولما كانت المساجد في المجتمع الإسلامي تؤدي مهمّتين : مهمة دينية ، ومهمة ثقافية . إذ تلقى في أروقتها دروسٌ في مختلف العلوم والفنون ، فإننا نعتقد أن جامع القرويين منذ إنشائه كان مركزاً للدراسات الدينية والأدبية ، التي لم تنقطع منه أبداً ، وأن تأسيسه كان مبدأ الارتكاز للحياة الفكرية في المغرب ، بالرغم من وجود مساجد أخرى سابقة له في فاس وغيرها . ولا أدلّ على ذلك من أن كبار علماء المغرب الذين عرفناهم ، إنما نبغوا بعد التاريخ الذي شيد فيه ذلك المسجد العامر .

على أن مراكز ثقافية أخرى كانت تقوم في كلّ من سبتة وطنجة والبصرة وأصيلا . وهي باستثناء سبتة قد عرض لحركتها فتورٌ أو اضمحلت بالمرّة أثناء هذا العصر نفسه ، وإن تخرّج منها أعلام لهم مكانتهم في تاريخ الحركة الفكرية بالمغرب . إذا فقد كانت هناك دروس ، وكانت هناك هيئة علمية ، وإن كنا لا نعرف من خبر هذه الهيئة وأثر تلك الدروس إلاّ الشيء القليل .

ولعل أهمّ ما نسجّله عن الحياة الفكرية في هذا العصر ، التي قلنا أن تأسيس

١ - مدينة البصرة أسست في عهد الادارسة بالقرب من مدينة القصر الكبير ، وكانت داخلة في ولاية القاسم بن ادريس لما قسم اخوه محمد المغرب بين اخوته . وازدهر عمرانها ثم خربت على يد ابي الفتوح ابن زيري الصنهاجي في العصر نفسه .

جامع القرويين كان مبدأ الارتكاز لها في المغرب ، هو ظهور المذهب المالكي في الفقه ، وسيطرته على المذهب الكوفي الذي كانت له الصّولة في المغرب ، وبالتالي قضاؤه على المذاهب الأخرى التي كانت منتشرة في جهات مختلفة من هذا القطر ؛ كالمذهب الخارجي الذي كانت تعتنقه إمارة بني مدرار في سجلماسة ، والبرغواطي الذي كان باض وفرخ في تلمسان والاعتزالي الذي كان منتشراً هنا وهناك ، كالشيعي الذي يُقال إنَّ قرنه طلع مع نشوء الدولة الإدريسية . وعلى كل حال فإن مذهب مالك لم يتوطد أمره في هذا العصر كمذهب فقهي فقط ، ولكن كعقيدة أيضاً فإن التلازم بين طريقته في الفقه والاعتقاد ، وهي اتباع السنّة ونبذ الرأي والتأويل ، مما لا يخفى

وقد كان الفضل في اتجاه المغرب هذا الاتجاه لرجال من أبنائه البررة ، أرادوا إشباع نهمتهم من العلم ، فتحملوا عن ديارهم ومساقط رؤوسهم ، وضربوا في طول البلاد الإسلامية وعرضها طلباً للمزيد من المعرفة ورغبة في سعة الرواية ، ثم عادوا إلى وطنهم يتفجرون علماً ويلتهبون إخلاصاً .

فأخذ عنهم من لم يستطع الرحلة من مواطنهم ، وقاموا جميعاً بتأسيس قواعد العلم ومعاهد الدّين في مختلف أنحاء البلاد . وهؤلاء أمثال أبي هرّون البصري ، الذي كان أول من أدخل كتاب ابن المؤاز إلى الاندلس ، وأحمد بن الفتح المليبي ، ودرّاس بن اسمعيل ، وجبر الله بن القاسم الفاسي ، وأبي جيدة بن أحمد ، وأبي محمد الأصيلي ، وابن أبي غافر ، وعيسى بن علاء السبّيتيين ، وعيسى بن سعادة الفاسي الذي تنازعه الفقهاء والمحدثون لما توفي بمصر ، كلهم يدّعيه ويقول أنا أحقّ بالصلاة عليه ، وابن سمحون الطنجي بالحاء المهملة ، ومحمد بن يحيى الصديني وأولاده ، وابن الزّويزي الذي كان يضرب به المثل في صحة الفُتيا ، يقولون : لا أفعله ولو أفتاك

١ - هذه النسبة إلى قبيلة برغواطة بالراء . ويقول ابن هشام اللخمي في كتاب لحن العامة وابن دحية في كتاب المطرب نقلاً عن كتاب تنقيف اللسان : إنها باللام ، فالنسبة إليها بلغواطي ولصاحب القرطاس رأي آخر في ذلك ينظر فيه عند الكلام على قتال ابن ياسين للبرغواطيين . ونحن قد اثبتنا هذه الكلمة على ما هو مشهور فيها . وانظر لمعرفة المذهب البرغواطي كتاب القرطاس في الموضع المشار له ، والبيان المغرب في ص ٢٢٦ ج ١ .

به ابن الزُّويزي ، والقاضي ابن محسود ، والحسن ابن عليّ الفاسي ، وأحمد بن العجوز وولده عبد الرّحيم وأحفاده ، وخلف بن مسعود الرُّعيني المعروف بابن أُمَيّة ، وابن أبي مسلم الصّدفي ، وأحمد بن قاسم السّبتي ، وسليمان بن أحمد الطنجي الاسّاذ في القراءات ، وعثمان بن مالك فقيه فاس وزعيم الفقهاء في وقته . كُتِبَ عنه تعليقٌ على المدوّنة هو من أقدم ما كُتِبَ المغاربة عليها ، وأبي بكر بن زويج السّبتي وابن حمود الطنجي ، له شعر في مناسك الحجّ ، وعلي الهوّاري الفاسي ، والحسن القرشي من أهل فاس ، له كتابُ سماء التّصنيف ، وحمزة بن يوسف الحرّار منها ، وابن التّبتّان كذلك وابن يربوع السبتي ، وابن أبي الرّبيع المكناسي ، وعلي ابن هرون الطنجي ، وأيوب بن محمد فقيه المصامدة في وقته ، وأبي القاسم بن محرز ، وسليمان بن عذراء فقيهي المرابطين ، وتونارت بن تيدي من فقهاء المصامدة أيضاً ، ولتاد بن بلين اللّتمتوني ، الذي كان المثل يضرب بفتواه في الصحراء ، وعثمان بن سعيد البصري ، وكان يتفقه على طريقة أهل العراق وسعيد بن خلف الله البصري أيضاً ، له جزءٌ في مسائل من سؤالات أبي هرون البصري وصاحبه عبدالله بن يعيش لأحمد بن ميسّر الاسكندراني ، وقاسم بن محمد المعروف بابن المأموني ، له كتاب المناسك وموسى بن ياسين ، له كتب حسان ، في الحساب والفرائض ، وغيرهم ممن يطول تتبعهم .

ونُتَرجِمُ منهم هنا ، درّاس بن اسمعيل ، وأبا جيدة بن أحمد ، وأبا محمد الأصيلي وابن العجوز ، وأبا عمران الفاسي ، وإن كان الأصيلي استوطن الأندلس بعد رجوعه من رحلته ، والفاسي أقام بالقيروان ردحاً طويلاً من حياته . إلّا أنّنا نذكرهما كعلمين من أعلام هذا العصر البازين .

دِرَّاسُ بْنُ إِسْمَاعِيلَ

هو أبو ميمونة درّاس بن اسمعيل الفاسي ، كان كاسمه ، كثير الدرس . سمع من شيوخ فاس ، ورحل إلى المشرق ، فحجّ وجال في الأندلس وإفريقية ، ولقي جماعة من العلماء . روى الحديث وقرأ الفقه ، وسمع بإفريقية من أبي بكر بن اللّباد وغيره وبالأندلس من شيوخها . ولقي عليّ بن أبي مطر بالاسكندرية ، وسمع منه كتاب ابن

المواز ، وحدّث به بالقيروان ، سمّعه منه أبو محمد بن أبي زيد وأبو الحسن القابسي وغيرهما . ودخل أيضاً الأندلس مجاهداً وتردد بها في الثغر ؛ فسمع منه أبو الفرج عبدوس بن خلف ، وخلف بن أبي جعفر وغير واحد ... وهو من أدخل مذهب مالك إلى المغرب ، وكان الغالب على أهله مذهب الكوفيين . وكان رحمه الله فقيهاً محدثاً حافظاً ، من أهل الفضل والدين . ولما وصل إلى القيروان اطلع الناس من حفظه على أمر عظيم ، حتى كان يقال ليس في وقته احفظ منه . وكان نزوله بها عند ابن أبي زيد . وله بفاس مسجد يُعرفُ به بحميّ مَصمودة ، ويقال إن قبلته أقوم قبلة بفاس ، وبه كان يُدرّس الفقه بعد رجوعه من المشرق . توفي بببلده سنة ٣٥٧ هـ ودفن بخارج باب الفتوح منها ، حيث بُنيت عليه قبة جميلة . ويُحكى أن أبا محمد بن أبي زيد القيرواني قدِم فاساً لزيارته ، فوجده قد توفي في ذلك اليوم فحضّر جنازته وأقام بقبوره ثلاثة أيام . وكان ذلك سبب زيارة القبور بفاس عدد تلك الايام الى الآن . ولما اراد الرّحيل الى بلده أنشد :

قَفْ بِالْمَقَابِرِ لِلتَّوْدِيْعِ يَا حَادِرَ فَإِنَّ فِي جَوْفِهَا قَلْبِي وَأَكْبَادِي

أَبُو جِيْدَه

هو أبو جيدة بن أحمد اليزنسي من أهل فاس ، ومن كبار أهل العلم والفقه والصّلاح بها . له رحلة إلى المشرق ، لما رجع منها خرج أهل فاس كلّهم للقاءه ، الرجال والنساء ، فكان هؤلاء في ناحية وأولئك في ناحية ، وذلك كلّ فرحاً به وإجلالاً له . واشتهر بفتواه في حكم أرض المغرب ، التي أنقذ بها البلاد والعباد من سطوة الجبّارة . وذلك أن عامل المنصور بن أبي عامر لما تغلّب على فاس قال لهم : أخبروني عن أرضكم أصلح هي أم عنوة ؟ فقالوا لا جواب عندنا حتى يأتي الفقيه ، يعنون أبا جيدة ... وكان يعمل في بُستان له خارج المدينة . فلما جاء سألّه ، فقال : ليست بصّالح ولا عنوة ، وإنما أسلم عليها أهلها فبقيت لهم . فقال العامل : خلّصكم الفقيه . وهذه الفتوى هي مضمون كلمة الرئيس الأميركي مُنرو « أميركا للأميركيين » فقد سبقه إليها أبو جيدة بعدة قرون ...

وكان أبو جيدة راسخ القدم في فقه مالك والشافعي معاً ، وله تأليف في الوثائق على طريقة الشافعية . وتوفي رحمه الله سنة ٣٦٥ هـ ودفن خارج باب المسافرين ، أحد أبواب فاس ، حيث يوجد قبره في جامع هناك . وقد ترك الناس تسميتها القديمة وسموها باب سيدي أبو جيدة اعترافاً بفضلته وتحليداً لذكراه .

الأصيلي

هو أبو محمد عبد الله بن إبراهيم بن محمد الأصيلي الإمام المحدث الفقيه راوية البخاري . والأصيلي نسبة إلى أصيلا المغرب ، كما جزم به ابن الطيِّب الشَّرقي محسِّي القاموس ، وأيَّده مرتضى في التاج . وقال : يدلُّ له عدُّه في الغرباء الطائرين على الأندلس . قال أبو الوليد بن الفَرَّاضي : « ومن الغرباء في هذا الباب عبد الله بن إبراهيم بن محمد الأصيلي من أصيلا ، يُكنى أبا محمد . سمعته يقول : « قدمت قرطبة سنة ٣٤٢ فسمعت بها من أحمد بن مطرف وأحمد بن سعيد ، وكانت رحلتني إلى المشرق في محرم سنة ٣٥١ ودخلت بغداد فسمعت بها من أبي بكر الشافعي وأبي بكر الأبهري » وقال في الديباج : « وحجُّ فلقي بمكة سنة ٥٣ أبا زيد المروزي ، وسمع منه البخاري ، وأبا بكر الآجري ، وبالمدينة قاضيها أبا مروان المالكي . وحدث عن الدَّارِ قُطَني ، واضطرب في المشرق نحو ثلاثة عشر عاماً ، وسمع ببغداد عزضته الثانية في البخاري من أبي زيد ، وسمعه أيضاً من أبي أحمد الجرجاني وهما شيخاه في البخاري وعليهما يعتمد » ثم انصرف إلى الأندلس فقرأ عليه الناس كتاب البخاري وانتهت إليه الرئاسة بها ، فوكلَّ قضاء سرْقُسطة وقام بالشورى مدة في قرطبة وغيرها . وصنَّف كتاب الآثار والدلائل في خلاف مالك وأبي حنيفة والشافعي ، وكان من حُفَظاظ مذهب مالك . ومن أعلم الناس بالحديث وأبصرهم بعِلَلِهِ ورجاله ، وتوفي يوم الخميس ١٩ ذي الحجة ٣٧٢ .

أبو العجوز

عبدُ الرحيم بن أحمد الكتامي المعروف بابن العجوز يكنى أبا عبد الرحمن من أهل سبتة . كانت له ولأبيه في قومه كتامة ، وفي المغرب رئاسة بالعلم ، واليه كانت الرحلة في

المغرب في وقته ، وعليه كانت تدور الفتيا . وله عَقِبٌ نجباء في العلم ، عبد العزيز وعبد الرحمن وعبد الملك . رَحَلَ عبد الرحيم الى الاندلس وافريقية ولازم ابا محمد بن أبي زيد واختص به وسمع منه كتاب النوادر والمختصر وغيرهما ، وسمع من درّاس ابن اسمعيل وأبي محمد الأصيلي ووهب بن ميسرة الحجازي . وكانت رحلته في نحو الثمانين وثلاثمائة . اخذ عنه الناس بسبته علماً كثيراً وتفقهوا عليه وسمعوا منه . وكان من حفاظ المذهب العالمين به . روى عنه أبو القاسم بن المأموني وغيره من فقهاء سبته وفاس وتوفي سنة ٤١٣ .

أبو عمران الفايي

موسى بن عيسى بن أبي حاج الغفجومي نسبة إلى غفجوم ، فخذ من قبيلة زناتة . كان بيته بفاس بيتاً معروفاً مشهوراً ، يعرفون ببني حاج ، وله عَقِبٌ ، وكان فيهم نباهة . واليه ينسب درب أبي حاج بالطالعة من المدينة المذكورة . استوطن القيروان وحصلت له بها رئاسة العلم ، وتفقه بأبي الحسن القابسي ، ورحل الى قرطبة فتفقه بها عند الأصيلي وسمع من أبي عثمان وعبد الوارث واحمد بن قاسم وغيرهم . ورحل الى المشرق وحجّ ودخل العراق ؛ فسمع من الفتح بن أبي الفوارس وأبي الحسن المستملي . ودرس الأصول على القاضي أبي بكر الباقلاني ، ولقي جماعة وسمع من أبي ذرّ . قال حاتم بن محمد : كان ابو عمران من أحفظ الناس وأعلمهم ، جمع حفظ المذهب المالكي إلى حديث النبي صلى الله عليه وسلم ومعرفة معانيه . وكان يقرأ القرآن بالسّبع ويجوّده ، مع معرفته بالرجال وجرحهم وتعديلهم . أخذ عنه الناس من اقطار الاندلس والمغرب واستجاره من لم يلقه . وألّف كتاب التعليل على المدونة وخرّج عوالي حديثه في نحو مائة ورقة . قال حاتم بن محمد : ولم ألق احداً أوسع علماً منه ولا أكثر رواية . وذكر أن الباقلاني كان يعجبه حفظه ويقول : لو اجتمعت في مدرستي أنت وعبد الوهاب^١ - وكان اذ ذاك بالموصل - لاجتمع عندي علم مالك ، أنت تحفظه وهو ينظره . وفي كتاب بيوتات فاس لابن الأحمر ان للطغاة من اهل فاس العاملين عليها

١ القاضي عبد الوهاب بن نصر البغدادي ، من اعلام مذهب مالك (٣٦٢ - ٤٢٢) انظر ترجمته في الديباج لابن فرحون - مثلاً - ص ١٥٩

لَمَغْرَاوَة أَخْرَجُوْهُ مِنْهَا لِأَمْرِهِ بِالْمَعْرُوفِ وَنَهْيِهِ عَنِ الْمُنْكَرِ ، وَهُوَ يُفِيدُ أَنَّهُ اسْتَقَرَّ بِفَاسَ بَعْدَ رَجُوعِهِ مِنْ رَحْلَتِهِ ، ثُمَّ خَرَجَ مِنْهَا مُضْطَرَأً .

وَتُوفِيَ فِي سَنَةِ ٤٣٠ هـ وَهُوَ ابْنُ ٦٥ سَنَةٍ .

. . .

هَذَا فِي النَّاحِيَةِ الْعَلِيَّةِ ، وَفِي النَّاحِيَةِ الْأَدْبِيَّةِ ، يُمْكِنُ أَنْ نُشِيرَ إِلَى هَذِهِ الظَّاهِرَةِ الْعَجِيبَةِ الَّتِي تَتِمُّثَلُ فِي اسْتِعْرَابِ جَمِيعِ قَبَائِلِ الشَّامِلِ الْمَغْرِبِيِّ ، مَا عَدَا الرِّيفَ نَجِيثَ تَسْوِسِيَّتٍ فِيهَا الْبَرْبَرِيَّةُ تَمَامًا . وَيُقَالُ إِنَّ الْفَضْلَ فِي ذَلِكَ يَرْجِعُ لِلْأَدَارَسَةِ الَّتِي كُنْتُمْ آوُوا إِلَيْهَا بَعْدَ خُرُوجِهِمْ مِنْ فَاسَ وَأَسَّسُوا بِهَا دَوْلَتَهُمُ الثَّانِيَةَ عَلَى يَدِ الْقَاسِمِ كُنْتُونَ مِنْهُمْ ، تِلْكَ الدَّوْلَةُ الَّتِي كَانَتْ قَصَبَتُهَا فِي قَلْعَةِ حَجَرِ النَّسْرِ بِحِجَلِ مُمَامَةِ^١ . وَلَا يَبْعُدُ ذَلِكَ عَلَى النَّظَرِ ، فَإِنَّ اكْتِنَافَ هَذِهِ الْقَبَائِلِ بِمَدِينَةِ سَبْتَةَ وَطَنْجَةَ وَأَصِيلَا وَالْبَصْرَةِ ، وَكُلِّهَا كَانَتْ مَرَاكِزَ حَرَكَةِ أَدْبِيَّةٍ نَشِيطَةٍ ، مِمَّا يَقْوِيْ بِوَاعِثِ هَذَا الِاسْتِعْرَابِ . وَلَعَلَّ أَقْوَى الْأَدْلَةِ عَلَى صَحَّةِ هَذَا الْقَوْلِ ، هُوَ انْتِشَارُ السَّلَالَةِ الْأَدْرِيسِيَّةِ فِي هَذِهِ الْقَبَائِلِ انْتِشَارًا لَا يُوْجَدُ لَهُ نَظِيرٌ فِي نَاحِيَةِ أُخْرَى مِنْ نَوَاحِي الْمَغْرِبِ . وَهُوَ دَلِيلٌ بَاقٍ إِلَى الْآنَ ، يَحْمِلُنَا عَلَى الْقَوْلِ إِنَّ تَأْثِيرَ الْأَدَارَسَةِ فِي اسْتِعْرَابِ الْبَرْبَرِ وَتَطَوُّرِهِمُ الْفِكْرِيَّ اكْثَرَ مِمَّا نَظَنُّ .

فَإِذَا ذَهَبْنَا نَقِيسُ عَمَلَهُمْ فِي هَذَا الْبَابِ بِعَمَلِ أَمْرَاءِ 'نُكُور'^٢ أَبْنَاءِ صَالِحِ بْنِ مَنصُورٍ ، وَقَدْ تَأَسَّسَتْ هَذِهِ الْإِمَارَةُ فِي الرِّيفِ قَبْلَ قِيَامِ الدَّوْلَةِ الْأَدْرِيسِيَّةِ وَبَقِيَتْ

١ - وَقَعَ فِي وَهْلِنَا لِأَوَّلِ مَرَّةٍ مَرَرًا بِهَذَا الْمَوْقِعِ الْحَصِينِ الْمُسَمَّى إِلَى الْآنَ بِحَجَرِ النَّسْرِ فِي قَبِيلَةِ مُمَامَةِ أَنَّهُ الْمَكَانُ الَّذِي أَقَامَ فِيهِ الْأَدَارَسَةُ دَوْلَتَهُمُ الثَّانِيَةَ وَلَمْ يَجِدْ مِنْ نَعْتِدِ عَلَيْهِ فِي ذَلِكَ وَنَعْتِدُ بِهِ ، سِوَى الْأَوْهَامِ وَكَلَامِ الْعَوَامِ . حَتَّى وَقَفْنَا عَلَى مَا يَثْبُتُ ذَلِكَ عِنْدَ النَّسَابَةِ ابْنِ رَحُونَ فِي كِتَابِهِ شَذُورِ الذَّهَبِ ، فَإِنَّهُ جَزَمَ بِهِ فِي مَوَاضِعَ مِنَ الْكِتَابِ الْمَذْكُورِ وَقَالَ أَنَّهُ مُعْرِفٌ أَيْضًا بِحَجَرِ الشَّرَفَاءِ وَبِدَارِ الْفَرَارِ لِقَرَارِ الْأَدَارَسَةِ فِيهِ عِنْدَ تَغْلِبِ الدَّوْلِ عَلَيْهِمْ وَإِنْ كَانَ وَقَعَ لَهُ فِي أَجْدِ الْقَوْلِ أَنَّهُ فِي قَبِيلَةِ بَنِي زَجَلٍ حَوْلَ شَفْتَاوَنَ . وَالْأَوَّلُ اثْبَتَ وَمِثْلُهُ عِنْدَ النَّبِيِّ الرِّيَّوْنِيِّ فِي كِتَابِ فَتْحِ الْبَلَدِ الْخَيْرِ . وَعَلَيْهِ فَمَا فِي دَائِرَةِ الْمَعَارِفِ الْإِسْلَامِيَّةِ مِنْ أَنَّ هَذَا الْمَوْقِعَ غَيْرُ مَعْرُوفٍ ، فِيهِ فُصُورٌ .

٢ - مَدِينَةُ النُّكُورِ بِالزَّيْفِ أَسَسَهَا إِدْرِيسُ بْنُ صَالِحِ بْنِ مَنصُورٍ سَنَةَ ١٣٢ هـ . وَخَرَّبَهَا يُوسُفُ بْنُ تَاشْفِينٍ سَنَةَ ٤٧٣ هـ .

إلى ما بعد انقراضها ، نجد أنه لا نسبة بينهما في ذلك ؛ وهذا الريف ما يزال يرطن بالبربرية لحد الآن .

وباستثناء هذه الظاهرة التي نسجلها بكل ارتياح ، نرى أن الغموض يساور الناحية الأدبية في هذا العصر أكثر من الناحية العلمية . فإذا استطعنا أن نعدّ أفراداً من العلماء ونترجم لهم ولو على سبيل الاجمال ، فإننا لا نستطيع ذلك بالنسبة إلى الأدباء . وغاية ما يمكننا أن نفعله هو أن نذكر أسماء بعض هؤلاء الأدباء الذين ورد ذكرهم عرضاً في الكتب وفي المنازعات السياسية او المذهبية بسبب بيت او بيتين من الشعر الذي يرويه لنا هذا المؤلف أو ذاك ؛ على أنه مما قيل في الموضوع .

ولعل من ألمع هذه الأسماء وأشهرها في هذا المعنى اسم ادريس الثاني ثم ولده القاسم ، وعُبيد الله بن يحيى بن ادريس ، والحسن الحجام ، و ابراهيم المؤبل وعبدالله الكفيف الطنجي وسعيد بن هشام المصمودي و ابراهيم بن محمد الأصيلي ، و ابراهيم ابن أيوب النكوري . وسوف نورد لبعضهم في الجزأين الثاني والثالث بعض الآثار .



عصر المزابطين

سِيَّاسَةُ الدَّوْلَةِ

في ذاك الجوِّ السياسي المضطرب الذي خضع له المغرب مدى ثلاثة قرون أو تزيد ، ومن صميم الشعب المغربي الذي سُمّ حياة الفوضى والقلق ، قام الرجلُ الذي رسم لهذه البلاد خطّة العمل ، وقاد أهلها إلى قرارة المجد ومستوى العظمة ، فمرفوا واجبهم من يومئذ وما تخلّفوا عنه قط . وكان الرجل تلميذاً غير مباشر للشيخ أبي عمران الفاسي السابق الذكر ، والذي نفّته السلطة الغاشمة من بلده فاس لأمره بالمعروف ونهيه عن المنكر . فنحن إذاً بازاء خريج لتلك المدرسة الإصلاحية التي لم يتح لها أن تقوم بدورها في أرض الوطن فأدّته من بعيد على أحسن الوجوه .

ويتعلّق الأمر بأحد زعماء قبيلة صنهاجة العظيمة وهو يحيى بن ابراهيم الكدالي، فانه لما حجّ ومرّ في طريق عودته بالقيروان ، اجتمع بأبي عمران هذا وتحدّث إليه عن سوء الحالة الاجتماعية بالمغرب وما عليه القبائل من الجهل باصول الدين وفروع الشريعة . فبعث معه بكتاب إلى تلميذه واجّاج بن زلو اللعطي وكان فقيهاً صالحاً وإقامته بمدينة نفّيس بالجنوب المغربي ، يأمره فيه ان يبعث معه من تلاميذه من يصلح للدعوة والارشاد ، ويصبرُ على لأواء الصحراء . ولحسن الحظ فقد وقع اختياره على تلميذ من الحدّاق الأذكياء الفقهاء النبلاء أهل الدين والفضل والتقوى والورع والأدب والسياسة والمشاركة في العلوم ، كما وصفه ابن أبي زرع، هو عبدالله بن ياسين الجزولي؛ فخرج مع يحيى بن ابراهيم حتى وصل بلاد كدالة من قبائل صنهاجة ، وهم ولمتونة إخوةٌ يجتمعون في أب واحد . وكانوا يسكنون آخر بلاد الإسلام ، وبحارِبون السودان ، ويليه من جهة المغرب البحر المحيط^١ .

١ - هكذا حدد مواطنهم الاول صاحب القرطاس ، وتلك عبارته . ويعني بآخر بلاد الاسلام الصحراء الكبرى فقد كانت غاية ما انتهت اليه الدعوة الاسلامية اذ ذاك ثم بلغت بفضل جهود المرابطين الى ما وراء التخوم الصحراوية من افريقية السودان .

دخل عبدالله بن ياسين بلاد صنهاجة بقصد تعليمهم القرآن وتفقيهم في الدين فوجد القوم على جهل مُطبق لا يفرّقون بين حلال وحرام ، ليس معهم من الاسلام الا الشهاداتات ويتزوجون اكثر من أربع نسوة ، فجعل يقرئهم القرآن ويبين لهم شرائع الاسلام. ويأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ، فتثقلت وطأته عليهم ونفرت منه قلوبهم ، وحدث أن مات حاميهم والذاب عنه الزعيم يحيى بن ابراهيم فتوفرت الأسباب على منابذته والاعراض عنه ؛ فخرج مع من ثبت منهم على دعوته الى رباط ناء في اقاصي الصحراء حيث أقاموا يعبدون الله ويطبقون تعاليم دينه .. وقيل إن يحيى بن ابراهيم كان ممن خرج معه الى هذا الرباط بعد ان تنكّر له قومه ونبذوا طاعته ولم يمت إلا بعد ذلك . وأيًا كان فانهم ما لبثوا هنالك الا قليلا حتى تسامع بهم الناس فكثرت عليهم الوارد ونزع اليه التوّابون ممن جفوه قبل . وبلغ عدد من اجتمع عليه من أشراف صنهاجة نحو ألف رجل ، فسماهم هو أو سماهم الناس « المرابطين » من أجل مُلازمتهم لذلك الرّباط .

ولم يزل عبد الله بن ياسين مُقيماً برباطه على الحالة التي وصفناها حتى قويت جموعه وكثرت وفوده ، فتدبّرهم الى جهاد من خالفهم من قومهم وقال لهم : « يا معشر المرابطين ! إنكم جمعٌ كثير ، وانتم وجوه قبائلكم ، ورؤساء عشائركم ، وقد أصلحكم الله تعالى وهذاكم الى صراطه المستقيم فوجب عليكم أن تشكروا نعمته عليكم ، وتأمرؤا بالمعروف وتنهؤا عن المنكر وتجاهدوا في الله حق جهاده . فقالوا له : ايها الشيخ المبارك ؛ مُرنا بما شئتَ تجددنا سامعين ، ولو أمرتنا بقتل آبائنا لفعلنا فقال لهم : « اخرجوا على بركة الله وأنذروا قومكم وخوفوهم عقاب الله وابلغوهم حجّته ؛ فان تابوا ورجعوا الى الحق وأقنعوا عما هم عليه فحكّوا سبيلهم ؛ وإن أبوا من ذلك وتنادوا في غيهم ولجّوا في طغيانهم استعنّا بالله تعالى عليهم وجاهدناهم حتّى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين » .

وقد كان هذا هو دستور الدولة المرابطية الذي سارت عليه منذ قيامها ، وقانونها الاساسي الذي لم تحيد عنه قط . إنها قامت لاصلاح الفساد وتطهير المجتمع من عوامل الشر ونشر الفضائل الدينية وتطبيق الشريعة الاسلامية كما جاء بها صاحب الرسالة صلى الله عليه وسلم . وهي كما عملت وفق هذه المسطرة في قبائل المغرب التي أفسدها الدعاة والخوارج من أصحاب البدع والنزعات الضالة ، حتى أنقذ الله بها هذا القطر

من الهاوية التي كان قد تردى فيها ، فانها قد سارت على نفس المسطرة لمّا أصبحت مدعوةً إلى القطر الأندلسي الذي أفسده تحلل ملوك الطوائف من كل الالتزامات الدينية والسياسية وانغماس أهله في الملاهي والملاذات .

ولقد عمل المرابطون مع عبدالله بن ياسين على تثبيت دعائم الاسلام في بلاد صنهاجة أولاً ثم في بقية البلاد كسجلماسة ودرعة وسوس ، إذ كانت على ما كان عليه أهل صنهاجة من الجهل والزيغ والفساد . وكان عبدالله يرتب العمال في كل البلاد التي يحل بها ويأمر باقامة العدل واطهار السنّة وأخذ الزكاة والعشر من القبائل وإسقاط ما سوى ذلك من المغارم التي طالما كانت السبب في تمردهم وانحرافهم عن الجادة . وقاتل في مدينة تارودانت قوماً من الروافض يقال لهم البجليّة ، منسوبين إلى عبدالله البجلي الرافضي ، كان قدّم إلى سوس حين قدم عبّيد الله الشيعي الى افريقية ، فأشاع هنالك مذهبه فورثوه بعده جيلاً عن جيل ، لا يرون الحقّ إلا ما في أيديهم ، فطهر تلك الناحية من بدعتهم وردّهم الى السنّة . كما قاتل برغواطة ببلاد تامّسنا الساحلية المعروفة اليوم بالشاوية ، وكانوا أهل نخلة فاسدة وزيّغ عن الدين .

وفي أثناء المعركة التي انتهت باستئصال شافيتهم ، توفي رحمه الله شهيداً مبروراً ، وقد قضى في تربية المرابطين وإعدادهم للمهمة العظمى التي قاموا بها مدة حكمهم للمغرب ؛ إحدى وعشرين سنة ، لأنّ دخوله للصحراء مع يحيى بن إبراهيم كان سنة ٤٣٠هـ واستشهاده كان سنة ٤٥١هـ ، وهي مدة لا تعدّ شيئاً إذا قسناها بالنتائج التي حصلت فيها . فقد طهر المغرب من الظلم والفساد ، وتوحّدت أقاليمه بعد طول الفرقة ، وقطّع دابر الخلاف المذهبي والسياسي الذي كان سبباً في كثير من الحروب الداخلية العنيفة ، وتمحضت جهود المغاربة من يومئذ لبناء مستقبل بلادهم وإحلالها المحلّ اللائق بها بين بقية بلاد الاسلام والعروبة .

وكان يلي أمر المرابطين حين وفاة ابن ياسين الأمير ابو بكر بن عمر اللمتوني الذي لم يلبث أن سلم سلطاته لابن عمه يوسف بن تاشفين وانقطع هو الى الجهاد في بلاد السودان مع الاشراف على شؤون الصحراء .

وكان يوسف ذا مهمة عالية وحزم وعزم ؛ فلما أَسَدَ اليه الأمر عزّم على تصفية ملك المغرب وانتزاع ما بقي منه بيد مغفراوة وبني يفرن . وهكذا استولى على

فاس ونقل كرسيّ المملكة منها الى مراكش التي بناها سنة ٤٥٤ . ثم طمح الى تمكك المغرب الأوسط فلم ينشأ أن أخذ عاصمته تلمسان من يد مغراوة ، ثم افتتح مدينة كَنْس ووهران وجبل وأنشريس وجميع أعمال شلف الى الجزائر . وفي سنة ٤٧٥ كان قد صفاه أمر المغربيين معاً . ثم ان مُستخلفه الامير ابا بكر بن عمر كان قد مضى الى الصحراء يجاهد في سبيل الله حتى بلغ حدود السودان ونهر النيجر ، ولما توفي سنة ٤٨٠ دخلت هذه البلاد كلها في طاعة يوسف ، فعظم بذلك أمره وذاع صيته في البلاد . ومن ثمّ توجهت اليه انظار أهل الأندلس وتعلّقت به آمالهم في النجدة والانقاذ .

وكانت بلاد الأندلس منذ سقوط الدولة الأموية ، تخضع لملوك الطوائف الذين تنازعوا النفوذ فيما بينهم ، واستبدوا بولاياتها المختلفة . ولم يكن عندهم غناء في دفاع العدو المغير ، لتفرّق كلمتهم وانهماكهم في اللهو والمجون ، على حين أن عدوهم أخذ لهم بالمرصاد ، يستخلص منهم الجزية لقاء الكفّ عن قتالهم ، ولا يفتأ يتنقّص بلادهم من اطرافها مهدداً لهم بالاكنتساح الشامل عند اول فرصة . وذهاباً مع الغاية في التهديد قام الفُئس السادس ملك قشتالة برحلة جاس فيها خلال ديار ملوك الطوائف حتى وصل الى ساحل المحيط من شاطئ مدينة طريف وأقحم بفرسه في اليم وقال هنا يجب ان انتهي يجنودي . وقد هلع المسلمون لذلك اشدّ الهلع وايقنوا بالخطر الداهم ان لم يتداركهم الله بلطفه ، وليأسهم من ملوكهم فانهم لم يكونوا ينتظرون الغوث إلا من الخارج وقد فكّر أهل قرطبة في الاستنجاد بعرب افريقية ، فقال لهم قاضيهم أبو بكر بن آدم : « أخاف إذا وصلوا اليّنا ان يخربوا بلادنا كما فعلوا بافريقية ويتركوا الفرنج ويبدأوا بنا . والمرابطون أصلح منهم واقرب اليّنا » . وشعر ملوك الطوائف بانحراف رعاياهم عنهم وسوء رأيهم فيهم وتشوفهم الى المرابطين ، فلم يسهم تحت ضغط الرأي العام الا استصراخ يوسف بن تاشفين والاحتماء به من العدو المشترك . وهكذا عبر المعتمد بن عباد ملك اشبيلية الى العدو ، فلقي يوسف وابلفه رغبة أهل الاندلس في الجواز اليهم ونصرتهم على عدوهم ؛ فما كان منه إلا أن لبّى دعوتهم واستنفر الجيوش والمقاتلة الى الجهاد . وعبر البحر الى الاندلس ؛ فلقية أهلها وملوكها وعلى رأسهم المعتمد بن عباد والمتوكل بن الافطس وغيرهما . ونازل الفئس السادس وجيشه العظيم بسهل الزلاقة من ناحية بطليوس فانتصر عليه وهزمه شرّ هزيمة حيث لا بالفرار في ثلثة من الجند مستتراً تحت جناح الظلام .

وكانت هذه الواقعة الحاسمة في يوم الجمعة ١٥ رجب ٤٧٩ هـ وتعرف بالزلاقة ، وبها تنفس الاندلسيون الصعداء وامنوا على انفسهم ودينهم . ولما انتهت المعركة اجتمع ملوك الطوائف ، واقبلوا على يوسف هنيئونه بالفتح المبين ، وحيّوه بإمرة الاسلام فصار يدعى امير المسلمين من ذلك اليوم ، وهو أول من تلقب به من ملوك الاسلام فيما نعلم ، ولم يجزّوه هو ولا أولاده من بعده ان يتلقبوا بأمر المؤمنين تأديباً مع خليفة بغداد ، وان كانوا قد بلغوا في قوة النفوذ والسلطان ما لم يكن للخليفة منه قليل ولا كثير .

ورحل يوسف الى المغرب بعد ما ترك قطعة من جيشه تحت تصرف ملوك الاندلس لحماية الثغور ودفاع العدو ، ولكن هؤلاء سرعان ما راجعوا حياتهم العابثة ، وعادوا الى التناحر فيما بينهم وضيعوا الجند وعرضوا بلادهم للفقد من جديد . فجاء الصريح الى يوسف من فقهاء الاندلس واعيانها وعامتها فاسرع اليهم ، وكان المدعو قد أخذ في الانقضاء على بلاد الاسلام ، فأوقفه عند حده ، وقضى على ملوك الطوائف وضم بلاد الاندلس الى المملكة المغربية ، وبذلك أنقذها من الاضمحلال ومن المصير الذي لقيته بعد نحو اربعة قرون .

وتوج يوسف حياته الحافلة بتساج الصدق والاخلاص فأعلن انصواءه تحت لواء الخلافة الاسلامية وكتب للخليفة العباسي أحمد المستظهر بالله يُبايعه ويطلب منه تقليداً على ما بيّنه من أعمال الأقاليم فأجابته لذلك وخاطبه بأمر المسلمين ، وناصر الدين . وكان رسوله الى الخليفة الفقيه عبد الله بن محمد بن العربي الماعفري الاشبيلي وولده القاضي أبا بكر بن العربي الإمام المشهور . وبعد ورود التقليد عليه من الخليفة ضرب السكّة باسمه ونقش على الدينار « لا إله إلا الله محمد رسول الله » وتحت ذلك أمير المسلمين يوسف بن تاشفين . وكتب على الدائرة « ومن يبشّع غير الإسلام ديناً فلن يُقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين » وكتب على الصفحة الأخرى « عبد الله أحمد أمير المؤمنين العباسي » وعلى الدائرة تاريخ ضربه وموضع سكّته . وطار ليوسف بهذه السياسة الحكيمة والسيّرة النيرة ذكرٌ جميل في أقطار المشرق والمغرب ، حتى خاطبه أقطاب الفكر في العالم الإسلامي حينئذ ، من أمثال الإمام الغزالي والقاضي أبي بكر الطرطوشي . ويُقال إن الغزالي كان عقد النية على زيارته فتوفي يوسف قبل أن يتهيأ له ذلك .

وقد ردَّ يوسف بسياسته هذه المغرب إلى أحضان الجامعة الإسلامية بعد أن كان الولاة قبله قد اقتطعوه من جسمها .. وتلك « الخطئة » مستمدة من تعاليم عبد الله بن ياسين التي كان يُلقبها إلى تلاميذه المخلصين ومنهم يوسف بن تاشفين الذي قام عليها أصدق قيام . ولو كان ملوك الاسلام يحملون مثل هذا الشعور الذي كان بحمله يوسف ، ويسرون بهذه السيرة التي سار عليها لما تفككت « عرى المملكة الاسلامية » ولما صار المسلمون بعد ذلك خولاً للأجانب تتداولهم أيدي الاستعمار في الشرق والغرب ؛ فهم لا يُنقذهم من سيطرة الأغيار إلا هذه السياسة الرشيدة التي هي سياسة الجامعة الاسلامية .

يوسف والمُعتمد

من الثابت تاريخياً أن يوسف بن تاشفين لم يعد إلى الأندلس بعد معركة الزلاقة ويستخلص هذا القطر من أيدي ملوك الطوائف إلا بعد أن كتب إليه العلماء والخاصة والعامّة يناشدونه الله ورابطة الاسلام أن يبادر لإنقاذهم من سيطرة ملوك السوء الذين انصرفوا بعد رجوعه للمغرب ، إلى لهوهم ومجونهم وأغفلوا نصائحه في نبذ التحالف والتدابير ، وأهملوا أمر الجند وضنوا عليه بالمؤونة ، فاصبحت البلاد من جديد معرضةً لحملات أعدائهم اليقظين المنتهزين للفرص . وحضه علماء المغرب وساسته وقوادته وزعماء الرأي فيه على تلبية طلب هؤلاء ، فتردّد في الأمر وبقي يقدم رجلاً ويؤخر أخرى . ثم كتب إلى علماء المشرق وعلى رأسهم يومئذ حجة الاسلام الغزالي فأفتوه بوجوب المسارعة إلى ذلك ، وإلا فيكون مؤاخذاً أمام الله والناس والتاريخ .

فلما رأى إجماع الأمة ، علماءها وساستها ورجال الحرب فيها على رأي واحد ، عزّم متوكلاً على الله وسار إلى الأندلس أما أهلها فقتلوه بالفرح والسرور ، وأما هؤلاء الملوك المعبر عنهم بملوك الطوائف : فمنهم من القى القياد ولم يدفعه الهوس إلى التهور في القتال غير المجدي ؛ ومنهم من تعثت واستحدثت من الضعف قوة لم يكن يستحدثها في محاربة من كان يؤدي إليهم الخراج من ملوك النصرانية ، فكاشف جيش المرابطين بالعداء وناشبه القتال . وكان من بين هؤلاء المتوكل بن الأفطس صاحب بطليوس الذي جُنب إلى مصرعه فانتهى حديثه من يومئذ ، والمعتمد بن عباد

الشاعر الغزّال الرقيقُ الذي أوصى يوسف رجاله بالعناية به فأبقوا عليه ، ولكنه ملأ الدنيا بكاء وعويلا ..

وهل تدري ما فعل به بعد ؟ لقد كانت معاملته له بحيث لو لم يتفق المؤرخون على روايتها لقلت إنها من المستحيل على ملك بربري متوحش ، كما يطيبُ لكثير من كتابنا وأدبائنا المهذّبين أن يصفوه . لقد عامله بمالمُ تعامل به أوروبا الحديثة نابليون العظيم^١ وشستان بين نابليون والمعتمد ! لقد أرسله الى طنجة عروس المغرب ، فلبث فيها ثم في مكناس شهوراً الى أن فرغ الفاتح من أعماله وتقرّر مصيره في أغمات . لا تقل وما أغمات ؟ وابن تجيء أغمات من اشبيلية ؟ فلم تكن أغمات إحدى القرى المهجورة في بلاد الصحراء والجزر المنقطعة في ظلمات المحيط ، فهي كانت عاصمة الدولة قبل بناء مراكش ، ويقول المؤرخون عنها انها مدينة كبيرة في ذيل جبل كثير الاشجار والثمار والأعشاب والنباتات . ونهرها يشقها وعلى النهر أرحية كثيرة تدور صيفاً ، وفي الشتاء يجمدُ النهر ويمرُّ عليه الناس والدواب . وأهلها ذوو يسار وأموال ، ولهم على أبوابهم علامات تدلُّ على مقادير أموالهم . زاد ياقوت : وليس بالمغرب فيما زعموا بلدٌ أجمع لأصناف الخيرات ولا أكثر ناحية ولا أوفر حظاً ولا خصباً منها .

وفي كلتا المدينتين طنجة وأغمات لم يكن بمنزلة المحبوسين السياسيين التي نعرفها في هذا العصر ، بل كان مُطلق الحرية ليس عليه أدنى حَجَر ، ولا على من يريد زيارته والوصول اليه . وقد اجتمع به شعراء طنجة وأدباؤها وطارحوه أحاديث الشعر والأدب كما وقد عليه جلُّ أدباء الأندلس وهو في أغمات ، وكانوا يقضون معه الأوقات الطويلة . وكذلك غيرهم من كل من يمتُّ له بصلة أو يُدلي إليه بسبب ، وحسبك انه استدعى ذات مرة طبيب يوسف الخاص لمعالجة بعض حريمه فلبى هذا طلبه ، ولو علم كراهية يوسف لذلك لما أقدم عليه .

فليت شعري ماذا يُنكر أصحابنا من هذه المعاملة التي هي في منتهى التسامح

١ - المقارنة هنا في قوة السلطان وعظم الشخصية لا غير والمقصود إظهار نبل يوسف على تقدم زمنه بالنسبة الى أوروبا الحديثة .

مع رجلٍ أقلّ ما يُقال فيه أنه أعطي مُلكاً فلم يُحسِن سياسته ، وقد أنكر شعبه تصرّفاتَه ، وعرض الفردوس العربي للفقد في مُنتصف القرن الخامس الهجري بعَبَثِه واستهتاره ، ثم حلّ السّلاح على حماة البلاد الذين أنقذوها من السقوط في يد العدو على حين انهم لم يفرغوا بعدُ من لَمّ شعنها ورأب صدعها ؟!

إننا مهما تلمّسنا الأريحية الأدبية وأخذ منا الجمال الفنيّ واستحوذ علينا الخيال الشعري ، لا يبلغ بنا ذلك إلى حدّ إهمال شخصيتينا والتهاون في حفظ كيانتنا ، فنفضّل قول بيتٍ من الشعر على إنقاذ مملكةٍ من أزهى ممالك العرب والاسلام وأوسعها وأغناها وأعظمها حضارةً وعمراناً ورقياً ...!

ليس يبلغ بنا استهواء المظاهر الحضارية الخلّابة ، والبذخ والترف ، ومجالس اللهو والطرب ، وعزف القيّان وغناء النّدمان ، وتطيين البساتين بالمسك والعنبر^١ وتشديد القصور وزخرفة الدّور الى الاستكانة للذل والصغار وأداء الجزية التي يوجب الاسلام والشرف أخذها لا إعطاءها . ففي الحقيقة إن عمل يوسف جليل ، وجليل^٢ جداً ، وفوق ما يظنه الظان^٣ ويقدره أولئك الكتّاب والأدباء الخياليون . والاسلام والمدنية والعلم كلها مدينة ليوسف بن تاشفين وممنونة^٤ له بإنقاذ الأندلس وبقائها في يد العرب مدة أربعة قرون أخرى . ومن المحقق أنه لو لم يسارع يوسف الى إنقاذ الأندلس في ذلك الحين لما وجد ابن رشد ولا ابن طفيل ولا ابناء زهر ولا ابن العربي ولا ابن الخطيب ولا ، ولا ، ممّن انجبتهم تلك الجزيرة من رجال العلم والفلسفة في حياتها الثانية التي كان يوسف سبباً فيها ، فضلاً عن غيرهم من رجال الدين والأدب الذين ازدهرت على أيديهم تلك الحضارة العديمة النظير . وهذا مما لا يشك فيه أحد ، وانما ألعنا اليه هنا وان لم يكن من موضوعنا لننبّه على غلط أولئك الذين اندفعوا في تغليب اهوائهم وتحكيم عواطفهم ورموا المجاهد العظيم يوسف بن تاشفين بما أملاه عليهم تعصبهم للمعتمد بن عباد من صفاتٍ ذميمة وألصقوه به من تهم باطلة ، ولو كانوا حقاً ذوي غيرة على دولة الأدب والشعر ، لو جُهِوا حملاتهم العنيفة الى من كان يعمل على هدم كيائها وتعفية أثرها في ذلك القطر العزيز بالتمهيد لاستيلاء العدو عليه

١ - هذه اشارة الى يوم الطين في قصة المعتمد المشهورة مع حظيته الرميكية . وانظر عنها نفع

الطيب ج ٢ ص ٤٨٤ .

واجلاء العرب عنه كما صار في نهاية القرن التاسع الهجري فذهبت 'إريخ' العروبة والاسلام منه الى الآن ، والله الأمر من قبل ومن بعد .

ويحلوننا ان نختم هذا الفصل بكلمة في الموضوع للسلامة الناصري صاحب الاستقصا فانه قد شعر أيضا بهذه الحملة المدبرة ضد أمير المسلمين فكتب قائلا :
واعلم انه قد يوجد هنا لبعض المؤرخين حظاً من رتبة أمير المسلمين وغض عليه : إما في كونه بربرياً من أهل الصحراء بعيداً عن مناحي الملك والأدب ورقة الحاشية ؛ وإما في كونه تحاميل على ملوك الأندلس حتى فعل بهم ما فعل ذلك حيث عاين 'حسن' بلادهم ورفاهية عيشهم .. واعلم ان هذا الكلام جدير بالرد ، وأصله من بعض أدباء الأندلس الذين كانوا يتأدمون ملوكهم ويستظفون بظلمتهم ويغدون ويروحون في نعمتهم ، فحين فعل أمير المسلمين بسادتهم ورؤسائهم ما فعل ، أخذهم من ذلك ما يأخذ 'النفوس' البشرية من الذب عن الصديق والمحاماة عن القريب حتى باللسان ، وإلا فقد كان أمير المسلمين رحمه الله من الدين والورع على ما قد علمت ، ومن ركوب الجادة وتحري طريق الحق على الوصف الذي سمعت ، وهذا ابن خلدون إمام الفن ومتحري الصدق قد نقل ان ملوك الأندلس كانوا يظلمون رعاياهم بضرب المكوس وغيرها ، ثم وصلوا أيديهم بالطاغية وبدلوا له الاموال في مظاهرتة إياهم على أمير المسلمين ؛ ثم لم يقدم على قتالهم واستزاهيم عن سرير ملكهم حتى تعددت لديه فتاوى الأئمة الاعلام من اهل المشرق والمغرب بذلك . قافهم هذا واعرفه ، والله تعالى يقابل الجميع بالعفو والصّفح الجميل بمنّه وكرمه .

أجياة الفكرية في هذا العصر

لقد آن للبحث العلمي أن يُنصف دولة المرابطين ويقول فيها كلمة عادلة لا تتأثر بعصية بلدانية ولا بحمية دينية . فقد رأينا كيف كان التشيع للأندلس سبباً في تشويه شخصية يوسف بن تاشفين من بعض الكتاب والأدباء حتى أدّى الحال الى تجاهل عمله العظيم في إنقاذ ذلك القطر العزيز من المصير المؤسف الذي صار إليه فيما بعد . ونجد بعض المؤرخين المسيحيين من أمثال المستشرق الهولندي رينيهيرت

دوزي^١ يصبئون جامَ غضبهم على المرابطين ودولتهم ، ويجعلون مبدأ اضمحلال الأندلس من تاريخ استيلاء الدولة المرابطية عليها ، ناسين أو متناسين أن اضمحلال الأندلس سياسياً إنما كان السبب الأول فيه تكالب النصارى على المسلمين وإذكاء نار الحرب عليهم بلا هوادة ، منذ اليوم الذي وطئت فيه أقدامهم أرض شبه الجزيرة . وقد شعر الأندلسيون انفسهم بالخطر الذي كان يهددهم قبل عبور المرابطين اليهم ، وعبر شاعرهم عن ذلك أصدق تعبير في هذه الأبيات البليغة التي قالها عند سقوط مدينة طليطلة في يد عدوهم وهي :

شُدُّوا رَوَاحِلَكُمْ يَا أَهْلَ أُنْدَلُسَ فَمَا الْمَقَامُ بِهَا إِلَّا مِنَ الْغَلَطِ
أَلْتُوبُ يَنْسَلُ مِنْ أَطْرَافِهِ وَأَرَى ثُوبَ الْجَزِيرَةِ مَنْسُولًا مِنَ الْوَسْطِ
مَنْ جَاوَرَ الشَّرَّ لَا يَأْمَنُ بَوَائِقَهُ كَيْفَ الْحَيَاةُ مَعَ الْحَيَاتِ فِي سَفَطِ؟

فمن الحق ان يقال إن المرابطين هم الذين مدثوا حياة الأندلس السياسية وأبقوها في قبضة الاسلام زهاء أربعة قرون اخرى ، وهذا هو ما يقيظ المستشرق دوزي ومن سلك سبيله في التعامل على الدولة المرابطية .

أما اضمحلال الأندلس معنوياً فليس هناك من ينكر ان الازدهار الذي عرفته في أيام المرابطين ، ثم الموحدنين بعدهم ، يكاد يفوق ما كان لها منه في أيام الخلفاء وملوك الطوائف وخاصة في ميدان العلوم والآداب . إن معظم أعلام الفلسفة والطب الأندلسيين ، هم ممن عاشوا في هذا العصر أو نبغوا بعده بقليل . فابو بكر بن باجة المعروف بابن الصائغ الفيلسوف والطبيب والموسيقيار هو ممن أظلمت دولة المرابطين وخدم رجالها بعلمه وقتّه . وابو الوليد بن رشد وابو بكر بن طفيّل وإبناء زهرهم

١ - مستشرق هولاندي . (١٨٢٠ - ١٨٨٣) له كتابات عديدة عن تاريخ اسبانيا الأدنى والسياسي . وهو في الحقيقة أول من فتح ميدان البحث عن الأندلس الاسلامية في وجه المستشرقين ، ونشر كتباً عربية قيمة تتعلق بهذا الموضوع . إلا أنه كان شديد التعصب وحلّ حلات شعواء على المرابطين الذين قاموا بحرب الاهاذ للأندلس في القرن الخامس الهجري والافارقة عموماً ، فحسرت أفكاره الى كثير من الباحثين بعده اوروبيين وشرقيين . وما يزال الكثير من الكتاب في هذا الباب يقعون تحت تأثيره .

من نبغوا في أعقاب هذا العصر وانتشرت معارفهم في العصر الموحدى الذي يليه . فالرُّشدية إذن ، هذا المذهب الفلسفى الذى هو طابع الحياة الفكرية الأندلسية ، إنما ظهرت فى هذا العصر الذى يزعمُ صاحبنا أنه عصر اضمحلال الأندلس . وُقِلَ مثل ذلك أيضاً فى الميمونية ، وهى فلسفة موسى بن ميمون التى نسجت على منوال الرُّشدية فى التوفيق بين العقل والدين بالنسبة لليهودية . واعلام الفقه والتصوف مثل ابن رشد الكبير وأبى بكر بن العربى وابن عربى الحاتمي وابن سبّين هم كذلك من رجال هذا العصر أو عصر الموحدين . وكبار اللغويين والنحاة والمفسرين والمقرئين فضلاً عن مؤرخى الآداب ، والشعراء والكتاب ، الذين أنجبتهم الأندلس فى حياتها الثانية بعد خضوعها لدولة المرابطين ، هم ممن لا يأتى عليهم العدّ ، ولا يتسع المقام حتى لذكر المشاهير منهم . فهل هذا هو اضمحلال المتحدّث عنه ؟

نعم لقد اضمحلت قرطبة فذهبت تلك العمارة التى كانت بها على عهد الخلفاء ، وخربت مدينة الزهراء التى أنشأها عبد الرحمن الناصر فامّحت معها معالمُ حضارة باهرة ، ولكن ذلك كان قبل دخول المرابطين الى الأندلس ، فسؤليته لا تقع عليهم .

ويعزو المستشرق الكبير تدهور الحياة الفكرية فى الأندلس على عهد المرابطين والموحدين الى تعصّب الولاة واضطهادهم للعلماء ، وهو ان كان يعنى حادثة احراق كتاب الإحياء للغزالي التى جرّت على عهد المرابطين وما بدر من المنصور الموحدى من إساءة الى الفيلسوف ابن رشد ، فليت شعري كيف غفل عن اضطهاد ابن مسرّة واحراق كتب خليل بن عبد الملك المعروف بخليل الغفلة فى عهد المروانية ، وإحراق كتب الفلسفة والتعاليم اليونانية التى كانت فى مكتبة الحكم من قبيل المنصور بن أبى عامر ، واضطهاد ابن حزم ، وإحراق كتبه فى دولة ابن عبّاد . ولماذا لم يعتبر ذلك نكسةً للفكر وبدء اضمحلال الأندلس المعنوي ؟

إن مثل هذه الأقوال التى هي أشبه بمجديث خرافة منها بمجديث العلماء : إن دلّت على شيء فإنما تدل على نزعة خاصة أبعد ما تكون عن روح البحث والتحقيق ، والواجب على المؤرخ الذى يحترم نفسه أن يترفع عن سفاف الأقوال ، ولا سيما إذا كانت لا تستند الى دليل من نقل أو نظر .

لقد كان أساس دعوة المرابطين العلم ، وعليه قامت دولتهم . وإن رحلة يحيى

ابن ابراهيم الكدالي التي تمخضت عن دخول عبد الله بن ياسين الى الصحراء لأعظم دليل على ذلك . وكانت نزعة عبد الله الى علم الفقه والدين أقوى منها إلى أي علم آخر ، بالطبع لأنه كان عالماً دينياً ، فغلب هذا الميل على الدولة ، ومن ثم كان تقديمها للفقهاء واختصاصها لهم دون من عداهم من أرباب المعارف المتنوعة ، برغم ما صار إليها من جيوش العلماء والفلاسفة من جرّاء فتح الاندلس وضمها الى الايالة المغربية . ولم يكن هؤلاء يطمعون في القرب من الدولة قرب حظوة على ما يقول المؤرخون ؛ إلا أن يتلبس أحدهم بلباس الفقهاء وعلماء الدين كما فعل مالك بن وهيب ؛ فرقي الى منصب وزير لعلي بن يوسف^١ ولكن هذا لا يعني أن اضطهاداً فكرياً كان ينال غير هذا الصنف من العلماء او ان حقوقهم كانت مضیعة ، فان غاية الامر أن وظائف الدولة كانت من نصيب رجال الشريعة ، وفيما عدا ذلك فان كل العلماء كانوا قائمين بنشاطهم الفكري لا يعترض سبيلهم معترض . وأي ضير في أن تجعل مقاليد الحكم بيد الفقهاء وهم أحق الناس بها وأولى إذ كانوا حملة الشريعة التي هي قانون البلاد ودستورها المقدس ؟

ثم إن اصطناع الدولة لنوع خاص من العلوم كثيراً ما كان ظاهرة ملحوظة في غير ما دولة من دول الشرق والغرب ، فلم يعب عليها بل اعتبر من أسباب نهضة ذلك العلم ، وخيراً وبركة على رجاله والمشتغلين به . على ان اهتمام المرابطين بعلوم الدين كان يزينه وصف شريف وخلق نبيل هو تشبّعه بالروح السلفي المتسامح ؛ الخالص من شوائب التنطع والتعق ، وعدم مجاراته للخلافات المذهبية والبسّع والأهواء التي كانت حينئذ تنخر جسم الوحدة الاسلامية بالشرق . فالحقائد أبسط ما يكون ، وقواعد الاسلام وشعب الايمان كما بينت في حديث جبريل ، والزهد والتقشف هما شعار الدولة وطابعها الخاص . واعتبر أنت بأمر المسلمين علي بن يوسف وما كان عليه من متانة الخلق وقوة الايمان وصدق اليقين والانقطاع إلى العبادة ، قبل أن تنظر إلى أبيه العاهل الكبير وهو يعمل مع الخدمة في بناء جامع مراکش ويحمل الطوب والحجر بيده وعلى كاهله إلى البثّائين . ويزيد المؤرخون انه كان

١ - تولي أمير المسلمين علي بن يوسف عرش المغرب بعد وفاة أبيه في سنة ٥٠٠ هـ وله من العمر ٢٣

سنة وتوفي سنة ٥٣٧ .

صائماً في تلك المدة كلها .. فلم يكن تدنُّين المرابطين خدعة ونفاقاً ، كما لم يكن مذهباً خاصاً ونحلة متميزة ، بضطهدون الناس من أجل الدفاع عنها وعدم مخالفتها .

وهنا تبرز قضية إحراق كتاب الإحياء للامام الغزالي في أيام علي بن يوسف ، فإنَّ هذا الكتاب لما وصل الى المغرب ، ونعني به هنا ما يشمل الأندلس والمغربين الأقصى والأوسط ، نظر فيه رجال الفقه والدين فأروه محشوراً بما لا عهد لهم به من آراء المتكلمين ومذاهب الصوفية . وقد تداولته الأيدي من خاصة الناس وعامتهم ؛ فقرروا مجافاته لظواهر الشريعة وساذج العقيدة وحذروا الناس من مطالعته والنظر فيه ، فما كان من رجال الدولة إلا ان أمروا بجمع وإحراقه ، ولم يعتبروا موالة الغزالي لدولتهم ولا نظروا الى المودة التي كانت بين يوسف وبينه ، والمكاتبات التي جرت بينها والثناء الذي كان يُثنى الغزالي على يوسف ، حتى لقد همَّ بزيارته وقصد البحر ليركب اليه قبلغه موته فرجع . وهذا إن دلَّ على شيء ، فإنما يدلُّ على أن الدولة حقيقة كانت خاضعة لرأي الفقهاء لا تورِد ولا تصدر إلا عن نظرهم ، ويدلُّ هذا بالتالي على ان القانون كانت له السيطرة على الجميع وأن رجال الدولة كانوا هم أول من يحترمه . وذلك في نظرنا غاية المدح والتقريظ للمرابطين الذين لم يثبت في تاريخهم أنهم أراقوا محتجماً دم في غير ساحة الحرب ، ومن ثمَّ فإنهم لم يحكموا بالقتل قط على خارج ولا مخالف ، ولو قتلوا أحداً لكان المعتمد أحقَّ بالقتل لما أُلِّب عليهم من الخصوم وبارزهم به من العداوة .. أما غيره من ملوك الطوائف الذين استسلموا فإنما نقلوهم الى مراکش وأطلقوا سراحهم ، بل لقد ثار عليهم ثوار بعد ضمَّ الأندلس الى المغرب . وكان مع هؤلاء الثوار شخصيات أدبية معروفة ، فتلَّت في الذروة والغارب من الثورة ، كما كانت هناك شخصيات أخرى تتولى مناصب سامية ولا تزال تُشنع عليهم وتطمعن فيهم ، فظالما غضوا النظر عن هذه ولم يعاقبوا تلك . الا بمعقوبات طفيفة قد لا تتجاوز الحُرمان السياسي من الحقوق المدنية كما نُمسّر اليوم ، ومن يدرينا أن ذلك من تأثير خضوعهم لأحكام الشرع وعليهم بقول فقهاء الاسلام ؛ دين العدالة والتسامح ؟ .

١ - نشر الى ثورة الرئيس ابن الحاج على أمير المسلمين علي بن يوسف وانضمام الكاتب ابن أبي الخصال اليه ويأتي في الفصل التالي مزيد بيان لذلك .. والى ابن الطلاع الفقيه القرطبي الذي كان كثير المصيبة لبني عباد متجاهراً بها فاخر عن الفتي والتورى لذلك .

وإلى ذلك فإن مما ينبغي ان يُعلن ان قضية الإحياء إنما أثارها وتولى كبرها ابو عبد الله بن حمد بن قاضي قرطبة ، وكذلك قضية إزعاج ابي العباس بن العريف من المريّة الى مراکش انما كانت بسعي فقهاء بلده .

ولا ننكر أن بعض فقهاء المغرب تواطأوا مع فقهاء الأندلس على رأيهم في الاحياء ، ولكننا نجد أبا الفضل بن النّحويّ من علماء المغرب الأوسط ، يعارض 'فتيا ابن حدين' ويتنصر للغزالي . وكان قد انتسخ كتاب الاحياء وجعله ثلاثين جزءاً . فاذا دخل شهر رمضان قرأ في كل يوم منه جزءاً . وكان يقول : وددت اني لم انظر في عمري سوى هذا الكتاب . وكذلك أبو الحسن البرّجي من فقهاء المريّة عارض في هذه الفتيا ، وأوجب في نسخ الإحياء لما أحرقها ابن حدين تأديب محرقها وقضيمه قيمتها لأنها مال مسلم . وقيل له أنكتب بما قلتَه خطّ يدك ؟ فقال سُبْحَنَ الله ! « كبر مقتاً عند الله ان تقولوا ما لا تفعلون » . ثم كتب السؤال في النازلة وكتب فتياه بعقبه . ودفع الى أبي بكر بن عمر بن أحمد بن الفصيح وأبي القاسم بن ورد وغيرهما من فقهاء المريّة ومشائخها ؛ فكتب كل واحد منهم فيه بخطه ؛ «وبه يقول فلان» مسلمين لعليه وزهده . ففَظاظ ذلك ابن حدين لما بلغه وكسر من حدّته . وكتب الى قاضي المريّة حينئذ أبي عبد الملك مروان بن عبد الملك بعزله عن الخطّة التي له ؛ فأخبر بزهده وانقباضه عن الدنيا . وكان عليّ بن حيرزهم من فقهاء فاس قد وافق أولاً على تلك الفتيا التي تدين كتاب الإحياء ، ثم بدا له فرجع عنها

وهكذا نرى ان هذه الفتنة أندلسيّة في الأصل ، وأن رجال الدولة إنما أخذوا فيها برأي الأغلبية من رجال الفقه ، والرّسميّين منهم بالخصوص ، كابن حدين الذي كان قاضياً بعاصمة الأندلس ، وهم مع ذلك لم يستقصوا ولم يتتبّعوا من خالف من أهل العلم الأمر العالي الصادر في هذا الصّدّد تسامحاً منهم وتقاضياً . ولعلّهم كانوا يكبحون من جراح المتحمسين للقضية ، ولولا ذلك لرُبّما سطا ابن حدين بفقهاء المريّة الذين وافقوا أبا الحسن البرّجي على فتياه ، إذ بعيد أن يخلو بعضهم من خطّة إفتاء أو شهادة أو تدريس أو خطابة أو إمامة ...

هذا ونحن نُشرك الأندلس في الحديث عن المغرب لأن يوسف بن تاشفين بتوحيده للبلدين وحدّ تاريخهما وجعلهما وطناً واحداً يتبادل سكانه المصالح والمنافع ، وقد

انتفت بينهم الفوارق السياسية وزالت الحواجز الاصطلاحية ، فسكن بعضهم إلى بعض ، وتقاربوا واتصلوا لا كما كان تقاربهم واتصالهم من قبل ، بل بصفة مجدية ومؤثرة في جميع مناحي الحياة .. فالمغرب يبذل حمايته للأندلس ويدافع عنها العدو المفسر ، والأندلس تبذل ثقافتها ومعارفها للمغرب ، فرجالها في خدمة الدولة ، وكتائبها وشعراؤها يزبنون بلاط مراكش . وقد فعل الاحتكاك بالأندلسيين الأفاعيل في تقدم الحياة الفكرية بالمغرب ونهضة العلوم والآداب . وكما كانت الأندلس مهاجرة من لم تساعد الحمال من أبناء المغرب في العصر السابق ، صار المغرب مهاجرة الأندلسيين في هذا العصر ، وأصبحت مراكش حاضرة المغرب يومئذ وكرمي مملكته ؛ مهوى أفئدة المثقفين ومطمح أنظار المتأدين ، وفي هذا الصدد يقول عبد الواحد المراكشي في كتابه المعجب : « وانقطع الى أمير المسلمين يوسف بن تاشفين من الجزيرة من أهل كل علم فحولته حتى أشبهت حضرته حضرة بني العباس في صدر دولتهم ، واجتمع له ولابنه من بعده من أعيان الكتاب وفرسان البلاغة ما لم يتفق اجتماعه في عصر من الأعصار » .

ولعل في هذا ما يدفع القول بأن غير الفقهاء لم يكن لهم قبول في هذه الدولة ، فالأمر على ما يظهر إنما يتعلق بالنفوذ والسيطرة ، وتلك هي سيادة القانون التي يمثلها الفقهاء كما قدّمنا . على أن غالب أهل العلم والأدب في العصور المتقدمة كانوا ممن درسوا الفقه وشاركوا في معرفة أصوله وفروعه . ولقب فقيه كثيراً ما كان يُطلق على العالم بأي علم كان ولو لم تكن له ممارسة للفقه ، فربما عنى المؤرخون الذين يتحدثون عن تقريب الدولة للفقهاء واختصاصها لهم أنها قربت أهل العلم واختصتهم بالرعاية من دون الزعماء وأهل العصبية القبلية كما كان الشأن في الدول التي قبلها بل والتي بعدها وقد قال ابن خلدون في المقدمة : إنما كان القضاء في الأمر القديم لأهل العصبية من قبيل الدولة ومن إليها كما هي الوزارة لعهدنا بالمغرب .

ومهما يكن من أمر فإن علم الفقه على مذهب الإمام مالك الذي سجلنا توطده في العصر السابق قد واصل تقدمه في هذا العصر ، وعقدت المجالس الحافلة في كل من

سبته وفاس ومراكش للمناظرة عليه ، وامتزجت دراسة الفقه بعلم الأصول ، وظهر الاشتغال بعلم الكلام على طريقة أهل النظر والتأويل ، ولم يكن قبل ذلك مما يشتغل به أحد ، وعني كثيرون بعلم القراءات . هذا العلم الذي لم ينقطع الاشتغال به في المغرب في مختلف العصور ، وهو من فروع علم التفسير . ونشط الاشتغال بعلم الحديث والرواية فكثرت الرحلات لسماحه والأخذ عن رجاله رغبة في علو الاسناد والضبط والافتقان . وكان علم التصوف مما له الشفوف في هذا العصر ، ونظرة واحدة في كتاب التشوف لابن الزيات تظهر القارىء على كثرة من كان يأخذ بطريق القوم من رجال المغرب في هذا العصر . ولكن مما يلاحظ أن تصوفهم إنما كان رياضة ومجاهدة ولم يكن هذا التصوف الفلسفي الذي أنكره الفقهاء على الغزالي فأحرقوا كتابه ، وعلى ابن العريف وابن بركان واليورقي فحملوا أمير المسلمين علي بن يوسف على إشخاصهم إلى مراكش ، ثم ندم على ما فرط منه في حقهم بعد ذلك . ولم تكن العلوم الفلسفية والرياضية والطب قليلة الحظ من العناية بها والاقبال عليها ؛ فقد رأينا كبير فلاسفة العصر أبا بكر بن باجة يحظى برعاية أحد أمراء المرابطين ، ويسكن مدينة فاس . ولا شك انه قد أخذت عنه علوم جمة في العاصمة العلمية . وكان ابو العلاء بن زهر الطبيب من حظي عند علي بن يوسف ، وهو الذي أمر بجمع مجرباته بعد موته ؛ فجمعت بمراكش وبسائر بلاد المغرب والأندلس وانتسخت في جمادى الآخرة سنة ٥٢٦ . وكان الفيلسوف مالك بن وهيب وزيراً له . كما سبقت الإشارة إلى ذلك ، ولما أظهر المهدي بن تومرت دعوته بمراكش وأحضر بين يدي أمير المسلمين ، كان ابن وهيب هذا هو الذي تولى مناظرته ، لأنه كان قد تثقف بفنون العلم والمنطق والكلام في الشرق ، فلم يقدر على مصاولته غير ابن وهيب . وقبل ضم الأندلس إلى المغرب كان بسبته ابن مرانة ، وهو من اعلم الناس بالحساب والفرائض والهندسة والفقه وله تلامذة وقآليف ، ومن تلامذته ابن العربي الفرضي الحاسب ، وهو من اهل بلده . وكان المعتمد بن عباد يقول : أشتهي أن يكون عندي من أهل سبته ثلاثة نفر : ابن غازي الخطيب ، وابن عطاء الكاتب ، وابن مرانة الفرضي ، ذكره ياقوت في معجم البلدان . ونظن أن غير سبته من بقية مدن المغرب العلمية كانت مثلها في احتوائها على رجال من ذوي المعارف العامة ، وإنما الآفة في ضياع أخبارها والاهمال الذي يعنى به هذا الصنف من العلماء خاصة .

وظهر في هذا العصر أيضاً الاشتغال بالعلوم الأدبية واللسانية من نحو ولغة

وشعرٍ وكتابة وكما نبغ في كل العلوم التي ذكرنا أفراداً عديدون ، كذلك نبغ في الأدب والشعر أفرادٌ نجدهم تراجمهم لأول مرة إلى جانب تراجم نظرائهم من الأندلسيين وغيرهم في المجموعات الأدبية المعروفة : كقلائد العقيان وذخيرة ابن بسّام وغيرهما . وشارك الأمراء المرابطون والرؤساء منهم في طلب العلم والتحصيل ، فنجد مثلاً أبا الحسين بن سراج وهو من أعلم الناس بالنحو وأشعار العرب وحكاياتها ولغاتها وأخبارها يجتمع إليه للسمع منه نحو الخمسين من رؤساء المثلثين مع مهرة الكتّاب كأيّ عبدالله بن أبي الحصال وتلك الطبقة . ونجد مثل ابن أيوب الفهري راوية الحديث المسلسل في الأخذ باليد^١ يأخذه عنه جمٌّ غفير من الناس فينافسهم في ذلك الأمير سير بن علي بن يوسف ، والرئيس المنصور بن محمد ابن الحاج اللتوني . وكان المنصور هذا من رجال العلم والفضل ، سمع بمروية من أبي علي الصديقي ، وله سماع كثير من شيوخ جلة وفي بلاد شتى كأيّ محمد بن عثّاب وأبي بحر الأسدي بقرطبة ، وطارق بن يعيش ببلنسية وغيرهم . وكان ملوكي الأدوات سامي المهمة نزيه النفس راغباً في العلم منافساً في الدواوين العتيقة والأصول النفيسة . جمع من ذلك ما أعجز أهل زمانه . قالوا : وهو فخرٌ لصنّاعة ليس لهم مثله ممن دخل الاندلس . ومثله زاوي بن مناد المعروف بابن تقسوط في كثرة السماع والأخذ عن أبي علي الصديقي وغيره ، وكان ديناً فاضلاً معنياً بالعلم وكتب بخطه على دقته علماً كثيراً . وكذلك الأمير إبراهيم بن يوسف بن تاشفين المعروف بابن تميم^٢ والي مرسية ، سمع من أبي علي الصديقي وكان له منه دولة^٣ خاصة في منزله ، وله أبادٍ جمة في رعاية العلم والأدب فضلاً عن نجدته وشجاعته . « وبالجملة فهو من بيت جهادٍ واجتهاد » كما قال ابن الأثير في معجم أصحاب أبي علي . ثم زاد قائلاً : « وفي دولة أخيه علي نفقت العلوم والآداب وكثر النباه وخصوصاً الكتاب » . وحكى أبو بكر بن الصيرفي في

١ - هو حديث رواه المذكور في حالة أخذ رجال منده كلٍّ منهم بيد الآخر قالاً : أخذ بيدي فلان وقال : حتى يصل إلّ الصحابي الذي رواه عن النبي (ص) وهو البراء بن عازب (رض) قال : دخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم فرحّب بي وأخذ بيدي ثم قال لي براء : أتدري لأي شيء أخذت بيديك؟ قال قلت خيراً يا نبي الله . قال لا يلقي مسلم مسلماً فيشّ به ويرحب به ويأخذ بيده إلا تناثر الذنوب بينها كما يتناثر ورق الشجر اليابس .

٢ - هو اسم أمه عُرفَ به . ٣ - يعني درساً خاصاً .

تاريخه أن علياً هذا استجاز أبا عبد الله أحمد بن محمد الخولاني جميع رواياته لعلواً اسناده فاجاز له . وأبوه أبو يعقوب مع نشأته في الصحراء كان لا يُمضي أمراً إلا بمشورة الفقهاء ، وفي هذا النص مصداق لما قدمناه عن المراكشي من نشاط الحياة الفكرية في هذا العصر ، زيادةً على ما تضمنه من كون أمير المسلمين نفسه كان يهتم بالحديث والرواية ، حتى إنه ليستجيز العلماء ذوي السند العالي . وكان الأمير ميمون ابن ياسين أيضاً ممن عُني بالرواية وسماع العلم . وله رحلة حج فيها وسمع بمكة من أبي عبد الله الطبري صحيح مسلم سنة ٤٩٧ وسمع بها أيضاً من أبي مكتوم بن أبي ذرّ الهروي صحيح البخاري في أصل أبيه أبي ذرّ وابتاعه منه بمال جزيل فأوصله إلى المغرب .

ولما ذكر الحافظ السلفي أبا مكتوم هذا في كتابه الوجيز قال : « كان ميمون بن ياسين من أمراء المرابطين رغب في السماع منه بمكة واستقدمه من سِراة بني شِبابة ، وبها كان سكناه وسكنى أبيه أبي ذرّ من قبله . فاشترى منه صحيح البخاري أصل أبيه الذي سمع فيه على أبي إسحق المستملي وغيره بحملة كبيرة وسمعه عليه في عدة أشهر قبل وصول الحجيج » . ثم قتل ميمون هذا وحدث بالأندلس ، فسمع الناس منه بأشبيلية وغيرها . ومن حدث عنه أبو إسحق بن حَبِيش وأبو القاسم بن بشكوال وأبو إسحق بن قرقد وأبو بكر بن خير وغيرهم . فهل بعد هذا غاية في التعلق بالعلم وتشجيعه من رجال الدولة المرابطية ؟

واشتهر بالأدب وقول الشعر منهم الأمير أبو بكر بن إبراهيم المسوفي الصنهاجي المعروف بابن تافلويت صهر علي بن يوسف ، وكان والياً على تلمسان وعلى سرقُطة ويأتي بعض شعره في قسم المنتخبات .

ولم يقتصر هذا الولوع بالعلم والنبوغ في الأدب على الرجال منهم بل ان النساء شاركن أيضاً بنصيبهن في ذلك . ومن احتفظ التاريخ باسمهن من نوابغ المرابطيات الأميرة تيممة بنت يوسف بن تاشفين أخت علي ، وتكنى أمّ طلحة . سكنت فاساً وكانت كاملة الحسن راجعة العقل مشهورة بالأدب والكرم . وحكايتها مع كاتبها تأتي في الجزء الثاني . ومنهن زينب بنت إبراهيم بن تافلويت أخت أبي بكر المذكور آنفاً ، كانت زوجاً للأمير أبي الطاهر تميم بن يوسف بن تاشفين وكانت من أهل الخير

والتصاون والنوافل والصدقات وأعمال البرّ ، تحفظ جملة وافرة من الشعر ومدحها الشعراء وأثنوا عليها كثيراً . ومثلها أختها حواء .

وإن ننس لا ننس جامع ابن يوسف وهو براكش مثل القرويتين بفاس ، فهو من منشآت هذا العصر . ومنذ بناه علي بن يوسف لم يزل المركز الثاني للدراسات العلمية والأدبية بالمغرب . على ان القرويين لم تفتأ تحاط بالعناية الكاملة من الزيادة فيها كلّما ضاقت أرجاؤها ، وتجديد معالمها التي يتسوّر إليها الدُّثور . وقد نقض بناؤها في أيام علي بن يوسف وعمل على توسعتها من جميع الجهات فبلغت بلاطاتها من الصحن الى القبلة عشر بلاطات^١ . واحتفل في عمل القبّة التي بأعلى المحراب وما يحاذيها من وسط البلاطين المتصلين بها فصنع ذلك بالجصّ المقرّبص الفاخر الصنعة ، ونقّشت واجهة المحراب بالنقوش المذهبة الجميلة ، ورُكّب في شمسياته أنواع الزجاج الملون البديع ، إلى غير ذلك من فنون الزخرفة وضروب الزينة . وكان كل ما أنفق في ذلك من تبرعات المحسنين ، إذ لم يزل هذا المسجد العظيم منذ تأسيسه من الشعب واليه ، وذلك هو سرُّ عظمته الخالدة . لكن الذي يلفت الأنظار من اهتمام الدولة بالقرويين وتعزيز مركزها كمعهد دراسي عالٍ هو بناء المدارس التي تُتخذ لايواء الطلبة وتدرّس بعض العلوم التي يكون المسجد غير مناسب لتدريسها بسبب ما تقتضيه من إجراء بعض التجربات واستعمال بعض الآلات . وقد بدأ ذلك في هذا العصر إذ ثبت أنه كانت هناك بفاس مدرسة من بناء يوسف بن تاشفين تُعرف بمدرسة الصّابرين ومن الجائز أن يكون هناك غيرها . والغريب هو أن يتوافق المغرب والمشرق في وقت إنشاء المدارس ، لأنّ هذا التاريخ هو الذي أنشأ فيه الوزير نظام الملك مدرسته العلمية ببغداد وهي أول مدرسة في الشرق كذلك .

ويطول بنا تتبع الجزئيات التي تدل على اهتمام الأمراء المرباطين بنهضة العلم والأدب مع أنها تفارق قليلة خلصت من الإهمال الذي أصاب تاريخ هذه الدولة ونجدها مبثوثة هنا وهناك . ولو وصل إلينا تاريخ ابن الصّيرفي الذي سبق نقل ابن الأثير عنه لكان فيه شفاء للنفس من هذه الناحية ؛ وكان ابن الصيرفي هذا واسمه ابو

بكر بن محمد الأنصاري الغرناطي أحد الشعراء المحدثين له تاريخ مفيد قصره على الدولة المتونوية وكان من شعرائها وخدم أمراءها وتوفي سنة ٥٥٧ أي بعد انقراض هذه الدولة بقليل ، فلا شك ان تاريخه يكون أوثق مصدر عن المرابطين ودولتهم .

ونرى أننا أطلنا بتسمية الأمراء المرابطين الذين كانت لهم شهرة بالعلم والأدب في حين أننا لم نسم أحداً غيرهم ممن اشتهروا بالتفوق في علم من العلوم المتقدمة الذكر عدا الافراد الثلاثة من أهل سبتة الذين ذكروا عرضاً أثناء الحديث عن العلوم الحكيمة . ولو أردنا تسمية جميع من نبغ في باب من أبواب المعرفة من أهل هذا العصر لطل بنا الكلام لأنهم كثيرون جداً ولكننا نقصر على الشخصيات البارزة منهم تجنباً للإطالة .

فمن الفقهاء عبد الملك المصمودي قاضي الجماعة بمراكش ، وإبراهيم بن جعفر اللواتي الفقيه المشاور المعروف بابن الفاسي ، وعبدالله بن سعيد الوجدي قاضي بلنسية، ومنصور بن مسلم بن عبدون الزرّوني المعروف بابن أبي فوناس الفقيه الحافظ المشاور ، وعبدالله بن محمد بن إبراهيم التلمجي النشكوري قاضي الجماعة بمراكش ، وعبدالله بن احمد بن خلثوف الأزدي السبتي المعروف بابن شبثونة أحد حفاظ المذهب المناظرين عليه، وعبدالمنعم بن عبدالله بن علوش الخزومي الطنجي من ولي القضاء بغير موضع من الأندلس ، وأبو عبدالله بن محمد الأموي السبتي قاضيها ومفتيها الفقيه الفرضي المفسر ، وإبراهيم بن أحمد البصري من قضاة سبتة أيضاً .

ومن رجال الحديث والرواية بكار بن برهون بن الغرديس ، من بيت شهير بفاس ، ونزل هو سجلماسة ، وكان قد حجّ قديماً وسمع البخاري من أبي ذرّ الهروي . وقد رحل إليه أبو القاسم بن ورد الذي قيل فيه إنه لم يكن بالأندلس مثله ، فلقبه بسجلماسة وسمع منه الصحيح . ومنهم القاضي أبو عبدالله محمد بن عيسى التميمي وولده عبدالله . وإبراهيم بن أحمد بن خلف السلمي ، عُرف بابن فرتون من لقي أبوي علي الصديقي والفساني وابن الغرديس وتلك الطبقة . ناهيك بكبير محدثي المغرب القاضي عياض الذي يُعدُّ بحق مفخرة هذه البلاد . وهو وإن كان ممن أدرك عصر الموحدين إلا أن نبوغه وظهوره كانا في هذا العصر .

وتمّ أفراد أفذاذ من بيوتات علمية شاركت في الفقه ورواية الحديث وغيرها من

العلوم كعبي العجوز السبتيين الذين اشتهر أوائلهم في العصر السابق ، وقد ترجمنا بواسطة عقدهم عبد الرحيم ، وبني سمجون الطنجيين ، وبني ملنجوم الفاسيين .

ومن اهل القراءات والتفسير أبو بكر محمد بن علي المعافري السبتي ، 'عرف بابن الجوزي ، وهو خال القاضي عياض له تصنيف حسن في التفسير لم يكمل وآخر في التوحيد . وكان 'متفتناً في العلوم ومن اهل البلاغة والشعر . ومن شعره ما نسب لأبي الفرج بن الجوزي غلطاً لاشتباه اسميهما ، ومنهم المقرئ ابو عبدالله القيسي المكناسي ، وأحمد بن الخطيئة التميمي الفاسي كان رأساً في علم القراءات وأقرأ الجمل الغفير من الناس .

وأما التصوف فقد أشرنا إلى كثرة من تعاطاه ، وأحسن من كان يمثله من الوجهة العلمية والعملية أبو علي بن حرزم .

وكان القاضي أبو القاسم بن محمد المعافري السبتي من جمع بين علوم الفقه والحديث والأصول والكلام ورحل الى المشرق ودّرس العالمين الآخرين كثيراً . وكذلك يوسف بن الكلبي الضرير كان ممن اشتغل بعلم الكلام على مذهب الأشعرية ونظائر أهل السنة وسكن سبتة ودرّس بها وبغيرها من مدن المغرب . وأبو محمد عبد الغالب السالمي المتكلم أيضاً هو ممن سكن سبتة ونشر بها علمه . وهؤلاء الثلاثة كلهم من شيوخ القاضي عياض وهم الطليعة الأولى التي نشرت علم الكلام بالمغرب على مذهب الأشاعرة . إلا أن المغربي الأصل منهم هو الأول .

وبالإضافة إلى ابن مرّة السبتي الذي ذكرنا نبوغه في علم العدد والهندسة ، نذكر القاضي أبا الحسن بن زنباع الطنجي من نبغ في الطب والعلاج ، وكان إلى ذلك من أعلام الأدب البارزين .

وفي علم النحو واللغة والأدب اشتهر ابو علي الحسن بن طريف السبتي ومروان ابن سمجون الطنجي فضلاً عن الأدباء والشعراء الذين نبغوا في هذا العصر مثل ابن زنباع المذكور آنفاً ويحيى بن الزّيتوني وعبد العزيز السوسي وابن القابلة السبتي . وسعيد بن حنيف ، وابن غطاء الكاتب ، وابن غازي الخطيب . وستترجم لخاصة الخاصة من سميناهم من الشخصيات العلمية والأدبية قريباً .

رِعاية المُرابطين للأدبِ وأهله

لم يكن المرابطون أقلَّ برًّا بالأدب وأهله منهم بالعلم والعلماء . وليس أدلَّ على نقي ما يتهمهم به خصومهم في 'مجاافة الأدب وعدم الاهتمام به' ، من هذه الرعاية الكريمة التي أولاها أمراؤهم لعلية الأدباء ، من كتاب وشعراء ، منذ اليوم الذي توطّدت فيه دعائمُ ملكهم . ولقد كانت عنايتهم بأدباء الأندلس على الخصوص فائقة الحد ، حتى لم يبق منهم أديب مرموق لم يُنْطَ به عملٌ في بلاط أمير المسلمين بمراكش أو في ديوان أحد الأمراء بالأقاليم .

وأول من نذكر منهم الكاتب عبد الرحمن بن أسباط الذي كان في خدمة يوسف ابن تاشفين قبل دخول هذا إلى الأندلس . وهو الذي استشاره يوسف في الأمر عند ورود كتاب المعتمد عليه فقال له : إن أرض الأندلس ضيقة ، انما يعمر المسلمون منها الثمُن وسبعة أثمان يعمرها النصارى ، ومن دخلها كان تحت حكم صاحبها . وهذا الرجل الذي استدعاك ليس بينك وبينه صداقة قديمة فربما اذا أُجزت اليه وقضي الغرض أمسكك بها ، فاكتب إليه انه لا يمكنك الجواز إلا أن يعطيك الجزيرة الخضراء ؛ فتجعل فيها أثقالك وجندك ويكون الأمر حينئذ بيدك متى شئتَ الصدور عنها صدرت ؛ فعملٍ بأشارته ولم يعبر الى الأندلس حتى سلّم اليه المعتمد الجزيرة الخضراء فشحنها بالعتاد والرجال .

واستكتب يوسف بعد ذلك أبا بكر بن القصيرة وكان من وزراء المعتمد وكتّابه . وهو الذي أجاب عن كتاب الأذفونش^١ الى يوسف عند عبوره الى الأندلس . وكان الأذفونش يحاول أن يصرف يوسف عما عزم عليه من نصرة عرب الأندلس فأغلظ له في القول ووصف ما معه من القوة والعدد وبالغ في ذلك . ولهذا احتفل ابن القصيرة في جوابه أيتما احتفال ، وكان كاتبا مُفليحا ، فلما تُقرئ الجواب على يوسف قال هذا كتاب طويل ، وأحضر كتاب الأذفونش وكتب على ظهره : « الذي يكون ستره »

١ - ذكر في الاستقصاء ١٢٤ ج ل ان كلمة الاذفونش لقب للوك الأسبان وما نراها إلا تعريبا لاسم الفونش .

وقيل انه كتب : « الجواب ما ترى لا ما تسمع » وأرسله اليه . فلما وقف عليه الأذفونش ارتاع له وعلم أنه بُليّ برجل له دهاء وحزم يفعل ولا يقول . ويظهر من بعض عبارات الفتح في القلائد ان الكاتب المذكور تعرّض لبعض شدائد الدهر قبل أن يسعده الحظُّ بالالتحاق بخدمة أمير المسلمين .

وكتب ليوسف كذلك الوزير محمد بن عبد الغفور ، وهو الذي كتب مرسوم ولاية العهد لولده عليّ . وكتب له أيضاً أديب الأندلس عبد الحميد بن عبدون باستدعاء منه له ، وكان قد التحق بخدمة الأمير سير بن أبي بكر اللتوني . وهو صاحب الرائية المشهورة في رثاء بني الأفطس ملوك بطليّوس . ومن حسن أدبه وقوة عارضته أنه بكى فيها نخدوميه السابقين وأفاض في ذكر محاسنهم ولم يُعرّض فيها بالمرابطين ولا أشار لهم بكلمة سوء وإنما أنحى باللوم على الدهر وتفتّن في ذكر غدره بالكرام بما أحزن القلوب وأفضّ الجنوب . وقيل إنه إنما كتب لعلي بن يوسف . وعلى كل فان عنايتهم به ظاهرة واستدعاءهم له مؤكّد وقد قابل هو هذه العناية بمثلها إذ كان رجلاً لبقاً يقدر الأشياء بقدرها ويقفهم ماجريات الأحوال فرثى أولياء نعمته الأولين ولم يبغض نخدوميه الجدد حقهم ولا أنكر عارقتهم .

لا كما وقع للوزير أبي محمد بن أبي الخصال وكان من أنبه الكتاب عند علي بن يوسف وأكبرهم مكانةً لديه ، غير أنه على ما يظهر لم يكن مخلصاً في خدمته لهم . ولما انهزم جيش بلكنسية أمام ابن رزمير كلّفه أمير المسلمين أن يكتب اليهم رسالة توبيخ ، فأبدأ وأعاد في تبكيّتهم والإزراء عليهم ، وكأنه اغتبلها فرصة لاظهار مكنون حقه على المرابطين جملةً ، فكان من فصول تلك الرسالة قوله : « أي بني اللثيمة ، وأعيار الهزيمة ، إلام يُزيّفكم الناقد ، ويؤدكم الفارس الواحد ؟ »

أَلَا هَلْ آتَاهَا عَلَى نَائِيَا بِمَا فَضَحَتْ قَوْمَهَا غَامِدُ
تَمَيَّنْتُمْ مَائَتِي فَارِسِي فَرَدَّكُمْ فَارِسُ وَاحِدُ

فَلَيْتَ لَكُمْ جَارَتِباطُ الْحَيُولِ ضَانًا لَهَا حَالِبٌ قَاعِدُ

وَمَنْ لِرُعَاةِ الْإِبِلِ ، بِالْجِدِ الْمَقْبَلِ ، فَلَوْلَا مَنْ لَدَيْنَا مِنْ ذَوَيْكُمْ ، وَضُرَاعَتُهُمُ الْبِنَا فَيْكُمْ ، لِالْحَقْنَانِ بِصَحْرَائِكُمْ ، وَطَهْرُنَا الْجَزِيرَةَ مِنْ رَحْضَائِكُمْ ، بَعْدَ أَنْ نَوْسَعَكُمْ عِقَابًا ، وَنَحْدُ أَنْ لَا تَلَوُّثُوا عَلَى وَجْهِ نَقَابًا .. « إِلَى آخِرِهَا وَهِيَ طَوِيلَةٌ . فَكَانَتْ هَذِهِ الرِّسَالَةُ سَبَبًا فِي تَأْخِيرِهِ عَنِ الْكِتَابَةِ . وَقَالَ عَلِي بْنُ يَوْسُفَ لِأَخِيهِ أَبِي مَرْوَانَ ، وَكَانَ مُنْخَطَطًا أَيْضًا فِي كِتَابَتِهِ : لَقَدْ كُنَّا فِي شَكٍّ مِنْ بَغْضِ أَبِي مُحَمَّدٍ لِلْمُرَابِطِينَ وَالْآنَ قَدْ صَحَّ عِنْدَنَا .

وَكَانَ أَبُو مُحَمَّدٍ هَذَا قَدْ أَوَى إِلَى ظِلِّ الْمَنْصُورِ بْنِ مُحَمَّدٍ بْنِ الْحَاجِّ اللَّعْتُونِيِّ أَمِيرِ قَرْطُبَةٍ لَمَّا ثَارَ عَلَى عَلِي بْنِ يَوْسُفَ « وَمَعَ ذَلِكَ فَلَمَّا وَقَعَ الرِّضَا عَلَى ابْنِ الْحَاجِّ وَوُلِّيَ مَا وَلِيَ مِنْ أَعْمَالِ الْمَغْرِبِ عَادَ ابْنُ أَبِي الْخِصَالِ إِلَى مَكَاتِنِهِ مِنْهُ ، حَتَّى تَوَفَّى هَذَا الْأَمِيرُ بِالشَّغْرِ الشَّرْقِيِّ مِنَ الْأَنْدَلُسِ وَبَقِيَ هُوَ بَيْتُهُ مُتَزَوِّيًا لَمْ يَنْتَلِ مِنَ الْمُرَابِطِينَ سَوًى إِلَى أَنْ اغْتِيلَ فِي فَتْنَةِ ابْنِ حَمْدِينَ سَنَةَ ٥٤٠ هـ . فَهَلْ بَعْدَ هَذَا غَايَةٌ فِي الْبِرِّ وَالتَّسَامُحِ ؟ وَلَوْ صَدَرَ بَعْضُ مَا ذَكَرَ مِنْ أَبِي مُحَمَّدٍ فِي عَهْدِ مَلُوكِ الطَّوَائِفِ لَكَانَ ذَلِكَ كَافِيًا فِي الْإِطَاحَةِ بِرَأْسِهِ . وَاعْتَبِرْ أَنْتَ بِقَضِيَةِ ابْنِ عُمَرَ مَعَ الْمُعْتَمَدِ مَعَ مَا كَانَ بَيْنَهُمَا مِنْ عَظِيمِ الْمَوَدَّةِ وَقَدِيمِ الْمَاتَّةِ ، وَمِنْهَا يَتَبَيَّنُ لَكَ نَبْلُ الْمَعَامَلَةِ الَّتِي قَابَلَ بِهَا أَمِيرُ الْمُسْلِمِينَ إِسَاءَةَ ابْنِ أَبِي الْخِصَالِ ، إِذْ لَمْ يَزِدْ عَلَى أَنْ أَعْفَاهُ مِنْ كِتَابَتِهِ . هَذَا عَلَى حِينِ أَنْ أَخَاهُ أَبَا مَرْوَانَ بَقِيَ مُتَمَيِّزًا عِنْدَهُ وَمِنْ خِدْمَةِ دَوْلَتِهِ بِالْإِدَارَةِ .

وَلَا نَدْعُ هَذِهِ الْحَادِثَةَ تَمَرُّدًا دُونَ أَنْ نَقِيمَهَا حُجَّةً عَلَى مَنْ يَتَّهَمُ الْمُرَابِطِينَ بِعَدَمِ الذَّوْقِ الْأَدَبِيِّ وَكُثَافَةِ الْإِحْسَاسِ الْفَنِيِّ ، وَلِذَلِكَ كَيْفَ الْأَدَبُ فِي عَهْدِهِمْ وَاضْمِحْلُ الْاضْمِحْلَافِ مُؤَسَفًا ، بَلْ لَا نَعْدَمُ مِنْ يَجْرُدُهُمْ حَتَّى مِنْ مَعْرِفَةِ اللِّسَانِ الْعَرَبِيِّ ؛ فَكَيْفَ فَطَنَ عَلِيُّ بْنُ يَوْسُفَ لِمَغَامَرِ ابْنِ أَبِي الْخِصَالِ وَتَوَرِيَاتِهِ الَّتِي ظَنَّ أَنَّهَا تَخْفَى عَلَى مُخْدَمِهِ ، إِنْ لَمْ يَكُنْ ثَقَفًا لَقَفًا وَعَلَى جَانِبٍ مِنَ الْعِلْمِ يَدْرِكُ بِهِ سُوءَ النِّيَّةِ الَّتِي أَمْلَتْ عَلَى كَاتِبِهِ رِسَالَتِهِ تِلْكَ ؟

وَمَا بَالُنَا لَا نَقُولُ مِثْلَ هَذَا أَيْضًا فِي يَوْسُفَ نَفْسِهِ ، وَقَدْ قَرَأَ عَلَيْهِ الْكَاتِبُ الْقَدِيرُ أَبُو بَكْرٍ بْنُ الْقَصِيرَةِ جَوَابَهُ لِلْإِذْفَنَشِ ، فَقَالَ هَذَا جَوَابٌ طَوِيلٌ ، وَأُمِّلَى عَلَيْهِ كَلِمَتُهُ الَّتِي ذَهَبَتْ مِثْلًا أَوْ كَتَبَهَا بِنَفْسِهِ وَهِيَ قَوْلُهُ : « الْجَوَابُ مَا تَرَى لَا مَا تَسْمَعُ » ! .. فَهَلْ

صاحب هذه الملاحظة وذلك الجواب يكون لا يعرف العربية ؟ وهل موقف يوسف هذا إلا مثل موقف أبي مسلم الخراساني من رسالة عبد الحميد الكاتب التي بعثها اليه عن مخدومه مَروان الحمار آخر خلفاء بني أمية ، وكانت من الطول بحيث تقع في مجلد ، فلما وصلت الى أبي مسلم أحرقها ولم ينظر فيها . وكذلك قدّر يوسف في رسالة ابن القصيرة أنها لا يكون لها التأثير المطلوب في نفس الأذفنش بسبب طولها وربما أهملها لنفس السبب فعوّضها بعبارته البليغة التي أقصّت مضجعه !

وقالوا إن شعراء الأندلس مثلوا امام يوسف بعد انتصاره في موقعة الزلاقة وأنشدوه مدائحهم فيه ، وان المعتمد بن عباد قال له : ايعلم امير المسلمين ما قالوه ؟ فقال : لا ؛ ولكنهم يطلبون الخير . فليت شعري لماذا احتاج هنا إلى من يترجم له ولم يحتج اليه في فهم رسالة ابن القصيرة وانتقادها ؟ وهلا عدّوا جواب أمير المسلمين على فرض صحة الحكاية من باب ما يسمّى عند البديعيين بأسلوب الحكيم ، فما غرض الشعراء بمدحه إلا طلب خيره ؟! ..

أما ما نرويه نحن في هذه القصة ، فهو انه كان يحثو التراب بيده وهم يلقون قصائدهم ، فقال قائل : إنه يعرض لهم بقول النبي (ص) ؛ « احثوا في وجه المدّاحين التراب » !

ولا ننسَ في هذا الباب ما يروى عنه من أنه لما جال في بلاد الاندلس وتطوّف على أقطارها شبّها بمُعقاب رأسه طليطلة ومنقاره قلعة رباح و صدره جيتان وغالبه غرناطة وجناحه الايمن بلاد الغرب وجناحه الايسر بلاد الشرق . قال في الحلال الموشية . « وبالنظر الى كيفة وضعها وتمثيلها في الصفرة ' يبدو بيان هذا التشبيه الذي هو راجع الى سياسة أمرها واعتبار أحوالها » فهل صاحب هذا التشبيه البديع لا يفهم مثل قول ابن زيدون ؟

حَالَتْ لِفَقْدِكُمْ أَيَاْمُنَا فَعَدَّتْ سُودًا وَكَانَتْ بِكُمْ بَيْضًا لَيَالِينَا

الذي يُقال ان المعتمد كتب به اليه ، فلما قرىءَ عليه قال : لعله يطلب منـا
جوارى سوداً وبيضاً !.. فـيا للصـيبانيـات تـروى للتـنقيص من ذوي الأخطار !.

نعم لقد أهدى يوسف للمعتمد جارية نروي خبرها في الجزء الثاني ، وهذا الخبر
وحده كافٍ في الدلالة على ما كان ليوسف من عناية بالأدب وأهله والفنّ وأربابه ،
حتى الجوارى المغنيات المؤدّيات !.. ولا غرو فتلاميذُ مدرسة ابن ياسين أقلُّ ما
يتوفّر فيهم المعرفة باللغة العربية . على ان النبغاء في العلم والفقه من اللـمـتـونين قد
ظهروا قبل دخول ابن ياسين إلى الصحراء ، وقد تقدّم ذكر بعضهم في العصر السابق.

ومن كتب لعلي بن يوسف من أدباء الأندلس باستدعاء منه الوزير ابو القاسم بن
الجد المعروف بابن الأحـدب ، وأبو بكر بن محمد المعروف بابن القبطرنة .. ونصنا
على الاستدعاء وأنه من أمير المسلمين نفسه لاطهار كـامـل العـنـايـة الـتي لـقـيـهـا
هؤلاء الأدباء من رئيس الدولة وما كان لهذا الرئيس من عظيم الالتفات الى ذوي
الكفايات الادبية من رجال الأندلس .

ومن قول أحد شعرائهم فيه مشيراً الى تقديم والده على أخيه تميم وهو أصغر منه :

كَيْنَ كَانَ فِي الْأَسْنَانِ يُحْسَبُ ثَانِياً عَلِيٌّ وَفِي الْعِلْيَاءِ يُحْسَبُ أَوَّلَاً
كَذَلِكَ الْأَيْدِي سِوَاهُ بَنَانِهَا وَتَخْتَصُّ مِنْهُنَّ الْخَنَاصِرُ بِالْحَلِي

أما من التحق بخدمة بقية الامراء المرابطين من أدباء الأندلس ولقوا منهم كل برّ
ورعاية فكثير ، منهم الفيلسوف الأديب ابو بكر بن باجة الذي كتب للأمير أبي
بكر إبراهيم المعروف بابن تافـلـكـلـويـت وحظيَ عنده حظوةً كبيرة ، وله فيه مدائح
كثيرة . ولما توفي رثاه بعدة مراتٍ تعبيراً عن وفائه له ، لما كان يحده عنده من مزيد
الرعاية وحكايته معه لمّا سمع موثقةً له في مدحه فحلف لا يمسي ابن باجة لداره
إلا على الذهب تأتي في الجزء الثاني . ومدح هذا الأمير أيضاً الشاعر ابن سارة
الشنتريبي . وهذه الأشعار كلها مذكورة في قلائد العقيان .

ومنهم الفتح بن خاقان الكاتب البليغ صاحب كتابي القلائد والمطمح المعروفين ،

وقد ألف كتابه القلائد باسم الأمير ابراهيم بن يوسف بن تاشفين ، وأشاد في مقدمته بحاسنه وبفضله في إحياء رسم الادب بعد دروسه . وكان هذا الأمير مُمدّحاً مقصوداً من كبار الأدباء الأندلسيين لكرمه وشجاعته وأريحيته الأدبية . فممن مدحه الشاعر المجيد أبو اسحق بن خفاجة على قلة رغبته في صحبة الملوك ومدحه لهم . والوزير ابو بكر بن رحيم وابو الفضل بن محمد بن الأعلم الشنتمري وابو عامر بن عقيد وابو الحسين بن نيفون وغيرهم ، ومدائحهم له ثابتة في القلائد والمغرب لابن سعيد ، ما يمنعنا من ايرادها إلا خشية 'التطويل' .

وكان الأمير عبد الله بن مَزْدَلِيّ مثل الأمير ابراهيم في قصد الأدباء إياه ومدحهم له ، ومن مدحه القاضي ابو محمد بن عطية صاحب 'التفسير' ، والوزير أبو جعفر بن مسعدة ، وكان كاتباً له ، والوزير ابو عامر بن أرقم ، له فيه قصيدة بارعة . ولهذا الوزير مقامة أدبية في اسم الأمير تيم بن يوسف الذي كان هو أيضاً مألّف أهل الأدب ومعقّد آمالهم .

ويطول بنا الأمر لو أردنا أن نتتبّع كل مَنْ آوى الى ظلّ المرابطين من رجال الأدب فشملوه برعايتهم وأحاطوا بعنايتهم ، وكان في ذلك تشجيعٌ للحركة الأدبية وضمّانٌ لازدهارها الذي ظهر أثره في المؤلفات العديدة الموضوعة في هذا العصر ، وتأهيك بقلائد الفتح بن خاقان وذخيرة ابن بسّام ، ولا يقتصر البرّ بالأدب وأهله في هذا العصر على المرابطين من ملوك وأمراء ، بل إن غيرهم من الولاة كانوا كذلك يُشجّعون الأدب ويُظهرون مزيد العناية بأهله ، والناس كما يقال على دين ملوكهم . فهذا الرئيس أبو الحسن بن عشرة من أهل سلا كان من أهل العلم والنباهة جواداً مُمدّحاً ، قصده الشعراء والأدباء من كل جهة وناحية ، وخصوصاً من الأندلس ، وكان يلي قضاء بلده . ودخل الأندلس غازياً في سنة ثمان وثلاثين واربعمائة ، أعني قبل قيام دولة المرابطين ، فامتدحه جماعة من أدبائها . ورحل إلى الشرق لأداء فريضة الحج فامتدح بالمهدية ومصر وغيرهما . وتوفي سنة ٥٠٢ ببلده سلا بعد أن أورث بنيه سُودداً ضخماً وشرفاً جماً .

ومثله أبو مروان بن سمّجون الطنجي رأس هذا البيت ، الذي يُعتبر مفخرةً لطنجة ، بما أنجب من علماء وأدباء عديدين . وكان هو نفسه من رجال العلم والأدب

شاعراً بليغاً وخطيباً فصيحاً وله جاهدٌ عظيم عند أمير المسلمين يوسف بن تاشفين حتى إنه ليُعَدُّ نائبه في شمال المغرب والقُطر الأندلسي باجمعه . وفصده الشعراء ومدحوه بابلغ القول مما يأتي بعضه في المنتخبات .

على أننا لا ننتهي من هذا الحديث حتى نسجل أن هذه الرعاية التي كان يحظى بها الأدباء الأندلسيون من الأمراء المرابطين ، وكانت داعيةً لمداخلتهم لهم واختلاطهم بهم ، قد أثرت في الأدب الأندلسي تأثيراً محسوساً فظهر القوة والجزالة واختفت منه عناصر الضعف والفسولة التي كانت سائدة عليه أيام ملوك الطوائف . وانتحى الشعراء في شعرهم مناحي الجدة والتوقر بدل ما كانوا منغمسين فيه من البطالة ، والمجون ، وذلك نتيجة لتشبعهم بروح الحفاظ الذي كان يسيطر على رجال الدولة وارتقاع معنويات أهل الاندلس عموماً بما آتاهم الله من نصر على عدوهم بعدما كانوا أصبحوا طعمة سائغة له . وقد سجل دوزي بغيظ هذه الظاهرة الجديدة التي طرأت على الأدب الأندلسي من جراء توجيه الأمراء المرابطين له ، واعتبرها تدهوراً في حقه ، في حين أننا نعتبرها انتعاشاً وبعثاً للأدب العربي الأصيل . وإلى القارئ مثلاً على ذلك هذه القصيدة التي يقولها الوزير ابن أرقم مدحاً للأمير عبدالله ابن مزدلي :

سَرَيْتَ وَاللَّيْلُ مِنْ مَسْرَاكِ فِي وَهْلٍ	مُبرراً العزم من أئين ومن كسل
وَسِرْتَ فِي جَحْفَلٍ يَهْدِي فَوَارِسَهُ	سناك تحت الدجى والعارض المَطْلِ
وَالْبَدْرُ مُحْتَجِبٌ لَمْ تَدْرِ أَنْجَمُهُ	أغاب عن سرِّ أم غاب عن خجلٍ
هَوْتُ إِعَادِيكَ مِنْ سَارٍ يُورِقُهُ	رَكُضُ الْجَوَادِ وَحُلُ اللَّامَةِ الْفُضْلِ
إِذَ الْمُلُوكُ نِيَامُ فِي مَضَاجِعِهِمْ	مُسْتَحْسِنُونَ بِهَاءِ الْحَلِيِّ وَالْحَمَلِ
لِلَّهِ صَوْمُكَ بِرَأٍ يَوْمَ فِطْرِهِمْ	وما توخيت من وجهٍ ومن عملٍ
نَحَرْتَ فِيهِ الْكُفَاةَ الصَّيْدَ مُحْتَسِباً	وحسبُ غَيْرِكَ نَحْرُ الشَّامِ وَالْإِبِلِ

إِذَا صَرِيرُ اللَّدَارَى هَزَّهم طَرَبًا أَهْلَكَ مِنْهُ صَرِيرُ الْبَيْضِ وَالْأَسْلِ
 وَإِنْ ثَنَّتْهُمْ عَنِ الْإِقْدَامِ عَادِلَةٌ مَضِيَتْ قُدَمًا وَلَمْ تَأْذَنْ إِلَى الْعَذَلِ
 كَمْ ضَمَّ ذَا الْعَيْدُ مِنْ لَاهٍ بِهِ غَزَلٍ وَأَنْتِ تُنْشِدُ أَهْلَ اللَّهْوِ وَالْغَزَلِ
 فِي الْخَيْلِ وَالْخَافِقَاتِ الْبَيْضِ لِي شُغْلُ لَيْسَ الصَّبَابَةُ وَالصَّهْبَاءُ مِنْ شُغْلِي
 ظَلَلْتَ يَوْمَكَ لَمْ تَنْقَعْ بِهِ ظِلًّا وَظَلَّ رُحْكَ فِي عِلٍّ وَفِي نَهْلِ
 وَكَلَّمَا رَامَتْ الرُّومُ الْفِرَارَ أَنْتِ مِنْ كُلِّ أَوْبٍ وَضَمَّتْهَا يَدُ الْأَجْلِ
 فَصَارَ مُقْبِلُهُمْ نَهْبًا وَمُذِيرُهُمْ وَعَادَ غَانِمُهُمْ مِنْ جُمْلَةِ النَّفْلِ
 فَكَمْ فَكَّكَتَ مِنَ الْأَغْلَالِ عَنْ عُقْنِ وَكَمْ سَدَدْتَ بِهَذَا الْفَتْحِ مِنْ خَلِ
 أَنْتِ الْأَمِيرُ الَّذِي لِلْمَجْدِ هِمَّتُهُ وَلِلْعَمَالِكِ يَحْمِيهَا وَلِلدُّوْلِ
 وَلِلْمَوَاهِبِ أَوْ لِلْخَطِّ أَثْمَلُهُ مَا لَمْ تَحْنِ إِلَى الْخَطِيئَةِ الذُّبْلِ ...

ونسجل هنا قوله او للخط التي تصحفت في القلائد بالخط ، وإنما هي الخط يعني الكتابة فكانه يقول في أنامله : انها للسيف والقلم والكرم ...

تراجم بعض شخصيات من هذا العصر

والآن نقدم تراجم بعض شخصيات هذا العصر الذين برّزوا في أحد ابواب المعرفة التي قدمنا الكلام عليها ، متممين بذلك وصف النشاط العلمي والأدبي الذي وجد في المغرب على عهد المرابطين ، فنضع الصورة في إطارها ونحيط بالموضوع من جوانبه كلها .

عبدالله بن سعيد الوجدي

يكنى أبا محمد ونسبته الى مدينة وجدة عاصمة المغرب الشرقي . ولي قضاء بلنسية لأول فتحها في الدولة المتونية واسترجاعها من الروم في رجب سنة ٤٩٥ وعلى يديه وتحت نظره تم بناء المحراب بالمسجد الجامع منها في سنة ثمان وتسعين . وفي جانبها كان اسمه مخطوطاً الى أن ملكها الروم ثانية في آخر صفر سنة ٦٣٦ قاله ابن الأثير . وكان من جللة الفقهاء الحفاظ لمسائل الرأي القائمين عليها . وكان يناظر عليه ويحتمع في ذلك إليه . وبه تفقه ابو حفص بن واجب وغيره . وقد حدث عنه ابو العرب عبد الوهاب بن محمد الشجيري وابو عبدالله بن خليل القيسي نزيل مراكش وتوفي ببلنسية قبل سنة ٥١٠ .

ابراهيم بن جعفر اللواتي

هو الفقيه المشاور ابو اسحق ، المعروف بابن الفاسي ، من أهل سبتة . أخذ عن شيوخ بلده . ولزم الفقيه ابا الاصمغين سهل وكتب له في قضائه بطنجة وغرناطة وسمع منه جميع كتبه وحدث بها عنه ، وكان بصيراً بالشروط والوثائق ؛ بل لم يكن في عصره من هو أقوم عليها منه ، عارفاً بالاحكام متفتناً في معارف شتى . شاوره القضاة بالمغرب والأندلس ، ودرس الفقه زماناً . وأخذ عنه من الاكابر القاضي عياض

وأمثاله . وكان عاقلاً مهيئاً كثيراً الوفاق لا يتكلم أحد في مجلسه إلا بمسألة علم أو كلام فيه نفع . وألف مختصر ابن أبي زمنين فنحاه فيه أحسن منحي . وكانت وفاته في ٨ جمادى الأولى من عام ٥١٣ .

أبو عبد الله التميمي

الفقيه القاضي أبو عبد الله محمد بن عيسى بن حسين التميمي ، مولده بفاس سنة ٤٢٩ وانتقل به أبوه الى سبتة وهو شاب ؛ فطلب العلم على أبي عبد الله المسيلي وغيره . ورحل الى الأندلس ثلاث رحل ، إحداها في شبيبته الى اشبيلية ؛ فقرأ بها الأدب على أبي بكر بن القصيرة ، والثانية الى المرية سنة ٤٨٠ فأخذ عن ابن المرابط وأجازه الدلائي ، والثالثة سنة ٨٨ الى قرطبة فسمع من ابن الطلائع وأبي مروان بن سراج وغيرهما . واتسع في الأخذ وتقلد الشورى وتولى القضاء بسبتة وبفاس ، وكان عارفاً بالفقه والحديث حافظاً ضابطاً كثير الكتب مليح الخط والإنشاء والمحاضرة ، من أعقل أهل زمانه وأفضلهم وأسمتهم ، تام الفضل ، كامل المروءة عند الخاصة والعامة ، عظيم القدر ، وهو شيخ القاضي عياض الذي صدر به فهرسته ، لازمه للمناظرة عليه في المدونة والموطأ وسماع المصنفات وأجازه جميع رواياته . قال : وكان من أحسن القضاة سيرةً وأتزهيم ، وأجرأهم على الطريقة القوية ، فضى فقيراً حيدراً واحتفل الناس بمجنازته . وولع العامة بنعشه مسحاً بالأكف ولمساً بأطراف الثياب تبرئاً به رحمة الله عليه . توفي في ٢١ جمادى الأولى سنة ٥٠٥ وله ولد اسمه عبد الله من أهل العلم بالحديث والرواية والانتقان .

القاضي عياض

هو أبو الفضل عياض بن موسى بن عياض اليحصبي السبتي . كان إمام وقته في الحديث وعلومه ، عالماً بالتفسير وجميع علومه فقيهاً أصولياً عالماً بالنحو واللغة وكلام العرب وأيامهم وأنسابهم ، كاتباً شاعراً مجيداً ، ربان من علم الأدب ، خطيباً بليغاً ، صبوراً حليماً جميل العشرة جواداً سمحاً كثير الصدقة دؤوباً على العمل صلباً في الحق . هكذا وصفه ابن فرحون في الديباج .

دخل الأندلس ورجل الى الجزائر الشرقية منها طالباً للعلم وأكثر الأخذ فنافت شيوخه على المائة ، فيهم القاضي أبو بكر ابن العربي وأبو الوليد ابن رشد الجدّ وابن عتّاب وابن حمدين والمازري وأبو علي الصّدّقي وغيرهم . وفي قلائد العقيان كتاب توصية به من أمير المسلمين إلى ابن حمدين لما قصد له للأخذ عنه . وهذه من المناقب التي تُروى للمرابطين في الاعتناء بالعلم والاهتمام بنشره .

قال ابن بشكوال : وجمع من علوم الحديث كثيراً وله عناية كبيرة به واهتمام يجمعه وتقويده ، وهو من أهل التفنّن في العلم واليقظة والفهم .

وبعد عودته من الأندلس أجلسه أهل سبتة للمناظرة عليه في المدوّنة وهو ابن ثلاثين سنة أو يُنصف عليها . ثم أجلس للشورى ثم ولي قضاء بلده مدةً طويلة حمّدت سيرته فيها . ثم نُقل الى قضاء غرناطة ، قال ابن الخطيب : وبني الزيادة الغربية في الجامع الأعظم وبني في جبل المينا الرّاتبة الشهيرة .

ولما ظهر أمرُ الموحّدين بادر الى الدخول في طاعتهم ، ثم انحرف عنهم لما اضطربت أحوالهم بثورة ابن هود ؛ فنقلوه الى مراكش 'شرداً' به عن بلده ، وبها توفي سنة ٥٤٤ ومولده بسبتة في شعبان ٤٩٦ .

وللقاضي عياض التصانيف البديعة منها إكمال المعلم في شرح مسلم كمثّل به مُعَلّم شيخه المازري . ومنها كتاب الشفا في التعريف بحقوق المصطفى ، أبدع فيه كلّ الإبداع وسلّم له أكفأؤه براعته فيه ، ولم يُنازعه أحدٌ في الانفراد به ولا انكروا عليه مزية سبق اليه ، بل تشوفوا للظفر به وأنصفوا في الاستفادة منه وحمله عنه الناس فطارت نسخته شرقاً وغرباً . وهو في الحقيقة كتاب فريد ، دحض به مزاعم الملاحدة ومطاعنهم على المقام النبوي الشريف ، وأتى في ذلك بالعجب العُجاب مما لا ينكره إلا أعمى القلب مطعوس البصيرة . ومنها مشارق الانوار في تفسير غريب الحديث المختص بالصّحاح الثلاثة : وهي الموطأ والبخاري ومسلم ، وضبط الالفاظ والتنبيه على مواضع الأوهام والتصحيقات وضبط أسماء الرجال . وهو كتاب لو كتب بالذهب لكان قليلاً في حقه . ومما قيل فيه شعراً :

مشارِقُ انوارٍ تبدّت بسبتةٍ ومن عجب كونُ المشارِقِ بالغربِ

فأجيب هذا القائل :

وما شرفَ الاوطانَ إلا رجالُها والأفلا فضلٌ لثربٍ على ثربٍ

ومنها كتاب التنبيهات المستنبطة على الكتب المدونة ، جمع فيه غرائب من ضبط الألفاظ وتحديد المسائل ، وكتاب ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك وهو المشتهر بالمدارك . وغير ذلك مما نشيرُ إليه بعد .

وله رسائل أدبية وديوانٌ خطب ومقاطيع شعرية سئل بها في المنتخبات .

وكان أبو الفضل بمنزلة من الجدِّ في تعظيم الشريعة والذب عن حرمها ، بحيث أن الفتح بن خاقان الكاتب المشهور صاحب قلائد العقيان ، دخل عليه يوماً وهو يحكمته ؛ فاشتم منه رائحة الخمر ورأى عليه آثار نشوته ، فغضب عليه وجرَّده من ثيابه وحدهُ الحدَّ الشرعي ولم تأخذه في الله لومة لائم . وخرج الفتح من غده نائراً حنقاً وهمَّ أن يحذف ذكره من قلائده ؛ فقبل له أن ذلك يكون أدعى لاشتهار القضية وظهورها فعدل عن ذلك . ولكن القاضي الأديب بعد أن خرج الفتح من عنده أتبعه بصلية سنية إبقاءً على ودِّه واسترضاءً لحاظه وضرباً للثل في أن التمسك بقواعد الاسلام وحفظ حدوده لا ينافي الاربحية الأدبية ولا يذهب بظرف الأديب ورقة حاشيته . رحمه الله .

عيسى الملجوم

أبو موسى عيسى بن يوسف بن عيسى بن علي الأزدي ، عرف بابن الملجوم ، لقبٌ جرى على أحد أجداده في شببته لحبسة كانت في لسانه . وبنو الملجوم من بيوتات المجد القديمة بفارس ، وقد رفع ابن القاضي في الجدوة نسبهم الى المهلب بن أبي صفرة . ونبغ منهم عدة أفراد في الفقه والحديث والأدب ، ورأسوا بالعلم وتولوا القضاء وأدركوا شرقاً كبيراً . وكان عيسى هذا عارفاً بالفقه ذا كراً للمسائل ، متقدماً في علم الفرائض ، محدثاً حافظاً راوية . سمع ببلده من أبيه قاضي الجماعة أبي الحجاج ، وأبي الفضل ابن النحوي وأبي الحجاج الكلبي الضرير ؛ وبأغاث

من أبي محمد اللخمي سبط أبي عمر بن عبد البرّ . ودخل الأندلس
فلقي بقرطبة أبا عبد الله بن الطلائع وأبا بكر حازم بن محمد
وأبا علي الغساني وأبا الحسين بن سراج وأبا محمد بن عتّاب .
ثم دخل الأندلس ثانية فلقي بأشبيلية أبا عبد الله بن شبرين وكتب إليه أبو عبد الله
الخوّلاني وأبو علي الصّدّقي وغيرهما . وتولى القضاء بفاس وبمكناس ، وكان من أهل
الجلالة والأصالة ، راوية جماعة للدواوين العتيقة . والدفاتر النفيسة . وابتاع من أبي
علي الغساني أصله من سنن أبي داود الذي سمع فيه على أبي عمر بن عبد البرّ ، وهو أصل
أبي عمر ، كان قد صار إلى أبي علي بخمسة آلاف دينار بعد أن نسخ منه أبو علي بخطه
وقابله وأتقنه . وناهيك بهذه المهمة العالية وهذا الشغف بالعلم . ولعله أراد أن يسدي
إحساناً في صورة معاملة ، إلى شيخه الذي يأبى من رؤية المنّة عليه لأحد ، شأن أمثاله
من علماء السلف رحمهم الله . حدث عنه أبو محمد بن قُليّح وابنه أبو القاسم عبد
الرحيم وقال : ولد يوم الاثنين مُستهلّ ذي القعدة ٤٧٦ وتوفي في رجب عام ٥٤٣ .

أحمد بن الحُطَيْيئة

الشيخ أبو العباس أحمد بن عبد الله بن أحمد بن هشام بن الحُطَيْيئة اللخمي
القاسي ، كان رأساً في القراءات السبعة ومن أهل العلم والصلاح . ولد بفاس سنة
٤٧٨ وانتقل إلى مصر فقرأ على ابن الفحّام . وقرأ عليه شجاع بن محمد بن سيّدهم
وروى عنه الحافظ أبو الطاهر السلفي . وعُرض عليه القضاء بمصر أيام العبيديين ؛
فاشترط أن لا يقضي بمذهب الدولة فأبوا وتوفي آخر المحرم سنة ٥٦٠ .

علي بن حرزهم

أو ابن حرزهم كما هو الجاري على الألسنة فيه وفي كثيرين غيره ممن هم على اسمه .
وصوّب الساحلي الأول في كتابه بُغية السالك وهو الذي في كتب الأقدمين .

هو أبو الحسن علي بن إسماعيل بن محمد بن عبد الله بن حرزهم ، يعتلي نسبه إلى
عثمان بن عفان (رض) . ولد ونشأ بفاس وكان من كبار فقهاءنا ومدرّسيها العُباد

الزهد . قال الساحلي : كان عالماً فقيهاً محدثاً حافظاً مدرّساً زاهداً في الدنيا ، سالكا في طريق القوم من أهل التحقيق ، 'مشاركاً في علوم الشريعة لكنه أميل' الى التصوف . أحكم كتاب الإحياء للغزالي وضبط مسائله فكان يستحسنه ويثني عليه . درّس بفاس وأخذ عنه ناس الطريق كالشيخ أبي مدين الأنصاري وأبي عبد الله التّاودي . ودخل مراکش قدرّس بها العلم وتاب على يده خلق كثير وزهد أميرها في الدنيا .

نعم فقد كان في أول الأمر من حمل على كتاب الإحياء واستنكر ما فيه ، ثم غلبت عليه نزعة التصوف فرجع عن رأيه فيه كما سبق الإلماغ الى ذلك . ونظر ؛ كما يقول ابن قنفذ في كتابه أنس الفقير ، فيما كانت 'ينكره' منه ، فوجده موافقاً للكتاب والسنة .

ولما قدم الشيخ أبو مدين إلى فاس دخل لجامع القرويين وسأل عن مجالس العلماء فصار اليها مجلساً بعد مجلس ، قال : وأنا لا يثبت في قلبي شيء مما اسمعه من المدرّسين الى ان جئت الى شيخ كلّمنا تكلم بكلام ثبت في قلبي وحفظته . فلما فرغ دنوت منه وقلت له حضرت مجالس كثيرة فلم أثبت على ما يقال وأنت كل ما سمعته منك حفظته ، فقال لي : هم يتكلمون بأطراف السنتهم فلا 'يجاوز كلامهم الآذان وأنا قصدت' الله بكلامي فيخرج من القلب فلازمته . وكان هذا الشيخ هو علي بن حرزم ، توفي رحمه الله سنة ٥٥٩ .

أبو القاسم المعافري

هو الفقيه الأصولي المتكلم أبو القاسم عبد الرحمن بن محمد المعافري من أهل سبتة . له رحلة سمع فيها بالأندلس من القاضي أبي الوليد الباجي وبلاد إفريقية ومصر والحجاز من جماعة كابن فضال بمصر وابن الصباح بتونس ولقي بمكة الفقيه عبدالحق^١

١ - هو أبو محمد عبد الحق بن محمد بن هارون السهمي القرشي ، فقيه صقلية . تفقه بشيوخ القرويين وحج ، فلفي القاضي عبد الوهاب وأبا ذر المروني ، وله في مذهب مالك تأليف جليلة . توفي سنة ٤٦٦ .

والإمام أبا المعالي الجويني وابن صاحب الخمس بصقلية وغيرهم . ودرس هناك الأصول والكلام ودرّس ذلك ببلده سبعة مدة حياته . قال القاضي عياض : وعليه أخذ ذلك جماعة من شيوخنا وأصحابنا ، ورحل اليه الناس في درس ذلك عليه . وولي قضاء بلده سبعة والخطابة بمسجدها كما تولى قضاء الجزيرة الخضراء . وتوفي آخر محرم سنة ٥٠٢ .

الحسن بن طريف النحوي

الشيخ الصالح أبو علي الحسن بن علي بن طريف ، من أهل سبته ويعرف بالتشاهرتي شيخ بلده في النحو ، له سماع من الفقيه حجاج بن الماموني وأبي عبد الله ابن سعدون وأبي الأصمغ بن سهل وأبي محمد أبي قحافة . وأخذ عن أبي تمام القطيني وغيره بالأندلس ودرّس النحو عمره بسبته . وأخذ عنه جماعة منهم القاضي عياض وغيره . وتوفي في ١٩ ذي الحجة ٥٠١ .

مروان بن سمجون

أبو عبد الملك مروان بن عبد الملك بن إبراهيم بن سمجون اللواتي الطنجي ، زعيم المغرب وشيخه وذو الجاه العريض والقول المسموع فيه . هكذا عرفه القاضي عياض في فهرسته ثم قال : كان من أهل العلم والفقه والأدب ، وله سماع عال من المصريين كابن نفيس وابن منير وأبي محمد بن الوليد ونظهم ، وقرأ القرآن على المقرئين بها وجالس الفقيه عبدالحق بصقلية ، وسمع من أبي علي المعروف بابن مديكو فقيه سجداسة بها ، عن أبي محمد بن أبي زيد ، وحصل علماً جماً ، وكان يقول - كما عند صاحب معجم البلدان - لم أدخل الى الشرق حتى حفظت أربعة وثلاثين ألف بيت من أشعار الجاهلية ، وكان ذا شهامة وجزالة وفصاحة . أخذ نفسه بالإعراب في كلامه مع الخاصة والعامة ، فلا يكاد يؤخذ عليه لحن . وولي الصلاة والخطبة والفتيا بسبته ، ثم انتقل إلى طنجة صدر الدولة المرابطية ؛ فولي صلاتها وخطبتها وفتياها ، ثم تقلد أحكامها وانصرفت إليه جميع امور الأندلس والمغرب ، وفوض إليه أمير المسلمين يوسف في كبار مهامه . وكان مهيباً صلباً . وله شعر وخطب فصيحة قوية المعارضة كثيرة الغريب .

مولده سنة ٤٢١ ووفاته في ٢٠ رجب ٤٩١ وهو من بيت بني سمجون اللواتيين الطنجيين الذين ظهر منهم في هذا العصر والعصر الذي يليه كثير من أهل العلم والفضل . ورحل بعضهم الى الاندلس واستقر فيها ، فظهر منهم بها أيضاً علماء فضلاء .

أَبُو الْحَسَنِ بْنِ زَنْبَاعٍ

هو القاضي الأديب أبو الحسن بن زنباع ويقال فيه أيضاً ابن بيباع الصنهاجي ، من أهل طنجة ، نسب إليه القلقشندي في صبح الأعشى . وقال : ترجم له في قلائد العقيان واثني عليه وانشد له أبياتاً منها

وقد تحمي الدُرُوعُ من العوالي ولا تحمي من الحديقِ الدُرُوعُ

ويؤخذ من تحلية الفتح له بالفقيه القاضي وصفته بالمشاركة في العلوم والآداب والفصاحة والبيان ، والطب أيضاً ، أنه شخصية علمية فذة ؛ وأن الأدب هو أقل بضاعة كان يتميز بها فصار اليوم أكثر ما نذكره به . وشعره مع ذلك طبقة عالية من حيث البلاغة والانسجام والإجادة في مختلف الأغراض ، فهو مفخرة لقبيله وحجة على المنكرين براعة المغاربة في الأدب وخاصة في هذا العصر . وسنثبت آثاره في محلها من قسم المنتخبات .

بُحَيُّ بْنُ الزَيْتُونِي

هو أحد الادباء الذين نبغوا في هذا العصر ، من أهل فاس . كان أديباً أريحياً خفيف الروح رقيق الحاشية متظرفاً حسن المذهب ، له شعر بديع وتصرف مطبوع . ذكره ابنُ بَسَّام في الذخيرة وقال : كان حاضر الجواب ذكي الشهاب ، ثم اورد واقعة حال جرت بينه وبين أبي الوليد بن زيدون بمجلس المعتمد ، قصد فيها اديب الأندلس أن ينال من المترجم ولكن هذا أفجمه ، وسوردها مع بعض شعره في محلها .

ابن القابلة السبتي

ابو محمد عبدالله بن هرون المعروف بابن القابلة السبتي . ذكره بن دحية في كتابه المطرب من أشعار أهل المغرب وقال إنه من شعراء سبنة المطبوعين . وهو ممن ترجمهم ابنُ بسّام في الذخيرة وأوردهم ابنُ سعيد المغربي في كتابيه رايات المبرزين وعنوان المرقصات المطربات من شعراء المائة الخامسة . ولا نعلم من أحواله شيئاً غير ما تدلُّ عليه كنيته من مكانة اجتماعية متواضعة . على ان ابنَ دحية لم يذكره بكنيته وإنما نسبته الى ابيه ، وهو الوحيد الذي ذكر اسم أبيه فيما وقفنا عليه .

وتمَّ شاعرٌ آخر يُعرفُ بابن القابلة أيضاً وهو محمد بن يحيى الشلّطيسي من رجال المغرب لابن سعيد وله قرابةٌ أدباء يعرفون بهذه الكنية مذكورون في الصلة وصلة الصلة .

وللمترجم شعر جميل نُورده في المنتخبات .

تسمية بعض الكتب المؤلفة في هذا العصر

وبعد فهذه جريدة بأسماء الكتب التي ألّفت في هذا العصر ، من العلماء الذين ذكرناهم ، على حسب ما وقفنا عليه . وبالضرورة فهي لا تحيط بجميع مؤلفات عهد المرابطين ، وإنما تعطي أمثلة منها :

في الفقه :

- مختصر كتاب ابن أبي زمنين لابراهيم بن جعفر .
- الإعلام بمحدود قواعد الإسلام للقاضي عياض .
- نظم البرهان على صحة جزم الآذان له .
- مسألة الأهل المشروط بينهم التزاور له .
- أجوبة القرطبيين له .
- الأجوبة المحبّرة على الأسئلة المتخيّرة له .

- المقاصد الحسان فيما يلزم الانسان له .
- النوازل القضائية له .
- التنبيهات المستنبطة على الكتب المدونة له .

في الحديث والتفسير

- تفسير لأبي بكر بن الجوزي السبتي .
- إكمال المعلم شرح صحيح مسلم للقاضي عياض .
- الشفاء في التعريف بحقوق المصطفى له .
- الإلماع في ضبط الرواية وتقييد الساع له .
- بغية الرائد لما تضمنه حديث أمّ زرع من الفوائد له .
- مشارك الأنوار في غريب الحديث والآثار له .

في التوحيد

- تصنيف لأبي بكر بن الجوزي السبتي .

في التاريخ

- ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعيان مذهب مالك للقاضي عياض .
- الغنمية له في شيوخه وهي فهرسته .
- معجم شيوخ أبي علي الصديقي له .
- الفنون الستة في تاريخ سبتة له .

في الأدب

- ديوان خطب مروان بن سمعون .
- غنية الكتاب وبغية الطالب في الصدور والترسل للقاضي عياض .
- سرّ السراة في أدب القضاة له .
- ديوان خطب له .

عصر الموحدين

انقلاب

لم تكن دولة المرابطين أعظم استقراً ولا أكثر اطمئناناً منها حينما ظهر المهدي ابن تومرت على مسرح التاريخ وضرب ضربته القوية التي قوّضت اركان ذلك البنيان الشامخ وأتت عليه من الاساس . على أن من يستقرى الأحوال بتمعن ، يجد أن بذور الثورة كانت تنمو هنا وهناك ، والقوم في غفلة عما يجري حولهم . ولعل ابن تومرت لم يرحل الى المشرق إلا وهو يحمل في رأسه فكرة الثورة على الواقع المغربي ، وخاصة في ميدان الاجتماع وما يرجع لنزعة الدولة العقديّة والمذهبية . ولعله رأى بعيني رأسه ، وهو يتجول في ميدان المغرب والأندلس ، 'نسخ الإحياء' تضرع فيها النار ، والناس بين موافق ومخالف ، فتأقت نفسه لتحقيق الحق في هذا الموقف الغريب ، إذ ليس من الجائز أن يكون الاسلام في المشرق غيره في المغرب .

ومن هنا يجيء اتصال زعيم الانقلاب الموحدي بحجة الاسلام الغزالي في رحلته ، وقراءته عليه ، وسؤال هذا له عن المصير الذي لقيه كتابه في المغرب ، وعن احوال المرابطين ثم دعاؤه عليهم - فيما يروي المؤرخون - بتمزيق 'ملكهم' ، ذلك الدعاء الذي يُعتبر في الحقيقة دعوة الى الثورة عليهم . ومما لا شك فيه أن المهدي رشح نفسه لهذه المهمة ، من يومئذ . وما يمنعه من ذلك ؟ وهذا الإمام الغزالي الذي أيد سياسة المرابطين أيام العاهل الكبير يوسف بن تاشفين ، عاد فسحب تأييده لها أيام ولده علي .

وكان المهدي رجلاً من سوس ، ومن قبيلة هرغّة بالذات ، إحدى قبائل المصامدة واسمه محمد ، وإنما اشتهر بالمهدي بعد إعلانه لدعوته ، وهو ينتسب في آل البيت عليهم السلام وخرج طالباً للعلم سنة ٥٠١ هـ فدخل الأندلس ورحل الى المشرق ؛ فحجّ ولقي الأئمة وحصل على علم غزير ، وكان ذا فصاحة ولسن و'حجة قوية' ، إلى ورع ونسك وغيرها شديدة على الدين ، مما جعل منه داعية من الطراز الأول ، فلم يلبث أن نزل الى الميدان مصلحاً دينياً يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، ويدعو الى التوحيد على طريقة

الأشاعة ، من تأويل التشابهات وعدم اقرارها على ظاهرها فراراً من الوقوع في التجسيم . وكان أكثر ما يحفز همته للعمل ما يراه من انتشار البغي والفساد مع سكوت علماء الدين على ذلك . ولقد بدأ في طريق عودته الى المغرب من رحلته التي دامت زهاء عشر سنوات ، يصطدم بالعامية وأولي الأمر ، إذ كان كلما رأى مُنكراً تقدم بتغييره ، فيريق الخور ويكسر آلات اللهو والطرب ويغلق على أهل المحون ، كما فعل في الاسكندرية والمهديّة وتونس وقسنطينة وبجاية وتلمسان وغيرها . وما كان ينجيّه من طائلة العقاب الا ما يلوّح عليه من سمة الخير ، ومساندة الرأي العام له إذ كان المجتمع الاسلامي ما يزال يؤثر الطهارة ويتمسك بقانون الأخلاق .

ويظهر من سيرته هذه أن الرجل كان مخلصاً في دعوته أشدّ الإخلاص ، وأنه لم يكن يهمة مُلك ولا دنيا إلا بلوغ قصده في محاربة الفساد وتحديد الدين . ولولا ذلك لما عرّض نفسه للخطر مراراً في غير موطنه ، حيث لا يرجو مُلكاً ولا يجد من قومه أعواناً يشدّون أزره ويحمون ظهره . ولقد أشخص بين يدي أمير المسلمين بمراكش عند ما جهر بدعوته وكثر انتقاده للحكام فلم ير فيه غير داعية ديني مخلص ، وتأثر بكلامه ثم أمر بتخليته على الرغم من إلحاح أهل مجلسه عليه في البطش به وتحذير مستشاريه له مما سيؤول اليه أمره .

والذي نريد ان نقوله هو ان الرجل كان صاحب فكرة إصلاحية عمل لتنفيذها بالوسائل المألوفة قبل أن يكون طالب مُلك يرتكب كل محذور للحصول عليه . وبذلك تعلم انه فوق ما نقول عليه ورمي به من التلبيس والشعوذة وعضائه الأمور . وهذا هو رأي ابن خلدون الناقد البصير . فاستمع الى ما يقوله في هذا الصدد عند تعرضه لتصحيح كثير من أغلاط المؤرخين في مقدمته الحافلة :

« ويلحق بهذه المقالات الفاسدة والمذاهب الفاشلة ، ما يتناقله ضعفة الرأي من فقهاء المغرب ، من القدح في الإمام المهدي صاحب دولة الموحدين ونسبته الى الشعوذة والتلبيس ، فيما اتاه من القيام بالتوحيد الحق والنهي على أهل البغي قبله ، وتكذيبهم بجميع مدعياته في ذلك ، حتى فيما يزعم الموحدون أتباعه من انتسابه في أهل البيت . وإفا حمل الفقهاء على تكذيبه ما كمن في نفوسهم من حسده على شأنه ، فإنهم لما رأوا من نفوسهم مناهضته في العلم والفنّيا والدين بزعمهم ، ثم امتاز عنهم بأنه متبوع الرأي ،

مسموع القول ، موطأ العقيب ، نقيموا ذلك عليه وعضوا منه بالقدح في مذاهبه والتكذيب لمذيعياته . وأيضاً فاتهم كانوا يأنسون من ملوك لمتونة أعدائه ، تجلّة وكرامة لم تكن لهم من غيرهم ، لما كانوا عليه من السّداجة وانتحال الديانة ؛ فكان لحظة العلم بدولتهم مكان من الوجاهة والانتصاب للشورى ، كل في بلده وعلى قدره في قومه ، فأصبحوا بذلك شيعة لهم وحرباً لعدوهم ، ونقيموا على المهدي ما جاء به من خلافهم والتثريب عليهم والمناسبة لهم ، تشيئاً للمتونة وتعصباً لدولتهم . ومكان الرجل غير مكانهم ونحاله غير معتقداتهم . وما ظنك برجل نقيم على أهل الدولة ما نقيم من أحوالهم وخالف اجتهادهم فقهاءهم ، ونادى في قومه ودعا الى جهادهم بنفسه ، فاقتلع الدولة من أصولها وجعل عاليها سافلها ، أعظم ما كانت قوة وأشدّ شوكة وأعزّ أنصاراً وحامية . وتساقطت في ذلك من أتباعه نفوس لا يحصيها إلا خالقها ، قد بايعوه على الموت ووقوه بأنفسهم الهلكة . وتقرّبوا الى الله تعالى بإتلاف مهجهم في إظهار تلك الدعوة والتعصب لتلك الكلمة ، حتى علت على الكليم ودالت بالعدوتين من الدول ؛ وهو بحالة من التقشف والحصر والصبر على المكاره والتقلل من الدنيا ، حتى الولد الذي ربما تجنّح اليه النفوس وتحادع عن تنبيهه . فليت شعري ما الذي قصد بذلك ان لم يكن وجه الله ، وهو لم يحصل له حظ من الدنيا في عاجله ؟ ومع هذا فلو كان قصده غير صالح لما تمّ أمره وانفسحت دعوته « سنة الله التي قد خلت في عباده » .

وكما أنه لم يقم لطلب الملك على ما علمت ، فانه لم يقم لطلب ثأر له عند دولة المرابطين ، لأنها لم تؤذ به شيء ولم تمدّ اليه يداً بسوء . وكون تنازع الزعامة بين المصامدة الذين ينتسب اليهم وصنهاجة التي ينتمي لها المرابطون ، هو الباعث له على القيام كما قيل بذلك ، ضعيف جداً ؛ وخصوصاً مع ما علم من ديانتهم وتقواه وعدم تمسكه بأسباب العصبية التي نهى عنها الاسلام . على انه لم يثبت أن هناك تنازعا كان قائماً بين المصامدة وصنهاجة عند ظهور المهدي بن تومرت . والثابت هو ان دعوته كانت تحتضن مختلف القبائل لأنها قامت تحت شعار التوحيد ، كما كانت دعوة عبدالله بن ياسين تنتظم صنهاجة وغيرها ولذلك سمى أتباعه بالمرابطين . فالأمر في الحالين مما يتعلق بدعوة دينية أكثر مما يتعلق بعصبية قبلية . نعم لقد كانت أنصار المهدي في غالب الأمر من المصامدة ، وذلك لانه آوى إليهم وأقام فيهم مدة يدعو الى فكرته وينشرها بينهم بكل قواه ، بعدما يش من استجابة العلماء له في نبذ التقليد وطرح الجود ،

والقيام بتغيير المنكر الذي كان يحري على مرأى منهم ومسمع . وبدل ان يدوا إليه يد المعونة ويعزّزوا موقفه ، قاوموه وجرّصوا أمير المسلمين عليه ؛ فلم يسهه الا النجاة بنفسه واللجوء الى قومه ينشد عندهم الحماية والنصرة . ولقد لجأ منهم الى مأمن حقاً ، حيث انتصب لنشر العلم وبث أفكاره ومبادئه في غير خوف ولا رقابة . وكان أكثر ما يدعو الى الأخذ بمذهب الأشاعرة في الاعتقاد ، وخاصة في تأويل المتشابه من الآي والأحاديث ، الذي كان المغاربة لا ينجحون اليه أخذاً بمذهب السلف في ترك التأويل وإقرار المتشابهات كما جاءت ؛ مشدداً التأكيد عليهم في ذلك وربما رماهم بالتجسيم . ولذلك سمى أتباعه بالموحدين تعريضاً بخصومه من رجال الدولة والفقهاء وعامة أهل المغرب الذين كانوا كلهم على مذهب السلف في العقيدة . وكان من رأيه القول بعصمة الإمام ، على رأي الإمامية من الشيعة . وألّف في ذلك كتابه الذي افتتحه بقوله (أعز ما يطلبه) فصار هذا الافتتاح علماً على ذلك الكتاب ، ولم تحفظ عنه فلتة في البديعة سوى هذه على ما يقول ابن خلدون . ويظهر لنا انه مزج بين المهدوية والإمامية^(١)، ولذلك كان أتباعه يعتقدون فيه الامرين معاً . وقد لبث الخطباء مدى طويلاً في أيام الموحدين يذكرونه بوصف الامام المعصوم المهدي المعلوم من فوق منابر المغرب كافة . وعلى كل حال فانه عكف على التعليم وتربية من استجاب له من قومه في جبال سوس ، فكانت تراه طوال يومه يعقد المجالس الخاصة والعامة يلقي فيها الى الناس مذاهبه وآراءه ، متخذاً في ذلك الأساليب الموصلة الى المقصود بسرعة ؛ فتارة يملئ بالبربرية وتارة بالعربية ، وكذلك فعل في تأليف الكتب مثل المرشدة ، وهي عقيدة خالية من البدعة ، مما يدل على انه لم يكن يعلن بآرائه السياسية للعموم أو أن تأليفه لها سابق عن إعلانه بمذهبه هذا الجامع بين المهدوية والإمامية . ومهما يكن من أمر ، فان هذا التطور السياسي إنما طرأ على دعوته بعد خروجه من مراكش ولجؤه الى سوس . يدلنا على ذلك إجماع المؤرخين على عدم ذكرهم لشيء من آرائه السياسية فيما كان يصدر عنه من أقوال قبل ذلك ، وفي مناظراته للعلماء بمراكش بين يدي علي بن يوسف على الخصوص . وكما تنتشر النار في الهشيم كانت هذه الآراء مع مذهبه في التوحيد تنتشر في القبائل ، وفي كل يوم يرتفع صيته ويؤمه الناس من كل جهة ، فيعرف كيف يستميلهم إليه ويدخلهم في

دعوته ، حتى أصبح سلطاناً مطاعاً في جميع القبائل ، والمغرب إذ ذاك وفي كل وقت هو القبائل . وقد تأول الجميع عليه ما كان يحدثهم به عن المهدي والامام المعصوم ، فصاروا لا يدعونه إلا بأحد اللقيين .

وكانت هذه الأخبار تصل الى مراکش فتثير حفيظة الدولة عليه . وكلما اشتدت صولته كلما أوجست الخيفة منه ، فتعضّ اصابع الندم على إفلاته من يدها . وصممت العزم على مناوشته بالقتال ومبادأته بالمحاربة ، فأرسلت اليه أوّل طليعة في سنة ٥١٥ وهو بجبل تينمل من بلاد سوس فهزمها .

ولا حاجة بنا الى القول إن المهدي ثابر في محاربة القوم ومناجزتهم القتال . وكانت الحرب بينهم سجّالاً . غير أنه لم يفرح بالانتصار على خصومه في موقف مشهود . ومع ذلك فانه كان قويّ العزم صحيح العقيد في جهادهم واثقاً بالنصر عليهم وغلبتهم والإدالة منهم ، كما وعد بذلك أصحابه وهو يحدو بنفسه . وكان حريّاً أن يشهد الدولة المرابطية تحرّجاً من فوق عرشها العالي ويتهدّم بنيانها الشامخ ، لولا أن المنية عاجلته فتوفي وهو في زهرة العمر ٥٢٤ وخلفه رفيقه عبد المؤمن بن علي الكوميّ الفقي الجلد الصبور ، الذي كان لقيّ المهدي في ملاّلة قرية ببجاية ، وهو في طريقه الى المشرق بقصد طلب العلم . فعدّل عن رحلته وصحب المهدي مكثفياً بالدراسة عليه ، وهذا أحلته منه محلاً خاصاً وأشركه في أمره وكاشفه بخبيثته نفسه ، وكان هو وارثه وخليفته من بعده بعهد منه ؛ فواصل عمله في محاربة المرابطين بدون انقطاع ، وجمع همة الموحدين على هذه الغاية ، فلم يضع السيف من يده حتى دخلت دولة المرابطين في خبر كان .

وكانت هذه الدولة قد شاخت قبل الأوان وتمكّن منها الضعف أيّما تمكّن ؛ فانهار كل ما بناه لها ذلك العاهل العظيم يوسف بن تاشفين من آثار المجد الرفيع ، وأركان العز المنيع . وذلك ان ولده علياً برغم صلاحه كان ضعيفاً مستضعفاً ؛ فغلب على أمره واستقل الولاة بالأقاليم وعاد العتوّ والفساد في القبائل كما كان ، وبرزت المرأة الى ميدان السياسة فلعبت دورها الذي طالما زلزل العروش وقلب الممالك . وهذا كافٍ في صرف النظر عن هذه الدولة وتوجيهه الى مَنْ يحيط وحدة الأمة بسياج الحكمة والتدبير ويحقق أملها في مواصلة النهوض والتقدم . لذلك فان العقلاء

من أهل المغرب وعامة أهل الأندلس ساعدوا حركة العصيان وناصروها في الشر والاعلان . والقبائل قد شاهدنا ما كان من رياضة المهدي لهم وتخريجهم في مدرسته ؛ فلم يكونوا محتاجين الى تجديد عهد ولا تثبيت طاعة ، فسُرعان ما دانت البلاد لعبد المؤمن الذي قوَّض دعائم الدولة المرابطية ودوَّخ المغرب من أدناه الى أقصاه . وسُرعان ما استقرَّت الأحوال واستتبَّ الأمن وعادت الأمور الى نصابها ؛ فقامت دولة الموحدين بمراكش شاعخة البنيان رفيعة الأركان . وتمَّ الانقلاب الموحدى العظيم في مدة لم تكن تكفي في بادئ النظر لتجهيزه فأحرى تنفيذه . والله في خلقه شؤون .

توحيد المغرب العربي

لَسَيْنَ كان المهدي بن تومرت هو صاحب دعوة الموحدين والقائمُ على دولة المرابطين والمهدِّدُ للانقلاب والواضعُ لخطط الثورة التي اتَّسِمت بالحرف ، فان عبد المؤمن هو رجلُ الدولة الذي اضطلع بتنفيذ جميع برامج الثورة والاستيلاء على مملكة المرابطين وتحقيق وحدة الشمال الافريقي ، مع الحرص على تطبيق مبادئ الدعوة الموحدية في الحقلين الديني والاجتماعي بأمانة واخلاص . ولقد صدق المهدي حين قيل له إن الموحدين قد هلكوا ، وذلك في وقعة البحيرة التي جرت بينه وبين المرابطين واستأصلتُ معظمُ أصحابه ، فقال : ما فعل عبد المؤمن ؟ قيل : هو على جواده قد احسن البلاء . قال ما بقي عبد المؤمن فلم يهلك أحد ...

نعم لقد كان عبد المؤمن بالنسبة لدعوة الموحدين كيوסף بن تاشفين بالنسبة لدعوة المرابطين ، هو الذي ابلفها كلها وقرطسَ أهدافها ونهض بأعبائها المادية والمعنوية نهوضاً تاماً ، فلم يُخلفَ ظَنٌّ إمامه حين اختاره لصحبته ومعاونته على مهمته منذ لقيه أول امره ، ولا حينَ قال فيه هذه الكلمة ورشَّحه لخلافته من بعده . وهكذا لما بوسع له من طرفِ الموحدين خرج مُغَيِّراً على بلاد تادِلَة ودرعة وغمارة فاستولى عليها وتسابق الناسُ الى الدخول في دعوته أفواجا ، وانتقضت القبائل على المرابطين ؛ مما يدل على أن التعقُّن السيامي كان بالغاً فيها مداه . ثم صرفَ عزمه لفتح بلاد المغرب

فخرج من تينمل سنة ٥٣٤ في غارةٍ طويلةٍ دامت سبعَ سنين ، فلم يرجع منها حتى فتح المغربين الأقصى والأوسط . وهلك عليُّ بنُ يوسف وابنه تاشفين الذي وُلّي بعده في تلك الاثناء وألقت إليه فاس وتليسان ومراكش بالمقاليد وأواخر سنة ٥٤١ فخلصت له مملكةُ المرابطين في المغرب بأجمعها .

ثم بدأ يهتمُ بأمر الأندلس ، فما عثِم أن قدم عليه وفدُها وهو بمراكش للبيعة سنة ٥٤٢ وأرسل إليها جيشاً بقصد تمهيدها ومدافعة العدو الذي اغتتم فرصة الانقلاب الموحيدي فأغار على أطراف البلاد .

وطمح الى الاستيلاء على بقية الشمال الافريقي . وكانت دولة بني زيري الصنهاجيين المعروفين ببني حماد ، تسيطرُ على القسم الشرقي منه بما فيه من ولايات جزائرية وتونسية ، إلا أنها قد ضعفُ أمرُها وتطاول عليها الثوار من عرب هلال . وعدا النورمانيتون وهم إفرنج صقلية على السواحل فأخذوا صفاقس وسوسة والمهدية ، ولقي السكان منهم هولاً عظيماً ، فتوجه عبد المؤمن الى هذه الناحية سنة ٥٤٦ ومهد أمرها باستيلائه على بحاية وقلعة حماد وقسنطينة . ورجع الى المغرب ، ثم عاد اليها سنة ٥٥٤ بجيش جرّار ؛ فدخل تونس وضرب الحصار على المهدية ، وهي من أمنع ما يكون ، يحيط بها البحر من ثلاث جهات ، فتركها محاصرةً برّاً وبحراً . ومضى يفتح طرابلس وصفاقس وسوسة ، وجبال نفوسة وسائر بلاد افريقية الى برقة . ثم سقطت المهدية في يده أواخر السنة بعد هزيمة الأسطول الذي أتى لنجدها .

ورجع عبد المؤمن الى المغرب وقد ضبط أمر هذه البلاد وأصلح شأنها ولم يسترح إلا قليلاً . ثم عبر البحر الى الأندلس سنة ٥٥٦ ونزل بجبل طارق وكان قد أمر ببناؤه وتحصينه ، وكان يسميه جبل الفتح ؛ فأقام به شهرين وأشرف منه على أحوال الأندلس ، ووفد عليه قوادها وأشياخها ؛ فأمر بغزو غرب الأندلس فغزي وكانت الظفرُ فيه للمسلمين . ثم عاد الى المغرب وأخذ في الاستعداد للجهاد ؛ فأمر بإنشاء الأساطيل ونظر في استجلاب الخيل والاستكثار من أنواع السلاح والعُدَد . وحين كان على أتم أهبةٍ وافاه الأجل المحتوم في جمادى الثانية سنة ٥٥٨ برباط سلا . وكان أعظم أعماله بعد إرساء قواعد الدولة الجديدة هو توحيد أقطار الشمال الافريقي ، أو ما يسمى اليوم بالمغرب العربي وتكوينه منه دولةً قويةً زرعت الرُعب في قلوب الأعداء ؛

فحقق بذلك أعظم أمل لا يزال يُخالج نفوس الساسة والمهتمين بمستقبل هذه البلاد ، خصوصاً في العصر الحاضر ، الذي أصبح شعاره قول الشاعر « وإنما العزة للكاثر » .

ولما تولى ولده يوسف سار على أثره في الحزم والتدبير وحيطة مملكته الشاسعة الأطراف ، وكان له بالاندلس اهتمام خاص . جاز إليها جوازه الأول سنة ٥٦٧ فاستولى على شرفيتها ، وكان لم يدخل قبل في طاعتهم وحقق أمل والده في غزو أرض العدو فكانت له فيها وقائع منصوره . وأقام بالاندلس يغزو ويعمر البلاد ويشيد الآثار مدة خمس سنين ، ثم رجع إلى المغرب وخرج إلى إفريقية سنة ٥٧٥ فتمهد نواحيها بالإصلاح والتنظيم ، وعاد إلى مراكش بعد أن قضى سنتين في رحلته هذه . ثم جاز إلى الأندلس جوازه الثاني سنة ٥٧٩ حيث أصيب في ساحة الشرف على أبواب مدينة شنترين وتوفي في ربيع الثاني سنة ٥٨٠ وبويع هناك لولده يعقوب المنصور الذي بلغت الدولة في أيامه إلى منتهى القوة والعظمة . وكان عهده العهد الذهبي للمغرب سواء من ناحية استبصار العمران وازدهار الحضارة أو من ناحية استقرار النظام وانتشار العدالة ؛ فكانت المرأة تخرج من بلاد نول فتنتهي إلى برقة وحدها ، لا ترى من يعرض لها ولا من يمسها بسوء . وكان الدينار يقع من الرجل في الشارع العمومي فيبقى ملقى لا يرفعه أحد عدة أيام إلى أن يأخذه صاحبه . ويمكث القاضي الشهر وأكثر لا يجد من يحكم عليه لتناصف الناس وارتفاع مستواهم الخلقي . وكان المنصور ينظر بنفسه في المظالم ، حتى إنه لينظر في قضية الدرهم والدرهمين وينصف من نفسه ويمثل لحكم القضاة . وبقدر ما كان له من جولات مظفرة في تثبيت السلطة بأقطار إفريقية ، كان لا يغفل عن القطر الأندلسي والسهر على حركة الجهاد فيه ، حتى يفلح من غرب العدو المستأسد على أهله . أما في إفريقية فإن أهم عمل قام به لضمان استتباب الأمن هناك هو تدبيره لأمر العرب من بني هلال الذين طالما أقلقوا راحة السكان منذ أن سرّحهم الفاطميون للتشويش على ملوك بني زيري ، فلم يرَ أصلح لهم من نقلهم إلى المغرب حيث أعمرهم ناحيتي الحوز والغرب ، فانقطعوا عن الصحراء التي كانوا يعتصمون بها من السلطة بعد ما يعيشون في الأرض فساداً . وبذلك انحسرت مادّتهم وأفادوا في تعريب الناحيتين المذكورتين وما اتصل بها من مواطن البربر .

وأما في الأندلس فإنه منذ ولي لم يفتر عن مواصلة الجهاد بنفسه وبواسطة كبار

قواد جيشه ، إلا أن المعركة الكبرى التي خاضها ضد الفونس الثامن ملك قشتالة كانت أجل أعماله الجهادية . وتسمى غزوة الأرك باسم الحصن الذي دارت حوله . وكانت يوم الخميس ٩ شعبان سنة ٥٩١ هـ وشارك فيها جيش الأندلس والعرب والموحدين وسائر قبائل المغرب فضلا عن المتطوعة والعبيد ؛ فهزم العدو هزيمة شنعاء وقتل من رجاله عدد كبير . وأما الأسرى والغنائم فشيء يفوت العدّ والاحصاء . وكانت هذه الواقعة أخت الزلافة في خضد شوكة النصارى والتمكين للإسلام في أرض الأندلس إلى أمد بعيد .

وقد اشتهر ان السلطان صلاح الدين الأيوبي استنجد بـيعقوب المنصور في حربه مع الصليبيين على بيت المقدس، ورجاه أن يبعث بأساطيله ليحول بينه وبين أساطيلهم المتدفقة على بلاد الشام فلم يجبه ، وأن ذلك فيما يروي المؤرخون لكون صلاح الدين لم يخاطبه في رسالته بأمر المؤمنين . وهذا تعليل بارد لا نراه يتفق مع أخلاق المنصور وعلو همته وبعده نظره ، وإنما الحقيقة أن صلاح الدين كان سرّج مولاة قراقوش لبلاد المغرب سنة ٥٦٨ هـ ففتح طرابلس وما والاها من البلدان ووضع يده في يد العرب وابن غانية^٢ وشغّب كثيراً على المنصور مما سبب له متاعب جمّة في بلاد افريقية، لولاها لكان له في بلاد الأندلس فتوحات عظيمة لا تُقدّر بقيمة . فهذا هو السبب الحقيقي في إغراض المنصور عن نجدة صلاح الدين الذي ضربه من الخلف وأراد ان يغرّر به لآغام الضربة والا فاعمال المنصور في الجهاد واعلاء كلمة الاسلام لا تقلّ عن أعمال صلاح الدين .

ويقال إنه بعد ان صرف رسوله جهّز من أساطيله لهذا الغرض ١٨٠ قطعة ومنع

١ - A. G. Palencia : His. de La España musulmana. p. 108.

وقد اضطرت كلمة المؤرخين العرب فبعضهم يجعله ألفونس الثالث وبعضهم يجعله التاسع وكلاهما لا يصح .

٢ - بنو غانية هم بقية من المرابطين كانوا يملكون جزائر شرق الأندلس المعروفة اليوم بالبيار . وكثيراً ما شوشوا على الموحدين بهجومهم على مدن الساحل الافريقي المواجه للجزائر المذكورة . وكان أولهم محمد بن علي بن يحيى السوفى ، عُرف بغاية أتمه ، وآخرهم يحيى بن إسحق بن محمد المذكور والقائم منهم على المنصور هو علي أخو يحيى .

النصارى من سواحل الشام . ويؤيد هذا ما كان له من الصيت عند أهل الشام ، حتى إنهم أقاموا له مشهداً بالقرب من دمشق على ما عند ابن خلكان .

وتوفي المنصور سنة ٥٩٥ وخلفه ولده محمد الناصر وكان كأيّيه همةً ونجدةً وشجاعةً . وفي أوائل أيامه واجه ثورة ابن غانية بافريقية ف قضى عليها وقتل ابن غانية وأراح البلاد من فتنه وعيئه . وبعث بأسطول من مرسى الجزائر الى جزائر شرق الأندلس المعروفة بالبليّيار ؛ فاقترحها وكانت هي معقل بني غانية ، استقلّوها بها منذ اضمحلال دولة المرابطين . وباستيلاء الناصر عليها انهار آخر حصن للمرابطين كانوا يُروّعون به أمن السكان في شرق الأندلس وافريقية ويهددون منه سلامة الدولة الموحّدية . ومع أن هذا العمل الذي افتتح به الناصر مدّة حكمه يسدل على توفيقه وحسن سياسته ، فإن الحظّ خانته في الواقعة التي جرت بينه وبين القوات المتحدة للمالك النصرانية بالأندلس في صفر سنة ٦٠٩ وتسمى بالعقاب . وكانت من الوقائع الفاصلة التي عجّلت بسقوط الأندلس وأدالت بها للنصرانية من دولة الاسلام ، ثم كانت هي مبدأ سقوط الدولة الموحّدية وإن دامت بعدها أكثر من نصف قرن .

ان هذا الاستعراض السريع لما بذله رجال الدولة الموحّدية من جهود جبارة في سبيل إقرار الوحدة المغربية والدفع عن تراث الاسلام في اسبانيا لمّا ينبىء عن عقيدة راسخة وإيمان قوي بالمهمة السامية التي كان على المسؤولين في الدولة الجديدة ان يضطلعوا بها . فما كانت دعوة المهدي إلا دعوة توحيد وتجديد للمفاهيم الإسلامية التي تبعت روح القوة والعزم في نفوس المسلمين فينهضون للعمل بمجد لحماية بيضتهم وحفظ كياناتهم المادي والمعنوي . وتحت تأثير هذه الدعوة اندفع الموحّدون لمقاومة القوات المسيحية الحليفة من ممالك قشتالة وليون ونبارة وأراغون التي تدفقت على بلاد الأندلس معززة بعطف البابا وبالفرسان الصليبيين الذين جاءوا من مختلف بلاد أوربا يريدون سحق المسلمين . كذلك كانت مملكة النورمان الناشئة في صقلية أوائل القرن السادس الهجري قد اقتحمت مدُن الشاطيء الأفريقي

واستولت على ثغر المهديّة أعظم حصن في هذا الشاطئ . فلولا قيام الدولة الموحدية التي استطاعت ان توحد الصفوف وتجمع الكلمة وتكوّن من أقطار افريقية الشمالية هذه القوة العتيقة التي حاربت في آن واحد في كلتا الجبهتين الاندلسية والافريقية لعصفت القوات النصرانية ببعض تلك البلاد أو بها جميعاً في ذلك الحين .

وقد ظهر من سياق الاحداث التي قارنت قيام هذه الدولة أن ملوك الموحدين قطعوا تلك الصلة التي تقرّ بتبعية المملكة المغربية لدولة الخلافة العباسية كما كانت عليه الأمر في دولة المرابطين . ومن ثمّ فإنهم لم يحجموا عن اتخاذ لقب أمير المؤمنين وانتحال وصف الخليفة نفسه ، ولعل ما شجّعهم على ذلك هو حكمهم للاندلس وافريقية الشمالية جميعاً ، وكان بنو أميّة بمجرد توطد ملكهم في الأندلس قد ادّعوا الخلافة وتلقّبوا بأمر المؤمنين ، فضلاً عن ضعف أمر الخلافة العباسية في هذا العهد ، ولا سيما وقد مات العاضد لدين الله آخر خلفاء الفاطميين الذين كان قيامهم من المغرب ، فأقام صلاح الدين الأيوبي منافس يعقوب المنصور دعوة بني العباس في مصر ، وقبله في سنة ٥٤٩ هـ أي عند استتباب الأمر لعبد المؤمن ، كان الخليفة العباسي المقتضي لامر الله كتب عهداً لنور الدين محمود ابن زنكي مخدوم صلاح الدين وولاه مصر وأمره بالمسير إليها . وكان قد ثلثك دمشق في ذلك العام ، فلم يمنعه من قصد مصر إلا شغله بحرب الفرنج . والمقصود أن هذه العوامل مجتمعة كانت تشجع ملوك الموحدين على الانصاف بالخلفاء وأمراء المؤمنين مع ما عليم من انتسابهم في قبس عيّلان بن مضر ، وكون دعوتهم كما أرادها المهدي أول مرة تستهدف إصلاح أحوال المسلمين عامة ، بدليل قيامه بالنكير للأوضاع الفاسدة في مصر بل حتى في مكة على ما يروى في ترجمته ، فما بالهم لا يرون أنفسهم أحقّ بها وأهلها ؟ ..

وإذا كان هذا من أهم الفوارق بين دولة الموحدين ودولة المرابطين التي لم تتقدّم في حبل الادعاء قط ، فإن السيطرة التامة على كامل التراب المغربي من بلاد نول الى أرض برقة هو مما تميّزت به الدولة الموحدية في الميدان الحربي وجعلها في الوقت نفسه

دولة "بحرية" قوية ذات اسطول عظيم يضمن لها السيادة المطلقة على غرب البحر الابيض المتوسط ومضيق جبل طارق ، بحيث لم تكثف بحماية الشاطئ الافريقي بل منعت تدفّق القوات الصليبية القادمة من الغرب على سواحل الشام ، هذا الى ما جنبته البلاد من ثمار الدعوة الموحدية ، اذ كانت دعوة "إصلاحية" تقدّمية ، في الميدان الثقافي والديني مما نتناوله بالبحث في الفصول الآتية .

الدولة والثقافة العربية

ما هزّ عطفه بين البيض والأسل مثل الخليفة عبد المؤمن بن علي بهذا المطلع المطرب وحده ، وهذا البيت البليغ المفرد ، مدح محمد بن أبي العباس السّمْعانيّ عبد المؤمن بن عليّ الذي استعاده منه واستعاده ، وأمره بان يقتصر عليه ، وأجازه فيما يقول العباد الإصهانيّ في كتاب الحرّيدة بالف دينار قائلاً له : لقد قلت في هذا كل شيء .

نعم ، لقد قال فيه كل شيء . أليس قد مدحه بالشجاعة والتفوق فيها ، حتى نفى عن غيره أن يكون هازماً عطفه مثله ، في الوعى المرتفعة بين السيوف اللامعة ؟ وانظر أنت الى رشاقة هذا التعبير وما فيه من الحسن والجمال ، أليس يدعو الى الإعجاب بحسن خلق عبد المؤمن قبل الإعجاب بحسن خلقه وبرشاقة قدّه واعتدال مشيته قبل شجاعة قلبه وثبات جأشه ؟ وفوق هذا وذاك أليس قد دعاه بالخليفة ؟ وهذه هي الأمنية الحلوة التي طالما تمنّاها ملوك الاسلام وحلموا بها في منامهم ، حتى المضروب على أيديهم منهم ، فيعدّون الشرف الصميم والفخر العظيم والغاية التي لا قبلها ولا بعدها أن يُنعتوا بالخليفة ، فيكونوا ظلّ الله في أرضه ووارثي سرّ النبوة وواضعي أيديهم على رقاب ملايين البشر . لذلك فعبد المؤمن الناقد البصير يحقّ له ان يُشير على السمعاني بالاعتصار من القصيدة على مطلعها هذا لأنه كما قال قد جمع كل شيء يمكن ان يقوله شاعر في ملك ذي صولة وبأس مثل عبد المؤمن . وهو من جهة

أخرى خشي أن يدرس البيتُ وَيَضِيعَ في تضاعيف القصيدة فإبقاؤه على حاله من الفردية أدعى الى حفظه وسيره وتحليده في الناس .

وبعد ، فهذا مثال واحد من امثلة تنشيط عبد المؤمن للدب والاختذ بضبعه واكرام أهله وإحلالهم منه المحل اللائق بهم ، وإدراج الصلات الطائفة عليهم ؛ ففي كل رحلة ، وفي كل احتفال عيدٍ وغيره ، وفي جميع المظاهر العادية وخلافها والمقابلات الرسمية والمواقف العامة ، كان يجلس الى الشعراء ، وما أكثرهم في دولته ؛ فمن اندلسيين الى مغاربة الى أفارقة ومنهم الى مصري وشامي وعراقي وغيرهم ، يحاورهم ويساجلهم فينثرون عليه من عقود مدائحهم كل نفيس غال ، فيحسن الاستماع اليهم ويسرُّ من ثنائهم عليه وينتقد هذا ويقرِّظ ذاك ، وفي الاخير يميز الكل ويفيض عليهم من سيب عطائه وبحر نواله .

وهنا يحسن أن أورد للقارىء ما ذكره صاحب المعجب في وصف احتفاله ببيعة أهل الأندلس له على ظهر «جبل الفتح» كما كان يسمى هو جبل طارق ملخصاً قال : « ونزل الجبل المعروف بجبل طارق وسماه هو جبل الفتح فأقام به أشهراً وابتنى قصوراً عظيمة ، والمدينة الباقية الى اليوم ووفد عليه وجوه أهل الأندلس للبيعة كأهل مالقة وغرناطة ورندة وقرطبة واشبيلية وماوا الى هذه البلاد ، وكان يومٌ عظيم اجتمع فيه من وجوه البلاد ورؤسائها وأعيانها وملوكها من العدو والأندلس ما لم يجتمع للملك قبله ، واستدعى الشعراء وكان على بابه طائفة أكثرهم مجيدون ، فكان أول من أنشده ابو عبدالله محمد بن حبوس من اهل فاس قصيدة اجاد فيها ما أراد :

بلغَ الزمانُ بِهَدْيِكُمْ ما أَمَلَا وتعلَّمت أياْمُه ان تَعْدِلَا
وَبِحَسْبِه أنْ كانَ شَيْناً قَابِلَا وَجَدَ الهدايةَ صُورَةً فَتَشْكِلَا

وانشده ابنُ الشريف المعروف بالطلّيق الرواني :

ما لِلْعِدَا جُنَّةٌ أَوْ قِي مِنَ الْهَرَبِ ؟

فقال عبدُ المؤمن الى أين ؟ الى أين ؟ رافعاً بها صوته فقال الشاعر :

أَيْنَ الْمَقَرُّ وَخَيْلُ اللَّهِ فِي الطَّلَبِ !؟

وَأَيْنَ يَذْهَبُ مَنْ فِي رَأْسِ شَاهِقَةٍ وَقَدْ رَمَتْهُ سَمَاءُ اللَّهِ بِالشَّهْبِ
حَدَّثَ عَنِ الرُّومِ فِي أَقْطَارِ أَنْدَلُسٍ وَبِالْبَحْرِ قَدْ مَلَأَ الْعِبرَيْنِ بِالْعَرَبِ
فلما أتمَّ القصيدة قال عبد المؤمن بثمل هذا تمدح الخلفاء ! وأنشد ابنُ سيّد
الاشبيلي الملقب باللص :

غَمَضْتُ عَنِ الشَّمْسِ وَاسْتَقْصِرْتُ مَدَى زُحُلِ

وانظر الى الجبل الرأسي على جبل

أَنِّي اسْتَقَرْتُ بِهِ ؟ أَنِّي اسْتَقَلْتُ بِهِ ؟

أَنِّي رَأَى شَخْصَهُ الْعَالِي فَلَمْ يَزَلْ

فقال له عبد المؤمن لقد أثقلتنا يا رجل ! فأمر به فأجلس . وأنشد محمد بنُ غالب
البلنسي المعروف بالرُّصافي

لَوْ جِئْتَ نَارَ الْهُدَى مِنْ جَانِبِ الطُّورِ قَبَسْتَ مَا شِئْتَ مِنْ عِلْمٍ وَمِنْ نَوْرِ

الخ « هذا وغيره يفيدك بالخبر اليقين عن عناية الموحدين بالأدب وبمدلك على
نشاط الحركة الأدبية ونفاق سوقها في هذا العصر الزاهر ، حتى عمت البدو والحضر
والعرب والبربر ؛ فأخصبت الأفكار وتفتحت العقول واتت الآداب والفنون أكلها
الشهي وثمرها الجني ». أما الفضل في ذلك كله فانه يرجع الى عبد المؤمن وحده الذي عرف
من أين تؤكل الكتف ، فاستغل جميع عناصر الحياة التي كانت متوفرة في عهد الملوك
المرابطين قبله ولم يترك من وسائل التشجيع وأسباب التنشيط شيئاً الاّ فعله ،
واستحدث في ذلك أساليب خاصة به ، وكيفيات لم يقبّع فيها أحداً . ولعلّ

ذلك راجع لما تلقَّفه عن استاذِه ومربيهِ المهدي بن تومرت من أنواع المعارف وفنون الآداب ، ولما تطور فيه من الأطوار ، ولعبه من الأدوار ، وما جرَّبه بنفسه من تصاريِف الدهر وتقلبات الزمان ، فليس يُنكر انه استفاد من ذلك كله وأنه في مدرسة الحياة هذه ، درس علوم الاجتماع والنفس باجمعا . غير أننا إن اعتبرناه هو منشىء الحركة وموجدُها وصاحب الفضل الكبير فيها ؛ فلا ننسى ما بذنه خلفاؤه الصالحون ، كيوسف ابنه ويعقوب المنصور ومحمد الناصر وغيرهم من أعقابِه وأحفاده ، والأمراء الموحدين الآخرين الذين كانوا مقيمين بالأندلس وإفريقية ؛ فإن هؤلاء أيضاً فضلاً كبيراً في قيام الحركة الأدبية واستمرارِ تقدُّمها الى الأمام . إنما نحن في سائر تلك البلاد لا يهمنا إلا المغرب . إذ هو موضوع كتابنا هذا وقد وقفناك على مبدأ الأمر فيه فلنوقفك على منتهاه .

كان عبد المؤمن رجلاً ثَقَفاً حاذقاً متحققاً بكثير من فنون العلم والآداب ، قد تلقَّف عن المهدي بن تومرت ما أتى به من المشرق ، وزادته الأيام حُكْمَةً وتدريباً على الأمور ، فجعلت منه ذلك العبقرى الفذ ، الذي يندرُ ان يجود الزمانُ بمثله إلا في الفئنة النادرة . ولقد استخدم مواهبه كلها في تثبيت مركز الدولة وتقرير مستقبلها الحفيل بالعظام ، حتى شاد لها ذلك العز المكين والفخر المبين ، الذي بقي ذكره مخلداً في بطون التواريخ . وكان هماماً بكل معاني الكلبة لا يستعظم مطلباً ولا يستبعد غايةً ، ملوكياً ، كما يقول المراكشي ؛ كأنه ورث الملك عن آبائه واجداده ، فلم يقصُر نظره على أمر خاص من أمور سياسة الدولة ، ولم يوجه عنايته الى ناحية واحدة من النواحي العديدة التي يتطلبها إصلاح المجتمع ، بل كان يُقبل بكلتيه على كل أمر جليلٍ أو حقير ، صغيرٍ أو كبير فيرتقُ الفتوق ، ويرأب الصدوع ، ويتقن عملية المزج والتلقيح بين العناصر المختلفة ، والأجناس المتباينة ، ولقد خصَّ الأندلس قبل المغرب برعايته وحمايته ، وعرفَ ما لأهلها من فضل ويدٍ في تقدُّم المعارف العامة ، واستخلص منهم صَفوة الصَّفوة ، واختصَّ بعلمائهم ، وقرَّبهم من مجلسه ، وجعلهم بطانته وأهل مشورته ، فأفاد ذلك المغرب والمغاربة كثيراً .

ولا نريدُ أن نطيل بالكلام على ما عملَه أعقاب عبد المؤمن في هذا الصدد ، فما جئنا بنموذج بما عمله هو ، إلا ليكون نموذجاً عاماً عن جميع أعمال أعقابِه ، خصوصاً وقد تتَّبعوا خطاه ، وترسموا آثاره في ذلك ، ومن لم يزد منهم على ما عمله هو في البِرِّ

بالعلماء والعلم ، لم يُقَصِّر عنه أصلاً ، غير ان تأثير هذه السياسة التعليمية لم يبلغ من القوة في زمنه ، بحيث تظهر نتائجه لكل انسان ، ما بلغ في زمن يوسف ابنه ، ويعقوب حفيده ، ومن بعدهما ، اذ قد ازهر كغرس عباد المؤمن وأثمر ، بتمهيد ابنائه له بالسقي والري ، فتفتحت الأفكار ، وتنورت العقول ، واتسعت المدارك ، وبلغ الشعب المغربي إلى درجة عالية من الثقافة العلمية ، حتى لقد استجلى المنصور ذلك ، واصبح مضطراً الى عدم الاستمرار في مغالطة الشعب الناهض ببعض التعاليم والشعائر ، التي أتت بها دولتهم ، وكانت الغاية منها سياسة محضة كالمهدوية وعصمة الامام ؛ فتقدم بالغايتها الى الشعب الذي قابلها بمزيد الحماس ، لما كان باقياً على سذاجته ، ونبذها نبذ النواة ، لما أحصن الحق وتبين الصبح لذي عينين . على أن الغريب في أمر هذه الدولة التي رأينا ما بذلته من جهود في خدمة الثقافة الاسلامية العربية ، ونقل الشعب المغربي من حضيض الجهل والجمود الى أوج المدنية والعرفان ، هو اعتناؤها الزائد باللغة البربرية ، وعدم نسيانها لها ، حتى بعد استقامة أمرها ونجاح مطلبها ، فلقد بلغ من محافظتها عليها ، وتكريمها لأهلها ان حظرت الوظائف الدينية على من لا يحسن التعبير بها ، بل عزلت الخطباء ، وخطيب القرويين نفسه من الذين ليسوا ببربر أو ليسوا ممن يتكلمون البربرية ، ثم ولت مكانهم من يضطلع بالمهمة المزدوجة ، وينطق اللغتين معاً .

والحق أن هذا تصرف غريب ، وفي منتهى الغرابة ، يجعلنا نقف امامه حائرين مشدوهين ، لا نعرف سبيلا الى التوفيق بينه وبين ما قدمناه من سهر الدولة على تعميم نشر العلم والثقافة العربية .

أما المؤرخون ، فلم يذكروا لنا السبب الحامل على هذه السياسة الرجعية التي

١ - أشار صاحب القرطاس الى هذا الإجراء في موضعين من كتابه ، أثناء كلامه على بناء القرويين حيث قال : « فلما دخل الموحدون المدينة يعني فاسا ، بدلت أحوال بأحوال ، ورجال برجال ، وبدل الخطباء والائمة بجميع البلاد ، فكان لا يؤم الا من يحفظ التوحيد بلسان البربر » . واثناء الكلام على خطباء القرويين حيث ذكر انهم لما دخلوا فاسا عزلوا خطيب القرويين أبا محمد مهدي ابن عيسى ، وقدموا مكانه الفقيه أبا الحسن بن عطية « لأجل حفظه اللسان البربري لأنهم كانوا لا يقدمون للخطابة والامامة الا من يحفظ التوحيد باللسان البربري » ولم يشر الى هذا الأمر في اثناء كلامه على الدولة الموحدية .

سلكتها الدولة بإزاء رجال الدين العرب ولا كيف كان تأثيرها في نفوس هؤلاء ، وفي نفوس الجماهير الشعبية ، وخاصة في كبريات المدن كفاس ومراكش وسبتة وطنجة ، والى أي مدى بلغ انتشارها وكان نجاحها ؟

وأما نحن فنستطيع أن نقول في قليل من التردد والحذر ، إنه ربما كانت هذه السياسة من تقليد الموحدين الأعمى لابن تومرت ، واقتدائهم به في إلقائه دروسه بالعربية والبربرية ، وكتابته تآليفه باللغتين ؛ فإن يكن ذلك كما قلنا ، فإنه من الأغلاط الفادحة ، والاختطاء الفاحشة . وعجيبٌ صدوره من عبد المؤمن العارف بمقتضيات الأحوال ، ومناسبات الأمور إذ أن الظروف الزمانية والمكانية التي اضطرت المهدي الى ذلك ، هي غير الظروف التي قامت فيها دولة عبد المؤمن وتمركزت .

فإن تومرت كان مفتقراً الى حماية البربر له ، ومضطراً الى مُصانعتهم لمساعدته في القيام بنشر دعوته ، وهو مع ذلك قد بثّ العربية في تلك الأوساط البربرية البحت ، وارتكب أعجب الأساليب في تلقينها لمن يجهلونها^١

ولم يستعمل البربرية إلا بقدر الحاجة إليها . أما عبد المؤمن فقد كان على الضد من ذلك كله ، إذ كان طورُ التأسيس وتآليف البربر قد انتهى بالنسبة اليه ، وأصبح هو وحده صاحب النفوذ المطلق في البلاد ، بعد أن قضى على المرابطين ، وأنشأ الدولة الموحدية باسم الدين . فلم لم يُرسم لغة القرآن ، ويستغني بها عن غيرها ؟ ولم هذا التعصب للبربرية الذي أدّى الى تنحية رجال الدين عن وظائفهم ، وإحلال آخرين ربما كانوا أقلّ منهم علماً وإخلاصاً في محلمهم ؟ لا نرى ما يُستَوْغُ لعبد المؤمن هذا التصرف الغريب ، اللهم الا ان يكون باعثه عليه احد أمرين كلاهما يرجع الآخر :

١ - فإما أن يكون مراده تحديّ العرب بذلك ، ليتوسل الى إبعادهم عن

١ - من ذلك فيما حكى المؤرخون ، ان طائفة من المصامدة عبر عليهم حفظ الفاتحة لشدة عجبهم فعدّ كلمات أم القرآن ، ولقب بكل كلمة منها رجلاً منهم ، وصفهم صفاً ، وقال لأولهم : اسمك الحمد لله ، والثاني رب العالمين وهكذا حتى تمت كلمات الفاتحة ، ثم قال لهم : لا يقلل الله منكم صلاة حتى نجتمعوا هذه الأسماء على نسقها في كل ركعة ، فعمل عليهم الأمر ، وحفظوا أم القرآن .

مواقف الزعامة الدينية ، ومواطن قيادة الفكر العام خوفاً من انتقادهم عليه في يوم ما ، ونبذهم طاعته بالعرء كما حدث بالفعل في أيامه الأولى ، فقد ثاروا ضده مرتين ، مرة في سلا بقيادة ابن هود ، ومرة في سبتة بقيادة القاضي عياض . ولا نرتاب في أن ثورة ابن هود كانت سياسية محضة ، لاتباعه خطة المهدي حذو القذة بالقذة ، أملاً في النجاح الذي حصل للمهدي ، وقد ساعده الحظ في أول الأمر ، وكتب له النصر في جميع المواقع حتى كاد يتغلب على جميع مملكة عبد المؤمن الشاسعة .

ويقول ابن ابي زرع : انه لم يبقَ بيد عبد المؤمن الا مراکش فقط ، الا ان صاحب الحلل الموشية قال : ان فاساً بقيت معه كذلك . ثم دارت عليه الدائرة ، وتمكن عبد المؤمن من إخماد ثورته ورجع الأمر الى نصابه .

وأما ثورة القاضي عياض ، فقد كانت مزيجاً بين دينية وسياسية ، ولكنها دينية اكثر منها سياسية ، إذ ان أهل سبتة ، قارموا الموحدين أولاً نزوعاً منهم عن الخضوع لسلطة بدعية تعتقد في الامام ، والعصمة ، ما ينكره أهل السنة الذين كان عياض من زعمائهم ، فهذه وجهة نظر عياض ومن كان معه من العلماء السنيين أيضاً ولكن لما سقطت كل البلاد المغربية في حوزة الموحدين ، لم يبق لهم الا التسليم طوعاً أو كرهاً ، وهو الذي كان ، ثم لما حدثت ثورة ابن هود ، اغتم القوم الفرصة ، فأعادوا الكرة استينافاً لتأييد رأيهم الاول ، وتحدياً لسلطة الموحدين التي رأوا منها انحرافاً ظاهراً عنهم ، ولربما اشموا منها رائحة الغدر بهم ، وقد اضطروا أخيراً الى التسليم أيضاً ، وتشتت شمل القائمين بالثورة ، وتربص ببعضهم حتى توفي حتف أنفه .

٢ - وإما ان يكون أراد استرضاء البربر بذلك ، واستبقاءهم على حالهم الاول ، إذ كان قد تقرر عندهم أنهم اهل التوحيد الحق ، والاسلام الصحيح ، وغيرهم مبتدعة ومقلدون ، لا يصح الاقتداء بهم كما لا يصح ان يقفوا مواقف العظ والإرشاد لئلا يضلوا العامة ، وينحرفوا بهم عن مذهب الدولة ، فهو قد اتخذهم تكأة يستند اليها في اقامة سلطانه ببث المذهب المهدي الإمامي في الناس .

ومعلوم ان ليس من يقرره للعامة ، ويبينه لهم الا البربر الذين تلقوه عن صاحبه مباشرة إذ كانت أكثرية الرعية وجلُّ أهل العلم ، ان لم نقل كلهم في البلاد سنيين ، لا يرضون بالدخول في ذلك المذهب ، فأحرى ان يقوموا بالدعاية له .

هذا أو ذاك هو ما يكون الحامل لعبد المؤمن على سلوك هذه السياسة الرجعية كما حجب الينا أن نسميها ، ولئن كنا لا نعرف متى توقف العمل بها ، فاننا نعرف أن حظها في النجاح كان قليلاً جداً ، إذ لم يكن لها تأثيرٌ ما في ناحية من نواحي النهضة الأدبية المستجدة في ذلك العهد ، إما لحصرها في دائرة مخصوصة ، وهي الدعاية الدينية كما علمت ؛ وإما لأن الموحدين أنفسهم كانوا لا يساعدون تقدمها في السر ، وإن ساعدوها في العلانية ، فلذلك لا خوف على العربية ما دامت دائرة انتشار البربرية محصورة ، لم تشمل من المرافق العامة ، والمصالح المشتركة سوى ما ذكر ؛ زد على ذلك أن الأغلبية التي لا تغالب عربية ، فهي لا تتأثر بهذه الشرذمة القليلة من الدعاة البربريين ، كما أن أهل الكفاءة والاستعداد الذين احتلوا المناصب الرفيعة والمرتب العالية في الدولة بالرغم عنها ، وبحكم مساس الحاجة الى مؤهلاتهم العلمية ومواهبهم العقلية ، كلهم عربٌ مغاربة وأندلسيون ، فلا خوف على ما كان أولئك القادة حاميته وذادته . وهكذا لم يلبثوا ان صبغوا الدولة بالصبغة العربية ، وطبعوها بطابعهم الصميم .



الحركة العلمية

بُذِرَتْ بذور النهضة العلمية الكبرى التي نمت وترعرعت على عهد الموحدين في أيام المرابطين . وكانت الغاية المتوخاة من حركة عبد الله بن ياسين هي نشر الدين والتمكين لتعاليمه السمحة من النفوس ؛ فاستتبّع ذلك رفع راية العلم والعرفان ، ضرورة أن الدين الاسلامي والمعرفة متلازمان . ولما قام المهدي بن تومرت بحركته كان يرمي الى غاية أبعد من غاية سلفه وهي تجديد الدين . وهذه مهمة تقتضي من التوسّع في العلم أكثر مما يقتضيه نشر الدين ، فلذلك كانت العلوم على اختلافها من عقلية ونقلية ألزِم للدعوة الموحديّة من أختها المرابطية بطبيعة الحال .

وبكل اعتبار فإن الأساس الذي وقع عليه البناء في هذا العهد هو من وضع المرابطين . فقد كانت تلك الحماسة الدينية وما صاحبها من الإقبال على طلب العلم ولو الديني فقط ؛ بمادفع بالناس الى 'حبّ البحث والاطلاع' ، وأدّى الى الاحتكاك بالأندلسيين والنقل عنهم ... وكما أن العرب في العصر الأول أيام حكم الأمويّين بقوا على السذاجة البدويّة والفطرة الإسلامية ولم يُعنوا عناية كبرى بغير شؤون السياسة والدين ، وكانوا يتهيأون بعامل التطوّر للدخول في غمار المدنية العباسيّة ويستعدّون لها بمختلف العدّد والوسائل ؛ فكذلك المغاربة في العصر السابق كانوا يتهيأون لهذا العصر ويستعدّون لاقتطاف أزهاره ، واجتلاء أنواره . فما إن اقبلت تباشيره وأناخت ركائبه حتى أخذ كل شيء اتجاهه وجرت الأمور في مجاريها الطبيعيّة ، حيثنة السير ثابتة الخطى نحو التقدم والكمال .

ولنعتبر ذلك في الحركة العلميّة التي تعيننا الآن ، فهذا علم الفقه على مذهب مالك قد واصل تفرّعه وانتشاره كما كان قبل أو أكثر . ونتيجةً للتفاعل مع الدعوة الجديدة فقد مال أهله الى الترجيح والتأويل ونبذوا التعصّب لأنتمهم ومشائخهم ، وجعلوا البحث والنظر رائداهم في معرفة الحقائق وتقرير الأحكام ؛ فرجعوا بذلك الى أصوله ومصادره الأولى من الكتاب والسنة وما اليهما ، حيث وجدوا من الدولة العتيبة ميلا

اليها وتعزبداً لأهلها . لكن من غير ان تحملهم على ذلك حملاً وتلزمهم به قسراً ، حتى اشتط يعقوب المنصور ثالث خلفاء الموحدين وتصلب في تنقيح خطة ابن تومرت ومحاربة علم الفروع قصد الإجهاز عليه . فأحرق كتب المذهب وعوضها بالصحاح العشرة والمنتخب الذي اختاره منها . ويقول المراكشي في هذا الصدد : « وفي أيامه انقطع علم الفروع وخافه . الفقهاء وأمر بإحراق كتب المذهب بعد ان يُجرّد ما فيها من حديث الرسول صلى الله عليه وسلم والقرآن ، ففعل ذلك . فأحرق منها جملة في سائر البلاد كمدونة سحنون وكتاب ابن يونس ونوادر ابن أبي زيد ومختصره وكتاب التهذيب للبراذعي وواضحة ابن حبيب وما جانس هذه الكتب ونحوها .

لقد شاهدت منها وأنا يومئذ بمدينة فاس يؤتى منها بالأحمال فتوضع ويُطلق فيها النار . وتقدم الى الناس في ترك الاشتغال بعلم الرأي والخوض في شيء منه وتوعّد على ذلك بالعقوبة الشديدة ، وأمر جماعة ممن كان عنده من العلماء المحدثين يجمع أحاديث من المصنفات العشرة ؛ الصّحاحين والترمذي والموطأ وسنن أبي داود وسنن النسائي وسنن البزار ومسنّد ابن أبي شيبة وسنن الدارقطني وسنن البيهقي ؛ في الصلاة وما يتعلق بها على نحو الأحاديث التي جمعها محمد بن تومرت في الطهارة . فأجابوه الى ذلك وجمعوا ما أمرهم يجمعه ؛ فكان يلبه بنفسه على الناس يأخذهم بحفظه . وانتشر هذا المجموع في جميع المغرب وحفظه الناس من العامة والخاصة ، فكان يعمل لمن حفظه الجعل السنني من الكسا والأموال . وكان قصده في الجملة نحو مذهب مالك وإزالته من المغرب مرة واحدة وحمل الناس على الظاهر من القرآن والحديث . وهذا المقصد بعينه كان مقصد أبيه وجدّه ، إلا أنّهما لم يظهره واطهره يعقوب هذا . يشهد لذلك عندي ما أخبرني به غير واحد ممن لقي الحافظ أبا بكر بن الجدة أنه أخبرهم قال : « لما دخلت على أمير المؤمنين أبي يعقوب أول دخلة دخلتها عليه ، وجدت بين يديه كتاب ابن يونس فقال لي يا أبا بكر أنا أنظر في هذه الآراء المتشعبة التي أحدثت في دين الله . رأيته يا أبا بكر ؟ المسألة فيها أربعة أقوال أو خمسة أقوال أو أكثر من هذا ؛ فأني هذه الأقوال هو الحق وأنها يجب أن يأخذ به المقلد ؟ فافتتحت أبين له ما أشكل عليه من ذلك فقال لي وقطع كلامي : يا أبا بكر ليس إلا هذا ؛ وأشار الى المصحف ، أو هذا ، وأشار الى كتاب سنن أبي داود ، وكان عن يمينه ، أو السيف ! فظهر في أيام يعقوب هذا ما خفي في أيام أبيه وجدّه . وانتهى أمرهم معه الى ان قال يوماً بحضرة كافة الموحدين يسمعون وقد بلغه

حسداهم للطلبة على موضعهم منه وتقريبه إياهم ، وخلوته بهم دونهم ، يا معشر الموحدين انتم قبائل فمن نابه منكم أمرٌ فزع الى قبيلته ، وهؤلاء - يعني الطلبة - لا قبيل لهم إلا أنا ، فمهما نابههم أمر فانا ملجأهم ، والي فزعهم والي ينتسبون . فعظم منذ ذلك اليوم أمرهم وبالغ الموحدون في برهم واکرامهم فمن هنا تعلم ان الحالة بقيت كما كانت في أيام المرابطين مدة حكم عبد المؤمن وابنه يوسف الى أيام المنصور . أما أن هذا كان مقصد أبيه وجده ، فهو مما لا شك فيه ، بل إنه كان مقصد ابن تومرت بالأصالة وقد عمل عليه ودعا إليه في دروسه وكتبه ، إلا انه لم يكن صارما في ذلك مثل المنصور .

وعلى ما يبدو في فعل المنصور هذا من تضيق خناق الحرية الفكرية وتقييد إرادة أهل العلم فانه أفاد الحركة العلمية من الوجهة العامة فائدة جلتى ، حيث جعل الناس يقللون من الإكباب على النظر في علم الفروع المجرد ، وينصرفون الى دراسة الفقه في أصلية العظمين أعني الكتاب والسنة . فظهر الاشتغال بعلم التفسير وعكف الناس على تفهم كلام الله عز وجل ودراسته دراسة علمية صحيحة ، ونبغ المفسرون العديدون مثل عبد الجليل القصري والحرالي والمزدغي . كما انتشر علم الحديث رواية ودراية واقبل الناس على الأخذ عن رجاله والتأليف في فنونه المختلفة . وكان الأخوان ابو الخطاب وأبو عمرو ابنا دحية السبتيان وابن القطان الفاسي ومحمد بن قاسم التميمي من ألمع محدثي هذا العصر .

الفقه والتصوف :

وبما ان النظر الفقهي قد تطور فان التصوف لم يبق يعد منكرأ كذي قبل ، ولم يبق للفقهاء على أهله تلك الصولة . فظهر جماعة من الصوفية الكبار أصحاب النزعات الفلسفية وانبثت مذاهبهم المختلفة في الناس . ولا نقصد الأندلسيين منهم كابن عربي الحاتمي وابن سبعين والششتري وغيرهم ؛ فان في الصوفية المغاربة من كانوا ذوي آراء وأنظار غريبة فلسفية واجتماعية ورياضية ، كأبي الحسن المسفر وأبي العباس السبتي وأبي محمد صالح الآسفي . والجدير بالذكر هو أن النهضة الموحدية أثرت على العقول في الأندلس والمغرب تأثيراً متشابهاً فأصبح الفكر الاسلامي في كلا

القطرين محرراً من القيود التي كانت تجعله يشور لاقل بادرة من الخروج عن دائرة المسلمات والقواعد والرسوم المتعارفة . فشتان بين عهد المرابطين الذي كان فقهاؤه في كل من الأندلس والمغرب 'يحرّمون' الإحياء وغيرها من كتب الغزالي ويحكمون بإحراقها ؛ وبين هذا العهد الذي ينبغ فيه مثل ابن عربي الحاتمي وينشر كتابه الفتوحات المكيّة وغيره فلا يحرك الفقهاء ساكناً في سبيل الإنكار عليه ، مع عظم الفرق بين محتويات الإحياء ومحتويات الفتوحات مما لا تُقِرّه المذاهب الفقهية بأجمعها وربما (ورُبّ للتكثير) يتعارض مع جوهر العقيدة الإسلامية في كثير من المسائل .

علم الكلام :

وكذا الكلام أخذ حظه الكامل من الانتشار فقد كان ابن تومرت يُلزم أصحابه بدراسته إلزاماً . وكان الموحدون على العموم يعتبرون من لم يعرف العقائد على سبيل التفصيل وعلى طريقة الأشعري بالأخص يعتبرونه كافراً ليس معه من الاسلام إلا الاسم . ومن ثمّ سموا أنفسهم بالموحدين ونبذوا المرابطين خصومهم بالمجسمين . وألف المهدي لأصحابه عقائد مختصرة باللسانين العربي والبربري كما سبق القول ، فتأثر الناس بخطاه وصنّفوا في هذا العلم الكتب العديدة . وكان من أطولهم يداً وأحسنهم عارفةً في هذا السبيل عند العامة الشيخ أبو عمرو عثمان بن عبدالله بن عيسى السَّلَاجِيّ . وهو الذي على يده وقع تحوّل أهل فاس من المذهب السلفي في العقيدة الى المذهب الأشعري تبعاً للتيار العام الذي اكتسح المغرب بأجمعه في هذا الامر نتيجة لدعوة ابن تومرت . ولكن قد شيبَ صفو هذا العلم في أوائل أيام الموحدين بما أضافوه اليه من تعاليم شيعية بدعية جرياً وراء ما كان يذهب اليه داعيتهم المهدي بن تومرت من ذلك المذهب . فقد كان الاعتقاد بالامام وعصمته شائعاً في ذلك الوقت وكانت الخطب على منابر المغرب والأندلس وافريقية التي تنيفُ على أُلقي منبر لا بد ان تشتمل على الدعاء « للامام المعصوم المهدي المعلوم » حتى تقدّم بنوع ذلك يعقوب المنصور على ما أُلعنّا اليه سابقاً فكانت حسنةً من حسناته وكفارةً عن جميع ما يؤخذ عليه بشأن العلم والعلماء . وعلى كل حال فان علم التوحيد أو علم الكلام - كما سُمي قديماً - انما انتشر في هذا العصر . وما كان قبله انما هو من قبيل المحاولات الأولى . ومثله علم أصول

الفقه، فقد تبوأ من بين العلوم في هذا العصر مكاناً عالياً ووجد من القرائح المغربية مجالاً خصباً لنموه وازدهاره .

وهذا ان العلماء هما مما نقله المغرب عن المشرق مباشرةً وقد نبهنا في عصر المرابطين على الطليعة الأولى من رجالها الذين أدخلوها الى المغرب . ثم جاء المهدي بن تومرت وقد أخذها عن ائمتها الراسخين من أهل المشرق فبشها وحفز الهمم لطلبها وكان انتشارها سبباً في تقريب شقة الخلاف ما بين الفقهاء والمتكلمين والمتصوفة ، لما يحملان عليه من النظر في الأدلة وعدم المسارعة الى الانكار قبل معرفة مدرك الخصم ، وبذلك زال النزاع الشديد الذي كان قائماً بين هذه الطوائف من العلماء . والذي كان يبعث بعض الفقهاء من أهل هذا العصر على أن يقول مثل هذه المقالة المنقولة من كتاب الحلال والحرام لراشد الفاسي . قال فيه : « سمعت من أبي محمد عبدالله بن موسى الفشتالي أن الثائب إذا اقتصر على ما عند علماء الشريعة أولى . وأسلم له ، بل لا يجوز اليوم اتخاذ شيخ لسلك طريق المتصوفة أصلاً ؛ لانهم يخوضون في فروعها وهملون شروط صحتها ، وهو باب التوبة ، إذ لا يصح بناء فرع قبل تأسيس أصله . وسمعت يقول : لو وجدت تأليف القشيري لمعتها والقيتها في البحر . قال وكذلك كتب الغزالي . وسمعت يقول . إني لأتمنى على الله أن أكون يوم الحشر مع أبي محمد بن أبي زيد لا مع القشيري والغزالي بل مع أبي محمد يشكر فذلك أكثر أمناً لي على نفسي » ...

على ان الغريب في الأمر هو أن هذه الكتب التي كانت تعدد وتحرق لا تلبث ان تحبى وتروج ايضاً وهذه الإحياء ألم يحرقها علي بن يوسف ؟ فكيف عادت الى الظهور ؟ إذ لا شك انها المعنية في كلام الشيخ الفشتالي . وإذا قيل إن كتب الغزالي قد انتشرت من جديد بسبب قيام دولة الموحدين التي يُعتبر مؤسسها خريج المدرسة الغزالية وناسر تعاليمها في المغرب ، فكيف يقال في كتب الفقه المالكي التي أحرقها المنصور وقد قيل ان عبد المؤمن نفسه أمر باحراقها لما استتب له الأمر ؟ .. والجواب انه في هذا العصر كان جُلُّ الاعتماد على الحفظ والاستظهار . فبعد حرق هذه الكتب لم يصعب على الناس ان يجدوا من يستظهرها بلفظها وتكتب عنه . وهذا الشيخ أبو محمد عبدالله بن محمد بن عيسى التادلي الفاسي الفقيه الحافظ المحصل المتوفي سنة ٦٢٣ يذكر المؤرخون في ترجمته أن المدونة كتبت من حفظه بعد أن أحرقها الموحدون أي في

نفس الوقت تقريباً . وممّا لا شك فيه ان غيره كثيرون ممن كُتبت الكتب الأخرى المحروقة من لفظهم وحفظهم .

والذي نريد أن نسجّله هنا هو أن المذهب المالكي لم ينهزم مطلقاً أمام الدعوة الى الاجتهاد التي كان الموحدون يترغمونها ، ولا أمام المذهب الظاهري الذي نشط نشاطاً كبيراً في هذا العصر . وذلك برغم الحملة المنظّمة من رجال الدولة للقضاء عليه . فها أنت ترى كتبه الأمّهات يُعاد كتبها بفور إحراقها . وسترى في تسمية تأليف فقهاء العصر ما وُضع حول هذه الكتب من دراسات وما عُمِل لها من شروح . وأنا لنعدّ من فقهاء المذهب المالكي الذين نبغوا في هذا العصر العشرات قبل أن نعدّ ظاهرياً واحداً أو فقيهاً متحرّراً ممّن يميل الى الاجتهاد . ناهيك بأبي محمد يشكر الجراوي الذي سبق ذكره في كلام الشيخ الفشتالي ، فانه من فقهاء العصر وممّن كتب على المدونة ، وأبي محمد صالح الفاسي الذي بقي مثلاً مضروباً عند فقهاء المذهب للعدل المبرّز ، وأبي القاسم الجزيري صاحب المقصد المحمود في تلخيص العقود وهو الكتاب الذي اعتمده الناس في كتابة الوثائق ولم يقدموا عليه غيره ، وأبي الحسن المتيوي الفقيه الحافظ صاحب الشرح العظيم على الرسالة بالنقل لأقوال الأئمة الذين تدور عليهم الفتوى . الى غير هؤلاء ممّن يطول الأمر بتمدادهم . بل أنا لنسجل ما قام به أحد فقهاء المالكية من ردّ فعلٍ على حركة انتشار المذهب الظاهري ممثّلٍ في التهجّم على ابن حزم إمام الظاهرية بالأندلس والمغرب ، ممّا أدّى الى عقد مجلس علمي براكش للنظر في القضية . وهذا الفقيه هو ابو زكريا الزواوي أحد أفراد هذا العصر علماً وصلاًحاً . وكان مقيماً ببجاية . واليك ما كتبه الغُبَريني عن هذه الواقعة في كتابه عنوان الدراية . قال :

« ولما كان من أمر الفقيه أبي زكريا الزواوي في شأن ابن حزم ما قد اشتهر ، وتعمّص له ناس ورفعوا القضية للخليفة براكش اقتضى نظر الفقيه أبي زكريا رضي الله عنه أن يتوجّه عنه الفقيه ابو محمد عبدالكريم الحسني المراكشي . فتوجه وحمل تأليف الفقيه أبي زكريا ورده على ابن حزم المسمى حجة الأيام وقودة الأنام . ولما وصل حضرة مراكش استجضره أمير المؤمنين بين يديه بمحضر الفقهاء وعرض تأليف الفقيه عليهم وكان الفقيه ابو محمد عبد الكريم هو النائب في الحديث فأحسن وأجاد وأطلع أمير المؤمنين ومن حضر من الفقهاء على كلام الفقيه رضي الله عنه مما دلهم على فضله

ودينه وعلمه ، فكان من قول الخليفة « يترك هذا الرجل على اختياره فان شاء لعن وان شاء سكت » . وانقلب ابو محمد عبد الكريم وهو المبرور ، وسعيه المشكور ، رضي الله عنه وأرضاه .

وهذه الحادثة إن مثلت المعركة التي كانت قائمة بين المالكية وخصومهم ، فانها تدل على فشل الجهود التي بذلت لصرفهم عن مذهبهم وعلى ازدهار هذا المذهب في حين كان خصومه يعملون على ذبوله .

وعلى كل حال فان مما لا ريب فيه ان الفقه المالكي قد استفاد من هذه المعركة ، غير الانتصار على الخصم ، التلقيح بمادة الحياة الأصلية بالنسبة الى كل المذاهب الاسلامية ؛ وهي الرجوع الى الكتاب والسنة فلم يبق ذلك الفقه الساذج الذي يقارن أقوال أئمة المذهب بعضها ببعض ، ويرجعها في النهاية الى رواية ابن القاسم عن الامام مالك ، بل صار يعتمد على الأدلة وينظر في الخلاف العالي . وبذلك أخذ خير ما في الدعوة المعارضة له وأحرز كيانه .

وكذا وقع في انتشار مذهب الأشعري العقدي بعيداً عما شيب به من تعاليم شيعية غالبية على ما كانت المهدي يدعو اليه . فان الامام السلاجي الذي تجند لنشر العقيدة الأشعرية كان من أبعد الناس عن تلك الشبه وأكثرهم تمكناً بالسنة . فلما أخذ الناس عنه العقيدة المذكورة لم يكن فيها شيء من تلك الشوائب وحمى الله المغرب وأهله من الغلو والانحراف في العقيدة والمذهب .

هذا وقد قلنا إن الموحدين كانوا يدعون الى الاجتهاد ونحن نعني ما نقول خلافاً لما شاع من أنهم كانوا على مذهب الظاهرية . فان احداً من مؤرخيهم لم ينقل ذلك عنهم ، وليس يكفي أن يظهر المنصور إعجابه بأبن حزم لنحكم بأنه وقومه على مذ ١٠ كيف والذي ثبت من عمله أنه جمع من كتب السنة أحاديث في العبادات

الذري في النعم أن المنصور مرّ بأوقية من أرض شلب فوقف على قبر الحافظ أبي محمد بن حزم وقال : عجباً لهذا الموضع يخرج منه مثل هذا العالم ! ثم قال : كلّ المقام عيال على ابن حزم .

كان يملئها على الناس ويجعل لمن حفظها الجعل السني على مامر؟ فالأمر يتعلق بالدعوة الى العمل بالسنة أكثر من الانتماء الى مذهب معين . ويقول التاج ابن حويه السرخسي الذي رحل الى المغرب في أيام المنصور واتصل به اتصالاً وثيقاً حسبما اقبلته المقرئ في دفع الطيب عنه : « والذي علمت من حاله أنه كان يجيد حفظ القرآن ويحفظ متون الأحاديث ويتقنها ويتكلم في الفقه كلاماً بليغاً . وكان فقهاء الوقت يرجعون اليه في الفتاوي وله فتاوي مجموعة حسبما أدبى اليه اجتهاده . وكان الفقهاء ينسبونه الى مذهب الظاهر وقد صنّف كتاباً جمع فيه متون أحاديث صحاح تتعلق بالعبادات سماه الترغيب » فليتنبه الى قول السرخسي (وله فتاوي مجموعة حسبما أدى اليه اجتهاده) وما تفيد هذه العبارة من ميله الى الاجتهاد . والى قوله (وكان الفقهاء ينسبونه الى مذهب الظاهر) وما تعطيه هذه الجملة من انهم يتجنون عليه بذلك . وقد رأيت ان الفقيه الزواوي كان يحبر بلعن ابن حزم ، وأن أمره عُرض على الخليفة بمراكش فأقره على رأيه . وذلك مما يدل على أن الموحدين لم يكونوا ظاهرية والا لما قبلوا لعن امامهم وكبير علماء مذهبهم .

والحجة الكبيرة في أن القوم لم يكونوا على مذهب أهل الظاهر هي مجموعة كتب المهدي بن تومرت هذه التي نشرها المستشرق المجري جولدزهيير وتشتمل على كتاب أعز ما يطلب والعقيدة المرشدة وكتاب الطهارة الذي يقال ان المنصور جمع كتاباً في الصلاة على منواله ، الى غير ذلك من تعاليق المهدي وكلها ليس فيه ذكر للظاهرية ولا لعلمهم من أعلامها .. بل ان في تعاليقه الأصولية ما يعارضها وهو أثبات القياس ومدحه مما لا ينجح إليه أهل الظاهر كما هو معلوم . واذا كان هذا إمام الموحدين ومهديهم الذي أسس دولتهم ومهد مذهبهم لا يرى رأي الظاهرية ولا يبدي نحوها . أدنى ميل فلا شك أن خلفاء كانوا كذلك . وانما كان الفقهاء ينسبونهم اليها تشبيهاً عليهم كما يقال اليوم في كل من كان سلفي العقيدة : إنه وهابي ، تشكيكاً عليه وتنفيراً من مذهبه . ونظن أن ميل المهدي واتباعه الى الاجتهاد جاءهم من الشيعة الذين

١ - ما يشهد لا فناء ، هذه الآيات التي يقولها ابن عربي الحاقلي تبرياً من الظاهرية ، وهو أيضاً ممن رمي بها :

نسبوني الى ابن حزم واني	لست ممن يقول قال ابن حزم
بل ولا غيره فان كلامي	قال نص الكتاب ذلك حكمي
او يقول الرسول أو أجمع	التلق على ما أقول ذلك علمي

أخذوا بعض آرائهم ومزجوا بها مذهبهم . والشبهة كما لا يخفى يقولون بالاجتهاد ولا يدعون انقطاعه .. وهذا هو السبب الذي نفسر به انصراف الفقهاء المغاربة عن دعوة الموحدين الى الاجتهاد ، حيث انها كانت مشوبة بما لا يقبلونه من تعاليم شيعية تقدمت الاشارة اليها .

العلوم الأدبية :

هذا ملخص الخبر عن حركة العلوم الدينية في هذا العصر . ونقول الآن كلمتنا في العلوم الأدبية متوخين الإيجاز ما أمكن . ولا بد من النص أولاً على أن المراد بالعلوم الأدبية ما يشمل النحو واللغة والعروض والبيان والتاريخ والتفسير . وقد رأينا بعض ما كان لهذه العلوم من الراجح في العصر السابق على قدر ما تعطيه المصادر الضئيلة بمثل هذه المعلومات . أما في هذا العصر فقد اتسعت دائرة انتشارها وتخلفت لدينا بعض الآثار التي تدل على أن هناك نهضة حقيقية كانت تتدرج بهذه العلوم في مدارج التطور والتقدم ، تماماً كما وقع في العلوم الدينية وغيرها . ففي خصوص علم النحو ظهر النشأة الذين كان لهم مقام كبير ، والشعوا الكتب التي ما تزال تعرف بعلو قدرهم وتنبئ عن رسوخ قدمهم في هذا العلم ، كأبي موسى الجزولي صاحب الكراسة الشهيرة في النحو ، وتسمى أيضاً المقدمة الجزولية ، وبعضهم يسميها القانون والاعتماد . وكابن معطي صاحب الألفية النحوية التي عمل ابن مالك ألفيتها على مثالها ، بل إن التفوق في هذا العلم أدّى الى وجود مدارس نحوية هنا وهناك ، تفرّدت بأراء خاصة في بعض مسائل الإعراب وغيره . فهذه مدرسة فاس التي سيختلف أهلها مع مدرسة تلمسان في مسألة صرف أبي هريرة . وهذه مدرسة سبتة التي تحالف الجمهور في ضم النكرة المقصودة إذا نوتت اضطراراً . وهذه مدرسة طنجة التي توجه أسئلة نحوية الى مدرسة اشبيلية . وأخيراً هذه مدرسة المغرب بعامة التي لا تسمي لولا شرطاً ولا لو إلا إذا كانت بمعنى إن ، أي حين تكون مجردة من الامتناع ؛ وذلك في الغايات نحو قوله عليه السلام - احفظوا عني ولو آية . أشار له العلامة ابن غازي .. وإن عبّر هذا عن شيء فانما يعبر عن الدراسات القيمة التي كان المغاربة يقومون عليها ويوجهون جهودهم اليها في هذا العلم . ومثل النحو اللغة

والعروض والبيان ، فقد كانت لها سوقٌ راجحةٌ وكان اللغويون المعنيون بحفظ متن اللغة كاللغويين الباحثين في مسائلها يأتون بالطريف المعجب في تسمية الأشياء وتحقيق معاني الألفاظ . فهذا المحدث أبو الخطاب بن دحية السبتي يقول الغبريني عنه في عنوان الدراية : « إنه كان من أحفظ أهل زمانه باللغة حتى صار حوشي اللغة عنده مستعملاً غالباً عليه . ولا يحفظ الانسان من اللغة حوشيها إلا وذلك أضعاف أضعاف محفوظه من مستعملها » . وروى أن والي بحاية جهز قطعاً بحرية بعث فيها بعض الغزاة الى المغرب فأخذ خديماً لأبي الخطاب في جملة هؤلاء الغزاة أثناء إقامته ببجاية . فكتب الى الوالي رسالةً مغلقةً من كثرة ما استعمل فيها من الغريب ، فلم يفهم الوالي معناها حتى استحضر كتب اللغة ؛ الصّحاح وغيره . ولم تتضح له حتى سافرت المراكب . قال الغبريني :

« وهذا أقلّ عوارض الخروج عن العادة وعدم سلوك السبيل الجادة » وإن كان ذلك الوالي لمزيد اعتناؤه بالشيخ أبردٌ بردٌ خديمه . فصُرف اليه بعد أن وصل الى وهران . وهذه الرسالة الغربية سنوردها في المنتخبات . وكذلك أخوه أبو عمرو بن دحية السبتي كان مثله في الحفظ للغة والذكر لغريبها ، فضلاً عن كونه من رجال الحديث كأخيه . وروى ابن رُشيد في رحلته عنه بواسطة ، أنه دخل الى أشبيلية قادماً من بلنسية فجاء الى جامع العبدس بها قال : فجاءني رجل فسألني من أين جئت ؟ قلت رحلت من بلنسية في طلب علو الرواية في الحديث فقال : هل تذكر شيئاً في اللغة ؟ فقلت هي بضاعتي . فقال ما اسم البصل في لغة العرب ؟ فقلت الدؤفص . فقال : وما شاهده ؟ فقلت له قال الحجاج لطاهيه : اطبخ لنا عربريّة^١ وأكثِر دَوْفصها . قال فولّى عني ثم أقبل ومعه مملوك بيده سبنيّة^٢ بشياب وقرطاس فيه مائة دينار فدفعها إليّ وقال استعين بهذا على طلب العلم . وقال انا ابن زُهر ألفت كتاباً في الطب ذكرت فيه جميع الأعشاب (بجميع الأسماء وعجزت عن اسم آخر للبصل بالعربية) فالآن قد تم الكتاب^٣ ثم قال هذا قليل في حق مسألة من العلم .

-
- ١ - أي طاماً مصنوعاً من العربرب ، والعربرب هو حب السمّاق نوع من الشجر حاض الطعم .
 - ٢ - أي مندبل فيه كوة . وانظر تفسير سبنيّة في بحث عاميتنا والمعجبة في كتابنا « خل وبقل » .
 - ٣ - ما بين المهلاين محو من مخطوطة الرحلة المتقول عنها وهي المودعة بمكتبة الاسكوريال . وما ابتناه هو الأقرب للمعنى المراد .

وقد نشطت المباحث اللغوية في هذا العصر نشاطاً كبيراً ويكفي للدلالة على ذلك ان نشير الى ما كتبه الامام ابو القاسم السَّهيلي المالقي نزبل مراکش ودفينها من التحقيقات البالغة الأهمية في هذا الصدد ، وخاصة في كتابه الروض الأنف الشهير . والى ما كتبه العلامة ابن هشام اللخمي الاشبيلي مولداً السبتي داراً من التعاليق والشروح في النحو واللغة وتقويم اللسان ، وأهمها كتابه في لحن العامة الذي ردّه به على الزبيدي وعلى ابن مكي في الموضوع فصَحَّح ما وها فيه ، وتعرض للحن عامة زمنه ، مما يدل على تضلُّعه واتساع مادّته . وبالجملّة فهو كتابٌ مفيدٌ جداً في الاطلاع على تطوّر الدراسات اللغوية في المغرب والأندلس معاً .

ونشأت في هذا العصر فكرة نظم المسائل اللغوية تسهيلاً على الطلاب اذ كانت النظم أكثر ضبطاً وأيسر حفظاً . ومن ذلك أرجوزة العلامة ابن المناصف المسماة بالذهبية في الحلى والشّيات . وقد نظمها بمرآكش في جمادى الأولى عام ٦٢٠ فحُملت عنه وُسِّمت عليه كثيراً : ومنه نظم العلامة ابن مُعطيّ لجمهرة ابن دُرَيْد ونظمه لصَحاح الجوهرى وهي محاولةٌ جريئةٌ كما لا يخفى .

ولا نذكر هنا النحويين واللغويين كأبي عليّ الشَّلَوَّين وابن خروف وابن عُصفور وابن مضا وابن مالك وغيرهم ممَّن أظنَّهم عصر الموحدين ، إلا على سبيل التذكير بما كان لعلوم العربية نحواً ولغةً من عظيم الازدهار في هذا العصر ، ولا سيما وأكثر هؤلاء ممَّن زار المغرب وأقام فيه فأخذ عنه الطلاب ونشر معارفه بكل مكان .

وبخصوص علم العروض من العلوم الأدبية نذكر أنه في هذا العصر نبغ العلامة ضياء الدين الخزرجي السَّبَّي صاحب القصيدة الشهيرة بالخرزجية في هذا الفن والتي يسميها المشاركة بالرّأمة . وهي بقدر ما تدل على معرفته بالعروض تدل على رسوخ قدمه في الأدب حيث استطاع أن يُضمِّن أغراض هذا العلم في قصيدة لا تتجاوز مائة بيت بما استخدم في ذلك من الرُّموز والإشارات حتى عُده شرحها فيما بعد من المأثرات . وكذلك العلامة ابن أبي الجيش الانصاري صاحب العروض المعروف باسمه فإنه من نوابغ هذا العصر . وليس هو صاحب الخزرجية ولا هذه هي عروضه كما يخلط بينها بعض الكتاب . ولابن مُعطيّ ايضاً نظمٌ في العروض ذكر في ترجمته . هذا الى ما وضعه الأندلسيون من تأليف عديدة أخذت عنهم بالمغرب والأندلس وكان لها رواج

يستتبع بالطبع رواج فنّها . ولا تُنفصل في هذا الباب ما اخترع من الأعاريض والأوزان الشعرية الجديدة كالموشحات والأزجال . فان هذه وإن كانت قد اخترعت في الأندلس واثبتت من أمراء العهد المرابطي كأبي بكر بن تافلويت كلّ تشجيع إلا أنّها إنما بلغت أوج الكمال في هذا العصر . . ففما يخصّ التوشيح نرى جماعة من فرسانه ينقطعون الى أمراء الموحدين الذين كانوا يُعرفون بالسّادة يمتدحونهم بموشحاتهم . التي كانت تقع منهم أحسن موقع . ونجد سابق هذه الحلبة الوزير أبا بكر بن زهر قد اختص بالخليفة يعقوب المنصور وحظيّ عنده حظوة لا مزيد عليها . فمما لا ريب فيه ان اصطناع رجال الدولة من الموحدين لأهل هذا الفن ، هو اصطناع للفنّ نفسه يتمّ عمّا وراءه من إعجاب وتقدير ، لا سيما وقد كان نظر الأدباء المحافظين في التوشيح ليس بذلك ، كما يشعر به كلام المزاكشي في المعجب الذي امتنع عن رواية شيء من موشحات ابن زهر « لأنّ العادة لم تجر بإيراد الموشحات في الكتب » غاماً كما ينظر بعضهم اليوم الى هذا الشعر الحرّ . فتقريب الموحدين للوشاحين واحتفالهم بهذا الفنّ من القول ؛ فيه تشجيع لهم وتنشيط ، إذ الناس على دين ملوكهم كما يقولون . وانظر الى هذه الجزئية التي رويت عن السيد أبي عمران موسى بن محمد بن يوسف بن عبد المؤمن والي إشبيلية ؛ فقد أنشد له من شعره قوله يخاطب الأديب أبا الحسن بن حريق يستحثّه على نظم الشعر في عروض الحَبَب :

خُذْ فِي الْأَشْعَارِ عَلَى الْحَبَبِ فَقُصُّورُكَ عَنْهُ مِنَ الْعَجَبِ
هَذَا وَبَنُو الْأَدَابِ قَضَوْا بِعُلُوِّ حَمْلِكَ فِي الرُّتَبِ

فإن منها يظهر ان هؤلاء الامراء كانوا يوجهون الأدباء ويقترحون عليهم ما يقولون وكيف ينظمون ومثل هذه الجزئية رويت عن المنصور نفسه .

واذا كنا ذكرنا أبا بكر بن زهر وهو أندلسي لنقول إن التوشيح ازدهر على يده ؛ فان الوشاح المغربي الذي يعد قريد عصره هو القاضي ابو حفص بن عمر الأديب الشهير ؛ له موشحات مشهورة يغني بها في الأقطار كما قال ابن سعيد المغربي في الفصوص البانعة ، وإن كان لم يصلنا منها شيء ، مع الأسف ، وما قيل في التوشيح يقال في الزجل ويزاد أنهم في فاس اخترعوا وزناً جديداً منه سموه عروض البلد

ونوعوه الى انواع ، كل نوع منها له اسم . وذلك هو ما يتحدث عنه ابن خلدون في المقدمة ، بعد كلامه على الزجال ابن قزمان وطريقة أهل الأندلس في نظم الزجل فيقول : « ثم استحدث أهل الامصار بالمغرب فتناً آخر من الشعر في أعاريض مزدوجة كالموشح فنظموا فيه بلفتهم الحضرية وسموه عروض البلد وكان أول من استحدثه منهم رجلٌ من أهل الأندلس نزل بفاس يعرف بابن عمير ، نظم قطعة على طريقة الموشح ولم يخرج فيها عن الإعراب إلا قليلاً ؛ فاستحسنه أهل فاس وولعوا به وتركوا الإعراب الذي ليس من شأنهم ، وكثر شيوعه بينهم ، واستفحل فيه كثير منهم ونوعوه أصنافاً الى المزدوج والكازي والملمعة والغزل ، واختلفت أسماءها باختلاف ازدواجها وملاحظاتهم فيها . »

فهذه مدرسة جديدة للزجل نشأت بالمغرب وعملت على تطوره شكلاً ومضموناً ؛ من حيث وضعت له اسماً جديداً هو عروض البلد ونوعته الى أصناف تتدرج تحت هذا الاسم العام ، وان كان لكل صنف منها اسمٌ خاص بحسب الغرض الذي يتناوله . وقد سُمي ابن خلدون بعد ذلك بعض زعماء هذه المدرسة ؛ فذكر منهم ابن شجاع التازي والكفيف الزرهوني . والنماذج التي أعطاها من ازجالهم هذه ، ترينا كيف تطور موضوع الزجل فاصبح يستوعب أهم الأغراض الشعرية كالحماسة والحرب والمدح والوصف والوصايا والحكم ، بعد ان كان قاصراً أو يكاد على الحب والخمر ، والطبيعة والزهر . ولقد اطرده هذا التطور في الشعر الملحون ، وهذا هو ما يسمى به الزجل اليوم ، في المغرب . فصار يتضمن من الملاحم والقصص والتمثيل ما بقي يعوز الشعر المعرب في العالم العربي كله الى فجر النهضة الحديثة .

ويجب ان نشير الى أن تسمية الناس له بالشعر الملحون هي من قبيل الوصف الكاشف ، لأنه أدب الطبقة العامة ، نظمته هي أو نظمه لها أفراد يحسنون الإعراب . ولكنهم تركوه قصد الإبلاغ ، لا لكونه ليس من شأنهم كما مرّ عن ابن خلدون آنفاً . ويدلّ على ذلك قول الصّفي الحلبي في كتابه العاقل الحالي الموضوع في الزجل^١ وقد

١ - النص الوارد هنا ذكره الدكتور عبد العزيز الأهواني في كتابه « الزجل الأندلسي » نقلاً عن مصورة العاقل الحالي الموجودة بمكتبة جامعة القاهرة .

تعرض لذكر الزجال المغربي المعروف بابن عُغلة ونصه : « وقد كان ابن عُغلة الشاعر المغربي وهو من اكابر اشياخهم ، ينظم الموشح والمزمن فيلحن في الموشح ويعرب في الزجل تقصداً واستهتاراً ، ويقول : إن القصد من الجميع عذوبة اللفظ وسهولة السبك . وكان الوزير ابن سناء الملك يعيب عليه ذلك ، ولهذا لم يثبت شيئاً من موشحاته المزمنة في دار الطراز . فانظر كيف كان يلحن ويعرب تقصداً واستهتاراً ، واللحن هو المعناد في الازجال اذا نظمها الخاصة من الأدباء يتركون إعرابها مجارة للعمامة ؛ بل إنهم كثيراً ما يتركون الإعراب حتى في الموشحات تسهلاً لها وتعليحاً . ففعل ابن عُغلة ليس بدعاً في هذا الشأن ، ولكن لمزاجين خلدون لأهل قاس بكونهم ليس من شأنهم الإعراب هو الذي ليس له محل من الإعراب .

وابن عُغلة هذا هو من زجالي عصرنا الذي نتكلم عليه ، وكان عاشقاً لأخت الخليفة عبد المؤمن التي تسمى رُميلة فيما يقول الحلي ، ونظن أنها ابنة الخليفة لأخته ، ومن موشحاته الموشحة الطنانة الموسومة بالعروس التي نظمها في عشيقته وقتله الخليفة بسببها لتوهمه من مطلعها وما يليه الاجتماع بها . والواقعة مشهورة على زعم الحلي . قال : « وكان حسن الصورة جليل القدر ذا عشيرة . وكانت هي أيضاً جليلة القدر جميلة الخلق فصيحة اللسان تنظم الازجال الرائعة الفائقة .

هذا وسنثبت بعض ما أشرنا اليه من الموشحات والأزجال في باب خاص في قسم المنتخبات .

بقي كلامنا في التاريخ والسير من العلوم الأدبية . والذي نقوله عنها إنها لم يكونا أقل حظاً ولا أنجس نصيباً من غيرها في الرواج والانتشار ؛ ففي هذا العصر وضع أول تاريخ نعرفه عن المغرب حاملاً اسماً المغرب ، الأمر الذي سيصبح تقليداً متبعاً في الكتب التي توضع بعد في تاريخ هذه البلاد . وهذا التاريخ هو كتاب المعجب في تلخيص أخبار المغرب لعبد الواحد المراكشي . ولئن كانت كتب أخرى في التاريخ والتراجم قد وضعت قبله ، مثل أخبار البصرة ، وأخبار سجلماسة ، وأخبار نكور لمحمد بن يوسف الوراق ، وتاريخ الدولة اللتونية لابن الصيرفي ، وكتاب المدارك في التعريف بأعلام مذهب مالك ، وتاريخ سبته ، للقاضي عياض وغير ذلك . فان واحداً من هذه ليس كتاباً جامعاً لتاريخ المغرب بصفته بلاداً ذات وحدة

وكيان مثل كتاب المعجب ، فضلاً عن انها لم تصلنا وعن كونها بأقلام غير مغربية اذا استثنينا كتاب المدارك . ومما يُسجّل بغاية الاعجاب للعلماء المغاربة من هذا العصر ، هذا النوع من التأليف في السيرة النبوية الذي يُعدُّ حدثاً بديعاً فيها ؛ وهو المتعلق بمولد الرسول صلى الله عليه وسلم . فقد كان العزفيون رؤساء سبنة^١ قد أحدثوا فيها الاحتفال بالمولد الشريف ، ولم يكن ذلك معروفاً في المغرب ولا في غالب الاقطار الاسلامية . وألّف كبيرهم العلامة ابو العباس أحمد بن محمد كتاب الدر المنظم في مولد النبي المعظم ، الذي اكمله ولده الرئيس أبو القاسم فجاء في مجلد كبير . وفي مقدمة هذا الكتاب يشير أبو العباس الى سبب إحداثهم لذلك ويقارن بين احتفال النصارى بعيد الميلاد المسيحي ومشاركة المسلمين لهم في ذلك وإمّاهم لمولد نبيهم (ص) . وهو مع إقراره بأن هذا العمل بدعة^٢ لم يكن على عهد السلف الصالح رضوان الله عليهم ؛ فإنه يجعله من البدع المستحسنة استناداً لقول عمر (رض) في الاجتماع على تراويح رمضان يعمت البدعة هذه ويخرّجه على حديث أنس (رض) كان لأهل الجاهلية يومان في كل سنة يلعبون فيهما . فلما قدم النبي (ص) المدينة قال: كان لكم يومان تلعبون فيهما قد أبدلكم الله بهما خيراً : يوم الفطر ويوم النحر . وذلك لأنه أراد بهذا العمل أيضاً صرف المسلمين ولا سيما الصبيان عن الاحتفال بالأعياد المعظمة في الأديان الاخرى ، حتى لا ينشأوا على تعظيم تلك الأديان ، الذي ربما أدّى بهم الى الكفر ، والعياذ بالله . والكتاب على كل حال مهم في بابهِ . وليس هو الوحيد الذي وضعه علماؤنا في الموضوع ، فإن لأبي الخطّاب بن دحية السبتي أيضاً كتاب التنوير في مولد السراج المنير ، ألّفه للملك المعظم أبي سعيد التُّركاني صاحب إربل لما قدم عليه فوجده يحتفل بالمولد الشريف كما يفعل أهل بلده سبنة . ويُنْفَق في ذلك أموالاً عظيمة ، فوضع له الكتاب المذكور وقرأه في أثناء الاحتفال ، فأعطاه ألف دينار جائزة عليه ، وأخذته عنه فسمعه منه الناس بعد ذلك . ومَن سمعه منه المؤرخ ابن خلكان كما يذكر ذلك في كتابه وفيات الأعيان . على أن الكتُب في التاريخ والسِّيَر غير ما ذكرنا كثيرة^٣ وأخصّها كتاب النُّبراس في تاريخ بني العباس لأبي الخطّاب بن دحية ، وتاريخ

١ - بيت العزفيين كان من بيوتات سبنة النيلة وكان لهم بها رئاسة عليّة وسياسية ابتدأت من هذا العصر واستمرت الى عصر المرينيين . ويأتي ذكرهم بمناسبة .

الموحدين للبيدق والذئيل على صلة ابن بشكوال لابن فرتون وكتب ابن عبد الكريم التميمي وغيرهما مما يأتي مستوفى في تسمية الكتب المؤلفة في هذا العصر على العموم . ولكن ما لا بد أن ننبه عليه هنا ، ونحن نؤرخ الحركة الأدبية في المغرب ، هو المؤلفات الخاصة بالأدب وتاريخه . ولقد كاد كتاب المعجب أن يكون تاريخ أدب أكثر منه تاريخ سياسة . والسبب في ذلك أن المراكشي ألّفه في المشرق ليطلع أهله على ما خفي عنهم من شؤون أهل المغرب السياسية والأدبية . وهكذا أيضاً ألف أبو الخطّاب بن دحية ، المطرب ، من أشعار أهل المغرب ، وهو إن يكن كسلفه مليئاً بأدب الأندلس ليس فيه من آثار أهل المغرب الا القليل ، فكفانا أنشأها معاً أثران مغربيان ينمّان عن أدب صاحبيهما وعبقريتهما .

وإن ننسَ لا ننسَ كتاب صفوة الأدب ، وديوان العرب ، الذي ألّفه الشاعر أبو العباس الجراوي على وضع كتاب الحماسة لأبي تمام وضمّنه مختارات من الشعر العربي في مختلف أبوابه ، ولم يغفل أن يضمّ إليه من شعر الأندلسيين والأفارقة ما جعله يمتاز عن حماسة أبي تمام . ويُعرف بالحماسة المغربية . وقد وصلنا مختصره الذي اطلعنا منه على غزارة حفظ مؤلفه وحسن صنيعه . وبالجملة فإن نهضة علوم الأدب في هذا العصر كانت شاملة . وما يمنعنا من تتبع مظاهرها إلا خشية التطويل ، ويأتي مزيد بيان لها في الكلام على الحياة الأدبية .

* * *

العلوم الحكّمية :

وأما العلوم الحكّمية فانها انتشرت انتشاراً كبيراً لم تبلغه في أي عصر آخر ، حتى لقد كان هذا عصرها الذّهبي في المغرب ، وكان الموحدون ، والحق يقال ، أشبه الدول الإسلامية بالعباسيين في الأخذ بضبع هذه العلوم وتنشيط رجالها . لكن أربى عليهم في ذلك كإرباء المأمون على سائر العبّاسيين يوسف بن عبد المؤمن ؛ فهو مأمون هذه الدولة الذي ناصر علوم الفلسفة ووالي أهلها . وكان هو نفسه متحققاً بكثير من أجزائها مشاركاً في جملة من فنونها . ويقول المراكشي إنه استظهر من الكتاب الطبي الملكني أكثره مما يتعلّق بالعلم خاصّة دون العمل . ثم تخطّى ذلك الى ما هو

أشرف منه من أنواع الفلسفة . وكان ممن صحبه من العلماء المتفنتين أبو بكر محمد بن 'طفيل أحد فلاسفة الاسلام . له تصانيف في أنواع الفلسفة من الطبيعيات والإلهيات . وكان يأخذ الجامكية مع عدة أصناف من الخدمة من الأطباء والمهندسين والكتّاب والشعراء والرّثاء والأجناد ؛ الى غير هؤلاء من الطوائف قال المراكشي : « وكان أمير المؤمنين أبو يعقوب شديد الشّغف به والحب له . بلغني أنه كان يُقيم في القصر عنده أياماً ليلاً ونهاراً لا يظهر . ثم قال : « ولم يزل أبو بكر هذا يجلب اليه العلماء من جميع الأقطار ويُنبّه عليهم ويحضه على إكرامهم والتنويه بهم ، وهو الذي نبّهه على أبي الوليد بن رشد ، فمن حينئذ عرفوه ونبّه قدره عندهم . أخبرني تلميذه الفقيه الاستاذ أبو بكر بن داود بن يحيى القرطبي قال ، سمعت الحكيم أبا الوليد يقول غير مرّة : لما دخلت على أمير المؤمنين أبي يعقوب وجدته هو وأبو بكر بن 'طفيل ليس معها غيرهما . فأخذ أبو بكر يُثني عليّ ويذكر بيتي وسلفي ويضمُّ بفضلّه الى ذلك أشياء لا يبلغها قدري . فكان أول ما فاتحنى به أمير المؤمنين بعد أن سألتني عن اسمي واسم أبي ونسي أن قال : ما رأيهم في السماء ، يعني الفلاسفة ، أقديمة هي أم حادثة ، فأدركني الحياء والخوف فأخذت أتعطل وأنكر اشتغالي بالفلسفة ، ولم أكن أدري ما قرّر معه ابن 'طفيل ، ففهم أمير المؤمنين مني الرّوع والحياء ؛ فالتفت الى ابن 'طفيل وجعل يتكلم على المسألة التي سألتني عنها ويذكر ما قاله ارسطوطاليس وأفلاطون وجميع الفلاسفة . ويورد مع ذلك احتجاج أهل الاسلام عليهم ، فرأيت منه غزارة حفظ لم أظنّها في أحد من المشتغلين بهذا الشأن المتفرّغين له ، ولم يزل يبسطني حتى تكلمت ؛ فعرف ما عندي من ذلك ، فلما انصرفت أمر لي بمال وخيلة سنيّة ومركب . قال وأخبرني تلميذه المتقدم الذكر عنه ، قال : استدعاني أبو بكر بن 'طفيل يوماً فقال لي : سمعت أمير المؤمنين يشتكي من قلقٍ عبارة أرسطوطاليس أو عبارة المترجّمين عنه ، ويذكر غموض أغراضه ويقول : لو وقع لهذه الكتب من يلخصها ويقرب أغراضها بعد أن يفهمها جيداً لقرب ما أخذها على الناس ، فان كان فيك فضلٌ قوة لذلك فافعل . واني لأرجو ان توفي به لئلا أعلمه من جودة ذهنك وصفاء قريحتك وقوة نزوعك الى الصناعة ، وما يمنعني من ذلك إلا ما تعلمه من كبره سنّي واشتغالي بالخدمة (كان وزيراً ليوסף) وصرف عنايتي الى ما هو أهمُّ عندي منه . قال أبو الوليد : فكان هذا الذي حملني على تلخيص ما لخصته من كتب الحكيم ارسطوطاليس . »

هذا ما عمله يوسف بن عبد المؤمن في سبيل تقدّم هذه العلوم بملكته . وهاك ما عمله ولده يعقوب المنصور ممثلاً في عنايته الفائقة بفدّ من أفذاذ هذه الطبقة . فحكى المؤرخون أن الطبيب أبا بكر بن زهر كان ملازماً له ومختصاً به وكان يقيم عنده المدد الطويلة ولا يرخّص له في السفر الى رؤية أهله وصلة الرحم بذويته وقرّباه، حتى قال يوماً يتشوّق الى ولده له صغير :

وَلِيٍّ وَاحِدٌ مِثْلُ فَرْخِ الْقَطَا صَغِيرٌ تَخَلَّفْتُ قَلْبِي لَدَيْهِ
وَأَقْرَدْتُ عَنْهُ فَيَا وَحْشَتِي لِذَاكَ الشَّخِصِ وَذَاكَ الْوُجْهِ
تَشَوَّقُنِي وَتَشَوَّقُهُ فَيَبْكِي عَلَيَّ وَأَبْكِي عَلَيْهِ
وَقَدْ تَعَبَ الشَّوْقُ مَا يَبْنَا فَهُنَا إِلَيَّ وَمَنِي إِلَيْهِ

فسمعها المنصور فأرسل المهندسين الى اشبيلية وأمرهم ان يحتاطوا علماً ببيوت ابن زهر وحارته ثم يبنوا مثلها بحضرة مراكش ففعلوا ما أمرهم في أقرب مدّة ، وفرشها بمثل فرشهِ وجعل فيها مثل آلاته ؛ ثم أمر بنقل عيال ابن زهر وأولاده وحشمه وأسبابه الى تلك الدار ، ثم احتال عليه حتى جاء الى ذلك الموضع فراه أشبه شيء ببيته وحارته ، فاحتار لذلك وظنّ أنه نائم وأن ذلك أحلام ، فقبل له ادخل البيت الذي يشبه بيتك فدخله فإذا ولده الذي تشوّق اليه يلعب في البيت ، فحصل له من السرور ما لا مزيدَ عليه ولا يُعبّر عنه . فهل سمع بمثل هذا الامر في إكرام العلم والعلماء وهل بقيت بعد هذا غاية في ذلك السبيل ؟

ولا تقصر المهمة الموحدية عن أختها العباسية زيادة على ذلك في التنقيب عن الكتب النادرة وطلب المؤلفات الغريبة من سائر الجهات حتى لقد جمع يوسف بن عبد المؤمن الألوف المؤلفة منها ، وكانت مكتبته تضاهي مكتبة الحكم المستنصر بالله الأموي . وقد اورد في المعجب هذه الحكاية التي تدل على ما كان يبذله في هذا السبيل من الترضيات الكبيرة . قال : « أخبرني أبو محمد عبد الملك الشذوني أحد المتحققين بعلمي الطب واحكام النجوم قال : كنت في شببتي استعير كتب هذه

الصناعة ، يعني صنعة الأحكام ، من رجل كان عندنا بمدينة اشبيلية اسمه يوسف يكنى ابا الحجاج يعرف بالمراني بتخفيف الراء ، كانت عنده جملة كبيرة وقعت الى ابيه في أيام الفتنة بالاندلس ، فكان يعبرني إياها في غرائر ؛ احمل غرارة وأجيء بغرارة من كثرتها عنده ، فأخبرني في بعض الأيام انه عدم تلك الكتب ، يحملتها . فسألته عن السبب الموجب لذلك فأمرني إلي أن أخبرها أنني الى امير المؤمنين فأرسل الى داري ، وأنا في الديوان لا علم عندي بذلك . وكان الذي أرسل كافور الحصري مع جماعة من العبيد الخاصة وأمره ان لا يروّع أحداً من أهل الدار وان لا يأخذ سوى الكتب وتوعده والذين معه أشد الوعيد إن نقص أهل البيت إبرة فما فوقها . فأخبرت بذلك وأنا في الديوان فظننته يريد استصفاء أموالي فركبت وما معي عقلي ، حتى أتيت منزلي فاذا الحصري كافور الحجاب واقف على الباب والكتب تخرج اليه . فلما رأيته وتبين ذعري قال : لا بأس عليك وأخبرني أن أمير المؤمنين يسلم عليّ وأنه ذكرني بخير ولم يزل يبسطني حتى زال ما في نفسي ، ثم قال لي : أهل بيتك هل راعهم احدٌ أو نقصهم شيء من متاعهم ؟ فسألته فقالوا : لم يرعنا أحد ولم ينقصنا شيء . جاء ابو المسك حتى استأذن علينا ثلاث مرّات فاخلينا له الطريق ودخل هو بنفسه الى خزانة الكتب فأمر باخراجها . فلما سمعت هذا القول منهم زال ما كان في نفسي من الروع . وولوه بعد أخذهم هذه الكتب منه ولاية ضخمة ما كان يحدث بها نفسه .

وكان لخزانة الكتب عندهم ولاية خاصة لا يولاها إلا آمن ، ومن ، لأن أمرها عظيم لديهم . ومن ولي النظر فيها أيام يوسف بن عبد المؤمن ، القاضي أبو محمد بن الصقر ، وكان من أحسن العلماء نظراً في كثير من الفنون . فقام عليها أتم قيام ، واستنسخ لها كثيراً من المجلدات الضخام ، وكان كلما بالغ في النصيحة والخدمة كلما بالقوا له في العطايا والهبات .

فهذا وغيره مما اغفلنا ، فضلاً عما جهلناه ، يعطيك صورة واضحة لما كانت عليه هذه العلوم من الرواج والانتشار في عصر الموحدين الذين لم يألوا جهداً في البر برجالها والاحسان اليهم . ولا تنس المنة التي طوقوا بها عنق العالم المتمدين بانتشاهم الفيلسوف ابن رشد من وهدة الخمول ، وإحلاله في المحل اللائق به . فقد علمت أنهم الحاملون له على تلخيص فلسفة الأقدمين كما روى المراكشي عنه . وإن كانت بدت من

يعقوب المنصور في حقه نزوة فإن ذلك لا يقدر في موقف الدولة كلها إزاء رجال العلم . على أنه نفسه تدارك ما فات وعاد فاصلح ما أفسده . خصوصاً وقد كان سبب امتحانه له سياسياً محضاً كما فصل ذلك المؤرخون . فإنه في شرح كتاب الحيوان لارسطو طاليس لما ذكر الزرافة وصفها فقال : « وقد رأيتها عند ملك البربر بمراكش ، فلما بلغ ذلك يعقوب حقدتها عليه . ثم إن أعداء ابن رشد وجدوها فرصة مناسبة فأغروا المنصور عليه ، واتخذوا اشتغاله بالفلسفة ذريعة الى ذلك ، فرفعوا اليه رقاعاً فيها ما يقتضي الكفر والمروق والفرطقة ، مثل ما كان في إحداها حاكياً عن الفلاسفة اليونان ، « فقد ظهر أن الزهرة أحد الآلهة » في أشباه لذلك . فاستدعاه المنصور وأوقفه عليها وقال هذا خطك ؟ فأنكر . فأمر بإخراجه من عنده وطرده ، ولعنه الحاضرون . ثم ندم بعد ذلك على ما صدر منه وارسل يستدعيه ، فجاء واعتذر إليه واكرمه وبقي عنده حتى مات بمراكش رحمه الله . وقد كان له مندوحة عن وصف ولي نعمته بملك البربر ، وهو في الحقيقة ليس ملك البربر فقط ، ولكن للسان عشرات .

وفي أيام المنصور هذا استبحر العمران بالمغرب وزهت الحضارة وتقدم فن المعماري بتقدم حركة البناء ، إذ بنى المنصور مدينة رباط الفتح الفيحاء ، وقصبة مراكش وجامعه الفخم بها ومنار الكتبية العظيم بمراكش أيضاً ومنار حسان الضخم بالرباط ومنار الخير الدة باشبيلية الذي هو من أعاجيب الدنيا . وأنشأ في جامع مراكش المقصورة والمنبر « الأتوماتكيين » وكنا موضوعين على حركات هندسية بحيث يبرزان لدخوله دفعة واحدة ويغيبان لخروجه كذلك . كانت هذه المقصورة كبيرة تسع أكثر من ألف رجل ، كما عند صاحب الحلل . والذي صنعها هو الحاج يعيش المهندس الذي بنى جبل الفتح لعبد المؤمن وقد أعى الأدياء وصفها حتى قال ابن مجبر فيها قطعته الخالدة :

طَوْرًا تَكُونُ بَيْنَ حَوْتِهِ مُحِيطَةً فَكَأَنَّهَا سُورٌ مِنَ الْأَسْوَارِ
وَتَكُونُ طَوْرًا عَنْهُمْ مَخْبُوءَةً فَكَأَنَّهَا سِرٌّ مِنَ الْأَسْرَارِ
وَكَأَنَّهَا عَلِمَتْ مَقَادِيرَ الْوَرَى فَتَصَرَّفَتْ لَهُمْ عَلَى مِقْدَارِ

فاذا أَحَسَّتْ بِالْأَمِيرِ يَزُورُهَا فِي قَوْمِهِ قَامَتْ إِلَى الزُّوَارِ
يَبْدُو فَيَبْدُو ثُمَّ تَخْفَى بَعْدَهُ كَتَكُونِ الْحَالَاتِ لِلْأَقَارِ

فطرب المنصور لسماعها ولم يرض بما قيل في مقصودته غيرها .

كذلك بنى عدة مساجد ومدارس في كل من إفريقية والأندلس والمغرب ومنها المسجد الأعظم بمدينة سلا ومدرسته الباقية إلى الآن شاهدة بأن هذا المسجد يضاهي القرريين في الضخامة والجفوة كان من معاهد العلم المقصودة حتى احتيج إلى بناء مدرسة حوله . وبعد بناء المدارس في هذا العهد من مظاهر التقدم العلمي ، وقد أصبح تقليداً متبعاً حتى من أفراد الشعب . ونشير هنا بالخصوص إلى مدرسة الشيخ أبي الحسن الشاذلي من أعلام هذا العصر التي أنشأها في مدينة سبتة وكان لها صيت بعيد .

وفي مراكش كان يوجد مجمع علمي يسمى بيت الطلبة ، وهو يذكرنا ببيت الحكمة الذي كان في بغداد على عهد المأمون . وكان مألفاً لأهل العلم من أصليين وطارئين . وإذا علمنا أنه كانت هناك وظيفة يسمى صاحبها رئيس الطلبة ، فغير بعيد أن يكون هو عميد هذا البيت . وكان الموحدون يطلقون اسم الطلبة على أهل العلم عامة وأهل الحديث خاصة ولا يولون هذه الوظيفة إلا العلماء الراسخين أمثال المحدث ابن القطان والقاضي ابن الملقى . وفي هذا البيت استقبل أبو عمر بن عات ، وألقيت عليه أحاديث من صحيح مسلم محوطة المتن والأسانيد فأعادها إلى أصلها . فإن لم يكن بيت الطلبة هذا مدرسة للحديث كالتى أنشأها نور الدين محمود بن زنكي في دمشق ، فهو في أقل تقدير مجمع علمي كما قلنا ، تفردت به مراكش الموحدية عن سائر عواصم المغرب وإفريقية والأندلس .

وبما حلنى به المنصور جيد أعماله التمدينية ورشح تاج الحضارة المراكشية المستشفى العظيم الذي يقول صاحب المعجب فيه : « ما أظن في الدنيا مثله » . وناهيك بها شهادة من رجل جاب الأقطار واخترق الأمصار . وهاك صفته نقلاً عنه :

« وبني بمدينة مراكش مارستاناً ما أظن أن في الدنيا مثله ، وذلك أنه تخير

ساحةً فسيحة بأعدل موضع في البلد ، وأمر البنائين باتقانه على أحسن الوجوه فأتقنوا فيه من النقوش البديعة والزخارف المحكمة ما زاد على الاقتراح ، وأمر ان يُفرس فيه مع ذلك من جميع الأشجار والمشمومات والمأكولات ، وأجرى فيها مياهاً كثيرة تدور على جميع البيوت ، زيادةً على أربع برك في وسطه ، إحداها رخام أبيض . ثم أمر له من الفُرُش النفيسة من أنواع الصّوف والكتان والحرير والأديم وغيره بما يزيد على الوصف ويأتي فوق النعت ، وأجرى له ثلاثين ديناراً في كل يوم يرسم الطعام وما يُنفق عليه خاصةً ، خارجاً عما جلب اليه من الأدوية وأقام فيه من الصيدالة لعمل الأثرية والأدهان والأكحال ، وأعدّ فيه للمرضى ثياب ليل ونهار للنوم من جهاز الصيف والشتاء ، فاذا نَقِه المريض فان كان فقيراً أمر له عند خروجه بمال يعيش به ريثما يستقلّ ، وان كان غنياً دفع اليه ماله وتركه وسببه ، ولم يقصّره على الفقراء دون الأغنياء بل كلُّ من مرض بمراكش من غريبٍ حَمِلَ اليه وعولج الى أن يستريح أو يموت . وكان في كل جمعة بعد صلاته يركبُ ويدخله يعود المرضى ويسأل عن أهل بيت ، بيت يقول : كيف حالكم وكيف القومة عليكم الى غير ذلك من السؤال ، لم يزل مستمراً على هذا الى أن مات رحمه الله .

وفي هذه القطعة دليل على تقدّم علم النّبات والفلاحة فضلاً عن الطب والكيمياء ، وبستان المسرة أعظم دليل على ذلك . وهو بستانٌ أحدثه عبد المؤمن بضاحية مراكش ، طوله فيما يقول ابن عذارى وصاحبُ الحُلل ثلاثة أميال وعرضه قريبٌ من ذلك . وكان فيه كلُّ فاكهة تُشهى وجلب إليه الماء من أغابت زيادةً على ما استنبط له من العيون الكثيرة . وأنشأ فيه صهريجاً واسعاً كالبحيرة كان يزرع فيه الجنود وشيوخ الموحدين على العوم والتجذيف كما في الحُلل . وهذا الصّهريج هو المعروف بالمنارة الكائن في أكدال مراكش . قال ابن إليّس : وما خرجت أنا من مراكش في سنة ثلاثٍ وأربعين وخمسة إلا وهذا البستان الذي غرسه عبد المؤمن يبلغ مبيع زيتونه وفواكه ثلاثين ألف دينار مؤمنيةً على رخص الفاكهة بمراكش . قال النّاصري : « ودعاه ابن عذارى ببستان المسرة وقال انه بظاهر جنان الصالحة . ولشهرة هذا البستان وموقعه من الناس لهجت به صبيانهم وسجعوا به فيقولون :

يا جرادة مالحه ، أين كنت سارحة ، في جنان الصالحة ... في أسجاع غير هذه

تجري على السنة الصبيان . وما زال هذا النشيد الشعبي مرويّاً عند الصّغار حتى الآن .

ثم بعد هذا لا نخال القول بتقديم الصنائع النفيسة والفنون الجميلة كالنقش والتزويق وعمل الفسيفساء والمقربص إلا خبراً بعلوم . فقد رأيت ما كان بها من الاهتبال ، وعليها من الإقبال ، حتى انهم لم يخلوا منها المستشفى الذي أنشئ لغير من يهمهم أمرها من المرضى . ولكن الغاية في هذا الباب هو ما عمله عبد المؤمن في تحلية المصحف العثماني الإمام . وقد كتب في ذلك وزيره ابن طفيل رسالةً بديدةً نرى أنفسنا مضطرين الى نقل ما يتعلق منها بهذا الفرض . قال بعد ان استهلها ببيان كيفية وصوله الى عبد المؤمن بطريق الهدية من أهل قرطبة بعد أن تعلقت به نفسه جداً التعلق ، لكنه أبى أن يسلبهم تلك الذخيرة الثمينة ويوحش أنفسهم بفقده حتى جادوا به بمحض اختيارهم طيبةً به أنفسهم :

« ثم إنهم أدام الله سبحانه تأييدهم ، ووصل سعودهم ، لما أرادوا من المبالغة في تعظيم المصحف المذكور واستخدام البواطن والظواهر فيما يجب له من التوقير والتعزير ، شرعوا في انتخاب كسوته ، وأخذوا في اختيار حليته ، وتأنقوا في استعمال أحفظته ، وبالغوا في استجادة أصنوفته ، فحشروا له الصناعات المتقنين ممن كان بحضرتهم العلية ، وسائر بلادهم القريبة والقسيّة . فاجتمع لذلك حذاق كل صناعة ومهرة كل طائفة من المهندسين والصوّاعين والنظّامين والحلّاثين والنقّاشين والمرصّعين والنجارين والزوّاقين والرسميين والمجلّدين وعرفاء البنّائين ولم يبق من يوصف ببراعة ، وينسب الى الحذاق في صناعة ، إلا أحضر للعمل فيه ، والاشتغال بمعنى من معانيه ، فاشتغل أهل الحيل الهندسية بعمل أمثلة مخترعة ، وأشكال مبتدعة ، وضئوها من غرائب الحركات ، وخفي إمداد الاسباب للسببيات ، ما بلغوا فيه منتهى طاقتهم ، واستفروا فيه جهد قوتهم . والهمة العلية ادام الله سموها تترقى فوق معارجهم ، وتتخلص كالشهاب الثاقب وراء موجهم ، وتنيف على ما ظنوه الغاية القصوى من لطيف مدارجهم ؛ فسلكوا من عمل هذه الأمثلة كل شعب ، ورأوا من منتشرها كل شعب وأشرفوا عند تحقيقها ، وابرّاز دقيقتها ، على كل صعب ، فكانت منهم وقفة كادت لها النفوس تياس عن مطلبها ، والخواطر تكرر راجعة عن خفي مذهبها ، حتى اطلع الله خليفته في خلقه ، وأمينه المرتضى لاقامة حقه ، على وجه انقادت فيه تلك الحركات

بعد اعتيادها ، وتخلصت أشكالها عن الاعتراض على أحسن وجوه خلاصها ، ألقوا ذلك أيدهم الله بنصره ، وأمدّهم بمعونته ويُسره ، الى المهندسين والصنّاع فقبلوه أحسن القبول ، وتصوّروه بأذهانهم فرأوه على مطابقة المأمول . فوقفهم حسنُ تنبيه ما جملوه على طور غريب من موجبات التعظيم ، وعلموا أن الفضل لله يؤتاه من يشاء والله ذو الفضل العظيم ، وسيأتي بعد هذا إشارة الى تفصيل تلك الحركات المستغربة ، والاشكال المؤنقة المعجبة ، مما صنع للمصحف العظيم ، من الأصونة الغريبة ، والأحفظة العجيبة ، أنه كُسيّ كله بصوان واحد من الذهب والفضة ذي صنائع غريبة ، من ظاهره وباطنه ، لا يشبه بعضها بعضاً ، قد أجري فيه من الوان الزجاج الرومي ما لم يُعهد له في العصر الاول مثال ولا عمّر قبله بشبه خاطر ولا بال ، وله مفاصل تجتمع اليها أجزاءه وتلتئم ، وتلتاسق عجائبه وتنظم ، قد أميلت للتحرك أعطافها ، وأحكم إنشاؤها على البغية وانعطافها ، ونظّم على صحيفته وجوانبه من فاخر الياقوت ونفيس الدرّ وعظيم الزمردّ ما لم تزل الملوك السالفة ، والقرون الخالفة ، تتنافس في أفرادها ، وتتوارثه على مرور الزمن وترداده ، وتظنّ العزّ الأقمس ، والملئك الأنفس ، في ادّخاره وإعداده ، وتسمي الواحد منها بعد الواحد بالاسم العَلَمَ لشذوذه في صنعه واتحاده ، فانظم عليه منها ما شاكله زهر الكواكب في تَلألئهِ واتّسّاده ، وأشبهه الروض المزخرف غبّ سماءٍ أفلعت عن إمداده ، وأتى هذا الصّوّان الموصوف رائق المنظر ، آخذاً بمجامع القلب والبصر ، مستولياً بصورته الغريبة على جميع الصور ، يدهش العقول بهاءً ، ويحير الألباب رواءً ، ويكاد يُغشي الناظر تالئقاً وضياءً ، فحين تمتّ إحصاله ، واستركبت أوصاله ، وحان ارتبأطه بالمصحف العظيم واتّصاله ، رأوا أدام الله تأييدهم ، وأعلى كلمتهم ، بما رزقهم الله تعالى من ملاحظة الجهات ، والإشراف على جميع الثّنيات ، ان يتلطّف في وجهه يكون به هذا الصّوّان المذكور طوراً متصلاً وطوراً منفصلاً ، ويتأثى به للمصحف الشريف العظيم أن يُبرز نارة للخصوص متبدلاً ونارة للعموم متجملاً ، إذ معارج الناس في الاستبصار تختلف ، وكلّ له مقام اليه ينتهي وعنده يقف ، فعُمل فيه على شاكلة هذا المقصد . وتلطّف في تتميم هذا الغرض المعتمد ، وكُسيّ المصحف العزيز بصوان لطيف من السّندس الأخضر ، ذي حلية عظيمة خفيفة تلازمه في الغيب والمحضر ، ورُتّب ترتیباً يتأثى معه ان يُكسى بالصّوّان الأكبر ، فيلتم به التّشاماً يُغطّي على العين من هذا الأثر . وكملّ ذلك كله على أجل الصفات وأحسنها ،

وأبداع المذاهب وأتقنها ، وُصنع له محملٌ غريب الصنعة ، بديع الشكل والصبغة ، ذو مفاصل ينبو عن دقتها الإدراك ، ويشهد بها الارتباط بين الفصلين ويصح الاشتراك ، مُفتش كلُّه بضروب من الترصيع ، وفنون من النقش البديع ، في قطع الأبنوس والخشب الرفيع ، لم تُعمل قط في زمن من الأزمان ، ولا انتهت قط إلى أيسره ثواقب الأذهان . مدار بصنة قد أُجريت في صفائح الذهب ، وامتدت امتداد ذوائب الشُّب ، وُصنع لذلك المحمل كرميٌ يحمله عند الانتقال ، ويشاركه في أكثر الأحوال ، مرصعٌ مثل ترصيعه الغريب ، ومشاكل له في جودة التقسيم وحسن الترتيب ، وُصنع لذلك كله تابوتٌ يحتوي عليه احتواء المشكاة على أنوارها ، والصدور على محفوظ أمارها ، مُكعب الشكل ، سام في الطول ، حسن الجملة والتفصيل ، بالغٌ ما شاء من التتيم في أوصاله والتكميل ، جار مجرى المحمل في التزيين والتجميل ، وله في أحد غواربه باب رُكبت عليه دفتان قد أحكم إرتاجُهما ، ويُسر بعد الإبهام انفراجُهما ، ولانفتاح هذا الباب وخروج الكرسي من تلقائه ، وتركب المحمل عليه ، ما دبّرت الحركات الهندسية ، وتلقّيت التنبيهات القدسية ، وانتظمت المعجائب المعنوية والحسية ، والتأمت الذخائر النفيسة والنفسيّة ، وذلك ان بأسفل هاتين الدفتين فيصلاً فيه موضع قد أعد له مفتاح لطيف يُدخل فيه . فإذا دخل ذلك المفتاح فيه وأدير به اليد انفتح الباب بانعطاف زائدة الدفتين إلى داخل الدفتين من تلقائهما ، وخرج الكرسي من ذاته بما عليه إلى أقصى غايته . وفي خلال خروج الكرسي يتحرك عليه المحمل حركة منتظمة مقترنة بحركة يأتي بها من مؤخر الكرسي زحفاً إلى مقدّمه . فإذا كمل الكرسي بالخروج وكمل المحمل بالتقدم عليه ، انقلب الباب برجوع الدفتين إلى موضعها من تلقائهما دون أن يسّرها أحد ، وترتيب هذه الحركات الأربع على حركات المفتاح فقط دون تكلف شيء آخر . فإذا أدير المفتاح إلى خلف الجهة التي أدير إليها أولاً ، انفتح أولاً الباب وأخذ الكرسي في الدخول والمحمل في التأخر عن مقدم الكرسي إلى مؤخره ؛ فإذا عاد كلٌّ إلى مكانه انسدّ الباب بالدفتين أيضاً من تلقائه . كلٌّ ذلك يترتب على حركات المفتاح كالذي كان في حال خروجه . وصعّة هذه الحركات اللطيفة على أسباب ومسببات غائبة عن الحس في باطن الكرسي ، وهي مما يدقّ وصفها ويصعب ذكرها ، أظهرتها بركات هذا الأمر السعيد ، وتنبيهات سيدنا ومولانا الخليفة أدام الله تعالى أمرهم ، وأعز نصرهم .

هذا ما أردنا نقله من رسالة ابن طفيل وهي على طولها ممتعة ومفيدة في معرفة مدى ما وصلت اليه هذه الصنائع الدقيقة من الرقي والكمال . ودون هذا فان صنائع أخرى جليلة كانت في غاية من التقدم والاتقان كصناعة الأسلحة بجميع أنواعها والآلات الحربية والسفن ، وكان لهذه دوراً كبيراً في مختلف الموانئ . وفيها صنع الاسطول المغربي العظيم الذي كان يصول ويحول في عرض البحر . واقرأ إن شئت في نفح الطيب ما للشعراء في وصفه من القصائد الطنانة التي تستشعر منها روح الفخار وتتعرف عظمة الاجداد .

وفي هذه الاثناء كان الشريف الادريسي في صقلية يتقرئ البلاد بجرأ وبراً لأجل أن يؤلف كتابه (نزهة المشتاق في اختراق الآفاق) ، فيخلف لنا ذلك المستند الجغرافي الذي ما برح مرجعاً مهماً للمستكشفين وأرباب الرحلات ووضع الخرائط والمصورات .

واذا كانت مظاهر الحضارة لشعب من الشعوب تتمثل في شتى نواحي حياته الاجتماعية كما تتمثل في النهضة العلمية والصناعية فان من أخص هذه النواحي ما يتصل بخفض العيش وترف البيت ، وأجلى ما يتمثل فيه ذلك المطبخ . ومن ثم قال بعض الحكماء : « أرني مطبخ أية أمة أخذت عن حضارتها » . والواقع ان المطبخ المغربي في هذا العصر بلغ الغاية من التفتن في إعداد أنواع الطاعم والشارب واتقانها بما لا نعرف له مثيلاً الآن . وقد أقفنا هذا من كتاب في الموضوع لمؤلف معاصرنا تحدث إلينا عن أكثر من خمسمائة لون من ألوان الطعام والشراب والحلوى والمربى وما الى ذلك مما كان يعمل للخلفاء الموحدين والأمراء منهم ورجال دولتهم على العموم . ومنهم ما يحمل اسم بعضهم لكونه كان يعجبه كثيراً أو لكونه من اقتراحه . ومنها ما يعرف باسمه العم ، ومنها ما يعرف بصفته . وبعض هذه الاسماء لا يزال عندنا مستعملاً . والمهم هو أن من هذه الأطعمة ما ينسب بعض الناس اليوم الى الأتراك ويعتقدون أنه مما أخذ عنهم أثناء حكمهم للقطر الجزائري بموجب المداخلة

١ - هو مخطوط مجهول المؤلف ، كتب الاستاذ ويسى المستشرق الاسباني المعروف بحثاً عنه في مجلة معهد الدراسات الاسلامية بمدريد ، المجلد الخامس الصادر في سنة ١٩٥٧ .

والاتصال ، مع أنه مما كان موجوداً في عصر الموحدين هذا ، قبل ظهور الاتراك ووصولهم الى المغرب بكثير .

ولعل قائلًا يقول وما نصيب المرأة في هذه النهضة الشاملة الكاملة ، وهي التي إذا عذمت مشاركتها في عمل ما يعتبر غير كامل ولا شامل . والجواب أن المرأة المغربية كانت دائماً عنصراً فعالاً في تطور البلاد وتقدمها وازدهارها . وقد ذكرنا عملها العظيم في العصر الأول الذي يتمثل في تأسيس كلية القرويين ومشاركتها في الأعمال السياسية والأدبية في العصر المرابطي . ولا يشذُّ هذا العصر عن سالفه في أخذ المرأة بأسباب النهوض ، بل إنه يعطينا أمثلة رائعة لمساهمتها في ضروب النشاط الفكري بأطلاق من علمي وأدبي . فمن الاسماء اللامعة التي عرفت بصفتها العلمية السيدة زينب ابنة الخليفة يوسف بن عبد المؤمن . كانت عالمة فاضلة أخذت علم الكلام عن أبي عبد الله بن ابراهيم ، وهي زوج ابن عمها السيد أبي زيد بن أبي حفص بن عبد المؤمن . ومن نساء الشعب السيدة خيرونه التي ألف الامام السلاحي عقيدته البرهانية من أجلها . ولا شك ان لها يداً في نشر التوحيد على مذهب الأشعري بين نساء أهل فاس إسوة باستاذها الذي ألعبنا الى عمله في هذا الصدد . ومنهن في علم الرواية والحديث الشئخة أمُّ المجد مريم بنت أبي الحسن الشاري صاحب المدرسة بسبته . ومنهن في علم الفقه السيدة محلة المراكشبة التي كانت من حفاظ المدونة ، ومنهن في التصوف والعلوم الثدنية السيدة منية بنت ميمون الدكالي وسواها كثيرات . وهذا الصنف من السيدات هو الذي يتسامح كتّاب الطبقات بذكره في مؤلفاتهم ؛ فلذلك نقف على العدد العديد منهن ، في حين ان الأصناف الأخرى إنما تذكر اسمائهن عرضاً في تضاعيف الكتب . ولعل الاتصال الذي كان مسموحاً به في العرف لهؤلاء السيدات بصفتن من الصالحات القاتنات له دخل في ذلك . واما في العلوم الأدبية والكتابة والشعر فقد سبقت الإشارة الى السيدة رُميلة من بيت الخلافة الموحدية ، وما كان لها من فصاحة وبلاغة في النظم . ومن نساء الشعب النابغات في ذلك السيدة الشريفة أمة العزيز بنت أبي محمد بن الحسن ابن أبي الجسّام الحسيني السبتي . ذكرها ابن دحية في المطرب وقال انها أخت جده لأمه . ومنهن السيدة حفصة بنت القاضي أبي حفص بن عمر . وقد ذكرها الشاعر

أبو العباس الجراوي في شعره وذكر نبوغها على طريقته في الهجاء والتعريض، فأجاب عنها والدها ولم تنزل هي لجوابه ترفعا وتصاونا. ومنهن السيدة ام النساء بنت عبد المؤمن التاجر القاسي، ذكرها ابن عربي الحاتمي في كتاب المحاضرات وقال إنها تجيد الشعر وقد أنشدت للسيد أبي علي صاحب فاس عند ولايته عليها قصيدة تقول في مطلعها :

جاء البشير بوعدٍ كان يُنتظرُ فأصبح الحقُّ ما في صفوه كدرُ
من خير هادٍ غدا بالهدى يأمرنا وفي أوامره التسيّد والنظر

وفيهما تصفه بالشجاعة :

ليثٌ إذا اقتحم الأبطال حوّمها يُفني الكتائب لا يُبقي ولا يذرُ

ويضيق المقام عن استيفاء الكلام على جميع مظاهر النهضة العلمية الكبرى في هذا العصر فلنكتف بهذا القدر فان فيه غنية لذوي الألباب .



الهيئة العلمية وآثارها

نرى من تتمة البحث السابق ، أن نُذيلَه بكلمات مختصرة جداً في حياة بعض الأفراد الذين كانوا قِوام الحركة العلمية في هذا العصر ، فنُحيي ذكرياتهم ، ونتعرّف أحوالهم ولو بصفة إجمالية ، ونُضيف إلى ذلك جريدةً بأسماء الكتب المؤلفة فيه ، في مختلف العلوم والفنون ، فنُحيط علماء بالمجهودات الطائفة التي بذلها أسلافنا رحمهم الله في خدمة العلم ، ونُتصوّر الحركة العلمية الموحّدة على حقيقتها، حتى لا نبقى متشوّقين بعد ذلك إلى زيادة بيان .

أبو القاسم الجزيري

عليّ بن يحيى بن القاسم الصنهاجي ، يكنى أبا القاسم وأبا الحسن ، أصله من بلاد الريف وتزل الجزيرة الخضراء فنُسب إليها . كان فقيهاً متمكناً يشتغل بالتدريس وعقد الشروط ، ثم ولي قضاء الجزيرة ، وكان متواضعاً كثير الأوراد صاحب علم وعمل . وله في الشروط مختصر مفيد جداً سُمّي بالمقصد الحمود في تلخيص العقود ، كثر استعمال الناس له لجودته ودلالته على معرفته ، قاله ابن الأبار . وهو من مصادر تحفة الحكم لابن عاصم ، كما صرّح بذلك في خطبتها . وتوفي في الجزيرة في شهر ربيع الأول سنة ٥٨٥ هـ وهو ابن ٦٠ سنة .

أبو محمد صالح

فقيه فاس وصالحها ، أبو محمد صالح بن جنّون الهسكوري المضروب مثلاً بين الفقهاء للعدل المبرّز . وهو الفائق في العدالة بمعنى الشهادة ؛ لجمعه بين المعرفة والنزاهة .. ولذلك يختصُّ بأحكام عن بقية العدول أي الشهود ، وأول من ضربه

مثلاً لذلك ابنُ عرفة الفقيه المشهور . أخذ المترجم عن الشيخ أبي محمد يَشْكُر فقيه فاس قبله وأخذ عنه الفقيه أبو الفضل راشد الوليدي صاحب كتاب «الحلال والحرام» والشيخ أبو إبراهيم الأعرج صاحب «الطُّرُر على المدوِّنة» وله تقييد على الرسالة كُتِبَ من إملائه في درسه لها . وتوفي سنة ٦٥٣ وهو غير أبي محمد صالح صاحب الطريقة الصوفية التي جعلت من أهم أغراضها الحج الى بيت الله الحرام . نعم إنشأها كانا متعاصرين ، والأول فاسي ، والثاني آسفي .

عبد الجليل القصري

أبو محمد عبد الجليل بن موسى بن عبد الجليل الأوسمي الأنصاري من أهل القصر الكبير ، وبالنسبة اليه شهر ، روى عن ابن حُسَيْن أخذ عنه الموطأ بفاس ولازم أبا الحسن بن غالب بالقصر الكبير ، وحدث بكتاب اليقين من تأليفه ، كما روى عن غيره . وألّف كتاب تفسير القرآن وشُعَبُ الايمان وشرح الأسماء الحسنی والأُسْلة والأجوبة ، وفَسَّر مُشْكَلَ الكتاب والسُنَّة في سِفَرٍ ومِط وغير ذلك . وتأليفه كلها جليلة مفيدة في بابها لم يُسَبِّقَ إليها ، وكلامه في طريق التصوُّف سهل محرَّر مضبوط بظواهر الكتاب والسنة ، قاله ابن الزُّبَيْر ، وكانت له مشاركة في علوم شتى ، وتصرُّف في الأدب واللغة والنحو وغير ذلك ، ورزق من علاء الصيت وجميل الذكر ما لم يُرزقه كثير من الناس ، وتوفي رحمه الله بسبْنة سنة ٦٠٨ .

المزدغي

هو ابو الحجاج يوسف بن عمران المزدغي الفاسي ، أحد الفقهاء الأعلام . أخذ بفاس عن أبي ذرّ الحُشَنِي وأبي محمد بن ريدان ، ولقي بتمامان الفقيه أبا عبد الله بن عبد الرحمن التَّجِيجِي ؛ فأخذ عنه وأجاز له . ورحل الى الأندلس فقرأ بقرطبة وإشبيلية على جلَّة أشياخها ، وكان عالماً بالنحو واللغة والبديع ، ذاكرًا للتاريخ والآداب ، ينصُّ كتاب زهر الآداب وكتاب الأمالي ومقامات الحريري وكتب السير نصاً

واقصر على إقراء الحديث والتفسير فكان إماماً فيها ، وله تفسير جليل وصل به الى سورة تبارك الملك وهو من أبدع التفسير . وله تأليف مفيدة في فنون شتى ، منها كتاب الفرق بين الأغنياء المعنئين والفقراء المضطرين ، وما يجب في ذلك على الولاة الآمرين وعلى جميع المسلمين ، وهو فيما يجب للفقراء في أموال الأغنياء ، وكتاب في الوفاء وضعه على حديث « إذا نزل الوفاء الخ » . وعقيدة وشرح الأحكام ، وأرجوزة في علم الأصول مفيدة قريبة المرام أولها :

الحمد لله العليّ الأعلى رب العوالي والعُلا والسُفلى

وملك الدنيا ويوم الدين ومُبدع الخلق بلا مُعين

أحمدُه حمداً يوازي فضله فليس شيء في الوجود مثله

ولد سنة ٥٧٧ وتوفي سنة ٦٥٥ .

محمد بن قاسم التبيي

من أهل فاس يكنى أبا عبد الله ، سمع من ابن حنين وغيره ، ورحل الى المشرق رحلة خافلة ، أقام فيها خمسة عشر عاماً ، ولقي نحواً من مائة شيخ أكثر من الرواية عنهم وتوسع في السماع منهم ، وأجاز له بعضهم . ومن أعلامهم أبو طاهر السلفي وأبو عبد الله الحضرمي وأبو محمد بن برّي وأبو القاسم البوصيري وسواهم . وجمع في ذلك فهرسة كبيرة سماها بالنجوم المشرقة في ذكر من أخذت عنه من كل ثبث وثيقة ، واختصر منها جزءا اقتصر فيه على مسنوعه من أكثرهم دون استيفاء أسمائهم ، ومن مصنفاته أدب المريد ورسالة الحنين الى الأوطان ، واللمعة في ذكر أزواج النبي صلى الله عليه وسلم وأولاده السبعة والإنابة في ذكر طريق أهل الاستجابة ، والمستفاد من مناقب العباد والزهاد بمدينة فاس وما يليها من البلاد وغير ذلك . وكان من رجال الحديث والمعرفة بتراجم الرجال ، ومن أهل التصوف والصلاح ، وحدث بالمشرق والمغرب . ومن أخذ عنه ابن الكردبوس وابن عربي وتوفي ببلده في حدود سنة ٦٥٤ .

ابن القطان

هو المحدث الحافظ النظار أبو الحسن علي بن محمد بن عبد الملك بن يحيى بن ابراهيم الكتامي الحيري القاسي المعروف بابن القطان . سمع أبا عبد الله بن الفخار فكثر عنه وأبا الحسن بن النقرات وأبا جعفر بن يحيى الخطيب وأبا ذر الحسني وجماعة . وكان من أبصر الناس بصناعة الحديث وأحفظهم لأسماء رجاله ، وأشدهم عناية بالرواية مع تفنن ومعرفة ودراية ، جمع برنامجاً مفيداً في شيوخه ، نقل منه ابن الأبار في التكملة ، ورأس طلبة العلم بمراكش ، ونال دنيا عريضة بخدمة السلطان . وله تأليف منها كتاب النزاع في القياس ، في ابطال القياس ، وكتاب الوهم والإيهام الواقعين في كتاب الأحكام لعبد الحق الاشيلي ، ومختصر النظر في أحكام النظر ، ومقالة في المكايل والأوزان . وتوفي بسجلماسة وهو قاضيا في شهر ربيع الأول سنة ٦٢٨ .

عثمان السلاجي

هو الشيخ المتكلم النظار أبو عمرو عثمان بن عبد الله بن عيسى ، ويقال عسلوج القيسي القاسي ، عُرف بالسلاجي نسبة الى جبل سليلجُو بقرب مدينة فاس ، كان راسخ القدم في علم الاعتقاد على مذهب الامام الأشعري ، وكان المغرب في أيام طلبه لا يزال يعتنق مذهب السلف في العقيدة ، وصادف ظهور الموحدين ودعوتهم الى المذهب الأشعري فتكبد المشاق في طلب هذا العلم . ثم جاهد جهاد الأبطال في سبيل نشره وتعميمه بين الناس ومن ثم قيل إنه هو الذي أنقذ أهل فاس من التجسيم أي من اتباع مذهب السلف الذي كان الموحدون يسمّون أتباعه مجسمين ، نكاية بأعدائهم المرابطين الذين كانوا على هذا المذهب . وقد أراد رجال الدولة الجديدة تقريبه وإحافه بحاشيتهم فعزف عن ذلك ، وانقطع الى بث العلم ، مخلصاً النية في ذلك لله عز وجل ، مجنباً نفسه التورط فيما كانوا يدعون اليه من البدعة ، وينتحلونه من مذاهبها . أخذ عن محمد بن عيسى التادلي وأبي الحسن بن حرزهم

ومحمد بن الرّمّامة وغيرهم من شيوخ فاس ، وأتقن علم العقائد على ابن الاشبيلي وألّف عقيدته البرهانية لامرأة صالحة كانت بفاس تسمى خيرونه وهي في صفحات وتوفي بفاس سنة ٥٧٤ هـ .

ابن الكتّاني

هو العلامة المتكلم ، الأصولي الأديب ابو عبدالله محمد بن عبد الكريم الفندلاوي الفاسي يعرف بابن الكتّاني . قال ابن الأبار : كان إماماً في علم الكلام وأصول الفقه ، مدرّساً لذلك حياته كلها ، وكان له حظ من الأدب ، وله رجزٌ في أصول الفقه ، أخذ عنه وسمع منه . وروى عنه جماعة منهم أبو محمد النّّاميّسي وأبو الحسن الشاربي ، وقال : أخذت عنه جملة وافرة من إرشاد أبي المعالي وتلخيصه تفهّماً ، وسمعت عليه رجزه . وله أيضاً كتاب تفسير الأكيال والأوزان نقل عنه بعض شراح الرسالة . وهو ممن أخذ عن الامام السلاّجي ، وتوفي في ذي الحجة سنة ٥٩٦ هـ .

أبو العباس السّبيّ

أحمد بن جعفر الخزرجي أحد كبار المتصوفة ومشاهيرهم الآخذ بمذهب غريب في الدين ، مولده في سبتة ببلده سنة ٥٢٤ واستوطن مراكش وبها توفي سنة ٦٠١ .

كان مذهبه ألا يترك لنفسه ناضاً من المال إلا قدر ما يقوته وعياله في يومه ، وباقيه يتصدق به . وكان يرى أن أهل الجمال من النساء الفقيرات تحب الصدقة عليهن مخافة فسادهن ، وأن القبيحات لا يتصدق عليهن حتى يستغني الملاح ، وكان يرى أن الرجل اذا اعتلّ في جسده عضوٌ يتصدق بديّته ويسبراً . فهو أول اشتراكي وضع للاشتراكية مبادئ وقوانين كما ترى . وحدث أبو القاسم عبد الرحمن ابن إبراهيم الخزرجي قال : بعثني أبو الوليد بن رشد من قرطبة وقال لي : إذا رأيت أبا العباس السّبيّ بمراكش فانظر مذهبه واعلمي به . قال فجلستُ مع السّبيّ كثيراً

الى أن حصلت مذهبه فأعلمته به ، فقال لي أبو الوليد : هذا رجل مذهبه أن الوجود يفعل بالوجود . وكان فصيح اللسان قادراً على الكلام ، لا ينظره أحد إلا أفحمه ، حق كأن مواقع الحجج من الكتاب والسنة موضوعة على طرف لسانه . وكان مع ذلك حليماً صبوراً عطوفاً يحسن الى من يؤذيه ، ويعلم عن يسفه عليه ، برأ باليتامى والمساكين ، رحيماً بهم ، يجلس حيث أمكنه الجلوس من الأسواق والطرقات ، ويحضُّ الناس على الصدقة ويأتي بما جاء في فضلها من الآيات والآثار فتنهال عليه من كل جانب فيفرقها على المساكين وينصرف .

وكان ناسكاً متعبداً ورده القرآن يتلوه آناء الليل وأطراف النهار . وقد اتخذهُ أنيساً وسميراً واستخرج منه من دقائق العلوم ولطائف الإشارات في المجاهدة ورياضة النفس شيئاً عجيباً . وبالجملة فهو رجلٌ من أعاجيب الدنيا ، وترجمته أوسع من هذا .

عَبْدُ السَّلَامِ بْنِ مَشِيَشٍ

هو الشيخ العارف الكامل أبو محمد عبد السلام بن مشيش بن أبي بكر بن علي بن حرمة بن عيسى بن سلام بن المزوار بن حيدرة بن محمد بن ادريس بن ادريس بن عبد الله الكامل ابن الحسن المثنى بن الحسن السبط بن علي بن أبي طالب ، كعبة العلم الكنيف ، ونبعة النسب الشريف . بيند أنه لم يعتمد غير العمل الصالح ، وسلوك المنهج الواضح ، قائلاً في صلاته المشهورة الآتية : اللهم ألحقني بنسبه . وحققني بحسبه . وقد سألهُ رجلٌ أن يوظف عليه وظائف وأوراداً يعمل بها فقال : أرسولُ أنا ؟ الفرائض مشهورة ، والمحرمات معلومة ، فكُن للفرائض حافظاً ، وللمعاصي رافضاً ، واحفظ نفسك من ارادة الدنيا وحب النساء وحب الجاه وإيثار الشهوات ، واقنع من ذلك بما قسم الله لك ، إذا خرج لك مخرج الرضى فكُن لله شاكراً ، وإذا خرج لك مخرج السخط فكُن عليه صابراً . ورفض الدنيا قطباً تدور عليه الخيرات ، وأصل جامع لأنواع الكرامات ، وحصول ذلك كله أربعة : الورع وحسن النية وإخلاص العمل ومحبة العلم . ولا تم له هذه الجملة إلا بصحبة أخ صالح ، أو شيخ ناصح . وكلامه

رحمه الله كله من هذا القبيل ، ويكفيك أنه بثل هذه الدروس الجامعة تخرج عليه الشيخ أبو الحسن الشاذلي مؤسس الطريقة الشاذلية المنتشرة في العالم الاسلامي ، فهو أحد أقطاب التصوف الذين عليهم المدار . توفي رحمه الله شهيداً حوالي ٦٢٥ قتلته بجبل العُلم قومٌ بعثهم لقتله ابن أبي الطواجين الكتامي الساحر المتنبئ . فدفن بقنة الجبل المذكور .

أَبُو مُوسَى الْجَزُولِي

عيسى بن عبد العزيز بن يَلْبَسَخْت بن عيسى بن يوماريلى اليزدكي الجزولي المراكشي . كان إماماً في النحو ، كثير الاطلاع على دقائقه وغريبه وشاذه ، وصنف فيه المقدمة التي سماها بالقانون فأتى فيها بالعجب العُجاب . وهي في غاية الایجاز مع الاشتغال على شيء كثير من النحو ، ولم يُسبق الى مثلها ، واعتنى بها جماعة من الفضلاء فشرحوها ، ومنهم من وضع لها أمثلة . ومع هذا كله فلا تُفهم حقيقتها ، وأكثرُ النحاة ممن لم يكن أخذوها عن موفق يعترفون بقصور أفهامهم عن إدراك مراده منها . فانها كلُّها رموز واشارات ، هذا ما يقوله ابن خلكان عنها ، قال : ولقد سمعت من بعض أئمة العربية المشار اليه في وقته : « أنا ما أعرفُ هذه المقدمة وما يلزم من كونها ما أعرفها أن لا أعرف النحو » . وفي هذا الكلام مبالغة لعل الحامل عليها هو هذه الصياغة المنطقية التي صيغت بها المقدمة من الحدود والتعاريف والقضايا الكلية التي تنطبق على الأحكام الجزئية مع خلوها من الأمثلة والشواهد التي توضح المعنى المراد ، فجاءت بذلك مركزة تركيزاً يجمع زبدة النحو ومهامته في ألفاظ قليلة ، ومن ثم قال فيها مجد الدين بن ظهير الإربلي منوهاً بهذه الظاهرة التي كانت سبب التحامل عليها من هؤلاء :

مُقدِّمةٌ في النحو ذاتُ نتيجةٍ تنأَتْ فأغْنَتْ عن مقدِّمةٍ أخرى
جَبَاناً بها بحرٌ من العلم زاحِرٌ ولا عَجَبٌ للبحر أن يقذفَ الدُّرَا

وتُسمَّى المقدمة أيضاً بالكَرَّاسة والقانون والاعتدال .

سافر ابو موسى الى المشرق فحجّ ولازم ابن برّي بمصر ، ثم عاد فتصدّر للاقراء
ببجاية والمرية ، وأخذ عنه جماعة منهم الشلوين وابن معط . وكان قارئاً حافظاً
جيّد التفهم حسن العبارة . ولي خطابة مراکش وله أمال في النحو ، ومختصر الفسر
لابن جني في شرح ديوان المتنبي ، وشرح اصول ابن السراج وغير ذلك . وتوفي
سنة ٦٠٧ بمراكش رحمه الله .

ابن معط

هو الإمام زين الدين أبو زكريا يحيى بن معط بن عبد النور الزواوي القبيلة المغربي
الأصل والنشأة الجزولي البلد . اشتغل بالعربية على أبي موسى المتقدم فتمتّز فيها
وكان مبرزاً في علم الأدب ، قادراً على النظم للعلوم . ورحل الى بلاد مصر فلقي
الشايع ، وبحث العلماء وناظرهم . ثم انتقل الى دمشق وسكن بها طويلاً ، وولاه
الملك المعظم النظر في مصالح المساجد وفي ذلك الوقت نظم الفيتة في النحو التي عمل
ابن مالك على مثالها الفيتة المشهورة . ولما توفي الملك المعظم نقله الملك الكامل الى
مصر ؛ فتصدر بالجامع العتيق لإقراء الأدب . وله غير الألفية نظم في العروض
ونظم جهرة ابن دريد في اللغة . وشرع في نظم كتاب الصحاح للجوهري فمات قبل
اكماله . كانت ولادته سنة ٥٦٤ وتوفي سنة ٦٢٨ رحمه الله .

إبنا دحية

هما الشيخان المحدثان الحافظان اللغويان الأدبيان أبو عمرو عثمان وأبو الخطاب عمر
ابنا الحسن بن علي بن محمد الجليل بالتصغير ، وبه كانا يُعرفان أولاً ؛ فيقال لكل
منها ابن الجليل ، ثم عرفا بعد بابني دحية لانتسابهما الى دحية الكلبي الصحابي الجليل ،
وأصلهما من مدينة سبته . كانا علمين شهيدين في حفظ الحديث والمعرفة بعلم اللغة وأيام
العرب وأشعارها ، والنحو والتاريخ وغير ذلك ، أخذوا ببلاد المغرب وافريقية
والأندلس عن مشايخها المعروفين ، وانفرد ابو الخطاب بالتجول في بلاد المشرق ؛ فدخل

الشام والعراق وخُرَاسان وما والاها، وأكثر من السماع وأخذ عنه الناس كذلك. ومرّ في طريقه الى خراسان بمدينة إربل ؛ فوجد ملكها مُظفّر الدين التركاني مولماً بعمل المولد النبوي فألف له كتاب « التنوير في مولد السراج المنير ». واستقر هو وأخوه بصر ، وكان لصاحبها الملك الكامل بن أيوب عناية كبيرة بهما ، وبني لأبي الخطاب دار الحديث الكامليّة بالقاهرة ثم سلمها لأخيه أبي عمرو ، وكانا يميلان الى النظر والاجتهاد وربما نسبوا الى الظاهرية ، ولأبي الخطاب تأليف مفيدة مضت الاشارة الى بعضها ويأتي ذكرها جميعاً في نهاية هذا الفصل ، وتوفي أبو الخطاب في سنة ٦٣٣ وأخوه أبو عمرو بعده بسنة .

عبد الواحد المراكشي

هو عبد الواحد بن علي التميمي ، مؤرخ دولة الموحدين . ولد بمراكش سنة ٥٨١ وأخذ بفاس والأندلس عن جماعة من العلماء ، وعُني بالأدب واللغة فكان طوداً راسخاً في فنونها . وله قلم بارع في الانشاء ، وطبع سائل في الشعر . وكان حُلوة النادرة ، عذب الفكاهة ، لطيف المحضر ، رقيق الحاشية . خدم الأمير إبراهيم بن يعقوب المنصور أيام ولايته على اشبيلية فنال عنده حظوة كبيرة ، وامتدحه بقصائد فذة كان يُجزل له عليها العطايا والهبات .

ثم سافر الى مصر سنة ٦١٣ وفيها ألف كتابه المعجب في تلخيص أخبار المغرب جمع فيه بين تاريخ الأندلس والمغرب السياسي والأدبي من لدن فتح الأندلس الى سنة ٦٢١ أي الى مدة خلافة يوسف بن محمد الناصر الموحي ، يستعرض أهمّ حوادث السياسة وأحسن صور الحضارة في كل عصر ، ثم لا يلبث أن يسرقه طبعه ، فيستطرد مواضع أدبية لها قيمتها في معرفة الحياة الفكرية في ذلك العصر ، وذلك كله بأسلوب رصين متزن ، لا تشوبه ركافة ولا تشويش ، مع تحري الصدق وتوخي الانصاف كما قال : « ولم أثبت في هذه الأوراق المحتوية على دولة المصامدة وغيرها إلا ما حققته نقلاً من كتاب ، أو سماعاً من ثقة عدل ، أو مشاهدة بنفسي ؛ هذا بعد ان تحرّيت الصدق وتوخيت الانصاف في ذلك كله ، وجهدتُ ألا انقص

أحداً ذرّة مما له ، ولا أزيدة خردّلة مما لا يستحقّه ، ولذلك فإن هذا الكتاب يعدّ من أوثق المصادر في تاريخ هذا العصر .

ابنُ فَرْتُون

أبو العباس أحمد بن يوسف السّلميّ القاسي المعروف بابن فرتون . هو أحدُ أعلام الرواية والتاريخ ، أخذ ببلده فاس عن أبي ذرّ الحشني ، وأبي القاسم عبد الرحيم ابن الملجوم ، وابن عمه عبد الرحمن ، وأبي محمد بن حوط الله ، وأبي القاسم بن زانيق وعدد غيرهم . وانتقل من بلده الى سبتة فأخذ بها عن عالم كثير من أهلها ومن الواردين عليها ، ودخل الأندلس فأخذ بالجزيرة الخضراء وبمالقة عن أهلها . ولما كان بحصن بليش من شرقي مالقة ، عرض له ما أوجب رجوعه الى سبتة فبقي بها ولم يخرج عنها الى حين وفاته ، واجتمع له سماع جمّ ، وكتب بخطه كثيراً وقبّد واعتنى غاية الاعتناء حتى كان آخر المكثرين . وكان ذا كراً للرجال والتواريخ ، ول كثير من متون الأحاديث وقسط صالح من الجرح والتعديل وطبقات الناس ، وألف برنامجاً ضمنه ما رواه ، وألف الاستدراك على كتاب السهيلي المسمى بالتعريف والإعلام ، كما ألف كتابه الذيل على صلة ابن بشكوال ؛ فكان أول من قسح باب التذييل عليها الذي تبعه فيه ابن الزبير وهو تلميذه بكتاب صلة الصلة ، وابن عبد الملك المراكشي بكتاب الذيل والتكملة ، وابن الأبار بكتاب التكملة الخ . وكان كتاب ابن فرتون مادةً لجميعهم ، وعاش ابن فرتون زاهداً ورعاً ، ما اعتزّ بغير دينه ، ولا تصدّى لأحد من أهل الدنيا ولا تعرّض لحطة ولا غيرها . وتوفي في ٢٦ شعبان سنة ٦٦٦ .

لادريسي

هو العلامة الجغرافي الشهير ، أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الله بن ادريس ، كان نجده ادريس من ملوك الحموديين بالأندلس ، ومات سنة ٤٤٤ قبل اخراج الحموديين

من مالقة وإضافة مملكتهم الى غرناطة . أما هو فولد بسبته بلده ، ولعل سلفه كانوا انتقلوا اليها بعد سقوط دولتهم . خرج الادريسي سائحاً في شمال افريقيا وآسيا الصغرى والأندلس ، ثم استدعاه روجار الثاني ملك صقلية فقدم عنده ففرح به واکرم نزوله . وفي صقلية ألف كتابه « نزهة المشتاق في معرفة الأفاق » وصنع كرة سماوية ودائرة أرضية كلاهما من الفضة واستعمل في ذلك ثلث الفضة التي أعطاه له الملك ، ولما أتم العمل فيها زاده الملك مائة ألف درهم وشيئاً كثيراً من التخف . وألف أيضاً « روض الأنس ونزهة النفس » برسم غليوم الأول ولد روجار ، وهو أطول من نزهة المشتاق . وذكر أبو الفداء هذا الكتاب ولكنه سماه كتاب الممالك ، وله أيضاً كتاب « الأدوية المفردة » وذكره ابن سعيد ، وانتفع منه ابن البيطار . وقد نقلت قطع من كتاب نزهة المشتاق الى لغات أوروبا . وتوفي الادريسي حوالي ٥٦٩ رحمه الله .

أبو الحسن المسفر

هو الشيخ الحكيم أبو الحسن علي بن خليل المسفر السبتي ، عرف بلقب المسفر الذي يعني أنه من أهل صناعة تفسير الكتب . وربما كان من آل المسفر الأشراف الحسينيين المعروفين بفاس . ذكره ابن عربي الحاتمي في كتاب « محاضرات الأبرار » وقال فيه : كان هذا الشيخ جليل القدر حكيماً ، عارفاً غامضاً في الناس ، محمود الذكر . رأيت بسبته ، له تصانيف ، منها : منهاج العابدين الذي يعزى لأبي حامد الغزالي وليس له ، وإنما هو من مصنفات هذا الشيخ ، وكذلك كتاب النفخ والتسوية الذي يعزى الى أبي حامد أيضاً وتسميه العامة « المضمون الصغير » ، ولهذا الشيخ أيضاً القصيدة المشهورة : « قل لإخوان رأوني ميتاً ... » وتأتي في المنتخبات . ولا شك أن هذا الشيخ كان من فلاسفة العصر النازعين الى التصوف ، سالكاً في ذلك مسلك أبي حامد الغزالي وكتبه المذكورة تدل على ذلك ، إلا أنه لم يتعامل على الفلسفة والفلسفة تحامل أبي حامد ، وقد لقيه الشيخ محي الدين بن عربي وتذاكر معه وهو في سن الشيخوخة ، فهو على ما يظهر لم يحاوز المائة السادسة .

ابن الياسمين

ابو محمد عبد الله بن محمد بن حجّاج ، من أهل مدينة فاس ، وأصله من بني حجّاج أهل قلعة فندلاوة . رياضي برع في عدة علوم كالمنطق والهندسة والتنجيم والهيئة ، وخاصة الحساب والعدد ؛ فكان لا يدرك شأوه فيهما ، ولا ينازع في الاختصاص بمعرفة دقائقهما وغوامض مسائلهما . وله أيضاً القدم الراسخ في علوم الأدب والباع الطويل في نظم الشعر ، أخذ علم العدد عن ابي عبدالله بن قاسم ، وكان من خدام يعقوب المنصور ثم ولده الناصر من بعده ، فحصلت له رياسة كبيرة وبلغ منزلة نفسها عليه أعداؤه ، له أرجوزة في الجبر قرئت عليه وسمعت منه باشبيلية سنة ٥٨٧ وله غيرها ، توفي ذبيحاً بمراكش سنة ٦٠١ رحمه الله .

الحسن المراكشي

هو العالم الرياضي الشهير ، أبو علي الحسن بن علي المراكشي مؤلف كتاب (المبادي والغايات في علم الميقات) الذي يقول فيه صاحب كشف الظنون أنه أعظم ما صُنّف في هذا الفن ، وذكر أنه رتبه على أربعة فنون : ١ - في الحسابيات وهو يشتمل على سبعة وثمانين فصلاً ، ٢ - في وضع الآلات وهو يشتمل على سبعة أقسام ، ٣ - في العمل بالآلات وهو يشتمل على خمسة عشر باباً ، ٤ - في مطارحات يحصل بها الدثربة والقوة على الاستنباط ، وهو يشتمل على أربعة أبواب ، في كل باب منها مسائل على طريق الجبر والمقابلة . وعلى هذا الكتاب قامت شهرة المراكشي بين علماء الغرب ، واعتبروه من أعظم فلكيّيّ العرب . وقد نقل العلامة سيديو زبديته الى اللغة الفرنسية ، وكذلك نقل البارون كارادفو فصلاً منه يتعلق بالاسطرلاب . والمراكشي كتب أخرى في مباحث رياضية عامة ، وكان يعيش في النصف الأول من المائة السابعة .

يوسف بن سمعون

أبو الحجاج بن يحيى بن إسحاق الطبيب الرياضي المعروف بابن سمعون ، وهو جده العاشر أو التاسع عرّف به ابن القفطي في أخبار الحكماء فقال : هذا كان طبيباً إسرائيلياً من أهل فاس ، وكان أبوه بها يُعاني بعض الحرف السُّوقِيَّة ، وقرأ هو الحكمة ببلده فساد فيها ، وعانى العلوم الرياضية وأجادها وكانت حاضرة على ذهنه عند المحاضرة . وقد ارتحل الى مصر ، واجتمع بموسى بن ميمون القرطبي رئيس اليهود بمصر ، وقرأ عليه شيئاً وأقام عنده مدة ، واجتمع هو وإياه على إصلاح هيئة ابن أفلح الأندلسي وتحريرها . ثم خرج من مصر الى الشام ونزل حلب ، أقام بها مدة وسافر منها تاجراً الى العراق ودخل الهند وأترى حاله . ثم ترك السفر وأخذ في التجارة ، وقصده الناس للاستفادة منه ، فأقرأ جماعة من المقيمين والواردين ، وخدم في أطباء الخاص في الدولة الظاهرية بحلب ، وكان ذكياً حاد الخاطر ، وانهقدت بينه وبين ابن القفطي مودة تحدث عنها هذا في كتابه . توفي سنة ٦٢٣ .

* * *

أهم آثار الأدباء والعلماء في هذا العصر

وهذه جريدة بأهم آثار العلماء والأدباء في هذا العصر مما وقفنا على تسميته من كتب ورسائل ودواوين شعرية منسوبة لأصحابها ، مع الإشارة الى وفيات من لم نترجم لهم اختصاراً .

كتب التفسير والحديث وتوابعها :

تفسير القرآن لابن عبد الجليل القصري ، شُعَبُ الْإِيمَان له ، تنبيه الأنام في مُشْكِلِ الْحَدِيث له ، شرح أسماء الله الحسنى له ، الناسخ والمنسوخ لأبي الحسن الحصار المتوفى سنة ٦١١ . المذارك في وصل مقطوع حديث مالك له ، مفتاح اللبّ المقفل لفهم الكتاب المنزل لأبي الحسن الحرّ الى المراكشي المتوفى سنة ٦٣٧ ، تفسير القرآن

للمزدغي ، شرح حديث إذا نزل الوباء بأرض له ، كتاب الاستدراك والاطمئنان لكتاب السبيلي المسمى بالتعريف والأعلام بما أهم في الكتاب العزيز من الأسماء والأعلام لابن فرتون . كتاب النزاع في إبطال القياس لابن القطان الفاسي ، كتاب الوهم والاهام الواقعين في كتاب الأحكام لعبد الحق الاشبيلي له ، كتاب مختصر النظر في أحكام النظر له . تعقب كتاب الوهم والاهام لابن القطان لابن المواق المتوفى سنة ٦٤٢ ، شرح مقدمة صحيح مسلم له ، شرح الموطأ له ، اختصار الموطأ للمهدي بن تومرت ، اختصار مسلم له ، كتاب أحكام الطهارة من الحديث له ، كتاب تحريم الخمر من الحديث له ، كتاب الجهاد له ، كتاب الفلول له ، الآيات البينات في ذكر ما في أعضاء رسول الله ﷺ من المعجزات لأبي الخطاب بن دحية ، نهاية السؤل في خصائص الرسول له ، أنوار المشرقين في تنقيح الصحيحين المشرقين له ، شرح أحاديث الشهاب للقضاعي له ، العلم المشهور في فضائل الأيام والشهور له ، مُصنّف في رجال الحديث له .

كتب اللغة والتصوف :

وهج الجمر في تحريم الخمر لأبي الخطاب بن دحية ، منهاج التحصيل فيما للامة على المدونة من التأويل لأبي الحسن الرّجراحي ، الطّشّر على المدونة لأبي ابراهيم الأعرج المتوفى سنة ٥٨٣ ، حاشية على المدونة لأبي محمد يشكر المتوفى سنة ٥٩٨ ، حاشية أخرى عليها لراشد الفاسي المتوفى سنة ٦٧٥ كتاب الحلال والحرام له ، مجموعة الفتاوي له ، شرح الرسالة بالنقل لأبي الحسن المتيوي المتوفى سنة ٦٦٩ ، تقييد على الرسالة لأبي محمد صالح ، مقالة في المكايل والأوزان لابن القطان الفاسي . أنوار الافهام في شرح كتاب الأحكام للمزدغي ، كتاب الفرق بين الأغنياء المعنيين والفقراء المضطرين له ، كتاب الوافي في الفرائض لأبي الحسن الحرّالي المراكشي ، كتاب المقصد الحمود في تلخيص العقود لأبي القاسم الجزيري ، كتاب اليقين لأبي الحسن ابن غالب ، منهاج العابدين لأبي الحسن المسفر ، كتاب الإنابة الى طريق أهل الاستجابة لمحمد بن قاسم التميمي ، الايضاح في طريق أهل الصلاح له ، كشف أحوال المفتون عن الدنيا والدين له ، بستان العابدين له ، أدب المريد له ، أنوار السرائر وهي الرائية المشهورة في التصوف لأبي العباس الشريشي السلوي المتوفى سنة ٦٤١ ، الحزب الكبير لأبي الحسن الشاذلي المتوفى سنة ٦٥٦ ، حزب البحر له .

كتب الكلام والأصول :

كتاب اعز ما يطلب للمهدي بن تومرت ، العقيدة المرشدة له ، التنزيهاً له ،
التسبيحان له ، الامامة له ، تعاليق في الاصول له ، العقيدة البرهانية للسلاجي ،
عقيدة المزدغي ، أرجوزة في الأصول له . أرجوزة في الكلام لأبي الحسن الحصار ،
شرحها له ، أرجوزة في الاصول له ، البيان في تنقيح البرهان له . رجز في أصول الفقه
لابن البكتاني ، كتاب الايمان التام بمحمد عليه السلام لأبي الحسن الحرالي المراكشي ،
عصمة الأنبياء لأبي الخطّاب بن دحية .

كتب التراجم والسير

برنامج عبد الرحيم بن الملجوم المتوفى سنة ٦٠٣ ، فهرست أبي الصبر ايوب
المتوفى سنة ٦٠٤ برنامج أبي العباس العزفي المتوفى سنة ٦٤٩ ، كتاب الدر المنظم في
مولد النبي المعظم له ، فهرس أبي الحسن الشاري المتوفى سنة ٦٤٩ برنامج ابن القطان
الفاسي . اختصار المدارك لابن حمادة السبتي ، برنامج ابن فرقون ، الذيل على صلة
ابن بشكوال له ، شيوخ الدّار قطني لابن المواق . النجوم المشرقة فيمن أخذت عنه
من كل ثبت وثقة لمحمد بن قاسم التميمي ، مختصره له ، المعصية في ذكر أزواج
النبي صلى الله عليه وسلم وأولاده السبعة له ، المستفاد في مناقب العباد والزهاد بمدينة
فاس وما والاها من البلاد له ، التنوير في مولد السراج المنير لأبي الخطّاب بن دحية ،
سلسلة الذهب في نسب سيد العجم والعرب له ، المستوفي من أسماء المصطفى له ،
الابتهاج في المعراج له ، التحقيق في مناقب أبي بكر الصديق له ، التشوُّف الى رجال
التصوف لابن الزيات المتوفى سنة ٦٢٨ .

كتب التاريخ والجغرافية

المعجب في تلخيص أخبار المغرب لعبد الواحد المراكشي ، كتاب أبي بكر بن
علي الصنهاجي المعروف بالبيدق ، النبراس في تاريخ خلفاء بني العباس لأبي الخطّاب
ابن دحية ، تاريخ الأمم في أنساب العرب والعجم له ، أعلام النصر المبين في
المفاضلة بين أهل صفين له ، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق للشريف الادريسي ،
روض الأنس وبهجة النفس له ، أنس المهج وروض الفرج مختصر بماقبله له .

كتب الأدب والدواوين الشعرية

مختصر الأغاني للأمير سليمان الموحّد ، ديوان شعر له ، صفوة الأدب وديوان العرب وهي الحماسة المغربية ، لأبي العباس الجراوي ، ديوان عتيق الفصيح المتوفى سنة ٥٩٥ ، ديوان ابن حبوس ، المطرب من أشعار اهل المغرب لأبي الخطاب بن دحية ، مجموعة خطب بليغة له ، مرج البحرين في فوائد المشرقين والمغربين له ، كتاب الأنساب والشعر لابن رقيّة المتوفى سنة ٦٠٥ ، البرهان في ذكر حنين النفوس الى الأحبة والأوطان لمحمد بن قاسم التميمي ، شرح مقامات الحريري لابن الزيات .

كتب النحو واللغة

المقدمة لأبي موسى الجزولي : شرحها له ، الأمالي له ، شرح أصول ابن السراج له ، مختصر الفسّر لابن جثي في شرح ديوان المتنبي له ، الألفية لابن معط ، نظم في العروض له ، نظم جهرة ابن دريد له ، نظم الصحاح له ، شرح الجزولية لأبي العباس الشريشي السلوي ، شرح المفصل له ، شرح الجمل للزجاجي لأبي القاسم بن الزيات المتوفى سنة ٦٦٥ الصارم الهندي في الرد على الكندي في مسألة من علم العربية لأبي الخطاب ابن دحية .

كتب حكيمة ورياضية :

المعقولات الأوّل لأبي الحسن الحرّالي المراكشي ، السر المكتوم في مخاطبة النجوم له ، تفهيم معاني الحروف له ، كتاب الأدوية المفردة للشريف الادريسي ، جامع المبادي والغايات في علم الميقات للحسن المراكشي ، كتاب في القطوع المخروطية له ، اصلاح هيئة ابن افلح ليوسف ابن سمعون ، ارجوزة الجبر لابن الياسمين ، تلقيح الافكار في العمل بحروف القُبار له . النفخ والتسوية لأبي الحسن المسفر .

هذا 'قل' من كُتُب مما لم نطّلع عليه من المؤلفات الموضوعة في هذا العصر للعلماء المغاربة فقط ، دع ما كان يؤلفه برسم الخزانة السلطانية غير المغاربة من علماء الأندلس وافريقية ، وقد رأيت ان كل ما ألفه ابنُ رشد من الكتب الحكيمة كان بطلب يوسف ابن عبد المؤمن . فالمكتبة المغربية في هذا العصر ، كانت من أغنى المكاتب بالمؤلفات

النادرة ، وزادها غنى ما كان يضعه المؤلفون كل يوم من الكتب المفيدة في مختلف العلوم ، فكانت ثروتها لا تزيد على مرّ الايام الا كثرة ، وما يمنعها من ذلك والناس في ذلك العصر لم يكونوا يبيعون كتب أسلافهم لأوربا بأجنس ثمن ، بل كانوا يستخلصونها منها بأعلى قيمة ، وينافس عاصمتهم في ذلك خاصتهم ، وقد سمعت ما عمله الملك الموحيدي يوسف بن عبد المؤمن في هذا الصدد ، فاسمع ما عمله احد افراد العلماء وهو القاضي عيسى بن أبي حجاج بن الملجوم ، وبنو الملجوم من بيوتات فاس القديمة ؛ فانه ابتاع من أبي علي الغساني أصله من سنن أبي داود ، الذي سمع فيه على أبي عمر بن عبد البر ، وهو أصل أبي عمر ، وكان صار الى أبي علي ؛ بخمسة آلاف دينار بعد ان نسخ منه بخطه وقابله وأتقنه .

وكان الامام المجتهد فخرُ بيته أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن يوسف بن الملجوم المعروف بابن رقية ، جماعةً للدواوين العتيقة والدفاتر النفيسة ؛ فاجتمع لديه ما لم يجتمع عند أحد من أهل المغرب ، وكانت خزانته وحيدة في المغرب ، بيعتُ خزانةُها بعد وفاته بستة الاف دينار .

فحيا الله تلك الهمم ، ما كان أعلقها بالمعالي وأطرقها لأبواب الفخار !



الحياة الأدبية

نما الأدب المغربي في عهد المرابطين وترعرع ، ولكنه لم يقوَ قوَّة الأدب الأندلسي ويُسيطر على الميدان .

على أنه مع ذلك لم يكن ضعيف المادَّة ولا مُنحسر الموجة ، بل كان ذا روح معنوية قوية تمثل الواقع المغربي في أجلى مظاهره ، ذلك الواقع الذي لم يفتأ أن أثر في الأدب الأندلسي نفسه فانتشله من هوَّة الضعف والابتذال التي كان وقع فيها على ما ألعنا اليه فيما مضى . فلما قام الموحِّدون ، وقامت معهم تلك النهضة العلميَّة الأدبية ، التي سبق توصيفُها ، تحوَّل مجرى السَّفينَةِ الأدبيَّة الى المغرب ، وسيطر عليها الأدباء المغاربة يُزجونها بمعرفة وحِذق ، وتعيشهم على ذلك ربحٌ رخاء من لطف تدبير الموحدين وحسن سياستهم .

وقد سبق ذكر ما كان لهم من العطف على الأدب والتشجيع لأهله ، حتى لقد كان واحدهم يُثيب على البيت والبيتين يُمدِّح بها بالآلف والألفين ، بل كان الآخر يبلِّغه عن شاعره وقوعه فيه وتعريضه بأصله فيقول أعاقبه بالحلم عنه ، وهي نفسُ الهفوة التي أخذوها على الفيلسوف أبي الوليد بن رشد ، فلم يتساحوا مع العلماء ، وتساحوا مع الشعراء ، مما يدل على أن ضلعتهم مع الأدب كان كبيراً .

وقد رأيت مقام الشعراء من عبد المؤمن في جبل طارق ، وكيف كانت أول من أنشده في ذلك المقام شاعرٌ فاسي ، وكان هو يُعَقِّبُ على قصائد الشعراء بالنقد أو التقريظ ، ثم أعيد هذا الموقف ، ولكن بأعظم من ذلك مع حفيده يعقوب المنصور لما رجع من غزاة الأراك المشهورة بالأندلس ، فورد عليه وفودُ المهنيين والشعراء من كل ناحية ، فكان كل واحد منهم يُنشد من قصيدته بيتاً أو بيتين لكثرتهم ويترك رُقعته أمامه ، فما استتموا الإنشاد حتى حالت رِقاع القصائد بينه وبين الناس ، وهذا إن ثبت على حقيقته ، كان أعظم شاهد على ما بلغت الحياة الأدبية في هذا العصر من النُمو والازدهار .

ولكن منشأ النبوغ لم يكن هذا الذي ألعنسا اليه من رعاية الموحدين للأدب وتنشيطهم لأهله فقط ، وإنما هو متولد من جملة أسباب أخرى ، منها النفس على الأندلسيين الذين كانوا قد ظلوا في سماء الأدب بدوراً ساطعة ، ونجوماً لامعة ، وكانوا يغلبون أهل البلاد من المغاربة عند المفاخرة ويطاولونهم حين المناظرة ، وتعد المناظرة التي وقعت بمجلس والي سبتة الأمير أبي يحيى بن أبي زكرياء في هذا الصدد بين أبي الوليد الشقندي ، وأبي يحيى بن المعلم الطنجي من أحسن الأمثلة على ذلك ، وقد أمر الأمير كلا من الأديب الأندلسي والأديب المغربي بكتابة رسالة في تفضيل قطره ، غير أن رسالة المغربي لم تحفظ . ومن هذا يُعلم أن الخصومة بين أدباء العدوتين ، كانت لا تنقطع ، والأندلسيون بالطبع كانوا يحجون جيرانهم بما يعدون من نبغاتهم الكثيرين . وهذا وحده كافٍ للحجوج في الانقطاع الى الطلب والمكوف على التحصيل . ومنها الطماح الى الخدمة في دواوين الحكومة وشغل المناصب العالية التي كان أعلاها يومئذ منصب الوزير ، وهو في الحقيقة رئيس الكتاب ، ونرى من أبناء مراكش البررة من وضع هذه الغاية نصب عينيه ، وجهد في الوصول اليها فما لبث أن حصلها بحزمه وعزمه ، وذلك هو الوزير أبو جعفر بن عطية . على أن ما يرجح بهذه الأسباب كلها هو عموم الحاجة الى التشويق والتهديب ، وقد شعر الناس بهذه الحاجة منذ قيام عبد الله بن ياسين بحركته الإصلاحية ، ثم زاد شعورهم بها من حين الانقلاب الذي قام به المهدي بن تومرت . فنشج عن ذلك كله أن تقدمت الحركة العلمية الى الامام ، واتجهت النهضة الأدبية اتجاهاً جديداً يرضي الجماعة الذين كانوا لا يفتشون يناظرون خصومهم من أهل الأندلس في موجبات الفخار .

وعلى ذلك فلم تكن الآداب المغربية صورة طبق الأصل للآداب الأندلسية ، كما يظنه البعض بل كانت قائمة بنفسها ، تعبر عن شعور أهلها ولا تتأثر بالأندلس إلا كما تتأثر بالشام والعراق . فهذا ميمون الخطابي لا تجد بمن تقارنه في متانة أسلوبه وبلاغة معناه ، وعنايته بالحكم الفلسفية إلا المتنبي . وهذا أبو العباس الجراوي لا تشبهه إلا بأبي تمام في اهتمامه باللفظ قبل المعنى ، ثم اغرابه في بعض الاحيان حتى تختلف فيه الظنون ، ولم يقصر وجه الشبه بينها على هذا الحد فيظهر أن شاعرنا كان يتقبع آثار أبي تمام في كل شيء ، حتى ألف حماسه فانتشرت بالمغرب وأغنت عن حماسة أبي تمام .

أما الأدب الأندلسي فنجد أثره واضحاً كما نبه عليه المراكشي في ابن حبوس الفاسي

الذي كان يتشبه بابن هانيء ، متنبى المغرب ، في القصد الى الألفاظ الرائعة والقعاقع المهولة ، وإيثار التعبير ، كما نراه من جهة الرقة والانطباع ممثلاً في الوزير ابن عطية الذي يشبه الوزير ابن عمار في كثير من أحواله .

والخلاصة أن الأدب المغربي هو غير الأندلسي ، وأنه لم يتأثر به الا نسيباً ، لأن الأدباء المغاربة من غير شك كانوا يتعمدون مخالفة طريقة زملائهم الأندلسيين في الشعر والنثر ، قصد مقابلة التحدي بمثله . فان الأندلسيين كانوا يكثرّون على المغاربة من تعداد محاسن أدبائهم ، وابتكارات شعرائهم ، التي بذّوا بها غيرهم ، كما ترى ذلك في رسالة الشقندي التي مرّت الإشارة إليها . ولم يكن لدى من أخذوا أنفسهم بالتأدب لكم الأقواء الصاخبة ، بتعجيزهم ، إلا أن يقرعوا الحجة بالحجة ، ويعارضوا الدليل بالدليل . وهذا غير السرق والتقليد . زيادة على أن هؤلاء ، لم يكونوا قد استغرقوا في الحضارة والمدنية ، وانغمسوا في الرقاهية والبلهنية كما كان ذلك حال الأندلسيين ؛ فكانت تغلب عليهم رقة الطبع ودقة التصوير . بل كانوا لا يزالون أقوياء النفوس ، أقوياء الطبع ، كما كان الشأن في شعراء المشرق الذين نظرنا بهم وهم عرب أقبح ، تنقلوا في البادية ، واعتادوا على خشونتها فغلبت عليهم متانة الأسلوب وجزالة اللفظ .

وبناء على هذا ، فإننا نستطيع أن نقول إن الأدب المغربي منذ نشأ الى أن ترعرع ، كانت له في الغالب طريقة غير طريقة الأدب الأندلسي ، ولا نستشهد على ذلك غير أديب بارع من أدباء الأندلس ، بل خاتمة أدباؤها ، وهو الوزير أبو عبد الله بن زمرك الذي تحدّث عن هذا الأدب الى علم من أعلام الفكر الأندلسي وهو الإمام الشاطبي ، بعد رحلة قام بها الى المملكة المغربية . وهاك ما قاله الشاطبي في كتابه (الانشادات والافادات) حسياً رواه المقرئ في النفع : « أفادني صاحبنا الفقيه الكاتب أبو عبدالله بن زمرك إثر إيباه الى وطنه من رحلة العدوة في علم البيان فوائد أذكر منها الآن ثلاثاً ، (الفقه في اللغة) وهو النظر في مواقع الألفاظ ، وأين استعملتها العرب ، ومن مثل هذا الوجه - قَرِمَ وعَام - اذا ابتهى ، لكن لا يستعمل قَرِمَ إلا مع اللحم ، ولا يستعمل عام الا مع اللبن فتقول عمتُ الى اللبن ، وكذلك قولهم اصفر فاقع ، وأحر قاني ، ولا يقال بالعكس وهذا كبير ، (والثانية) تحري الألفاظ البعيدة عن طرقي الغرابة والابتذال ، فلا يستدلُّ

بالحوشي من اللغات ، ولا المبتذل في ألسن العامة ، (والثالثة) اجتناب كل صيغة تخرج الذهن عن أصل المعنى أو تشوش عليه ، إذ المقصود الوصول الى بيان المعنى الى أقصاه ، والاتيان بما يحصله سريعاً ويمكنه في الذهن ، وتحري كل صيغة تمكن المعنى وتحرض السامع على الاستماع ، (وأخبرني) ان كتاب المغرب يحافظون في شعرهم وكتابتهم على طريقة العرب ، ويذمون ما عداها من طريقة المولدين ، وأنها خارجة عن الفصاحة ، وهذه المعاني الثلاثة لا توجد إلا فيها .

وهذا الكلام إن كان قيل في أدباء العصر المريني فهو بأن يصدق على أدباء هذا العصر أولى؛ لأن هذه الصفات التي ذكرها ابن زمرك تتحقق فيهم أكثر من غيرهم ضرورة أن الثقافة الأدبية ، بل الثقافة على العموم كانت في هذا العصر أوسع وأمتن منها في العصر المريني ، وان الروح المعنوية التي تنعكس في أقوال الأدباء ، وانتاج الكتاب لم تبلغ في عصر من عصور المغرب ، ما بلغته في هذا العصر من القوة والظهور . ولا يبعد أن يكون ابن زمرك في كلمته تلك قصد الحكم على الأدب المغربي بعامة بما يشمل العصر الموحيدي والعصر المريني ، سيما وقد بقيت تلك الصفات هي سمة الأدب المغربي الى العصر الأخير ، وأعني به العصر العلوي ، حين جاء العلامة الشيخ محمد بيرم التونسي صاحب كتاب « صفوة الاعتبار » فأكد قول ابن زمرك بما لا يخرج عن مضمونه في اللفظ ولا في المعنى .

والخلاصة ، إن تحريتي الفصاحة والصدق وطرح التصنع والابتذال كانت وما زالت من أهم ميزات الأدباء المغاربة ، وهم لذلك أقرب ما يكون من طريقة العرب وشعراء العصور الأولى من عصور الأدب العربي .

ويلوح لنا اننا بلغنا الغاية في تصوير الحياة الأدبية الموحدية على ما وصل اليه علمنا منها ، فلنصنع لهذه الصورة إطاراً من تراجم الأدباء المذكورين فيها يزيدنا على حسنها حسناً .

أَبُو جَعْفَرِ بْنِ عَطِيَّةٍ

هو الكاتب الوزير ، أبو جعفر أحمد بن عطية القضاعي المراكشي ، من فتيانها العصامين الذين تبوأوا ذرى المجد بمحض جدّهم واجتهادهم .

كتب أولاً عن ملوك لمتونة ، ولما أدبرت أيامهم حضر في بعض الفتوحات الموحدية مع أحد قواد عبد المؤمن ؛ فكتب عنه الى عبد المؤمن رسالةً بديعةً يخبره فيها بالفتح ، ويصف كيفية الواقعة ؛ فأعجب بها عبد المؤمن وسأل عن مُنْشئها ، فأخبر أنه أبو جعفر ، فطلبه للكتابة عنده . ثم ترقى به الحال فصار وزيراً . قال في نفع الطيب : « وكانت وزارته زيناً للوقت ، وكمالاً للدولة . » واشتمل عليه عبد المؤمن فبلغ منه منزلةً كثر حُسادُه عليها ، فكادوا له حتى أوقع به سنة ٥٥٢ كما في القرطاس أو ٥٣ كما في المعجب .

ويُعد أبو جعفر من أكبر الأدباء الذين لهم التصرّف التام في الشعر والنثر ، وآثاره كلها تتكافأ بلاغةً وانسجاماً . ولقد شهد له عبد المؤمن بعد وفاته بعلو كعبه في الأدب ، فانه امتحن الشعراء بهجوه ، فلما أسمعوه ما قالوا أعرض عنهم وقال : ذهب ابن عطية وذهب الأدب معه .

ابنُ حَبُوسٍ

هو أبو عبدالله محمد بن حبوس ، الفاسي الشاعر النابه المجيد ، قال المراكشي في المعجب : كانت طريقته في الشعر على نحو طريقة محمد بن هانئ الاندلسي في قصد الألفاظ الرائعة ، والقعاقع الموهولة وإيثار التقدير ، وكان في دولة لمتونة مقدماً في الشعراء حتى نقلت الهم عنه حماقات ، فهرب الى الأندلس وجرى له بها أمورٌ غريبة ، وكان حظياً عند عبد المؤمن وابنه يوسف ، ونال في أيامها ثروة .

وقال ابن الأبار : كان عالماً محققاً ، وشاعراً مقلقاً ، تقدم في ذلك أهل زمانه ، ويوقف على جودة شعره من ديوانه ، توفي سنة ٥٧٠ ومولده ببلده سنة ٥٠٠ .

سليمان الموحّدي

هو صاحب السيف والقلم ، الأمير ابو الربيع سليمان بن عبدالله بن عبد المؤمن الكومي الموحدي . كان من الكتاب البلقاء والشعراء المجيدين ، وهو أديب بني عبد المؤمن ونايبتهم الفذ ؛ درّج في بيت الرياسة والملك ، ولم يمنعه ذلك من الاشتغال بالأدب والاكباب على التحصيل ، فنشأ متأديباً أريحياً يتعشق المجد ، ويصبو الى العلى ، وما لبث أن قدّم الى ولاية بجاية من قبيل ابن عمه الخليفة يعقوب المنصور . ولما ثار بها عليّ بن غانية ، نُقل الى ولاية سجلماسة ، وكان في كلتا ولايته كعبة القصاد من أدباء البلاد ، يأتونه عاقدي الآمال على إلفافه وبرّه ، فيصدرون عنه ، وكلهم السنة مدح وثناء عليه .

ومن تحدث الينا عنه من ادباء الشرق التاج ابن حثويه السرخسي قال : اجتمعت بالسيد أبي الربيع حين قدم الى مراکش بعد وفاة الخليفة يعقوب المنصور لمبايعة ولده محمد الناصر ، وكان في تلك المدة يلي مدينة سجلماسة وأعمالها فرأيت شيخاً بهي المنظر ، حسن الخبَر ، فصيح اللسان باللغتين العربية والبربرية .

وقال صاحب المغرب في حقه : لم يكن في بني عبد المؤمن مثله في هذا الشأن الذي نحن بصدده وكان قد تقدم على مملكتي سجلماسة وبجاية ، وكان كاتباً شاعراً أديباً ماهراً ، وشعره مدوّن وله ألغاز . له ديوان شعر جمعه كاتبه محمد بن عبد ربه المالقي ، وله أيضاً مختصر الاغاني . وتوفي حوالي سنة ٦٠٠ .

أبو حفص عمر

هو القاضي الأديب ، أبو حفص بن عمر بن عبد الله بن محمد بن عبدالله بن عمر السلمي من أهل أغمات ، بها ولد وسكن مدينة فاس . روى عن جده لأمه أبي محمد عبدالله ابن علي اللخمي . أجاز له في صفه وعن أبي مروان بن مسرّة وأبي عبدالله بن الرّامة ، وأخذ عن أبي بكر بن طاهر كتاب سيبويه تفهّماً . وكان من أهل

المعرفة والفقه ، أديباً شاعراً مجيداً ، غلب عليه الأدب حتى عُرف به وشهر ، مبع جودة الخط وبراعة الأدوات .

وولي قضاء تلمسان وفاس واشبيلية ، وكان في غاية الظرف ، إذا أقبل شمت رائحة الطيب منه على بُعد وكان منزله كأنه الجنة ، مما جعل اعداءه ينالون منه عند السلطان ، ويقولون انه غير حافظ للناموس الشرعي ، بكثرة تغزله واشتهار مقطعاته وانهماكه في العشق ، فنقل بسبب ذلك من قضاء فاس الى قضاء اشبيلية ، ولم ينله أدنى مكروه لتعلم بديانته وعفته . وله في المنصور أمداح رائعة ، وله موشحات مشهورة ، كان ينفى بها في الأقطار ، كما يقول ابن سعيد المغربي ، وشعره كله بديع ، نيم عن رقعة طبع وسلامة ذوق ، وإغراق في الحضارة والمتاع . توفي سنة ٦٠٤ باشبيلية .

أبو العباس الجراوي

هو أبو العباس أحمد بن عبد السلام الجراوي من أهل تادلا ، وسكن مدينة مراكش ، الشاعر الحنيد الهجاء المقذع ، من أبرز الشخصيات الأدبية في دولة الموحدين . خدم بشعره الخليفة عبد المؤمن وابنه يوسف وحفيده يعقوب المنصور ، وكان له مع يوسف بالخصوص شأن غير شأنه مع الآخرين ؛ فكان يُعدّ شاعر دولته الخاص ، وكان لا يبرح مجلسه ، ووقعت له معه نوادر غريبة ، تدل على رفيع مكانته منه ، قال ابن خلكان : « وكان هذا الأديب نهاية في حفظ الأشعار القديمة والحديثة ، وتقدم في هذا الشأن ، وجالس به عبد المؤمن ، ثم ولده يوسف ، ثم ولده يعقوب ... وكانت له نوادر نادرة مستظرفة عند أهل الأدب . » وكان بذي اللسان فاحش الهجاء ، هجأ قومه وبلده ، وكثيراً من الناس فهو حطية عصره غير مدافع ، ثم قال ابن خلكان : « وجمع كتاباً يحتوي على فنون الشعر على وضع الحماسة لأبي تمام الطائي وسماه (صفوة الادب وديوان العرب) وهو كثير الوجود بأيدي الناس ، وهو عند أهل المغرب كالحماسة عند أهل المشرق ... وله كل شعر ملبح ، وكان شيخاً مسناً جاوز الثمانين سنة ، وتوفي في آخر أيام يعقوب المنصور ، بل بعده سنة ٦٠٩ باشبيلية .

الخطابي

هو ميمون بن علي بن عبد الخالق الخطابي ، نسبة الى قبيلة من صنهاجة ، من أهل مدينة فاس ، ويعرف بابن خبّازة نسبة الى خاله الشاعر المشهور بابن خبّازة ، قاله ابن القاضي .

هذا كان شاعراً فحلاً نهاية في متانة الشعر وروعته وجماله ، كأنما ينبعث الكلام من صخر ، ويفرغه في قالب الإجادة والاحسان ، ثم يخرج منه وقد تحوّل الى صور شعرية بليغة النظم والتركيب ، سامية المغازي والمقاصد . وأعانه على ذلك فقهه باللغة وروايته الواسعة للشعر مع تفتنه في أساليب البلاغة ، ومعرفته بما أخذ الكلام ، فلا يقرأ القارئ بعض قصائده الطنانة إلا وهو يحسب أنه يقرأ للعتبي ونظرائه من كبار الشعراء . وقال ابن القاضي : « كان سريع البديهة ناظماً ناثراً ، مع الاجادة والتفنن في أساليب الكلام معرفة وإتقاناً في هزله وجدّه على اختلاف اللغات . » ولا يعرف له ديوان مجموع على كثرة شعره : إما لانه لم يدون أشعاره ، وإما لأن يد التلاشي لعبت به كما لعبت بكثير من آثار غيره من الأدباء والعلماء . وعلى كل فليس الشاعر بالديوان ولا بكثرة روايته والناقلين عنه ، وإلا فكم من دواوين مكدسة في زوايا الخزائن ليس لأصحابها عافهم الله في الشاعرية من حظ ولا نصيب .

وهكذا يقال في كل من مضى ويأتي من الشعراء الكبار الذين لم نذكر أن لهم ديواناً مجموعاً . ولي الخطابي حصة الطعام بالمعاصرة المراكشية . وتوفي بالرباط سنة ٦٣٧ .

ابن عبدون المكناسي

أبو عبدالله محمد بن عبدون بن قاسم الخزرجي المكناسي ، شاعر مطبوع ، من اكبر أدباء المغرب في هذا العصر .

كان رقيق الحاشية ، شديد التطرّف ، غزلاً رقيقاً بديماً ، يجيد الوصف ، وله

فيه مذهب حسن ، وعلى أسلوبه رونق ، وفي معانيه عذوبة ولطف وخفّة ، بل إن جملة شعره وجدانٌ تفيض به روحه ، وينفجر به قلبه ، فلذلك تجده شديد التأثير في النفس ، حسن الموقع منها .

توفي سنة ٣٥٨ على ما عند ابن القاضي ، وفي الذخيرة السنيّة ما نصه : « وفي سنة ٦٥٩ توفي بكناسة الفقيه الاستاذ المقرئ الكاتب البارع ، أبو عبد الله محمد ابن عبدون بن قاسم الحزرّجي ، أديب وقته ، وشاعر عصره ، في العشر الأول لذي القعدة منها . » وهو غير ابن عبدون الأندلسي ؛ فان ذلك اسمه عبد المجيد .



عصر المرينيين

الوجهة السَّيَّاسِيَّة

دامت دولةُ الموحدين الى آخر أيام الناصر ولدِ المنصور ، وهي مثال القوة والعظمة ، وجلال الشأن ، ورفعة السلطان ، ثم أخنى عليها الذي أخنى على لبَد ، وجرت فيها 'سنة الكون' ، فتداعت أركانها ، وتقوّضت دعائمها ، وسرعان ما سقطت من حالق العزِّ الى حضيض الهوان .

كان فاتحة ما أصابها من الكوارث ، وقعة العقاب المشؤومة ، التي تألبت عليها فيها دول النصرانية بحذافيرها ، ودحرتها اندحاراً شائناً ، بسبب ضعف القيادة وعدم اجتماع كلمة الرؤساء والمحاربين من جرّاء غرور الناصر وخيانة الأندلسيين له . فهو قد اغترَّ بكثرة ما حشده من الأجناد ، وجمعه من الأعداد فلم يأبه لمقاتلة الأندلس الذين كانوا أعرف من غيرهم بثغور العدو ، وأبصر بمواطن الضعف من بلاده . وهم حيث لم يستشعر وجودهم ، ولا عرف فضلهم ، عزموا على عدم مناصحته ، وبذّل المعونة له ؛ وهكذا وقعت الكرّة على المسلمين وبقيت هذه الواقعة عبرةً للمعتبرين .

ثم فشت بعد ذلك جملة امراض في جسم الدولة ، ومات الناصر مكبوتاً مغموماً ، فانتشر بموته غُفْد رجالات الموحدين ، وظهرت خيانة رؤسائهم في إقامة ولده المستنصر مقامه ، وكان دون بلوغ ليتمكنوا من الاستبداد به ، والضغظ على إرادته ، كذلك ظهرت طماعية الولاة الذين اطلقوا ايديهم في أموال الرعية وأمتعتها ، ونبغ دعاةُ الفتنة في كل صُقع وقبيل ، وسلك المفسدون الى الشر كل سبيل . أما الأندلس فلا تسَل عما نزل بها من الويلات والحزن ، إذ انقسمت على نفسها ، وتغلب الأشقياء فيها على الأطراف ، وانبرى العدو اليها ثانياً يسوم أهلها الخسف والعذاب . وأما إفريقية فقد ابتدأت تستعد للانفصال تحت رئاسة الموحدين الذين كان عبد المؤمن أقطعهم فيها الإقطاعات ، وسوَّغ لهم بها الجبايات فشاءوا الآن أن يجازوه جزاء سِنِمَّار ، يحدد نعمته ، وتفريق وحدة مملكته .

وبالاختصار فقد كثُرت الفتوق في جسم الدولة ، وتعددت الاضطرابات هنا

وهناك ، فأعوز رجل حديد الإرادة مثل عبد المؤمن وأين نحن من عبد المؤمن وأين عبد المؤمن منا ؟ وانت خير بمصائر الدول حين تصل الى هذا الحد من الاختلال وسوء الادارة ، ولا تجد من يأخذ بضبعها ، ويضطلع بتدبير شؤونها ، فلا أسترسل في الحديث عن ذلك التدهور الفظيع ، والسقوط السريع .

إنما الذي يستوقف النظر ، ويسترعي الفكر ، هو سرعة انقراض هذه الدولة واستيلاء الضعف عليها أعز وأقوى ما كانت ، فما هي إلا غدوة الى الأندلس أو روضة ، حتى 'قضي كل شيء' ، ودخلت دولة الموحدين فجأة في دور الاضمحلال والعدم ، فأدبل منها بنو مرين الذين عاجلوا فأجهزوا عليها قبلما تتمكن من رآب صدوعها وعلاج أدوائها .

وفي الواقع إنها الفرصة نادرة اهدتها هؤلاء البدو النازحون الى المغرب من الصحراء ، قصد الامتياز والتريع بمراعيه الخصبة ، على عادتهم في كل سنة ، حينما تجذب أراضيهم ، وتصح نباتاتهم . فما ان دخلوا المغرب هذا العام ، حتى وجدوا المعالم قد تبدلت ، والمشاهد قد تغيرت ، وخلت الأوطان من السكان وبقيت الحقول والمسارح هلا من غير راع ، ولا متعهد ، فمت وربت . وكأنما كانت تعرف ما سيؤول إليه أمر هؤلاء الغرباء ، فأوتهم الى ظلها ، وبسطت لهم أكنافاها فنزلوها وتقرؤها ، وطاب لهم بها المقيـل ، فسمع بهم بقيـة إخوانهم ، فنسلوا إليهم من كل حدب ، وأقاموا معهم مغتبطين بما يصادفونه من الخصب والرخاء والعيش الرغد . على هذه الصفة كان دخولهم أولاً الى المغرب ، ولما استقر بهم المقام ، ولم يجدوا من يقف في وجههم ويصد عاديته عن البلاد ، شجعوا وأقدموا على شن الغارات والإجلاب بخيلهم ورجلهم على الحواضر والبادي . ومن هذا الوقت نشأت عندهم فكرة الاستيلاء والتغلب على المغرب ، فاقبلوا يعملون على تنفيذها وتحقيقها . وكذا الحوادث التاريخية الكبرى تبدأ عادة بسيطة ثم لا تزال تنمو وتستفحل حتى يعظم قدرها ويحل خطرُها .

ولم تكن هذه القبائل ؛ بنو مرين وزناتة عموماً ، في بلادها فوضى لا نظام لها ولا قانون ، بل كانت خاضعة لأحكام الشرع الشريف في معاملاتها وأحوالها الشخصية ، وكانت تقم على رأسها زعيماً كسائر القبائل ، يسمى بالأمير تحقيقاً

لاستقلالها الذاتي . وفي حين دخولها للمغرب ، كان هذا الأمير هو عبد الحق المريني رأس هذه الدولة ، وأبو الأملاك منها ، وكان رجلاً فاضلاً ديثاً متورعاً ، له نفوذ وجاهٌ في قبائل زناتة كلها ، فظل يجاذب الموحدين حبل الملك زمنياً ، ثم قضى وخلفه أولاده أبو سعيد عثمان وأبو معرف محمد وأبو بكر ، فاستمر التنافس بينهم وبين ملوك الموحدين الذين ما كان أكثر عددهم وأقل مدتهم على العادة في هذه الفترة التي يعقبها السقوط . ثم لما آذنت شمسهم بالزوال ، وظلمهم بالانقلاب أوقع بهم بنو مرين في معركة تعرف بيوم المشعلة ، وقعة فاصلة لم يرفعوا بعدها رأساً ولا أبدوا حراكاً ، وجاءت نوبة يعقوب بن عبد الحق رابع الإخوة المذكورين فلم يكن من الصعب عليه ان يستأصل شأفتهم ويحتّ جذورهم في سنة ٦٧٤ ، وكذلك خلص له الملك بالمغرب ، فأعلن نفسه سلطاناً وتلقب بالمنصور .

تقلّص ظلّ الموحدين من المغرب ، واستتبّ الأمر لبني مرين ، فلم يبق من ينازعهم في شيء ، لذلك نرى أن مجال العمل المفيد قد أصبح فسيحاً أمام السلطان الجديد ، إنما هو لم يترك بعد ميدان الحرب والسياسة فتقدم الى افريقية يريد استلحاقها ، كما كانت في أيام الموحدين ، وهيئات ذلك فقد فاتت الفوت ، ودخلت تلك البلاد في ملك بني عبد الواد ، وبني حفص القائمين بها ، ولم يبق محل للعملية التي أجراها عبد المؤمن لتحقيق الوحدة المغربية ، وضم أطراف البلاد الافريقية ، فذلك قد اكتنفها من الظروف المؤاتية ما لم يكن منه هنا قليل ولا كثير ، لذلك كان الاقدام على الحرب في هذه الحال مجازفة ، قلما تأتي بنتيجة غير الشر المستطير ، فالذي ينبغي عمله حينئذ هو الاتحاد والتعاون على تشييد صروح العدل والنظام وإصلاح أحوال البلاد ، وتبادل المصالح المشتركة .

وأما الحرب وخصوصاً بين شعبين إسلاميين متجاورين ، فإما تسبب من الضرر والبلاء ما يعسر مع طول المدة تداركه وتلافيه .

غير أن أولئك القوم لم يكونوا يحسبون هذا الحساب ، ولا يقيمون . لهذه الاعتبارات وزناً . فذلك لا نعجب من تسابقهم الى تحقيق هذه الغاية ، وهي الاستيلاء على بلاد افريقية مهما كلفهم ذلك من الجهد والعناء ، ومهما كان فيه من إزهاق الأرواح البريئة ، وتقاتل المسلمين بعضهم مع بعض . ثم منهم من كان مرابطاً دائماً على معاقل

تلك البلاد ، لا يرفع عنها الحصار أبداً ، ومنهم من كان عكوفه على الحرب فيها ، سبباً في نبوغ الثوار عليه ، واختلال شؤون مملكته ، ومع ذلك لم ينقطع طمعهم فيها ، ولم تنثن عزيمتهم عنها حتى جاء أبو الحسن ، فخر هذه الدولة وأحد عظماء سلاطين المغرب ، فلم يلبث أن فتحت له أبوابها على المصاريع ، ودخل إليها حتى وصل الى تونس ، وضم المغرب كله بعضه الى بعض ، وأخذ في تنظيمه وإصلاحه على طريقة تكفل له النجاح والتقدم . لكن أجلاف العربان من بني سليم ، وبقايا بني هلال إخوتهم الذين كانوا يعيشون في الأرض فساداً ، يأخذون الاتارات من الناس ظمناً وعدواناً لما رأوا شدة شكيمته على أهل البغي والعناد وجده في سد أبواب المطامع ، وحسم أصول الفساد ثاروا به وقطعوا عليه خط الرجعة ، فوقع في الشرك وعمي خبره على شعبه .

وجاء الطاعون الجارف فأخلى البلاد ، واقتى العباد ، فأرجف الناس بموت السلطان ، واختلت الأمور وكاد اليأس يستولي على النفوس ، فوثب ولده أبو عنان وبايع نفسه ، وانتصب على عرش والده المحصور في تونس . فلما سمع والده بذلك ركب البحر وقفل راجعاً في أسطوله الذي كان يُنِيف على الخمسةائة قطعة ، ولكن الحظ السيئ كتب على أسطول المغرب العظيم أن يتحطم في البحر ، فتضمحل حينذاك القوة البحرية لهذا القطر الذي طالما جال بها وصال ، فذهبت مع أمواج الخضم جميع القواد والأبطال ؛ لكن الخسارة كل الخسارة في العلماء الذين كان السلطان لا يستغني عنهم ، ويستصحبتهم في حضره وسفره . وقد كان معه منهم في هذه الوجهة جم غفير فذهبوا ضحية سياسته الهوجاء ، وهو نفسه إنما نجا على لوح من ألواح بعض السفن المتكسرة ، بقي يتخبط فوقه حتى رماه الموج في أحد شواطئ مملكته ، وكانت هذه الزكية مما ينقطع لها نياط القلب ، ولا يرقأ لها دمع العين .

ولما رجع أبو الحسن ، كان ولده قد ثبت مركزه ، وأمر أمره فلم يشأ أن ينزل له عن العرش فتقاتلا ، وإنه لمن المؤسف ان يقع هذا بين الولد والوالد ، وثبت على عهد الوالد رجال ممن صحت نياتهم ، وخلصت ضمائرهم ؛ لكن الوالد المسكين

١ - كان المنصور الموحي نقل عرب بني هلال من افريقية الى المغرب واوطنهم فيه ، وقد بقيت منهم هناك بقايا م الذين عاودوا سيرتهم الأولى مع إخوتهم بني سليم .

كانت أيامه في انصراف، فلم ينشَب ان تُوفِّيَ رحمه الله. وقد كان بنى فأحسن البناء، إنما لم يتمَّ الله مراده، وقام الولد الشاب وتبَّع خطوات أبيه، فتمسَّك بفتوحاته في تلك البلاد، ونظر في أحوالها بعين الحكمة والسداد، لكن ما لبث الأمر بعده ان رجع الى مبدإه، وعاد لتونس استقلالها وللجزائر سُلْطَتها وبقي المغرب قائماً بنفسه في أخريات أيام هذه الدولة.

هذه كانت سياسة المرينيين في إفريقية، وهي كما رأيتها لا تدل على مهارة وحسن تدبير، بل غاية ما فيها، وتسبَّب عنها فعلاً تفريق كلمة المسلمين الموحدة، وبذرُ العداوة بين قلوبهم النقية، زيادة على إضعاف قوتهم المادية والمعنوية، مما يسهل طريق استيلاء العدو عليهم وتمكُّنهم منهم.

ونحن إذا وقفنا محقِّين بجانب يوسف بن تاشفين، ودافعنا عن سياسته الناجحة في ضم الأندلس الى المغرب، ورمينا في وجوه خصومه بكل ما تقوَّله عليه، لا يمكننا هنا أن نقف مُبْطِلين بجانب المرينيين ودافع عنهم ونعتذر لهم، لأنه شتان بين عمل يوسف، وعمل المرينيين، ولئن جنى المغرب، وجنت الأندلس من حركة يوسف ما جنياه من الثمار الصالحة، والنتائج الحسنة، فلم يحن المغرب ولا إفريقية من سياسة المرينيين فيها إلا الخسائر المتوالية في المال والرجال. وبالتالي تضعُّع المركز الدولي الذي كان لهما في العالم وهذا أمر ليس من صالح كلا الطرفين في شيء، بل ليس من صالح الشرق ولا الاسلام ولا العرب. على أن العقل لا يجوزُ بسرعة إمكان تغلب الدولة المرينية على هؤلاء، وهم مثلها دولة ناشئة شديدة الشكيمة، قويَّة المراس، فلم يبقَ إلا أنهم أخطأوا سبيل المصلحة وهو الاتحاد معهم على ردِّ عادية العدو بالبلاد الأندلسية، حتى، لا يزيدَ طغيانه على أهلها، ويعلم أن من وراء اتحاد ملوك النصرانية اتحاد ملوك الاسلام، فيقلِّل من عُتَاوائه، ولا يشتطُّ في عدوانه ولو كتب ذلك لكان المسلمون متوطِّنين باندلسهم الى الآن، لا ينقص عيشهم فيها شيء.

ثم بعد ان تبينا هذه الناحية من سياسة بني مرين، نصرف النظر الى ناحية اخرى من سياستهم، وهي موقفهم بازاء الاندلس، فمنها يظهر لك مزيد اعتنائهم بإفريقية، بل ربما يلتبس عليك الأمر في التوفيق بين سياستهم الأولى في إفريقية، سياسة الفتح والغزو، وسيرتهم الثانية في الأندلس المبينة لتلك تمام المبينة، وذلك أنهم في

الاندلس كانوا قد اتخذوا رُبُطاً وجنوداً لمناوشة الأسبان في القتال ، ودفاعهم عن بلاد المسلمين . وكان أول جيش ذهب منهم إليها ، في أيام يعقوب المتقدم الذكر ، وهو نفسه جاز إلى الأندلس أربع مرات . لا تسأل عن أعماله الحربية فيها ، ومواقفه المشرفة ؛ فكانوا يستولون فيها على الحصون والمدن العديدة ، لكنهم لم يكونوا يتمسكون بها أبداً ، إنما كانوا يزفونها هديةً الى أمراء بني نصر ، أصحاب الأندلس .

وانك لتعجب من هذه السماحة ، وهذا الإيثار ، بما لا علة له إلا حُسْنُ نياتهم في الجهاد فقط ، كما كانوا يصرون هم أنفسهم بذلك . ولا تقل ان ذلك نتيجة العجز ، وعدم القدرة على اقتحام الأندلس وضمها الى المغرب ، فان من يجوزُ على حرب دولتين قَتِيَّتَيْن من الدول المغربية الصميمة بأفريقية ، لا يتهيبُ حرب بني الأحمر ؛ خصوصاً وقد كانوا في حرب مع الخالفين عليهم من بني جِلْدَتِهِمْ ، أو مع الأسبانيين ، ولا تقل أيضاً أن البحر كان هو الحاجز بينهما والمانع من تنفيذ هذه الفكرة ، ولو طافت برؤوس السلاطين من بني مرين ، لآنا نعلم أن أسطول المغرب في ذلك الحين كان من الأساطيل التي تُضْرَبُ بها الأمثال ، وقد ذكرنا ان جلة قِطْعِهِ التي كانت مع أبي الحسن في وقعة افريقية خمسمائة قِطْعَةٍ ؛ فلا يجوز أن يُقال إن البحر هو الذي كان حائلاً عن إقدامهم على شنِّ الغارة على الجزيرة الأندلسية وانتزاعها من أيدي مالكيها ، والمتصرفين فيها . وإذا لم يكن هذا ولا ذاك هو السبب الحقيقي في انصرافهم عنها الى افريقية ، فليكن هذا السبب الذي نذكره ، وهو الذي تَوَسَّده وقائع الأحوال وشواهد العيان ، فالمرينيون خلفُ الموحيدين كانوا يعرفون بما نزل بسلفيهم من الضعف والانحلال بسبب ذلك القطر الاندلسي ، وحافظتهم عليه ، ولئن قيل إنه كان سبب عزم ومجدم فقد يُقال أيضاً انه كان سبب تعسفهم ونحسهم ، فمن الحق أن لولا واقعة العقاب لم يتمكن المرينيون ان يستولوا على المغرب ، ويُقْلَصُوا ظلَّ نفوذ الموحيدين عنه . فهذه العبرة التاريخية هي التي كانت تثنيهم عن المقامرة في أخذ الأندلس وانتزاعها من أيدي بني نصر ، ولو فعلوا لتجسروا في ذلك من أول وهلة ؛ لكنهم كانوا ينظرون الى العاقبة فيتحورقون منها . ولنفرض أنهم أخذوها ، أليس ما يلزمها من التحصين الدائم ، والدفاع المستمر مُشْهِكاً لقوام ، كاسراً لشوكتهم يوماً ما ، كما سبق ففعل المرابطون وبني مؤمن ؟ نعم . فنظروا هذا سديد ، وأسد منه نظروا الى توحيد افريقية ، لو كان ممكناً إذ ذاك . ولذلك فقد انصرفوا عن الأندلس انصرافَ الختار

لا اليائس، ثم أقبلوا على إفريقية فلم يُغنِ حذرٌ من قدر، وكانت هي السبب في ضعفهم وانحلال قوتهم، كما لو ذهبوا إلى الأندلس فيما كانوا يُقدِّرون. وقولنا انصرفوا عن الأندلس ليس على إطلاقه فقد قدمنا انهم كانوا يُقيمون فيها الرُّبُط والمقاتلين، بل لقد كان ملوكهم كثيراً ما يعبرون إليها فيقيمون فريضة الجهاد خالصةً نيأتهم في ذلك، نقيّةً ضمائرهم. ولقد قاموا بأكثر مما يجب عليهم من ذلك، ولا قوا من العدو الذي كان يُراوِغهم، ويعبث بالعهد التي يعقدونها معه، أذىً كثيراً، وكان يتعرض لسخطهم فينزِلون به أشدَّ أنواع التّعصّة، وأقسى ألوان العقاب وهم في ذلك محقون ومنصفون، وكلُّ من علم بُعد الشُّقة، وتحقّق صعوبة ركوب ثبج البحر في ذلك العصر لأنقاذ المستصرخين، وحماية الضّعفة من أهل الأندلس، عذر هؤلاء المغيّرين إذا أتوا حنّيقين غضابى؛ فاقتصصوا منه على قدر فعله، وجازَوْه بما يستحق، فانه كان يتركهم حتى يعودوا إلى مواطنهم بعد أن يكونوا عقدوا معه الهدنة التي يكون هو الطالب لها، فينقضُّ على جوارحه من المسلمين، ويفعل فيهم الأفاعيل، فما إن يصلُ الصريح إلى فاس وتأتي النجدة حتى ينفذ الوعيد ويسبق السيف العذل. وهكذا كان احترام الأوربيين للعهود الدُوليّة في القرون الوسطى - ولا يزال - مُعلّقاً بمصالحهم الآنية وبما تليها إمكانياتهم وظروفهم الحربية فقط لا غير.

ولكن دعنا من هذا، ولننظر في موقف ملوك بني نصر الأندلسيين بإزاء الدولة المرينية لتتعرف بعد ذلك على من تقع مسؤولية ضياع الأندلس، فقد رأينا من قبل موقف الأندلسيين المزدول، موقف الفضيحة والعار، والخيانة والخذلان، في وقعة العقاب المشؤومة، حتى تسبّبوا في تصدّع أركان تلك الدولة الشائخة وأدخلوا الضعف على الأمة المغربية التي لم تكن تعرفه من قبل. وفي أيام المرينيين، نجد أن هؤلاء الذين سمّوا أنفسهم ملوكاً، بينما يستنجدون بأسود العَرين من بني مَرين، فيخفُّ هؤلاء لمساعدتهم وإنقاذهم بدافع الرّغبة في الجهاد والذب عن بيضة الإسلام، إذ يتحالون مع الأعداء عليهم؛ فلا يكاد جنود المغرب يركبون البحر، حتى يحدوا العدو في أساطيل أولئك المستصرخين كامناً لهم، معترضاً كالشجى في حلق الزقاق، فتنسب الجرب، ويشتدّ ضرامها، فأما حين يُكتب النصر للمسلمين وهو الغالب، فإن الناكثين يعتذرون ويقدمون أنفسهم للخدمة، ولا يعدّون من وسائل النفاق، وأساليب الخداع، ما يسترضون به السلطان؛ وإما في حال غلبة العدو، فإنهم يؤلّثونه أيضاً الأدبار خشية تقوية

عليهم فيرجعون لبني مرين أيضاً، لأنهم ليس لهم عضدٌ ولا ناصرٌ غيرهم. ولقد حدث مرة أن أرسل السلطان رأس أحد القواد الأسبان من أوقع بالمسلمين وقائعَ فظيعة ، أرسله الى ملك بني نصر ليظهره الى المسلمين فيحمدون الله الذي أمكن من عدوهم اللدود. لكن ملك بني نصر طيَّبه وجعله في صندوقٍ مُحكَّى وأرسل به الى ملك الأسبان يتملِّقُه ، فانظر الى التخاذل كيف يكون، والى السقوط من حائق العزِّ الى خضيض الهون ... ولا يظن القارىء أنهم كانوا يخافون منهم على بلادهم ، فقد قدَّمنا أن فكرة الاستيلاء على الأندلس لم تدر قط بمخلد ملوك المرينيين ، والا فهم لو أرادوها لم تُعجزهم بحال ، وقد قدَّمنا أنهم لما كانوا يستولون على حصنٍ أو بلد ، سرَّعانَ ما يُسلمونه اليهم قاصدين بذلك إزالة الثغرة من أنفسهم ، وتقوية الروابط معهم ، ولم يكونوا يُبْقون بأيديهم إلا جبل طارق والجزيرة الخضراء ، وجزيرة طريف ، وهذه إنما يبقونها لربط خيط المواصلات بين العدوتين ، وإنزال المقاتلة وادِّخار المؤونة بما مصلحته عائدة على الأندلس ، لكن أولئك القوم لم يكونوا يراعون هذا الجميل ، وإنما ينظرونه بعين عوراء وأخرى مغمضة .

وماذا حدث بعد ذلك ؟ حدث ان الدولة المغربية لم تبقَ على شيء من القوة بسبب ما استنفذت من مجهودها هذه الحروب الطاحنة ، ثم قامت قيامة بني مرين ؛ بالتهالك على السلطة ، وتنازع الإمارة فانتهى الأمر بسقوطهم ، وانتصاب دولة بني وطاس ، وهم فرعٌ من بني مرين ؛ إلا أنهم ليس فيهم غناؤهم فضعفت الأمة ومرج أمرها ، واشتغلت بمشاكلها الداخلية، وحروبها الأهلية . فكأنما بدلت الأرض غير الأرض ، والناس غير الناس : وفي هذه الأثناء كانت النداءات على العادة تتوالى من أهل الأندلس على المغرب وهو لا يستجيب لنداء ، لانه كما علمت منتحراً مضرجاً بالدماء ، نعم كان يتسرَّب إليهم آونة بعد أخرى ، فوجٌ من متطوعة المقاتلين ومتحمسة المجاهدين ؛ ولكن كان جهده أن يُبلغ الأخبار ، ويبسط الأعذار ، والعدو إذ ذاك لَمْ شعثه ، آخذاً أهفته قوي متَّحد ، مُنيخٌ بكلِّه على المسلمين ، يُذيقهم العذاب المكين ، حتى حصلت الكارثة ، ونفذ سهم القضاء ولا حول ولا قوة الا بالله .

قلنا إنه لما سقطت دولة المرينيين خلفتها دولة الوطاسيين ، إلا أن هذه لم يصحبها توفيقٌ فكانت ذنباً طويلاً للدولة المرينية ، يجري عليها ما يجري على أعقاب الدول ، من مُصاحبة الفشل ، ومُعانة العثار ، وقد بقيت كذلك حتى أخلت المكان للدولة السعدية التي ستتكم عليها بعد هذه .

في دائرة العروبة والاسلام الصحيح

يقول كثير من المؤرخين ونسابة المغرب : إن بني مَرِين فَعِخْدُ من زِنَاة ، يَتَشَوْنَ في عِدَاد قبيلتهم هذه الى قيس عَيْلَان ، فهم عربٌ خَلَص ، لا شك في ذلك ، وقال شاعرهم عبد العزيز المكزوري في نظم السلوك :

فجَاوَرَتْ زِنَاةُ البرابِرا فصَيَّرُوا كَلَامَهُمْ كما تَرى
ما بَدَّل الدهرُ سوى أَقْوَالِهِمْ ولم يُبَدِّلْ مُنْتَهَى أَحْوَالِهِمْ
بل فعلهم أَرَبَى على فعل العرب في الحال والإِثَارِمْ في الأدب
فانظُرْ كَلَامَ العرب قد تَبَدَّلَا وحالهم عن حاله تحوَّلَا
لا يَعْرِفُونَ اليومَ ما الكَلَامُ وما لهم نُطْقٌ ولا إِفْهَام
وان تَمَادَتْ بِهِمِ الأَحْوَالُ لم تَبْقَ في الدهرِ لهم أَقْوَالُ
كَذَاكَ كَانَتْ قَبْلَهُمْ مَرِينُ كَلَامُهُمْ كَالدُرِّ إِذْ يَبِينُ
فَاتَّخَذُوا سَوَاهُمْ خِيَلَا فَبَدَّلُوا كَلَامَهُمْ تَبْدِيلَا

وهذا ظاهر على القول بعروبة البربر، والخلاف في ذلك شهر ، فلا تطيل به هنا . وسواء صح ذلك أم لم يصح ، فالواقع أن بني مَرِين كانوا يعملون للنهضة والتجديد في دائرة العروبة ، لا يخرجون عنها أصلاً ، فخدموا العربية خدمةً صادقةً ، ورفعوا لها مناراً عالياً ، وكفى أنشأنا لم نعد نسمع بعد توليتهم الحكم بشيء من التمييز الذي كان للبربر في دولة بني مؤمن ؛ بل كان هذا آخر العهد بحياة الفرقة والعنصرية المقيتة . فعلا شعارُ العروبة كلَّ الشعارات ، ضمت الضاد جميع المغاربة في شق المصالح

والمرافق ، الأمر الذي كان يجب أن يتم منذ جلوس أول عربي صميم تولد من بربرية صميمية على عرش المغرب ، وهو ادريس الثاني بن كنزة بنت إسحاق بن عبد الحميد الأوربي ، بل منذ أن قاد طارق بن زياد وهو البربري الصريح جيش المغرب الذي فتح الأندلس ؛ فركز فيها راية العروبة فلم تزل فيها عالية خفاقة الى آخر العهد بها .

وهكذا أيضاً كان عمل المرينيين في الناحية الدينية سليماً من أي نزعة ، خالصاً من كل بدعة . فاذا كان المذهب الأشعري في العقائد قد تقرر في العصر السابق ، وصار هو الغالب على اكثرية المقاربة ، فقد علمت انه تقرر بعيداً عن تأثير الدولة ، وخالياً مما كانت تضيفه اليه من آراء شاذة مأخوذة عن المعتزلة وغلالة الشيعة . على انه قد عم العالم الاسلامي ، وأصبح هو والمذهب الماتريدي المذهبين العقديين الرسميين السائدين في سائر مملكة الاسلام . وفي الفقه ساد المذهب المالكي نهائياً لكفاح اتباعه المستميت في العصر السابق ، ولمناصرة الدولة الجديدة له . على ان الحرية المذهبية لم تقيّد قط في المغرب . فبقي أفراد عديدون في هذا العصر وفي العصور التي بعده يميلون الى المذهب السلفي في العقائد ، وآخرون يأخذون بمذهب أهل الحديث في أحكام العبادات . أما الذين يُدرسون الحديث على انه مادة الفقه وأصله المتفرع عنه فكثيرون . وفي بعض الأحيان كانت الدولة نفسها تناصر المذهب السلفي ، وتشجع العلماء على النظر والاجتهاد ، كما حصل في أيام السلطان سيدي محمد بن عبد الله في العصر المملوكي . وعلى كل حال فان مذهب أهل السنة سواء في الاعتقاد أو الفقه قد توطد منذ هذا العصر في المغرب . ولم يقم بعد الموحدين دولة تنزع نزعة مخالفة لما عليه الجمهور وسواد المسلمين . ولقد أعاد السلاطين من بني مرين الى اذهان الناس ما كان من أبهة الخلافة الأموية بالأندلس في قصورهم ومصانعهم ورؤسائهم وجنودهم ؛ فكان خروج السلطان لصلاة الجمعة والعيدين ، وللناسبات الأخرى يقع في مشهد عظيم ، وموكب فخيم . وكانت هذه المظاهر الشائقة كثيراً ما تُفري كبار الذوات العلمية والأدبية في الأندلس والمغربين الأدنى والأوسط ، فيفارقون بلادهم غير آسفين عليها ، ويؤمنون الحضرة الفاسية حيث يتمتعون في كتف الدولة المرينية بأسنى ما كان يتمتع به رجالات الدول السالفة كالعباسيين والأمويين مما سمعوا به ولم يروه .

وكفى بابن خلدون وابن الخطيب وابن الأحمر وابن رضوان وابن مرزوق وابن جُزَيّ والمقري وكثيرين غيرهم من العظماء الذين تفتّبوا ظلّ هذه الحضرة المرينية ، وتقلّبوا في نعمتها لما إنها كانت في عصرها حامية بيضة الاسلام ، وموئل العروبة ، دليلاً على ما نقول .

ولقد سار أولئك السلاطين في أقامة مراسم الخلافة على سننٍ لا يجب فكأنوا يعقدون المجالس للسناطرة والمحاضرة ، ويطارحون الأدباء ، ويحاورون الشعراء . أما العلماء فلا تسل عن شدّة تقريّبهم لهم واختصاصهم بهم حتى ان جمهوراً منهم ذهب ضحية هذا التقريب والاختصاص في وجهه أبي الحسن الإفريقية كما سبق القول . وقد قيل إن عدد من غرق من العلماء في أسطول هذا السلطان اربعمائة عالم ، فما بالك بمن لم يركب الأسطول ونجا ؟ فما ظنك بمن لم يصحبه في تلك الوجهة ؟ وهذا يعني أن العلماء كانوا مُتوافرين بحيث بلغ عدد الذين يصحبون السلطان - ولا يكونون عادة إلا من جهازة أهل العلم - ذلك الرقم المرتفع جداً . وهذا يعني أن الدولة كانت في خدمة العلم ، بحيث انصرفت الهمم الى طلبه ، واشتدّ التنافس في تحصيله ، فكثرت العلماء نتيجة لذلك ، وفعلاً فان ما عمله المرينيون في هذا الصدد يجعلهم حريتين بلقب دولة العلم الذي يُطلقه عليهم بعض المؤرخين ، ولقد بذّوا بآثارهم العلمية جميع من تقدّم أو تأخر من ملوك المغرب . فمدارسهم الفنية العديدة لم يستطع أحدٌ أن يأتي بمثلها الى الآن . وخزائن الكتب كذلك لا تزال تنطق بقضلم على الحركة العلمية في هذه البلاد منذ أسسوها ، ولا سيما خزائن القرويين التي أنشأها السلطان أبو عنان وأودعها كما يقول الجزينائي في زهرة الآس « الكثير من الكتب المحتوية على أنواع من علوم الأبدان والأديان ، واللسان والأذهان ، وغير ذلك من العلوم على اختلافها ، وتنوع ضرورها وأجناسها ، ووقفها ابتغاء الزلفى ورجاء ثواب الله الأوفى ، وعين لها قسماً لضبطها ومناولة ما فيها ، وقوصلها لمن له رغبة . وأجرى له على ذلك جناية مؤبّدة تكريمة وعناية وذلك في جمادى الأولى سنة ٧٥٠ . » وأسس أبو عنان كذلك بالقرويين خزانة مصاحف ، احتفل في بنائها وتشيدها بما لم يسبق اليه ، وأعدّ فيها جملة كبيرة من المصاحف الحسنة الخطوط ، وكلّف بها من يتولى أمرها على أحسن الشروط . وقبل أبي عنان عقد السلطان يعقوب المتصور صلحاً مشروطاً مع (شافجه) ملك اسبانيا ، كان بما شرطه عليه فيه ان

يُوجّه إليه كتب العلم التي بقيت ببلاد المسلمين ؛ فوجّه إليه منها ثلاثة عشر رجلاً فيها كثيرٌ من المصاحف وكتب التفسير والحديث والفقه واللغة ، فأرسلها المنصور إلى فاس وحبّسها على طلبية العلم . ولقد جاوزت عنايتهم بهذا الشأن بلاد المغرب إلى الخارج . فهذا السلطان أبو الحسن يوقف على المساجد الثلاثة المقدّسة ثلاثة مصاحف كتبها بخطّه ، وجمع لها القراء والخطّاطين والنقاشين ، وأخرجها في حلّةٍ فريدة من الفن المغربي البديع ، وأرسلها وقفاً كما قلنا إلى مسجد مكة ، ومسجد المدينة ، وبيت المقدس ، وأوقف عليها من الضياع والرّباع ما يقوم بكفاية القائمين عليها والقارئین فيها . وكانت المساجد والمشاهد والمنشآت التي خدموا بها الدين كثيرة ايضاً ، ناهيك بأن أبا عنان منهم هو أول من نصب صواري الصوامع ، ونشر فيها الأعلام في أوقات الصلاة نهاراً والشرج ليلاً ، يستدلّ بذلك من بعد ومن لم يسمع النداء وجعل علم يوم الجمعة أزرق للاستذكار . وفي ذلك اعتناء بأمور الأوقات ، وما يتعلق بها من وجوب الصلوات وما يترتّب عليها من وجوه الحقوق في العبادات والعبادات وفيه قيل :

نُورٌ به علمُ الإيمان مرتفعٌ للمُتّدين به للحق إرشاد
يأتون من كل صوب نحوه فلم يَدَيْهِ للرُّشد إصدارٌ وإيراد

وفي الحقيقة إن كل واحد منهم كان مثالا للملك العربي المسلم العامل لعزّ قومه ودينه ، فلا يفتأ يجدد ويجهّد في إشادة مجدهما وتحليلد مآثرهما ، وبقدّر حرصهم على الوحدة المغربية الذي قدّمنا الكلام عنه وقلنا إنهم أخطأوا الطريق إليه ، كان حرصهم على الوحدة الإسلامية عموماً ، فأنّت قد رأيت مقدار تفانيهم في الدفاع عن معقل المدنيّة الإسلامية ، والحضارة العربيّة في بلاد الأندلس ، ومبلغ نصّحهم ملوكها ، حتى إنهم كانوا معهم مثل الأجراء يعملون لهم ، لكن بدون أجرة ، بل هم كانوا يدفعون اليهم المبالغ الطائلة من الأموال والسلاح والعتاد . كذلك كانوا على اتصال دائم بملوك الاسلام في مصر والشرق ؛ فكم كاتبوهم وهدّوهم وعقدوا

أواصر المودة والائتلاف معهم ، وأوفدوا اليهم الوفود والسفراء من خيرة رجال المقرب الاداريين ، وذوي العلم والأدب وأهل البيت المالِك ، كلُّ ذلك يدلُّنا على ما كان لهم من صدق النية ، وإخلاص الطوية ، في خدمة الدين والوطن ، وتعزيز الروابط الجنسية والمالية بينهم وبين الدول العربية والاسلامية المعاصرة .

فلا جرم بعد هذا ان نقول إن كل أعمالهم ومآتيهم للنهضة والتجديد ، كانت في دائرة العروبة والاسلام الصحيح ، لا تزيع عنها قيدَ قتر ، وإنهم خدموا العربية والدين خدمة صادقة ، ورفعوا لها مناراً عالياً ، وما بعد البيان بيان .



الحركة العلمية

إن تأثير الانقلاب المريني على الحالة الفكرية ، لم يكن ذلك التأثير القوي الذي تتبدل معه معالم الأمور وتتغير مجاري الأحوال ؛ لذلك فإن الحركة العلمية قد بقيت في نشاطها وتقدمها ، كما كانت على عهد الموحدين . وإن كان قد اعتراها في فترة الانقلاب بطبيعة الحال شبه انقطاع أو فتور ، فإنها بعد أن انتصبت الدولة المرينية وتشيدت أركانها قد عادت فاسترجعت ما كان لها قبل من القوة والظهور .

نعم لقد استأنفت الحركة العلمية سيرها إلى الأمام في ظل الدولة المرينية التي ما فتئت ترعاها وتُشجّعها بـ" يد الإعانة إلى رجالها وتنشيطهم حتى ينصرفوا لخدمتها ، بل إن رجال الدولة أنفسهم كانوا يُقدّمون لها أجل الخدمات مما لا يقوم به إلا أجل العلماء . إذ كان الواحد منهم يُكبّ في نشأته على الدراسة والتحصيل ولا يمنعه ما هو مأخوذ به من قيود الملك وأدوات الرياسة ، أن يدأب على النظر في فنون العلم والمعرفة ، حتى يصير من رجالها المعدودين . فقد كان السلطان أبو سعيد عثمان بن يعقوب المنصور من أهل العلم ، وكان أخوه الأمير أبو مالك بمن لهم اليد الطولى في الأدب ، وعارضة قوية في قرّض الشعر ، وكان السلطان أبو الحسن بن أبي سعيد من كبار العلماء . ففي حياة والده كان معدوداً في أطباء الخاص ، وفي مدة توليه الحكم أكثر من مجالسة العلماء والأدباء ، ومذاكرتهم ومحاديثهم ، وكان شديد الإلف لهم ، لا يصبر على مفارقتهم ، وكل جنس يجلس إليه . وكذلك أخوه الأمير أبو علي كان محباً للعلم ، مولعاً بأهله ، منتحلاً لفنونه ، وله بصيرة بالبلاغة واللسان ومملكة في نظم الشعر ، وهو الذي تنافس مع أخيه أبي الحسن على السائب عبد المهيمن الحضرمي في حياة والدهما حتى كادا يقتتلان عليه فألحقه والدهما بمعيتيه . وكان السلطان أبو عنان ابن أبي الحسن فقيهاً يُناظر العلماء الجُلّة ، عارفاً بالنطق وأصول الدين ، وله حظ صالح من علمي العربية والحساب ، وكان حافظاً للقرآن عارفاً بناسخه ومنسوخه ، حافظاً للحديث عارفاً برجاله ، فصيح القلم ، كاتباً بليغاً ، حسن التوقيع ، شاعراً مجيداً . له مقطّعات شعرية حسنة تورّد في محله . ومثل ذلك يقال في السلطان أبي العباس

أحمد بن أبي سالم بن أبي الحسن وولده أبي فارس عبد العزيز . فلا غرو أن تنشط الحركة العلمية في هذا العصر ، وهي تحظى برعاية ملوك من هذا القبيل ، يُمتثلون النشاط الفكري في جميع ميادينه . ولنقتصر الكلام في كل بابٍ بابٍ ، كما فعلنا في عصر الموحدين .

ولعل القارئ لا يزال يذكر أننا قسمنا العلوم هناك الى ثلاثة أقسام ، فالعلوم الشرعية تليها العلوم الأدبية ثم العلوم الكونية : أما العلوم الشرعية ، وهي الفقه والحديث والتفسير وتوابعها فقد 'نحي' فيها منحى التبسط والتفريع . وإن يكن شيء من ذلك قد وقع في العصر قبله ؛ إلا أنه في هذا العصر قد زاد الأمر زيادة ظاهرة ، وبلغ التوسع في ذلك منتهاه . يدلنا على ذلك كثرة الفقهاء الذين نبغوا في هذا العصر ، والتآليف العظيمة التي وُضعت في فروع الفقه . ونحسب أن ذلك كان نتيجة الضغط على رجال هذه العلوم في عصر الموحدين والتحرش بهم وإن الضغط يعقبه الانفجار بما تعلم ؛ فكان هذا هو رد الفعل على تلك الحركة الاستفزازية المنافية لاستقلال الناس في أذواقهم ومشاربهم ، وحرّيتهم في أعمالهم ومآثرهم . وإذا صحّ اعتبار هذا السبب هو الباعث على نشاط هذه العلوم من جديد ورواجها هذا الرواج كله ؛ فلا يصحّ اعتباره سبب ما طرأ عليها من التضخم والنماء ، إلا من طريق غير مباشر ، وهو ما أشرنا إليه من كثرة المشتغلين بها ، فكثرت البحث والتعمق في البحث ، فكثرت الاستنباط والتفريع في الاستنباط ، فكثرت مسائل هذه العلوم كثرة لا مزيد عليها . أضف الى ذلك أن الطلبة في هذا العصر ، كانوا لا يستنكفون من الطلب ولو بعد بلوغ المرتبة العليا في التحصيل . فقد كانت هناك طبقة منهم لا يمكن أن يقاس بها أكابر علمائنا الآن ، لا تفتقر عن الطلب ، وهي بعد من كبار العلماء . واعتبر بما حكى عن الكانوني ، وكان من أئمة الفقه ، الذين لا يُشق لهم غبار ، أنه كان يدرس المدونة بالقرويين ، ويأتي عليها بأبحاثٍ وتعليقٍ وشروحٍ مستجادة ، فكان يجلس اليه أكثر من مائة معتمٍ ، وهم حفاظ المدونة إذ ذاك . وهذا جافزٌ قويٌّ لما ذكرنا كان من نتيجته أن اتسعت دائرة هذه العلوم اتساعاً عظيماً .

ودون هذه العوامل المختلفة ، التي أدّت الى نشاط علم الفروع ، ذلك النشاط العظيم ، فإن هناك عاملاً آخر لا يقلُّ عنها شأنًا في هذا الصدد ، وهو ما كان لطلبة

العلم المذكور في هذا العصر من سموّ المنزلة عند الخاصة والعامة ، بسبب وقوفهم مع الحق ، وسيرهم على الجادة ؛ فكان أن عظمت سلطتهم على النفوس وقوي نفوذهم في رجال الدولة . فالفتوى والقضاء ، ومناصبُ الشرع كلها كانت مستقلة عن التدخل الحكومي أو التعرّض لها من الرؤساء ، وكلمة القاضي كانت نافذة في أكبر كبير ، كأصغر صغير . وحسبك أنه لما وقع الشجار بين القاضي أبي الحسن الصغّير ، والوزير ابن يعقوب الوطّاسي ، بسبب تعقّب هذا الأخير لحكم القاضي ، لم يكن من السلطان إلا أن سخط على وزيره وعزله شرّاً عزل .

وهذه المسكنة التي كانت لرجال الدين عند الشعب ، هي التي جعلت العلّامة عبد العزيز الوريّاغلي يثور بأخر سلاطين بني مرين ، ويقلب الدولة المرينيّة رأساً على عقب ، لما سؤل للسلطان أن يرّكّي على فاس رجلاً يهودياً يسوم أهلها سوء العذاب . أرأيت الى أي حدّ بلغ نفوذ الفقهاء في الأمة ، فلم لا ينصرفون لخدمة علمهم الذي به رقوا هذه الدرجة من المحبوبة .

ونقول إن هذه النهضة المباركة التي نهضها علم الفروع بسبب الإقبال الشديد على طلبه ، قد أفادت العلم من حيث هو ، وأفادت الأسلوب العلمي أكثر ، حيث قد أدخلت عليه تحسيناً مشهوداً في آثار علماء هذا العصر الممتازة بكثرة الجمع والتحصيل ، وحسن التصرف والتعليل ، وفي دروسهم التي كانت كأنها بحارٌ تزخرُ بالفوائد ، وترمي بالفرائد ، فهذا أبو محمد عبدالله الوريّاجلي أحد صدور الفقهاء ، ومن كانت اليه الرحلة في عصره لأنه كاد يتفرد بمقربة الاجتهاد ، وكان يعرف المذاهب الأربعة معرفة جيدة ، فكان يُدرّسها ويُرجّح مذهب مالك ، وكانوا يقيسونه في علمه بالمآزري ولا يعدون به طبقته ، وأجوبته تدل على غزارة معرفته اذ لا يذكر فيها إلا الخلاف العالي . قالوا : وكان من عادته أنه يشتغل بالتدريس في فصل الشتاء والربيع ؛ وفي الصيف والخريف يربط بالثغور . وهذا ابن الصبّاغ أملي على حديث « يا أبا عمير ، ما فعل النخّير » أربعمائة فائدة كلها مما استخرجه بفكره الثاقب من هذا الحديث الشريف .

والغاية في هذا الباب ما روي عن أبي القاسم عبد العزيز بن أبي عمران موسى العبدوسي أحد أفراد بيت العبدوسي الذين ظلوا رجالاً ونساء حاملين راية الفقه والحديث بفاس

والمغرب زمانا طويلا . وقد رحل أبو القاسم هذا الى تونس ، ودرس بها فقصى التونسيون المعجب من وعيه للعلوم وكثرة حفظه . وكثير من علمائهم أوقفوا دروسهم وحضروا عنده رغبة في الأخذ عنه ، واتصال السند به . وكان الناس يستبقون الى المسجد ويأخذون مجالسهم فيه قبل صلاة الصبح ، وتغص بهم رحاب المسجد فيجلسون خارجه حتى يكون من بخارجه أكثر ممن بداخله . وكان هو يُسمع الكل بصوته الجهير . ولما رأوا تفرده باتقان علوم الشريعة من فقه وحديث وتفسير ، قالوا إنه لا يحسن غيرها ، فاقترحوا عليه أن يقدم لهم درساً في العربية فدرسها أيضاً وبهرهم ما شاهدوه مما هو فوق الطاقة ، فأجمعوا حينئذ على إمامته وتفوقه في العلوم ، وأنه لا يضاهيه في جمعه وتحصيله أحد من المعاصرين سواء بأفريقيا والمغرب .

وبعد ، فاسمع ما يقوله علماءها عنه نقلاً عن أحمد بابا : « قال القاضي أبو عبدالله ابن الأزرقي ، كتب إلي أبو عبدالله الزلديوي المفتي بتونس ، يعرفني بحاله من الحفظ مما يقضى منه المعجب ، أنه ورد علينا في أخريات عام سبعة عشر وثمانمائة ، الفقيه العالم الحافظ أبو القاسم بن الشيخ الإمام أبي عمران موسى العبدوسي بكتاب في يده من قبل الامام أبي عبدالله بن مرزوق يقول لنا فيه ، يرد عليكم حافظ المغرب الآن ؛ فقلنا هذا من قبيل مبالغات الإخوان في التوصية باخوانهم . فلما اجتمعنا به وأقام عندنا أزيد من عام رأينا منه المعجب المعجب من حفظ لا تتوهمه يكون لأحد . ولقد كان عندنا بتونس الشيخ أبو القاسم التبرزلي ، سلم له معاصروه في حفظ الفقه وأشياخ المدونة والناس دونه في ذلك ، وبيجاية الشيخ أبو القاسم المشدالي كذلك . وحضرنا مجالسهم ، فما رأينا ولا سمعنا بمثل العبدوسي في حفظه وعلمه ، وعلينا صدق ابن مرزوق فيما وصفه به ، وكان كما قال الشاعر :

فَلَمَّا التَقَيْنَا صَدَّقَ الْخَبَرَ الْخَبْرُ

بل صغر الخبر الخبر . ثم قال في وصف درسه : « وكذلك فعلت أنا ، تركت مجلس تدريسي وحضرت عنده لأخذ شيئاً من طريقه ، فرأيت شيئاً لا يدرك الا بعناية ربانية ، موقوف ذلك على من رزقه الله الحفظ ينفق منه كيف يشاء . لازمنه

حضرًا وسفرًا ، وعلينا طريقه تفكرًا ونظرًا ، ولا يقدر على طريقته إلا من رُزِقَ فطنة كاملة الاستواء ممدّةً من جميع القوى الروحية والبدنية .

أما إذا أقرأ المدونة فاستمع لما يوحى : يتبدى في المسألة من كبار أصحاب مالك ، ثم ينزل طبقة طبقة حتى يصل الى علماء الأقطار من المصريين والافريقيين والمغاربة والاندلسيين وأئمة الاسلام وأهل الوثائق والاحكام حتى يكلّ السامع وينقطع عن تحصيله الطامع . وكذا إذا انتقل الى الثانية وما بعدها ، هذا بعض طريقته في المدونة . وأما إذا ارتقى الكرسيّ ، يعني كرسيّ التفسير ، فترى امرأ معجزاً ينتفع به من قدر له نفعه من الخاصة والعامة . يتبدى بأذكار وأدعية مرتبة ، يكرّرها كل صباح ومساء يحفظها الناس ويأتونها من كل فجٍّ عميق . وبعد ذلك يقرأ القارئ آية فلا يتكلم بشيء منها الا قليلاً ، ثم يفتح فيما يناسبهما من الأحاديث النبوية ، وأخبار السلف وحكايات الصوفية وسير النبي وأصحابه والتابعين . ثم بعدها يرجع الى الآية ، وربما أخذ في نقل الأحاديث فيقول الحديث الأول كذا والثاني كذا والثالث كذا الى المائة فأزيد ، ثم كذلك في المائة الثانية ، والشك في الثالثة .

ثم قال : « وكذلك فعل في إقرائه للعربية ، فبدأ بأصحاب سيبويه ، ثم نزل الى السيرافي وشراح الكتاب وطبقات النحويين حتى ملّ الحاضرون وكلوا . وما زال كذلك حتى ذهبوا ولم يُراجع في ذلك ، وقد كان قصدهم اختباره وامتحانه » اهـ . بتصرف يسر للايضاح . واذ قد تبينت هذه الظاهرة التي كانت غالبية على علم الفروع في هذا العصر ، فانا نقول انها طريقة منهجية إصلاحية ، اختص علماء المغرب دون غيرهم بالعمل عليها ، والدعوة اليها إذ في هذا الوقت ، بدأ العمل بتلك المختصرات العقيمة ، وسرى هذا الداء الويل ، داء الاختصار ، الى العلوم الاسلامية عامة ، فقلل فائدتها ؛ فكان علماؤنا يُشدّدون النكير على ذلك ، ويصدّون الطلبة عن قراءة الكتب التي نحى بها أصحابها هذا المنحى . ويروى عن القُتّاب أنه كان يقول إن ابن بشير وابن شاس وابن الحاجب أفسدوا الفقه . ولما حجّ اجتمع بابن عرفة في تونس فأطلعه ابن عرفة على مختصره الفقهي ، وقد شرع في تأليفه ، فقال له القُتّاب ما صنعتَ شيئاً ، فقال ولم ؟ فقال إنه لا يفهمه المبتدي ، ولا يحتاج اليه المنتهي . فتغير وجه ابن عرفة حينئذ . قالوا وكانت هذا هو السبب الحامل له على بسط العبارة في

أواخر مختصره . ومثل القَبَّاب في ذلك اليزناسني الفقيه الكبير ، فإنه كان صاحب ابن شاس ، واستشاره هذا في وضع مختصره الجواهر ، فأشار عليه ألا يفعل ؛ فلم يعمل ابن شاس بإشارته . وقد أُلْعِنَا إلى الأثر السيء الذي أُرْتَبَتْهُ هذه المختصرات في العلوم الإسلامية بالخصوص ، وراجع الفصل التاسع والعشرين من المقالة السادسة من مقدمة ابن خلدون لتعرف تأثيرها في العلوم مطلقاً ، فلا ريب إذا عددنا ما اتَّبَعَهُ علماءنا المغاربة في هذا العصر طريقة إصلاحية منهجية .

هذا وقد تناولنا الكلام على العلوم الإسلامية جملة ، واعطينا عليها من العبدُوسي مثلاً مشتركاً . وإن ظهر اننا نخصُّ الفقه بمزيد العناية ، لأنه في الواقع كانت أكثرها انتشاراً . ولو ذهبنا نعدُّ رجاله البارزين الذين ما زالت الفتوى والأحكام منذ هذا العهد إلى الآن تدور على أقوالهم واجتهاداتهم لضاق المجال عن استيفائهم ؛ ولكن ذلك كله لا يغطي على ما كان لغير الفقه من الظهور ، وخاصة علم الحديث رواية ودراية ، وعلم التفسير وتوابعه . فبالإضافة إلى مثال العبدُوسي نذكر المحدث والرجالة الشهير ابن رشيد الفهرري الذي جال في أقطار إفريقية ومصر والشام والحجاز ولقي من اعلام الرواية الجُمُ الغفير ، وأكثر من هذا الشأن ، وتوسع في الأخذ وذهب في ذلك إلى أبعد غاية . وكان له تحقيق بعلوم الحديث وضبط أسانيده ، وتمييز رجاله ، ومعرفة انقطاعه واتصاله ، وألف فيه التأليف المفيدة ، وحسبك برحلته الفريدة التي سماها (ملء العيبة فيما جمع بطول الغيبة ، في الوجهتين الكريميتين إلى مكة وطيبة) المشحونة بالمسائل الحديثة والأسانيد العديدة ، التي روى بها أمهات كتب هذا الفن ، والأجزاء المختلفة المؤلفة فيه دليلاً على رسوخ قدمه ، وكونه من الحفاظ الذين يقلُّ لهم النظر مع كمال الثقة ، وشهرة العدالة ، والتمسك بالسنة والعمل بالحديث ، وإن خالف ما عليه الناس مما يعزز ما قلناه في الفصل السابق من أن الحرية المذهبية لم تُقَيِّد قط في المغرب ، وإن صار المذهب الرسمي فيه هو المذهب المالكي وكذلك العقيدة السلفية لم تقطع منه برغم سيادة المذهب الأشعري .

وهذا ابن حجر يقول عن صاحبنا ابن رشيد في الدُّرَر الكامنة : « وكان على مذهب أهل الحديث في الصفات يُمرُّها ولا يتأول ، كان يسكت لدعاء الامتفتاح ويُسرُّ البسطة . . . » ومن كبار محدثي هذا العصر الرئيس عبيد المهيمن الحضرمي الذي جمع إلى البراعة في الأدب والعربية

التفوق في علم الحديث حتى حلاه ابن خلدون بامام المحدثين ، وله مشيخة حافلة تحتوي على ألف شيخ ، مع أنه لم تكن له رحلة ، ومن ثم قال فيه المقرئ الكبير : « جمع فأوعى واستوعب أكثر المشاهير وما سعى ، فهو المقيم الظاعن ، الضارب القاطن . » ومنهم أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن الكرسوطي الفاسي ، كان الى تضلعه بالفقه ، محدثاً ضابطاً عارفاً برجال السند ومراتب الحديث ، يستظهر كثيراً من كتبه المطولات ، وألف فيه تأليف حسنة .

ومنهم الامام الحافظ ، التاريخي ابو عبدالله محمد بن عبد الملك الأوسي الأنصاري المراكشي صاحب الذيل والتكملة ، على تاريخ ابن الفرضي لعلماء الاندلس وصلة ابن بشكوال له ، ومقامه في الحفظ للحديث والأخذ عن المشايخ مما لا يخفى . ومنهم الراوية النقادة أبو عبدالله محمد بن محمد بن علي العبدري الحاحي الرحالة الشهير ، وسعة روايته وقوة عارضته مما يعرف بالوقوف على رحلته ، ومنهم الشيخ المحدث الكبير أبو زكرياء يحيى بن أحمد السراج الفاسي . كان أيضاً رحالة ، مكثراً من الرواية ، مقتنيا للكتب ، ضابطاً لها . له سماع عظيم وفهرسة جامعة في مجلدين . الى غير هؤلاء ممن يطول ذكرهم .

أما المفسرون فمنهم ابن العابد الفاسي الذي اختصر تفسير الكشاف للزنجشري وجردّه من مسائل الاعتزال .

وابن البناء العددي الذي له موضوعات كثيرة في التفسير وحاشية على الكشاف ، وأبو القاسم السلوي وله تفسير جليل ، وأبو علي الشوشاوي وله كتاب الفوائد الجليلة على الآيات الجليلة ، ضمنه من علوم القرآن فنوناً عديدة وجعله عشرين قسماً ، كل قسم منها يحتوي على مسائل مختلفة ؛ فهو من المحاولات الطيبة لجمع علوم القرآن ، على غرار ما فعل البدر الزركشي في كتابه البرهان ثم السيوطي في الإتيقان .

ثم فيما بقي من العلوم الشرعية مثل التصوف والكلام ، لا نرى أنهما كانا منتهزين بكثرة لما علم من ان السذاجة التي تخيم مع الفقه حين تدول الدولة له ، لا تجامع التصوف ، وأنت قد رأيت الحرب التي قامت بين الفقه والتصوف في العصر المرابطي ، إلا أن النتيجة هنا لم تكن كالنتيجة فيما سبق ، فلم يقض الفقه على التصوف ، ولكنه أخضعه لسلطانه . وقد يقال إن العصر بالنسبة للتصوف كان

عصر تمحيص بسبب هيمنة الفقهاء عليه ، وما أحسن التصوُّف يسير في ظلال الفقه . إذ يكون هو لبُّ الشريعة المكنون ، وسرُّها المصون ، وقد كان من أقطابه في هذا العصر ابنُ عبَّاد الرُّنْدِي الذي قضى أكثر حياته في فاس ، وابن الحاج الفاسي ، وأحمد زروق . وكتبهم فيه لا تزال من خير المصادر للتصوُّف الموزون بميزان الشرع .

ومهما تجوَّزنا في الكلام ، وعممنا في الأحكام ، لا يمكننا أن نهمل الإشارة إلى علم أصول الفقه وعلم القراءات ، وما نالهما في هذا العصر أيضاً من العناية الخاصة ، والأول من توابع الفقه والثاني من توابع التفسير ؛ فالأصول كثر دارسوه ، وظهرت طبقة ممن كادوا يختصون به فوضعت فيه التآليف المهمة ، وطبعته بطابع الفقه المالكي مما لم يتبها لغيرهم من قبل .

والقراءة ونعني بها ما يشمل التجويد والرسم والقراءات المأثورة والغريبة وتوجيهاتها ، ما من أحد من صدور فقهاء هذا العصر الا وكان له إلمام بها كلاً أو بعضاً ، وقد وضعت فيها التآليف أيضاً ، إلا أنها على كل حال لم تبلغ في هذا ما بلغت من الذبوع في العصر بعد هذا .

هذا ما يرجع إلى العلوم الدينية ، والنشاط الذي طرأ عليها في هذا العصر ، والجهود العظيمة التي بذلت في خدمتها حتى بلغت في الجملة إلى المستوى اللائق بها . فلننتقل الآن إلى علوم الأدب لننظر كيف كان سيرها في هذا العصر أيضاً . ونقول : إنها جارت سنة النشوء والارتقاء فبلغت إلى قمة المجد والكمال ، وكان هذا عصرها الذهبي في المغرب ، والناخبون فيها في هذا العصر كانوا أساتذة من بعدهم ، بل طبقت شهرتهم العالم العربي ، وما تزال ذكراهم فيه حية إلى الآن . فأما النحو واللغة ، فإنها لم ينالا قط من التقدم ما نالا في هذا العصر ، وذلك لأن الدولة عربية الصبغة تقدر جهود العاملين على رفع شؤون العروبة ، وليس لها التفات إلى غير ذلك مما توحى به العنصرية المتخلفة كما سبق القول ، فلا عجب وقد اتحدت وجهة العمل أن ينبغ في هذين العلمين وفي سائر العلوم العربية رجال عظام ممن يفتخر بهم المغرب ، ولا يقلون أبداً عن نظرائهم في بقية العالم العربي . فمن هؤلاء النوابغ ابن أجروم ، وابن الجراد وابن هانيء ، وابن المرحل ، وأبو القاسم الشريف ، والمكودي ،

وسواهم ، ناهيك منهم جميعاً بـابن أجرثوم ، ذلك الرجل الذي استطاع أن يخلد اسمه أبداً الدهر بوريقات لا تتجاوز عدد أصابع اليد الواحدة ، لا تحتوي على تفكير عميق ، ولا على فلسفة جديدة ، وإنما هي قواعد أولية من علم النحو ، مقررة لدى الجميع . فما السر في هذا الخلود الذي أتيج لهذا الرجل ، حتى لقد فتح لنفسه مجالاً بين جدران مدارس القرن العشرين ، وحتى أطلق الناس اسمه على النحو كأنما هو واضع ؟ فقالوا الأجرثومية ، وأرادوا النحو ، بما لم ينله سيئويه نفسه ؟ ذلك السر هو النبوغ النادر الذي أوحى إليه بمقدمته على هذا الوضع العجيب . فبينما النحو قد خضع لقوانين المنطق وأصبح دراسة عقلية عقيمة ، إذ طلع ابن أجرثوم بمقدمته التي يعرض بها أصول هذا العلم في سذاجة تشبه عقل الطفل ، وترتيب يتوافق وآخر ما قرّره البيداغوجية الجديدة في أساليب التعليم . فلا جرم إن علا اسمه على الأسماء وتمجّدت ذكراه بين الخالدين . ولقد كان للتقدّم الذي نالته هذه العلوم في هذا العصر تأثير كبير في تقويم السنة العامة ، وتذوقهم لأسرار اللغة العربية . أما الخاصة فقد كان لجل كلامهم إن لم نقل كله ، مستقيماً يجري على الضوابط اللغوية .

وهذا الوزير عبد المهيمن الحضرمي يقولون في ترجمته إن كلامه كان كلّه معرباً ، وكذلك ابن عبد المنعم الصنهاجي السبتي من كبار اللغويين والنحاة في هذا العصر ، لم يستظهر أحداً في زمانه من اللغة ما استظهره كما قال ابن الخطيب عنه في الإحاطة : « وكان يعرب أبداً كلامه ، وألف ابن هاني اللخمي كتاباً فيما تلحن فيه العامة ، فجعل اللحن خاصاً بالعامة ، واستطاع أن يعدّ هذا اللحن لما كان قليلاً ، ومدح كثير من الشعراء كثيراً من زعماء القبائل المغربية ، فكانوا يثيبونهم الثواب الجزيل بسبب تذوقهم لجمال هذه الأمداح . وحسبك بأمداح ابن الخطيب في رئيس جبل درن أبي ثابت الهنتاني . وربما يكون حديث (اللطافة) الذي اثبتناه في قسم المنشور من هذا الكتاب أدل من كل ما تقدّم على تغلغل انتشار العربية وآدابها في الأمة ، وشدة الإقبال عليها من سائر الطبقات .

وكان العلامة ابن هاني اللخمي إلى إمامته في العربية وتأليفه فيها ، متضلعا في الأدب بارع الكتابة والشعر ، وألف كتاب الفرّة الطالعة في شعراء المائة السابعة ، الذي يعتبر كتاب ابن الخطيب المسمى بالكتيبة الثامنة في شعراء المائة الثامنة

كالتذليل عليه ، ومثله أبو القاسم الشريف الذي يعرف بالشريف الغرناطي وهو سبتي ، وإنما قيل له الغرناطي لإقامته زماناً بقرنطرة ، وتولية قضاءها وهو من المؤلفين في العربية والأدب وشرحه لمقصورة حازم مما طبقت شهرته الآفاق . ومن أعماله الأدبية المرموقة شرحه للقصيد الحزرجية المعروفة بالرامزة في علم العروض ، مفتضاً خاتماً بعد أن استعصت على كثير ممن رامها قبله ، ولذلك سُمّيَ رياضة الأبيّ من قصيدة الحزرجي ، وهو مما يدلُّ على حصافة عقله وقوة فهمه ، بَلَدَ دلّالته على تمكنه من علم العروض ورسومه فيه ... ومالك بن المرحّل فضلاً عن كونه شاعر العصر بل شاعر المغرب هو أيضاً ممّن ألف في اللغة والأدب كتباً عدة منظومةً ومنشورةً ، منها نظم غريب القرآن لابن عُزَيز ، ونظم اختصار إصلاح المنطق لابن العربي ونظم فصيح ثعلب مع شرحه ، ونظم الثلث الأول من أدب الكتاب لابن قُتيبة ، بعد ترتيبه ، وترتيب الأمثال لأبي عبيد ، وأرجوزة في العروض ، واختراع وزناً من أوزان الشعر هو مجزوء الدّوَيْت المركّب من فعلين مُفاعِلَتين قَعْلون ، ومثلها بجذف قَعْلُن للجزء كما ذكره العلامة محمد بن عبد الحميد بن كيوان في رسالة له في مبادئ العروض ، إلى غير هذا مما يطول تتبعه من حركة انتشار علوم العربية وازدهارها .

ومن دون العربية ، فإن التاريخ قد نال عناية عظيمة من أبناء هذا العصر . ومن نوابقه فيه المؤرخ العظيم صاحب الفضل على مؤرخي المغرب جملة ، ابن أبي زرع ، وما أدراك ما ابن أبي زرع ، صاحب القيرطاس وزهر البستان وغيرهما ، ومنهم ابن عذارى المراكشي صاحب البيان المغرب الشهير ، وأبو الحسن الجزائلي صاحب زهرة الآس في تاريخ بناء مدينة فاس ، وأبو إسحاق التاورتي صاحب تاريخ أبي سعيد عثمان الأصغر ، وفيه كان ابن خلدون ولسان الدين ابن الخطيب وابن الأحمر وغيرهم ممّن أوى إلى كنف المرينيين واستظلّ بظلمهم . والتاريخ الخلدوني نفسه مؤلف باسم أبي عنان وبُرمسم خزانته ، كما أن فيه أيضاً كان صاحب الحلل الموشية في الأخبار المراكشية ، وصاحب الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية . ومن كتّاب التراجم ابن عبد الملك المراكشي صاحب الذيل والتكملة وناهيك به . وأبي عبد الله الزُرعي الجذميوي السبتي التاريخي الحافظ ، له تاريخ في نحو من أربعين سفرأ مُرتب على حروف المعجم في أخبار العلماء والأدباء والتعريف بهم ، وفي ضمن ذلك من بليغ النظم والنثر والحكايات والفوائد والنوادر ما لا يوصف ذكره في بُلغة الأمانة .

وعلى ذكر المؤرخين ، لا ننسى الرحّالين وبينهم وبين المؤرخين ارتباط كبير . ففي هذا العصر كان ابن بطوطة ذلك الرجل المصامي الذي بقي متجولاً في أطراف الكرة الأرضية أكثر من عشرين سنة وعاد الى بلاده متوجّاً بإكليل الغار . وفيه كان ابن رُشيد صاحب رحلة ملء العيّنة ، والعبندري صاحب الرحلة الشهيرة وغيرهم .

وبالجملة فجميع الفنون الأدبية قد ازدهرت في هذا العصر أيّما ازدهار ، ولا خصوصية بذلك لما ذكرنا ؛ فان غيره مثله ، وما طويّنا ما طويّنا إلا لاندراجة تحت المذكور ، ولقصدا الى الاختصار . وفي جدول الكتب المؤلفة في هذا العصر بلاغ المستزيد .

* * *

العلوم الكونية :

وأما العلوم الكونية، فقد تفهم أن نهضة الفقه قضت عليها وعاقبت انتشارها لما علم من تخاصم أهلها وتطاول من أدبيل منها على من دال بحكم قاعدة من عزّ بَز . ولكن ذلك كان قبل نبوغ ابن رُشد الذي حل راية الفقه باليمين، وراية الفلسفة بالشمال، فكان إماماً فيها معترفاً بتقدمه من الجانبين كليهما، نعم هي وإن لم يقف انتشارها فلم يعلم كما كان في العصر السابق، أو قل إن وجهة الناس لم تبقى مصروفة الى كل مباحثها وأصولها وفروعها كما كانت من قبل، بل وقع الاقتصار على ما كانت حاجة الأمة ماسة اليه ومتعلقة به من فروع العلوم الرياضية والطب والكيمياء وما الى ذلك؛ فان هذه كانت تستفرغ مجهود الباحثين من عماء هذا العصر الذين توفروا على دراستها وتحقيقها، حتى بلغوا في ذلك شأواً بعيداً. على اننا نرى أن الذي كان يُعوز هذه العلوم لتطفر طفرة أخرى مثل ما حصل لها أيام الموحدين، هو تأييد الدولة ، وقيام ملكٍ محب للفلسفة ، كيوסף بن عبد المؤمن ، يقرب أهلها ويرفع من قدرهم فيرتفع شأنها ويطرد غمها ، والا فقد كان هناك رجال ممن شاركوا في جميع فروع التعاليم، ومنها الفلسفة، ينتصبون للتعليم ويأخذ الناس عنهم معارفهم المتنوعة، ومنهم بسبّته ابو عبد الله محمد بن هلال إمام التعاليم وشارح المحسّطي في الهيئة ، أخذ عنه ابن النجار التلمساني ، وكان مبرزاً في سائر التعاليم . ومنهم بفاس خلوف المغيلي اليهودي ، اختفى عنده العلامة الآبلي لما أكرهه صاحبُ تلمسان على العمل ؛ ففرّ الى فاس ولازم شيخ التعاليم. المذكور ، فأخذ عنه فنونها

ومهر فيها ، ثم لحق بمرآكش فنزل على ابن البناء ولازمه فتصلع عنه في علم المعقول والتعاليم والحكمة ، ورجع الى فاس فانشال عليه طلبة العلم ، وانتشر علمه بكل مكان .

إنما الذي لا مرية فيه أن معظم النشاط العلمي في هذا العصر كان منصرفاً الى الرياضيات من حساب وجبر وهندسة وقلك ، والنايفون فيها كانوا أكثر من غيرهم ، وكان على رأسهم الإمام ابو العباس بن البناء العددي ذلك الفلكي المشهور ، والحاسب المعروف الذي بذأ أهل عصره ومن بعدهم بكثرة تحقيقه وطول باعه في العلوم الرياضية والاسلامية جمعاء ؛ فحسب الآتين بعده ، أن يقتصروا على كتبه وما خلفه من تراث علمي طائل . فكان حاسباً عددياً لا ينافسه في هذا أحد كما أقر له بذلك فطاحل أهل العلم من معاصريه ، وكان فلكياً بارعاً أتى بتحقيقات عديدة خالف بها كثيراً مما تقارن عليه أهل الفن قبله . ولا ريب فانه كان مفكراً جباراً لا يؤمن إلا بما يهديه اليه فكره بعد البحث الدقيق ، والاستنتاج الصحيح . وقد خلف أكثر من مائة كتاب كلها مثال التحرير والاتقان ، وشهد ابن خلدون لكتبه الحسابية بالجودة ، وبها كانت الدراسة في عصر ابن خلدون .

وكان هنالك أيضاً الجاديري الفلكي البارع ، صاحب الروضة التي شرحت بشروح عديدة ، وكانت بها الدراسة في المعهد القروي . وهذا الفاضل ، له أيضاً عدة أبحاث خالف بها المتقدمين من أهل هذا الفن .

وحبذا لو ان أهل الإخصاء من أبناء جلدتنا تجردوا لبحث آثار أسلافهم هذه ، والمقارنة بينها وبين آثار المحدثين من علماء الغرب ، إذن لوجدوا كثيراً من النظريات التي يفخر هؤلاء بالاهتمام اليها أوّل . وهي من نتيجة جهود أولئك الأسلاف .

وكان هناك السطّي صاحب جداول الحوفي في الفرائض التي دل بها على حسن نظره في الحساب والرياضيات . وأبو زيد اللجائي ، وكان له باع طويل في الهندسة والحساب والهيئة ، وله آلة فلكية تذكر في ترجمته ، وغير هؤلاء كثير ممن نبغ في هذه العلوم وألف فيها التأليف المفيدة .

وفي خصوص الطب نبغ أبو الحسن عليّ بن الشيخ الطبيب بن أبي الحسن علي العنسي المراكشي ، وربما كان ولدأ أو حفيدأ للرياضي الكبير الحسن المراكشي الذي سبق ذكره في العصر الموحدى لأنه اختلف في اسمه : فمنهم من ذكره باسم الحسن ومنهم من ذكره باسم أبي الحسن ؛ فيكون هو جدّ هذا . وله نظمٌ من مجزوء الرجز في الألكحة وصفاتها وما يطلب أو يتجنب فيها ، والأمراض السريّة وعلاجها وطبائع النساء وما يحمد أو يذمّ منهن ، وضعه برسم خزانة السلطان أبي الحسن المريني . وربما كان مشاركاً في غير الطب من العلوم الكونيّة ، ولكننا لم نقف له إلا على هذا الأثر . وفي الطب والكيمياء القديمة والعلوم العقلية من الفلسفة والتعاليم نبغ أبو العباس أحمد بن شعيب الجزنائي الشاعر الكاتب . قال ابن خلدون : « نظمه السلطان أبو سعيد المريني في جملة الكتاب ، وأجرى عليه رزق الاطباء لتقدمه فيه ، فكان كاتبه وطيبه ، وكذا مع السلطان أبي الحسن بعده . »

وترجم في كتاب بلغة الأمنية ومقصّد الليب فيمن كان بسبته من مدرّس وأستاذ وطبيب سبعة أطباء فيهم امرأة قائلاً : وقد كان بسبته في هذه الطبقة جماعة من الأطباء والشجّارين - لعله يريد العشابين - سوى من ذكرناه ، لم يبلغوا في العلم والمكانة مبلغ هؤلاء تركت ذكرهم .. فاذا كان هذا عدد الأطباء العلماء في بلدة واحدة هي سبته ، فماذا يكون عددهم في بقية المدن وخاصة العواصم كفاس ومراكش ، لا شك أن هذه الطبقة من العلماء الطبيعيّين والرياضيّين والفلاسفة ، ضاعت تراجم الكثير منهم ، وضاعت بالتالي أعمالهم العلميّة من كتب ونظريّات وتجارب . ومعالم الحضارة المغربيّة الباقية عن هذا العصر وغيره من العصور تنطبق بأنها حضارة مبنيّة على أسس علميّة وفنسيّة متينة . ولئن كان ملوك بني مرين قد قصرُوا في حماية علم الفلسفة ومدّ اليد الى علماء الطبيعيات كما فعل ملوك الموحّدين ؛ فانهم ناصروا الفنون الجميلة ، وأخذوا بضعبها بما كان لهم من ذوق فنسيّ جميل حتى نهضت نهضتها الكبرى ، ولا سيّما فنّ العمارة والنقش والزخرفة وما إليها من الصناعات التي بلغت في هذا العصر أوج الكمال . وقد بقيت شواهد ذلك ماثلة للعيان في مباني الملوك المرينيّين من مثل مدرسة العطارين والصفارين والبوعنانيّة والأندلس بفاس ، ومدرسة فاس الجديدة ومدارس مكناس ومكلا ومراكش وغير المدارس من المساجد والزوايا والرُّبُط والقناطر وسقايات الماء في هذه المدن وغيرها

— وحكاية السلطان أبي الحسن في بناء المدرسة الجديدة بمكناس معروفة^١، وهي أنه لما رُفِعَ إليه ما صُرف في بنائها استغلى ذلك، فلما وقف عليها وأعجبته أخذ حسابها وغرقه في صهريجها وأنشد :

لا بَاسَ بِالْغَالِي إِذَا قِيلَ حَسَنٌ لَيْسَ لَمَّا تَسْتَحْسِنُ الْعَيْنُ ثَمَنُ

وتلك غاية في تخليد المآثر ليس بعدها غاية، وقد بلغ ما أنفقه على المدرسة التي بناها بغربي جامع الأندلس من حضرة فاس وهو حينئذ ولي عهد والده أبي سعيد ما يزيد على مائة ألف دينار، وهي ما هي في ذلك الوقت. ومدرسة العطارين التي هي من بناء والده أبي سعيد، والمدرسة البوعنانية التي بناها ولده أبو عنان هما بالخصوص قطعتان خالدتان تقومان حجة على عظم النهضة الفنية في هذا العصر، وعلى ما كان لبني مَرِينٍ من يدٍ بيضاء في هذا الصدد.

وإن نَسَّ لا نَسَّ هنا الساعة العجيبة المنصوبة على باب المدرسة البوعنانية، فإنها كانت تُعَدُّ آية في دقة الصُّنْعِ وحُسنِ الوضع، وآثارها لا تزال ماثلةً هنالك، وقد يكون من المفيد هنا أن ننقل لك ما ذكره ابن بطوطة في معرض مدح أبي عنان، وقد ذكر اعتناؤه بجبل طارق ونص كلامه : « وبلغ من اهتمامه أيده الله بأمر الجبل، أن أمر ببناء شكل يُشبه شكل الجبل المذكور يُمثَّل فيه شكل أسواره وأبراجه وحُصونه وأبوابه ودار صنعته — التي أنشأها والده أبو الحسن — ومساجده ومخازن عُددته وأهرية زروعه وصورة الجبل وما اتصل به من الثرية الحمراء ؛ فصنَّع ذلك بالمشور السعيد — بفاس — وكان شكلاً عجباً أتقنه الصانع إتقاناً لا يعرف قدره إلا من شاهد الجبل، وشاهد هذا المثال. وما ذلك إلا لتشوقه إلى استطلاع أحواله واهتمامه بتحسينه وإعداده. » فهذا وحده كاف في الدلالة على الرقي الذي بلغته هذه الفنون في العصر المريني. ولكن مزية هذا العصر ليست في هذا الرقي، بل في أن علماء كلهم مغاربة لا يمتثلون بسبب إلى بلاد غير المغرب، وقد كان علماء العصر السابق أعني فلاسفة جُلُهم ان لم نقل كلهم

١ — يطلق المشور في اصطلاح المغاربة على البلاط الملكي، وانظر بحثنا عنون باميتنا والمعجبة في كتاب خل وطل.

من الأندلسيين فنَضِجَتْ في هذا العصر العقول ، وتفتّحت الأفكار ، وظهر النبوغ المغربي بأجلى مظاهره في جميع ميادين العلوم ، ولم يبق الشعب المغربي عالةً في نهضته العلمية على سواء ، بل ان أبناءه أصبحوا قدوة غيرهم في الدراسات العلمية المختلفة ، وقبلة أنظار طلاب المعرفة من جميع الجهات .

المرأة المغربية :

ونختم الكلام في هذا الفصل بالإشارة الى مساهمة المرأة المغربية في بناء صرح النهضة العلمية في هذا العصر ، كما فعلت في غيره من العصور ، تلك المساهمة الفعالة التي وإن أغفل الكلام عليها في كثير من المصادر التاريخية ، فلها تأبى إلا أن تُعلن عن نفسها من وراء وراء . ولنعطف على ذلك مثلاً في حقل العلوم الدينية السيدة أم هانئ بنت محمد العبدوسي الفقيه الصالحة أخت الإمام الحافظ عبدالله العبدوسي . قال الشيخ زروق في كنشاته : كانت فقيهة ذات علم وصلاح ، طمعت في السنّ الى قرب المائة ، وتوفيت سنة ٨٦٠ ، زاد ابن غازي وهي آخر فقهاءهم . ومثلها أختها فاطمة ، وكذلك السيدة أم البنين الفقيه الصالحة جدّة الشيخ زروق ، والسيدة رحمة بنت الجنتان والدة الشيخ ابن غازي ، والسيدتان عائشة وأمة الله بنتا الحافظ ابن رشيد الذي استجاز لهما المشائخ ، وست العرب بنت عبد المهيمن الحضرمي التي أجاز لها ابن رُشيد .

وفي الميدان الأدبي نذكر الأديبة أم الحسن بنت أحمد الطنجالي نزيلة لوشة ، وقد ترجمها لسان الدين ابن الخطيب في كتابه التاج المجلّى فقال : ثالثة حمدونة وولادة ، وفاصلة جمعت الأدب والمجادة ، وتقلدت الحاسن قبل القلادة ، وأولدت أبكار الأفكار قبل سن الولادة . نشأت في بيت أبيها ، لا يدخر عنها تدريياً ولا تنهياً ، حتى نبض إدراكها ، وظهر في المعارف حراكها ، ودرسها الطب ففهمت أغراضه ، وعلمت أسبابه وأعراضه ... ولما قدم أبوها من المغرب ، وتكلم بخبرها المغرب ، توجّه بعض الصُدُور الى اختبارها ومطالعة أخبارها ، فاستنبل أغراضها واستحسنها ، واستطرف لسنها ، وسألها عن الخط وهو أكسد بضاعة جلبت ، وأشخّ درّة حلب ، فأنشدته من نظمها شعراً في الموضوع . وكذلك الأديبة

صفية العزفية من بيت العزفين وُلَاة سبنة المعروفين ، وقد مدحتنا الاستاذة الأدبية
الشاعرة السيدة سارة بنت أحمد الحلبي بقصيدة مطلعها :

إذا ما ذكرتُ الشرقَ طِرتُ له شوقاً . تقول فيها :

ولكن يَمَسُّ أَضْحَتَ وَحِيدَةٍ عَصَرِهَا نَسِيتُ من الأشواق ما جَلُّ أَوْ دَقَّا
وَمَنْ مِثْلُ ذَاتِ الْعِلْمِ وَالْجَلْمِ وَالنَّهْيِ لقد سارَ سَيْرَ الشَّمْسِ مُعْجِزُهَا الْأَرْقَى
لقد سارَ سَيْرَ الشَّمْسِ فخرُ صَفِيَّةَ وَنَوَّرَ ، إكْبَاراً لَهَا ، الْغَرْبَ ، وَالشَّرْقَا

وصُبحُ جارية أحمد بن شُعيب الجزائى الفيلسوف الكاتب الشاعر ، كانت تنظمُ
الشعر ، ولما ماتت حزن عليها أشدَّ الحزن ، ورثاها بمرثية مؤثرة تُذكر
في المنتخبات .

أما في الميدان العلمي فسنتُرجم للطنبوية عائشة بنت الجيَّار مُكتفين بها ، ونحن
على يقين من أن هناك كثيراتٍ من السيدات الفاضلات اللاتي كن يشاركن في غير
ما ذكر من ضروب المعارف ، ولكن أخبارهنَّ لم تُحفظ بسبب الإهمال الذي مُني
به تاريخنا الأدبي سواء بالنسبة للنساء والرجال ، والله ولي التوفيق

الهيئة العلمية وأثرها

من العسير جداً أن نحاول تقديم بعض الشخصيات البارزة من أعضاء الهيئة العلمية في هذا العصر إلى القارئ كما فعلنا في العصر قبله . فلئن أمكن ذلك هناك ، فلأنحصار التبريز في أشخاص معينين ؛ أما هنا فالشخصيات كثيرة ، وكل مبرز في فنه ، وخصوصاً رجال الفقه والدين فإن هؤلاء لا يكادون يحصون ، فضلاً عن كثرتهم ، فانهم متكافئون في الرتبة ، فماذا نفعل ؟ هل نطوي ذكر هذا الصنف من العلماء ونضرب عنه صفحاً ونأخذ بقاعدة منع الجميع أرضى للجميع ، أم نذكر بعضاً ونترك بعضاً ، وإن غمطنا حق هذا البعض المتروك ؟

لا نظن أن القارئ يوافق على طي ذكر الجميع ، ولعله يكون أكثر شوقاً إلى معرفة بعض المعلومات عن بعض علماء هذا العصر كما في العصر السابق ، فلنذكر بعض أفراد منهم على أنهم نموذج ومثال فقط ، لا على أنهم الثب والخيرة ممن لم نذكرهم ، وفي ظننا أننا بذلك نخرج من الورطة ونخلص من التبعة .

أبو الحسن الصغير

علي بن عبد الحق الزرويلي الشهير بأبي الحسن الصغير بصيغة التصغير ، فقيه كبير من الصدور الحفاظ ، كان مجلسه من أعظم المجالس بفاس ، يحضره الجمل الفقير من خيرة الطلبة وعلية الفقهاء ، ويقصده الناس من أقاصي البلاد . ولي قضاء تازة على عهد السلطان أبي يعقوب يوسف ، ثم ولي قضاء فاس في أيام حفيده أبي الربيع سليمان . وعرضه السلطان فانطلقت يده على أهل الجاه ، وأقام الحق على الكبير والصغير ، والقوي والضعيف ، من غير مداراة في ذلك ولا محاباة . وقامت بسببه فتنة بين السلطان المذكور ووزيره عبد الرحمن بن يعقوب الوطاسي حيث أن أبا الحسن كان قد أقام حد الشرب على أحد سفراء ابن الأحمر ، فاحتاج هذا السفير ،

وقصد الوزير المذكور ، وشكا اليه القاضي . وحجته أن هذا مما لا يُعامل به سفراء الدول ، فكاد الوزير أن يوقع بالقاضي لولا أن حال السلطان بينه وبينه . وحمل ذلك الوزير على شق عصا الطاعة ، والاثثار على خلع السلطان ، غير أن كيدَه رجع في نحره .

أخذ أبو الحسن عن راشد القاسي ، وعنه الجُم الغفير . ودخل الأندلس سفيراً فتهاقت الأكابر للأخذ عنه ، وطلب منه التدريس في غرناطة ففعل ، وبُهِت الناس من حفظه . وله كتب منها مجموعة الدر النثير في النوازل والأحكام ، وتقييم على المدونة في عدة مجلدات . وكان في أيام طلبه قيّد على الرسالة تقييداً نبيلاً ، ثم قُيِّدَت عنه بمجلسه عليها وعلى التهذيب تقييدٌ كثيرةٌ متداولة بأيدي الفقهاء ، فلذلك ما اختلفت نسخها وكانت وفاته سنة ٧١٩ هـ .

القَبَّاب

هو الفقيه الامام الحافظ ، أبو العباس احمد بن قاسم بن عبد الرحمن الجذامي القاسي شهر بالقَبَّاب ، كان أحد صدور الفقهاء في عصره من حفظاً مذهب مالك ، وأئمة الدين والورع . درّس العلم طول حياته ، وأفقى وألّف التآليف القيّمة ، ووليّ القضاء يجبل طارق ، ودخل غرناطة سفيراً . وحجّ فلقى الأفاضل من أهل العلم والصلاح ، وفي وجهته هذه ، اجتمع ابن عَرَفة في تونس ، وأطلعه هذا على مختصره ، فأبدى عليه ملاحظته السابقة الذكر ، وكان بينه وبين الامام العقباني التماسي مناظرات جمعها العقباني في تأليف سماه « لياب اللباب في مناظرة القباب » وهي منقولة في المعيار . وللمترجم فتاوى مجموعة أول ما نقل في المعيار منها ، وله أيضاً اختصار أحكام النظر لابن القطان ، أسقط منه الدلائل والاحتجاج ، وله شرح قواعد الاسلام لمياض في غاية الاتقان ، وشرح بيوع ابن جماعة مفيد جداً ، أخذ عن السطّي وابن فرجون والقاضي الفشتالي وغيرهم ؛ وأخذ عنه الامام الشاطبي وابن الخطيب القُسْطَينِي وجماعة . وكانت وفاته سنة ٧٧٩ هـ .

ابن عبد الملك المراكشي

أبو عبد الله محمد بن عبد الملك الأنصاري ، ثم الأوسي من أهل مراكش ، العلامة الحافظ التاريخي النقّاد . وُلد سنة ٦٣٤ وتوفي سنة ٧٠٣ ، روى عن أبي الحسن الرّعيّني وصحبه كثيراً ، وأبي عبد الله محمد بن علي بن محمد بن هشام ، وأبي الوليد بن عُفَيْر وغيره ، وأجاز له أبو جعفر بن الزُّبير صاحبُ صلة الصّلة ، وكان رحمه الله نبيل الأغراض ، عارفاً بالتاريخ والأسانيد ، نقّاداً لها ، حسن التهديّ جيّد التصرف ، أديباً بارعاً ذا معرفة باللغة العربية والعروض ومشاركة حسنة في الفقه . ألّف كتاباً جمع فيه بين كتابيّ ابن القطّان الفاسي وابن الموقّاق المراكشي على كتاب الأحكام لعبد الحق مع زيادات نبيلة من قبّله . وأما كتابه الذيل والتكملة لكتابيّ الموصول والصلة ، فانه العمل العلمي الضخم الذي اشتهر به ، وقد استوفى فيه تراجم عدّة من لم يذكره ابن الفرّخي وابن بشكّوال في كتابيّهما . وترجم لمن أتى بعدهما من الأعلام تراجم حافلة مستوعبة لآثار المترجمين وأخبارهم ومروياتهم وشيوخهم مع النّقد للروايات والنظر في تلك الآثار ، مما يدلّ على اطلاع واسع ، واستحضار نادر وهو في تسع مجلّدات ، يوجد أكثرها مفروقاً في مكتبات العالم . وقد وليّ ابن عبد الملك قضاء مراكش مدةً ثم أخّر عنه . وكانت وفاته بتلمسان .

ابن رَشِيد

أبو عبد الله محمد بن عمر بن رَشِيد الفهرري السبّقي ، رحالةٌ شهير ، ومن الأئمة الحفّاظ الوعاة والخطباء المصاقع . مولده بسبّنة سنة ٦٥٧ ، وبها نشأ وتوفي بفاس في محرم فاتح عام ٧٢١ ودفن بمطرح الجلّة من القيّاب .

كان محدثاً مسنداً متضلّعاً بالأنحو واللغة والعروض ، ربّان من الأدب ، حافظاً للأخبار والتواريخ والسير مشاركاً في الأصلين ، عارفاً بالقراءات السبع ، خطيباً مبدعاً كثير الترحال والتجوال في البلاد .

دخل الأندلس في سنة ٦٩٢ هـ فقدم للخطابة والفتوى بمسجد غرناطة الأعظم، وأقام بها مدة . ثم قفل راجعاً إلى فاس ، فنال بها أيضاً مراتب عالية تليق بقدره . ورحل إلى المشرق مرتين ، فتجول وأكثر الأخذ عن المشايخ ، ثم عاد والتف رحلته (ملء العيبة فيما جمع بطول الغيبة في الوجهتين الكريمتين إلى مكة وطيبة) واستقر بفاس حتى توفي . وله غير الرحلة كتب أخرى تأتي تسميتها ، وله خطب ومقطعات وأخبار أدبية يأتي بعضها في محله .

ابن الحاج الفاسي

أبو عبد الله محمد بن محمد العبدري الفاسي المعروف بابن الحاج ، أحد جهابذة المتصوفين وأعلام السنة الراشخين سمع ببليده من جلّة الشيوخ . وقدم مصر فصحب الشيخ أبا محمد بن أبي جرة ، وسمع بها وحديث . وكان عارفاً بذهب الإمام مالك ، ومن أهل الزهد والخير والصلاح ، واثرت فيه صحة أهل القلوب ، فصنّف كتابه المدخل إلى تنمية الأعمال بتحسين النيات والتنبيه على كثير من البعد المحدث والعوائد المنتحلة . وهو كتاب حفيظ جمع فيه علماً غزيراً والاهتمام بالوقوف عليه متمين . توفي رحمه الله سنة ٧٣٧ هـ .

الشيخ زروق

أبو العباس أحمد بن أحمد بن محمد بن عيسى البرنسي الفاسي ؛ شهر بزروق ، الامام الأشهر ، والعارف الأنور . ولد عام ٨٤٦ هـ وتوفي والداه قبل سابع ولادته ، فكفلته جدته الفقيهة أم البنين ، واشتغل بالصناعة فتعلم السكافة ، ثم طلب العلم في السادس عشر من عمره فدرس على مشايير أهل بلده ، ورحل إلى المشرق فأخذ به عن جماعة من الأعيان ؛ ثم رجع وقد تضلّع بعلوم الشريعة ، واتقنها غاية الاتقان ، ولا سيما التصوف ، فقد انفرد بمعرفته ويحودة التأليف فيه لتحريره له على أصول

الشريعة تحرير الجوهر وتصفيته تصفية الكبريت الأحمر ، فلذلك ما دعي (بمحتسب الأولياء والعلماء) .

له كتب عديدة يميل فيها الى الاختصار والتحقيق منها ، وهو أشهرها قواعد التصوف ومنها عدة المريد ، ومنها النصيحة الكافية ، وغيرها وهي تزيد على العشرين سنأتي على ذكرها بعد . وتوفي بطرابلس الغرب عام ٨٩٩ هـ .

ابن الشَّاطِ

أبو القاسم قاسم بن عبدالله بن محمد بن الشاط الأنصاري السبي ، والشاط اسم لجدّه ، وكان طوالاً فجري عليه . كان نسيج وحده في أصالة النظر ونفوذ الفكر وجودة القريحة وتسديد الفهم الى حسن الشئائل وعلوّ الهمة والمكوف على العلم والاقتصار على الآداب السنية والتحلي بالوقار والسكينة ، أقرأ بسبنة الأصول والفرائض وكان مقدماً فيهما موصوفاً بامامتهما . وكان موفور لحظ من الفقه حسن المشاركة في العربية كاتباً مرسلًا ريان من الأدب وله نظر في العقلیات .

قرأ على الاستاذ ابن ابي الربيع وعلى الحافظ أبي يعقوب المحاسبي وغيرها وأجاز له أبو القاسم بن البراء ، وأبو محمد بن أبي الدنيا وأبو انعباس بن الغمّاز وأبو جعفر الطباع وأبو بكر بن فارس وغيرهم وأخذ عنه الجيلة من أهل الأندلس كالاستاذ أبي زكرياء بن هذيل وأبي الحسن بن الحباب والقاضي أبي بكر بن شبرين وغيرهم . وله تأليف منها أنوار البروق في تعقب مسائل القواعد والفروق ، و'غنية' الرائض في علم أسرائض وغيرها . وكان مجلسه مألفاً للصدور من الطلبة والنبلاء من الناس . مولده في عام ٦٤٣ بمدينة سبنة وتوفي بها عام ٧٢٣ هـ .

ابن غَزَازِي

هو أبو عبدالله محمد بن أحمد بن علي بن غازي الكناسي ، ثم الفاسي ، شيخ الجماعة بها . نشأ بكناس كما نشأ بها أسلافه ، ثم ارتحل الى فاس في طلب العلم ، فاقام بها مدة ؛

ولقي من مشايخها عدةً ضمّنهم ثبتته الذي سماه بالتعلل برسوم الأسناد بعد انتقال أهل المنزل والنّاد . ثم عاد الى مكناس فأقام بها بين أهله وعشيرته زمناً ، ثم انتقل نهائياً الى فاس ، فاستوطنها وبقي بها حتى توفي سنة ٩١٧ هـ .

كان رحمه الله استاذاً ماهراً في القراءات ووجوهاً ، مُبرّزاً في علوم العربية والفقه والتفسير والحديث وعلم الرجال والسير والتاريخ والأدب ، درس على القوّري وغيره . وأخذ عنه الجواهر إذ قد تفرد برئاسة الهيئة العلمية في عصره ، ولم ينازعه أحد في ذلك . له شفاء الغليل في حل مقفل خليل ، بيّن فيه هفوات بهرام والمواضع المشكّلة من مختصر الشيخ خليل المالكي ، أجاد فيه ما شاء ، وهو من أحسن الموضوعات عليه وله تكميل التقييد وتحليل التعميد ، كتمل به تقييد أبي الحسن الصغيفر على المدوّنة ، وحل مُشكل كلام ابن عرفة في مختصره في ثلاثة أسفار . وله غير ذلك مما يذكر في محله .

ابن بَرّي

أبو الحسن علي بن محمد بن علي بن محمد بن الحسن التّازي الشهير بابن بَرّي ، أحد المهرة في العلوم العربية والقراءات ، وكان كاتباً بليغاً لغوياً عروضياً متفنناً في كثير من العلوم وله خطأً بارع ونظمٌ جيّد . وهو صاحبُ الدّرر اللوامع في قراءة نافع وغيرها من الكتب النحوية والعروضية . وتوفي سنة ٧٣١ هـ .

الحَرَاز

أبو عبدالله محمد بن محمد بن ابراهيم الآموي المعروف بالحَرَاز ، كان إمامَ القراء بفاس وهو صاحب مؤرّد الظّمّان في علم الرسم . وكان يُعلّم الصّبيان وذلك سرّاً نجاح أسلافنا ، إذ كانوا يُسندون الأمور الى أهلها فلا يظلمونها . وتوفي رحمه الله سنة ٨١٨ هـ .

أَبْنُ أَجْرُومَ

أبو عبدالله محمد بن محمد بن داود الصنهاجي الفاسي ، عرف بابن آجرُوم النحوي المقرئ الشهير . مولده عام ٦٧٢ ووفاته عام ٧٢٣ بفاس . وأخذ عن أبي حيان وعنه محمد بن علي الفساني وله من غير المقدمة شرح حرز الأمان في القراءات ونظم في قراءة نافع سماه البارع .

المَكْثُودِي

أبو زيد عبد الرحمن بن علي بن صالح المكثودي الفاسي ، إمام النحاة في عصره . ونسبته الى بني مكثود إحدى قبائل هواة الذين مستقرهم فيما بين فاس وتازة . كان بينهم من بيوتات فاس العريقة في العلم والجاه وكان لهم زقاق يُعرف بهم . وكان أبو زيد هذا من مفاخرهم ، إماماً في النحو واللغة والعروض وسائر فنون الأدب ، درّس كتاب سيبويه بمدرسة المطارين وهو آخر من درّسه بفاس وبعده صار العمل على الفية ابن مالك التي وضع هو عليها شرحه المشهور . ومن كتبه غير شرح الألفية شرح الأجرومية ، وشرح المقصور والمدود لابن مالك والبسط والتعريف في علم التصريف ونظم المعرب من الألفاظ والمقصورة في مدح النبي ﷺ ، نحو ثلاثمائة بيت . وقد نكّث فيها على حازم وابن دريد ، وقائمي في القسم المنظوم . توفي رحمه الله عام ٨٠٧ هـ .

أَبْنُ هَانِي

أبو عبدالله محمد بن هانيء اللخمي السبّتي ، من كبار علماء العربية ، ومؤلفي الأدب في هذا العصر ، قال ابن الخطيب في حقه : « علمٌ تشير له الأكف ويعمل »

الى لقاءه الحافر والخفّ ، رفع للعربية ببلده رايةً لا تتأخر ، ومرج منها 'لجّة' تزخر ، فانفسح مجال درسه ، وأثمرت أدواح غرسه ، فركض ما شاء ، وبرح ودوّن وشرح ، الى شمائل يملك الظرفُ زمّامها ودعابةٍ راشَت الخلاوة سهامها .

له كتب مهمة جداً منها شرح التسهيل لابن مالك ، تنافس الناس فيه ، وكتاب الغرّة الطالعة في شعراء المائة السابعة ، وكتاب إنشاد الضّوّال وإرشاد السّؤال في لحن العامة ، وهو مفيد ، وكتاب قوت المقيم ودوّن ترسيل أبي المطرّف بن عميرة وضمّه في سفرين .. وله لطائف أدبية تأتي في محلها . وقد استشهد في حصار جبل طارق في ذي القعدة عام ٧٣٣ ورثيَ بقصائد منها قصيدة أبي بكر بن شبرين التي يقول فيها :

قد كان ما قال البريد فاصبرْ فحزُنْكَ لا يُفيد
أودى ابنُ هانئ الرضى فاعْتادَني للثكلِ عيد

أبو القاسم الشّريف

أبو القاسم محمد بن أحمد الشّريف الحسني السبتي ، القاضي الفاضل ، نخبّة الأدباء في وقته ، كان متبحراً في العلوم الأدبية من تاريخ وأخبار ونحو وبيان وعروض ، متقدّماً في الفقه والأحكام ، مع توقّد الذهن وأصالة الإدراك . وليّ الكتابة والخطابة والقضاء عن ملوك بني الأحمر في الأندلس ، وطار صيته ونبه ذكوره ، وقد أخذ عن أبيه وعن ابن هانئ وابن رُسَيد وغيرهم ، وعنه ابن الخطيب وسواه ، وله تصانيف بارعة منها رفع الحجب المستورة عن محاسن المقصورة ، وهو شرح لمقصورة حازم ، ورياضة الأبيّ وهو شرح على الخرجية في العروض . وكان أوّل من فكّ ختامها بعد أن أعجزت نبهاء الوقت وشرحُ تسهيل ابن مالك وديوان شعر ، وستنبّت طرفاً من أدبه في المنتخبات .

مولده بسبّنة في ربيع الأول عام ٦٩٧ وتوفي قاضياً بغرناطة في شعبان عام ٧٦٠ هـ .

ولكثرة مقامه بفرناطة يُطْلَق عليه بعضهم الشريف الغرناطي وليس بفرناطي كما علمت .

ابن أبي زرع

أبو الحسن علي بن محمد بن أحمد بن عمر بن أبي زرع الفاسي المؤرخ الشَّعْبة ، صاحب أجمع تاريخ للمغرب من لدُن قيام الدولة الإدريسية الى وقته ، وهو العصر المريني .. وقد اختلفَ في اسمه ونسبه اختلافٌ كبير ؛ ولكن الراجح هو ما ذكرنا . ولا نعرف عن حياته إلا القليل ، لأنه ضنَّ على قراء تاريخه بالمتعة ولو خاطفة من التعريف بنفسه .. وذكر الحلبي في الدرّ النفيس أنه كان عدلاً يحترف التوثيق بسماط العدول بفاس ، وذلك مما يدل على تثبته ونزاهته فيما نقل من الأخبار عن تاريخ الدول السابقة والدولة التي عاصرها وهي دولة المرينيين . وعلى كل حال فإن كتابه المعروف بالقرطاس واسمهُ الكامل (الأنيس المطرب برؤس القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس) هو أهمُّ مصدرٍ لتاريخنا الوطني منذ انفصال المغرب عن دولة الخلافة العباسية الى هذا العصر ، وقد اعتمده ابن خلدون وذكره ابن الخطيب في الإحاطة وأثنى عليه كثيرٌ من العلماء . وله غير القرطاس تاريخ مُطوّل يُسمّيه أزهار البستان في أخبار الزمان يُعتبر في حكم الضائع الآن . وكانت وفاته رحمه الله بعد سنة ٧٢٦ .

ابن بطوطه

أبو عبدالله محمد بن عبدالله بن محمد بن إبراهيم اللّسوّاتي الطنجي ، الرحالة الشهير ولد ونشأ ببلده طنجة . ولما بلغ الثانية والعشرين من عمره أوحّت إليه نفسه الكبيرة بالتّرحال والتّشجّوال ؛ فامتطى صهوة الاغتراب من وطنه وأخذ يذرع الأرض طولاً وعرضاً . وكان خروجه من طنجة سنة ٧٢٥ فجال في المغرب وافريقية وطرابلس وبرقة ومصر والشام والعراق واليمن وسواحل افريقية الشرقية وجزائر

بحر فارس ، ودخل الأناضول وجال فيها وقدم بلاد القرم وساح في جنوبيّ روسيا ودخل الى بلاد البلغار والقُسطنطينيّة . ثم جال في البلاد الواقعة شرقيّ بحر الخزر ودخل خوارزم وُبخارى وخراسان وقيندّهار ووادي السند وأقام بدِهلي حاضرة الهند ونصّب على القضاء فيها . ثم ساح في الأقطار الصينيّة والتتريّة ودخل سيلان وسومطرة وجاوه وباكين قاعدة الصين وابتليّ هناك بالأسر وتلقّى بعد خطب طويل ، فانقلب راجعاً الى المغرب . وكانت قد بارح بلاده منذ ٢٤ عاماً . ومالبت أن وصل الى طنجة حتى عاد الى الرحلة فدخل اسبانيا وتطوف فيها ثم عاد وقصد السلطان أبا عنان المريني بفاس فحظيّ عنده وأفاض عليه من عطائه ما أنساه تجشّم الأسفار واقتحام الأخطار . وذهب رسولاً منه الى بلاد السودان ، ثم عاد الى فاس وبها ألقى عصا التسيار وألف رحلته (تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار) . ومات سنة ٧٧٧ أو ٧٩ هـ .

ابن البناء العدديّ

أبو العباس أحمد بن محمد بن عثمان الأزدي المراكشي ، العلامة الفلكي والحاسب المشهور ، كان أبوه بناءً وطلب هو العلم فبلغ فيه الغاية القصوى . وُلد بمراكش سنة ٦٥٤ وطلب العلم بها ثم بفاس فاتقن العربيّة وآدابها ، وحصل علوم الشريعة وبرع في العلوم الفلسفية ولا سيّما الرياضيّة ، فكان لا يُدرك شأوه فيها ولا يُبلغ مداه . وعلى الأخصّ الهيئة والعدد منها فان إليه انتهى علمها بالمغرب ، وعنده اجتمع ما تفرّق منها بأيدي قدماء الرياضيين من إسلاميين وغيرهم ، ولا يُعرف فيمن أتى بعده من تحقّق تحقّقه بمعرفة أسرار الفلك وحركات النجوم ، وبالعدد والضمّ والتفريق فيه ، وإنما غاية العلماء بعده في ذلك تفهّم كتبه وتناولها بالشرح والتفسير ، مثلاً فعل ابن هيندور وغيره ، فانه شرح تلخيص ابن البناء الحسابي ورفع الحجاب له أيضاً .

وتلخيص ابن البناء هذا هو الذي قال عنه ابن خلدون أثناء الكلام على الحساب من العلوم العددية « أنه ضابط لقوانين أعماله مفيد » ورفع الحجاب قال عنه : « هو كتاب جليل القدر أدركنا المشيخة تعظّمه وهو جدير بذلك » . ولابن البناء كتب كثيرة تأتي على ذكرها بعد هذا . وكانت وفاته ببلده سنة ٧٢١ هـ .

ابن البقال

محمد بن محمد بن علي بن البقال أبو عبد الله العلامة الأصولي المعقولي الفيلسوف ، من أهل تازة ، عرّف به بلديته الأستاذ أبو الحسن بن برّني فقال كان من العلماء المحققين المحصلين المشاركين ، أخذ أولاً بتأزّة علم الفرائض والعدد على أبي عبد الله العباس بن مَهدي والنحو والكلام على أبي عبد الله التّرجالي واستوطن فاساً ودأب على القراءة واستفرغ وسعته في المعقول سنين عديدة ، حتى حصلّ التعاليم وأتقنها ثم أخذ أخيراً في التفسير والفقه الحِلالي وكان له حظٌّ وافرٌ من اللغة والأدب والبيان والعروض والشعر والكتابة . وكان آخر عمره كثير التلاوة للقرآن ، محافظاً على صلاة الجماعة ، وله وردٌ من الليل . وبالجملة ما رثي في وقته من حصل من علوم الفلاسفة مثل ما حصله مع الديانة والوقوف مع الشريعة . وأخذ في آخر عمره في تدريس الفقه ، فكان آيةً . وتوفي بفاس سنة ٧٢٥ ودفن أثر صلاة الجمعة داخل باب الفتوح ، وقد قارب الحسين . قال في نيل الابتهاج : وله أجوبة حسنة في التفسير والأصول أجاب بها أبو زيد بن العشّاب .

اللّجائي

أبو زيد عبد الرحمن بن أبي الربيع اللّجائي الفاسي ، العالم الرياضي الكبير كان متحققاً بأجزاء من علم الهندسة والهيئة والحساب . نشأ في حجر والده أبي الربيع . وكان من فقهاء فاس ، ومن أخذ عن القرّافي . وهو الذي أدخل مختصر ابن الحاجب الفقهّي الى فاس ، فكان يأخذه بطريقته من قراءة الفقه ، ولكنه رأى ذات يوم في النوم كأنه صعد إلى السماء وأخذ يُقلّب نجومها واحداً بعد واحدٍ فقَصَّ رؤياه على أبيه ، فقال له أقصِدْ ابنَ البتّاء وخذْ عنه علومه ، قال ابنُ قنفذ : « كان اللّجائي آيةً في فنونه ، ومن بعض أعماله أنه اخترع أسطرلاباً ملصوقاً في جدار الماء يُديرُ شبكته على الصفيحة ، فيأتي الناظرُ فينظر الى ارتفاع

الشمس كم هو وكم مضى من النهار ، وكذلك ينظر ارتفاع الكوكب بالليل وهو من الأعمال الغريبة ، وقد وقفت عليه زمان قراءتي بين يديه . وتوفي سنة ٧٧٣ هـ .

عائشة بنت الجيار

هي الطبيبة البارعة عائشة بنت الشيخ الكاتب الوجيه أبي عبد الله بن الجيار المحتسب بسبته ، قرأت الطب على صهرها الشيخ الشهير أبي عبد الله الشريسي ونبت فيه . قال في بُلغة الأمنية : أدركتها رحمة الله عليها وقد بلغت من السن نحو سبعين سنة . وكانت امرأة عاقلة عالية الهمة ، نزهة النفس ، معروفة القدر لمكان بيتها . لها تقدم بالطبع وجزالة في الكلام ، عارفة بالطب والعقاقير ، وما يرجع الى ذلك ، بصيرة بالماء وعلامته وتأذل لها بطريقها صيت شيدته الأمراء ، فطالما كانوا يحيزونها بالهدايا والتشحف وغيرها ، لأجل ما خبروه من حُرْفَتِها ، وكانت لها رباح تستغلها . ولم تزل سيدة محفوظة المنصب الى أن توفيت بعد أن عهدت بتوقيف رباحها في سبيل البرّ وسبيل الخيرات رحما الله ونفعها .

اسماء الكتب المؤلفة في هذا العصر

وهاك الآن جدولاً باسماء الكتب المؤلفة في هذا العصر مما وقفنا عليه فقط ، لأننا لا ندعي إحصاءها جميعاً . كيف وأصحاب الكتب انفسهم لا يجوز ان يدعي أحد الاحاطة بمعرفتهم ، فما بالك بكتبهم ؟ وقد سرنا في ذلك على الترتيب الذي توخيناه في العصر السابق .

كتب الحديث والتفسير وتوايها :

ترجمان التراجم في بيان وجه مناسبة تراجم البخاري لابن رشيد ، السنن الآبين في السند المقتنن له ، المحاكمة بين مسلم والبخاري له ، تعليق على البخاري لأحمد

زُرُوق ، جزءٌ في علم الحديث له . التعلُّل برسوم الاسناد بعد انتقال أهل المنزل والنَّاد لابن غازي ، نظم الطرق العَشْر له ، اختصار قَمَشح الباري لابن هلال المتوفى سنة ٩٠٣ ، شرح أحاديث الشَّهاب لابن منصور الكُفراوي السجلماسي من أهل هذا العصر ، الروض الأنيق في شرح الموطأ له ، حلُّ أغراض البخاري المُبهِمَة في الجمع بين الحديث والترجمة له ، شرح الشفا للزَّمُوري من أهل القرن التاسع ، شرح الشفا لابن السكاك المتوفى سنة ٨١٨ ، شرح الموطأ للزَّناتي المتوفى سنة ٧٠٢ مشيخة عبد المهيمن الحضرمي المتوفى سنة ٧٤٩ برنامج مشيخة أبي محمد بن أبي مسلم الأنصاري القَصْرِي المتوفى سنة ٧٧٣ ، شرح ابن بَرِّي له . تجريد الصَّحاح الثلاثة : البخاري ومسلم والترمذي ؛ لأبي عبد الله الكرسوطي الفاسي المولود سنة ٦٩٠ ، حاشية على صحيح مسلم لابن الشاطِ . أربعون حديثاً في الجهاد لأبي القاسم التَّجِيبِي السبكي المتوفى سنة ٧٣٠ ، اختصار الكشاف لابن العابد الفاسي المتوفى سنة ٧٦٢ ، تفسير الباء في البسملة لابن البنَّاء العددي ، تفسير الاسم فيها له ، تفسير سورة الكوثر له ، تفسير سورة العصر له ، حاشية على الكشاف له ، الدليل في مرسوم خطِّ التنزيل له ، المُلتصَّاب اللِّفْظ في القرآن له ، كتاب تسمية الحروف وخاصية وجودها في أوائل السور له . تفسير القرآن لأبي القاسم السَّلُوي من أهل القرن التاسع ، شرح مسلم له ، مورد الظمَّان في رسم القرآن للخُرَّاز ، مُعَدَّة البيان في الرسم أيضاً له ، شرح الحُصْرِيَّة في القراءات له ، شرح ابن بَرِّي له ، شرح العَقِيْلَة في القراءات له . الدرر اللوامع لابن بَرِّي ، التحفة في القراءات لميخُوت الفخَّار المتوفى سنة ٧١٦ الدرَّة له ، المورد الظمَّان للشُّوشاوي المتوفى سنة ٩٠٠ الفوائد الجميلة على الآيات الجليلة له ، الأجوبة في التفسير لابن البَقَّال المتوفى سنة ٧٢٥ ، النافع في أصل حرف نافع للجَّاديري المتوفى سنة ٨١٨ على ما في الجذوة ، شرح ضبط القَيْسِي له ، شرح ابن بَرِّي له ، فهرست له ، نظم التَّيْسِير في القراءات لابن المرحَّل ، شرح حرز الأماني في القراءات لابن آجرُوم ، البارِع في قراءة نافع له ، الشافي في اختصار التيسير والكافي لابي القاسم بن عمران الحضرمي السبكي المتوفى سنة ٧٥٠ .

كتب الفقه والتصوف وتواهمها :

شرح مختصر خليل ثمان مجلدات للقُوري المتوفى سنة ٨٧٢ ، المنهل المورد شرح

المقصد المحمود للجنّان من أهل القرن الثامن ، شرح وثائق الغرناطي له ، القواعد الخمس لأبي سعيد الرُّعَيْنِي القاسي المتوفى سنة ٧٧٩ المقدمات له ، شرحها له ، الجامع المفيد له ، تنبيه الغافل وتعليم الجاهل له ، اختصار مقدمة ابن رُشد له ، الروضة البهية في البسمة والتّصلة له ، المِهاد في الجهاد له ، الأسئلة والأجوبة له ، المسائل الفقهية المنوطة بالأحكام الشرعية لابن منصور المغراوي السجلماسي . الغرر في تكميل الطرر . طرر أبي ابراهيم الأعرج للكرسوطي القاسي ، الدرر في اختصار الطرر له ، تقييدان على الرسالة كبير وصغير له ، تلخيص التهذيب لابن بَشِير له ، تقييد على مختصر الطُّلَيْطَلِي له ، تقييد على المدونة لابن أبي يحيى التُّسُولِي المتوفى سنة ٧٤٩ ، شرح الرسالة له ، شرح التهذيب له ، الأجوبة له ، كتاب المناسك لابن هلال ، الفتاوى له ، تقييد على المدونة لعبد النّور العِمْراني ، الفتاوى له ، تحرير المقالة في نظائر الرسالة لابن غازي ، المسائل الحسان له ، شفاء الغليل له ، تكميل التقييد له ، إرشاد اللبيب الى مقاصد الحبيب له ، الكلّيات الفقهية له ، الجامع المستوفي بحدّاول الخوفي في الفرائض . رسالة الإخوان من أهل الفقه وحملة القرآن لابن ميمون الإدريسي المتوفى سنة ٩١٧ ، مراسيم الطريقة في علم الحقيقة لابن البناء العددي ، شرحه له ، عواطف المعارف له ، عمل الفرائض له ، الفصول في الفرائض له ، مقالة في الاقرار والانكار له ، مقالة في المدبر له ، رسالة في إحصاء أسماء الله الحسنى له . الدرر النّثير لأبي الحسن الصّغير ، تقييد على المدونة له ، تقييد على الرسالة له ، تقييد على التهذيب له ، نظم في الفرائض لعبد العزيز السّمطِي ، نظم في التّصوّف له . نهاية الرّائض في الفرائض للجدّ ميوي من أهل القرن السابع ، كفاية الرّائض في تعاليل الفرائض له ، مفتاح الفوامض في أصول الفرائض له ، نصح ملوك الاسلام في تعريفهم بحقوق أهل البيت لابن السكّاك ، تعليق على تقييد أبي الحسن الصغير للتازغدري المتوفى سنة ٨٣٢ ، الوثائق للقاضي الفشتالي المتوفى سنة ٧٧٩ ، الجمع بين كتابي ابن القطان القاسي وابن المواق على أحكام عبد الحق الاشبيلي لابن عبد الملك المراكشي ، المفيد في الفقه لابراهيم الفحيجي المتوفى حوالي سنة ٩٠٠ ، تقييد على المدونة لأبي عمران العبدوسي المتوفى سنة ٧٧٦ ، تقييد على الرسالة له ، تقييد على التهذيب له ، شرح المدونة للزّنّاني ، شرح الرسالة له ، تقييد على المدونة لأبي موسى الجنّاتي المتوفى سنة ٨٣٠ ، حليلة الأعيان في شرح عمدة البيان وهي مختصر للوغليسي في فرائض

الأعيان للشوشاوي الفتاوى له ، تعليق على المدونة للسلي المنوفى سنة ٧٥٠ ، تعليق على مختصر ابن شاس له ، شرح الحَوْفِيَّة له ، اختصار أحكام ابن القطان للقيّاب المتوفى سنة ٧٧٩ ، شرح قواعد القاضي عياض له ، شرح بيوع ابن جماعة له . تحفة الحكام للزقاق المتوفى سنة ٩١٢ ، المنهج المنتخب على قواعد المذهب له ، معتمد الناجب في إيضاح مُبهمات ابن الحاجب لأنقشاب من أهل القرن الثامن ، شرح الرسالة له . المجالس في الفقه للقاضي المكناسي المتوفى سنة ٩١٧ ، التنبيه والإعلام فيما قضى به القضاة وافق به المفتون من الأوهام له . تقييد على الرسالة نُسخ متعددة لعبد الرحمن الجزولي المتوفى سنة ٧٤١ ، غُنْيَةُ الرَّائِض في علم الفرائض لابن الشاطي ، دلائل الخيرات لأبي سليمان الجزولي المتوفى سنة ٧٨٠ ، حِزْبُ سُبْحَانَ الدَّائِم له ، كتاب في التصوف له . المباحثُ الأصلية ، نظم في التصوف لابن البناء الشرقسُطَفي الفاسي ، المدخل لابن الحاج الفاسي ، النصيحة الكافية لأحمد زُرُوق ، إعانة المتوجه المسكين على طريق الفتح والتتمكين له ، النُصْحُ الْأَنْفَع له ، عُدَّة الْمُرِيد له ، قواعد التصوف له ، الأصول في الفصول له ، تحفة المُرِيد له ، الروضة له ، مُزِيلُ اللبس عن أسرار القواعد الخمس له ، شرح الرسالة الكبير له ، شرح الرسالة الصغير له ، شرح الأرشاد له ، شرح القُرْطُبيَّة له ، شرح الفافقيَّة له ، شرح المباحث الأصلية له ، شرح الحِكْمِ العَطائِيَّة أربع وعشرون نسخة له ، منهاج حزب البحر له ، شرح الحزب الكبير له ، شرح مُشْكِلَات الحزب الكبير له ، شرح حقائق المقرري له ، شرح قِطْعِ الشُّشُورِي له ، شرح الأسماء الحسنى له ، شرح مَرَايِد ابن عُقْبَةَ له .

كتب الكلام والمنطق والأصول :

شرح العقيدة القُدْسِيَّة لأحمد زُرُوق ، الاقتضاب والتبئين في علم أصول الدين لابن البناء العددي ، رسالة في الفرق بين الخوارق الثلاث الملعونة والكرامة والسحر له ، مُنتهى السؤل من علم الأصول له ، تنبيه الفهوم على مدارك العلوم في الأصول له ، شرح تنقيح القراني له . شرح تنقيح القراني للشوشاوي ، الأجوبة في التفسير والأصول لابن البَقَّال ، أنوار البُرُوق في تعقيب القواعد والفرق لابن الشاطي . اختصار حدود الشيرازي للرُعَيْنِي الفاسي . نظم في الكلام لعبد العزيز اللُطَفي ، نظم في المنطق له ، نظم في الجدال له ، نظم في الأصول له .

كتب التراجم والتاريخ والجغرافيا :

الغرّة الطالعة في شعراء المائة للسابعة لابن هانيء ، الذيل والتكملة لابن عبد الملك المراكشي ، البيان المغرب لعمادى المراكشي . الذخيرة السنية في أخبار الدولة المرينية ، القرطاس لابن ريع ، أزهار فلسطين في أخبار الزمان له ، المغرب في صلحاء المشرق والمغرب للرعيي القاسي ، الرحلة له ، نظم مراحل الحجاز له ، نظم رجاله الحلية لابن جابر المكناسي ، الرّوض ، هتون في أخبار مكناسة الزيتون لابن غازي . زهرة الآس في بناء فاس لأبي الحسن الجزناني من أهل القرن الثامن ، تاريخ أبي سعيد الأصغر للتاورني مات أول القرن التاسع . الإشادة في ذكر المشتهرين من المتأخرين بالإجادة لأبي القاسم العزّ في تتوفى سنة ٧١٧ ، ملء العيبة لابن رشيد . تحفة النظار لابن بطوطة ، رحلة العبدري الحاحي . تاريخ عبد الله الزّرعى الجذاميوي السبتي في ٤٠ سفرأ ، كتاب الكوكب القناد فيمن حل بسبته من العلماء والصلحاء والعباد للحضرمي ، بلوغ الأمنية ومقصد الملبب فيمن كان بسبته من مدرّس وأستاذ وطبيب له ، فرغ منه يوم الخميس ٢١ شعبان ٨٢٤ .

كتب الأدب والدواوين الشعرية :

ديوان توميل أبي المطوف ابن سميرة ابن هانيء ، رقه خجّيب سنورة عن محاسن المقصورة لأبي القاسم الشريف ، رياض الأبي في شرح قصيدة الخزرجي له ، غرّة النّقل وهو ديوان شعر له . أحكام التأسيس في أحكام السجّيس لابن إيراد المرّيسع رائد التّسجيع والتّريض له ، وأصل القواديم بالخواص ذكر أسماء العرب له ، حزه في العروض له ، المقصورة للتكثودي ، أرجوز العروض لذلك من المرحّل ، نظم الثلث الأول من أدب الكتاب له ، العشرينات الزّسديه له ، نوسيلة الكبرى المرجو نفعها في الدنيا والأخرى له ، نظم في البيان لعبد العزيز اللّصبي . المنفّرجة التّسازية لابن يحيى السّسازي المتوفى سنة ٨٢٠ ، ررض المرّيسع في صناعة البديع لابن البناء العددي ، عيوب الشعر له ، ديوان في معرفة الشعر له ، قانون في الفرق بين الحكمة والشعر له ، نزهة الناظر لابن جابر . تنميط البُرّدة له ، القصيدة الصّينديّة لابراهيم الفجيجي وهي قصيدة تشتمل على - ون من الوصف والحاسة وتدبير الصيد وغير ذلك مما

يتعلق بهذه الرياضة الجميلة . شرح المقامات الحرة للزنتاني ، النصيح التام للخاص والعام . قصيدة في المواعظ والحكم لأبراهيم التازي المتوفى سنة ٨٦٦ .

كتب النحو والغة :

شرح التسنهيل لأبي القاسم الشريف ، شرح كتاب سيديوه لابن رُشيد ، نظم فصيح ثعلب لابن المرحل ، شرحه له ، نظم غريب القرآن له ، نظم اختصار اصلاح المنطق له ، الرمي بالخصى والضرب بالعصا له ، ردّه على ابن أبي الربيع النحوي ، الأجرومية لابن أجروم ، الكليات النحوية لابن البناء العددي ، شرح الألفية للمكثودي ، شرح الأجرومية له ، البسط والتعريف في علم التصريف له ، نظم المعرب من الألفاظ ، شرح المقصور والمدود له ، تحفة الناظر في غريب الحديث للرعيّني الفاسي ، شرح غريب الشهاب لابن منصور المغراوي السجلماسي ، شرح غريب البخاري له ، شرح غريب الموطأ له . المذكر والمؤنث للجاديري ، شرح الألفية لابن غازي ، شرح الأجرومية لأبي عبدالله الشريف من أهل القرن الثامن ، شرح شواهد الشريف شارح الأجرومية للدقثون المتوفى سنة ٩٢١ ، نظم الأجرومية لميمون الفخار ، لامية الجمل للمجراد المتوفى سنة ٧٧٨ ، شرح جمل الزجاجي لأبي عبدالله الفافقي السبكي المتوفى سنة ٧٣٠ ، شرحه أيضا لأبي محمد بن مسلم الأنصاري القصري . ألفية في النحو لعبد العزيز اللطفي .

كتب في مختلف العلوم الكونية

علم الجدول لابن البناء العددي ، شرحه له ، التلخيص في الحساب له ، رفع الحجاب في الحساب له ، مقدمة على أفقليدس له ، المستطيل في بيان أحكام النجوم له ، المدخل الى علوم النجوم له ، جزء في العمل بالرؤمي له ، منهاج الطالب في تعديل الكواكب له ، علم الأسطرلاب له ، العمل بالشكارية والدرقالية له ، رسالة في ذكر الجهات وبيان القبلة له ، جزء في الأنواء وصور الكواكب له ، كتاب الفلاحة له ، قانون معرفة الأوقات بالحساب له ، قانون في معرفة فصول السنة له ، قانون في ترحيل الشمس له ، طبائع الحروف له ، صناعة الأوقات له ، مقالة في العزائم والرقى له ، مقالة في عمل الطلسمات له ، مقالة في الزجر

والفأل والكهانة له ، مقالة في خط الرَّمْل له ، اليَسَّارة في تقديم السَّيَّارة له ، رسالة في كُثْرِيَّة الأرض له ، رسالة في تحقيق رؤية الأَهْلَة له ، الردُّ على من قال إن وقت العصر يُعْلَمُ بوقوع 'قرص' الشمس على بَصَرِ القائم مُقابلاً له ، نظم أبي مَقْرَع في علم الهيئة ، الدَّوْحَة المشتبكة في ضوابط دار السكَّة لأبي الحسن بن يوسف الحكيم المدبوني ، شرح تلخيص ابن البناء العددي لابن هيندور المتوفى سنة ٨١٦ ، شرح رفع الحجاب له ، روضة الأزهار في علم الليل والنهار للجاذيري ، اقتطاف الأنوار في اختصار روضة الأزهار له ، كتاب في العمل بالاسطرلاب والصفيحة الشكاريَّة والرُّبُع بالحساب والجداول له ، تنبيه الأنام على ما يحدث في أيام العام له ، شرح نظم أبي مَقْرَع له ، 'منية' الحساب في علم الحساب لابن غازي ، شرحها له . السُّلَالِيَّة ، رَجَزِيَّة في الحساب لإبراهيم السملالي من أهل القرن التاسع ، نظم 'المرفقة العلوية' في تعبير الرؤيا لابن جابر ، كنوز الأسرار ولواحق الأفكار لأنقشَاب ، رَجَزٌ في علم الأوفاق لعمر بن عبد العزيز الجزناني ، توفي في أوائل القرن التاسع . موسوعة منظومة تحتوي على نيف وعشرين علماً لعبد العزيز اللمطي .

الحياة الأدبية

قدّمنا أن هذا العصر كان هو العصر الذهبي للعلوم الأدبية في المغرب . وعليه فيكون هو أزهى عصور الانتاج الأدبي فيه ، لأن هذا الانتاج يتبع غالباً تلك العلوم رُقيّاً والمخطاطاً ، خصوصاً عندما يكون الاعتماد على الدراسة والتلقين ، لا على السليقة والطبع

وفوق ذلك ، فإن الوسط الأدبي في المغرب ، لم يبلغ من الرقي في عصر من العصور ما بلغ في هذا العصر ، فقد اشترك في تكوينه جميع الطبقات من الملوك فمن دونهم الى السوقة . أما الملوك فقد علمت أن أكثر سلاطين بني مرين كانوا من أهل العلم والمعرفة والمشاركة في فنون الأدب ، وبالطبع فإن وزراءهم وحجّاتهم وقوادهم فضلاً عن كتّابهم وقضاتهم كانوا كذلك ؛ إذ يستحيل أن يقرب بساط الملوك ، إذا كانوا ملوكاً بمعنى الكلمة ، غير أهل الكفايات النادرة من أرباب المعارف المتنوعة ، وكذلك كنت لا تجد في منصب من مناصب الدولة الا رجلاً كفوءاً لا يؤتى من قصور ، ولا يُعاب من تقصير ، حتى ذوو البيوتات الذين كانوا يتوارثون الرياسة في هذا العصر كبني العزفي وعبد المهيمن وأبي مدين والمكثودي والقبائلي ، لم يكونوا على ما عهد في أمثالهم من الاعتماد بالأحساب والانتكال على الأنساب وإنما كانوا كما قيل :

إِنَّا وَإِنْ أَحْسَبْنَا كَرُمْتَ لَسْنَا عَلَى الْأَحْسَابِ نَشْكِلُ

بني كما كانت أوائلنا تبني ونفعل مثل ما فعلوا

مثلاً ممن دون الملوك ، ولكنهم فوق السوقة . وأما السوقة فقد أشرنا فيما سبق أن ما أثرت فيهم نهضة علوم اللسان وما مكنت لهم من تدوُّق أسرار اللغة ومنهم أغراض الأدب ، حتى إن كان منهم في طبقة صاحب حديث « اللطافة » الآتي

ولا يخفى أن في هذا العصر استفحل ذلك الشعر العامي الذي يتحدث عنه ابن خلدون في المقدمة ، وهو من نظم عوام المغاربة ؛ فيكون من الدلائل القاطعة على تمام استعرايهم ، وبالتالي على رقي الوسط الأدبي عندهم ، لأنهم ما نقلوا الشعر من رطانتهم الى العربية حتى كان قد تغلغل الروح العربي فيهم الى حد بعيد جداً . ولا عبرة بما في ذلك الشعر من ألفاظ ركيكة وتراكيب ضعيفة ، وإنما العبرة بكونه نظماً على الأسلوب العربي وبألفاظ عربية في الجملة ، يصدر من عوام المغرب الذين لم يتشققوا علماً ولا أدباً .

والعجب ممن خفي عليه هذا الأمر ، فراح ينمي على المغرب حظّه من اللغة والأدب ، ويستشهد بذلك الشعر الذي هو من قول عوام أمه . ولقد كان خليقاً أن يستشهد به على قوة انتشار اللغة العربية وآدابها في المجتمع المغربي الذي يقول عامته مثل ذلك الشعر ؛ ولكنه لقصوره لم يعرف أن للمغرب شعراء كأعظم شعراء بلاده ان لم يكونوا أعظم منهم . وابن خلدون لم يجعل هؤلاء العوام هم شعراء المغرب ، وإنما أتى بهم دليلاً على ضعف الملكة الشعرية عند أهل الأمصار ، وخصوصاً الأعجام منهم . ولو زاولوا الصناعة بالتعليم ، وهو يفرق على عادته في هذه النظرية فيتناسى ما لأهل هذه الأمصار من اليد الطولى على العربية وآدابها خصوصاً في عصره ، وقد كان محاطاً بكثير من نبغائهم الذين لا يقصرون عن غيرهم في فن ولا أدب ؛ فجاء مؤلفا كتاب المطرب في أدب الأندلس والمغرب ، فقها عنه أن أولئك العوام هم شعراء المغرب ، فانكرا العلم والأدب على المغاربة ، فظلموا المغرب والتاريخ الأدبي أشد الظلم ، وكانا كمن يسمع أرجال عوام المصريين فيحكم على مصر بالعقم الأدبي ناسياً الشوقيات وغيرها من الآيات البيّنات .

وبعد فما زيد أن نقوله هو أن هذا الوسط الأدبي الطافح بعناصر الحياة ،

١ - ان مثل هذا التلط كثيراً ما يقع في كتاب الشرق ، وما نبهنا على هذا الكتاب بخصوصه الا لأنه من أحدث ما أطلعنا عليه في هذا الباب . وعلى كل حال فالهم لا يتوجه عليهم بقدر ما يتوجه علينا نحن الذين أعملنا أنفسنا حتى صرنا كما قال القائل :

كان هو مهّد هذه الحركة الأدبية الذي فيه نشأت ، ومنه درّجت ، فما ظنك بما تكون عليه من قوّة المادّة والروح ؟

نعم ، وقد كان هذا الوسط يُغربي كثيراً من ذوي الشخصيات الأدبية الكبيرة في افريقية والأندلس فيؤمّثون الحضرة الفاسية ، ويستوطنونها ناسين بما يلقونه فيها من التّجيلة والإكرام ، أوطانهم الأصلية ومعاهد شبابهم الأولى ، وعلى رأس هؤلاء ابنُ خلدون وابن الخطيب وابن جزّى وغيرهم ممن سبقت الإشارة إلى بعضهم . وقد كان انتقالهم إلى المغرب في هذا العصر طوعاً ومن تلقاء أنفسهم ، بل اختياراً وإيثاراً له على أوطانهم لا كما كان في العصر السابق كرهاً واضطراراً ، لأنّ عاصمة الدّولة ومقرّ السّلطة المركزيّة كان في مراكش ، فلا معنى لذوي المصالح وأرباب الكيفيات من اللّجوء إليها ولا كذلك في هذا العصر ، فان قيام دولة بني نصر في غرناطة ، والدولة الحفصيّة في تونس ، ودولة بني عبد الواد في تلمسان كان جريئاً أن يصرف وجه النّخبّة من أبناء هذه البلاد عن المغرب ، مع أن الأمر كان كما قلنا بالعكس ، فما ذلك إلا دليل على أن الجوّ الأدبي في المغرب هو الذي كان يستميلهم إليه .

والحاصل أن في هذا العصر بلغ الأدب المغربي كماله ، فتخلّص من سائر التأثيرات الأجنبية عن النفس المغربية ، وشقّ لنفسه طريقاً نحو الغاية المقصودة ، وهي سدّ حاجة تلك النفس الظامسة إلى حياة أدبيّة حرّة تتمثّل فيها عواطفها ومشاعرها وسجاياها ومزاياها مضمّورة بصورة طَبَقِ الأصل لا رياء فيها ولا تصنع ولا ادّعاء ولا تقليد ؛ فبلغ تلك الغاية وأوفى عليها بمزيد التّفنّن والإبداع ، ولا سيّما في الشعر الذي حمل الطابع المغربي وحده منذ هذا العصر ، فتجد الحقيقة فيه تسبق الخيال ، والطبع يغلب الصّنع والقصد إلى الوضوح أكثر من التعمّق ، والرّقة والجزالة والسهولة في غير ضعف ولا غرابة ولا فسولة ولا ننس وصف الشاعر ابن زمرك لطريقة أدباء المغرب بأنّها عربيّة ، وهو الذي نقلناه في الكلام على الحياة الأدبية في العصر السابق ، ويكفي أن في هذا العصر نبغ ذلك الشاعر الذي يحقّ أن يقال عنه ، إنه شاعر المغرب الأكبر ، ونعني به مالك بن المرحّل الذي طبقت شهرته العالم العربي على رغم ما مني به أدباء المغرب من خمول الذكر ، والذي لم يسع ابن خلدون إلا أن يعترف بشاعريته

على ما عَلِمَ من تحفظه الشديد ؛ ولكن يا أسفي لضَيَاع شعر هذا النابغة
الفَتَى وغيره من شعراء هذا العهد ، الذين نعتقد أنه لو وصلتْ إلينا جميعُ آثارهم
لكنا بقي من يُنْفِضُ رأساً عند ذكر أدب المغرب ، لا من أمثال صاحب رسالة
المُفَاخَرَة بين العُدُوِّين ، ولا من أمثال صاحبِ كتاب المطرب .

ونذكر الآن مُختَصَر تراجم النابيين من أدباء هذا العصر ، لأن الاتِّساع
في ذلك والاحاطة بجميعهم مما يضيق عنه صدرُ هذا الموضوع .

مَالِكُ بْنُ الْمَرْحَلِ

هو أَبُو الْحَكَمِ مَالِكُ بْنُ الْمَرْحَلِ السَّبْئِي ، أعظمُ شعراء المغرب شهرةً على
الاطلاق ، ولد سنة ٦٠٤ ونشأ بسبته خاملَ الذِكر خفيَ المنزلة فأنهضه أدبه
وشعره ، وعوضاهُ من الخمول الظهور ؛ فكان في عصره شاعرَ المغرب غيرَ
مُدافِع ، وأطبع شعرائه أسلوباً وأرشقهم لفظاً ، وأبلغهم معنى . استعان على ذلك
بالمقاصد اللسانية لغةً وبياناً ، ونحواً وعروضاً وقافيةً وحفظاً للجيد من الشعر ،
واضطلاعاً بمعرفة معانيه وتراكيبه ؛ فانه كان في ذلك نافذةً الذهن ، شديدَ
الادراك ، قويَّ المعارضة ، سريعَ البديهة . وكان قد تلاَ القرآن بالسَّبْع ،
وذلك مما زاده بصراً بأسرار العربية .

كان ابنُ المرحل يتعاطى صناعةَ التوثيق ببلده سبته ، واستغنيَ مرةً
ببعض الجهات ، وكان مَدِّاحاً ليعقوب المنصور المريني ومختصاً به ، وعلى تغميره ،
وتقدُّمه في السن لم يضعف في رواية العِلْم والشعر والمُلح والفوائد ، بل كان
إنما يزداد سعة درع وانفساح باع في ذلك ، ومن شعره لما بلغ الثمانين سنة :

يَا أَيُّهَا الشَّيْخُ الَّذِي عُمُرُهُ قَدْ زَادَ عَشْرًا بَعْدَ سَبْعِينَ

سَكِرْتَ مِنْ أَكْوَاسِ خَمْرِ الصَّبَا فَحَدِّثْكَ الدَّهْرُ ثَمَانِينَ

وله تأليفٌ سبقَ ذكرها ، وأخباره وأشعاره تأتي في المنتخبات ، وتوفي
بفاس سنة ٦٩٩ هـ .

الملزوزي

هو أبو فارس عبد العزيز الملزوزي ، شاعر الدولة المرينية وبلبلها الصداح ،
يأتي بعد ابن المرحل في قوة العارضة وتدفع الطبع والتفنن والابداع في
ضروب القول . وكان المنصور شديد التقريب له فرافقه في جميع حركاته ،
ما كان منها بالأندلس أو بغيرها ، وصدر منه في وصف تلك الوقائع الحربية قصائد
فخمة ، منها تلك التي قالها بعد عودة المنصور من غزوة الكبرى بالأندلس سنة
٦٨٤ وهي ملحمة فريدة في الأدب المغربي تناهز أبياتها المائتين والخمسين
بيتاً ، منها فيها بالنصر على العدو وعدد أياديه على الرعية ، ونوه بالأبطال من
قبائل زناتة ، فجازره المنصور عليها بعشرة آلاف دينار ، وأعطى لمنشديها بين
يديه وهو الاستاذ أبو زيد الفرابلي ألف دينار ، وسننشتها في محلها من هذا
الكتاب . وللملزوزي أرجوزة بارعة سماها نظم السلوك في أخبار من نزل
المغرب من الملوك . وقد استشهدنا بأبيات منها فيما تقدم .

أبو العباس العزفي

هو أبو العباس أحمد بن الرئيس أبي طالب اللخمي من بيت العزفي الذي
تداول رئاسة سبتة من لندن وأخر دولة الموحدين ، كان شاعراً غزلاً رقيقاً الحاشية ،
شفافاً الديباجة ، بديع التشبيه ، حسن النقابة ، وهو فاضل أهل بيته في هذا
الباب ، على أنه ما فيهم الا فاضل ابن فاضل ، ذكره أخوه الحافظ أبو القاسم في
كتابه (الإشادة في المشتهرين من المتأخرين بالإجادة) فقال في حقه : « هو أخي ،
الذي بإخائه أزهى وأنتخي ، وكبير المعتمد باجلالي وتوقيري ، ولولا خوفاً من
أن يلزمني ما لزم مادح نفسه ، لأطنبت في وصف ما له من المحاسن التي فاق بها

أبناءً جُنُسِهِ ، مع أنها لم تزلْ على مَنْصَةِ الْبَيَانِ مَجْلُوءَةٌ ، وبِالسِّنَةِ الْإِبْدَاعِ مَتْلُوءَةٌ » دخل غرناطة سنة ٧٠٥ قَلَقِيَّ بِهَا كُلَّ تَجِلَّةٍ وَإِكْرَامٍ ، وَبَقِيَ بِهَا إِلَى أَنْ تُوْفِيَ فِي ٢٨ ذِي الْحِجَّةِ عَامَ ٧٠٧ هـ .

أَبُو الْعَبَّاسِ الْجَزْنَائِي

هُوَ أَبُو الْعَبَّاسِ أَحْمَدُ بْنُ شُعَيْبِ الْجَزْنَائِي الْفَاسِي ، شَاعِرٌ كَاتِبٌ مَتَضَلِّعٌ فِي فَنُونِ الْأَدَبِ ، حَافِظٌ لِلجَيْدِ مِنَ الشَّعْرِ ذُكِرَ أَنَّهُ كَانَ يَحْفَظُ عَشْرِينَ أَلْفَ بَيْتٍ لِلْمُحَدِّثِينَ . وَكَانَ لَهُ بَصَرٌ نَافِذٌ فِي نَقْدِ الشَّعْرِ ، وَشِعْرُهُ بِمَا سَابَقَ بِهِ الْفُحُولُ وَكِتَابَتُهُ حَسَنَةٌ وَخَطُّهُ جَيِّدٌ . وَكَانَ كَاتِبًا فِي دِيْوَانِ الْإِنْشَاءِ عِنْدَ أَبِي الْحَسَنِ الْمُرِينِيِّ ، وَتَسَرَّيَ جَارِيَةً رُومِيَّةً اسْمُهَا صُبْحٌ مِنْ أَجْلِ الْجَوَارِي وَأَحْسِنَهُنَّ ، وَلَقِّنَتْهَا حَظًّا مِنَ الْعَرَبِيَّةِ ، فَظَلَمَتِ الشَّعْرَ ؛ وَكَانَ شَدِيدَ الْغَرَامِ بِهَا فَهَلَكَتْ فَلَمْ يُطِيقْ عَلَيْهَا صَبْرًا ، وَقَالَ فِيهَا أَشْعَارًا رَاقِعَةً هِيَ مِثَالُ الْبَلَاغَةِ وَالْإِنْجَامِ .

وَكَانَ مِنْ أَهْلِ الْمَعْرِفَةِ بِصِنَاعَةِ الطَّبِّ ، وَالنَّظَرِ فِي التَّعَالِيمِ ، وَتَهَنَّتْكَ فِي عِلْمِ الْكِيمِيَاءِ ، وَخَلَعَ فِيهَا الْعَذَارَ وَلَهُ فِيهَا مَوْضُوعَاتٌ كَثِيرَةٌ . تُوْفِيَ بِتُونِسَ فِي جُمْلَةٍ مَخْدُومَهُ أَبِي الْحَسَنِ يَوْمَ عِيدِ الْأَضْحَى سَنَةَ ٧٤٩ هـ .

أَبُو عَبْدِ اللَّهِ الْمَكُودِي

هُوَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ الْمَكُودِي الْفَاسِي ، شَاعِرٌ مُبْدِعٌ مِنْ أَهْلِ الظَّرْفِ وَالْأَدَبِ وَالْإِنْطِبَاعِ ، بَيْتُهُ فِيمَا عَلِمَتْ مِنْ بَيِّنَاتِ فَنَنِ الْعَرَبِيَّةِ فِي الْمَجْدِ وَالْحَسْبِ . نَبَغَ بِالشَّعْرِ فَبَرَزَ فِيهِ ، وَاشْتَغَلَ بِالْكِتَابَةِ فِي الدِّيْوَانِ السُّلْطَانِيِّ زَمَانًا ؛ إِلَّا أَنَّهُ شَاعِرٌ أَكْثَرُ مِنْهُ كَاتِبٌ . وَهُوَ مِنَ الشُّعْرَاءِ الَّذِينَ يُعْنَوْنَ بِتَصْوِيرِ الْعَوَاصِفِ

النفسية الدقيقة ، والتعبير عن الإحساسات القلبية العميقة ، فيكون لشعرهم أثرٌ جميل في النفوس ، ووَقَّعَ حسن في القلوب . وكانت قد غلب عليه الشرابُ والهُو ، فزَرَى به ذلك ، وحطَّ من قدره ، فلم يُلحَظْ بالعين التي كان يجب أن يُلحَظَ بها ، ولم يرتفع ذكره ما بين الأدباء والشعراء المعاصرين . ولقد دخل غرناطة فيما يُحدِّثنا به ابنُ الخطيب ، فلم يؤيِّه له ، ولم يُحتَقَلْ به ، وهكذا الاسترسالُ في مجاهل الهوى يَحِلُّ بالشرف ، ويقدَحُ في المروءة وتوفي سنة ٥٧٥٣ هـ .

ابنُ عَبْدِ الْمَنَّانِ

أبو العباس أحمد بن يحيى بن أحمد بن عبد المَنَّان الأنصاري الخزرجي من أهل مكناس ، كاتبُ الدولة المرينية الشاعر الأديب ، الوصَّافُ المعجب . كتب أولاً لأبي عِنان وله فيه أمداح بارعة ، ثم للسعيد أبي بكر وأبي سالم إبراهيم ، وأبي عمر تاشفين ، وأبي زِيَّان محمد ، وأبي فارس عبد العزيز ، وأبي زِيَّان الثاني ، وأبي العباس أحمد المستنصر ، وصفه الأميرُ اسمعيل بنُ الأحمر في نثر الجمان فقال : « به تشرف المصير وتظرف العصر ، وحيط الصُّقْع ، وخيط الرِّقْع ، فتباهى الكلام بإقدامه ، وحطَّ رأس التطوُّع بين أقدامه ، إن وصف بيتن ، وإن حلى زَيْن » . وهي أوصافٌ تنبئُ عما كان له من الكفاية والاعتدال في الميدانين السياسي والأدبي ، وشعره مُنوعٌ الأغراض ، ينتقل فيه من فنٍّ إلى فن بغاية السهولة ، ولذلك يطول نفسه ، ويأتي بالسَّابقات الجياد . وهو لطيفُ التصوير ، بليغُ التعبير ، وصف الساعة العجيبة التي ركبها أبو عِنان في مواجهة مدرسته بفاس فأحسن الوصف ، وكذلك وصفَ قتلَ الأسد بين يدي خدومه المذكور ، بقصره من المدينة البيضاء فاس الجديد ، ودخولَ الحُتال في الأكرة المعدة للتحرش بالأسد والشبكة المعدة لصيد الأسود في القلاة وغير ذلك ؛ فأجاد في الجميع إجادةً بالغة . وسنوردُ هذه الآثار البديعة في المنتخبات ، وتوفي ابنُ عبد المَنَّان سنة ٧٩٢ هـ .

ابن جابر المكناسي

هو أبو عبد الله محمد بن جابر الغساني المكناسي ، شاعرٌ مُجيد عالمٌ بالقراءات وتوجيهها ، مُتصَرِّفٌ في فنون العربية والأدب ، أكثرُ شعره الوصفُ والنظم التعليمي . ويمتازُ بالسلاسة والعذوبة وقُوَّة التخيُّل . كان له شهرةٌ مُطبَّقة في أيام حياته ، وكان في مكناس كعبةَ القُصَّاد من الأدباء والطلبة وغيرهم يجدون لديه ما تصبو إليه أنفسهم من مُذاكرة الأدب ، ومُدارسة اللغة ، وكان حُلُوَّ النَّادِرَةِ ، بديعَ الحِكَاية ، فكِهَ المُحَضَّر ، لا يكادُ جليسه يسلو عنه . له 'نزهة' الناظر لابن جابر ، في وصفِ بلدهِ مكناس وله غيرُها . وتوفي سنة ٨٢٧ هـ .

وهو غيرُ ابنِ جابر صاحب البديعة فان ذلك أندلسي .



عصر السعديين

سِيَّاسَةِ الدَّوْلَةِ

هذه ثانيّة دولة عربيّة صريحة قامت في المغرب بعدّ الإدارة ، بل ثانيّة دولة علويّة بقطع النظر عمّا أُرْجِفَ به خصوصها من الطّعن في تسيّسها . وهي لم تستنِدْ في قيامها الى مهدويّة ولا الى عصبيّة ، وإنما من أول الأمر كان نهوضها لتحقيق أمنيّة وطنيّة ، هي تنظيمُ القوّات الجهاديّة وقيادتها لِطُرْدِ الأُجانب المحتلّين لشواطئ البلاد وذلك بطلب من المجاهدين أنفسهم ، فأشبهت في هذا الأمر الدولة الإدريسية من حيث ' كونها مطلوبة لا طالبة ' ، وكون نهضتها سياسيّة من أول الأمر لم تُنمّوْهُ شَيْءٌ من الدّعاوى الكاذبة ؛ وكونُ القائمين بنصرتها والمنضوين تحت لوائها هم البربرُ الذين قاموا بنصرة الإدارة من قبل ، وانضَوْا تحت لوائهم . والعجيبُ هو أنهم نصروهم على دولة بني وطاس البربريّة ، فلم ينظروا إلى ما تقتضيه عصبيّة النّسب واللّغة والقوميّة من الاحتفاء لهم والدفاع عن سلطانهم أن يزول ، وفي زواله فشل أمرهم وذهابُ ريحهم ؛ لكنها كانت زاغت عن الصراط المستقيم واشتغلت بالتهالك على طلب السلطة ، وظنّت الملك هو هذه المواكب التي يظهرون فيها بمظاهر الفخفخة والاختيال ، من غير نظر في مصالح الرعيّة ولا اهتمام بتحسين البلاد من هجمات العدو . فسرعان ما اختلّت الأمور ، وتعرّضت الأمة لشقاء الاحتلال وتحكّم الأجنبي فيها فكشّرت إغارة البرتغاليين على الشواطئ واحتلّوها منها ما احتلّوها وأخذوا يُعدّون المُدّة لضمّ أطراف المغرب بعضها الى بعض ، وتمثيل مأساة عام ١٩١٢ في ١٥١٢ ، فكيف لا يتّحد البربر والعرب على رفع هذا العار عنهم وتلافي الخطر المحيِّق بهم ؟ وبعدُ فهل تريد دليلاً أقوى من هذا على صحّة إسلام البربر وصدق إيمانهم وتغلغل الروح الديني والتعاليم الحمديّة في نفوسهم ، حيث غلبوا الرابطة الدينيّة على العصبيّة الجنسيّة والأخوّة الاسلاميّة على النّصرة القوميّة ، فدلّوا بذلك على اتحادهم مع العرب واتّلافهم بهم اتحاد الروح مع الجسم واتّلاف اليمين بالشمال ؟ اللّهم إن من يزعم غير ذلك ، ويكابرُ في هذه الحقيقة المموسة فانما غرضه السّعاية وبث سموم البغضاء بين ذوي القربايات الوشيعة والأرحام المُشتبكة .

دبت عواملُ الانحلال في جسم الدولة الوطاسية وأخذ الضعفُ منها مأخذاً عظيماً فقصُرَت سلطتها على حواضر المغرب ، ولم يبق لها نفوذ فيما عداها من البلاد النائية ، والقبائل العاتية . وقد استنفذ مجيودها واستفقر قوتها ما كان قائماً بين أفرادها من التنازع على نيل السلطة والاستبداد بصولجان الملك ، ثم ما كانت تُعانيه من قتال العدو المحتل بالثغور ، وخصوصاً القريبة من عاصمة الدولة فاس ؛ فلم يكن لديها قوةٌ كافيةٌ تمكّنها من القيام بدور حاسم في السواحل السوسية البعيدة حيث طغى سيلُ المستعمرين البرتغاليين ، لمّا عرفوا أنهم بمنجى من طلب رجال الدولة وتعقب آثارهم ، ولذلك أخذوا في بناء المعاقل والحصون والتهيؤ والاستعداد لليوم الذي له ما بعده ؛ فضاقت المسامون بهم دَرعاً وغصوا بكنائهم من تلك البلاد التي هي حلقُ السّوس وفمُ عاصمة الجنوب .

ورأت قبائلُ المصامدة المباركة ذلك فساءها أن يكون عبيدُها بالأمس أسيادها اليوم ، وأن تبلغ القبيحة بأولئك البُلته الأغرار الى أن يتحدّوها في بلادها ، ويجرّوا على خضي أسودِ الشرى في عرينها ؛ فتقدّموا إليهم بنفوس أبيّة وأنوفٍ حميّة . لكنهم لما كانوا يعرفون أن يد الله مع الجماعة ، وأن القوة في الاتحاد ، أخذوا يبحثون عن ذلك الشخص الذي يولّونه قيادهم ؛ فسرّعوا ما أرشدوا اليه فكان هو الشريف أبو عبدالله محمد القائم بأمر الله وكان مقيماً بدرعة ، فبعثوا اليه فقدم عليهم . واجتمع فقهاء المصامدة وشيوخ القبائل ، وبايعوه فكان هو واضع الحجر الأساسي في بناء هذه الدولة الشامخ ، ولقد ساعده الحظ وكُتِبَ له الظفر فأجلى الأعداء عن أرض الوطن وزحزح قدّمهم التي كانت قد رسخت فيها ، فتيمن المسلمون بطلعته وتفاءلوا بطائره .

وكان له ولدان أرضعا أفوايق النجابة والبراعة ، واقتعدا أسنمة النجدة والشجاعة فدعى الناس الى بيعة أكبرهما وهو أبو العباس أحمد الأعرج الذي دخل مراكش سنة ٩٣٠ وحارب الوطاسيين وجاذبهم حبل السلطة في المغرب زماناً ، حتى تدخل الناس في الصلح بينهما فأنشبرم عقده على أن يكون للأشراف السعديين من تادلة الى السوس ، وللوطاسيين من تادلة الى المغرب الأوسط . وكان الساعي في عقد هذا الصلح جماعة من العلماء والشرفاء والأعيان . ثم شالت نعمة السلطان أبي العباس الأعرج ونهض أخوه أبو عبدالله محمد الشيخ المهدي ، وكان شهماً ذكياً عالي

الهمة ، رفيع القدر ، عالماً مُتَفَتِّناً ، أديباً أُرِجِحِيّاً سياسياً مُعْتَكِفاً ؛ فذلل الصَّعَابَ وسنَّى العِقَابَ ، وتغلَّبَ بطولِ أمله وحُسنِ مُصَابِرَتِهِ للأُمُورِ على جميعِ المَشَاقِّ ، وكان يقول : « ينبغي للملك أن يكون طويلَ الأمل ، فإن طُويلَ الأمل لا يَحْسُنُ إلا منه ، لأن الرعيَّةَ تصلحُ به » فهدَّ البلادَ وأخضعَ العبادَ ودخلَ فاسَ سنة ٩٥٠ وأجلى منها آخرَ ملوكِ بني وطاس . ثم قضى عليه بعد ذلك وعلى دولته فصفاه له 'ملك' المغرب من أقصاه إلى أقصاه ؛ ففقد قواعده وشادَ مَبَانِيه ، وأحْيى مَرَامِ السُلْطَنَةِ الدارسة ، ومعالِمها الطامسة ، وكانت سيرته وسياسته كلها مثالَ الحِزْمِ والضبطِ ودليلِ الحِكْمَةِ والاعتدالِ .

ثم تلاه ابنه عبدُ الله الغالب فاقتفى أثره في حُسنِ السيرة ، وكان محبوباً من الشعب بجميع طبقاته . ونشِطَت الحركةُ الاقتصادية في زمانه ، وكثُرَ البُنْيَانُ ، واستَبَحَرَ المُمَرَّانُ ، وكانت أيامه كلها أيامَ دَعَةٍ وأمنٍ ورَخاءٍ وعافية ، ولما توفى قام على العرش ولده محمد ، وكان للغالب أخوانُ تغرَّبَا بالجزائر مُدَّةً تَوَلَّيْتِهِ المُلْكُ خوفاً على أنفسهما منه ، وهما الغازي أبو مروان عبد الملك المُعْتَصِمُ بالله ، وأبو العباس أحمد المنصور الذَّهَبِيُّ . فحين سَمِعَا بوفاة أخيهما واستيلاء ابنه على الملك ، وانتزاعه تِراثِ أبيهما من أيديهما ، لم يَرْضَيَا بالدَّيَّةِ ، ووثبَا ونُتِبَ الأسدُ الهَـصُورُ ؛ فلم يهدأ لهما بالٌ حتى كدَّبَرا بينهما خُطَّةَ الدفاعِ عن حقِّهما المُتَغَصَّبِ ؛ فسافر الغازي أبو مروان إلى القُسْطَنْطِينِيَّةِ العُظْمَى ومَثَلَ بين يدي السلطان سليم الثاني وطلب إليه أن يَعمِدَهُ بجيشٍ يدخلُ معه المغربَ فينتزعَ الملكَ من ابن أخيه ، فلم يُجِبه إلى طلبه لاشتغاله بأمر تونس التي كان الأسبان يُهاجمونها في ذلك الحين . فبقي هناك حتى جهَّزَ السلطانُ حملةَ سِنَانِ باشا التي انتزعتْ تونسَ من أيدي الأسبان فصَحَّبهَا أبو مروان وأبلى فيها بلاءَ حسناً ، ثم كان هو أولَ من أبلغَ بِبشارةِ الفتحِ إلى السلطان فجازاه على ذلك بأن أمرَ كُتَيْبَةَ من الجيشِ التركي الجزائريَ ببلوغِ عددٍها أربعة آلاف رجل ، فدخلتْ معه إلى المغرب بعد أن اشترطت عليه أن يُعطيَهَا عشرة آلاف عن كل مَرَحَلَةٍ .

وما إن شارَفَ فاسَ حتى خرج إليه ابنُ أخيه ، لكنَّ جيشَ هذا انضمَّ إلى عمه . وكان الغازي يُكَاتِبُ القواد والوزراءَ أيامَ مُقامِهِ بالجزائر ويَعِدُّهُمْ ويُبَشِّرُهُمْ . فلما جاء كانوا كلُّهم على هواه ، فانقادُوا إليه ، وهكذا رجعَ الملكُ إلى نِصَّارِيهِ

فاستقلَّ به أبو مروان ناهضاً بأعبائه ، مُضْطَلِعاً بشؤونه ، وكانت تلك المدة التي قضاهما مُشْرِداً عن بلاده ووطنه قد عَمِلَتْ عَمَلَهَا فِي تَنْشِئَتِهِ وَتَدْرِيبِهِ عَلَى السَّعْيِ الْمَحْمُودِ وَالْعَمَلِ النَّافِعِ . كما أن تجوُّلاته ومُشَاهَداته قد اكسبته خبرةً واسعةً بجميع الشؤون ، ودُرْبَةً سِيَاسِيَّةً نادرةً ، فأدخلَ عدَّةَ إصلاحاتٍ مهمةٍ على الإدارة والسياسة ، أهمُّها ما كان مختصاً بتنظيم الحربيَّة ، حيث اقتبس سائرَ نُظُمِ الجُنْدِيَّةِ العُثمانيَّةِ . وسار بالجند المغربي في سبيلها حتى بلغَ النِّهايةَ ، فلم تحلْ واقعةُ وادي الحازن حتى كان لديه جيشٌ مُنظَّمٌ مُدرَّبٌ على أصول الحربيَّة الفنيَّة يندُرُ وجودُ مثله في ذلك الحين عند الممالك المعاديَّة كالاسبان والبرتغال ، وهما إذ ذاك من أعظم شعوب أوربا قوَّةً وأمضاهم شوكةً .

وقد شاهدنا نتيجةَ هذا الإصلاح العَمَلِيِّ للجيش في قهرِه أَكْثَرَ من مائة ألف جندي أرادَ ملكُ البرتغال أن يستذل بهم المغرب ويخضعه لحكمه ؛ فساءَ فاله ، وخابَ أمله ، وكان كالْبَاحِثِ عن حتْفِه بِظِلْفِه ، والجاذعَ مَارِناً أَنْفِه بِكَفِّهِ ؛ إذ وقع مُتَرَدِّداً في هاوية البوار ، وباءَ هو وجيوشُه الكثيفة بالدمار ، وذلك في واقعة وادي الحازن الشهيرة التي جرت يوم الاثنين مُنْسلَخَ جمادى الأولى سنة ٩٨٦ .

نعم شاهدنا هذه النتيجة السارَّة ، وإن لم يُكْتَبْ لِبَطْلِهَا العَظِيمِ أن يُشَاهِدَهَا مع الأسف حيث انه تُوُفِّيَ أثناء المعركة محموراً . لكننا نؤمن أنه ما أغض عينيه حتى أغضها عن يقين ثابت ، واعتقادٍ راسخ بالنصر والغلبة ، حيث عرف أنه قد بنى وأحسن البناء فاطمأن قلبه ، وهدأ روعه ، وصعدت رُوحه الى الملأ الأعلى تُشْرِفُ من بَرَزْخِهَا على مَيدَانِ الْقِتَالِ ، وتُبَارِكُ المَجاهدين وتُسْتَقْبَلُ أرواحُ الشَّهداء في عِلِّيِّينَ .

ولما انكشفت الموقعةُ عن اندحار العدو وانكيساره ، نظر الناسُ فوجدوا سُلْطَانَهُم قد تُوُفِّيَ ، فما كان بأسرع منهم الى بَيْعَةِ أَخِيهِ وَخَلِيفَتِهِ وَرَفِيقِهِ فِي غَرْبَتِهِ السُّلْطَانِ أَبِي الْعَبَّاسِ أَحْمَدَ الْمَنْصُورِ الدَّهْمِي . وإِنَّ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ وَعِيدَ فَخْمٍ حيث خرج الناس من الموقعة وهم مُسْكَارَى بِنَشْوَةِ النَّصْرِ . وزاد فرحهم انتصاب هذا المَلِكِ الْهَامِ على عرش آبائِهِ الْكِرَامِ لِمَا كَانُوا يَعْرِفُونَهُ مِنْ مَجْدِهِ وَشَجَاعَتِهِ ،

وجُوده وحِلْمه وأخلاقه العَالِيَّة التي لَا يُمْكِنُ تَعْدَادُهَا هُنَا ، فَنَاهِيكَ بِهِ مِنْ يَوْمِ اجْتَمَعَتْ فِيهِ أَسْبَابُ الْفَرْحِ ، وَغَابَتْ عَنْهُ مُوجِبَاتُ التَّرَحُّ .

وَمَاذَا أَحْدَثْتُكَ بَعْدُ عَنْ سِيرَةِ هَذَا السُّلْطَانِ وَمَا بَلَغَهُ الْمَغْرِبُ فِي أَيَّامِهِ السَّعِيدَةِ مِنَ الْقُوَّةِ وَالْعِظَمَةِ وَالْحِضَارَةِ وَالرِّقِّيِّ وَالرَّقَامِيَّةِ وَالْعُمُرَانِ ؟ لَقَدْ كَانَ الْمَنْصُورُ بِحَقِّ رَاسِطَةِ عَقْدِ الْمُلُوكِ السَّعْدِيِّينَ ، وَقَدْ رَأَيْتُ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ فِيهِمْ إِلَّا فَاضِلُ ابْنِ فَاضِلٍ ، وَمَنْ يُنْشِدُ مَعَ الْقَائِلِ :

إِذَا سَيِّدُ مَنَا خَلَا قَامَ سَيِّدُ قَوْوُلُ لِمَا قَالَ الْكِرَامُ فَعُولُ

فَالْمَنْصُورُ كَانَ عَالِمًا إِلَى دَرَجَةِ الْاجْتِهَادِ ، وَإِلَى أَنْ جَزَمَ عُلَمَاءُ عَصْرِهِ بِأَنَّهُ 'الْمُجْدِدُ' فِي الْقَرْنِ الْعَاشِرِ . وَكَانَ أَدِيبًا شَاعِرًا كَاتِبًا سَابِقَ فُحُولِ الصَّنَاعَتَيْنِ مِنْ أَدْبَاءِ دَوْلَتِهِ ، وَكَانَ سِيَاسِيًّا 'مُحْتَكِكًا' وَقَائِدًا شَجَاعًا وَإِدَارِيًّا 'مُنَظَّمًا' وَمُصْلِحًا 'اجْتِمَاعِيًّا' كَبِيرًا . وَبِالْجُمْلَةِ فَلَقَدْ اجْتَمَعَتْ فِيهِ أَوْصَافُ الزَّعَامَةِ وَأَشْرَاطُ الْإِمَامَةِ ، حَتَّى لَقَدْ كَانَ دِمَاجُ الْأُمَّةِ الْمَفَكَّرِ وَقَلْبُهَا النَّابِضِ وَيَدُهَا الْعَامِلَةِ .

يَكْفِيكَ أَنْ تَنْظُرَ إِلَى مَشَارِيعِهِ الْعِظَامِ وَمَآتِيهِ الْجِسَامِ ؛ فَمَنْ فَتَحَ السُّودَانَ وَتَوَاتَ وَتَبَكَّرَ ارَيْنَ ، حَتَّى أَصْبَحَتْ الصَّحْرَاءُ الْأَفْرِيقِيَّةُ كُلُّهَا فِي قَبْضَةِ يَدِهِ وَتَحْتَ تَصَرُّفِهِ ؛ فَاتَّسَعَتْ دَائِرَةُ نَفُوذِهِ إِلَى مَا لَمْ يَبْلُغْهُ قَبْلَهُ فِي هَذِهِ الْجِهَةِ سُلْطَانٌ وَاکْتَسَتْ الْمَغْرِبُ بِذَلِكَ جَلَالَتهُ قَدْرٌ وَرَفَعَتْ شَأْنُ ، وَجَعَلَ يَتَقَلَّبُ فِي النِّعَمِ كَيْفَ شَاءَ ؛ إِذْ لَا يَخْفَى أَنَّ هَذِهِ الْبِلَادَ الشَّاسِعَةَ كَانَتْ تَحْتَوِي عَلَى مَنَابِعِ الثَّرْوَةِ الطَّائِلَةِ ، وَكَثُورِ الْغِنَى الْوَافِرِ ؛ فَقَدْ كَانَ الذَّهَبُ يُجَنَّبُ إِلَيْهِ مِنْهَا بِالْأَحْمَالِ ، وَكَانَ فِي دَارِ سَكْنَةِ الْمَنْصُورِ أَرْبَعُ عَشْرَةَ مِائَةً مِطْرَاقَةً كُلُّ يَوْمٍ تَضْرِبُ الدِّينَارَ الْوَهَاجَ ، وَهَذَا غَيْرُ الْمَصْوَغَاتِ وَالْخِلْيِ ، وَلِذَلِكَ سُمِّيَ الْمَنْصُورُ 'الذَّهَبِيَّ' - إِلَى إِحْيَائِهِ سُنَّةَ الْمَشُورَةِ وَجَعَلَهُ الْحُكُومَةَ شَرْعِيَّةً أَشْبَهَ شَيْءًا بِالْحُكُومَاتِ الدَّسْتُورِيَّةِ النِّيَابِيَّةِ ، وَذَلِكَ بِفَتْحِهِ لِلدِّيَّانِ الشُّورِيِّ الَّذِي كَانَ يَعْقِدُ مَجَالِسَهُ كُلَّ يَوْمٍ أَرْبَعَاءَ مِنَ الْأُسْبُوعِ ، وَيَحْضُرُهُ وَجُوهُ الْأُمَّةِ وَسُرَّائِهَا فَيَتَفَاوَضُونَ فِي شُؤُونِ الْمَمْلَكَةِ وَتَدِيرِ سِيَاسَتِهَا ، فَلَا يَقْطَعُ فِي أَمْرِ بَدُونٍ أَنْ يَعْرِفَ رَأْيَ الْأُمَّةِ فِيهِ - إِلَى بِنَائِهِ لِلْقُصُورِ التَّارِيخِيَّةِ الْعَظِيمَةِ كَالْبَدِيعِ ، وَغَيْرِ الْقُصُورِ مِنَ الْحُصُونِ وَالْجُسُورِ - إِلَى إِعَادَتِهِ تَنْظِيمَ الْجُنُودِ مِنْ جَدِيدٍ

مُؤَفَّقًا بين النظام المستعجِم الذي جَنَحَ له أخوه المعتصم ، وكرهه الناسُ وقوفاً مع العوائد ، والنظام العربي الذي كان قبله ؛ فجاء في غاية ما يكون من النظام والترتيب . وسيأتي وصفه في قصائد شعرائه في قسم المنظوم - الى تنشيطه للصنائع الوطنية بأنواعها وإدخال ما لم يكن معروفاً منها قبل ، وتعصيده للفلاحة الذي أتى بأحسن النتائج ، حتى في أنواع المزروعات التي لم يسبق للبلاد بها عهد ، كقصب السكر الذي نجحت زراعته نجاحاً كبيراً ، مما أدّى الى إنشائه لمعاصر السكر العديدة في بلاد سوس ومراكش والغرب ، حتى كثرت هذه المادة الضرورية بالمغرب ولم يبق لها ثمن ، فكانت أكثر صادراته الى أوروبا وغيرها . وكان يُبادلُ الايطاليين بها الرُّخام - الى غير ذلك مما يطول تتبعه .

ولا يمكننا أن نأتي في هذه النُبذة على وصف ضخامة ملك أبي العباس المنصور وحُسن سيرته ، وإنما حسبنا أننا أشرنا الى مُلحٍ من ذلك . ويقال بالجملة إن أيامه كانت عُرةً في جبين التاريخ المغربي ، وإن الدولة السعدية لو لم تُنجب إلا إياه لكفاهما فخراً . على أن الدهر الخَوّون لم يلبث أن أعلن حربه عليها بعد وفاة المنصور فتردّت من ذلك العلو الشاهق الى الحضيض الأسفل .

ومن السُّخف أن يُحاول الانسان الكلام على حياة هذه الدولة بعد وفاة المنصور وإن امتدّت الى حين . وكذلك نحن ننتهي هنا ، وفي اعتقادنا أننا أعطينا القارئ صورةً مُصغّرةً من سياسة هذه الدولة وسيرتها في رعيّتها التي أولتها قيادها وسلّمت لها أمرها عن رضّى وطيب خاطر منها ؛ فلم نُخَيّب فيها ظنّها ، وأتت بما يتناسب مع طيب عنصُرِها وشرف أصلها ، إلا ما كان من أفراد قليلين لا يُمكن أن يؤخذ الأرباءُ بذنبهم ، وهم فوق ذلك سُبتانٌ أغرار لم يصدروا في شيء من أعمالهم عن خُبث نية أو سوء قصد .

الحركة العلمية

لو صحَّ ناموسُ النشوءِ والارتقاء وكان كلُّ شيءٍ في هذا الوجودِ مُطرَداً مُستَمِراً يتَّصِلُ أوْلهُ بآخِره ، وترتبطُ أطرافُه ببعضُها ببعض ، لكان للمعارِف اليوم في بلاد المغرب شأنٌ غيرُ هذا الشأن ؛ إذ قد رأيت ما كانت عليه من التقدم والانتشار في عصر المرينيين ، فما ظنُّك لو بقيتْ سائرة نحو غايتها القصوى من التكمُّل والنماء منذ ذلك العهد الى الآن ؟

ولا نقصدُ أنها في هذا العصر تقصُر عما كانت عليه في العصر السابق أو تقلُّ عنه شأنًا ، وإنما نتأسَّفُ للوقوف الذي اعتراها في تلك الفترة التي كانت الدولة الوطنية مُسيطرَةً فيها على المغرب والتي لم تُذق البلاد فيها طعمَ السلم والراحة ، حتى كاد اليأسُ يستولي على النفوس ، لولا أن تدارك الله هذه الأمة بضمِّ شملها واجتماع كلمتها على يد زعيم هذه الأسرة السعدية المباركة كما سبق القول .

وحينئذ بعد استقرار الأحوال ورجوع الأمن الى نصابه ، عاد لكلِّ شيءٍ رونقه وبهجته ، وأقبل كلُّ على شأنه . ورجالُ العلم أيضاً أخذوا في إحياء ما اندثر وجمع ما تبعثر من سالف ذلك المجد العلمي والتاريخ الأدبي ؛ فلم تنشَب حركة العلوم والآداب أن عاودها النشاط والانتعاش ، وخصوصاً بعد ما أنست من الملوك السعديين وعلى رأسهم المنصور الذهبي ذلك التعصيد الذي سبقت الإشارةُ إليه .

بيد أنها إن كانت نهضت من جديد فإنها لم تعدم ما يقعد بها عن استئناف السير الى الامام ، نتيجة للرُّكود العام الذي أصاب الحياة الفكرية ، فمنذُ هذا العهد في سائر بلاد الاسلام ؛ فقد أصبح العلماءُ وأكثرُهم نشاطاً وأعظمهم اجتهاداً هو من يقف عند الغاية التي وصل اليها من قبله في هذا العلم أو ذاك ومن يجترأ المقررات التي وقع الفراغ منها قبله . فان أظهر براعةً وأبدى تفوقاً ففي هذه

الظاهرة التي عمت فأعمت ، وهي ظاهرة الاختصار والتعمق فيه التي أشرنا في العصر السابق الى مضارها الجسيمة ، حتى أفضى الأمر الى أن أصبحت العلوم في حالة من الغموض والإبهام تصدُّ عنها كثيراً من الطلاب . وهذا الأمر إن لم يكن آخرها كثيراً ، فقد عاقبها عن التقدم والانتشار طوَال المدة التي بقيت فيها قيد الإنشاء والاعادة .

العلوم الشرعية :

ويقال بالجملة ان العلوم الشرعية كالفقه والحديث والتفسير قد كانت منتشرة بكثرة على نسبة ترتيبيها هذا ، الذي ذكرناه ؛ وإنما الذي ظهرت عليه آثارُ التحول هو الفقه ، فالغالب ان كتبَه التي كانت مُستعملة في العصر المريني قد اطرحت الآن ولم يبق منها الا القليل ، وأخذت كتبُ آخر مختصرة عوضاً عنها وظهر نشاطٌ كثير وتنافسٌ في شرح هذه المختصرات والتعليق عليها .

وإن ننس لا ننس ما جدد في هذا العصر من كثرة الإقبال على علوم القراءة وشدة العناية بها ، حتى لقد تخصص بها علماء كثيرون لا يزالون غيرها من العلوم ، كما شارك فيها سائر العلماء ، بل كان وصف العالمية لا يكمل الا بها . ويمكننا أن نقول إن هذا كان عصرها الذهبي في افريقية كلها ، الذي بلغت فيه الى أوج الكمال . وحسبك دليلاً أن وقف القرآن الذي وقع الاجماع عليه وجري العمل به في المغرب منذ ذلك الوقت الى الآن ، إنما وُضِع في هذا العصر وكان واضعهُ هو الاستاذ الصهاقي .

أما الكلام فقد قامت له ايضاً دولته ، إذ وجده ما حفز الهمم للاشتغال به ، وهو تلك المناظرة العنيفة التي قامت بين الشيخين الحرّوبي واليسيثني أولاً ، وبين هذا الثاني والشيخ الهبطي ثانياً ، في مسألة الهليلة ، هل الحق سبحانه وتعالى مما يدخل في النفي بلا ، وهل تقتضي بها ألوهية الصم وغيره مما عُبِد من دونه باطلاً أم لا ؟ وقد استمرت هذه المناظرة زماناً طويلاً وثار بسببها شرٌّ كبير بين العلماء حتى تدخل السلطان نفسه فيها ولم يُحْدِ ذلك شيئاً . وبقيت المسألة على حالها الى أن تأدّت الى العصر العلوي ، فلم تعد من يروجها من الطلبة . ثم تصدّى لها

أبو علي اليوسي فلم يترك مقالاً لقائل على عادته ، وقطعتُ جَهِيْزَةً قولَ كلِّ خطيب .

ولم تكن هذه المناظرة هي الوحيدة من نوعها فقد قامت بين اليَسِيْثِيّ ايضاً ، والشيخ عبد الوهاب الزقاق مناظرة أخرى في مسألة 'خلف الوعد من الله تعالى ، فقال الزقاق ان ذلك يَصِحُّ منه ، وخالفه اليسيثي . وألّف كلُّ منهما في المسألة مُنْتَصِراً لرأيه ، مما يدل على زيادة اعتنائهم بهذا العلم وكثرة اشتغالهم به .

وأما التصوّف فقد كان طغى عليه سيلُ التدليس والتلبيس ، فقيّض الله له مثل ابن خجّو والهبطي ، فهذّباه ونقّضاه . وكان الشيخ أبو العباس الصومعي ، حامِلَ رايته علماً وعملاً ، ومَن لم يستغلِّ مقامه وجاهه ولا استغله أحدٌ على كثرة هذا الصنّف في المتصوّفة بهذا العصر .

هذا ما يرجعُ الى علوم الشريعة . وأما علوم الأدب فالنحو بالخصوص مما ظهر عليه أثرُ التحوّل جليّاً واضحاً ، فاقْتَصَرَ 'طُلاّبُـه' على اثنين أو ثلاثة من الكتب المختصرة أو المنظومة لا يُحَاوِزونها الى غيرها أبداً ، وقد نشط العلماء في شرح هذه الكتب والتعليق عليها نشاطاً لا مزيدَ فوقه .

وأما علوم البلاغة فانها كانت نافقةً جداً ، إلا أن أثرها في الألفاظ كان أقوى منه في المعاني ، وعلى الأخص عند بعض الأدباء الذين 'شَغِفُوا بالبديع فأكثروا منه الى حدِّ الإغراب . وقد كان على رأسهم المنصور الذهبي الذي هو في ملوك المغرب كابن المَعْتَزِّ في ملوك المشرق إلا أن هذا لم تُدِرْكه 'حُرْفَةُ' الأدب كما أدركت سلفه .

وأما علم التاريخ فهو الوحيد من علوم الأدب الذي ازدهر في هذا العصر ازدهاراً كبيراً إذ رُزِقَ رجالاً أكفاء انصرفوا لخدمته ووجّهوا اهتمامهم اليه ، وبالخصوص تاريخ السعديّين الذي لولا هذه العناية لظلَّ محجوباً عن الباحثين ، كتاريخ الوطاسيّين قبله ، 'محاطاً بالغموض الذي 'يُحوِّجُ' المؤرّخ الى الرّجْم بالظنون وافتراض الفروض ولعل هذا الاهتمام كان منشأه 'تعزُّيدُ' الأشراف السعديّين للمؤرخين وعلى الأخص المنصور الذي اجتمع في بلاطه عدد كبير منهم كالعلامة المقرئ صاحب نفع الطيّب وأزهار الرياض وغيرهما وأبي العباس بن القاضي وعبد العزيز الفشتالي ومحمد بن علي

النتسب ومحمد بن عيسى الكاتب وغيرهم . ناهيك بقيدائسه لابن القاضي المذكور ،
لما وقع في أسر الافرنج بألوف الدنانير الذهب .

العلوم الكونية :

وهذا في العلوم الأدبية . وأما العلوم الكونية فما كان مما تقتضيه في الجملة ،
طبيعة العمران البشري وخلطة الاجتماع الإسلامي فانه كان منتشرأ بكثرة ، وذلك
كالهندسة والهيئة والطب وما إليها . وما عدا ذلك فلم نقف له على خبر .

أما الطب فقد كان للدولة مزيدُ اعتناء بأهله واهتمام بشأنه ، وحسبك ما أسداه
المنصور لطبيبه الخاص أبي عبد الله محمد الطبيب ، وما خلع عليه هو وزجال دولته ،
لما استقل من مرضه الخوف وتداركه الله على يد الطبيب المذكور عام ٩٨٧ . وكان
هناك أطباء كثيرون منهم أبو القاسم الوزير صاحب كتاب المفردات المشهور وأحمد
المريد وابن سعيد المرغشي وغيرهم . وبما يدل على ارتقاء شأن الطب في هذا العصر
ما وصفه المنصور من أنواع الوقاية والعلاج في كتابه الذي بعثه الى ولده براكش عند
ظهور الوباء ونص المراد منه : « والى هذا أسعدكم الله أول ما تبادرون به قبل كل
شيء هو خروجكم إذا لاح لكم شيء من علامات الوباء ولو أقل القليل حتى
بشخص واحد ، ثم لا تففلوا عن استعمال الترياق أسعدكم الله ،
فالزموه وإذا استشعرتهم بسلامة بجماعة ونحو قتموها فاستعملوا الوصف
من الوزن المعروف منه ولا تهملوا استعماله . وأما ولدنا حفظه الله لكان
الشبهة فحيث يمنعه الحال من المداومة على الترياق فها هي الشربة النافعة لذلك قد
تركناها كثيرة هنا لكم عند التونسي فيكون يستعملها هو والأبناء الصغار المحفوظون
بالله ، حتى إذا أحس ببرد المعدة من أجلها تصطوه الترياق فيعود إليها . والبراءة
التي ترد عليكم من سوس أو من عند الحاك أو من عند ولد خالك أو من عند غيرها
لا تقرأ ولا تدخل داراً بل تعطى لكاتبكم هو الذي يتولى قراءتها ويعرفكم
مضمونها . ولأجل أن الكاتب يدخل عليكم ويلابس مقامكم فلا يفتحها إلا بعد
إدخالها في خل ثقيف وتُنشر فتبس حينئذ يقرأها ويعرفكم بمضمونها إذ
ليس يأتيكم من سوس ما يستوجب الكتمان .

وبما في هذه الرسالة مما يتعلق بالبيطرة وهي طب الحيوان قوله : « وأوصيك

أعزكم الله أن تتفقّدوا فرسنا الأحمر الصغير ولا تتركوهم يُعطونه القَصِيل لثلاث
يكثُر لَحْمُهُ ويزاد أَلْمُهُ ، بل انظر من يركبُه كل يوم ، بل لا يُنزع السَرَجُ
بالكلية عن ظهره بياضَ النهار كله وأعطوه لصاحب روض المَسْرَةِ يركبُه في
ذهابه وإيابه للمَسْرَةِ أو لداره وأوصوه أن لا يركبه غيرُه . »

وأما الهيئة فقد كان لها فضل انتشار أيضاً ، لِمَكَانِ الحاجة اليها في معرفة
أوقات الصلاة والامساك والافطار في الصوم وغير ذلك ، وقد أُلْتُفَت فيها وحدها
ومع الحساب كتب عديدة . ومن علمائها المشهورين البوعقيلي والمرغيني
وغيرهما .

وفي غير ما ذكر نقول أنهم ذكروا في ترجمة المنصور كدليل على نبوغه وعبقريته
أنه قرأ كتابَ أَفَلَيْدِس المهندسي وفكَّ جدواولِه بنفسه من غير استعانة على ذلك
بأحد لفقد « من يُحَسِّنُ ذلك الشأن في عصره » . وهذا لا يتوافق مع ما عُرِفَ عن
هذا العصر من استبحار العمران وكثرة البنيان وشيوع فنون الزخرفة من النقش
والتزويق وغير ذلك مما لولاه لما أمكنُ بناءُ قصر البديع العديم النظير وغيره من
الحصون المنيعة والقناطر الرفيعة التي تحتاج في وضع تصميماتها وبنائها الى جهود
الجبارة ، وعقول الجهابذة من رجال الفن والهندسة المعمارية .

وفعلا فأننا نرى أنه كان هناك رجالٌ ممن يُحَسِّنُونَ « ذلك الشأن » أو على
الأقل من شارك فيه نظرياً مثل ابن القاضي الذي ألف كتاب المدخل الى الهندسة ،
وأبي القاسم الغُول الذي ألف كتاب كيفية قَسَمِ المياه على قواديس الديار . ولا بد
ان يكون هناك آخرون لم نعرفهم وعنهم اخذ هذان وغيرهما ، فبإضافة هؤلاء الى
الرجال العمليين الذين كانوا موجودين بكثرة يتضح ما في قولهم لفقد من يحسن ذلك
الشأن في عصره ، من المبالغة . إنما الواقع أن الاشتغال بهذه العلوم كان نسبياً
وبمقدارٍ مع طغيان الاقبال على العمل دون النظر ، والأول وإن كان هو الأجدى
والأنفع إلا أن الثاني له خطره ومزيته في حفظ الذمء العائسي وصون
التراث الفني .

ولا ننظنُ الكلام على الآثار الفنية الرائعة التي تخلّفت عن هذا العهد وأخصّصها قصر
البديع براكش وما توحى به من رسوخِ قَدَمِ الصانع المغربي في فنون المعمار وعمل

المقرّصات والزليّج والنقش على الجصّ والخشب والتلوين والتذهيب وما إلى ذلك - إلا من الكلام المعاد ، لا سيما وهذه مقابر السعديين براكش ما زالت ماثلة العيان تغني مشاهدتها عن كل بيان . أما قصر البديع فقد نُقِصَ مع الأسف الشديد ، ولم تبقَ إلا أوصافه المعجبة المطربة مُسجَلة في الأشعار البليغة التي قيلت فيه ، وكتب على جدرانها ، ويتضمن قسم المنظوم من هذا الكتاب جملة صالحة منها . . . لكن الذي ينبغي تسجيله في الكلام على الحياة الفنيّة في هذا العصر هو النهضة الموسيقيّة التي تتمثل في المحافظة على الطرب الأندلسي بجميع ألحانه ونغماته وقطعه وأدواته ، ثم تجديده وتكميله بما هو منه بسبيل كإضافة بعض الآلات وتوليد بعض الطُبُوع ، ومن ذلك طبخ الإستهلال الذي استنبطه الحاج علي البطّانة ، من أهل فاس ، على عهد السلطان عبد الله الغالب بن محمد الشيخ المهيدي وهو خارج عن شجرة النشآت الأصول والطُبُوع المتفرّعة عنها ، التي وضعها الموسيقيون لذلك . ولكن الغالب عليه أن يكون فرعاً من الذليل كما في كتاب الحايك الموسيقار المشهور . وإلى هذا فإن ضرورياً من الزينة في اللباس والفراش والأثاث على العموم قد ابتكرت في هذا العصر ، بما يدل على ذوق فني رفيع . ونذكر على سبيل المثال من ذلك المنصوريّة التي يُقال إن المنصور الذهبي أول من لبسها ، وكذلك الحائطي ، ويُطلَقُ على السُّور المزخرفة التي تُزيّن بها جدران البيوت وقاعات الجلوس . وللشعراء فيه أوصاف جميلة . ومن الجدير بالذكر أن المرأة كان لها يدٌ طولى في هذا الصدد ، فقد سجل المؤرخون أن العريفة بنت خجّو - وأسرة خجّو أسرة معروفة بالعلم والفضل - هي التي هدّبت حواشي ملك السعديين وخاصة في داخل قصورهم وحالاتهم في الطعام واللباس وعاداتهم مع النساء وما إلى ذلك ، إذ كان قيامهم أولاً من البادية ، فلم يكونوا يتقيدون بأداب الحضارة وسيّر أهلها . . وعلى ذكر المرأة لا ينبغي أن ننهي الكلام في هذا الفصل حتى نُشير إلى ظاهرة تحريرة بالتسجيل في ميدان النشاط النسوي المغربي ألا وهي مساهمة المرأة في الحكم والسياسة أواخر أيتام بني وطّاس وأول عهد السعديين ، إذ شاهد الناس لأول مرة على دست الحكم في مدينة تطوان السيّدة عائشة بنت علي بن راشد ، وهي سيّدة من بيت شريف ؛ فإن والدها السيّد علي بن راشد كان شخصية لامعة في الجهاد ، وترأس بناحية غمارة واختط مدينة شفشاون بقصد تحصين تلك الناحية من نصارى سبتة . وكانت ابنته هذه التي اشتهرت بالحكمة ذات ذكاء ودهاء ومعرفة وسياسة ، تزوّجت

بالسيد المنظري الصغير حاكم مدينة تطوان وحفيد القائد أبي الحسن المنظري الكبير
 مجدد بنائها وحاكمها الأول . فلما توفي زوجها تولت هي حكم المدينة وضبطتها
 أحسن ضبط ، ثم تزوجها السلطان أحمد الوطاسي وبني بها في تطوان في شهر
 ربيع الأول سنة ٩٤٨ . ونجحت في السفارة السيدة سحابة الرحمانية والددة
 عبد الملك المعتصم بطل معركة وادي المخازن ؛ فانها كانت أول من أبلغ بشارة فتح
 تونس الى السلطان العثماني بالقسطنطينية وطلبت منه كمكافأة لها على ذلك مساعدة
 ابنها بجيش الجزائر على استعادة ملك والده ، فأجاب طلبها ، الأمر الذي لم ينجح
 فيه عبد الملك نفسه من قبل . وفي الميدان الحربي أثبتت السيدة مريم أخت عبد الملك
 هذا كفاءتها في قيادة ثلاثة آلاف جندي من الرماة تركهم أخوها بمعيتها في قسبة
 مراکش فامتعت بها على ابن أخيها محمد أثناء انتزاع ملك والدهما منه . ولم يكن
 نبوغ المرأة المغربية في هذا العصر قاصراً على الناحية السياسية والحربية ، فقد
 اشتهرت في ميدان العمل الاجتماعي السيدة مسعودة الوزكيتية والددة المنصور الذهبي ،
 ومن منشأتها الخالدة براكش المسجد الجامع بباب دكالة منها وجسر وادي أم
 الربيع وغير ذلك من أعمال البر والإحسان الكثيرة . واشتهرت بالعلم والتقوى
 والصلاح السيدة عائشة بنت أحمد بن عبد الله بن عمران والددة ابن عسكر المؤرخ
 السياسي المعروف . وكان لها في المجتمع المغربي مقام محترم جداً . على أن النساء من
 هذه الطبقة كثيرات في هذا العصر فلا نطيل بذكرهن .

الهيئة العلمية وأثرها

نذكر هنا على جاري العادة ملخص تراجم المشاهير من علماء هذا العصر ، وتبسيطها ببيان أسماء الكتب التي ألقت فيه في مختلف ضروب المعرفة ، تتيماً للفائدة وإحاطة بالموضوع من جميع جوانبه .

سُقَيْن

هو أبو محمد سُقَيْنُ السُّقَيْنِي العاصمي القَصْرِي أحدُ مشاهير رجال الحديث بالمغرب ، روى عن الشيخ زُرُّوق وابن غَزَازي وأبي الفَرَج الطَّنْجِي وأبي مَهْدِي المَوْسَاوي وغيرهم . ورحل إلى المشرق سنة ٩٠٩ هـ فحجَّ وسمعَ بِمصرَ من أصعَابِ ابن حَجَرٍ كَالْقَلَنْشَنَدِيِّ وغيرِهِ ، فحصلت له روايةٌ واسعةٌ لم يحصلها غيره ممن كان في وقته ، ثم آبَ إلى السُّودَانِ ودخلَ كَنُو وغيرَها فعضَّطه أهلُها واكبُّوا على الأخذِ عنه . وبقيَ يتجولُ مدةً ، ثم رجعَ لِفَاسَ سنة ٩٢٤ هـ فتولى الخطابة بِجامع الأندلس والفتوى وأقبلَ على قراءة الحديث ، حتى توفي سنة ٩٥٦ هـ وكان قد خرج لَضَرْبِ مَوْلَاي بوسلهم فجلس ذاتَ يومٍ على شاطئ البحر يقرأ دلائلَ الخيرات فخرجت فيه إحدى سفن الأفرنج ، فقاتل حتى قُتِلَ شهيداً مبروراً رحمه الله .

وقد قيَّد بخطه كثيراً من فوائد الحديث وجمع كثيراً من الكتب ، وكان مُشاركاً في الطب أقرأ ألفية ابن سينا وعنه أخذها الناسُ .

القَصَّار

هو أبو عبد الله محمد بن قاسم القينسي الفاسي عُرفَ بالقَصَّار الفقيه الحديث النسابة ، ولد بفاس سنة ٩٣٨ هـ وأخذ بها عن مشايخ عدة . وبرَّز في الحديث فصار

إماماً فيه مُقدِّماً على غيره تُضربُ أكبادُ الإبل للأخذ عنه والسماع منه . وكان نسبةً واعية ، عارفاً بتشعب الأنساب ومحل افتراقها واجتماعها حافظاً ثقةً عدلاً ضابطاً شديد الاتباع للسنّة ، ظاهر الغشمة والورع على قدم السلف الصالح . ولي الفتوى على عهد أبي العباس المنصور والخطابة والإمامة بمسجد القرويين . وسعى الحسنة في تأخيرهِ عن هذه الوظائف عند خليفة السلطان على فاس؛ فكتب السلطان من مراكش بتجديد عهد الولاية له قائلاً إننا لا نُبدّله بمن هو مثله فضلاً عن هو دونه .

وولي أيضاً نظارة أحباس الضعفاء والمساكين ، وكان لا يولّاها إلا ذور الدّين المتين من العلماء العارفين بقسمة الأرزاق العادلين فيها مثل يحيى السراج الذي كان ناظرها قبل القصار .

وبقي القصار حاملاً راية العلم بفاس والمغرب ، تاهضاً بأعباء ما كلّف به من الوظائف ، حتى اخترمته المنية في رمضان ١٠١٢ ؛ فانتقل الى الدار الآخرة بعد ان جدّد معالم الدين الدارسة ، وأحيى مراسم العلم الطامسة . وطار له صيتٌ عظيم في بلاد المشرق والمغرب ، فحدث الشيخ عبد الواحد بن عاشر أنه لقي بمصر في رحلته الحجازية الشيخ عبد الله الدنوشري فسأله عن أشياخه فذكر منهم القصار فقال الدنوشري يمدحه :

قَدْ حَاكَ شَقَاتِ الْعُلُومِ أَيْمَةً وَكَسَوْا بِهَا بِالْفَضْلِ مَنْ هُوَ عَارِ
رَقَّتْ حَوَاشِيهَا وَرَأَقَ طِرَازُهَا لَكُنْهَا تَحْتَاجُ لِلْقَصَّارِ

وقد ضاع بفقده علمٌ كثير ، لأنه لم يُؤَلَف كتاباً قطّ ، ولم يُخْتَلَف بعده أثراً يذكر ما عدا فهرسته وانظامه الكثيرة ومهوّداته التي بيعت وزناً بالأرطال .

أحمد الفاسي

هو أبو العباس أحمد بن يوسف الفهري الفاسي الحافظ الثقة ، ولد سنة ٩٤١ بالقصر الكبير وطلب الحديث بفاس فبرز فيه حتى كان يحفظ أحاديث الصحيحين

جميعها ، ويستحضر ما اتفقا عليه وما انفرد به أحدهما عن الآخر ، وما خالف في متن أو سند ، تصحح ، نسخها من لفظه . وضم إلى ذلك المعرفة البليغة بالرجال والعامل وكل ما هو من وظيفة المحدث . وبوصف ديانتها الكاملة أيضاً صح أن يطلق عليه الحافظ الضابط الثقة .

وله تأليف منها شرح العمدة لعبد الغني المقدسي في الأحكام ، وحاشية على شرح الصغرى للسوسى في الكلام ، ورسالة في حكم الذكر جبهة وأخرى في حكم السماع ، وأخرى في وزن الأعمال وتكفير التيات وأخرى في أولاد المشركين ، وغير هذا وكانت وفاته عام ١٠٢١ هـ

السراج

هو أبو زكرياء يحيى بن محمد السراج الحمينري القاسي ، حفيد يحيى السراج المحدث الكبير المتوفى في العصر السابق . كان هذا فقيهاً مقدماً فيه ، ولي الفتوى بفاس والامامة والخطابة بمسجد القرويين ، ولي أيضاً نظارة أحباس الضعفاء والمساكين ، فقام بها خير قيام ، وكان يُدرس المدونة بمدرسة العطارين ويستحضر ما قيد عليها ، وله حاشية على مختصر خليل وفتاوى تشهد بمزيد فضله ، ولد بفاس سنة ٩٢١ وتوفي سنة ١٠٠٨ هـ .

ابن عاشر

هو أبو مالك عبد الواحد بن أحمد بن علي بن عاشر الأنصاري القاسي ، أحد القراء والفقهاء المشاهير ، ولد بفاس سنة ٩٩٠ وقرأ على الجيلة من علماء عصره ، وكان أستاذاً عارفاً بالقراءات وتوجيهها بالضبط والرسم وجميع ما هو من وظيفة المقرئ . فقيهاً مشاركاً في الأصول والحديث والتفسير والتصوف والنحو والعروض والبيان والمنطق والطب والميثة والحساب . على قدم السلف في الزهد

والورع والقيام بوظائف الدين حق الغزو والرباط في سبيل الله، نزيهاً متواضعاً شديد الإنصاف يأخذ العلم عن من هو دونه ، ويتولى جميع أموره بنفسه .

له النظم المعروف بالمرشد الملمين على الضروري من علوم الدين ، جمع فيه بين العقائد والفقهيات والتصوف وهو من الكتب التعليمية النافعة . قال ابن الطيب القادري : « وسمِعنا أنه ابتدأ نظمه حين أحرم بالحج فنظم أفعال الحج مرتبة بقوله :

وإن تُرِدْ تَرْتِيبَ حَجِّكَ اسْمَعَا بَيَانَهُ وَالذَّهْنَ مِنْكَ اسْتَجْمِعَا

ثم لما انفصل عن حجته كمل ما يتعلق بالقواعد الخمس من الضروري الذي لا يسعُ المكلف جهله » وله شرح مؤرد الظمآن للخراز في الرسم ، ونظم في العمل بالرُّبُع الهَيِّب وغير ذلك ، وتوفي رحمه الله عام ١٠٤٠ هـ .

مِياره

هو أبو عبد الله بن أحمد مِياره الفاسي من أعلام الفقه في هذا العصر ومشاهير المؤلفين فيه ، ولد ببكده فاس سنة ٩٩٩ واشتغل بطلب العلم ، فمهر وظهر وبرز في علم الفقه ، فكان راسخ القدم في الأحكام مستحضراً للنقول ذاكراً للنوازل ، عمدة في ذلك . وما تزال كتبه من أهم المراجع الفقهية وكتب الدراسة المختارة في هذا الباب . له شرح المرشد الملمين على الضروري من علوم الدين كبير وصغير ، وشرح تحفة الحكماء وشرح لامية الزقاق ، وتكميل المنهج وشرحه ، كمل به المنهج المنتخب في قواعد المذهب للزقاق واختصر شرح الخطاب على مختصر خليل في ثلاثة مجلدات وسماه زبدة الأوطاب في اختصار الخطاب وله أيضاً نصيحة المغترين في الرد على ذوي التفرقة بين المسلمين ، وهو تزييف للنظرية العنصرية التي نبغ دعائها في هذا العصر خاصة بمدينة فاس . وأخذ عن ابن عاشر وأبي العباس المقرري وعبد الرحمن العارف وأبي الحسن البطيوي وغيرهم . وكانت وفاته سنة ١٠٧٢ .

الصَّمَاقِي

هو أبو عبد الله محمد بن أبي جُمُعَة الصَّمَاقِي الهَبْنَطِي ، الأستاذ المقرئ ، صاحب تقييد وقف القرآن الذي جرى عليه عملُ أهل المغرب عموماً من كَلْدُن زمن واضعه الى الآن . توفي بفاس سنة ٩٣٠ هـ .

الْيَسِيثِي

هو أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عبد الرحمن الْيَسِيثِي الْفَاسِي ، الفقيه المتكلم النظار ، ولد سنة ٨٩٧ ونشأ حريصاً على طلب العلم مجتهداً فيه . أخذ بفاس عن مشاهير أعلامها ، ورحل الى المشرق سنة ٩٣٠ فأخذ عن أهل تلمسان وقسنطينة وتونس ومصر ومكة ، فانتسعت دائرة معارفه ، وكثر تحصيله . ثم رجع الى فاس فتولى بها الفتوى ، ودرّس الفقه والأصول والنحو والبيان والحديث والتفسير وكان زاهداً ورعاً متفانياً في النصح والارشاد ، وألف تأليف محرّرة ، منها رسالة في تصحيح قبلة فاس وأخرى في طهارة بَوَلِ المريض غير المتغير وأخرى في مسألة خُلْفِ الوعيد من الله تعالى وأخرى في مسألة الهيلة وأخرى في حقوق الملك والرعية وغير ذلك . وتوفي سنة ٩٥٩ هـ .

الْمَنْجُور

هو أبو العباس أحمد بن علي بن عبد الله الْمَنْجُور الْفَاسِي ، علامة داهية متفنن . انفرد في عصره برياسة الفقه والأصول والكلام والمنطق والنحو والبيان والعروض والتاريخ ، وكان موسيقياً بارعاً ، وكان أحد الأبطال في لعب الشطرنج والنرد .

خدم العلم مدّة حياته فبرّز في صناعة التدريس والتأليف وبذّ أقرانه بسلامة

الذوق وصفاء الذهن وصحة الفهم ، حتى كان يقال عنه إن فهمه لا يقبل الخطأ . وصار في الأخير رئيس الهيئة العلمية بالمغرب غير مدافع . وكان أبو العباس المنصور يحلّه ويكرمه ويحضّه على التأليف كثيراً ، ويُعطيه العطايا السنّية ، فحدثنا الإفرائيُّ عنه أنه كان يقول : ما عهدنا بذل المثين إلا في أيام الأشراف السعديّين ، وما عهدنا بذل الألوّف إلا في أيام المنصور .

له في الكلام شرح مقاصد ابن زكري ، وفي الفقه شرح المنهج المنتخب للزقاق ، وفي النحو شرح الألفية وضعّه بأمر المنصور وغير ذلك . ولد سنة ٩٢٦ وتوفي سنة ٩٩٥ هـ .

الْهَبْطِيُّ

هو أبو محمد عبد الله بن محمد الهبطي الطنجي ، العالم العامل الناصح الخالص . قال في الدعوة : « كان رضي الله عنه آيةً من آيات الله تعالى في أرضه وعباده ، قائماً على قدم الجِدِّ في الزهد واتباع السنّة ، والانزواء عن الدنيا وتعليم العلم والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . لا يترك أحداً من أهله وبنيه وأصحابه يخرجُ عن التقشّف وينقِطعُ في الدنيا ولم يُرَ أحدٌ من الرجال والنساء بزأوته إلا أن يكون تالياً لكتاب الله أو ذاكراً لأسمائه ومتعلّماً لمعرفته إلى أن لقي الله تعالى على ذلك . »

قال : « وكتبتُ من خط الشيخ أبي الحسن الأغزاوي المعروف بالحاجّ ، قال أبو زيد عبد الرحمن بن شريح أن الله تبارك وتعالى يبعثُ لهذه الأمة عند رأس كل مائة من يُجدِّدُ لها دينها الحديث ، ولا يبعد أن يكون منهم الشيخ سيدي أبو محمد الهبطي رضي الله عنه . » قال : « وقد قال هذا القول كثيرٌ من الأعلام ، وكان الشيخ أبو القاسم بن علي بن خجّو يقول هو غزاليُّ هذا الزمن . ولقد منَّ الله به علينا وعلى المسلمين . » وناهيك بها شهادة من مثل ابن خجّو . ثم قال :

« وكان أحرص الناس على تعليم الله ، ويأمرُ من يلقي بتعليم الأهل والأولاد والعبيد والخدم والإماء عملاً بقوله ﷺ ، « لأن يهدي الله على يدك رجلاً واحداً خيرٌ »

ملك من حمر النعم . وكان كثيراً ما يحض على فهم مدلول الشهادة بل اتخذ ذلك هجيراً ، لما رأى من استيلاء الجهل على الخلق ، وألف في علم الهللة أجزاء كثيرة أكبرها جرماً وأكثرها فائدة كتاب الإشادة بمعرفة مدلول كلمة الشهادة ، وكانت سيرته الذكر والذكرى وبذل النصيحة لكافة الوري .

وله أيضاً ألفية عامرة الأبيات بالنصح والارشاد وذم البدع الشائعة في الوقت وما عليه متصوفة الزمان من المنكرات والمحظورات ، ونظم في العدة معروف وغير ذلك . وتوفي عام ٩٦٣ هـ .

ابن خجو

هو أبو القاسم بن علي بن محمد بن خجو الخلو في الحساني ، الفقيه شيخ السنة وأحد العلماء الناصحين . درس بفاس على مشاهير العصر كالعلامة ابن غازي والشيخ زروق وأضراهما ، وكان صوفياً فاضلاً متورعاً سالكا نهج الحق شديد الشكينة على أهل البدع ، آمراً بالمعروف ناهياً عن المنكر ، باذلاً في نصرة السنة غاية مجهوده لا يبالي من خالفه ، منصفاً عديم المثال في جدّه واجتهاده وعلمه وعمله .

له كتب غاية في التحرير والافتان ، وكلها تدور على محور الإصلاح الديني والارشاد التعليمي والنصح الممحوض ، منها كتاب الغنية وكتاب ضياء النهار وكتاب النصائح وشرح نظم الهبطي في العدة وشرح نظم بيوع ابن جماعة للسنوسي وغير ذلك . وفي شرحه لنظم البيوع ذكر جملة من البدع الشائعة في عصره فاستغرق ما ينيف عن الأربعين صفحة في عدّها واستنكارها .

وكان السلطان محمد الشيخ السعدي ، لما صفا له ملك المغرب ودخل فاس بعث الى سائر أهل الفقه والعلم أن يحضروا عنده ، فكان من جملة من حضر أبو القاسم فأعجب به السلطان كثيراً وأجلّه وأكرمه ، ورغب اليه في الإقامة بفاس فاجاب طلبه وقال فيه : (ما رأيت أفضل منه علماً وصلاً) . وتوفي سنة ٩٥٦ هـ .

أحمد الصومي

أبو العباس أحمد بن أبي القاسم بن سالم بن عبد العزيز بن شُعَيْب الشَّعْبِي الهَرَوِي الزَّمْرَانِي دَفِينُ الصَّوْمَةِ من بلاد تَادَلَّة ، الشيخ الصوفي الرَّاسِخُ الْقَدَمُ في طريق القومِ عِلْمًا وَعَمَلًا ، وَصَفَهُ الْحَافِظُ أَبُو الْعَبَّاسِ الْمُقَرِّي وَكَانَ قَدْ لَقِيَهِ بِمَرَاكِش فَقَالَ : « هُوَ نَفَعَ اللَّهَ بِعُلُومِهِ آيَةً مِنْ آيَاتِ اللَّهِ فِي الْجَاهِدَةِ لَا يَكَادُ يُفْتَرُ عَنْ ذَلِكَ أَصْلًا . اسْتَفَرَّقَ نَهَارَهُ وَلَيْلَهُ فِي أَنْوَاعِ الطَّاعَاتِ مِنْ صَلَاةٍ وَذِكْرِ وَقِرَاءَةٍ قُرْآنٍ وَإِقْرَاءِ عُلُومِ الْحَقِيقَةِ . شَاهَدْتُهُ وَكَثِيرٌ مِنْ تَالِيْفِهِ تُقْرَأُ بَيْنَ يَدَيْهِ ، وَشَاهَدْتُ مِنْ كَثَرَةِ حِفْظِهِ لِحِكَايَاتِ الصَّالِحِينَ عَجَبًا ، يَذْكُرُ بِكُلِّ مَحَلٍّ مَا يُنَاسِبُهُ ، وَلَهُ وَلُوعٌ بِاِقْتِنَاءِ الْكُتُبِ ، حَتَّى لَقَدْ تَرَكَ يَوْمَ مَوْتِهِ مَا يَقْرُبُ مِنْ أَلْفٍ وَثَمَانِينَ مَجْلَدًا . وَقَدْ قَصَدَهُ النَّاسُ لَزِيَارَتِهِ مِنَ الْبِلَادِ الشَّاسِعَةِ وَرَأَيْتُهُ يَوْمَ الْجُمُعَةِ بِجَامِعِ الْكُتُبِيِّينَ وَالنَّاسُ يُزْدَحِمُونَ عَلَى تَقْبِيلِ يَدِهِ وَطَلَبِ الدَّعَاءِ مِنْهُ ، حَتَّى لَا يَخْلُصَ مِنْهُمْ إِلَّا بَعْدَ جَهْدٍ جَهِيدٍ ، وَكَانَتْ لَهُ زَاوِيَةٌ بِالصَّوْمَةِ يُطْعَمُ بِهَا الطَّمَامُ ، ثُمَّ سَكَنَ مَرَاكِشَ وَتَرَكَ بَعْضَ بَنِيهِ بِالزَّوَاوِيَةِ مُقْتَفِيًا سُنَّتَهُ ، لَهُ مَوْلُفَاتٌ عَدِيدَةٌ أَكْثَرُهَا فِي التَّصَوُّفِ كَشَرَحِ الْحِكْمِ فِي أَرْبَعَةِ أَسْفَارٍ وَمُخْتَصَرِهِ وَمُخْتَصَرُ مُخْتَصَرِهِ ، وَشَرَحِ الْمُبَاحِثِ الْأَصْلِيَّةِ ، وَشَرَحِ مَنَازِلِ السَّائِرِينَ لِلشَّيْخِ الْإِمَامِ الْهَرَوِيِّ ، وَغَيْرِ ذَلِكَ . قَالَ الْمُقَرِّي لَمَّا اسْتَجَزَتْهُ رَحِمَهُ اللَّهُ أَخْرَجَ لِي سِتِينَ مَجْلَدًا كُلُّهَا مِنْ تَصْنِيفِهِ . وَتَوَفَّى بِبِلَدِهِ الصَّوْمَةِ فِي سَنَةِ ١٠١٣ .

ابن القاضي

هو أبو العباس أحمد بن القاضي الکنامي ، نسبةً إلى قبيلة مكناسة لا إلى مدينة مكناس ، الفاسي ولد عام ٩٦٠ و زاول قراءة العلوم ببِلَدِهِ ، ثُمَّ رَحَلَ إِلَى الْمَشْرِقِ فَدَرَسَ بِهِ عَلَى الْمَشَاهِيرِ ، ثُمَّ انْقَلَبَ رَاجِعًا إِلَى فَاسٍ فَأَسَرَهُ بَعْضُ قُرْصَانِ الْإِفْرَنْجِ وَفَدَاهُ أَبُو الْعَبَّاسِ الْمُتَصَوِّرُ بِمَالٍ جَزِيلٍ .

وكان مُتضلِّماً من علوم الفقه والحديث والعربية والتاريخ . وهو الغالب عليه ، بله الحساب والفرائض ، واستقضي بسلا ردها من الزمان ثم آب الى فاس فأكبَّ على التدريس ، وكان مشغوقاً بنشر العلم وبثه قلم يزل كذلك حتى توفي عام ١٠٢٥ وخلف عدة كتب نفيسة خدم بها التاريخ المغربي خدمة تذكر أبداً الدهر فتشكر ، وهي المنتقى المقصور على محاسن ابي العباس المنصور ، وجذوة الاقتباس فيمن كان من الاعلام بفاس ودُرّة الحجال في أسماء الرجال ذيل به تاريخ ابن خلكان وغير هذه مما يأتي ذكره .

القُدومي

هو أبو العباس أحمد بن قاسم الغسّاني الشهير بالقُدومي ، إمام العربية وشيخ الإقراء في عصره . كان عارفاً بالنحو معرفة تامة ، وعليه المدارُ فيه ، متحققاً بالقراءات وتوجيهها بالضبط والرسم وجميع ما هو من وظيفة المقرئ ، وألف حاشية على شرح الألفية للمرادي وهي نفيسة للغاية . وكانت وفاته سنة ٩٩٢ هـ .

الزبّاتي

هو ابو علي الحسن بن يوسف الزبّاتي النحوي المقرئ ، ولد عام ٩٦٤ وطلب العلم بفاس فنبغ في علوم العربية والقراءات من نحو وتصريف ورسم القرآن وضبطه ، أخذ عن القُدومي وغيره وألف شرح الجمل للمجراد وحاشية شرح الضبط للتنسي وغير ذلك . وتوفي سنة ١٠٢٣ هـ .

البُعْقيلي

هو أبو زيد عبد الرحمن البُعْقيلي الجزولي ، العالم الفلكي البارِع له تعقبات على المنجمين تدل على تضلعه بالفن وهو الذي أحدث الساعة الرخامية بالجامع

الأعظم يتارُودانت . وله شرح روضة الأزهار وشرح اليسارة وغير ذلك . وتوفي سنة ١٠٠٦ قال أبو عبدالله ابن المبارك الأقاوي : « لم أتأسف على موت فقيه تأسفي عليه ، لانقراض علوم الهيئة بموته ، ولم يخلف مثله فيها . »

أبو القاسم الوزير

هو أبو القاسم بن محمد بن ابراهيم الغساني القاسمي المعروف بالوزير ، أحد مَهَرَةِ الأطباء في هذا العصر ، أخدم في أطباء الخاصّ عند أبي العباس المنصور وألّف كتباً منها شرح نظم ابن عزرون في الحميات ، وحديقة الأزهار في شرح ماهية العُشْب والأزهار المعروف بمفردات الوزير وغير ذلك . ولد عام ٩٦٠ وكان حيناً عام ٩٩٤ هـ .

الغول الفشتالي

هو أبو القاسم المعروف بالغول الفشتالي ، الفقيه القاضي المتطبب المشارك في كثير من التماليم ، له رسالة في الطّوَاعين ، ونظم جيد في الطب ، ورسالة في كيفية قسم المياه لقواديس الديار وغير ذلك . وتوفي عام ١٠٥٩ .

* * *

اسماءُ الكتبِ المؤلفة في هذا العصر

وإليك الآن بيانَ الكتبِ المؤلفة في هذا العصر ، مُضافاً إليها ما ذكرناه في هذه التراجم لتتألف من الجميع قائمةُ المجموعةِ النفيسة التي ضُمَّت من جديد الى المكتبة المغربية :

كتب الحديث والتفسير وتوابعها

اللُّثْبَاب في تفسير الكتاب للحاج الشُّطَيْبِي المتوفى سنة ٩٦٠ ، حاشية على تفسير الزمخشري وغيره للمصور الذَّهَبِي . الفتح النَّبِيل في أسماء العَدَدِ في التنزيل لابن القاضي ، الدُّرُّ الْأَزْهَرُ في مُنَاسِبَاتِ الْآيَاتِ وَالسُّورِ لعبد الله بن طاهر الشريف المتوفى سنة ١٠٤٥ ، نظمُ اصطِلَاح الحديث له ، حاشية على تفسير الجلالين لعبد الرحمن العارف المتوفى سنة ١٠٤٦ ، تفسير الفسَّاحَة له ، حاشية على البخاري له ، نظمُ 'نُجَّةِ الْفِكْرِ' لابن حجر في الاصطلاح للعربي الفاسي المتوفى سنة ١٠٥٢ ، تفسير القرآن لعلي بن عبد الواحد الأنصاري السَّجَّامِي المتوفى سنة ١٠٥٤ ، نظمُ اصطلاح الحديث له ، شرح ابن بَرِّي له ، إِتْقَانُ الصَّنْعَةِ في قراءة السُّبْعَةِ لِأَحْمَد بن شُعَيْب المتوفى سنة ١٠١٥ ، حاشية على شرح الضَّبْط لِلزَّيَّاتِي ، شرح الخُرَّاز لابن عاشر .

كتب الفقه والتصوف وتوابعها :

شرح العُمْدَةِ في الأحكام ، لعبد الغني المقدِسي ، لأحمد الفاسي ، شرح الرِّائِيَّة لِلشَّرِيشِي في التصوف له ، رسالة في حكم الذكر جهره له ، رسالة في حكم السماع له ، رسالة في وزن الأعمال وتكفير النِّبَات له ، رسالة في أولاد المشركين له . شرح الرسالة الْمُسَمَّى بِالْإِيضَاح لِأَحْمَد بن علي الشُّتُوكِي المتوفى سنة ٩٦٥ ، المرشد المعين على الضروري من علوم الدين لابن عاشر ، حاشية على شرح التَّنَائِي الصغير على المختصر له ، 'زُبْدَةُ' الْأَوْطَاب في اختصار الخطَّاب لميَّارَة ، شرح 'تحفة' ابن عاصم في الأحكام له ، شرح 'تحفة' الزَّقَّاق فيها له ، شرح المرشد المعين نسختان كبير وصغير له ، تنبيه المفتريين على حرمة التفرقة بين المسلمين له ، حاشية على مختصر خليل للأبَّار المتوفى سنة ١٠٧١ ، الفتاوى له ، شرح 'تحفة' ابن عاصم لمعلي بن عبد الواحد ، نظم أصول الفقه له ، حاشية على المختصر لعبد الرحمن العارف ، حاشية على المحلِّي في الأصول له ، حاشية على المختصر للسَّراج ، الفتاوى له ، حاشية على خليل للجَنَّان المتوفى سنة ١٠٥٠ ، حاشية على خليل لأبي محمد التَّمَجْرُوتِي المتوفى سنة ٩٨٠ ، الرُّوض الباع في فوائد النكاح وآداب الجَمَاع له ، نيلُ الْأَمَل فيما به جرى الْعَمَل لابن القاضي . تنبيه الصَّغِير من الوِلْدَان في الردِّ على زَاْعِم الفتوى آجَلِيَّات لِلْكَلَالِي المتوفى سنة ١٠٤٧ ، المسألة الإمليسيَّة في الأنكحة الإغريسيَّة له ، نظم أحكام الْعِدَّة

للّهبطي ، ألفية في النصائح الدينية له . شرح نظم العبدّة لابن خبّز ، شرح نظم
 بيوع ابن جماعة له ، كتاب الغنيمة له ، كتاب ضياء النهار له ، كتاب النصائح له ،
 كتاب اللائق لمُعَلِّم الوثائق لأحمد بن عرضون المتوفى سنة ٩٩٣ ، مُقْنِع المحتاج في
 آداب الأزواج له ، اختصاره له ، كتاب في آداب الصحة له ، نظم في أحكام الزكاة
 للعربي الفاسي ، شرح الرسالة لحسن بن داود الرشموكي ، شرح التلّفين
 له ، مدارج الرّاعب في شرح مختصر ابن الحاجب له ، شرح نظم
 بيوع ابن جماعة له ، كشف قنّاع الالتباس عن البِدَع الشائعة بفاس
 للعقيلي المتوفى سنة ١٠٧٦ ، سلاح أهل الإيمان في محاربة الشياطين
 للعشمان المتوفى سنة ١٠٢٧ ، بداية السلوك الى بساط ملك الملوك له ، شرحه له ،
 تنبيه الغافل على مرتبة العامل له ، الانتباه في صدق عبودية العبد لمولاه له ،
 نظم الشهداء له . وصلة الزّلفى في التقرب بآل المصطفى للشيخ أحمد وعلي
 المتوفى سنة ١٠٤٧ ، بذل المناصحة في فعل المصافحة . فلك السعادة في فضل
 الجهاد والشهادة للهادي السجلّاسي المتوفى سنة ١٠٥٦ ، تصحيح البداية وتحقيق
 النهاية للصومعي المتوفى سنة ١٠١٣ ، الدرر في فضائل الأدعية له ، لباب الشباب
 في معاملة الملك الوهاب ثلاث نسخ له ، بداية المرید نسختان له ، مصباح السالكين
 له ، مفتاح السعادة له ، نور المصباح له ، نتائج الأفكار له ، نصيحة الرّاعب
 له ، وسيلة الصديق له ، الزهرة العالية له ، شمس المراسم له ، حزب الوسيلة له
 حزب الفتوح له ، شرح منازل السائرين له ، شرح الحكم العطائية ثلاث نسخ
 له ، شرح حزب البحر له ، شرح الشريشة له ، شرح المباحث الأصلية للعاج
 الشطّيني ، شرح المشيشية للتجيني المتوفى سنة ١٠٣٠ ، شرح المباحث الأصلية
 له ، شرح الشريشة له ، شرح المشيشية للزياتي .

كتب المنطق والكلالـ

الإشادة بمعرفة مدلول الشهادة للهبطي ، مرآة الملتزم في مقاصد المعتقد
 للعربي الفاسي ، الطالع المشرق من أفق المنطق له ، تلقيح الأذهان بتنقيح
 البرهان له ، العقيدة الكبرى لعبد الله بن طاهر الشريف ، العقيدة الصغرى له ، شرح
 مقاصد ابن زكري في التوحيد للنجور ، حاشية على شرح كبرى السننومي في
 التوحيد له ، شرح المقاصد لعبد الواحد القلالي المتوفى سنة ١٠٠٣ ، شرح الكبرى

للحَفْصِي المتوفى سنة ١٠٣٧ ، شرح صغرى السنوسي في التوحيد له ، نظم في المنطق له ، حاشية على الصغرى لأحمد بن علي الشريف العلمي المتوفى سنة ١٠٢٧ حاشية على الصغرى للزياتي ، شرح 'صغرى الصغرى للسنوسي في التوحيد للسككتاني المتوفى سنة ١٠٦٢ ، حاشية على شرح الصغرى له ، حاشية على شرح الصغرى لعبد الرحمن العارف ، حاشية على مختصر السنوسي في المنطق لعلي الياصلوتي المتوفى سنة ١٠٣٩ .

كتب النحو والتصرف والبيان وما إليها

حاشية على 'مطوّل السعد في علوم البلاغة لعلي الياصلوتي، كراقي المجد في آيات السعد للسنجور، شرح ألفية ابن مالك له، حاشية على شرح المرادي للألفية لعبد الواحد الفلالي، إعراب أوائل الأحزاب لداود بن محمد السملالي، نظم في تصرف الأفعال لحسن بن داود الرّسموكي، حاشية على شرح المرادي للقدومي، حاشية على شرح المكودي للألفية لمجبر المتوفى سنة ٩٨٥، شرح لامية ابن مالك للمكلاقي المتوفى سنة ١٠٤١، شرح 'جمل المجرّد للزياتي، حاشية على شرح المكلاقي له، حاشية على شرح الألفية للمكودي له، حاشية على شرح الشريف على الأجرومية له، شرح النصف الأول من توضيح ابن هشام له، شرح 'جمل الرّسموكي المتوفى سنة ١٠٤٩، حاشية على المكودي له، شرح الأجرومية لعلي بن عبد الواحد، نظم في التصريف له، شرح الألفية لقاسم ابن القاضي المتوفى سنة ١٠٢٢، شرح تصرف المكودي له، حاشية على شرح الشريف له، نظم الأجرومية للعربي الفاسي، شرح نظم الضرير المراكشي في البيان لإبراهيم ابن محمد التّمّنّارقي .

كتب التراجم والتاريخ والرحلات :

كتاب الجُمان في تاريخ الزّمان للحاج الشّطّيني ، دوحه الناشر لمعاين من كان بالمغرب من أهل القرن العاشر لابن عسكر المتوفى سنة ٩٨٦ ، مناهل الصّفّا في تاريخ دولة الشّرفا لعبد العزيز الفشتالي ، الممدود والمقصود من سنّا أبي العباس المنصور لمحمد بن عيسى المتوفى سنة ٩٩٠ ، نظم وفيات ابن قُنفذ لمحمد بن علي الفشتالي ، ذيل نظم الوفيات للمكلاقي ، الملتقى المقصور على مآثر أبي العباس

المنصور لابن القاضي ، 'دُرَّةُ الحِجَالِ في أسماء الرجال له ، جَدْوَةُ الاقتباس فيمن حلَّ من الأعلام بفاس له ، 'غُنْيَةُ الرَّائِضِ في طبقات أهل الحساب والفرائض له ، 'دُرَّةُ السُّلُوكِ فيمن حَوَى المُلُوكُ من الملوك له ، لَقَطُ الفرائد من حَقَائِقِ الفوائد له ، الإلمام ببعض من لَقِيتُهُ من علماء الإسلام لعبد الواحد الفلالي ، الفوائد الجَمَّةُ في إسناده علوم الأمة لعبد الرحمن التَّمَنَّارِقي المتوفى سنة ١٠٧٠ ، التَّعْرِيفُ برجال البخاري لعلي بن عبد الواحد ، نَظْمُ السَّيْرَةِ له ، المَعْرَى في أخبار أبي يَعزَى للصُّومعي ، مِرَاةُ المحاسن للعربي بن الفاسي وهي ترجمة والده ، أنوار الزَّمان بقدم مولانا زيدان لقاسم ابن القاضي ، النَّفْعَةُ الْمَسْكِيَّةُ في الرحلة التُّرْكِيَّةِ لِأبي الحسن التَّمَجْرُوتِي المتوفى سنة ١٠٠٣ .

كتب الأدب والشعر :

شرح لَامِيَّةِ الْعَجَمِ لِلْمَاغُوسِي ، مُقَدِّمَةُ لَدِيَّانِ الْمُنَبِّئِي مع ترتيبه على حروف الهجاء له ، مَدَدُ جَيْشِ التَّوَشِيحِ لعبد العزيز الْفَشْتَالِي ، مُقَدِّمَةُ لَدِيَّانِ الْمُنَبِّئِي له ، شرح مَقْصُورَةِ الْمَكْتُودِي له ، شَرْحُهَا أيضاً لعبد الواحد الفلالي ، ديوان نُحْطَبْ لعلي بن عبد الواحد ، دِيَّوَانُ شِعْرِ لعبد الرحمن التَّمَنَّارِقي ، ديوان شعر لعبدالله ابن طاهر الشريف ، شرح ديوان المنبي للشَّابِغَةِ الْهَوَزَالِي .

كتب الطب والهيئة والحجاب وما الى ذلك :

حَدِيقَةُ الْأَزْهَارِ في شرح مَا هِيَ الْعُشْبُ وَالْأَزْهَارُ لِأبي القاسم الوزير ، نظم ابن عَزْرُونِ في الْحُمِّيَّاتِ له ، أَرْجُوزَةٌ في الطب للغُولِ الْفَشْتَالِي ، رسالة في الطواعين له ، رسالة كيفية قَسَمِ الْمَاءِ لِقَوَادِيسِ الدِّيارِ له ، نظم في الطب لعلي بن عبد الواحد ، نظم العمل بِالْبَرْقِ الْمُجَبِّبِ لابن عاشر ، تصحيح قِبْلَةِ فاس لِلْيَسِيثِي ، شرح رُوضَةِ الْأَزْهَارِ لِلْبُعْقِيلِي ، شرح الْيَسَارَةِ له ، الْبَرْقُ الْوَائِضُ في الحساب والفرائض لقاسم ابن القاضي ، شرح سِلْكِ اللَّائِي فِي الْمُخْتَمَسِ الْحَالِي له ، مُحَاذِي عَلَى قَصِيدَةِ ابْنِ لَيْوُنِ فِي التَّكْوِينِ له ، مُحَاذِي عَلَى الرُّوضَةِ له ، شرح جَدَاوِلِ الْحَوَافِي لابن القاضي ، شرح الرُّوضَةِ لِأَحْمَدِ مَغِيُوبٍ ، الْمُقْنَعُ لابن سعيد الْمَرْغِيثِي المتوفى سنة ١٠٨٩ ، شَرْحَانُ عَلَيْهِ كَبِيرٌ وَصَغِيرٌ له ، الْيَوَاقِيتُ في الحساب والفرائض

والمواقيت للعقيلي ، شرح النونية له ، شرح الروضة له ، القرب في الربع المجيب
 لاحمد بن حميدة المطرفي المتوفى سنة ١٠٠١ ، شرح الروضة له ، كتاب في الكيمياء
 للحاج الشططبي ، كتاب في السياسة للمنصور الذهبي .

الحياة الأدبية

كانت الحركة الأدبية في عهد بني وطاس قد وقفت وقوفاً كلياً إذ لم تجد
 مضطرباً في ذلك الجو المضطرب بأعاصير الفتن والحروب . فلما قامت الدولة
 السعدية واستتب الأمن والراحة بدأ الأمل يتجدد في نهضة الأدب وانتعاش روحه
 من جديد ، لا سيما وقد ظهر من تنشيط الملوك السعديين له وأخذهم بضبعه ما
 قوَّى ذلك الأمل ، وبالفعل فاجأت أيام المنصور الذهبي حق عاد لدولة الأدب
 سالف مجدها وسابق عزها ، فصيرنا نرى أفواج الشعراء تموج في بلاط ذلك
 السلطان وبلغاء الكتاب يغمص بهم ديوانه ، وعُدنا نشهد مساجلة السلطان
 لأهل مجلسه ومطارحته أيام اللطائف الأدبية .

وانك لتعد من نوابغ أدباء هذا العصر الذين زانوا طلعتهم ، وطرزوا حللتهم ،
 ولا تعددهم لأنهم كثير . لكن فيندومهم على الإطلاق وزعيمهم باتفاق هو فخر
 الدولة السعدية وذخرها إمام النظم والنثر ، عبد العزيز الفشتالي الذي كان المنصور
 يقول في شأنه : « نفتخر به على ملوك الأرض ، ونباري لسان الدين بن الخطيب . »
 وفي الحقيقة إنه من حسنات هذا العصر ، ومن أفضل أدباء المغرب الذين برزوا في
 الصناعتين ، وكان متولياً في دولة المنصور رئاسة ديوان الإنشاء ، فكان الكل
 يعترف برياسته ويقر بفضله .

وهناك أديب فشتالي آخر هو الوزير ابن علي . وكان كاتباً شاعراً ايضاً . ومن
 الأدباء ايضاً النابغة الهوزالي الذي كان يُعتبر بحق شاعر الدولة ، وهو متنبئ
 النزعة ، فغم الألفاظ ، جزل المعاني ؛ إلا أن آثاره ضاعت ولم يصل إلينا منها
 غير النثر اليسير .

أما غير هؤلاء فهم ممن يُثَلِّون المدرسة الأندلسية في رقعة الشعر وسلاسته وانطباعه ، وناهيك بأبي الحسن الشامي والقاضي الشاطبي والوزير الشيطمي من ثلوث شعري جميل .

وهناك طائفة من الشعراء كانت تخرجُ الجسدَ بالهزل ، وتنفخُ في الفنَّ روحَ الفكاهة ، مستقبلةً بهذا المذهب ، تبحيُ فيه وتذهب ، وكان المنصورُ يُعجبه ذلك منها ويثيبها عليه كثيراً ، وقد انفردَ عصرُه بهذا اللون من الأدب أو كادَ إلا أنه لم يتمكن من القوة والظهور ، لأن وفاة المنصور قضت عليه في مهده . ومن أفراد هذه الطائفة ابن عمرو الشاوي ورابعُ بن عبد الصمد ، وأبو اسحاق الزرَّوبلي ، ولسنا في حاجة إلى ذكر العلماء والقضاة والرؤساء الذين كانوا يتعاطون الأدب ويطلعون بين آونة وأخرى على الجمهور بنتائج أفكارهم ، خصوصاً في الأعياد والمواسم والحفلات العديدة التي كان المنصور يُقيمها لغير مناسبة ، ولها ، فان هؤلاء أكثرُ من أن يُحصوا . بله الأدباء غير المغاربة ممن أَوْوا إلى حرم المنصور ، وتقيَّسوا ظله من شاسع البلدان ، ونازح الأقطار ، إذ كان يرفع أقدارهم ويُنزلهم منازلهم . وفي مقدمة هؤلاء أبو العباس المقرئ صاحبُ نفع الطيب .

ولقد انتظم في مجلسه يوماً وفدٌ عنده ثلاثة أشخاص مكثي ومدني ومقدسي؛ فقام المكِّي وقال يا أمير المؤمنين إن المساجد الثلاثة التي تشدُّ إليها الرِّحال قد شدَّ أهلُها إليك الرِّحْلَةَ وأنشد :

إِنَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أَحْمَدُ بَحْرُ النَّدَى وَفَضْلُهُ لَا يُجَدُّ
فَطَيْبَةُ وَمَكَّةُ أَهْلُهَا وَالْمَسْجِدُ الْأَقْصَى بِذَاكَ تَشْهَدُ

ثم قال : نصرَكَ الله إنه لم يتفق مثلُ هذا لملك قصيدتَ إِيالته ، قال المقرئ وهو راوي الحكاية ، فتبسَّم لذلك أبده الله وأجزَلَ لهم في العطاء وإجراء النفقة عليهم كما هو دأبه بكل واقِعٍ عليه من أي بلد كان .

على أن المنصور نفسه حُرِّيَّ بآن يُعَدُّ في شعراء هذا العصر ، فهو من سلوك

المغرب كابن المَعْتَزِّ في ملوك المشرق كما تقدّم ، وقد كان كَلِيفاً مِثْلَهُ بالبديع من جناس وتوريّة وتقريع ؛ وفيما ثَبَتَ من آثاره بقسم المنتخبات دَلَالِيلُ ناطقةٌ بطول بابه وقوّة عارضته . ومِثْلُهُ ولده زِيدَانُ وابنا أخويه محمد المتوكّثُ بن عبد الله الغالب ، والأمير محمد بن عبد القادر بن محمد الشيخ المهدي في البراعة الأدبية ونظم الشعر البليغ ، وسنوردُ لكل منهم بعض الآثار في محلّها ، وإذا كان لنا أن نستخلص من هذا الواقع التاريخي بعض الحقائق فهي أن الحياة الأدبية تتأثّر بالحياة السياسية الى أبعد حدٍّ ؛ ذلك أنّه لما تدهورت سياسة البلاد في آخر عصر المرينيين وعلى عهد الوطّاسيّين كان الأدب يُعاني حالةً من الرُّكود كادَ لا يبقى له معها وجود ، ثم لما أذنَ الله بانبِعاثِ القوَّات الشعبيّة وزحفها لتداركِ الحالة تحت قيادة الأشراف السعديّين دبَّت الحياة في النفوس ، وانتعشت الأحوال فهبّ الأدب من سَرَقَدِهِ ، وكان تشجيعُ رجال الدولة لأهله مُعِيناً على نموه وازدهاره .

وقد أعطيناك هذه الصورة المُبَصَّرَةَ عن الحياة الأدبية في هذا العصر ، ولعلّك تشوّفُ الى تراجُم بعض الأدباء سالفِي الذِكر ، فدونك ما يقتضيه المقام ، من ذلك .

عَبْدُ الْعَزِيزِ الْفَشْتَالِي

هو الوزير صاحبُ القلم الأعلى ، أبو فارس عبد العزيز بن محمد الفشتالي الفاسي ، وُلِدَ سنة ٩٥٢ ودرس بفاس على العلامة المنجور ، وأبي العباس الزمهوري والقاضي المَحْمُدي وعبد الواحد الشريف وغيرهم ، وبرع في فنون الأدب والتاريخ والسياسة ؛ فعملت رُبَّتُهُ عند المنصور وزهت به دولته ، حتى قال المنصور عنه كلمته السابقة . وقال صاحبُ سُلالة العصر في حقه : « كاتب المنصور ، وربيبُ تلك الدولة المشيدة القصور ، وخادم سناها الممدود والمقصور . المعترفُ لسانُ البراعة عن حصر مناقبه بالقصور . فاضلُ زهت به الأقلام والأعلام ، وأقرت بفضلها العلماء الأعلام وخضعت لأدبه سماءُ الكلام . وأضاءت بأنوار بلاغته حنادس الظلام . فهو إذا نَسَرَ أفحَمَ الورقاء ذاب السجع ، وإذا نظم أبجّلت أفكاره دراري السماء ذات الرجوع ؛ فجاء بما شاء وكيّما شاء ، من محاسن الأشعار والإنشاء . » الخ ، أما

منزلته في الكتابة فانه طبقة عصره غير مدافع ، وأما في الشعر فانه متين السبك محكم الرصف ، ناصع الألفاظ حسن التصرف في جميع فنون الشعر ، لا سيما الوصف الذي أجاده وتقدم فيه بشاهد قصائده العديدة التي قالها في قصر البديع الذي بناه المنصور براكش فنقشت على جدرانته وسقوفه ، وطرزت بها فرشته وأروقته مما يأتي طرف منه في قسم المنظوم ، وله تصانيف منها مناهل الصفا في تاريخ دولة الشرفاء ، أي السعديين ، مشتمل على تاريخ هذه الدولة منذ نشأتها الى وقته ، وعلى نبذة من محاسن المنصور في عدة مجلدات . ومنها مدد الجيش ، ذيل به جيش التوشيح لابن الخطيب ، قال في النفع : (استله بقوله الحمد لله الذي أمد جيش محمد بغيرته) وأتى فيه بكثير من مؤشرات أهل العصر من المغاربة وضمنته من كلام أمير المؤمنين المنصور ما زاده حسناً ورونقاً ، ومنها مقدمة في ترتيب ديوان المتنبي على حروف المعجم ، ومنها شرح مقصورة المكودي ، وبالجملة فهو من مفاخر هذه الدولة كما قال المنصور عنه ، وكانت وفاته سنة ١٠٣٢ .

النايفة الهوزالي

أبو عبدالله محمد بن علي الهوزالي شاعر الدولة الرسمي ، كان شديداً الاتصال بالمنصور والقرب منه يقوم عنده في الاحتفالات الرسمية والمواسم والأعياد يُنشدُه ويُعجب هو بشعره كثيراً ، ويصليُه ويخلع عليه .

وكان قوي المراس على المعاني الشعرية فظم الألفاظ نابه المعاني ، جيند النظم رائع الأسلوب ، متضلعا من اللغة والأدب ، بصيراً بتواقع الكلم ، متصرفاً في ضروب المدح أحسن التصرف ، ووصفه الشيخ عبد الواحد الشريف فقال : « الفقيه المتفنن ذو القهم القويم والادراك المستقيم ، قائد العويصات ينواصيها ومستنزل غصم القوافي من صياصيها ، شعلة الذكاء الذي يترى سناه بنور ذكاء » وقد علمت أنه كان يلقب بالنايفة ولا ندرني ما اذا كان مرادهم بذلك الموصف أو التشبيه ، وله شرح على ديوان المتنبي ، وكتاب يلي قضاء المدينة المحمدية أعني تارودانت . وتوفي براكش في شعبان سنة ١٠١٢ .

ابن عيسى

هو أبو عبدالله محمد بن أحمد بن عيسى الصنهاجي ، كاتب سر المنصور ، وأحد أعيان أدباء دولته ، له تضلع بعلوم العربية ومعرفة كبيرة بالتواريخ وأيام الناس وسير الملوك ، وقله في الكتابة بارع ، وعارضته في الترسل قوية وله شعر قليل ، وألف كتاب الممدود والمقصود من سنا أبي العباس المنصور ، قال المقرئ : وهذه التسمية ' وخذها مطربة . توفي في سجن . تخدومه بفاس سنة ٩٩٠ .

ابن علي الفشتالي

أبو عبدالله محمد بن علي بن إبراهيم الفشتالي ، أحد وزراء المنصور ، ومن صدور الأدباء في عصره ، كان كاتباً مجوّداً ماهراً في الصناعة ، شاعراً بارعاً متقناً في ضروب النظم . قال صاحب الرّيحانة في حقه : « وزير مولاي أحمد ، أديب فاس ورّيحانة فضلائها الأكياس . تقدّم فيها مُتقلّداً قِلادة إنشائها ، فائقاً برسائله على سائر أدبائها ؛ وله ماءُ شعرٍ تشرّبهُ أفواهُ الأسماح ، ورياحُ منشور تُغرّدُ حمامُ قوافيه بمُطرب الأسجاع » .

من مآثره الأدبية اللامية التي نظم فيها ما تضمنته تأليف ابن قنفذ في وفيات الأعيان من زمن البعثة الى تمام المائة الثامنة ، وزاد عليه الى تمام الف سنة رازماً الى التواريخ بنقطة الحروف الإيجدية على ما شاع عند أدباء العصور المتأخرة ، وقد ذيل على هذه القصيدة الأديب المكلاقي وأشار الى وفاة المترجم بقوله :

« شكى ، الدُرُفقد ناظم وبكى له بكاءً حُبّ بانّ عن مُترَحَل

أبو الحسن الشامي

هو أبو الحسن علي بن أحمد الخزرجي الشامي ، به شهرَ قومه لأن من الشام كان قدومُ سلفهم ، وهم من يبيوتات فاس ، وكان لهم مع أبي العباس المنصور مصاهرة ، وكان أبو الحسن هذا أحد شعراء دولته والمقرئين منه ، وهو شاعر مقلد كلف بادخال البديع والمحسنات اللفظية في شعره ؛ لكن حيث لا يظهر عليها أثرُ التكلف والصنعة ، يحكم الوصف ويحيده وأبدع من وصفه غزله الذي يستثير عاطفة الحب من مكائنها في القلوب .

له لطائف أدبية نظماً ونثراً سنأتي على ذكرها في محلها ، ومن وصفه عند ابن معصوم : « أديب له في الأدب مذهب ، طرازه بحسن البلاغة مذهب ، وشعره ألطف من دل الحبيب ، وأسحر من مقلد الشادن الربيب ؛ يتصور فيه ولا يتكلف ، ويتقدم ولا يتخلف ؛ فهو اذا تغزل أهدى نغمات نجد ، واذا تذكّر أوزى لفحات شوق ووجد ، على أن عليه من الجزالة ديباجة ، تفوق عبقرى الوشي وديباجه ، ولا يشينه من الكلام حوشه ولا يلم باسحة أنسيه وحشيه . » توفي سنة ١٠٣٢ .

ابن عمرو الشاوي

أبو عبدالله محمد بن عمرو بن أبي القاسم الشاوي . قال الشيخ عبد الواحد الشريف في وصفه : « الفقيه الأديب الكاتب الذي ارتفع صيته في مقامات الأخلاق وسما ، وغدا بين النظار في عذوبة الشائل علماً . وحصل من الأدب اليانع على حظٍ وافر ونصيب ، ورمى الى غرض الإجادة في منازعه بالسهم المصيب ، وتدرع من حسن الخلق جبة لا تلقى رباح الانزعاج والغضب ؛ فنسكت القلوب الى محبته من كل حدب ، فلأن ، ابقاه الله تُضربُ به في لين العريكة الأمثال ، وتتهاداه لفضائله وفواضله الملوك والأقيال ، وأنا له من الخير الجزيل كل منال . »

ويظهر من هذا ، ومن بعض نواتجه مع المتصور أنه كان ظريفاً خفيف الروح
 حلواً الحديث ، فلم نعد به طوراً حين عددناه في شعراء الفكاهة ، بل إن منزعه
 هذا في شعره شديد الوضوح ، بحيث لا يحتاج الى من ينبّه عليه ، وهو مع ذلك
 فصيحُ العبارة لطيفُ الإشارة ، لا يتكلف ولا يتعمق ، فيكاد يكون كلامه مرآةً
 تتمثل فيها سهولةُ خلقه التي يتحدث عنها الشيخ عبد الواحد الشريف . وقد
 اثبتنا في المنتخبات نبذةً من آثاره كغيره من أدباء هذا العصر ..



عصر العلويين

الدولة الشريفة

انتشر عقد الدولة السعدية وتقلص ظلها من المغرب ، إثر اشتداد النزاع وشبوب الحرب بين أولاد المنصور الذهبي في طلب العرش والقوز بصولجان الملك . وكان قد أمر أمير الدلائيين أهل الزاوية التي أسسها الشيخ أبو بكر الدلائي ؛ فاشتهرت بإيواء الطلبة ونشر العلم وإحياء رسوم الدين زيادة على بذل الطعام للصادر والوارد واعانة المحتاجين وعاونة المهوفين ؛ فاعتم رئيسها في هذه الاثناء الشيخ محمد الحاج الدلائي حفيد الشيخ أبي بكر المذكور ، فرصة ضعف نفوذ الدولة وشغلها عن حكم البلاد فلف لفه ، وزحف الى مكناس وفاس فتملكهما ، ولم يلبث أن أسس الدولة الدلائية التي قاومها المولى محمد بن الشريف رأس المملوك العلويين . ولكنه لم ينل منها مالا إذ حصل الصلح بينه وبين الرئيس الدلائي ، على أن ما حاذى الصحراء الى جبل بني عيتاش فهو للمولى محمد بن الشريف ؛ وما دون تلك الى ناحية الغرب فهو لأهل الدلاء .

ثم لما توفي المولى محمد بن الشريف وتولى أخوه مولاي رشيد لم يرخص بهذه القسمة الجائرة ، فتقدم واستولى على جبل بلاد المغرب ، ثم حارب الدلائيين فظهر عليهم وقتبعم حتى كاد يقتلهم . وقصد زاويتهم فأوقع بها الواقعة الحاسمة ، وشرّد بأهلها فصفا له ملك المغرب ، ولم يبق له منازع فيه وذلك سنة ١٠٧٩ .

ولما توفي تولى أخوه السلطان المظفر أبو النصر إسماعيل بن الشريف ثالث سلاطين هذه الدولة وأعظمهم شهرة وأجلهم قدراً ، كان عاملاً لأخيه على بلاد المغرب ، ومتوطناً بمدينة مكناس التي صارت عاصمته من بعد . فلما تمت مبايعة الناس له ، نهض لتمهيد البلاد وإخضاع من كان خارجاً عن الطاعة من أهل السوس وقبائل

١ - لا يعرف بالضبط موقع هذه الزاوية الآن وإنما المحقق أنها كانت تقع بناحية وادي أم الربيع قريباً من تالة . ولعلنا لا نخطئ إذا عينا لها بلاد تامنا المروقة اليوم بالشاوية ، ومن ثمّ شهر بعض الدلائيين بنسب السناوي .

البربر ؛ فاستنزهم جميعاً من صياصيهم ، ولما طلبوا منه الأمان أجابهم الى ذلك ليتفرغ الى منازلة الأجانب المحتلّين بشواطئ المغرب ، والمستولين على أهم ثغوره منذ اضطراب أحوال الدولة السعدية .

فسار الى المهدي واستخلصها من يد الاسبان ، ثم أرسل جيشاً كثيفاً لحصار العرائش وأصيلا ، وكانتا ييدم ايضاً فطردهم عنهما . وفي ذلك الوقت ورد الخبر بإخراج الانكليز من طنجة ، فتمّ بذلك سرور المواطنين وعظم فرحهم ، وأقاموا الاحتفالات في كل مكان ، وقد كانوا من فرط البثّ والحزن على أخذ العرائش في أيام الفتنة قد لبسوا الأحذية السود ؛ فبقيت في أرجلهم حتى افتتحها مولاي اسماعيل ، فانتزعوها حينئذ ولبسوا هذه النعال الصفر .

ثم وجه المولى اسمعيل عزمه الى فتح ثغري سبتة ومليلة وشدد عليها الحصار مدة طويلة ، وانصرف الى الصحراء فدخل بلاد السودان ، واستولى عليها فامتدت حكومته اليها جنوباً ، وشرقاً الى بسكرة من بلاد المغرب الأوسط ، وبذلك اتسعت مملكته ، وعظم صيته ، وهابه ملوك أوروبا فن دونهم .

وكان مولاي اسماعيل قد عثي يجمع عبيد المغرب ، واتخذ العصبية منهم ، فأعدّ عسكرياً قوياً شديداً من جنس السواد بلغ في حياته الى مائة وخمسين ألفاً مفرقة في القلاع التي بناها بجميع أنحاء المغرب للحراسة وتأمين السبل ، وبني بازاء كل قلعة منها فندقاً لإيواء التجار وعابري السبيل ، فجاء هذا العمل دليلاً على مزيد حزمه وحسن تدبيره ، إذ أمن بذلك انتقاض القبائل على حكومته ، ووطئ دعايم السلم الذي هو أساس الحضارة وأصل التمدين .

وهكذا ساد الأمن وعم العدل ، ففاضت الخيرات ، وكثرت النعم مع الرخاء المفرط ، فلا قيمة للقمح ولا للماشية ، والعُمّال تجبي الأموال ، والرعية تدفع بلا كلفة . وأقام السلطان مولاي اسمعيل مشتغلاً بتجديد عاصمته مكناسة الزيتون ، وكان لا يبغي بها بديلاً ، فلا تسك عما شيده فيها من الآثار الهائلة والمصانع الضخمة بما يكيل لبان البليغ عن وصفه ، ولا يتصوره على حقيقته إلا من وقف عليه .

هذا قل من كثير مما عمله مولاي اسمعيل لصالح المغرب ، الى أن رفع رأسه

عالياً ما بين البلاد . وما أن انتقل الى رحمة الله حتى قام خلفاؤه فتنسفوا بتنازعهم ذلك البنيان الشامخ نفساً ، وبدلوا أمن البلاد خوفاً وقوتها ضعفاً ، فكادت تصبح ابي ما كانت عليه قبل من الفوضى والاختلال ، لولا أن تداركها الله بولاية المولى محمد ابن عبد الله فخر هذه الدولة ، وباعث مجد المغرب من بين الانقاض . وقد اجتمع الناس عليه بعد وفاة أبيه مولاي عبد الله بن اسمعيل ؛ فبايعوه لما كان ظهر منه أيام ولايته على مراکش ، في عهد أبيه ، من حسن السياسة وكال النجدة وجودة الرأي ، فلم يلبث أن ضرب على أيدي أهل الفساد ، وساح في أنحاء البلاد متفقداً لأموارها ، مستصلاً لأحوالها ، فاجتمعت على محبته القلوب ، وأخلصت له الضمائر .

ثم أخذ يُجدد ما درَس أو كاد من آثار عظمة المغرب ، فحصَّن العواصم والثغور ، وشيَّد بها الأبراج والمعاقيل المنيعه ، وشحنها بالمدافع والعساكر القوية ، واستكثر من إنشاء السفن الحربية وتدريب البحارة على العمل فيها بتلك المناورات التي كان يُقيمها من حين لآخر في عرض بحر الزقاق وسواحل المحيط .

وبنى مدينة الصويرة ، واعتني بها غاية الاعتناء ، فكان بناؤها من حسن سياسته إذ أبطل بها حصن أكدير ومرسأه الذي كان الثوار يتداولونه ويُسرّحون منه شحن السلع افتياتاً على الدولة ، فانقطع بالصويرة أملهم في ذلك ، لا سيما وقد جاء مرساها غاية في حسن البناء .

ونظر المولى محمد بن عبد الله في علاقاته مع الدول نظرة توفيق وسداد ، فعقد عدة معاهدات مع ملوك أوروبا وغيرها كلها في صالح بلاد المغرب . أما الدولة العثمانية فقد كان من أعظم أنصارها وأصدق محبيها ، تقدّم فخطب ودّها في أيام السلطان مصطفى الثالث ، إذا أرسل اليه رسولين ، ومعها هدية فاخرة فيها خيل عتاق وسروج محلات بالذهب وسيوف مُرصّعة ، فقوبلت هديته بالسُرور ، وأرسل اليه السلطان المذكور مركباً مُثقالاً بالمدافع والقنابل والبارود وكثير من أدوات الحرب .

ثم لما وقعت الحرب بين روسيا والدولة العثمانية مدّة السلطان عبد الحميد الأول الذي تولّى بعد السلطان مصطفى الثالث ، بادر المولى محمد بن عبد الله فأرسل الى والي الجزائر أربع سفن حربية مُثقلة بالهدايا وآلات الحرب ، ورغب اليه أن

يرسلها الى القسطنطينية ؛ فأساء ذلك الوالي الوساطة وردَّ عليه ردّاً قبيحاً ، فلم ينعمه ذلك من المضي في سبيل التقرب من الدولة العثمانية ونصرتها ؛ فبعث الى السلطان سفيراً يهدايا نفيسة ، وعرض عليه استعدادَه لكل ما يطلب منه من المعونة ، وبينَ له أسفه من تقاطع ملوك المسلمين لا سيما في ذلك الحين . وأعجب من ذلك أنه طرد سفير الروسيا الذي كان بطنجة وقتئذٍ لما بلغه خبر الحرب المذكورة ، فكان حادثاً دبلوماسياً خطيراً .

والغاية في هذا الباب أنه كان مرة في سفر فوافق يوم عيد الأضحى في الطريق قال الكنسوس : « فخطب السلطان بنفسه ودعا للعثماني » وهذا من انصاف الملوك الذي هو ملك الانصاف . ومن دلائل حرصه على تمتين الرابطة الدينية بينه وبين ملوك الاسلام أنه زوج ابنته الشريف سرور أمير مكّة فجهرها بمائة ألف دينار وزفها اليه في موكب عظيم وأرسل برقيقتها من الهدايا والتحف الى أمير طرابلس ومصر والشام شيئاً كثيراً . فهذا الاهتمام من المولى محمد بن عبدالله بتمكين أواصر المحبة بينه وبين ملوك الاسلام ، هو من أعظم فضائله في نظرنا ، ولو لم يكن له منقبة الا هو لكفى . فان من المعلوم ان ملوك الاسلام لو جروا على هذه السنة المحمودة وراعوا هذا الواجب الأكيد لما وجد العدو أبد الدهر سبيلاً الى استعبادهم والتحكّم فيهم .

ولما توفي المولى محمد بن عبدالله اضطربت الأمور أيضاً ولم يل بعده خير من مولاي سليمان الذي كان مثلاً مجسماً للعدل والديموقراطية الاسلامية إلا أنه كفيه ، لم يكن موافقاً في سياسة الدولة وتثبيت السلم .

أما مسك الحتام ولبيبة الشام فهو السلطان المرحوم مولاي الحسن الذي تولى بعد وفاة أبيه المولى محمد بن عبد الرحمن سنة ١٢٩٠ ، وقد كانت العتو والفساد ضاربين أطناهما في قبائل المغرب جميعاً ؛ فتمكن بحكمته وحسن سياسته من تأليف تلك القبائل وإعادتها الى حظيرة الطاعة ، واجتهد في اصلاح البلاد والسير بها في طريق الرقي المادي والأدبي ، خصوصاً فيما تشد إليه حاجة الدولة لحفظ استقلالها وضمان سلامتها ؛ فأرسل فتوحاً من الطلبة الى أوروبا بقصد التخرج في فنونها الصناعية ، وأسس معمل كبيراً للسلاح بفاس ، واقتنى مراكب بخارية كان يصح جعلها نواة

لِعِمَارَةٍ بَجْرِيَّةٍ مُّهِمَّةٍ ، وَكَانَ فِي عِلَاقَتِهِ مَعَ دَوْلِ الْغَرْبِ دَائِمٌ التَّيَقُّظُ وَالْحَذَرُ لِمُسْلِسِ قِيَادَةٍ لَوَاحِدَةٍ مِنْهُمْ عَلَى مَا كُنْ يُبْدِيْنَهُ مِنَ التَّوَدُّدِ الزَّائِدِ .

وَكَانَ لَا يَفْتَرُّ مِنَ الْجَوْنِ خِلَالِ الْمُلْكَةِ ، وَفِي هَذِهِ الْفِكْرَةِ السَّدِيدَةِ مِنْ تَوْطِيدِ الْأَمْنِ وَغَيْرِهِ مَا لَا يَخْفَى . وَكَانَ لِعَامَّةِ الشَّعْبِ تَعَلُّقٌ كَبِيرٌ بِهِ ، وَحُبٌّ زَائِدٌ عَلَى حُبِّهِمْ لِأَنْفُسِهِمْ وَذَلِكَ دَلِيلٌ عَلَى شَفَقَتِهِ وَغَيْرَتِهِ عَلَى الدِّينِ وَالْوَطَنِ ، وَكَانَ عَازِماً عَلَى رِبْطِ أَنْحَاءِ مَمْلَكَتِهِ بِخُطُوطِ السَّكَّةِ الْحَدِيدِيَّةِ وَإِنْشَاءِ التَّلْغْرَافِ وَغَيْرِ ذَلِكَ ؛ إِلَّا أَنَّ الْبَغْيَةَ عَاجَلَتْهُ قَبْلَ أَنْ يَحْقُقَ أَمْلَ رَغْبَتِهِ فِيهِ فَبُتُو فِي مَاسُوفٍ عَلَيْهِ سَنَةُ ١٣١١ وَكَانَتْ رَحْمَةُ اللَّهِ قَدْ بَنَى فَأَحْسَنَ الْبِنَاءِ وَلَكِنْ لِسَانُ الْحَالِ يُنْشِدُ :

أَرَى أَلْفَ بَانٍ لَا يَقُومُ بِهَادِمٍ فَكَيْفَ يَبَانِ خَلْفُهُ أَلْفُ هَادِمٍ ؟

١ - إِلَى هَذَا أَتَيْنَا بِالتَّارِيخِ السِّيَاسِيِّ لِلدَّوْلَةِ الشَّرِيفَةِ فِي الْعِلْمَةِ الْأُولَى ، وَلَمْ نَرِدْ عَلَيْهِ شَيْئاً الْآنَ ، لِأَنَّ
لِلْحَقِيقَةِ نِهَاجَ عِدِّ الْإِسْتِقْلَالِ وَإِجْدَادِ عِدِّ التَّمَثُّلِ وَالْحِمَايَةِ أَيْ الْعَصْرِ الْحَدِيثِ ، وَهَذَا أَرَادَ مِنَ الْقُرَّاءِ
وَرَوَاةَ الْكَلِمَةِ فِي الْمَقَامِ الْوَحِيدِ .

الحركة العلمية

فَسَرَت الحركة العلمية في المغرب بعد وفاة المنصور الذهبي 'فتوراً كبيراً' ، لا سيما عند ما أراد السلطان المأمون بن المنصور الملقب 'بالشيخ من العلماء' أن يوافقوا على احتلال العدو لمدينة العرائش فلم يرتضوا ذلك ، وخرج الكثير منهم فارّين بدينهم الى البوادي ؛ فكان لذلك من التأثير السيء على الأوساط العلمية في المدن المغربية وخصوصاً فاس ما لا يخفى .

ولكن من الألفاظ الخفية أن ظهرت الزاوية الدلائية في ذلك الحين ، فكأنما بعثها الله لحفظ تراث العلوم والآداب الذي كاد أن يضيع ، فقامت عليه خير قيام . وما هي إلا مدة قليلة حتى صارت مركزاً مهما لنشر الثقافة العربية بين قبائل المغرب ، ومأزراً حصيناً للعلوم الإسلامية بالبلاد ، وقد تخرّج فيها عدد لا يحصى من العلماء الفطاحل ، والأدباء الأماثل ، يكفي أن نذكر منهم علامة المغرب في هذا العصر أبا علي اليوسفي . والواقع أنه لو لم يقض عليها مولاي رشيد ذلك القضاء المبرم لكان للمعارف اليوم بالمغرب ، وخصوصاً القبائل ، شأنٌ غير هذا الشأن . ولكن ما يشفع لمولاي رشيد هو أنه بعد تخريب الزاوية ، نقل أهل العلم من رجالها 'مكرمين' الى فاس ، حيث عكفوا على التعليم والتذكير من غير خوف ولا نكير . وكان كثيراً ما يتعهدم ببيرة وألطافه ، بل إن منهم من كان من جلسائه وخواص أهل حضرته وهو العلامة أبو عبدالله المرباط من أفاضل أهل بيته في النحو واللغة .

ولا مفهوم لهؤلاء ، فإن ذلك كان شأنه مع أهل العلم قاطبة ، وفيما يحدثنا المؤرخون أن مجلسه كان لا يخلو منهم ومن رجال الدين وأهل الخير والصلاح ، وهو لا يزال يُسني لهم العطيات ويغدق عليهم الصلوات .

ومن مآثره العلمية الباقية بفاس مدرسة الشراطين 'الحكمة' البناء الجميلة الشكل الأنيقة الوضّع ، وقد أنسها لدراسة العلم وسكنى طلابه ، وجعلها ثلاث طبقات تشتمل على مائتي بيت واثنين وثلاثين بيتاً وقبة للصلاة .

وهو الذي أحدث 'نزّهة الطلبة الربيعية' التي يُقيمونها سنوياً على ضفاف وادي الجواهر بمدينة فاس ويمثلون فيها أدواراً هزلية ترويحاً للنفس من عناء الدرس ، وتشارك فيها السلطة ويحضرها الأهالي وتقوم مدة أسبوع وربما حضرها السلطان نفسه اعتناءً بأمر الطلبة . وكانت همة المولى اسمعيل مصروفة في الغالب الى تقوية الدولة والتشيد والعمارة والبناء ، ولكن ولده ووليّ عهده كان - المولى محمد العالم أقام سوقاً نافقة للعلم والأدب ، وجع عليه من أهل الفضل والنباهة كلّ عالم نحري وأديب شهير ، وفي أيام خلافته عن والده بإقليم سوس ، قصدته الوفود من تلك النواحي النائية الضاربة في جنوب المغرب وصحرائه ولا سيما إقليم شنجيط ، وكان هذا الاقليم يتمخض عن حركة أدبية قوية ، فمدحه شعراؤه بما طال العهد يمثله من الشعر الفحل ، واطلع الناس بسبب ذلك على ما كان يجنوب المغرب من نهضة علمية مباركة ، وخاصة في علوم اللغة والآداب . وفي الحقيقة ان مولاي محمد العالم كان شخصية أدبية فذة ، وله آثار شعرية ونثرية فريدة ، ولولا خلافة على أبيه الذي أودى بحياته لكان أسدى الى المغرب أيادي بيضاء من حيث البعث والتجديد في ميدان المعارف والفنون .

وعلى هذا السنن جرى المولى محمد بن عبد الله الذي كان دائم الاستصلاح للحالة العلمية والاستنهاض لهمم العلماء ، كي يجاروا الزمن في تطوره ، ويلبسوا لحاله لبوسها ؛ بل كان قد مضى الى أبعد من هذه الغاية فأراد أن يمثّل دور يعقوب المنصور الموحد في القضاء على علم الفروع ، وعلم الكلام معاً ، والعناية بنشر كتب السنة وتعويضها من كتب الفقه .

وبالفعل فقد بعث بأوامره في هذا الصدد الى كافة علماء المغرب ، وألزمهم بالتباعها والتدقيق في تنفيذها ، الا انه لم يشتط في ذلك اشتطاط يعقوب المنصور فلم يحرق الكتب التي أمر بنبذها ، ولم يحرق النظر في كتب الخلاف عموماً ، وانما أمر بالرجوع الى الأمّهات التي منها الاستمداد ؛ وعليها الاعتماد مع عدم الاقتصار عليها والإعراض عن كتاب الله وسنة رسوله اللذين هما المرجع الأول والأخير لأحكام الشريعة .

وألف بنفسه عدة كتب زاج فيها بين الأصول والفروع والنصوص الفقهية والحديثية ، منها كتاب مسانيد الأئمة والفتوحات الإلهية ، وذلك لينهج العلماء

طريق العمل سواء في التدريس أو التأليف ، وكان يَصِفُ نفسه في أوائل كُتُبِهِ ؛ فيقول المالكي مذهباً الحنبلي اعتقاداً مؤكداً عدم أخذه بطريقة الأشاعرة في العقائد ، وكانت هي الطريقة المعتمدة في المغرب منذ العصر الموحيدي ، وفي الأوامر التي كان يُصدرُها بشأن تنظيم الدراسة في القرويين كثيراً ما أشار الى الاختصار في علم الكلام على عقيدة ابن أبي زيد القيرواني التي ضمنها رسالته المعروفة ، وهي عقيدة سلفية خالية من التأويل الذي يمتنعُ اليه الأشاعرة كما نبهنا على ذلك مراراً .

ولنُشَبِّهَ هنا نصَّ المنشور الذي أصدره بهذا المعنى سنة ١٢٠٣ لتتمثل في ذهن القارئ صورةً جليئة عن حالة التعليم في أوائل هذا العصر التي لا تختلف عما وجدناها عليه في زماننا هذا ، وما كانت تتطلبُه من الإصلاح الذي أدخل عليها المولى محمد بن عبدالله كثيراً منه قبل النهضة الحديثة بنحو المائة والخمسين سنة ، ولفظه بعد الافتتاح : « ليعلم الواقفُ على هذه الفصول ، أننا أمرنا باتباعها والاختصار عليها ولا يتعدها الى ما سواها : »

الفصل الأول : في أحكام القضاة ، فان القاضي الذي ظهر في أحكامه جور وزور وما يقربُ من ذلك من الفتاوى الواهية مثلُ كَوْنِها من كتب الأجهورية^١ ولم يبلغ سَنَدُها الى كتب الأقدمين فان الفقهاء يجتمعون عليه ويعملونه عن خطة القضاء ولا يحكم على أحد أبداً .

الفصل الثاني : في أئمة المساجد ، فكلُّ إمام لم يرضه أهلُ الفضل والدين من أهل حوْمتَيْه^٢ يعملونه في الحين ويأتون بغيره ممن يَرْضُون إمامته .

الفصل الثالث : في المدرسين في مساجد فاس ، فإننا نأمرهم أن لا يدرسوا الا كتابَ الله تعالى بتفسيره وكتابَ دلائل الخيرات في الصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومن كُتُبِ الحديث المسانيد والكتبُ المُستخرَجة منها والبخاري ومساها من الكتب الصَّحاح ، ومن كتب الفقه المدونة والبيان والتحصيل ،

١ المراد بها شروح المختصر الحنبلي للشيخ على الأجهوري وتلامذته الخريفي والشبرنجي ، والزرزقاني فقد حذّر الفقهاء من الاعتناء عليها لكثرة أغلاطها الا ما سله عشوها .

٢ أي أهل حيه الذي يسكنه .

ومقدمة ابن رشد والجواهر لابن شاس والنوادر والرسالة لابن أبي زيد وغير تلك من كتب الأقدمين، ومن أراد تدريس مختصر خليل فانما يدرسه بشرح بهرام الكبير والمواق والحطّاب والشيخ علي الأجهوري والحرشي الكبير لا غير . فهذه الشروح الخمسة بها يُدرس خليل مقصورا عليها ، وفيها كفاية ، وما عداها من الشراح كلها يُنبذ ولا يدرس به ، ومن ترك الشراح المذكورين ، واشتغل بالزرقاني وأمثاله من شراح خليل يكون كمن أهرق الماء واتبع السراب . وكذلك قراءة سيرة المصطفى صلى الله عليه وسلم كالكلاعي وابن سيّد الناس اليعمري ، وكذا كتب النحو كالنسيب والألفية وغيرهما من كتب هذا الفن ، والبيان بالإيضاح والمطول ، وكتب التصريف ، وديوان الشعراء الستة ، ومقامات الحريري ، والقاموس ولسان العرب وأمثالها مما يُعين على فهم كلام العرب لأنها وسيلة الى فهم كتاب الله وحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ونasihك بها نتيجة . ومن أراد علم الكلام فمقيدة ابن أبي زيد رضي الله عنه كافية شافية يستغني بها جميع المسلمين . وكذلك الفقهاء الذين يقرأون الأسطرلاب وعلم الحساب فيأخذون حظهم من الأحباس لما في تلك من المنفعة العظيمة والفائدة الكبيرة لأوقات الصلاة والميراث ، وعلى هذا يكون العمل إن شاء الله .

ومن أراد أن يخوض في علم الكلام والمنطق وعلوم الفلاسفة وكتب غلاة الصوفية وكتب القصص فليتعمّد ذلك في داره مع أصحابه الذين لا يدرون بأنهم لا يدرون ، ومن تعاطى ما ذكرنا في المساجد وآلته عقوبة فلا يلومنّ الا نفسه ، وهؤلاء الطلبة الذين يتعاطون العلوم التي نهينا عن قراءتها ما مُرادهم بتعاطيها الا الظهور والرياء والسّمعة ، وأن يضلّوا طلبة البنادية فانهم يأتون من بلدهم بنية خبالة في التفقه في الدين وحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم . فحين يسمعونهم يدرسون هذه العلوم التي نهينا عنها يظنون أنهم يحصّلون على فائدة بها فيتركون مجالس التفقه في الدين واستماع حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم وإصلاح ألسنتهم بالعربية فيكون ذلك سبباً في ضلالتهم . ، اه باختصار وتصرف يسير

وبالتأمل في فصول هذا المنشور يظهر ما كان للمولى محمد بن عبد الله من النية الحسنة في إصلاح حالة التعليم مما لو استمر العمل به الى الآن لكان له نتائج طيبة ، لكن أبطله من بعده وكلدّه مولاي سلطان لاختلاف وجهة نظره عما كان برا

والِدُهُ ، فرجع ما كان الى ما كان . ثم عاد المولى عبدُ الرحمن بنُ هشام فجَدَّدَهُ في الجملة بمنشور آخر وان لم يكن له مفعول في صرف العلماء عن طريقتهم وكتبهم المفضلة ، وعلى كل حال فقد كان لهذا المنشور تأثيرٌ ظاهر في إحياء علوم التفسير والحديث ، وإذكاء الرغبة فيهما لا سيما وقد كان للمولى سليمان غبطة كبيرة في التفسير مما كان باعثاً على مزيد الاعتناء به . وفي أيامه نبغ المفسر الكبير الشيخ الطيب بن كيران . كما نبغ في الحديث الحافظ أبو العلاء العراقي ، وتأثر الفقه أيضاً بروح المنشور فانتعش بعد الانتكاس ، وسرت فيه نسمة الحياة فلم يبق قاصراً على نصوص الفقهاء المجرّدة ، وأقوال الخلافيين غير المسندة ، وذلك بفضل انتشار كتب السلف والاطلاع على آثار الأقدمين مع حُسْنِ النظر في الكتاب والسنة . والفقهاء النابغون في هذا العصر لا يأخذهم الحصر ، إنما نحن نشير لمن كانت لهم يدٌ ظاهرة في تجديد رسوم الفقه ، ولا يزال تأثيرهم على العقول قوياً ظاهراً حتى وقتنا هذا كأبي علي بن رَحَّال والبُثَّاني والرُّهُوني .

وهؤلاء هم ممن ثبتت لهم المشاركة في باقي علوم الشريعة أيضاً ، فلا يُفهم من كلامنا أنهم كانوا قاصرين على الفقه ، ولا حاجة الى القول انهم كانوا متضلعين في العلوم الآلية أيضاً ، إنما لا بد من القول إن هناك آخرين كانوا في هذه العلوم مَقْطُوعِي القَرين ، ومن تلقى رايثها باليمين وهؤلاء كأحمد بن مبارك اللمطي وأبي العباس الهلالي وأبي حفص الفاسي ؛ وفي اللغة والنحو بالخصوص نبغ أفراد كثيرون لا يقصرون عن نبغاء المصور المتقدمة في هذين العلمين ناهيك بابن الطيّب الشرقي وابن بُونة وابن زكري .

أما فيما عدا ما ذكر من العلوم الأدبية ، فإن التاريخ والجغرافية لم يكن حظُّهما من الانتشار بأقلّ من أي علم آخر ؛ فالكتب التي ألّفت في تاريخ الدولة الشريفة وتراجم علماء هذا العصر تمدُّ بالعشرات وكذا الرِّحلات وكتبُ الأنساب . وإذا ذهبنا نعدُّ مَنْ كَتَبَ في هذا الموضوع طال بنا المجال فلنقتصر على تسمية بعض الأفراد كالإفراني وابن الطيب القادري والزَّيَّاني والكَتَّانوس .

بقي الكلام في العلوم العقلية ونقول انها كالسابق ، كانت منتشرة بمقدار وبعض الرياضيات كالحساب والهيئة كان الاعتناء بها أكثر ، وألّفت فيها كتب عديدة .

والطب أيضاً لم يَعدَم من كان مَعْنياً به ، ومن ألف فيه من رجال هذا العصر ، وقد كان من المبرزين في العلوم العقلية والكونية على العموم أبو زيد الفاسي وابن سليمان الرُّوداني وأحمد بن مبارك اللطفي وبرع في الطب بالخصوص عبد الوهاب أدراَق وعبد القادر ابن شقرون وعبد الله بن عزُّوز المراكشي .

ولا ننسى أنه في هذا العصر وقَّع تسجيلُ الموسيقى الأندلسية باعثناء المتفننين البارع محمد بن الحسين الحائِك الذي ساء ما آل اليه حالُ هذه الموسيقى من الضياع ، فعمل على انقاذها بوضع كُنْشَاتِهِ الشهيرة باسمه ، الحاوية لجميع الأغاني التي تتكوَّن منها النوباتُ أي القِطْعُ الموسيقية الإحدى عشرة التي بقيت من الطرب الأندلسي ، وهي رمل الماية ، الاصبهان ، الماية ، الرُّصد الذَّيْل ، الاستهلال ، الرُّصد ، غريبة الحسين ، الحِجاز الكبير ، الحِجاز الشرقي ، عراق العَجَم ، العُشاق . ثم نظمتها بحسب تلك النوبات وأشار في ملاحظات هامة الى بعض الفروق والاختلافات بين تلك الأغاني وكيفية استعمالها ، فحفظ بهذا العمل الهيكل العام لهذه الموسيقى وكان ذلك هو التسجيل الأول لهذا الفن الأندلسي الرفيع .

وما دُمنا أشرنا الى الفن وبعض مظاهر نشاطه ، فلنذكر أنه في هذا العصر أيضاً وقع تفنن كبير في تحسين الخط المغربي وما يرجع اليه من الزخرفة الكتابية وجدولة الكتب الملوَّنة والتسنيق في وضع التراجم المذهبية . وتقرَّرت الأصول الفنية لأنواع الخطوط حتى وُضعت لها الأسماء الأعلام التي تُميِّز بعضها عن بعض كالبنسوط الذي تكتب به المصاحف القرآنية ، والمُجوهر الذي يُستعمل في كتابة المراسم السلطانية ونسخ كتب الحديث الشريف وما الى ذلك والمُسند الذي تُنسخ به الكتب العلمية وغيرها . وقد امتازت بجودة الخط وجمال بعض المدن كفاس ومكناس وسلا وبعض القبائل كالأخاس التي عُرف أهلها بحسن الخط ، وكتبوا المؤلفات العديدة التي بقيت شاهداً على ما كان لهذه القبيلة من ماضٍ علميٍّ زاهر . ويلحق بالخط المغربي الأرقام الحسابية المعروفة بالعُباري وبحرف القُبار وهي التي تسميها الكتب الافرنجية الأرقام العربية (*Les chiffres arabes*) ولا تُستعمل الا في بلاد المغرب من الوطن العربي على أنها منتشرة في جميع أقطار العالم .. ويُقال إن أول من أدخلها الى أوربا هو البابا سيلِستِر الثاني وكان ممن أخذ العلم ببلاد الأندلس والمغرب . ومع العلم بأنها عربية قطعاً لا ندرى أول من استعمالها ولعلها من اختراع

عرب المغرب ، ولعل الفُبَّاري الذي تَحْمِلُ اسمه هو مُخترعُها ، وأقدمُ نصٍّ رأيناه ذكرها بهذا الاسم كتابُ لابن الياسمين تقدم ذكره في العصر الموحدي . ونحن انما أشرنا إليها هنا على سبيل جمع النظائر ، فهي والخطُّ المغربي مما تتشخصُ به الثقافة العربية في هذه البلاد ، وللقول بأن هناك أرقاما أخرى كانت تُستعمل عند المؤثِّقين خاصة في قَسَم التثَرِّكات وحساب المُخَارَجات ؛ وربما استعملت في المحاسبات العادية وترقيم صفحات الكتب ، ويقال لها القَلَمُ الفارسي . ولئن لم نجزم بأن حرف الفُبَّار من اختراع أهل المغرب فلا نشكُّ في أن القلم الفاسي من ابتكار المغاربة وأهل فاس بالخصوص وهو لذلك يُشَبِّهُ الخطُّ المغربي في أشكاله الهندسية ويُسَاطِرُهُ في جمال الوضع وحسن الهندام . ويقال إنه مأخوذ من القلم الرُّومي القديم ، ذكره الشيخُ أحمدُ سُكَيْرُج في تَأْلِيْفِهِ له في صفة أشكال القلم الفاسي . على أن القلم الرومي نفسه يُشَبِّه في بعض أشكاله الخطُّ المغربي ، فأمرُهُ مُشْكِلٌ . ونظنُّ أنه دخله أيضاً تحويرٌ ليحصل الانسجامُ بينه وبين الكتابة العربية للعِلْمِ بأن الأرقام الرومانية كانت من الكثافة بحيث تركها أهلها لحرف الفُبَّار .

والذين أَلْفَوْا في القلم الرومي من اطلعنا عليهم كالعلامة أبي عبد الله محمد بن أحمد الصباغ لم يذكروا شيئاً عن كيفية اقتباسه وإنما كان وكندهم أن يطبقوه على العمليات الحسابية المعروفة والمعدودات المغربية من الرُّطل والأوقية والمِثقال وما إلى ذلك .

والخلاصة أننا بازاء ثلاثة أنواع من الأرقام : (الفُبَّاري) وهو الشائع المأخوذ به في عموم الأعمال ومن جميع الطبقات (والفاسي) وكان خاصاً ببعض الأعمال وبعض الطبقات (والرُّومي) وقد انقرض قديماً وخلقهُ الفاسي . والموضوع بحاجة إلى دراسة فنية من بعض فوائدها الوقوف على ما كان لأسلافنا رحمهم الله من رسوخٍ في العلوم الرياضية وابتكارٍ في أساليبها ونظرياتها .

وفي أعقاب هذا العصر وبالضبط في أيام السلطان محمد بن عبد الرحمن أُسِّسَتْ المطبعة الحجرية بفاس وجعلت تُخْرِجُ كتب العلم القيمة بخطوطٍ ممتازة وتصحيح كامل ، وهي التي ما تزالُ لحد الآن قِنْدَ البصر وبهجة النظر تتنافسُ فيها الناس ، ويكفي أن يقول الشخص أن هذا الكتاب مطبوع بالمطبعة الحمديدية ليُصْبِحَ عِلْقَ مَضْنَةٍ وذخيرةٍ من ذخائر الخزائن العلمية الممدودة .

هذه 'خلاصة' الكلام عن الحركة العلمية في هذا العصر ، وترى أن ليس بينها وبين ما كانت عليه في العصر السابق كبير فرق إلا في التوسع الذي يقتضيه طول هذا العهد ، ولذلك اختصرنا الكلام فيها على أن هذه التنبؤة مع اختصارها حاوية لأمم ما تجب معرفته من ذلك ، وبقي الكلام على مساهمة المرأة في هذه الحركة وهي مساهمة تامة برغم ما ينقصنا من معلومات في هذا الشأن .

وأول من نذكر من السيدات المبرزات في ميدان المعارف الإسلامية السيدة خنيفة بنت بكّار زوج السلطان مولاي اسمعيل وأمّ ولده السلطان مولاي عبد الله ، كانت فقيهة عالمة ، بارعة أدبية ، خيرة دينة ، لها كتابة على الإصابة في معرفة الصعابة ، لابن حجر ، وكان لها كلام ورأي وتقدير مع السلطان ومشاورة في بعض أمور الرعية فانها كانت له وزيرة صدق وبطانة خير كما قال الوزير الإسماعلي في رحلته . وكانت قد توجهت الى الحج في أيام وكدها مولاي عبد الله ، وصحبها حفيدا سيدي محمد بن عبد الله وحاشية كبيرة من جملتها الوزير المذكور الذي كتب رحلته بهذه المناسبة ، فقوبلت بحفاوة عظيمة من أهل الحرمين الشريفين وفرقت هناك على المحتاجين وذوي البيوتات ما يزيد على مائة ألف دينار وأكرمها العلماء ومدحها الشعراء . ومن جملة ما مدحت به قصيدة للشيخ محمد بن علي بن فضل الحسيني الطبري إمام المقام الابراهيمى استهلها بقوله .

غنى على عود الشعوب هزارى وشدا على الأوتار بالأوتار

ويقول في أثنائها :

فاحت بها أرجاء مكة رغبة ومحبة من سائر الأخيار
وهي الحقيقة بالجلالة في الورى فجلالة الأضياف ليس بعار

توفيت ربحها الله بفاس سنة ١١٥٩ . ثم نذكر السيدة زوج الشيخ سيدي المختار الكنتي التي كانت أيضاً من العالمات الفاضلات ، وقد ختمت المختصر القليل الذي كانت تدريسه للنساء في اليوم الذي ختمه زوجها بحجة أخرى حيث كان ساجداً

مجلسه للرجال ، وألّف ولدُهما أبو عبد الله محمد في ترجمتها كتابَه الطَّسْرِيفَة والتَّسَالِدَة في مناقب الشيخ الوالد والشيخة الوالدة .

ونبغت في نظم الشِّعر السيدة مريم الشُّقْراوية الشَّنْجِييَّة ، واشتهرت به وكانت تمدح أكابر العلماء ويمدحونها حتى بكَّتْهَا أحدُ الشيوخ فأمسكت .

وفي مَيدان التعليم الأوَّلِي كان هناك معلِّمات يقُمن بتعليم البنات والأولاد الصغار الكتابة والقراءة والقرآن الكريم ومبادئ العلوم الضرورية ، فلم يكن يخلو حي من أحياء المدن الكبيرة من « دار فقيهة » تُعتبر بمثابة مدرسة أولية ، ولقد أدركنا نحن منها العشرات مما يدلُّ على ما كانت المرأة المغربية تقوم به من دور عظيم في نشر المعرفة وتثقيف النساء .

وهناك نوعٌ آخر من التعليم وهو التربية الدينية ، وكان للنساء بها اهتمام كبير ، إذ كان بعضهنَّ ينتَصِبْنَ لتلقين النساء المتقدِّمات في السنَّ واجباتهن الدينية ، ويندُبْنَهنَّ إلى التوبة ويعلمنَّهنَّ بعض الأدعية والأذكار ممَّا يقومُ به شيوخ التصوُّف ، وقد أدركنا نحن الكثيرات من السيدات اللاتي كنَّ ينهضن بهذه المهمة الروحية خيرَ نهوض ، وبذلك كان النساء على جانب عظيم من العفاف والطهارة وحُسن التبعل ، وكانت السعادة الزوجية تغمُر البيت والأسرة والمجتمع بالرضى والطمأنينة والحبور ، والله عاقبةُ الأمور .

الهَيْئَةُ الْعِلْمِيَّةُ وَأَثَرُهَا

لا يتسع لنا المجال للاتيان على تراجم أعيان علماء هذا العصر كلتهم ، لأن عددهم كثير ، فنكتفي بأكبر عدد يمكن ذكره في هذا المختصر مُتَعَلِّلين بأن بين يدينا مجالاً فسيحاً في كتاب (ذكريات مشاهير رجال المغرب) وكتاب (شخصيات مغربية) حيث نوفيتهم جميعاً حقهم ، ونكفّر عن ذنب إغفال من لم نذكره ها هنا والله سبحانه الموفق . وقد سرنا في ترتيبهم على حسب سني وفياتهم لا على ترتيب العلوم ، لأن ذلك أدعى لعدم ظن التحيز وما اليه ، فليغتفر لنا القارئ المتنصف ذلك .

ابنُ نَاصِرٍ

أبو عبد الله محمد بن ناصر الجعفري الزينبي دفين دُرْعَةِ ، الإمام جبلُ السنتِ وشيخ أهل العلم والعمل في عصره . كان له مشاركة في علوم الشريعة وعلوم العربية ، وله قدّمٌ راسخ في التصوّف ، شديد الاتباع للسنّة في سائر أحواله ، حتى في لباسه وطعامه ، سالكاً في ذلك سبيل المرّجاني وابن أبي جرة وابن الحاجّ صاحب المدخل . وقام بمهمة الإرشاد والتعليم فهدى الله به خلقاً لا يحصّون ، وكان لاخلاصه ونصحه إذا وعظَ أثرَ وعظّه في النفوس ، وإذا تكلم انتقش ما تكلم به في قلوب سامعيه .

وقد سافر للحج مرتين فكثُر الآخذون عنه شرقاً وغرباً وهو ممدوح أبي علي اليوسي بقصيدته الدالية المشهورة . وله رسائل جامعة لوصايا ونصائح غالبية من غير تكلف ولا تمعّل ، وغير ذلك . وتوفي عام ١٠٨٩ رحمه الله .

عَبْدُ الْقَادِرِ الْفَاسِي

أبو محمد عبد القادر بن علي بن يوسف الفهري ثم الفاسي ، به شهرٌ هو وأهل بيته ، الإمام العالم العَلَم ، بركة فاس وحجّة المغرب في عصره ، وُلد بالقصر

الكبير سنة ١٠٠٧ وبه نشأ ، ثم رحل الى فاس في طلب العلم واستقر بها وتصدّر للتدريس فعظمُ النفع به ، وكثُر الأخذ عنه ، وقد وقّع الأطباق من مشائخ عصره على تحقيقه بسائر العلوم . ولا تجد عالماً أو متعلماً إلا وهو من تلامذته أو تلامذتهم .

وكان متمسكاً بالسنة ، ورعاً زاهداً ، له قدمٌ راسخ في العبادة وقيام تام على نوافل الخير . ومع سعة علمه وطول باعه في الفنون ، لم يؤلف كثيراً وإنما ترك بعض آثار هي بالنسبة لعلمه الغزير كفيض من فيض ، ونقطة من بحر ، وهي العقيدة والفقهية المشهورتان ، وأجوبة مسائله ، ونحو ذلك ، وتوفي سنة ١٠٩١ هـ .

الرّودانيّ

أبو عبد الله محمد بن سليمان الرّودانيّ السّوسي ، العلامة الجامع الفيلسوف الفلكي البار . وُلِدَ ببتارودانت سنة ١٠٣٧ وبها نشأ . وحين بلغ سن الرشد تأقت نفسه للتعليم فخرج وقرأ بدرعة . ثم رحل الى سجلماسة ومراكش فأتقن طرفاً من علم الحكمة والهيئة والمنطق ، إلا أنه لم يقض وطره من ذلك ؛ فرحل لفاس بقصد تتميم الدراسة ، ثم سار الى الجزائر فأخذ بها عن شيوخها وحج وجاور بالمدينة المنورة وأخذ عن علماء مصر والشام ؛ فامتلاً وطابه من المعارف ، وأصبح كما يقول المصنف في الخلاصة فرد الدنيا في العلوم ، المالك للمجهول منها والمعلوم وكانت له يدٌ صنّاع في كثير من الحرف والصنائع ، كالطُرُز المعجيب والتفسير والخِرَازة والصياغة وجبر قوارير الزجاج المكسرة وعمل الاسطرلاب ، وابتدع آلة نافعة في علم التوقيت والهيئة لم يسبق اليها ، وهي كرة مستديرة الشكل مُنعمّة الصقل مدهونة بالبياض المموّه بدهن الكتان يحسبها الناظر بيضة من عسجد لاشراقها مسطرة كلّها دوائر ورسوم ، قد ركّبت عليها أخرى مجرّفة منقسمة نصفين ، فيها تخاريم وتجاويف لدوائر البروج وغيرها ، مستديرة كالتى تحتها مصقولة مصبوغة بلون أخضر ، فيكون لها ولما يبدؤ من التي تحتها منظر رائق وهي تغني عن كل آلة في فن التوقيت والهيئة ، مع سهولتها لكون الأشياء فيها محسوسة والدوائر المتوهمّة مشاهدة وتخدم لسائر البلاد على اختلاف أعراضها وأطوالها . وقد ألف هو رسالة

بيتن فيها كيفية استعمالها وكيفية صنعها فراجعها إن شئت في الرحلة العياشية وبالجملة فهو أحد حكماء الاسلام وجهابذة الأعلام ، ويقدر ما كان متضلعا في العلوم الحكيمية كان متمكنا في علوم الأدب والشريعة ، وألف كتباً مفيدة منها منظومة في علم الميقات خالف فيها كثيراً من مذاهب أهل هذا العلم وشرحها ؛ ومنها صلة السلف بموصول الخلف وهو فهرس جامع قل أن يكون له نظير . وتوفي بالشام عام ١٠٩٥ .

عبد الرحمن الفاسي

هو أبو زيد عبد الرحمن بن عبد القادر الفهري الفاسي العالم المشارك المتفان ، مفخرة بيته وناديرة وقته ، ولد سنة ١٠٤٠ ونشأ في حجر والده فحفظ القرآن في سن مبكرة جداً . ثم أكب على تعاطي العلم فلم يلبث أن صار فرداً متحققاً بسائر العلوم العقلية والنقلية التي تدرس في القرويين ؛ فضلاً عن علوم العربية والأدب والفقه والحديث كان له مشاركة في العلوم الفلسفية والطبيعية والرياضية من حساب وجبر وهندسة وطب وكيمياء ومنطق وما إلى ذلك ، وألف في هذه العلوم كلها كتباً منظومة ومنشورة ، وضمن المنظومة منها كتابه المسمى بالأقنوم في مبادئ العلوم الذي يعدّ دائرة معارف العصر ، تكلم فيه على نحو مائة وخمسين علماً ؛ فاستوفى حدودها ، واستوعب نظرياتها بأوجز عبارة وأحسن إشارة . وله في الفقه نظم العمل الفاسي وهو مجهود قيم تم به ما كان الامام الزقاق قد ابتدأه في لاميته ، من جمع المسائل التي جرى العمل بها في الأحكام الشرعية ، مراعاة للاعراف والظروف ، وإن لم تكن من الراجح ولا المشهور ، فأربى عليه واتسع في ذلك بما لا غاية بعده . وفي السيرة له مفتاح الشفا ، ذيل به شفاء القاضي عياض وجوده وأتقنه جداً . وله غير ذلك مما يذكر في موضعه . وتوفي سنة ١٠٩٦ .

أبو علي اليوسي

أبو علي الحسن بن مسعود اليوسي ، نسبه إلى أيت يوسي ، قبيلة في عداد

بربر مملوكة ؛ نابغة علماء هذا العصر ومن أفضل المتحققين بالعلوم العقلية والنقلية على سبيل العموم . تخرج بأهل الدلاء وجال في المغرب ؛ فدخل سجنامسة ودرعة وسوس ومرأكش ودكالة وأخذ بها عن مشائخ عدة ذكرهم في فهرسته ؛ ثم القى عصا التسيار بالزاوية الدلائية ، فعكف فيها على نشر العلم حتى أوقع مولاي رشيد بأهلها ، فنقله الى فاس . وهناك أقبل اليه طلبة العلم وتزاحوا على بابهِ ، فتصدّر للتدريس بالقرويتين فلم يتخلف عن مجلسه الا القليل من منافسيه .

ثم خرج الى البادية فاستوطن قبيلته ، ودرّس بها العلوم الدينية والأدبية ، فانتشرت عنه فنون المعارف في قبائل المغرب ، ولم يألُ جهداً في التعليم والارشاد والاصلاح والتذكير ، إذ كان على قدّم السلف الصالح في حُسن الهدي واقامة شعائر الدين حتى قال فيه عَصْرِيْهُ العلامة أبو سالم العياشي :

مَنْ فَاتَهُ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ يُدْرِكُهُ فَلْيُصْحَبِ الْحَسَنَ الْيُوسِيَّ يَكْفِيهِ

وكان أبو علي أديباً عبقرياً راويةً للشعر ، يستحضر ديوان المتنبي وأبي تمام والمعري وقصائد كثيرة لغيرهم ، كل ذلك على طرَف لسانه . وهو نفسه شاعرٌ مجيدٌ مكثّر ، الشعر عنده أسهل من النَّفْس ، بل كانت يقول : لو شئتُ أن لا أتكلّم الا بالشعر لفعلتُ . وديوان شعره معروف ، وقد عملناُ منتخباً منه . وله كتاب المحاضرات وزهر الأكمس في الأمثال والحكم والقانون في ابتداء العلوم ، وكلها كتب نفيسة مفيدة وغيرها . وتوفي سنة ١١٠٢ هـ .

المسناوي

أبو عبدالله محمد بن أحمد المسناوي الدلائلي الفاسي العلامة الكبير أحد أركان الكلية القروية ومن نفخ فيها روح التجديد ، وقام بنهضة علمية صحيحة ، كان راسخ القدم في علوم العربية والفقه والحديث والتفسير والكلام ، آية في الحفظ والأتقان ، قد أعطيَ الملكة العجيبة في التدريس والعارضة القويّة في الفتوى فأصبح الحجّة الذي لا يُنقَضُ قوله ، ولا يكون الرجوع إلا إليه ، على أنه كان يتعرّى الجواب

في مسائل النكاح والطلاق توزعاً منه وخيفة التورط في أمر استحلال الفروج ، وإما كان غالب أجوبته في مسائل الاعتقاد وأحوال المعاش والمعاد ، وانتصر لسنة القبض في الصلاة في ذلك الوقت الذي كان جلُّ الاعتماد فيه على الفرعيات المنقولة عن علماء المذهب ، من غير رجوع إلى الأصول الثابتة والسنة الصحيحة ؛ فكان ذلك من أعلام تجديده وترفعه عن التقليد والأخذ بالملسّمات . أخذ عن عبد القادر الفاسي والحسن اليوسي وعبد السلام القادري وأضرابهم وأخذ عنه ابن الطيّب الشرقي وكثيرون غيره . وكان عظيم الهيبّة حسن السمت ، بادي الوقار ؛ كريم الأخلاق ، متحيباً إلى الناس بهيَّة الطلعة ، يود رائيّه أن لا يحذر منه طرفه . ألف رسالة نصره القبض والرد على من زعم عدم مشروعيّته في النفل والفرض ، وصرف الهيمّة إلى تحقيق معنى الذمّة ، والقول الكاشف عن حكم الاستنابة في الوظائف وغير ذلك . وكانت وفاته عام ١١٣٦ .

أبو علي بن رَحَال

أبو علي الحسن بن رَحَال المَعْدَانِي المكناسي ، حافظ المذهب المرجوع إليه في الفتوى والقضاء . كان له اتساع عظيم في النوازل ، وعارضة قوية في الفقه ، تولّى تدريس المدرسة المتوكلية من طالعة فاس فكان يجلسُ عند طلوع الشمس ويتأدّى إلى الزوال ، لا يضجّر ولا يملّ مع كثرة ما يُلقى إليه من الاسئلة والأبحاث ؛ فيُجيب لا يعجزه شيء من ذلك ، حتى دُعي صاعقة العلوم ، وقد ولي قضاء فاس الجديد وقضاء مكناس وبها توفي في رجب سنة ١١٤٠ هـ . له شرح عظيم على المختصر في ستة عشر مجلداً وحاشية على شرح الخرشبي عليه ، وحاشية على شرح ميارة على التُّحفة ، وكتب أخرى في مسائل مختلفة وهي كلّها في غاية التحرير والاتقان والجمع والتحصيل . ويحدثنا ابن الطيّب القادري عن أخلاقه فيقول : إنه كان كثير الإنصاف ، شديد التواضع ، سليم الصدر ، كريم النفس ، بعيداً عن التصنّع ، مصيباً في كلامه ، مفضلاً جواداً ؛ وكان كثير العيال والأولاد ، لأنه مطلقاً مزواجاً ، عظيم النفقة لذلك ، رحمه الله .

الإفدائي

أبو عبد الله محمد الصغير الإفرائي المراكشي ، العلامة المؤرخ الأديب ، صاحب المتن على التاريخ المغربي والأدب بتأليفه المفيدة ، التي منها نزهة الحادي بأخبار ملوك القرن الحادي ؛ وهو في تاريخ الدولة السعدية وصدر دولتنا العلوية ، ومنها صفوة ما انتشر من أخبار أهل القرن الحادي عشر في تراجم الأعيان ، ومنها المغرب في أخبار المغرب والمسلك السهل في شرح توشيح ابن سهل وغيرها . والحق أن كتبه سدت قلة في التاريخ المغربي ، لولاه لبقينا منها في حيرة شديدة ، فهو من أولئك الأفراد الذين بلغوا للاحفاد مآثر الأجداد بأمانة واجتهاد . توفي رحمه الله في حدود سنة ١١٤٠ هـ .

ابن زكري

أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن بن زكري الفاسي العلامة المحقق المشارك المدقق . كان في أول نشأته يمتحن الدبابة ، وكان يحضر مجالس العلم الليلية ؛ فيعي كل ما يسمع ؛ ثم تفقده شيخه في بعض الأيام فقال إني تأخرت في دار الدبغ فقال له لا تعد إليها ، ورغب إلى أبيه أن يحرص على تعليمه فانه أولى له ؛ فأكب على الدرس حتى أدرك ما أدرك ونبغ في العربية نبوغاً فائقاً وفي الفقه والحديث والتفسير والتصوف والأدب فلم يكن يقنع له بالشئان في كل ذلك . وألف تأليف محررة تشهد بطول باعه وكثرة اطلاعه ، منها شرح الفريدة للسيوطي في النحو ، جوذة غاية ، وشرح البخاري ، وشرح النصيحة الزرؤية ، أبدأ فيه وأعاد . وله الهزمية التي عارض بها همزية البوصيري في المديح وشرحها في جزئين ، وكتاب في ذم النظرية العنصرية من قبيل كتاب ميارة في الموضوع ، سماه الفوائد المتبعة في العوائد المستدعة وغير ذلك .

وكان لابن زكري ثروة طائلة فكان يُواسي بها الفقراء ، ويُكثير من ضرائف

المعروف عند الناس ، وكان له 'جُلساء' من ذوي اليسار ، فكان يحضُّهم على الصدقة وفعل البرّ كثيراً ، وترجته واسعة ، ولزبّادي فيه كتاب سماه العرف الشّحري في بعض فضائل ابن زكري . ومما مَدَحَ به قولُ العَلَوِيّ شاعر شنجيت :

وَأَنْتَ ابْنُ زَكْرِيٍّ إِمَامٌ مُحَقِّقٌ تَفَرَّدْتَ فِي الْعِلْمِ بِدُونِ شَبِيهِ
إِذَا غُصَّتْ فِي بَحْثٍ خَلَصْتَ بِدُرِّهِ وَجَلَّيْتَ عَنْ سَفْسَافِهِ وَرَدِيهِ
يَمْدُكَ فِي اتِّقَانِ عِلْمٍ تَبَثُّهُ قِيَاسُ أَصُولِيٍّ وَنَصُّ فَقِيهِ
وَقَالَ الَّذِي أَبْدَاكَ كَالنَّجْمِ يَتَّقِي بِهِ الْغَيَّ مَنْ يَبْغِي الْهُدَى وَيَعِيهِ
توفي ابن زكري سنة ١١٤٤ هـ .

عَبْدُ الْقَادِرِ بْنِ شَقْرُون

هو أَبُو النَّصْرِ عَبْدُ الْقَادِرِ بْنِ الْعَرَبِيِّ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ عَلِيٍّ بْنِ شَقْرُونِ الْمَكْنَسِيِّ ، الطبيب الماهر المتفنن . كان ذا براعة في صناعة الطب ، متصدراً للتعليم والعلاج ، أقرّ له الجميع بالتفوق في ذلك وحُسن التصرّف ، فلم يَنَازِعْهُ أَحَدٌ . وهو في الأدب فاضل مجيد ، ينظم الشعر البليغ ، ويُرسَلُ ترسلًا حسنًا - . رحل إلى المشرق فحجَّ وجال في تلك الديار مُتَطَلِّعًا مُسْتَفِيدًا ، ثم رجع واستقرَّ ببلده مكناس حتى توفي . وألّف كتاب النّفحة الوردية في العشبّة الهندية ، وكتاب منافع الأطعمة والأشربة والعقاقير ، ونظم الرّجزيّة المعروفة بالشَقْرُونيّة في الأغذية والأدوية وهي مشهورة ، ونظمها سلسٌ ، وتقع في زهاء ٧٠٠ بيت ، والمهمُّ أنها تتناول الكلام على طبيعة الأغذية المغربية المعروفة ، وتصفّ العلاج بناءً على ذلك فهي من الأعمال الطّبيّة الصادرة عن دراسة وخبرة تامّتين . وللمترجم لطائف أدبية نثبت بعضها في المنتخبات .

عبد الوهاب أدراق

هو الطبيب النطاسي الأديب أبو محمد عبد الوهاب بن أحمد أدراق بفتح الهمزة والدال وتشديد الراء بعدها الف ثم قاف ، وهو لقبُ أسرته الذي عُرفت به ، وكانت أسرة نبغ منها عدد من الأطباء واصلها من فاس . والمترجم هو أكبرهم قدراً وأشهرهم إسماء ، انتهت اليه رئاسة الطب في زمنه ، وبلغ في الصناعة مكانة عالية وكانت الملوك تُجلبه وتعظمه ، وكان الى معرفته بالطب أديباً بارعاً ونعويّاً متمكناً وفقياً نظّاراً .. أخذ عن اليوسي وطبقته ، وألف في الطب العامي والطب الشرعي تأليف منها أرجوزة ذبّل بها أرجوزة ابن سينا المعروفة في الطب ، وأرجوزة في حبّ الافرنج وهو الداء الزهري المعروف . وكتاب هزّ السّمهري على من نفى عيب الجذري . وله تعليق على كتاب النثره للشيخ داود الأنطاكي وغير ذلك . وتوفي رحمه الله عام ١١٥٩ ومُنّ يذكر من أطباء هذه الأسرة والد المترجم أحمد وقريبه محمد الذي دخل طنجة في عهد احتلالها من الانكليز بقصد مُلافاة الأطباء النصارى ورؤية الشخص الذي صوروه لتعلم التشريح مُعانةً

ابن عبد السلام بناني

أبو عبد الله محمد بن عبد السلام بناني النشغزي الفاسي الفقيه العلامة المُحدّث القدوة ، كان ذا مشاركة تامّة في العلوم ، وله إقبال عظيم على التعليم ، رحل الى المشرق وتقلّب في البلاد فحصلت له رواية واسعة ، وكان مائلاً الى التصوّف حسن الهدي حسن السمت ، وكثُر الانتفاع به وتخرّج على يده المشايخ الكبار كابن الحسن نسيبه والشيخ التّاودي والعلاّمتين قصّارة وبردلة وغيرهم . ألف شرح الاكتفاء في ستّة أسفار فطار كلّ مطار ، واشتهر أيّ اشتهار ، وألف غيره ، ولو لم يكن له إلا هو لكفاه . وبالجملة فقد كان من الرجال الكاملين والعلماء العاملين ، وقد أفرّدت ترجمته بالتأليف . توفي رحمه الله سنة ١١٦٣ هـ .

ابن الطيّب الشرقي

أبو عبد الله محمد بن الطيب الصّميلي الشرقي القاسي الإمام اللّغوي الشهير، ولد بفاس سنة ١١١٠ وأخذ عن جُلّة علماء كالمسناوي والوَجّاري وبثاني المذكور قَبْلَه وغيرهم ، وبرّع وفضل وصارَ إمامَ أهل اللغة في عصره غيرَ مُدافع . وكان له مُشاركة في سائر العلوم وروايةٌ واسعة . رحلَ الى المشرق فحجَّ ودرّس بالحرم النبوي ودخل الى الرّوم من طريق الشام ، ورجعَ من طريق مصر وأخذ عنه في الشام ومصر خلقٌ كثير . وله تآليف خدَم بها اللغة خدمةً جُلّى ، ورفع بها لبلاده مناراً أَسْنَى من النجم وأعلى ، منها حاشيتُة العديّة النظير على القاموس في أربع مجلّدات التي منها كان استمدادُ الشيخ مرتضى صاحب تاج العروس فإنّه أحدُ تلامذته الذين أخذوا عنه بالمشرق ، وهو يعترفُ في أول شرحه أن تخريجَه في هذا العلم كان على يد مُترجمينا . وله شرحُ نظم الفصح لمالك ابن المرحّل ، وشرحُ كفاية المتحفّظ ، وشرح المزهير في علوم اللغة للسيوطي سمّاه المفسّر عن خبايا المزهير ، وله ضوؤه القابوس في زوائد الصّحاح على القاموس ، وشرح ديوان السّنة ، وحاشيةٌ على دُرّة الغواص للحريري وغير ذلك مما هو مذكور في غير هذا المحل . وتآليفه تنيف على الحُسين ، وكلّها مضرب الأمثال في التحرير والاتقان . وله شعر كثير ، وعلى الجملة فهو كما قال الحُبّي عنه في خلاصة الأثر فردُّه من أفراد العالم فضلاً وذكاءً ونُبلاً . وكانت وفاته بالمدينة المنورة سنة ١١٧٠ ودفن عند قبر حليمة .

الهلالِي

أبو العباس أحمد بن عبد العزيز الهلالِي السّجلامي ، أحدُ الأئمّة في الفقه والحديث والبيان واللغة والمنطِق والحِساب والهندسة . درّس على أعلام سِجْلَماسة وفاس وفات جميع أقرانه في تحقيق هذه العلوم ؛ فكان لا يُدرّك شأوه ، ولا يُبلغُ مداه فيها . وألّف كتباً جليّة كفتح القدّوس في شرح خطبة القاموس ، وإضاءة

الأدموس من اصطلاح صاحب القاموس ، ونور البصر في شرح خطبة المختصر ،
أبدأ فيه وأعاد ، وأبان عن رؤسوخ قدمه في مقام الاجتهاد . وله الزواهر الأفقية
في شرح الجواهر المنطقية وهو على شرح المنظومة المعروفة بالقادرية في المنطق لأبي
الفضل عبد السلام القادري ؛ وشرحها هذا قل أن يكون له نظير ، استقى من بحره من
أتمى بعده . وله أيضاً الياقوتة الفريدة في نظم لب واجب العقيدة وهي تسعة
أبيات ضمنها العقائد الواجبة كلها بدلائلها العقلية من غير رمز ولا لغز فجاءت
آية في البلاغة ، وله النصيحة المشهورة التي يقول في أولها :

يا أيها الانسان هب من كراك واضح من الشكر الذي قد اعتراك
إن الرحيل يا أخي قريب وكلنا مسافر غريب
وقد رحل الى المشرق مرتين وألف رحلة مفيدة . وتوفي عام ١١٧٥ هـ .

أبو العلاء المرّافي

أبو العلاء ادريس بن محمد بن ادريس بن حمدون الحسيني العراقي الفاسي ، شهير
هو والسادة أهل بيته بالنسبة الى العراق لقُدوم سلفهم منه ، هذا كان حافظ المغرب
في عصره ، حصل على رياسة الحديث فلم ينازع فيها . وكان قد انصرف اليه بكلية
منذ ابتداء طلبه ، فلم ينشأ ان جلغ فيه الغاية حفظاً ورواية ودراسة ، ومهر
ويهر ودرس ورأس حتى أقر له بالفضل في تلك شيوخه فمن دونهم ؛ فكان يلقب
بسيوطي زمانه ، وقال عنه شيخه أبو حفص الفاسي إنه أحفظ من ابن حجر .
وسأله أحمد بن المبارك صاحب الإبريز وهو من شيوخه عن طريق بعض
الأحاديث ، فذكر له على البديهة ست طرق فقال له الله درك ، لقد تعب ابن
حجر ولم يخرج له الا طريقين ، وبالجملة فهو من مفاخر هذا القطر السعيد في العصر
العتيد ، له المستدرك على الجامع الكبير للسيوطي فيه نحو العشرة آلاف حديث ،
وفتح البصير في التعريف بالرجال المخرّج لهم في الجامع الكبير ، والذرر اللوامع
في الكلام على أحاديث جمع الجوامع ، وتكيل مناهل الصافي تخريج أحاديث الشفا ،

وتخرّيجُ أحاديث الشَّهاب للقَضاعي وشرحُ علي شمائل الترمذي ، وشرح إحياء الميِّت للسيوطي ، وشرحُ الثُّلُثُ الأخير من المشارق للضَّغاني بأمر مَوثُوي ، وقد أكَمَله ولدُه عبدُالله . وكان أيضاً محدثاً فاضلاً ، وله غيرُ ذلك . وفي كُتُبِه هذه حرَّرَ الكلام على كثير من الأحاديث وبيَّن ما هو الحقُّ فيها وناقش كبارَ الحفاظ بكلام كافٍ واضح شاف . توفي رحمه الله عام ١١٨٣ هـ .

ابن الطَّيِّبِ القَادِرِي

أبو عبد الله محمد بن الطَّيِّب بن عبد السلام القادري الحسَنِي الفاسِي العلامة المؤرخ النَّسَابَةُ الواعِيَة . ولد سنة ١١٢٤ وكان طَوِيلَ الباع ، واسعَ الاطِّلاع ، مقيِّداً للأوابد ، جَماعاً للشُّوارد ، له قلم بارع في الانشاء وتصرف في العلوم الشرعية والأدبية مع التقلُّل من الدنيا والزهد والورع والاطمئنان والسَّمت الحسن . من آثاره نشرُ المَتَّانِي في أخبار أهل القرن الحادي عشر والثاني وهو نسختان طُبِيعَت أحدهما ، والمخطوطةُ أوسع من المطبوعة ، والتِّقاط الدُّرر في أخبار أهل المائتين الحادية والثانية عشر ، والإكلیل والتَّج في تذييل كفاية المحتاج للشيخ أحمد بابا ، والزَّهر الباسم في مناقب سيدي قاسم أي الخصاصي وغيرُها . أخذ عن ابن المبارك وابن عبد السلام بناني وابن قاسم جَسُوس وغيرهم . وتوفي في شعبان عام ١١٨٧ هـ .

التَّاوُدِي بنُ سُودَه

هو أبو عبد الله التَّاوُدِي بن الطالب بن سودة المُرِّي الفاسِي ، الإمام العالم العلامة شيخُ مَشائخ المغرب مُجَلَّة ومُجَدِّد سَنَدِ التَّعليم في القرن الثاني عشر . كان مُقدِّماً في كل العلوم لا سيَّما التفسير والحديث والفقه والتصوف والكلام والمنطق والأصول . أخذ عن جِلَّة مشائخ عصره ، وأخذ عنه الجَمُّ الغفير الذي يستحيلُ عَدُّه . ولمَّا حجَّ درَّس بالحرمَين الشريفين ومصر فتسارع النَّاسُ للأخذ عنه لِمَا رَأَوْه من حفظه وإتقانه ، وقد نَمَّ اللهُ عليه النعمة بطول العمر فتخلَّفت عَمَّن كان معه في عصره ،

وحازَ رياسةَ العلم بقاس والمغرب كلّه ، فما بقيَ أحدٌ من ينتمي الى العلم بالمغرب الا وله به صلة . وقد جمعَ مع ذلك الاجتهادَ في العبادة والسَّخاءَ وحسنَ الخلقِ والمحبةَ العظيمةَ لآل البيت ، والاعتناءَ بأمور الناس ، وخصوصاً الضعفاء منهم ، فتألّات القلوب على محبته ، واجتمعت الألسن على مدحه ، وله تأليف عظمُ النفع بها ، وتنافس الناس فيها . منها حاشية على البخاري في أربعة أجزاء وحاشية على الزرقاني كذلك ، وشرح التحفة لابن عاصم ، وشرح الزقاقية ، وشرح الأربعين النووية ، وشرح جامع الشيخ خليل وغير ذلك . توفي رحمه الله سنة ١٢٠٩ هـ .

الطَّيِّبُ بْنُ كَيْرَانَ

أبو عبد الله الطيب بن عبد الحميد بن كَيْرَانَ الفاسي العلامة المَعْقُولِي النَظَّار المفسرُ الكبير ولد سنة ١١٧٢ وأخذ عن الشيخ التاودي والمَحْشِي بناني وأصراحيهما ، وعنه الفقيه ابنُ عبد الرحمن والكُوهَن وغيرُهما . وقد تفرَّد في وقته بالجمع بين علمي المعقول والمنقول ، والفروع والأصول ، وله في العربية باعٌ مديد ونظمٌ سديد . وكان يُدرِّس التفسير بالقرويين ، يستحضر أقوال المفسرين جميعاً ويقابلُ بينها ويناقشها ويردُّ الزائف منها بالدلائل القويّة والحجج البيّنة . وكان يحضّر مجلسه أعيانُ الطلبة والسُّلطانُ فمن دونه من رجال الدولة ، وبالجملة فهو من أفذاذ العلماء الذين لا يحدُّ الدهر بواحد منهم إلا في الفِئَةِ النادرة . وترجمته لا تقتضي الاختصار ، فهذا الكلام لا يفي بأقل القليل من حقه ، له تفسير جليل من سورة النساء الى خم غافر ، وكتب أخرى تليقُ على العشرين 'محرّرة جدّ التحرير . وكانت وفاته سنة ١٢٢٧ هـ .

ابنُ بُونَةِ

هو العلامة النحوي الكبير ، مَفْخَرَةُ شَنْجِيْطُ أبو عبد الله محمد المختار بن بُونَةِ الجكني الشنجيطي . كان ممن طلب العلم وهو كبير ، بسبب أن امرأةً ضرب

ولدها فخاصته وعيثرته بالجهل ، فأنفَ لذلك وسار من غير علم أبويه يريد العلامة المختار بن حبيب فوصل اليه وشرع أولاً في قراءة الأجرومية عليه . ولم يزل يترقى به الحال حتى بلغ ما بلغ من المكانة العالية في علم العربية ، وصار رُحلة وقته وإقليمه ، فكان الناس ينثالون اليه من كل وجهة وقبيل . وأخذ عنه مَنْ لا يُحصى عدداً ، وتنافست القبائل في إقامته عندها لينتشر فيها ما عنده من العلم وخاصةً علم النحو والكلام ، لأنها كانتا بضاعته المتوافرة . وكان الطلاب قبله لا يتجاوزون ما في ألفية ابن مالك ، وشروحها مع عدم معرفة الخطئة التي يمكن بها للطالب أن يخرن في ذهنه بها ما يكون قريب التناول عند الحاجة الى ذلك ، حتى نظم لهم ما تخلف عن الألفية مما تضمنته التسهيل ، وألصق كل شذرة بما يناسبها ، وضم الى ذلك طرته المفيدة ، وأتى على كل مسألة بالشواهد من كلام العرب . وهذا النظم هو المعروف بالاحمرار لأنه مزجه بالألفية مزجاً جيداً وكتبه بالحمرة للفرق بينه وبين نظم ابن مالك واستدرك عليه أبواباً عدة كالقسم وجوابه ، والتسمية بلفظ كائناً من كان وتتميم الكلام والإلحاق ومخارج الحروف والهجاء وغير ذلك مما جعل عدد أبياته ضعفاً عدد الألفية ، وزيادة مع إحكام النظم وتنسيقه بحيث تحسبه من الأصل لا فرق بينه وبينه . ولأن بؤنة كتب أخرى غير الإحمرار ، وكان حياً في أوائل القرن الثالث .

الرُّهَوِيُّ

أبو عبد الله محمد بن أحمد بن محمد بن يوسف الرُّهَوِيُّ الوَزَّانِي ، الإمام العلامة الحافظ المتقن . اشتغل بقبيلته رُهَوْنَةً ، ولما أكمل دراسته طلب التعليم بوَزَّانَ فَبَقِيَ هناك مدةً ، ثم ذهب الى فاس لمواصلة القراءة بها فتخرج في الفقه على مشاهير رجالها . ورجع لوَزَّانَ وبها ألَّفَ حاشيته المشهورة على بناني ، مُحَشَّي الزرقاني . قال في الفكر السامي : « وهي أهمُّ كتبه ، دلَّت على فضله وتمكُّنه من علم الفقه ، فضلَ تمكُّن فلقد أجادَ فيه - كلَّ الإجادة ، وأفاد أحسنَ الإفادة ، وسلك في التحقيق طريقاً صريحاً ، ومهيباً صحيحاً ، ينقل كلام المتقدمين الذي هو الأصل بلفظه بما دلَّ على نشاطه في الإطلاع وثقوب حفظه ، وبسبب ذلك

فضَحَ أَغْلاطاً كثيرة وقَعَتْ لِمَنْ قَبْلَهُ فِي الْاِخْتِصَارِ وَالتَّلْخِصِ ، أَفْسَدُوا بِهَا كَلَامَ الْمُتَقَدِّمِينَ ، وَغَيَّرُوا الْفِقْهَ عَنْ مَوَاضِعِهِ ، فَهِيَ مِمَّا ادَّخَرَهُ لِلتَّأْخِرِ ؛ فَكَانَتْ حِجَةً عَلَى الْمُتَقَدِّمِينَ ، فَجَزَاهُ اللَّهُ خَيْرًا عَنْ عِلْمِهِ وَحُرِيَةِ فِكْرِهِ وَوُضُوهِ طَرِيقِ نَقْدِهِ . وَأَعَانَهُ عَلَى ذَلِكَ مَا عَثَرَ عَلَيْهِ مِنَ الْكُتُبِ الْمُهِّمَةِ ، فِي الْمَذْهَبِ ، الَّتِي يَظْفَرُ بِهَا الْأَجَاهِرَةُ ، وَمَنْ نَاقَشَهُمْ كَالرَّامَاصِيِّ وَبِتَّانِي وَالتَّوَادِي وَأَمْثَالِهِمْ . غَيْرَ أَنَّ الْحَاشِيَةَ طَالَتْ فَجَاءَتْ فِي ثَمَانٍ مُجَلَّدَاتٍ لِكُونِهَا تَجَلِبُ فِي الْمَعَارِكِ الْكُبْرَى نَصُوصَ الْمُتَقَدِّمِينَ بِالْحَرْفِ الْوَاحِدِ ؛ وَلِذَلِكَ جَاءَ شَيْخُ شَيْوَخِنَا سَيِّدِي الْحَاجُّ مُحَمَّدٌ كُنُودٌ وَاخْتَصَرَهَا بِحَذْفِ النُّصُوصِ وَحَلَاهَا بِفَوَائِدٍ يَأْتِي بِفَالِهَا أَوَّلَ الْأَبْوَابِ ، كَأَصْلِ الْبَابِ مِنَ السَّنَةِ أَوِ الْكِتَابِ أَوْ نَحْوِ هَذَا ؛ مِمَّا لَا يَخْلُو مِنْ فَائِدَةٍ وَقَرُبٍ عَلَى الْمُطَالَعِ مَا عَسَى أَنْ يَطُولَ عَلَيْهِ مِنْ اسْتِعَابِ نَصُوصِ الرَّهَوْنِيِّ ، وَقَدْ طُبِعَ الْاِخْتِصَارُ بِهَا مَشِ الْأَصْلُ أ هـ . مِنْهُ بِتَصَرُّفٍ لَيْسَ بِ . وَنَقُولُ هُنَا أَنَّهُ قَدْ سَقَطَ مِنَ الْاِخْتِصَارِ فِي النُّسخَةِ الْمُطْبُوعَةِ الشَّيْءُ الْكَثِيرُ الَّذِي لَا يُبْعَدُ أَنْ قُلْنَا أَنَّهُ قَدَرُ الْعُشْرِ أَوْ أَكْثَرُ مِنْهُ ، وَذَلِكَ كُلُّ مَا كَانَ يَلْحَقُهُ الْمُخْتَصَرُ فِي هَوَاشِ النُّسخَةِ الْمُخْطُوطَةِ الَّتِي وَقَعَ عَلَيْهَا الطَّبْعُ . وَمَنْ رَأَى كِتَابَهُ رَحِمَهُ اللَّهُ عَرَفَ أَنَّهُ كَانَ كَثِيرَ الْإِلْحَاقِ فِيهَا حَتَّى لَيْسَ أَوِي الْمُلْحَقِ الْأَصْلُ فِي بَعْضِ الْأَحْيَانِ . وَمَنْ كَتَبَ الرَّهَوْنِيُّ التَّحْصِينَ وَالْمُنْعَةَ مِمَّنْ اعْتَقَدَ أَنَّ السَّنَةَ بِدْءٌ فِي اثْبَاتِ أَنَّ السَّنَةَ السَّكُوتَ عِنْدَ تَشْيِيعِ الْجَنَائِزِ ، وَلَهُ غَيْرُ ذَلِكَ . وَتُوفِّيَ رَحِمَهُ اللَّهُ سَنَةَ ١٢٣٠ هـ .

حَمْدُونُ بْنُ الْحَاجِّ

أَبُو الْفَيْضِ حَمْدُونُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ الْحَاجِّ السُّلَمِيِّ الْمُرْدَاسِيِّ ، الْعَلَامَةُ الْأَدِيبُ بُوصَيْرِيٌّ عَصْرُهُ وَخَفَاجِيٌّ مِصْرُهُ ، وَلَدَ وَنَشَأَ بِقَاسٍ وَتَلَقَّى دُرُوسَهُ الْعِلْمِيَّةَ بِالْقُرُونِ عَنْ الشَّيْخِ الطَّيِّبِ بْنِ كَيْرَانَ وَغَيْرِهِ . وَمَا عَثَمَ أَنْ صَارَ لَهُ الشَّأْوُ الَّذِي لَا يُلْحَقُ فِي الْعُلُومِ الدِّينِيَّةِ وَالْأَدَبِيَّةِ مَعًا . وَكَانَ شَاعِرًا مَجُودًا بَارِعًا ، طَلَعَ فِي أَفْقِ السُّلْطَنَةِ السُّلَيْمَانِيَّةِ بِدَرَأٍ لَا مَعَا ، وَشَهَابًا سَاطِعًا .

أَلْفَ تَأْلِيفٍ عَدِيدَةٍ مِنْهَا نَظْمٌ مُقَدِّمَةُ ابْنِ حَبْرٍ وَشَرْحُهُ سَمَاءُ نَفْحَةِ الْمِسْلَا

الدَّارِي لِقَارِيءٍ صَحِيحِ الْبَغَارِي وَحَاشِيَةٍ عَلَى تَفْسِيرِ أَبِي السَّعُودِ وَمَتَّبُوعِهِ الْبِيضَاوَرِي وَأُخْرَى عَلَى مَخْتَصَرِ السَّعْدِ وَقَصِيدَةِ مَيْمِيَةٍ فِي السَّيْرَةِ فِي نَحْوِ ٤٠٠٠ بَيْتٍ وَشَرَحَ عَلَيْهَا فِي خَمْسَةِ أَصْفَارٍ ، وَجَمَعَ شَعْرَهُ الَّذِي مَدَحَ بِهِ السُّلْطَانُ مُوَلَايَ سُلَيْمَانَ فِي دِيْوَانِ سَمَاءِ السُّلَيْمَانِيَّاتِ وَحَلَّاهُ بِشَرَحِ نَفِيسٍ وَلَهُ غَيْرُ ذَلِكَ .

وَكَانَ قَدْ وَلَّى الْحِسْبَةَ بِقَاسِ ثُمَّ الْمَظَالِمَ بِنَاحِيَةِ الْغَرْبِ ، فَبَالِغٍ فِي الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ وَرَفَعَ الظَّالِمَاتِ عَنِ النَّاسِ ، وَكَانَ أَمُّ الْأُمُورِ عِنْدَهُ الصَّلَاةُ ، فَكَانَ يُقِيمُ النَّاسَ مِنْ دَكَكِيْنِهِمْ لِأَدَائِهَا . وَتَوَفَّى رَحِمَهُ اللَّهُ سَنَةَ ١٢٣٢ .

الزَّيَّانِي

هُوَ أَبُو الْقَاسِمِ بْنُ أَحْمَدَ بْنِ عَلِيٍّ بْنِ إِبْرَاهِيمَ الزَّيَّانِي الْفَاسِي ، مِنْ صُدُورِ كُتَّابِ الدَّوْلَةِ الشَّرِيفَةِ وَوُزَرَائِهَا الْمَشَاهِيرِ كَانَ لَهُ مَعْرِفَةٌ بِالتَّارِيخِ وَالْأَدَبِ وَالتَّنْجِيمِ وَغَيْرِ ذَلِكَ . وَلَهُ قَلَمٌ حَدِيدِيٌّ وَلِسَانٌ سَلِيْطٌ ، وَفِيهِ جَرَأَةٌ وَصَرَامَةٌ . لَعِبَ أَدْوَاراً مَهْمَةً فِي السِّيَاسَةِ الْمَغْرِبِيَّةِ ، وَتَقَلَّبَتْ بِهِ الْأَحْوَالُ ، وَعَانَى كَثِيراً مِنَ الْأَهْوَالِ ، وَأَوْفَدَهُ السُّلْطَانُ سَيِّدِي مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ سَفِيرًا إِلَى الْإِسْتَانَةِ ، فَقَامَ بِالمَهْمَةِ خَيْرَ قِيَامٍ ، وَأَلْفَ رَحْلَةٍ الْمَشْهُورَةِ ؛ وَكَانَ فِي أَحَدِي الْحَادِثَاتِ قَدْ أَصِيبَ رَأْسُهُ بِضَرْبَةِ سَيْفٍ فَطَارَتْ جِجَمَتُهُ فَجَعَلَ مَكَانَهَا طَرْقًا مِنَ الْقَرْعِ فَاحْتَفَ بِهِ اللَّحْمُ وَتَمَسَّكَ وَعَاشَ طَوِيلًا فَنَافَ عَمْرُهُ عَلَى الْمِائَةِ ، وَقَدْ قَضَى حَيَاتِهِ الطَّوِيلَةَ فِي الْخِدْمَةِ السُّلْطَانِيَّةِ كَاتِبًا وَوَزِيرًا وَمُسْتَشِيرًا وَسَفِيرًا . وَأَلَّفَ عِدَّةَ كُتُبٍ مِنْهَا التَّشْرِجَانُ الْمَعْرُوبُ عَنِ تَارِيخِ دَوْلِ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَأَلْفِيَّةُ السَّلُوكِ فِي وَفَيَاتِ الْمُلُوكِ ، وَالْحَادِي الْمَطْرَبُ فِي رَفْعِ نَسَبِ شُرَفَاءِ الْمَغْرِبِ . وَكَانَتْ وَفَاتُهُ سَنَةَ ١٢٤٩ .

مُحَمَّدُ كَنْوَن

هُوَ الْعَالِمُ السُّلْطَنِي الْفَقِيهَ الْحَافِظُ الْمُتَقِنُ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ مُحَمَّدُ بْنُ الْمَدَنِيِّ بْنِ عَلِيٍّ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ كَنْوَنُ بَفَتْحِ الْكَافِ الْمَعْقُودَةِ وَتَشْدِيدِ النُّونِ الْمَضْمُومَةِ ، اسْمُ بَرْبَرِي مَعْنَاهُ

القمر ، كان لُقِّبَ به القاسم بن محمد بن القاسم بن ادريس الحسني فجرى على عَقْبِهِ ،
 وهم يقطنون بقبيلة بني مَسْتارة ، وكان الذي انتقل منهم الى فاس هو عبدالله الجد الثاني
 للمترجم ، ولذلك يُزاد في نسبهِ المستاري الفاسي . وُلِدَ ونشأ بفاس ، واشتغل على
 كبار علماء عصره مثل الفقيه ابن عبد الرحمن ، واحمد المرينسي ، والطالب ابن الحاج ،
 والوليد العيراقى ، وعبد السلام بو غالب . وما لبث أن صار فرداً يشار اليه في تحقيق
 مقاصد العلوم ، المنظوق منها والمفهوم ، وحصل على رتبة الاجتهاد أو كاد وطار صيته
 في البلاد ، وعمَّ النفع به القاصي والدان ، وتفوّق على الكثير من أشياخه فضلاً عن
 الأقران . وصفه في الاستقصا بعالم فاس والمغرب ، وجزم كثيرون بأنه مجددُ القرن
 الثالث عشر ، وقال لنا غير واحد من أشياخنا إن وصف الفقيه في عصره صار علماً
 بالغلبة عليه ، لا ينصرف إذا أطلق إلا إليه . وقال في الفكر السامي : « هذا الشيخ
 من أكبر المتضلّعين في العلوم الشرعية الوَرَعين المُعلِّنين بالأمر بالمعروف والنهي عن
 المنكر ، وخاتمهم في المغرب شيخ شيوخنا وشيخ شيوخ جُلِّ المغرب ، رأس علمائه في
 القرن الثالث عشر بلا منازع . كان فقيهاً محدثاً نحويّاً لغويّاً معقولياً مُشاركاً محققاً
 نزيهاً قوَّالاً للحق ، مطبوعاً على ذلك ، غير هيَّاب ولا وَجِيل ، مقداماً مهيباً عالي
 الهمة ، دءوباً على نشر العلم والإرشاد والنهي عن المناكر والبُددع التي تكاثرت في
 أيامه ، لا يخشى في الحق لومة لائم ، يحضُر مجلسه الولاة والأمراءُ أبناءُ الملوك وغيرهم
 وهو يُصرِّح بانكار أحوالهم وما هم عليه ، مبينٌ لهجاتهم ، غير مُتشدّق ولا متصنّع ،
 بل تعتريه حالُ رُبّانية ، ولكلامه تأثير على سلطان النفوس ، رُزِقَ في ذلك القبول
 والهيبة على نحول جسمه . ووصلته بذلك إذابة وسجّين ، لكن بمجرد سجنه
 اعتصب الطلبة وقامت قيامة العامة فأطلق سبيله ، لذلك فهو أحق ما يُقال في حقه
 مجددٌ لكثرة النفع به وانتشار العلم عنه ، وعن تلامذته وقيامه بالنهي عن
 المناكر وقتسه .

وكان شديداً على أهل الطُّرُق ، وما لهم من البِدْع التي شوّهت جمال الدين ،
 والمتصوّفة أصحاب الدعاوى التي تُكذِّبها الأحوال ، وما كان أحد يقدرُ على الرد
 عليه مع شدة إغلاظه عليهم وعلى غيرهم وسلوكه في ذلك مَسَلَك التشديد بل التطرف
 في بعض المسائل ، ومع ذلك هابه علماء وقته ولم يجرؤوا على انتقاده لأنه كان
 يتكلم بالحال لا بالمقال ، وتحققوا خلوص نيته ومطابقة سرّه لعلانيته « اهـ منه
 بلفظه . له كتب كثيرة ، منها الاختصار وتقدم الكلام عليه في ترجمة الرهوني ، وله

تعليق على الموطأ مشحون بالفوائد الحديثة ، وساذج الفقه ، وله حاشية على شرح فرائض المختصر للشيخ بنيس ، وكتاب الزجر والاقناع عن آلات اللهو والسماع ، وكتاب التسلي والسلوان لمن ابتلي بالأذى والبهتان ، ونصيحة النذير العريان في التحذير من أهل الغيبة والنميمة والبهتان ونصيحة ذوي الهمم الأكياس فيما يتعلق بخلطة الناس ، والدرر المكنونة في النسبة الشريفة المصونة ، والدرر المستنيرة بشرح حديث لا عدوى ولا طيرة ، والنوازل وخلاف ذلك من الكتب في مسائل فقهية خاصة ، والرسائل في مواضيع إصلاحيّة دينيّة وسياسيّة . وترجمته رحمه الله أوسع بكثير من هذا ، وقد استوفى الجانب الديني منها الشيخ مصطفى الكثر في كتاب الدرر المكنون . ونحن لم يكن في نيّتنا أن نترجم له في هذا الكتاب ، ولكن صديقنا المرحوم فقيد الوطن السيد الحاج عبد السلام بنونه ألحّ علينا كثيراً في ترجمته لما رأى الكتاب خالياً منها قائلاً : إن مثل الفقيه كنون لا يجوز أن يخلو من ذكره كتاب يُوضّع بين يدي الناشئة لتذكيرها بمجدها الطارف والتلبد ، وعظمة تاريخها القريب والبعيد ، فنزولاً على رأيه ذكرنا هذه الترجمة المختصّة من أقوال الناس فيه ، وكانت وفاته رحمه الله ليلة الجمعة فاتح ذي الحجة الحرام عام ١٣٠٢

ولنكتف بهذا القدر ، فاننا لو تتبعنا تراجم العلماء في هذا العصر لما وسعنا هذا الكتاب كله ، وقد أتينا على جملة من أعيانهم ومن بقي منهم نعوّض عن تراجمهم ذكر مؤلفاتهم ، وإن كنا لا نذكر أيضاً إلاّ ألهم من تلك المؤلفات ، إذ لو قصدنا إلى استيعابها لأوقفنا القارئ في الملل الذي لا نشك في عدم احتماله إياه ، وكفاك من القِلادة ما أحاط بالعنق .

كتب التفسير والحديث وتواجمها :

البحر المديد في تفسير القرآن المجيد لابن عجيبة المتوفى سنة ١٢٢٤ ، حاشية على الجامع الصغير له ، التفسير الكبير لابن سعيد الدّيماني ، تفسير القرآن للشيخ الطيب ابن كيران ، شرح حديث إنما بقاؤكم فيمن سلف من الأمم كما بين صلاة العصر إلى غروب الشمس له ، شرح حديث لا يدخل الجنة ولد زنى ولا ولد ولد له ، شرح ألفية العراقي في علم الحديث له ، قال في الاسناد : له تفسير القرآن لأبي الحسن الدّمناقي المتوفى سنة ١٣٠٦ ، حاشية على البخاري له ، حاشية على مسلم له ، حاشية

على النسائي له ، حاشية على أبي داود له ، حاشية على الترمذي له ، حاشية على ابن ماجه له ، حاشية على تفسير أبي السعود والبيضاوي لمحدون بن الحاج ، نفحة المسك الداري لقاري ، صحيح البخاري له ، شرح البخاري للحضيكي المتوفى سنة ١١٨٩ ، شرح الشفا له ، شرح نظم نخبه الفِكَر في اصطلاح الحديث له ، حاشية على البخاري لعبد القادر الفاسي ، زاد المجيد الساري الى قراءة صحيح البخاري للتاودي ابن سودة ، حاشية على سنن أبي داود له ، شرح المشرق للصغاني له شرح الأربعين النووية له ، شرح أول ترجمة من البخاري للكوهن المتوفى سنة ١٢٥٤ ، شرح آخر ترجمة منه له ، إمداد ذوي الاستعداد الى معالم الرواية والاسناد له ، شرح الموطأ للحريشي المتوفى سنة ١١٤٨ ، شرح الشفا له ، شرح منظومة ابن زكري التلمساني في الاصطلاح له ، شرح الموطأ للسدراي المتوفى سنة ١٢٥٣ ، شرح الموطأ لمحمد كنبون ، الدرر المستنيرة في شرح حديث لا عدوى ولا طيرة له ، المستدرك على الجامع الكبير لأبي العلاء العراقي ، الدرر اللوامع في الكلام على أحاديث جمع الجوامع له ، تكميل مناهل الصفا في تخريج أحاديث الشفا له ، تخريج أحاديث الشهاب له ، شرح شمائل الترمذي له ، شرح الثلث الأخير من المشرق بأمر سلطاني له ، تكميل شرح المشرق لولده عبدالله المتوفى سنة ١٢٥٤ ، الجمع بين الكتب الحقة والموطأ للرؤداني ، الأوليات له ، صلة الخلف بموصول السلف له ، اقتفاء الأثر بعد ذهاب أهل الأثر لأبي سالم العياشي المتوفى سنة ١٠٩٠ ، التحاف الاخلاء بأسانيد الأجيال له ، شرح الشمائل لابن قاسم جَسْثُوس المتوفى سنة ١١٨٢ ، شرح الشمائل لبدر الدين الحمومي المتوفى سنة ١٢٦٦ ، شرح الشمائل لابراهيم التادلي المتوفى سنة ١٣١١ ، شرح الحصن لمحمد بن عبد القادر الفاسي المتوفى سنة ١١١٦ ، شرح نظم النخبة له ، حاشية على شرح الحصن للتشاق المتوفى سنة ١١٥١ ، شرح الأربعين النووية للعلماء الأربعة أحمد التاودي ابن سودة المتوفى سنة ١٢٣٥ . وعبد القادر بن شقرون الفاسي المتوفى سنة ١٢١٩ ومحمد بن تيس المتوفى سنة ١٢١٤ والشيخ الطيب ابن كيران . عشرة أحاديث لكل عالم على ترتيبهم المذكور بأمر سلطاني ، شرح تيسير الوصول الى جامع الأصول للقاضي عبد الهادي العلوي المتوفى سنة ١٢٧١ ، شرح الشفا لمحمد بن عبد الرحمن الدلاي المتوفى سنة ١١٤١ ، شرح الشفا لابن عبد السلام بناني ، مفتاح الشفا لأبي زيد الفاسي ، استطابة التحديث بمصطلح أهل الحديث له ، اللُعمَة في قراءة السبعة له ، شرح الفية الاصطلاح للعراقي لأحمد

أحوزي فهرسة له ، سماها قِري العَجَلَان ، حاشية على الجعبري شارح حِرْز الأماي للمنجرة المتوفى سنة ١١٧٩ ، حاشية على شرح الحرّاز لابن عاشر له ، شرح الدالية في وقف حمزة وهشام على الهمة له ، حاشية على الجعبري لابن عبد السلام الفاسي المتوفى سنة ١٢١٤ ، شرح الدالية له ، التوضيح والبيان في مقرأ نافع بن عبد الرحمن للبدر اوي المتوفى سنة ١٢٥٧ ، حاشية على الجعبري له ، شرح الدالية له ، إعراب القرآن للحسن الباعمراني ، حاشية على تفسير الجلالين لعبد الرحمن الحائك المتوفى سنة ١٢٣٧ .

كتب الفقه والتصوف وتواجمها :

شرح المختصر لأبي علي بن رحّال ، حاشية على الحرشي له ، حاشية علي ميثارة على التحفة له ، الارتفاق في مسائل الاستحقاق له ، كشف القناع في تضمين الصناعات له ، رفع الالتباس في شركة الخناس له ، شرح المختصر للعجلي المتوفى سنة ١٠٩٤ ، أمّ الحواشي له ، كتاب الحسبة له ، اختصار المعيار له ، شرح المختصر لابن عبد الصادق الدكالي المتوفى سنة ١١٧٥ ، شرح المرشد له ، شرح المختصر لإبراهيم التادلي ، شرح الرسالة له ، شرح تحفة ابن عاصم له ، شرح الزقاقية له ، شرح فرائض المختصر له ، شرح المرشد له ، شرح خطبة المختصر للهلال ، شرح فرائض المختصر لبنتيس ، حاشية على شرح المواق للمختصر لعبد الرحمن الحائك ، حاشية على شرح أبي الحسن للرسالة لعلي بركة المتوفى سنة ١١٢٠ ، الدرر الحسان فيما يخاطب به الانسان من الاسلام والايمان والاحسان له ، العلكم المبسوط في حكم بيع المضبوط لأحمد أحوزي ، فتح العلام على قواعد الاسلام له ، نوازل فقهية له ، الدرر في نظائر المختصر لعمر الكرسيفي ، رجز في قسم التركات وشرحه له ، رسالة في تحرير الصاع النبوي له ، الكوثر الشجاج في نظم مختصر المدخل لابن الحاج له ، حاشية على الحرشي لمولاي سليمان المتوفى سنة ١٢٣٨ ، حاشية على الحرشي للفيقه ابن عبد الرحمن المتوفى سنة ١٢٧٥ ، حاشية على الحرشي للهيدي ابن سودة المتوفى سنة ١٢٩٤ ، حاشية على الزرقاني شارح المختصر لابن الحسن بناني المتوفى سنة ١١٩٤ ، حاشية على الزرقاني للتاودي ابن سودة ، شرح التحفة له ، شرح الزقاقية له ، النوازل له ، حاشية الرهوني على الزرقاني وبناني ، التحصن والمنعة من اعتقد أن السنة بدعة له ، اختصار حاشية الرهوني لمحمد كنثون ، حاشية على بنتيس على الفرائض له ،

رسالة في التششوز له ، رسالة في الشهادة والقضاء والفتوى له ، النوازل له ، شرح التحفة لأبي حفص الفاسي المتوفى سنة ١١٨٩ ، شرح الزقاقية له ، شرح الزقاقية للشاذلي المتوفى سنة ١١٦٣ ، حاشية على ميثارة على التحفة له ، النوازل له ، شرح الزقاقية لابن عبد السلام بناني ، شرحها أيضاً لأبي عبد الله الورزازي المتوفى سنة ١١٦٦ ، حاشية على ميثارة على التحفة للرغّاوي المتوفى سنة ١١٥٠ ، البهجة في شرح التحفة للتسولي المتوفى سنة ١٢٥٨ ، شرح الشامل له ، حاشية على شرح التاودي على الزقاقية له ، النوازل له ، رجزاً فيما انفرد به ابن عاصم عن خليل لابن طاهر الهواري المتوفى سنة ١٢٢٠ ، شرح فرائض الرسالة لمحمد الحامدي ، شرح الزقاقية له ، تهذبة النفوس المرتبكة بتحرير ما يحيل وما يحرم من التركة لمحمد بن علي الششتوكي ، نظم العمل الفاسي لأبي زيد الفاسي ، نظم العمل المطلق وشرحه للرباطي المتوفى سنة ١١١٤ ، شرح العمل الفاسي له ، نصرة القبض للمسنوي ، القول الكاشف عن حكم الاستنابة في الوظائف له ، صرف المهمة الى تحقيق معنى الذمة له ، النوازل له ، إزالة الدلّة في أحكام الجلسة للتتاق ، النوازل له ، الوثائق الفِرْعَوْنِيّة لبنياني فرعون المتوفى سنة ١١٦١ ، النوازل لبرّدلة المتوفى سنة ١١٣٣ ، فتح المفيت في حكم اللحن في الحديث للافرائي ، شرح المرشد لبدر الدين الحمومي ، شرح الحكم العطائية له ، شرح الوظيفة الزروقية له ، شرح المشيشية له ، حاشية على ميثارة على المرشد للطالب ابن الحاج المتوفى سنة ١٢٧٣ ، شرح رائية ابن ناصر في قواعد الاسلام للتجموعي المتوفى سنة ١١١٨ ، معونة الاخوان بمعرفة أركان الإيمان والاسلام والاحسان لعبد السلام القادري المتوفى سنة ١١١٠ ، تميم الافراح بتمعيم الأرواح له ، نظم بيوع ابن جماعة لأبي سالم العياشي ، شرحه له ، القول المحكم في عقود الأصم الأبكم له ، تحرير الكلام في أمر النبي صلى الله عليه وسلم في المنام له ، تنبيه ذوي الهمم العالية على الزهد في الدنيا الفانية له ، نظم أصول التصوف لزروق له ، رسالة في تراور أهل الجنة وتحشّروهم للطيب ابن كيران ، شرح كتاب العلم من الإحياء له ، شرح الحكم العطائية له ، شرح المشيشية له ، شرح النصيحة الهلالية له ، تحريك الهمم العوال الى مراتب الكمال له ، الزجر والإقناع عن آلات اللهو والسماع لمحمد كنون ، التسليمية والسلوان لمن ابتلي بالإذابة والبهتان له ، نصيحة النذير العريّان في التحذير من أهل الغيبة والنميمة والبهتان له ، نصيحة ذوي الهمم الأكياس فيما يتعلق بخلاطة الناس له ، ايقاظ المفتون المغرور بمن تُتذمّ عواقبه يوم

النشور له ، رسالة في الرؤيا له ، اختصار رسالة العَجيمي في الطرق الصوفية له ، شرح النصيحة الزروقية لابن زكري ، الفوائد المتبعة في العوائد المبتدعة له ، اختصار شرح النصيحة الزروقية لأبي مدين الفاسي المتوفى سنة ١١٨١ ، الأبريز لأحمد بن المبارك المتوفى سنة ١١٥٦ ، إزالة اللبس عن المسائل الخمس له ، اختصار المدخل لابن عجيبة ، شرح الحكم له ، شرح المباحث الأصلية له ، شرح الحزب الكبير لابن عبد السلام بناني ، شرح المشيشية له ، شرح الحزب الكبير لأحمد الوزير المتوفى سنة ١١٤٤ ، شرح المشيشية له ، شرح دلائل الخيرات ثلاث نسخ للمهدي الفاسي سنة ١١٠٩ تبصرة العامل وتذكره الغافل للطبيب المريضي المتوفى سنة ١١٤٥ ، مُرقي الأنام الى غُرَفِ دار السلام لعبد السلام جَسْئوس المتوفى سنة ١١٢١ ، رسالة الصوفي للصوفي لابن عزَّوز المراكشي المتوفى حوالي سنة ١٢٩٥ ، الأسئلة والأجوبة له في الفقه ، كتاب استنشاق الفرج بعد الأزمة للبدني بن جاون المتوفى سنة ١٢٩٨ ، العَزِمية في سلوك الطريق المستقيمة للأزاريفي ، القَمْع في تهذيب الطبع له ، وَرَدَةُ الجيوب في الصلاة على النبي المحبوب لمحمد بن عبد العزيز الرَّسْموكي ، كتاب نزهة الناظر وهجة الغُصْنِ الناضر لأحمد بن عبد القادر التَّسْتَاوِي ، المتوفى سنة ١١٢٧ ، شوارق الأنوار وطوَالِعُ الأسرار له . المزايا فيما حدث من البدع بأم الزوايا لابن عبد السلام الناصري المتوفى سنة ١٢٣٩ .

كتب المنطق والكلام والأصول

القَادِرِيَّة في المنطق لعبد السلام القادري ، التَّسْمِيعُ المعبق في توجيه الخلاف الوارد في المنطق له ، تنبيه المُعْرِضِينَ عن آيات السموات والأرضين له ، الخريدة في المنطق لمحدون ابن الحاج ، الحُلُل في علم الجدَل لأبي زيد الفاسي ، شرح الطَّالِع المُشْرِق في علم المنطِق له ، المُسْتَفَاد في أصول الاعتقاد له ، رَجَزٌ في المنطق لابن طاهر الهَوَّاري ، اللثالي المنشورة في مُناقشة سعيد قدَّورة ، شارح السِّلْم له ، رَجَز في الكلام له ، شرح مختصر المنطق له ، مناهج الخلاص لليوسي ، شرح السِّلْم له ، شرح المقاصد لابن يعقوب المتوفى سنة ١١٢٨ ، حاشية على الحلِّي له ، حاشية على مختصر المنطق له ، حاشية على الكُبْرَى لأبي حفص الفاسي ، حاشية على مختصر المنطق لابن الحسن بناني ، شرح السِّلْم له ، حاشية على شرح قدَّورة على السِّلْم لأحمد بن المبارك ، ردُّ التشديد

في مسألة التقليد له ، حاشية على شرح قدورة لابن منصور الشفشاوني المتوفى سنة ١٢٣٢ ، حاشية على بنثاني على السلم له ، حاشية على المحلّي له ، حاشية على قدورة له ، حاشية على بنثاني على السلم له ، حاشية على قدورة لأقصي المتوفى سنة ١٢٥٠ ، حاشية على بنثاني على السلم للمهدي بن سودة ، حاشية على المحلّي له ، القول السلم على نظم السلم لابراهيم التادلي ، شرح مختصر المنطق له ، شرح الصغرى له ، شرح الجوهرة له ، شرح جمع الجوامع له ، شرح القادرية للهالي ، الباقوة الفريدة له ، شرح الخريدة لمحمد بن حمدون بن الحاج المتوفى سنة ١٢٧٤ ، شرح الخريدة للطيب ابن كيران ، رسالة في المقولات المشر له ، شرح توحيد الرسالة له ، شرح توحيد المرشد له ، شرح رسالة مولاي سليمان في الكسب له ، رسالة في الرد على الوهابية ، رسالة في قول الغزالي ليس في الأماكن أبدع مما كان له ، رسالة في المطالب السبعة للدّي بن جلثون ، الحكم بالعدل والانصاف فيما بين علماء مجلدات من الاختلاف لأبي سالم الميمني ، الدرّة السنية الفائقة في كشف مذاهب أهل البدع من الخوارج والروافض والمعتزلة والزنائدة للزّياني ، معراج الوصول الى سماوات الأصول لابن زاكور ، مراقي السعود نظم جمع الجوامع لأبن السبكي وشرحه لعبد الله بن ابراهيم العلوي المتوفى سنة ١٢٣٠ ، الأسئلة والأجوبة في الأصول لابن عزّوز المراكشي ، نظم الورقات لمحمد الحامدي .

كتب النحو واللغة والبيان :

شرح التسهيل للمرباط الدّلائي المتوفى سنة ١٠٨٩ ، شرح الألفية له ، شرح البسط والتعريف في علم التصريف له ، شرح كافية ابن مالك لابن الطيب الشرقي ، شرح الاقتراح له ، شرح لامية الأفعال له ، حاشية على المرادي له ، حاشية على التسهيل له ، حاشية على المغني له ، حاشية على القاموس له ، ضوء القابوس في زوائد الصحاح على القاموس له ، شرح نظم الفصيح له ، شرح كفاية المتحفظ له ، السفر عن خبايا الزهر له ، حاشية على درّة الغواص له ، إقرار العين في إقرار الأثر بعد ذهاب العين ، جمع فيه من تصانيف اللغة شيئا كثيرا له ، شرح شواهد الكشف له ، شرح شواهد البيضاوي له ، شرح شواهد التوضيح له ، شرح شواهد التلخيص له ، شرح الأجرومية لابراهيم التادلي ، شرح الألفية له ، شرح

فريدة السيوطي له ، شرح كافية ابن الحاجب له ، شرح القطر له ، شرح الأزهري له ، شرح الشذور له ، شرح لامية الأفعال له ، شرح جمل المجراد له ، رسالة الجهاز وشرحها له ، شرح التلخيص للقرظيني له ، حاشية على السعد له ، شرح الألفية لأبي نافع المتوفى سنة ١٢٦٠ ، شرح الألفية للطرباطي المتوفى سنة ١١١٤ ، شرح الفريدة لابن زكري ، شرح خطبة القاموس للهلائي ، إضاءة الأدموس من اصطلاح صاحب القاموس له ، شرح لامية الأفعال لابن يعقوب ، شرح التلخيص له ، شرح خطبة السعد له ، حاشية على المكودي لأحمد بن الحاج المتوفى سنة ١٣١٠ ، حاشية على الأزهري على الأجرومية له ، حاشية على التسهيل للروداني ، حاشية على التوضيح له ، مختصر التلخيص وشرحه له ، حاشية على المكودي للمرينسي المتوفى سنة ١٢٧٧ ، حاشية على المرادي للمنجرة ، حاشية على المكودي لابن جلدون المتوفى سنة ١١٣٦ ، حاشية على التصريح لابن منصور الشفشاوني ، حاشية على السعد له ، حاشية على المغني لأبي حفص الفاسي ، حاشية على بحراق للطالب ابن الحاج ، حاشية على التوضيح لابن الحسن بنثاني ، حاشية على المكودي للعربي بن سودة المتوفى سنة ١٢٢٩ ، حاشية على لامية الأفعال له ، حاشية على المكودي لعلي بركة ، شرح الأجرومية له ، شرح شواهد ابن هشام لمحمد بن عبد القادر الفاسي ، نظم الموضح لمحمد بن حمدون بن الحاج وشرحه له ، ابتهاج الأرواح في أصول النحو لأبي زيد الفاسي ، ذات الحلل في الجمل له ، القطف الداني في علم البيان والمعاني له ، أحكام المعروف من أحكام الظروف لعبد السلام القادري ، الجود بالموجود في المقصور والمدود لابن زاكور ، الحسام المسلول في قصر المفعول على الفاعل والفاعل على المفعول له ، رسالة في لو الشرطية للطبيب ابن كيران ، رسالة في ما أنا ضربت إلا زيدا له ، رسالة في مثلثك لا يخل وغيرك لا يحدود له ، رسالة في الهزمة السهلة له ، رسالة في توجيه «إنما يخشى الله من عباده العلماء» على قراءة من رفع اسم الجلالة ونصب لفظ العلماء له ، رسالة في النكرة واسم الجنس وعلمه والمعرف بلام الحقيقة ولام العهد له ، رسالة في مبحث الجامع الخيالي له ، نظم الاستعارة له ، نظم الاحرار وطرقه لابن بوننة ، نور الأقاح وشرحه له . فيض الفتح في علوم البلاغة لعبد الله بن ابراهيم العلوي الشنجيطي ، نظم المغني لابن هشام لعبد العزيز الرسمى ، كافية النهوض في صناعة

العروض له ، حاشية على صَحاح الجوهري له ، شرح الجوهر المكنون لأحمد بن محمد الفاسي ، شرح نظم المقي لحمد الأدوزي ، شرح خطبة الألفية للكردودي المتوفى سنة ١٢٦٨ ، حلية العروس في نظم اصطلاح صاحب القاموس له ، مختصر القاموس للوجاري المتوفى سنة ١١١٤ ، نزهة الجلائس في أنواع الجناس لابن طاهر الهواري ، شرح نظم الاستعارة للبوري المتوفى سنة ١٢٤٣ ، شرح نظم الاستعارة لأقصي ، حاشية على السعد للمهدي ابن سودة ، حاشية على السعد لمحمدون ابن الحاج .

كتب السير والتراجم والأنايب

العقد المنضد بجواهر مفاخر محمد للمهدي الفاسي ، كفاية المحتاج من خبر صاحب التاج له ، فخر الثرى بسيد الورى لمحمد بن عبد الرحمن الدلائي ، زهر الحداثق في سيرة خير الخلائق له ، دُرّة التيجان ولقطة اللؤلؤ والمرجان في أنساب شرفاء المغرب له ، شرح الاكتفاء له ، نفائس الدرر في سيرة سيد البشر لمسنود جموع المتوفى سنة ١١١٩ ، الروضة ، وسطى وصغرى في السيرة له ، ذخيرة المحتاج في سيرة صاحب اللثواء والتشاج في خمسين مجلداً للمعطي ابن الصالح الشرقاوي المتوفى سنة ١١٨٠ ، ميمية السيرة في أربعة آلاف بيت وشرحها لمحدون ابن الحاج ، الهزمية وشرحها لابن زكري ، شرح الاكتفاء لابن عبد السلام بناني ، شرح البردة له ، شرح سيرة ابن فارس لابن الطيب الشرقي ، شرح سيرة ابن الجزري له ، الأنيس المطرب فيمن لقيته من أدباء المغرب له ، حاشية على الاكتفاء لأحمد الوزير ، شرح همزية البوصيري له ، شرح البردة له ، شرحها أيضاً لأحمد بن محمد الفاسي ، جلاء القلب القاسي في التعريف بالمهدي الفاسي له ، شرح الهزمية لبنييس ، معجم أسماء الصحابة لعبد الرحمن العراقي ، اختصار الحليسة لعبد الله العراقي المتوفى سنة ١٢٣٤ ، المقصد الأحمد في التعريف بأحمد بن عبد الله لعبد السلام القادري ، العرف العاطر فيمن بفاس من أبناء الشيخ عبد القادر له ، الإشراف على نسب الأقطاب الأربعة الأشراف ، الجيلاني وابن مشيش والشاذلي والجزولي له ، معتمد الراوي في مناقب أحد الشاوي له ، نيل القرابات بأهل المعربات له ،

رجاء الإجابة بالبدّارين من الصحابة له ، عقد اللّثال فيما له صلى الله عليه وسلم من الآل له ، مطّلع الإشرّاق في الأثراف الواردين من العراق له ، نشر المثاني في أخبار أهل القرن الحادي عشر والثاني لابن الطيب القادري ، التقاطُ الدُرَر في أخبار أهل القرن الحادي عشر له ، الإكليلُ والتاج في ذيل كِفَاية المحتاج له ، الزُّهرُ الباسم في مناقب قاسم الخصاصي له ، الاستشفاء من الألم في التّكَلُّذُ بذكر صاحب العلم لابن زاكور ، جُهدُ المِيقِلِ القاصِر في نصرة الشيخ عبد القادر للسناوي ، نتيجة التحقيق في بعض أهل النسب الوثيق له ، البُدُور الضاوية في ذكر أهل الزاوية الدلائية لسلیمان الحَوّات المتوفى سنة ١٢٣١ ، الروضة المقصودة في مآثر بني سُودة له ، قُرّةُ العُيون في الشرفاء القاطنين بالعيون له ، السر الظاهر في أولاد الشيخ عبد القادر له ، الأنيس المطرب فيمن لقينته من أدباء المغرب لابن الطيّب العَلَمي ، أعيان الأعيان لمحمد بن أحمد الفاسي المتوفى سنة ١١٧٩ ، شرح درة التّيجان له ، العَرَفُ الشّحري في بعض فضائل ابن زكري للزّبادي المتوفى سنة ١١٦٣ ، التعريف بابن عباد له ، أزهار البستان في طبقات الأعيان لابن عجيبة ، صفوة ما انتشر من أخبار أهل القرن الحادي عشر للأفراني ، طَلعةُ المشتري في التعريف بالزمخشري له ، تكملة التكملة للديباج ، لبّاب بن أحمد يبب الشّنجيطي ، طبقات الحضيكي لمحمد بن أحمد الحضيكي ، مختصر الاصابة له ، سنّا المهتدي الى مفاخر الوزير اليَحْمَدي لعلي مصباح ، روض البهار في ذكر جملة من شيوخنا الذين فضلهم أجلى من النّهار للطالب ابن الحاج ، رياض الورْد فيما انتهى اليه هذا الجوهر الفَرْد له ، وهو في ترجمة والده حمدون بن الحاج ، الإشراف على بعض من بفاس من مشاهير الأشراف له ، نظم اللّثال في شرفاء عقبة ابن صوّال له ، الفية السالوك في وفيات الملوك للزياني ، الحادي المطرب في رفع نسب شرفاء المغرب له ، الدر النفيس في بني محمد بن نفيس للوليد العراقي المتوفى سنة ١٢٦٥ ، تحفة الاخوان ببعض مناقب شرفاء وزان للطاهري المتوفى سنة ١١٩٣ ، شذور الذهب في خيّر نسب للتهامي بن رحمون ذكر فيه الأشراف الادارسة عامّة ، الأنجم الزاهرة في الذرية الطاهرة له ، جعله خاصاً بالأشراف العلمين ، فتح العلم

الخبير في تهذيب النسب العلمي بأمر الأمير لمحمد بن الصادق بن ريسون ألقه بأمر السلطان سيدي محمد بن عبدالله .

كتب التاريخ والرحلات

المغرب في أخبار المغرب للأفرائي ، تزهة الحادي في أخبار ملوك القرن الحادي له ، الترجمان المغرب عن تاريخ دول المشرق والمغرب للزياني ، الروضة السلمانية في الدولة الاسماعيلية وما تقدمها من الدول الإسلامية له ، البستان الطريف في دولة أولاد مولاي علي الشريف له ، التاج والاكيل في مآثر السلطان الجليل له ، الترجانة الكبرى في أخبار العالم برأ وبحراً له ، رحلة الحذاق لمشاهدة البلدان والآفاق له ، الجيئش العرمم الخاسي في دولة أولاد مولانا علي السجلماسي للكنسوس ، المغرب المبين عما تضمنه الأنيس المطرب وروضة النشرين لابن زاكور ، نشر أزهـر البستان في الرحلة الى الجزائر وتطوان له ، الدر المنتخب المستحسن في تاريخ دولة مولانا الحسن لأحمد بن الحاج ، ماء الموائد وهي رحلة الحجاز لأبي سالم العياشي ، رحلة الحجاز لأحمد بن ناصر المتوفى سنة ١١٢٩ ، رحلة الحجاز لابن الطيب الشرقي ، رحلة الحجاز لابن عبد السلام الناصري ، بلوغ المرام بالرحلة الى بيت الله الحرام للزبادي ، رحلة الوزير في افتكاك الأسير لأبي عبدالله الوزير المتوفى سنة ١١١٩ ، نتيجة الاجتهاد في المهادنة والجهاد وهي رحلة الى اسبانيا لأحمد الفرزال المتوفى سنة ١١٩١ ، رحلة حجازية للتجاني بن باب الشنيطي ، تزهة الإخوان في تاريخ تطوان لعبد السلام سكيرج المتوفى سنة ١٢٥٠ ، المعارج المرقية في الرحلة الشرقية للرافعي التطواني .

كتب الأدب ودواوين الشعر ،

عنوان انفاسة في شرح ديوان الحماسة لابن زاكور ، ميقباس الفوائد في شرح ما خفي من القلائد له ، الصنيع البديع في شرح الحليّة ذات البديع له ، تفريج الكرب بشرح لامية العرب له ، النسمات البنفسجية في شرح الخزرجية له ،

أنفعُ الوسائل في أبدع الخطب وأبرع الرسائل له ، الروض الأريض في بديع التوشيح ومُنْتَقَى الْقَرِيض له ، المسلك السهل في شرح توشيح ابن سهل الافراني ، شرح بانث سعاد لابن الحسن بناني ، المحاضرات لليوسي ، زهرُ الأكم في الأمثال والحكم له ، شرح الدالية له ، ديوان شعر له ، تحفة الأريب ونزهة اللبيب لأبي مَدَيْن الفاسي ، المحكم في الأمثال والحكم له ، ديوان خطب له ، سراجُ الطلاب في أدب طلب العلم المساري ، نضار الأصيل لعبدالله شطير المتوفى سنة ١٢١٤ ، ديوان شعر لمحمد بن يعقوب التطواني ، القصائد العشرة في التشويق الى البقاع المطهرة للعلمي ، مقصورة في المديح لأحمد الوزير ، ديوان خطب للرهوني ، ديوان خطب للبدر اوي ، ديوان شعر لأبي سالم العياشي ، ديوان شعر على طريقة الصوفية لابن عجيبة ، ديوان السليمانيات لمحدون ابن الحاج ، ديوان شعر للرافعي التطواني ، ديوان شعر لعبد السلام القادري ، ديوان شعر للزياني ، كتاب الأنيس المغني عن الجليس له ، الشمقمقية لابن الوثان ، ديوان شعر على طريقة أهل التصوف للحرّاق المتوفى سنة ١٢٦١ ، ديوان شعر للتيجاني بن باب الشنجيطي ، شرح مقصورة ابن دريّد للشيخ سيدي الأبييري ، ديوان شعر لعلي مصباح ، أنس السмир في نوازل الفرزدق وجريره ، اليواقيت الأدبية بحمد الملكة المحمدية لأحمد الغزال ، الأطروفة الهندسية والحكمة الشطرنجية الأنسية له ، نتيجة الفتح المستنبطة من سورة الفتح له ، اليواقيت الأدبية في الأمداح النبوية له .

كتب في مختلف العلوم

القانون في ابتداء العلوم للنوسي ، الأزهار الطيبة للنشر في المبادي العشر للطالب بن الحاج ، الأقسام في مبادئ العلوم لأبي زيد الفاسي ، المختار في حساب الفبار له ، قلائد المسجّد في علم العدد له ، البتائج الحسية في المعالم الهندسية له ، تمهيد السلاسة في علم السيادة له ، توطية الثراسة في علم الفراسة له ، مطالع الضياء في علم الكيمياء له ، القُطوف في أسرار الحروف له ، الإغراق في علم أسرار الأوفاق له ، تعفة الأثير في علم التفسير له ، عروس الصبابة في علم المساحة له ، كشف الحجاب في علم الاسطرلاب له ، الجواهر المنظوم في علم النجوم له ، الكامل في الاستغناء عن الجداول له ، المطلب في

الرُّبُوعُ المَجِيبُ لَهُ ، الغُرَّةُ فِي بَيْتِ الإِبْرَةِ لَهُ ، النِّيلُ فِي خَطِّ الرَّمْلِ لَهُ ، الرَّقْمَةُ فِي عِلْمِ الْحِكْمَةِ لَهُ ، الْمَنَاهِجُ فِي اسْتِنطَاقِ الزِّيَارِجِ لَهُ ، الْإِشَارَةُ فِي عِلْمِ الشُّطْرَانَةِ لَهُ ، تَحْفَةُ الْإِخْوَانِ وَالْأَوْلِيَاءِ فِي صُنْعَةِ السِّيمِيَاءِ لِلزِّيَانِيِّ ، كَشْفُ أَسْرَارِ الْمُحْتَالِينَ الْأَشْقِيَاءِ الَّذِينَ يَزْعُمُونَ عِلْمَ الْكِيمِيَاءِ لَهُ ، رِسَالَةُ فِي الْحِسَابِ لِابْرَاهِيمَ التَّسَادِيلِيِّ رِسَالَةُ فِي الْعَمَلِ بِالرُّبُوعِ الْمَجِيبِ لَهُ ، شَرْحُ الْمُقْنَعِ لَهُ ، زِينَةُ النَّحْرِ فِي عِلْمِ الْبَحْرِ لَهُ ، أَغَانِي السَّيْقَا فِي عِلْمِ الْمَوْسِيقَى لَهُ ، نَظْمُ فِي عِلْمِ الْمِيقَاتِ وَشَرْحُهُ لِلرُّودَانِيِّ ، ذَيْلُ أَرْجُوزَةِ ابْنِ سَيْنَا لِعَبْدِ الْوَهَابِ اِدْرَاقُ ، رَجَزُ فِي حَبِّ الْإِفْرَنْجِ لَهُ ، هَزْ السَّمْهَرِيِّ عَلَى مَنْ نَفَى عَيْبَ الْجُذَرِيِّ لَهُ ، تَعْقُوبَاتُ عَلَى الشَّيْخِ دَاوُدَ فِي النِّزْمَةِ لَهُ ، الشُّقْرُونِيَّةُ فِي الطَّبِّ لِعَبْدِ الْقَادِرِ بْنِ شَقْرُونَ ، النِّفْعَةُ الْوَرْدِيَّةُ فِي الْعُشْبَةِ الْهِنْدِيَّةِ لَهُ ، ذَهَابُ الْكُصُوفِ فِي الطَّبِّ لِابْنِ عَزْزُوزِ الْمَرَاكَشِيِّ ، الْأَسْئَلَةُ وَالْأَجُوبَةُ فِي الطَّبِّ لَهُ ، إِثْمِدُ الْبَصَائِرِ فِي مَعْرِفَةِ أَحْكَامِ الْمَظَاهِرِ لَهُ ، كَشْفُ الرَّمُوزِ فِي الْعَقَاقِيرِ وَالْأَدْوِيَةِ لَهُ ، بَحْرُ الْوُقُوفِ عَلَى أَسْرَارِ الْحُرُوفِ لَهُ ، حُلُّ الْمَعْقُودِ وَعَقْدُ الْمُحْلُولِ لَهُ ، السِّرُّ الْوَاقِعِيُّ وَالتَّرْتِيبُ الْكَافِي لَهُ ، رِسَالَةُ فِي إِبْطَالِ الْكِيمِيَاءِ لِلْمَدَنِيِّ بْنِ جَلُّوْنِ ، شَرْحُ الْمُقْنَعِ فِي التَّوْقِيتِ لِأَبِي عَبْدِ اللَّهِ لِلْوَرَزَاذِيِّ ، أَجْنَعَةُ الرَّغَابِ فِي مَعْرِفَةِ الْفَرَائِضِ وَالْحِسَابِ وَهُوَ شَرْحٌ لِلْسَّمَلِيَّةِ وَتَكْمِلَتُهَا لِأَحْمَدَ الرُّسْمُوكِيِّ ، شَرْحُ الْقَلَنْصَادِيِّ لَهُ ، قَطْنَفُ الْأَنْوَارِ فِي شَرْحِ رَوْضَةِ الْأَزْهَارِ فِي التَّوْقِيتِ لِعَبْدِ الرَّحْمَنِ الْبُوعَقِيلِيِّ ، شَرْحُ الْيَسَارَةِ لَهُ ، كِتَابُ فِي الْحِسَابِ بِالْقَلَمِ الرَّومِيِّ لِمُحَمَّدِ بْنِ أَحْمَدَ الصَّبَاغِ .

الحياة الأدبية

لم تكن عناية الدولة الشريفة بنهضة الأدب ورقيته ، بأقل من عناية غيرها من الدول السابقة الذكر ؛ فقد بذل رجالها جهوداً تذكّر فتشكر في سبيل تقدمه وتنشيط أهله حتى قامت الحركة الأدبية على قدم وساق ، ونفقت سوقها أشدّ النفاق ، فلو أننا نظرنا الى أوّل ملك مهّد البلاد وأخضع العباد وهو مولاي رشيد لوّجده قد أجاز بالفن وخمسة دینار على بيتين من الشعر مدح بها وهما :

فاض بحرُ التّوالِ في كلِّ قطرٍ من ندَى راحتيك عذباً فُراتا
غرق النَّاسُ فيه فالتَّمَسَ الْفَقْرُ خِلاصاً فلم يَجِدْهُ فَنَاتَا

وكذلك المولى محمد بن عبد الله أجاز ابنَ الوثان لما مدحه بقافيته المشهورة بألف دينار ، ومولاي سليمان كان كثير المعطاء ، عظيم السخاء ، ولا تسَلُ عمّا وصل منه الى شاعره وتخلّد ماثره الشيخ أبي الفيض حمدون ابن الحاج من الهبات والصلّات .

وبفضل هذا التشجيع نبغ كثير من الأدباء كتاباً وشعراً متن ازدان بهم هذا العصر ، وكانوا مفعرة هذا القطر ، وقد يأتي في الرّعيّل الأوّل منهم الوزير اليعمّدي وعليّ مصباح وابن زاكور وابن الطيّب المَلَمي صاحب الأنيس المطرب ، وابن الوثان ومحمد بن الطيّب سكّيرج والطيّب بن صالح الرزيني والوزير ابن ادريس العمراوي والكنسوس بلة غيرهم متن لم يصلوا الى مرتبتهم ، فإنهم كثير لا يسعنا ذكرهم في هذه الكلمة الوجيزة ، وإن كنّا سنذكرهم مع بعض ماثرهم في الجزء الثاني والثالث .

وهؤلاء المذكورون هم متن عرّفوا بالقدرة على التعبير والتفنن في أساليب

التحجير نظماً ونثراً مع متانة القول وإحكامه والدّهَاب في أغراض الكلام مذاهِبَ الموهوبين من أدباء العربية الكبار . فلم يُؤثّر عليهم ما عُرِفَ عن هذه العصور المتأخرة من ضعف المَلَكَات اللّسانية بسبب ضعف الحركة العلمية واتّجاهها ذلك الاتّجاه العَقِيم المتردّد بين الاختصار أو الشّرح أو التّعليق إلّا فيما كُنْدَر ، بل كانت أن شقّوا لأنفسهم طريقاً إلى المجد وَسط تلك الدُّرُوب الملتويّة ، فأبانوا عن نبوغهم وعبقريّتهم ، وكان الشعر في أوائل هذا العصر أسبقَ إلى النهوض من النثر وخاصةً في الكتابة الديوانيّة ، ولذلك نعثر على رسائلَ رسميّة من مُستوى إنشائي ليس بذلك ، في حين أن القصائد الشعريّة التي قيلت في مولاي إسماعيل وابنه مولاي محمد العالم ولا سيما من شعراء شنجيط ، كانت في مستوى عالٍ من البلاغة والانسجام ، ثم فيما بعد دولة سيدي محمد بن عبد الله ارتقت صناعةُ الكتابة ، ولا سيّما النثرُ الفني إلى المكانة التي قال فيها العلامة محمد بَيْرَم الخامس في كتابه صفوة الاعتبار « لعمري إنّ صناعةَ الإنشاء في الدول العربيّة كادت تكون الآن قاصرةً على دولة مراکش » ولا نشكُّ أن للوزير ابن ادريس ومن أتى بعده من بُلغاء الكُتّاب يداً طولى في ذلك .

وان ننسَ لا ننسَ الزاوية الدّلائيّة وما لها من يد على الحركة الأدبيّة في هذا العصر ، فإنها التي أنعشت روحَ الأدب بعد خمودها بأثر سقوط الدولة السعدية . وقد نبغ من أهلها زيادةً على المتخرجين فيها كثيرٌ من الأدباء كالشرقي بن أبي بكر ومحمد ابن المسناوي ومحمد بن أحمد بن الشاذلي الدّلائيين وغيرهم . وقد لبثَ الأدبُ المعاصر يحملُ طابعها الخاص زمناً غيرَ قصير ممثلاً في أسلوب اليوسي القوي الرّصين ، ومُتأدياً إلى ابن زاكور بطريق شيخه اليوسي ، واليوسي من أعظم المتخرجين في الزاوية المذكورة كما سبق القول .

ونتخلّصُ الآن إلى ذكر تراجم زعماء الحركة الأدبية في هذا العصر تكميلاً للبحث واحاطةً بالموضوع من جميع جوانبه :

ابن زكور

هو أبو عبدالله محمد بن قاسم بن محمد بن عبدالواحد بن احمد بن زكور الفاسي الأديب المتفطن الرحالة شيخ الأدباء في عصره صاحبُ اليراع المُرَهَف ، والفكر المُنَقَّف ، المُحرَّر الذي برَّزَ على أقرانه وفاق أهل زمانه بكثرة اطلاعه وشدة اضطلاعهِ بالفنون الأدبية ، والعلوم العربية وغيرها ، فكان كاتباً بليغاً ، وشاعراً مُبدِعاً ومؤلفاً مُجَوِّداً من أكبر مؤلفي الآداب من المغاربة . قال عنه في الأنيس المطرب :

« وحيدُ البلاغة ، وفريدُ الصِّياغة ، الذي أرسخَ في أرض الفصاحة أقدامه ، وأكثرَ ثوبه على حلِّ المُقفلات وإقدامه ، فتصرَّف في الإنشاء ، وعطَف إنشاءه على الإخبار ، وإخباره على الإنشاء ، وقارَعَ الرِّجال ، في ميادين الارتجال ، وثار في مُعترك الجدال ما شاء وجال ، فهو الذي باسمه في الأوانِ هُتِف ، وهو الذي يعرف في كل العلوم من أين توكل الكَتِف » الخ .

أخذَ بفاس عن جماعة منهم العلامة أحمد بن الحاج الكبير ، وعبد السلام القادري ، وأبي علي اليوسي ، ورحل فأخذ بتطوان عن علائمتها الشيخ علي بركة ، وبالجزائر عن مفتيها محمد بن سعيد قدورة وغيره .

وله مؤلَّفات مُرصَّعات مُفَوِّقات جزلَّةُ العبارة لا يشقُّ فيها أحد غُبارَه ، منها عُنوان النفاسة في شرح ديوان الحماسة في ثلاثة أسفار ، ومِقْباس الفوائد في شرح ما خفي من القلائد ، قلائد الفتح ابن خاقان وتَفْرِيج الكُرْب بشرح لامية العرب ، وديوانه الذي أسماه الرِّوض الأريض في بديع التوشيح ، ومنقَى القريض وقد عملنا منه مُنتخباً ونشر منذُ زمان . وغير ذلك ، وكانت وفاته بفاس سنة ١١٢٠ .

عبدالله العلوي

أبو محمد عبدالله بن محمد بن عبدالله بن الطالب العلوي نسبة الى قبيلة إدّو علي من إقليم شنجيط ، الأديب الكبير الشاعر البليغ لسان قومهِ المغرب عن مغربيّتهم وعزبيّتهم العريقتين ، وصَفَه في كتاب الوسيط فقال : « العالم النحرير المُقدّم على أهل قطره من غير تكبير ، كَسَلٌ عن مداه كلُّ جواد ، يعترفُ بذلك الحاضرُ والباد ، وانتشر صيته في تلك الصُّعاري والأقطار حتى صار كالشمس في رابعة النهار » طلب العلم حتى تضلّع منه ، وكانت له مشاركة في علم الفقه والمنطق والرياضيات ، فضلا عن علوم العربية والأدب وطمعت نفسه الى الاتصال بالأعتاب السلطانية ، وكان ذلك في اقبال الدولة العلوية ؛ فاتصل بالسلطان مولاي اسمعيل فحظيَ عنده ، وكان ذلك في وقت نبوغ المولى محمد ابن مولاي اسمعيل المعروف بالعالم الذي اشتهر علمه وفضله ، فكان من خاصّيته ، وكان يُكرّمه اكراما بالغا ، فكان يَفِدُ عليه ثم يرجع الى بلاده . وكلما تذكر تلك الشرائل العالية والأبادي الحاتمية تنصاغِرُ عنده الصجراء وأهلها فيرجع الى الحضرة السلطانية ويبقى في كنف الأمير ورعايته الى ما شاء الله ، حتى حصلَ منه ما هو معلوم من الخُرُوج على والده فانقطع عنه . وله فيه وفي السلطان مولاي اسمعيل قصائدُ طنانة ، ويكفي أن نقول أن نفسه في شعره نفسُ "شنجيطي" ؛ فإنّ تفوّقَ أهل شنجيط في علوم العربية والنبوغ الذي ظهر منهم في هذا العصر وخاصة في نظم الشعر العربي المتين ممّا لا خفاءَ به على أحد . وكان المترجم حيّا في صدر القرن الثاني عشر .

ابن الطيّب العلمي

أبو عبدالله محمد بن الطيب الشريف العلمي اليُونسي ، وُلِدَ ونشأ بفاس ودرّس على أعلامها ، وتخرّج في الأدب بابن زاكور ، وهو من أكبر أدباء العصر ،

وأصحاب البراعة في الصَّنَاعَتَيْن . له في الشعر طَبْعٌ مُتَدَفِّقٌ رَقِيقٌ ، وفي الكتابة أسلوبٌ رَاقٍ مُنَسَّجِمٌ ، والفاظه فصيحة ومعانيه واضحة ، ورُوحُه مَرِحٌ نشيطٌ ، حتى إنه لَيُعْجِزُ قارئه من قَرُطِ الخِفَّةِ والسهولة ، وكان لأهل فاس افتتانٌ عظيمٌ بشعره . وألَّفَ الأنيس المطرب فيمن لقيته من أدباء المغرب ترجم فيه اثني عشر أديباً من أهل عصره بقلم فتحيّ شائق ونفسٍ خاقانيّ رائقٍ ، وقد ضمَّته مع ذلك كثيراً من شعره الفائق ، فجاء ديواناً أدبياً مُمتِعاً يدلُّ على رسوخ قدم مؤلفه في صناعة الانشاء وقَرُض الشعر ، وله أيضاً القصائد العشرة في التشوُّق إلى البِقَاعِ المطهرة ، وكان كثيراً ما يهتفُ بديار الحجاز ، ويتشوَّقُ إلى زيارة ساكنها عليه الصلاة والسلام فشرَّق عام ١١٣٤ فمات في طريقه إليها بمصر رحمه الله .

علي مصباح

أبو الحسن علي بن أحمد بن قاسم بن موسى مصباح ، به عُرفَ هو وقومه ، وهم من بَنِي بَصْلُوت من قبيلة الأخماس . أديب ماهر كاتب شاعر ، نبغ في أيام الدولة الاسماعيلية ، واختصَّ بالوزير البُحْمَدي ، فكان كاتبه ومُسَاعِده ، وله فيه أمداح بليغة ضمَّنها كتابه الذي ألَّفه فيه وسمَّاه سَنَاءَ المُهَنْدِي إلى مفاخر الوزير البُحْمَدي ، وهو كتاب قال عنه أكنسوس (ملأه مؤلفه آداباً غضةً ، أنصَحَ من جَوْهَرِيٍّ الذَّهَبِ والْفِضَّةِ) وله أيضاً كتاب أنس السَّيْرِ في وقائع الفرزدق وجبر ، وديوان شعر جمعه بنفسه وأثبت بآخره مجموعة من رسائله الأدبية ، وبالجملة فهو من أعلام الأدب في هذا العصر ، وشعره مُنَوَّعٌ الأغراض ، رقيقٌ الدِّيَاجَة ، عذبُ الألفاظ ، وقد أثبتنا بعض آثاره في المنتخبات . وكانت وفاته بعد عام ١١٥٠ .

ابن الوثنان

هو أبو العباس أحمد بن محمد بن الوثنان الملقب بالفاسي ، شاعر فحل ، صاحب قريحة سيالة ، وخاطر متدفق وفكر نقاد ، كان والده 'متعلقاً بالسلطان محمد بن عبدالله ، وكان صاحب نوادر وملح ، فكنىاه السلطان المذكور أبا الشمقمق ، ثم توفي فعمل ابنه أرجوزته الشهيرة وقصد بها السلطان ؛ فتعذر عليه الوصول إليه ، فتحين خروجه في بعض الأيام واعترضه في موكبه وصعد على كثر عالٍ من الأرض ونادى بأعلى صوته :

يا سيدي سبّط النبي أبو الشمقمق أي

فعره السلطان وأمر باحضاره الى منزله فحضر وأنشد الأرجوزة المذكورة فوقعت منه الموقع الحسن ، وأجزل صلته ورفع منزلته ، وقد عرفت أرجوزته هذه بالشمقمقية ، واشتهرت بين أدباء المغرب اشتهاً لا مزيد عليه ، وهي تحتوي على كثير من الفنون الأدبية والأغراض الشعرية ، مثل الغزل والنسيب والوصف والحماسة والمدح والهجاء والحكم والأمثال وأيام العرب وأخبارها وعوائدها وأحوالها ، مما يدل على غزارة علمه فضلاً عن تدفق قريحته وقوة ملكته ، وهي قافية في نحو ثلاثمائة بيت ، وله نظم مسائل ابن خميس وغيره . وتوفي سنة ١١٨٧ .

ابن إدريس المرادي

هو أبو عبد الله محمد بن إدريس بن عبد الله المرادي ، من أهل فاس وأشرافها الأدارسة ، كان أديباً ماهراً له باع مديد في الإنشاء ، وملكة قوية في الشعر ، ومشاركة نبيلة في الفنون . وكان من ذوي الهمم الطامحة الى العلو والرياسة ؛

فاتصل بالسلطان المولى عبد الرحمن بن هشام فحظيَّ عنده وترقَّت به الحال فتولَّى الوزارة ، فكان كما قال عنه الكنسوس : « عِصَامُ الدَّوْلَةِ وَحِلْيَةُ جَاهِلِهَا ، وَبَجْلَى مَحَاسِنِهَا وَمُظْهَرُ كِبَالِهَا ، فَبِأَثَارِهِ تَزْرِي دَوْلَةُ بَنِي مُوَلَانَا هِشَامٌ ، بِدَوْلَةِ بَنِي مَمْرُوانَ بِالشَّامِ ، سَاعَدَتْهُ أَحْكَامُ السُّعُودِ ، وَعَامَلَتْهُ بِإِنْجَازِ الْمَوْعُودِ ، فَأَدْرَكَ فِي ظِلَالِ دَوْلَةِ السُّلْطَانِ الْمُؤَيَّدِ مُوَلَانَا عَبْدَ الرَّحْمَنِ مِنَ الْجَاهِ وَالْعِزِّ وَالصُّوْلَةِ ، مَا لَمْ يُدْرِكْهُ الْوَزِيرُ الْمُهَلَّبِيُّ مَعَ مُلُوكِ الدَّيْلَمِ وَمُعِزِّ الدَّوْلَةِ ؛ فَضَحِكْتَ لَهُ الْأَيَّامُ بَعْدَ عُيُوسٍ ، وَأَرْكَبَتْهُ أَعَزُّ الْمَرَاقِبِ ، وَأَلْبَسَتْهُ أَفْخَرَ الْمَلْبُوسِ ، وَبَيْتُهُ فِي فَاسٍ مَنْبِتٌ طَيِّبٌ ، وَأَصْلُهُ الْأَصِيلُ نَاشِئٌ عَنْ وَائِكِفٍ مِنَ الْأَصَالَةِ صَيِّبُ الْخِ ». توفي سنة ١٢٦٤ .

أَكْنَسُوسُ

هو أبو عبد الله محمد بن أحمد أكنَسُوسُ المراكشي . العلامة المؤرِّخ ، الأديب المتفنن صاحب التاريخ العامر عن الدولة الشريفة المسمَّى بالجيش العرَمَرَمِ الحُمَامِي فِي دَوْلَةِ أَوْلَادِ مُوَلَانَا عَلِي السَّجْدَاسِي ، وَكَانَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الزَّيَّانِي مُنَافَسَةٌ حَمَلَتْهُ عَلَى انْتِقَاصِهِ وَنَقْدِهِ بِحَقِّ وَغَيْرِهِ فِي مَوَاضِعَ مِنْ تَارِيخِهِ الْمَذْكُورِ . انفرد بالرياسة الأدبية في عصره ، فلم يُنَازَعْ فِيهَا ، وَهُوَ خَاتِمَةُ الْأَدْبَاءِ الْفُحُولِ الَّذِينَ اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِمْ هَذِهِ الدَّوْلَةُ فِي عَهْدِهَا الْأَخِيرِ ، وَكَتَابَتُهُ عَالِيَةُ النَّفْسِ ، وَشِعْرُهُ مِنَ النُّوعِ السَّهْلِ الْمَتْنِيعِ . هَذَا مَعَ تَضَلُّعِهِ فِي عُلُومِ الشَّرِيعَةِ ، وَرُسُوخِ قَدَمِهِ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْفُنُونِ وَلَهُ غَيْرُ التَّارِيخِ كُتُبٌ أُخْرَى فِي مَوَاضِيَعٍ شَتَّى . وَكَانَتْ وَفَاتُهُ بِمَرَكَشَ سَنَةَ ١٢٩٤ .

التَّبْوِغُ الْمَغْرِبِي

فِي الْأَدَبِ الْعَرَبِيِّ

تأليف

عَبْدَ اللَّهِ كَنْوَن

الجزء الثاني

رسالة من المستشرق بروكلمان الى المؤلف

هالة في ٧ رجب ١٣٦١

حضرة الاستاذ العلامة الشيخ السيد عبدالله كنون الحسني ،
تحية واحتراما .

وبعد ؛ فقد قبلت كتابكم العزيز المسمى بالنبوغ المغربي في
الادب العربي الذي أكرمتوني بإرساله الي ، فابتدأت
بقراءته واستفدت منه كثيراً في تاريخ الآداب المغربية مما
فات بحشي الى الآن . وارجو ان أصرف مضمونه العزيز
لفائدتي وفائدة أصحابي المستشرقين في استدراك كتابي الأول
في تاريخ الآداب العربية ، الذي هو الان مطبوع في مدينة
ليدن . وكذلك قبلت كتابكم في شرح الشمقمقية ومقصورة
المكودي وقرأت ما كتبتم في مقدمة الكتابين في أحوال
المؤلفين . وابتهجت بظرافة المقصورة ، وثقافة الأرجوزة
المشورة ، فان كتبكم لم يبلغ الي صيتها في هذه الازمان
المشوشة لولا ان ارسلتموها الي .

وتفضلوا يا حضرة السيد العزيز بقبول احترامي وتحياتي
العاطرة والسلام .

كارل بروكلمان

المنتخبات الأدبية قسم المنشور

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قسم المنشور

ذكرنا في مقدمة الكتاب أننا نؤخر جميع الآثار والمنتخبات الأدبية الى الجزئين الثاني والثالث حيث نضم بعضها الى بعض ، ونؤلف منها مجموعة نفيسة حاوية لأهم ما صدر عن أدياء العصور المختلفة من بديع النظم والنثر . وها نحن أولاء نقدم للقارئ الأديب تلك الآثار والمنتخبات البديعة ، مُقسّمين لها على قسمين ، قسم المنشور المضمّن في هذا الجزء ، وقسم المنظوم المضمّن في الجزء بعده ، مُبَوِّين كل قسم أبواباً بحسب أغراضه وفنونه ، غير مُتَعَرِّضين بشرح أو بيان الا للغريب والغامض الذي لا يسهل فهمه على كل الناس ، وذلك رغبة في الإيجاز وعدم التشويش على المطالعين .

وقد بدأنا بقسم المنشور لأن النشر أصلُ الكلام ، ونفتِّحه بالتحميد
والصلاة للتَّيْمَن ، وبعد ذلك نذكر الخطب لأنها أولُ المحفوظ من نشر
العرب ، ثم المناظرات لِيزيد شَبَّهها بالخطب في الأسلوب والغرض ، ثم
الرسائل وهي أهمُّ أغراض النشر ، ثم المقامات وهي قِصَصٌ قصيرة
تُكتب بأسلوب أدبي مَسْجُوع ، وتشتمل على إفادات وانشادات ، ثم
المحاضرات وهي من موضوع المقامات لاشتغالها مثلها على القصة والفائدة ،
ثم المقالات وهو باب جديد في الأدب العربي على اعتبار المعنى الحديث
للأدب الذي يرمي الى عدِّ جميع الأشكال الكلامية التي يستخدمها
الإنسان للتعبير عن آرائه بلسانه أو قلمه ، سواء في الدرس الفني واللغوي
أو البحث العلمي والفلسفي موضوعاً للأدب يجب أن يُدرَس ويُبحث
بروح أدبية محضة .

وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ وَعَلَيْهِ التَّكْلَانِ .

التحميد والصلوة

تحميد للقاضي عياض

جمع فيه بين توحيد الجلالة وتمجيد صاحب الرسالة

الحمد لله المنفرد باسمه الأسمى المختص بالملك الأعزّ الأتمى ،
الذي ليس دونه منتهى ولا وراءه مرمى ، الظاهر لا تخيلاً ولا وهماً ،
الباطن قدساً لا عدماً وسع كل شيء رحمةً وعلماً ، وأسبغ على أوليائه
نعماً عماً ، وبعث فيهم رسولا من أنفسهم أنفسهم عرباً وعجماً ،
وأزكاهم تحيداً ومنمى ، وأرجحهم عقلاً وحلماً وأوفرهم علماً وفهماً ،
وأقوامهم يقيناً وعزماً ، وأشدّهم بهم رافةً ورثى ، زكاهم روحاً وجسماً ،
وحاشاهم عيباً ووتصياً ، وآتاه حكمةً وحكماً ، وفتح به أعيناً عمياً
وقلوباً غلفاً وآذاناً صمّاً ، فأمن به وعزّره ونصره من جعل الله له في
مغنم السعادة قسماً ، وكذب به وصدف عن آياته من كتب الله عليه
الشفاء حتماً ، ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى ، صلى الله
عليه صلاة تنمؤ وتتمى ، وعلى آله وسلم تسليماً .

تسبيح المهدي بن نوموت

سُبْحَانَ مَنْ أَرْسَى مَهَادَ الْأَرْضِ بِالشَّأَخَاتِ^١ ، وَارْتَفَعَتْ بِقُدْرَتِهِ
السَّمَاوَاتِ ، وَدَبَّرَ الْأَزْمَانَ بِالنُّورِ وَالظُّلُمَاتِ وَتَدَكَّدَكَتِ^٢ لَجَلَالِهِ الْقَائِسِيَّاتِ ،
وَأَثَارَ السَّحَابِ بِالْعَاصِفَاتِ ، وَأَنْزَلَ الثَّجَاجَ^٣ مِنَ الْمُفْصِرَاتِ^٤ ، فَأَخْرَجَ بِهِ
مِنَ الْأَرْضِ الْبَرَكَاتِ وَقَسَمَ بَعْدَ ذَلِكَ الْأَقْوَاتِ .

سُبْحَانَ مَنْ قَيَّدَ الْخَلْقَ بِالْحَرَكَاتِ وَالسَّكِّنَاتِ ، وَصَوَّرَهُمْ بِتَبَاقُيْنِ
الْهَيْئَاتِ وَسَخَّرَهُمْ بِتَسْلُطِ الْحَاجَاتِ ، وَأَظْهَرَ عَجْزَهُمْ بِتَبَدُّلِ الْحَالَاتِ ،
وَحَتَمَ جَهْلَهُمْ بِالْغَيْبِ وَالتَّكْيِيفَاتِ ، وَمَا تَبْلُغُهُ الدَّلَالَاتِ ، وَلَا تُحِيطُ
بِهِ الْإِدْرَاكَاتِ ، وَحَذَّرَهُمْ مِنْ تَجَاوُزِ الْمَحْدُودَاتِ ، وَتَعَدِّي الْمَعْقُولَاتِ ،
إِلَى الْقَوْلِ بِالتَّكْيِيفَاتِ ، وَالْقَطْعِ بِالتَّخْيِيلَاتِ ،

سُبْحَانَ مَنْ أَوْضَحَ لِعِبَادِهِ الْآيَاتِ ، وَأَظْهَرَ لَهُمُ الدَّلَالَاتِ ، عَلَى
قَاطِرِ السَّمَاوَاتِ فَتَنَطَّقَتْ بِوُجُودِهِ الْجَمَادَاتِ ، وَشَهِدَتْ عَلَى عَظَمَتِهِ
الْمَخْلُوقَاتِ ، وَأَخْبَرَتْ بِكَمَالِهِ الْآيَاتُ فَقَالَتْ بِلِسَانِ الْحَالِ مُبَيِّنَاتٌ ،
فَاقَتْ عَظَمَتُهُ الْغَايَاتِ ، لَا تَنْتَاهِي لَهُ الْمُقْدُورَاتِ ، وَلَا تَنْحَصِرُ لَهُ
الْمَعْلُومَاتِ ، جَلَّ عَنْ التَّكْيِيفَاتِ ، إِلَهُ مَنْ فِي الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتِ .

١ - يعني الجبال ٢ - أي تفتت ٣ - أي السحب ٤ - والتجاج : المطر .

دُعَاءٌ وَمُنَاجَاةٌ لِأَيِّ الْعَبَّاسِ السَّبْتِيِّ

اَللّٰهُمَّ اَفْضَلْتَ فَعَمَّ اِفْضَالُكَ ، وَاَنْعَمْتَ فَمَتَّ نَوَالُكَ ، وَغَفَرْتَ
 الذُّنُوبَ فَتَكَامَلْ اِحْسَانُكَ ، وَسَرَتْ الْعُيُوبَ فَتَوَاصَلْ غُفْرَانُكَ ، اَللّٰهُمَّ
 لَكَ الْحَمْدُ عَلَى حَقْلِ ثَقَفَتِهِ ، وَلَكَ الْحَمْدُ عَلَى فَهْمِ وَفَقَّتِهِ ، وَلَكَ الْحَمْدُ
 عَلَى تَوْفِيقِ هَدْيَتِهِ ، جَلَّ جَلَالُكَ وَتَعَالَى ، وَاَنْهَلْ جُودُكَ وَتَوَالَى ،
 وَجَرَى رِزْقُكَ حَلَالًا ، وَتَعَالَيْتَ فِي دُنُوكَ وَتَقَرَّبْتَ فِي عُلُوكَ ، فَلَا
 يُذَرِّكَكَ وَهُمْ ، وَلَا يُحِيطُ بِكَ فَهْمٌ ، وَتَزَّهَتْ فِي أَحَدِيَّتِكَ عَنْ
 بِدَايَةِ ، وَتَعَاظَمْتَ فِي أُلُوْهِيَّتِكَ عَنْ نِهَايَةِ ، أَنْتَ الْوَاحِدُ لَا مِنْ عَدَدٍ ،
 وَالْبَاقِي بَعْدَ الْأَبَدِ ، لَكَ خَضَعُ مَنْ رَكَعَ كَمَا ذَلَّ لَكَ مَنْ سَجَدَ ، (قُلْ
 هُوَ اللهُ أَحَدٌ ، اللهُ الصَّمَدُ ، لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ)

إِلَهِي كَيْفَ يُحِيطُ بِكَ عِلْمُ خَلْقَتِهِ ، أَمْ كَيْفَ يُدْرِكَكَ بَصَرُ أَنْتَ
 شَقَقْتَهُ ، أَمْ كَيْفَ يَدْنُو مِنْكَ فِكْرُ أَنْتَ وَفَقَّتَهُ ، أَمْ كَيْفَ يَشْكُرُكَ
 لِسَانُ أَنْتَ أَنْطَقْتَهُ ، إِذَا تَلَمَّحَتْ الْبَصَائِرُ عَادَتْ بِنُورِ سُلْطَانِكَ كَلِيلَةَ ،
 وَإِذَا تَجَمَّعَتْ عِظَائِمُ الْجَرَائِمِ كَانَتْ فِي جَنْبِ غُفْرَانِكَ قَلِيلَةَ ، سَبَقَتْ السَّبْقَ
 فَأَنْتَ الْأَوَّلُ ، وَخَلَقْتَ الْخَلْقَ فَعَلَيْكَ الْمَعْوَلُ ، وَعُدْتَ إِذَا جُدْتَ يَا
 خَيْرَ مَنْ تَطَوَّلَ ، عَجِبًا لِقُلُوبٍ كَيْفَ اسْتَمَرَّتْ عَلَى الْأَنْسِ بِسَوَاكَ ،
 وَلَارْوَا حَ كَيْفَ شَكَرَتْ مَنْ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ لَوْ لَاكَ ، وَلِنَفُوسٍ
 سَكِرَتْ مِنْ شَرَابِ جَدُّوَاكَ ، وَلَا كُفَّ جَمْعَتْ وَقَدْ اسْتَقْرَضَتْهَا هَلَا

جادت بِذَآكَ ، كَيْفَ يُنَاجِيكَ فِي الصَّلَوَاتِ ، مَنْ يَعِصِيكَ فِي الْخَلَوَاتِ ،
أَمْ كَيْفَ يَدْعُوكَ لِلْمُهَيَّمَاتِ مَنْ يَنْسَاكَ لِلشَّهَوَاتِ ،

إِلَهِي كَيْفَ خُتِمَتِ الْأَلْسُنُ بِاللَّيْلِ وَقَدْ قُلْتَ هَلْ مِنْ سَائِلٍ ،
وَكَيْفَ كَفَّتِ الْأَكْفُفُ وَسَبِيلُ الْجُودِ سَائِلٍ ، وَكَيْفَ سَهَا عَنْ خِطَابِكَ
مَنْ لَا تَعِظُهُ الْوَسَائِلُ وَكَيْفَ يَبِيعُ مَا يَبْقَى بِمَا يَفْنَى وَإِنَّمَا هِيَ أَيَّامُ قَلَانِلٍ ،
يَا رُوحَ الْقُلُوبِ أَيْنَ طُلَّابُكَ ، يَا رَبَّ الْأَرْبَابِ أَيْنَ أَحِبَّاءُكَ ، يَا نُورَ
السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَيْنَ قَصَادُكَ يَا مُسَبِّبَ الْأَسْبَابِ أَيْنَ عُبَادُكَ ، مَنْ الَّذِي
عَامَلَكَ بِلَبِّهِ فَلَمْ يَرْتَجِ ، وَمَنْ الَّذِي جَاءَكَ بِكَرْبِهِ فَلَمْ يَفْرَحِ ، أَيْ
صَدْرٍ صَدَرَ عَنْ بَابِكَ الْكَرِيمِ فَلَمْ يُشْرَحِ ، مَنْ الَّذِي لَازَ بِجَنَابِكَ الْعَلِيِّ
فَاسْتَهَى أَنْ يَنْزَحِ ، وَاهَا لِقُلُوبٍ مَالَتْ إِلَى غَيْرِكَ مَا أَرَادَتْ ، وَلِنَفُوسٍ
تُحِبُّ الرَّاحَةَ هَلَّا طَلَبْتَ مِنْكَ وَاسْتَفَادْتَ ،

صلاة لعبد السلام بن مَشِيش

وهي المعروفة بالصلاة المشيشية

اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مَنْ مِنْهُ انْشَقَّتِ الْأَسْرَارُ وَانْفَلَقَتِ الْأَنْوَارُ ، وَفِيهِ
ارْتَقَتِ الْحَقَائِقُ ، وَتَنَزَّلَتْ عُلُومُ آدَمَ فَأَعْجَزَ الْخَلَائِقُ ، وَلَهُ تَضَاءَتِ
الْفُهُومُ ، فَلَمْ يُدْرِكْهُ مِثًا سَابِقٌ وَلَا لَاحِقٌ ، فَرِيَاضُ الْمَلَائِكُوتِ بِزَهْرِ
جَمَالِهِ مُوَبَّقَةٌ ، وَرِحْيَاضُ الْجَبَرُوتِ بِفَيْضِ أَنْوَارِهِ مُتَدَفِّقَةٌ ، وَلَا شَيْءَ
إِلَّا وَهُوَ بِهِ مَنْوُوطٌ ، اذْ لَوْلَا الْوَاسِطَةُ لَذَهَبَ كَمَا قِيلَ الْمَوْسُوطُ ،

صلاة تليق بك منك اليه ، كما هو أهله ، اللهم إنه سرُّك الجامع الدالُّ عليك ، وحجابك الأعظم ، القائم لك بين يديك ، اللهم ألحقني بنسبه ، وحققني بحسبه ، وعرفني إياه مغرقةً أسلم بها من موارد الجهنم وأكرع بها من موارد الفضل ، وأحلني على سيده الى حضرتك ، خلا مخفوفاً بنصرتك ، واقذف بي على الباطل فأذمعه ، وزجَّ بي في بحار الاحدية وانشلني من أوتال التوحيد وأغرقني في عين بحر الوحدة حتى لا أرى ولا أسمع ولا أجد ولا أحس إلا بها واجعل الحجاب الأعظم حياة رُوحِي وروحه سرَّ حقيقتي وحقيقته جامع عوالمي بتحقيق الحق الأول ، يا أولُ يا آخرُ يا ظاهرُ يا باطن ، اسمع ندائي بما سمعت به نداء عبدك زكرياء عليه السلام ، وانصُرني بك لك ، وأيدني بك لك واجمع بيني وبينك ، وحل بيني وبين غيرك ، الله ! الله ! الله ! (إن الذي فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد ، ربنا آتينا من لدنك رحمة وهيئة لنا من أمرنا رشداً)

الحزب الكبير^٢ لأبي الحسن الشاذلي

ويشتمل على أدعية وأذكار ذات نفس صوفي عالٍ
وتزعة فلسفية رائعة

بسم الله الرحمن الرحيم ، واذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا فقل سلام

١ - أي اشرب . ٢ - أي ارم . ٣ - للشاذلي أحزاب أخرى فلذلك يعرف هذا بالكبير والحزب عندهم طائفة من الكلام في موضوع الذكر والدعاء كاحزاب القرآن .

عليكم ، كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءاً بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ .. بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةً ، وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ، ذَلِكَمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ، لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ .. الرَّ .. كَبِيعَص .. حَمَّسَق .. رَبِّ احْكُم بِالْحَقِّ وَرَبُّنَا الرَّحْمَنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ .. طه ما انزلنا عليك القرآن لتشقى إِلَّا تَذَكُّرَةً لِمَنْ يَخْشَى ، تَنْزِيلًا مِمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَاوَاتِ الْعُلَى ، الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ، لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى ، وَإِنْ تَجَهَّزْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى ، اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى ،

اللهم إنك تعلم أنني بالجهالة معزوف ، وأنتَ بالعلم موصوف ، وقد وسَّعتَ كلَّ شيءٍ من جهالتي بعلمك ، فسَّعْتَ ذاكَ برحمتك ، كما وسَّعته بعلمك ، واغفر لي أنك على كلِّ شيءٍ قدير . يَا اللَّهُ يَا مَالِكُ يَا وَهَّابُ ، هَبْ لَنَا مِنْ نِعْمَاكَ مَا عَمِلْنَا لَنَا فِيهِ رِضَاكَ ، وَاكْسُنَا كِسْوَةَ تَقِينَا بِهَا مِنَ الْفِتَنِ فِي جَمِيعِ عَطَايَاكَ ، وَقَدِّسْنَا بِهَا عَنْ كُلِّ وَصْفٍ يُوْجِبُ نَقْصًا مِمَّا اسْتَأْثَرْتَ بِهِ فِي عِلْمِكَ عَمَّنْ سِوَاكَ ، يَا اللَّهُ يَا عَظِيمُ يَا عَلِيُّ يَا كَبِيرُ ، نَسْأَلُكَ الْفَقْرَ مِمَّا سِوَاكَ ، وَالْغِنَى بِكَ حَتَّى لَا نَشْهَدَ إِلَّا إِيَّاكَ ، وَالْطُّفَ بِنَا فِيهِمَا لَطْفًا عَمَلْتَهُ يَصْلُحُ لِمَنْ وَالَاكَ وَاكْسُنَا جَلَابِيبَ الْعِصْمَةِ فِي الْإِنْفَاسِ

وَاللَّحَظَاتِ ، وَاجْعَلْنَا عَيْدًا لَكَ فِي جَمِيعِ الْحَالَاتِ ، وَعَلَّمْنَا مِنْ لَدُنْكَ
عِلْمًا نَصِيرُ بِهِ كَامِلِينَ فِي الْمَحْيَا وَالْمَمَاتِ ،

اللَّهُمَّ أَنْتَ الْحَمِيدُ الرَّبُّ الْحَمِيدُ الْفَعَّالُ لِمَا تُرِيدُ ، تَعَلَّمْ فَرَحَنَا بِمَاذَا
وَلِمَاذَا وَعَلَى مَاذَا ، وَتَعَلَّمْ حَزَنَنَا كَذَلِكَ ، وَقَدْ أُوجِبْتَ كَوْنًا مَا أَرَدْتَهُ
فِينَا وَمَنَا وَلَا نَسْأَلُكَ دَفْعَ مَا تُرِيدُ ، وَلَكِنْ نَسْأَلُكَ التَّأْيِيدَ بِرُوحٍ مِنْ
عِنْدِكَ فِيمَا تُرِيدُ كَمَا أَيْدَتِ أَنْبِيَاءُكَ وَرُسُلَكَ وَخَاصَّةَ الصَّادِقِينَ مِنْ
خَلْقِكَ ، إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ، اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ
عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ ، أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ ، فَهَيِّئْ لِمَنْ عَرَفَكَ ،
وَرَضِيَ بِقَضَائِكَ ، وَالْوَيْلُ لِمَنْ لَمْ يَعْرِفْكَ بَلِ الْوَيْلُ لِمَنْ أَقْرَأَ
بِوَحْدَانِيَّتِكَ وَلَمْ يَرْضَ بِأَحْكَامِكَ ، اللَّهُمَّ إِنْ الْقَوْمَ قَدْ حَكَمْتَ عَلَيْهِمْ
بِالذُّلِّ حَتَّى عَزُّوْا ، وَحَكَمْتَ عَلَيْهِمْ بِالْفَقْدِ حَتَّى وَجَدُوا ، فَكُلُّ عَزٍّ
يَمْنَعُ دُونَكَ فَتَسْأَلُكَ بِدَلَالَةِ ذَلَالَتِهِ تَصْحِبُهُ لَطَائِفُ رَحْمَتِكَ ، وَكُلُّ وَجَدٍ
يَجْجُبُ عَنْكَ فَتَسْأَلُكَ عَوَاضَهُ فَقَدْ تَصْحِبُهُ أَنْوَارُ مَحَبَّتِكَ ، فَانْهَ قَدْ ظَهَرَتْ
السَّعَادَةُ عَلَى مَنْ أَحْبَبْتَهُ ، وَظَهَرَتْ الشَّقَاوَةُ عَلَى مَنْ غَيَّرَكَ مَلَكَهَ ، فَهَبْ لَنَا
مِنْ مَوَاهِبِ السَّعَادَةِ وَاعْصِمْنَا مِنْ مَوَارِدِ الْإِشْقِيَاءِ .

اللَّهُمَّ إِنَّا قَدْ عَجَزْنَا عَنْ دَفْعِ الضَّرِّ عَنْ أَنْفُسِنَا مِنْ حَيْثُ نَعْلَمُ بِمَا نَعْلَمُ ،
فَكَيْفَ لَا نَعْجِزُ عَنْ ذَلِكَ مِنْ حَيْثُ لَا نَعْلَمُ بِمَا لَا نَعْلَمُ ، وَقَدْ أَمَرْتَنَا
وَنَهَيْتَنَا وَالْمَدْحَ وَالذَّمَّ أَلْزَمْتَنَا ، فَأَخِرُ الصَّلَاحِ مِنْ أَصْلَحَتِهِ ، وَأَخْوُ الْفُسَادِ
مِنْ أَضْلَلَتِهِ ، وَالسَّعِيدُ حَقًّا مَنْ أَغْنَيْتَهُ عَنِ السُّؤَالِ مِنْكَ ، وَالشَّقِيُّ حَقًّا مَنْ
حَرَمْتَهُ مَعَ كَثْرَةِ السُّؤَالِ لَكَ ، فَأَغْنِنَا بِفَضْلِكَ عَنِ سُؤَالِنَا مِنْكَ ، وَلَا تَحْرِمْ نَا

من رحمتك ، مع كثرة سؤالننا لك واغفر لنا انك على كل شيء قدير ،
يا شديد البطش ، يا جبار يا قهار ، يا حكيم نعوذ بك من شر ما
خلقت ، ونعوذ بك من ظلمة ما أبدعت ، ونعوذ بك من كيد النفوس
فما قدرْتَ وأردت ، ونعوذ بك من شر الحساد على ما أنعمت ، ونسألك
عز الدنيا والآخرة كما سألكه نبيك سيدنا محمد ﷺ ، عز الدنيا بالايان
والمعرفة ، وعز الآخرة باللقاء والمشاهدة ، انك سميع قريب مجيب .

اللهم اني أقدمُ اليك بين يدي كل نفسٍ ولمحةٍ وطرفةٍ يطرفُ بها
أهلُ السماوات وأهلُ الأرض ، وكلُّ شيءٍ هو في علمك كائن أو قد
كان أقدمُ اليك بين يدي ذلك كله (الله لا اله الا هو ، الحي القيوم ،
لا تأخذه سنةٌ ولا نوم ، له ما في السماوات وما في الارض ، من ذا
الذي يشفع عنده الا بإذنه ، يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ، ولا
يُحيطون بشيء من علمه الا بما شاء ، وسع كرسيه السماوات والأرض ،
ولا يؤوده حفظهما وهو العلي العظيم) أقسمتُ عليك ببسط يديك ،
وكرم وجهك ، ونور عينيك ، وكال أعينك ، أن تُعطينا خير ما
نفذت به مشيئتك ، وتعلقت به قدرتك ، وأحاط به علمك واكفينا
شر ما هو ضد ذلك ، وأكمل لنا ديننا وأتمم علينا نعمتك ، وهب
لنا حكمة الحكمة البالغة مع الحياة الطيبة ، والموتة الحسنة ، وتول
قبض أرواحنا بيدك ، وحل بيننا وبين غيرك ، في البرزخ وما قبله

وما بعده بُنُور ذَاتِكَ ، وعَظِيم قَدْرَتِكَ وَجِيل فَضْلِكَ ، انك علي كل شيء قدير .

يا الله يا علي يا عظيم يا حلِيم يا حَكِيم يا كَرِيم يا سَمِيع يا قَرِيب يا
مَجِيب يا وَدود ، حُلْ بَيْنَنَا وَبَيْن فَتْنَةِ الدُّنْيَا وَالنِّسَاءِ وَالْغَفْلَةِ وَالشَّهْوَةِ وَظُلْمِ
الْعِبَادِ وَسُوءِ الْخَلْقِ ، وَاعْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَأَقْضِ عَنَّا تَبِعَاتِنَا وَاكْشِفْ
عَنَّا السُّوءَ وَنَجِّنَا مِنَ الْغَمِّ ، وَاجْعَلْ لَنَا مِنْهُ فَرْجاً وَخَرَجاً انك علي كل
شيء قدير . يا الله يا الله يا الله ، يا لَطِيفُ يا رَزَّاقُ يا قَوِيُّ يا عَزِيزُ ،
لَكَ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ تَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ تَشَاءُ وَتَقْدِرُ ، فَابْسُطْ
لَنَا مِنَ الرِّزْقِ مَا تَوْصَلُنَا بِهِ إِلَى رَحْمَتِكَ ، وَمِنْ رَحْمَتِكَ مَا تَحُولُ بِهِ
بَيْنَنَا وَبَيْن نِقْمَتِكَ ، وَمِنْ حِلْمِكَ مَا يَسَعُنَا بِهِ عَفْوُكَ وَاخْتِمْ لَنَا بِالسَّعَادَةِ
الَّتِي خَتَمْتَ بِهَا لِأَوْلِيَائِكَ ، وَاجْعَلْ خَيْرَ أَيَّامِنَا وَأَسْعَدَهَا يَوْمَ لِقَائِكَ ،
وَزَحْزَحْنَا فِي الدُّنْيَا عَنْ نَارِ الشَّهْوَةِ ، وَأَدْخِلْنَا بِفَضْلِكَ فِي مِيَادِينِ الرَّحْمَةِ ،
وَاكْسُنَا مِنْ نُورِكَ جَلَالِيبَ الْعِصْمَةِ ، وَاجْعَلْ لَنَا ظَهيراً مِنْ عَقُولِنَا
وَمُهَيِّمِينَ مِنْ أَرْوَاحِنَا ، وَمُسَخِّرِينَ مِنْ أَنْفُسِنَا ، كَيْ نَسَبِّحَكَ كَثِيراً
وَنَذْكُرَكَ كَثِيراً إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيراً . وَهَبْ لَنَا مُشَاهِدَةً تَصَحِّبُنَا
مُكَامِلَةً ، وَافْتَحْ أَسْمَاعَنَا وَأَبْطَرَنَا وَادْكُرْنَا إِذَا غَفَلْنَا عَنْكَ ، بِأَحْسَنِ مَا
تَذْكُرُنَا بِهِ إِذَا ذَكَرْنَاكَ ، وَارْحَمْنَا إِذَا عَصَيْنَاكَ بِأَتْمِّ مَا تَرَحَّمُنَا بِهِ إِذَا
أَطَعْنَاكَ ، وَاعْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا مَا تَقَدَّمَ مِنْهَا وَمَا تَأَخَّرَ ، وَالطُّفُّ بِنَا
لَطْفاً يَحْجُبُنَا عَنْ غَيْرِكَ وَلَا يَحْجِبُنَا عَنْكَ ، فَانك بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ .

اللهم انا نسألك لساناً رَطْباً بذكرك ، وقلباً مُنْعَمًا بشكرك ،
 وبدناً هَيِّنًا لَيْنًا لطاعتك وأعطنا مع ذلك ما لا عين رأت ولا أذن
 سمعت ولا خطر على قلب بشر ، كما اخبر به رسولك ﷺ ، حسب
 ما علمته بعلمك ، وأغينا بلا سب ، واجعلنا سبب الغنى لأوليانك ،
 وبرزخاً بينهم وبين أعدائك ، انك على كل شيء قدير ، اللهم إنا
 نسألك ايماناً دائماً ، ونسألك قلباً خاشعاً ، ونسألك علماً نافعاً ، ونسألك
 يقيناً صادقاً ، ونسألك ديناً قيماً ، ونسألك العافية من كل بلية ،
 ونسألك تمام العافية ونسألك دوام العافية ، ونسألك الشكر على العافية ،
 ونسألك الغنى عن الناس ، اللهم انا نسألك التوبة الكاملة ، والمغفرة
 الشاملة ، والمحبة الجامعة والحلّة الصافية ، والمعرفة الواسعة ، والأنوار
 الساطعة ، والشفاعة القائمة ، والحجة البالغة ، والدرجة العالية ، وفك
 وثاقنا من المعصية ، ورهاننا من النعمة بمواهب المنة ، انك على كل شيء
 قدير ، اللهم انا نسألك التوبة ودوامها ، ونعوذ بك من المعصية وأسبابها ،
 وذكرنا بالخوف منك قبل هجوم خطراتها ، واحملنا على النجاة منها ،
 ومن التفكير في طرائقها ، وانمح من قلوبنا حلاوة ما اجتنبناه منها
 واستبدلها بالكراهة لها والطعم لما هو بضيدها ، وأفض علينا من بحر
 كرمك وفضلك وجودك وعفوك حتى تخرج من الدنيا على السلامة من
 وبأها ، واجعلنا عند الموت ناطقين بالشهادة عالين بها ، وارأف بنا
 رافة الجيب بحبيبه عند الشدائد ونزولها وأرحنا من هموم الدنيا
 ونغمومها بالروح والريحان الى الجنة ونعيمها ،

اللهم انا نسألك توبةً سابقةً منك الينا لتكون توبتنا تابعةً اليك منا ،
 وهب لنا التلقّي منك كتلقّي آدم منك الكلمات ، ليكون قدوةً لولدِهِ
 في التوبة والأعمال الصالحات ، وباعد بيننا وبين العناد والإصرار ، والشبه
 بإبليس رأس الغواية واجعل سيئاتنا سيئات من أحببت ، ولا تجعل
 حسناتنا حسنات من أبغضت ، فلاحسان لا ينفع مع البغض منك ،
 والاساءة لا تضر مع الحب منك ، وقد أهملت الامر علينا ليرجوا
 ونخاف فآمن خوفنا ولا نخيب رجاءنا ، وأعطنا سؤلنا فقد أعطيتنا
 الايمان من قبل أن نسألك ، وكنت وحببت وزيت وكرهت وأطلقت
 الألسن بما به ترجحت ، فينعم الرب انت ، فلك الحمد على ما أنعمت فاغفر
 لنا ولا تعاقبنا بالسلب بعد العطاء ، ولا بكفران النعم وحرمان الرضى ،
 اللهم رضىنا بقضائك ، وصبرنا على طاعتك ، وعن معصيتك ، وعن الشهوات
 الموجبات للنقص والبعد عنك ، وهب لنا حقيقة الايمان بك ، والتوكل
 عليك ، حتى لا نخاف غيرك ، ولا نرجو غيرك ، ولا نحب غيرك ، ولا
 نعبد شيئاً سواك ، وأوزعنا شكر نعمائك ، وغطننا برداء عافيتك ،
 وانصرنا باليقين والتوكل عليك ، وأسفر وجوهنا بنور صفاتك ، واضحكنا
 وبشرنا يوم القيامة بين أوليائك ، واجعل يدك مبسوطةً علينا وعلى أهلينا
 وأولادنا ومن معنا برحمتك ، ولا تكلنا الى أنفسنا طرفة عين ولا اقل
 من ذلك ، يا نعم الحبيب ، يا من هو في علوه قريب يا ذا الجلال والاكرام ،
 يا محيطاً بالليالي والأيام ، اشكو اليك من غم الحجاب ، وسوء الحساب ،

وشدة العقاب وإن ذلك لو وقع ، ماله من دافع ، إن لم ترخني لا اله الا
 أنت سبحانك إني كنت من الظالمين ، ولقد شكاك اليك يعقوب فخلصته من
 حزنه ، ورددت عليه ما ذهب من بصره ، وجمعت بينه وبين والده ، ولقد
 ناداك نوح من قبل فنجيته من كربه ، ولقد ناداك أيوب من بعد فكشفت
 ما به من ضره ، ولقد ناداك يونس فنجيته من غمه ولقد ناداك زكرياء
 فوهبت له ولداً من صلبه ، بعد يأس أهله وكبر سنه ، ولقد علمت ما
 نزل بإبراهيم فأنقذته من نار عدوه ، وأنجيت لوطاً وأهله من العذاب
 النازل بقومه ، .. فما أناذا عبدك إن تعذبني بجميع ما علمت فأنا حقيق به ،
 وإن ترخني كما رحمتهم مع عظم إجرامي فانت أولى بذلك وأحق من
 أكرم به ، فليس كرمك مخصوصاً بمن أطاعك ، وأقبل عليك ، بل هو
 مبذول بالسبق لمن شئت من خلقك وإن عصاك وأعرض عنك ، وليس
 من الكرم أن لا تحسن إلا لمن أحسن إليك ، وأنت المفضل الغني ، بل
 من الكرم أن تحسن الى من أساء اليك ، وأنت الرحيم العلي ، كيف وقد
 أمرتنا أن نحسن الى من أساء الينا ، فانت أولى بذلك منا ، ربنا ظلمنا
 أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين . يا الله ، يا الله ،
 يا الله ، يا رحمان يا رحيم يا حي يا قيوم ، يا من هو يا هو إن لم
 نكون لرحمتك أهلاً أن ننالها فرحمتك أهل أن تنالنا ، يا رباه يا مغيث
 من عصاه أغشنا يا رب يا كريم ، وارحمنا يا بر يا رحيم ، يا من وسع
 كرسيه السماوات والأرض ولا يؤوده حفظهما وهو العلي العظيم ، أسألك

الايانَ بحفظك ، ايماناً يَسْكُنُ به قلبي من همِّ الرزقِ وخوفِ الخلقِ
واقربُ مني بقُدْرَتِكَ قُرْباً تَحَقُّقُ به عني كل حجاب محقَّته عن ابراهيمَ
خَلِيلِكَ ، فم يَحْتَجُ لِجَبْرِيلَ رَسُولِكَ ، ولا لِسؤاله منك ، وحجَّته بذلك عن نارِ
عَدُوِّهِ ، وكيف لا يُحَجِّبُ عن مَضَرَّةِ الأعداءِ مَنْ غَيَّبَتْهُ عَنْ مَنْفَعَةِ الأَحِبَّاءِ ،
كَلَّا إِنِّي أَسْأَلُكَ أَنْ تَغِيْبَنِي بِقُرْبِكَ مِنِّي حَتَّى لَا أَرَى وَلَا أَحْسُ بِقُرْبِ شَيْءٍ
وَلَا يَبْعُدُهُ عَنِّي ، اِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ، اِفْحَسِبْتُمْ اَنْمَّا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا
وَأَنْكُمْ لَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ، فَتَعَالَى اَللَّهُ اَلْمَلِكُ اَلْحَقُّ ، لا اِلهَ اِلا هُوَ رَبُّ
اَلْعَرْشِ اَلْكَرِيمِ ، وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اَللَّهِ اِلهًا اٰخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَاِنَّمَا
يَحْسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ ، اِنَّهُ لَا يُفْلِحُ اَلْكَافِرُونَ ، وَقُلْ رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ
وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ ، هُوَ اَلْحَيُّ لا اِلهَ اِلا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ،
اَلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ اَلْعَالَمِينَ .

صلاة لمحمد بن سليمان الجزولي

من كتابه دلائل الخيرات

أَفْضَلُ صَلَوَاتِ اَللَّهِ ، وَأَحْسَنُ صَلَوَاتِ اَللَّهِ ، وَأَجَلُّ صَلَوَاتِ اَللَّهِ ،
وَأَجْمَلُ صَلَوَاتِ اَللَّهِ وَأَكْمَلُ صَلَوَاتِ اَللَّهِ ، وَأَسْبَغُ صَلَوَاتِ اَللَّهِ ، وَأَتَمُّ صَلَوَاتِ
اَللَّهِ ، وَأَظْهَرُ صَلَوَاتِ اَللَّهِ ، وَأَعْظَمُ صَلَوَاتِ اَللَّهِ ، وَأَذْكَى صَلَوَاتِ اَللَّهِ وَأَطْيَبُ
صَلَوَاتِ اَللَّهِ ، وَأَبْرَكَ صَلَوَاتِ اَللَّهِ ، وَأَوْفَى صَلَوَاتِ اَللَّهِ ، وَأَسْنَى صَلَوَاتِ
اَللَّهِ ، وَأَعْلَى صَلَوَاتِ اَللَّهِ ، وَأَكْثَرُ صَلَوَاتِ اَللَّهِ ، وَأَجْمَعُ صَلَوَاتِ اَللَّهِ ، وَأَعْمُ

صلوات الله ، وأدومُ صلوات الله ، وأبقى صلوات الله ، وأعزَّ صلوات الله ، وأرفع صلوات الله على أفضل خلق الله ، وأحسن خلق الله ، وأجلَّ خلق الله ، وأكرم خلق الله ، وأجل خلق الله ، وأكمل خلق الله . وأتمَّ خلق الله ، وأعظم خلق الله عند الله ، رسول الله ، ونبي الله ، وحبيب الله ، وصفيُّ الله ، ونجِّيُّ الله ، و خليل الله ، ووليُّ الله ، وأمين الله ، وخيرَ الله من خلق الله ، ونُخبَةِ الله من برِّيَةِ الله ، وصفوة الله من أنبياء الله ، وعُرْوَةِ الله ، وعِصْمَةِ الله ، ونِعْمَةِ الله ، ومفتاح رحمة الله ، المختار من رُسل الله ، المنتخب من خلق الله ، الفائز بالمطلب في المرثب والمرغَب المُخلص فيما وُهب ، أكرم مبعوث ، أصدق قائل ، أنجح شافع ، أفضل مشفع ، الأمين فيما استودع ، الصادق فيما بلغ ، الصانع بأمر ربِّه ، المُضطلع بما حُمِّل ، أقرب رُسل الله الى الله وسِيلةً وأعظمهم غداً عند الله منزلةً وفضيلةً ، وأكرم أنبياء الله الكرام الصفوة على الله ، وأحبهم الى الله ، وأقربهم زُلْفَى لَدَى الله ، وأكرم الخلق على الله ، وأحظاهم وأرضاهم لدى الله ، وأعلى الناس قدراً ، وأعظمهم تحلاً ، وأكملهم حَاسِنَ وفضلاً ، وأفضل الأنبياء درجَةً ، وأكملهم شريعةً ، وأشرف الأنبياء نصاباً ، وأبينهم خطاباً ، وأفضليهم مَولِداً ومُهاجراً وعِزَّةً وأصحاباً وأكرم الناس أرومةً ، وأشرفهم جُرثومةً ، وخيرهم نفساً ، وأطهرهم قلباً ، وأصدقهم قولاً ، وأزكاهم فعلاً ، وأثبتهم أصلاً ، وأوفاهم عهداً ، وأمكنهم مجداً ، وأكرمهم طبعاً ، وأحسنهم صنعاً ، وأطيبهم

فرعا ، وأكثرهم طاعة وسمعا ، وأعلامهم مقاماً ، وأحلامهم كلاماً ، وأزكاهم
 سلاماً ، وأجلهم قدراً ، وأعظمهم فخراً ، وأسناهم نُوراً ، وأرفعهم في الملائكة
 الأعلى ذكراً ، وأصدقهم وعداً ، وأكثرهم شكراً ، وأعلامهم أمراً ، وأجلهم
 صبراً ، وأحسنهم خيراً ، وأقربهم يسراً ، وأبعدهم مكاناً ، وأعظمهم شأناً
 وأثبتهم برهاناً ، وأرجحهم ميزاناً ، وأولهم إيماناً ، وأوضحهم بياناً ،
 وأفصحهم لساناً ، وأظهرهم سلطاناً .

صلاة لآبراهيم التتازي

وتُعرف بالصلاة التتازية

اللهم صلّ صلاةً كاملةً وسلم سلاماً تاماً على محمد نبيّ تنحلّ به العقد ،
 وتنفرج به الكرب ، وتقضى به الحوائج وتنال به الرغائب ، وحسنُ
 الخواتم ، ويُستسقى الغمام بوجهه وعلى آله وصحبه ،

تمجيدُ لحمد ميثارة

بذكر فيه هداية الاسلام وجهاد النبي عليه السلام

الحمد لله مُرشد هذه الأمة لما اختار لها من الايمان والاسلام
 شرعةً ومنهاجاً مُعينٍ مَنْ أراد به خيراً على فهم قواعدهما وحفظ فروعهما
 حتى امتزجت بلحومهم ودمائهم امتزاجاً ، فانتفعوا بمعرفة ضروريّ علم
 دينهم ونفعوا من الخلق أفراداً وأزواجاً ، نحمدُه ونشكره على نِعَمه التي

لَا نُحْصِيهَا وَكَيْفَ يُخْصَى الْبَحْرُ سَيَّاحًا وَالْقَطْرُ ثَجَّاجًا وَنَسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ
 لَذُنُوبِنَا الَّتِي ارْتَكَبْنَاهَا انْحِرَافًا وَاعْوَجَاجًا ، وَنُؤْمِنُ بِهِ وَنَتَوَكَّلُ عَلَيْهِ
 افْتِقَارًا إِلَيْهِ وَاحْتِيَاجًا ، وَنَبْزُؤُ مِنَ الْحَوْلِ وَالْقُوَّةِ إِلَيْهِ بَرَاءَةً نَجِدُهَا
 سُرُورًا وَابْتِهَاجًا ، وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا الَّتِي
 صَيَّرَتْ حُلُونَنَا مُرًّا وَعَذَبْنَا أَجَاجًا ، مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ وَمَنْ يَضِلَّ
 فَلَنْ تَجِدَ لِدَاءِ ضَلَالِهِ عِلَاجًا ، وَنَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ
 شَهَادَةُ تُمَازِجُ الرُّوحَ وَالظُّلُوعَ مِزَاجًا ، وَتَكُونُ لِكُلِّ خَيْرٍ سُلَامًا وَمِغْرَاجًا ،
 وَنَشْهَدُ أَنَّ سَيِّدَنَا وَنَبِيَّنَا وَمَوْلَانَا مُحَمَّدًا عَبْدَهُ وَرَسُولَهُ الَّذِي أَطْلَعَهُ اللَّهُ فِي
 ظُلُمَاتِ الشَّرْكِ سِرَاجًا وَأَمَرَهُ بِمُحَارَبَةِ أَهْلِ الْكُفْرِ حَتَّى دَخَلُوا فِي دِينِ اللَّهِ
 أَفْوَاجًا ، صَلَّى اللَّهُ وَسَلَّمْ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ الَّذِينَ حَفِظُوا دِينَهُ وَأَذَاعُوهُ
 فَصَارَ مُصْبِحًا وَهَاجًا ، صَلَاةً وَسَلَامًا نَسْتَمْطِرُ بِهِمَا الْعَفْوَ اسْتِمْطَارًا
 وَنَسْتَنْتِجُ الْغُفْرَانَ اسْتِنَاجًا .

صلاة لحمد بن ناصر

من كتابه الغنيمية ، (حرف الهنزة)

اللهم صل على سيدنا ومولانا محمد وعلى آل سيدنا محمد صلاة تكون
 لنا معاذًا من الشيطان ومَكْلَأً ، اللهم صل على سيدنا ومولانا محمد وعلى آل

١ - سياحا أي جاريا والقطر بالفتح المطر ، وثججا بالتشديد أي مُنصبا
 والوصفان منصوبان على الحال .

سيدنا محمد صلاة تغفر لنا بها ما جنيناه عمداً أو خطأ ، اللهم صل على سيدنا
ومولانا محمد وعلى آل سيدنا محمد صلاة تسدّ دنا بها في أمورنا كلها معاداً
ومبدأ ، اللهم صل على سيدنا ومولانا محمد وعلى آل سيدنا محمد صلاة تجعل
لنا بها مهتجاً الى رضوانك مُوطّأً^١ . اللهم صل على سيدنا ومولانا محمد وعلى
آل سيدنا محمد صلاة تجعل لنا بها عندك قدراً وخطراً وقرباً وحباً وشرفاً
ومعجباً^٢ ، اللهم صل على سيدنا ومولانا محمد وعلى آل سيدنا محمد
صلاة تجعل لنا بها في الجنة مقيلاً ومُبَوِّهاً .

صلاة المُعطِي بن الصّالح

من كتابه الذّخيرة ، يذكر فيها شرف الاسراء بالنبي ﷺ

اللهم صل وسلم على سيدنا ومولانا محمد وعلى آل سيدنا محمد سلطان
المملكة المتوّج بتاج اليُمن والبُشرى ، ومحل الخير والبركة ، المبعوث
بالرفق والهداية واليُسرى ، الذي لما أردتَ أن تُشرفَ قدره على ما فوق
العرش وتحت الثرى ، وتُظهر مزيّته على أحبائك وأصفائك دُنياً وأخرى ،
أُسرّيتَ به الى بساطك لِتُريه ما خفيَ عن العقول من أسرار قدرتك ،
وباهر آياتك الكُبرى ، وتُطلّعه على ما رمزتَ له به في دقائقِ رقائِقِ سورة

١ - المهيح الطريق والموطأ المهيد .

٢ - أي اعتباراً .

الإسراء، وتُشجِّفه بكمال القُرب والاصطفاء وتُخَيِّره بأنه أولى بذلك المقام وأحرى، وأنه الامام الأعظم والحبيب الأكرم والصفى المؤيد بخطاب «أفتمارونه على ما يرى»، والنبي المشرف بقولك «ولقد رآه نزلةً أخرى عند سدرة المنتهى عندها جنة المأوى إذ يغشى السدرة ما يغشى ما زاع البصر وما طغى لقد رأى من آيات ربه الكبرى، فصل اللهم عليه وعلى آله صلاة تشرح بها صدورنا للذكرى، وتحفظنا بها من نكبات الدهر وعوارض العسرى، وتَهَبَّ علينا نوافح بركاتها المحمدية كل حين تثرى، بفضلك وكرمك يا أرحم الراحمين يارب العالمين.

تمجيد خالد العمري

من خطبة له إثر عَزَل أحدُ ولاة الجوز بمدينة طنجة عام ١٢٤٣ هـ

الحمد لله الذي كشف عنا البلايا ودفع عنا المكاره ونقى عنا الأسواء، وصرف عنا بغيرته الصمدانية كأساً كنا نتجرعها ولا نكاد نُسيغها من أيدي أرباب العسف والأهواء، ومال يجيش البشر على جيش العشر فانجابت عنا بحمده أحلاك العنا، والحمد لله الذي صرف عنا الأذى وأذهب رفقا بنا معشر المسامين عنا الحزن، وكحل يميناه جفوننا بعد ما ألفت الشهاد من أجل الفساد بمروءة الوسن، فاعتظنا والله مزيده الحمد من ليالي النحوس والحنى، ليالي السعود والهناء، والحمد لله الذي كبت العدو وجبر الصدع وغير الشيطان وقد شابت من مفرقه النواصي واللهم،

وردَّ عز وجل اليدَ الْعَادِيَّةَ عَنَّا ، ردَّ الْغَيُورَ يَدَ الْجَانِي عَنِ الْحَرَمِ ،
 فاستوجب منّا أَنْ نَلْهَجَ بِالْحَمْدِ وَالشُّكْرِ لَهُ عَلَى كُلِّ حَالٍ ، وما كَانَ مِنْ
 حَالٍ . بِلِسَانِ الْعَجَلِ لَا بِلِسَانِ الْوَنَانِ ، نَحْمَدُهُ تَعَالَى وَنُشْكِرُهُ ، عَلَى مَا خَوَّلَنَا
 مِنْ سَوَابِغِ النِّعَمِ ، وَنُسْتَقِيلُهُ عِزَّ جَنَابِهِ وَنُسْتَغْفِرُهُ مِنْ نَوَاهِي أَقْسَمَتِهَا تُنْتِجُ
 فَوَادِحَ النَّقَمِ ، تَحْمَدًا وَاسْتِغْفَارًا يَحْصُلُ بِهِمَا لِلْحَامِدِ وَالْمُسْتَغْفِرِ مِثْلُ مَا يَحْصُلُ
 لِلْمُفْرِدِ وَالْقَارِنِ ' مِنَ التَّكْرِمَةِ فِي مَنَى ، وَنُؤْمِنُ بِهِ وَنُتَوَكَّلُ عَلَيْهِ وَنَبْرَأُ
 مِنَ الْحَوْلِ وَالْقُوَّةِ إِلَيْهِ ، تَوَكَّلْ مِنْ أَنْابٍ ، وَبَرَاءَةٍ مِنْ جَنَّتْ يَدَاهُ مِنْ
 غُرُوسِ التَّكْرِيمِ ثَمَرُ الْمَنَى ، وَنَعُوذُ بِهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا الَّتِي لَمْ يُوقَفْ لَهَا
 عَلَى حِسَابٍ ، وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا الَّتِي أُثْبِتَتْهَا أَقْلَامُ الْكَرَامِ الْكَاتِبِينَ فِي
 كِتَابٍ ، فَانْهَ جَلَّ وَعَلَا خَيْرُ وَاقٍ يَقِينَا مِنْ وَقَعْ مَا لَهَا وَلِلْهَوَى مِنْ بِيضٍ
 وَيَسَاهِمٍ وَقَنَّا ، مَنْ يَهْدِي اللَّهُ فَلَا صَارِفَ لَهُ عَنِ التَّشَبُّثِ بِأَذْيَالِ الدِّينِ ،
 وَمَنْ يُضِلِلْ فَلَا هَادِيَ لَهُ وَلَا نَاصِرَ وَلَا مُعِينٍ ، وَمَا التَّوْفِيقُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ
 اللَّهِ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ سِرًّا وَعَلْنًا .

• صلاة للمختار الكنتيبي

من كتابه نفح الطيب ، ضمنها عمود النسب الكريم

اللهم صل وسلم على أشبهه وولد إبراهيم بإبراهيم ، المشرف بالطوايسين

والحوَامِيمُ اللَّهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ عَلَى الْمُنْبَأِ مِنْ ذُرِّيَّةِ نَابِتٍ^٢ الَّذِي شَرَفَهُ
وَذَكَرَهُ وَالتَّنْوِيَهُ بِهِ فِي جَمِيعِ الدَّهُورِ ثَابِتٍ ، اللَّهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ عَلَى الْمُخْتَارِ مِنْ
صُنْضِي^٣ عَدْنَانِ الْمُحِبُّوْ بِالسَّبْعِ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنِ . . الخ .



-
- ١ - الطوَّاسِينُ السُّورُ الْقِرَاءَانِيَةُ الْمَفْتَحَةُ بِطَسِ وَالْحَوَامِيمُ السُّورُ الْمَفْتَحَةُ بِحَمِ
وَالْأَوَّلَى أَنْ يُقَالَ لَهَا آلَ حَمِ .
٢ - نَابِتٌ هُوَ وَلَدُ اسْمَعِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ .
٣ - بِكَسْرِ الضَّادَيْنِ أَيِ أَصْلُ .

الخطبة

خطبة لطارق بن زياد

قالها في جيشه الذي فتح به الأندلس بعد ان أحرق الأحفان التي حملتهم
الى الجبل المسمى باسمه قطعاً لاملهم في الرجوع .

أيها الناس : أين ألقموا البحر من ورائكم والعدو أمامكم وليس لكم
والله الا الصدق والصبر . واعلموا أنكم في هذه الجزيرة أضع من
الأيام في مأدبة اللثام . وقد استقبلكم عدوكم بجيشه ، وسدحت وأقواته
مؤفورة . وانتم لا وزر لكم إلا سيوفكم ، ولا أقوات لكم الا ما تستخلصونه
من أيدي عدوكم . وإن امتدت بكم الايام على افتقاركم ولم سجزوا انكم
امراً ، ذهبت ريحكم وتعوّضت قلوب من رعيها منكم : جراءة
عليكم . فادفعوا عن انفسكم خذلان هذه العاقبة من امركم بمننا جزرة
هذا الطاغية ، فقد ألقى به اليكم مدينته الحصينة . وإن انتهز
الفرصة فيه لممكن ان سمحتم لانفسكم بالموت وإني لم حذركم امراً انا
عنه سنجوة ، ولا حملتكم على خطة أرخص متاع فيها النفوس (من

غير ان) أبداً بنفسي . واعلموا انكم ان صبرتم على الأشق قليلاً استمتعتم بالأرْفَه الألدَّ طويلاً ، فلا ترغبوا بانفسكم عن نفسي فما حظكم فيه بأوفى من حظي . وقد بلغكم ما انشأت هذه الجزيرة من الحورِ الحسن ، من بنات اليونان ، الرافلات في الدرّ والمرجان ، والحلل المنسوجة بالعقيقان ، المقصورات في قصور الملوك ذوي التيجان . وقد انتخبكم الوليدُ بن عبد الملك امير المؤمنين من الأبطال عُرباناً ، ورَضِيَكُمْ لِلْمُلُوكِ هذه الجزيرة أضهاراً واختاناً . ثقةً منه بارتياحكم للطعان ، واستياحكم بمجالد الأبطال والفرسان ، ليكون حظُّه منكم ثواب الله على إعلاء كلمته وإظهار دينه بهذه الجزيرة وليكون مغنمها خالصة لكم من دونه ومن دون المومنين سواكم . والله تعالى وليُّ إيجادكم على ما يكون لكم ذكراً في الدارين . واعلموا اني اولُ مجيب الى ما دعوتكم اليه وأني عند مُلتقى الجمعِين حاملٌ بنفسي على طاعة القوم « لَدَرْيق » فقاتله ان شاء الله تعالى فاحلوا معي فان هلكْتُ بعده فقد كفيْتُكم أمره ولم يُغوزكم بطلٌ عاقلٌ تُسندون امورك اليه وان هلكْتُ قبلَ وُصولي اليه فاخلفوني في عَزِيْمِي هذه واحلوا بانفسكم عليه واكتفوا لهم من فتح هذه الجزيرة بقتله فانهم بعده يُحذُّون .

١ - هذه الكلمة ليست بالاصول التي وقفنا عليها وبدونها لا ينسجم الكلام وفي رواية اخرى للخطبة ولا حملكم بالاثبات والتأكيد، ومع ذلك يبقى في الكلام تقطيع.

خطبة إدريس الأزهر

قالها بإثر مبايعته وهو ابن إحدى عشرة سنة

الحمد لله أحمدُه واستعينُه واستغفرُه واتوكلُ عليه واعوذُ به من شر نفسي ومن شر كل ذي شر ، واشهد ان لا اله الا الله وان محمدا عبده ورسوله ارسله الى الثقلين بشيراً ونذيراً وداعياً الى الله بإذنه وسراجاً منيراً ﷺ وعلى آل بيته الطاهرين الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا - ايها الناس ! إنا قد ولينا هذا الأمر الذي يُضاعف للمُحسين فيه الأجر ، وللمُسيء الوزر ، ونحنُ والحمدُ لله على قصدي جميل فلا تمدوا الاعناق الى غيرنا ، فان ما تطلبونه من اقامة الحق انما تجدونه عندنا .

خطبة اخرى له

لما فرغ من بناء فاس وحضرت الجمعة الأولى صعد المنبر وخطب الناس ثم قال : اللهم انك تعلم اني ما أردتُ ببناء هذه المدينة مُباهاةً ولا مفاخرةً ، ولا سُمتةً ولا مُكابرةً ، وانما اردتُ ان تُعبدَ فيها ويُتلى كتابك وتُقام حدودك وشرائع دينك وسنة نبيك محمد صلى الله عليه وسلم ما بقيت الدنيا . اللهم وفق سُكَّانها وقُطَّانها للخير وأعنهم عليه ، واكفهم مؤونة اعدائهم ، وأدر عليهم الرزق وأغمد عنهم سيف الفتنه والشقاق ، انك على كل شيء قدير .

خطبة لعبدالله بن ياسين
خطبها في شيوخ المرابطين وقد طمئن في حروبه
مع « برغواطة »

يَا مَعْشَرَ الْمُرَابِطِينَ : انكم في بلاد اعدائكم ، واني مَيِّتٌ في يومي
هذا لا تحالَه ، فايَاكم ان تَجِبُنُوا وَتَفْشَلُوا فَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ، وَكُونُوا أَلْفَةً
وَأَعْوَانًا عَلَى الْحَقِّ وَآخِوَانًا فِي ذَاتِ اللَّهِ تَعَالَى ، وَآيَاكُمْ وَالْمُخَالَفَةَ وَالتَّحَاوُدَ
عَلَى طَلَبِ الرِّيَاسَةِ فَإِنَّ اللَّهَ يُؤْتِي مَلِكَهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَسْتَخْلِفُ فِي أَرْضِهِ مَنْ
أَحَبَّ مِنْ عِبَادِهِ ، وَلَقَدْ ذَهَبَتْ عَنْكُمْ فَاَنْظَرُوا مَنْ تَقْدُمُونَهُ مِنْكُمْ يَقُومُ
بِأَمْرِكُمْ يَقُودُ جُيُوشَكُمْ وَيَعِزُّوْ عَدُوَكُمْ وَيَقْسِمُ بَيْنَكُمْ فَيَنْتَكُمُ وَيَأْخُذُ
زَكَاتَكُمْ وَأَعْشَارَكُمْ .

خطبة للقاضي عياض
في الحصر على ابوسنان

عِبَادَ اللَّهِ سَأَلُوا الْأُمُورَ إِلَى مَنْ يَسُدُّه أَرْزَمَةٌ مَقَادِيرُهَا تَنْجَحُوا ،
وَأَشْتَرُوا رَاحَةَ قُلُوبِكُمْ بِاخْلَاصِ التَّوَكُّلِ عَلَى اللَّهِ تَرَجَّحُوا ، وَاعْلَمُوا أَنَّ
الْحَرَصَ لَا يَزِيدُ الْمَرْءَ عَلَى مَا قُسِمَ لَهُ ، وَتَصَارِيفُ الْقَدْرِ تَقْطَعُ لِكُلِّ أَمَلٍ
أَمَلَهُ ، وَأَمَّا يَدْرِكُ الْإِنْسَانُ بِسَعْيِهِ مَا كُتِبَ لَهُ لَا مَا طَلَبَ ، وَيَبْلُغُ بِكَدِّهِ
مَا قُسِمَ لَهُ لَا مَا أَمَلَ وَاحْتَسَبَ فَأَجِلُوا وَرَحِمَكُمُ اللَّهُ فِي الصَّدَبِ وَرَسَدِهِ ،
وَتَوَكَّلُوا عَلَى اللَّهِ حَقَّ تَوَكُّلِهِ تُرْزَقُوا ، وَأَرِيحُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّصَبِ فِي
طَلَبِ الدُّنْيَا وَالْكَدِّ ، فَإِنَّهُ لَا مَانِعَ لِمَا أُعْطِيَ اللَّهُ وَلَا مُعْطِيَ لِمَا مَنَعَ وَلَا

ينفعُ ذَا الْجَدَّةِ مِنْهُ الْجَدَّةُ ، أَلَا وَإِنَّ التَّوَكُّلَ عَلَى اللَّهِ وَالثِّقَةَ بِهِ أَحَدُ أَبْوَابِ الْإِيمَانِ ، وَمَنْ أَفْضَلُ دَرَجَاتِ الْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ ، وَهُوَ حَقِيقَةُ الْعُبُودِيَّةِ وَالتَّوْحِيدِ ، وَمُوجِبُ الرِّضَا وَالتَّسْلِيمِ لِلرَّقِيبِ الشَّهِيدِ ، فَقَدْ جَرَى الْقَلَمُ بِمَا كَانَ وَيَكُونُ ، وَنَفَذَ قَضَاءُ اللَّهِ بِكُلِّ خَيْرٍ وَشَرٍّ وَحَرَكَةٍ وَسَكُونٍ ، وَانْقَطَعَتِ الْأَطْمَاعُ عَنْ تَأْمِيلٍ غَيْرِ مَا تَقَدَّمَ مِنْ مَشِيئَاتِهِ ، (وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ، لَا مَبْدَلَ لِكَلِمَاتِهِ ،) فَفِيمَ التَّعَبِ وَالطَّلَبِ وَقَدْ سَبَقَ لَكَ فِي الْكِتَابِ مَا سَبَقَ ؟ وَعَلَامَ اللَّهْفِ وَالْأَسْفِ عَلَى أَمْرٍ قَدْ فُرِغَ مِنْهُ قَبْلَ أَنْ تُتَخَلَّقَ ، أَلَمْ يَضْمَنْ لَكَ رَبُّكَ رِزْقَكَ وَمَا وَعَدَ فِي سَمَائِهِ ، أَلَمْ يُعَلِّمَكَ أَنَّهُ لَا مُعَقَّبَ لِحُكْمِهِ وَلَا رَادَ لِقَضَائِهِ ؟ فَعَامِلُ رَبِّكَ أَيُّهَا الْعَبْدُ بِالتَّوَكُّلِ وَالتَّسْلِيمِ ، تَفُزْ بِالْعَيْشِ الْهَنِيِّ وَالثَّوَابِ الْجَسِيمِ .

عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال : كنتُ خلفَ النبي ﷺ يوماً فقال : يا غلام ! إني أعلمُك كلماتٍ ينفعُك الله بهنَّ ، احفظِ الله يحفظَكَ ، احفظِ الله تجدهُ مُجَاهَكَ ، إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللَّهَ ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ ، وَاعْلَمْ أَنَّ الْأُمَّةَ لَوِ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ لَكَ ، وَإِنْ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ ، جَفَّتِ الْأَقْلَامُ وَطُويتِ الصُّحُفُ . إِنَّ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ وَأَبْلَغَ الْمَوَاعِظِ كَلَامُ اللَّهِ تَعَالَى (وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ) جَعَلَنِي اللَّهُ

وإياكم ممن توكل عليه في كل حالاته ، وأتقاه سبحانه حقُّ تقاّته ، وغفر لي ولكم ولجميع المسلمين .

خطبة للنمهي بن تومرت
خطبها في شيوخ المصامدة عاهدأ الى عبد المومن

إن الله سبحانه وله الحمد مَنْ عليكم ايُّها الطائفة بتأييده وخصمكم من بين اهل العصر بحقيقة تَوْحِيدِهِ ، وقَبْضَ لَكُمْ مِنْ أَلْفَاكُمْ ضَلَالًا لَا تَهْتَدُونَ ، وَعُمِيًّا لَا تَبْصُرُونَ ، لَا تَعْرِفُونَ معروفًا وَلَا تُنْكِرُونَ مُنْكَرًا ، قَدْ فَشَتْ فِيكُمْ الْبِدْعُ وَاسْتَهْوَتْكُمْ الْإِبَاطِيلُ وَزَيَّنَ لَكُمْ الشَّيْطَانُ أَضَالِيلَ وَتُرَّهَاتٍ أَنْزَهُ لِسَانِي عَنِ الثُّطُقِ بِهَا وَأَرَبَا بِلَفْظِي عَنْ ذِكْرِهَا فهداكم اللهُ بِهِ بعد الضلالة وبصركم بعد العمى ، وجعكم بعد الفرقة وأعزكم بعد الذلة ورفع عنكم سلطان هؤلاء المارقين وسَيُورُكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ . ذلك بما كَسَبَتْهُ أَيْدِيهِمْ وَأَخْضَرَّتْهُ قُلُوبُهُمْ « وما رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ » فَجَدُّوا لِلَّهِ سِيحَانَهُ خَالِصَ نِيَايَتِكُمْ وَأَرْوَهُ مِنَ الشُّكْرِ قَوْلًا وَفِعْلًا مَا يُزَكِّي بِهِ سَعْيَكُمْ وَيَتَقَبَّلُ أَعْمَالَكُمْ وَيُنْشِرُ أَمْرَكُمْ ، واحذَرُوا الْفُرْقَةَ وَاخْتِلَافَ الْكَلِمَةِ وَشَتَاتَ الْأَرَاءِ ، وَكُونُوا يَدًا وَاحِدَةً عَلَى عَدُوِّكُمْ ، فإني علمتُ أن فعلتم ذلك هَابَكُمْ النَّاسُ وَأَسْرَعُوا إِلَى طَاعَتِكُمْ وَكَثُرَ أَتْبَاعُكُمْ وَأَظْهَرَ اللَّهُ الْحَقَّ عَلَى أَيْدِيكُمْ ، وَإِلَّا تَفَعَّلُوا شِمْلَكُمْ الذَّنْءُ وَعَمَّكُمْ الصَّغَارُ وَاحْتَقَرَتْكُمْ الْعَامَّةُ فَتَخَطَّفَتْكُمْ الْخَاصَّةُ .

خطبة القاضي أبي حفص بن عمر

يُحذَرُ فيها من مذهب الفلاسفة ويحضُّ على اتباع السنة
وهو متأثرٌ في ذلك ، ولا شك ، بحملة المنصور الموحي على الفلسفة

إياكم والقدماء وما أحدثوا ، فإنهم عن عقولهم حدثوا . أتوا من
الافتراء بكل أعجوبة ، وقلوبهم عن الأسرار محجوبة ، الأنبياء ونورهم ، لا
الأغبياء وغرورهم عنهم يتلقى وبهم يدرك السؤل ، (عالم الغيب فلا يظهرُ
على غيبه أحداً إلا من ارتضى من رسول ،) الدين عند الله الاسلام ، والعلم
كتابُ الله وسنةُ محمد عليه السلام ، ما ضرَّ من وقف عندهما ، ما جهل بعدهما ،
خيرُ نبي في خير أمة (يزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة ،) دَلَّهم من قرب
عليه ، واختصر لهم الطريق إليه ، فما ضرَّ تلك النفوس الكريمة ، والقلوب
السليمة ، والألباب العظيمة ، ما زوَّيَ عنها من العلوم القديمة ، نقَّاهم من
الأوْضار والأدناس ، وقال كنتم خير أمة أخرجت للناس ، كتابهم
أعظمُ كتاب أنزل ، ونبيهم أكرم نبي أرسل ، السيدُ الإمام ، لبنةُ التَّمام ،
خيرُ البرية على الإطلاق بُعث ليتمم مكارم الأخلاق ، أنزل الكتاب
إليه ، (مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيئناً عليه) هو الشفاء والرحمة ،
وفيه العلم كله والحكمة ، معجزٌ في وصفه عزيز في رصفه ، لا يأتيه الباطل
من بين يديه ولا من خلفه ، (آياته باهرة قائمة ، ومعجزاته باقية دائمة ،

إِذْ هِيَ لِلنَّبِوةِ وَالرَّسَالَةِ خَاتَمَةٌ ، لَا تَنْقُضِي عَجَائِبَهُ ، وَلَا تَنْتَهِي غَرَائِبَهُ ، مَاذَا أَقُولُ ، وَقَدْ بَهَرَ الْعُقُولُ ، حَسْبِي حَسْبِي (قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَاداً لَكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفَذَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَذَ كَلِمَاتُ رَبِّي) .

وعليكم من جميع اموركم بمزج الرأفة بالغلظة واللين بالغنف واعلموا مع هذا أنه لا يصلح امرؤ آخر هذه الأمة الا على الذي صلح عليه امرؤ أو لها . وقد اخترنا لكم رجلاً منكم وجعلناه أميراً عليكم . هذا بعد ان بلوناه في جميع احواله من ليله ونهاره ومدخله ومخرجه ، واختبرنا سريرته وعلايته ، فرأيناه في ذلك كله ثبثاً في دينه متبصراً في امره واني لأرجو ان لا يخلف الظن فيه . وهذا المشار اليه هو عبد المومن فاسمعوا له واطيعوا ما دام سامعاً مطيعاً لربه فان بدّل أو نكص على عقيبه او ارتاب في امره ففي الموحدين اعزهم الله بركة وخير كثير ، والامر لله يُقَلِّدُهُ مَنْ شَاءَ مِنْ عِبَادِهِ .

خطبة للنصور الموبني

كان له باسبانيا غزوات عظيمة ومن بعض خطبه فيها
يحمض جيشه على القتال قوله :

يَا مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ ، وَعِصَابَةَ الْمَجَاهِدِينَ : إِنَّ هَذَا يَوْمٌ عَظِيمٌ ، وَمَشْهَدٌ جَسِيمٌ ، أَلَا وَإِنَّ الْجَنَّةَ قَدْ فُتِحَتْ لَكُمْ ابوابُهَا ، وَزُيِّنَتْ أَتْرَابُهَا ، فَخَذُوا فِي طَلَابِهَا ، فَإِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ .

فَشَمِّرُوا عَنْ سَاعِدِ الْجَدِّ مَعَاشِرَ الْمُسْلِمِينَ ، فِي جِهَادِ الْمُشْرِكِينَ ، فَمَنْ مَاتَ مِنْكُمْ مَاتَ شَهِيدًا ، وَمَنْ عَاشَ عَاشَ غَانِمًا مَا جُورَ أَحْمِيدًا ، فَاصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَآبِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ .

خطبة لابن رُشَيْد

قام ابن رشيد للخطبة يوم الجمعة بعد فراغ المؤذن الثاني
ظنه الثالث فكثُر لفظُ الناس فقال بديهة

أيها الناس رَحِمَكُمُ اللَّهُ : إِنَّ الْوَاجِبَ لَا يُبْطِلُهُ الْمُنْذُوبُ ، وَإِنَّ الْأَذَانَ الَّذِي بَعْدَ الْأَوَّلِ غَيْرُ مُشْرُوعٍ الْوَجُوبُ ، فَتَأَهُبُوا لَطَلَبِ الْعِلْمِ وَانْتَبِهُوا ، وَتَذَكَّرُوا قَوْلَ اللَّهِ تَعَالَى (وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا) ، وَقَدْ رَوَيْنَا عَنْهُ عليه السلام أَنَّهُ قَالَ : مَنْ قَالَ لِأَخِيهِ ، وَالْإِمَامُ يُخْطُبُ ، أَنْصِتْ فَقَدْ لَغَى ، وَمَنْ لَغَى فَلَا جُمُعَةَ لَهُ ، جَعَلَنِي اللَّهُ وَإِيَّاكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَعِيلٍ ، وَعَمَلٍ فَقِيلٍ ، وَأَخْلَصٍ فَتَخَلَّصَ .

خطبة وعظية لأبي مَدْيَنٍ الْقَاسِمِي

عباد الله : نَجَا الْمُخْخِفُونَ فَخَفُّوا الْإِثْقَالَ لِتَلْحَقُوا ، وَفَازَ الْمُتَّقُونَ فَإِنْ شِئْتُمْ الْفَوْزَ فَاللَّهُ فَاتَّقُوا ، وَتَرَافَقِ السَّعْدَاءُ عَلَى الْجَادَةِ فَأَيَّاهُمْ فَرَّاقُوا ، وَسَابِقِ الثَّجَبَاءِ إِلَى الْعِبَادَةِ فَسَارِعُوا إِلَيْهَا وَسَابِقُوا ، وَوَصِلِ الْمُشْمِرُونَ ، فَإِذَا يَنْتَظِرُ الْمُقْصِرُونَ ، « هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا

يشعرون» أخرج الأمامُ أحمدُ في الزُّهدِ والحاكمُ في المُستدرِكِ والبيهقي عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال لِرَجُلٍ وهو يَعِظُهُ اغْتَنِمْ خَمْساً قبل خمسٍ ، شَبَابَكَ قبل هَرَمِكَ ، وصِحَّتَكَ قبل سَقَمِكَ ، وغِنَاكَ قبل فَقْرِكَ ، وفَرَاغَكَ قبل شُغْلِكَ ، وحَيَاتِكَ قبل مَوْتِكَ . «استجيبوا لربكم من قبل أن يَأْتِيَ يومٌ لا مردَّ له من الله ما لَكُمْ من مَلْجَأٍ يومئذٍ وما لَكُمْ من نَكِيرٍ» . في الحِلْيَةِ عن بلال بن سَعِيدٍ قال : قال عبد الرحمن : يُقَالُ لأَحَدِنَا أُتِحِبُّ أن تموت ؟ فيقول لا . ويقول سوف اعمل ، فلا يجب أن يموت ولا يعمل ، وأحب شيء إليه أن يؤخَّرَ عمل الله ولا يجب أن يؤخَّرَ عمل الدنيا . «يا أيها الناسُ إِنَّ وَعْدَ الله حقٌّ فلا تَغُرَّنَّكُمُ الحَيَاةُ الدُّنْيَا ولا يَغُرَّنَّكُمُ بالله الغُرُورُ ، ولا تَتَخَيَّلُوا الإقامةَ في دار لا بقاءَ لها ، وتَظَنُّوا أن مَنْ جَدَّ على الجَادَّةِ كمن تَبَاهَى بالباطلِ وَلَهَا ، كلاً ! والله إن ما وَلَدْنَاهُ فللترابِ ، وما جَمَعْنَاهُ فللذهابِ ، وما شَيَّدْنَاهُ فللخرابِ ، وما اكْتَسَبْنَاهُ ففي كِتَابٍ ، وكلُّ إنسانٍ أَلمنَاهُ طَائِرَهُ في عُقْفِهِ ونُخْرِجُ له يومَ القِيَامَةِ كِتَاباً يلقاه منشوراً ، اقرأ كتابك كفى بنفسك اليومَ عليك حَسِيباً» روى الإمامُ مُسْلِمٌ عن أبي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : يقول العبدُ ، مالي مالي ! وانما له من ماله ثلاث ، ما أَكَلْتُ فأفنى ، أو لَبِيسٌ فأبلى ، أو تصدَّقَ فأَمْضَى ، وما سوى ذلك فهو ذاهبٌ وتارِكُهُ للناسِ . «كَمْ تَرَكُوا من جَنّاتٍ وعُيونٍ وزُرُوعٍ ومَقامٍ كريمٍ ! كذلك وأورثناها قومًا آخَرِينَ» روى الدَّيْلَمِيُّ عن أَنَسٍ أن رسول الله صلى الله

عليه وسلم قال : أَصْلِحُوا دُنْيَاكُمْ وَعَمَلُوا لِآخِرَتِكُمْ كَأَنَّكُمْ تَمُوتُونَ غَدًا .
 يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ، وَاتَّقُوا اللَّهَ
 إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ، جَعَلَنِي اللَّهُ وَأَيَّاكُمْ مِمَّن قَدَّمَ مِنْ دُنْيَاهُ لِآخِرَاهُ ،
 وَاسْتَجَابَ لِرَبِّهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمَ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ ، وَأَجَارَنِي وَأَيَّاكُمْ
 مِنْ عَذَابِهِ الْمُهِينِ ، وَغَفَرَ لِي وَلَكُمْ وَلِوَالِدَيْنَا وَلِجَمِيعِ الْمُسْلِمِينَ .

خطبة في التذكير والترغيب

لأبي عبد الله الرُّهَوْنِي

أَيُّهَا النَّاسُ ، حَصَّصَ لَكُمْ الْحَقُّ فَتَبَصَّرُوا ، وَتَبَيَّنَ لَكُمْ الرُّشْدُ مِنَ
 الْغَيِّ فَالْزَمُوا الطَّاعَةَ وَتَذَكَّرُوا ، وَحَمِلْتُمْ عَلَى سُلُوكِ الطَّرِيقِ الْمُسْتَقِيمِ فَاسْتَقْدُمُوا
 وَلَا تَتَأَخَّرُوا وَحَذَّرْتُمْ مِنَ الْعُدُولِ عَنْهَا فَخَافُوا اللَّهَ وَاحْذَرُوا ، وَأُسْبِغَتْ
 عَلَيْكُمْ النِّعَمُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً فَاعْرِفُوا حَقَّهَا وَاشْكُرُوا ، وَعَالَمُوا أَنَّ اللَّهَ لَا
 يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا ، وَأَيَّاكُمْ وَالتَّقْصِيرَ فِي الْعَمَلِ فَلَنْ تَسْعَدُوا مَعَ
 التَّقْصِيرِ أَوْ تُعَذَّبُوا ، وَكُونُوا مِنْ قَوْمٍ أَشْرَقَتْ لَهُمْ أَنْوَارُ الْهَدَايَةِ فَأَبْصُرُوا ،
 وَتَلَيَّتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُ اللَّهِ فَتَذَبَّرُوا ، وَلَا تَكُونُوا مِمَّنِ اسْتَعْبَدْتُمُ الدُّنْيَا
 فَشَرِبُوا مِنْ كُؤُوسِ حَبِّهَا حَتَّى سَكِرُوا ، وَقَطَعُوا أَعْمَارَهُمْ فِي اتِّبَاعِ شَهْوَاتِهَا
 فَخَابُوا وَخَسِرُوا ، وَانْهَجُوا سَبِيلَ الَّذِينَ اسْتَعْدُّوا لِمَا يُظَنُّ الْقِيَامَةَ كَأَنَّهُمْ
 شَاهَدُوا أَهْوَالَهَا وَحَضَرُوا ، وَرَأَوْا عَذَابَ النَّارِ فَكَفُّوا أَنْفُسَهُمْ عَنْ
 السُّوءِ وَانْزَجَرُوا ، وَسَمِعُوا مَا أَعَدَّ اللَّهُ لِأَوْلِيَائِهِ فِي الْجَنَّةِ فَاجْتَهَدُوا

بِالطَّاعَةِ وَبَادَرُوا ، وَقَدْ تَحَقَّقْتُمْ يَا عِبَادَ اللَّهِ أَنَّهُ لَيْسَ بَعْدَ هَذِهِ الدَّارِ ، مَنْزِلٌ
وَلَا قَرَارٌ ، سِوَى الْجَنَّةِ أَوْ النَّارِ ، فَاخْتَارُوا لِأَنْفُسِكُمْ وَانظُرُوا ... فِي
الصَّحِيحِ عَنْهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَنَّهُ قَالَ : مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا
سَيَكَلِّمُهُ رَبُّهُ لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ حِجَابٌ وَلَا تُرْجَانٌ ، فَيَنْظُرُ أَيْمَنَ مِنْهُ فَلَا
يَرَى إِلَّا مَا قَدَّمَ وَيَنْظُرُ أَشْأَمَ مِنْهُ فَلَا يَرَى إِلَّا مَا قَدَّمَ ، وَيَنْظُرُ تَلَقَاءَ
وُجْهِهِ ، فَلَا يَرَى إِلَّا النَّارَ تَلْقَاءَ وَجْهِهِ ، فَاتَّقُوا النَّارَ وَلَوْ بِشِقِّ ثَمَرَةٍ فَمَنْ
لَمْ يَجِدْ فِي كَلِمَةٍ طَيِّبَةٍ ، إِنَّ أَحْسَنَ مَا أَنْتُمْ لَهُ سَامِعُونَ ، كَلَامَ مَنْ نَحْنُ لَهُ
عَابِدُونَ (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ
وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غُلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ
وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ) .

خطبة للسلطان مولاي سليمان العلوي

في التحذير من بدع الكواسم والطوائف الضالة

أما بعدُ أيها الناس ، شَرَحَ اللَّهُ لِقَبُولِ النَّصِيحَةِ صَدُورَكُمْ ، وَأَصْلَحَ
بِعَنَايَتِهِ أُمُورَكُمْ ، وَاسْتَعْمَلَ فِيهَا يُرْضِيهِ أَمْرَكُمْ وَمَأْمُورَكُمْ ، فَانِ اللَّهُ قَدْ
اسْتَرَعَانَا جَمَاعَتَكُمْ وَأَوْجَبَ لَنَا طَاعَتَكُمْ ، وَحَذَرْنَا إِضَاعَتَكُمْ ، وَلِهَذَا
نَرْثِي لَغْفَلَتَكُمْ وَعَدِمَ إِحْسَاسَكُمْ ، وَنَغَارُ مِنْ اسْتِيلَاءِ الشَّيْطَانِ بِالْبَدْعِ
عَلَى أَنْوَاعِكُمْ وَأَجْنَاسِكُمْ ، فَالْقُوا لِأَمْرِ اللَّهِ آذَانَكُمْ ، وَأَبْقِظُوا مِنْ نَوْمِ
الْغَفْلَةِ أَجْفَانَكُمْ ، وَطَهِّرُوا مِنْ دَنَسِ الْبَدْعِ إِيْمَانَكُمْ ، وَأَخْلِصُوا لِلَّهِ سَرَكَكُمْ
وِإِعْلَانَكُمْ ، وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ أَوْضَحَ لَكُمْ طَرِيقَ السَّنَةِ لِتَسْلُكُوهَا ، وَصَرَّحَ

بذم اللهو والشهوات لتمليكوها ، فامتثلوا أمره في ذلك وأطيعوه ،
واعرفوا فضله عليكم وعوه ، واتركوا عنكم بدعة هذه المواسم التي أنتم
بها مُتَلَبِّسُونَ ، والضلالة التي يُزَيِّنُهَا أَهْلُ الْأَهْوَاءِ وَيَلْبِسُونَ^١ ، افترقوا
أَوْزَاعاً^٢ ، وانتزعوا الأموال انتزاعاً وأنفقوها فيما هو حرام كتاباً وسنة
وإجماعاً ، وصاروا يترقبون للهوهم الساعات وتزاحم على جبال الشيطان
وعصيته^٣ منهم الجماعات ، وكل ذلك حرام ممنوع ، والإنفاق فيه انفاق في
غير مشروع ، فأنشدكم الله عباد الله هل فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم
لعنه سيد الشهداء موسىماً ؟ وهل فعل سيد هذه الأمة أبو بكر لسيد
الأنبياء ﷺ موسىماً ؟ وهل تصدئ لذلك أحد من الصحابة والتابعين
رضي الله عنهم أجمعين ؟ ثم أنشدكم الله هل زُخِرَتْ على عهد رسول الله
المساجد ؟ أَوْزُوَتْ أَضْرِحَةُ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ الْأُمَا جِدْ؟ كَأَنِّي بِكُمْ تَقُولُونَ
في نحو هذه المواسم وزخرفة أضريحة الصالحين وغير ذلك من أنواع الابتداع ؛
حسبنا الاقتداء والاتباع ، (إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ
) وهذه المقالة قالها الجاحدون ، وقد ردَّ الله مقالهم ، ووبَّخهم وما أقالهم ،
والعاقِلُ من اقتدى بالسلفِ المهتدين ، أهل الصلاح والدين ، (خَيْرُ الْقُرُونِ
قَرْنِي ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ .) كما في الحديث ، وبالضرورة
إنه لن يأتي آخر هذه الأمة بأهدى مما كان عليه أو لها ، فقد قُبِضَ رسول

١ - أي يخلطون . ٢ - أي فرقاً وهو جمع لا مفرد له .

٣ - يعني وسائله التي يستهويهم بها .

الله ﷺ وَعَقْدُ الدِّينِ قَدْ سُجِّلَ ، وَوَعْدُ اللَّهِ بِإِكْمَالِهِ قَدْ عُجِّلَ ، (اليومَ
 أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا)
 قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه على منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم
 بحضرة الصحابة رضي الله عنهم : أيها الناس قد سُئِلْتُ لَكُمْ الشَّيْنُ وَفُرِضَتْ
 لَكُمْ الْفَرَائِضُ ، وَتُرِكْتُمْ عَلَى الْجَادَّةِ ، فَلَا تَمِيلُوا بِالنَّاسِ يَمِينًا وَلَا شِمَالًا ،
 أَلَا وَإِنَّهُ لَيْسَ فِي دِينِ اللَّهِ ، وَلَا فِيمَا شَرَعَ نَبِيُّ اللَّهِ ، أَنْ يُتَقَرَّبَ بِغِنَاءٍ وَلَا
 شَطْحٍ ، فِي فَرَحٍ أَوْ قَرْحٍ ، وَالذِّكْرُ الَّذِي أَمَرَ اللَّهُ بِهِ وَحِثَّ عَلَيْهِ
 وَمَدَحَ الْذَاكِرِينَ بِهِ هُوَ عَلَى الْوَجْهِ الَّذِي كَانَ يَفْعَلُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ،
 وَلَمْ يَكُنْ عَلَى طَرِيقِ الْجَمْعِ وَرَفَعَ الْأَصْوَاتَ عَلَى لِسَانٍ وَاحِدٍ ، فَهَذِهِ سُنَّةُ
 السَّلَفِ ، وَطَرِيقَةُ صَالِحِي الْخَلْفِ ، فَمَنْ قَالَ بِغَيْرِ قَوْلِهِمْ فَلَا يُسْتَمَعَ ، وَمَنْ
 سَلَكَ غَيْرَ سَبِيلِهِمْ فَلَا يُتَّبَعَ ، (وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ
 لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ
 مَصِيرًا) قَالَكُمْ يَا عِبَادَ اللَّهِ وَلِهَذِهِ الْبِدْعُ ؟ أَأَمْنًا مِنْ مَكْرِ اللَّهِ ؟ أَمْ
 تَلْبِيسًا عَلَى عِبَادِ اللَّهِ ؟ أَمْ مُنَابَذَةً لِمَنِ النَّوَاصِي بِيَدَيْهِ ؟ أَمْ اغْتِرَارًا بِمَنْ
 الرُّجُوعُ إِلَيْهِ ؟ فَتَوَبُوا وَاعْتَبِرُوا ، وَغَيِّرُوا الْمُنَاكَرَ وَاسْتَغْفِرُوا ، فَقَدْ أَخَذَ
 اللَّهُ بِذَنْبِ الْمُتَرَفِّينَ مِنْ دُونِهِمْ ، وَعَاقَبَ الْجُمْهُورَ لَمَّا أَغْضَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ
 عُيُونَهُمْ ، وَسَاءَتْ بِالْغَفْلَةِ عَنِ اللَّهِ عُقُوبَتِي الْجَمِيعِ مَا بَيْنَ الْعَاصِي وَالْمُدَاهِنِ
 وَالْمُطِيعِ ، وَمَنْ أَرَادَ مِنْكُمْ التَّقَرُّبَ بِصَدَقَةٍ ، أَوْ وَفَّقَ لِمَعْرُوفٍ مِنْ أَطْعَامٍ
 أَوْ نَفَقَةٍ ، فَعَلَى مَنْ ذَكَرَ اللَّهَ فِي كِتَابِهِ ، وَوَعَدَ فِيهِمْ بِجَزِيلِ ثَوَابِهِ ، كَذَوِي

الضرورة غير الخافية ، والمرضى الذين لستم بأولى منهم بالعافية ، ولا يتقرب الى مالك التواصي ، بالبدع والمعاصي ، بل بما يتقرب به الأولياء الصالحون ، والأتقياء المفلحون ، أكل الحلال ، وقيام الليال ، ومجاهدة النفس في حفظ الأحوال ، بالأقوال والأفعال ، البطن وما حوى ، والرأس وما وعى ، وآيات تلتى ، وسلوك الطريقة المثلى ، وحجّ وجهاد ، ورعاية السنة في المواسم والأعياد ، ونصيحة تُهدى ، وأمانة تُؤدّى وصلاة وصيام ، واجتناب مواقع الآثام ، (وأنّ هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ، ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله) الصراط المستقيم كتاب الله ، وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم وليس الصراط المستقيم كثرة الرايات ، والاجتماع للبيات ، وحضور النساء والأحداث وتغيير الأحكام الشرعية بالبدع والإحداث ، والتصفيق والرقص ، وغير ذلك من أوصاف الرذائل والنقص ، (أفن ذّين له سوء عمليه فرآه حسناً) في الحديث عنه صلى الله عليه وسلم : يجاء بالرجل يوم القيامة وبين يديه راية يحملها ، وأناس يتبعونه فيسأل عنهم ويسألون عنه (إذ تَبَرَّأ الذين اتَّبِعُوا من الذين اتَّبَعُوا ورأوا العذاب وتقطّعت بهم الأسباب) فاياكم عباد الله ثم اياكم وهذه البدع ، فانها تترك مَراسم الدين خالية خاوية ، والعُكُوفُ على المناكر يُحيل رياض الشرائع ذابلة ذاوية ، ومن المنقول عن كل الملل ، والمشهور في الاواخر والأول ، أنّ المناكر والبدع اذا فشّت في قوم أحاط بهم سوءُ كسبهم ، وأظلم ما بينهم وبين ربهم ، انقطعت عنهم الرحّات

ووقعت فيهم المثلّات، وشحّت السماء، وغيض الماء، واستولت الأعداء، وانتشر الداء، وجفّت الزروع، ونقصت بركة الزروع، لأن سوء الأدب مع الله يفتح أبواب الشدائد، ويسدّ طرق الفوائد، والأدب مع الله ثلاثة؛ حفظ الحرمة بالاستسلام والاتباع، ورعاية السنة من غير اخلال ولا ابتداع، ومراقبة الله في الضيق والاتساع لا ما يفعله هؤلاء المتسمّمون بالفقراء، وكلّ ذلك كذب على الله وافتراء. عن العريّاض بن سارية رضي الله عنه قال وعظنا رسول الله صلى الله عليه وسلم موعظة ذرّفت منها العيون ووجلت منها القلوب فقلنا يا رسول الله كأنها موعظة مودّع فاعهّد إلينا قال أوصيكم بتقوى الله، والسمع والطاعة، فانه من يعيش بعدي فسيرى اختلافا كثيرا، فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي، عضّوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور فان كلّ محدّثة بدعة، وكلّ بدعة ضلالة، وها نحن عبادة الله أرشدناكم، وحذّرناكم وأنذرناكم فمن ذهب بعد هذه المواسم، أو أحدث بدعة في شريعة أبي القاسم، فقد سعى في هلاك نفسه، وجرّ الوبال عليه وعلى أبناء جنسه، وتلّ الشيطان للجبين، وخير الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين (فليخذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم).

خطبة وعظية للعربي الزرّهوني على حسب أطوار الانسان وسنيه

عبادَ الله ! ان الله تبارك وتعالى ، كتب علينا الانتقال من هذه الدار ، وأمرنا بالنظر فيها والاعتبار ، والتزود منها لدار القرار ، وخالف بمقتضى حكمته بين مقادير الاعمار ، فبين مُعَجَّلَ تَحَرُّمِهِ المنيّة في رِيْعَانِ شبابه ، وُعُفْوَانِ عمره ولُبَابِهِ ، وِمن مُوَجَّلَ يُنْسَأُ له في أَجَلِهِ ، حتى يستوفي ما كُتِبَ له من رزقه وعمله ، فالعبدُ لا يدري متى يَأْتِيهِ حِمَامُهُ ، وَتَقْضِي بوفاته أيامه ، فما أَحَقُّه واولاده أَنْ يَعْمُرَ اوقاته بطاعة مولاه ، الذي خلقه وسوّاه ، ليكون يوم لُقْيَاه من الفائزين . فيا مَنْ بلغ سِنَّ الاحتلام ، وَحُطَّتْ عنه الأَقْلَامُ ، وَتُعَبَّدُ بشرائع الاسلام ، خُذْ نفسك بالاجتهاد في الطاعة ، وَلَا تَطْلُبْ الرِّيحَ بغيرِ بِضَاعَةٍ ، وَلَا تَقْتَتِحْ عُمُرَكَ بالتفريط والاضاعة ، فتكونَ من الجاهلين . ويا مَنْ بَلَغَ العشرين ، لَا تَطْمَئِنَّ الى ما بَقِيَ من السنين ، وَلَا تَغْتَرِّرْ بِرَوْتَقِ شبابِكَ ، فانك لا تدري متى يقف المَنُونُ بِبَابِكَ ، وَتُفَرَّدُ من بين اصحابك واحبابك ، وَيُذَهَبُ بِكَ في النّاهبين . ويا من بلغ الثلاثين راجِعْ نفسك عن هواها ، فقد كُملَ شَبَابُهَا واستحكمت قواها ، فَأَنْفِقْ جَدِيدَ عَمْرِكَ في الطاعة ولا تَرْكُنْ الى سِوَاهَا ، وَهَبْ اِنَّه قد بقي من عمرك مثلُ ما مضى ، فهل تجدُ لِمَا فَرَّطْتَ فيه من صالح العملِ عَوْضًا ؟ فَفَكِّرْ في امر نفسك وكن لها من الناصحين . ويا من بلغ الاربعين ذهب عنك مُعْظَمُ الايام ، وَشَرَعْتَ في النقصان بعد

التمام ، فاخلصْ الى ربك المتاب ، وقلْ كما جاء في الكتاب : « ربَّ
أَوْزَعْنِي ان اشكُر نعمتك التي انعمتَ عليَّ وعلى والديَّ وأنْ أعملَ
صالحاً ترضاه وأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصالحينَ » ويا من بلغ الحُسين
ذهب اكثرُ عمرِكَ وأطيبُهُ ، وبقي أقلُّهُ وأتعبُهُ ، وبدت في رأسِكَ طلائعُ
المَشْيِبِ ، واوشكت شمسُ عُمُرِكَ أَنْ تَغِيبَ ، فهل لك ان تُقْلِعَ وَتُنِيبَ ؟
وَتَسْمَعَ وَتُجِيبَ ؟ فإِذَا أَقْبَحَ الْعَصِيَانِ بَعْدَ الْمَشْيِبِ ؛ وان كان مُسْتَقْبِحاً
في كل حين . ويا من بَلَغَ السَّتِينَ بَلَغَتِ الْعُمُرَ الَّذِي أَعْذَرَ اللَّهُ فِيهِ
إِلَى الْعِبَادِ ، وعزمتَ على السَّفَرِ الْبَعِيدِ فَأَيْنَ الزَّادُ ؟ فَتَزَوَّدِ التَّقْوَى ان
اللَّهُ يَحِبُّ الْمُتَّقِينَ . ويا من بَلَغَ السَّبْعِينَ لِمُقْتَرَبِ الْأَجَالِ فِيكَ دَلَائِلُ ،
فَاغْتَنِمْ مَا بَقِيَ مِنْ أَيَّامِ عَمْرِكَ الْفَلَائِلِ ، قبل ان تَنْتَقِلَ إِلَى دَارِ الْبَقَاءِ وَلَمْ
تَحْصُلْ مِنْ صَالِحِ الْأَعْمَالِ عَلَى طَائِلٍ ، فَتُصْبِحَ مِنَ النَّادِمِينَ . ويا من بلغ
الْثَمَانِينَ عِشْتَ مَا قَدْ كَفَاكَ ، وَكَلَّتْ جَوَارِحُكَ وَضَعُفَتْ قُوَاكَ ،
وَأَبْغَضَكَ مَنْ كَانَ يَحِبُّكَ وَيَهْوَاكَ ، وَذَهَبَ عَنْكَ حُلُوُ الْعَيْشِ وَبَقِيَ الْمُرُّ
فَتَأَهَّبْ لِلرَّحِيلِ ، وَتَهَيَّأْ لِلسَّفَرِ الطَّوِيلِ ، واعلم انك عما قريب من الراحِلِينَ .
ويا من بلغ التسعين وَقَفْتَ عَلَى ثَنِيَّةِ الْوُدَاعِ ، وَأَشْرَفْتَ عَلَى اللَّحَاقِ بِمَنْ
فَقَدْتَ وَالْاجْتِمَاعِ ، فانك وان كُنْتَ فِي الْأَحْيَاءِ مَعْدُودٌ فِي الْمَيِّتِينَ .
ويا من بلغ الْمِائَةَ ، وما أَظُنُّهُ فِي هَذِهِ الْفِتْنَةِ ، بَلَغَتِ الْغَايَةَ الْقُصْوَى مِنْ
السِّنِينَ ، وما بَعْدَ الْمِائَةِ مِنْ بَقَاءٍ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمَغْرُورِينَ . ويا من غَدَتْ
سُنُّهُ بَيْنَ هَذِهِ الْحُدُودِ الْمَحْدُودَةِ ، وَالْأَعْدَادِ الْمَعْدُودَةِ ، إِعْمَلْ عَلَى شَاكِلَةِ

الرحيل ، وتزود للسفر الطويل ، وإياك والتسويق والتعليل ، خشية أن
يأتيك الموت عما قليل ، فتموت وانت من المفرطين . خطب رسول الله
صلى الله عليه وسلم فقال : أيها الناس ! كأن الموت في الدنيا على غيرنا
كُتِبَ ، وكأن الحق فيها على غيرنا وجب ، وكأن ما نُشِيعُهُ من الاموات
سَفَرٌ عما قليل إلينا راجعون يُبَوِّئُهُمْ أَجْدَاءَهُمْ ، وناكلُ تراثهم ، كأننا
نُخْلِدُونَ بعدهم . يا أيها الناس اتقوا ربكم واخشوا يوماً لا يجزي والد
عن ولده ولا مولود هو جازٍ عن والده شيئاً ، إن وعد الله حق ، فلا
تغرّبكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور ، اللهم اكْتُبْنَا في ديوان من
خَتَمْتَ لهم بالحسنى ، وتممت لهم الفوز بالرضوان في المقرّ الأسمى ،
ووفّقنا اللهم لطاعتك ، وأعنا على ذكرك وحسن عبادتك ، انك جواد
كريم ، رؤوف رحيم .

المناظرات

أ- في الدين

مناظرة ابي عمران الفاسي لفقهاء القيروان

قال عبد الجليل بن ابي بكر الديباجي : جرت عندنا بالقيروان مسألة الكفار هل يعرفون الله تعالى أولا ؟ فوقع فيها اختلاف كثير وتنازع بين العلماء . وكان اكثر من يعتني بهارجل مؤذن يركب حماره ثم يذهب من واحد الى آخر ولا يترك متكلما ولا فقيها إلا ويُنَازِله في هذه المسألة وعظمت حتى كثر الجدل بها في الاسواق .

ثم أتوا ابا عمران الفاسي فقال ما بالكم ؟ قالوا اصلحك الله انت تعلم ان العامة اذا حدث بها حادث يفرعون الى علمائهم ، وانت تعلم ما جرى في هذه المسألة . فقال ابو عمران ان انتم انصفتُم واحسنتم الاستماع اجبتكم . فقالوا نعم . فقال لا يكلمني الا واحد منكم . فقصد ذلك الواحد فقال أرايت لو انك لقيت رجلا وقلت له هل تعرف ابا عمران الفاسي فقال لك اعرفه فقلت صفه لي فقال هو رجل يبيع البقل والخنطة والزيت في سوق ابن هشام ويسكن البصرة أكان يعرفني ؟ قال لا . ثم قال له فلو لقيت آخرَ وسألته عني فقال لك نعم اعرفه . فقلت صفه لي فقال هو

رجل يُدرّسُ العلمَ ويُفتي الناسَ ويسكنُ بقُربِ السَّمَاءِ أَكَانَ يَعْرِفُنِي؟
قال نعم . قال له والاولُ ما كان يَعْرِفُنِي؟ قال لا ، قال : فكذلك الكافر الذي
يقول إن للمعبود صاحبةً وولداً وإنه جسمٌ من الاجسام ، فانفصلوا عن رأيه .

مناظرة الخروبي والبسني والهنطي

وما عقّب به البُوسي عليها

كتب ابو عبد الله الخروبي الطرأ بلسي رسالةً الى اهل فاس يتكلم
فيها على القواعد الخمس فجاء فيها قوله اثناء الكلام على القاعدة الاولى
وهي لا اله الا الله : « ومن الادب ان لا يتناول نفياً عند النطق بحرف
النفي الا ما ادّعاه المشركون من الآلهة سوى الله تعالى وليكن الحقُّ جلُّ
جلالُه ثابتاً عندك في حالة النفي والاثبات . والى هذا اشار بعضُ العلماء
حيث قال : النَّفْيُ لِمَا يَسْتَحِيلُ كَوْنُهُ والاثباتُ لِمَا يَسْتَحِيلُ عَدَمُهُ ، فنقِمَ
الناسُ عليه هذه العبارةَ لِمَا يلزم عليها من الكذب في الخبر الالهي . وكان
البسني مفتي الحضرة يومئذ فكتب عليه يقول : ان ذلك لا يصح من
أوجه ، الاول انه يخالف ما اتفق عليه الثعاة والمتكلمون من ان الاله
المراد به الجنس والحقيقة ولا يبنى مع لا إلا اذا كان كذلك فهو كَلْمٌ
ولا شيء مما ادّعاه المشركون بِكَلْمٍ ، اذا ما يدّعونهُ ويُعبدونهُ جزئيات
خارجية مُتَشَخِّصَةٌ ، الثاني انه لو كان كذلك لكان الاستثناء منقطعاً ولا
قائِلَ به والاصلُ في الاستثناء الاتصال . الثالث انه ليس فيما ادّعاه

كبيرُ ادب بل الادب ان يكون النفي شاملاً لوجود كلِّ إلهٍ يُقدَّر سوى الحق سبحانه على ما قاله النحاة او للمأهية لا يَقِيْدُ على ما قاله المتكلمون كما هو معروف في بحثهم مع النحاة حيث يُقَيِّدُون بالوجود . الرابع ان في كلامه تناقضاً حيث نقل عن بعض العلماء ان النفي لمن يستحيل كَوْنُهُ والاثبات لمن يستحيل عَدْمُهُ فان من يستحيل كَوْنُهُ مَفْهُومُهُ كُلِّي لا يُحْصَرُ فيما ادعاه المشركون فان سُلِّمَ هذا الكلام لَزِمَ التناقض . وما قاله هذا العالم هو الحق الذي لا شك فيه « وقد اعترض الهبطي كلامهما معاً فقال في بيان وجه المُواخِذَةِ على الخُرُوبِي : إنه سَلَّطَ النفي على ما ادَّعاه المشركون ، وما ادعاه المشركون ثابتٌ موجود لا يتناولُه النفي بالكلية . وقال في وجه المُواخِذَةِ على الِيسِيْثِي مُحَاظِباً له : انكم تعقَّبْتُم على الخروبِي قَصَرَ النفي على ما ادعاه المشركون فقط حتى إنه لو ادخله في جنس الالاه لِيُعْمَ لكان مُسَلِّماً عندكم . والحق ان جنس الاله المعبود بحق ، غير جنس الاله المعبود بالباطل . اذ كل واحد مُمَيِّزٌ بِحِدَّةٍ مُحْتَوٍ على أفراده .

ولما قال الهبطي ما ذُكِرَ رَدٌّ عليه الِيسِيْثِي وشَنَعَ عليه الناس تشنيعاً عظيماً في قوله إن معبودات الكفار لا دَخَلَ لها في النفي ثم وصلت المسألة الى السلطان وهو محمد الشيخ السعدي فبعث الى الهبطي وعَقَدَ بفاس مجلساً للمناظرة لكنَّ الهبطي لم يشأ ان يَدْخُلَ فيها فانفصلوا على غير طائل ولم تزل المسألة مَثَارَ نِزَاعٍ شديد بين الطلبة والمؤلفين في التوحيد

حتى نادت الى العصر العلوي فتصدى لها ابو علي اليوسي وبسطها بما لا مزيد عليه من البيان في كتابه القيم « مناهج الخلاص من كلمة الإخلاص » . ونحن نفتضِبُ من كلامه جُمَلًا نُقرِّرُ بها معنى ما تقدم ، فانه قال بعد هذا الكلام : واذ قد تعرَّضنا لكلام هؤلاء الاثمة فلا بد ان نتصفَّحه بعض التصفح ونشير الى ما عند كل واحد في كلامه بما لا بد من الاشارة اليه والتنبية عليه مُعْطِيًا إن شاء الله كلَّ ذي حق حقه ، ومُعْطِيًا ايضاً الحقَّ حقه ، فان لحوم العلماء مَسْمُومَةٌ ، والصدع بالحق سُنَّةٌ معلومة . ثم قال :

أما كلام الخروبي فتوضعُ الاعتراض منه هو قوله ان النفي لا يتناول الا ما ادَّعاه المشركون من آلهة سوى الله تعالى فانه يظهر انه اراد الآلهة الخارجية عند المشركين من حَجَرٍ وَشَجَرٍ وَفَلَكَ ونحو ذلك فاعتراض عليه اليسيني بان هذه الخارجية جزئيات ومدخول لا يجب ان يكون كلياً الى آخر كلامه . واعتراض عليه الهبطي بان تلك الآلهة الخارجية موجودة فلم يصحَّ نفيها فان نفي الموجود كذب . وهذا مبني على ان المراد من قوله ما ادَّعاه المشركون مَصْدُوقُهُ الخارجي وليس هذا بواجب ان يُراد ، ولا بد ان تعلم انه من الاشياء الضرورية ان كل لفظ واقع على كُلي كالانسان والفرس والشجر ونحو ذلك لا بد له من اعتبارين احدهما مفهومه وهو ما يتصوَّرُ منه كالحَيوان الناطق من الانسان والحَيوان الصاهل من الفرس مثلاً الثاني مَصْدُوقُهُ وهو ما يقع عليه من الأفراد باعتبار وجود معناه فيه كزيد وعمرو وزينب وهند للانسان ؛ فأما

الأول وهو المفهوم فهو كلي ابدأ في نحو هذا وهو مُتَصَوِّرٌ في النهن سواء كان له وجود في الخارج أم لا . وأما الثاني وهو المصدوق فقد يُوجَدُ للكلي منه واحدٌ وقد يوجد كثير وقد لا يُوجَدُ شيء اصلاً كالشريك وبخري من زئبق .

إذا تقرّر هذا فنقول قول الخروبي ما ادعاه المشركون يحتمل ان يريد به مَصْدُوقُه الخارجى كالشجر والحجر وهذا موضع الاعتراض ويحتمل ان يريد به مَفْهُومُه وهو مفهوم الشريك الكلي او الشركاء فان المشركين على اختلاف نَحْلِهِمْ وَتَبَايُنِ مِلَلِهِمْ من وَثْنِي وَفَلَكِي وَتَنَوِي وَمُثَلَّث وغير هؤلاء متفقون على امر واحد هو القدر المشترك بينهم وهو تجويز ان يكون مع الله جلَّ اسْمُه وتعالَتْ كَلِمَتُه مَنْ يُشَارِكُه في استحقاق العبادة ثم لم يقتصروا على هذا التجويز بل حَكَمُوا بوجود ذلك غير انهم اختلفوا بعد ذلك فمنهم من يُثَبِّتُ شريكاً واحداً هو فاعل الشر كالثنوي ، ومنهم من يُثَبِّتُ اثنین كالنُضْرَانِي المثلث . وهؤلاء غلاةُ المشركين القائلون بالشرِكة في الالهية الحقيقية . ومنهم مَنْ لا تَنْضَبِطُ حالُه بل يثبت ما اتفق له مما قام له عليه داع الى الشرِكة وباعثٌ الى العبادة كغيرهم من الوَثْنِيين والفَلَكِيّين ونحوهم فقد اجتمعوا على اثبات الشريك المستحق للعبادة في الجملة . وهذا مفهوم كلي من غير التفات الى مَصْدُوقَاتِه الخارجية في زعمهم . ولا شك ان هذا المفهوم الكلي قد ادَّعَوْه كُلُّهُمْ ولا اشكال انه هو المنفي في الكلمة المشرقة فيجب ان يكون هو

المعنى في قول ما ادعاه المشركون فلا يبقى على الخروبي اعتراضٌ لا من قِبَلِ اليسيثي لان هذا كلي لاجزئي ولا من قِبَلِ الهبطي لان هذا منقّى ليس بموجود ولا يصحُّ وجوده . ثم قال :

وقولُ المعارض إن في كلام الخروبي تناقضاً حيث اتى بكلام ذلك العالم فان من يستحيلُ كونه مفهومه كلي الى آخره يُقال لهذا المعارض من يستحيلُ كونه مفهومه كلي وله مصدوق جزئي وهو معبود الكافر بحسب وصفه المدعى باطلاً فان كونه مستحقاً لأن يُعبد مستحيل وهكذا كلام الخروبي له مفهوم كلي ومصدق جزئي فلم غلبت في كلام هذا العالم رعاية المفهوم حتى صحَّ كَلَامُهُ وفي كلام الخروبي رعاية المصدق حتى بطلَ كَلَامُهُ ؟ » ثم قال :

واما كلام اليسيثي فمَوْقِعُ الاعتراض منه قوله ليس فيما ادعاه ، يعني الخروبي ، كبيرُ ادب بل الادب ان يكون النفي شاملاً لكل الله يُقدَّر سوى الحق سبحانه الخ فالظاهرُ منه انه يقول ينبغي للخروبي ان لا يقتصر بالنفي على ما ادعاه المشركون من الآلهة الباطلة بل يجعل النفي مُتَوَجِّهاً اليها والى غيرها من كل ما يُقدَّر سوى الله تعالى ، ومبني الاعتراض عليه أنه اراد ان يضم ما وقع عند الخروبي من الجزئيات الخارجية الى كل ما يُقدَّر ليَعْمَ النفي فيقع الاعتراض من جهتين . احدهما ان تلك الجزئيات الخارجية موجودةٌ فلا يصح نفيها . الثانية ان في هذا تهاؤناً لانه قال اولاً في اعتراضه على الخروبي ان الجزئيات لا يصح

ان تكون مدخولة للآ ؛ لان مدخول لا انما يكون جنساً كلياً فكيف استباح هنا ان تدخل هي وغيرها؟ ولا يُصَيِّرُها انضمام غيرها اليها كليةً بعد اذ كانت جزئية . والجواب عن اليسيني انه ما أراد إدخال المعبودات الجزئية في النفي من حيث هي كذلك وانما مراده ان الادب هو الخروج عن هذا المسلك وترك الالتفات الى ذوات المعبودات الخارجية وذلك بان يجعل النفي مُتَسَلِّطاً على كل إله يُقَدَّرُ في الذهن مستحقاً للعبادة غير مولانا جلّ وعزّ كما صرّح به من غير التفات الى ما ادّعى في الخارج وما لم يُدَّع . ثم قال :

وأما كلام الهبطي فمَوْقِعُ الاعتراض منه هو قوله إن معبودات الكفار لا دخل لها في النفي ، فان القول بذلك يقتضي انها مُسَلِّمة متروكة لم يُتعرَّض لابطالها وان الكفار لم يقع الردّ عليهم فهم مُقرّون على عبادتها واعتقاد ألوهيّتها مع ان مدلول هذه الكلمة من ابطال كل إله سوى الله تعالى واثبات الألوهية لله تعالى مما عُلِمَ من الدين ضرورة . وتَحْمِيلُ كلامه عندنا وجهان . احدهما انها من حيث ذواتها اي الحجر والشجر والفلّك والنار وغير ذلك لا تُنْفَى ، وهذا لا اشكال فيه ويوافق الخصوم عليه اذ لا إشكال ان الأجرام وكذا الأعراض لا دخل لها في مُسْتَحَقَّ العبادة المنفي في كلمة الاخلاص . الثاني انها من حيث وصفها أي كونها آلهة باطلة لا تستحق ان تُعبد ولا ان يُتقرَّب اليها ولا بها لا تُنْفَى ايضاً . وهذا ايضاً صحيح لا شك فيه لان هذا الوصف اعني كونها آلهة باطلة لا

تضر ولا تنفع ولا تبصر ولا تسمع موجودٌ لها قائم بها كما هو موجود في اذهان الموحدين العارفين فلم يَصِحَّ تسلُّطُ النفي عليه من جهتين . احدهما انه موجود وكما لا يصح نفي النوات الموجودة كذات الصنم لا يصح نفي وصفه الموجود له ككونه معبوداً بغير حق وفتنةً ومضلةً ووبالا . الثانية ان المنفي في كلمة الاخلاص هو المُنْبَتُّ بِالْإِلَهِ بَعْدَهَا فلو كان المنفي هو الالوهية الباطلة الموجودة في الخارج لكان ذلك هو المُنْبَتُّ لله تعالى عن ذلك علواً كبيراً ، ولَمَّا عُلِمَ عِلْمُ اليقين أَنَّ المُنْبَتَّ لله تعالى انما هو الالوهية الْحَقِيقَةُ ، عُلِمَ أَنَّهَا هي المنفية عن غَيْرِهِ لا الباطلة .

ب- في الأدب

مناظرة مالك بن المرحل

لابن ابي الربيع النحوي ، في كان ماذا

وقعت هذه اللفظة في شعر مالك بن المرحل فانكرها ابن ابي الربيع وقال : الصواب ماذا كان ، فقال مالك :

عابَ قومٌ كان ماذا ليتَ شِعْري لِمَ هَذَا

واذا عابوه جهلاً دُونَ علمَ كان ماذا ؟

وكثر النزاع بينهما وألّف كل منهما في المسألة مُنتَصِراً لرأيه . وكان الذي ألّفه مالك كتاباً سماه الرَّمِّي بِالْحَصَى وَالضَّرْبَ بِالْعَصَا وَجَزْأَهُ ثَلَاثَةَ أَجْزَاءَ . ولم نقف على شيء مما كتب ابنُ ابي الربيع . ودُونَكَ

فصلا مما كتبه ابنُ المرحل فيما يشهد لأثباتِ كان ماذا من الجزء الاول
مع اختصارٍ وتصرفٍ في بعض الالفاظ لمزيد الايضاح :

ايها القائل :

كان ماذا لَيْتَهَا عَدَمُ جَنَّبُوهَا قُرْبَهَا نَدَمُ
لَيْتَنِي يَا مَالٍ ، لم أَرَهَا إِنِّهَا كالنارِ تَضْطَرُّمُ

يقول لك مالك : لا بد لك ان تُصَيِّحَ من تحتِ طبقٍ على طبقٍ
نيران : كان ماذا ؟ « ونادوا يا مالُ لِيَقْضِ علينا رَبُّكَ قال إِنَّكُمْ
ما كُثُونَ لَقَدْ جِئْنَاكُمْ بِالْحَقِّ وَلَكِنْ أَكْثَرُكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ »

إلى كم تُقَيِّدُ في كَانِ ماذا تَقْيِيدًا بعد تقييد ؟ لقد حَصَلَتْ
منها في امر شديد . الى كم تُعِيدُ فيها وتُبْدِي ، وَتَنْظِمُ وتُنْشِئُ ؟ غرَّكَ
احتمالي لِقَدْ حَكَّ وَمَزَحَك ، وصبري على أَلَمِ جُرْحِكَ ، حتى قلت :

ما لُجْرَحٍ بِمَيْتِ إِيْلَامٍ^١

انتهزتَ الفُرْصَةَ في اذاية صَبُور ، ودَلَّكَ حِلْمُهُ بَغْوَور ، حتى قلت :

كُلُّ حِلْمٍ آتَى بغيرِ اِحْتِمَالٍ حَبَّةٌ لاجِيَةٍ اليها اللَّثَامُ^٢

١ - هو عجز بيت المتنبي ، وصدره : من بين يسهل الهوان عليه .

٢ - البيت أيضا للتنبي وهما من قصيدة واحدة .

ثَالِثَهُ لَوْ نُهِيتِ الْأُولَى لَأَنْتَهتِ الْآخِرَةُ ، وَلَمْ تَكُنْ أَلْفَاقِرَةٌ تَتَّبِعُهَا
الْفَاقِرَةُ وَلَكِنْ أَغْضَيْتُ عَلَى الْقَدَى ، وَصَبَرْتُ عَلَى الْأَذَى ، حَتَّى قِيلَ لَوْ
قَدَرْتُ لَأَنْتَصَرْتُ . وَاتَّصَلَ الْأَمْرُ فَصَارَ دَيْدَنًا فَلَا جَرَمَ أَنْ أُتَعَقَّبَ كَلَامَكَ ،
وَأَلْفَيْتَ عَلَيْكَ لَأَمَكَ ، فَاقُولْ وَإِنَّمَا أَخَاطِبُ مَنْ سَمِعَ خَطَايِي ، وَنَظَرَ فِي
كِتَابِي :

اعلم اعزك الله ان هذا الرجل المشار اليه هو الذي اثار نارَ كان
ماذا التي احرقته حتى صاح : ليتني يا مالٍ لم اراها . البيتَ ، وذلك انه
سَمِعَ رجلاً يُنْشِدُ لي قصيدةً في تَحَلٍّ كَرِيمٍ جَمَعَنِي وَايَاهُ وَكَانَ فِيهَا :

وَإِذَا عَشَقْتُ يَكُونُ مَاذَا ؟ هَلْ لَهْ دَيْنٌ عَلَيَّ فَيَغْتَدِي وَيَرْوَحُ ؟

فَقَالَ : لَحْنُ هَذَا النَّازِمِ ، لَا يُقَالُ كَانَ مَاذَا وَلَا يَكُونُ مَاذَا وَلَا فَعَلَ
مَاذَا وَلَا أَفْعَلُ مَاذَا وَلَا يَجُوزُ مَا كَانَ عَلَى هَذِهِ الطَّرِيقَةِ وَلَا سَمِعَ .
فَاسْتَشْهَدْتُ عَلَيْهِ بَيْتَ الْجَارِيَةِ وَهُوَ :

فَعَاثَبُوهُ فَذَابَ شَوْقًا وَمَاتَ عِشْقًا فَكَانَ مَاذَا ؟

وَبَقُولُ الشَّاعِرِ :

فَعَدَّكَ قَدْ مَلَكَتِ الْأَرْضَ طَرًّا وَدَانَ لَكَ الْعِيَادُ فَكَانَ مَاذَا ؟

فَقَالَ : هَذَا لَحْنٌ وَلَا يُحْتَجُّ بِمِثْلِ هَذَا . فَقُلْتُ لَهُ : أَرَادَ الْعُلَمَاءُ
لِهَذَا الشَّعْرَ وَقَبُولَهُمْ لَهُ حُجَّةً عَلَى جَوَازِهِ . وَهَذَا كَثِيرٌ . ذَكَرَ أَبُو عَلِيٍّ

البغدادي في الذيل من النوادر : انبأنا الزبير حدثنا اخي هارون بسنده عن وهب بن مسلم عن ابيه قال دخلت مسجد النبي ﷺ مع نوفل بن مساحق فمررنا بسعيد بن المسيب فسلمنا عليه فرد ثم قال يا ابا سعيد من أشعر ، أصاحبنا ام صاحبكم ؟ يريد عمر بن ابي ربيعة وقيس الرقيات . فقال له ابن مساحق حين يقولان ماذا ؟ قال حين يقول صاحبنا :

خَلِيلِي مَا بَالُ الْمَطَايَا كَأَنَّا نَرَاهَا عَلَى الْأَدْبَارِ بِالْقَوْمِ تَنْكُصُ

الابيات . ويقول صاحبكم ماذا ؟ فقال له وهب : صاحبكم اشعر بالغزل وصاحبنا أكثر أفانين شعر ، فلما انقضى ما بينهما استغفر سعيد مائة مرة يَعْدُ بِالْخُمْسِ .

قال المملوك : رضي الله عن سعيد بن المسيب لم يزد على ان فاوض صاحبه في مباح لم يَجِرْ في كلامه فُحْشٌ وَلَا غِيْبَةٌ مُسْلِمٌ ثُمَّ اسْتَغْفَرَ اللَّهَ مِائَةَ مَرَّةٍ . هَكَذَا هَكَذَا وَإِلَّا فَلَا لَا^٢ .

اين هذا من الذي قُيد فيه ؟ وكم فيهم من فتيه سوء خبيث كثير الأذى والمضرة ، يعيب ويغتاب من غاب عنه الفا ولا يستغفر الله مرة .

١ -- الذي بالتممة المطبوعة من الذيل والنوادر : ويقول صاحبكم ما شاء .
٢ -- هذا عجز مطلع قصيدة للمتنبي في سيف الدولة صدره : ذي المعالي فليعلمون من تعالى .

وحكى أبو علي قال : **قُرِعَ** بابُ ابن الرِّقَاع فخرجتُ **بُنْيَةً** له صغيرة فقالت مَنْ هَاهُنَا فقالوا نحن الشعراء قالت وتريدون ماذا ؟ قالوا نهاجِي اباك فقالت تجمَّعُثم من كل أَوْبٍ ووجهة على واحد ، لازِلْتم قِرْنَ واحد . قال : فاستحيوا ورجعوا .

قال المملوك . وكذلك حالي الآن بسببة اجتمع كلُّ من فيها من اصحابِ هذا الرجل واهلِ بلدِه للنقد عليّ ولم يبلغوا ان يكونوا قرون واحد ، والله المستعان .

واستشهدتُ بحكاية اخرى اخرجها أيضاً في الذيل اولها لما أراد معاوية البيعة ليزيد كتب الى مروان وهو والٍ على المدينة ، وفي الحكاية : او تفعلُ كما فعل أبو بكر قال فعل ماذا ؟ وفيها او تفعلُ كما فعل عمر فقال فعل ماذا ؟ وبحكاية أخرى اخرجها ابنُ ظَفَرٍ في كتابه انباء نجباء الابناء اولها بلغني انه لما وُلِدَ لعبدالله بن جعفر ولده معاوية وكان لأم ولد والحكاية طويلة وفيها من كلام خالد بن يزيد بن معاوية يخاطب عبد الملك ابن مروان بلغني ان الحجاج تزوج الى عبدالله بن جعفر ابنته امّ كلثوم فغَضِبَ عبدُ الملك وقال كان ماذا ؟ ولم لا يكون الحجاج كَفُؤاً لها قال خالد يا أمير المؤمنين اني لم أَرِدْ ذلك ولكِنَّكَ تعلمُ انه لم يكن بين يَتَيْنِ من بيوت قريش ما كان بيننا وبين آل الزبير ، يعني من العداوة ، فلما تزوجت اليهم انقلب ذلك البغض حبا . واستشهدتُ له بشواهد من هذا النوع وانما كان غرضي ان اثبت ان هذا النوع من الكلام قد قيل

وانه فصيح ولم أتعرض الى انه على الاتصال ولا على التقديم والتأخير ولا على الانقطاع فتهاذى على الانكار . وقال : لا يحتج بأبي عليّ البغدادي فلم يكن من اهل الصناعة ولا باين ظفر . وانما يحتج باهل صناعة العربية . فاستشهدت له بحكاية أخرى أخرجها العالم الجليل ابو الفرج الاصبهاني في كتاب الاغاني حيث قال :

يَا دَارُ أَقْفَرَ رَسْمُهَا بَيْنَ الْمُحَصَّبِ وَالْحُجُونِ

وفي آخر الحكاية فكان ماذا ؟ . واستشهدتُ بحكاية أخرى أخرجها ابنُ قُتَيْبَةَ في عيون الاخبار قال : مرّ اعرابي بمؤذن وهو يقول اشهد ان محمدا رسول الله بنصب رسول الله فقال الاعرابي وَنَحْكَ يَفْعَلُ ماذا ؟ وبحكاية أخرى من الكتاب المذكور قال : وَصَعِدَ الْيَرْبُوعِي فَخُطِبَ وَقَالَ اما بعد فاني والله ما أدري مَا أَقُولُ وَلَا فِيمَ أَقْتُمُونِي أَقُولُ ماذا ؟ فقال بعضهم قُلْ فِي الزَّيْتِ فَقَالَ الزَّيْتُ مُبَارَكٌ فَكُلُوا مِنْهُ وَادَّهِنُوا . وبحكاية أخرى منه قدم ابنُ جُلَاحٍ مكةَ بخير كثير فقال ابنُ عُيَيْنَةَ : عَلامَ يُعْطِي الْمُلُوكُ هَذَا الْغَلامَ هَذِهِ الْأَمْوَالُ وَيُحِبُّونَهُ هَذَا الْجِجَاءُ ؟ قَالُوا يُغْنِيهِمْ قَالَ يَقُولُ ماذا ؟ فهذان رجلان من ائمة العلماء وصناعة العربية قد حكيا في تأليفهما المشهورين هذه الالفاظ . واستشهدتُ بحكاية أخرى أخرجها العالم ابو بكر الزُّبَيْدِيُّ وهو من ائمة العربية في تاريخ النحويين واللغويين . حَدَّثَ بِسَنَدِهِ عَنِ الْعَجُورِيِّ قَالَ : كَانَ ثَعْلَبٌ مِنَ الْخَفْظِ

والعلم وصدق اللهجة والمعرفة بالعربية ورواية الشعر القديم ومعرفة النحو على مذهب الكوفيين ، على ما ليس عليه احد . وفي الحكاية من كلام ثعلب لصهره : إذا رآك الناس تذهب الى هذا الرجل تقرأ عليه يقولون ماذا ؟

قال المملوك فلما بلغه ذلك قال : لا يتنزل نطقهم لهذه الالفاظ منزلة نقلهم . قلت فيظهر من قولك ايها الرجل ان الزبيدي وابن قتيبة وثعلب و ابا الفرج الاصبهاني وغيرهم كانوا لحائنين ايضا ، فالحمد لله استوى الماء والخشبة ولا عار على من لحن مع هؤلاء . ثم اوقفته على كتاب ألفه ابو علي المألقي في شرح الجمل هو بايدي الناس وقد تكلم على ماذا فقال : ومن حكم مامع ذا ان الالف لا تحذف منها وإن دخل عليها حرف الجر فتقول بماذا جئت ؟ وعماداً سألت ؟ ومن حكمها انها يعمل فيها ما قبلها وان كانت استفهاماً ثم قال : ويُقَوِّي ذلك حديثُ أم حبيبة حين قالت للنبي صلى الله عليه وسلم : هل لك في بنتِ ابي سفيان فقال أضعُ ماذا ؟ انتهى كلامه .

قال المملوك : وخرجَ هذا الحديثُ في كتاب البخاري ومسلم والنسائي وابي داود وابن خيثمة . فلما وقف على الجملة أكبرها وأعظمها ورأى ان الحديث المذكور تمخّضت عنه بطونُ الأمّهات الكبار ، ودارت عليه كتائبُ من كتب الائمة الأخيار ، بين سمر القنا وبيض الشفّار ، فحصل في امر عظيم ، ووقع في مُقعدٍ مُقيم ، ثم نظر فرأى ان الطرق

كلها تجتمع في هشام بن عروة ابن الزبير رضي الله عنه فقال هذا نقله بالمعنى وقد لحن فيه فقليل له ولم تقول ذلك ؟ قال : اني لا أراه كان يحسن ادوات النقل وكانت أمه أمةً وانفرد بنقل هذا اللفظ الذي لا يوجد في كلام العرب . فنقل الطلبةُ كلامه ، وأكبروا جُرأته وإقدامه ، فأمرَ بالتقييد في ذلك لِيُوقَفَ على كلامه . فاضطُرَّ الى القول بجواز ذلك وقال : أمّا أَفَعَلُ ماذا ، إذا ورد في كلام فصيح فيجوز على ان تكون ما ذا منقطعةً من أَفَعَلُ ويكون التقدير ماذا تريد ومشى في تقييده على ذلك . ثم تكلم في بيت الجارية فقال رأيتُ ابنَ طاهر قد قال انه على الانقطاع . فظهر من كلام هذا الرجل انه لم يكن عنده علم من الحديث ولا من بيت الجارية ولا ان ذلك جائز حتى وقف على كلام ابن طاهر في بيت الجارية بعد وقوع النازلة ، فمن هناك تدلَّى وقال ان الحديث يجوز على الانقطاع . وانتقلنا - بحمد الله - من أن ذلك لا يجوز البتة ولا سُمِعَ الى أنه يجوز على الانقطاع . ومع هذا فلم يزل مصمماً على قوله الاول ان الحديث منقول بالمعنى وان ذلك لحن فيه فانه اورد في تقييده ان النقل بالمعنى جائز ، وهذا الذي ذكر لا يُنازَع فيه انما يُنازَع في انه لحن ، وقد فرَّقَ كلامه في هشام بن عروة رضي الله عنه في تقييده فاشار في موضع منه انه كان ابنَ أمة وان اللحن طراً عليه من قبلها فقال : روى مُسْلِمٌ عن ابن ابي عتيق قال تحدّثُ انا والقاسم عند عائشة وكان القاسم رجلاً لحناً وكان لأمٍّ ولِدَ فقال له عائشة : مَا لَكَ لَا تَتَحَدَّثُ كما يتحرك ابنُ اخي

هذا؟ ثم قالت : أما إني قد علمتُ من أين أُتيتَ هذا أدبته أمه وانت أدبتك أمك . قلت : فهذه اشارة الى ان هشاما كان كذلك الى ما صرح به في مجالسه ، وهذا الذي نُقِلَ عن ابن ابي عتيق رضي الله عنه لم يَعْنِ به اللحن الذي هو فساد الاعراب وانما عَنَى به اخراج الحروف من غير مخارجها ونحو ذلك . كما حكى ان اعرابيا قال لعمر رضي الله عنه أُبْظَحْنِي بَضْبِي ؟ فقال له عمر انما يقال ابضحني بظي فقال له الاعرابي كذلك نقول او هي لغتنا . وايضا فان القاسم كان صغيرا وعائشة هي ام المؤمنين وانما قصدت بقولها التعليم والتأديب وليس له ان يقول في هشام بن عروة كما قال ابن ابي عتيق في القاسم ولا ان ينزل نفسه منزلته في هذا القول .

قلت : وأشار في موضع آخر الى انه كان قليل المعرفة باللسان قال : وما يستحق الراوي ان تكون عنده جملة صالحة من اللسان حتى لا يتوَحَّش من شيء سمع منه واذا رأى منكرا نفّر منه ولا بد ان يتقن جهات الاعراب وابنية الاسماء والافعال . ثم نقل فصلا عن الاصمعي ان اخوف ما اخاف على طالب الحديث اذا لم يعرف اللحن ان يَدْخُلَ في جملة قول النبي ﷺ مَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مَتَعَمِّدًا فَلْيَتَّبِعُوا مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ لانه عليه السلام لم يكن يُلْحَنُ فمهما رويت عنه ولحنت فقد كذبت . قلت : وهذه اشارة اخرى الى ان هشاما لم يكن يُحْسِنُ من ذلك شيئا بحيث انه دخل بمقتضى قوله في الجملة التي تلحن فتكذب فتقبوا مقعدها من

النار . قلت : وكذلك أشار في موضع آخر الى تضعيفه فقال : ان من المحدثين مَنْ يُكْتَبُ حديثه ولا يَحْتَجُّ به . قلت : هذا صحيح في غير هشام بن عروة . قال بعضُ من تكلم في الرجال : ابو الحصين عبيد الله القَدَّاح ليس بالقويِّ مكِّيَّ ضعيف مولى لبعض اهلها . وقال ابن ابي حاتم سألت ابي عن عبيد الله القداح فقال ليس بالقويِّ يُكْتَبُ حديثه . واما هشام بن عروة فعَاذَ الله ان يكون من هؤلاء . وهذه نبذة من اخباره وما قيل فيه رضي الله عنه (وذكرها) ثم قال :

فاما قوله وقد انفرد بهذه اللفظة التي لا تُوجد في كلام العرب فباطل قد جاء في حديث آخر ما يشبه هذا ، اخرج الامام ابو الفرج ابن الجوزي رحمه الله في كتابه صَفْوَةُ الصَّفْوَةِ عن أبي سعيد عن مسلم عن ابراهيم عن هشام الدُّشْتُوَانِي عن عطاء بن السَّائب قال لما اسْتُخْلِفَ ابو بكر اصبح غاديا الى السوق وعلى رَقَبَتِهِ اِثْوَابٌ لِيَتَجَرَّ بِهَا فَلَاقِيَهُ عُمَرُ وابو عبيدة فقالا له الى اين تريد يا خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ قال : السوق ، قالوا تصنعُ ماذا وقد وُلِّيتَ أَمْرَ الْمُسْلِمِينَ؟ قال فمن أين يَطْعَمُ عيالي؟ قالوا انطلق حتى نفرضَ لك شيئا فانطلق معها ففرضوا له كلَّ يوم شاةً وما كَسُوهُ في الرأس والبطن . وخرَّجَ ابو داود في كتابه قال : ناموسى^٢ بن اسماعيل قال نا وهب قال نا داود عن عامر عن جابر بن

سَمُرَة قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : لا يزال هذا الدين عزيزاً الى اثني عشر خليفة . قال فبكى الناس وضجوا ، ثم قال كلمة خفية فقلت لابي ما قال ؟ قال كلهم من قریش . حدثنا ابن نَفِيل قال نازُهُمِر قال نازياد بن خَيْثَمَة قال حدثني الاسود بن سعيد الهمداني عن جابر بن سَمُرَة بهذا الحديث زاد : فلما رجع الى منزله اتته قریش فقالوا ثم يكون ماذا ؟ قال ثم يكون الهرج . قلتُ فقد اشترك هشام بن عروة مع غيره في رواية هذا النوع من الكلام لا فرق بين أفعَلُ ماذا وتصنعُ ماذا وُثم يكون ماذا . فليُنظر في هؤلاء الرواة كما نظر في غيرهم وليبحث فلعل فيهم ابن أمة فيكون الحديث لُخْناً على مذهبه ، ولعل فيهم مثل عبيد الله القدّاح ، اعوذُ بالله من الجهل والضلال . قلت : ثم إن هذا الرجل لما قهرته الأدلة ، ووقف موقف الهوان والذلة ، احتاج الى المطالعة فوقف على كلام ابن طاهر في بيت الجارية كما ذكر ، وعلى كلام غيره واضطر الى التقييد في ذلك . فقال وهو يمشي الضراءُ ويقف وراء وراء : إنما أنكرت أن يكون ما قبل ماذا عاملاً فيها . قال وقد تبين بما لا خفاء معه ان أفعَلُ ماذا ليس على تقدير ماذا أفعَلُ ، وان ماذا منقطعة من افعل . لكن بقي ذكر المعاني التي يأتي عليها الكلام فأقول : يظهر لي في افعلُ ماذا اذا ورد في كلام العرب انه يكون على ستة أوجه ؛ أحدها أن

تأتي بأفعلٍ لِتُعَلِّمَ مخاطبك بالموافقة ثم تقول ماذا أي ماذا تريد. قلت وإذا أردت أن تُخْرِجَ البيتَ على هذا الوجه كأنَّ العاذل قال له إذا عشقتَ يكون كذا ويكون كذا فعُدَّ له ما يطرأ عليه من المَحَن في الهوى فيقول موافقا له : وإذا عشقتُ يكونُ أي يكون ما قُلتَ ثم يقول ماذا ؟ أي ماذا يكون عليّ ؟ الوجه الثاني ان تقول افعلْ وتسكت على وجه التذكُّر ثم تقول ماذا ؟ الوجه الثالث أن تقول افعلْ ؟ على جهة الانكار وتمثّل بقول ام حبيبة لرسول الله صلى الله عليه وسلم : إنا لنتحدّثُ انك تريد أن تنكِحَ دُرَّةَ بنت أبي سلمة فقال رسول الله ﷺ بنت أم سلمة ؟ الوجه الرابع ان تقول افعلْ وتحذفُ المفعول تعظيماً للامر وتهويلا . الوجه الخامس ان تقول افعلْ وتحذفُ المفعول لان الذي بعد ذا يبينه . الوجه السادس ان يكون انتقالا من كلام الى كلام . ثم قال :

واذا جاء افعلُ ماذا ويفعلُ ماذا ؛ فقد يكون على وجه آخر غير الوجوه المذكورة وهو ان يكون المفعول محذوفا كما تقول لانسان يقول لك افعلْ معي ما فعل فلان فتقول فعل ! أي أدري انه فعل شيئا ولكني لا أعينّه ثم تسأله عن تعيينه لتنظر في ذلك . ثم قال : وقد يكون على ان تذكر فعل لتحقّق ما يقال . ومثالُ من ذلك ان يقول قائل زيد ضرب فتقول ضربا على معنى أقلت ضرب ؟ ثم قال : فاذا تُتَّبِعُ كلامُ العرب ومقاصدها في كلامها فيوجد أكثر مما ذكر . قال المملوك : انظر كيف قال أولاً انه يكون على ستة اوجه ثم انه زاد وجهين بعد الحصر في ستة اوجه ثم قال

واذا تتبع كلام العرب ومقاصدها في كلامها فيوجد اكثر مما ذكر، فقد صار المنحصر لا ينحصر. ثم قال بعد ذلك : ويمكن ان تجعل ما بمنزلة الذي وذا خبر لمبتدا محذوف ويكون بمنزلة قوله تعالى « تملأ على الذي أحسن » على قراءة من قرأ أحسن بالرفع ، وذا اشارة والتقدير افعل الذي هو هذا . ثم قال : ويمكن ان تجعل ذا بمنزلة الذي وتكون الصلة محذوفة على حسب قوله :

وَكَفَيْتَ جَانِبَهَا اللَّتْيَا وَالَّتِي

قلت : انظر كيف زاد بعد قوله ان الوجوه لا تنحصر وجهين آخرين وهذا كله من قلة التحصيل . ثم انه كر على بيت الجارية فقال : واذا نظرت الى الوجوه التي ذكرتُ بدا لك في بيت الجارية غير ذلك فأخرج بيت الجارية عن الجواز على تلك الوجوه وضعف الوجه الذي ذكره ابن طاهر وقال انه ضعيف ومعنى سخيـف لانه خال عن رشاقة ، عار عن لباقة في كلام له مُفَقَّرٌ بارد تركته ثم قال : وأما البيت الذي وقع فيه الكلام، وزلت بسببه الاقدام ، فلا يشبه بيت الجارية لانه قال : وإذا عشقت يكون ماذا ؟ فاذا وقف على يكون وهو قد جعله جوابا لإذا لأنها لا تخلو من الشرط فقد جعل جملة الجواب لا تفيد الا ما افادت جملة الشرط .

١ - أي الخطأ الفظيمة التي تقصر عنها العبارة وتحذف الصلة في هذا التعبير حتى في النثر فيقال بعد اللتيا والتي لقصد الابهام والتهويل .

قلت : هذا اعتراض بليد لم يفهم من البيت إلا ما وقع في اذنيه فان الرجل لا يحسن في الادب شيئا ولا يحسن اغراض الشعراء ولا ما جرى عليه عملهم حتى يفهم . هذا قول حبيب :

أَجِبْ أَيُّهَا الرَّبْعُ الَّذِي أَنَا سَائِلُهُ

فانه ينظر فلا يرى كلاما متقدماً ولا يسمع قولاً مُحَاطَبَ يكون هذا جوابه فيظن ان الشاعر مجنون . قلت : وانا بعون الله أبين للمبتدئين كيف يُخْرِجُ البيت الذي فيه الكلام عند اهل الصناعة العربية وذلك ان فيه :

حقٌّ وان جعل النَّصِيحُ يَصِيحُ انا عاشق ، هذا الحديث صحيح
واذا عشقتُ يكون ماذا هل له دَيْنٌ علي فيغتدي ويروح ؟

فكانَّ الناصح عَنَّفَه على العشق وعذَّله ، وقال له انت عاشق وجعل يصيح وينظر ويسمع فقال حق انا عاشق ، هذا الحديث صحيح ، ثم قال واذا عشقتُ يكون العشق كما تقول وماذا عليّ فيه ؟ وبـدَل على ذلك بعد هذا :

فيه قضاء ؟ لا ولا كفارةٌ فأريحُ قُودِي إنَّ قولك ريح

فقد تبَيَّن المعنى وظهر وجهُ التقرير والاعراب على الطريقة في صناعة العربية وصار يكون جوابا لإذَا على رغم من انكره فان المنكر بعيد

من فهم الشعر ومن قوله ، على انه قد تَكْتَبُ^١ وتكلف الشعر بالعروض على ما تقف عليه ان شاء الله . فان قيل لي هذا مذهبك في البيت قلت نعم ! ويمكن تخريجه على اكثر الوجوه التي فسرّها هذا الرجل ، بعد تحصيل الفهم لما قبل البيت كما ذكرت لك ولا يبعد عندي التقديم والتأخير من غير عمل كما ابين للعبتي ان شاء الله وذلك انك تقول ماذا افعله ؟ ثم تحذف الضمير فتقول ماذا افعل ؟ ثم تقلب فتقول افعل ماذا ؟ ويتبين لك في أن تقول أي شيء افعله ؟ ثم تقول أي شيء افعل ؟ برفع أي ثم تقول افعل أي شيء بالرفع . فكذلك التقدير في يكون ماذا ! والتقديم والتأخير في الكلام كثير ومن ذلك قوله تعالى : « إِنِّي لَكُمَا لَمَنَ النَّاصِحِينَ » على احد القولين . وقد قالوا : أصبحت كيف ؟ علّقه أبو عليّ الفارسي .

وهذا الكلام مقتضب وانما هو تذكير للعالم وتنبيه للنائم والله الموفق
واما حديث النبي صلى الله عليه وسلم اعني حديث ام حبيبة فالتقديم والتأخير عندي فيه هو الصواب لأنّ غير ذلك يبدل معناه ويخرجه عن ظاهره ويطمس حسنه ونور فصاحته . واما سائر ما تقدم فما يستوي فيه النظر .

قال المملوك : ونظير البيت المذكور قول عمر رضي الله عنه
للاعرابي الذي انشده :

يَا عُمَرَ الْخَيْرِ رُزِقْتَ الْجَنَّةَ أَكْسُ بُنَيَاتِي وَأُمُّهُنَّ
وَكُنْ لَنَا مِنَ الزَّمَانِ جُنَّةً أَقْسِمُ بِاللَّهِ لَتَفْعَلَنَّ

فقال له عمر: فان لم أفعل يكون ماذا؟ فقال الاعرابي:

إِذَنْ أَبَا حَفْصٍ لَأُذْهِبَنَّ

فقال له عمر: واذا ذهبت يكون ماذا؟ فقال الاعرابي:

يَكُونُ عَنْ حَالِي لَتُسْأَلَنَّهُ يَوْمَ تَكُونُ الْأَعْطِيَاتُ هِنَّةً
وَمَوْقِفُ السُّؤَالِ يَنْتَهِيَنَّ إِلَّا إِلَى نَارٍ وَإِنَّمَا جَنَّتْهُ

قال فبكى عمر حتى اخضل لحيتته ودعا بِقَمِيصٍ فدفعه اليه وقال
خذ هذا لأَهْوَالِ ذَلِكَ اليوم لا للشعر . والحكاية رواها ابو علي البغدادي.
والبيت الثاني الذي تقدم وهو:

فَعْدُكَ قَدْ مَلَكَتِ الْأَرْضَ طَرَا ودان لك العباد فكان ماذا؟

وقع في حكاية اوردها ائمة الادباء في كتبهم قال جعفر بن القاسم
الامير بالبصرة: إني لفي الجامع الاعظم بالبصرة ومعى جماعة يَعِظُونَنِي
اذوقف عليّ بعض المجانين فقال:

فَعْدُكَ قَدْ مَلَكَتِ الْأَرْضَ طَرَا ودان لك العباد فكان ماذا
أَلَسْتُ تَصِيرُ فِي لَحْدٍ وَيَحْوِي تَرَأَاكَ بَعْدُ، هَذَا ثُمَّ هَذَا

وَيُنْسَبَانِ اَيْضاً لِبَهْلُولٍ يَقُولُهُمَا لِبَعْضِ الْخُلَفَاءِ الْعَبَّاسِيِّينَ وَقَدْ لَقِيَهُ فِي بَعْضِ الطَّرِيقِ . وَيُرْوَى الْبَيْتُ الْآخِرُ :

أَلَسْتَ تَصِيرُ فِي لَحْدٍ وَيَحْتُوُ عَلَيْكَ التُّرْبَ ، هَذَا ثُمَّ هَذَا ؟

وَرَأَيْتُ فِي كِتَابِ ابْنِ ظَفَرٍ أَنَّ هِشَامَ بْنَ الْمَغِيرَةِ كَانَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْعَاصِيِ بْنِ وَائِلٍ نَبْوَةٌ وَكَانَ أَبُو جَهْلٍ بْنُ هِشَامٍ حَدِيثَ السِّنِّ مُعْجَباً بِنَفْسِهِ حَدِيداً فَرَّ بِالْعَاصِيِ بْنِ وَائِلٍ وَهُوَ فِي نَادِي قَوْمِهِ وَابْنُهُ عَمْرُو بْنُ الْعَاصِيِ بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُوَ طِفْلٌ فَقَالَ أَبُو جَهْلٍ كَلَاماً يَتَهَدَّدُ بِهِ فَلَمْ يُجِبْهُ الْعَاصِيِ بِشَيْءٍ فَقَالَ عَمْرُو لَابِيهِ : مَا لَكَ لَا تَجِيبُهُ ؟ قَالَ أَقُولُ مَاذَا ؟ قَالَ تَقُولُ إِذَا كُنْتَ يَوْمَكَ ذَا عَاجِزاً مَهِيناً فَانْتَ غَدًا أَعْجَزَ ، وَلَوْ كُنْتَ تَعْقِلُ أَلْهَاكَ عَنْ وَعِيدِكَ ذَا مَا بِهِ تُنْبِزُ ، فَاسْتَطِيرَ الْعَاصِيِ سُرُوراً وَقَالَ أَنْتَ ابْنِي حَقًّا وَكَانَ قَبْلَ ذَلِكَ يَفْضُلُ غَيْرَهُ مِنْ وَلَدِهِ عَلَيْهِ .

قلت : والحكايات والاشعار التي وقعت فيها كان ماذا ، ويكون ماذا ونحو ذلك كثيرة وانما اعود الى ايرادها ، لعلمي انه متمادٍ على انكاره وانما احتاج الى القول بالجواز في تقييده على الوجوه التي ذكر للضرورة ؛ وما زال عن قوله إن ذلك لحن ولا يزول ابداً .

ج- في السِّيَاسَةِ

مناظرة المهدي بن تومرت لعلماء مراکش

بحضرة علي بن يوسف بن تاشفين

دخل المهدي بن تومرت وأصحابه الى مراکش وقد جاهر بدعوته واستعلن أمره . فذهب الى المسجد الجامع ولقي هناك أمير المسلمين علي بن يوسف فوعظه وأغلظ له القول ، وكان علي جالساً والوزراء واقفون حوله فقال الوزراء لابن تومرت سلم سلام الخلافة على الأمير ، فقال ابن تومرت وأي أمير؟ انما أرى جوارِي مُنْقَبَّات . فلما سمع ذلك علي بن يوسف أزال النقاب عن وجهه وقال صدق ، فلما رآه ابن تومرت قال له الخلافة لله لا لك يا علي ، وتمادى في وعظه وارشاده وجادل العلماء الحاضرين جميعاً .

وقيل انه كان سائراً في الطريق فرأى أخت علي بن يوسف حاسرة على عادة قومها فوبّخها توبيخاً وعنفها فدخلت على أخيها تذرِفُ الدموع مما لحقها من اهانة ابن تومرت وتقرّيعه . وأصبح العلماء والعامة لا يتكلمون في مراکش الا بأمره ، فجمع له علي بن يوسف مجلساً من علماء المغرب والأندلس يرأسهم وزيره العلامة مالك بن وهيب فلما التأم المجلس للمجادلة تولى الكلام قاضي المريّة محمد بن أسود وقال

ما هذه الأقوال التي تُنقلُ عنك في حق الملك العادل المنقاد الى الحق والمؤثر لطاعة الله على هواه؟ قال ابنُ تومرت ان ما نُقِلَ عني قد قلته حقاً ولي من ورائه أقوال أخرى ، أما قولك إن ملككم عادل منقاد للحق مؤثر طاعة الله على هواه ؛ فهذه أقوال تقولونها وتنصرونه بها مع علمكم بأن الحجة متوجهة عليه ، فهل بلغك يا قاضي أن الخمر تباع في هذه الديار جهاراً وأن الخنازير تمشي بين المسلمين وأن أموال اليتامى تُؤكلُ ظُلماً وُعُدواناً؟ وعدد من ذلك جميع المنكرات التي رآها ، فلما سَمِعَ الملك كلامه ذرقت عيناه وأطرق حياء فسكتَ علماء السوء ولم يتكلم منهم أحد ، فقال مالك بن وهيب وقد فهم نفسية ابن تومرت وأدرك غايته ، نصيحتي لك أيها الملك أن تأمر بسجن هذا الرجل وأتباعه وتنفق عليهم كل يوم ديناراً لتكفي شرمهم والا أنفقت عليهم كل خزائنك ولا يُجديك ذلك نفعاً ، اجعل عليه كَبَلاً قبل أن تسمع له طَبَلاً . فوافقهُ الملك على ذلك ، لكن الوزير بيتان بن عمر تدارك الأمر وقال يَقْبُحُ بك أيها الملك أن تبكي من موعظة رجل ، ثم تسجنه في مجلس واحد ، فأصغى الملك لرأيه وصرف ابن تومرت وسأله الدعاء .

مناظرة السلطان زيدان بن المنصور الذهبي

للشيخ يحيى بن عبد الله بن سعيد الحاحي

كان للشيخ المذكور دالةٌ على زيدان بن المنصور بسبب أنه أعانه

على حزب الثائر أبي حَلِيٍّ^١ وإنقاذ مراکش من يده فكان بعد ذلك يُراسله وينصحه . وكان زَيْدَانُ يتحمَّل من ذلك أمراً عظيماً ، ويُداريه أشدَّ المُدَاراة . وهذه المناظرة تُعطينا صورةً من الصراع العنيف الذي كان يدور بينهما ، وهو صراع بين الأفكار المجردة والواقع السياسي الذي لا يعدم من الحُجَج ما يُناهض به تلك الأفكار ، ولئن مثلت المناظرة في شخصية الشيخ المذكور مُعارضةً سياسية جريئة فانها تُمثل في شخصية زيدان حكومةً مُتبصرة عظيمة الثقة بنفسها .

(قال الشيخ) في خطابه لزيدان بعد الافتتاح^٢ .

وبعد فالباعث به اليكم أمور ثلاثة مَدَارُها على قوله ﷺ الدين النصيحة . قِيلَ لِمَنْ يارسول الله ؟ قال : لله ولرسوله ولخاصة المسلمين وعامتهم ، الأول بيان سبب الرُّكُون اليكم ، الثاني ذكر الحامل على دفع مُناوئِكُم ، الثالث ملازمة النصيح لكم والضجر بما يصدر من أعوانكم للرعية ، أما الأمر الأول فله أسباب كثيرة منها مُراعاةُ الجَنَاب النبوي

١ - هو الفقيه الشيخ احمد بن عبد الله السجلماسي المعروف بأبي مَحَلِّي كان أولاً ينتحل طريق التصوف ثم تصدَّى للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وثار على السلطة واستولى على سِجْلَاسَة وذرة ومراكش ثم ظفّر به زيدان بمعاونة الشيخ يحيى بن عبد الله هذا .

٢ - تصرفنا في هذه المناظرة ببعض الحذف والإيصال من غير اخلال بشكلها ولا بضمونها ، وذلك رغبة في الاختصار والوضوح .

الكريم في أهل بيته. ورَضِيَ الله عن أبي بكر الصديق القائل : أَرُقِبُوا محمداً في أهل بيته ، والقائل : لِقَرَابَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَحَبُّ إِلَيَّ أَنْ أُصِلَ مِنْ قَرَابَتِي .

وأما الأمر الثاني فلما جرى به القَدَرُ من تغلب ذلك الانسان المُسلَّط على الرقاب والحرِّيم والأموال ، وإدخاله بتأويلاته البعيدة عن الصواب ما ليس في المذهب حتى تعدَّى ضروبَ الوَلَاةِ الى سائر الرعية فاضليها ومفضوليها ، ومدَّ مع ذلك يدَ الوعيد المؤكَّد بالآيمان اليها في الأنفس والأموال .

وأما الأمر الثالث فهو تماثل عليه الكتاب والسنة والاجماع . أما الكتاب فسورة العصر قائمة البرهان في كل أَوَانٍ وعُضُرٍ ، وقد قال تعالى في قضية كَلِمِهِ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيراً لِلْمُجْرِمِينَ ، وقال جلَّ من قائلٍ : وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى ، وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ . وأما السنة فقوله ﷺ مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ فَإِنْ لَمْ يَقْدِرْ فَلْيُسَانِهِ فَإِنْ لَمْ يَقْدِرْ فَبِقَلْبِهِ وَذَلِكَ أَضْعَفُ الْإِيمَانِ ، وقد كنا مقتصرين على التغيير باللسان والعلم بكون التغيير العملي اليكم ، حتى جذبتُمونا اليه ودللتُمونا بارتكاب أصعب مَرامٍ عليه ، وقوله مَنْ أَعَانَ عَلَى قَتْلِ مُسْلِمٍ وَلَوْ بِشَطْرِ كَلِمَةٍ جَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَكْتُوباً بَيْنَ عَيْنَيْهِ آيِسٌ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ . قال العلامة المَوَاقِ : مَنْ أَعَانَ عَلَى عِزْلِ أَمِيرٍ وَتَوَلَّاهُ

غيره ولم يأمن سَفَكَ دم مسلم فهو شريك في دمه إن سَفِكَ ، ثم أتى الحديث المتقدم استعظماً لذلك الأمر أَلْفُطِيع ، فإننا لله وإنا إليه راجعون ، على أننا انخدعنا بالله حيثُ كُتِبَتْ لنا مراراً وأَمُنْتَ وعَاهَدْتَ ، وكُنْتُ أَتَخَوَّفُ مِنْ هَذَا الْوَاقِعِ بِأَزْمُورٍ وَأَسْفِي وَمَرَكَشٍ وَالْعَرَبِ حَتَّى أَتَانِي الْقَائِدُ عَبْدُ الصَّادِقِ بِمُصْحَفٍ ذَكَرَ أَنَّهُ لِسُلْطَانٍ تِلْمِسانَ ، فِي جَرْمٍ صَغِيرٍ وَقَالَ لِي أَمَرَنِي السُّلْطَانُ أَنْ أَحْلِفَ لَكَ فِيهِ نِيَابَةً عَنْهُ عَلَى بَقَائِهِ عَلَى الْعَهْدِ فِيمَا بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ ، وَمَنْ تَأْمِينَ كُلِّ مَنْ أَمُنْتَهُ ، وَامْضَاءِ كُلِّ مَا رَأَيْتَهُ صَلَاحاً لِأَمْتِهِ ﷺ ثُمَّ لَمْ أَكْتَفِ بِذَلِكَ حَتَّى أَتَانِي الْقَاضِي وَأَكَّدَ كُلَّ مَا تَقَدَّمَ مُتَحَمِّلاً عَنْكَ بِذَلِكَ وَبَعْدَ اسْتِقْرَارِكَ فِي دَارِكَ كُتِبَتْ لِي كِتَاباً بِأَنَّكَ بَاقٍ عَلَى مَا تَعَاهَدْنَا عَلَيْهِ وَأَنَّ الْأُمُورَ كُلَّهَا عَلَى مِغْيَارِ الشَّرْعِ - فَمَا رَاعَنِي إِلَّا وَقَدْ أَخْفَرْتُ فِي ذِمَّةِ اللَّهِ وَأَمَانِي الَّذِي عَقَدْتُهُ لِلنَّاسِ مِنْ مَأْسُورٍ وَمُقَيَّدٍ وَمَطْلُوبٍ بِمَالٍ وَمَطْرُودٍ عَنْ بَلَدِهِ ، وَآخِبَارٍ أُخْرَى تَرِدُ عَلَيْنَا مِنْ جِهَةِ السَّوَاخِلِ إِنْ النَّاسُ تُبَاعَ فِيهَا لِلْعَدُوِّ دَمُّهُ اللَّهُ وَلَمْ نَرِ مِنْ أَهْتَبَلٍ بِذَلِكَ مِمَّنْ قَلَّدْتُمُوهُ أُمُورَ الشُّغُورِ فَلَمْ نَذَرِ هَلْ بَلَغَكَ خَبَرُ ذَلِكَ فَتَسْقُطَ عَنْكَ مَلَامَةُ الشَّرْعِ أَوْ لَمْ يَبْلُغَكَ فَأَعْلِمْنَا اللَّهَ تَعَالَى لِتَطْمِئِنَّ قُلُوبُنَا فَإِنِّي كَاتِبُكَ فِي ذَلِكَ فَلَمْ أَرَ جَوَاباً فَقَضَيْتُ وَاللَّهِ مِنَ الْأَمْرِ عَجَباً .

وَأَمَّا الْاجْمَاعُ فَلَمْ نَرَ مِنَ الْعُلَمَاءِ مِنْ نَهَى عَنْ نَصِيحَةِ خَاصَّةِ الْمُسْلِمِينَ وَتَنْبِيهِهِمْ عَلَى مَا يَصْلُحُ بِهِمْ وَبِالرَّعِيَةِ بَلْ عَدَّوْهُ مِنَ الدِّينِ الْحَدِيثِ الدِّينِ النَّصِيحَةِ وَغَيْرِهِ . وَمَا اسْتَشَعَرْنَاهُ مِنْ امْتِعَاضِكُمْ مِنْ عَدَمِ إِلَّا تَقُولُ فِي

مكاتبنا لكم ، فما خاطبناكم قطُّ رعيّاً لذلك ولو بنصفِ ما خاطبَ الائمة الأولُ به اهلَ زمانهم اتكالا على مطالعتكم لكتبهم وعلمكم بما لم نعلمه من ذلك . ويكفيكم نصحُ الفضيل بن عياض وسفيان الثوري وإمامنا مالك رضي الله عنهم لمعاصريهم من الولاة ، وفيهم من بكى وانتفع ، ومن غشي عليه وتوجّع ، ومن ندم واسترجع ، الى غير ما ذكر على اختلاف الاعصار وتنوع الدول ، فبذلك اقتدينا وبما كان عليه اسياخنا واسلافنا لكم ولأسلافكم كالفقيه شيخ والدنا رحمه الله سيدي عبدالله الحبطي الجددكم المرحوم بكرم الله تعالى ، فطمعتُ في نُجْحِ النصحِ دُنْيا وأخرى . فهذا اصلُ قضيتنا معكم وهلمَّ جرّاً والذكرى تنفع المؤمنين .

(فاجابه زيدان) :

وبعد ، فقد ورد علينا كتابكم ففضضنا ختامه ووقفنا على سائر فصوله ثم اننا إن جاوبناكم على ما يقتضيه المقام الخطابي ربّما غيركم ذلك وأدّى الى المباحضة والمشاحنة . ويحكى عن عثمان رضي الله عنه انه بعثَ لِعليّ كرم الله وجهه واحضره عنده والقى اليه ما كان يجدُ من اولاد الصحابة الذين اعصَوْصَبُوْا بأهل الردّة الذين كان رجوعهم الى الاسلام على يد الصديق ، وهو في ذلك لا يُحِبُّه ، فقال له عثمان ما اسكتك ؟ فقال له : يا امير المؤمنين ان تكلمتُ ما اقول لك الا ما تكره وان سكّت فليس لك عندي الا ما تُحِب . ولكن لما لم اجدُ بداً من الجواب أرى ان

أقدم لك مقدمة قبل الجواب وذلك ان الحجاج لما ولاه عبد الملك بن مروان العراق وكان من سيرته ما يُغنيّ اشتهاره عن تَسطيره هنا فتأول ابنُ الاشعث الخروجَ عليه وتابعه على ذلك جماعة من التابعين كسعيد بن جبّير وامثاله من اولاد الصحابة ولما قوّيَ عزُّهم على ذلك استدعوا الحسنَ البصري رضي الله عنه فقال لا افعل فاني أري ان الحجاج عُقوبةٌ من الله تعالى فنَفَزَ الى الدعاء أوّلَى . وقد علمتَ ما كان من امر عبد الرحمان بن الاشعث وسعيد وامثاله . وقَضِيَةَ أهل الحرّة لما أوقع بهم جُندُ يزيد بن معاوية بالحرَم الشريف ما أوقع ، ولما بلغه الخبرُ وهو بالشام انشد :

لَيْتَ أَخَوَالِي يَبْدُرُ شَهْدُوا جَزَعَ الْخَزْرَجِ مِنْ وَقَعِ الْأَسْلِ

وشاعَ ذلك عنه وذاع وكان ذلك على عهد أكابر الصحابة واولادهم فما تعرّض احدٌ منهم للنكير عليه ولا تصدّى للقيام بكلام .

وَنَزَجُ لُجُوبِ الْكِتَابِ ، فَأَمَّا مَا حَكَيْتَ عَنِ الصَّدِيقِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي أَهْلِ الْبَيْتِ وَالْأَحَادِيثِ الْوَارِدَةِ فِي أَنَّهُ يَجِبُ إِحْتِرَامُهُمْ وَتَعْظِيمُهُمْ وَتَبْجِيلُهُمْ لِأَجْلِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَإِنْ كَانَ يَجِبُ عَلَيْكُمْ تَعْظِيمُهُمْ فَإِنَّهُ يَجِبُ عَلَيَّ مِنْ بَابِ أَوَّلَى ، عَمَلًا بِقَوْلِهِ تَعَالَى : « قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ

أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى ، وَاجْرَى سَبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَادَةً حُكْمِهِ مَا تَصَدَّى
 أَحَدٌ لِعَدَاوَةِ أَهْلِ الْبَيْتِ إِلَّا أَكْبَهُ لَوَجْهِهِ . وَأَمَّا مَا أوردُكُمْ مِنْ أَحَادِيثِ
 النَّصِيحِ فَأَنَا وَاللَّهِ أَحِبُّ أَنْ تَنْصَحَنِي سِرًّا وَعِلَانِيَةً مَعَ زِيَادَةِ شُكْرِي عَلَيْهَا
 وَأَرَاهَا مِنْكَ مَوَدَّةً وَأَعْدُهَا حُبَّةً ، وَلَكِنْ أَفْعَلُ مِنْ ذَلِكَ مَا أَقْدِرُ عَلَيْهِ
 لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ : « لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا » وَقَدْ كَثُرَ قَوْلُهُمْ .
 وَلَمْ آلُ جُهْدًا فِي كَذَا ، لِأَنَّ النُّفُوسَ الشَّرِيفَةَ الْعَلِيَّةَ لَا تَتْرُكُ مِنْ فِعْلِ
 الْخَيْرِ وَالْجِدِّ فِي اكْتِسَابِهِ إِلَّا مَا عَزَّ تَنَاوُلُهُ وَصُعْبَ اكْتِسَابِهِ عَلَيْهَا .

وَأَمَّا مَا ذَكَرْتُمْ مِنْ أَمْرِ أَبِي عَمَلِي وَسِيرَتِهِ وَمَا كَانَ تَسَلَّطَ عَلَيْهِ لَوْلَا
 مَا كَانَ مِنْ نُحُوضِكُمْ إِلَيْهِ ، أَمَّا تَذَكُّرُ اسْتِنْهَاضِنَا لَكُمْ الْمَرْءَ بَعْدَ الْمَرَّةِ وَتَكَرَّرَتْ
 فِي ذَلِكَ إِلَيْكُمْ الرُّسُلُ حَتَّى اجْبَتَ إِلَيْهِ وَهُوَ أَمْرٌ لَا تَحْتَاجُ فِيهِ لِإِقَامَةِ حُجَّةٍ
 غَيْرَ كَوْنِهِ خَرَجَ مِنَ الْجَمَاعَةِ ، وَقَوْلُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَنْ أَرَادَ أَنْ
 يَشُقَّ عَصَاكُمْ فَاقْتُلُوهُ كَانَتْ أَمِنْ كَانَ ، وَإِلَّا فَلَوْ دَخَلَ الْمَلِكُ مِنْ بَابِهِ وَبَابِهِ
 أَهْلُ الْحُلِّ وَالْعَقْدِ وَاخْذَ ذَلِكَ بِوَسَائِطٍ مِثْلَ بَيْعَةِ جَدُّنَا الْمَرْحُومِ الَّتِي
 تَضَافَرَتْ عَلَيْهَا عُلَمَاءُ الْمَغْرِبِ وَأَهْلُ الدِّينِ الْمَشَاهِيرُ ، وَلَوْ كَانَ وَصَلَ لَذَلِكَ
 بِمِثْلِ هَذِهِ الْوَسَائِطِ لَمَّا وَجِبَ حَرْبُهُ وَلَا الْقِيَامُ عَلَيْهِ بِمَا ذَكَرْتُمْ لِأَنَّ السُّلْطَانَ
 لَا يَنْعَزِلُ بِالْفَسْقِ وَالْجَوْرِ ، وَإِلَّا فَانِ الصَّحَابَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ فِي زَمَنِ
 يَزِيدَ بْنِ مَعَاوِيَةَ لَا يُحْصَى عَدْدُهُمْ وَمَا تَصَدَّى أَحَدٌ مِنْهُمْ لِلْقِيَامِ عَلَيْهِ وَلَا قَالَ
 بَعْزُهُ ، وَإِلَّا فَانْهُمْ لَا يُقِيمُونَ عَلَى مِثْلِ ذَلِكَ وَلَوْ نُشِرُوا بِالْمَنَاشِيرِ . وَأَمَّا
 أَبُو عَمَلِي فَبِمُجَرَّدِ قِيَامِهِ يَجِبُ عَلَيْكَ وَعَلَى غَيْرِكَ اعَانَتُنَا عَلَيْهِ لِأَنَّكَ فِي

يَبْتَغِنَا وهي لازمة لك فالطاعة واجبة عليك . واعلم ان والدك افضل منك
بدليل ؛ (آباؤكم خيرٌ من ابنائكم الى يوم القيامة) وكان عمنا عبدُ الملك
رضي الله تعالى عنه وسمَح له على ما كان عليه واشتهر به اعلاناً . وكان
والدك في دولته وبيعته ووفد عليه ولم يستنكف من ذلك ولا ظهر
منه ما يخالف السلطنة ولا أنكر عليها ولا تعرض لما يسوء ملك
الوقت ولا سُمِع ذلك منه ، فان كان راضيا بفعله فهو مثله وان لم يكن
راضيا فما وجه سكوته والوفادة عليه ؟ واما ما ذكرتم من أنَّ من اعان
على قتل مسلم ولو بشطر كلمة جاء يوم القيامة مكتوباً بين عينيه آيسُ
من رحمة الله ؛ فهذه حجة عليك لا علينا لأنني ما سمعتُ في قتل احد ولا
قُتِلَ مَنْ قُتِلَ الا بأمر القضاة واهل العلم . واعلم انه اذا كان هذا وعيداً
في قتل الواحد فما بالك بمن يُريدُ فتح باب الفتنة حتى لا يقفَ القتلُ على
المائة والمائتين والالف والخمسة آلاف ونهب الاموال وكشف الحرم
وغير ذلك . أما تعلم ان أيامَ فتنة ابي محلي قد هلك من النفوس
والاموال بسببها ما لا يُحصى عدده حاسب . ولا يستوفي نهايته كاتب ،
وكان ذلك في صحيفته لانه المتسبب الأول الفاتح ابواب الفتنة لانه كان
يقتل كلَّ من انتمى اليها حتى قُتل بسببه في يوم واحد بمكان واحد
خمسائة قتيل ولولا ابو محلي ما قُتلوا .

واعظمُ في حُرمة النفوس من هذا قوله تعالى : « مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ ،
كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَآئِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي

الأرض فكأنما قتل الناس جميعاً ، وليس في قول المواق ما يُحتج به على السلطان وإنما تكلم في أصحاب الحطاط على الترتيب الذي كان على عنده ، مثل اصحاب الشرط كصاحب شرطة الشوق الذي يُنفذ عن القاضي وغير ذلك من الولايات . وولاية أبي محلي لا تعد ولاية حتى يُعد عزله عزلاً . وما عند المواق وغيره وقفنا عليه وعرفناه وتلقيناه من الشيوخ الجلة وعرفنا ما عند الشافعية والحنفية ودرسناه المرة بعد المرة . ولست ممن ينطبق عليه قوله عليه السلام : أشقى الناس عالم لم ينفعه الله بعلمه . ولكن لماذا تجتج بقول المواق لغرضك وتجعله حجة ، ولم تُجيبنا نحن فيما كتبنا اليك فيه في يونس اليوسي وقلنا لك قال ﷺ الحرم لا يُعبد عاصيا قال : ألاي هذا مما يُحتج به على أهل الزوايا ، فأخبرنا عن الوجه الذي منعه به من الشرع ومتاعنا عنده وإمام أهلنا في داره وترتب في ذمته للمسلمين من الأموال والدماء ما يحل حصره ، فإن كنت تريد العدل فهلا عدلت فيه ؟ والناس خرجت على أطوارها واحبوا الفتنة طلباً للراحة فإن كنت تصغي لمقاتلتهم وإسعاف شهواتهم والتعرض للسلطان ، فهذا نفس خراب العالم .

ورأيت أن أقدم لك مقدمة أمام هذا ، وإن كانت أدبية ، قيل لابن الرومي ، وهو علي بن العباس ، لم لم تقل كعبد الله بن المعتز :

كَأَنَّ أَذْرِيُونَنَا	وَالشَّمْسُ فِيهِ كَالِيَه
مَدَاهُنْ مِنْ ذَهَبٍ	فِيهَا بَقَايَا غَالِيَه

فاجاب بأن قال : هُوَ لَا يَقْدِرُ أَنْ يَقُولَ مِثْلَ قَوْلِي فِي وَصْفِ
الرَّقَاقَةِ :

إِنْ أَنَسَ ، لَا أَنَسَ حَبَّازاً مَرَرْتُ بِهِ يَدْحُو الرَّقَاقَةَ وَشَكَ اللَّحْمَ بِالْبَصْرِ
مَا بَيْنَ رُؤُوتَيْهَا فِي كَفِّهِ كُرَّةٌ وَبَيْنَ رُؤُوتَيْهَا قَوْزَاءُ كَالْقَمَرِ
إِلَّا بِمَقْدَارِ مَا تَنْدَاحُ دَائِرَةٌ فِي صَفْحَةِ الْمَاءِ يُرْمَى فِيهِ بِالْحَجَرِ

وقال كلُّ منَّا يَصِفُ أَوَاتِي بَيْتَهُ ، وَرَبُّ الْبَيْتِ أَدْرَى بِمَا فِيهِ ، وَاهْلُ
مَكَّةَ أَدْرَى بِشِعَابِهَا ، وَالصَّيْرِفِيُّ أَعْرَفُ بِنَقْدِ الدِّينَارِ وَقَضِيَةِ الْخَضِرِ
وَالْكَلِيمِ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَى نَبِينَا وَعَلَيْهَا السَّلَامُ فِيهَا كِفَايَةٌ لِمَنْ يَعْتَبِرُ ..
فَأَخْبَرْنَا كَيْفَ تُحِبُّ أَنْ نَسْلُكَ مَعَ النَّاسِ فِي الْغَرْبِ ، فَإِنْ كُنْتَ تُحِبُّ أَنْ
نَسْلُكَ فِيهِمْ مَسْلَكَ مُوَلَايَ عَبْدِ اللَّهِ فَالزَّمَانُ غَيْرُ الزَّمَانِ وَالْأَسْعَارُ قَدْ
ارْتَفَعَتْ وَبَلَغَتِ النِّهَايَةَ وَاللَّهُ تَعَالَى قَدْ بَعَثَ أَنْبِيَاءَهُ وَأَنْزَلَ كُتُبَهُ بِحَسَبِ مَا
يَقْتَضِيهِ الزَّمَانُ وَهَذَا يَعْرِفُهُ مَنْ خَالَطَ الشَّرَائِعَ وَالْكَتُبَ الْمُنْزَلَةَ وَأَخَذَ
الْعِلْمَ مِنْ أَفْوَاهِ الرِّجَالِ وَأَدَبْتَهُ بِمَجَالِسِ الْعِلْمِ .

وَنَحْنُ نُلَخِّصُ لَكُمْ الْكَلَامَ عَلَى بَعْضِ مَا أوردَ النَّاسُ فِي الْخُرَاجِ .
أَمَّا مَا بَنَوْا عَلَيْهِ فَرَضَهُ فِي صَدْرِ الْإِسْلَامِ وَالِدُولِ الْعِظَامِ فَلَا نُطِيلُ
بذِكْرِهِ لَشَهْرَتِهِ وَأَمَّا فِي الْمَغْرِبِ خُصُوصاً فَأُولُ مَنْ فَرَضَهُ عَبْدُ الْمُؤْمِنِ بْنِ

علي وجعله على إقطاع الأرض بناءً على ان المغرب فُتِحَ عَنُوةً واليه ذهب بعضُ العلماء ومنهم مَنْ يقول ان السَّهْلُ فُتِحَ عَنُوةً والجَبَلُ صُلْحًا . فاذا تَقَرَّرَ هذا علمتَ ان أهل هذا العصر قد بادؤوا واندَثَرُوا فيكونُ السَّهْلُ كُلُّهُ لبيت المال وتعيَّن أن يكون الخراجُ فيه على ما يُرضي صاحبَ الأرض وهو السلطان والجبلُ تتعدَّرُ معرفةُ ما كان الصلح عليه ولا سبيلَ الى الوقوف عليه فيرجعُ للاجتهاد . وقد اجتهد سلفنا الكرام رضوان الله عليهم في قرَضه لأول الدولة الشريفة على وَفْقِ أئمةِ السنة ومشائخ أهل العلم والدين في ذلك العهد فجرى الأمرُ على السَّتَنِ الأقوم الى أن هبَّت عواصفُ الفتنَةِ لايام ابن عمنا صاحب الجبل^١ وازالهُ مولانا الامام وِصْنُوهُ المرحوم عن حواضر المغرب وسَهْلِهِ عند الزَّحْفِ بالاتراك ، وامتدت به الفِتْنَةُ في الجبل الى أن هلك^٢ مع النَّصَارَى ، دَمَرُهُم الله في الغَزْوَةِ الشهيرة وجاءَ الله من مولانا المقدس^٣ بِالْجَبَلِ العاصِمِ للإسلام من طُوفَانِ الأهوال فَقَدَّرَ رضي الله عنه الاشياءَ حقَّ قدرها ورأى المغربَ رِغْبًا تلكَ الفتن قد فَغَرَ الأَفْوَاهَ لانتهاه عَدُوَّان ؛ عَدُوُّ عَظِيمٍ مِنَ التُّرْكِ ، وعدوُّ الدين الطَّاغِيَّةِ . فاضْطُرَّ رحمه الله الى الاستكثار

١ - يريد به محمداً المتوكل الذي لجأ الى الجبل عند زحف عمه عبد الملك المعتصم

على فاس يحيش الترك .

٢ - يعني ابن عمه المذكور .

٣ - أي والده المنصور الذهبي .

من الأجناد لمقاومة الاعداء والذب عن الدين وحماية ثغور الاسلام فدعا
تضاعفُ الأجناد الى تضاعفِ العطاء وتضاعفُ العطاء الى تضاعفِ الخراج
وتضاعفِ الخراج الى الاجحاف بالرعية، والاجحاف بالرعية امرٌ يستنكف
رضي الله عنه من ارتكابه ولا يرضاه في سيرة عدله طول ايامه، فلم يبق له حينئذ
الا أن أمعن النظر في اصل الخراج فوجد بين السَّعْر الذي بُنيَ عليه في
قيمة الزرع والسمن والكَبْش الذي تُعطي الرعية منذ زمان الفرض
بحسبه وبين سعر الوقت أضعافاً . فحينئذ تحرَّى العدلَ فخيرَ الرعية بين
دفع كل شيء بوجهه أو دفع ما يُساوي سَعْرَ الوقت فاخترُوا السَّعْرَ
مخافة أن يرتفع الى ما هو أكثر فأسفهم رضي الله عنه وعرفَ الناس
الحقَّ فلم يُنكروه واحد من أهل الدين ولا من أهل السياسة . ولت
شغري لو طالبنا نحن الناس اليوم بسَعْرَ الوقت الذي ارتفع الى أضعافٍ
مضاعفةٍ ماذا تقولون وقد انتقدتم علينا ما هو أخف من ذلك ؟

وامّا ما تقضيه من العجب لتعطيل أجوبتنا عنك حتى نراجع منك
فان كتابك اكّدت مبناه على قضية أهل أزمور فانفذنا من أخرج الذي
كان به واقصاه عنه وسرّح من كان عنده فتوقف الجواب حتى يرجع
الحديم فحينئذ أجبنّاكم بما وصلكم . وكوّنْ تعطيل الجواب منشأه ما من
الله به علينا من رجوعنا الى سرير ملكنا واجتماعنا بأبناء أمتنا فاعلم
أن أهل المغرب لما تمالؤوا عليّ وخرجت الى المشرق والتقيت بالترك

والأروام وجالسوني وجالستهم وخاطبوني وخاطبتهم ، منهم مُشافهةٌ ومنهم مُراسلةٌ ، كنتُ ايامُ مُقامي بارضهم كمُقامي على سرير ملكي لان كبيرهم وصغيرهم ورئيسهم ومروؤوسهم كان ينتجع فضلي ويمدُّ كف رغبته لنعمتي وواسيتُ الجميع عطاءً مُترَفَّاعاً مع قلة الزاد والذخيرة ، وترفعتُ عن مُراسلة الامائل والأكابر من العجم والعرب ولم أرَكن لأحد بل تجردتُ بما قدرتُ عليه من الأُخِيَّةِ حتى جعلتُ نَحْلَةً برُمَّتِها وخَيْلُها فترامى عليَّ العجمُ بالرغبة وبسطوا أكفَّ الضراعة في المُقامِ عندهم والدخول في جُمْلَتِهم وعرضوا عليَّ الإقطاعاتِ السَّنيَّةَ والبِلادَاتِ الملوكية بلُطفِ مقال وأدبِ خطاب حتى قال القبطانُ مُراد رئيسُ المجاهدين : وما مثلك يكون مع الغرب ، ها نحن نخدمُك باموالنا وانفُسنا وبما لنا من السفن حيث اردت واحببت وما انفصلتُ عنهم حتى كتبتُ لهم بخطي اني احملُ أهلي وحاشيتي وارجعُ اليهم الا ان تمكن لي الدخولُ في الملك والغلبةُ علي البلاد وقد قفلتُ من عندهم ولم يتعلَّق ثوبُ عفاني بما يَشِيئُه معهم ولا مع العرب ولكن ليس لأحد علي منة ولا نعمة إلا فضلُ الله تعالى « وكان فضلُ الله عليك عَظِيماً » .

ثم اني دخلتُ سِجَاسَةً على رغم انفِ أهلِها ووالِها ومنها دخلتُ للسوس وجعلتُ وليَّ الله تعالى العارف ابا محمد عبد الله بن مُبارك واسطةً بيني وبين اخي حتى اجتمعتُ بأهلي ومالي وبعثَ إليَّ التُّركُ بأحد

بلكباش اسمه مصطفى صولحي الى السوس راغبين انجاز الوعد فجنحت
 للمسير اليهم فرأيتُ الأهلَ والأتباعَ قد عظمَ عليهم الأمر واستكبروا
 الخروج فاسعفتُ رغبتهم في المقام بالمغرب وشيَّعتُ الرسولَ قافلاً الى
 قومه من سِجلماسة عند الدخول الثاني لها ومُغالبة اهلها عليها وعزَّزته
 برسول من عندي إليهم بثخفٍ وأموال ورَد بها عليهم مع رُسولهم . ثم
 اني اقتحمتُ مراکش مع أهل فاس على كثرة عَدَدِهِم وعُدَدِهِم وقلتي
 ووحدي وفتحَ اللهُ عليَّ ثم خرجتُ للسوس مرة أخرى وأوقعتُ بولد
 مولاي احمد الشريف وجُموعِ مراکش وقد تعصبوا عليه لانهم شيعةُ
 جدّه ففضضته على رَغْمِهِم ونازلته بالسَّهْل والحزن حتى أمكن الله منه
 وحكم بيني وبينه . ثم نجم نجم الغويّ ابي محليّ وغلبتُ على الرأي وقد
 قال مَنْ هو افضلُ مني مولانا علي كرم الله وجهه لا رأيَ لمن لا يُطاع ،
 ودخل هذه البلاد وخرجتُ انا للسوس بينما تجتمع لنا قبائلنا في المكان
 الذي كان اجتماعهم فيه الى ان بلغتهم وقصد إليهم ابو محلي فقاتلوه ورحل
 عنهم بعد أن ائخنوا فيه بالقتل ثم وافيتهم بالمكان والحرب بيننا سِجَال
 فهل سمعتمُ خلال هذه الأحوال كلها اني احتجتُ لأحد فيما قلَّ أو جلَّ
 وهذا كله بحيث لا يخفى عليك ، اللهم إلا أن تَعْتَدَّ الوِفَادَةَ التي وفدنا
 عليك من قبيل الاضطرار والاحتياج فلا نَدْرِي .

علي اني ما قصدتك لطلب دنيا ، بل لأنني كنتُ أسمعُ ما أنتَ عليه من

متانة الدين والصّلاح والاقبال على طاعة الله والتمسك بسنة رسول الله ﷺ لا غرورَ ومن كان هذا وصفه جديرٌ بأن يُقصدَ للدعاء والتبرك والإصلاح القلب . ولو علمتُ أن ذلك يُعدُّ ويُظنُّ أنه نوع من الاحتياج والله ما كنتُ لأقفَ على أحد ولو انه يُملِكُنِي الدنيا بِحَدِّا فيرها لأن الخير والشر بيد الفاعل المختار وهو أولى إليه بالاضطرار .

وأما سِرِّي فما ترَوَّعَ قط حتى يَأْمَن . وأما مَنْ كان في الدار التي ذكرْتُم فانما هم أهلي ومَتْرُوكُ أعمامي . وأما ما أخبرَكُم به القاضي فكلُّ ما حمل عني فهو حَقٌّ وَقَدْ التزمتُهُ الى الآن إِلَّا ما طرأ علينا فيه النسيان ذكرونا به فَإِنَّا لا نخرُج عنه .

وأما يمين المصْحَفِ وأناي كنتُ حلفتُ فيه للقائد عبد الصادق فلا والله ما حلفتُ فيه ولا نَحْلِفُ لأحد الى لقاء الله . أما عَلِمْتَ أَنِّي حضرتُ بيعةَ صاحب المغرب^١ ساءحه الله وحضر اولادُ السلطان واستخلفهم له إِلَّا أنا فانه قال : فلان لا يَحْلِفُ ولا يَحْتَاج اليه فما نَأْمُرُه به يفعلهُ وعظُم ذلك على إخواني وظَهَرَتْ في وجوههم الكَرَاهِيَّةُ لأجله . ولكن

الذي قلت لعبد الصادق اُحلف للمرابطة^٢ وأنا أُوفي لك به ومازالتُ على ذلك الى الآن .

واما الامتعاضُ من عدمِ إلتانِ القولِ وحسنِ الخطابِ كما قال الله تعالى : « وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا » وأنَّك لم تَبْلُغْ ولو نِصْفَ ما خاطب به الأئمة رضوانُ الله عليهم أهلَ زمانهم اتكالاً على علمنا به فحسبني نُصْحُ الفضيل بنِ عياض وسُفيان الثوري ومالك بنِ أنس رضي الله عنهم فهذه المسألةُ حسي في الجواب عنك والسلام .



٢ - المقصود بالمرابط الشيخ يحيى ولفظ المرابط كثيراً ما يطلقونه على السادة والأشياخ .

الرسائل

١- السلطانيات

توقيع يوسف بن تاشفين
على كتاب الفونش

كتب الفونش الى يوسف بن تاشفين لما سمع باستدعاء ملوك الطوائف له وعزيمه على الجواز الى الاندلس ، كتابا يهدده فيه ويُغليظُ له القول ليصرفه عن الجواز فوقع على ظهر كتابه « الجواب ما ترى لا ما تسمع » فعلم الفونش انه بُليّ برجل يفعل ولا يقول .

كتابه بالفتح في واقعة الزلافة الى العدو

أما بعد حمد الله تعالى المتكفل بنصر أهل دينه الذي ارتضاه ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد أفضل رسله وأكرم خلقه وأسراه ، فإن العدو الطاغية لعنه الله لما قربنا من حماه ، وتوافقنا بازائه لقناه الدعوة وخيرناه بين الاسلام والجزية والحرب ، فاختار الحرب فوقع الاتفاق بيننا وبينه على الملاقاة في يوم الاثنين الرابع عشر لرجب وقال الجمعة عيد المسلمين والسبت عيد اليهود وفي عسكرنا منهم خلق كثير والأحد عيدنا نحن فتفرقنا على ذلك واضمر اللعين خلاف ما شرطناه

وعلمنا انهم أهل خدع وتقض عهود فأخذنا أئمة الحرب لهم وجعلنا عليهم العيون ليرفعوا إلينا أحوالهم فأتتنا الانباء في سحر يوم الجمعة الحادي عشر من رجب المذكور بان العدو قد قصد بجيوشه نحو المسلمين يرى انه قد اغتم فرصة في ذلك الحين فانتدبت اليه أبطال المسلمين وفرسان المجاهدين فتغشته قبل أن يتغشاها ، وتغدته قبل أن يتغشاها ، وانقضت جيوش المسلمين في جيوشهم انقضا العقباب على عقيرته ، ووثبت عليهم وثوب الأسد على فريسته ، وقصدنا برأيتنا السعيدة المنصورة ، في سائر المشاهد المشهورة ، في جيوش لمتونة نحو الفونش فلما أبصر النصارى رأيتنا المشتهرة المنتشرة ونظروا إلى مراكبنا المنتظمة المظفرة ، وغشيتهم بروق الصفاح ، وأظلتهم سحاب الرماح ، وزلزلت حوافر خيولهم رعود الطبول بذلك الفيّاح ، التحم النصارى بطاغيتهم الفونش وحملوا على المسلمين حملة منكرة فتلقاهم المرابطون بنية صادقة خالصة وهم عالية فعصفت ربح الحرب ، ووكت ديم السيوف والرماح بالطنن والضرب ، وطاحت المهج ، وأقبل سيل الدماء في هوج ، ونزل من سماء الله على أوليائه النصر العزيز والفرج ، وولى الفونش مطعونا في إحدى ركبتيه ، طعنة أفقدته إحدى ساقيه ، في خمسمائة فارس من مائة وثمانين الف فارس ومائتي الف راجل ، قادهم الله إلى المصارع والحتف

العاجل ، وتخلص لعنه الله الى جبل هنالك ونظر الثَّهْبَ والنِّيرَانَ في
تَحْلَتِهِ من كُلِّ حَانِبٍ وهو من أعلى الجبل ينظرها شزراً ، لم يجد عنها
صَبْرًا ، ولا يستطيعُ عنها دِفَاعًا ولا لها نَصْرًا فأخذ يدْعُو بالشُّبُورِ
والوَيْلِ ، ويرْجُو النِّجَاةَ في ظلام الليل وأميرُ المسلمين بِحَمْدِ الله قد ثَبَتَ
في وَسْطِ مَرَاكِبِهِ المَظْفَرَةَ . تحتَ ظلالِ بنوده المُنَشَّرَةِ منصورَ الجهاد ،
موفُورَ الأعداد ، يشكر الله تعالى على ما منحه من نيل السَّوَالِ والمراد ،
وقد سَرَّحَ الغاراتِ في مَحَلَّاتِهِم تَهْدِيمُ بِنَاءِهَا وتَسْلَمُ ذَخَائِرُهَا واسْبَابُهَا ،
وَتُرِيهِ رَأْيَ العَيْنِ دِمَارَهَا وَنِهَائِهَا ، والفونشُ ينظر اليها نظراً المَغْشِيَّ
عليه ويعْضُ غَيْظًا وأَسْفًا على أَنَامِلِ كَفِّهِ ، وحين تمت الهزيمة وتتابع
الفرار ، عاد رؤساء الاندلس المنهزمون نحو بَطْلَيْوُس والغار ،
وتراجعوا حذرًا من العار ولم يَثْبُتْ منهم غيرُ زعيمِ الرؤساء والقُوَّادِ ،
أبو القاسم المعتمد بن عباد ، فأتى الى أمير المسلمين وهو مَهِيضُ الجناح ،
مَرِيضُ عَنَاءٍ وَجِرَاحٍ ، فَنَهَأَهُ بالفتح الجميل ، والصَّنْعَ الجليل ،
وَتَسَلَّلَ الفونش تحتَ الظلام ، فارًّا لا يهدأ ولا ينام ، ومات من الخُسْماءِ
فارس الذين كانوا معه بالطريق أربعَ مائة فلم يدخل طليطلة الا في مائة
فارس والحمد لله على ذلك كثيرًا .

ظهير^١ له في تلقيه بامير المسلمين وناصر الدين

بسم الله الرحمن الرحيم صلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً ، من أمير المسلمين وناصر الدين يوسف بن تاشفين ، الى الاشياخ والاعيان والكافة من أهل فلانة^٢ أدام الله كرامتهم بتقواه ووفقهم لما يرضاه . سلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته ، أما بعد حمد الله اهل الحمد والشكر ، مُيسّر النسر وواهب النضر ، والصلاة على محمد المبعوث بنور الفرقان والذكر ، فإننا كتبناه اليكم من حضرتنا العلية بمراكش حرسها الله في نصف محرم سنة ستة وستين وأربعمائة وإنا لما من الله علينا بالفتح الجسيم ، وأسبغ علينا من نعمة الظاهرة والباطنة وهدانا إلى شريعة نبينا محمد المصطفى الكريم ، صلى الله عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم ، رأينا ان نخصّص انفسنا بهذا الاسم لנمتاز به على سائر امراء القبائل وهو أمير المسلمين وناصر الدين فمن خطب الخطبة العلية السامية فليخطبها بهذا الاسم إن شاء الله تعالى ، والله ولي العدل بمنّه وكرمه والسلام .

١ - الظهير في الاصطلاح المغربي يعني المرسوم الملكي وذلك لان حامله يستظهر به .

٢ - يعني المدينة أو القبيلة .

كتاب عبد المؤمن الى الشيخ محمد بن سعد
المعروف بابن مردَ نيش صاحب شرق الاندلس

يدعوه الى الدخول في دعوتهم وَيُظَنُّ أَنَّهُ من انشاء الوزير
أبي جعفر بن عطية

من امير المؤمنين أَيَّدَهُ اللهُ بنصره ، وأمدَّه بمَعُونته ، الى الشيخ ابي
عبدالله محمد بن سعد وفَّقَهُ اللهُ ، ويسَّره لِمَا يَرْضَاهُ ، سلامٌ عليكم ورحمة
الله وبركاته . أما بعد فالحمد لله الذي له الاقتدار والاختيار ، ومنه
العونُ لأوليائه والإقْدَارُ ، وإليه يُرْجَعُ الامرُ كُلُّهُ فلا يَمْنَعُ منه الاستبداد
والاستئثار ، والصلاة والسلامُ على محمد نبيه الذي ابْتَعَثَتْ بِمِيعَتِهِ الاضواءُ
والأنوار ، وعُمِّرَتْ بدعوته الأنجادُ والأغوار ، وَخَصَّمْ بدعوته الكُفْرَ
والكفار ، وعلى آله وصحبه الذين هم الكرام الأبرار ، والمهاجرون
والانصار ، والرضا عن الامام المعصوم ، المهدي المعلوم ، القائم بأمر الله
حين غيَّبَتْهُ الأغيار ، وانْعَدَمَ الامْتِعاضُ له والانتِصَارُ . وهذا - كتابنا
كتب الله لكم نظراً يُرِيكُمْ المَنْهَجَ وَيُلَقِّمُكُمُ الأَبْهَجَ فالأَبْهَجُ ، وآتاكم
الله من نعمة الايمان ، وعِصْمَةِ الانقياد له والإذعان ، ما تَجِدُونَ به اليقينَ
والثَلَجَ - من حضرة مراکش حرسها الله تعالى ، ولا استظهارَ إِلَّا بِقُوَّتِهِ
وَحَوْلِهِ ، ولا استكثارَ إِلَّا من إحسانه وطَوْلِهِ .

ولما جعل الله هذا الأمرَ العظيمَ رحمةً لِحَلْقِهِ وَمَطِيَّةً لِرُوقِهِ وقرارةً
لِإِقَامَةِ حَقِّهِ ، وحَمَلٌ حَمَلَتَهُ الدعاءُ إِلَيْهِ ، والدَّلَالَةُ به عليه والترغيبُ في

عظيم ما عنده ونعيم ما لديه ، وجعل الإنذار والإعذار من فصوله المستوعبة ، وأحكامه المرتبة ، ومُنتجاته المُخلصة من الخطوب المُهلكة والاحوال المُعْطِية - رأينا ان نخطبكم بكتابنا هذا أخذاً بأمر الله تعالى لرسوله في المضام الى سبيله ، والتحريض على اغتنام النجاء وتحصيله ، وإقامة الحجة في تبليغ القول وتفصيله ، فأجيبوا - رفعكم الله - داعي الله تسيعدوا ، وتمسكوا بامر المهدي - رضي الله عنه - في اتباع سبيله تهتدوا ، واصرفوا أعينهم عن العناية الى النظر في المآل والتفكر في نواشئ التغيير والزوال ، وتدبروا جري هذه الأمور وتصرف هذه الاحوال ، واعلموا أنه لا عزة إلا بأعزاز الله تعالى فهو ذو العزة والجلال ، ولا يغرنكم بالله الغرور ، فالدنيا دار الغرور ، وسوق المحال ، وليس لكم في قبول النصيحة ، وابتداء التوبة الصحيحة ، والعمل بشبوت الايمان في هذه العاجلة الفسيحة ، الا ما تحبونه في ذات الله تعالى من الأمانة والدعة ، والكرامة المتسعة والمكاثرة المرفعة ، والتنعم بنعيم الراحة المتصلة والنفس الممتنعة ، فنحن لا نريد لكم ولسائر من نرجو إنباته ، ونستدعي قبوله وإجابته ، إلا الصلاح الأعم ، والتجاسع الأتم ، وتأملوا سددكم الله من كان بتلك الجزيرة حرسها الله من أعيانها وزعماء شأنها ، هل تخلص منهم الى ما يودّه ، وفاز بما يدّخره ويُعيدّه ، ألا من تمسك بهذه العروة الوثقى ، واستبقى لنفسه من هذا الخير الأديم الأبقى وتنعم بما لقي من هذا النعيم المقيم ويلقى ، وأما من أخلد الى الارض وأتبع هواه ، ورغب بنفسه عن هذا الامر

العزیز الی ما سِواه ، فقد عَلِمَ بضرورتی المُشاهدة والاستفاضة سُوءَ مُنْقَلَبِهِ ، وخسارةَ مذهبه ومطلبه ، وتنقّلُ منه حادثُ الانتقامِ اخسَرَ ما تنقّلُ به ، وحقٌّ علیکم - وفَقَّکم الله وسیرَکم لما یرضاه - أن تُحسِنُوا الاختیار ، وتصلُّوا الادیکار والاعتبار ، وتبتدروا الابتدار ، وما حقٌّ من انقطع الی هذا الأمر الموصول الواصل ، وأزْمَع ما یناله من خیره المحوِز الحاصل ، ان یناله منکم شاغلٌ یسْغَلُهُ عن مقصوده ، ویحیط به ما یصرفُهُ عن محبوبه وموَدُوْدِهِ . فقد کان منکم فی أمر أهل بلنسیة حین اعلانهم بکلمة التوحید ، وتعلُّقهم بهذا الامر السعید ، ما کان ثم کان منکم فی عَقَبِ ذلك ما اعتمدتموه فی أمر أهل لَوْرَقَة - وفَقَّهم الله . حین ظهر اختصاصهم وبَانَ اخلاصهم ، ولیس لذلك وأمثاله عاقبة تُحْمَدُ ، فالخیر خیرٌ ما یُقصد ، والنجاة فیما یُنزَح عن الشر ویُبْعَد ، وانا لَنرجو ان یکفَّکم عن ذلك واشباهه نظراً موفقاً ، ومتاع محقق ، ویجذبکم الی مُوالاة هذه الطائفة المبارکة جاذبٌ یُسعِد وسائقٌ یُرشد ، والله یمُنُّ علیکم بما ینجیکم ویمکن لکم فی طاعته أسباب تأمیلکم وترجیکم بمنه والسلام علیکم ورحمة الله وبرکاته .

رسالة من عبد المومن أيضاً الى أهل تلمسان

وهي من إنشاء الكاتب أبي عقيل بن عطية

من أمير المؤمنين أیده الله بنصره ، وأمده بمعونته ، الی الطَّلَبة الذين بتلمسان وجميع من فیها من الموحدين أدام الله کرامتهم بتقواه ، سلام علیکم ورحمة الله تعالى وبرکاته .

أما بعد فالحمد لله الذي وسَّعت رحمته كلَّ شيء على العموم والاطلاق
وجمعت عصمته أهل الاجتماع على طاعته والاتفاق ، وتمت نعمته تماما على
أبلغ وجوه الانتظام والآساق ، والصلاة على محمد نبيه المبتعث لتتيم
مكارم الأخلاق ، وعلى آله الطاهرين وصحبه المتوازين أولى البوَاء الى
مرضاته والاستباق ، والرضى عن الامام المعصوم ، المهدي المعلوم ،
علم الأعلام ، وذخيرة الايمان والاسلام ، وبدر الكمال والتام ، الطالع
بأشرف مطالع الاشراق ، الفارع عند تطاول الرؤوس والأعناق ، الجامع
أشتات الفضل وأجناسه على الاستيفاء والاستغراق ، وهذا كتابنا اليكم
كتب الله لكم فيما خولكم النماء والزيادة ، ومكَّن في تمكينكم واصلاح
شؤونكم الإنالة والافادة ، وبسط في أرجائكم ومتعلقات رجائكم
اليمن والسعادة ، من حضرة بجاية حرسها الله عن أحوال ترتب صلاحها
على أفضل وجوده ، وفتوح تتابع افتتاحها في قريب المعمور وبعيده ،
وبشائر ينزه بشرها وسماحها عن التجري على معتاد الدأب المألوف
ومعهوده ، وآيات بينات أغنى تجليها واتضاعها عن كل برهان وجوده ،
نسأل الله سبحانه عوناً يُعينُ وينهض ، وعملاً يتخلص بشكر آلائه
الباهرة ويُنجِضْ ، وقوة لا تلتكث بالعجز عن أداء حقوقه ولا تَنَقِضْ ،

وقد تقدَّم اعلامكم واصل الله سروركم ، وضاعف شكوركم
بما كان من صنْع الله تعالى في فتح هذه البلاد التي يشر مرامها بحوله
واقْداره ، ونور ظلامها بأضواء هذا الأمر السعيد وأنواره ، وصير

أَبَاطِحَهَا وَآكَامَهَا مِنْ مَوَاطِئِ أَوْلِيَانِهِ وَأَنْصَارِهِ ، وَإِنَّ أَبَا زَكْرِيَّا يَحْيَى ابْنَ الْعَزِيزِ بِاللَّهِ بْنِ الْمَنْصُورِ^١ وَجَمِيعَ إِخْوَتِهِ وَقَرَابَتِهِ وَخُوُولَتِهِ حِينَ أَتَاهُمُ الرَّائِدُ الَّذِي لَا يَكْذِبُ أَهْلَهُ ، وَانْتَحَاهُمُ الْقَائِدُ الْمُبِيعُ وَغَرَ الْمُتَنَحِّي وَسَهْلَهُ ، لَمْ يَكُنْ لَهُمْ بُدٌّ مِنَ التَّوَلَّى عَنْ قَرَارِهِمُ وَالتَّخَلَّى عَنْ أَوْطَانِهِمْ وَأَقْطَارِهِمْ ، لِأَمْرِ قَضَى اللَّهُ فِيهِ لِهَذَا الْأَمْرِ الْمُبَارَكِ بِخَيْرِ قَضَائِهِ ، وَشَأْنِ طَوَى الْخَيْرَةِ دَرَجَ تَضَمُّنِهِ وَاقْتِضَائِهِ ، فَكَانَ مَأْثَمُهُمُ الَّذِي اعْتَقَدُوا مَنَعَتَهُ وَحِصَانَتَهُ ، وَاعْتَمَدُوا ثِقَتَهُ عَلَيْهِمْ وَأَمَانَتَهُ ، بِلَدِّ قُسْطَنْطِينَةَ عَمَرَهُ اللَّهُ ، لَكُونَهُ بِحَيْثُ لَا يَنَالُ بِقُدْرَةِ مَخْلُوقٍ ، وَأَيْنَ^٢ يَسْتَعْلَى بِامْتِنَاعِهِ عَلَى كُلِّ مَلْحُوظٍ بَعِينَ الْمَحَارِبَةِ أَوْ مَرْمُوقٍ ، وَكَانَتْ جُمْلٌ مِنْ عَسَاكِرِ الْمُوَحِّدِينَ حِينَ اخْتِلَالِ الْجُمْلَةِ الْمَذْكُورَةِ فِيهِ ، وَاعْتِدَادِهِمْ فِي عِدَادٍ مِنْ يَحْيُوهُ وَيُؤْوِيهِ ، بِجَهَةِ الْقَلْعَةِ حَرَسَهَا اللَّهُ عَلَى إِثْرِ فَتْحِهَا الْمُبَسَّرِ ، وَنِيلَ أَجْرَهَا عَلَى الْوَجْهِ الْمُتَخَيَّرِ ، فَأَنْهَضَ مِنْهُمْ بَعُونَ اللَّهِ إِلَى تِلْكَ الْجَهَةِ مِنْ رُجِيِّ الْخَيْرِ فِي إِنْهَائِهِ ، وَحُضُّ عَلَى خِدْمَةِ هَذَا الْأَمْرِ وَأَغْرَاضِهِ ، فَحِينَ أَلَمَ النَّاهِضُونَ الْمَذْكُورُونَ وَفَقَّهَهُمُ اللَّهُ بِجَهَاتِ قُسْطَنْطِينَةَ خَرَسَهَا اللَّهُ ، فَتِيحَ لَهُمُ الْفَتْحُ الَّذِي تَقْدَمُ إِلَيْكُمْ بَيَانُ الْقَوْلِ فِيهِ وَاعْرَابُهُ ، وَأُورِدَ عَلَيْكُمْ إِبْدَاعُ الْقَدَرِ فِي تَقْرِيهِهِ وَاعْرَابِهِ ، وَعَلِمْتُمْ كَيْفَ انْهَزَمَتْ لَهُ جُوعُ الضَّلَالِ وَأَحْزَابُهُ ، وَحَلَّ الْمُوَحِّدُونَ

١ - يعني صاحب مملكة بجاية التي اكتسبها عبد المؤمن في جملة ما اكتسح من بلاد الشمال الافريقي .

٢ - أين هذه ، معطوفة على بحيث قبلها .

هناك وفقهم الله بساحة ذلك القطر وثرأه ، وغشيه منهم ما غشيه وعراه ،
وما ترك القطا به أن يطعم كراه .

وكان التَّخِيمُ المُلَاصِقُ ، والتَّدْوِيمُ المَرَاهِقُ ، والحق يتجلّى ، والنصرُ
يتولّى من إظهار الطائفة العزيزة ما يتولّى ، الى أن صرف الله البابَ
القوم المذكورين الى قبلة الإصابة ، وأراهم أن النجاة في جانب هذه
العصابة ، والحياة في قرارها الذي هو مقرُّ قرار اليمن والمثابة ،
فاتفق رأيهم على انفاذ جماعة منهم فيهم أخو أبي زكرياء وشيوخ صنهاجة
وُقُتْنِيَّة مَعْتَصِمِينَ بهذه العروة الوثقى ، مُسْتَسْلِمِينَ للأمر الذي لا يُقَابَلُ
بِعِنَادٍ وَلَا يُلْقَى ، سائلين من التأمين والإبقاء ما يدوم خيره للمحقّ
السائل ويبقى ، ووصلت الجماعة المذكورة الى هذه الحضرة المحروسة يسعى
أملها بين يديها ، ويُعرِّفُ القصد عما لدّئها ، وأنّهت ما تحملته من المخاطبة ،
وأتمته لها ولمن وراءها من حُسن العاقبة ، فمنّ الله على جميعهم بتيسير
مطلبهم ، واجمال منقلبهم ، وصدروا الى مُرسَلهم تتهلل أيسرّتهم ، وتتجمل
بخلل العافية والنعمة الصافية كرتهم ، فأتوا قومهم على تطلّع الى بشرأهم ،
وتمتّع بطيب ذكراهم ، وأعلموهم بالصنّع الذي عرفهم تعظيم صنّع الله
وأدراهم ، فراوا أجمعين أن الله سبحانه سنّى لهم بفضله غاية ما طلبوا ،
ورزقهم من حيث لم يحتسبوا ، ووهبهم من إيواء الفضل وقبوله فوق ما
استوْهبوا ، حين لم يكن لهم منجى إلا الذي نزحوا عنه وهربوا ،
وفتحوا أبواب المدينة المذكورة عند تيقن الأمر وتحقيقه ، وتعرّف سنة
هذا الأمر المبارك وعظيم خلقه ، وخرّجوا عن آخرهم فرحين بفضل

الله ورحمته الواسعة ، مُسْتَظِلِّينَ بِظِلَالِ هذه الدعوة المُحِيطَةِ الجامعة ، ودَخَلَ
 القُطْرَ من أَمْنَاءِ الموحدين وُغْزَاتِهِمْ ، وَفَقَّهَ اللهُ مِنْ أَمْرِ بَعْمَارَتِهِ ،
 والاستقرار في قَرَارَتِهِ ، واستقبل أبو زكرياء المذكور وَمَنْ مَعَهُ وفقهم
 الله هذه الجهة حرسها الله على أحسنِ حال وأكرم أقبال ، وَأَتَمَّ اللهُ
 نعمته بهذا الفتح المحيط ، والصنْعَ المبسوط ، اتماماً بَلَّغَ الآمِلَ غَايَةَ مَأْمُولِهِ ،
 أو السَّائِلَ كَافَّةَ مَسْئُولِهِ ، فذلك القُطْرُ هو الطَّرَفُ الأَعْلَى والِرَابِطُ الأَحْقُّ
 لأَوَّلَى ، ورأسُ الجسد الذي استتبع بعضه بعضاً واستتلى ، وبه
 انعقدت روابطُ هذا الإقليم العظيم وقواعده ، وفقدت ضررَ من كان
 ينوي الضرر فَوَاقِدُهُ ، ومعه تَأَتَّى جَمْعُ شَمْلِهِ وَضَمُّهُ ، وامسكُ شَأْنَهُ
 كُلَّهُ وعِزُّهُ ، وبه خَتِمَ كِتَابُهُ وَكَرَّمَ الْكِتَابَ خَتْمُهُ ، وَاللَّهُ نَسْأَلُ
 بِشُكْرِ هذه النعم المتظاهرة عوناً ممدوداً ، وحولاً بِمَعَاقِدِ المعونة الربَّانية
 معقوداً وقوةً تَلْقَى مِنْ حَمْدِهَا إِلَى كُلِّ جَدِيدٍ مِنْهَا جَدِيداً بِمَنَّةٍ . والسلام
 عليكم ورحمة الله وبركاته .

توقيعه على رسالة أبي جعفر بن عطية

كان عبد المؤمن قد نَقِمَ على وزيره أبي جعفر افشاءه لسراً أفضى
 إليه به فقبض عليه ثم نكبه وقد صدرت من أبي جعفر إليه رسائل
 استعطاف بليغة يتنصّل فيها من الذنب ويعتذر . فوقع عبدُ المؤمن على
 إحداها : « الآن وقد عصيتَ قبلُ وكنتَ من المفسدين » .

رسالة أبي حفص الهنّاتّي الى عبد المؤمن بالفتح

في ثورة ابن هود ، وهي من انشاء الوزير ابي جعفر بن عطية

كتابنا هذا من وادي مآسة بعد ما تجدد من أمر الله الكريم ، ونصره تعالى المعهود القديم ، (وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم ،)
 فتح بهر الأنوار اشراقاً وأحرق بنفوس المؤمنين إحداقاً ، ونبه للأمانى
 النائمة جفونا وأحداقاً . واستغرق غاية الشكر استغراقاً ، فلا تطيق
 الالسن لِكُنْه وصفه إدراكاً ولا لحاقاً ، جمع اشتات الطلب والأرب ،
 وتقلب في النعم أكرم مُنْقَلَب ، وملاً دلاء الأمل الى عقد الكرب .

فتح تفتح أبواب السماء له وتبرز الأرض في اثوابها القشْب

وتقدمت بشارتنا به جملة ، حين لم تعطِ الحال بشرحه مُهَلَّة :
 كان اولئك الضالون قد بطروا عدوانا وظلماً ، واقتطعوا الكفر معنى
 واسماً ، وأملى الله تعالى لهم ليزدادوا إيماً ، وكان مُقدّمهم الشقي قد
 استمال النفوس بخزعيلاته واستهوى النفوس بمهوالاته ، ونصب له الشيطان
 من حبالاته ، فأتته المخاطبات من بُعدٍ ومن كُثْب ، ونسّلت إليه الرسل
 من كل حدب ، واعتقدته الخواطر اعجب عجب . وكان الذي قادهم الى

١ - الكرب جبل يصل ما بين الرشاء والدلو فاذا وصل الماء الى عقده فذلك غاية الامتلاء ، وهذا مثل .

ذلك ، وأوردَهم تلك المِهَالِك ، وصولُ مَنْ كان بتلك السواحل من
ارتسم برسم الانقطاع عن الناس فيما سلف من الأعوام ، واشتغل على
زعمه بالقيام والصيام آناءَ الليل والأيام ، لبسوا الناموسَ أثوابا ، وتدرَّعوا
الرياءَ جلبابا ، فلم يفتح الله تعالى لهم للتوفيق بابا .

ومنها في ذكر الثائر المذكور

... فصرَّعَ بحمد الله تعالى لحينه ، وبادرتْ إليه بوادِرْ مَنُونِه ، وأتته
وافِداتُ الخطايا عن يساره ويمينه ، وقد كان يدَّعي انه بُشِّرَ بأن المنية
في هذه الأعوام لا تُصِيبُه والنواب لا تُثوبُه ، ويقول في سواء قولاً
كثيراً ويختليقُ على الله إفكاً وزوراً ، فلما رأوا هيئةَ اضطجاعه ، وما
خطَّته الأَسِنَّةُ في أعضائه وأضلاعِه ، ونفَذَ فيه من أمر الله تعالى ما لم
يقدرُوا على استرجاعه ، هُزِمَ من كان لهم من الأحزاب ، وتساقطوا على
وجوههم تساقطَ الذُّباب ، واعطوا على بَكْرَةٍ أبيهم صفحاتِ الرِّقاب ،
ولم تقطُرْ كلُّوهم إلا على الأعقاب فملتأت تلك الجهات باجسادهم ،
وأذنت الآجالُ بانقراض آمادهم ، واخذهم الله تعالى بكُفْرِهِم وفسادِهِم ،
فلم يُعَايِنْ منهم إلا من خرَّ صريعاً وسقى الأرضَ نجيعاً ولقي من أمر
الهُنْدِيَّاتِ فظليعا ، ودعت الضرورة باقيهم الى الترامي في الوادي . فَمَنْ

كَانَ يُؤْمَلُ الْفَرَارُ وَيُرْتَجِيهِ ، وَبَسَبَحُ طَامِعاً فِي الْخُرُوجِ إِلَى مَا يُنَجِّيهِ ،
 اخْتَنَطَفَتْهُ الْأَسِنََّةُ اخْتِطَافاً ، وَادَاقَتْهُ مَوْتاً زُءَافاً ، وَمَنْ لَجَّ فِي التَّرَامِي
 عَلَى لُجْجِهِ ، وَرَامَ الْبَقَاءَ فِي تَبَجِّهِ ، قَضَى عَلَيْهِ شَرْقُهُ ، وَأَلْوَى بِذَقْنِهِ
 غَرْقُهُ ، وَدَخَلَ الْمَوْحِدُونَ إِلَى الْبَقِيَّةِ الْكَائِنَةِ فِيهِ يَتَنَاولُونَ قَتْلَهُمْ طَغْناً
 وَضَرْباً ، وَيُلْقُونَهُمْ بِأَمْرِ اللَّهِ تَعَالَى هُوَ لَا عَظِيماً وَكَرْباً ، حَتَّى انْبَسَطَتْ
 مُرَاقَاتُ الدِّمَاءِ ، عَلَى صَفَحَاتِ الْمَاءِ ، وَحَكَتْ حَرَّتُهَا عَلَى زُرْقَتِهِ
 خُمْرَةَ الشَّفَقِ عَلَى زُرْقَةِ السَّمَاءِ ، وَجَرَتْ الْعِبْرَةُ لِلْمَعْتَبِرِ ، فِي جَرْنِي ذَلِكَ الدَّمِ
 جَرْنِي الْأَبْحَرِ .

توقيع المنصور الموحدي على كتاب الفونش

كَانَ الْمَنْصُورُ الْمَوْحِدِيُّ حَسَنَ التَّوْقِيعِ جَدّاً يَضْرِبُ بِهِ الْمِثْلَ فِي ذَلِكَ
 وَكُتِبَ إِلَيْهِ الْفُونَشُ حِينَ كَانَ يَسْتَعِدُّ لِعَزْوَةِ الْأَرْكَ الشَّهِيرَةِ يَتَوَعَّدُهُ
 وَيَهْدِدُهُ وَيَطْلُبُ إِلَيْهِ أَنْ يَبْعَثَ بِقِطْعٍ مِنْ أَسْطُولِهِ لِيَجُوزَ هُوَ إِلَى مُحَارَبَتِهِ
 فِي عُقْرِ دَارِهِ وَيَكْفِيهِ مَوْثُوتَةَ الْحَرَكَةِ فَلَمَّا وَصَلَ كِتَابُهُ إِلَى الْمَنْصُورِ مَزَقَهُ
 وَكُتِبَ عَلَى ظَهْرِ قِطْعَةٍ مِنْهُ « إِرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لَا قِبَلَ لَهُمْ بِهَا
 وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ » ثُمَّ كُتِبَ « الْجَوَابُ » مَا تَرَى لَا مَا
 تَسْمَعُ » وَانْشَدَ مِثْلًا :

وَلَا كُتِبَ إِلَّا الْمَشْرِفِيَّةُ وَالْقَنَا وَلَا رُسُلٌ إِلَّا الْخَمِيسُ الْعَرَمَرَمُ

توقيع آخر له

طلب يوماً من قاضيه ان يختار له رُجُلَيْنِ لِغَرَضَيْنِ من تعليم وتلد وضبطِ أمرٍ فعرفه برُجُلَيْنِ قال في أحدهما : هو بَحْرُ في عِلْمِهِ وقال في الآخر : هو بَرُّ في دينه . ولَمَّا خَرَجَ المنصور احضرهُما واختبرهُما فقَصَّرا بين يَدَيْهِ واكذبا الدعوى فوقَّع المنصور على رُقعة القاضي « اعوذُ بالله من الشيطان الرَّجيم ، ظَهَرَ الفسادُ في البرِّ والبحر »

رسالة للامون الموحدى من انشائه

في الاعلان بابطال دَعْوَى المهدي وعِصْمَتِهِ

من عیدالله ادريس أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين الى الطلبة والاعيان والكافة ، وَمَنْ مَعَهُم من المؤمنين والمسلمين ، أَوْزَعَهُم الله شكرَ نِعْمَةِ الْجِسَامِ ، ولا أعدَمَهُم طلاقاً أَوْجَهَ الأيامِ الوِسَامِ ، وإِنَّا كَتَبْنَاهُ اليكم كتب الله لكم عملاً مُنْقَاداً ، وسعداً وَقَاداً ، وخاطراً سليماً ، لا يزال على الطاعة مُقْبِياً ، من مراكش كَلَامُها الله تعالى وللحق لسان ساطع ، وحكم قاطع ، وقضاء لا يُرَدُّ ، وبَاب لا يُسَدُّ ، وظلال على الآفاق ، تمحو التفاق ، والذي نوصيكم به تقوى الله والاستعانة به ، والتوكلُ عليه ، وتعلموا أَننا نبذنا الباطل وأظهرنا الحق ، وأن لا مهدي

إلا عيسى بن مريم ، الناطق بالصدق ، وتلك بدعة قد أزلناها ، والله
 يُعِينُنَا عَلَى الْقِلَادَةِ الَّتِي تَقَلَّدْنَاهَا ، كَمَا أَزَلْنَا لَفْظَ الْعِصْمَةِ عَمَّنْ لَا تَثْبُتُ لَهُ
 عِصْمَةٌ ، وَأَسْقَطْنَا عَنْهُ وَصْفَهُ وَرُسْمَهُ ، وَقَدْ كَانَ سَيِّدُنَا الْمَنْصُورُ رَضِيَ اللَّهُ
 عَنْهُ هَمًّا أَنْ يَصْدَعَ بِمَا بِهِ الْآنَ صَدْعُنَا ، وَأَنْ يَرْقَعَ لِلْأُمَّةِ الْخَرَقَ الَّذِي
 رَقَعْنَا ، فَلَمْ يَسَاعِدْهُ لَذَلِكَ أَمَلُهُ ، وَلَا أَجَلُهُ إِلَيْهِ أَجَلُهُ ، فَقَدِمَ عَلَى رَبِّهِ
 بِصَدَقِ نَبِيَّةٍ ، وَخَالِصِ طُوبَى ، وَإِذَا كَانَتْ الْعِصْمَةُ لَمْ تَثْبُتْ عِنْدَ الْعُلَمَاءِ
 لِلصَّحَابَةِ ، فَمَا الظَّنُّ بِمَنْ لَا يَدْرِي بِأَيِّ يَدٍ يَأْخُذُ كِتَابَهُ ، أَفَ لَهُمْ قَدْ
 ضَلُّوا وَأَضَلُّوا ، وَسَقَطُوا فِي ذَلِكَ وَزَلُّوا ، اللَّهُمَّ اشْهَدْ أَنَّنَا تَبَرُّأْنَا مِنْهُمْ
 تَبَرُّأَ أَهْلِ الْجَنَّةِ مِنْ أَهْلِ النَّارِ ، وَنَعُوذُ بِكَ مِنْ أَمْرِهِمُ الرَّئِثِ ، وَفِعْلِهِمُ
 الْخَبِيثِ ، لِأَنَّهُمْ فِي الْمَعْتَقَدِ كُفَّارٌ ، وَالسَّلَامُ عَلَى مَنْ اتَّبَعَ الْهُدَى
 وَاسْتَقَامَ .

رسالة أخرى له من انشائه أيضا

في توبيخ أهل أندُوجر^٢ على تخلُّفهم عن قتال العدو

إلى أهل الجماعة والكأفة من فلانة ، وقَاهم الله عَثْرَاتِ الْأَلْسِنَةِ ،
 وَأَرْشَدَهُمْ إِلَى نَحْوِ السَّيِّئَةِ بِالْحَسَنَةِ .

أما بعد ، فإنه قد وصل من قبلكم كتاب وَجَّهَ لَكُمْ أَهْلُ الْإِنْتِقَادِ ،

١ - يعني والده المنصور الموحيدي .

٢ - مدينة صغيرة بناحية قرطبة .

من جميع الأَشْهاد ، ورماكم بالذَّاهية الدَّهْياء ، والدَّاء العِياء ، أتعذِّرون
 من الجِمال بضَعْفِ الحال ، وقِلَّة الرجال ، لِنُلْحِقْكُمْ بَرَبَّاتِ الجِجال ، كأنَّا
 لا نَعْرِفُ مَنَاحِي أَقْوالكم ، وسوءَ تَقْلِبِكُمْ في أحوالكم ، لا جَرَمَ
 أنكم سمعتم بالعدو قصصه الله ، وقَصْدِهِ ذلك الموضعَ عصمه الله ،
 فطاشت قلوبكم خوراً ، وعاد صفوكم كدراً وشمتم ريح الموتِ ورداً
 وصدرا ، وظننتم أنكم أُحِيط بكم من كل الجوانب ، وأن الفضاء قد
 عُصَّ بالتفاف القنا ، واصطفاف المقائب ، ورأيتم غير شيء فحسبتموه
 طلائعَ الكُتَّابِ ، تَبَّأْ لِهَمِّكم المنحطة ، وشيَمكم الراضية بأذونِ
 خُطة ، أحينَ نُدِبتُم إلى حماية اخوانكم ، والذبَّ عن كلمة ايمانكم ،
 نسَقُتُم الأقوالَ وهي مكذوبة ، ولَفَقُتُم الأعذار وهي بالباطل مشوبة ،
 لقد آن لكم أن تَبْدُلُوا خَلَّ الخُرْصان ، بمَغَازِلِ النُّسوان ، فما لكم
 وَلِصَّهوات الخيول وانما على الغانيات جَرُّ الذبول^١ ، أظهِّرون العناد
 تصريحاً وتلويحاً وتظنون أنكم اذا تفرقتم لا نجمع لكم شتاتاً ولا نُدْفي
 منكم نُزوحاً ، أين المَفَرُّ وأمرُ الله يدرككم ، وطلبنا الحثيث لا يترككم ،
 فأميطوا هذه النزعة النِّفاقية عن خواطركم قبل أن نَمحوَ بالسيف أَقْوالكم^٢

١ - هذا مأخوذ من قول المتنبي :

وضاقت الأرض حتى كان هاربهم إذا رأى غير شيء ظنه رجلاً

٢ - هو من قول عمر بن أبي ربيعة :

كتب القتل والقتال علينا وعلى الغانيات جر الذبول

وأفعالكم ، ونستبدل قوما غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم ، ونحن نُقسِمُ
 بالله لو اعتسفتم كلَّ بیداءَ سَمَلَقٍ واعتصمتم بأمنع معقل وأحفل فَيْلَقٍ ،
 ما وَنينا عنكم زمانا ، ولا ثنينا عن استئصالكم عِنا ، فلا يغرنكم
 الامهال ، أيها الجهال ، فأذواء الأهواء بالسيف تنحيم ، واذا رأيتم
 نيوبَ الليث بارزةً فلا تظنون أن الليث يبتسم ، فان كفاكم صريرُ الأقلام
 وإلا شفاكم طريرُ الحسام ، والسلام ، على من استقام .

توقيع له

رفعت امرأة إليه رقعةً تشكو فيها بجندي نزل دارها وآذاها فوق
 عليها : « يُخْرِجُ هذا النازل ولا يُعوّضُ بشيء من المنازل » .

رسالة للأمير سليمان الموحي من انشائه
 الى ملك السودان ينكر عليه تغويق التجار

نحنُ نتجاوز بالإحسان ، وان تخالفنا في الأديان ، ونتفق على السيرة
 المرضية ، ونألف على الرفق بالرعية . ومعلوم أن العدل من لوازم الملوك
 في حكم السياسة الفاضلة ، والجور لا تُعانيه الا النفوس الشريرة الجاهلة ،
 وقد بلغنا احتباسُ مساكين التجار ومنعهم من التصرف فيما هم بصدده ،

وتردّد الجلالة الى البلد مفيد لسكانها ومعين على التمكين من استيطانها ،
ولو شئنا لاختبئنا من في جهتنا من أهل تلك الناحية ، لكننا لا
نستصوب فعله ، ولا ينبغي أن ننهي عن خلق ونأتي مثله ، والسلام .

توقيع له

وقع الى عامل له كثرت الشكاوى منه « قد كثرت فيك الأقوال ،
واعضائي عنك رجاء أن تديقظ فتتصلح الحال ، وفي مبادرتي الى ظهور
الانكار عليك نسبة الى شر الاختيار ، وعدم الاختبار . فاحذر فانك
على شفا جُرْفِ هَار » .

كتاب السلطان ابي الحسن المريني الى الملك الناصر محمد بن قلاوون
صاحب مصر ، في شأن ركب الحاج المغربي والمصحف الذي
خطه بيده ووقفه على الحرم النبوي الشريف

من عبد الله علي امير المسلمين ، ناصر الدين ، المجاهد في سبيل رب العالمين ،
ملك البرّين ، مالك العُدوّتين^١ ، ابن مولانا امير المسلمين ، المجاهد في
سبيل رب العالمين ، ملك البرّين ، وسلطان العُدوّتين ، ابي سعيد ابن
مولانا امير المسلمين ، المجاهد في سبيل رب العالمين ، ملك البرين ،

١ - يعني بالبرين المغرب الأقصى والأدنى وبالعدوتين المغرب والأندلس .

وسلطان العدوتين ابي يوسف يعقوب بن عبد الحق ، منح الله التأييد مقامه ، وفسح لفتح معاقل الكفر وكسر جحافل الصفر ايامه .

الى السلطان الجليل الكبير الشهير العادل . الفاضل الكامل الكافل
الملك الناصر المجاهد الم رابط المؤيد المنصور الأسعد الأصعد الأرقى
الأوفى الأمجد الأنجد الأفخم الأضخم الأوحيد الأوفى ناصر الدين
عازد كلمة المسلمين ، نحي العدل في العالمين ، فاتح الامصار ، حائز
ملك الاقطار مفيد الاوطار ، مبيد الكفار ، هازم جيوش الأرمن والفرنج
والكرنج والتتار ، خادم الحرمين غيث الغفاة غوث الغناة مصرف
الكتائب مشرف المواكب ، ناصر الاسلام ، ناشر الاعلام ، فخر الانام ،
ذخر الايام ، قائد الجنود ، عاقد البنود ، حافظ الثغور ، حائط الجمهور ،
حامي كلمة الموحدين ابي المعالي محمد بن السلطان الجليل الكبير الشهير
الخطير العادل الفاضل الكافل الكامل الحافظ الحافل المؤيد المكرم المبجل
المكبر الموقر المعز المعز المجاهد الم رابط المشاغر الأوحيد الأسعد
الأصعد الأوفى الأفخم الأضخم المقدس المرحوم الملك المنصور سيف
الدنيا والدين ، قسيم امير المؤمنين ، ابقى الله ملكه موصول الصولة
والاقتدار ، تحيي الحوزة حاميا للديار ، حميد المآثر الماثورة والآثار ،
عزيز الاولياء في كل موطن والانصار ، سلام كريم ، ذاك عظيم ،
شرق إشراق النهار صفحاته ، وتعبق عن شذا الروض المعطار نفحاته ،
يخص إخاءكم العلي ، ورحمة الله وبركاته .

اما بعد حمد الله الذي وَسَّعَ العباد مَنَّا جسيما وفضلا جزيلا ، والهمهم
الرشاد بان ابدى لهم من آثار قدرته ، على مقدار وُحْدته ، بُرْهانا واضحا
ودليلا ، وألزم أمة الإسلام ، حجج بينته الحرام ، مَنْ استطاع إليه
سيلا ، وجعل تعظيم شعائره من تقوى القلوب ، ومثاباتٍ مَحْطَّةٍ
الأوزار والذنوب فما أَجْزَلَ نِعْمَتُهُ مِنِّيلًا ، وأَجْمَلَ رَحْمَةً رَبِّهِ مَقِيلًا .
والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد المصطفى من افضل العرب
فَصِيلَةٍ ، في اكمل بقاع الأرض فضيلة ، وَاكْرَمَهَا جُمْلَةً وتفصيلا ، الْمُجْتَبَى
لِخْتَمِ الرِّسَالَةِ ، وحَسْمِ ادواء الضلالة ، فَأَحْسَبُ الله به النبوة تَمِيمًا والرسالة
تَكْمِيلًا ، المخصوص بالحوض المورود ، والمقام المحمود ، يوم يقول
الظالم (يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا) المَبْوُؤُ من دار هِجْرَتِهِ ،
وَمَقَرِّ نُصْرَتِهِ ، مَحَلًّا ما بينه وبين مَنبَرِهِ فيه رَوْضَةٌ من رياض الجنة لم
يَزَلْ بها نَزِيلًا ، والرَضَى عن آله الابرار ، واصحابه الاخيار ، الذين
فَضَّلْتَهُمْ سَابِقَةَ السَّعَادَةِ تَفْضِيلًا ، وَأَمَهَّلْتَهُمُ الْعَنَاءَ بِأَمْرِ الدِّينِ إِلَى أَنْ يُوسِعُوا
الْأَحْكَامَ بِرْهَانًا ودليلا ، فَإِنَّا نُحِيطُ عِلْمَ الْإِخَاءِ الْاعَزَّ مَا كَانَ مِنْ عَزْمِ
مَوْلَاتِنَا الْوَالِدَةِ قُدْسِ اللَّهِ رُوحَهَا ونور ضريحها ، على اداء فريضة الحج
الواجبة ، وتَوْفِيَّتِهِ مَنَاسِكَهِ اللَّازِبَةِ فَاعْتَرَضَ الْحَمَامُ ، دون ذلك المَرَامِ ،
وعَاقَ الْقَدَرُ ، عن بلوغ ذلك الوطر ؛ فَطُوي كِتَابُهَا ، وَعُجِّلَ إِلَى مَقَرِّ

١ - أحسبه أعطاه فأكثر .

٢ - فيه اشارة الى الحديث : ما بين قبري ومنبري روضة من رياض الجنة .

الرحمة بفضل الله مثابها ، وعلى الله اجرها ، وعنده يُحْتَسَب ذُخْرُهَا ،
وان لَدِينَا من نَوْجِبُ اعْظَامَهَا ، ونَقِيمُهَا بِحُكْمِ الْبِرِّ مَقَامَهَا ، وعِزُّهَا الى
مَا أَمَلْتُهُ مَصْرُوفٌ ، وَأَمَلُهَا الى مَا كَانَتْ أَمَلْتُهُ مَوْقُوفٌ ، وهي محلّ والدُنَا
المَكْرَمَةِ المَبْرُورَةِ الأَثِيرَةِ المَوْقُورَةِ المَبْجَلَةِ المَفْضَلَةِ المَعَزَّةِ المَعَزَّةِ المَعْظَمَةِ
المُطَهَّرَةِ أَسْنَى الله مَكَاتِنَهَا ، وَسَنَى من هَذَا الْقَصْدِ الشَّرِيفِ لُبَانَتَهَا ، وَقَدْ
شَيَعْنَاهَا الى حَجِّ بَيْتِ الله الْحَرَامِ ، وَالمَثُولِ بِحَوْلِ الله تَعَالَى مَا بَيْنَ زَمَرَمَ
وَالْمَقَامِ ، وَالفَوْزِ مِنَ السَّلَامِ عَلَى ضَرْبِ الرِّسَالَةِ ، وَمَثَابَةِ الْجَلَالَةِ ، بَنِيْلِ
السُّوْلِ وَالْمَرَامِ ، لَتُظْفَرُ بِأَمْلِهَا الْمَرْغُوبُ وَتَنْفِرَ بَعْدَ إِدَاءِ فَرَضِهَا فِي
كَرَمِ الْوُجُوبِ .

وَحِينَ شَخَّصَ لِنَاكُمُ الْغَرَضَ الْكَرِيمَ مَوَكِّبُهَا ، وَخَلَّصَ إِلَى قِصْدِ
الْحَرَمِ الْعَظِيمِ مَذْهَبُهَا ، وَالْكَرَامَةِ تُلْجِفُهَا ، وَالسَّلَامَةَ إِنْ شَاءَ الله تَكْنُفُهَا ،
أَصْحَبْنَاهَا مِنْ حُورِ دَوْلَتِنَا وَأَحْظِيَّائِهَا ، وَوَجُوهَ دَعْوَتِنَا الْعَلِيَّةِ وَأَوْلِيَائِهَا ،
مَنْ اخْتَرْنَاهُ لِهَذِهِ الْوَجْهَةِ الْحَمِيدَةِ الْآثَرِ ، وَالرَّحْلَةِ السَّعِيدَةِ الْوَرْدِ إِنْ شَاءَ
الله تَعَالَى وَالصَّدَرِ ، مِنْ أَعْيَانِ بَنِي مَرَيْنَ اعْزَاهُمْ اللهُ تَعَالَى وَالْعَرَبِ ،
وَأَوْلَادِ الْمَشَائِخِ أُولِي الدِّيَانَةِ وَالتَّقْوَى الْمَالِئِينَ دِلَاءَ الْقَرَبِ ، إِلَى عَقْدِ
الْكَرْبِ ، وَكُلِّ مَنْ لَهُ أَثَرَةٌ مَشْهُورَةٌ ، وَشُهْرَةٌ بِالْمَزَايَا الرَّاجِحَةِ وَالسَّجَايَا
الصَّالِحَةِ مَأْثُورَةٌ ، وَقَصْدُهُمْ مِنْ إِدَاءِ فَرَضِ الْحَجِّ قِصْدُهَا ، وَوَرْدُهُمْ إِنْ شَاءَ
الله تَعَالَى مِنْ مَنَهْلِ بَرَكَاتِهِ الْجَمَّةِ وَرَدُّهَا ، وَهَكَذَا سَيَّرْنَا مِنْ نُحْفِ هَذِهِ
الْبِلَادِ إِلَيْكُمْ مَا تَيْسَّرُ فِي الْوَقْتِ تَسْيِيرُهُ وَإِنْ تَعَدَّرَ فِي كَثِيرٍ مِمَّا قِصْدُنَاهُ

ولهذا الغرض اردناه تيسيره ، لطول المغيب عن الحضرة ، والشغل بتمهيد البلاد التي فتحها الله عليها في هذه السفرة ، وعيننا لايرادها لديكم ، وإيقادها عليكم ابا اسحاق ابن الشيخ ابي زكرياء يحيى بن عثمان السويفي ، وامير الركب الحسن بن عمران وغيرهم ، كتب الله سلامتهم ، ويعن ظعنهم واقامتهم ، ومقام ذلك الاخاء الكريم ، يُسني لهم من اليسرى والتسهيل القصدة والسؤل ، ويأمر نواب ماله من الممالك ، وقوام ما بها من المسالك ، لتكمل العناية بهم في الامر والقول ، ومُعظم قصدنا من هذه الوجهة المباركة إيصال المصحف العزيز الذي خططناه بيدنا ، وجعلناه ذخيرة يومنا لغدنا ، الى مسجدر سيدنا ومولانا ، وعصمة ديننا ودنيانا ، محمد رسول الله ﷺ بطيبة زادها الله تشريفا ، وأبقى على الايام فخرها منيفا ، رغبة في الثواب ، وجرحاً على الفوز بحظ من اجر التلاوة فيه يوم المثاب. وقد عيننا بيد محل الوالدة المذكورة فيه ، كرم الله جبهتها ، ويعن وجهتها ، من المال ما يشتري به في تلکم البلاد المخطوطة من المستغلات ما يكون وقفاً على القراءة فيه ، مؤبدا عليهم وعلى غيرهم من المالكية فوائده وبجانيه . والاخوان المذكور يتلقى من الرسل المذكورين ما اليهم في هذه الأغراض ألقيناه ، ويأمر باحضارهم لادائهم بالمشافهة ما لديهم أو عيناه ، ويوعز باعانتهم على هذا الغرض المطلوب ،

وَيُسِّرْ لَهُمْ أَسْبَابَ التَّوَصُّلِ إِلَى الْأَمَلِ وَالْمَرْغُوبِ، وَشَأْنَهُ الْعَوْنُ عَلَى الْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ، وَلَا سِيَّامَا كَانَ مِنْ أَمْثَالِ هَذَا إِلَى مِثْلِ هَذِهِ السَّبِيلِ الْوَاضِحَةِ، وَشُكْرُ بَادِرَاتِكُمْ مُوَطَّدُ الْإِسَاسِ، مُطَرِّدُ الْقِيَاسِ، مُتَجَدِّدُ مَعَ اللَّحْظَاتِ وَالْأَنْفَاسِ، وَاللَّهُ يَصِلُ لِلْإِخَاءِ الْعَلِيِّ نَظْرَةَ آيَامِهِ، وَيُوَالِي نُصْرَةَ أَعْلَامِهِ، وَيُبْقِي الثُّغُورَ الْقَصِيَّةَ، وَالسَّبِيلَ السَّرِيَّةَ مَنُوطَةً بِنَقْضِهِ وَإِبْرَامِهِ، نَحْوُطَةً بِمَعَاذَةِ أَسْيَافِهِ وَأَقْلَامِهِ، وَالسَّلَامَ الْكَرِيمَ الْعَمِيمَ، يَخْصُ إِخَاءَكُمْ الْأَعَزَّ وَرَحْمَةَ اللَّهِ وَبَرَكَاتِهِ.

كتاب منه إلى الملك الصالح أبي الفداء إسماعيل بن محمد بن قلاوون
في التعزية بوالده وأغراض أخرى

مِنْ عِنْدِ أَمِيرِ الْمُسْلِمِينَ، الْمُجَاهِدِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، الْمَنْصُورِ بِفَضْلِ الْمُتَوَكَّلِ عَلَيْهِ، الْمُعْتَمِدِ فِي جَمِيعِ أُمُورِهِ لَدَيْهِ، سُلْطَانِ الْبَرِّينِ، حَامِي الْعُدُوتَيْنِ، مُوَثِّرِ الْمُرَابَاطَةِ وَالْمُتَشَاغِرَةِ مُوَازِرِ حِزْبِ الْإِسْلَامِ حَقًّا الْمُوَازِرَةِ، نَاصِرِ الْإِسْلَامِ، مُظَاهِرِ دِينَ الْمَلِكِ الْعَلَامِ، ابْنِ أَمِيرِ الْمُسْلِمِينَ، الْمُجَاهِدِ فِي سَبِيلِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، فَخْرِ السُّلَاطِينِ، حَامِي حَوْزَةِ الدِّينِ، مَلِكِ الْبَرِّينِ، إِمَامِ الْعُدُوتَيْنِ، مَهْدِّ الْبِلَادِ، مَبْدِدِ شَمْلِ الْأَعْدَادِ، مُجْتَمِدِ الْجُنُودِ، الْمَنْصُورِ الرَّاياتِ وَالْبَنُودِ، مَحْطِّ الرَّحَالِ، مُبْلِّغِ الْأَمَالِ، أَبِي سَعِيدِ ابْنِ أَمِيرِ الْمُسْلِمِينَ، الْمُجَاهِدِ فِي سَبِيلِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، حَسَنَةِ الْإَيَّامِ، نَسَامِ الْإِسْلَامِ، أَبِي الْأَمَلِكِ، مُشْجِي أَهْلِ الْعِنَادِ وَالْإِشْرَاكِ، مَانِعِ الْبِلَادِ،

رافع علم الجهاد ، مُدوِّخ اقطار الكفار ، مُضْرِح مَنْ ناداه للانتصار ،
 القائم لله باعلاء دين الحق ، ابي يوسف يعقوب بن عبد الحق ، اخلص
 الله لوجهه جهاده ، ويسر في قهر عداة الدين مُرادَه . الى محل ولَدنا الذي
 طلع في افق الغلا بدرأ تَمَّ ، وصدع بانوار الفخار فجلى ظلاما وظُلماً ،
 وجمع شمل المملكة الناصرية فأعلى منها علماً واحيى رُشما ، حارِط
 الحرَمين ، القائم بحفظ القبيلتين ، باسط الامان ، قابض كف العُدوان ،
 الجزيل الثَّوال ، الكفيل تَاميلُه بجياطة النفوس والاموال ، قُطب المجد
 وسِمَاكِه ، حَسْب الحمد ومِلاكِه ، السلطان الجليل ، الرفيع الأصيل الحافل
 العادل الفاضل الكامل الشهير الخطير الاضخم الافخم المُصان المؤزَّر المؤيد
 المظفر الملك الصالح ابي الوليد اسماعيل ابن محل اخينا الشهير علاوَه ،
 المستطير في الآفاق ثنَّاوَه ، زين الايام والليال ، كَمال عين انسان المجد
 وانسان عين الكمال ، وارِث الدَّوَل ، النافِث بصحيح رأيه في عُقود
 أهل المَلَل والنَحَل ، حامي القبيلتين بعدله وحُسامه ، النامي في حفظ
 الحرَمين اجرُ اضطلاعِه بذلك وقيامِه ، هازِم أحزاب المعاندين وجيوشها ،
 هادِم الكنائس والبيع فهي خاويةٌ على عروشها ، السلطان الأجلُّ الهام
 الأحقَل الأفخم الأضخم الفاضل العادل الشهير الكبير ، الرفيع الخطير ،
 المجاهد المرابط ، المُقسِط عدلُه في الجائر والقاسِط ، المؤيَّد المظفر ،

المنعم المقدس المطهر ، زَيْن السلاطين - ناصر الدنيا والدين ، ابي المعالي
 محمد ابن الملك الارضى ، الهمام الامضى ، والد السلاطين الاخيار ،
 عاقد لواء النصر في قهر الأرمن والفرنج والتتار ، نُحْيِي رُسُوم الجهاد ،
 مُغْلِي كلمة الاسلام في البلاد ، جمال الايام ، يَمَالُ الأعلام ، فاتح الأقالم ،
 صالح ملوك عصره المتقادم ، الامام ، المؤيد ، المنصور المسدد ، قسيم أمير
 المؤمنين فيما تقلد ، الملك المنصور ، سيف الدنيا والدين قلاوون ، مكن
 الله له تمكين اوليائه ، ونمى دولته التي أطلعها السعد شمساً في سمائه ، واحسن
 إيزاعه للشكر أن جعله وارث آبائه .

سلام كريم يُفَاوِح زَهْرَ الرُّبَى مَسْرَاه ، وَبُنَافِجُ نَسِيم الصِّبَا
 تَجْرَاه ، يَصْحَبُهُ رِضْوَانٌ يَدُومُ مَا دَامَتْ تُقَلُّ الْفَلَكَ حَرَكَاتُهُ ، وَيَتَوَلَاهُ
 رَوْحٌ وَرِيحَانٌ تُحْيِيهِ بِهِ رَحْمَةُ اللَّهِ وَبِرَكَاتِهِ . أَمَا بَعْدَ حَمْدِ اللَّهِ مَالِكِ الْمُلْكِ ،
 جَاعِلِ الْعَاقِبَةَ لِلتَّقْوَى صَدْعاً بِالْيَقِينِ وَدَفْعاً لِلشُّكِّ ، وَخَاذِلِ مَنْ أَسْرَ
 النِّفَاقِ فِي النُّجُوى فَأَصْرَ عَلَى الدَّخْنِ وَالْإِفْكِ ، وَالصَّلَاقِ وَالسَّلَامِ عَلَى
 سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ رَسُولِهِ الَّذِي غَيَّ بِأَنْوَارِ الْهُدَى ظُلْمَ الشُّرْكِ ، وَنَبِيِّهِ الَّذِي خَتَمَ
 بِهِ الْأَنْبِيَاءَ وَهُوَ وَاسِطَةُ ذَلِكَ السَّلْكِ وَدَعَا بِهِ حُجَّةُ الْحَقِّ فَادَتْ بِالْكَفَرَةِ
 مَحْمُولَةُ الْأَفْلاكِ وَمَاجَتْ بِهِمْ حَامِلَةُ الْفُلْكِ ، وَالرِّضَا عَنْ آلِهِ وَصَحْبِهِ الَّذِينَ
 سَلَكَوا سَبِيلَ هُدَاهُ فَسَلَكَ فِي قُلُوبِهِمْ أَجَلَ السَّلْكِ ، وَمَلَكَوا أَعْنَ هَوَاهُمْ
 فَلَزِمُوا مِنْ مَحَبَّةِ الصَّوَابِ أَنْجَحَ السَّلْكِ وَصَابَرُوا فِي جِهَادِ الْأَعْدَاءِ ،
 فَزَادَ خُلُوصَهُمْ مَعَ الْإِبْتِلَاءِ وَالنَّهْبُ بَزِيدُ خُلُوصِهِ عَلَى السَّبْكِ ، وَالِدَعَا

لاولياء الإسلام وحمايته الاعلام ، بنصره يلصقانه في العدى أعظم الفتك ،
ويُسِرْ بقضائه ذرك آمال الظهور وَأَجِلْ بذلك الدرك ، - فكتبناه اليكم
كتب الله لكم رُسوخَ القدم ، وُسبوغَ النعم ، من حضرتنا مدينة فاس
المحروسة وُصْنَعُ الله سبحانه يُعرِّفُ مذاهبَ الألفاف ، وَيُكَيِّفُ مواهبَ
تلهجُ اللسنةُ في القصور عن شكرها بالاعتراف ، وَيُصَرِّفُ من أمره
العظيم ، وقضائه المُتَلَقَّى بالتسليم ، ما يَتَكَوَّنُ بين الثون والكاف ،
ومكانكم العتيدُ سلطانه ، وسلطانكم المجد مكانه وولاؤكم الصحيح
بُرهانه ، وعلاؤكم الفسيح في مجال الجلال مبدائه - والى هذا زاد الله
سلطانكم تمكيننا ، وافاد مقامكم تحصيلنا وتحسينا ، وسلَّك بكم من سنن
من خلَقْتُمُوهُ سبيلا مُبينًا . فلا خفاء بما كانت عقْدته أيدي التقوى ،
ومهدته الرسائل التي على الصفاء تُطَوَّى بيننا وبين والدكم نعم الله روحه
وقدَّسه ، وبقربه مع الابرار في عِلِّيَّين أَنسه ، من مؤاخاة أحكمت منها
العهود تالية الكتب والفايحة ، وحفظ عليها مُحْكَمَ الاخلاص مُعوذاتها
المحبة والنية الصالحة ، فانعقدت على التقوى والرضوان ، واعتضدت
بتعارف الأرواح عند تنازح الابدان ، حتى استحكمت وُصْلَةُ الولاء ،
والتأمت كلُّخمة النسب لحة الإخاء فما كان إِلَّا وشيكا من الزمان ،
ولا عجب قصر زمن الوُصْلَةِ أن يشكوه الحُلَّان ، ورَدَ وارِدُ أوردَ رِنَقَ
المشارب وحق قول « وَمَنْ يَسْأَلِ الرُّكْبَانَ عَنْ كُلِّ غَائِبٍ »^١ أنبأنا باستئثار

١ - هو شطر بيت للشريف الرضي من قصيدة قالها عند توجهه الحاج ، وتمايمه
وهو المقصود : فلا بد ان يلتقى بشيرا وناعيا .

الله تعالى بِنَفْسِهِ الزَّكِيَّةِ ، وَإِكْتَانِ دُرَّتِهِ السَّنِيَّةِ ، وَاِنْقِلَابِهِ إِلَى مَا أُعِدَّ لَهُ مِنَ الْمَنَازِلِ الرِّضْوَانِيَّةِ بِجَلِيلِ مَا وَقَرَ لِفَقْدِهِ فِي الصَّدُورِ وَعَظِيمِ مَا تَأَثَّرَتْ لَهُ النُّفُوسُ لِوُقُوعِ ذَلِكَ الْمَقْدُورِ ، حَنَانًا لِلْإِسْلَامِ بِتِلْكَ الْإِفْطَارِ ، وَاشْفَاقًا مِنْ أَنْ يَغْتَوِرَ قَاصِدِي بَيْتِ اللَّهِ الْحَرَامِ مِنْ جَرَّاءِ الْفِتَنِ عَارِضِ الْإِضْرَارِ ، وَمُسَاهَمَةٍ فِي نَصِيبِ الْمَلِكِ الْكَرِيمِ وَالْوَصِيِّ الْحَكِيمِ .

ثُمَّ عَمِيَّتِ الْأَخْبَارُ وَطَوِيَّتِ طَيِّ السَّجِلِ الْآثَارُ ، فَلَمْ نَرِ مُخْبِرًا صِدْقًا وَلَا مُعْلِمًا بَمَنْ اسْتَقَرَّ لَهُ ذَالِكُمُ الْمُلْكُ حَقًّا ، وَفِي اثْنَاءِ ذَلِكَ حَفَرْنَا لِلْحَرَكَةِ عَنْ حَضَرَتِنَا اسْتِصْرَاحُ أَهْلِ الْأَنْدَلُسِ وَسُلْطَانُهَا ، وَتَوَاتُرُ الْأَخْبَارِ بِأَنَّ النَّصَارَى أَجْمَعُوا عَلَى خَرَابِ أَوْطَانِهَا ، وَنَحْنُ اثْنَاءَ ذَلِكَ الشَّيْءِ ، نَسْتَخْبِرُ الْوَرَادَ مِنْ تِلْكَ الْبُلْدَانِ ، عَمَّا أَجَلَى عَنْهُ لَيْلُ الْفِتَنِ بِتِلْكَ الْأَوْطَانِ ، فَبَعْدَ لَايٍ وَقَعْنَا مِنْهَا عَلَى الْخَبِيرِ وَجَاءَنَا بِوَقَايَةِ حَرَمِ اللَّهِ بِكُمْ الْبَشِيرِ ، وَتَعَرَّفْنَا أَنَّ الْمُلْكَ اسْتَقَرَّ مِنْكُمْ فِي نِصَابِهِ ، وَتَدَارَكَهُ اللَّهُ تَعَالَى مِنْكُمْ بِفَاتِحِ الْخَيْرِ مِنْ أَبْوَابِهِ فَأُطْفِئَ بِكُمْ نَارَ الْفِتْنَةِ وَاحْتَدَاهَا ، وَابْرَأَ مِنْ أَدْوَاءِ النِّفَاقِ مَا أَعْلَى الْبِلَادِ وَافْسَدَهَا ، فَقَامَ سَبِيلُ الْحُجِّ سَابِلًا ، وَعُبِّدَ طَرِيقُهُ لِمَنْ جَاءَ قَاصِدًا وَقَافِلًا ، وَلَمَّا احْتَفَّتْ بِهَذَا الْخَبَرِ الْقَرَّائِنُ ، وَتَوَاتَرَتْ بِنَقْلِ الْحَاضِرِ الْمُعَايِنِ ، أَثَارَ حِفْظِ الْإِعْتِقَادِ الْبَوَائِعِ ، وَالْوَدِّ الصَّحِيحِ تَجَرُّهُ حَقًّا الْمَوَارِثِ ، فَأَصْدَرْنَا لَكُمْ هَذِهِ الْمَخَاطَبَةَ الْمُتَفَنَّنَةَ الْأَطْوَارِ ، الْجَامِعَةَ بَيْنَ الْخَبَرِ

والاستخبار ، الملبسة من العزاء والهناء ثوبي الشعار والدثار ، ومثل ذالك
 الملك رضوان الله عليه من تجل المصائب لفقدانه ، وتخل عرى الاصطبار
 بموته ولات حين أوانه ، لكن الصبر أجل ما ارتداه ذو عقل حصين ،
 والأجر أولى ما اقتناه ذو دين متين ، ومثلكم من لا يخف وقاره ، ولا
 يشف عن ظهور الجزع الحادث اصطبار ، ومن خلفتموه فامات ذكره ،
 ومن قُتم بأمره فما زال بل زاد فخره ، وقد طالت والحمد لله العيشة الراضية
 بالحقب ، وطاب بين مبداه ومحتضره هنيئاً بما من الأجر اكتسب ، وصار
 حميداً الى خير منقلب ، ووفد من كرم الله على أفضل ما منح موقناً ووهاب ،
 فقد ارتضاكم الله بعده لحياطة أرضه المقدسة ، وحماية زوَّار بيته مُقيلة أو
 مُعرسة ، ونحن بعد بسط هذه التعزية ، نُهنئكم بما خولكم الله أجمل
 التهنئة ، وفي ذات الله الإيراد والإصدار ، وفي مرضاته سبحانه الاضمار
 والإظهار ، فاستقبلوا دولة ألقى العز عليها رواقه ، وعقد الظهور عليها
 نطاقه ، وأعطاهام أمان الزمان عهد وميثاقه ، ونحن على ما عهدنا عليه
 الملك الناصر رضوان الله عليه من عهود مُوثقة ومُوالاة محققة ، ونسأله
 كمايحه عن أذكى من الزهر غب القطر مُفترقة .

ولم يغب عنكم ما كان من بعثنا المصحفين الاكرمين اللذين خطتهما
 منا اليمين وآوت بهما الرغبة من الحرمين الشريفين إلى قرار مكين ، وأنه كان
 لو الدكم الملك الناصر تولاه الله برضوانه ، وأورده موارد إحسانه ، في ذلكم
 من الفعل الجميل والصنع الجليل ، ما ناسب مكانه الرفيع وشاكل فضله

من البرّ الذي لا يضيع ، حتى طبّق فعله الآفاق ذكرًا ، وطوّق أعناق الورّاد والقُصّادِ برا ، وكان من أجمل ما به تحفّي واتحف وأعظم ما يعرفه الملك العلام به في ذلك تعرّف ، إذنه للمتوجّهين إذ ذاك في شراء ربّاعٍ تُوقّف على المصحّفين ، ورسم المراسم المباركة بتحرير ذلك الوقف مع اختلاف الجديدين ، فجرت أحوالُ القراء فيها بذلك الخراج المستفاد ، ريثما يصلّهم من خراج ما وقفناه عليهم بهذه البلاد ، على ما رسمه رحمه الله من عناية بهم مُتّصلة ، واحترام في تلك الأوقاف فوائدها به متوفرة متحصّلة ، وقد أمرنا مُؤدّي هذا الكمالكم ومُوفّده على جلالكم كاتبنا الأسنى الفقيه الأجل الأحظى الأكل ، ابا المجد ابن كاتبنا الشيخ الفقيه الأجل الحاج الأتقى الأرضى الأفضل الأحظى الأكل المرحوم ابي عبد الله بن أبي مدّين حفظ الله عليه رُتبته ، ويسّر في قصد البيت الحرام بُغيته ، بأن يتفقّد أحوال تلك الاوقاف ، ويتعرّف تصرف الناظر عليها وما فعله من سدّاد وإسراف ، وأن يتخيّر لها من يُرَتّضى لذلك ، ويُحمد تصرفه فيما هنالك ، وخطبنا سلطانكم في هذا الشأن ، جريا على الود الثابت الاركان ، واعلاما بما لوالدكم رحمه الله تعالى في ذلك من الافعال الحسان ، وكما لُكُم يقتضي تخليد ذلكم البرّ الجليل ، وتجديد عمل ذلكم الملك الجليل ، وتشديد ما اشتمل عليه من الثراء الاصيل ، والاجرا الجزيل ، والتقدم بالاذن السلطاني في إعانة هذا الوافد بهذا الكتاب ، على ما يتوخاه في ذلك الشأن من طرق الصواب ، وثناؤنا عليكم اثناء الذي

يُفَارِحَ زَهَرَ الرَّبِّي ، وَيَطَارِحُ نَعْمَ حَمَّ الْأَيْكَ مُطَرَّبًا .

وَبِحَسَبِ الْمَصَافِقَةِ ، وَمَقْتَضَى الْمَوَالَةِ نَشْرَحُ لَكُمْ الْمَتَزَايِدَاتِ بِهَذِهِ
الْجِهَاتِ ، وَنُنَبِّئُكُمْ بِمَوْجِبِ إِبْطَاءِ انْفَاقِ هَذَا الْخُطَابِ عَلَى ذَلِكُمُ الْجَنَابِ ،
وَذَلِكَ أَنَّهُ لَمَّا وَصَلْنَا مِنَ الْأَنْدَلُسِ الصَّرِيخِ ، وَنَادَى مِنَّا لِلْجِهَادِ عَزْمًا يَمِثُلُ
نِدَائِهِ يُصْبِيحُ ، أَنْبَأْنَا أَنَّ الْكُفَّارَ قَدْ جَمَعُوا أَحْزَابَهُمْ مِنْ كُلِّ جَنُوبٍ ،
وَفَرَضَ عَلَيْهِمْ بَأَبَاهُمُ اللَّعِينِ التَّنَاصُرَ مِنْ كُلِّ أَوْبٍ وَأَنْ تَقْصِدَ طَوَائِفُهُمُ الْبِلَادَ
الْأَنْدَلُسِيَّةَ بِإِجَافِهَا ، وَتَنْقُصَ بِالْمَنَازِلَةِ أَرْضَهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ، لِيَمْحُوا كَلِمَةَ
الْإِسْلَامِ مِنْهَا وَيُقَلِّصُوا ظِلَّ الْإِيمَانِ عَنْهَا ، فَقَدَّمْنَا مِنْ يَشْتَغِلُ بِالْأَسَاطِيلِ
مِنَ الْقَوَادِ ، وَسَرَّعْنَا عَلَى إِثْرِهِمْ إِلَى سِبْطَةِ مُنْتَهَى الْغَرْبِ الْأَقْصَى وَبَابِ الْجِهَادِ ،
فَمَا وَصَلْنَاهَا إِلَّا وَقَدْ أَخَذَ أَخَذَهُ الْعَدُوُّ الْكُفُورُ ، وَسَدَّتْ أَجْفَانُ
الطَّوَاغِيتِ بَحَازَ الْعُبُورِ ، وَأَتَوْا مِنْ أَجْفَانِهِمْ بِمَا لَا يُحْصَى عَدْدًا ، وَأَرْصَدُوهَا
بِمَجْمَعِ الْبَحْرَيْنِ حَيْثُ الْحَازُ إِلَى دَفْعِ الْعَدَا ، وَتَقَلَّصُوا عَنِ الْإِنْبِسَاطِ فِي
الْبِلَادِ ، وَاجْتَمَعُوا إِلَى الْجَزِيرَةِ الْخَضْرَاءِ - أَعَادَهَا اللَّهُ - بِكُلِّ مَنْ جَمَعُوهُ
مِنَ الْأَعَادِ ، لَا كُنَّا مَعَ انْسِدَادِ تِلْكَ السَّيْلِ ، وَعَدَمِ أُمُورِ نَسْتَعِينُ بِهَا
فِي ذَلِكُمُ الْعَمَلِ الْجَلِيلِ ، حَاوَلْنَا لِمَدَادَ تِلْكَ الْبِلَادِ بِحَسَبِ الْجُهْدِ ،
وَأَضْرَخْنَا بِمَا أَمَكُنْ مِنَ الْجُنْدِ ، وَجَهَّزْنَا أَجْفَانًا مُخْتَلِسِينَ فُرْصَةَ الْإِجَازَةِ ،
تَتَرَدَّدُ عَلَى خُطَرٍ جُهَّزَ لِلْجِهَادِ جَهَّازَهُ ، وَأَمَرْنَا بِاصْطِحَابِ الْأَنْدَلُسِ مِنَ الْمَالِ ،
بِمَا يَجْهَزُ بِهِ حَرَكَتَهُ لِمَدَانَةِ مَحَلَّةِ حَزْبِ الْفُلَالِ ، وَاجْرَيْنَا لَهُ وَلِجَيْشِهِ
الْعَطَاءَ الْجَزْلَ مُشَاهِرَةً ، وَأَرْضَخْنَا لَهُمْ مِنَ الثَّوَالِمَا نَرْجُو بِهِ ثَوَابَ

الآخرة ، وجعلت أجفاننا تتردد في ميناء السواحل وتلج أبواب الخوف العاجل لإحراز الأمن الآجل، مشحونة بالعدد المفورة والأبطال المشهورة ، والخيئل المسومة ، والاقوات المقومة ، فمن ناج حارب دونه الآجل ، وشهيد مضى عند الله عز وجل ، وما زالت الاجفان تتردد على ذلك الخطر ، حتى تلف منها سبع وستون قطعة غزوية أجرها عند الله يدخر ، ثم لم نقتنع بهذا العمل في الإمداد ، فبعثنا أحد أولادنا اسعدهم الله مساهمة به لأهل تلك البلاد ، فلقي من هول البحر وارتياجه ، والحاح العدو ولجأجه ، ما به الامثال تضرب وبمثله يتحدث ويستغرب ، ولما خلص لتلك العدو بمن أبقته الشدائد ، نزل بازاء الكافر الجاحد ، حتى كان منه بفرسخين أو أدنى . وقد ضرب بعطن يصاح العدو ويماسيه بحرب بها يمتنى ، وقد كان من مدنا بالجزيرة جيش شريت شرارته ، وقويت في الحرب إرادته ، يبلون البلاء الاصدق ، ولا يبالون بالعدو وهم منه كالشامة البيضاء في البعير الأزرق ، إلا أن المطاولة بحصارها في البحر مدة ثلاثة أعوام ونصف ، ومنازلتها في البر نحو عامين معقوداً عليها الصف بالصف ، أدّى الى فناء الاقوات في البلد ، حتى لم يبق لاهليه قوت شهر مع انقطاع المدد ، وبه من الخلق ما يربي على عشرة آلاف دون الحرم والوند ، فكتب اليها سلطان الأندلس يرغب في الأذن له في عقد الصلح ، ووقع الاتفاق على أنه لاستخلاص المسلمين من وجوه النجح ، فاذننا له فيه الاذن العام ، إذ في إصرارحه واصراخ من بقطرة من المسلمين

تَوَخَّيْنَا ذَلِكَ الْمَرَامَ ، هُنَالِكَ دُعِيَ النَّصَارَى إِلَى السَّلْمِ فَاسْتَجَابُوا ، وَقَدْ كَانُوا
عَلِمُوا فَنَاءَ الْأَقْوَاتِ وَمَا اسْتَرَابُوا ، فَتَمَّ الصَّلْحُ إِلَى عَشْرِ سَنِينَ ، وَخَرَجَ
مَنْ بَهَا مِنْ فَرَسَانٍ وَرِجَالٍ وَأَهْلِ وَبَنِينَ ، وَلَا رُزْءُ وَلَا مَالٌ وَلَا عُدَّةٌ ، وَلَا
لَقُوا فِي خُرُوجِهِمْ غَيْرَ النَّزُوحِ عَنْ أَوَّلِ أَرْضِ مَسٍّ الْجِلْدَ تُرَايَاهَا شِدَّةٌ ،
وَوَصَلُوا إِلَيْنَا فَاجْزَلْنَا لَهُمُ الْعَطَاءَ ، وَاسْلَيْنَاهُمْ عَمَّا جَرَى بِالْحَيَاءِ ، فَمَنْ
خَيْلٍ تَزِيدُ عَلَى الْأَلْفِ عِتَاقَهَا ، وَخَلَعَ تُرْبَى عَلَى عَشْرِ آلَافٍ اطْوَأُاقَهَا ،
وَأَمْوَالٍ عَمَّتِ الْغَنَى وَالْفَقِيرَ ، وَرِعَايَةٍ شَمِلَتْ الْجَمِيعَ بِالْعِيشِ النَّضِيرِ ،
وَكَفَّ اللَّهُ ضَرْءَ الطَّوَاغِيتِ عَمَّا عَدَاهَا ، وَمَا انْقَلَبُوا بِغَيْرِ مَدْرَةٍ عَفَا
رِسْمَهَا وَصَمَّ صَدَاهَا .

وَقَدْ كَانَ مِنْ لُطْفِ اللَّهِ حِينَ قَضَى بِأَخْذِ هَذَا الثَّغْرِ ، أَنْ قَدَّرَ لَنَا
فَتْحَ جَبَلِ طَارِقٍ مِنْ أَيْدِي الْكُفْرِ ، وَهُوَ الْمُطِلُّ عَلَى هَذِهِ الْمَدْرَةِ ، وَالْفُرْصَةُ
مِنْهُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى مُتَيَّسِرَةٌ ، حَتَّى يُفَرِّقَ عَقْدَ الْكُفَارِ ، وَيُفْرِجَ بِهِ
الْجِهَةَ مِنْهُمْ مُجَاوِرُوا هَذِهِ الْأَقْطَارَ ، فَلَوْلَا إِجْلَائُهُمْ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ ، وَكُونُهُمْ
سَدُّوا مَسْلَكَ الْعُبُورِ بِمَا لَجِمِعُهُمْ مِنَ الْأَجْفَانِ وَالْمَرَائِبِ ، لَمَا بَالَيْنَا بِإِصْفَاقِهِمْ
وَلَحْلَلْنَا بِعَوْنِ اللَّهِ عَقْدَ اتِّفَاقِهِمْ ، وَلَكِنْ لِلْعَوَانِعِ أَحْكَامٌ ، وَلَا رَادَّ لِمَا جَرَتْ
بِهِ الْأَقْلَامُ ، وَقَدْ أَمَرْنَا لِنَلِكِ الثَّغْرَ بِمَا يَزِيدُ بِهِ الْمَدَدَ ، وَتَخَيَّرْنَا لَهُ وَلِسَانُ

تلك البلاد العُدَدَ والعَدَدَ ، وُعِدْنَا لحضرتنا فاس لتستريح الجيوش من وُعْثاء السفر ، ونَرْتَبِطُ الجِيَادَ وَنَنْتَخبِ العُدَدَ لوقت الظهور المنتظر ، ونَبْكون على أَهْبة الجهاد ، وعلى مَرْقَبَةِ الْفُرْصَةِ عند تَمَكُّنِهَا فِي الْإِعَادِ ، وعند عودنا من تلك المَحَاوَلَةِ ، نُيسِّرُ الرِّكْبَ الْحِجَازِي مُوجِّهًا إِلَى هُنَاكُم رَوَاحِلَهُ ، فَاصْدَرْنَا إِلَيْكُم هَذَا الْخُطَابَ ، إِصْدَارَ الْوَدِّ الْخَالِصِ وَالْحُبِّ اللَّبَّابِ ، وَعِنْدَنَا لَكُمْ مَا عِنْدَ أَحْنَى الْآبَاءِ ، وَاعْتِقَادُنَا فِيكُمْ فِي ذَاتِ اللَّهِ لَا يَخْشَى جَدِيدُهُ مِنَ الْبَلَاءِ ، وَمَا لَكُمْ مِنْ غَرَضٍ بِهَذِهِ الْأَنْحَاءِ ، فَمُوَفَّى قَصْدُهُ عَلَى أَكْمَلِ الْإِهْوَاءِ ، مُوَالِيًا تَتِمُّمُهُ عَلَى أَجْلِ الْآرَاءِ ، وَالْبِلَادِ بِاتِّحَادِ الْوَدِّ مُتَّحِدَةً ، وَالْقُلُوبُ وَالْأَيْدِي عَلَى مَا فِيهِ مَرْضَاةُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ مُنْعَقِدَةً ، جَعَلَ اللَّهُ ذَلِكُمْ خَالِصًا لِرَبِّ الْعِبَادِ ، مَذْخُورًا لِيَوْمِ الثَّنَادِ ، مَسْطُورًا فِي الْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ يَوْمَ الْمَعَادِ ، بِمَنْهُ وَفَضْلُهُ وَهُوَ سُبْحَانَهُ يَصِلُ إِلَيْكُمْ سَعْدًا تَتَفَاخَرُ بِهِ سُعُودُ الْكُوَاكِبِ ، وَتَتَضَافَرُ عَلَى الْإِنْقِيَادِ لَهُ صُدُورُ الْمَوَاكِبِ ، وَتَتَقَاصِرُ عَنْ نَيْلِ نَجْدِهِ مُتَطَاوِلَاتُ الْمَنَاكِبِ وَالسَّلَامُ الْإِثْمَ يَخْصُكُمْ كَثِيرًا أَثِيرًا وَرَحْمَةً اللَّهِ وَبَرَكَاتِهِ .

كتاب السلطان ابي سعيد الموريني الاصغر الى الملك الناصر فرج بن برقوق

يعلمه باستعداده لمناصرته على العدو المهاجم

من عبد الله وولَّيه عثمان امير المسلمين المجاهد في سبيل رب العالمين ،
سلطان الإسلام والمسلمين ، ناشر بساط العدل في العالمين ، المقتدي بآثار

آبائه الكرام ، الْمُقْتَفِي سُنَّتَهُم الْحَيِّدَة فِي نَصْرَة الْإِسْلَام ، الْمُعْمِل نَفْسَهُ
 الْعَزِيزَة فِي التَّهْمَم بِمَا قَلَّدَهُ اللَّهُ مِنْ أُمُور عِبَادِهِ ، وَحِيَاظَةِ ثَغُورِهِ وَبِلَادِهِ ،
 سَيْفِ اللَّهِ الْمَسْلُوكِ عَلَى أَعْدَائِهِ ، الْمُنْتَشِرِ عَدْلُهُ عَلَى أَقْطَارِ الْمَعْمُورِ وَأَنْحَايِهِ ،
 ظَلَّ اللَّهُ تَعَالَى فِي أَرْضِهِ ، الْقَائِمِ بِسُنَّتِهِ وَفَرْضِهِ ، عِمَادِ الدُّنْيَا وَالْدِّينِ عِلْمُ
 الْأَيْمَةِ الْمُهْتَدِينَ : ابْنِ مَوْلَانَا السُّلْطَانِ الْمُظْفَرِ الْخَلِيفَةِ الْإِمَامِ مَلِكِ الْمُلُوكِ
 الْأَعْلَامِ ، فَاتِحِ الْبُلْدَانِ وَالْأَقْطَارِ ، مَهْدِ الْأَقَالِيمِ وَالْأَمْصَارِ ، جَامِعِ اشْتَاتِ
 الْحَمَامِدِ ، مَلْجَأِ الصَّادِرِ وَالْوَارِدِ ، الْمَلِكِ الْجَوَادِ ، الَّذِي حَلَّتْ مَحَبَّتُهُ فِي
 الصُّدُورِ مَحَلَّ الْأَرْوَاحِ فِي الْأَجْسَادِ ، أَمِيرِ الْمُسْلِمِينَ ، الْمُجَاهِدِ فِي سَبِيلِ رَبِّ
 الْعَالَمِينَ ، أَبِي الْعَبَّاسِ ابْنِ مَوْلَانَا أَمِيرِ الْمُسْلِمِينَ ، الْمُجَاهِدِ فِي سَبِيلِ رَبِّ الْعَالَمِينَ
 أَبِي سَالِمِ ابْنِ مَوْلَانَا أَمِيرِ الْمُسْلِمِينَ ، الْمُجَاهِدِ فِي سَبِيلِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ، أَبِي الْحَسَنِ
 ابْنِ مَوْلَانَا أَمِيرِ الْمُسْلِمِينَ ، الْمُجَاهِدِ فِي سَبِيلِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ، أَبِي سَعِيدِ ابْنِ مَوْلَانَا
 أَمِيرِ الْمُسْلِمِينَ ، الْمُجَاهِدِ فِي سَبِيلِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ، أَبِي يُوسُفَ يَعْقُوبَ بْنَ عَبْدِ
 الْحَقِّ ، وَصَلَ اللَّهُ تَعَالَى أَسْبَابَ تَأْيِيدِهِ وَوَعَضْدِهِ ، وَقَضَى بِاتِّصَالِ عُرْفِ
 تَجْدِيدِ سَعْدِهِ وَأَنَا لَهُ مِنْ جَمِيلِ صُنْعِهِ مَا يَتَكْفَلُ بِتَيْسِيرِ أَمْرِهِ وَبِلُغْوِ قَصْدِهِ .

إِلَى مَحَلِّ اخِينَا الَّذِي نُؤَثِّرُ حَقًّا إِخْوَانَهُ الْكَرِيمَ ، وَنُثْنِي عَلَى سُلْطَانِهِ
 السَّعِيدِ ثَنَاءَ الْوَلِيِّ الْحَمِيمِ ، وَنَشْكُرُ مَا لَهُ فِينَا مِنَ الْحُبِّ السَّلِيمِ ، وَالْوَدِّ
 الثَّابِتِ الْمُقِيمِ ، السُّلْطَانِ الْجَلِيلِ ، الْمَاجِدِ الْأَصِيلِ ، الْأَعَزِّ الْخَطِيرِ الْمُثِيلِ ،
 الشَّهِيرِ الْأَمَجْدِ الْأَرْفَعِ ، الْهَمَامِ الْأَمْنَعِ ، السَّرِيِّ الْأَرْضِيِّ ، الْمُجَاهِدِ الْأَمْضِيِّ
 الْوَاحِدِ الْأَسْنَى ، الْمَلِكِ الْأَحْمَرِيِّ ، خَدِيمِ الْحَرَمَيْنِ الشَّرِيفَيْنِ ، حَائِزِ

الفخرين المنيفين ، ناصر الدنيا والدين ، محيي العدل في العالمين ، الاجد
الأود المكين الأخلص الأفضل الأكل أبي السعادات فرج ابن السلطان
الجليل ، الاعزّ المثيل ، الخطير الأصيل ، الأرفع الأجد ، الشهير الهام
الأوحد ، الأسمى الأسمى الارضى ، المجاهد الأمضى ، خديم الحرمين
الشريفين ، حائز الفخرين المنيفين ، الأفضل الأكل المبرور المقدم المرحوم
أبي سعيد بَرقوق ابن أنص ، وصل الله لسلطانه المؤيد جَدّاً لا يُعْجَم
عُوده وعزّاً لا يَمِيل عَمُوده ، ونصراً يملأ قُطره بما يُغصُّ به حَسُوده ،
وعَضدا يأخذ بزمام أمله السنّي فيسُوِّقه ويقوِّده .

سلام عليكم ورحمة الله وبركاته :

أما بعد حمد الله على سُبُوغ نِعَمائه ، وترادف لطفه وآلائه ، الذي
عرفنا من ولاته الكريم ما سرّنا من أطراد اعتنائه ، وابهج النفوس
والاسماع من صفاء ولاته ، ومواصلة صفاته ، والصلاة والسلام الأكلين
على سيدنا ومولانا محمد خاتيم رسله وانبيائه ، ومُبلِّغ رسالاته وانبيائه ،
صاحب المقام المحمود ، والحوض المورود ، واللواء المعقود ، فأكرّم
بمقلمه وحوضه ولوانه والرضى عن آله وصحبه وأوليائه ، الذين هم للدين
بُذور اهتدائه ونجوم اقتدائه ، وصلة الدعاء لمقامكم الكريم بدوام
عزه واعتلاته واقتبال النصر المبالغ في احتفاله واحتفانه وحياطة انجائه
وارجائه وتأييد عزّماته وآرائه ،

فانا كتبنا اليكم كتب الله لكم سعدا سافرا ، وعزما ظافرا ، من
 حضرتنا العلية بالمدينة البيضاء ' كلاًها الله تعالى وحرّسها ونعمُ الله سبحانه
 لدينا واكفّة السّجال ، وولاؤه جل جلاله سابغ الاذيال ، وخلافته التي
 نرعى بعين البر جوانبها ، ونقتفي في كل منقبة كريمة سيرها الحميدة
 ومذاهبها ، والى هذا وصل سعدكم ، ووالى عضدكم ، وكتائبنا هذا
 يُقرّر لكم من ودادنا ما شاع وذاع ، ويؤكد من إخلاصنا اليكم ما
 تتحدث به السّمّار فتويعه جميع الاسماع ، وقد كان انتهى اليها حركةُ عدو
 الله وعدو الاسلام ، الباغي بالاجترأ على عباده سبحانه بالبؤس والانتقام
 الآخذ فيهم بالعيث والفساد ، الساعي بجهده في تهديم الحصون وتخريب
 البلاد ، وتعرّفنا انه كان يعلق امله الخائب بالوصول الى اطراف بلادكم
 المصرية ، وانتهاز الفرصة على حين غفلة من خلافتكم العلية ، والحمد لله
 الذي كفى بفضله شرّه ، ودفع نقمته وضره ، وانصرف ناكصا على عقبيه ،
 خائبا من نيل أربه ، ولقد كنا حين سمعنا بسوء رأيه الذي غلبه الله عليه ،
 وما أضمر لخلق الله من الشر الذي يجدّ في اخراهِ ظلامه يسعى بين يديه
 عزمنا على أن نمُدّكم من عساكرنا المظفرة بما يضيق عنه الفضاء ونجهّز
 لجهتكم من اساطيلنا المنصورة ما يُحمد في امداده المناصرة ويرتضى ،
 فالحمد لله على ان كفى المؤمنين القتال ، واذهب عنهم الأوجال ، ويسر

لهم الأعمال ، وهياً لخلافتم السنيّة وللمسلمين ، هناءً يتضمّن السلامة لكم ولهم على تعاقب الأعوام والسنين . وبحسب ما لنا فيكم من الود الذي است المصافاة بنيانه ، والحب الذي أوضح الإخلاص برهانه ، وقع تخيرنا فيمن يتوجه من بابنا الكريم لتفصيل مجملته ، وتقرير ما لدينا فيه على اتم وجه الاعتقاد واكمليه ، على الشيخ الأجل الشريف المبارك الأصيل الأسنى الحظي الأعز الحاج المبرور الأمين الأحفل الأفضل الأكمل ابي عبدالله محمد ابن الشيخ الأجل الاغر الأسنى الأوجه الأنوه الأرفع الأجد الآثر الأزهى الشريف الأصيل المعظم المثل الشيل الأشهر الأخطر الامثل الأجل الأفضل الاكمل المرضي المقدس المرحوم ابي عبدالله بن ابي القاسم بن نفيس الحسيني العراقي ، وصل الله سعاداته ، واحمد على حضرتكم السنية وفاداته ، حسب ما يفي بشرح ما حملناه نقله ، ويكمل بايضاحه لديكم يقظته ونبله ، إن شاء الله تعالى وهو سبحانه وتعالى يديم سعادتكم ويحفظ مجادتك ، ويُسني من كل خير ارادتك والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

بيعة صاحب مملكة برونو من أقطار السودان

للمصور الذهبي . أنشأها له كاتب المنصور

عبد العزيز الفشتالي

الحمد لله الذي أعلى لكلمة الحق منارا يسامي في مطالعها النجوم ، وازاح بها عن شمس الهداية المنيرة غياهب الغباوة المدهمة وسحاب

الغواية الماركوم ، وحيّ على الفلاح بها داعي التوفيق الذي نشر للنجاح كتابه الموقوت واستنجز للسعادة أجلمها المعلوم ، وشرف هذا الوجود ، والعالم الموجود ، بالخلافة النبوية ، والامامة الحسنة العلوية ، التي صرّفت الوجوه الى قبالتها المشروعة ، واستبان الحق بتبليج الصباح في مبايعتها والانقياد لدعوتها المسموعة ، ونسخ بدولتها الغراء ذوال الخيف التي هي بسيف النبوة المصلت مقطوعة وبلسان السنة مدفوعة ، وقوض بها مباني الادعاء التي هي على غير أساس الشرع الصحيح مرفوعة ، وفرّق بكلماتها المجموعة على التوحيد فرّق التثليث التي هي على مشاقة الله ورسوله تابعة ومتبوعة ، وخلع بظهورها على اعطاف الحنيفية السمحة رداء العز الفضاخ ، واستل بتأييدها للدين المحمدي سيف الأنفة والامتعاض و اشار للأعادي من بأسها المروع بلسان الحية النضناض ، وفجّر للمؤمنين ينبوع رحمتها الجاري على حصى عدلها الرضراض ، ومهد بسيوفها المنتضاة الآفاق والأقطار تمهيدا أزال عن حكمه الاعتراض ، وجلّى بانوارها المتألقة سدف الجهالة التي ادّلمّ جوؤها وغيم ، واسعد الوجود يئمنها الذي ليث في أكناف مجدها وخيم ، وقضى لها بتوارث الأرض ومن عليها ان شاء الله الى عيسى ابن مريم .

والصلاة والسلام على مولانا محمد الذي تعاضدت البراهين القاطعة ، على صدق رسالته البارعة ، ونهج للدين القويم طريقة الحق المثلى ومادته الشارعة ، وسوغ لمن آمن به مناهل الهدى النيرة الزلال وموارد

العذبة ومشارِعَه ، نبيّ الرحمة ، وشفيع الأمة ، وعلى آله واصحابه الكرام ائمة الهدى ومصابيح الظلام .

والدعاء لمولانا الإمام ، العلوي الهمام ، أمير المؤمنين ، ابن أمير المؤمنين ، نجل سيد المرسلين ، وخاتم النبيين ، وسليل الوصيّ والسبطَيْن الأكرمين .

وبعد فانه لما أذِن الله في ليل الجهالة ان يَنجاب ، وفي شمس الحق الوهاجة ان يرتفع عنها الحجاب ، وفي العز الخلقِ الجلباب ، أن يعود الى الشباب ، وفي النجاح والاستقامة أن يُفَتَحَ لهما الباب ، وفي الأمانة ان تُسندَ للسنة والكتاب وتتعلّق من الشرع بأسباب ، تدارك الله سبحانه الوجود واعز العالم الموجود واستطارت الأنوار المضيئة للأغوار والنُّجُود ، بطلوع شمس الخلافة النبوية ، والامامة الهاشمية العلوية ، ففاضت على أديم البسيطة انوارها ، وارتفع الى حيث السُّها والفرقدين منارها ، وتبلّج بالاصباح نهارها ولاحت في سماء المجد بُدورها واقمارها ، وكادت تنهبُ نجومَ السماء اتباعها وانصارها ، وانتشرت في الآفاق والاقطار على البعد والقرب آثارها ، وهزّت عطف الزمان انتشاء مناقبها واخبارها وفاض بيركتها على أكناف المعمور يثها الزاهر وتيارها ، خلافة ينتمي إلى النبوة عُصرها وتُسَنِّبُ من رسالة الوحي أسطرها ، ويُناط بعروتها الوثقى خنصرها ، وامامة عليّ وليها والله نصيرها والسبط بدرها

الذي حيّاه منبرُها وسريرُها .

والحمد لله الذي اصطفى من هذه الدّوحة النبوية الشّماء ، والشجرة الطيبة الهاشمية التي اصلُها ثابت وقرنُها في السماء ، إماماً القى الله له في القلوب حبا جميلا ، ومولى جعله الله على مرضاته سبحانه علامة ودليلا وخليفة استرعاه بحسن الرعي لخلقهِ وعباده كفيلا ، وانتضى من بأسه وبسالته لحماية حمى الشريعة حُساماً صقيلا ، مولانا امير المؤمنين وخليفة الله في الأرضين ، وسليل خاتم النبيين ، ووارث الانبياء والمرسلين ، المفترضة طاعته على الخلق اجمعين ، والممنون بامامته المقدسة على العالمين ، بحر النّدى والباس ، وعصمة الله للنّاس ، أمير المؤمنين ، المنصور بالله مولانا أبا العباس صلواتُ الله عليه وعلى آله الخلفاء الراشدين والائمة الطيبين الطاهرين ، وطيبَ بأنفاس المغفرة لحودهم اجمعين . امام تهتزّ لذكره اعطافُ المنابر ، وتتقلّد من شريف دعوته ابهى من نفيس الجواهر ، وتستضيء البلاد بياكليل شرفه الزاهر ، وتسكنُ العباد تحت ظل رحمته الوارف الوافر ، ابقى الله ايامه الغرّ بقاءً يصحب النصر دوامه ، وخلّد له ولأعقابهِ هذا الأمر الكريم الى يوم القيامة .

ولما طلعت ، ايده الله على هذه الاصقاع الزّنجية طلائعُ امامته النبوية وخلافته ، ولاحت في سمائها شهبُ مناقبه المُنيقة الدالة على فخامة شرفه وإِنافته ، وتليت لمجده الآياتُ البينات التي تشهد له بتراث الرسالة ،

وتقضى له على الإسلام وعلى الانام بحكم الولاء والكفالة ، واوضح الله سبحانه للناس من اعتقاد وجوب طاعته والاعتداء بامامته ، والانقياد لدعوته ، وتقليد بيعته ما جاء به كتابه الحكيم ، ووردت سنة نبيه الكريم كما قال عليه السلام : لا تزال الخلافة في قرش ما بقي منهم اثنان ، وكما ورد في صحيح الخبر ان الخلافة في قرش والقضاء في الأنصار وفي الحبشة الأذان ، ويدل على هذا تعاضد الخبر والعيان ، فلا نأكر ان ليس في المعمور على هذا الشرط غيره أيده الله من ثان ، فنهض بدليل الشرع أنه امام الجماعة حقاً المستوفي شروطها ، والوارث للخلافة النبوية والحريص على بيضة الإسلام ان يحوطها ، وإن القائم بهذا الأمر على الإطلاق غيره دعي ، ومحاو له دون اذنه المشروع بدعي ، فتعين لذلك ان الرجوع الى الحق فريضة ، واستبان بما تقرر وعلم ان اماراة لا تلاقي في الشروع محلها المشروع منبوذة مرفوضة ، وعزوتها لذلك مفضومة ومنقوضة .

فانتدب لهذه الآثار ، وصحيح الأخبار ، وصرف الى رضا الله العناية ووقف من الشرائع المشروعة حيث مركز الراية ، ومنتهى الغاية ، الرئيس ابو العلاء ادريس اكرمه الله انتداب من وقفت به مطية التوفيق ، على حضرة الإخلاص والتصديق ، واخذت بزمامه السعادة الى حيث الفوز برضا الله ورضا رسوله حقيق ، والتأييد صاحب ورفيق ، وروض الآمال أنيق وراح الراحة والاطمئنان عتيق الى تقلد بيعة امام الجماعة أمير المؤمنين ، المنصور بالله زاده الله تقديسا وتشريفا ، التي تؤسس ان شاء الله على تقوى

من الله ورضوان ، وتشهدُ عقدَها الكريم ملائكةُ الرحمان ، وآثرَ اسعدهُ الله أن يؤدي فرضها المعداد من فروض الاعيان ، وحكمها الذي توجه به خطابُ الشرع العام الى القاصي والدان ، وينشرَ سنتها المشروعة في صُقعهِ وما يليه من الأصقاع والبقاع بالسودان ، تقلّداً يستضيء ان شاء الله بانواره ، ويستشرف به العزُّ المكين على مناره ، ويُخمد به للجهل جذوة ناره وتنظم به في اتباع الحق زُمرّة انصاره ويحتلي به صورة انسانيته ، ويستوجب من الله عوارف صنعه واحسانه ويُرهف به للعدو على العزّات حدّ سيفه وسنانه ، ويقرّع به لرضا الله بابَ القبول ، ويتضاعف له ببركته العمل المقبول ، ويستثيق بمشهد عقده الكريم نوايسم النبوة ، ويعود له به الزمان للشباب والفتوة ، ويرفع به منار الامارة على قواعد الشرع الوثيقة ، ويعدل به في كل الاحوال عن المجاز الى الحقيقة ، وتتسنى له به وهي المقصد الاسنى والحائمة الحسنى الأسوة الحسنة بإمامي بني العباس السفاح والمنصور ، ويُحيي سنتها التي نقلها ثقات الاعلام والصُدور ، في مبايعتهما الامام الخليفة المهدي الاكبر سليل سيد المرسلين ، وجدّ مولانا أمير المؤمنين الذي رأى أمام دار الهجرة انه بتراث الخلافة أولى واحقّ ، وفي منصب الامامة على شرطها اعرق ، وبسريرها ومنبرها أليق .

فتأكّد للمنتدب أيده الله بهذه الآثار الشريفة ، والمناقب المنيفة ، العزم والقصد ، وأنجز له فيما اراده صادق الوعد ، وساعد نيّته الصالحة فيه السعد ، فبايعه أعنى الله يده على الأمن والأمانة ، والعفاف والديانة ، والعدل

الذي يُشَيِّدُ للمجد أركانَه ، مَبَايَعَةً شَايِعَةً عَلَى عَقْدِهَا الْكَرِيم ، أَكْرَمَهُ اللهُ ،
أَتْبَاعُهُ ، وَجُوعُهُ وَأَشْيَاغُهُ ، بِحُكْمِ الْوَفَاقِ وَالْإِتِّفَاقِ ، وَالْمَوَاقِفِ الشَّدِيدَةِ
الْوَثَاقِ ، وَبِجَمِيعِ الْأَيْمَانِ الصَّادِقَةِ الْإِيمَانِ ، أَعْطَوْا بِهَا صَفَقَةً أَيْدِيَهُمْ ، وَرَفَعَ
بِهَا الْعَقِيرَةَ مَنَادِيَهُمْ عَارِفِينَ أَنَّ يَدَ اللَّهِ فِيهَا فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ، وَأَمْضَوْهَا عَلَى
السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ ، وَالْإِنْتِظَامِ فِي سِلْكِ الْجَمَاعَةِ ، أَمْضَاءَ يَدِينُونَ بِهِ فِي السِّرِّ
وَالْجَهْرِ ، وَالْعُسْرِ وَالْيُسْرِ ، وَالرِّخَاءِ وَالشَّدَةِ ، وَالْأَزْمَانِ الْمَشْتَدَّةِ ،
وَالْتَزَمُوا شُرُوطَهَا طَوْعًا وَاسْتَوْعَبُوهَا جَنْسًا وَنَوْعًا بَنِيَاتٍ مِنْهُمْ خَالِصَةٍ
صَادِقَةٍ ، وَوَعْدَةٍ مِنْ اللَّهِ بِالْخَيْرِ لَهُمْ سَابِقَةٍ ، وَسَعَادَةٍ بِالْحَسَنِ لَاحِقَةٍ ، اِبْرَمُوا
عَقْدَهَا ، وَاحْكُمُوا وَعَدَهَا وَعَهْدَهَا ، عَلَى حُكْمِ الْكِتَابِ وَالسُّنَنِ وَالْجَمَاعَةِ ،
وَالْإِخْلَاصِ بِسُنَّتِهَا أَعْقَابًا عَنْ أَعْقَابِ ، وَأَحْقَابًا أَثَرِ أَحْقَابِ ، إِلَى يَوْمِ
الْقِيَامَةِ وَاقْتِرَابِ السَّاعَةِ ، لَا يُلْحَقُ عَقْدَهَا الْكَرِيمَ فَنَسْخٌ ، وَلَا يَعْقُبُهُ
بَحُولُ اللَّهِ نَسْخٌ ، وَلَا يَتَطَرَّقُ إِلَيْهِ نَقْضٌ وَلَا نَكْثٌ وَلَا يَشُوْبُهُ بِشَوَائِبُ
الشُّبُهَاتِ بَحْثٌ ، وَاجْمَعْ عَلَى هَذَا أَسْعَدَهُ اللَّهُ بِالْمَوَاقِفِ الْمُسْتَفِيزَةِ وَالْإِيمَانِ
الْلازِمَةِ الْمُغْلَظَةِ هُوَ وَاتَّبَاعُهُ أَجْمَاعًا شَرْعِيًّا ، وَحَتَمُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ حَتْمًا
مَقْضِيًّا وَاعْتَقَدُوهُ اعْتِقَادًا أَبَدِيًّا ، وَعَرَّضُوا عَلَى التَّزَامِ بِمَشْهَدِ عَقْدِهِ الْمُبَارَكِ
أَفْرَادًا وَازْوَاجًا ، وَوَحْدَانًا وَأَفْوَاجًا ، وَأَشْهَدُوا عَلَى الْوَفَاءِ بِهِ بِأَيْمَانِهِم
الصَّادِقَةِ الْبُرُورِ ، وَمَوَاقِفِهِمُ الْمُتَلَجَّةَ لِلصَّدُورِ ، قَائِلِينَ بِاللَّهِ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا
هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ الْعَلِيمُ بِالْخَفِيَّاتِ ، وَالْخَبِيرُ بِالْآجَالِ الْوَقِيَّاتِ ، وَبِجَمِيعِ
الرُّسُلِ الْكَرَامِ وَالْأَنْبِيَاءِ ، وَمَلَائِكَةِ الرَّحْمَنِ فِي الْأَرْضِ وَالسَّمَاءِ ، وَعَلَى

انهم إن حادوا عن هذا السبيل ، وانقادوا لدعاء داعي التغيير والتبديل ، أو انحرفوا عن هذا المنهاج وسنته ، فهم بُرَاءة من حول الله وقوته ، ومن دينه وعصمته ، ومستوجبين لعذابه وغضبه وسخطه ونقمته ، وبعده من رحمته ، ومن شفاعته نبيه الكريم يوم القيامة لأمته ، وانهم خالِعُونَ لربقة الإسلام ، وخارجون عن سنة الرسول عليه السلام ، أعلنوا بهذا إعلاناً تعضده النجوى ، وأدّوه بشروطه الجارية على مذاهب الفتوى ، وأحكامه اللازمة لكلمة التقوى ، استرضاءً لله وللخلافة النبوية ، والامامة العلوية ، ورياضةً للنفوس على بيعتها المباركة الميمونة النقية ، واستيفاءً لشروطها واقسامها الواجبة والمستحبة والمندوبة ، مستسلمين الى الله بالقلوب الخاشعة ، ومتضرعين الى بابه الكريم بالأدعية النافعة ، في ان يُعرفهم خيرَ هذا العقد الكريم ، والعهد الصميم بدماً وختاماً ، وان يمنحهم بركته التي تصحبهم حالاً ودواماً ، لا ربَّ غيره ولا خير إلا خيره .

اشهد على نفسه بما فيه وعلى رعيته الرئيس ابو العلاء ادريس اسعده الله واكرمه وبتاريخ المحرم الحرام من عام تسعين وتسعمائة من الهجرة النبوية .

كتاب المنصور الذهبي الى الشيخين البذر القرافي والزين البكري
في إعلامها ببعض الفتوح وتشوقه للاندلس

من عبد ربه المجاهد في سبيله احمد المنصور بالله أمير المؤمنين الحسيني

الى الفاضل الذي اعتجرَ بالتقوى وهو زَيْنُ العابدين ، وتحلَّى بحلى المعارف الربانية وتلك حلى العارفين ، والسالك الذي برَّز في الطريقة ، وسلك على المجاز الواضح الى الحقيقة ، فقاتَ شأوَ السابقين ، والعارف الذي تجرد عن رُعونَةِ الاهواء النفسانية فكان سلوكه على التجريد الى حضرة الواصلين الشيخ العالم الحجة الوافي ، السيد بدر الدين القرافي ، والشيخ العارف الواصل ، السريّ الكامل ، سُلالة العلماء ، سِبْط الفضلاء ، ابي عبد الله زين العابدين ابن الشيخ السامي المقام ، قُطب المشايخ الاعلام ، فخر علماء الإسلام ، الشهير البركة في الانام ، ابي عبد الله محمد بن ابي الحسن الصديقي ، ابقا كما الله واروا حكما تتعطر بِرِياحين الأنس ، في حضرة القدس وتشمُ النفحاتِ الهابّة من رياض المشاهدة الى مدارج الأنس ومعارِج النَّفس ، وسلام عليكما ورحمة الله تعالى وبركاته :

وبعد حمد الله مُفيض أنوار عناية احمد على صاحبه الصديق ، مُظهِر كنوز المعارف الربانية جيلاً بعد جيل من بيت عتيق ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الذي اختار لمرافقته صاحبه في الغار والعريش والطريق والرضا عن آله ائمة الخلق ، وسيوف الحق ، واصحابه الذين فاضت انوار هدايتهم على الغرب والشرق ، وببركتهم انتسق لنا الفتح انتساق الاسلاك ، وبفضلهم يعلو سعدنا على الكفر علو القطب على دائرة الافلاك - فكتبنا هذا اليكم من حضرتنا السعيدة مراکش حاطها الله وُصْنَعُ الله لها مُفْعَمُ السَّجَال ، وَاِيسَعُ الْمَجَال ، وعزمتُها الماضية تبعثُ ،

الى العِدَى رُسُلَ الْاَوْجَالِ . والايام بعز صوئلتها ، ويُمن دولتها ،
بهذه المغارب بِاسْمَةِ الثَّغُورِ ، مُوْذِنَةٌ بِاتِّصَالِ أَمْرِهَا الْعَزِيزِ بِحَوْلِ اللَّهِ إِلَى
أَنْ تُطَوَّى مُلَامَةٌ الدَّهْورِ .

هذا وانه اتصل بعلي مقامنا كتابكما الذي صدحتُ على افنان
البلاغة سواجعه ، وعذبتُ في موارد المحبة الصديقية مناهله ومشارعه
ولطفتُ في كل معنى من المعاني افاينته وَمَنَازِرِهِ ، وتألفتُ على الاجادة في
كل مقصد من المقاصد مواصلة العذبة وَمَقَاطِعِهِ ، واينعت بازهار العناية
الربانية اباطحه الفصحُ وأجارُعه ، ومعه المنظومات التي سحتُ بالحكم ديمها ،
ورسا في البلاغة ، قَدُمُهَا ، وربا في مَنِيَتِ المَواهب الربانية يراعها الفصح
وقلمها ، وحلَّ من نفوسنا موقعها العجيب محلا مِن دُونِهِ الثريا في مطالعها
والبدر ليلةَ تملأه اعجاباَ بها وتنوياً بُهْدِيهَا ، وابتهاجا بالخوارق التي اطلق
الله على لسان مُبْدِيهَا ، والى هذا فليحط علمكما بان مقامنا تَنَفَّقَ فِيهِ عَلَى
الدوام ان شاء الله نفائسُ بضائعكم ، وتنمو فيه مع الايام سَعُودُ مطالعكم ،
وتسمو فيه على كل مقام مقاماتكم ، وتستوضح فيه على المحبة الصميمة
أماراتكم الواضحة وعلاماتكم ، فعلى هذا تنعقدُ منكم الخناصر ، وتشتدُّ
الأواخي والأواصر ، بعز الله ومنه .

ثم بما نستطرد لكم ذكره على جهة البُشرى ، واهداء المسرة الكبرى
إعلامكم أن عدو الدين طاغية قَشَتَالَةَ الذي هو اليوم العدو الكبير للإسلام

وعُميدُ مِلَلِ التثليث وعبدَة الاصنام لما أُنس من تلقاء جانبنا نارَ العزم
تلتهب منا التهابا ، وبجرَ الاحتفال تضطرب امواجه الزاخرة بكل عدد
وعُدّة اضطرابا ، وهممنا قد همت بتجديد الاسطول ، والاستكثار من
المراكب المتكفلة للجهاد ان شاء الله بقضاء كل دين ممطول ، وعَلِم ان
الحديث اليه يُساق ، والى ارضه بالخسف والتدمير يحول الله يهفُو كل لواء
خفاق رام خذله الله مكافأتنا على ذلك ، بما أُمِل أن يفتّ به في عضدنا الأقوى
وعزمننا الذي بعناية الله يزدادُ ويقوى فرمى بمخدول من ابناؤنا اخينا عبد
الله كان رُبِّيَ لديه ، وطوّحت به الطوائح منذ ثمانية عشر عاما ، إليه ،
الى مَلِيلِيَةِ احدى الثغور المصاّبة لغرب ممالكنا الشريفة التي هي الى كفالة
ولدنا وولي عهدنا ، كافل الأمة من بعدنا ، الامير الاجل الأرضى ، صارم
العزم المنتضى ، وحسام الدين الأمضى ، ابي عبد الله محمد الشيخ المأمون
بالله وصل الله لراياته التأيّد والظهور ، والعزّ الذي يستخدم الايام والدهور ،
فالتفّ عليه من اغترّ بأباطيله الواهية البناء ، من اوباش العامة والقوغاء ،
ومن قضي له من اجناد تلك الناحية بالشقاء جموع تُكاثِر الرّمْل ،
وتفوّت الحصار والنمل ، لاح بها للشقي خلبُ بارق اكذبته أمنيته اذ
صدقته مَنِيَّتُهُ ، فصمّم نحوه ولدنا اعزه الله بجنود الله التي اليه ، وبعباكر
تلك الممالك التي القينا زمامَ تدبيرها بين يديه فما راع الشقيّ الا انقضاؤه
عليه من الجوا انقضاؤا الأجدل ، وتصميمه اليه بعزائم تدك الطود
وتفلق الصخر والجندل فاستولى عليه بحمد الله للحين ، وعلى جنوده
الاشقياء في يومٍ اغرّ محجّل وساعة انزل الله فيها على الخوارج المارقين ،

العذابَ المعجَّل ، فاستأصلتهم الشُّفار ، وحصدت هشيْمهم المصَوِّحَ أَسِنَّةُ النار ، وقُبِضَ على الشقي في يوم كان شِفاءً للصدور ، ومنزهاً لحملة السيوف وربَّات الخدور ، واحرزَ الله تعالى فخر هذا الفتح العظيم ، والمنَّ الجسمي ، لوَلدنا اعزه الله عز وجل في خاصَّة اجناده ، ونهض وحده باعبائه ونحن على سرير ملكنا وادُّعُون مطمئنون ، واجنادنا في اوطارنا لأهون ومفتَّثون ، فلم يَحْتَجْ الى إنجاده ، من قَبَلنا ولا امداده ، والعاقبةُ للمتقين ، والحمد لله حمدَ الشاكرين .

وعرَّفناكم لتأخذوا بحظكم من السرور بهذه البُشرى التي سرَّت الاسلام وساءتْ بحمد الله عبْدَةُ الاوثان والاصنام ، وتعلَّمُوا مع ذلك ما عليه الاحوال اليومَ بحول الله لدينا من خفق راياتِ العزم ، وشخذ آراءِ الحزم ، وإعمال عواملِ الجُزم ، الى مُجَازاةِ عدو الدين ان شاء الله على فعلته التي عادت عليه أسفاً ولهما ، واعادة ما كان اسلف من ذلك إن شاء الله بالملكِمال الاوفى ، وقدمنا اليكم التعريف لتمدونا إن شاء الله بأدعيتكم الصالحة في اوقات الاجابة ، وتحريصوا على التماسها هنالك وبالحرمين الشريفين من كل ذي خضوع وانابة ، أن يؤيدنا الله على عدو الدين بفضلِه ، ويُنجِزَ لنا وعدَه الصادق في اظهار دين الحق على الدين كله ، ويسهلَ علينا بفضلِه ومعونته اسبابَ فتح الاندلس ، وتجديد رُسوم الدين بها واحياءَ أطلاله الدُّرُس ، حتى ينطلقَ لسانُ الدين في ارضها بكلمة الله التي طالما سكَّت عنها نِداؤه وبُخْرُس ، وشَرِيقِ بِرِيقِه

فغُصَّ وخُنَسَ ، فبيده الحولُ والقوة ، وعنايته العناية المَرْجُوَّة .

ثم نُوصِيكم بِحُسْنِ الوَقُوفِ مع اصحابنا فيما يُشْتَرى من الكتب العلمية برسم خزانتنا الكريمة الامامية العلية ، ثم الاتحاد بديوان الشيخ والدكم التماساً للجميل بركاته ، وتمسكاً بما سَبَق من الاجازة العامة في سائر منظوماته وموضوعاته ومروياته ، وهذا موجِبُه اليكم ، والسلامُ الأتم مُعَادَ عليكم وحة الله وبركاته .

توقيعه على كتاب جُوذُر

لما انتصر جُوذُر مولى المنصور الذهبي على اسحاق سُكَيْة صاحب السودان فرَّ هذا أمامه واعتصم ببلده كأغوف حاصره جُوذُر فطلب الصلح على خراج عظيم يؤديه للمنصور كلَّ سنة فكتب جُوذُر بذلك للمنصور يستأمره فيه فغضب المنصور ووقع على كتاب جُوذُر « أُتْمَدُونِي بِمَالٍ فَمَا آتَانِي اللَّهُ خَيْرٌ مَّا آتَاكُمْ ، الآية . » ثم أرسل القائد محمودا باشا وعزل به جُوذُرًا وكان الفتح على يده .

كتابُ السلطان مولاي الحسن العلوي

الى قضاة مراکش من انشاء الكاتب ادريس بن محمد العَمْرَوِي

وبعد فقد بلغنا من أخبار مُتَعَاَصِدَةٍ ، وطُرق عن التحمل مُتَبَاعِدَةٍ ،

أَنْ خُطَّةَ الْقَضَاءِ وَالْإِفْتَاءِ صَارَتْ مَلْعَبَةً وَمَتَجَرَا ، لَا يَعْرِفُ أَصْحَابُهَا فِيهَا سَامَةً وَلَا ضَجَرًا ، وَأَنْ الرُّشَا فِيهَا تُقْبَضُ سِرًّا وَعِلَانِيَةً ، وَالْأَحْكَامُ تَصْدُرُ بِنِيَّةٍ وَبِلَا نِيَّةٍ ، قَدْ عُدِلَ فِيهَا عَنْ مَنَاجِ الْعَدْلِ ، مِنْ غَيْرِ اكْتِرَافٍ بِتَأْنِيْبٍ وَلَا عَذْلٍ ، وَالْحَقُوقُ نَزَلَتْ بِمَعْرِضِ الضِّيَاعِ ، وَالْمُرَاتِبُ الْمَعْظَمَةُ بِهَذِهِ الْبِقَاعِ ، صَارَتْ كَسْرَابٍ بِقَاعٍ ، وَأَنْ بَعْضُ الْقَضَاةِ حَمَلَهُ مَا حَمَلَهُ ، إِلَى التَّطَاوُلِ لِلدَّعَاوِي الْبَعِيدَةِ مِنْهُ وَاسْتِجْلَابِ الْقَضَايَا الْمَصْرُوفَةِ عَنْهُ ، وَتَوَجُّحِهِ أَعْوَانَهُ لِللَّاتِيَانِ بِالْخِصْمَاءِ مِنَ الْبِلَادِ الَّتِي قُضَاتُهَا لَهُمُ الْإِسْتِقْلَالُ ، وَلَمْ يَصْدَهُ عَنِ التَّرَامِي لِذَلِكَ مَا لَا يَسْتَقِلُّ بِهِ مِنَ الْأَثْقَالِ ، مَعَ الْعِلْمِ بِأَنْ مِنْ صُرِفَتْ عَنْهُ قَضِيَّةٌ ، فَقَدْ صُرِفَتْ عَنْهُ بَلِيَّةٌ ، لَوْ لَمْ يَكُنِ الْغَرَضُ الدُّنْيَوِيُّ الَّذِي أَغْرَاهُ ، وَالشَّرُّ الَّذِي اسْتَحُوذَ عَلَيْهِ وَأَغْوَاهُ ، حَتَّى ظَهَرَتْ عَلَى الْقَضَاةِ أَمَارَاتُ الْغِنَى وَالرَّفَاهِيَةِ ، وَدَهْتَهُمْ مِنَ الْمِيلِ لِلزَّخَارِفِ كُلِّ دَاهِيَةٍ ، وَتَبَخَّرُوا فِي الْحُلَلِ وَالتَّيَّارِقِ ، وَذَهَلُوا عَنِ الْأَثَرِ الْمَأْثُورِ « مَنْ وَلِيَ الْقَضَاءَ وَلَمْ يَفْتَقِرْ فَهُوَ سَارِقٌ » كَمَا بَلَّغْنَا أَنْ طَائِفَةً مِنَ الْعُدُولِ أَذِنَ لَهُمْ فِي الشَّهَادَةِ افْتِيَانًا مِنْ غَيْرِ اعْتِبَارٍ لِلشُّرُوطِ الَّتِي شَرَطْنَاهَا ، وَلَا وَقُوفٍ مَعَ الْحُدُودِ الَّتِي يَبْنَاهَا وَحَدَدْنَاهَا ، وَاتَّخِذَ مِنْهُمْ وَمِنَ الْأَعْوَانِ وَالْوَكَلَاءِ أَشْرَاكَ لِلطَّمَعِ ، وَجُسُورَ بَنَاهَا التَّهْوُرَ وَالْهَلْعَ ، يُمِرُّ عَلَيْهَا مَا يُلَمَزُ بِأَجْرَةِ الْخِطَابِ وَحَقِّ الْعِلْمِ ، وَتُعَدُّ لِلْإِسْتِثْنَاءِ بِهَا حَالَتِي الْحَرْبِ وَالسَّلَامِ ، هَذَا مَعَ أَنَا بِالْغِنَا

في اختياركم لتطهير الصحيفة ، وابعاد ساحة الشريعة عن الأمور الشنيعة المخيفة ، واختبرنا وخبرنا وانتقينا وأبقينا ، ولكن صدق الصادق المصدوق صلى الله عليه وسلم « الناس كإبل مائة لا تكاد تجد فيها راحلة » .

أني لأفتح عيني حين أفتحها على كثير ولكن لا أرى أحدا

فاذا كان أهل العلم تصدر منهم هذه الأفعال ، فأى شيء تركوه للجهال ، واذا كان منصب الشريعة تحاز به البراطيل وتبدو من جانبه الرفيع هذه الأباطيل ، فأى ملام يتوجه على عامة الناس ، على اختلاف الأنواع والأجناس .

من غصّ داوى بشرب الماء غصته فكيف يصنع من قد غصّ بالماء

كيف ولم تزل تُتلى عليكم آيات كتاب الله ، وأحاديث رسول الله ، أنتم عنها ساهون أم أنتم عن التذكرة لاهون ، أفلا تتدبرون قول الله : « ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل وتُدّوا بها إلى الحكماء لتأكلوا فريقا من أموال الناس بالإثم وأنتم تعلمون » وقوله ﷺ لعن الله الراشي والمرشي والرائش أي الذي يمشي بينهم ... هذا واسألوا عن سيرة من تقدم من قضاة هذه الحضرة المراكشية كالفقيه السيد محمد عاشور ، والفقيه السيد الطالب بن حمدون ، فقد كانوا من الدين والخير بمكانة ،

وَأَعْطَوْا الْخُطَّةَ حَظَّهَا مِنَ الْعَفَافِ وَالصِّيَانَةِ ، وَخَرَجُوا مِنْهَا بِيضَ الصَّحَافِ
 حُمْرَ الْوُجُوهِ ، فَأَعْرِفُوا فَضْلَهُمْ ، وَاقْتَفُوا سَبِيلَهُمْ ، وَتَشَبَّهُوا بِأَنْ لَمْ تَكُونُوا
 مِثْلَهُمْ ، وَاعْلَمُوا أَنَّنا بِحَوْلِ اللَّهِ لَا نَزَالُ نَبْحَثُ عَنْ أَحْوَالِكُمْ بِالتَّنْقِيبِ
 وَالتَّنْقِيرِ ، وَنَعَامِلِكُمْ بِالْتَّحْذِيرِ قَبْلَ التَّعْزِيرِ ، وَبِاللَّيْنِ ثُمَّ الْجِدِّ ، وَبِالصَّفْحِ ثُمَّ
 الْحَدِّ ، لِأَنَّ اللَّهَ كَلَّفَنَا بِكُمْ ، وَسَائِلُنَا عَنْكُمْ وَأُمُورَ الشَّرِيعَةِ عِنْدَنَا أَهْمٌ
 مِنْ كُلِّ مَهْمٍ وَآكِدٌ مِنْ كُلِّ أَكِيدٍ ، وَمَا عَلَي هَذَا مِنْ مَزِيدٍ ، إِنْ أُرِيدَ إِلَّا
 الْإِصْلَاحُ مَا اسْتَطَعْتَ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ .

توقيعات له

كَانَ رَحِمَهُ اللَّهُ كَمَا يُحْكِي عَنْ الْمَنْصُورِ الْمُوَحَّدِيِّ حَسَنَ التَّوْقِيعِ . فِيمَا
 وَقَعَ بِهِ عَلَى كِتَابِ قَوْمٍ بِالْعَوَا فِي الشُّكُوفِ إِلَيْهِ بِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ مُوسَى وَهُوَ
 يَمُنُّ أَحْسَنَ إِلَيْهِ أَيَّامَ كَوْنِهِ بِسُوسٍ قَبْلَ وَلايَتِهِ « لَا يَسْتَوِي مَنْ انْفَقَ
 مِنْكُمْ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتِلْ »

وَكُتِبَ إِلَيْهِ الطَّلَبَةُ يَسْتَأْذِنُونَهُ فِي إِقَامَةِ نُزْهَتِهِمْ قَبْلَ الْإِبَّانِ وَهُوَ بِفَاسٍ
 عَسَى أَنْ يَخْضُرَهَا فَوْقَ لَهَا « حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ
 وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا ،

وَرَفَعَ إِلَيْهِ أَهْلُ فَاسٍ اعْتِذَارَهُمْ عَمَّا كَانَ بِهَا مِنَ الْفِتْنَةِ قَائِلِينَ إِنَّ
 ذَلِكَ مِنْ فِعْلِ السُّفَهَاءِ ، فَوْقَ « السَّفِيهِ إِذَا لَمْ يُنْهَ فَهُوَ مَأْمُورٌ »

وَكَتَبَ إِلَيْهِ بَعْضُ مَشَائِخِ الْقَبَائِلِ وَقَدْ أَوْقَعَ بِهِمْ « أَتَهْلِكُنَا بِمَا
فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا » فَوَقَّعَ لَهُ « وَسَكَنْتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِي ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ »

(ب) الاخوانيات

رسالة للقاضي عياض الى الفتح ابن خاقان
حمله فيها تحيةً للرئيس ابي عبد الرحمان بن طاهر

عِمَادِي أَبَا نَصْرٍ ، مُنْتَنَى الْوِزَارَةِ وَوَحِيدَ الْعَصْرِ ، هَلْ لَكَ فِي مَنَةِ تَقْوَتِ
الْحَضَرِ ، تَخَفٌ حَمَلًا وَتُبْلُغٌ أَمَلًا ، وَتُشْكِرُ قَوْلًا وَعَمَلًا ، شُكْرًا تَتَرَنَّمُ
بِهِ الْحِدَاةَ ثَقِيلًا وَرَمَلًا ، إِذَا بَلَغْتَ الْحَضْرَةَ الْعَلِيَّةَ مُسْتَمَامًا ، وَلَقِيتَ
الطَّاهِرَ ابْنَ طَاهِرٍ فَخَرِ الْوِزَارَةَ مُسَلِّمًا ، وَحَلَلْتَ مِنْ فَنَائِهِ الْأَرْحَبَ حَرَمًا ،
وَلَمَسْتَ بِمُصَافَحَتِهِ رُكْنَ الْمَجْدِ يَنْدَى كَرَمًا فَقِفْ شَوْقِي بِعَرَفَاتِ تِلْكَ
الْمَعَارِفِ ، وَانْسِكْ شُكْرِي بِمِشَاعِرِ تِلْكَ الْعَوَارِفِ ، وَأُظْفِ إِكْبَارِي
بِكَعْبَةِ ذَاكَ الْجَلَالِ سَبْعًا ، وَبَوِّءُ لَوُدِّي فِي مَقَرِّ ذَلِكَ الْكِمَالِ رَبْعًا ،
وَأُبْلِغُ عَنِي تِلْكَ الْفَضَائِلَ سَلَامًا ، يَلْتَمِمْ بِصَرِيحِ الْحُبِّ التِّثَامَا ، وَيُحَسِّنُ عَنِي
بِظَهْرِ الْغَيْبِ مَقَامًا ، وَيَسِيرُ بِأَرْجِ الْحَمْدِ إِنْجَادًا وَإِتِهَامًا .

رسالة لابي الحسن بن مروان الرباطي الكاتب
الى ابن الرئيب المؤرخ وقد استعار منه نسخة من تاريخ غريب

يَا أَخِي سَدَّدَ اللَّهُ آرَاءَكَ ، وَجَعَلَ عَقْلَكَ أَمَامَكَ لَا وَرَاءَكَ ، مَا يَلْزُمُنِي

من كونك مُضَيَّعاً ان اكون كذلك ، والنسخة التي رُفِّمَتْ اعارتها هي
 مؤنسي إذا أوحشني الناس ، وكأتم سرّي إذا خانوني فما أعيرها إلا
 بشيء أعلم انك تتأذّي بفقده اذا فُقد جزء من النسخة وانا الذي أقول :

أنسُ أخي الفضل كتاب انيق أو صاحبٌ يُعَنَى بُود وثيق
 فان تُعِيرَهُ دُونَ رَهْن به تخسره أو تخسر وداد الصديق
 وربما تخسر هذا وذا فاستمع رعاك الله نصح الشفيق

رسالة لابن هانيء السبتي اجاب بها ابا القاسم الشريف
 وكان بعث له بقصيدة تمثيلية فردّ عليه بقصيدة مثلها وهذا النثر

هذا بُنَيّ ، وَصَل الله سبحانه لي ولك علوّ المقدار ، وأجرى وَفَق
 أو فَوْق ارادتك وارادتي لك جارياتِ الاقدار ، مَا سَنَحَ به الذهن
 الكلّيل واللسان القليل ، في مراجعة قصيدتك الغراء ، الجالية السراء
 الآخذة بمجامع القلوب ، المُوفّية بجوامع المطلوب ، الحسنة المهيّعة والاسلوب ،
 المتحلّية بِالْحُلَى السَّنية ، العريقة المنتسب في العُلَى الحسنية ، الجالية لصدأ
 القلوب رَانَ عليها الكسل ، وخَانَهَا المُسْعِدَانِ السُّؤل والأمل ، فمتى
 حامت المعاني حَوْلَهَا ، ولو اقامت حَوْلَهَا ، شكت وَيْلَهَا وعولَهَا ،

وَحَرِمَتْ من فريضة الفَضيلة عَوْنَهَا ، وعَهْدِي بِهَا والزمانُ زمانٌ ،
وأحكامها الماضية اِمَانِيٌّ مقضية وأمانٌ ، تتوارد آلاُفها ، ويجمع اِجماَعُها
وِخلافها ، ويُساعدها من الألفاظ كلُّ سهل مُمتنع ، مفترق مجتمع ،
مستأنس غريب ، بعيد الغور قريب ، فاضح الخلق ، واضح الغلا ، وضّاح
الغرّة والجبين ، رافع عمود الصبح المبين ، أيد من الفصاحة بأياد ، فلم
يخفيل بصاحبي طيئير وإياد ، وكُسي نصاعة البلاغة ، فلم يعباَ بهماَ وابن
المرآة ، شفاء المحزون ، وعلم السر المحزون ، ما بين منشوره والموزون .

والآن لا مُلهج ولا مُبهج ، ولا مُرشد ولا مُنهج ، عكست
القضايا فلم تُنتج ، فتبدّل القلب الذكي ، ولم يرشح القلم الزكي وعمّ
الإفحام ، وغمّ الاحجام ، وتمكّن الإكداء والإجبال ، وكوّرت
الشمس وسيرت الجبال ، وعلت سامة ، وغلبت ندامة ، وارتفعت
ملامة ، وقامت لنوعى الأدب قيامة ، حتّى اذا ورد ذلك المهرق ،
وفرع غصنه المورق ، تعنى به الحمام الأووق ، واحاط بعِداده عُداته
الغصص والشرق ، وأمن من الغضب والسرّق ، وأقبل الأمن وذهب
لاقباله الفرق ، تُفخّ في صور أهل المنظوم والمنثور ، بُعثَ ما في القبور ،
وحُصل ما في الصدور ، وتراعت للأدب صور ، وعمّرت للبلاغة

كُورَ ، وَهَمَّتْ لِلتَّرَاعَةِ دِرَرَ ، وَنُظِمَتْ لِلتَّرَاعَةِ دُرَرٌ ، وَعِنْدَهَا تَبَيَّنَ أَنَّكَ
وَاحِدٌ حَلْبَةُ الْبَيَانِ ، وَالسَّابِقُ فِي ذَلِكَ الْمِيدَانِ يَوْمَ الرَّهَانِ ، فَكَانَ لَكَ
الْقِدَمُ ، وَأَقَرَّ لَكَ مَعَ التَّأَخُّرِ السَّابِقُ الْأَقْدَمُ ، فَوَحَقَّ فَصَاحَةُ الْفَاطِظِ
أَجَدَتْهَا حِينَ أَوْرَدَتْهَا وَأَسْلَتْهَا حِينَ أُرْسَلَتْهَا ، وَأَزَنْتَهَا حِينَ وَزَنْتَهَا ،
وَبَرَاعَةٍ مَعَانٍ سَلَكَتْهَا حِينَ مَلَكَتَهَا ، وَأَرَوَيْتَهَا حِينَ رَوَيْتَهَا ، وَأَوْرَيْتَهَا
وَأَصْلَتْهَا حِينَ فَصَّلَتْهَا ، وَوَصَّلَتْهَا وَنَظَّامَ جَعَلَتْهُ بِجَسَدِ الْبَيَانِ قَلْبًا ، وَلِغَضَمِهِ
قَلْبًا ، وَهَضَرَتْ حَدَائِقَهُ غَلْبًا وَارْتَكَبَتْ رَوِيَّهَ صَعْبًا ، وَنَثَارَ اتَّبِعَتْهُ لَهُ
خَدِيمًا ، وَصَيَّرَتْهُ لِمَدِيرِ كَأْسِهِ نَدِيمًا ، وَلِحِفْظِ ذِمَامِهِ الْمُدَامِي أَوْ مُدَامِهِ
الذَّمَامِي مُدِيمًا ، لَقَدْ فَتَنْتَنِي حِينَ أَتَيْتَنِي ، وَسَبْتَنِي حِينَ صَبْتَنِي ، فَذَهَبَتْ
خِفَّتُهَا بَوَقَارِي ، وَلَمْ يَرُغْهَا بَعْدُ شَيْبُ عِذَارِي ، بَلْ دَعَتْ لِلتَّصَابِي فَقُلْتُ
مَرْحَبًا وَحَلَلْتُ لِفَتْنَتِهَا الْحَبَا ، وَلَمْ أَحْفِلْ بِشَيْبٍ ، وَأَلْفَيْتُ مَا رَدَّ نَصَابِي
نُصَيْبٌ ، وَإِنْ كُنَّا فَرَسِي رِهَانًا ، وَسَابِقِي حَلْبَةُ مِيدَانٍ ، غَيْرَ أَنَّ الْجِلْدَةَ
يَنْضَاءُ ، وَالْمَرْجُو الْأَغْضَاءُ بِلِ الْإِرْضَاءِ .

بُنَيَّ ، كَيْفَ رَأَيْتَ لِلْبَيَانِ هَذَا الطَّوْعَ ، وَالْخُرُوجَ فِيهِ مِنْ نَوْعٍ إِلَى
نَوْعٍ ، أَيْنَ صَفْوَانُ بْنُ أَدْرِيسَ ، وَمَحَلُّ دَعْوَاهُ بَيْنَ رَحْلَةٍ وَتَغْرِيسٍ ، كَمْ بَيْنَ
تُغَاءٍ بِقَرِّ الْفَلَاةِ وَزَيْرِ لَيْثِ الْفَرِّيسِ ، كَمَا أَنِّي أَعْلَمُ قَطْعًا وَأَقْطَعُ عِلْمًا ،
وَأَحْكَمُ قَضَاءً وَأَمْضِي حُكْمًا ، أَنَّهُ لَوْ نَظَرَ إِلَى قَصِيدَتِكَ الرَّائِقَةِ ، وَفَرِيدَتِكَ

الحَالِيَةِ ١ الفَائِيقَةِ ، المَعَارِضَةِ بِهَا قَصِيدَتُهُ ، الْمُنْتَسَخَةِ بِهَا فَرِيدَتُهُ ، لَذَهَبَ عَرْضاً وَطَوَلاً ، ثُمَّ اعْتَقَدَ لَكَ الْيَدَ الطُّوْلَى ، وَاقْرَأَ فَارْتَفَعَ الزَّاعَ ، وَذَهَبَتْ لَهُ تِلْكَ الْعَلَامَاتُ وَالْأَطْمَاعُ ، وَنَسِيَ كَلِمَتَهُ اللُّؤْلُؤِيَّةَ ، وَرَجَّعَ عَنْ دَعْوَاهِ الْأَدْبِيَّةَ ، وَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ مِنَ الْأُلْهِيَّةِ .

بُنِيَ ، وَهَذَا مِنْ ذَلِكَ ، وَمِنْ الْجَرِيِّ فِي تِلْكَ الْمَسَالِكِ ، وَالتَّبَسُّطِ فِي تِلْكَ الْمَأْخِذِ وَالْمَتَارِكِ ، أَيْزَعُ غَيْرِي هَذَا الْمَنْزِعُ أَمْ الْمَرْءُ بِنَفْسِهِ وَابْنِهِ مُوَلِّعٌ ، حَيَا اللَّهَ الْأَدَبُ وَبَنِيهِ وَأَعَادَ عَلَيْنَا مِنْ أَيَّامِهِ وَسِنِيهِ ، مَا أَعْلَى مَنَازِعِهِ ، وَأَكْبَرَ مُنَازِعِهِ ، وَاجِلٌ مَا آخِذُهُ ، وَاجْهَلُ تَارِكُهُ وَاعْلَمَ آخِذَهُ ، وَارِقٌ طِبَاعُهُ ، وَاحِقٌ أَشْيَاعُهُ وَأَتْبَاعُهُ ، وَأَبْعَدُ طَرِيقَهُ ، وَأَسْعَدُ فَرِيقَهُ ، وَأَقْوَمَ نَهْجَهُ ، وَאוْتَقَ نَسْجَهُ ، وَأَفْصَحَ عُكَاظَهُ ، وَأَصْدَقَ مَعَانِيَهُ وَالْفَاظَهُ ، وَأَحْمَدَ نِظَامَهُ وَنِثَارَهُ ، وَأَغْنَى شِعَارَهُ وَدِثَارَهُ ، فَعَانِبُهُ مَطْرُودٌ ، وَعَانِبُهُ مُصْفُودٌ ، وَجَاهِلُهُ مُحْصُودٌ ، وَعَالِمُهُ مُحْشُودٌ ، غَيْرَ أَنَّ الْإِحْسَانَ فِيهِ قَلِيلٌ ، وَلَطَرِيقُ الْإِصَابَةِ فِيهِ عِلْمٌ وَدَلِيلٌ ، مَنْ ظَفِرَ بِهَا وَصَلَ ، وَعَلَى الْغَايَةِ الْقُصُوى مِنْهُ حَصَلَ ، وَمَنْ نَكَبَ عَنِ الطَّرِيقِ ، لَمْ يُعَدَّ مِنْ ذَلِكَ الْفَرِيقِ ، فَلْيَهِنْكَ أَيُّهَا الْابْنُ الذَّكِيُّ ، الْبَرُّ الزَّكِيُّ ، الْحَبِيبُ الْحَفِيٌّ ، الصَّفِيُّ الْوَفِيُّ ، أَنْتَ حَامِلُ رَايَتِهِ ، وَوَاِصِلْ غَايَتَهُ ، لَيْسَ أَوَّلُوهُ وَآخِرُوهُ لَكَ بِمَنْكِرِينَ ، وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ، وَلَوْ لَا أَنْ يَطُولَ الْكِتَابُ ،

وينحرف الشعراء والكتاب ، لفأصت ينابيع هذا الفصل فيضاً ،
 وخرجت الى نوع آخر من البلاغة أيضاً ، قرئت عيون أودائك ،
 ومُلئت غيظاً صدور أعدائك ، ورقيت درج الآمال ، ووقيت عين
 الكمال ، وحفظ منصبك العالي بفضل ربك الكبير المتعالي ، والسلام
 الاتم الانتم ، الأكل الاعم ، يخصك به من طال في مدحه إرقالك
 واغذاذك ، وراض روض حمده وابلك وطللك ورذاذك ، وغدت
 مصالح سعيه في سعي مصالحك وسينفعك بحول الله وقوته وفضله ومنته
 معاذك ، ووسمت نفسك بتلميذه فسمت نفسه بانه استاذك ، ابن هانيء
 ورحمة الله تعالى وبركاته .

رسالة لابي جعفر الجنان المكناسي بعث بها لابن الخطيب
 وقد فاتحه بنظيرتها محرراً كقريحته

يا خاطب الآداب مهلاً فقد ردك عن خطبتها ابن الخطيب
 هل غيره في الأرض كفها وشرطها الكفاة قول مصيب
 أصبح للشرط بها مغرساً فاستفت في الفسخ فهل من مجيب

أيها السيد الذي يتنافس في لقائه ويتغالي ، ويصادم بولائه صرف
 الزمان ويعالي ، وتستنتج نتائج الشرف بمقدّمات عرفانه ، وتقتنص
 شوارذ العلوم برواية كلامه فكيف بمدانة عيانه ، جلوت علي من

بنات فكرك عقائل نواهد ، واقت بها على معارفك الجمّة دلائل
وشواهد ، واقتنصت بشوارد بديتهك من المعالي أوابد شوارد ،
وفجّرت من بلاغتك وبراعتك حياضاً عذبة الموارد ، ثم كلّفتني من اجراء
ظالعي في ميدان ظليعيها ، مُقابلة الشمس النيرة بالسراج عند طلوعها ،
فأخلدت إخلاداً مهيبض الجناح وفرت فرار الأعزل عن شاكي السلاح ،
وعلمت أنني إن أخذت نفسي بالمقابلة ، وأدليت دلو قريحتي للمساجلة ،
كنت كمن كلّف الأيام رجوع أمسها ، أو طلب ممن علته السماء
مُحاولة لمسيها ، وإن رَضيت من القريحة بسجيّتها وأظهرت القدر الذي
كنت امتحت من ركيّتها ، أصبحت مسخرة للرائين والسامعين ، ونبت
عن اسمي دواوينهم كما تنبؤ عن الأشيب عيون العين ، ثم إن امرّك
ياسيدي ، لا يُحلّ وثيق مُبرمه ، ولا يحلّ نسخ مُحكمه ، فامتثلت
امتثال من لم يجد في نفسه حرجاً من قضائك ورجوت حسن تجاوزك
واغضائك ، ابقاك الله قطباً لفلّك المكارم والمآثر وفصلاً لخاتم المحامد
والمفاخر والسلام .



رسالة لقاضي ابي عبد الله الفشتالي الي ابن الخطيب

جواباً عن مخاطبة مدحٍ وثناءٍ بعث بها إليه

وافتُ بِجُرِّ الزَّهْوِ فَضْلَةً بُرِدَهَا حسناء قد أضحت نسيجةً وحدها
 لله أيُّ قَصِيْدَةٍ أَهْدَيْتَ لَوْ يُهْدَى المعارضُ نَحْوَ غَايَةِ قَصْدِهَا
 لابن الخطيب بها محاسنُ جمّة يلقى الخطيبُ فَهَاةً في عَدِّهَا
 سرّ البلاغةِ مِنْهُ أودِعَ حَافِظاً قد صَانَهُ حَتَّى فَشَا مِنْ عِنْدِهَا
 فِي غَيْرِ مَا عَقَدِ نَفْثَتْ بِسِحْرِهَا فَلِذَا أَتَى سُلْسُلًا مُنْظَمٌ عَقْدِهَا
 لم ادرِ مَا فِيهَا رَقْمَتَ مَعْنُوناً مِنْ طَرَسِهَا أَوْ مُعَلِّمًا مِنْ بُنْدِهَا
 حَتَّى دَفَعْتُ بِهَا لِأَبْعَدِ غَايَةٍ بَاعَا تَقَاصِرَ فِي الْبُلُوغِ لِحْدِهَا
 حُرَّانَ مِنْ نَظْمٍ وَنَثَرٍ إِنِّ مِنْ يَلْقَاهُمَا يَرْجِعُ بِذِلَّةٍ عَبْدِهَا
 أُولَى يَدَا بِيضَاءِ مُوَلِيَّهَا فَا لِي قُدْرَةٌ حَتَّى أَقُومَ بِحَمْدِهَا
 وَرَفَضْتُ تَكْذِيبَ الْمَنِيِّ مُتَشِيعَا لِعَلِّيْ مُرَاءَاهَا بِصَادِقِ وَعْدِهَا
 فَبَذَلْتُ شَعْرِي رَافِعَاً مِنْ قُدْرِهَا وَهَزَزْتُ عِطْفِي رَافِلَاً فِي بُرْدِهَا

خذها اعزّ الله جنابك ، واذال للانس على الوحشة اغترابك ،

كنغبة الطائر المتحفز ، ونهبة السائل المستوفز ، ومقّة اللحظ ، قليقة

اللفظ : قد جمعت من التزامها وانفتاحها بين بطء فتد ، وُصلود زُند ،
ونوَّعتُ فعلى إقدامها وإحجامها الى قاصرٍ ومُتعدِّ . وليتني إذ جادت
سحابة ذلك الخاطر الماطر الودق ، وانجاب العشا عن قريحة فكرتي
بتقاضي الجواب انجياب الطوق ، أيقنتُ اني قد سُدَّ عليَّ باب القول
وأرَّيج ، وقلت هذه السالبة الكلية ، لا تُنتج ، فنبذتُ طاعة الداعية
من تلكم الإمرّة ، ولم أفه إذا أعوزت الحلوة بالمرّة . لكنني قلتُ
ووجدُ المكثّر كجهد المقلّ ، والواجب يكفي الامتثال فيه بالأقلّ ،
فبعثتُ بها على علّاتها وابلغتها عذرها في أن كنتُ عن شوقها بلغاتها ،
وهي لا تعدّم من سيدي اغضاء كريم وإرضاء مُليم ، والله عز وجل
يصلُ بالتانيس الحبْل ، ويردُّ الألفة ويجمع الشمل والسلام الكريم يخصُّ
تلك السيادة ورحمة الله وبركاته .

رسالة لعبد العزيز الفشتالي بعث بها الى المقري

صاحب نفح الطيب جواباً عن كتاب كتبه له قبيل تشريقه

يا نَسْمَةً عطّست بها انفُ الصَّبَا فتضمّخت بغيرها قُتْنُ الرُّبَا
هَبِّي على ساحاتِ اَحمدِ واشرَحي شوقي الى لُقياءِ شرِّحِا مُطَنِّبَا
وِصفِي له بِالْمُنْحَنَى من اضلعي قَلْبَاً على جمر الغضا مُتَقَلِّبَا

بَانَ الْأَحِبَّةُ عَنْهُ ، حَيٌّ قَدْ تَوَيَّ مِنْهُمْ ، وَآخِرُ قَدْ نَأَى وَتَغَيَّبَا
فَعَسَاكَ تُسَعِّدُ يَا زَمَانُ بِقُرْبِهِمْ فَأَقُولُ أَهْلًا بِاللِّقَاءِ وَمَرْحَبًا

السيادة التي سَوَّاهَا اللَّهُ مِنْ طِينَةِ الشَّرَفِ وَالْحَسَبِ ، وَغَرَسَ دَوَّخَتَهَا
الطَّيْبَةَ بِمَعْدِنِ الْعِلْمِ الزَّاكِي الْمَحْتَدِّ وَالنَّسَبِ ، سِيَادَةِ الْعَالَمِ الَّذِي تَمْشِي تَحْتِ
عِلْمِ فَتْيَاهِ الْعُلَمَاءِ الْأَعْلَامِ ، وَتَخْضَعُ لِفَصَاحَتِهِ وَبِلَاغَتِهِ صَيَارِفَةُ النَّثْرِ
وَالنِّظَامِ ، وَحِمْلَةُ الْأَقْلَامِ ، كُلُّهَا خَطًّا أَوْ كَتَبَ . وَإِذَا اسْتَطَارَ بِفِكْرِهِ
الْوَقَادِ سَوَاجِعَ السَّجْعِ انْتَالَتْ عَلَيْهِ مِنْ كُلِّ أَوْكَارِهَا وَنَسَلَتْ مِنْ كُلِّ
حَدَبٍ ، وَحَكَّتْ بِانْسِجَامِهَا السَّيْلَ وَالْقَطْرَ فِي صَبَبٍ ، الْفَقِيهِ الْعَالَمِ الْعِلْمِ ،
وَالْمَحْصَلِ الَّذِي سَاجَلَتْ الْعُلَمَاءُ لِتُدْرِكَ فِي مَجَالِ الْإِدْرَاكِ شَأْوَهِ فَلَمْ ، سَيِّدِنَا
الْفَقِيهِ الْحَافِظِ حَامِلِ لَوَاءِ الْفَتْيَا ، وَمَالِكِ الْمَمْلُوكَةِ فِي الْمَنْقُولِ وَالْمَعْقُولِ مِنْ غَيْرِ
شَرْطٍ وَلَا تُنْيَا ، أَبُو الْعَبَّاسِ أَحْمَدُ بْنُ مُحَمَّدٍ الْمَقْرِي أبقاه الله تعالى للعلم يَفْتَضُّ
أَبْكَارَهُ ، وَيُبْجِي مِنْ رَوْضِهِ الْيَانِعِ ثَمَارَهُ . سَلَامٌ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ اللَّهِ تَعَالَى
وَبَرَكَاتُهُ كَتَبَهُ الْحَبِيبُ الشَّاكِرُ عَنْ وَدِّ رَاسِخِ الْعِمَادِ ، ثَابِتِ الْاَوْتَادِ ، مَزْهُوِّ
الْأَغْوَارِ وَالْأَنْجَادِ ، وَلَا جَدِيدِ إِلَّا الشُّوقُ الَّذِي تَحْنُ إِلَى لِقَائِكُمْ رُكَّابِهِ
وَتَرْتَنُّاحِ ، وَتَحْوِمُ عَلَى مَوْرِدِ الْإِنْسِ بِكُمْ حَوِّمَ ذَاتِ الْجَنَاحِ عَلَى الْعَذْبِ
الْقَرَّاحِ ، جَمَعَ اللَّهُ تَعَالَى الْأَرْوَاحَ الْمُؤْتَلِفَةَ عَلَى بَسَاطَةِ السَّرُورِ وَأَسْرَةِ الْهَنَاءِ ،
وَإِتَّاحَ لِلنَّفُوسِ مِنْ حَسَنِ مُحَاضَرَتِكُمْ قَطْفَ الْمُشْتَمَى وَهُوَ غَضُّ الْجَنَى .

وَقَدْ اتَّصَلَ بِالْحَبِيبِ الْوَدُودِ الرَّقِيمِ الَّذِي رَاقَتْ مِنْ سَوَادِ النَّقْشِ

وبياض الطرس شِيَاثُهُ ، وأرانا مُعْجَزَ أَحْمَدَ فَبَهَرَتْ آيَاتُهُ ، وَخَبَا
سَقَطُ الزُّنْدِ لَمَّا أَشْرَقَتْ مِنْ سَمَاءِ فِكْرِكُمْ آيَاتُهُ ، فَاطْرَبْنَا بِتَغْرِيدِ طُيُورِ هَمَزَاتِهِ
عَلَى أَغْصَانِ أَلِفَاتِهِ ، وَعَوَّدْنَا بِالسَّبْعِ الْمَثَانِي بَنَانًا أَجَادَتْ نَثْرَ زَهْرَاتِهِ عَلَى
صَفَحَاتِهِ ، ثُمَّ مَرَرْنَا بِتَضَاعِيفِهِ بِسُوقِ الرِّقِيقِ ، فَرَمْنَا السَّلُوكَ عَلَى مَنْحَاهَا
فَعَمِي عَلَيْنَا الطَّرِيقُ ، وَقَلْنَا وَاهَاً عَلَى سُوقِ ابْنِ نُبَاتَةِ وَكْسَادِ رَقِيقِهَا ،
وَاسْتَلَابَ الْبَهْجَةُ عَنْ نَفِيسِ دُرَرِهَا وَأَنِيقِهَا ، لَا كَسُوقَ نَفَقٍ فِيهَا سُوقُ
الْغَزْلِ ، وَعَلَا كَعْبُ الرَّامِحِ وَالْأَعْزَلِ ، وَتَطَاوَرَ عَلَى سِحْرِ النُّفُوسِ
وَالْأَلْبَابِ هَارُوتُ الْجِدْوِ وَمَارُوتُ الْهَزْلِ ، وَقَدْ الْقَيْنَا السَّلَاحَ وَجَنَحْنَا
لِلسُّلْمِ وَتَهَيَّأْنَا لِلْسَّبَاحَةِ فَوْقْنَا بِسَاحِلِ الْيَمِّ ، وَسَلَّمْنَا مَنْ اسْتَوَتْ بِهِ سَفِينَةُ
الْبَلَاغَةِ عَلَى الْجُودِيِّ ، فَأَبْنَا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ عَلَى السَّلَامَةِ بِالْفَهَاهَةِ وَالْعِيَّ ، وَقَلْنَا مَا
لَنَا وَلِلْأَنْشَاءِ ، فَهُوَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ .

وعذراً أيها الشيخ عن البيت الذي عطست به أنفُ الصبا فقذفت
به البديهة من القلم ، وَشَرِقتْ به صدرُ قناة القلم ، كما شَرِقتْ صدرُ
القناة من الدَّمِ ، وَأَمَّا مَا تَحْمَلُ الرَّسُولُ مِنْ كَلَامٍ ، فِي صُورَةِ مَلَامٍ لَا بَلْ
مُدَامٍ ، أَتَرَعَ بِهِ مَنْ سُلَافِ الْمَحَبَةِ كَأْسُ وَجَامٍ ، فَلَا وَرُبَّكَ مَا هِيَ إِلَّا
نَفْحَةٌ نَفَحَتْ ، لَا تَسْمُومُ لَفَحَتْ ، هَزَزْنَا بِهِ جَذَعَ ادْبِكُمْ كَيْ يَتَسَاقَطَ عَلَيْنَا
رَطْبًا جَنِيًّا ، وَيَهْمِي وَذَقُّهُ عَلَى الرَّبْعِ الْمَحِيلِ مِنْ أَفْكَارِنَا وَسَمِّيَا وَوَلِيَّا ،
فَجَادَ وَأَرْوَى ، وَأَجَادَ فِيهَا رَوَى ، وَأَحْيَا مِنَ الْقَرَائِحِ مَيْتًا كَانَ حَدِيثًا
يُرَوَّى ، وَطَرَسْنَا بَيْنَ أَنْعَامِ الْأَيَّامِ يُنْشَرُ وَيُطْوَى ، أَحْيَا اللَّهُ تَعَالَى قُلُوبَنَا

بمعرفة ونوايسم رحمته ، وعرج بارواحنا عند الممات الى المحل الأخص
بالمؤمن من حضرته .

وأهدي السلام ، المزرعي بمسك الختام ، على الفقيهين الأجددين ،
الصدرين الأنجدين الفذين التوأمين ، الفاضلين المجيددين ، فارسى البراعة
والبراعة ، ورئيسي الجماعة في هذه الصناعة ، رَضِيعِي لِبَابِ الأدب
ووَاسِطَتِي عَقْدِهِ ، وَجَبِلِي قَدْحَهُ الْمُعَلَّى وَمُورِي زَنْدَهُ ، الْمُتَمَتِّعِينَ بِشَمِيمِ
عَرَارِهِ وَرَنْدِهِ ، الْكَارِعِينَ بِالْبَحْرِ الْفَيَاضِ مِنْ هَزْلِهِ وَجِدِّهِ ، الْآتِيَيْنِ
بِالْجَنَسِ وَالْفَصْلِ مِنْ رَسْمِهِ وَحَدِّهِ ، الْكَاتِبَ الْبَارِعَ ابْنِي الْحَسَنِ سَيِّدِي عَلِي
ابْنِ أَحْمَدَ الشَّامِي ، وَالْكَاتِبَ الْبَلِيغَ ابْنِي عَبْدِ اللَّهِ سَيِّدِي مُحَمَّدَ بْنَ عَلِي الْوَجْدِي ،
وَأَقْرَبَ لِهَما الْوَدَّ الْمُسْتَحْكَمَ الْمَعَاقِدَ ، الصَّافِي الْمَنَاحِلَ الْعَذْبَ الْمَوَارِدَ ، وَابْنِي
قَائِمُ بَوْرَدِ الثَّنَاءِ عَلَيْكُمْ وَعَلَيْهِمَا لَدَى الْمَقَامِ الْعَلِيِّ الْأَمَامِيِّ النَّاضِرِيِّ دَامَ
سُلْطَانُهُ ، وَتَمَهَّدَتْ أَطْوَارُهُ وَأَوْطَانُهُ . وَنَهَيْي إِلَيْكُمْ أَنْ الْفَقِيهَ الْمُحِبَّ الْأَسْتَاذَ
سَيِّدِي مُحَمَّدَ بْنَ يَوْسُفَ طَلَّقُ الْلسَانَ بِالشُّكْرِ صَادِحٍ عَلَى أَيْكِ الثَّنَاءِ عَنْ
تَلْكَ السِّيَادَةِ بِمَا أَوْلَيْتُمُوهُ بِهِ مِنْ جَزِيلِ الْإِحْسَانِ ، وَقَابَلْتُمُوهُ بِهِ عِنْدَ الْوُرُودِ
وَالصَّدْرِ مِنَ الْبَشَرِ وَالْكَرَامَةِ وَجَمِيلِ الْاِمْتِنَانِ ، وَالسَّلَامُ التَّامُ مَعَادُ عَلَيْكُمْ
وَرَحْمَةُ اللَّهِ تَعَالَى وَبَرَكَاتُهُ .

رسالةً للاديب محمد ابن ابراهيم الغامي الى الشهاب محمود الخفاجي
جواباً عن كتاب بعث به إليه

بعد تقبيل ثريا ذلك الثرى ، الذي عبق في الشام عنبراً ، وقلد جيد
الزمان دُورا ، لا زال منبع البيان ، ومنتجع الأعيان ، ولا برح جوهراً
حصبائه يُفضله العيان على فلاند العقيان ، هذا وصل إليّ وصل الله
إليك أسباب العلا ، وألبسك رائق الحلى ، كتابك الخطير في رقعة من
محاسن لفظك الرائق الجلباب ، المزري بروثق ريق الشباب ، وبهجة
من بدائع خطك المستوقف للناظر ، المخجل بحسنه الوشي الفاخر ،
والروض الناضر فأجنتاني ثمر البرّ يانعا ، وجلا علي وجه الود
ايضاً ناصعا .

وأراني كيف انقيادُ القوافي في زمام البيان سمعاً وطوعاً
وفتح للمُخاطبة بابا طالما كنت له هياباً ، ورفع حجاباً ترك القلب
وتجاباً ما زلتُ أغاز لها أملاً ، فلا أُطيق لها عملاً ، والأحظها أمداً ،
أذوبُ دونه كدا .

وفي تعب من يحسد الشمس نورها ويزعم ان يأتي لها بضرب
لا جرم انه اقتضاني خالص ود وصحيح عهد ، لم يلتفت مني الى

مَعْذِرَةٌ وَلَمْ يَكِلْنِي إِلَى مَا فِي الْوُسْعِ مِنَ الْمَقْدَرَةِ ، وَقَدْ يَعُودُ عَلَى عِلْمِكَ بَحْرُ الْقَرِيحَةِ ثَمْدًا ، وَحَسَامُ الذَّهْنِ مِعْضَدًا ، فَتَكَلَّفْتُهَا بِحُكْمِ هَذَا الْغَرَامِ تَحْتَ حَصَرٍ وَنَازِحِ بَصَرٍ ، فَإِنْ سَمَحْتَ بِالْأَغْضَاءِ ، وَسَاحَتَ فِي الْاِقْتِضَاءِ ، سَأَمْتُ لَكَ الْيَدَ الْبَيْضَاءَ وَظَهَرْتُ لَشُكْرِكَ بِالْفَضَاءِ ، وَأَمَّا الْعَذْرُ الَّذِي تَوَخَّيْتُ وَلَا عَدَمْتُ شَرَحَهُ وَحَمَيْتُ بِقُوَّةِ الْكَلَامِ سَرَّحَهُ ، فَإِنِّي غَنِيٌّ عَنْ تَكَلُّفَاتٍ إِيْضَاحِهِ ، وَمَدَّ أَوْضَاحِهِ ، فَالَّذِي يَثْبُتُ فِي النَفُوسِ ، مِنَ الْوُدِّ الْمَصُونِ الْمَحْرُوسِ ، لَا يُخْشَى عَلَيْهِ مِنْ تَسَلُّطِ الطُّمُوسِ وَالذُّرُوسِ ، وَلَا أَقُولُ إِنْ وَدِيَ لَكَ كَالْتَّبَرِّ إِذْ لَا يَصْفُو مَا لَمْ يَشْبُهُ لَهَيْبُ الْجَمْرِ ، وَلَا كَالرَّاحِ ، حَيْثُ يَفْتَقِرُ فِي الرَّقَّةِ إِلَى الْمَسَاءِ وَالصَّبَاحِ ، بَلْ أَقُولُ إِنْ وَدِيَ لَكَ أَيْدِيَّ اللَّعْنِ ، كَالْقُرَاتِ الْعَذْبِ ، يَشْفِي غَلِيلَ الْقَلْبِ وَيُطْفِئُ لَهَيْبَ الصَّبِّ ، يَحِلُّ بِالْأَرْضِ الْمَيْتَةِ فَيُخَيِّسُهَا ، وَيَمُرُّ بِالرَّوْضَةِ الذَّائِلَةِ فَيُتَوَّجُهَا بِالْأَزْهَارِ وَيُجَلِّسُهَا ، وَأَنْتَ أَعَزُّكَ اللَّهُ لَا تُثْرِبُ عَلَيْكَ إِذْ كُلُّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ ، وَيَجْرِي فِي أُمُورِهِ عَلَى مَقْتَضَى مَرَاتِبَتِهِ ، فَإِنْ حُنُوَّ السَّيِّدِ ، وَأَنْتَ ذَاكَ ، يُسْتَكْثَرُ قَلِيلُهُ ، وَاخْلَاصُ الْعَبْدِ ، وَهُوَ أَنَا يُسْتَحَقَّرُ كَمَا عَلِمْتَ جَلِيلُهُ ، وَالْحُبُّ أَغْلَبُ وَمَعْرِفَةُ الْمَرْءِ نَفْسَهُ أَصَوَّبُ .

وَأِنْ تَفَضَّلْتَ بِالْإِسْتِفْسَارِ عَنْ أَحْوَالِ الْعَبْدِ فَإِنَّ الْحَالَ فِي خَيْرٍ ، وَالْمَالُ يَعْلَمُهُ اللَّهُ تَعَالَى ، وَبِالْجُمْلَةِ فَسَهْمُ الْمَصِيبَةِ إِنْ سَدَّاهُ الدَّهْرُ ، فَعَلَى مِثْلِهِ وَقَعَ ، وَالتَّأَلُّمُ بِمِثْلِ هَذِهِ الْحَالَةِ قَدْ ارْتَفَعَ :

وَلَمْ أَرَ مِثْلَ الصَّبْرِ ، أَمَّا مَذَاقُهُ فَحُلُوٌّ ، وَأَمَّا وَجْهُهُ فَجَمِيلٌ

وكذلك كلُّ من دعا الصبر لما شاء أجاب ، وأراه من نشره الأفق
المنجّاب ، وأقامه بين مَبَرَّات وألّطاف ، وأعطاه بما أحب جَنِيّ قِطَاف
ولله در القائل :

يعيشُ المرءُ ما استغنى بخير ويبقى العودُ ما بقي اللّحاءُ

وهو الدهر لا يُردُّ عن مراده ، ولا يُصدّر في إصداره وإيراده :

فيومٌ علينا ويومٌ لنا ويومُ نساء ويومُ نسرٍ

على ان طول الغيبة ليس لشيء عَلِمَ الله أثرته على لُقياءكم إذ
استبدّله طَوْعاً لكنّه ارتكَبُ للأخفّ من الضررين ، واختيار للأهون
من الشرّين :

عسى غلطاً يثني الزمانُ عِناهُ بدوّر أُمور والأُمورُ تدوّر
فتدركُ آمالٌ وتُقضَى مآرب وتحدثُ من بعد الأُمور أُمور

فلذلك قَنِعَت من البحر الوَشل ، وسرَحَتْ في رياض المُتْنى بين
عسى ولعل ، فقد قيل إذا دارَ الفلكُ ، فعليك أو فَلَكَ ، والله في خلقه
أمر لا تُدرك العقولُ حِكْمَتَهُ وهو الذي يُنزلُ الغيثَ من بعد ما
قنطوا وينشر رحمته ، وما اجتليته في كتابك الخطير وروض خطابك
المطير ، استدعى شيئاً من نظم العبد ونثره ، والتنويه بذلك من خايل
ذكره ، فلا عدمتُ منك مولى على الإحسان مُثابراً ، وحكيماً لكسراً

إكْسِيرِ الْخَاطِرَ جَابِراً ، مَعَ تَشْتَتِ الْحَالِ لِبُعْدِ مَزَارِكِ ، وَنَأْيِ دَارِي عَنْ دَارِكِ ، وَأُقْسِمُ إِنِّي صَمَّمْتُ عَلَى التَّغَافُلِ عَنِ الْجَوَابِ وَهُوَ الْأَوَّلَى بِالصَّوَابِ ، إِذْ لَيْسَ بَلْبِيبٍ مِنْ يَقِيسُ الشُّبْرَ بِالْبَاعِ وَالْجَبَانَ بِالشَّجَاعِ ، وَكَيْفَ لَا وَكُلُّ مَنْ تَكَلَّفَ فَوْقَ طَاقَتِهِ افْتَضَحَ لِسَاعَتِهِ ، لَكِنْ عَدَمُ الْإِمْتِثَالِ مَحْذُورٌ ، وَالْمُلَاجَا إِلَى مَا لَا يُطَاقُ مَعْذُورٌ ، فَتَكَلَّفْتُ مَا يُعْرَضُ عَلَيْكَ مِنَ الْمُسَمَّطَاتِ سِوَى الْقَصَائِدِ الْمُشَارِ إِلَيْهَا بِذِكْرِ بَعْضِهَا فَانْهَازْتُهَا مُتَقَدِّمَةً عَلَى وَرُودِ مُشْرِفَتِكُمْ وَمِثْلِكَ مِنْ سَدِّ الْخُلَلِ وَتَجَاوُزِ عَنِ الزَّلَلِ ، وَاللَّهُ يُبَيِّقُكَ ، وَمَنْ كُلُّ سُوءٍ يَبْقِيكَ وَالسَّلَامُ .

(ج) (المتفرقات)

رسالة للقاضي أبي موسى بن عمران

المتوفى سنة ٥٧٨ هـ إلى ولده بفاس قد ناهز الحلم

إلى ولدي فلان ، هداه الله وصانه ، وجعله بالعلم والتقوى وزانه ، كَتَبْتُه إِلَيْكُمْ عَنْ اشْتِيَاقٍ كَثِيرٍ ، وَبِمَشِيئَةِ اللَّهِ تَعَالَى تَتَيَسَّرُ الْأُمُورُ ، وَيَتَكَفَّرُ الشُّرُورُ ، وَإِذَا وَجَدْتُمْكُمْ عَلَى مَا أَحْبَبْتُمْ مِنْ أَدَوَاتِ الْحِفْظِ وَالْأَدَاءِ ، وَلِزَامِ آدَابِ الْعُقُلَاءِ ، جَازَيْتُكُمْ بِمَا يُرْضِيكُمْ ، وَبِمَا يَزِيدُ عَلَى أَقْصَى تَمَنِّيكُمْ ، وَقَدْ أَجْمَعْتُ الْأَيْمَةَ عَلَى أَنْ الرَّاحَةَ ، لَا تُنَالُ بِالرَّاحَةِ ، وَأَنْ الْعِلْمَ ، لَا يُنَالُ بِرَاحَةِ الْجِسْمِ ، فَادْرُسْ تَرَوْسَ ، وَاحْفَظْ تُحْفَظْ ، وَاقْرَأْ تَرْقَ ،

ومهما رَكَنْتَ الى الدَّعَةِ ، كُنْتَ في أَهْلِ الضَّعَةِ ، وما رَأَيْتَ النَّاسَ
يُجْتَمِعِينَ على حُمدِهِ فَاجْتَلِبْهُ ، وما رَأَيْتَهُمْ يَجْتَمِعُونَ على ذَمِّهِ فَاجْتَنِبْهُ ، والأَعْدَلُ
الأَقْسَطُ ، ان تَسْلُكَ السَّيْلَ الأَوْسَطَ :

وما المرءُ إِلا حيثُ يُجْعَلُ نَفْسَهُ فقي صالح الأعمالِ نَفْسَكَ فَاجْعَلْ

رسالة ابي جعفر بن عطية الى عبد المؤمن يستعطفه بها

عظفاً علينا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ فَقَدْ
قَدْ اغْرَقْتَنَا ذُنُوبُ كُلِّهَا لُجْجُ
وَصَادَفْتَنَا سِهَامُ الْبَيْنِ عَنْ عَرَضٍ
هَيْهَاتَ لِلخُطْبِ ان تَسْطُو حَوَادِثُهُ
مَنْ جَاءَ عِنْدَكُمْ يَسْعَى عَلَى ثِقَةٍ
فَالثُّوبُ يُطَهَّرُ بِدِ الْغَسْلِ مِنْ دَرَنٍ
انْتُمْ بِذَلَّتُمْ حَيَاةَ الْخَلْقِ كُلِّهِمْ
وَنَحْنُ مِنْ بَعْضٍ مِنْ أَحْيَاتٍ مُكَارِمٍ مَكَمٍ
وَصِنِيَّةٍ كَفِرَاحِ الْوُرُقِ مِنْ صَغَرٍ
قَدْ أَوْجَدْتَهُمْ أَيَادٍ مِنْكَ سَالِفَةٍ

بَانَ الْعِزَاءُ لِقَرْطِ الْهَمِّ وَالْحِزْنَ
وَرَحْمَةً مِنْكُمْ أَنْجَى مِنَ الشَّقَنِ
وَعَظْفَةً مِنْكُمْ أَوْقَى مِنَ الْجَنَنِ
بِمَنْ أَجَارَتْهُ رُحْمَاكُمْ مِنَ الْمَحَنِ
بِنَصْرِهِ لَمْ يَخَفْ بَطْشاً مِنَ الزَّمَنِ
وَالطَّرْفُ يُرْهَضُ بَعْدَ الرِّكْضِ فِي سَنَنِ
مِنْ دُونَ مَنْ بَهَا كَلًّا وَلَا ضَنْنَ
كَلْنَا الْحَيَاتَيْنِ مِنْ رُوحٍ وَمِنْ بَدَنِ
لَمْ يَأْلُقُوا النَّوْحَ فِي فَرْعٍ وَلَا قَنَنٍ
وَالْكُلُّ لَوْلَاكَ لَمْ يُوجَدْ وَلَمْ يَكُنْ

تَاللَّهِ لَوْ أَحَاطَتْ بِي كُلُّ خَطِيئَةٍ ، وَلَمْ تَنْفَكْ نَفْسِي عَنِ الْخَيْرَاتِ بِطِيبَتِهِ ،

حتى سخرتُ بمن في الوجود وانفتُ لآدم من السجود ، وقلتُ ان الله لم يُوحِ ، في الفلك الى نوح ، وأبرمتُ لاحتطاب نار الخليل حنبلا ، وبريتُ لِقُدَّارٍ ثَمُودَ نَبْلًا ، وحططتُ عن يونس شجرةَ اليَقْطِينِ ، وأوقدتُ مع هامانَ على الطين ، وقبضتُ قبضةً من أثر الرسول فنبذتها ، وأفتريتُ على العذراءِ البتول فقدفتُها ، وكتبتُ صحيفةَ القطِيعَةِ بِدَارِ الثَّدْوَةِ ، وظاهرتُ الأحزابَ بالقُصوى من العُدوة ، وابغضتُ كلَّ قُرَشِيٍّ ، واحببتُ لأجل وَحْشِيٍّ^١ كلَّ حَبْشِيٍّ ، وقلتُ بأن بيعةَ السَّقِيفَةِ ، لا تُوجِبُ إمامةَ خَلِيفَةٍ ، وسحذتُ شفرةَ غلامِ المُغِيرَةِ بنِ شُعْبَةَ ، واعتلقتُ من حِصَارِ الدارِ وقَتْلِ أَشْطَهِيا^٢ بِشُعْبَةَ ، وقلتُ تَقَاتَلُوا رغبةً في الأبيض والأصفر ، وسفكوا الدماءَ على الثَّرِيدِ الأعْفَرِ ، وغادرتُ الوجهَ من الهَامَةِ خَضِيْبًا ، وناولتُ من قَرَعِ سَنِّ الحُسَيْنِ قَضِيْبًا ، ثم كنتُ بِحُفْرَةِ المَعْصُومِ لا تَذَا ، وبَقَبْرِ المَهْدِيِّ رضي الله عنه عائِذاً ، لقد آنَ لِمَقَاتِي ان تُسَمَعَ ، وأن تُغْفَرَ لي هذه الخَطِيئَاتُ أجمع ، مع اني مُعْتَرِفٌ وبالذنبِ مُعْتَرِفٌ :

فَعَفُوا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ فَسَنَ لَنَا
بِرَدِّ قُلُوبِ هَدَّهَا الْخَفَقَانُ
والسلام على المَقَامِ الكَرِيمِ ورحمةُ الله وبركاته .

١ - قدار هو اسم عاقر ناقة صالح .

٢ - وحشي هو قاتل حمزة عم النبي صلى الله عليه وسلم في غزوة أحد وكان مولى حبشياً لجبير بن مطعم

٣ - يريد به عثمان (ض) ٤ - يشير الى اغتيال علي كرم الله وجهه .

رسالة أبي الخطاب بن دحية

الى والي بجاية يسأله تسريح خديم له أخذ في غزاة البحر
وقد ارتكب فيها غريب اللغة على عادته (*)

الشيخ الفقيه الأديب الجحجاح^١ الهرماس^٢ أبو فلان ، جحوظ^٣
الله قعشان^٤ شفرتة^٥ .

هذا العطريس^٦ في اليم^٧ أخذ رجلا لا يملك حذر فوتا^٨ فيرى
الزبرقان^٩ فيخاله حوارى^{١٠} ويرى الجعل^{١١} فيحسبه زعججا^{١٢} وله^{١٣} قرحة
أمحشت^{١٤} من الحر ، وتغل كفرها^{١٥} فابعث الى هذا العثري^{١٦} من
يخضد^{١٧} شوكتة والسلام .

(*) أنظر ترجمته وبجث العلوم اللغوية في عصر الموحدين في الجزء الأول .

- ١ - السيد ٢ - الأسد ٣ - لف وشد ٤ - القعشان الكثير من كل شيء
- ٥ - الشفرة التفرق والتكسر - فاللعن على الدعاء له يجمع متفرق أمره ٦ - المتكبر
- الظالم ٧ - البحر ٨ - أي شيئا ٩ - القمر ١٠ - الحوارى الدقيق الأبيض ويراد هنا
- الرجيف المصنوع منه ، ١١ - ضرب من الخنافس معروف ١٢ - الزعج الزيتون
- ١٣ - الضمير يعود على الرجل ، ١٤ - أحرقت وقشرت ١٥ - أي سترها وبرؤها
- ١٦ - هو الذي لا م له في دنيا ولا آخرة ١٧ - يقطع .

رسالة الى عبد الواحد المراكشي

من صديق له صبي لم يبلغ الاحتلام ، يُخَبِّرُهُ ببعض الفتوح

كُتِبَ من منزل سُوس وقد تبلَّج فجرُ الفتح فأسفر ، وقال فريقُ
الضلال وشيعته أين المفر ، وقد ألقى النصر جرَّانه ، وأعزَّ الله حزبه
المؤيد وأعوانه ، وشرح الحال على غاية الإيجاز ، لأجل الاستعجال في
إنهاء هذه البشائر والانخفاز ، أن الناكثين النابذين للعروة الوثقى ،
التمسكين بالسبب الأشقى ، حاصرهم الموحدون أنجدهم الله ، أشدَّ
الحصار وقطعوا عنهم موادَّ المعاش وزرَّافاتِ الأنصار ، ولسانُ التأييد
يتلو علينا بالعشي والإشراق ، (ما ينظر هؤلاء إلا صيحةً واحدةً
مالها من فواق) ولحين ما أخذ الموحدون أنجدهم الله في حسم دائم
العضال ، وجرَّدوا لهم من عزَماتهم الصادقة ، ما هو أمضى من النَّصال ،
طأحوا مُجدِّلين بالحضيض ، وملاً جُثمانهم الفضاء العريض ، وخيب
الله ظنونهم الكاذبة وآمالهم ، وصيَّروا إلى أُمم الهاوية فكانت أولى لهم ،
ذلك بأنهم اتَّبَعُوا ما أسخط الله وكرَّهوا رضوانه فأحبط أعمالهم وأمكن
الله من رأس ضلالهم المدعوى بأي قصبة ، فقهره الحزب المنصور وغلبه ،
وحزَّ الحسام منه قُتَّة ورقبة ،

عَقْدُ تَوْبَةِ لَيْمُونِ الْخَطَّائِي

يقول العبد الذي اعترف بما اقترف لمولاه ، وأقرّ له بما أضاعه لا بما أطاعه على ما منحه من التعم واولاه ، الميمونُ بْنُ عَلِي الخطّائي ، جَبَرُ اللهُ بالتقوى كَسْرَهُ ، وفكّ من حبال الدنيا أَسْرَهُ ، لم ازل مدة أيام بل عدة أعوام ، اخالّل كلُّ نُحْلٍ بِدِينِي ، واستَظَلُّ من إطالة البطالة بكل ظلٍّ مُضِلٍّ يُرِدِينِي ، واخالف كلَّ صالح مصلح ، واحالف كلَّ طالح غير مُفْلِح ، واجرُّ اذبال المجنون على ارض الراحة ، وأُطْلِقُ عَنَان مُهْرِ الغفلة في ميدان النسيان فيُطِيلُ جَاحَهِ وَمَراحه ، راكباً مطايا التَّسْوِيفِ دون إهمال ، مستوطناً فَرَشَ الكسل والانهماك في الشهوات والانهمال ، مستوطناً رَتَبَ التصاي بقلّة الأعمال وكثرة الآمال ، سالكا سبيل الهزل وطريقه ، تاركا قبيل الجد وفريقه ، لا أَثْنِي عَنَانِي ، الى ما يَغْنِينِي ، ولا ازال أعاني ، ما يُعْنِينِي ، ولطائفُ الله عزّ وجل التي يضيق عن حمل اصغرها الامكنة الفسيحة ، ولا يُطِيقُ بلوغَ شُكْرِها الالسنَةُ الفصيحة ، ضاحيةُ الورود ، ضافية البرود وقد طُنَّبَتْ عليّ قباؤها وارواقها ، وَخَلَعَتْ بعنقي ثيابها واطواقها وأطردت بماء النعمة مَذَانِهَا

١ - ليهلول المجنون حديث يشبه ان يكون هو الأصل لهذا العقد فانظره ان شئت في كتاب عقلاء المجانين لابن حبيب النيسابوري .

وانهارها ، وتساوى في القُدم بالكرم ليلها ونهارها ، وأنا مع ذلك لا ازيد إلا غفلةً عن القصد السني وسهواً ، ولا استزيد الا اشتغالا عن المقصود السني ولّوها ، الى أن أجرى الله عادةً احسانه وجوده ، وأرادت مُراداته السائقة السابقة اخراج العبد المذكور من عدم الغفلة الى ظهور الإلهام وجوده ، فسَلَطَ رُعد الخوف على سحاب سَمائِهِ فكشفها وجلّلاها ، وحلّ بساحة أرضها سُكْر السُّلوفسكّرُها من سواه وخلّلاها ، وقلّد اجيادَ فكره بقلاند حمده وشكره وخلّلاها ، وسلّ من سُويّدهاء قلبه محبةً غيره فنزّها عنه وسلّاها فلاحَ إصباحُ النجاح وآذن ليلُ الغفلة بالصباح ، ونادى مُنادي الوُصلة بَمَنار العُزلة حيّ على الفلاح ، وصاح كالِيء صبح الثّبح بالسّفر المُعرّسين شُدّوا المَطِيّ فقد سال نهرُ النهار ، ومال جُرُف الليل وانهار ، وانفجر عمودُ الفجر بنوره الوضّاح ، فلاح ، فافاق العبدُ المذكور من نوم الرُّكون ، الى السكّون والكرى ، وشمّر للسّير ذُيولَه وضمّر للسّبق خيولَه إذ سمِعَ عند الصّباح يَحْمَدُ القومُ الشّرى .

ثم كتب العبد المذكور عقدا وعهداً مع المولى الجليل عنّدا ، وهو على خوف ووجل يسأله ادراك ما أمّله ، والوصول الى ما أمّ له ، ويتبرأ من حوّل وقوته اليه ، ويتوكل في جميع اموره عليه ، ويقف بقدم الندم بين يديه ، معترفاً بما كان له مقترفاً ، وراجياً ان يكون من بحر الاحسان لدار الامتنان مُغتريفاً ، والعقد المذكور :

هذا ما اشترى المولى اللطيف الجليل ، من العبد الضعيف الذليل ،
الميمون ابن علي ، اشترى منه في صَفَقَةٍ واحدة دون استبقاء ولا تبعيض ،
ولا استثناء بتصریح ولا تعريض ، جميع المنزل المعروف بمنزل القلب
والفؤاد ، الذي من سكانه الاخلاصُ والمحبة والوداد ، حُدُّه من القِيْلَة
قبولُه الأوامر المطاعة ، ومن الشرق لزومُ السمع والطاعة ، ومن الجنوب
الاقبالُ على ما عليه أهلُ السنة والجماعة ، ومن الغرب دوامُ المراقبة في
كل وقت وساعة ، بكل ما يخصُّ هذا المبيعَ المذكور ويعمُّه ، وينتهي
اليه كل حد من حدوده ويضمُّه ، من داخل الحقوق وخارجها ، ومداخل
المنافع ومخارجها ، وبكل ما له من الآلات التابعة له في التصرف ،
والحواس الجارية معه في حَالَتِي الاضاعة والتشرف ، السالكة مسلكه
في التنكر والتعرف ، من يدين ورجلين ، ولسان وشفتين ، وعينين
واذنين ، اشتراءً صحيحاً تاماً ، شائعاً في جميع المبيع المذكور وعاماً ،
ثبتت قواعده ، وظهرت بالتسليم الصحيح شواهدُه ، بلا شرط ولا ثنيا
ولا خيار ، ولا بُقيا مع حظ نفس ولا اختيار ، بضمن رتبته العناية
الربانية ، ونسخته المشيئةُ الإلاهية ، بين عاجل وآجل ، فالعاجلُ العونُ
على كل مندوب ومفترض ، والصونُ عن كل غرض وعرض ، والثناء
على النعم الظاهرة والباطنة ، واهداءُ الآلاء المتحركة والساكنة . والآجلُ
الفوزُ بالدار القدسية ، والحضرة الأنسية ، التي فيها ما امتدَّ به جناحُ
التواتر بالخبر الصادق وانتشر ، ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر

على قلب بشر ، من النعيم السَّرمدي ، والحُبور الدائم الأبدى .

سَلَّمَ العبد المذكور هذا المبيع المذكور تسليماً تبرُّاً فيه من المَلَكَةِ ، ورفع به يدَ الاعتراض عما يفعل المولى الجليل فيما مَلَكَه ، وايقن انه المتصرف فيه في سره وجهره ، وعلم ان المَلِكَ المذكور تحت يد عزَّته وقهره ، يُجري فيه أحكامه القاهرة ، ويُنفذ فيه قضاياه الباهرة ، ومقتضى قدرته الظاهرة ، وقد احاط المولى الجليل بهذا المبيع المذكور ، احاطةً ظُهور ، ولم يخفَ عليه شيء من قليله وكثيره ، وجليله وحقيقه ، ومبانيه ومساكينه ، ومتحرِّكه وساكنه ، واطلع عليها اطلاع عليم قدير ، « أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللطيفُ الخبير » .

ولما أسلم العبد المذكور المبيع المذكور وامضاه ، واستسلم لمولاه فيما حكم به وقضاه ، تفضَّل عليه مولاه وعَمَّره بجوده العميم واولاه ، وجعل له الشُّكْنَى بهذا المنزل المذكور مدةَ حياته ، والاقامة فيه الى حين مماته ، وايتيان وفاته ، اذ يستحيل على المولى الجليل الحلولُ في شيء ، أو السكونُ الى شيء ، وهو مُوجد كلِّ شيء وخالق كلِّ مَيِّت وحيٍّ ، ومُريد كلِّ رُشدٍ ومُقدِّر كلِّ شيء به قيامُ جميع العبيد ، وعن قَدَرِه غناهم وفقْرهم لانه الفَعَّالُ لما يُريد ، وهو مُيسِّرُهم لليسرى فمنهم شقي وسعيد ، وله الغنى عن كل شيء وهو الغنيُّ الحميد .

وقد أمر المولى الجليل بخدمة هذا المنزل المذكور خدمة التقرب إليه ،
وجعل له التصرف فيه لقبول امره للفوز بما لديه ، وبهذا المنزل المذكور
بساتين تسمى بساتين الاخلاص ، وجنات تعرف بجنات حضرة القلب
المعروف بمحل الاستخلاص ، التزم العبد المذكور تسهيل أرضها من
شوك الشرك والارتباب ، وتذليلها من حجر العجب والاضطراب ، في
حالاتي الحضور والغياب ، وتنقيتها من أعشاب الحسد والحقد والكبر ،
وزوال ما فيها من عوارض الغش والخديعة والمكر ، وان يقطع منها
كل عود لا منفعة فيه بجديد الفكر ، مثل عود الحرص والطمع ،
ويغرس مكانه شجر الزهد والورع ، ويُقلم اغصان الميل الى الأدران
والاقدار ، وافسان الركون الى الأغيار والاكدار ، وقضبان السكون
الى الشهوات والاطوار ، ويفتح ابواب البذل والايثار ، بمفاتح الجود
الحمد المساعي والآثار ، ويُطلق ينابيع التوكل على مصرف الاقدار ،
وان يخدم ما توعد من سواقي مياهها الإخلاصية وحياتها ، ويمشي
بالمصلحة المصلحة لدوائها وغياها ، ويفجر بها مياه الصفاء من الأكدار ،
المتصلة بساقية الوفاء في الإراد والإصدار ، والملاصقة لساقية ترك
الجفاء في هذه الدار ، حتى يبدو إن شاء الله صلاحها ، ويكثر
بركة الله إصلاها ، وتنب بقبول القبول أرواحها ، وتشير بجنى
المنى أدواها ، فتنبت قرنفل التنقل ، وعود التقبل ، وآس الأنس

وَالسَّوْسَانُ ، وَيَاسْمِينَ الْيَاسْمِينِ الْيَاسْمِينِ ، وَنَعْمَانَ النِّعْمَةَ الَّتِي لَا يَصِفُهَا لِسَانٌ .

وقد عِلِمَ الْعَبْدُ الْمَذْكُورُ أَنَّ بِخَارِجِ هَذَا الْمَنْزِلِ حَرَسَ اللَّهِ أَيْمَانَهُ ، وَادَامَ أَمَانَهُ ، جَيْشًا يُغَيِّرُ عَلَيْهِ فِي مَسَائِهِ وَصَبَاحِهِ ، وَيَنْتَهِرُ فِيهِ الْفُرْصَةَ فِي غُدُوِّهِ وَرَوَاحِهِ ، وَيَقْطَعُ جَادَّةَ السَّبِيلِ بِالْمُرُورِ عَلَيْهَا إِلَى حَضْرَةِ الْمَلِكِ الْجَلِيلِ وَمَلِكِ هَذَا الْجَيْشِ الْمَذْكُورِ النَّفْسُ الْكَثِيرَةُ الْأَغْرَاضُ ، الْمِثَالَةُ إِلَى مَا يَعْزِضُ مِنَ الْأَعْرَاضِ ، الْمُعْتَكِفَةُ عَلَى الْمَشَارِبِ الْمُهْلِكَةِ وَالْإِعْرَاضِ ، وَخَادِمُ الْمَلِكِ الْمَذْكُورِ الشَّهْوَةُ الْمَوْقُوفَةُ عَلَى خِدْمَتِهِ ، الْمَعْدُودَةُ فِي أَعْلَى خَزَائِنِهِ ، وَوَزِيرُهُ الْمَفَاخِرَةُ ، وَزِمَامُهُ الْمُنَافَسَةُ فِي زَهْرَةِ الدُّنْيَا وَحَاجِبُهُ الْمَكَاثِرَةُ ، وَقِيمُ جَيْشِهِ الْمَقْدَمُ ، وَفَارِسُهُ الْأَقْدَمُ ، شَجَاعُ الْغَضَبِ ، الَّذِي عِنْدَهُ يَتَوَلَّدُ الْهَلَاكُ وَبِهِ يَكُونُ الْغَطْبُ . وَطَلَبَ الْعَبْدُ الْمَذْكُورُ مِنْ مَوْلَاهُ الْإِمْدَادَ بِعَسَاكِرِ الْعَزْمِ ، وَفَوَارِسِ الْحَزْمِ ، وَرَغْبَ مِنْهُ الْإِعَانَةَ بِكُتَاتِبِ السَّدَادِ وَالتَّوْفِيقِ وَمَوَاكِبِ الرُّشْدِ وَالتَّحْقِيقِ ، وَارْسَالَ جِيُوشِ الْأَصْطِبَارِ ، وَفَوَارِسِ الْإِنْتِصَارِ فِي مَيَادِينِ الْإِخْتِبَارِ ، وَالتَّدَرُّعَ بِذُرُوعِ الْأَذْكَارِ ، وَجَوْلَانَ خَيْلِ السَّعَادَةِ فِي مَيَادِينِ الْإِخْتِيَارِ ، وَالْعَوْنَ بِأَعْلَامِ الْعِلْمِ ، وَالسَّكُونِ فِي حِصْنِ الْحِلْمِ ، حَتَّى يُذْهِبَ حَدَّةَ النَّفْسِ وَيُزِيلَ كَيْدَهَا وَنِيْمَتَهَا فِي الْمَجَاهِدَةِ بِسَيُوفِ الْمَجَادَلَةِ وَيَقْطَعُ قُوَّتَهَا وَأَيْدَهَا ، أَوْ يَمْدًا يَدَ التَّسْلِيمِ بِقَهْرِهَا وَاضْطِرَارِهَا ، وَيَنْطِقَ بِلِسَانِ اعْتِرَافِهَا وَاقْرَارِهَا ، أَنَّهَا اسْقَطَتْ جَمْلَةَ دَعْوَاهَا وَإِخْتِيَارِهَا ، وَدَخَلَتْ تَحْتَ امْتِثَالِ الْأَوَامِرِ

الربانية ودخل من باب اللطف في حرم كرم الإلهية ، فمر الظهور
بذلك نفسه ، وظهر الحضور أنسه ، حتى تنطهر النفس المذكورة من
الاخلاق العَرَضِيَّة ، وتترقى عن الأغيار الأَرْضِيَّة ، وتظهر عليها
الشماثل الحميدة والشَّيْمُ الرَضِيَّة ، وتنادى : « يا أيتها النفسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ارجعي
الى ربك راضيةً مَرْضِيَّةً » .

اشهد على إشهاد البائع المذكور من أشهده به على نفسه عارفاً
بقدره ، في صحته وطويعه وجواز أمره ، وصلى الله على سيدنا محمد
وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً .

اهداء ابي القاسم الشريف ديوان شعره الى ابن الخطيب

الحمد لله الكبير المتعال ، فهو المسؤول ان يعصمنا من خطي القول
وزلل الاعمال ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد خاتم الأرسال ، هذه
أوراق ضمنتها جملة من بنات فكري ، وقطعاً مما يحيش به في بعض
الاحيان صدري ، ولو حزمت لأضربت عن كتبها كل الاضراب ،
ولزمت في دفيها واخفائها دين الأعراب ، ولكني آثرت على المحو
الإثبات ، وتمثلت بقولهم : ان أحسن ما أوتيته العرب الأبيات ، وإذا
هي عرّضت على ذلك المجد ، وسألها كيف نجت من الوأد ، فقد أوتيتها
من حرمكم الى ظل ظليل ، وأحلتها من فنانكم الى مُعَرَّسٍ وَمَقِيلٍ ،

وأهديتها علماً بان كرمكم بالاغضاء عن عيوبها كليل ، فاعْتَنِمُ قَلِيلَ
الْهَدِيَّةِ مِنِّي اِنْ (جُهِدَ الْمُقِلُّ) غَيْرُ قَلِيلٍ ، فَحَسْبُهَا شَرْفاً اِنْ تَبَوَّأَتْ فِي
جَنَابِكَ كَنَفًا وَدَارًا ، وَكَفَاهَا فَخْرًا وَجِدَا اِنْ عَقَدْتَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ فِكْرِكَ
عَقْدًا وَجَوَارًا .

كتاب الاستاذ ابن حَكَم السُّلُوِي الى المَقْتَرِي الجَدِّ
وَكَانَ بَعَثَ لَهُ بِمَحْرَرٍ لِلْبَيْعِ فَأَلَهُ اِبْدَالَهُ بِأَحْرَامِ تُونِسِي

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَمَرَ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ بِأَخْذِ الزِّيْنَةِ ، وَصَلَوَاتُهُ الطَّيِّبَةِ ،
وَبَرَكَاتِهِ الصَّيِّبَةِ ، عَلَى مَنْ خَتَمَ بِهِ شَرِيعَتَهُ وَأَكْمَلَ دِينَهُ ، وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ
الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَالَّذِينَ يَتَّبِعُونَهُ ، وَبَعْدَ مَا تَعَلَّقَ بِهِ الْإِعْلَامُ ، اِنْ تُعَوِّضُوا
الْمَحْرَرُ بِأَحْرَامٍ ، لَا يَخْفَى عَلَى مِثْلِكُمْ جَنْبُهُ وَتُجَانِسُهُ ، وَمِنْ كَلَامِ الْعَرَبِ :
كُلُّ ثَوْبٍ وَلَا يَسُهُ ، وَإِنْ أُرْتَبَى عَلَى ثَمَنِ الْاَوَّلِ ثَمْنُ الثَّانِي ، فَلَسْتُ عَنْ
الزِّيَادَةِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ بِالْوَاثِي .

رسالة لأبي بكر بن شبرين

الى ابي الحَكَم بن مسعود وهو شاهد بالمواريث يُدَاعِبُهُ فِيهَا

أَطَالَ اللَّهُ بَقَاءَ أَخِي وَسَيِّدِي لِأَهْلِ الْفِرَاطِضِ يُحْسِنُ الْاِحْتِيَالَ فِي
مُدَارَاتِهِمْ ، وَلِلْمُنْتَظِلِينَ إِلَى الدَّارِ الْآخِرَةِ يَأْمُرُ بِالْاِحْتِيَاظِ فِي أَمْوَاتِهِمْ ،

ودامت أفلألمه مشروعةً لَصْرْمُ الأجلِ المُنْسَأُ مُعَدَّةٌ لتحليل هذا الصنف المنشأ ، من الصَّلصال والحمأ ، فَمِنْ مَيَّت يُغْسَلُ وَآخَرَ يُقَبَّرُ ، ومن أَجَل يُطَوَّى وَكَفَن يُنْشَرُ ... فكلَّما خَرِبَتْ ساحة ، نشأت في الحانوت راحة ، وكلما قامت في شَعْب مَنَاحَة ، اتَّسَعَتْ للرزق مِسَاحَة ، فَيُبَاكِرُ سَيِّدِي الحانوتَ وَقَدْ احْتَسَى مَرَقَتَهُ وَأَسْبَلَ عَنَفَقَتَهُ ، ... فَيَلْحَظُ هَذَا بِرَفَقٍ ، وينظرُ الى هذا شَزْرًا ، ويأمر بشق الجيوب تارةً والبحث عن المناطق أخرى ، ثم يأخذ القلم أخذاً رَفِيقاً ، ويقول وقد خامره السرور : رحم الله فلانا لقد كان لنا صديقاً ، وربما واره بالازعاج الحديث ، وقال مستريح كما جاء في الحديث ' ، وتختلفُ عِنْدَ ذَلِكَ المراتب وتتيقن الأصدقاء والأجانب ، فينصرف هذا وحظه التهديد ، والنظر الحديد ، ثم يغشى دار الميْت ، ويسألُ عَنِ الكَيْتِ والكَيْتِ ، ويقول عليّ بما في البيت ، أين رِعَاءُ الثاغية والراغية ، أين عتود الأملاك بالبادية ، وقد كانت لهذا الرُجُلُ حالٌ وأيُّ حالٍ ، وذُكِرَ في الأسماء الخمسة فليل ذو مال ، وعيون الأعوان ترنو من خَلَلٍ ، وأعناقهم تشرئبُ الى ما خلفَ الكِلَلِ ، وأرجلهم تدبُّ الى الأسفاط دَيِّبَ الصَّقْرِ الى الحجل ، والموتى قد وجبت منهم الجنوب ، وحضر الموروث والمكسوب ، وقِيْدُ المطعوم والمشروب ، وعُدَّتْ الصَّحاح ، وَوُزِنَ بالارطال ، وکیل بالأقداح ،

والشهود يُغْلِظُونَ على الورثة في الأليّة ، وَيُسَيِّئُونَهُم بالسباب في النشأة الأولى ، والروائح حينئذ تَفْغَمُ الأرض طيباً وتهدى إلى الأرواح شذى يفعل في الأبدان فعلاً عجباً ، والدلائل يقول هذا مفتاح الباب ، والسّمسار يصيحُ قام النداء فما تنتظرون بالثياب ، والشاهد يصيح فتعلو صيحته والمُشْرِفُ يشرف فتسقطُ سُبْحَتُهُ ، ... ثم يشرع في تقسيم القرض ، ولو أكَفَّتْ السماوات على الأرض ويقال لأهل السهام أحسنوا فإن الإحسان ثالث مراتب الإسلام ، وقد نصَّ ابنُ القاسم^١ على أخذ أجرة القسّام ، وسوّغَهُ أَصْبَغُ^٢ وسَحْنُونُ^٣ ، ولم يَخْتَلِفْ فِيهِ مُطَرِّفُ^٤ وابنُ المَاجِشُونِ^٥ ، ولعل الخروج إلى الانبساط يجرّ عذراً ، ونسأل الله حمداً يوجبُ المزيد من نعمائه وشكراً ، والله يَصِلُ عَزَّ أَخِي ومجده ، ويهبُ له قوّةً تخصّه بالفوز عنده ، ويَزِيدُهُ بصيرةً يتبع بها الحقوق إلى أقصاها ، وبصرّاً لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ، ودام يعدُّ الحُراريب^٦ . والفلوس والأطمار^٧ ، ويملاُ الطّوامير بأقلامه البديعة الصنعة ، وَيَقْرِنُ الطّومار بالطومار ،

١ - ابن القاسم والأعلام الأخرى كلها أسماء لفقهاء مالكية معروفون في عالم القضاء والفتوى ٢ - الحُراريب من قبيل الفلوس . ٣ - الطومار الصحيفة .

المقامات

مقامة الافتخار

بَيْنَ الْعَشْرِ الْجَوَارِ
لِعَبْدِ الْمُهَيَّمِينَ لِلضَّرْعِ

بَرَزْتُ يَوْمًا لَخَارِجِ بِلَدِ فَاسِ الْأَشْهَرِ ، وَانْتَهَيْتُ إِلَى وَادِيهَا
الْمَعْرُوفِ بَوَادِي الْجَوْهَرِ ، فَلَمْ يَكُنْ غَيْرَ بَعِيدٍ ، وَإِذَا بِمَحْفِلٍ يَرْتَجُّ بِالْغَيْدِ ،
وَقَدْ دَارَ بَيْنَهُنَّ عِتَابُ ، بِالْفَاطِطِ تَعَجَزَ عَنْهَا أَلْسِنَةُ الْكِتَابِ ، بِيضَاءُ وَسَمَرَا ،
فِي مُفَاتِنَةٍ كَبْرَى ، وَكَامِلَةٍ وَقَصِيرَةٍ فِي مُعَاوَاةٍ كَثِيرَةٍ ، وَسَمِينَةٍ وَرَقِيقَةٍ ، فِي
مُعَاتَبَةٍ حَقِيقَةٍ ، وَعَرَبِيَةٍ وَحَضْرِيَّةٍ ، فِي مُجَادَلَةٍ قَوِيَّةٍ ، وَعَجُوزٍ وَصَبِيَّةٍ ، فِي
مُخَاصَمَةٍ بَذِيَّةٍ ، فَبَيْنَمَا أَنَا أَنْظُرُ فِي تِلْكَ الْوُجُوهِ الْمُشْرِقَةِ وَالْقُدُودِ الْمُرَوَّنَةِ ،
وَإِذَا بِبِجَارِيَّةٍ يَغْلِبُ ضِيَاءُ وَجْهِهَا ضِيَاءَ الشَّمْسِ ، فَوَقَفْتُ بَيْنَ الصَّفُوفِ
وَسَلَّمْتُ بِنَانَهَا الْخُمْسَ ، ثُمَّ تَقَدَّمْتُ وَقَالَتْ :

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي جَعَلَ الْبَيَاضَ طِرَازَ كُلِّ جَمَالٍ ، وَشَرَّفَ أَهْلَهُ
بِالْحَيَاءِ وَالْكَهَالِ وَأَعْطَاهُمْ عِزَّةً لَا تَبِيدُ ، وَصَيَّرَ الشُّمْرَ لَهُمْ عَيْيِدًا ، أَلَا

× لَمْ نَظْفَرْ بِنَسْخَةٍ صَحِيحَةٍ لِهَذِهِ الْمَقَامَةِ إِلَّا نَسَخَتَيْنِ شَدِيدَتِي التَّصْحِيفِ وَقَدْ بَذَلْنَا
جَهْدَنَا فِي تَصْحِيحِهَا وَسَبْكِهَا بِمَا يَقْرِبُهَا مِنْ صَنْعِ كَاتِبِهَا الْبَلِيغِ .

وإنَّ على قلبي جمة ، من مُعاتبتك يا ذاتَ السُّمرة أَعْنَدَك يا سمراء ما
عندي ، وليس قدُّك كقدِّي ولا خدُّك كخدي ، جَبِينِي ذُو ابتهاج ، وذَوَائِي
كَقِطْعِ الزَّاجِ ، ورُشْحُ عَرْفِي كَمِسْكِ اذْفَر ، يرشح من تحت البُرْدِ
والمَغْفَر ، وتَغْرِي أَقْحَوَان ، وديساج وجهي أَرْجَوَان ، وانْ أَسْبَلْتُ
شعري المَصْفُور فظلامُ ليل على بياض كافور ، ثم أنشدت :

قلْ للذي أُرَى بأهل البياض ما أنت إلا باطلُ الاعتراض
فورْدُ خدي أبداً زاهرُ في كل فصل فوقَ خدي رياض
يا حاسدي مُتْ كمدّاً انما تُجَنِّي المني من الحدود الغضاض

ثم سامتُ بالبنان ، وأمسكت العِنان ، فتقدمت السمراءُ وحطَّت
اللاثام ، عن وجه شهيِّ الإلتِثام ، وأبلغت في السلام ، وأقبلت تواضعا على
رؤوسِ الأقدام ، فوقفت كالغلام وأفصحت في الكلام ، وقالت :

الحمد لله الذي خلق الانسان في أحسن تقويم وجعله أفضل الحيوان ،
وفرَّق بين الصور والالسة والألوان ، وزَيَّن الأبيض بشعر كالغسق ،
وامتدَادِ الحاجِبَيْنِ وسوادِ الحدق ، وأَجَلَّ ما يقف له العاشقون اجلالاً ،
ويرتجلون فيه الأشعار ارتجالاً ، مِسْكَةُ الخال ، وعَقْرَبُ الدلال ثم

التفتت الى البيضاء وقالت : يا أشبه شيءٍ بجُبْنِ الرُّومِ ، أَخْرَقْتَ حِجَابَ
الأشْرُومِ ، ما زال طعامُكَ قليلَ المِلْحِ ، وَجَفَنُكَ كثيرَ الرِّشْحِ ، وَلَبَنُكَ
أَذَى ، وَعَسَلِي أَنَا غِذَا ، وَلَوْنِي لَوْنُ الحَمْرِ ، وَطَعْمِي طَعْمُ التَّمْرِ ،
ثم أنشدت :

الحمد لله ليس التَّبَرُّ كالوَرَقِ قد أحسن الله في خلقي وفي خلقي
فالجسم مني نُضَارٌ صَيَغَ مَنْظَرُهُ بمسكة فغدا طيباً لمنشيق
يا مَنْ يعبِّرُنَا باللون إنَّ لكم جهلاً يقود الى الطُّغيان والحُمُقِ
كم أَسَمَرَ قلبه كافورة وله من السَّعادة نجمٌ لاح في الأفق

فلما فرغت من كلامها ، وما أبدعته من حسن نظامها ، تبرَّعت
بنقابها ، وسامت على الصَّفَّين ، وقبَّلت أساريِرَ الكَفَّين ، وإذا بجارية
تتخطى الرُّقَابَ ، بعد أن حطَّت النِّقابَ عن دِيبَاجِ صَقِيلٍ ، ورنت
بطرف كحيل ، ومالت بقَدِّ قويمٍ ورِدْفٍ ثَقِيلٍ ، فسمعتها تقول : اليكم
يا ذوي العقول ، فلعلَّكم تحكمون بيني وبين هذه القصيرة ، فانها عَمِيَّةُ
البصيرة ، تعيب الكمال ، وهي الطبقةُ الثانيةُ من الجَمال ، ثم قالت في
الثناء على ذي الجلال وأجادت في المقال :

الحمد لله فالِقِ الاصباح من بعد الغيوم ، لا اله إلا هو الحي القيوم ،

وصلى الله وسلم على محمد نبيه الذي ارتضاه لنفسه حبيباً وخليلاً ، وأرسله
لجميع خلقه نبياً ورسولاً ، ثم قالت : أين هذه التي تعيبُ ما لا يُعاب ،
وتُدخلُ نفسها في الأمور الصَّعاب ، لا تُحجب عينُ الشمس بالغربال ،
والثعلبُ لا يُقابل بالأشبال ، يا هذه خطأُك إليّ من غير الواجب ،
ألم تسمعي أن العين ولو علَّتْ فوقها الحاجب ، فإلى كم يازرِعةٌ يَاجوجَ
وما جوج ، يكون فرسُك معي للشرِّ مَسْروج ، ثم صالت وما اعتدت
فأنشدت :

نحن قوم لنا بهاء البُود ولدينا تفاخرٌ بالقُدود
كلُّ زَيْنٍ أزيئُه بكمالي وجمالي وُغْنج لحظي وجيدي
وإذا ما القصارُ قُلْدَنَ حلياً صار كالدر في نُحور القُرود

فلما أتمت كلامها ، وأنهت نظامها ، اذا بالقصيرة قد أقبلت تجرُّ
أذيالها وتَوَاتِرُ أقوالها ، فوَلَوْتُ وصاحت ، وأعلّنت بما في ضميرها
وباحت ، ثم قعدت على أعلى مكان ، وتكلّمت بأفصح لسان ، فقالت
تخاطب الطويلة : يا شقيقة الزرافة ، إلى كم تُطيلين هذه الخرافة ، يا
ناقة العشير^١ ، وقصة النشِير^٢ ، ويا كاملة الصّاد^٣ ، وقليلة القُصّاد ، نحن

١ - العشير الزوج والمقصود تشبيهها بالناقة في الطول .

٢ - لعله يريد القصبة التي يرفع بها حبل القسيل حين ينشر وبالنشِير يعرف في
لسان العامة .

٣ - الصّاد داء يصيب الابل فتسيل انوفها فتسمو برؤوسها .

أهل المعاني الرِّقاق وَفِتْنَةُ العِشَاق ، وعلى منظرنا طِلَاوَةً ، ورونقُ
وحلاوَةٍ ، فَأَرَى لك من الرأي والتدبير أن تأخذي معي في التقصير ،
فإن الله تعالى خلقَ الكامل والمتوسِّطَ والقصير ، على أن القِصْرَ والكمال ، إنما
هو في الأفعال ، ثم قعدتْ على أعلى مكان ، وتكلمت بأفصح
لسان ، فقالت :

الحمد لله الملك الكبير ، الذي ليس له حاجِبٌ ولا وزير ، وصلى
الله وسلم على محمد نبيه وعلى آله ما هبَّ نسيم وفاح عبير . ثم أنشدت :

غَزَلَانُ الأُنْسِ ذَوُو القِصْرِ وَشِفَاءُ النَفْسِ مَعَ البَصْرِ
فِي عَيْشِ القَلْبِ بِمَنْظَرِنَا وَتَقَرُّ العَيْنِ مِنَ النَظَرِ
وَإِذَا مَا الرَوْضِ أَتَيْتَ فَلْذُ بِقِصَارِ القَدِّ مِنَ الشَجَرِ
إِيَّاكَ النَخْلَ فَإِنَّ لَهَا طَوْلًا يَهْدِيكَ إِلَى الغَرِ

وبينا هما في طويل من الكلام وعريض ، يتنازعان أبياتَ القريض ،
إِذَا بضجيج ، كضجيج الناس في الحُجيج ، والناسُ قد تطاولتْ أعناقهم ،
وشخصت أحداقهم وَإِذَا أنا بقلَّاع ، يسوق مركبا مَوْسُوقًا بالسَّلَاع ،
فقلت ما هذه السفينة ، فقيل لي هذه الجارية السمينية ، فدار المَحْفِلُ
عليها كالحلقة ، فقلت سبحان من لا يملُّ من خَلْقَةٍ ، فحطت من القلق رداءها ،
وغاظت بأعكانها حُسَّادها وأعداءها ، وقد تكلل العرق على جبينها

كدرّ الحجاب، وفتنت برّوض خدّها ذوي الألباب ثم قالت :

الحمد لله باسط الرزق وسابغ النعم المنفرد في دَيْمُومِيَّتِهِ بِالْقِدَمِ ،
والصلاة على خَيْرَتِهِ من خلقه سَيِّدِ العرب والعجم ، صلاةً تُنْجِي الْعَبْدَ
يَوْمَ الْمَزْدَحَمِ ، ثم اعتمدتْ بِكَفِّهَا على عِطْفِهَا ، ومالت كالبحر الزاخر ،
فقدّمت المقادم وأخّرت الموابخ وقالت : أين هذه المسفولة الصوت ،
الواقفة بين بَيمَيدان الحياة وبَيمَيدان الموت المنفوضة اللحم ، التي حُرِّمَ عَلَيْهَا
كما حُرِّمَ على بني إسرائيل الشَّحْمُ ، الْمُتَغَصُّهُ الْعَيْشُ ، الْكَثِيرَةُ الطَّيْشُ ،
الضعيفة المِخَاخُ ، الشديدة الفخاخ ، النحيلة من غير عِلَّةٍ ، الهزيلة من غير
قِلَّةٍ ، كُفِّي يَا مَسْقُومَةٌ عني هذه الغرارة ، واعلمي أن على جسمي من
الزينة نضارة ، أقتنص بها القلوبَ من غير حيلة ولا إدارة ، ونهدي
وأعكّاني ، يُغْنِيَانِي عن الشّورة في أركاني ، ثم أنشدت :

الحمد لله في سرّ وفي علن	حمداً يخلصني من ظلمة المحن
قدنلتُ ما أشتي في الدهر من أرب	في العقل والقلب مني ثم في البدن
ان البهاء يزينُ الخلق منظره	كما تُزانُ حُلَى الأشجار بالدم من
أرحتُ قلبي من همّ ومن سهر	وساعد السعدُ بالأفراح في زمي
يا من تعودّ بالتوبيخ كفّ فما	يُشَبِّه العَجْفُ في الأنعام بالسّمَن

وذهبت لتجلس ، فما استقرَّ بها القُعود ، إلاَّ وجارية وقفت كأنها
 كوكب السعود ، تبتهج باللفظ والابتسام ، وتضطرب كما يضطرب الحسام ،
 وتبسمُ عن ثغر كاللَّثال ، ريقه كالعذب البارد الزُّلال ، ثم قالت : إليَّ إليَّ
 يا معشر العشاق فعلى مثلي تُندَبُ الأطلال ويَجري الدَّمُ المَرَّاق ، وحدث
 الله عز وجل بقولها :

الحمد لله الذي أودع الحكمة في النفوس الرِّقاق ، باعث الخلق
 وناشرهم يوم التَّلَاق ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد المخصوص بالحوض
 والشفاعة واللواء والبُراق ، ما حدًا حادٍ وساق الركبَ إليه مشتاق ، يا مَنْ
 حضَرَ في مجلسنا ، ولاذ بأنسينا ، أسمعتَ مقالةَ هذه العاهة ، وما ظهر منها
 من قلةِ النزاهة ، هذه التي تفتحُ فيها مثلَ التَّمساح ، وتبلغُ القرع وتخرُجها
 صِحاح ، وان قُربَ منها الرجل لمقصدٍ أو سُول ، غرقَ في بحرِ بسُول ،
 قلبها بالعلف هائم ، كما تفعلُ البهائم . ثم أبرقت وأرعدت ، وقالت فانشدت :

يا عاهةً ليس لها من خلاق	هواكٍ قد أنساكِ يومَ التلاق
والحشر والنشر وأهواله	وخجلة العبد وخوف المساق
لو كان للقلب به فكرةٌ	لكان للجِسمِ ضنًى واحتراق
نحنُ رِقاقٌ في النفوس ولا	يرقُ قلبُ الصبِّ إلاَّ وراق

ثم قالت : وما حيلتُك أيتها العاهةُ إذا جاوزتِ الأربعين ،

وأنتك العِللُ بجيش ظاهر غير كمين ، وقد تدلّتْ منكِ الحواصِلُ ،
وهجرَكِ الصديق المواصل ، وتكَمْشَتْ منكِ الحلاقِمُ ، وتفرقت على
أعضائكِ البلاغم ، وتعطّلتْ منكِ القوائم ، فلا تتحرّكين إلا بعجلة ودعائم
وأنشدت :

إذا رَقَّ الحسام قُضِيَ وأُمضِيَ وخطَّ بجده جِدَ النِّفاقِ
وان رَقَّ الزُّجاجُ وَرَأَقَ فيه رَقِيقُ الخِرِّ لَذَّةٌ لكلِّ رَأَقِ
فتُبَصِّرُهُ نَحِيلاً في نَحِيل ويعظُمُ فَعْلُهُ عِنْدَ المَذَاقِ

ثم اني سمعتُ صوتاً يصيح ، ويقول بلسان فصيح :

مهلأ روَيْدأ يا جميعَ من حضر حتى اقولَ بينَ بَدْوٍ وحَضَرِ
منْهُنَّ رباتُ الخدودِ الناضرة ذاتُ الخيامِ أو نساءُ الحاضرة
نحن جوارٍ من بنات البادية مَلامِحُ الحُسْنِ علينا بادية
فان بدتْ منكنَّ لي مَكَلَّمة أنا التي أرَدُّها مَكَلَّمة

ثم حطَّت اللثام ، عن وجه يشبه البدر ليلة التهام وقالت :

الحمد لله الذي أمره بين الكاف والنون ، الحاضر الناظر القاهر
الذي بيده ملكوت كل شيء واليه تُرْجَعُونَ ، وصلى الله على النبي الذي
نور الأفئدة فأبصرت البصائر وقرت العيون ، وأنشدت :

قد مالَ الحُسْنُ الى العَرَبِ نحنُ الأقارُ بلا كَذِبِ
 فلنَّا أَرَجُ ولنَّا غَنَجُ ولنا دَعَجُ بالسَّخَرِ حُجِي
 ولنا كَرَمَ ولنا هِمَمَ ولنا ذِمَمَ للعَكِثِيبِ
 ولَقَا صِدْنَا فِينَا أَرَبِ فيما يَرَجُوهُ مِنَ الأَرَبِ
 قد شَرَفَ نَحْتَدُّنَا وكَفَى أنَ المُخْتَارَ مِنَ العَرَبِ
 صلَّ ما دمتَ عليه تَفُزُ يومَ الأَهْوَالِ مِنَ الكَرَبِ

ثم قالت : نحن ربّات القلوب ، ومُنتهى غاية كلِّ مطلوب ، جمالنا
 أبدعُ جمال ولساننا أفصح لسان ، فالعربيةُ بهذا البيان قَمَرٌ في شَكْلِ
 انسان . وسكتت فاذا بجارية حضرية ، ذاتِ جمال فائق وهمة سنية ،
 نادتها : كُفِّي عن الجدال ، ودَعِي هذا الاحتيال ، فان مَن بالمُعاطاة
 يُلُوذ ، كمن يدُخل بجهله في زقاق غير منقوذ ، إياك أن تذكرني في هذا
 المحفل نسبا أو قبيل ، وان اردت أن تفتحي للحرب باباً فانا على السبيل ،
 واعلمي أن رُعيانَ الجمال ، لا يفتخرون بحسن ولا بجمال ، ثم قالت :

الحمد لله الذي فضّل على البادية الحاضرة ، وأعطانا الراحة في الدنيا
 وأعاننا على طريق الآخرة ، وخصّنا بأحسن الملابس وأيمن المواطن ،
 وأمّن قلوبنا في الظاهر والباطن ، ووَشّحنا بالخلّى والخلل ، وأسكّننا
 في القصور والدور في ظل الحُجب والكِلل ، واشهد أن لا اله إلا الله
 وحده لا شريك له عُدَّةٌ للاقائه يوم تكون النفوس حاضرة ، والوجوهُ

الناصرة الى ربها ناظرة ، وصلى الله على محمد وعلى آله وأصحابه واصهاره ،
وأزواجه وحزبه وأنصاره ، وقالت : ما أُعطيَت الهمة السنية ، إلا للجارية
الحضرية ، خدِّي مُورِّد ، ونحري مُفَنِّد ، ولا يَرى صدري العابدُ
الزاهد إلا تنهَّد ، ثم أنشدت :

ألا انما الحسنُ حسنُ الحضر	علينا ومنا وفينا ظهر
فان كنتِ يا هذه نجمةً	بأعلى السماء فاني قمر
يسخر الجفون وغنج العيون	أسلُّ القلوب كسلُّ الشعر
ومن ليل شعري ظلامُ المسا	ومن وجنتي الصياحُ الأغر

فلما أتمت الحضرية الأبيات ، وقد أفصحت في المبادئ والغايات ،
إذا بهزة عظيمة في المحفل ، كادَ يرجع أعلاه منها أسفل ، فأتت عجوزٌ قد
اشتبكت مع صبية ، وبينهما مُعاطاة ومجادلة قوية ، والصبية تُنادي وتقول :
كُثر الحق وقلَّت العقول ، يا قوم اعدُّوا بيني وبين هذه العجوز ،
بكلام يتعلَّل ويمجوز ، فقالت العجوز : يا هذه الزَمِي الوقار ، وكُفِّي
التقار ، فأنا أفصحُ منك وأعلم ، وأسبق وأقدم ، ولا أَحَقُّ بالتعظيم ، بمن
له الحق القديم ، ثم قالت :

الحمد لله راحم الشيب ، وساتر العيب ، وجامع الناس ليومٍ لا
شكَّ فيه ولا ريب . أنا من ذواتِ العهود والمواثق ، اجمعُ بين المعشوق
والعاشق ، وأزَوِّجُ العرائس ، وأقبل النفاس ، وأشرف المجالس ، ولا

تجري السفينة إلا بمحاولة الرّائس ، أجم الرجل بالشكيمة ، وأردّه في
الأركان يدور كالبهيمة ، على أنني أقضي له المئارب والأوطار ويجدُ عندي
كلّ سلعة لا توجد عند العطار ، وأرفعُ المئُون والوظائف ، ولا أطالبه
بشيء من التّكاليف ، وأقنعُ منه بالزّبيبة ، وأكون له تارة محدّثة وتارة
طبيبة ، فأنظري أيتها الصبية مَنْ يكون لك عَوْن ، ولا تمشي على أثري
فتغرق كما غرق فرعون ، فإني أكثرُ منك بجحاً عن المناسِب ، ولي معرفة
وذهن ثاقب ، وإن شئتِ مناظرتي ومناضلي ففكري في العواقب
ثم أنشدت :

أَمِنَتِ الدهر يا بنتَ الزّواني	وصار لك إليها نُصْبَ العيان
فكم طفل قضى في خَفَض عيشٍ	وأخلف ظنّه بعد الأمان
اللهُ العرش عمّرني وأبقى	سعودي ثم ساعدني زمانِي
جررتُ الذيل في زمن افتخاري	ونزّهتُ الجفون بمهرجَان
وأنّي اليوم من ستين عاما	ولكني أعدُّ من الحسان
فيومُ في المجالس باتّعاظ	ويوم في المحافل والمغانِي

(قال الكاتب) وكانت العجوز مخضوبةً البنان ، مُسوكة القم وليس
لها أسنان ، مصبوغة الحاجب والسالف ، تندب على ما فاتها في الزمن
السالف ، ثم أنشدت ، فأجادت فيما قصدت :

إذا جفَّ لَيْنُ التَّيْنِ يَحْلُو مَذَاقُهُ وأَحْلَى مَذَاقاً فِي الثَّمَارِ الْعَبَّائِزِ
جَجَزْتُ وَلَيْسَ الْقَلْبُ مِنِّي عَاجِزَا وَاِنِّي لَمَنْ قَدْ رَامَ حَرْبِي مُبَارِزِ
فَطَعَمِي ذَكِي طَيْبُ النَّشْرِ عَاطِرُ وَانْسَانَ عَيْنِي لِلْجَبِّينِ غَاِمِرِ

ثم قالت : وان أردت يا هذه المجنون والرقاعة ، فأنا والله ربّة
الصناعة وأستاذة الجماعة ، وإذا بالصبيّة قد أتت تدرّج درج القطا على
الأقدام ، وتبدّت فأقبلت اقبال العام ، ووردت ورود الغنى على أهل
الإعدام ، وهي تزعم بنفسها كما يزعم البطل المقدام ، إذا ساعدته الأيام ، ترمق
بلحظٍ نائمٍ وتفعل بأشفارها في قلوب العاشقين ما تفعله الصوارم ، ثم
نادت : أيتها العجوز الشمنضا ، يا من كشفت بعيها عن نفسها الغطا ، أما
قنعت يا عجوز ، يا نشوز ، أما كفاك ، سدّ الله بالشوك فاك ، هيهات
هيهات يا عجوز ، يا بنت الدروز ، أن يكون لك بعد الهرم طلق ،
أو يكون الجديد مثل الخلق ، أما رأيت شغري الفاحم ، وثغري الباسم
وغضني الناعم . ثم حطت النقاب ، فأخرجت الشمس من تحت السحاب ،
وقد سلمت على القوم فأفصحبت ، وقالت فأوضحت :

الحمد لله الذي غرس ريحانة الشباب ، في قلوب ذوي الالباب ، ثم
قالت ، وللعجوز أشارت : ويحك لو كنت تبكين على ما مضى ، لكان
لك أقرب الى الرضى وأنشدت :

نور الشباب له عزّ وسلطان وللسعادة أرجاء وأوطان
وللمحاسن أوصافٌ تقومُ بها وللحقائق آياتٌ وبرهان

روض الشباب تبدّت فيه أربعة ورّد وزّهر ونشّرين ورّيجان
 من قال ان زمان الشيب يشبهه عهد الشباب فذاك القول بهتان
 ياتي العجوز اندبي ما قد مضى أسفاً ترّحلت عنك أوقات وأزمان
 وأنتم يا أهيل الحسن كلّكم بيني وبينكم في الحرب ميدان

فاما فرغت الصبية من النظام ، أقبلت الجواري والعجوز عليهن من
 أمام ، فقالت لها : بُورك فيك من صبية ، وفي ألفاظك الزكية ، وسأقول
 بينكن مقالةً انصاف يقتضيها الحقّ وجميل الأوصاف ، أما البيضاء
 وذات السُمرة ، فتلك فائدة وهذه ثمرة ، وزينة الدنيا ذهب ونقرة ،
 ثم قالت للكاملة والقصيرة ، مسأتكما عندي يسيرة ، اذا كانت الصورة
 الحسناء كاملة ، فهي من النعم الشاملة ، وعلى هذا فالقصيرة الذراع ، لا يمتدّ
 لها في مجال الفخر باع ، فان القصر مذلة ، بسبب هذه العلة ، فتأدّي مع
 ذات الكمال ، فانها أبهى منك وأمتع للرجال ، ولو كنت بالسوية معها
 في الجمال ، ثم قالت للسمنية والرقيقة ، تالله لا أخفي عنكما من معاني
 الحسن حقيقة ، فالسمنية رياض وجنان ، والرقيقة روح ورّيجان ، ثم قالت
 للبدوية والحضرية ، سأفصل بينكما بحكم الانصاف في هذه القضية ، أما
 القول الصحيح فكل واحدة منكما في زيّها أملح مَليح ، فالعربية تصلح
 للحضر والسفر ، والحضرية لا تصلح إلا للحضر ، وأما أنا والصبية ،
 فحجّتها واضحة وحجتي غيّر جليّة ، لأنها أبرعُ مني في الجمال ، وأنفعُ
 للرجال ، وأما العجوز مثلي فقد هرمت بمضايقة الآجال ، فما لأحد فيها مجال .
 ثم انصرف القوم ، وارتفع العتاب واللوم .

المقامة الزهريّة في منج المكارم البكريّة لمحمد المكلاتي

حدثنا بشر بن سرور ، عن سهل بن ميسور ، عن الضحاك بسنده
عن بسام ، قال : ترامت لي من الأمانى الوجوه الوسام ، وأنا من نشاط
الشبيبة وافر الحظوظ والأقسام ، لم يفتني من قواعد اللهو الا الحج ،
فأقمت من قول القائل وظائف العج والثج ،

أُحججُ الى الروض لتحظى به وارمِ جمارَ الهمّ مُستنفِرا
مَنْ لم يطف بالروض في زهره من قبل أن يحلق قد قصّرا

فلبّيتُ داعيه ، ، وأصغيت إليه بأذن واعية ، وأزمتُ المجاز ،
الى المشاعر التي ليس بينها وبين اللذات حجازاً ، وأعملتُ يغمّلات
العزم ، وأدخلتُ على مُعتلّ التواني عوامِلَ الجزم ، فتخيرتُ من السمر
أطيب أوقاته ، وأحرمتُ مع حبيب الأتس من ميقاته ، وسرت

١ - العج رفع الصوت بالتلبية والثج اسالة دم الهدى وذلك في الحج .

٢ - فاصل .

والنسيم معتلّ ، وخذُ الثرى بمدامع الأنداء مُبتَلّ ، فأنت روضاً قد
تولّاه الوليّ ، ووسمه الوسميّ^١ وأظلّته راياتُ الصباح ، وبأكرت الصبا
تقبيل نوره من قبل أن ترشّف شمسُ الضحى ريقَ الغواصي من ثغور
الأفاح ، فأقامت منه

حيثُ الغدير وقد أجادت نقشه	كفّ النسيم ومرّها في جَوْشن
وغصون أدواح الرياض تهزّها	نغمُ القماري بالغناء المحسن
ما بين ثغرٍ للأفاح مُفلّج	وجبين نهر بالنسيم مُغضّن
ووجوه هاتيك الرياض سوافر	غيدُ تزان في المياه بأعين
والأرض تُجلى في رياض أخضر	والجوُّ يبرُز في قنّاع أذكن

وما زلنا بين تلك المنازل نرّمي جمارَ الفوائد ، وتردّ من ذلك
أحلى المصادر وأعذب الموارد ، الى أن ارتقت الشمس درجة العلى ،
واستوت لا إلى هولا ولا إلى هولا ، فترامينا على تلك الظلال ،
مستحسنين قول من قال :

وقانا لفحة الرّمضاء وادٍ	وقاه مُضاعفُ الغيث العميم
يصدّ الشمس أنى قابلتنا	فيحجبها ويأذن للنسيم

وَأَسْقَانَا عَلَى ظَمَأٍ زُلَالاً أَلَذَّ مِنْ الْمُدَامَةِ لِلتَّنْدِيمِ
تَرُوعُ حِصَاةَ حَالِيَةِ الْغَوَايِ فَتَأْسُ جَانِبَ الْعِقْدِ النَّظْمِ

فإنَّا لكذلك اذْ بَرَقَ الْجَوْهُ فَسَلَّ عَلَيْنَا نُصُولَهُ الْمَذْهَبَةَ ، وارتفعت
للغمام فَمَا طَيطُطَ مَطْطَبَةً ، وجعل السحاب يسوق المواكب ، وأخذ الرِّبَابُ
يُرْتَّبُ الْكِتَابِ ، فتصَبَّبَ عَرَقًا ، ونادم الروض فغَنَّى وَسَقَى ، فَمَا أَغْمَدَ
سَيْفَ ذَلِكَ الْبَرَقِ ، وَلَا انْقَشَعَ ذَلِكَ الْوَدْقُ ، إِلَّا وَالْمَسَاءُ قَدْ طَفَلَ ،
وَالرَّوْضُ فِي ثَوْبِ الْأَصِيلِ قَدْ رَفَلَ

وَرَبَّ عَشِيَةِ فِيهَا طَفِقْنَا نَرُودُ الظِّلَّ وَالْمَاءَ الْقَرَّاحَا
وَقَدْ ضَرَبَ الضَّرِيبُ^١ بِهَا قِبَابًا عَلَى الْبَطْحَاءِ أَهْجَتِ الْبِطَاحَا
وَكَانَ جَنَابُهَا الْخَضِرُ آسَا فَأَصْبَحَ وَهُوَ مُبَيَّضٌ أَقَا حَا
كَانَ الْخَضِرُ^٢ جَرَّبَهَا يَمِينَا وَمَدَّ عَلَيْهَا جَبْرِيلُ جَنَاحَا

فَبِتْنَا حَبْرَانَ دَوَلَابَ يَهْدِلُ ، وَأَغْصَانَ تَنْثَنِي وَتَعْتَدِلُ ، وَيَسْتَرُ
الظَّلَامَ يَسْدُدُ ، فَانْجَلَى الْأَفَقُ عَنْ رَوْضَةِ غَارَتِ مِنْهَا الرِّيَاضُ ، يَنْسَابُ مِنْ
جَرَّتْهَا مَا يَفْعَمُ الْحَيَاضُ ، وَأَنْسَتْنَا مَا طَوَى النَّهَارُ عَنَا مِنَ الْحَاسِنِ ،

١ - السحاب الأبيض . ٢ - الثلج .

٣ - هو بكسر الضاد ويخفف بالسكون ني معروف روي انه جلس على ربوة
بضياء فاهتزت تحته خضراء .

وورَدْنَا من بَقِيَّةِ أَنْسَا مَاءَهَا غَيْرَ كَدِرٍ وَلَا آسِنٍ

تَحْسِبُ النِّجْمَ فِي دُجَى اللَّيْلِ زَهْرًا فِي رَبَاهَا وَتَحْسِبُ الزَّهْرَ نَجْمًا

فَمَتَّعْنَا الْبُطْرَفَ فِي الرُّوْضَتَيْنِ ، وَحَصَلْنَا مِنَ الْأَنْسِ عَلَى جَنَّا الْجَنَّتَيْنِ ،
حَتَّى إِذَا عَبَثَ الْإِبْتِسَامَ بِالْوُجُومِ ، وَفَاضَ نَهْرُ الْمَجْرَةِ عَلَى حُصْبَاءِ النُّجُومِ ،
وَكَادَ جُرُفُ اللَّيْلِ يَنْهَارُ ، سَمِعْنَا مِنْ بَيْنِ جَلْبَةِ الطَّيْرِ وَالْأَزْهَارِ :

هَاتِ الْمُدَامَ إِذَا رَأَيْتَ شَبِيهَهَا فِي الْأَفْقِ يَا فَرْدًا بِغَيْرِ شَبِيهِ
فَالصَّبْحُ قَدْ ذَبَحَ الظَّلَامَ بِنَصْلِهِ فَغَدَبَتْ حَمَائِمُهُ تُخَاصِمُ فِيهِ

قَالَ الرَّائِي فَأَوْجَسْتُ خِيفَةً فِي نَفْسِي ، وَاعْتَصَصْتُ الْخِيفَةَ بِدَلِّ
أَنْسِي ، وَقَمْتُ مَذْعُورًا لِفَرْطِ الدَّهْشِ ، وَالْجَوْثُ بَيْنَ الضِّيَاءِ وَالْغَبْشِ ،
« يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لَأُولِي الْأَبْصَارِ » ، فَتَرَاءَتْ
لِي وَجُوهُ الرِّيَاضِ تَتَعَبُّ دَمَا ، كَأَنَّمَا اكْتَسَتْ الْآفَاقُ مِنْ حُرَّتِهِ عِنْدَمَا ،
فَتَوَهَّمَتْهُ مِنْ بَقَايَا الشَّقِّقِ أَسْفَرُ عَنْهَا ضَوْءُ الْفَلَقِ ، فَإِذَا هُوَ يُنَادِي بِلِسَانِ
طَلِيْقٍ : أَنَا أَخُو الرِّيَاضِ (الشَّقِّيقِ) ، كَمْ كَسَوْتُهُ جَمَالًا ، وَكَسَبْتُهُ مِنْ وَرَقِ
وَرَقِي مَالًا ، مِنْ وَجْهِي تُعْرِفُ نَضْرَةَ النِّعَمِ وَمَزَاجُ كَأْسِي مِنْ تَسْنِيمِ ،
فَدَعُ قَوْلَ عِيَاضٍ ، وَوَصَفَهُ إِيَّايَ بَيْنَ الرِّيَاضِ ، وَخَلَّ مِنْ الْأَلْوَانِ

الْمُنْخَصَر ، واسمع ما قيل الْحُسْنُ أَحْمَرُ فالأزاهيرُ عساكِرُ وأنا لها أعلام ،
فحَسْبِي ما قال علماء الشَّعْر الأعلام :

وَكَأَنَّ مُحَمَّرَ الشَّقِيقِ إِذَا تَصَوَّبَ أَوْ تَصَعَّدُ
أَعْلَامُ يَأْقُوتٍ نُشِرَ نَ عَلَى رِمَاحٍ مِنْ ذَبَرَجْدٍ

فصاح به (النَّمَام) ، أقصر فلي بحضرتكما-إمام ، متى جَمَلَتِ
الرياض ، ومتى أَغْنَيْتِ الحياض ، وأنى لوجهك النَّضْرَة ، وقد أبدى
صفحةً ، ليس لها عرف ولا نَفْحَة ، أما ذكرتَ سوادَ قلبك ، وقضاء
ربك ، وقد جرح القاضي شهادتك ، وردَّ يَداءك واشادتكَ :

انظر الى الزَّرْعِ وخاماته تحكي وقد ماست أمام الرياح
كثيبة خضراء مهزومة شقائق الثَّعْمان فيها جراح

نعم صَبَغْتُ مستحيل ، وأعلامك مُؤَذِّنَةٌ بالرحيل عن الرسم المحيل ،
فما النَّضْرَة ، إلا لِلنَّضْرَة ، أو ما علمت أن بها يُشَبَّه العذار ، إذا استدار ،
ما أَحْسَنَ الرِّيحان في الجلندار فان قلتَ نَمَام فما نم إلا بأمره ، ولا باح
إلا بسره

لَمْ كَرِهَ النَّمَامَ أَهْلُ الْهَوَى ساءَ إخواني وما أحسنوا

ان كان نَمَامٌ فَمَعْكُوسُهُ من غير تأديب لهم مَأْمَنُ

فناداه (البان) ، وقد ظهر عليه وبان ، أيها المفتخر بفيه ، المتحلي بما ليس فيه ، تسرقُ السمعَ بأذني فرس ، فشأنه كله خُلَسَ ، أما علمت أن النَمَامَ في النار أما كفاك هذا العار ، بغيضُ الذات ، هادم اللذات ، تطيرَ من اسمك الناس وماله في الثقلِ من ناس ،

أقول وطرفُ التَّرجسِ الغضُّ شاخصٌ إليَّ وللنَّمامِ حَولِي إمام
أيا ربُّ حتى في الحداثق أعينُ علينا وحتى في الرياحين نَمَام

ما الحسن إلا للقضيب المشوق ، والقدُّ المشوق ، المكتسبي فاخرَ
الملبس ، الزاهي في الديباج الأطلس ، إليَّ تُنسَبُ القدود الملاح ، وعلى
قامتي يَعْزِلُ العاذل ويلحي اللّاح .

تبسم زهرُ البان عن طيبِ نشره وأقبل في حسنِ يحلُّ عن الوصف
هلموا اليه بين قصف ولذّة فان خُصُورَ البان تصلح للقصف

فأجابه (البهار) البهّار ، البادي فضله على فضل النهار :

نفس غصنُ البان أذنبه وقاسَ وقتَ الصبح عُجْباً وفاح
وقال هل في الروض مثلي فقد تُغزَى الى قدّي قدودُ الملاح
فحدّق التَّرجسُ يَهْزَأُ به وقال حقاً قلتَ ذا أم مُزاح

بل أنت بالطول تحامقت يا مقصود عجب بالدعاوي القباح
فقال غصن البان من تيهه ما هذه الأعين إلا وقاح

أما راقك الياقوت الأصفر ، وسط الدر الأبيض على الزمرد
الأخضر ، يشهد بمنافعي البيئة ، في الفصول والأزمنة ، شموا النرجس
ولو يوماً في السنة ، فأنا غذاء الروح ، لمن يغدو عني ويروح ،
لطيف المزاج ، أصلح للعلاج ، وأزيل من الدماغ مضرّة دخان
السراج ، وأخف على العشاق ، يوم التلاق

وإذا قضيت لنا بعين مراقب يا رب فلتك من عيون النرجس
فنهض اليه (البنفسج) وثار ، وتكلم بالسن كأنها أوائل النهار ،
وقال لا يظهر لك أمر ، ولا يسلم لك فخر ، إلا على الورد ، فمأ
لأمرك عليه من ردّ .

خجلت خدود الورد من تفضيله خجلاً توردها عليه شاهد
للنرجس الفضل الممين وان أبي آبي وحاد عن الطريقة جاحد
فضل قديم ، يعرفه المدام والنديم ، وأما أنا فبنهجة لازوردية ،
ونسمة عنبرية ، ريتانة الجيوب ، المحببة للقلوب

يا مهندياً لي بنفسجاً أرجأ يرتاح صدري له وينشرح

بَشَّرَنِي تَصْحِيفُهُ عَاجِلًا بَأْنَ ضَيْقَ الْأَمْرِ يَنْفَسِحُ

فَأَقْبَلَ (الورد) فِي جُنُودِهِ ، نَاشِرًا لِرَايَاتِهِ وَبُنُودَهُ ، مُحَمَّرًا
الْوَجَنَاتِ ، مُنْكَرًا عَلَى الْبِنْفَسِحِ مَا جَاءَ بِهِ مِنَ التَّرَهَاتِ .

وَلَقَدْ رَأَيْتُ الْوَرْدَ يَلْطِمُ خَدَّهُ وَيَقُولُ وَهُوَ عَلَى الْبِنْفَسِحِ يَخْنُقُ
لَا تَقْرُبُوهُ وَإِنْ تَضَوَّعَ نَشْرُهُ مِنْ بَيْنِكُمْ فَهُوَ الْعَدُوُّ الْأَزْرَقُ
كَيْفَ يَفْتَخِرُ التَّرْجَسُ مِنْ بَيْنِ الرِّيَاحِينَ ، عَلَى نُجْبَةِ الْمُلُوكِ
وَالسَّلَاطِينِ .

إِنْ كُنْتَ تُنْكَرُ مَا ذَكَرْنَا بَعْدَ مَا وَضَحْتَ عَلَيْكَ دَلَائِلَ وَشَوَاهِدَ
فَانْظُرْ إِلَى الْمُصْفَرِّ لَوْنًا مِنْهَا وَافْتَمَ فَمَا يَصْفَرُّ إِلَّا الْحَاسِدُ
أَلَمْ تَسْمَعْ مَا قِيلَ ، مِمَّا سَيُلْقِي عَلَيْكَ الْقَوْلَ الثَّقِيلَ .

مَنْ فَضَّلَ التَّرْجَسَ فَهُوَ الَّذِي يَرْضَى بِحُكْمِ الْوَرْدِ إِذْ يَرَأْسُ
أَمَا تَرَى الْوَرْدَ غَدًا قَاعِدًا وَقَامَ فِي خِدْمَتِهِ التَّرْجَسُ

أَنَا مُشَرَّفُ الرِّيعِ ، وَمُظْهِرُ مَا لَهُ مِنَ الْبَدِيعِ ، أَنْعَشُ الْأَرْوَاحَ ،
فَأَنَا عَرُوسُ الْأَفْرَاحِ ، نَوَافِحُ ذَكِيَّةٍ وَرَوَايِحُ شَذِيَّةٍ ، أَبْدِيتُ أَلْوَانًا
لَأَهْلِ الْأَدَبِ ، يَقْضُونَ لَهَا بِالْعَجَبِ ، فِيمَي الْأَبْيَضِ وَالْأَسْوَدِ الْحَالِكِ ،
وَمَنِّي وَرَاءَ ذَلِكَ ، أَصْفَرُ فَاقِعَ ، وَمَا يَنْصَفُهُ قَانِي وَيَنْصَفُهُ نَاصِعَ ،

وبالهند مَنِّي شَجَرٌ تُخْرِجُ ورداً عليه مكتوبٌ : لا إِلَهَ إِلَّا الله ، محمد رسول الله ، فأنا للرياحين مَلِكٌ ملوكها ، ووسط عُقُودِها وسلوكها .

فَمَنْ ذا يُضَاهِينِي بِوَصْفِ فَضِيلَةٍ وَفَضْلِي عَلَى كُلِّ الرِّيحِينَ ظَاهِرٌ
زَمَانِي عَلَى الْأَزْمَانِ بِمُتَشَرِّفٍ وَفَخْرِي لِمَنْ يَبْغِي التَّفَاخُرَ قَاهِرٌ

فَرَامَ (الْمَنْشُور) ، أَنْ يُرَاجِعَهُ بِالْمَنْظُومِ وَالْمَنْشُورِ ، وَيَذْكُرَ لَهُ
مِنْ ذَلِكَ مَا هُوَ مَأْثُورٌ ، فَأَسْكَنَهُ ، وَرَدَّ عَلَيْهِ وَبَكَّتَهُ ، وَتَحَامَلَ عَلَيْهِ ،
وَلَمْ يُصْغِرْ إِلَيْهِ ، فَأَمَّا الْأَبْيَضُ فَاسْتَسَلَّمَ ، وَأَبَى الدَّعَاءَ عَلَى مَنْ ظَلَمَ ،
وَكُلَّ مِنَ الْأَصْفَرِ وَالْأَزْرَقِ بَاحَ بِالشَّكْوَى ، إِلَى عَالِمِ السَّرِّ وَالنَّجْوَى ،
فَلَمْ يَزَلْ يُسِيلُ مَدَامِعَهُ ، وَيَمُدُّ إِلَى اللَّهِ أَصَابِعَهُ ، وَعِنْدَهُ تَجَمُّعُ
الْخُصُومِ ، وَإِلَيْهِ تَعَالَى يَنْتَهِي الظَّالِمُ وَالْمَظْهُومُ .

حَازِرُ أَصَابِعَ مِنْ ظَلَمَتْ فَاثَهُ يَدْعُو بِقَلْبِ فِي الدُّجَا مَكْسُورِ
فَالْوَرْدُ مَا أَلْقَاهُ فِي جَمْرِ الْعُضَا إِلَّا الدُّعَا بِأَصَابِعِ الْمَنْشُورِ

قَالَ الرَّائِي ، فَبَيْنَا هُمَا فِي مُطَارَحَةٍ وَجَوَابٍ ، وَمُفَاخَرَةٍ
وِإِعْجَابٍ ، إِذْ أَقْبَلَتْ مُطَوِّقَةُ الرِّيَاضِ ، وَلَهَا مِنَ الْجَوِّ
انْصِبَابٌ وَانْقِضَاضٌ .

وَرَقَاءُ قَدْ أَخَذَتْ فُنُونَ الشُّوقِ عَنْ يَعْقُوبَ وَالْأَلْحَانَ عَنْ إِسْحَاقَ
وَأَنَا الَّذِي أَمْلَى الْهُوَى مِنْ خَاطِرِي وَهِيَ الَّتِي تُنْلِي مِنَ الْأَوْرَاقِ

فَبَاحَتْ بِشَجْنِهَا ، وَتَكَلَّمَتْ عَلَى فَنَنِهَا ، وَقَالَتْ كُلُّ يُحَاوِلُ جُهْدَهُ ،
 وَيَقُولُ بِمَا عِنْدَهُ ، إِلَيَّ لَا لَكُمْ الْفَخَارُ ، وَأَنْتُمْ لَنَا أَعْيَاشُ وَأَوْكَارُ ،
 وَفِرْوَعُكُمْ لَخُطْبَائِنَا مَنَابِرُ ، وَلَقِيَانِنَا سَتَائِرُ ، أَلَيْسَ رَوْوُسُكُمْ لِأَقْدَامِنَا
 خَاضِعَةٌ ، وَلَنَا كُلُّهَا نَزْلُنَا سَاجِدَةٌ وَرَاكِعَةٌ ، وَإِنَّا عَلَى مَا زَعَمْتُمْ بَنَّا مِنْ
 الْجَلْوَى وَتَبَارِيحِهِ ، آخِذُونَ فِي ذِكْرِ اللَّهِ وَتَسْبِيحِهِ ، شُغْلُنَا ذَلِكَ
 بِالْأَسْحَارِ ، وَالْعَيْشِيِّ وَالْإِبْكَارِ ،

قال الراوي : فبينما أعجبُ بما سمعت ، وأُهمُّ بتَقْيِيدِ ما رَوَيْتَ ،
 إِذْ نَشَأَتْ غَمَامَةٌ تَصَافَحَ أَهْدَابُهَا الْأَرْضَ ، وَتَسُدُّ الْآفَاقَ عَلَى الطُّولِ
 وَالْعَرْضِ ، يَحْدُوها الرُّعْدُ ، وَيَسْتَنْجِزُ مِنْهَا الْوَعْدُ .

وَكَأَنَّ صَوْتَ الرُّعْدِ خَلْفَ سَحَابَةٍ حَادٍ إِذَا وَنَتْ الرِّكَائِبُ صَاحَا
 أَخْفَى مَسَالِكَهَا الظَّلَامُ فَأَوْقَدَتْ مِنْ بَرَقِهَا كَيْ تَهْتَدِي مِصْبَاحَا
 جَادَتْ عَلَى التَّلَعَاتِ فَكَتَسَتْ الرَّبِّي حُلَلًا أَقَامَ لَهَا الرِّيعُ وَشَاحَا

فَنَثَرَتْ الْأَرْضُ جَوَاهِرَ تَغَارُ مِنْهَا الْبُحُورُ ، وَتُرْزَدَانُ بِهَا مِنْ
 أَجْيَادِ الْأَزْهَارِ اللَّبَّاتُ وَالتُّحُورُ ، فَاخْتَفَتْ بَعْدَ مَا تَجَلَّتْ ، وَأَلْقَتْ عَلَى
 الْبِطَاحِ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ، ثُمَّ قَالَتْ يَا ذَوَاتِ الْأَطْوَاقِ ، الْبَائِحَاتِ
 بِالْأَشْوَاقِ ، الْمُفْتَخِرَاتِ عَلَى الْأَذْوَاقِ ، بِالْغُدُوِّ وَالرُّوَّاحِ ، بُكَاءُ وَكُنْ
 كَذِبُ ، وَتَوْحُكُنْ لَعِبُ ،

لو كان حقاً ما ادّعت من الجوى يوماً لما طرق الجفون كراك
أو كان روعك الفراق إذا لما ضنت بما جفونها عيناك
ما الفضل إلا لِمَن أحيَا الأرض بعد أن كاد زرعها يبيح ،
فاهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج ، فقلّلتها مُدبّجة ،
ورؤوس أشجارها مُتوّجة ، فلولاى لم يكن لكنّ مرعى ولا سرح
في الأرض ولا مسعى . قال الراوي : فبينما هي طلق اللسان ، وتعد
مالها من الحسن والإحسان ، إذ طلعت الغزالة ، وهي في
مشيها مُختالة .

مرآة تبر لم تشع بصياغة . كلاً ولا جليت بكف الصيقل
حتى إذا بلغت إلى حيث انتهت وقفت كوقف سائل عن منزل
وهي قابلة أعمال كسراب ، وعارض مُنْجَاب ، إذا طلعت عليه
الشمس ذاب ، ألم تستمعوا بأني يوح ، أغدو في مصالح العالم
وأروح ، فلولاى ما جرت الانهار ، ولا تفتت الأزهار ، قال
الراوي : فلما رأيت إفراط اللجاج ، والتادي على الججاج ، قلت
الحق أبلج ، والبطل لجلج ، هلاً أعطيت القوس باريها ، وأسكنتم

الدارَ بانيهما ، فَمِنْ كَلَامٍ مَنْ يَعْقِلُ . إِذَا فَاضَ نَهْرُ اللَّهِ بَطَلَ نَهْرُ
مَعْقِلٍ ، أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ جَامِعَ هَذِهِ الْفَضَائِلِ وَإِمَامَهَا وَمَالِكَهَا الَّذِي
أَحْكَمَ انْتِظَامَهَا ، عَالِمُ الْمُسْلِمِينَ نُحْيِي سُنَّةَ الْفَضْلِ فِي الْعَالَمِينَ الْمَاجِدِ
الْفَاضِلِ ، السَّحَابِ الْهَاطِلِ ، السَّنِيِّ ، السَّنِيِّ ، فَخْرِ الْمَغْرِبِ الْأَكْبَرِ ،
مُحَمَّدِ بْنِ أَبِي بَكْرٍ صَاحِبِ الدَّلَالَةِ الْكَرِيمِ الْجَوَادِ ، الْكَثِيرِ الرَّمَادِ ،
كَافَى اللَّهِ إِنْعَامَهُ ، وَجَازَاهُ عَنْ مَقَامِ الدِّينِ الَّذِي أَرَادَ جِدَارُهُ أَنْ
يَنْقُضَ فَأَقَامَهُ ، فَهُوَ الْمَمْدُوحُ بِكُلِّ لِسَانٍ ، وَالْمَاجِدُ الَّذِي لَمْ يَخْتَلِفْ فِي
فَضْلِهِ اثْنَانِ ، وَالسَّخِيُّ الَّذِي إِذَا مَلَأَ الرَّاحَةَ خَفَّ عَلَيْهِ التَّغَبُّ ، وَإِذَا
ذَكَرَ الْقَدْرَ الَّذِي ارْتَفَعَ هَانَ عَلَيْهِ الْفِكْرَ الَّذِي انْتَصَبَ ، كَمْ سَاجَلَتْ
جُودَهُ الْغَمَائِمُ ، فَأَمْسَتْ عَلَى افْتِضَاحِهَا ثَنَائَا الْبُرُوقِ وَهِيَ بَوَاسِمُ ، مَتَى
طَرَقَتْ حِمَاهُ وَاللَّيْلُ قَدْ سَجَى ، تَجِدُ حَطْبًا جَزْلاً وَنَاراً تَأْجَجَا .

تَلُوحُ فِي غُرَّةِ الْأَيَّامِ بِيَهْجَتِهِ كَأَنَّهَا مِلَّةُ الْإِسْلَامِ فِي الْمِلَلِ

فَاعْتَرَفَتِ الْأَزْهَارُ بِأَنَّ شَذَاهَا مِنْ نَسِمَاتِهِ ، وَأَقْرَتِ الشَّمْسُ بِأَنَّهَا
مِنْ قِيَمَاتِهِ ، وَسَلَّمَتِ الْغَمَامُ بِأَنَّهُ مِنْ صَلَاتِهِ ، وَقَالَ الْحَمَامُ لَا أَتَغْنَى إِلَّا
بِمَدَائِحِهِ ، وَلَا أَرِدُ إِلَّا مَوَارِدَ مَنَائِحِهِ ، قَالَ الرَّائِي : فَلَمَّا وَقَعَ
التَّسْلِيمُ لِمُعْجَزَاتِهِ الْمُحَمَّدِيَّةِ ، وَمُنَاقِبِ أَبِيهِ الْبَكْرِيَّةِ ، قَضَيْتُ الْمُنَاسِكَ ،
وَوَدَّعْتُ الْمَسَالَكَ ، وَطُفْتُ تِلْكَ الْبَقَاعَ طَوَافَ الْوَدَاعِ فَلَمَّا أَرَدْتُ

الخروج ، والرجوع على خُضرة تلك المروج ، نادّني الأزهار من
 كائنها ، والثمار من أغصانها ، سماعاً لهذا الماجد الذي صار إجماعاً ،
 وأحببته أنت عياناً ونحن سماعاً ، ونحن نُقَسِّمُ عليك بمواهبه التي كثرت
 النجومَ عَدّاً ، وطالت البحرَ مدّاً ، إلا ما خدمت بهذه الفكاهة
 جنبابه الفسيح ، وأغنيت بها المساكين الذين يعملون له في كل بحرٍ من
 أشعار المديح ، فقلتُ أجبتُ هذا القسم الكريم ، وإنه لقسمٌ لو
 تعلمون عظيم ، فيا له من حجٍّ مبرور ، وعملٍ متقبل مشكور ، فرأيتُ
 الفوائد في سلكه منظومة ، وصحائف لذاته بالمسك محتومة .

مَقَامَةُ الْحَجَّامِ لَا بِنِ الطَّيِّبِ الْمَكِينِ

أخبرنا بعضُ الظرفاء ، من ذوي المروءة والوفاء ، ممن أَعْتَمِدُ عَلَى
نَقْلِهِ وَرَوَايَتِهِ ، وَأَحْكَمُ بِصَحَّةِ عَقْلِهِ وَدِرَايَتِهِ ، قَالَ جَلَسْتُ يَوْمًا مَعَ
جَمَاعَةٍ مِنَ الْأَحْبَابِ ، عَلَى شَيْءٍ مِنَ الشَّرَابِ ، نَتَذَاكِرُ مَا مَرَّ فِي أَيَّامِ
الشَّبَابِ ، وَبَيْنَنَا شَابٌ حَسَنُ الصُّورَةِ ، عَلَيْهِ الْمَلَّاحَةُ مَقْصُورَةٌ ،
وَاللَّطَائِفُ فِي شَمَائِلِهِ مَحْصُورَةٌ ، إِلَّا أَنْ شَعَرَ شَارِبِهِ قَدْ طَالَ ، وَاسْتَرْسَلَ
غَايَةَ الْاسْتِرْسَالِ ، فَسَأَلْنَاهُ عَنْ سَبَبِ طُولِهِ ، وَعَدِمَ قَصَّ طَوِيلِهِ ،
فَقَالَ أَنَا أَخْبَرَكُمْ بِخَبْرٍ يَعْجَبُ لَذِكْرِهِ الْحَاضِرُونَ ، وَيُطْرَبُ لِسَمَاعِهِ
الْمَنْصِتُونَ وَالنَّازِرُونَ ، كُنْتُ مِنْ شَأْنِي أَتَزَحَرْفُ فِي الْمَكَّاسِبِ ، وَأَتَخَيَّرُ
مِنْهَا مَا يَنَاسِبُ ، فَصَلَيْتُ يَوْمًا صَلَاةَ الْاسْتِخَارَةِ فَوَجَدْتُ نَفْسِي مَائِلَةً
إِلَى التَّجَارَةِ ، فَقَصَدْتُ مَدِينَةَ سِنْجَارَ ، وَفَتَحْتُ بِهَا حَانُوتًا بِسُوقِ
التَّجَارِ ، وَوَضَعْتُ فِيهِ مِنْ مُحَاسِنِ الْقَهَاشِ ، مَا أَسْتَعِينُ بِهِ عَلَى الْمَعَاشِ ،
وَزَيْنْتُ الدِّكَانَ ، بِحَسَبِ الْإِمْكَانِ ، وَكَسَوْتُهَا بِالْإِسْتَارِ عَلَى أَرْبَعَةِ
أَرْكَانٍ ، وَعَامَلْتُ أَهْلَ الْأَسْوَاقِ ، بِمَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ ، وَاسْتَعْنْتُ بِالْقُرْبَةِ ،
عَنْ لِيَالِي الْقُرْبَةِ ، فَاتَّفَقَ لِي فِي بَعْضِ الْأَيَّامِ ، حَظْرُورَةٌ إِلَى دُخُولِ

الجمام ، فوجدتُ في طريقي جماعة من النسوان ، بينهن فتاة كأنها قَضِيبُ البان ، فَلَمَحْتُ من تحت الإزارِ مِعَصَمَهَا ، وقد سطع صفاؤه ، وأبصرت من تحت النقابِ جِسْمَهَا ، وقد لمع ضياؤه فوقفتُ وقد جرى من الجفون دَمِي ، وعجزتُ عن نقل قدمي ، ثم تبعتها من بعيد ، ولاحظتها الى أين تُريد ، فدخلت داراً يدل إتقانُ بابِها ، على سعادة أربابها ، فنظرتُ فإذا بالقرب من ذلك المكان ، خياط يخيّط في دُكان ، وعنده من الصَّنَاعِ والأَعْوَانِ ، ذَوُو أَذْقَانٍ ومُردان ، صُنُونٌ وغيرُ صُنُونِ ، فقلت في نفسي من هذا الخياط أستفهم ، عمّا عليّ أُنَبِّه ، فرجعتُ الى دُكَانِي ، ثانياً عِثَانِي ، وأحضرتُ عدةً من التفاصيل وجئت بها حانوت الخياط بقصد التفصيل ، فجالسته ، وحاوَرْتُهُ وآنَسْتُهُ ، وفصّلتُ ذلك القماش ، وعجلت له من الاجرة ما يحصل به الانتعاش ، ففرّح بحضوري ، واعتنى بأموري ، ووجدت عنده معرفةً بالادب ، وشكّاً لي من ضيق الحال والسَّغْبِ ، وأنشدني لنفسه من شعره المستعذّب :

أنا الخياطُ لي رزق ولكن أرى حالي من الافلاسِ عبْرهُ
ذراعي فيه من فقري مَقْصَرٍّ ورزقي خارج من عَيْنِ إِبْرهِ
فاستحسنْتَ نظمَهُ ، وحملتُ همَّهُ ، وصارَ يتلقّى كلامي بالقبول ،
ويقف بمتلا ما أقول ، فسألتُهُ عن صُنَاعِ دُكَانِهِ ، وديارِ جيرانِهِ ،
فلا زال يُشير الى كل دار ويشرح حالها ، ويعرفني تفصيلها وإجمالها ،

حتى أفضى الحديث الى الدار التي أختارها ، وقصدي أن تتضح لي أخبارها ، فقال هي دار خطيب البلد ، وهو رجل كثير المال قليل الولد ، مشهور بالتوقرة الزائدة ، ولا له من الأولاد إلا ابنة واحدة ، وهي روحه التي بين جنبيه ، والسواد الذي فيه نور عينيه ، وقد منعها الازواج ، وخطبها جماعة من البلد ، فلم يسمح لها بالازواج ، فقلت والله لقد شوقني اليها ، وحدثني نفسي بخطبتها والعمل عليها ، فهل تعرف امرأة تُعرفني باسمها ، وتوصل خطبتي الى أمها ، فدلني على عجوز مشهورة في عقد النكاح ، تُعرف بياقوتة الملاح ، فلما لقيتها أوضحت لها الحال ، ووعدتها ان تمت المسألة بشحف ومال ، فسمعت كلامي ، وضمنت لي بلوغ مرامي ، وأنشدت :

أنا ياقوتة الملاح وربّي في أموري هو الكفيل بقوت
ان سلكت القفار جئت بوحش أو سلكت البحار جئت بحوت
ويقود الصعاب لطف احتيالي بخيوط تكون من عنكبوت
ألقيني في لظى فان غيرتني فتيقن أن لست بالياقوت

ثم فارقتني وذهبت ، واشتعلت نار وجدي والتهبت ، ومضى علي شهر لا أدري أمرها ، ولا أعرف مستقرّها ، فذرفت العيون ، وسهرت الجفون ، وساءت الظنون ، وقلت :

غاب الرسول فلم يعد بجوابه ففهمت معنى الحال في تأخير

فَكَأَنَّهُ لَمْ يَلْقَ أَمْرًا طَائِلًا فَأَرَادَ بِالتَّأخيرِ سِتْرَ أُمُورِهِ
 مَا ضَرَّهُ لَوْ جَاءَنِي بِجَوَابِهِ فَعَلِمْتُ مَا قَدْ كَانَ عِنْدَ حُضُورِهِ
 إِنْ كَانَ خَيْرًا نَلْتُ مِنْهُ بَشَارَةً أَوْ غَيْرَهُ فَكُرْتُ فِي تَدْبِيرِهِ

قال : وبعد ذلك حضرت ، وقد انقطرت كبدي بما انتظرت ،
 فلاح من وجهها عدمُ القبول وخيبةُ المأمول ، وقالت : والله لقد
 تحيلتُ وتوسلتُ ، فما ظفرتُ ولا توصلتُ ، لم يُوافق أبوها على
 زواجها ، ولا سمحت نفسه بإخراجها ، ولكن والدتها رئتُ لحالك
 ووافقت على ذلك ، فقلت لها لقد يئستُ من حياتي ، ودنت وفاتي ،
 فساعديني قبل فراق الدنيا بنظرة واحدة ، ولكِ ولأُمها ، التَّكْرَمَةُ
 الزائدة ، فليس لي غرض غير قُبلة في جسمها ، وأخرى في معصمها :

وبعد ذلك طابَ الموتُ فاغتنمي اجري ولا تهيلي أمري أُمْتُ كَمَدَا
 وساعديني على حالٍ بُليتُ بها وعجّلي فلعلي لا أعيشُ غدا

ثم تصعدت زفراقي ، وتجددت حسراتي ، وتزايد شيبقي ،
 وغصصتُ بدمعي لا يريقي ، فقالت : أترضى بذلك التزر القليل ،
 قلت : نعم والله على ما نقول وكيل ، فاستصحت من الذهب ما
 أرضاها ، وركبتُ سفينةَ النصح ، وقالت بسم الله نُجْراها ومُرْساها ،
 وذُهِبت وقد دَهَتْ عيناها ، فغابت عني قليلا ، ثم عادت فرأيت

وجهها جميلاً ، وقالت : لقد رَأَيْتُ لكِ الوالدة ، وسمحت لكِ بنظرة
 واحدة ، بعد ان قلت لها لا بأس بنظرة العين ، ورَغَبْتُها في أجر من
 يجمع بين المحبَّين ، فأياك ان تنقُضَ عهداً ، او تتعدَّى حداً ، وتقرر
 الميعاد يومَ الجمعة وقتَ الصَّلاة ، ووالدُها على المنبر في مُصَلَّاه ،
 فصُتت ، وتصدقت ، وانتظرت ذلك الوقت ، الى ان دنا الميعاد ،
 ودخل الوقت أو كاد ، فخرجت من داري ، وقد صفت اكداري ،
 وحسنتُ هيئتي ، وسرَّحتُ لِحَيَّتِي ، واستعملتُ ما يناسب من الطَّيب ،
 وقصدت دار الخطيب ، فاجتزت بِحَجَّامٍ عنده مِرْآة ، ومِقْصَّات
 مُستَحْسَنات ، فناولني المِرْآة حتى رأيتُ وجهي فيها ، فوجدتُ شَعْر
 شاربِي قد طال ، وتعيَّن ان يُخَفَّفَ ويزال ، فأمرته بِقَصِّهِ ، وان
 يأخذ منه بِمِقْصِّهِ ، فامتثل أمرِي ، وقصَّ ما طال من شعري ، فسألته
 عن اسمِهِ وأصلِهِ ، لعلي استدلُّ بذلك على فِعْله ، فقال : اسمِي قَتَوْر ،
 وأصلي من خَيْبَر ، فقلت : اسم عَتِيتُ ، وأصلُ خَيْبِث ، فقصدت
 إعطاءَهُ درهمًا عن إجرته ، فسبقَتْنِي يَدِي الى كِيسِ الذهب ،
 لما طُبِعَ عليه الانسان من عَجَلَتِهِ ، ولما نظر اليه والى ما فيه من
 الذهب ، طارَ عَقْلُهُ وذَهَبَ فناولته منه ديناراً ، لا كَفَى منه عاراً ،
 فانكب على قَدَمِي ، وبالغ في الثناء على كرمي ، وقال مثلك من
 يخدمه الانسان ، وهل جزاء الإحسان ، إلا الإحسان ، والله لقد

اغْنَيْتَنِي مِنْ كَرَمِكَ ، وَلَا أَعُودُ أَمُوتُ إِلَّا تَحْتَ قَدَمِكَ ، فَأَثْبَيْتُ عَلَيْهِ بِالْخَيْرِ ، وَأَسْرَعْتُ عَنْهُ فِي السَّيْرِ ، فَأَسْرَعَ حَتَّى لَقِيتَنِي وَلَا زَمَنِي وَلَا صَقْتَنِي ، وَمَا تَأَخَّرَ عَنِّي وَلَا سَبَقَنِي ، فَقُلْتُ لَهُ انْقَطِعْ عَنِّي ، وَلَا تَتَّبِعْنِي ، وَمَا الَّذِي تَرِيدُ مِنِّي ، فَقَالَ : مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ أَفَارِقَ مَنْ أَحْسَنَ إِلَيَّ ، وَتَفْضَلَ بِهَذَا الدِّينَارِ عَلَيَّ ، وَاللَّهُ مَا أَنَا مِنْ أَوْلَادِ الزُّنَى ، وَلَا مِنْ أَبْنَاءِ الْخَنَاءِ ، هَذَا وَالْعَجُوزُ مُرَاقِبَةٌ وَصُولِي وَمُنْتَظَرَةٌ لِدُخُولِي ، فَأَعْتَرَضَنِي جَمْعٌ مِنَ الْمَسَاكِينِ ، وَقَالُوا تَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنْ اللَّهُ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ ، فَنَاقَلْتُهُ دِينَارًا آخَرَ وَقُلْتُ صَرَّفْهُ وَفَرَّقْهُ عَلَيْهِمْ ، وَتَوَلَّ إِصْصَالَ ذَلِكَ بِيَدِكَ إِلَيْهِمْ ، فَرَمَاهُ إِلَى الْفُقَرَاءِ فِي الْهَوَاءِ ، وَقَالَ اقْسِمُوا هَذَا بَيْنَكُمْ عَلَى السَّوَاءِ ، ثُمَّ هَرَوَلْتُ فَأَدْرَكْتَنِي ، وَدَخَلْتُ مِنَ الْبَابِ ، فَأَرَادَ أَنْ يَمَسَّكَ عَلِيٌّ وَقَالَ : إِلَيَّ أَيْنَ يَا سَيِّدَاهُ ، وَقَدْ دَخَلَ وَقْتُ الصَّلَاةِ ، فَلَمْ أَرَدْ عَلَيْهِ الْجَوَابَ ، بَلْ أَدِخَلْتُ وَأَغْلَقْتُ دُونَهُ الْبَابَ ، فَمَا لَبِثَ أَنْ طَرَقَ الْبَابُ . وَقَالَ يَا سَيِّدِي فَاتَكَ الصَّوَابُ ، قَدْ أَقِيمَتِ الْجُمُعَةُ ، وَالْأَقْوَامُ إِلَى الصَّلَاةِ مُجْتَمِعَةٌ ، فَقَالَتْ لِي الْمَرْأَةُ : دَعْ غِلَامَكَ يَذْهَبُ ، فَقَدْ تَعَدَّى وَغَلَبَ ، فَقُلْتُ وَاللَّهِ مَا هُوَ لِي بِغِلَامٍ ، وَلَا لِي مَعَهُ كَلَامٌ ، فَأَخْرَجَنِي إِلَيْهِ ، وَالْعَيْنِي وَالِدَيْهِ ، فَخَرَجْتُ إِلَيْهِ ، وَأَنْكَرْتُ عَلَيْهِ ، فَرَمَى عِمَامَتَهُ وَبَكَى ، وَقَالَ إِلَى اللَّهِ الْمَشْتَكِي سَيِّدِي فِي هَذِهِ الدَّارِ أَدْخَلُوهُ ، وَطَمِعُوا فِي مَالِهِ فَقَتَلُوهُ ، وَزَادَ فِي الْإِسْتِغَاثَةِ وَاجْتَمَعَ عَلَيْهِ النَّاسُ حَلَقَتَانِ

او ثلاثة ، ولم يزل يصرُخ ويستغيث ، ويقول ألا مُنجدُ ألا مُغيثُ ،
والعجوزُ راجفة ، والبنْتُ وَاِجفة ، والأمُّ خائفة ، والطوائف واقفة ،
« أَرِفت الآزفة ، ليس لها من دُونِ الله كاشفة » وما زال يصيح
يا سيداه ، يا مولاه ، خرج الناس من الصلاة ، فأتكَ الثَّواب ، عَدِمَت
الصواب ، حَصَلَت وراءَ الحِجاب ، ضُربَ بيني وبينكَ بِسُورٍ لهُ
باب ، فخرج الناس من الجمعة ، وعلى الباب طوائف مُجْتَمعة ، واتَّصل
بالخطيب الخبر ، فبادر إلى داره وحضر ، فرأى الناسَ مجْتَمعين ، وإلى
الحِجَّام مستمعين ، فلما وقع نظره عليه ، أدناه إليه ، وقال له ما
الحديث ، وإلى كَمْ تصرُخ وتستغيث ، فقال ان سيدي قد دخل الى
هذه الدار ، ومعه كَيْسٌ فيه ألف دينار ، ثم لما أدخلوه ، طمِعُوا فيه
فقتلوه ، وهو في هذه الدار ، فادخل وعرفني الأخبار .

قال الراوي : هذا ونحن نسمع الكلام ، وتوقع الحِجَّام ،
فوجدت في الدار بشراً ، فرميتُ نفسي فيها ، وأمرت النساء يسترونها
بما يُخْفِيها ، فدخل الخطيب الى نِساءه ، وعرف من قول الحِجَّام ،
وفوقَ اليهن سِهامَ المَلَّام ، فحلَفنَ له بما أرضاه ، وقُلنَ حاشَ الله ،
فخرج اليه بِغَيْظٍ شديد وقلبٍ دونه الحديد ، وقال يا غلام ، دع
عنكَ هذا الكلام ، فما عندي من يُتَّهَمُ بكلامك ، ولا من تَرْمِيهِ
بِسِهامك ، فصَرَح بأعلى صوتِهِ وقال : قتلوه وليتني مِتُّ قبل موته ،

ولو كان حيا ما فاتته صلاة الجمعة ، ولكان حاضرا وأنا فيها معه ،
واحزنناه وأسفاه واسيّداه وامولاه ، غرّوك فأدخلك ، وطمِعُوا
في مالك فقتلوك ، ائذَنْ لي بالدخول ، فأنا أعرف ما أقول ، فأمره
الخطيب بالدخول الى داره ، ومعه من الحاضرين من بَعَثَهُ فضولُه على
كشف أخباره ، فدخل الدار في جمع كبير . فأوقعته المقادير على
فم البير ، فقال سيدي في هذا المكان ، ولا بد من النزول فيه ولو
كان ما كان ، ثم نظر في نواحي البيت واستدعى بإناء فيه زَيْت ،
وحلَّ عِمامته وبَلَّ طرفها ، وأوقدها لِمَكِيدَة عَرَفَها ، وأذلاها في
ذلك البير ، وأدارها فأنارت أيّ تنوير ، فرآني جالسا بمكاني وقد
حلَّ بي من الويل ما كفاني ، فاستغاثَ كَذِبُ المَاطِل ، وجاء الحق
وزَهَقَ الباطل ، سيدي في هذا البير والانسان جاري تحت المقادير ،
فأخْرِجْتُ من ذلك المكان ، على أقبح حال وأسوأ شَأْن ، فقال لي
الخطيب ان أردتَ الخلاص فاصدُقْ ، فقلت ما دخلت إلا لأسْرِقْ ، فحُمِلْتُ
على تلك الحال الى الوالي فسجّني وأخذ أموالِي ، فبقيتُ في الحبس
سَنَةً ، في عِيشَةٍ خَشِينَةٍ ، ما رأيت فيها لَذَةً بَيِّنَةً ، وعلمتُ أن مَنْ
أحسن لكل رَدِيء الأصل ، شَقِي كما شَقِيت ، ولقي ما لَقِيت ،
وكان بما نظمته في جَنبِي مخاطباً لِنَفْسِي :

تَجَنَّبَ رَدِيءُ الْأَصْلِ واحذرْه واجتهد على طَرْدِهِ فالخيرُ في شَرَفِ النَّفْسِ

وإياك ان تغتر منه بملسٍ
فان الافاعي قاتلٌ سمها لمن
ويكفيك في صدق الوصية ماجرى
تقصده بالخير كافي بضده
وكم ليلة قضيتها في عساكر
أقاسي الأسي من ذلك المذبر الذي
وضيع اموالي وعرضي ومقصدي
ولكن حدثت الله إذ سلمت نفسي

وكانت العادة جاريةً بعرض المحاييس على السلطان ، في كل شهر
رمضان ، فاحضرت بعد سنة بين يديه ، وسألني عن الأمر الذي حبستُ
عليه ، فقلت : لي قضية اذكرها بين يديك ، واذا انهيتموها فالامر الى الله
ثم اليك . فأذناني ، واستفهمني عن شأني ، فذكرتُ له الحكاية على الوجه
الصحيح ، واوضحتُ له الحال فلم يحتجْ الى تصحيح ، فعجِبَ من حالي ،
وامرَ بردٌ مالي ، وتبليغ آمالي ، وأمرَ الخطيب ان يزوجني من بنته
المذكورة ، وقام بالصداق من عنده على احسن صورة ، واحضر ذلك
المذبر وسلّمه اليّ ، وحكمني فيه عند وقوفه بين يديّ ، فذهبتُ به
الى دارى ، وصفتُ بتلك المحبوبة أكداري ، فصلبته على الباب مرثوماً ،
وابقيته سبع ليالٍ وثمانية أيامٍ حسوماً ، وسمعتُ هاتفا يقول :

قضتُ نجباً نفسُ هذا اللعين وفي صلّيه نعمة مُطلقة

فلا رَحِمَ الله تلك العظام ولا بَرَحَتِ بِلَظَى مُحَرَّقة
وما مرَّ به احد إلا لَعَنَهُ ، واستظَرَّه على الحشَب واستحسنه ،
وانشدت :

نِلْتُ جَبْرِ بكَسْرِ قَلْبِي وَصَبْرِي وَرَقِيبِي رَأَيْتُهُ مَشْنُوقًا
رَامَ نَفْعًا فَضُرَّ مِنْ غَيْرِ قَصْدٍ (وَمِنْ الْبِرِّ مَا يَكُونُ عَقُوقًا)
وَأَقْسَمْتُ لَا قَصَصْتُ شَعْرَ شَارِبِي ، وَلَوْ اسْتَرْسَلَ إِلَى تَرَائِبِي ، فِهَذَا
سَبَبُ طَوْلِهَا ، وَقَدْ رَضِيتُ بِتَطْوِيلِهَا ، ثُمَّ انشد :

ارِى الْإِحْسَانَ عِنْدَ الْحَرِّ دِينًا وَعِنْدَ النَّذْلِ مَنَقْصَةً وَشَيْنًا
كَأَنَّ النَّيْسَانَ فِي الْأَصْدَافِ دُرًّا وَفِي بَطْنِ الْإِفَاعِي صَارَ شِمَا



١ - يريد بماء النيسان المطر الذي ينزل في شهر نيسان وهو أبريل ويقولون ان
الأصداف البحرية تتفتح فيه وما وقع منه فيها صار درًا كما أن الحيات تتعرض له فما
وقع منه في أفواهها صار سمًا .

المَقَامَةُ الْحِسَابِيَّةُ

بِعَضْرَاءِ بَاسْمِ فَاسْ

(أخبر الراغب بن عبد الوارث) قال خرجت الى وادي فاس ،
 في إبان ربيع عطر الأنفاس ، يوم خميس مع أنيس ، ينسى الغريص
 بتحييره للقريض ، فانحنا بمنزل ، عن الجوع بمعزل ، وإذا شيخ طالع ،
 مع غلام بارع ، فجلسا بمرأى منا ومسمع ، وصرقا وجههما عن المجمع ،
 وتنازعا الحديث ساعة زمانية ، بلغ الشيخ فيها أمانيه ، ثم أخرج الغلام
 كوحا من رُذنه ، مصنوعا لعلم الحساب وما كان من فته ، وجعل يرسم
 في ذلك اللوح ، بإشارة من الشيخ بمتزجة بروح ، فقال لي صاحبي المؤنس ،
 ان امر هذا الشيخ لمُلبس ، ولا بد من نقض غزله ، وإبراز جدّه
 من هزله ، فأنشد بصوت يُسمع الصم ، وتخرّث له الجبال الشم ، ما قال
 ابنُ جُزَيّ في مثله ، وقد ابدعَ في قوله :

يا ناصِباً عِلْمَ الحسابِ حِبَالَةً لِقِنَاصِ ظَنِّي ساحر الألبابِ

(×) هي ثلاث مقامات بخط واحد غير منسوبة توجد بمكتبتنا أثبتنا منها هنا اثنتين وتركنا الثالثة لتلاشي بعض كلماتها ويظهر أنها من القرن الثاني عشر .

ان كنتَ تُرزق بالحساب وصاله فاللهُ يرزُقنا بغير حساب

فدار الشيخَ وانشد ، وردٌ بصوت أشدّ :

ما صدُّته بل صادني بقسيّه وبمدّ شبكته صدّغّه الكتابُ
ووقعتُ في فخّ له ، ذا غرّةٍ إذ لم يكن صيدُ الظباو حساني

ثم اخذته العزّة فتاه ، وأدارَ وجهه الى فتاه ، فانطلق الأئيس ،
يُنشد الفتى ليميس :

يا (مُنيّتي) ومُنّامي (إرْفَعِ حِجاب) التَّجَنّي
(جمعتَ) من كل صنف من الجمال وفنّ
ولم يكن في (حسابي) أن تبصرف الوجهَ عني
ثَنَيْتُ قلبي لما (كسرتَه) بَتَشْن

فلم يبرح لقوله ، ولم يتزحزح عن محلّه ، فاعاد وشاد ، واحسن
الانشاد :

يا (مُنية) لي لم يكن لي في (حساب) ان سيسنخ

١ - فيه تورية بالمية ورفع الحجاب من كتب الحساب وفي الأبيات التي تليه تورية بالأعمال الحسابية .

(إرفعْ حجابَ) الهجر عن صبَّ الى اللقيبا ترَّفع
 فاضت (جداولُ) دَمعه (وضربتْ) عنه (بالمُجَمَّع)
 ان كنتَ (جامعَ) زُخْرُفَ مَن وشى بالله (فأطرح)

فما كان بأسرع من أن قادَه إبليس ، واتي به كما أتى بعرش بلقيس ،
 والشيخُ يتبع التلميذ ، كالذي اخذته النبيذ ، وقد عبس ، وما نَبَس ،
 ولا فاه ، مما وافاه ، سوى أن قال « ساحرانِ تظاهرا » مُنيتُ منهما
 بما لم يكن في خلدي جرى ، فحين أبرزَ بَرَدَ أسنانه ، وأصلت
 للكلام غضبَ لسانه ، عرفنا انه ابو سلامه ، فاحسناً تحيته وسلامه ،
 وقلنا لندفع الجاهه ، بك ولله الجاهه ، يا ثمرَ غَرَسنا وعطو غَرَسنا ،
 قال أبعد ما بي سخرتُما ، ولفتاي سحرْتُما ؟ فما زلنا نعالجُ قلقه ، حتى
 فتحنا مُغلقه ، وقال مُبَاسِطاً للأئيس ، استفزنا بصوتك المغناطيس ،
 فانشده قولَ مَنْ قال ، واحسن في المقال :

وقالت فتاةُ المُنَحْنى ذاتَ ليلةٍ وقد سمحت من بعد صدِّ وإعراض
 إذا ما مضى ممَّا تبَقَّى من الدُّجى ثلاثةُ أسباعٍ وتُسَعُّ من الماضي
 اتيتك لا يدري بذاك رَقِيبُنَا اُجرُ رداً مرطٍ على الأرض فضفاض

فكان ذهابُ الليل عند مجيئها فكم كان بَاقِيه وَمَاضِيه يا قاض

فطرب طرباً شديداً ، وانبسط انبساطاً جديداً ، وقال اتعرفُ مغزاه ،
والى كم ليله جَزَّاه ، فقال ليس لي به يَدان ، ولستُ من فُرسان هذا
الميدان فطوّقنا بفهمه ، وَرَتَقْنَا بعلمه ، قال بشرط أن تكون من الالْبَاءِ ،
وان لا تعود الى التفريق بين الاحْبَاءِ ، فقال وهو مُضمر الحُلاف نعم ،
« وما يسرُّني بها حُمرُ النّعم » فقال انه تجزأ دُجَاه وانتشر ، الى خمسمائة
وسِتَّة عشر ، اربعمائة واثنان وثلاثون لماضيهِ ، واربعةٌ وثمانون لِباقِيهِ ،
تُسَعُ الماضي ثمانية واربعون ، وثلاثةُ اسْبَاعِ الباقي ، ستّة وثلاثون ،
ومجموع هذين هما الباقي ، فان يمضيًا بلغت رُوحُ الدُّجَى التّراقي ، فقال
قد فهمنا ، وبما كَثُرَتْ هُنَا وَإِنَّا لَنَنْظِمَا ، لِوَرُودِهِ نَظْمَا ، فقال اسمعُ
أُوتِيَتْ فَهْمَا ، « وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا » :

لقد قَسَمْتُ لِـ (سِيرِهَا) شِبْهَ شَعْرِهَا وَبَاقِيهِ سُدُسٌ غَيْرُ قِسْمَتِهِ ماضٍ
ثلاثةُ اسْبَاعٍ لِقَائِلِ (ابلج) و (ماجد) ابدى تُسَعُ ماضٍ لِمُرْتاضٍ
وَذَانِهُمَا الباقي فان يمضيًا قضى م الدُّجَى وَتَجَلَّى الصَّبْحُ بِأَيْدِيِ إِيْمَاضٍ
لِنَا طَلَعَتْ وَابْنُ الْغَزَالَةِ طَالِيعُ غَزَالَتِكَ الشَّمَاءُ انتَ بِهَا رَاضٍ

وَهَلَكَ مَا هُوَ أَخْصَرُ ، وَهُوَ لِلظَّمْثَانِ أَقْصَرُ :

دُجَاهَا (يَسْرُهَا) وَ (تَبْكِي) لِفَاتٍ

وَبَاقِيهِ (عِيدٌ) فَاقْضِ مَا ذُو الْحِجَا قَاضٍ^١

وَلَكِ أَنْ تَقُولَ ، وَهُوَ أَقْرَبُ لِلْعُقُولِ ، أَنَّهُ جَزْأُهُ إِلَى ثَلَاثَةٍ وَأَرْبَعِينَ ،
وَجَعَلَ الْمَاضِي سِتَّةً وَثَلَاثِينَ ، وَأَنْ شَتَّ الْمَنْظُومَ ، فَخَذَهُ غَيْرَ مَكْظُومٍ :

دُجَاهَا (جَلِيٌّ) مَا مَضَى مِنْهُ (أَبْلَجٌ) وَبَاقِيهِ (بَادٍ) فَاقْضِ مَا ذُو الْحِجَا قَاضٍ^٢

ثُمَّ إِدَارَ حَدِيثًا أَشْهَى لِلنَّفُوسِ ، مِنْ إِدَارَةِ السَّقَاةِ لِلْكُثُوسِ ، وَقَالَ
هَلْ بَقِيَ فِي السَّفْطِ ، شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ الثَّمَطِ ، فَانْشَدَهُ قَوْلَ الْقَائِلِ ، الْمَشْهُورِ
بَيْنَ الْأَوَانِلِ :

غَزَالٌ قَدْ غَزَا قَلْبِي	بِالْحَاضِرِ وَاحِدًا
لَهُ الثَّلَاثَانِ مِنْ قَلْبِي	وَتِلْكَ ثُلُثُهُ الْبَاقِي
وَتِلْكَ ثُلُثٌ مَا يَبْقَى	وَبَاقِيهِ شَيْءٌ لَسْتُ أَقِي
وَتَبْقَى أَسْهُمٌ سِتْ	لِتَقْسِمَ بَيْنَ عَشَائِقِ

١ - نَقَطَ يَسْرَهَا بِحَسَابِ الْجَمَلِ ٥١٦ وَنَقَطَ تَبْكِي ٤٣٢ وَنَقَطَ عِيدَ ٨٤ وَالْعَمَلُ لَا يَخْفَى عَلَى الْحَاسِبِ .

٢ - نَقَطَ جَلِيٍّ ٤٣ وَنَقَطَ أَبْلَجَ ٣٦ وَنَقَطَ بَادَ ٧ .

فقال وقد ابتسم ، الى كم قلبه اقتسم ، فقال مالي به دراية ، ولم
اسمع فيه رواية ، وان كشفت الغطاء عن المبهم ، فلك اجر من علم
وفهم ، « قال لقد اوتيت سؤالك ، ولكن الشرط أملك ، فإنه قسمه
الى واحد وثلاثين ، كما هو مقرر في دواوين ، وان أحبت شقيقه ،
على الحقيقة ، فاسمع مني ، واحفظ عني :

قضيتُ ثلثي ليل هجرِكَ باكِيا حتى غدا (المجهول) نارا في جبل
وقضيتُ ثلثي ثلثه في جرعتي حرق الهوى نهلا وتارات علل
وابدتُ ثلثي ما تبقى منه في علي ، لو أنه كان تنفعني لعل
وقصرتُ ثلثي ذلك الباقي على نظري لشبهك في السماء وقد كل
والثلثُ وهو الواحدُ الباقي بدا فيه شقيقك قلتُ سبحان الأجل

وان اتقنتَ بابَ الجبر والمقابلة ، يلح لك وجهُ الحق في مُقابلة ،
ولما آذنت الشمس بالغروب ، مال ابو سلامة للهروب ، فودَّعناه وداع
كارِه لغيبته ، وانصرف تلميذه معه وهو تمام بُغيته .

المَقَامَةُ النُّطَوَانِيَّةُ

(اخبر الراغب بن عبد الوارث) قال : انتظمتُ في تطوانَ
 برفقاء ، انتظامَ الاخوة الاشقاء « صَنَوَانٌ وَغَيْرِ صَنَوَانٍ » ونزلتُ معهم
 الى البحر ايامَ عيدِ النَّحْرِ ، ونحنُ في رَيِّ بني مَرْوَانٍ ، فوجدنا على
 طَرَفِهِ ، مِنْطِيقاً مَلِكَ بَطْرَفِهِ ، وَلِدَاناً لَمْ يَمْلِكْهُمُ ذُو إِيوَانٍ ، ذَوِي قُدُودِ
 أَسِنَّةٍ ، وَخُدُودِ اجْتَهَةٍ وَتُغُورٍ تَفْتَرُّ عَنْ أَقْحُوَانٍ ، فَاصْخْتُ لَهُ أَذُنِي اسْتَمِعَ
 كَلَامِهِ ، حَتَّى تَحَقَّقَ عِنْدِي أَنَّهُ أَبُو سَلَامَةٍ ، الَّذِي لَمْ يَشْتَمِلْ عَلَى مِثْلِهِ دِيوَانٌ ،
 وَلَمَّا انْتَشَرَ الطَّعَامُ لَدَيْنَا وَصَفَّهُ طَاهِيهِ بَيْنَ يَدَيْنَا ، بَعَثْنَا إِلَيْهِ بِخَوَانٍ ،
 وَانْتَخَبْنَا لَهُ الطَّفِ رُسُولَ ، وَقَلْنَا لَهُ قُلْ هَلْ لَكَ سُورٌ ، فِي مَنَادِمَةِ هَؤُلَاءِ
 الْإِخْوَانِ ، فَبَلَغَهُ هَدِيَّتُنَا ، وَادَّى إِلَيْهِ وَرَصِيتُنَا ، فَقَالَ لَسْتُ لِرُفَقَائِي
 بِخَوَانٍ ، وَلَا أَتْرُكُ الرِّيحَانَ ، لِأُمِّ غِيلَانَ وَاخْتَارُ الضَّرَاعِمَ عَلَى
 الْغِزْلَانِ ، وَابْدُلُ السَّلْمَ بِالْحَرْبِ الْعَوَانِ ، فَرَجَعَ الرُّسُولُ خَائِباً ، بِشَابٍ
 مَعَهُ آتِيَا ، وَقَدْ عَلَا عَلَى وَجْهِهِ هَوَانٌ ، فَلَمَّا أَخْبَرْنَا بِخَبَرِهِ الْمُسْتَطَرَفَ
 أَيُّ اسْتَطْرَافٍ ، قُلْنَا لِلشَّابِّ وَكَانَ مِنَ الشُّجْبِ الظَّرَافِ ، إِنْ آتَيْتَنَا بِهِ
 فَلَكَ كَذَا وَكَذَا مُحْلَوَانٍ ، فَذَهَبَ وَاسْرَعَ ، حَتَّى آتَاهُ يَهْرَعٌ ، وَتَخَنَّتْ عَلَيْهِ

تَخْنَثَ الْغَوَّانَ ، فَمَا لَبِثَ أَنْ وَقَعَ فِي فَخِّهِ ، وَسَقَطَ عَلَى مَخِّهِ ، سُقُوطَ
النَّشْوَانِ ، وَلَمَّا جَاءَ بِالْمَصِيدِ ، قَالَ هَآئِيتِ الْقَصِيدَ ، لَبَّى دَعْوَاتِي دُونَ
لَعْلٍ وَلَوَّانٍ^١ ، فَشَكَرْنَا لَهُ الصَّنْعَ ، وَحَبَوْنَاهُ دُونَ مَنَعٍ ، مَا اسْتَوْجِبَ
مِنَ الْخُلُوعِ ، ثُمَّ وَثَبَ وَدَرَجَ ، وَبَقِيَ فِي حَرَجٍ ، فَانشَدَ غَيْرُ مُتَوَّانٍ :

صَادَنِي ظَبْيٌ بِدَلٍّ وَغَنَجٍ وَبِطَرْفِ ذِي أَحْوَرَّارٍ وَدَعَجٍ
أَنْ خَطَا يَحْسُدُهُ الْخَطِيءُ أَوْ يَتَجَلَّى قَلْتٍ مِنْ عَدْنٍ خَرَجٍ
أَنْ رَنَّا يَرْنُو لَهُ الْقَلْبُ إِلَى مَا دَعَا لَبَّيْكَ مِنْ دُونَ حَرَجٍ
قَادَنِي نَحْوَ بِلَاوٍ وَرَمَى بِزِمَامِي مِنْ يَدَيْهِ وَدَرَجٍ

قال الراوي : فقلت مستدعيا كلامه ، سُحِرَتْ وَاللَّهِ أَبَا سَلَامَةَ ، وَحِيلَ
بَيْنَ الْعِيرِ وَالزَّوَّانِ^٢ ، فَقَالَ أَيُّهَا ابْنُ عَبْدِ الْوَارِثِ ، حَتَّى مَتَى تُعِينُ
أَخَاكَ الْحَارِثَ^٣ ، فِي تَبْدِيدِ شَمْلِ السَّلَوَّانِ ، فَقُلْتُ لَيْتَ شِعْرِي أَلَمَّا فَرَقْتُ
أَجْمَعَ ، أَنْ دَعَوْتَ الْعُلَمَانَ ، جَاءُوا أَجْمَعَ ، فَقَالَ إِلَهِي وَاللَّهِ وَلَا عُذْوَانَ ،
فَدَعُونَاهُمْ لِنَادِينَا ، فَأَجَابُوا مُنَادِينَا ، مِنْ دُونَ تَرَاحٍ وَلَا تَوَّانٍ ، فَاِمَاطِ
الَّتَرَاحَ ، وَلِبَسِ الْمَرْحَ ، وَاسْتَحَالِ سَخَطَهُ لِرِضْوَانٍ ، وَرَأَى شَابَابًا مِنْهُمْ يَجْرُ

١ - هو مخفف من لو أن .

٢ - مثل يضرب لعدم استطاعة الشيء مع الرغبة فيه .

٣ - يعني به الحارث بن همام راوية مقامات الحريري .

رِدَاءَ مِرْطَه ، ويعضُّ سالفاً له اخرجهُ من قُرْطِه فاستحسنه وقال في
الأوَان :

قد عضَّ سالفَ شعره من بعد أن ابداه من قُرْط تحيّر ناظره
خيْطُ الظلام من الهلال بدا على قمر وفي وَسَط الثُّرَيَّا آخِرُهُ
فاستحيى الفتى واطلق دلاله ، فكاد أن يفارق هلاله ، فقال ايضاً وما تَوَان :
وكانَّ سالفَ شعره في قُرْطه افعى تُطِلُّ من الهلال بِرأس
ويرُدُّها نشرُ الشعاع بخَدِه لما بدا كالشمس والنبراس

ثم قال كأنكم اضمرتم غيبة ، وخالجت قلوبكم رِيبة باختيارى
الذُّكران على النُّسوان ، كلا والذي حَفَّ الجنةَ بالمكاره والنارَ بالشهوات ،
ما دَنَسَتْ وجهَ علمي بما ليس لي بِمَوَات ، ولكن طبعني على حبِّ الحَسَان
مَنْ سَوَّان ، فما لاح ذُو جمال ، الا استدعاني واستمال ، ولَوَّاني وطوان
وقد علقتُ بالنساء والولدان غيرَ ما مرّة ، وذقتُ من الهوى حلوةً ومُرّة ،
ثمراتٍ مختلفات الالوان ، وغايةُ الامر إن ظفرتُ أن اطرب وامرح ،
وفي رياض المحاسن اسرح ولا أغوى للشَّيْطان ان أغوان :

اذا ما ظفرتُ بوصل حبيب وزار على غفلةٍ للرَّقيب
تعفّفتُ عنه ولا مانع سوى ان ربِّي عليَّ رقيب

فقلنا يا مجرَّب حبُّ الولدان والنساء (فهُوَ به في كلِّ حُكْم ذُو
انتساء) ايّما افضلُ حبُّ المُردأم الغوان ، فأنشد ، وارشد ، لفضيلة النُّسوان :

حبُّ النساءِ شاعَ في البهراري كما جرى المثلُ في الاقطار
 وحسنهنَّ طائلُ الاعمار وغيرُ مُسرِّعٍ الى توار
 والشمسُ أثبتُ من الأقمار في سَيْرِها في الفلكِ الدوار
 لا كنهنَّ داعي افتقار بالصَّرفِ للدرهم والدينار
 وقَلما يَسْلَمُن من إكثار

ثم قال ، وما استقال ، ولا تحرك منه عُضوان :

حبُّ الذكور ذاعَ في الامصار كما فشا الإيمانُ في الأنصار
 وحسنهم اوفقُ للنظار وغيرُ مُحْتَاجٍ الى انتظار
 والبدرُ لا حرجَ فيه جار والشمسُ بالعكسِ لدَى الأنظار
 لا كنهم اجلبُ لاحتقار الى ذَوِي الاخطار والاقدار
 وقَلما يسلون عن إكثار

ولما نشر علينا احاديثه الاصمعية المنبئة عمَّاله من الألمعية ، وظاهرُ الامر على باطنه عنوان ، نشرنا عليه من التحف والملابس ، ما لم يكن لحاظه ملابس ، حتى احتاج في طيِّهِ لِعَوَّان ، فقال شكرَ الله احسانكم إليَّ ، وتفضَّلَ عليكم كما تفضلتم عليَّ ، بتجدُّد النعم تجدد الملوان ، وليست الدنيا بفاخرة ، الا اذا كانت مَطِيَّةً لِلآخِرَةِ ، «وانَّ الدارَ لآخِرَةُ هِيَ الحَيَّوان» وإنَّ من تمام الإكرام ، وليس فيه إبرام ، ان

تتكفلوا لي بهذا الرّهوان' ، وأشار إلى رّهوان صائد ، فاكثريناه منه
بالزّائد ، وقلنا نحن له صوّان وحيثُ تهيأ المسير ، سار معنا حيث نسير ،
حتى اذا دخلنا المدينة فقدنا الخوّان ولم نجد من يُخبرنا عن مَسالكه ،
والزّمننا الشرعُ غرّم الرّهوان لِمَالِكِهِ ، وطارتُ فعلتهُ بتّا في أرجاء تطوان .



مَقَامَة

للوَزيْد بن إدريْس

حدثنا الفتحُ بن سَلامة ، عن نصر بن كرامة ، قال ألحَفني السعدُ
 بِبرده ، واتحفني بجلوِ عيشه وبرذه ، وبوأني من حِمى الخلافة العلوية
 العليَّة ظلّالا ، وأعلق كَفّي من خدمة الحضرة المولوية العبدِ الرَّحمانِية
 حَبّالا في دولة علوية اعلی العلاءُ أعلامها ، وحى الإلاه حَمّاها ، عقَد
 السعود على التناصر عقدَها وذِمّامها واليمن قد وآخاها ، فبلغت بطلعتها
 امنها ومَرامها ، وتوصلت لِمناها ، وبنى الائمة من قُرَيش مجدها ومَقامها ،
 بين الورى وعُلاها ، حموا الشريعة بالسيوف واوضحوا اعلامها ، وتنوّروا
 بسناها فكنتُ منتظما في سلك كُتّابها ، ومعهوداً في خدمة اعتبارها
 وصحبت ركاب مولانا العليّ العلوي ، وجيشه المنصور المولوي ، في
 احدى قدَماته من الحوز ، في سفر اسفر طالعه عن وجه الظفر والفوز :

في عسْكر مَلأ القلوب مهابةً والارضَ خيلاً بالعوارِفِ يَفْهَقُ
 للفتحِ والتمكين فيه دلائلٌ وعليه أَلَوِيَّةُ السعادة تَحْفَقُ

نَهَضَ لها أبده الله غُرّة ذِي الحِجّة مُتِمِّمٌ عام (ناشر) والسَّعدُ

لمجهود العناية نائِشِر ، والرُّعْب يهدم جنودَه ، والسعد ينشُر ألويته
وَبُنُودَه ، والنصر تحت ظلال اعلامه وحفظُ الله من خلفه وأمامه :

والدهرُ معتدِلُ الآناء مُقتَبِلُ الشمسِ حَلَّتْ بِبُرجِ السَّعد والشرف
ومطارِفُ السُّندُسِ بِالآفاق قد نُشِرت ، وجُيوشُ النُّور حُشِدَت
ألوانها وحُشِرَت ،

والارضُ تُجَلَى عروساً في ملابسها وُشِتْ . حُلاها يَدُ الانواء بالزَّهر
والنسيم قد عَطَّرَ بنشره الأندية ، وغازِلُ الاغصان فتازعها
المطارِفَ والأردية ، وجرَّ ذيلَ دلاله في الآكام والأودية :

والريح تَلَطِّم فيه أَرْدافَ الرُّبى مَرَحاً وتَلْتُم أَوَّجَهَ الأزهار
ومنايِرُ الاغصان قد قامت بها خُطباءُ مُفَصِّحَةٌ من الأَطيار
وَألسُنُ الحِمال تَهْدِي الى التفكُّر في مصنوعات الله وتُرشد ،
وكأنها تتمثل بقول أبي نواس وتُنشِد :

تَأْمَلُ في نَباتِ الأرض وانظُرْ بدائعَ ما بها صَنَعَ المَلِكُ
عُيُوتٌ من لُجَيْنِ شَاخِصَاتٍ على أَطرافِها الذَّهَبُ السَّيِّكُ
على قُضْبِ الزَّيْبَرَجِدِ شَاهِدَاتٌ بَأَنَّ اللهَ لَيْسَ لَهُ شَرِيكُ

والناظِرُ الأديب المتأمل ، يَنْشِدُ قولَ المُجَنِّسِ المَمَثَلِ :

ان هذا الربيع شيء عجيب تضحك الأرض من بكاء السماء
ذهب حيثما ذهبنا ودُرَّ حيث دُرنا وفضّة في الفضاء

والجيش المنصور بحرٌ مُتلاطمُ الامواج ، يسيرُ فيملاً الفضاء
ويُغصُّ الفِجاج ، ويُقيم فيكون هالةً على بذرُ سُعود وشرَف ، وُسورَ حِفْظ
لا يُعرَف له طرف ، قد رُصّت صفوفُه ، وتعدّدت ألوفُه ، وتنوّعت
أجناسه وُصُوفه :

من كُلِّ ابيض قد تقلّد ايضاً عضباً واسمرَ قد تقلّد اسمرأ
والخيلُ تمرح في أعنتها ، وتمضي في الخيلاء على سُنتها ، قد
حليت من الاسلحة بما راق وراع ، واعجزَ وصفه ألسنُ اللّسن
وأسلّة البراع !

مُوصّلة من ذي العقال وداحسٍ وآلِ الوَجِيه والتّعامة والخيّفا
فن أشهب لبسَ الثورِ رداءً ، وسابقَ البرقِ عداءً :

فكانّه في حليهِ وسلاحه صبحٌ تقلّد حليّةَ الجوزاء

ومن أذهم خلع الليل عليه إهابه ، واثبت بين عينيه شهابه :

فكانما لطم الصباحُ جبينه فاقتصر منه فخاض في أحشائه

واحمرَ فأثما وصفه فطمهم عتيق ، واما لونه فعقيق ، واصفرَ كأنما

صَيَغَ مِنْ ذَهَبٍ ، أَوْ خَلَقَ مِنْ لَهَبٍ :

أَلْقَى الْأَصِيلُ عَلَيْهِ مِنْ نَضَارَتِهِ غِلَالَةً وَشَتَّ الظَّالِمَا حَوَاشِيَهَا

وَمَنْ أَزْرَقَ قَدْ تَسَرَّ بِلَ حُلَّةِ السَّمَاءِ وَتَحَلَّى بِالنَّجُومِ ، أَوْ رَامَ اسْتِرَاقَ
الْسَّمْعِ فَرَمَتْهُ بِشَهْبِ الرُّجُومِ :

عَطَايَا أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ وَبِرِّهِ	بِاجْنَادِهِ وَالْبِرِّ بِالْجُنْدِ يَحْمَدُ
مَلِكِ حَلِيفَاهِ التَّوَكُّلِ وَالرِّضَا	وَأَوْضَافِهِ عِلْمِ وَحِلْمِ وَسُؤْدَدِ
يَصَابِحِهِ أَمْنٌ وَيَمْنٌ وَرَحْمَةٌ	وَيَعْضُدُهُ فَتْحٌ وَنَصْرٌ مَجْدَدُ
فَتَى الْمَجْدِ أَمَّا هُدْيُهُ فَوْفَقَ	رَشِيدٍ وَأَمَّا رَأْيُهُ فَمَسْدَدُ
بِهِ الدِّينُ سَامٍ وَالشَّرِيعَةُ غَضَّةٌ	تَرْوِقُ وَرُكْنُ الْمَجْدِ عَالٍ مَشِيدُ
وَأَنَّهُ فِي مَقْصَدِ الْحُكْمِ حِكْمَةٌ	يَحُلُّ بِهَا فِي اللَّهِ طَوْرًا وَيَعْقِدُ
فَلَا زَالَ مَحْمُودَ الْمَسَاعِي مُؤَيَّدَا	يَغُورُ ثَنَاهُ فِي الْبِلَادِ وَيُنْجِدُ

فَسَرْنَا تَحْتَ ظِلَالِ الْعَدْلِ وَالْأَمَنِ ، نَسْتَجْلِي كُلَّ حَيْنٍ مِنْ غُرَّتِهِ
الْمِيْمُونَةِ طَالِعِ الْفَتْحِ وَالْيَمْنِ ، وَتَرْفُلُ فِي أَرْضِيَةِ الْمَعَالِي الضَّافِيَةِ ، وَنَكْرَعُ
فِي بَحَارِ الْجُودِ الصَّافِيَةِ ، وَنَتَمَسَّكُ مِنَ الثُّجَجِ بِالْعُهُودِ الْوَافِيَةِ ، وَتَرْتَعُ فِي
رَوْضِ الْأَمَانِ وَالْعَافِيَةِ :

وَقَدْ بَدَتْ لَنَا وَجُوهُ الْهُدَى مُسْفِرَةً وَلَا حَ نُورِ الْقَلَاخِ

فلما خَيَّمْنَا بِشَاطِئِهِ وَآدِي الْعَبِيدِ ، قَابَلْنَا بَوَجهَ الْجَبَّارِ الْعَنِيدِ ،
وَأَبْدَى مِنْ مَدَّةِ آيَةِ الْإِعْجَازِ ، وَقَالَ بِلِسَانِ حَالِهِ لَا مَجَازَ لَا مَجَازَ ،
وَاسْتَعَانَ مِنْ ثُلُجِ الْجِبَالِ بِالْمَذَابِ ، فَارَانَا بِحَرِّ طَائِمِي الْعُبابِ :

نَهْرُ يُرِيكَ السَّهْمَ سُرْعَةً جَرِيهَ وَالْبَحَرَ عُمْقًا وَالشَّفِيرَ سَعِيرًا
فَلْيُسَلِّمْ النَّفْسَ الْمُرِيدَ عُبُورَهُ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَطْفُ الْإِلَهِ ظَهِيرًا

فَاحْجَمَ عَنْ عُبُورِهِ الْقَوْمَ ، وَاسْتَبْشَرَ بِالزُّبُونِ الْعَارِفُ بِالسَّابِحَةِ
وَالْعَوْمِ ، وَبَاتَ النَّاسُ فِي الْآرَاءِ يَتَرَدَّدُونَ ، وَلَقِصَّصَ النَّاجِينَ وَالْغَرَقَى
يُعَدَّدُونَ ، وَقُصَارَى أُمْنِيَةِ كُلِّ وَاحِدٍ عُبُورُ ذَلِكَ الصَّرَاطِ ، وَالْإِنْتِظَامُ
فِي سَلَكِ النَّاجِينَ وَالْإِنْخِرَاطِ ، حَتَّى أَنْشَدَ بَعْضُهُمْ وَاسْتَحْسَنَ ، وَتَمَنَّى
مَا تَمَنَّى الْحَسَنُ :

أَلَا لَيْتَ شِغْرِي هَلْ أَيْتَنَ لَيْلَةً بِسَهْبِ الشَّيْنِ أَوْ بِسَهْبِ بَنِي وَرَا
وَهَلْ تَعْبُرُنْ نَهْرَ الْعَبِيدِ رَكَائِي وَهَلْ أَتْرُكُنْ دَايَا وَأُدَوَاءَهَا وَرَا

فَلَمَّا تَبَلَّجَ أَذْهَمُ اللَّيْلِ عَنْ أَشْهَبِ الصَّبَاحِ ، وَحَيَقَلَ الدَّاعِي بِحِيٍّ
عَلَى الْفَلَاحِ ، وَتَوَلَّتْ نَجُومُ اللَّيْلِ تَقْفُو إِثْرَهُ ، وَغَلَّتْ سَيُوفُ ذُكَاةٍ
تُخْرِقُ سِتْرَهُ ، وَأَدَّى النَّاسُ النِّفْلَ وَالْفَرَضَ ، وَأَشْرَقَتْ بُنُورُ
رَبِّهَا الْأَرْضِ :

ولاحت لنا شمسُ الغداة كغداةِ بدا حاجبُ منها وضئتُ بحاجب
صدر الأذنُ المولويُّ بالعبور ، وقُدِّم له الصُّبور فالصبور ،
وجعلَ فاتحةً ذلك نجله الأسعد ، وقرَّعه الأنجب الأصعد ، سيدنا
ومولانا مُحَمَّد ، تفاوُلًا لتسحسح العاقبة وتُحمَّد ، وكانت قد تقدَّم
الأمر المطاع بإعداد المعادي للاعانة على عبور ذلك العدو العادي ،
فلم يكن إلا أن عبَّر الأولُ مُكتفياً بالمختصر عن المطوَّل ، وظهر
من لطف الله وسعادة مولانا ما عليه المعوَّل ، وحمدَ الناسُ اللهَ على
ما سهَّل من ذلك وخوَّل ، تتابع العبور على الريح والأعواد ،
مع سلامة الأنفس والأزواد ، وشاهد الناسُ لجيش مولانا المختمي ،
شبهَ ما ظهر من الكرامة لعبد الله بن الحضرمي ، ولا غرو أن
يُعطى التابعُ حُكمَ المتبوع ، ويظهر للعيان حقيقة ما هو مرُوي
ومسموع ، والله قومٌ يُسعدُهم ويُسعِدُ بهم ، ويُظهر عنايته على من
تعلَّق بسببهم :

واذا السَّعادةُ لاحظتكَ عيُونُها نَمَّ فالمخاوفُ كُلُّهنَّ أمان
واضطدَّ بها العنقاءُ فهي حِبالةٌ واقْتَدَ بها الجوزاءُ فهي عِنان
ولمَّا خيَّمت الجوعُ بالعدوة الأخرى ، ورأوا السلامةَ غَنِيمةً

وَذُخْرًا ، وَعَايِنَ النَّاسُ مَا تَعَوَّدُوهُ مَعَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ مِنَ النِّجَاحِ
وَالسَّعُودِ ، وَالْفَوْزِ الْمَشْهُورِ الْمَشْهُودِ ، وَالتَّيْسِيرِ الْمَعْلُومِ الْمَعْمُودِ ، هَذَا
بِالسَّلَامَةِ بَعْضُهُمْ بَعْضًا ، وَجَعَلُوا ذَلِكَ بَيْنَهُمْ سُنَّةً وَفَرْضًا ، فَلَا تَلْقَى
غَيْرَ حَامِدٍ وَشَاكِرٍ ، وَمُقِرٍّ بِنِعَمِ اللَّهِ ذَاكِرٍ ، وَاتَّسَعَ لِنَبِيهِمُ الْمَجَالُ ،
فِي الرِّوَايَةِ وَالْإِرْتِبَالِ ، فَمَنْ نَازِلٌ وَنَازِلٌ ، وَمُقَصِّرٌ وَمُكَاثِرٌ ،
وَمَنْ قَائِلٌ :

أَرَى نَهْرَ الْعَبِيدِ غَدَا عَنِيدًا يُعَايِلُنَا بِجَوْرِ وَاشْتِطَاطٍ
عَبَرْنَاهُ عَلَى خَطَرٍ وَخَوْفٍ عَلَى غَيْرِ اخْتِيَارٍ وَاحْتِيَاطٍ
وَذَلَّلَ الْإِلَهُ لَنَا فِرْنَا مِنَ الرِّيحِ الْمُسَخَّرِ فِي بَسَاطٍ
يُهَيِّئُ بِالْعُبُورِ الْبَعْضُ بَعْضًا كَأَنَّا قَدْ عَبَرْنَا عَلَى الصَّرَاطِ

وَمَنْ مُتَمَثِّلٌ فِي عُبُورِ الْوَادِي ، عَلَى الْمَعَادِي :

لَيْتَ كُنَّا رَكِبْنَاهَا ضَلَالًا فَيَا اللَّهَ إِنَّا تَائِبُونَ
فَأُخْرِجْنَا عَنْ الْمَرْغُوبِ مِنْهَا (فَانْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ)

وَمَنْ مُنْشِدٌ ، وَإِلَى لُطْفِ اللَّهِ مُرْشِدٌ :

عَبَرْتُ نَهْرَ الْعَبِيدِ قَهْرًا عَلَى بَسَاطٍ مِنَ الْهَوَاءِ

وَلَمَّا تَحَدَّ النَّاسُ الْإِيرَادَ وَالْإِصْدَارَ ، وَاسْتَقَرَّتْ بِهِمْ بَعْدَ الْعُبُورِ
الدَّارُ ، شَكَرُوا عَلَى فَضْلِ اللَّهِ إِمَامَهُمْ ، وَجَعَلُوا الْقَبِيلَةَ التَّادِلِيَّةَ أَمَامَهُمْ ،

المحاضرات

خير العلم ما حوضر به
شجاعة ادريس الازهر

حدث داودُ بنُ القاسم بن عبد الله بن جعفر الأوزبي ، قال :
شهدتُ مع ادريس بن ادريس بعض غزواته للخوارج الصفريّة من
البربر ، فلقيناهم وهم ثلاثة أضعافنا ، فلما تقارب الجمعات ترجّل
ادريس فتوحاً وصلى ركعتين ودعا الله تعالى ، ثم ركب فرسه وتقدم
للقِتال ، فقاتلناهم قتالاً شديداً ، فكان ادريس يضرب في هذا
الجانب مرة ، ثم يكرّ في الجانب الآخر ، فلم يزل كذلك حتى ارتفع
النهار ، فرجع الى رأيتّه فوق يازائها والناس يقاتلون بين يديه ،
فطفقتُ أنظر اليه وأديم الالتفات نحوه ، وهو تحت ظلال البنود ،
يحرّض الناس ويشجعهم ، فأعجيني ما رأيت من شجاعته وقوة بأسه ،
فالتفت نحوّي فقال : يا داود مالي أراك تديم النظر إليّ ، قلتُ أيها
الامام انه أعجبنى منك خصالٌ لم أرها في غيرك . قال : وما هي
يا داود . قلتُ أولها ما أراه من حسنك وجمالك وثبات قلبك ، ومن
طلاقة وجهك وما خصّصت به من البشر عند لقاء عدوك ، قال : ذلك

بركةُ جدنا رسول الله صلى عليه وسلم ودعايته لنا وصلاته علينا وإيراثه أئينا عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه وكرّم وجهه . قلت أيها الإمام أراك تبصقُ بُصاقاً مجتمعاً وأنا أطلب الرّيق في فمي فلا أجدهُ ، قال : يا داود ذلك لاجتماع عقلي وثبات جأشي وعدمُ الرّيق من فيك لطيش لُبِّك وافتراق عقلك ، ولما خامرَكَ من الرّعب . قال : فقلت أيها الإمام وأنا أيضاً أتعجب من كثرة تقلُّبك في سرِّجك وقلة قرارك في موضعك . قال ذلك مني زَعْمُ للقتال وعزمٌ وصرامة وهو احسن في الحرب فلا تظنّه رُعباً ، ثم أنشأ يقول :

أليسَ أئونا هاشمٌ شدّ أزره وأوصى بنيه بالطعان وبالضرب
فلسنا نملُّ الحربَ حتى تملّنا ولا نشتكى ممّا يؤول الى النصب
ولكنّا أهلُ الحفايظ والشهي اذا طارَ أرواحُ الكُماة من الرّعب

الحسن الحجام

كان بين الحسن بن محمد بن القاسم بن ادريس من ملوك الادارسة وبين عمّه احمد بن القاسم حروب شديدة ومنازعات على الحكم ، فحمل الحسن ذات يوم في قتال على فارس من جند عمه ، فطعنه في الحجاجم ، ثم فعل ذلك بثان وثالث ، كل ذلك لا يطعنهم إلا في

مَوْضِعَ الْحَاجِمِ . فَقَالَ أَحَدُ عُمَّه : إِنَّمَا ابْنُ أَخِي حَجَّامٌ ، فَلِزَمَهُ هَذَا
الْلَقَبُ ، وَقَالَ فِيهِ الشَّاعِرُ :

وُسِّمْتَ حَجَّامًا وَلَسْتَ بِحَاجِمٍ وَلَكِنْ لَطْفَنَ فِي مَكَانِ الْحَاجِمِ

محاسن الزهد والورع

لَمَّا تُوُفِّيَ وَالِدُ الشَّيْخِ عَلِيِّ بْنِ حَرْزَمٍ وَرِثَهُ هُوَ وَاخُوهُ أَبُو الْقَاسِمِ
فَاتَّفَقَا عَلَى قَسْمِ التَّرِكَةِ بَيْنَهُمَا بِدُونِ تَدْخُلِ أَحَدٍ مِنَ النَّاسِ . وَقَامَ عَلِيٌّ
إِلَى وَرِدِهِ مِنَ اللَّيْلِ فَجَالَ خَاطِرُهُ فِي التَّرِكَةِ وَجَعَلَ يَفْكُرُ مَا يَأْخُذُهُ
مِنْهَا لِنَفْسِهِ وَمَا يَتْرَكَ لِأَخِيهِ حَتَّى لَمْ يَدِرْ مَا صَلَى . فَلَمَّا أَصْبَحَ بَعَثَ
لِأَخِيهِ أَبِي الْقَاسِمِ ، وَقَالَ لَهُ : أَحْضِرِ الشُّهُودَ حَتَّى أَتَصَدَّقَ عَلَيْكَ
بِمِيرَاثِي فِي أَبِي ، فَقَالَ لَهُ لَا تَفْعَلْ ، فَقَالَ لَهُ لَنْ لَمْ تَقْبَلْ لِأَتَصَدَّقَنَّ بِهِ
عَلَى الْجُذَمَى ، فَلَمَّا رَأَى ذَلِكَ مِنْهُ أَحْضَرَ الْبَيْتَةَ وَقِيلَهُ .

وَكَانَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَاشٍ فَقِيهًا مُتَوَرِّعًا مِنْ أَهْلِ فَاسَ ، بَاعَ
فُنْدُقًا مِنْ بَعْضِ قَرَابَتِهِ وَتَصَدَّقَ بِشِمْنِهِ ، فَهَاتَ الْمُشْتَرِيَ فَوَرِثَهُ مِنْهُ
فَبَاعَهُ وَتَصَدَّقَ بِشِمْنِهِ أَيْضًا ، وَلَمْ يَشَأْ أَنْ يَقْبِضَ عَنْدهُ مَا كَانَ
تَصَدَّقَ بِهِ .

وَوُزِعَ قَدَانًا بِيَابَ عَجِيصَةٍ وَحَصَدَهُ وَدَرَسَهُ ، وَكَانَ الْعَامَ شَدِيدًا

فجاءه الناظر عليه ، فقال اخْرِجْ الى زرعك حتى تَكْتَالَه ، فقال غداً الجمعة لا اقدر على الخروج ، فقال له ان تركته نُهب ، لأن الناس في حاجة شديدة والموضع قريب تُدرك منه الجمعة ، فخرج غُدُوَّةً واشتغل في كَيْلِهِ وَنَقْلِهِ وأتى المدينة فوجد الناس قد انصرفوا من الصلاة ، فتصدَّق بالطعام الذي وجد في ذلك الفدان وحَبَّسَ الفدانَ على المساكين . وكان للشيخ ابي القاسم بن خَنْوْشَة بُسْتَانٌ وأُعْطِيَ في فاكته سَوْمًا ، فقال للمشتري : اترُكْني هذه الليلة حتى أرى رأيي ، أما ان أنفَذَ لك البيع او أرَدَّه . فلما كان من الغد جاء من أعطاه في البُستانَ ستين ديناراً او أكثر زيادةً على القيمة الأولى ، فبعث الشيخ أبو القاسم للمشتري الأول ، وقال له أعطيتُ في البُستانَ زيادةً ، فان أردتَ ان تُمسِكَ بُسْتَانَكَ بالثمن الأول فافعل وان أردتَ ان تأخذَ الزيادة فهي لك لأنِّي البارحة أنفَذْتُ لك البيع بقلبي بالسَّوْمِ الذي أعطيتني فأخذ المشتري الزيادة التي زاد المشتري الثاني ولم يأخذ الشيخُ إلا الثمنَ الأول .

وكان الشيخ صالح بن حَرْزَمِ فَقِيهاً وَرِعاً وهو عمُّ الشيخ علي ابن حَرْزَمِ ، رجل الى المشرق فانقطع مدة بالشام ، وفي قَرْيَةٍ بَيْنَتِ المقدس قُدِّمَ للصلاة فَبَقِيَ هنالك حتى نَزَلَ عليه يوماً أبو حامد الغزالي مع أصحابه وكان في المسجد عَرِيشٌ عَنَبَ قد ظهر فيه الحَضْرَمِ ، فقال أصحاب أبي حامد اشْتَهَيْنَا حَضْرَمًا ، فقال لهم سلوا

إمام المسجد على مَنْ 'حُبِسَ عَنَّهُ' ؟ فسألوا الشيخ صالحاً فقال لا أدري على مَنْ 'حُبِسَ' ولا تعرّضتُ له ولا أكلتُ منه قط ، فأخبروا أبا حامد بما قال ، فقال هذا مغربي له أعوام في هذا المسجد لم يتعرّض له قطّ وانتم من ساعة واحدة لم تملكوا نفوسكم .

ودعا السلطان ابو الحسن المريني فُقهَاءَ الحضرة القاسية الى وِليمة وما فيهم إلا ذُو صلاح ودين ، فمنهم مَنْ قال إني صائم ، ومنهم من أكل وقُلِّل ، ومنهم من أكل الغلّات فقط ، ومنهم من شَمَر للأكل عن ساعدَيْه ، ومنهم من قال : هاتوا من طعام الأمير على وجه البركة ، فإني لا أقدر أن آكل الآن ، فسألهم الشيخ أبو ابراهيم الاعرج عن ذلك فقال الاولُ طعامُ شُبْهة تسترّ منه بالصوم وقال الثاني كنتُ آكل بمقدار ما اتصدّق لانه مجهول الأرباب والمباشر كالغاصب وقال الثالث اعتمدتُ القولَ بان الغلّات للغاصب اذ الخراج بالضمان وقال الرابع طعامُ مُستهلك ترتّب القيمةُ في ذِمّة مُستهلكه فحلّ تناوله وقدمكُنني منه فحلّ لي وقال الخامس طعامُ مُستحقّ للمساكين قدّرتُ على استخلاصه فاستخلصته واوصلته اليهم ، وكان قد تصدّق بما اخذ .

تحوّلي القاضي ابن محسود للعدالة

كان أبو محمد بن محسود الهواري من أهل الفضل والدّين وكان من أهل فاس قاضياً بها فنزل به ضيف فرهن غزّل امرأته في سمن يأتدّم به الضيف فاذا ذلك السمن مُرٌّ لا يُطاق أكله فبينما ابن محسود في مجلسه اذ نظر السّمان مُقبلاً اليه مع خصمه فقام وأمر من حضر أن يحكم بينهما فلما عاد الى مجلسه اخبرهم بان ذلك السّمان قد كان اعطاه سمناً مُراً وقال خشيتُ من اجل ذلك ان لا اسمع منه كما اسمعُ من خصمه فكرهتُ الحكم بينهما .

ملحّ أهل التصوف

بعث أبو زيد الهزُميري الى أبي عمران الشولي وكان كثير الصلاة إنّه لم يبقَ بينك وبين الله حجابٌ الا الرُّكُيعات فرَجَعَ اليه أن الاتّصالَ كان منها فلا كان الاتّصالُ عنها .

ودخل أبو عبدالله المقرّي على عبد الرحمن بن عفّان الجزولي وهو يجود بنفسه وكان رآه قبل ذلك مُعافىً فسأله عن السبب فأخبره انه خرج الى لقاء السلطان ابي الحسن المريني فسقط عن دابّته فتضعضتُ أركانه فقال ما حملك ان تتكلّف هذا في ارتفاع سنّك فقال حبُّ الرّياسة آخرُ ما يبرُج من قلوب الصّديقين . وسُئِلَ ابنُ شاطر المراكشي

عن معنى قول ابن الفارض :

فَلَمْ أَلْهُ بِاللَّاهُوتِ عَنْ حُكْمِ مَظْهَرِي وَلَمْ أُنْسَ بِالنَّاسُوتِ مَوْضِعَ حِكْمِي
فَقَالَ : يَقُولُ مَا أَنَا بِالْحَلَّاجِ وَلَا بِبَلْعَامِ .

وكان ابن شاطر هذا ممن صحب ابا زيد الهزلي و ابن البناء
ورزق بمخالطة الاولياء حلاوة القبول فلا تكاد تجد من يستثقله وربما
سئل عن نفسه فيقول ولي مفسود .

وأعطاه السلطان ابو عنان المربني الف دينار ليحج بها فمر على
تلمسان فصار يدفع منها شيئاً فشيئاً للمتفرجين بغدير الوريث شرقي
عباد الى ان نفذت فلما ورد ابو عنان تلمسان لقيه بسوق العطارين من
منشر الجلد فقال له ابو عبد الله خج مبرور فقال له اذا جهلت اصل
المال فانظر مصارفه ويأبى الله الا ان يُنفق الخبيث في مثله فضحك السلطان .

ودخل الأبي وهو عالم تلمسان على تلميذه ابي القاسم الفخار السلوي
وهو يعجن طين الفخارة فقال له ما علامة قبول هذه المادّة اكمل صورة
ترد عليها فقال أن تدفع عن نفسها ما هو من غير جنسها من حجر أو
زبل أو غيره فأدركه وجد عظيم حتى انه صاح وقام وقعد وبقي هنيئاً
مطرقاً برأسه مفكراً ثم قال هكذا هي النفوس البشرية .

وكلُّ ناطقة في الكون تطربني

قيلَ لأبي عليّ الحرّالي المراكشي كيف أصبحتْ فأنشد :

أصبحتُ أطفَ من مرَّ النسيم إذا

سرى على الرّوض ، كاذّ الوهم يُؤلمني

من كل معنى لطيف أجتلي قدحاً

وكلُّ ناطقة في الكون تطربني

وكان بعض تلامذته مولعاً بالشراب فعكف ليلةً على الشرب حتى

سقط على زجاجة فجرح في وجهه فلما أصبح صار إلى الشيخ وأثرُ

الزُّجاجة ظاهرٌ عليه فأنشده :

لا تسفِكنَ دمَ الزُّجاجة بعدها إنَّ الجروحَ كما عاينتَ قصاصُ

فخجل التلميذُ وكان ذلك سببَ توبته .

وكان أبو عبدالله بن أبي بكر الدلائي يُنصتُ للسمع في آخر

عمره ويتأثر به فانتهى ذلك لأبي العباس ابن القاضي فكتب له :

عهدُك ما تصبّو وفيك شيبَةٌ فإلك بعد الشيبِ أصبحت صايًا

فأجابه :

نعم لاح برقُ الحسن فاخطف الجشا فليئته من بعد ما كنتُ آييًا

هِمَّةُ عَالَمٍ

كان الفقيه ابو العباس الحَبَّاکُ المكناسي خطيباً بالقرَوَيْنِ فعُزِلَ هو والفقيه القَوَزِيّ القاضِي في يوم واحد ، ثم طُلِبَ بعد ذلك لخطبة جامع الأندلس فابى وقال إن كان عَزَلِي بِجُرْحَةٍ فلا يحلُّ لكم تقديمي وإن كان عن غير جُرْحَةٍ فقبُولِي من قِلَّةِ الهِمَّةِ .

عَالِمُ ابْنِ دَلَالٍ

قال ابو البركات ابنُ الحاجِّ : كنتُ بِبِجَايَةِ وَقَدِيمَ عَلَيْنَا رَجُلٌ من فاس برَّسَمِ الحجِّ ، يُعرفُ بابنِ الحَدَّادِ ، فرَكِبَ الناسُ في الأخذِ عنه والروايةِ لما يَحْمِلُهُ كُلٌّ صَعْبٌ وَذُلُولٌ مع أَنَّهُ لم تَكُنْ مَنْزِلَتُهُ هُنَاكَ في العلمِ ، فَعَجِبْتُ لذلك حتى قلتُ لبعضِ الطُّلَبَةِ : لقد أخذتموه بِكِلْتَا اليَدَيْنِ ولم أَرَ كُفَّهمْ من هو أَعْلَى قَدْرًا مِنْهُ كذلك ، فقالوا لي لَأَنَّهُ قدم علينا ونحنُ لا نَعْرِفُهُ في زِيٍّ حَسَنٍ بِخَادِمٍ يَخْدُمُهُ يَظُنُّ مَنْ يراه ان أَباه من أَعْيَانِ أَهْلِ بَلَدِهِ ، فسألناه أَحْيَى أَبوه أَمْ لا ؟ قال بل حَيٌّ ، قلنا أَهو من أَهْلِ العلمِ ؟ قال لا هُوَ دَلَالٌ في سُوقِ الخِدمِ فلذلك آثَرْنَاهُ على من هُوَ قَوْتُهُ في العلمِ ، قال : فقلتُ لَهُمْ 'حَقٌّ' لَهُ أَن تَرْتَفِعَ مَنْزِلَتُهُ وَيَعْلَوْ صِيتُهُ لِتَخْلُقَهُ وَفَضْلُهُ .

حُسنُ الجواب

حَضَرَ يَحْيَى بْنُ الزَّيْتُونِي يَوْمًا بَيْنَ يَدَيِ الْمُعْتَمِدِ وَعِنْدَهُ ابْنُ زَيْدُونٍ ، فَكَانَ هَذَا اسْتَجْهَلَهُ وَأَرَادَ أَنْ يُخْجِلَهُ ، فَقَالَ لَهُ : أَفَأَسِرَ أَنْتَ يَا أَبَا زَكَرِيَاءَ ؟ يُوْهِمُ أَنَّهُ يَسْأَلُهُ عَنْ بَلَدِهِ ، وَخَبْرًا لَهُ فِيهَا شَيْئًا ، فَفَهِمَ ابْنُ الزَّيْتُونِي مُرَادَهُ وَأَجَابَهُ سَرِيعًا مَنْسُوبًا اعْزَكَ اللَّهُ فَلَجَّ ابْنُ زَيْدُونٍ فِي أَذَاهُ فَقَالَ نِعَمْ الْفَتَى أَبُو زَكَرِيَاءَ فَفَهِمَ ابْنُ الزَّيْتُونِي أَنَّهُ يَرِيدُ يَعْمُ الْقَسِيَّ أَبَا زَكَرِيَاءَ فَصَدَمَهُ بِمَثَلِهِ وَرَمَاهُ بِشَكْلِهِ فَقَالَ لَهُ عَبْدُكَ اعْزَكَ اللَّهُ يُرِيدُ عِنْدَكَ أَيُّ يَعْنِي عِنْدَكَ — لَا عِنْدَ غَيْرِكَ مِنَ الْفُضَلَاءِ وَلَمَّا أَجَابَهُ الْجَوَابَ الْمَذْكُورَ خَجَلَ أَبُو الْوَلِيدِ وَاسْتَخَفَّ الطَّرَبُ جَمِيعَ مَنْ حَضَرَ . وَحَضَرَ الْقَاضِي الْمَلِيلِيُّ وَعَبْدُ الْمُهَيْمَنِ الْحَضْرَمِيُّ صَاحِبُ الْعَلَامَةِ لِلسُّلْطَانِ أَبِي الْحَسَنِ الْمَرْيَنِيِّ مَجْلِسَ السُّلْطَانِ فَجَرَى ذِكْرُ الْفَقِيهِ ابْنِ عَبْدِ الرَّزَّاقِ فَقَالَ الْمَلِيلِيُّ جَمَعَ مِنَ الْفَنُونِ كَذَا حَتَّى وَضَعَ يَدَهُ عَلَى عَبْدِ الْمُهَيْمَنِ وَقَالَ لِلْسُّلْطَانِ مُحَاطِبًا : وَيَكْتُبُ لَكَ أَحْسَنَ مِنْ ذَا فَوْضِعِ عَبْدِ الْمُهَيْمَنِ يَدَهُ عَلَى الْمَلِيلِيِّ وَقَالَ نَعَمْ يَا مُوَلَايَ وَيَقْضِي لَكَ أَحْسَنَ مِنْ ذَا .

وَحَدَّثَ الْمُقَرَّرِيُّ الْكَبِيرُ قَالَ : نَظَرْتُ يَوْمًا مَعَ إِبْرَاهِيمَ بْنِ حَكَمِ الْكِنَانِيِّ السَّلَوِيِّ فِي تَكْمِلَةِ بَدْرِ الدِّينِ ابْنِ مَالِكٍ لِشَرْحِ التَّسْهِيلِ لِأَيِّهِ فَفَضَّلْتُ عَلَيْهِ كَلَامَ أَبِيهِ وَنَازَعَنِي ابْنُ حَكَمٍ فَقُلْتُ :

عُهودٌ من الآباء توارثها الأبناء فما رأيتُ بأسرعٍ من ان قال : بنوا مجدَهَا لكنْ بشوْهم لها أبْنَى ، فبُهِتُ من العجب .

ولما أوقع السلطان مولاي رشيد بأهل الدّلاء كان ابو عبد الله المرابط منهم ممن اختصه لنفسه فكان يتردّد اليه مع العلماء على كراهية منه وفيهم السلطان ذلك منه فانشده في بعض الايام :

وَمِنْ نَكَدِ الدُّنْيَا عَلَى الْخُرِّ أَنْ يَرَى عَدُوًّا لَهُ مَا مِنْ صِدَاقَتِهِ بُدَّ

ففطن المرابط وقال على البديهة اصلح الله الامر وإن من سعاقة المرء ان يكون عدوه عاقلا فاستحسن السلطان والحاضرون بديته وحسن جوابه .

بين عبد المؤمن ووزيره

خرج عبد المؤمن يوماً مع وزيره ابي جعفر بن عطية مُتَنَزِّهًا الى بعض بساتين مراكش فرأى في طريقه بشارع من شوارع المدينة فاذا بطاق في دار عليه شُبَّاكُ خَشَبٍ قد قابله منه وجهٌ جارية كأنه الشمس الضاحية قد بادرت الطاقَ تنظرُ اليه فنظر اليها عبد المؤمن فأعجبه حسنُها وحلَّتْ من قلبه كلَّ محل فقال ارتجالاً :

قَدَّتْ فُؤَادِي مِنَ الشَّبَالِ إِذْ نَظَرْتُ

فَقَالَ أَبُو جَعْفَرٍ :

حَوْرَاءُ تَرْنُو إِلَى الْعِشَاقِ بِالْمَقْلِ

فَقَالَ عَبْدُ الْمُؤْمِنِ :

كَأَنَّمَا لَحْظُهَا فِي قَلْبِ عَاشِقِهَا

فَقَالَ أَبُو جَعْفَرٍ :

سَيْفُ الْمُؤَيَّدِ عَبْدُ الْمُؤْمِنِ بْنِ عَلِيٍّ

وَقَالَ أَبُو جَعْفَرٍ : دَخَلْتُ عَلَى عَبْدِ الْمُؤْمِنِ وَهُوَ فِي بَسْتَانٍ لَهُ قَدْ

أَيَنْعَتِ ثِمَارُهُ ، وَتَفَتَّحَتْ أَزْهَارُهُ ، وَتَجَاوَبَتْ عَلَى أَغْصَانِهَا أَطْيَارُهُ ،

وَتَكَامَلَتْ مِنْ كُلِّ جِهَةٍ حُسْنُهُ وَهُوَ قَاعِدٌ فِي قُبَّةٍ مُشْرِفَةٍ عَلَى الْبُسْتَانِ ،

فَسَامَتْ وَجَلَسْتُ وَجَعَلْتُ أَنْظُرَ يَمِينَةً وَيَسْرَةً مُتَعَجِّبًا مِمَّا أَرَى مِنْ حَسَنِ

ذَلِكَ الْبَسْتَانِ فَقَالَ لِي : يَا أَبَا جَعْفَرٍ أَرَأَيْكَ كَثِيرَ النَّظَرِ إِلَى هَذَا الْبَسْتَانِ

قُلْتُ : يُطِيلُ اللَّهُ بَقَاءَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ وَاللَّهِ إِنْ هَذَا لَمَنْظَرٌ حَسَنٌ فَقَالَ

يَا أَبَا جَعْفَرٍ الْمَنْظَرُ الْحَسَنُ هَذَا ؟ قُلْتُ نَعَمْ فَسَكَتَ عَنِّي فَلَمَّا كَانَ بَعْدَ

يَوْمَيْنِ أَوْ ثَلَاثَةٍ أَمَرَ بِعَرَضِ الْعَسْكَرِ أَخَذَنِي أَسْلِحَتِهِمْ وَجَلَسَ فِي

مَكَانٍ مُطْلٍ وَجَعَلْتُ الْعَسْكَرَ تَمَرُّ عَلَيْهِ قَبِيلَةً بَعْدَ قَبِيلَةٍ وَكَتِيبَةً إِثْرَ

كَتِيبَةٍ لَا تَمَرُّ كَتِيبَةً إِلَّا وَالتَّتِي بَعْدَهَا أَحْسَنُ مِنْهَا جُودَةً سِلَاحَ وَفَرَاةً

خَيْلَ وَظُهُورَ قُوَّةٍ فَلَمَّا رَأَى ذَلِكَ التَّفَتَّ إِلَيَّ وَقَالَ يَا أَبَا جَعْفَرٍ هَذَا هُوَ

الْمَنْظَرُ الْحَسَنُ لَا ثِمَارَكَ وَأَشْجَارَكَ .

اعاقبه بالحلم

حضر ابو العباس الجراوي الشاعر والطبيب سعيد الغماري يوماً
 بباب السلطان يوسف بن عبد المؤمن فقال السلطان لبعض خدّمه انظر
 مَنْ بالباب من الأصحاب فخرج الخادم الى الباب ثم عاد اليه فقال
 احمد الجراوي وسعيد الغماري . فقال يوسف من عجائب الدنيا شاعرٌ
 من جروان وطبيبٌ من غُمارة فبلغ ذلك الجراوي فقال « وضرب
 لنا مثلاً ونسي خلقه » أعجبُ منها والله خليفةٌ من كُومية . فيقال ان
 السلطان لما باغّه ذلك قال أعاقبه بالحلم عنه والعفو فيه تكذيبه .

المنصور الموحدى والقيل

أتى قومُ المنصور الموحدى بفيل من الشودان هديةً فأمر
 لهم بصِلّة ولم يقبله منهم وقال نحن لا نريد ان نكون اصحابَ القيل .

سوءُ القال

أهدى يوسفُ بن تاشفين الى المعتمد بن عباد جارية مغنية قد
 نشأت بالعدوة فخرج بها الى قصر الزهراء على نهر اشيلية وقعد على
 الراح ، فغنته الجارية بهذه الأبيات :

حملوا قلوبَ الأسدِ بين ضلوعهم ولوّوا عمائمهم على الأتمار

وَتَقَلَّدُوا يَوْمَ الْوَعَى هِنْدِيَّةً أَمْضَى إِذَا انْتَضَيْتْ مِنَ الْأَقْدَارِ
 إِنْ خَوْفُوكَ لَقِيتَ كُلَّ كَرِيهَةٍ أَوْ أَمْنُوكَ حَلَلْتَ دَارَ قَرَارِ
 فَوَقَعَ فِي نَفْسِهِ أَنَّهَا عَرَضَتْ بِسَادَاتِهَا فَلَمْ يَمْلِكْ غَضَبُهُ وَرَمَى بِهَا
 فِي النَّهْرِ فَهَلَكَتْ .

وَكَانَ الْكَاتِبُ أَبُو بَكْرٍ مُحَمَّدُ بْنُ نَصْرِ الْأَوْسِيِّ مُخْتَصًّا بِالْوَزِيرِ
 أَبِي جَعْفَرٍ بْنِ عَطِيَّةٍ فَقَالَ فِيهِ :

أَبَا جَعْفَرٍ نِلْتَ الَّذِي نَالَ جَعْفَرُ وَلَا زِلْتَ بِالْعَلِيَّائِ تُسَرُّ وَتُحِبُّ
 عَلَيْكَ لَنَا فَضْلٌ وَبِرٌّ وَنِعْمَةٌ وَنَحْنُ عَلَيْنَا كُلُّ مَدْحٍ يُحِبُّ

وَكَانَ أَبُو جَعْفَرٍ قَدْ أَحْسَنَ مِنْ عَبْدِ الْمُؤْمِنِ التَّغْيِيرَ الَّذِي أَفْضَى إِلَى
 قَتْلِهِ . فَلَمَّا سَمِعَ هَذَا مِنْ أَبِي بَكْرٍ تَغَيَّرَ وَجْهُهُ لِأَنَّ جَعْفَرَ بْنَ يَحْيَى
 كَانَ آخِرَ أَمْرِهِ الصَّلْبَ فَكَأَنَّهُ نَعَى إِلَيْهِ نَفْسَهُ .

وَقَفُّ عَلَى الشُّعْرَاءِ

قَالَ ابْنُ حَبُوسٍ دَخَلْتُ مَدِينَةَ شَلْبُ مِنْ بِلَادِ الْأَنْدَلُسِ وَلِيَ يَوْمَ
 دَخَلْتُهَا ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ لَمْ أَطْعَمْ فِيهَا شَيْئًا ، فَسَأَلْتُ عَمَّنْ يُقْصَدُ إِلَيْهِ فِيهَا
 فَدَلَّنِي بَعْضُ أَهْلِهَا عَلَى رَجُلٍ يَعْرِفُ بِابْنِ الْمَلْحِ ، فَعَمِدْتُ إِلَى بَعْضِ

الوراقين فسأله سَحَاءَةٌ^١ ودَوَاة فاعطانيها فكتبتُ أبياتاً امتدحُه بها وقصدتُ داره فاذا هو في الدَّهْلِيز فسلمتُ عليه فرَّحَ بي وردَّ عليَّ أحسنَ رد وتلقَّاني أحسنَ تلقَّ وقال أحسبك غريباً ، قلتُ نعم فقال لي من أيَّ طبقات الناس أنت ؟ فأخبرته أنَّي من أهل الأدب من الشعراء ثم أنشدته الأبيات التي قلتُ ، فوقعتُ منه أحسنَ مَوْقِع ، فأدخلني الى منزله وقَدَّم إليَّ الطعام وجعل يحدِّثني فما رأيتُ أحسنَ مُحَاضِرَةً منه ، فلما آن الانصراف خرج ثم عاد ومعه عبْدَانِ يَحْمِلَانِ صُنْدُوقاً حتى وضعه بين يديَّ ، ففتحتُه فأخرج منه سبعمائة دينار مُرَابِطِيَّة فدفعها إليَّ وقال هذه لك ثم دفع الي صُرَّة فيها أربعون مثقالاً وقال هذه من عندي فتعجبتُ من كلامه وأشكل عليَّ جداً وسألته من اين كانت هذه لي فقال لي سأحدُّثُكَ : اني اوقفتُ ارضاً من جملة مالي للشعراء غَلَّتْهَا في كل سنة مائة دينار ومنذ سبع سنين لم يأتي احداً لتوالي الفتن التي دهمت البلاد فاجتمع هذا المال حتى سيقَ لك وأما هذه فن حُرٌّ مالي يعني الاربعين ديناراً فدخلت عليه جائعاً فقيراً وخرجتُ عنه شَبْعَان غنيّاً .

١ - السَّحَاءَةُ قصاصة من الورق كالسير في عرض رأس المختصر تلف على الكتاب بعد طيه ويلصق رأسها .

بين اميرين

كتب الامير سليمان الموحد الى الامير ابي الحسن يوم الجمعة :

اليوم يوم الجمعة يوم سرور ودّعه
وشملنا مفترق فهل ترى أن نجتمعه

فاجابه بقوله :

اليوم يوم الجمعة وربنا قد رفعه
والشرب فيه يدعه فهل ترى ان ندعه

مناجى نحوية

سئل ابن البناء العددي عن قوله تعالى « ان هذان لساحران »
لمَ تَعْمَلُ إنَّ في هذا فقال لما لم يؤثر القول في المقول لم يؤثر العامل
في المعمول فقليل له هذا لا ينهض جواباً فانه لا يلزم من بطلان قولهم
بطلان عمل إن فقال ان هذا الجواب نَوَارة لا تحتمل ان تحك
بين الأكف .

وحدث أبو القاسم الشاطبي قال لي الشيخ القاضي أبو القاسم الحسني
 يوماً وقد جرى ذكر حتى التي للابتداء وأن معناها التي يَقَعُ بعدها

الكلام سواء كان ذلك متعلقاً بما قبلها لم يتمّ دُونَهُ أولاً بل لا يكون الأمر إلا كذلك ، قال وحدثني بعضُ الأصحاب أنه سمع رجلاً يصلي أشْفَاعَ رمضانَ فقرأ من سورة الكهف الى قوله تعالى ثُمَّ اتَّبَعَ سَبِيلاً ، فوقف هناك وركع وسجد قال فظننتُ أنه نسيَ ما بعدُ ، ثُمَّ ركع وسجد حتى يتذكرَ بعد ذلك ويُعيد أولَ الكلام ، فلما قام من السجود ابتدأ القراءة بقوله حتى إذا بَلَغَ ، فلما أتمَّ الصلاة قلتُ له في ذلك فقال أليستَ حتى للابتداء ؟ قال القاضي الشريف فيجبُ أن يفهم أن الاصطلاح في حتى وفي غيرها من حروف الابتداء ما ذكر .

وجلس العلامة محمد الصغير الورزَازي ذاتَ يوم حين اقامته بمصر مع جماعة من العلماء والأعيان وقُدِّمَ اليهم طعام فأخرج كلُّ واحد منهم مِلْعَقَةً معه وأخذ يأكل بها فأخذ هو يأكل بيده وترك المِلْعَقَةَ ، فقالوا له ما هذا يا شيخَ المغاربة فأنشدُهم متمثلاً بقول ابن مالك في الألفية :

وفي اختيارٍ لا يجيء المنفصل إذا تأتي أن يجيء المتصل

وقيلَ ان هذه الحكاية وقعتْ للرباط الدلائلي .

وجلس بعضُ الطلبة يوماً بين يدي المنصور الذهبي فأنشد هذين البيتين :

زَمَانِنَا كَأَهْلِهِ وَاهْلُهُ كَمَا تَرَى
وَسَيَرُهُمْ كَسَيَرِهِ وَسَيَرُهُ إِلَى وَرَا

وَحَفَظَ زَمَانِنَا عِنْدَ الْإِنْشَادِ فَقَالَ لَهُ الْمَنْصُورُ كَيْفَ خَفَضْتَ
الزَّمَانَ ، فَقَالَ الطَّالِبُ وَاللَّهُ لَا خَفِضْتُهُ كَمَا خَفَضَنِي ، فَأَعْجَبَ
ذَلِكَ الْمَنْصُورُ .

وَمَاتَ أَبُو الْعَلَامَةِ الطَّرْنَبَاطِيُّ النَّخْوِيُّ فَكَانَ فِي الْمَعْرِزِينَ لَهُ رَجُلٌ
عَامِيٌّ جَلَسَ فَقَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ بَرِّفْ رَسُولَ ، فَقَالَ لَهُ الطَّرْنَبَاطِيُّ
لَحْنُكَ أَشَدُّ عَلَيَّ مِنْ مَوْتِ أَبِي .

من عاين التصحيف

قَالَ ابْنُ قَطْرَالِ الْمَرَّاكَشِيُّ كُنْتُ بِالْمَدِينَةِ إِذْ أَقْبَلَ رَافِضِيٌّ بِفَحْمَةٍ
فِي يَدِهِ فَكَتَبَ عَلَى جِدَارِ هُنَاكَ :

مَنْ كَانَ يَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ خَالِقُهُ فَلَا يُحِبُّ أَبَا بَكْرٍ وَلَا عُمَرَا

قَالَ فِسْرْتُ إِلَيْهَا وَجَعَلْتُ مَكَانَ يُحِبُّ يَسُبُّ فَرَجَعَ فَوَجَدَهُ كَمَا
أَصْلَحْتُ فَجَعَلَ يَلْتَفِتُ يَمِينًا وَشِمَالًا كَأَنَّهُ يَطْلُبُ مَنْ فَعَلَ ذَلِكَ وَلَمْ
يَتَّهِمْنِي ، فَلَمَّا أَعْيَاه الْأَمْرَ انْصَرَفَ .

حديث اللطافة *

اصطحب أبو اسحاق التلمساني ومالك بن المرحل في مسير
 فأوآهما الليل إلى مشجر فسألا عن صاحبه قدلاً عليه فاستضافاه
 فأضافهما فبسط قتيقة بيضاء ثم عطف عليها بخبز ولبن وقال لهما
 استغيلا من هذه اللطافة حتى يحضر عشاؤكما وانصرف فتحاورا في
 اسم اللطافة لأي شيء هو منها حتى ناما فلم يرع أبا اسحاق إلا مالك
 يؤقظه ويقول قد وجدت اللطافة ، قال كيف ؟ قال ابعدت في طلبها
 بما لم يمر قط على مسمع هذا البدوي فضلاً عن ان يراه ثم رجعت
 القهقري حتى وقعت على قول النابغة :

بِمُخَضَّبٍ رَخِصِ الْبَنَانِ كَأَنَّهُ عَنَمٌ يَكَاذُ مِنَ اللَّطَافَةِ يُعْقَدُ

فستح ليالي أنه وجد اللطافة وعليها مكتوب بالخط الرقيق
 (اللين) فجعل احدى النقطتين للطاء فصارت اللطافة واللين
 اللين وان كان قد صحف عنم بغنم وظن أن يعقد جبن فقد قوي
 عنده الوهم ، فقال أبو اسحاق ما خرجت عن صوبه فلما جاء سألاه
 فأخبر أنها اللين واستشهد بالبيت كما قال مالك .

نجابة الأولاد

أمرَ المأمون الموحدى بقتل أشياخ الموحدين وأشرافهم فقتلوا عن آخرهم ولم يُبقِ منهم على احد ولم يُراعِ والدًا ولا ولدًا حتى أنه أتى بولد أخيه وهو صبي صغير ابن ثلاث عشرة سنة ، وكان قد حفظ القرآن فلما قدّم ليقتل قال له يا أمير المؤمنين أعف عني لثلاث قال وما هي ؟ قال صغر سنّي وقُرب رَحِمِي منك وحِفظي للكتاب العزيز فأعجبه قوة جأش الغلام وإقدامه على الكلام في مثل ذلك المقام ، ثم نظر الى القاضي المكيدى كالمستشير له ، فقال يا أمير المؤمنين « إنك ان تذرهم يُضِلُّوا عبادك ، الآية فقتله .

وطلبَ الشيخ أبو اسحق الغافقي لتأديب ولدٍ لبعض رؤساء سبّته فقرأ معه كتاب الجمل للزجاجي حتى اذا وصل لقوله في حروف المضارعة يَجْمَعُها قولك « نَأَيْتُ » قال له ذلك الولدُ يا سيدي ينبغي أن تُقدِّمَ الهمزة على النون لما في ذلك من حُسن اللفظ والمناسبة ، أما حُسنُ اللفظ فنأى معناه بُعد وأنى معناه قُرب والتفاوتل بالقُرب حُسن ، وأما المناسبةُ فهي أن يكون لكل واحد من هذه الأحرف ضِعْفُ ما قبله ، فان الهمزة لمعنى واحد ؛ للمتكلم وحده ، والنون لِمَعْنَيْنِ للمتكلم ومعه غيره أو المعظم نفسه ، فهو ضِعْفُ الهمزة ، والياء لأربع معانٍ للغائب والغائِبَيْنِ والغائِبَاتِ نحو يقوم

ويَقُومَانِ وَيَقُومُونَ وَيَقْمُنُ فِيهِ ضِعْفُ النُّونِ ، وَأَمَّا التَّاءُ فِيهِ ضِعْفُ
 الْيَاءِ لِثَمَانِ مَعَانَ لِلْمَخَاطَبِ وَالْمَخَاطِبَةِ وَالْمَخَاطِبِينَ وَالْمَخَاطِبَتِينَ وَالْمَخَاطِبِينَ
 وَالْمَخَاطِبَاتِ نَحْوُ تَقُومُ يَا زَيْدُ وَتَقُومِينَ يَا هِنْدُ وَتَقُومَانِ يَا زَيْدَانِ
 وَيَا هِنْدَانِ وَتَقُومُونَ يَا زَيْدُونَ وَتَقْمُنُ يَا هِنْدَاتُ وَلِلْغَائِبَةِ وَالْغَائِبَتِينَ
 نَحْوُ هِنْدُ تَقُومُ وَالْهِنْدَانِ تَقُومَانِ ، فَلَمَّا سَمِعَ الشَّيْخُ هَذَا مِنْهُ قَالَ لَهُ :
 مِثْلُكَ لَا يَنْبَغِي أَنْ يَشْغَلَ غَيْرَهُ بَلْ غَيْرُهُ هُوَ الَّذِي يَشْغَلُهُ وَلَمْ يُعِدْ
 لِلْقِرَاءَةِ مَعَهُ .

وَكَانَ الْقَاضِي مُحَمَّدُ بْنُ أَبِي الْقَاسِمِ ابْنُ سُودَةَ إِمَاماً بِالْقُرَوِيِّينَ وَكَانَ
 يُؤَخِّرُ صَلَاةَ الصُّبْحِ تَأْخِيرًا مُفْرِطًا رَحِمَهُ بِالضَّعْفَاءِ ، فَحَدَّثَ أَنَّ سَأَلَ
 بَعْضُ الْمَارَّةِ صَبِيًّا مُبَكِّرًا إِلَى الْكِتَابِ هَلْ يُدْرِكُ صَلَاةَ الصُّبْحِ
 بِالْقُرَوِيِّينَ فَقَالَ وَاللَّهِ لَا يُمِشِّي لَهَا إِلَّا بِالْمُظَلَّةِ ، كُنَايَةً عَنْ أَنَّهَا لَا
 تُصَلِّي إِلَّا بِقُرْبِ طُلُوعِ الشَّمْسِ .

وَقَالَ ابْنُ الطَّيِّبِ الْعَلَمِيُّ كُنْتُ مَرَّةً يَوْمًا فِي جَمَاعَةٍ مِنَ الْأَصْحَابِ
 وَوَافَقَ ذَلِكَ فَصَلَ الشِّتَاءِ فَمَرَرْنَا بَيْنَ الرِّيَاضِ وَالْقُضْبِ عَارِيَةً مِنْ أَوْرَاقِهَا
 فَقُلْتُ لَهُمْ عَلَى سَبِيلِ الْإِخْتِبَارِ أَتَيْكُمْ بِخَبْرِي عَنْ الْغُصْنِ لِأَيِّ شَيْءٍ يَتَعَرَّى
 فِي الْبَرْدِ وَيَكْتَسِي فِي الْحَرِّ وَكَانَ الْقِيَاسُ خِلَافَ ذَلِكَ فَانْقَطَعُوا إِلَّا مَا
 كَانَ مِنْ صَاحِبِنَا أَبِي الْعَبَّاسِ سَيِّدِي أَحْمَدَ الشَّرِيفِ فَانْهَ قَالَ وَهُوَ يَوْمُئِذٍ
 حَدَّثَ صَغِيرُ السِّنِّ جَدًّا إِنَّمَا يَتَعَرَّى فِي الشِّتَاءِ لِأَنَّ النَّاسَ أَحْوَجُ إِلَى

الشمس منهم الى الظل فلو اكتسى لكان حائلاً بينهم وبينها واكتسى
في الصيف لأنهم أحوج الى الظل فلو تعرّى لم يجدوا وقايةً من حر
الشمس فهو يترك حقّه في حق الناس ، قال وانت اذا تأملت
قول الشاعر :

سألتُ الغصنَ لمْ تعرّى شتاءً وفي وقتِ المصيفِ أراك كاسِرٍ
فقال ليَ الربيعُ على قُدمٍ خلعتُ على البشيرِ بهِ لباسي

عرفتَ فضلَ ما بينَ الجوابينِ وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ،
وقد نظّم معنى الشريف الزكاتب أبو عبد الله بن سليمان من رجال
الأنيس :

سألتُ قضيْبَ البانِ لمْ أنتَ تكتسي مَصيفاً وتعرّى في الشتاء من الورقِ
فقال أخليَ الشمسُ تُسخنُ زائري لاخْلَع سَهْمَ البردِ منه اذا مرقِ
والْبَسُ ثوبي في المصيفِ حنّانةً ليأويَ الى ظلي ولوْلاه لاُحترقِ

بديهة الجراوي

حدّث صفوانُ بن ادريس أن أبا العباس الجراوي كان في حانوت
ورّاق بتونس وهناك فتى يميل اليه فتناول الفتى شوسنة صفراءَ
وأوماً بها الى خدّيه مُشيراً وقال أين الشعراءُ تحريكاً للجراوي فقال
هذا ارتجالاً :

وَعُلُوِيَّ الْجَمَالَ إِذَا تَبَدَّيْ أَرَاكَ جَبِيئُهُ بَدْرًا أَنَارَا
أَشَارَ بَسَوْتَنِ يَخْكِيهِ عَرَفَا وَيَخْكِي لَوْنَ عَاشِقِهِ أَصْفَرَارَا

الأصيلُ في فاس

قال الشَّريشي أَخْبَرَنِي ابْنُ مَنْصُورٍ قَالَ خَرَجْتُ بِخَارِجِ فَاسٍ عَشِيَّةً
مَعَ فَتَى وَرَّاقٍ فَنَظَرَ إِلَى 'صُفْرَةِ الشَّمْسِ' وَاسْتَنَشَقَ 'بَرْدَ النَّسِيمِ'
وَأَنشَدَنِي مَرْتَجِلًا :

انْظُرْ إِلَى الشَّمْسِ فِي الْأَصِيلِ كَأَنَّهَا وَجُنَّتَا عَلِيلِ
وَرَقَّ هَذَا النَّسِيمُ حَتَّى كَأَنَّمَا يَشْتَكِي نُحُولِي

يَعْنِي ابْنَ عَبْدِوَسِّ بْنِ الْجَهْمِ

قال ابْنُ عَبْدِوَسِّ الْفَاسِي سِرْتُ يَوْمًا إِلَى عَلِيٍّ بْنِ الْجَهْمِ فَأَنشَدَنِي
بِئْتَيْنِ فِي الْعِنَاقِ :

سَقَى اللَّهُ لَيْلًا ضَمْنِي بَعْدَ هَجْعَةٍ وَأَذْنَى فَوَادِي مِنْ فَوَادٍ مُعَذِّبِي
فَبَيْنَا جَمِيعًا لَوْ تُرَاقُ زَجَاجَةٌ مِنْ الْمَاءِ فِيمَا بَيْنَنَا لَمْ تَسْرَبْ

فَأَقْتَدَحَ زَنْدِي لِإِيرَادِ مِثْلِهِ فَقُلْتُ :

لَا وَالْمَنَازِلِ مِنْ تَجْدٍ وَلِيَّاتِنَا بُعِيدُ إِذْ جَسَدَانَا يَبْتِنَا جَسَدُ

كَم رَامَ فِينَا الْكَرَى مَعَ لُطْفِ مَسْلَكِهِ نَوْمًا فَمَا انْفَكَ لَا خَدُّ وَلَا عَضْدُ
مَا أَنْصَفُونِي دَعَوْنِي فَاسْتَجِبْتُ لَهُمْ حَتَّى إِذَا قَرَّبُونِي مِنْهُمْ بَعُدُوا

الوَجْدُ مَعَ الْوُجْدِ

كَانَ رَجُلٌ يَتَعَشَّقُ قَيِّنَةً كَانَتْ وَرِثَتْ مِنْ مَوْلَاهَا مَالًا تُنْفِقُ عَلَيْهِ
مِنْهُ فَلَمَّا فَرَّغَ الْمَالُ مَلَّهَا فَقَالَ فِيهِ عَقِيلٌ بَنُ عَطِيَّةِ ابْنِ أَخِي الْوَزِيرِ ابْنِ
عَطِيَّةِ :

لَا تُلَحَّهْ إِنْ مَالَ عَنْ حَبِّهَا فَلَمْ يَكُنْ ذَلِكَ مِنْ وَدِّ
لَمَّا رَأَاهَا قَدْ صَفَا مَالُهَا قَالَ صَفَا الْوَجْدُ مَعَ الْوُجْدِ

حَسَنُ الْإِعْتِذَارِ

صَبَّحَ يَحْيَى بْنُ عَبْدِ الْمَنَّانِ السُّلْطَانَ أَبَا الْعَبَّاسِ الْمُرِينِيَّ عِنْدَ الْمَسَاءِ
فَأَنْكَرَ عَلَيْهِ وَظَنَهُ ثَمَلًا فَقَالَ :

صَبَّحْتُهُ عِنْدَ الْمَسَاءِ فَقَالَ لِي مَاذَا الْكَلَامُ وَظَنُّ ذَاكَ مُزَاحًا
فَأَجَبْتُ إِنَّ ضِيَاءَ وَجْهِكَ غَرَّنِي حَتَّى تَوَهَّمْتُ الْمَسَاءَ صَبَاحًا

حَسَنُ التَّعْلِيلِ

سَأَلَ السُّلْطَانُ أَبُو سَعِيدٍ الْمُرِينِيَّ كَاتِبَهُ عَبْدَ الْمُهَيْمَنِ الْحَضْرَمِيَّ عَنْ

تهادي المَجْبِين التُّفَاحَ دُونَ الخَوْخِ وَكَلَامَهَا حَسَنُ الْمَنْظَرِ ، طَيِّبُ
 الْمَخْبَرِ شَدِيدُ الشَّبهِ بِأَخِيهِ ، سَدِيدُ تَشْبِيهِهُ الْوَجَنَاتِ بِهِ لَمَتَوَّخِيهِ .
 فَقَالَ مِنْ عِنْدِ مَوْلَانَا ، فَقَالَ أَرَى أَنَّ ذَلِكَ لَاشْتِمَالُ التُّفَاحِ عَلَى الْحَبِّ
 الَّذِي يُذَكَّرُ بِالْحَبِّ وَالْهُوَى ، وَالْخَوْخِ عَلَى النَّوَى الَّذِي يُذَكَّرُ بِاسْمِهِ
 صُفْرَةَ الْجَوَى .

من الطائفة في التشميت

عَطَسَ السُّلْطَانُ أَبُو الْعَبَّاسِ الْمَرِينِيُّ وَكَانَ ابْنُ عَبْدِ الْمُنَافِ
 حَاضِرًا فَقَالَ :

يَرْحَمُكَ الرَّحْمَنُ مِنْ عَاطِسٍ وَلِيَهْنِكَ الْحَمْدُ عَلَى عَطَسَتِكَ
 وَيَغْفِرُ اللَّهُ لَنَا كُلَّنَا وَلِيُسَبِّلَ السَّيْرَ عَلَى وَجْنَتِكَ

وَعَطَسَ السُّلْطَانُ مَوْلَايَ سَلِيمَانُ وَقَارِيءُ الْحَدِيثِ عِنْدَهُ يَقُولُ
 يَرْحَمُكَ اللَّهُ مِنْ قَوْلِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : إِذَا عَطَسَ أَحَدُكُمْ فَلْيَقُلْ الْحَمْدُ
 لِلَّهِ فَإِذَا قَالَ فَلْيَقُلْ لَهُ أُخُوهُ أَوْ صَاحِبُهُ يَرْحَمُكَ اللَّهُ ، فَقَالَ الشَّيْخُ حَمْدُونَ
 ابْنُ الْحَاجِّ وَكَانَ حَاضِرًا :

عَطَسْتُ وَقَارِيءُ الْحَدِيثِ يَقُولُ (يَرْحَمُكَ اللَّهُ) قَوْلَ الرَّسُولِ
 فَكَانَ الرَّسُولُ الْمَشْمُوتَ إِذَا عَطَسْتَ وَذَلِكَ أَعْظَمُ سُوءٍ

شاعر بليد الطبع !

كان ابنُ عمرو الشَّاوي قديمَ الصَّحبة للمنصور وأخيه المعتصم
 واغترب مع الأخير في الجزائر مدةً مديدةً ولما أفضت الخلافة للمنصور
 سوَّغَه مَغَارِمَ مَسْفِيوَةٍ بِحِذَائِهَا مُكَافَأَةً عَلَى الْهِجْرَةِ إِلَّا أَنَّهُ اسْتَشْنَى
 مِنْهَا أَعْشَارَ الزَّيْتِ فَكَتَبَ لَهُ ابْنُ عَمْرُو بِأَيَّاتٍ لِيَشْمَلَهَا الْعَطَاءُ
 فَأَعْطَاهَا لَهُ أَيْضاً فَكَانَ يَبِيعُ مِنْهَا بِالْآلَافِ مِنَ الْعَيْنِ وَهَذِهِ الْآيَاتُ :

أَبْخَرَ النَّدَى خَيْرَ الْمُلُوكِ سَجِيَّةً	وَأَفْضَلَ سُلْطَانٍ رَقَى فَوْقَ مِنْبَرٍ
لَقَدْ سِرْتُ فِي الْإِسْلَامِ أَحْسَنَ سِيرَةٍ	وُخْصِصْتُ بِالنَّظَرِ الْعَزِيزِ الْمَوْزَرِ
أُمُولَايَ لَا حِظِّي بِجُودِكَ إِنِّنِي	فَقِيرُ نَوَالٍ مِنْ لَدُنْكَ مُوَفَّرِ
فَهَذَا زَمَانُ الزَّيْتِ قَدْ جَاءَ مُقْبِلًا	وَلِي رَغْبَةٌ فِيهِ بِغَيْرِ تَنْكُرِ
فَمِنْهَا اشْتَعَالِي فِي الدُّجَا وَتَطْيِيبي	وَدُّهُنُ طَعَامِي ثُمَّ مِنْهَا تَعْطُرِي
لَأَنِّي بَلِيدُ الطَّبْعِ أَشْتَاقُ رِيحَهَا	فَفِي الزَّيْتِ يَا مُولَايَ مَسْكِي وَغَنَبَرِي

المودة في القربى

كتبَ الشَّيْخُ التَّوْدِيُّ ابْنُ سُودَةَ لِقَاضِي فَاسٍ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ
 الْهَوَّارِي يَسْتَعِظُفُهُ فِي تَشْرِيحِ شَرِيفَيْنِ مِنَ السُّجْنِ :

أَقَاضِي الْوَرَى رِفْقاً بِآلِ مُحَمَّدٍ وَرَاعَ رِعَاكَ اللَّهُ فِي حَقِّهِمْ جَنْبَاً

وَذَا سَابِعُ الْمِيلَادِ فَافْكُكَ وَتَأَقُّمِهِمْ وَكُنْ تَالِيًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى
فَأَجَابَهُ :

أَيَا عَالِمًا قَدْ طَبَّقَ الشَّرْقَ وَالْغَرْبَا وَأَبْدَى لَنَا مَا يَشْرَحُ الصَّدْرَ وَالْقَلْبَا
وَذَاكَ بِنُصْحٍ لِي بَنَظْمٍ مُهَذَّبٍ وَفِي طَيْهِ عَثْبٌ وَأَحْبَبُ بِهِ عَثَا
وَهَا أَنَا ذَا فِي الْحَيْنِ لَبَيْتُ أَمْرَكُمْ وَمَا أَبْتَغِي إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى

إِنَّكَ لَبَحْرُ

قصد الشاعرُ أبو بَحر بن عبد الصمد مروان بن سَمَجُون الطَّنْجِي
زعيمَ المغرب وشيخَه في وقته بقصيدة صنعها فيه جاء فيها :

فَدَى لِلْفَقِيهِ ابْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ رَجَالٌ حُلُومُهُمْ تُسْتَزَلُّ
يُرُومُونَ إِذْ رَأَوْكَ غَايَاتِهِ وَهَيْهَاتَ بِالْقَوْلِ لَا بِالْعَمَلِ
جَرَى وَجَرُوا فِي مَيَادِينِهِ فَجَاءَ بِهَا سَابِقًا فِي مَهَلِ
إِمَامٌ أَقَامَ مَنَارَ الْهُدَى وَعَزَّ عَلَى أَهْلِ تِلْكَ النَّحْلِ
وَبَيَّنَ لِلنَّاسِ فُضْلًا فَفَضْلًا غَوَامِضَ أَسْرَارِ تِلْكَ الْمَلَلِ
وَضَمَّ إِلَى الرَّأْيِ مَثَنَ الْحَدِيثِ وَعِلْمَ الْكَلَامِ وَفَهْمَ الْجَدَلِ

فلما أنشده إياها استحسنها واهتز لها طرباً وقال له أبو من ؟
فقال أبو بحر ، فقال إنك لبحر عند اسمك ووصله بصلة سنية .

حِلْمُ المنصور الموحي وعِلْمُهُ

قال ابن الخطيب : حدثني شيخني أبو الحسن بن الجيَّاب عمَّن
حدثه من أسيانحه ، قال : عرض أبو عبد الله ابن عيَّاش والكاتب
ابن القالي على المنصور كتابين وهو في بعض الغزوات في كَلْبِ البرد
وبين يديه كأنونُ جمر وكان ابنُ عيَّاش بارِعَ الخط وابن القالي
ركيكة ويفضله في البلاغة أو العكس ، الشكُّ منِّي ، فقال المنصور
أيُّ كتابٍ لو كان بهذا الخط وأيُّ خطٍّ لو كان بهذا الكتاب ،
فرَضِيَ ابنُ القالي وسخِطَ ابنُ عيَّاش فانتزع الكتاب من يد المنصور
وطرحه في النار وانصرف فتغيَّر وجهُ المنصور وابتدر أحدُ الأشياخ
فقال : يا أمير المؤمنين طعنتمُ له في الوسيلة التي عزَّفته بياكم فعظمت
غيرته لمعرفة بقدر السبب الموصل اليكم فسريَّ عن المنصور وقال
لأحدُ خدَّامه : اذهب الى السَّبي فاخترْ أجملَ نسائه الأبنكار واثت
ابن عيَّاش فقل له هذه تطفيء من خُلُقِكَ ، قال ابن عيَّاش يخاطب
ولده وقد حدثت الحديث هي أمُّك يا محمد أو فلان ، وقال ابن
نخيس : حدثني خالي أبو عبد الله ابن عسْكَر أن الكاتب أبا عبد الله
ابن عيَّاش كتب يوماً كتاباً ليهوديٍّ فكتب فيه ويحملُ على البرِّ

والكرامة ، فقال له المنصور : أتقول في كافر يُحمَل على البرِّ والكرامة؟ قال ابن عياش ففكرتُ ساعةً وقد علمتُ أن الاعتراض يلزمُني . فقلت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أتاكم كريمٌ قوم فأكرموه ، وهذا عامٌ في الكافر وغيره ، فقال نعم هذه الكرامة فالمثيرة من أين أخذتها ، قال : فسكتُ ولم أجِد جواباً قال فقرا المنصور : أعودُ بالله من الشيطان الرجيم لا يَنهَاكُم الله عن الذين لم يُقَاتِلُوكُم في الدِّين ولم يُخْرِجُوكُم من دِيَارِكُم أن تَبْرُوهم وتُقْسِطُوا اليهم إنَّ الله يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ فسررتُ بذلك وشكرته .

وروى ابنُ رُشيد الفهري عن شيخه أبي بكر بن حبيش قال : أخبرني أبو بكر بن مُحرز قال كان شيخنا أبو عبد الله الحَجري بقي لم يشهد الجمعة نحو أربعين سنة يمتعه من ذلك عُذرٌ كما منع مالك بن أنس رضي الله عنه وكان الناس يقولون إنما يتركها لِمكان ذكر الموحدين فيها ، فكان ذلك يبلغُ أميرَ المؤمنين المنصور فيُعْضِي عنه ويقول لعلَّ له عُذرا .

ويُحكى أن الشاعر المُجيد أبا بكر بن مُجَبَّر أنشد يوسف بن عبد المؤمن قصيدة يهنئه فيها بفتح منها :

إنَّ خيرَ الفُتوح ما جاء عفواً مثلاً يخطبُ الخطيبُ ارتجالاً

وكان أبو العباس الجرجاوي الشاعرُ حاضراً فقطع عليه قوله وقال
يا سيّدنا اهتدّم بيتَ وّضاح :

خيرُ شرابٍ ما كان عَفْواً كأنّه خطبةُ ارجّجال

فبدر يعقوب المنصور وهو حينئذ وزيرُ أبيه وسنّه قريبُ
العشرين وقال ان كان اهتدّمه فقد استحقّه ، لنقله آياه من معنى خسيس
الى معنى شريف فسرّ أبوه بجوابه وعجب الحاضرون .

مِنْ اكرام أبي العلاء الموحدي للعلاء

قال ابنُ رَشِيد أخبرني شيخنا أبو بكر بن حَيش قال أخبرني
سهلُ بنُ مالك قال : كان الطَّلَبَةُ يحضُّرون مجلسَ أبي العلاء فيتذاكرون
بين يديه ويتكلّم أمير المؤمنين فتكلّم يوماً على السَّلَم الذي هو من
أقسام البُيُوع فسكّن اللام قال سهلُ فأعدتُ السَّلَم وقلت : قال
الفقهاءُ في السَّلَم ، والسَّلَمُ من حُكمِهِ كذا وكرَّرْتُهُ مراتٍ مُعْتَنِيّاً
بِفَتْحَةِ اللّام ، فنظرتُ اليه يُحدِّقُ إليَّ النَّظَرَ كالمُصْنَعِي لَمّا أقول فلم
يُعِدْها الى أن انقضى المجلس فلما وصلتُ منزلي أدركني بعضُ ممالكه
ومعه كسوةٌ من ثِيابهِ وُصْرَةٌ فيها خُمْسُائَةُ دينار ، وآخر بفرسٍ
مُطَهَّم فقال : مولانا يقرأ عليك السلام ويقول لك هذا من ثِيابهِ ومن
رِكابه يُصَلِّي فيها وتدعو له وهذا يرسم النفقة .

هي الشمس

كانت الأميرةُ تَمِيمَةُ بنتُ يوسف بن تاشفين بارِعَةً الحُسن ،
 تَامَّةَ الأدب ، فرآها يوماً كاتبٌ لها وكانت قد أمرتُ بِمُحَاسِنَتِهِ وَبَرَزَتْ
 لذلك ، فَبَيَّهَتْ . وَلَمَّا نَظَرَتْ إِلَيْهِ عَرَفَتْ مَا دَهَاها ، وَفَطِنَتْ لِمَا عَرَاهَا ،
 فَأَوْمَأَتْ إِلَى نَفْسِهَا وَأَنشَدَتْهُ :

هِيَ الشَّمْسُ مَسْكَنُهَا فِي السَّمَاءِ فَعَزَّ الْفُؤَادَ عِزَاءً جِيلاً
 فَلَنْ تَسْتَطِيعَ إِلَيْهَا الصُّعُودَ وَلَنْ تَسْتَطِيعَ إِلَيْكَ التَّزُولَا

حيوانات معلّمة

ذَكَرَ ابْنُ خَثُومَةَ السَّرْحَسِي فِي رَحْلَتِهِ أَنَّ قَوْمًا قَصَدُوا الْمَنْصُورَ
 الْمُوَحَّدِي وَمَعَهُمْ حَيَوَانَاتٌ مُعَلَّمَةٌ ، مِنْهَا أَسَدٌ وَغُرَابٌ ، أَمَّا الْأَسَدُ
 فَيَقْصِدُهُ مِنْ دُونِ أَهْلِ الْمَجْلِسِ وَيَرِيضُ بَيْنَ يَدَيْهِ ، وَرَبَّمَا أَوْمًا بِالسُّجُودِ
 وَمَدًّا ذِرَاعِيهِ ، وَأَمَّا الْغُرَابُ فَكَانَ يَقُولُ : النَّصْرُ وَالْتِمَكِينُ لِسَيِّدِنَا
 أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ، وَفِي ذَلِكَ يَقُولُ بَعْضُ الشُّعْرَاءِ :

أَنَسَ الشَّيْلُ ابْتِهَاجًا بِالْأَسَدِ وَرَأَى شِبْهَ أَبِيهِ فَقَصَدَ
 أَنْطَقَ الْخَالِقُ مَخْلُوقَاتِهِ شَهِدُوا وَالْكَلُّ بِالْحَقِّ شَهِدَ
 أَنَّكَ الْخَيْرَةُ مِنْ صَفْوَتِهِ بَعْدَمَا طَالَ عَلَى النَّاسِ الْأَمَدُ

فأعظامهم وكساهم .

أَحِبُّ سَلاَ

أَسِرُّ مُحَمَّدُ بْنُ سَوَّارِ الْأَشْبُونِي الشَّاعِرَ وَجَرَّتْ عَلَيْهِ يَحْنُ فِي
الْأَسْرِ فَقَدَاهُ ابْنُ عَشْرَةَ كَرِيمُ سَلاَ فَمَدَحَهُ بِمَدَائِحَ كَثِيرَةٍ
وَمِنْهَا قَوْلُهُ :

أَحِبُّ سَلاَ مِنْ أَجْلِ كَوْنِكَ مِنْ سَلاَ فَكُلُّ سَلاَوِيٍّ إِلَيَّ حَبِيبُ
لَصَيَّرْتَهَا مِضْرًا وَنَيْلُكَ نَيْلَهَا وَكَفَّكَ بَطْحَاهَا وَأَنْتَ خَصِيبُ^١

نتيجة العلم

كَانَ فِي غُرْفَةِ الْمَوْتِ بِمِثْدَنَةِ الْقَرْوِيِّ سَاعَةٌ غَرِيبَةٌ ، مِنْ صُنْعِ
الْمَعْدَلِ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ الصَّنَهَاجِيِّ وَقَدْ وَصَفَهَا أَحَدُ الشُّعْرَاءِ بِقَوْلِهِ :

رُوحٌ مِنْ الْمَاءِ فِي جِسْمٍ مِنَ الصُّفْرِ مَوْلَدٌ بِلَطِيفِ الْحَذَقِ وَالنَّظَرِ
إِذَا بَكَى دَارَ فِي أَحْشَائِهِ فَلَكُ^٢ خَافِي الْمَسِيرِ وَإِنْ لَمْ يَبْكْ لَمْ يَدُرْ
وَفِي أَعَالِيهِ حِسَابٌ يُفَصِّلُهُ لِلنَّاطِرِينَ بِلَا ذِهْنٍ وَلَا فِكْرٍ
مُتَرَجِّمٌ عَنْ مَوَاقِيتٍ يُخْبِرُنَا بِهَا فَيُوجِدُ فِيهَا صَادِقَ الْخَبَرِ

١ - فيه إشارة إلى الخصيب بن عبد الحميد المرادي أمير مِضْرٍ وممدوح أبي نُوَّاس .

تُقَضَّى به الحسُّ في وقت الوُجُوبِ وانْ غَطَّى على الشمسِ سِتْرُ الغَيْمِ والمطرُ
 مُحَدَّدٌ كُلُّ مِيقَاتٍ تَخَيَّرَهُ ذَوُوا التَّأَمُّلِ لِلْأَسْفَارِ وَالْحَضَرِ
 نَتِيجَةُ الْعِلْمِ وَالْأَفْكَارِ صَوْرَةٌ يَا حَبِذَا مُبْدِعُ الْأَفْكَارِ فِي الصُّورِ

تظليل صحن القرويين

كان بصحن جامع القرويين بفاس مِظَلَّاتٌ مِنْ شَقَقِ الْكَثَّافِ
 تُنَشَّرُ فِي زَمَنِ الصَّيْفِ لِتُظْلِلَ الْمُصَلِّينَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ أَحَدَثَهَا الْقَاضِي مُحَمَّدُ
 ابْنُ دَاوُدَ وَذَلِكَ بَأَن جَعَلَ حِجَالاً تَجْرِي فِي حَلْقٍ عَلَى جَوَانِبِ الصَّحْنِ
 تُرْفَعُ بِهَا الْمِظَلَّاتُ وَقَدْ الْحَاجَةُ إِلَيْهَا وَجَعَلَ فِي مَوَاضِعٍ مِنْهَا فُرْجاً
 يَتَنَسَّمُ النَّاسُ مِنْهَا الْهَوَاءَ ، وَفِيهِ يَقُولُ الشَّاعِرُ مُنَوَّهاً بِعَمَلِهِ هَذَا :

تَفَسَّحَتْ الدُّنْيَا بَعْدَ ذَلِكَ فِي الْوَرَى وَفَسَّحَتْ لَمَّا ضَاقَ لِلخَلْقِ جَامِعَا
 شَكَى صَحْنُهُ شَمْسَ الظَّهِيرَةِ ضَاحِياً فَأُظْلِلَتْهُ ظِلًّا عَلَى الْوَهْجِ دَافِعَا

تحت ثريا القرويين

جَلَسَ الْأَسْتَاذُ الْمِزْيَاتِي وَمَعَهُ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِوْنٍ وَمَالِكُ بْنُ الْمُرَّحِلِ
 وَمُحَمَّدُ بْنُ خَلْفٍ تَحْتَ ثُرْيَا الْقَرْوِيِّينَ الْكُبْرَى لَيْلَةَ السَّابِعِ وَالْعَشْرِينَ
 مِنْ رَمَضَانَ وَهِيَ تَتَوَهَّجُ نُوراً فَأَنشَدَ فِيهَا ارْتِجَالاً :

انْظُرْ إِلَى ثُرْيَةٍ نُورُهَا يَصْدَعُ بِاللَّأَلَاءِ سَخِيفَ الْغَسَقِ

فقال ابنُ عبدون :

كَأَنَّهَا فِي شَكْلِهَا رَبْوَةٌ انْتَضَمَ الثَّوْرُ بِهَا فَاتَّسَقَ

وقال ابن المرَّحَل :

أَعِيذُهَا مِنْ شَرِّ مَا يُتَّقَى مِنْ فَجْأَةِ الْعَيْنِ بِرَبِّ الْفَلَقِ

وقال ابنُ خَلَف :

بَاهَى بِهَا الْإِسْلَامُ مَا أَشْرَقَتْ كَاسَاتُهَا عِنْدَ مَغِيبِ الشَّقَقِ

وذكر الثعالبي قال كنّا نقرأ المقامات الحريّة بين العشاءين بعنزة جامع القرويين في زمن الصيف على الأستاذ منديل بن أجروم فجعل يقرّر الاستعارة في قوله تعالى : فَأَصْدَعُ يَأْ تُؤْمَرُ فجات ربح قوية فضربت المصاييح الى الجدران فأطرق الأستاذ ثم رفع رأسه فقال :

ولما ضربنا في بيان استعارة مثلاً بصدع الحق صدع زجاج
أرئنا عياناً صدعها الريح إذ غدت تكسر في الجدران كل سراج

قاضي حضرمي

كان القاضي أبو عبد الله محمد الحضرمي والد الرئيس عبد الميمن الحضرمي شديداً في باب القبول على الشهداء فيذكر أن أحد الظلمة

عَرَضَ لَهُ كِتَابُ رَتَمٍ فِي قَضِيَّةٍ نَزَلَتْ بِهِ فَنَقَدَهُ الْقَاضِي وَمَطَّلَ فِي تَخْلِيصِهِ
فَتَحِيلَ عَلَى أَنْ كَتَبَ بِجَانِبِ مَجْلِسِ الْقَاضِي مَا نَصَهُ :

بِسَبَبَةِ قَاضٍ حَضَرَمِيٍّ إِذَا انْتَسَبَ
وَفِي حَضَرَمَوْتَ الشُّؤْمُ وَاللُّؤْمُ فِي النَّسَبِ
فَمِنْ شُؤْمِهِ لَا يَثْبُتُ الْعَقْدُ عِنْدَهُ
وَمِنْ لُؤْمِهِ يَرْمِي أُولَى الْفَضْلِ بِالرَّيْبِ
فَلَمَّا وَقَعَتْ عَيْنُ الْقَاضِي عَلَى الْمَكْتُوبِ وَفِيهِ أَمْرٌ بِإِزَالَتِهِ وَأَمْسَكَ
مِنْ عِنَانِهِ .

فَتَحَتَ لِنَجْلِكَ بَابَ الْفُتُوحِ

كَانَ لِلْقَاضِي أَبِي عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبْدِ الرَّزَّاقِ الْجُزُولِيُّ وَلَدٌ قَدْ فُتِنَ
بِهِ فَرُبَّمَا تَدَخَّلَ فِي قَضَايَا النَّاسِ بِمَا يُرِيبُ فَلَا يَنْهَاهُ ، فَقَالَ فِيهِ أَبُو
عَبْدِ اللَّهِ الْعَزْزِيُّ مُورِيًّا بَيَّانِينَ مِنْ أَبْوَابِ فَاسَ :

أَقَاضِي فَاسٍ لَقَدْ شِئْتَهَا	وَأَحْدَثْتَ فِيهَا أُمُورًا شَنِيعَةً
ظَلَمْتَ الْعِبَادَ وَرَمْتَ الْعِنَادَ	وَخَادَعْتَ فِي الدِّينِ كُلَّ الْحَدِيدَةِ
فَتَحْتَ لِنَجْلِكَ بَابَ الْفُتُوحِ	وَأَغْلَقْتَ لِلنَّاسِ بَابَ الشَّرِيعَةِ ^١

١ - باب الفتوح وباب الشريعة من أبواب فاس المعروفة والتورية في الفتوح ظاهرة على أنه جمعُ فتنح مكنى به عن الرشوة .

فبَادَرَ مَوْلَى الْوَرَى فَارِسٌ^١ بَعَزَ لَكَ عَنْهَا لِسَدُّ الذَّرِيْعَةِ

بين ابن المرحل وابن رَشِيْق

كان بين ابن رَشِيْق الثَّعلبي ومالك بن المرحل خِصَامٌ أَدَّى إِلَى
تَهَاجِيهِمَا ، فَنَظَمَ ابْنُ رَشِيْق قَصِيْدَةً جَاءَ فِي مَطْلَعِهَا :

لِكِلَابٍ سَبْتَةٍ فِي الثَّبَاحِ مَدَارِكُ وَأَشَدُّهَا عِنْدَ التَّهَارُشِ مَالِكُ
شَيْخٌ تَفَانَى فِي الْبَطَالَةِ عُمَرُ وَأَجَلُ تَحْكِيهِ الْكَلَامُ الْآفِكُ

وَاتَّخَذَ لَهَا كِنَانَةً كَأَوْعِيَةِ الْكُتُبِ وَكَتَبَ عَلَيْهَا « زِمَامٌ مُعْجَلٌ
إِلَى مَالِكِ بْنِ الْمُرَّحِلِ » وَعَمِدَ إِلَى كَلْبٍ وَجَعَلَهَا فِي عُنْقِهِ وَأَوْجَعَهُ ضَرْبًا
حَتَّى لَا يَأْوِيَ إِلَى أَحَدٍ وَطَرَدَهُ بِالزُّقَاقِ ، فَذَهَبَ الْكَلْبُ يَعْوِي وَخَلْفَهُ
مِنَ النَّاسِ أُمَّةٌ ، وَأَخَذَ الْكِتَابُ وَقُرِئَ فَحُمِلَ إِلَى ابْنِ الْمُرَّحِلِ فَلَمْ
يَخْفَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مِنْ عَمَلِ ابْنِ رَشِيْق ، فَقَالَ فِي جَوَابِهِ :

كِلَابُ الْمَزَايِلِ آذَيْنِي بِأَبْوَالِ الْهِنِّ عَلَى بَابِ دَارِي
وَقَدْ كُنْتُ أَوْجَعُهَا بِالْعَصَا وَلَكِنْ عَوَّتْ مِنْ وَرَاءِ الْجِدَارِ

زَكَاةُ ابْنِ الْبَنَاءِ

قال ابنُ شاطر : كنتُ قاعداً مع ابنِ البناءِ بمراكش في دكانٍ طيبٍ فاذا برَّجلٍ جاء اليه وقال له يا سيدي ان والدي تُوفي وكان متهماً بالمال ولم يترك لي شيئاً وقيل لي أن ماله مدفون بداره ، فأُحِبُّ أن تعملَ خاطركَ معي لوجه الله ، ففكر الشيخُ برهةً ثم قال للرجل : صوِّر لي صورة الدار في الرمل فصور له الدار من غير أن يدعَ منها شيئاً فأمره أن يُزيل صورتها فأزالها فأمره بإعادتها ثانياً ففعل ، فأمره بإزالتها وإعادتها ثالثاً وقال له : إن مالك في هذا الموضع منها ، فانصرف الرجل وبَحَثَ في ذلك الموضع فوجد به المال.

شعر الشريف المومنانى
بُغْسِيهِ ابْنِ الطَّرَاحَةِ

كان الشريف أبو الحُسَيْن المومنانى من العلم والجاه بالمكانة التي لا تُجْهَل وكان قد وَلِيَ القضاء بمدينة بَجَاية وحضر في مجلسٍ كان فيه المُغْنِي ابراهيم ابن الطَّرَاحَةِ فاقتَرَح بعضُ الحاضرين على المغني المذكور أن يغني لهم قولَ بشار بن بُرْد :

رَأَيْنَ الْغَوَانِي الشَّيْبَ لَاحَ بِمَفْرِقِي فَأَعْرِضْ عَنِّي بِالْعُيُونِ الْفَوَاتِرِ
وَكُنْ إِذَا أَبْصَرْتَنِي أَوْ سَمِعْتَ بِي سَعِينَ يُغْلَقْنَ الْكَرَى بِالْمَحَاجِرِ

وكان من عادة ابن الطراحة ألا يغني من الشعر ما انتهى الى حفظ
 المغني محمد ابن يعقوب وسميحه منه ، وكان ابن يعقوب اذ ذاك في أول
 ظهوره فقال ابن الطراحة لمقترح ذلك عليه : كلاً مكم عندي لا يُرَدُّ ،
 والأمر ممتثل ، فان شئت فاقترحوا على سيدنا أبي الحسين زيادةً على
 البيتين ، فأنشد الشريفُ بديهةً :

فوا أسفاً ولّي الشبابُ وقد غدا يُنافرني مَنْ كان بالأُمس زائري
 فلولا مَشِيبي ما أضيعتْ مودّتي ولا عادَ محبوبي القريبُ مُنافري
 فغنى ابن الطراحة الشعر كما طُلب منه ورغب هو .

محتسب وشاعر

روى ابن عربي الحاتمي في محاضراته قال : أتيت محتسب كان عندنا
 بفاس بشاعر جنى جنابةً فأمر بضربه فسأله العفو حتى أغضبه فصاح
 في الضراب شدّ عليه ففي صيحته تلك شرط ضرطاتٍ فقال الشاعر في
 ذلك والسيّاطُ تأخذه :

اسمّعوني وأعجبوا	ضرط المحتسب
ضرطة صافية	طار منها العتب
سهلت حلق سلا	وعرت وادي سبو

سَبْعَةٌ فِي نَسَقٍ بُبُّ بُبُّ بُبُّ بُبُّ

حَلَفَ لَا يَمْشِي شَاعِرُهُ لِدَارِهِ إِلَّا عَلَى الذَّهَبِ

كان الشاعر الفيلسوف الموسيقار أبو بكر بن بَاجَةَ مُنْقَطِعاً الى الأمير أبي بكر ابن تَافَلُوَيْتِ الْمُسَوْنِي انصَهاجِي صَهْرِ عَلِيٍّ بن يوسف ، ومَّا جَرَى لَهُ مَعَهُ أَنَّهُ حَضَرَ يَوْمًا بِمَجْلِسِهِ فَأَلْقَى عَلَى بَعْضِ قَيْنَاتِهِ مُوشِحَتَهُ :

جَرَّرَ الذَّيْلَ أَيْمًا جَرًّا وَصَلَ الشُّكْرَ مِنْكَ بِالشُّكْرِ
وَحْتَمَهَا بِقَوْلِهِ :

عَقَدَ اللَّهُ رَايَةَ النَّصْرِ لِأَمِيرِ الْعُلَا أَبِي بَكْرٍ

فَلَمَّا طَرَقَ الشَّعْرُ وَالتَّلْحِينُ سَمِعَ ابْنَ تَافَلُوَيْتَ صَاحَ وَاطْرَبَاهُ وَشَقَّ ثِيَابَهُ وَقَالَ مَا أَحْسَنَ مَا بَدَأْتَ وَمَا خَتَمْتَ ، وَحَلَفَ لَا يَمْشِي ابْنُ بَاجَةَ إِلَى دَارِهِ إِلَّا عَلَى الذَّهَبِ ، فَخَافَ الشَّاعِرَ الْحَكِيمُ سُوءَ الْعَاقِبَةِ فَاحْتَالَ بِأَنْ جَعَلَ ذَهَبًا فِي نَعْلِهِ وَمَشَى عَلَيْهِ .

مِنْ حِكَايَاتِهِمْ فِي الْعَفَافِ

ذَكَرَ الْأَسَازُ أَبُو جَعْفَرِ بْنِ الزُّبَيْرِ قَالَ : أَنْشَدَنِي أَبُو الْخَطَّابِ بْنُ

خَلِيلٌ قَالَ أَشَدُّنِي الْقَاضِي أَبُو حَفْصٍ بْنُ عُمَرَ لِنَفْسِهِ وَقَدْ أَهْدَيْتُ
لَهُ جَارِيَةً فَوَجَدَهَا ابْنَةً سُرِّيَّةً كَانَ قَدْ تَسَرَّاهَا فَرَدَّهَا إِلَى مُهْدِيهَا
وَكَتَبَ لَهُ :

يَا مُهْدِيَّ الرَّشَاءِ الَّذِي الْحَاضِرُ تَرَكْتُ فُؤَادِي نُصَبَ تِلْكَ الْأَنْسَاهُ
رَيْحَانَةُ كُلِّ الْمُنَى فِي شَمِّهَا لَوْلَا الْمُتَيْنُونَ وَاجْتِنَابُ الْمَحْرَمِ
مَا عَنِ قَلِي صُرِفَتْ إِلَيْكَ وَإِنَّمَا صَيَدُ الْغَزَالَةِ لَمْ يُبَيِّحْ لِلْمُحْرَمِ
إِنَّ الْغَزَالَهَ قَدْ عَلِمْنَا قَبْلَهَا سِرَّ الْمَهَا وَلَيْتَنَّا لَمْ نَعْلَمْ
يَا وَيْحَ عَنْتَرَةَ الَّذِي قَدْ شَفَّهَ مَا شَفَّنِي فَشَدَا وَلَمْ يَتَكَلَّمْ
(يَا شَاةَ مَا قَنَصَ لِمَنْ حَلَّتْ لَهُ حَرُمْتُ عَلَيَّ وَلَيْتَهَا لَمْ تَحْرُمِ)

من محاسن الكناية

دَخَلَ الْفَقِيهَ أَبُو الْحَسَنِ بْنُ الصَّبَّاحِ عَلَى الْقَاضِي أَبِي الْقَاسِمِ الشَّرِيفِ
السَّبْتِيِّ يَوْمًا لِأَدَاءِ شَهَادَةٍ عِنْدَهُ فَوَجَدَ بَيْنَ يَدَيْهِ جَمَاعَةً مِنَ الْغَزَاةِ يُؤَدُّونَ
شَهَادَةً فَسَمِعَ الْقَاضِي مِنْهُمْ وَقَالَ لَهُمْ هَلْ تَمَّ مَنْ يَعْرِفُكُمْ ؟ فَقَالُوا نَعَمْ ،
يَعْرِفُنَا عَلِيُّ الصَّبَّاحِ فَقَالَ الْقَاضِي أَتَعْرِفُهُمْ يَا أَبَا الْحَسَنِ ؟ فَقَالَ نَعَمْ
يَا سَيِّدِي مَعْرِفَةَ مُحَمَّدِ بْنِ يَزِيدَ ، فَمَا أَنْكَرَ عَلَيْهِ شَيْئًا بَلْ قَالَ لَهُمْ عَرَفَ

(١) ضمن بيت عنتره والعرب تطلق الشاة على البقرة الوحشية فكفى عنتره بالشاة
على المرأة تشبيها لها بها ويقال انها كانت زوجة لأبيه فبذلك حرمت عليه .

القيه أبو الحسن ما عنده فانظروا مَنْ يَعْرِفُ معه رَسْمَ حَالِكُمْ فانصروا
راضين ولم يَرْتَبِنُ الشاهد في شيء من حالهم ولا كشف القاضي لهم
سِرَّ القضية وإنما أشار أبو الحسن الصَّبَّاحُ الى قول الشاعر :

أَسْأَلُ عَنْ ثَمَالَةٍ كُلِّ حَيٍّ فَكَلَّمَهُ يُجِيبُ وَمَنْ ثَمَالَهُ ؟
فَقُلْتُ مُحَمَّدُ بْنُ يَزِيدَ مِنْهُمْ فَقَالُوا : الْآنَ زِدْتَهُمْ جَهَالَهُ

غَرِيبَةٌ رَابِعَةٌ

قال ابنُ رُشِيدٍ في رحلته : ذِكْرُ غَرِيبَةٍ عَنَّتْ لَنَا بِرَابِعٍ وما
عَنَّتْ ، بل أَغَنَّتْ في معنى الآية الكريمة وَأَقْنَتْ ، وهي قوله تعالى :
يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا (لِيَبْلُوَنَّكُمْ اللَّهُ بِشَيْءٍ مِنَ الصِّدْقِ ثَنَّا لَهُ أَيْدِيكُمْ
وَرِمَاؤُكُمْ لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَخَافُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ) . صَحِبَنِي فِي الطَّرِيقِ
مِنَ الْمَدِينَةِ عَلَى سَاكِنِهَا الصَّلَاةَ وَالسَّلَامَ إِلَى الْبَيْتِ الْحَرَامِ أَحَدُ الشُّيُوخِ
مِنْ شُرَفَاءِ الْمَدِينَةِ ، فَلَمَّا وَافَقْنَا رَابِعَ رَأَيْتُ أَمْرًا عَجَبًا مِنْ تَخَلُّلِ
الْوَحْشِ ، الْغَزَالِ وَالْأَرْنَبِ بَيْنَ الْجَمَالِ وَالرَّحَالِ ، بِحَيْثُ يَنَالُهُ النَّاسُ
بَأَيْدِيهِمْ وَالنَّاسُ يُنَادُونَ حَرَامًا ! حَرَامًا ! وَالْجَوَارِحُ قَدْ سُلْسِلَتْ
خِيفَةً تَعْدِّي جَاهِلًا ، يَتَعَسَّفُ الْمَجَاهِلُ ، فَقَالَ لِي ذَلِكَ الشَّيْخُ الشَّرِيفُ :
تَأْمَلْ تَرَى عَجَبًا هَكَذَا جَرَتْ عَادَتُنَا فِي هَذِهِ الطَّرِيقِ إِذَا مَرَرْنَا بِهِ
وَنَحْنُ مُخْرِمُونَ نَحْدُ بِهِ مِنَ الْوَحْشِ مَا تَرَى فَإِذَا عُذْنَا مُحِلِّينَ لَمْ نَحْدُ

به شيئاً ، فلما عُذْنَا كان كما قِيلَ فَبَانَ لِي مِنْ مَعْنَى الْآيَةِ مَا لَمْ يَكُنْ عِنْدِي بِالْمُشَاهِدَةِ .

آخِرُ مَا سَمِعَ مِنْهُمْ

لَمَّا اخْتَضِرَ أَبُو مُحَمَّدٍ الْأَصِيلِي قَالَ : اللَّهُمَّ إِنَّكَ قَدْ وَعَدْتَ الْجَزَاءَ عَلَى الْمَصِيبَةِ وَلَا مَصِيبَةَ عَلَيَّ أَعْظَمُ مِنْ نَفْسِي فَأَحْسِنْ تَجْزَأَنِي فِيهَا يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ وَكَانَ ذَلِكَ آخِرَ مَا سَمِعَ مِنْهُ .

وَدَخَلَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ الْمَقْرِيُّ عَلَى عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَفَّانَ الْجَزُولِيِّ وَهُوَ يَجُودُ بِنَفْسِهِ وَكَانَ رَأَاهُ قَبْلَ ذَلِكَ مُعَافًى ، فَسَأَلَهُ عَنِ السَّبَبِ فَأَخْبَرَهُ أَنَّهُ خَرَجَ إِلَى لِقَاءِ السُّلْطَانِ أَبِي الْحَسَنِ الْمَرْيَنِيِّ فَسَقَطَ عَنْ دَابَّتِهِ فَتَضَعَّضَتْ أَرْكَانُهُ فَقَالَ : مَا حَمَلَكَ أَنْ تَتَكَلَّفَ هَذَا فِي ارْتِفَاعِ سِنِّكَ فَقَالَ : أَمَّا عَاطَتْ أَنْتَ حُبَّ الرِّيَاسَةِ آخِرُ مَا يَخْرُجُ مِنْ قُلُوبِ الْعَارِفِينَ .

وَقَالَ ابْنُ الطَّيِّبِ الْقَادِرِيُّ : دَخَلْتُ عَلَى مُحَمَّدِ بْنِ قَاسِمِ جَسْشُوسٍ فِي مَرَضِهِ الَّذِي تُوُفِّيَ فِيهِ فَسَمِعْتُهُ يُنْشِدُ هَذِهِ الْأَبْيَاتَ وَمَا فَهِمْتُ مَا يَقُولُ إِلَّا بِمَشَقَّةٍ :

سَلَامٌ عَلَى أَهْلِ الْجَمَى حَيْثُمَا حَلُّوا هَنِيئًا لَهُمْ يَا حَبِذَا مَا بِهِ حُلُّوْا
لَهُمْ أَظْهَرَ الْمَوْلَى شُمُوسَ بَهَائِهِ فَيَا لَيْتَ خَدَّيْ فِي التُّرَابِ لَهُمْ نَعْلُ

مَتَى يَا عَرِيبَ الْحَيِّ يَا نِي بَشِيرُكُمْ فَنَبْهَجُ الدُّنْيَا وَيَجْتَمِعُ الشَّمْلُ
صَلُّونِي عَلَى مَا بِي فَإِنِّي لَوَصِّلَكُمْ وَإِنْ لَمْ أَكُنْ أَهْلًا فَأَنْتُمْ لَهُ أَهْلُ

كَلِمَ تَوَابِيخِ

لِلْكَاتِبِ مُحَمَّدِ بْنِ سُلَيْمَانَ مِنْ رِجَالِ الْأَنْبِيَا

إِذَا حَصَلَتِ الْأَلْفَةُ ، سَقَطَتِ الْكُلْفَةُ . بِكَشَمِ الْأَسْرَارِ ، تُسْتَعْبَدُ
الْأَحْرَارُ . تَرَكُ التَّدْيِيرَ ، أَخْرَجَ يُوسُفَ مِنَ الْبَيْرِ . الثَّقِيلُ ، هُوَ
الْبَلَاءُ كَمَا قِيلَ . الْجَاهُ ، لَا يُفْلِحُ مِنْ رَجَاهُ . حُبُّ الْمَالِ يُطِيلُ
الْأَمَالَ ، خَوْفُ الْعِقَابِ ، يَفُكُّ الرِّقَابَ . الذِّلُّ مَمْقُوتٌ ، وَلَوْ جَلَبَ
الْيَأْقُوتُ . رِزْقُكَ مَعَكَ ، حَيْثُمَا سِرْتَ تَبَعَكَ . الْكُرُوبُ ، أَشَدُّ
مِنَ الْخُرُوبِ . مَنْ اغْتَابَكَ ، فَقَدْ أَثَابَكَ . الْعَاقِلُ يَخْتَارُ ، وَإِنْ كَانَ ذَا
إِقْتَارٍ . الْفُرْقَةُ ، هِيَ الْخُرْقَةُ . الشُّرُورُ ، تُمِيتُ الشُّرُورَ لَا تَرْضَى
بِالسُّؤَالِ ، وَلَوْ جَلَبَ اللَّالِ .

المقالات

البلاغة النبوية للقاضي عياض

... وأما فصاحة اللسان وبلاغة القول فقد كان صلى الله عليه وسلم من ذلك بالمثل الأفضل والموضع الذي لا يُجْهَل سلاسة طبع وبراعة منزع وإيجاز مقطع ونصاعة لفظ وجزالة قول وصحة معان وقلة تكلف أو تي جوامع الكلم وخص ببدائع الحكم وعلم السنة العرب يُخاطب كل أمة بلسانها ويُخاورها بلغتها ويُباريها في منزع بلاغتها حتى كان كثير من أصحابه يسألونه في غير موطن عن شرح كلامه وتفسير قوله ، من تأمل حديثه وسيره علم ذلك وتحققه وليس كلامه مع قريش والأنصار وأهل الحجاز وتجدد كلامه مع ذي المشعار الحمداني وطهفة النّهدي وقطن بن حارثة العَلّامي والأشعث بن قيس ووائل بن حُجر الكِندي وغيرهم من أقبال حضرموت وملوك اليمن .

وانظر كتابه الى همدان : « إن لكم فراعها ' ووهاطها وعزازها »

تَأْكُلُونَ عِلَاقَهَا^١ وَتَرَعُونَ عَفَاءَهَا^٢ ؛ لَنَا مِنْ دِفْئِهِمْ^٣ وَصِرَامِهِمْ^٤ مَا
سَلَّمُوا بِالْمِيثَاقِ وَالْأَمَانَةِ وَلَهُمْ مِنَ الصَّدَقَةِ الثَّلَبُ^٥ وَالتَّابُ وَالْفَصِيلُ^٦
وَالْفَارِضُ^٧ وَالْدَّاجِنُ^٨ وَالْكَبْشُ الْحَوْرِي^٩ وَعَلَيْهِمْ فِيهَا الصَّالِغُ^{١٠}
وَالْقَارِحُ^{١١} « وَقَوْلُهُ لَنَهْدُ : « اللَّهُمَّ بَارِكْ لَّهُمْ فِي تَخْضِهَا وَتَخْضِهَا وَمَذْقِهَا^{١٢}
وَابْعَثْ رَاعِيَهَا فِي الدَّثَرِ^{١٣} وَافْجُرْ لَهُ الثَّمَدُ^{١٤} وَبَارِكْ لَّهُمْ فِي الْمَالِ
وَالْوَلَدِ ، مَنْ أَقَامَ الصَّلَاةَ كَانَ مُسْلِمًا وَمَنْ آتَى الزَّكَاةَ كَانَ مُخْسِنًا
وَمَنْ شَهِدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ كَانَ مُخْلِصًا ، لَكُمْ يَا بَنِي نَهْدٍ وَدَائِعُ
الشَّرِكِ^{١٥} وَوَضَائِعُ الْمَلِكِ^{١٦} ، لَا تُلَطِّطُ^{١٧} فِي الزَّكَاةِ وَلَا تُلْجِدُ فِي
الْحَيَاةِ وَلَا تَتَشَاقَلَ عَنِ الصَّلَاةِ » وَكَتَبَ لَهُمْ : « فِي الْوُظَيْفَةِ الْفَرِيضَةِ^{١٨}
وَلَكُمْ الْفَارِضُ^{١٩} وَالْفَرِيشُ^{٢٠} وَذُو الْعِنَاقِ الرَّكُو^{٢١} وَالْفَلُو^{٢٢}
الضَّيِّيسُ^{٢٣} لَا يُنْمَعُ سَرْحُكُمْ^{٢٤} وَلَا يُعْصَدُ طَلْحُكُمْ^{٢٥} وَلَا يُجْبَسُ

- ١ - جمع علف ٢ - مواتها وهو ما لا ملك لأحد عليه ٣ - أي نعمهم ٤ - أي
نخلهم ٥ - الجمل الهرم والنايب الناقة الهرمة ٦ - ولد الناقة الصغير ٧ - البقرة الهرمة
٨ - ما يألف البيوت من الحيوان ٩ - الكبش الكبير الذي يتخذ للضراب والمراد أن
ما ذكر يحسب في عدد النصاب ولا تؤخذ الزكاة منه أما لنفسه أو لحسته وإنما تؤخذ
من الوسط ١٠ - ما كمل من البقر والغنم السنة السادسة ١١ - هو من الخيل ما دخل في
السنة الخامسة ١٢ - المحض اللبن الخالص والحض ما أخرج زبدته والمذق اللبن
المخلوط بالماء ١٣ - الأبل الكثيرة ١٤ - الماء القليل ١٥ - عهده ومواريقه ١٦ -
ما كان يوضع على الأملاك من المغارم ١٧ - أي تمنع ١٨ - الوظيفة الزكاة والفريضة
المسنة من النوق ١٩ - المريضة التي عرض لها آفة ٢٠ - القرية العهد بالوضع
٢١ - الفرس الذلول ٢٢ - المهر الصغير من الخيل ٢٣ - الصعب الركوب لعدم
رياضته والمراد أن ذلك كله يحسب في عدد الفريضة ٢٤ أي من الرعي ٢٥ - الطلح
شجر عظيم الشوك من العضاء وإذا لم يقطع هذا فغيره بالأحرى .

دَرَكُمْ^١ مَا لَمْ تُضْمِرُوا الرَّمَاقَ^٢ وَتَأْكُلُوا الرِّبَاقَ^٣ مَنْ أَقْرَ فَلَهُ الْوَفَاءُ
 بِالْعَهْدِ وَالذِّمَّةُ وَمَنْ أَبِي فَعَلِيهِ الرَّبْوَةُ^٤ وَمِنْ كِتَابِهِ لِيَوَائِلُ بْنُ حُجْرٍ :
 « إِلَى الْأَقْيَالِ الْعَبَاهِلَةِ^٥ وَالْأَرْوَاعِ^٦ الْمَشَايِبِ^٧ » وَفِيهِ « فِي النَّبِيعَةِ^٨ شَاةٌ^٩
 لَا مُقَوَّرَةٌ إِلَّا لِطَاطٍ^{١٠} وَلَا ضَنَّاكٍ^{١١} وَأَنْطُوا الشَّجَّةَ^{١٢} وَفِي السُّيُوبِ^{١٣}
 الْخُمْسُ وَمَنْ زَنَاِمٌ^{١٤} بِكُرٍ فَاصْقَعُوهُ مَائَةً وَاسْتَوْفِضُوهُ^{١٥} عَامًا وَمَنْ
 زَنَاِمٌ ثَبَّابٌ فَضْرُجُوهُ^{١٦} بِالْأَضَامِيمِ^{١٧} وَلَا تَوَصِّمَ^{١٨} فِي الدِّينِ وَلَا
 غَمَّةً^{١٩} فِي فَرَائِضِ اللَّهِ وَكُلُّ مُسْكِرٍ حَرَامٌ وَوَائِلُ بْنُ حُجْرٍ يَتَرَفَّلُ^{٢٠}
 عَلَى الْأَقْيَالِ » .

أَيَنْ هَذَا مِنْ كِتَابِهِ لِأَنْسَ فِي الصَّدَقَةِ الْمَشْهُورِ لَمَّا كَانَ كَلَامُهُ هَؤُلَاءِ
 عَلَى هَذَا الْحَدِّ وَبَلَاغَتُهُمْ عَلَى هَذَا التَّمَطِّ وَأَكْثَرُ اسْتِعْمَالِهِمْ هَذِهِ الْأَلْفَافُ،
 اسْتَعْمَلَهَا مَعَهُمْ لِيُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلِيُحَدِّثَ النَّاسَ بِمَا يَغَامُونَ،
 وَكَقَوْلِهِ فِي حَدِيثِ عَطِيَّةِ السَّعْدِيِّ قَالَ : الْيَدُ الْعُلْيَا هِيَ الْمُنْظِيَّةُ وَالْيَدُ

-
- ١ - يعني الماشية ذات الدر لا تحبس لأجل المصدق الذي يأخذ الزكاة ٢ - أي
 النفاق ٣ - جمع ربة أي ما لم تبطنوا الخلاف وتخلعوا الطاعة ٤ - أي الزيادة في
 الوظيفة عقوبة له ٥ - أي الملوك الذين أقرروا على ملكهم ٦ - جمع رائع
 ٧ - الزهر الالوان ٨ - أربعون من الغنم ٩ - أي مسترخية الجلد من الهزال
 ١٠ - كثيرة اللحم سمينة ١١ - أي الوسط ١٢ - الركاك أي الكنز ١٣ - أي من
 ١٤ - غريبه ١٥ - أي أدموه حتى يموت ١٦ - الحجارة ١٧ - لا عار ١٨ - لا ستره
 ١٩ - يتأمر ويتأس .

السُّقْلَى هِيَ الْمُنْطَاةُ ، قَالَ : فَكَلَّمْنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بُلْغَتَنَا . وَقَوْلُهُ فِي حَدِيثِ الْعَامِرِيِّ حِينَ سَأَلَهُ فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : سَلْ عَنْكَ أَيُّ سَلٍّ عَمَّا شِئْتَ وَهِيَ لُغَةٌ بَنِي عَامِرٍ .

وَأَمَّا كَلَامُهُ الْمُعْتَادُ وَفَصَاحَتُهُ الْمَعْلُومَةُ وَجَوَامِعُ كَلِمِهِ وَحِكْمُهُ الْمَأْثُورَةُ فَقَدْ أَلْفَ النَّاسُ فِيهَا الدَّوَاوِينَ وَجُمِعَتْ فِي أَلْفَظِهَا وَمَعَانِيهَا الْكُتُبُ وَمِنْهَا مَا لَا يُوَازِي فَصَاحَةً وَلَا يُبَارِي بِلَاغَةً كَقَوْلِهِ : الْمُسْلِمُونَ تَتَكَافَأُ دِمَاؤُهُمْ وَيَسْقَى بِدِمَتِهِمْ أَدْنَاهُمْ وَهُمْ يَبْدُو عَلَى مَنْ سِوَاهُمْ وَقَوْلِهِ : النَّاسُ كَأَسْتَانَ الْمَشْطِ وَالْمَرْءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ . وَلَا خَيْرَ فِي صُحْبَةٍ مَنْ لَا يَرَى لَكَ مَا تَرَى لَهُ وَالنَّاسُ مَعَادِنُ وَمَا هَلَكَ أَمْرُو عَرَفَ قَدْرَهُ وَالْمُسْتَشَارُ مُؤْتَمَنٌ وَهُوَ بِالْخِيَارِ مَا لَمْ يَتَكَلَّمْ وَرَحِمَ اللَّهُ عَبْدًا قَالَ خَيْرًا فَغَنِمَ أَوْ سَكَتَ فَسَلِمَ وَقَوْلُهُ : أَسْلِمَ تَسْلَمَ وَأَسْلِمَ يُؤْتِكَ اللَّهُ أَجْرَكَ مَرَّتَيْنِ وَإِنْ أَحْبَبَكُمْ إِلَيَّ وَأَقْرَبَكُمْ مِنِّي بِجَالِسِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَحَابِسُكُمْ أَخْلَاقًا الْمُوَطَّنُونَ أَكْنَفًا النَّبِيُّ يَا لَقُؤْنَ وَيُؤَلْقُونَ وَقَوْلُهُ لَعَلَّهُ كَانَ يَتَكَلَّمُ بِمَا لَا يَغْنِيهِ وَقَوْلُهُ : ذُو الْوَجْهَيْنِ لَا يَكُونُ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهًا وَنَهَيْهِ عَنْ قِيلَ وَقَالَ وَكَثْرَةِ السُّؤَالِ وَاضَاعَةِ الْمَالِ وَمَنْعِهِ وَهَاتِ وَعُقُوقِ الْأَمْهَاتِ وَوَادِ الْبَنَاتِ ، وَقَوْلُهُ : أَتَقِي اللَّهَ حَيْثُ

١ - هو حديث أوله أصيب رجل يوم أحد فقالت أمه هنيئًا لك الشهادة فقال : وما يدريك لعله الخ .

كُنْتُ وَأَتَّبِعَ السَّيِّئَةَ الْحَسَنَةَ تَمَحُّهَا وَخَالِقِ النَّاسَ بِخُلُقٍ حَسَنٍ وَخَيْرُ
 الْأُمُورِ أَوْسَاطُهَا وَقَوْلُهُ : أَحَبُّ حَبِيبِكَ هَوْنًا مَا عَسَى أَنْ يَكُونَ
 بَغِيضَكَ يَوْمًا مَا وَقَوْلُهُ : الظُّلُمَ ظَلُمَاتٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَقَوْلُهُ فِي بَعْضِ
 دَعَائِهِ : اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِكَ تَهْدِي بِهَا قَلْبِي وَتَجْمَعُ بِهَا
 أَمْرِي وَتَلْمُ بِهَا شَعْبِي وَتُصْلِحُ بِهَا غَائِبِي وَتَرْفَعُ بِهَا شَاهِدِي وَتُرَكِّي
 بِهَا عَمَلِي وَتُلْهِمُنِي بِهَا رُشْدِي وَتَرْدُ بِهَا أَلْفَتِي وَتَعْصِمُنِي بِهَا مِنْ كُلِّ سُوءٍ
 اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الْفَوْزَ فِي الْقَضَاءِ وَنُزُلَ الشَّهَادَةِ وَعَيْشَ السَّعَادَةِ
 وَالنَّصَرَ عَلَى الْأَعْدَاءِ .

إِلَى مَا رَوَاهُ الْكَافَّةُ عَنْ الْكَافَّةِ مِنْ مَقَامَاتِهِ وَمُحَاضَرَاتِهِ وَخُطَبِهِ
 وَأَدْعِيَّتِهِ وَمُخَاطَبَاتِهِ وَنُحُودِهِ مِمَّا لَا خِلَافَ أَنَّهُ نَزَلَ مِنْ ذَلِكَ مَرْتَبَةً
 لَا يُقَاسُ بِهَا غَيْرُهُ وَحَازَ فِيهَا سَبْقًا لَا يُقَدَّرُ قَدْرُهُ . وَقَدْ جُمِعَتْ
 مِنْ كَلِمَاتِهِ الَّتِي لَمْ يُسَبِّقْ إِلَيْهَا وَلَا قَدَرُ أَحَدٍ أَنْ يُفَرِّغَ فِي قَالِهِ عَلَيْهَا
 كَقَوْلِهِ حَمِيَّ الْوَطِيسِ وَمَاتَ حَتَفَ أَنْفِهِ وَلَا يُلْدَغُ الْمُؤْمِنُ مِنْ جُحْرِ
 مَرَّتَيْنِ وَالسَّعِيدُ مَنْ وُعِظَ بِغَيْرِهِ فِي أَخْوَابِهَا ، مَا يُدْرِكُ النَّاطِرُ
 الْعَجَبُ فِي مُضْمَنِهَا وَيَذْهَبُ بِهِ الْفَكْرُ فِي أَدَانِي حِكْمِهَا وَقَدْ قَالَ لَهُ
 أَصْحَابُهُ مَا رَأَيْنَا الَّذِي هُوَ أَفْصَحُ مِنْكَ فَقَالَ : وَمَا يَمْنَعُنِي وَإِنَّمَا أُنْزِلَ
 الْقُرْآنُ بِلِسَانِي لِسَانِ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ . وَقَالَ مَرَّةً أُخْرَى : أَنَا أَفْصَحُ
 الْعَرَبِ بَيْنَدَ أَنِّي مِنْ قُرَيْشٍ وَنَشَأْتُ فِي بَنِي سَعْدٍ فَجُمِعَ لَهُ بِذَلِكَ
 صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قُوَّةُ عَارِضَةِ الْبَادِيَةِ وَجَزَالَتُهَا وَنَصَاعَةُ الْفَاطِ

الحاضرة وروّثقُ كلامها الى التأييد الإلهي الذي مدّهُ الوحيُ الذي لا يُحِيطُ بعلمه بشري وقالت أمّ مغبد في وصفها له 'حلوُ المنطق فصلُ لا تزرُ ولا تهذرُ كأنَّ منطِقَه خرزاتُ نُظْمَنَ وكانَ جَهِيرَ الصَّوتِ حَسَنَ النِّعْمَةِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .

اللقابُ والنعوتُ

لابن الحاج المصايف

يتعيّن على العالم أن يتحفّظ من هذه البدعة التي عمّت بها البلوى وقلّ أن يسلّم منها كبير أو صغير وهي ما اصطَلَحُوا عليه من تسميتهم بهذه الأسماء القريبة العهد بالحدوث التي لم تكن لأحد ممّن مضى بل هي مُخالفة للشرع الشريف وهي فلازُ الدين ، والعالمُ أولى من يتحفّظ على نفسه من هذه الأشياء ويدبُّ عن السنّة في حق نفسه وفي حق غيره . . . ألا ترى أن هذه الاسماء فيها من التزكية ما فيها فيقعُ بسببها في المُخالفة بدليل كتاب الله وسُنّة رسوله صلى الله عليه وسلم وأقوال العلماء . أمّا الكتاب فقوله تعالى : « فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ ، وقوله تعالى : « أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنْفُسَهُمْ بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ، أنظرُ كيفَ يفتَرُونَ على الله الكذبَ وكفى به إثماً مُبيناً ، وأمّا السنّة فقولُ رسول الله صلى الله عليه

وسلم : لا تُزَكُّوا على الله أحداً ولكن قولوا إخاله كذا وأظنه كذا
وأما قولُ العلماء فقد قال أبو عبد الله القرطبي رحمه الله في كتابه
شرح أسماء الله الحسنى فقد دلَّ الكتابُ والسنةُ على المنع من تزكية
الإنسان نفسه ، ثم قال : قال علماؤنا ويجري هذا المجزئ ما قد
كثر في الديار المصرية وغيرها من بلاد العراق والعجم من نعتهم
أنفسهم بالنعوت التي تقتضي التزكية والثناء كزكي الدين ونحبي الدين
وعلم الدين وشبه ذلك هـ .

... فإذا قال مثلاً نحبي الدين أو زكي الدين فلا بُدَّ أن يُسألَ
عن ذلك يوم القيامة ويُقالَ له هذا هو الذي أحببَ الدين وهذا هو
الذي زكىَّ الدين الى غير ذلك فكيف يكون حاله إذ ذاك حين
السؤال بل حين أخذه صحيفته فيجدها مشحونة بما تقدم ذكره من
التزكية ؟ وقد اختلف علماؤنا رحمة الله عليهم في هذه الآية « ما
يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد » هل الملائكة الكرام
يكتبون كل ما يتلفظ به الشخص المكلف كان ما كان أو لا يكتبون
إلا ما تضمنه الأمر والتَّهْيي وعلى هذا القول الثاني هي المسألة التي نحن
بسبيلها إذ أنها احتوت على أشياء مذكومة في الشرع الشريف وهي
تزكية الكافر ، تزكية الكافر ، تزكية الكافر ، ومخالفة أنسلف رضي الله

ولو وَقَفَ أمرنا على هذا لكان قريباً لأنه اذا تقرر عندنا أن هذا كذبٌ وتزكيةٌ يُرَجَى لأَحدِنَا التَّوْبَةُ والاقْلَاعُ ولكن زِدْنَا على ذلك الامرَ المخوفَ وهو أَنَا نرى أن ذلك جائزٌ أو مَندُوب اليه بحسَب ما سَوَّأَتْ لَنَا انفسنا من أن الناس اذا خَوِطُبُوا بغير هذه الاسماء تشوُّشوا من أجل ذلك وتولَّدت الشَّحناءُ والبغضاءُ فوضعنا لهم التزكيةَ الخالصةَ حتى لا يتشوشوا ولا تتولَّد البغضاءُ ولا العداوة . لا جَرَمَ أن العداوة والبغضاء والشحناء قد كُنت عند بعضهم وحصل منها أو فُرُغَ نصيب كلُّ ذلك بسبب هذه البدعة فَبَقِيَت البَواطِن متنافرةً مع الأذهان في الظاهر فأدَّتْ هذه البدعةُ الى الامر المخوف لانَّ صفةَ المناقِق ان يَكُون بِاطْنُهُ ومُعْتَقَدُهُ خلافَ ظَاهِرِهِ نَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ ذَلِكَ .

ولو كانت هذه الاسماءُ تجوزُ لما كان احَدُ اولى بها من أصحاب رسول الله ﷺ إِذْ انهم شُموِسُ الْهُدَى وأنوارُ الظُّلْمِ وهم انصارُ الدين حقا كما نطقَ به القرآنُ والخيرُ كله في الاتِّباعِ لهم في الاعتقاد والقول والعمل . أَلَا تَرَى الى النبي صلى الله عليه وسلم لما أن دخلَ بَرَزَيْنَبَ أم المؤمنين رضي الله عنها قال لها ما اسمك قالت بَرَّةٌ ، فَكَرِهَ ذَلِكَ الاسمَ وقال لا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ لِمَا فِيهِ مِنْ اسْتِشْقَاقِ اسمِ الْبِرِّ ومعلومٌ بالضرورة انها ما اخْتِيَرَتْ لِسَيِّدِ الْاَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ أَلَا وَهِيَ مِنَ الْبِرِّ بِحَيْثُ الْمُنْتَهَى لَكِنَّهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ كَرِهَ ذَلِكَ الاسمَ وان كان حقيقةً لِمَا فِيهِ مِنَ التَّزْكِيَةِ فجدَّدَ اسمها زينب وكذلك فعله عليه الصلاة والسلام مع جُوَيْرِيَةَ أم

المؤمنين (وكان اسمها بَرَّةً أيضاً) فاذا كَرِهَ ذلك في حق مَنْ فيه ذلك . حقيقةً ونهى عنه بقوله لا تُزَكُّوا انفسكم فما بالك باحوالنا اليوم ؟ ومن هذا الباب ايضاً ما خرَّجه ابو داود في سُنَنه عن شُرَيْح عن ابيه هَبَانِيه رضي الله عنه انه لما وَفَدَ على رسول الله ﷺ مع قَوْمه سمعهم يُكثِّرونه بأبي الحكم فدعاه رسول صلى الله عليه وسلم فقال ان الله هو الحكم واليه الحكم فلم تُكَبِّني ابا الحكم فقال ان قومي اذا اختلفوا في شيء أتوني فحكمتُ بينهم فَرَضِي كلاً الفريقين بحكمي فقال رسول الله ﷺ ما احسنَ هذا فما لكِ مِنَ الولد فقال لي شُرَيْح ومُسلم وعبدُ الله قال فن اكبرُهم قال شُرَيْح قال فانتَ ابو شُرَيْح .

فان قال قائل انما هذه الاسماء مجازٌ لا عبرة بها وقد صارت ايضاً كاسماء الأعلام حتى لا يُعرَف احدٌ الا بها فقد خرَّجتُ عن باب التزكية الى باب اسماء الاعلام كالعبَّاس وعَلي . فالجوابُ ان هذا يرُدُّه ما نُشاهدُه في الوجود مُباشرةً وهو ان الواحدَ منا اذا قيلَ له اسمه العَلَمي الشرعي كالعبَّاس وعَلي تشوَّش من ذلك على مَنْ ناداه به ووَجِدَ عليه الحقَّ لكونه تركَ ذلك الاسم وعدلَ عنه الى غيره فهذا يُوضِّح ويُبيِّن أن التزكية باقيةٌ مقصودةٌ في هذه الاسماء وانها لم تَبْرَحْ ولم تَخْرُجْ عن موضعها الذي وُضعت له . مع انه لو لم يكن فيها لا كذبٌ ولا تزكيةٌ لكان مَنهياً عنها لان النبي صلى الله عليه وسلم نهى عن التشبُّه بالاعاجم وهذه الأسماء ما ظهرتْ الا من قِبَلهم . وقد رأيتُ لبعض الشيوخ من

يُقْتَدَى بِهِمْ فِي الْعِلْمِ وَالْفَتْوَى وَالِدِينَ يَقُولُ إِنَّهُ أَدْرَكَ أَبَاهُ وَمَنْ كَانَ فِي سُنَّتِهِ لَا يَتَسَمَّوْنَ بِهَذِهِ الْأَسْمَاءِ وَلَا يَعْرِفُونَهَا وَكَانَ سَبَبُهَا أَنَّ التُّرْكَ لَمَّا تَغَلَّبُوا عَلَى الْخِلَافَةِ تَسَمَّوْا أَذْكَ هَذَا شَمْسُ الدَّوْلَةِ وَهَذَا نَاصِرُ الدَّوْلَةِ وَهَذَا نَجْمُ الدَّوْلَةِ إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ فَتَشَوَّفَتْ نَفُوسُ بَعْضِ الْعَوَامِ مِمَّنْ لَيْسَ لَهُ عِلْمٌ إِلَى تِلْكَ الْأَسْمَاءِ لَمَّا فِيهَا مِنَ التَّعْظِيمِ وَالْفَخْرِ فَلَمْ يَجِدُوا سَبِيلًا إِلَيْهَا لِأَجْلِ عَدَمِ دُخُولِهِمْ فِي الدَّوْلَةِ فَرَجَعُوا إِلَى أَمْرِ الدِّينِ فَكَانُوا فِي أَوَّلِ مَا حَدَّثَتْ عَنْهُمْ هَذِهِ الْأَسْمَاءُ إِذَا وَدِدُوا أَحَدَهُمْ مَوْلُودًا لَا يَقْدِرُ أَنْ يُكَنِّيَهُ فَلَانِ الدِّينِ إِلَّا بِأَمْرِ يُخْرُجُ مِنْ جِهَةِ السُّلْطَانِ فَكَانُوا يُعْطُونَ عَلَى ذَلِكَ الْأَمْوَانَ حَتَّى يُسَمَّى وَلَدُهُ أَحَدَهُمْ بِفُلَانِ الدِّينِ فَلَمَّا إِنْ طَالَ أَلَمَدَى وَصَارَ الْأَمْرُ إِلَى التُّرْكِ فَلَمْ يَبْقَ لَهُمْ بِالتَّسْمِيَةِ بِالدَّوْلَةِ مَعْنَى إِذْ أَنَّهَا قَدْ حَصَلَتْ لَهُمْ فَانْتَقَلُوا إِلَى الدِّينِ ثُمَّ فُشِيَ الْأَمْرُ وَزَادَ حَتَّى رَجَعُوا يُسَمُّونَ أَوْلَادَهُمْ بِغَيْرِ مَالٍ يُعْطَوْنَهُ عَلَى ذَلِكَ ثُمَّ انْتَقَلَ إِلَيْهِ بَعْضُ مَنْ لَا عِلْمَ عِنْدَهُ وَلَا عَمَلٍ ثُمَّ صَارَ الْأَمْرُ مُتَعَارِفًا مُتَعَاهِدًا حَتَّى أُنْسَ بِهِ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ فَتَوَاطَعُوا عَلَيْهِ فَأَنَّا اللَّهُ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ . كَانَ النَّاسُ يَقْتَدُونَ بِالْعَالِمِ وَيَهْتَدُونَ بِهَدْيِهِ فَصَارَ الْأَمْرُ إِلَى أَنْ يُحْدِثَ الْأَعَاجِمُ وَمَنْ لَا عِلْمَ عِنْدَهُ شَيْئًا فَيَقْتَدِي الْعَالِمَ بِهِمْ فَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ عَلَى عَكْسِ الْأُمُورِ وَانْقِلَابِ الْحَقَائِقِ . وَلَمْ يَرْضَ الْإِمَامُ الْحَافِظُ النَّوَوِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَأَخِّرِينَ بِهَذَا الْأَسْمِ قَطُّ وَكَانَ يَكْرَهُهُ كِرَاهَةً شَدِيدَةً عَلَى نُقْلِ عَنْهُ وَصَحَّ وَقَدْ وَقَعَ فِي بَعْضِ الْكُتُبِ الْمُنْسُوبَةِ إِلَيْهِ رَحِمَهُ اللَّهُ أَنَّهُ قَالَ إِنِّي لَا أَجْعَلُ أَحَدًا فِي حِلٍّ مِمَّنْ يَسْمِيَنِي بِمُخْنِي

الذين وكذلك غيره من العلماء العاملين بعلمهم . وقد رأيتُ بعضَ الفضلاء من الشافعية من أهل الخير والصلاح اذا حكى شيئاً عن النَّوَوِي رحمه الله يقول قال يَحْيَى النَّوَوِي فسألته عن ذلك فقال إنا نكره أن نُسَمِيه باسم كان يكرهه . فعلى هذا فهذه الاسماء انما وُضِعَتْ عليهم تَفْعُلاً . وهم بُرءاءٌ من ذلك .

النارجيل لابن بطوطَة

وهو جَوْزُ الهند وهذا الشجرُ من اغرَب الاشجار شأناً واعجَبِها امرأً وشجره شَبهُ شجر النخل لا فرق بينهما الا ان هذه تُسَمَّى جَوْزاً وتلك تسمى تَمراً وجَوْزُها يُشَبُّه رَأْسَ ابنِ آدَمَ لان فيه شَبه العينين والفم وداخِلُها شَبهُ الدِّمَاغِ اذا كانت خضراء وعليها لَيْفٌ شَبهُ الشَّعْرِ وهم يصنَعُونَ منه حِبالاً يَخِيطُونَ بها المَرَاكِبَ عَوِصاً من مَسَامِيرِ الحَدِيدِ ويصنعون منه الحبال للمراكب والجوْزة منها وخصوصاً التي بجزائر ذِيبة المَهْل ، تكون بمقدار رَأْسِ الآدَمِي ويزْعَمُونَ ان حَكِيماً من حُكَماء الهند في غابر الزمان كان مُتَّصِلاً بملك من الملوك ومُعَظِّماً لديه وكانت للملك وزير بينه وبين هذا الحَكِيم مُعَادَاة فقال الحَكِيم للملك ان رَأْسَ هذا الوزير اذا قُطِعَ ودُفِنَ تَخْرُجَ منه نَخْلَةٌ تُسَمَّى بِشعر عَظِيم يعودُ نفعه

على أهل الهند وسواهم من أهل الدنيا فقال له الملك فان لم يظهر من رأس الوزير ما ذكرته قال ان لم يظهر فاصنع برأسي كما صنعت برأسه ، فأمر الملك برأس الوزير فقطّع واخذَه الحَكِيم وغرَس نواة تمر في دماغه وعالجها حتى صارت شجرةً واثمرت بهذا الجوز وهذه الحكاية من الاكاذيب ولكن ذكرناها لشهرتها عندهم .

ومن خواص هذا الجوز تقويةُ البدن واسراعُ السَّمَنِ والزيادةُ في سُخرة الوجه واما الاعانة على البَاءَةِ ففِعْلُهُ فيها عَجِيبٌ ، ومن عجائبه انه يكونُ في ابتداء امره اخضرَ فمن قطع بالسكين قطعةً من قشره وفتح رأسَ الجوزة شربَ منها ماءً في النهاية من الحلاوة والبُرودة ومزاجه حارٌّ مُعِينٌ على البَاءَةِ فاذا شربَ ذلك الماء اخذَ قطعةَ القشرة وجعلها شبه المِلْمَعَةِ وجردَ بها ما في داخل الجوزة من الطعم فيكون طعمُهُ كطعم الجوزة اذا سُويَت ولم يَتِمَّ نضجها كلَّ التمام ويُتَغَذَى به ومنه كان غِذائي في ايام اقامتي بجزائر ذببة المهل مدةً من عامٍ ونصفِ عامٍ ومن عجائبه انه يُصنع منه الزيتُ والحليبُ والعسل .

فاما كَيْفِيَةُ صناعة العسل منه ويسمون فإنَّ تُخْدَم النخل منه الفنازانية يصعدون الى النَّخْلَةِ غَدُوءاً وَعَشِيّاً اذا ارادوا اخذ ما بها الذي يصنعون منه العسل وهم يُسمونه الأطواق فيقطعون العِذْقَ الذي يخرج منه الثَّمَر ويتركون منه مقدار اصبعين ويربطون عليه قدراً صغيرة فيقطر فيها الماء الذي يسيل من

العِذْقُ فَإِذَا رَبَطَهَا غَدَوَةٌ صَعَدَ إِلَيْهَا عَشِيَّةً وَمَعَهُ قَدَحَانٌ مِنْ قَشْرِ الْجَوْزِ الْمَذْكُورِ أَحَدُهُمَا مَمْلُوءٌ مَاءً فَيَصُبُّ مَا اجْتَمَعَ مِنْ مَاءِ الْعِذْقِ فِي أَحَدِ الْقَدَحَيْنِ وَيَغْسِلُهُ بِالْمَاءِ الَّذِي فِي الْقَدَحِ الْآخَرِ وَيَنْجُرُّ مِنَ الْعِذْقِ قَلِيلًا وَيَرْبِطُ عَلَيْهِ الْقِدْرَ ثَانِيَةً ، ثُمَّ يَفْعَلُ غَدَوَةً كَفَعْلِهِ عَشِيًّا فَإِذَا اجْتَمَعَ لَهُ الْكَثِيرُ مِنْ ذَلِكَ الْمَاءِ طَبَخَهُ كَمَا يُطَبَخُ مَاءُ الْعَنْبِ إِذَا صُنِعَ مِنْهُ الرُّبُّ فَيَصِيرُ عَسَلًا عَظِيمُ النِّفْعِ طَيِّبًا فَيَشْتَرِيهِ تُجَّارُ الْهِنْدِ وَالْيَمَنِ وَالصِّينِ وَيَحْمِلُونَهُ إِلَى بِلَادِهِمْ وَيَصْنَعُونَ مِنْهُ الْحُلُوءَ .

وَأَمَّا كَيْفِيَّةُ صُنْعِ الْحَلِيبِ مِنْهُ فَإِنْ بِكُلِّ دَارٍ شِبْهُ الْكُرْسِيِّ تَجْلِسُ فَوْقَهُ الْمَرْأَةُ وَيَكُونُ يَدَاهُ عَصَى فِي أَحَدِ طَرَفَيْهَا حَدِيدَةٌ مُشْرِقَةٌ فَيَفْتَحُونَ فِي الْجَوْزَةِ مِقْدَارَ مَا تَدْخُلُ تِلْكَ الْحَدِيدَةُ وَيَجْرُسُونَ مَا فِي بَاطِنِ الْجَوْزَةِ ، وَكُلُّ مَا يَنْزِلُ مِنْهَا يَجْتَمِعُ فِي صَحْفَةٍ حَتَّى لَا يَبْقَى فِي دَاخِلِ الْجَوْزَةِ شَيْءٌ ثُمَّ يُمْرَسُ ذَلِكَ الْجَرِيشُ بِالْمَاءِ فَيَصِيرُ كَلَوْنِ الْحَلِيبِ بَيَاضًا وَيَكُونُ طَعْمُهُ كَطَعْمِ الْحَلِيبِ وَيَأْتَدِيمُ بِهِ النَّاسُ .

وَأَمَّا كَيْفِيَّةُ صُنْعِ الزَّيْتِ فَإِنَّهُمْ يَأْخُذُونَ الْجَوْزَ بَعْدَ نُضْجِهِ وَسُقُوطِهِ عَنْ شَجَرِهِ فَيَزِيلُونَ قَشْرَهُ وَيَقْطَعُونَهُ قِطْعًا وَيُجْعَلُ فِي الشَّمْسِ فَإِذَا ذَبَلَ طَبَخُوهُ فِي الْقُدُورِ وَاسْتَخْرَجُوا زَيْتَهُ وَبِهِ يَسْتَصْبِحُونَ وَيَأْتَدِيمُونَ بِهِ وَيَجْعَلُهُ النِّسَاءُ فِي شَعُورِهِنَّ وَهُوَ عَظِيمُ النِّفْعِ .

أصول الطريق للشيخ ذررت

أصولُ طريقَتنا التي تنبني عليها عشرةُ أشياء : خمسةٌ ظاهرة وخمسةٌ باطنة . أما الخمسةُ الظاهرةُ فأولُها مُلازمةُ السمع والطاعة لأمراء المسلمين وعامتهم وخاصتهم من أهل الله ، فلا يُخالف عليهم بقول ولا بفعل بل إيمان وتسليم ، الثاني لزوم الخمس في الجماعة بحسب الامكان فإن كان في الجامع الأعظم فهو أولى وتكفي المرأة والصبي وأيٌّ من كان من المسلمين في تحصيل فضلها ، الثالث القناعة بقليل الرزق وكثيره بأيّ وجه تحصل من الوجوه المباحة ، الرابع إقامة الأوراد الشرعية بحسب ما يكون صالحاً بالإنسان في دينه ودنياه وذلك يختلف باختلاف الناس ، الخامس إشار الحول بترك الفضول وعدم المنازعة والعناد في كل قول وفعل وفي ذلك يقول القائل :

وقائلةٌ مالي أراك مجانباً أموراً وفيها للتجارة مَرَبَحُ
فقلتُ لها مالي بِرَبِّكَ حَاجَةٌ فَنَحْنُ أَناسُ بِالسَّلامَةِ نَفْرَحُ

وأما الخمسةُ الباطنيةُ فأولُها الاعراض عمّا يُرجى أو يُخشى من قبل الخلق بأن لا يُرجى منهم ولا دفع ولا جلب ولا يُتَوَجَّه اليهم .
والأخيرة أن لا تطلب سوا ربك .

قُلْتُ أَوْ جَلَّتْ إِلَّا مِنْهُ الثَّالِثُ إِقَامَةُ رَسْمِ الشَّرِيعَةِ بُلُُومِ الْأَسْبَابِ مِنْ غَيْرِ اسْتِنَادٍ وَلَا اعْتِمَادٍ ، بَلْ كَمَا قَالَ ابْنُ عَطَاءٍ اللَّهُ : لَا بُدَّ مِنَ الْأَسْبَابِ وَجُوداً وَالْغَيْبَةِ عَنْهَا شُهُوداً فَأَثْبِتْهَا مِنْ حَيْثُ أَثْبَتَهَا الْحَقُّ بِحُكْمَتِهِ وَلَا تَسْتَنْدِ إِلَيْهَا لِعِلْمِكَ بِأَحْدِيَّتِهِ . الرَّابِعُ الْخُرُُجُ مِنَ الْكُلْفِ بِأَنْ تُكَلِّفَ وَلَا تَتَكَلَّفَ وَإِنْ جَرَى لَكَ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ فَلَا تُغْدِلْهُ وَدَعْ الْخُلُقَ وَمَا دُفِعُوا إِلَيْهِ فَمُرَادُ الْحَقِّ مَا هُمْ عَلَيْهِ . الْخَامِسُ أَنْ لَا تَعْمَلَ عَمَلًا إِلَّا بِقَصْدٍ وَنِيَّةٍ فَكُلُّ عَمَلٍ لَا تَصْحَبُكَ فِيهِ نِيَّةٌ وَلَا قَصْدٌ صَالِحٌ فَلَا تَقْرَبْهُ فَانْهَ لَا فَائِدَةَ فِيهِ .

وَبَعْدَ هَذِهِ الْخَمْسِ خَمْسٌ لَا بَدَّ لَكَ مِنْهَا ؛ مُجَامَلَةُ الْخُلُقِ ، وَمُحَاسَنَتُهُمْ فِي الْأُمُورِ وَالْحَذَرُ مِنْهُمْ فِي عَيْنِ حُسْنِ الظَّنِّ بِهِمْ ، وَمُوَافَقَتُهُمْ فِي كُلِّ أَمْرٍ لَا يُخَالِفُ الشَّرْعَ وَلَا يَضُرُّ بِالْدُنْيَا وَلَا يُنْقِصُ الْعَقْلَ ، وَإِتْبَاعُ الْعِلْمِ فِي كُلِّ وَرْدٍ وَصَدَرٍ ، فَقَدْ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : الْعِلْمُ إِمَامُ الْعَمَلِ وَالْعَمَلُ تَابِعُهُ . وَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : لَنْ اسْتَوَصَاهُ اتَّقِ اللَّهَ حَيْثُ كُنْتَ وَأَتَّبِعِ السَّيِّئَةَ الْحَسَنَةَ تَحْتَهَا وَخَالِقِ النَّاسَ بِخُلُقٍ حَسَنٍ فَمِنْ ثَمٍّ قَالَ الشَّيُوخُ : الْإِنْسَانُ مُبْتَلَى بِنَفْسِهِ وَالْوُقُوعُ فِي الْمَعْصِيَةِ لَا يَقْضِي بَعْدَهُ الْاسْتِدْرَاكُ ، فَالْوَاجِبُ عَلَى الْمُرِيدِ أَنْ لَا يَعْزِمَ عَلَى تَحْذُورٍ وَلَا يُفَرِّطَ فِي مَأْمُورٍ فَإِنْ وَقَعَ فَلْيُبَادِرِ الْمَعْصِيَةَ بِالتَّوْبَةِ وَالتَّقِيصَةَ بِالْإِنَابَةِ . وَالْفَرْقُ بَيْنَ الْمَعْصِيَةِ وَالتَّقِيصَةِ أَنَّ الْمَعْصِيَةَ مَا فِيهِ إِثْمٌ كَالزَّانِي وَالتَّقِيصَةُ مَا فِيهِ عَيْبٌ كَالطَّمْعِ .

وقد قال الشيخ أبو الحسن الشاذلي رضي الله عنه : إجعل التقوى وطناً ، ثم لا يضرْك قرحُ النفس ما لم ترضَ بالغيب أو تُصرَّ على الذنب أو تسقط منك الخشية بالغيب اهـ . وهو مدارُ الأمر وُجُلته وبالله التوفيق .

التَّارِيخُ وَالْأَلْفَاظُ الْمُسْتَعْمَلَةُ فِيهِ لأَحْسَنَ عَمْرُون

اعلم أن الأدباء والكتّاب اختلفوا في التاريخ هل يكون بما مضى من الشهر أو بما بقي منه أو بهما . فمنهم من يُورخ بما مضى كأن أقلّ مما بقي أو أكثر أو مُساوياً فيقول لثلاثِ خَلَوْنَ ولعشرِ خَلَوْنَ ولا يُورخ بما بقي لأنه مجهول لأن الشهر يكون من ثلاثين ومن تسعة وعشرين كما جاء في الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم وهذا القول ارتضاه الأكثرون لأنه أسلم من الكذب . . . ومنهم من يُورخ بالأقل سواء كان ماضياً أو باقياً قصداً لاختصار اللفظ وتقريبه فيقول لثلاثِ بقيْنَ ولا يقول لسبعِ وعشرين خَلَتْ ويقول لثلاثِ خَلَتْ ولا يقول لسبعِ وعشرين بقيّت . ثم اختلف القائلون بهذا إذا استوى الماضي والباقي فمنهم من يُجَوِّز التاريخ بالماضي وبالباقي أيهما شاء ،

ومنهم من يؤرخ بالماضي فقط ، وبعضُ المتأخرين أجاز التحرُّز في التاريخ بالباقي فيقول لِثلاثِ بَقِين ؛ إنْ بَقِين . والتاريخُ بالليالي دونَ الأيام ، بهذا استمر العمل قديماً حِفْظاً على الليلة السابقة وإشعاراً بأن الشهر قَمَرِيّ تَسْبِقُ الليلةُ نهارَها في دخوله وجرياً على مَهْنَعِ العرب في تغليب المؤنث على المذكر في التاريخ .

قال الرُّعَيْنِي عدلُ أهلُ العصرِ وَمَنْ قَبْلَهُمْ قريباً الى التاريخ بالأيام فيكتبون في الأولِ مِنْ كَذَا وفي الثاني ثُمَّ يُتَبِعُونَ الأيام يوماً بعد يوم الى آخر الشهر وسَقَطَ بذلك تَكْلُفُ خَلَتْ وَخَلَوْنَ وَبَقِيَتْ وَبَقِين ، وأكثرُ العمل الآن عليه وهو أَقْبَلُ من الأول ، وليس فيه ما زَعَمُوا من إغفال الليلة فإنَّ الليلةَ وإنْ دَلَّتْ على يومها فاليومُ أقوى دلالة عليها لتقدُّمها عليه قال وتُحَدِّثُ المَذَكَّرُ إِنْ أُرِخْتَ بالأيام على الأصل من ثُبُوتِ التاء في الأول وتُسْقِطُها من الثاني عكسَ المؤنث ولم تثبت التاء في الثاني من المذكر وإن كان ذلك الأصل قبل التركيب لثلاث تجمع بين علامتي تأنيث في كلمة ؛ فَإِنَّ الاسمين قد صُيِّرَا اسماً واحداً من أحد عشر الى تسعة عشر .

واعلم أنه ليس شيء من أسماء الشهور يُضاف اليه شهرٌ إلا ثلاثةُ رَمَضَانَ وَرَبِيعَانَ قِيلَ لأنها كُلُّها أعلامٌ للشهور الموضوعة عليها أو صفات قامت مقامَ الاعلام إلا الربيعين ورمضانَ فإنها باقية على الصفة المحضة .

ويقال مُحَرَّمٌ والمُحَرَّمُ وذُو قَعِيدَةٍ وذُو الْقَعِيدَةِ وذُو حِجَّةٍ وذُو الْحِجَّةِ وما سواها من الشهور لا يقال بالألف واللام لأنها أعلامٌ وتلك يُلْحَقُ فيها الوصف الأصلي .

والشهور كلها مُذَكَّرَةٌ إِلَّا جُمَادَى تقول جُمَادَى الْأُولَى وَجُمَادَى الثَّانِيَةِ ويقال جُمَادَى الْآخِرَةِ بِمَدِّ الهمزة وَالْآخِرَةِ بِقَصْرِ الهمزة وباء بعد الحاء ولا يُقال الْآخِرَى فَإِنَّ الْآخِرَى تَأْنِيثُ الْآخِرِ بفتح الحاء وكذلك الْآيَامُ تُذَكَّرُ كُلُّهَا إِلَّا الْجُمُعَةُ .

وقال في الْمَنْهَجِ : الْأَلْفَاظُ الَّتِي تُسْتَعْمَلُ فِي أَوَّلِ الشَّهْرِ : مُفْتَتِحٌ وَمُهْلٌ وَغُرَّةٌ وَصَدْرٌ وَعُقْبٌ بضم العين وسكون القاف أو ضمهما فيقال وذلك في مفتتح كذا وفي مهله وغرته وصدرة وعقبه ، فأما الْمُفْتَتِحُ فيقال في أول يوم منه خاصة ، وأما الْغُرَّةُ فيقال في اليوم الأول والثاني والثالث ، لا خلاف في ذلك ، وأما الْمُهْلُ ففيه خلاف منهم من يجعله كالمفتتح ومنهم من يجعله كالغُرَّةِ ، وأبو علي الفارسي منع أن يقال في أول يوم من الشهر مُسْتَهْلٌ لِأَنَّ الْإِسْتِهْلَالَ قَدْ انْقَضَى وَنَصَّ عَلَى أَنْ يُؤْرَخَ بِأَوَّلِ الشَّهْرِ أَوْ بَغْرَتِهِ أَوْ بَلِيلَةٍ خَلَّتْ مِنْهُ ، وَأما الْعُقْبُ بالضم فقال بعض النحويين يقع على ما تقع عليه الْغُرَّةُ ، ومنهم من قال : يقال جئت في عُقب الشهر إذا جئت بعد ما مضى ولم يَحْدُثْ هذه الْبَعْدِيَّةُ يَوْمٌ وَلَا بَيَوْمِينَ وَلَا بِثَلَاثَةٍ ، وَأما الْصَدْرُ فقليل الذي

يظهر من كلام بعض النحاة واللغويين أنه كالغرة وقيل من أوله الى ثلثه وقيل الثلثان والنصف وكلا القولين مستقرأً من المدونة .

وأما الالفاظ التي تستعمل في وسط الشهر فهي وسط ومنتصف وسواء فيقال : وذلك في وسط شهر كذا وفي منتصفه وسوائه ، وهذه الالفاظ ظاهرة في النصف لا غير ويصح في لفظ الوسط أن يكون للعشر الأوسط لأنها وسط باعتبار أن قبلها عشراً وبعدها عشراً .

وأما الالفاظ التي تستعمل آخر الشهر فهي عقب بفتح العين وكسر القاف أو سكونها ومنسلخ ومنسلخ فيقال وذلك في عقب شهر كذا ومنسلخ شهر كذا ومنسلخه فالعقب للثلاثة الأخيرة منه والمنسلخ والمنسلخ لليوم الاخير منه والصواب أن لا يؤرخ بالعقب لا في أول الشهر ولا في آخره لثلا يصحف أحدهما بالآخر فيقع اللبس .

قال الرعيني وتكتب في العشرة الأولى حملاً على المعنى والأول حملاً على اللفظ ، والوسطى والوسط والآخرة والأواخر ولا تقل الأخرى لثلا يلتبس بالتواني وتمتنع الأوائل والأواسط والأخر لما فيه من وصف المؤنث بالمذكر .

التوشيحُ والوشاحون للإفندي

التوشيح لغة مأخوذٌ من الوِشاح قال في الانوار والوشاحُ خِرْزُ تنظَّم بجواهرَ وأحجارَ نَفِيسَة نَظْمَيْن مختلفين تتقلَّد بهما المرأة يلتقيان عند صدرها وبين كَتِفَيْهَا كَحَمَائِلِ السيف ومنه التَّوشِيع الذي في الحديث وهو أن يُخَالِفَ الرجلُ بين طَرَفَي الثوبِ آخِذاً لهما من تحتِ إبطَيْهِ عَاقِداً لهما على رَقَبَتِهِ اهـ . ومن هذا التوشيحُ عند أهل البديع ومُخْتَرَعُهُ قُدَامَةُ وهو أن يَكُونُ أَوَّلُ الكلامِ دَآلَاً على لَفْظٍ ولهذا سَمَّوْهُ تَوْشِيحاً فإنه يَنْزَلُ المعنى فيه بِمَنْزِلَةِ الوِشاحِ وَيَنْزَلُ أَوَّلُ الكلامِ وَآخِرُهُ مَنْزِلَةُ العَاتِقِ والكَشْحِ اللذين يجول عليهما الوِشاح .

ومن غريب التوشيح البديعي ما ذَكَرَ أن عَدِيَّ بنَ الرَّقَّاعِ أنشد الوليدَ بن عبد الملك بحضرة جرير والفرزدق قصيدته التي أولها :
عَرَفَ الدِّيَّارَ تَوْهَمًا فاعْتَادَهَا ، حتى انْتَهَى لقوله : تُزْجِي أَغْنُ
كَأَنَّ إِبْرَةَ رَوْقِهِ ، ثم شَغِلَ الوليدُ عن الاستماع فقطعَ عَدِيَّ الإنشادَ فقال الفرزدق إنه سيقول :

قَلَمٌ أَصَابَ مِنَ الدَّوَاقِ مِدَادَهَا ، فَلَمَّا عَادَ الْوَلِيدُ لِلِاسْتِمَاعِ وَعَادَ

للإنشاد قال : قلمُ أصابَ من الدَّوَاةِ مِدَادَهَا ، فقال الفرزدقُ : واللهِ
لما سمعتُ صدرَ بيتِه رَحيته فلما أنشأ عُجزَه انقلبَت الرحمة حسداً
وقال الشريف الغرناطي (أبو القاسم الشريف) في شرح المقصورة لما
أنشد أبيات ابن الزقاق ومنها :

على عاتقي من ساعدتيها حمائلُ وفي خصرها من ساعدتي وشاحُ
استعمل ابنُ الزقاق الوِشاحَ في معنى النطاق وهو ما تُديرُه
المرأةُ على خصرِها والوشاحُ ما تتقلدهُ على عاتقها فيكونُ منها في
موضعِ حمائلِ السيف من الرجل . وقد خطَّيءَ أبو تمام في قوله :

من الهيف لو أن الخلاخلَ صوّرت
لها وشحاً جالت عليه الخلاخلُ

لأنه استعمل الوِشاحَ في الحَقَاب ، وإنما وصّفوا الوِشاحَ بالقلَق
والحرَكَة لأن ذلك يدل على رِقَّة الخصر وضُمُور البطن ، وُسْمِي
التوشيحُ توشيحاً أخذاً من وُشَح بمعنى زَيّن ، قال الثعالي على
قول الحلي :

ما روضةٌ وشَح الوَسْمِي بُردتها ، ما نصه وشَح هو من التوشيح
وهو التزيين يقال : وشَحْتُ الشيء إذا زينته ومنه الوشاح اه .

وأما التوشيحُ عرفاً فقال ابنُ خلدون ان أهل الأندلس لما كثر

الشعر في قَطرهم وتهذبت مَنَاحِيهِ وفُنُونُهُ وبلَغَ التَّنْمِيقُ فِيهِ الغَايَةَ
استحدث المتأخرون منهم فَنَاءَ سَمَوَهُ بِالْمَوْشَحِ يَنْظِمُونَهُ اسْمَاطاً اسْمَاطاً
وأَغْصَاناً أَغْصَاناً يُكْثِرُونَ مِنْهَا وَمِنْ أَعَارِضِهَا الْمُخْتَلِفَةِ وَيَسْمُونُ
الْمُتَعَدِّدِ مِنْهَا بَيْتاً وَاحِداً وَيَلْتَزِمُونَ غَدَدَ قَوَائِي تِلْكَ الْأَغْصَانِ وَأَوْزَانَهَا
مُتَتَالِيَا فِيمَا بَعْدُ إِلَى آخِرِ الْقِطْعَةِ وَأَكْثَرُ مَا يَنْتَهِي عِنْدَهُمْ إِلَى سَبْعَةِ
أَبْيَاتٍ وَيَشْتَمِلُ كُلُّ بَيْتٍ عَلَى أَغْصَانٍ عِدَدِهَا بِحَسَبِ الْأَغْرَاضِ وَالْمَذَاهِبِ
وَيَنْسَبُونَ فِيهَا وَيمْدُحُونَ كَمَا يُفْعَلُ فِي الْقَصَائِدِ . وَلَمْ يَلْتَزِمُوا فِي أَوْزَانِهِ
بِخَرَأٍ مِنَ الْبُحُورِ الْخَمْسَةِ عَشَرَ بَلْ صَنَعُوا عَلَى كُلِّ بَحْرٍ مِنْهَا وَرَبَّما
اسْتَعْمَلُوهُ فِي الْأَلْحَانِ الْمَوْلَدَةِ وَالطَّبُوعِ الْمُخْتَرَعَةِ وَالتَّغَمُّاتِ الْمُسْتَحْدَثَةِ
الْمُخَارِجَةِ عَنْ أَوْزَانِ الْعَرَبِ رَأْساً وَهَذَا الِاسْتِعْمَالُ أَغْلَبُ عَلَيْهِمْ ، ثُمَّ
قَالَ ابْنُ خَلَدُونَ :

وَأَوَّلُ مَنْ اخْتَرَعَ التَّوَاشِيحَ بِجَزِيرَةِ الْإِنْدَلُسِ مُقَدِّمُ بْنُ مُعَاوِيَةَ
الْقُبَيْرِيِّ مِنْ شُعْرَاءِ الْأَمِيرِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مُحَمَّدٍ الْمَرْوَانِيِّ وَأَخَذَ عَنْ ذَلِكَ
أَبُو عَبْدِ اللَّهِ أَحْمَدُ بْنُ عَبْدِ رَبِّهِ صَاحِبُ كِتَابِ الْعِقْدِ وَلَمْ يَظْهَرْ لَهَا مَعَ
الْمُتَأَخِّرِينَ ذِكْرٌ وَكَسَدَتْ مُوَشَّحَاتُهَا ، فَكَانَ أَوَّلَ مَنْ بَرَعَ فِي هَذَا
الشَّأْنِ بَعْدَ هُمَا عُبَادَةُ الْقَزَّازِ شَاعِرُ الْمُعْتَصِمِ بْنِ حُمَادِجِ صَاحِبِ الْمِرْيَةِ
وَقَدْ ذَكَرَ الْأَعْلَمُ الْبَطْلِيُّونَ أَنَّهُ سَمِعَ أَبَا بَكْرَ بْنَ زُهَيْرٍ يَقُولُ
الْوَشَّاحُونَ كُلُّهُمْ عِيَالٌ عَلَى عِبَادَةٍ فِيمَا اتَّفَقَ لَهُ مِنْ قَوْلِهِ :

بَذَرْتُمْ شَمْسُ ضَحَى غَضِنَ نَقَا مِسْكُ شَمَّ
 مَا أَتَمَّ مَا أَوْضَحَا مَا أَوْزَقَا مَا أَنْتَمَ
 لَا جَرَمَ مَنْ لَمَحَا قَدْ عَشِقَا قَدْ حَرِمَ

وزعموا أنه لم يسبقُ عبادةً وشاحٌ من مُعاصريه الذين كانوا
 زَمَنَ الطَّوائِفِ وجاء مِنْ بَعْدِهِ جَمَاعَةٌ مِنْهُمْ ابْنُ ارْفَعَ رَأْسَهُ شَاعِرُ
 الْمَأْمُونِ بْنِ ذِي الثُّونِ صَاحِبُ طَلِيظِلَةٍ قَالُوا وَقَدْ أَحْسَنَ فِي ابْتِدَاءِ
 مُوشِحَتِهِ الَّتِي طَارَتْ لَهُ حَيْثُ يَقُولُ :

الْعُودُ قَدْ تَرَنَّمْ بِأَبْدَعِ تَلْحِينٍ وَشَقَّتِ الْمَذَانِبُ رِياضَ الْيَاسْمِينِ
 وَفِي اثْنَائِهَا يَقُولُ :

تَخْطُرُ وَلَمْ تُسَلِّمْ ، عَسَاكَ الْمَأْمُونُ
 مُرَوِّعُ الْكِتَابِ ، يَحْيَى بْنُ ذِي الثُّونِ

ثُمَّ جَاءَتِ الْحَلْبَةُ الَّتِي كَانَتْ فِي أَيَّامِ الْمُلَثَّمِينَ فَظَهَرَتْ لَهُمُ الْبِدَائِعُ
 فَمِنْ فُرْسَانَ حَلَبَتَهُمُ الْأَعْمَى التُّطِيلِي وَيَحْيَى بْنُ بَقِي ، وَمِنْ مُوشِحَاتِ
 الْأَعْمَى :

كَيْفَ السَّبِيلُ إِلَى صَبْرِي وَفِي الْمَعَالِمِ ، أَشْجَانُ
 وَالرَّكْبُ وَسَطَ الْقَلَا بِالْخُرْدِ التَّوَاعِمِ ، قَدْ بَانُوا

وذكر غير واحد من المشايخ أن أهل هذا الشأن بالاندلس
يذكرون أن جماعة من الوشاحين اجتمعوا في مجلس من اشيلية وكان
كل واحد منهم قد صنع موشحة وتألق فيها فتقدم الاعمى التطيلي
فلما افتتح موشحته المشهورة بقوله :

ضاحكٌ عن جُمان ، سافرٌ عن بَدْرٍ
ضاقَ عنه الزَّمان ، وحوَاهُ صدري

خرقَ ابنُ بقي موشحته وتبعه الباؤون وذكر الأعمى البطليوسي
انه سمع ابن زهر يقول ما حسدت قط وشاحاً على قول إلا ابن
بقي حين وقع له :

أما ترى أحمَد في نجدِ العَالِي لا يُلحِقُ
أطلعه الغربُ فأرنا مثله يا مشرقُ

وكان في عصرهما من الوشاحين المطبوعين أبو بكر الأبيض
وكان في عصرهما أيضاً الحكيمُ ابنُ باجة صاحبُ التلاحين المعروفة ،
ومن الحكايات التي اشتهرت عنه أنه حضر مجلس مخدومه ابن تيفلويت
صاحب سرقسطة فالتقى على بعض قيناته موشحته :

جرر الذيلَ أيما جرَّ وصل الشكر منك بالشكر

فطربَ الممدوح حتى ختمها بقوله :

عَقَدَ اللهُ رَايَةَ النِّصْرِ لَامِرِ الْعَلَا أَيْ بَكْرِ

فلما طرَقَ ذلك التلحينُ سمِعَ ابنَ تَيْفَلَوَيْتَ صَاحَ : واطرباه
 وشقَّ ثيابه وقال ما أحسنَ ما بدأتَ به وما ختمتَ وحلفَ بالأيمنِ
 المغلَّظة لا يمشي ابنُ باجة الى داره إلا على الذهب فخاف ابنُ باجة
 سوءَ العاقبة فاحتال بأن جعلَ ذهباً في نعله ومشى عليه وذكر أبو
 الخطاب بن زُهر^١ أنه جرى في مجلس أبي بكر بن زُهر ذكرُ أبي
 بكر الأبيض الوشاح المتقدم الذكر فغَضَّ منه أحدُ الحاضرين فقال
 كيف تغضُّ ممن يقول :

ما لذَّ لي شَرْبُ رَاح	على رياضِ الاقحاح
لولا هَضِيمُ الوشاح	إذا انثنى في صباح
أو في الاصيل أضحى يَقُول	ما لِلشُّمُولِ لَطَمْتُ خَدَيَّ
وللشَّمالِ هَبَّتْ فَال	غُصْنُ اعْتِدَالِ ضَمَّه بُرْدِي
بِمَا أَبَادَ القُلُوبَا يمشي لنا مُسْتَرِيبَا	يا لحظه زِدْ ذُنُوبَا وَيَا مَاهُ الثَّنِيْبَا
بَرْدُ غَلِيلِ صَبَّرَ غَلِيل	لَا يَسْتَحِيلُ فِيهِ عَن عَهْدِ

١ - كذا عند الافرائي وفي مقدمة ابن خلدون ونظنُّ ان الصواب ابو الخطاب

ولا يزال في كلِّ حال يرُجو الوصال وهو في الصَّد

واشتهر بعد هؤلاء في صدر دولة الموحدين محمد بن ابي الفضل ابن
شرف قال الحسن ابن دُوَيْدَة حسدتُ حاتمَ بن سعيد على هذا الافتتاح:

شَمْسُ قَارَنْتَ بِدُرّاً رَاحُ وَيَدِيمُ

وابن هُرْدُوس الذي له :

يَا كَيْلَةَ الْوَصْلِ وَالشُّعُودِ بِاللّٰهِ عُودِي

وابن مُوَهْل الذي له :

مَا الْعِيدُ فِي حُلَّةٍ وَطَاقٍ، وَشَمٌّ طِيبٍ وَأَنَا الْعِيدُ فِي التَّلَاقِ ، مَعَ الْحَبِيبِ

وابو اسحاق الرُّوَيْنِي قال ابن سعيد سمعتُ ابا الحسن سهل ابن
مالك يقول انه دَخَلَ عَلَى ابْنِ زَهْرٍ وَقَدْ أَسْنَّ وَعَلَيْهِ زِيُّ الْبَادِيَةِ اِذْ كَانَ
يَسْكُنُ بِحَصْنِ اَنْتَبَةَ فَلَمْ يَعْرِفْهُ فَجَلَسَ حَيْثُ اَنْتَهَى بِهِ الْمَجْلِسُ وَجَرَّتْ
الْمَحَاضِرَةُ اَنْ اُنْشَدَ لِنَفْسِهِ مُوَشَّحَةً وَقَعَ فِيهَا :

كُحْلُ الدُّجَى يَجْرِي مِنْ مُقَلَّةِ الْفَجْرِ عَلَى الصَّبَاحِ

وَمِغْصَمُ النَّهْرِ فِي حُلِّ خَضَرٍ مِنَ الْبِطَاحِ

فَتَحَرَّكَ ابْنُ زَهْرٍ وَقَالَ اَنْتَ تَقُولُ هَذَا قَالَ اخْتَبِرْ قَالَ وَمَنْ تَكُونُ
فَعَرَّفَهُ فَقَالَ ارْتَفِعْ فَوَاللّٰهِ مَا عَرَفْتُكَ قَالَ ابْنُ سَعِيدٍ وَسَابِقُ الْحُلْبَةِ الَّتِي

ادركت هؤلاء هو أبو بكر بن زهر وقد شرقت موشحاته وغربت . قال
وسمعت أبا الحسن ابن سهل بن مالك يقول قيل لابن زهر لو قيل
لك ما أبدع ما وقع لك في التوشيح قال كنت أقول :

ما لِلْمَوَّاهِ من سُكْرِهِ لا يُفِيقُ يَا لَهُ تَسْكَرَانِ

قال في نفع الطيب هذا مَطْلَعُ مُوشَّحٍ يَسْتَعْمِلُهُ أَهْلُ الْمَغْرِبِ إِلَى الْآنِ
وَيُرَوَّى أَنَّهُ مِنْ أَحْسَنِ الْمَوْشَّحَاتِ قُلْتُ وَأَبُو بَكْرٍ بَنُ زُهْرٍ هُوَ أَوَّلُ مَنْ
عَصَرَ سُلَاقَةَ التَّوْشِيحِ لِأَهْلِ عَصْرِهِ وَلِذَلِكَ قَالَ فِيهِ تَلْمِيزُهُ أَبُو الْخَطَّابِ
بَنُ دُرَّحِيَّةٍ فِي كِتَابِ الْمُطَرِّبِ مِنْ أَشْعَارِ أَهْلِ الْمَغْرِبِ وَالَّذِي أَنْفَرَدَ بِهِ
شَيْخُنَا الْمَوْشَّحَاتِ وَهِيَ زُبْدَةُ الشَّعْرِ وَخِلَاصَتُهُ مِنَ الْفُنُونِ الَّتِي أَغْرَبُ
فِيهَا أَهْلُ الْمَغْرِبِ عَلَى أَهْلِ الْمَشْرِقِ .

... قال ابن خلدون واشتهر بعد ابن زهر ابن حيون والمهر بن
الفرس بغرناطة قال ابن سعيد ولما سمع ابن زهر قوله :

لله ما كان من يوم بهيج ينهرٍ يخص على تلك المروج

ثم انعطفنا على قم الخليج

نفضُ منك الختام عن عسجدي المدام

ورداء الإصيل تطويه كف الظلام

قال ابن كُتَّانٍ من هذا الرداء وكان معه في بلده مطرف أخبر ابن

سَعِيدٌ عَنْ وَالِدِهِ أَنَّ مُطَرِّفًا هَذَا دَخَلَ عَلَى ابْنِ الْفَرَسِ فَقَامَ لَهُ وَأَكْرَمَهُ
فَقَالَ لَا تَفْعَلْ فَقَالَ ابْنُ الْفَرَسِ كَيْفَ لَا أَقُومُ لِمَنْ يَقُولُ :

قُلُوبٌ تُصَابِتُ بِالْحَاطِظِ تُضِيبُ قُلُوبَ كَيْفَ تَبْقَى بِلَا وَجَدٍ

وبعد هؤلاء ابن حَزْمُونُ مِمَّنْ سَيِّئَ ذِكْرِهِ ابْنُ الرَّئِيسِ أَنْ يَحْيَى الْخَزْرَجِيُّ
دَخَلَ عَلَيْهِ فِي مَجْلِسٍ فَانْشَدَهُ مُوَشَّحَةً لِنَفْسِهِ فَقَالَ لَهُ ابْنُ حَزْمُونٍ مَا
الْمَوْشَحُ بِمَوْشَحٍ حَتَّى يَكُونَ عَارِيًّا عَنِ التَّكْلُفِ قَالَ مِثْلَ مَاذَا ؟ قَالَ
عَلَى مِثْلِ قَوْلِي :

يَا هَاجِرِي هَلْ إِلَى الْوِرْصَالِ مِنْكَ سَبِيلُ
أَوْ هَلْ يُرَى عَنْ هَوَاكَ سَالِ قَلْبُ الْعَلِيلِ

وَابُو الْحَسَنِ بْنُ سَهْلٍ بْنُ مَالِكٍ بَغْرَنَاطَةَ قَالَ ابْنُ سَعِيدٍ كَانَ وَالِدِي
يُعْجَبُ بِقَوْلِهِ :

إِنَّ سَيْلَ الصَّبَاحِ فِي الشَّرْقِ عَادَ بَحْرًا فِي أَجْمَعِ الْأَفْقِ
فَتَدَاعَتْ نَوَادِبُ الْوُرْقِ أَتْرَاهَا خَافَتْ مِنْ الْغَرَقِ
فَبَكَتْ سُحْرَةً عَلَى الْوَرَقِ

وَاشْتَهَرَ بِاشْبِيلِيَّةٍ لِذَلِكَ الْعَمِدِ أَبُو الْحَسَنِ بْنُ الْفَضْلِ قَالَ ابْنُ سَعِيدٍ
عَنْ وَالِدِهِ سَمِعْتُ سَهْلَ بْنَ مَالِكٍ يَقُولُ يَا ابْنَ الْفَضْلِ لَكَ عَلَى أَنْوَ شَاحِينَ
الْفَضْلُ فِي قَوْلِكَ :

فَوَاحِشَرْتَا لِرِزْمَانٍ مَضَى عَشِيَّةً بَانَ الْهَوَى وَانْقَضَى
وَأُفْرِدْتُ بِالرَّغْمِ لَا بِالرِّضَا وَبْتُ عَلَى حَرٍّ بِجَمْرِ الْقَضَا
أُعَانِقُ بِالْفِكْرِ تِلْكَ الطُّلُولَ وَأَلْتُمُ بِالْوَهْمِ تِلْكَ الرَّسُومَ

قال وسمعتُ أبا بكر الصَّابُوني يُنشدُ الاستاذ أبا الحسن الدُّبَّاجَ
موشحاته غير ما مرَّةً فما سمعتهُ يقول لله درُّه ألا في قوله :

قَسَمًا بِالْهَوَى لَذِي حَجَرٍ مَا لَيْلُ الْمَشُوقِ مِنْ فَجَرٍ
جَدُّ الصَّبْحِ لَيْسَ يَطْرُدُ مَا لِلَّيْلِ فِيهَا أَظُنُّ غَدُ
صَحَّ يَا لَيْلُ إِنَّكَ الْأَبَدُ

أَوْ فَقُصَّتْ قَوَادِمُ النَّسْرِ فَتُجُومُ السَّمَاءِ لَا تَسْرِي

واشتهر ببرُّ العُدْوَةِ ابنُ خَلْفِ الْجَزَائِرِيِّ صَاحِبُ الْمَوْشَحَةِ الْمَشْهُورَةِ:
يَدُ الصَّبَاحِ قَدْ قَدَحَتْ زِنَادَ الْأَنْوَارِ، فِي بَحَامِرِ الزَّهَرِ

وابن زَجَرِ الْبِجَائِيِّ وَلَهُ مِنْ مَوْشَحَةٍ :

تَغَرُّ الزَّمَانُ مُوَافِقُ حَيَّاكَ يَا بِنْسَامَ

قال ابنُ خَلْدُونُ وَمِنْ مُحَاسِنِ الْمَوْشَحَاتِ لِلْمُتَأَخِّرِينَ مَوْشَحَةُ ابْنِ
سَهْلٍ شَاعِرِ اشْبِيلِيَّةٍ وَسَبَّغَتْهُ مِنْ بَعْدِهَا فَمِنْهَا قَوْلُهُ :

كَلَّ دَرْبِي ظَنِّي الْحَتَى أَنْ قَدْ جَمَى قَلْبُ صَبِّ حِلَّةٍ عَنْ مَكْتَسَمِ

فَهُوَ فِي حَرٍّ وَخَفَقٍ مِثْلَمَا لَعِبَتْ رِيحُ الصَّبَا بِالْقَبَسِ
 وَاِذَا الْمَشَارِقَةُ فَالتَّكَلُّفُ عِنْدَهُمْ ظَاهِرٌ عَلَى مَا عَانَوْهُ مِنَ الْمَوْشَحَاتِ
 وَمِنْ أَحْسَنَ مَا وَقَعَ لَهُمْ فِي ذَلِكَ مُوَشَّحَةُ ابْنِ سَنَاءِ الْمَلِكِ الْمِصْرِيِّ اِشْتَهَرَتْ
 شَرْقًا وَغَرْبًا وَأَوَّلَهَا :

يَا حَبِيبِي ارْفَعْ حِجَابَ النُّورِ عَنْ الْعِذَارِ
 تَنْظُرِ الْمُسْنَكَ عَلَى الْكَافُورِ فِي جُلْنَّارِ
 كُلِّي ، يَا سُحْبُ تَيْجَانِ الرَّبِّي بِالْحَلِيِّ
 وَاجْعَلِي ، سَوَارَهَا مُنْعَطِفَ الْجِدْوَلِ

وَمِنْ أَحْسَنَ مَوْشَحَاتِ الْمَشَارِقَةِ مُوَشَّحَةُ عَبْدِ الْعَزِيزِ بْنِ سَرَايَا
 الْحَلِيِّ :

شُقَّ جَنْبُ اللَّيْلِ عَنْ نَهْدِ الصَّبَاحِ أَيُّهَا السَّاقُونَ
 وَلَهُ :

جَرَّدَ الْأَفُقُ صَارِمَ الْفَجْرِ مِنْ جُفُونِ الْغَسَقِ

تقسيم العلوم
إلى فلسفية ومليّة
وبيان ما تواطأت عليه
المليّة والفلسفة منها
لأبي عليّ بن سينا

العلوم على أجملة إما قديمة وأما حادثة ، وإن شئت قلت أما
فلسفية وأما مليّة ، أو أما قديمة وأما اسلامية ، وهو أضبط لأن من
القديم ما ليس بفلسفي كعلوم العرب ، غير أن هذه لما لم تكن علوماً
مهمّة صحّ أن لا يُبالى بها في التقسيم بل يُقتصر على ذكر الفلسفية
والاسلامية وما سوى ذلك يُذكر تبعاً فنقول : أما الفلسفية فنحن مقبول
في المليّة ومنها مرذود ، والمقبول منه مأخوذ ومنه متروك ، ولنبداً
بتقسيم الفلسفيات جرياً مع عباراتهم فيها مع الإلمام بما يُقبل وما لا ،
فنقول : العلم إما مقصود لذاته أو لغيره ، أما الأول فهو الفلسفة
الأولى المقصود بها تكميل النفس الناطقة والاطلاع على حقائق
الأشياء بقدر الطاقة وهو إما نظريّ وأما عمليّ ، والأول أما مجرد
عن المادة مطلقاً وهو العلم الإلهي أو في الذهن فقط وهو العلم الرياضي
أو مُقيّد بالمادّة وهو العلم الطبيعي ، والثاني أما مُتعلّق بنفس الشخص
من حيث هي ويسمى سياسة النفس وعلم الأخلاق أو بها وبما يحتاج

إليه من شهوات قواها وهو علم تدبير المنزل ، أو بما يعم وهو الملكية والسلطنة ، فإن كان الحافظ لنظامها والقائم بأحكامها الظاهرة والباطنة شخصاً دلّت عليه القرّانات الكبار وتميّز عن البشر بما أفيض عليه من قوَى المجرّدات فهو النبي وهو دولة النبوة ، وإن كان قائماً بتدبير ظواهرها فقط ودلّت عليه القرّانات المتوسطة فهي السلطنة وهو السلطان ، وقد يعمّ حكمه وقد يخصّ .

قلت أما دلائل القرّانات الكبار والمتوسطة فلا مانع منه ، إذ لا مانع أن يجري الله تعالى عادته بخلق شيء أو إزال شيء أو تخصيص شيء ما بشيء عند طلوع كوكب أو غروبه أو اجتماعه بكوكب آخر أو يثبوتته عنه أو قرّبه منه أو بُعده ثم يلهم الله من يشاء من عباده علم ذلك فيعلم ويحكم به اتباعاً لتلك العادة ولا تأثير في شيء من ذلك لشيء ، بل التأثير كله لله تعالى الواحد القهار ، وأما الفيض من قوَى المجرّدات فهو وهم باطل لا حاصل له ، فكل ما يثبتونه من المجرّدات والعقل الفيّاض باطل ، وإنما الله تعالى واحدٌ موجود واجب الوجود وكل موجود من هذه العوالم حادثٌ أثرٌ عنه خلقه بقدرته ومشيئته عن عدم ، وهو تعالى المخصّص للنبي بما اختصّ به من النبوة والكرامة ، وهو الممدّد له ولغيره لا إله ولا فاعل ولا مُعطي ولا مانع غيره سبحانه .

وأما الثاني أعني المقصودَ لغيره ، فإما للذهن وما يُنَاط به من المعاني وهو المنطق ، وإما لللسان وما يُنَاط به من الألفاظ وهو الأدب ، وهذا مُحَدَّث .

ثم إن الشريعة المطهرة على القِيَم بها أفضلُ الصلاة والسلام جاءت بما يُغني عن العلوم العملية المذكورة فتركت ، وذلك أن مدارها إما على حفظ النفس وهو في الشريعة بالقصاص ونحوه ، وإما على العقل وهو فيها بتحريم ما يُزيله والجدُّ عليه ، أو المالي وهو فيها بالتَّعْمِيَة بالتَّجَارَات وسائر المعاملات وَحَدُّ الْحَرَابَةِ وَالسَّرَقَةِ وتحريم الرِّبَا والغش ونحو ذلك ، أو العَرَض وهو فيها بحد القَذْف مثلاً أو النَّسَب وهو فيها بتحليل النكاح وتحريم السَّفَاح وَحَدُّ الزَّنى ، أو تهذيب النفس بالتَّخْلِيَةِ والتَّحْلِيَةِ ، والقيام بالتَّعَبُّد ومعرفة المعبود والاعتراف بالشرع ومن جاء به وهو مبسوط فيها على أكمل وجه وكذا سياسة العِبَاد بالنبوة والخلافة فأسقط المتأخرون هذا القسم من علوم القدماء استغناءً عنه واقتصروا على الأقسام الباقية أعني العلم الإلهي والرياضي والطبيعي والمنطقي .

أما العلم الإلهي فهو العلم الباحث على الموجود من حيثُ ثبوته وما يعرضُ له أو على المعلوم من حيثُ هو على الخلاف في موضوعه، وَمَنْفَعَتُهُ تبيينُ المعتقد الحق من الباطل وُسْمِي إلهياً لأن فيه أحكامَ

الربوبية وهذا العلم هو المقصود بالذات للانسان في كماله وفَوْزِهِ في الدارين وكلُّ ما سواه من العلوم تَبَعُ له فما كان منها دينيا فَوَسِيلَةٌ اليه وما كان دنيويا فَبِمَثَابَةِ الخديم له ولهذا تَوَفَّرَتْ رَغَبَاتُ العقلاء على طَلَبِهِ ثم اختلفت الطرق اليه فَمِنْ العقلاء مَنْ رَامَ إدْرَاكَهُ بالنظر وهم الحكماء ومنهم مَنْ رَامَ إدْرَاكَهُ بالرياضة بالجوع والعزلة والخلوة كالنِسَّاك وهم الصُّوفِيَّة في مِلَّتِنَا وَمِنْهُمْ مَنْ رَامَهُ بالنظر وليس من أهله فأخطأ الحقَّ وضلَّ وأضلَّ كَالثَنَوِيَّةِ وَالْمُعْطَلَةِ وسائر المُتَكَبِّرِينَ للشرائع، ومنهم من عَجَزَ ورَامَ التعلُّقَ بالمولى تعالى على ما هو شَأْنُ الْعُبُودِيَّةِ أَوْ غَفَلَ فَأَمَدَّهُمُ اللهُ تعالى فضلاً منه وَمِنَّةً يبعث الرسل مع التأييد بالعقل الصائب ...

وأما العلم الرياضي فهو العلم الباحث عَمَّا تجرد عن المادَّة في الذهن فقط كما مرَّ ، وأنواعه أربعة : علم الهندسة ، وعلم الهيئة ، وعلم العدد ، وعلم الموسيقى وذلك أن نظره في الكمِّ وهو اما متَّصل بأن يُفَرِّضَ بين أجزائه حدَّ مشترك تتلاقى عنده وكلاهما أما قارُّ الذات بأن يكون مُجْتَمِعَ الأجزاء في الوجود أولا ، فالأول علم الهندسة وموضوعه الكمُّ المتصل القارُّ الذات وهو المقدار فهو علم يعرف به أحوال المقادير ولواحقها وأوضاعها وأشكالها ، ومنفعته اكتسابُ الحُدَّةِ وارتياضُ الفكر مع ما يستتبع ذلك من المصالح في الأبنية والمنازل وغير ذلك ويتفرع عنه عشرة علوم ، والثاني علم الهيئة وهو العلم الباحث عن

الأجرام البسيطة فلكية أو عنصرية من حيث الكم والكيف والحركة والسكون وموضوعه الأجرام المذكور من تلك الحيثية فمَرَجِعُ مبحثه الزمان وهو الكم المتصل غير القار الذات ، وهو محتاج الى علم الهندسة لأن مقدمات برأيه منه والعلوم المتفرعة عليه خمسة ... والثالث علم العدد وهو العلم الباحث عن العدد من حيث انقسامه الى الزوج والفرد والى الصحيح والكسر وغير ذلك وما يعتريه من الأحوال كالضرب والجمع والقسمة ونحو ذلك وموضوعه العدد من تلك الحيثية وهو الكم المنفصل ومنفعته ارتياضُ الذهن وَضَبْطُ الأموال والمعاملات ويتنوع الى ستة أنواع ... والرابع علم الموسيقى وهو العلم الباحث عن الثَّغَم وما يعتريها من الإيقاعات وانتظام اللُّحُون المختلفة وإيجاد الآلات الصالحة لذلك ...

وأما العلم الطبيعي فهو العلم الباحث عن الجسم الطبيعي أي المادّي وهو المحسوس من حيث هو مُعَرَّضٌ للتغيّر والانفعال والثبات في أحواله وموضوعه الجسم من تلك الحيثية وفائدته معرفة أحوال الأجسام البسيطة والمركبة من الأفلاك والعناصر والمولّدات والاطلاع على موادها وصورها وعِلَلها وغاياتها وأعراضها اللازمة والمفارقة وسائر خواصّها وأسرارها الغريبة ويتفرع منه عشرة علوم ...

وأما المنطق فهو العلم الباحث عن المعلومات التصورية والتصديقية

من حيث التَأْدِي بها الى مجهول تصوّري أو تصديقي ، وموضوعه المعلومات من تلك الحيشية، ومنفعته تقويم الفكر عن الزيغ وحراسته عن الخطأ في المِدارك ونَاهِيك بها فهو المعيار على العلوم كلّها ولذا قيل مَنْ لَا مَعْرِفَةَ لَهُ بِهِ لَا يُوثَقَ بِعِلْمِهِ ... وهذا آخر العلوم الفلسفية وقد تَوَاطَأَ على بعضها المِلَّةُ والفلسفة كالعلم الإلهي والطبّ والعِبَارَةُ! والتَوْثِيقُ فِيهِ موجوده في لسان الشرع ، وأُدْخِلَ مِنْهَا فِي المِلَّةِ مَا عَمَّتْ منفعته ، وعَظُمَتْ فائدته ، مع هذه المذكورة ، كالمنطق والحساب وما يحتاج اليه من علم الهيئة ومن علم الهندسة كالتكسير ، وكثير منها متروك إلا في الخصوص لعدم الحاجة اليه أو لقصور الهمم عنه ، وجملةٌ منها دنيوية بَقِيَتْ في أيدي العَامَّةِ من الفلاحين والبَنّائين وروّسَاء البحر وأهل السحر وخطاط الرمل ونحو هؤلاء ، ولا بأس بجميعها فنحن لَا نَلْتَفِتُ الى مَنْ يُحَرِّمُ عِلْمَ شَيْءٍ مِنْهَا فَإِنَّ الْعِلْمَ فِي نَفْسِهِ هُوَ غِذَاءُ الْعَقْلِ وَزُيْفَةُ الرُّوحِ وَصِفَةُ الْكَمَالِ ، وَإِنَّمَا تَخْتَلِفُ ثَمَرَاتُهُ فِي الشَّرَفِ بِحَسَبِ الْمَوْضُوعِ وَالْغَايَةِ ، وَتَخْتَلِفُ الْأَحْكَامُ بِحَسَبِ النِّيَّةِ حَتَّى أَنَّ عِلْمَ السِّخْرِ الَّذِي يَحْرُمُ اسْتِعْمَالُهُ بِاجْمَاعٍ لَوْ تَعَلَّمَهُ أَحَدٌ لِيُؤْذِيَ بِهِ مَعْصُومَ الدَّمِّ، كَانَ تَعَلَّمَهُ حَرَامًا كَعَمَلِهِ وَلَوْ تَعَلَّمَهُ لِمَجْرَدِ أَنْ يَعْرِفَهُ فَيُمَيِّزَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْمَعْجِزَةِ مَعَ مَا تَقَدَّمَ مِنَ الْقَوَائِدِ كَانَ تَعَلَّمُهُ جَائِزًا أَوْ وَاجِبًا،

كما مر ، وعلم الأدب الذي هو جائز باجماع لو تعلمه أحد لقصد أن ينبغ في الشعر فيهجو من لا يجوز هجوه أو يمدح من لا يجوز مدحه كان تعلمه حراما في حقه ، وإنما الأعمال بالنيات ، والمردود منها إنما هو جمل من العلم الإلهي أو من علم الطب وعلم الهيئة ونحوها .

القلم في اللغة

لأكنسوت

وهو القلم والمزبر بالزاي والمذبر بالذال المعجمة سمي بذلك لأنه يزبر به ويذبر أي يكتب وقد فرق بعض اللغويين بين زبرت وذبرت ، فقال زبرت بالزاي كتبت وذبرت بالذال قرأت وسمي قلاما لأنه قلم أي قطع وسوي كما يقلم الظفر وكل عود يقطع ويحز رأسه ويعلم بعلامة فهو قلم ولذلك قيل للسهم أقلام ، قال الله تعالى : إذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم وكانت سهاماً مكتوباً عليها أسماؤهم . ويقال للذي يقلم به مقلم ولما يرى به مبرى ومبراة وقد برئته أبريه برىا وحصرمته حصرمة عن ابن الاعرابي . وقيل لما يسقط عن التقليم القلامة وعن البري البراية وجع القلم أقلام وقلام كجبل ورجبال . وقيل لاعرابي ما القلم فجعل يفكر ويقلب أصابعه

وينظر فيها فقال لا أدري فقل له توهمه في نفسك فقال عودٌ قلمٌ
رأسه وجوانبه كتقليم الظفر .

ويقال لعقده الكعوب واحدها كعب فان كانت فيه عقدة تشينه
وتفسده فهي الأبنة ويقال لما بين العقد الأنايب واحدها أنبوب
والمقام واحدها مقلم . والأنايب والكعوب تستعمل ايضاً في الرماح
وفي كل عودٍ فيه عقد وكذلك الأبن . فان كان في القصبه او العود
تأكل قيل فيه قاذح وفيه نقد وكذلك في السن . قال جميل :

رمى الله في عيني بُشينةً بالقذى وفي الغر من أنياها بالقوادح
وقال الهذلي :

تيس تيس اذا يُناطحها يالم قرنا أرومه نقيدُ

ويقال لباطنه الشحمة وظاهره اللبط فان قشرت منه قشرة قلت
لطت من القلم ليطه أي قشرتها واللبط ايضاً اللون قال ابو ذؤيب :

اذا اصفر ليط الشمس حان انقلابها^١ .

ويقال للقصب اليراع وقال قوم الإباء اطراف القصب والواحدة
يراعة وإبابة قال مئمم بن نويرة يذكر فرساً :

١ - الشطر في الاصل غير مستقيم ولم يظهر لنا معناه وهذا عن التاج .

ضَافِي السَّيِّبِ كَأَنُّ غُصْنِ إِبَاءَةٍ رَيَّاتٍ يَنْقُضُهُ إِذَا مَا يُقَرَّعُ

ويقال للقطن الذي يُوجد في جُوف القَصَبَةِ البَيْلَمِ والقِنْصِفِ
والفَشَغِ واحدها بَيْلَمَةٌ وَفَنْصِفَةٌ وَفَشَغَةٌ فَإِن كَانَ فِيهِ عَوَجٌ فَذَلِكَ
الدَّرَّةُ وكذلك العُودُ ، قال الشَّاهُ :

أَقَامَ الثَّقَافُ وَالطَّرِيدَةُ دَرَّةً هَا كَمَا أَخْرَجَتْ ضَغْنُ الشُّمُوسِ الْمَهَامِزَ

وَالطَّرِيدَةُ خَشَبَةٌ صَغِيرَةٌ فِيهَا حَدِيدَةٌ تُسَوَّى بِهَا الرِّمَاحُ وَنَحْوُهَا :
ويقال لَغِشَائِهِ الَّذِي عَلَيْهِ الْغِلَافُ وَاللَّحَاءُ وَالْقَشْرُ فَإِذَا نَزَعْتَهُ قَلْتَ قَشْرَتَهُ
وَقَشَوْتَهُ وَقَشَيْتَهُ وَلَتَمْتَهُ وَكَشَأْتَهُ وَلَحَوْتَهُ وَلَفَأْتَهُ وَلَحَيْتَهُ وَسَخَفْتَهُ وَسَخَيْتَهُ
وَسَحَوْتَهُ وَخَلَقْتَهُ وَجَلَهْتَهُ وَوَسَفْتَهُ وَنَقَحْتَهُ ، وَيُقَالُ لَطَرَفَيْهِ اللَّذَيْنِ
يُكْتَبُ بِهِمَا السُّنَّانُ وَاحِدُهُمَا سِنَّ وَالشَّعِيرَتَانِ وَاحِدَتُهُمَا شَعِيرَةٌ فَإِذَا
قَطَعْتَ طَرَفَيْهِ وَهَيَّأْتَهُ لِلْكِتَابَةِ قَلْتَ قَطَطْتَهُ أَقَطْتَهُ قَطًّا وَقَضِمْتَهُ اقْضَمَهُ
قَضْمًا وَالْمَقَطُّ بِالْكَسْرِ يُقَطُّ عَلَيْهِ وَالْمَقَطُّ بِالْفَتْحِ الْمَوْضِعُ الَّذِي يُقَطُّ
مِنْ رَأْسِهِ ، قَالَ أَبُو النِّجَمِ :

كَأَنَّمَا قُطَّ عَلَى مَقَطِّ .

وَقَالَ الْمُقَنَّنُ الْكِندِيُّ يَصِفُ الْقَلَمَ :

يَحْفَى فَيُقَطَّمُ مِنْ شَعِيرَةٍ انْفِهِ كَقَلَامَةِ الْأُظْفُورِ فِي تَقْلَامِهِ

فاذا انكسرت سِنَّهُ قِيلَ قَضِمَ يَقْضِمُ قَضَمًا كَحَذَرَ بِحَذَرٍ حَذَرًا
 وكذلك كل تكسُر في سنٍّ أو سيفٍ أو رُمحٍ أو سكِّينٍ فان أخذتَ
 من شَحْمَتِهِ بالسكين قلتَ شَحْمَتُهُ أَشَحَمَهُ شَحْمًا فاذا افرطتَ في الأخذ
 منها قلتَ بَطَّنتُ القلمَ تَبْطِينًا وحفرته حَفَرًا وقلمٌ مُبْطِنٌ ومحفورٌ واسم
 موضعِ الشَّحْمَةِ الحَفْرَةُ فاذا تركتَ شَحْمَتَهُ ولم تأخذ منها شيئاً قلتَ :
 أَشَحَمْتُهُ إِشْحَامًا ويقال للشَّحْمَةِ التي تحتَ بَرْنِيقِ القلمِ الضَّرَّةُ تُشَبَّهتُ بِضَرَّةِ
 الإبهام وهي اللُّحْمَةُ التي في أصلها كذا . قال ابنُ قُتَيْبَةَ في آلَةِ الْكِتَابِ
 وهو المعروف ولكنَّهُ خالفَ في أدبِ الْكِتَابِ فقال الأَلِيَّةُ اللُّحْمَةُ التي
 في أصلِ الإبهام والضَّرَّةُ اللُّحْمَةُ التي تُقَابِلُهَا . فان جعلتَ سِنِّي القلمِ
 الواحدةً اطولَ من الأخرى قلتَ قلمٌ مُحَرَّفٌ وقد حَرَفْتُهُ تحريفًا وان
 جعلتَ سِنِّيهِ مُسْتَوْرِيَّتَيْنِ قلتَ قلمٌ مبسوطٌ وقلمٌ جَزَمٌ فان سَمِعَ له
 صوتٌ عند الكتابة فذلك الصَّرِيفُ والصَّرِيرُ والرَّشْقُ ويقال قلمٌ مُذَنَّبٌ
 بفتح النون أي طويل الذنب فاذا كَثُرَ المِدادُ في رأسِ القلمِ حتى
 يقطر المِدادُ قيل رُغِفَ القلمُ يُرَغَفُ رُغَافًا شَبَّهَ بِرُغَافِ الْإِنْفِ
 ومَجٌّ يَمْجُجُجًا وأَرغَفَه الكاتبُ إرغافًا وأَمَجَّهُ إجماجًا ويقال للكاتبِ
 اسْتَمْدَدَ وَلَا تُرَغِفُ وَلَا تُمَجِّجُ أي لَا تُكْثِرْ من المِدادِ حتى يقطر
 ويقال لِلْخِرْقَةِ التي يَمْسَحُ بها الكاتبُ، الوَقِيعَةُ بِالْقَافِ وَعَنْ أَبِي عَمْرٍو
 الشَّيْبَانِي أنها الوَقِيعَةُ بِالْفَاءِ .

التَّبْوِغُ الْمَغْرِبِي

فِي الْأَدَبِ الْعَرَبِيِّ

تأليف

عَبْدُ اللَّهِ كَنْوَن

الجزء الثالث

النبوغ المغربي

في ميزان القيمة

بقلم الأستاذ الكبير حنا فاخوري

الكتاب الذي كان له الأثر الضخم في العالم العربي ، والذي كان فتحاً من الفتوح ، هو كتاب « النبوغ المغربي في الأدب العربي » للعلامة المحقق والبحاث المدقق عبدالله كنون الحسني . كانت دراسات الأدب العربي في ازدهار ورفق ، وكان النقد ينتقل من طور التقليد الى طور التحرري العلمي الصحيح ، وحفلت المكتبة العربية بالكتب تلدها المطابع في خصب عجيب . وفي زحمة هذه الثروة الأدبية لبث المغرب العربي مطوي الصفحات ، مجهول الآثار وكأنه بعيد كل البعد عن الحركة الفكرية والفنية ، وكأنه لا وجود له في التيار العربي الزاخر . فكان لا بد من عبقرية جبارة تتسلح بسلاح الجرأة والإقدام ، وتتصدى للتيار في علم وسلطان ، فتشر ما طوي فيه من صفحات ، وتتم ما اعتوره من نقص في سلسلة الحلقات ، وتوضح العمل الذي قام به النبوغ المغربي في ميدان الأدب ، والمشاركة التي له في رفع بناء الحضارة العربية . وكانت العبقرية التي هيأها الله تعالى لهذا العمل الفريد متجسمة في ابن المغرب البار وعلاّمته الفذ عبدالله كنون . وله وحده يعود الفضل في إحياء الآثار المغربية التي لا تقل قيمة عن سواها في سائر الأقطار العربية ، وله وحده يعود الفضل في توجيه الدراسة الأدبية توجيهاً يتناول الكلّ دون الجزء ، والبناء الكامل دون الأقسام المقسمة .

والذي يروقه في كتابة عبدالله كنون تلك الرصانة العلمية التي تتحرى

الحقيقة في غير نزق ، والتي تتبّع أوثق المصادر في غير تحيز ، وتواجه الصعوبات في صبر وهدوء ، وتطلب المستحيل في ثقة العلم الصحيح ، واندفاع الهمة التي لا تنثني . إنه لا يدلي بالرأي إلا بعد الدرس الطويل ، والمقارنات والتعليقات العميقة ، ولا يقدم الحكم إلا بعد الجولات الواسعة في عوالم التاريخ والفلسفة والاجتماع والسياسة ، وبعد التنقيب الواسع في زحمة العوامل والبواعث أياً كان نوعها . ومن ثم تراه يفرض أحكامه فرضاً في غير تبجح ولا تطفل ، لا بل ترى آراءه ذات فعالية وسلطان تواجه العقل في قوّة جذابة وتستولي عليه بما فيها من بلاغة إقناع ونصاعة حقيقة .

ومما لا شكّ فيه ان كتاب « النبوغ المغربي » كنز ثمين من كنوز العلم ، ومصدر من أوثق مصادره ، وموسوعة مغربية لا يقدرها حقّ قدرها إلا من لمس النقص في كتب الأدب وعرف هذا الجهل أو التجاهل الذي صدف بالكتاب عن آثار هذا العالم الغني بعقرباته ، العريق في رقيه وحضاراته ، الجليل الأثر في توجيه الفكر العربيّ منذ أقدم عصوره .

حنا الفاخوري

المتنجات الأدبية

قسم المنظوم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قسم المنظوم

أَتَيْنَا فِي قِسْمِ الْمَنْثُورِ وَهُوَ الْجُزْءُ الثَّانِي مِنْ هَذَا الْكِتَابِ ،
بِالْآثَارِ وَالْمُنْتَخَبَاتِ النَّثْرِيَّةِ الَّتِي رَأَيْنَا أَنَّهَا تُعْطِي نَظْرَةً صَادِقَةً عَنْ
إِنْتِاجِ أَدْبَائِنَا فِي مَيْدَانِ الْكِتَابَةِ الْفَنِّيةِ وَالْعِلْمِيَّةِ وَمَا يَتَّصِلُ بِهَا
مِنْ صُرُوبِ الْقَوْلِ وَأَنْوَاعِ الْخِطَابِ .

وَبَوَّيْنَا تِلْكَ الْآثَارَ وَالْمُنْتَخَبَاتِ بِحَسَبِ الْأَغْرَاضِ الْكَلَامِيَّةِ
الَّتِي تَدْخُلُ فِي مَفْهُومِ الْأَدَبِ عَلَى الْأَصْطِلَاحِ الْقَدِيمِ ؛ وَهُوَ الَّذِي
نُورِّخُهُ فِي هَذَا الْكِتَابِ ، عَلَى أَنَّهَا قَدْ تَنَاوَلْنَا بَعْضَ
الْمَوْضُوعَاتِ الَّتِي لَمْ تَكُنْ تُعَدُّ فِي هَذَا الْأَصْطِلَاحِ مِنْ مَشْمُولِ
الْأَدَبِ ، وَلَا يَزَالُ الْحَرْفِيُّونَ يُبْعِدُونَهَا عَنْ حَظِيرَتِهِ جُمُودًا عَلَى
الْمَسَاطِرِ ، وَذَلِكَ كِمَوْضُوعِ الدِّعَاءِ الَّذِي أَدْرَجْنَاهُ فِي بَابِ التَّحْمِيدِ

والصلاة ، بل إن هذا الباب كله من ذلك القليل ، وكموضوع
البحوث العلمية والفنية الذي عملنا منه باباً مستقلاً هو باب
المقالات ، ونحن على يقين أن القارئ المتفتح الذهن سيجد في
ذلك متاعاً فكرياً وروحياً وحلقة لازمة لضبط الاتصال بين
جوانب الحياة العقلية والوجدانية على اختلاف مناحيها .

ونأتي الآن في قسم المنظوم الذي هو الجزء الثالث من
الكتاب بالآثار والمنتخبات الشعرية كما وعدنا ، مُقسمةً الى
الابواب المعروفة من الحماسة والغزل والوصف والمدح وغير
ذلك ، إلا باب الهجاء فإننا غوَّضناه بباب الملح ، وأدرجنا فيه
نماذج من الهجاء التي أكثر ما تُراد لشكلها لا لمضمونها .

وقد ختمنا بباب خصَّصناه للموشحات والأزجال جمعاً
للنظائر وعناية بهذا النوع من الادب المنظوم ، إذ كان يُمثِّلُ
حركة التجديد في الادب العربي عامةً على النطاقين الخاصي
والعامي ، فلم نرَ بُدأً من ترجيع صدى هذه الحركة في هذا
الرَّكن النَّائي من بلاد العروبة ، وفاءً بغاية البحث الذي قدَّمناه
في الموضوع في عصرِ المؤحدين . وبالله التوفيق .

الحكاست والفخر

لِلْمَوَلَى إِدْرِيسِ الْأَزْهَرِ يُخَاطَبُ بُهْلُولَ بْنَ عَبْدِ الْوَاحِدِ وَقَدْ
مَالَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ ابْنِ الْأَغْلَبِ ، عَامِلِ الرَّشِيدِ عَلَى إِفْرِيقِيَّةٍ :

أُبْهَلُولُ قَدْ شَمَّتْ^(١) نَفْسَكَ خُطَّةً تَبَدَّلَتْ مِنْهَا عَوْلَةٌ^(٢) بِرَشَادٍ
أَضَلَّكَ إِبْرَاهِيمُ عَنْ بُعْدِ دَارِهِ فَأُصْبَحْتَ مُنْقَاداً بِغَيْرِ قِيَادٍ
كَأَنَّكَ لَمْ تَسْمَعْ بِمَكْرِ ابْنِ الْأَغْلَبِ غَدَا آخِذاً بِالسَّيْفِ كُلَّ بِلَادٍ
وَمِنْ دُونِ مَا مَنَّتْكَ نَفْسُكَ خَالِياً وَمَنَّكَ إِبْرَاهِيمُ شَوْكُ قَتَادٍ

وَلَوْلَا دِهِ الْقَاسِمُ لَمَّا خَرَجَ عَيْسَى بْنُ إِدْرِيسٍ عَلَى أَخِيهِ مُحَمَّدٍ ،
وَكُتِبَ لَهُ مُحَمَّدٌ بِأَمْرِهِ بِحَرْبِ عَيْسَى فَامْتَنَعَ وَقَالَ مُعْتَذِراً عَنْ
ذَلِكَ :

١ - أي اطمعت نفسك بخطة لم تدركها الاشتا .

٢ - أي جوراً وميلاً عن الحق .

سَأَتْرُكُ لِلرَّائِبِ الْغَرْبَ نَهْياً
وَأَسْمُو إِلَى الشَّرْقِ فِي هِمَّةٍ
وَأَتْرُكُ عَيْسَى عَلَى رَأْيِهِ
وَلَوْ كَانَ قَلْبِي عَلَى قَلْبِهِ
وَإِنْ أَحْدَثَ الدَّهْرُ مِنْ رَيْبِهِ
فَإِنِّي أَرَى الْبُعْدَ سِتْراً لَنَا
وَلَمْ نَجْنِ قِطْعاً لِأَرْحَامِنَا
وَتَبَقِيَ الْعَدَاوَةُ فِي عَقِبِنَا
وَأَوْفَقُ مِنْ ذَاكَ جَوْبُ الْفَلَاةِ
وَإِنْ كُنْتُ فِي الْغَرْبِ قَبِلاً^(١) وَنَدْباً
يَعِزُّ بِهَا رُتْباً مَنْ أَحْبَبَا
يُعَالِجُ فِي الْغَرْبِ هَمّاً وَكَرْباً
لَكُنْتُ لَهُ فِي الْقَرَابَةِ قَلْباً
شِقَاقاً عَلَيْنَا وَأَحْدَثَ حَرْباً
يُجَدِّدُ شَوْقاً لَدَيْنَا وَحُبّاً
نُلَاقِي بِهِ آخِرَ الدَّهْرِ عَثْباً
وَأَكْرِمُ بِهِ حِينَ نُعْقِبُ عَقْباً
وَقَطْعُ الْمَخَارِمِ نُقْباً فَنُقْبَا^(٢)

ولإبراهيم المؤبِّل يشكو الزمان ويفتخر :

لِلْبَيْنِ فِي تَغْذِيبِ نَفْسِي مَذْهَبُ
أَمَّا دُيُونُ الْحَادِثَاتِ فَإِنَّهَا
وَالْبَيْنُ مُغَرِّى كَيْدُهُ بِذَوِي النُّهَى
وَلِنَائِبَاتِ الدَّهْرِ عِنْدِي مَطْلَبُ
تَأْتِي لَوْفَتٍ صَادِقٍ لَا تَكْذِبُ
طَبْعاً تُطْبَعُ وَالطَّبِيعَةُ أَغْلَبُ

١ - أي رئيساً .

٢ - المخارم رؤوس الجبال والنقب الطريق في الجبل .

أَيَقَنْتُ أَنِّي لِلرَّزَايَا مَطْعَمٌ وَدَمِي لِوَافِدَةِ الْمَكَارِهِ مَشْرَبٌ
فَأَنَا مِنَ الْآفَاتِ عَرَضٌ سَالِمٌ وَجَوَانِحُ تُكْوَى وَعَقْلٌ يَذْهَبُ

وللشريف الادريسي الجغرافي :

إِنَّ عَيْبًا عَلَى الْمَشَارِقِ أَنْ أُرْ جَعَّ عَنْهَا إِلَى ذُيُولِ الْمَغَارِبِ
وَعَجِيبٌ يَضِيعُ فِيهَا غَرِيبٌ بَعْدَ مَا جَاءَ فِكْرُهُ بِالْغَرَائِبِ
وَيُقَاسِي الظُّلُمَا خِلَالَ أَنْاسٍ قَسَمُوا بَيْنَهُمْ هَدَايَا السَّحَائِبِ

ولعبد المؤمن بن عليّ يستنفرُ العرب من بني هلال لِلْغَزْوِ

بجزيرة الاندلس :

أَقِيمُوا إِلَى الْعِلْيَاءِ هُوجَ الرَّوَاحِلِ^(١) وَقُودُوا إِلَى الْهَيْجَاءِ جُرْدَ^(٢) الصَّوَاهِلِ
وَقُومُوا لِنَصْرِ الدِّينِ قَوْمَةً ثَائِرَ وَشُدُّوا عَلَى الْأَعْدَاءِ شِدَّةَ صَائِلِ
فَمَا الْعِزُّ إِلَّا ظَهْرُ أَجْرَدَ سَابِجٍ يَفُوتُ الصَّبَا فِي شِدَّةِ^(٣) الْمُتَوَاصِلِ
وَأَبْيَضُ مَأْثُورٍ^(٤) كَانَ فِرْنَدَهَ عَلَى الْمَاءِ مَنَسُوجٌ وَلَيْسَ بِسَائِلِ

١ - أي الإبل السريعة .

٢ - الصواهل الخيل وجردها سوابقها .

٣ - أي جريه .

٤ - يعني سيفاً مشهوراً .

بَنِي الْعَمِّ مِنْ عَلِيَا هَلَالِ بْنِ عَامِرٍ وَمَا جَمَعَتْ مِنْ بَاسِلٍ وَابْنِ بَاسِلٍ
تَعَالَوْا فَقَدْ شُدَّتْ إِلَى الْغَزْوِ نِيَّةُ عَوَاقِبُهَا مَنْصُورَةٌ بِالْأَوَائِلِ
هِيَ الْغَزْوَةُ الْغَرَاءُ وَالْمَوْعِدُ الَّذِي تَنْجَزُ مِنْ بَعْدِ الْمَدَى الْمُتَطَوِّلِ
بِهَا تُفْتَحُ الدُّنْيَا بِهَا تُبْلَغُ الْمُنَى بِهَا يُنْصَفُ التَّحْقِيقُ مِنْ كُلِّ بَاطِلٍ
أَهْبْنَا بِكُمْ لِلْخَيْرِ وَاللَّهُ حُسْبُنَا وَحَسْبُكُمْ وَاللَّهُ أَعْدَلُ عَادِلٍ
فَمَا هَمُّنَا إِلَّا صَلَاحُ جَمِيعِكُمْ وَتَسْوِيفُكُمْ نُغْمَى تَرْفُ ظِلَالُهَا
وَتَسْوِيفُكُمْ نُغْمَى تَرْفُ ظِلَالُهَا عَلَيْكُمْ بِخَيْرٍ عَاجِلٍ غَيْرِ آجِلٍ
فَلَا تَتَوَانَوْا فَالْبِدَارُ غَنِيمَةٌ وَلِلْمُدْلِجِ ^(١) السَّارِي صَفَاءُ الْمَنَاهِلِ

وَلِخَفِيدِهِ الْمَنْصُورِ هَذِهِ الْآيَاتُ كَتَبَ بِهَا إِلَى قَبَائِلِ سُلَيْمٍ مِنَ الْعَرَبِ
النَّارِ لَيْنٍ بِإِفْرِيقِيَّةٍ :

يَا أَيُّهَا الرَّاكِبُ الْمَرْجِي مَطِئَتِهِ عَلَى عَذَافِرَةٍ ^(٢) تَشْقَى بِهَا الْأَكْمُ
بَلِّغْ سُلَيْمًا عَلَى بُعْدِ الدِّيَارِ بِهَا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ الرَّحْمَنُ وَالرَّحِمُ
يَا قَوْمَنَا لَا تَشُبُّوا الْحَرْبَ إِنْ خَدَعَتْ وَأَسْتَمْسِكُوا بِعُرَى الْإِيمَانِ وَاعْتَصِمُوا

١ - الذي يبكر ويسري من آخر الليل .

٢ - جمع عذافر وهو الشديد من الابل .

كم جرّب الحربَ مَنْ قد كان قبلكم
 حاشا الأعرابَ أن ترضى بمنقصة
 يقودهم أرمني لا بخلاق له^(١)
 الله يعلم أني ما دعوتكم
 ولا لجأت لأمرٍ يستعان به
 لكن لأجزي رسول الله عن نسب
 فان أتيتم فجبل الوصل متصل
 من القرون فبادت دونها الأمم
 يا ليت شعري هل تراهم علموا
 كأنه بينهم من جهلهم علم
 دعاء ذي قوّة يوماً فينتقم
 من الأمور وهذا الخلق قد علموا
 ينمى إليه وترعى بلكم الذمم
 وان أيتتم فعند السيف نختكم

وللسيد عبد الله الموحّد صاحب فاس :

أَلَسْتُ ابْنَ مَنْ تَخْشَى اللَّيَالِي انتقامهم
 يَنْخُطُّونَ بِالْخَطِّ^(٢) فِي حَوْمَةِ الْوَعْيِ
 كِتَابًا بِأَطْرَافِ الْعَوَالِي وَنَقْصِهِ^(٤)
 وَتَرْجُو نَدَاهُمْ غَادِيَاتُ السَّحَابِ
 سُطُورَ الْمَنَائِي فِي نُحُورِ الْمُقَابِ^(٣)
 دَمُ الْقَلْبِ مَشْكُولًا بِنَضْحِ التَّرَائِبِ

١ - يعني بالارمني قرقوش مملوك بني ايوب الذي كان ذهب الى بلاد المغرب الادنى واوقد نار الحرب من طرابلس الى تونس مع ابن غانية، وارجع الى فصل توحيد المغرب العربي من الجزء الاول .

٢ - اي الرمح ، نُسب الى الخط وهو محل تقوّم فيه الرماح .

٣ - جمع مقنب وهي الجماعة من الخيل تجتمع للغارة .

٤ - النقس المداد .

وما كنتُ أدري قبلهم ان مَعْشَرًا أقاموا كتاباً من نفوسِ الكتائب

ولا بي العباس الجراوي في غزوة الأرك الشهيرة :

هو الفتحُ أعياء وصفه النظم والنثرا وعَمَّتْ جميعَ المسلمين به البُشرى
 وأنجَدَ في الدنيا وغار حديثه فراقته به حُسناً وطابت به نَشْرا
 تميَّزَ بالأحجال والغُرر التي أَلَّ سناها يَبْهَرُ الشَّمْسَ والبِدرَا
 لقد أورد الإذْفُونشُ شيعته الردى وساقهمُ جهلاً إلى البطشة الكبرى
 حكى فعل إبليس بأصحابه الألى تبرأ منهم حين أوردهم بدرا
 أطارته شدَّاتٌ تولى أَمَامَها شريداً وأنسته التعاضم والكُفرا
 رأى الموت للأبطال حَوْلَيْه ينتقي فطار إلى أَقْصَى مِصْرَعه دُعرا
 وقد اورده الموتَ طعنةً ثائر وان لم يُفارق من شقاوته العُمرا
 ولم يَبْقَ مَنْ أَفْنَى الزمانُ حِمَاتَه وجرَّعه مِنْ فَقْدِ أَنْصارِهِ صَبْرا
 ودارت رَحَى الهِنْجاءِ عليهم فَأَصْبَحُوا هَشِيمًا طَحِينًا فِي مَهَبِ الصَّبَا مُذْرى
 يطير بأشلاء لهم كُلُّ قَشْعَمَ فما شئتَ من نَشْرِ غدا بطنه قَفْرا
 فكيف رأى الْمُغْتَرَّ عَقْبِي اغْتِرارِهِ وكيف رأى الغدَّارَ فِي غِيَةِ الغَدرا
 وكان يرى أَقْطَارَ أندلس له متى يَرْمِ لم يُخْطِئْ بِأَسْهُمِهِ قَطْرا
 فسلاه يومُ الأربِعاء عن المُنَى فما يَرْتَجِي ما تَمْلِكُهُ شَبْرا

إذا عزلته الرُّومُ كانت نجاته وقد أحرقت جمرُ المنايا به عُذرا
فَتَغَسَّأَ له ما دام حيا ولا مُنَى وكسراً له ما دام حيا ولا جَبْراً
وله في غزوة طليطلة :

قد أَصْلَيْتُ نارَها العُدَّة وأنجِزَت فيهم العِدَات
وعَمَّهم بالدمار يومٌ تقصُرُ عن وصفه الرواة
مُشَهَّر لا تزال تُتلى آيَاتُه وهي يِّنَات
فَتَحُّ مَفَاتِيحُه المواضي والعزَمَات المُوَيْدَات
رَدَّتْ حِمَى الفُونش مُسْتَباحا يِيضُ من الهند مُرهفات
ذَلُّوا لِأَمْرِ الإله قَسْراً وَهُمْ أُولُوا نَجْدَةَ أَتَاة
وغرقت جمعهم بِحَارٌ أمواجها الحَيْلُ والكُماة
رَأَوْا لِحِزْبِ الإله صَبْراً والموتُ حُفَّتْ به الجِهاة
فحاولوا منهم انْفِلَاتاً وليس لِلخائن انْفِلَات
فلا تَسَلْ عن بَنَاتِ ماءٍ إن صرَّصَتْ حَوْلَهُمْ بُزَاةُ
ولا بِنَ حَبُوسِ الفاسي :

رِدِ الطَّرْقَ ^(١) حَتَّى تُوافي النَّمِيرَا فَرُبَّ عَسِيرٍ أَتَاكَ الِيسِيرَا

وَأَرْسَلُ قُلُوصَكَ طَوْرًا شَمَالًا
وُسْنً عَلَى غَازِيَاتِ الْبِلَادِ
وَفِرْمَاءٍ وَنَجْهٍ حَتَّى تَجِمَ
وِطْرُ حَيْثُ أَنْتَ قَوِيُّ الْجَنَاحِ
وَلَا تَقَعَنَّ وَأَنْتَ السَّلِيمُ
فَأُمُّ التَّرْحَلِ تَدْعِي وَلَوْ دَا
وَذُو الْعَجْزِ يَرْضَعُ ثَدْيًا حَدُورًا^(١)
يَعِزُّ عَلَى الثُّبُلِ أَنِي غَدَوْتُ
وَأَنِي ثَبْتُ لِكَفِّ الزَّمَانِ
وَمَا ذَاكَ أَنِي هَيَّابَةٌ
وَلَكِنْ بِحُكْمِ زَمَانٍ غَدَا

وَطَوْرًا جَنْبَوًّا وَطَوْرًا دُبُورًا
مِنَ النَّقْعِ وَالرَّمْلِ جَيْشًا مُغِيرًا
وَأَطْفِ السَّمُومَ بِهِ وَالْهَجِيرَ
ح لَا عَذْرَ عِنْدَكَ إِنْ لَا تَطِيرَا
حَيْثُ تُضَاهِي الْمَيْهَظَ الْكَسِيرَا
وَأُمُّ الْإِقَامَةِ تُدْعَى نَزُورَا
وَذُو الْعِزْمِ يَرْضَعُ ثَدْيًا دَرُورَا
أُكْنَى أَدِيَا وَأُسْمَى فَقِيرَا
يُعَرِّقُ عَظْمِي عَرَقًا مُبِيرَا
أَخَافُ الرِّحِيلَ وَأُسْنَا الْمَسِيرَا
يَحِطُّ الْجِيَادُ وَيُسَمَّى الْحَمِيرَا

وللقاضي ابي حفص بن عمر :

نَهَانِي حِلْمِي فَلَا أَظْلِمُ
وَعَزَّ مَكَانِي فَلَا أُظْلَمُ
وَلَا بَدَّ مِنْ حَاسِدِ قَلْبِهِ
بُنُورِ مَا ثَرَا مُظْلِمُ

رَحِمْتُ حُسُودِي عَلَى أَنَّهُ يُقَاسِي الْعَذَابَ وَمَا يَرَحِمُ
هَجَانَا أَفْتِرَاءً وَلَسْنَا كَمَا يَقُولُ وَلَكِنْ كَمَا يَعْلَمُ
وَالْأَمِيرُ أَبِي مَالِكٍ عَبْدُ الْوَاحِدِ الْمُرِينِي :

فَرَّقْتُ فِي الْمِيدَانِ كُلِّ مَلِكٍ وَجَمَعْتُ بَيْنَ جَرَاءَةٍ وَنُسُوكٍ
وَجَعَلْتُ لِلْإِسْلَامِ حَدًّا مَالِكًا كِي لَا يُعَيِّرَهُ الْعِدَا بِسُلُوكٍ
وَالسُّلْطَانُ أَبِي الْحَسَنِ الْمُرِينِي :

أَرْضِي اللَّهُ فِي سِرٍّ وَجَهْرٍ وَأُحْيِي الْعِرْضَ عَنْ دَنَسِ أَرْتِيَابٍ
وَأُعْطِي الْوَفَرَ مِنْ مَالِي اخْتِيَارًا وَأَضْرِبُ بِالسُّيُوفِ طَلَى الرَّقَابِ

وَالْمَلِكُ ابْنُ الْمُرَّحَلِ يَسْتَنْفِرُ الْمُجَاهِدِينَ لِقِتَالِ الْعَدُوِّ بِالْأَنْدَلُسِ :

إِسْتَنْصِرِ الدِّينُ بِكُمْ فَاسْتَقْدِمُوا فَإِنَّكُمْ إِنِ تَسْلِمُوهُ يُسَلِّمَ
لَا تَسْلِمُوا الْإِسْلَامَ يَا إِخْوَانَنَا وَأَسْرِجُوا لِنَصْرِهِ وَأَلْجُمُوا
لَاذَتْ بِكُمْ أَنْدَلُسُ نَاشِدَةً بِرَحِمِ الدِّينِ وَنِعْمَ الرَّحِمُ
فَاسْتَرْحَمْتُكُمْ فَارْحَمُوها إِنَّهُ لَا يَرْحَمُ الرَّحْمَنُ مَنْ لَا يَرْحَمُ
مَا هِيَ إِلَّا قِطْعَةٌ مِنْ أَرْضِكُمْ وَأَهْلُهَا مِنْكُمْ وَأَنْتُمْ مِنْهُمْ
لَكِنَّهَا حَدَثَتْ بِكُلِّ كَافِرٍ فَالْبَحْرُ^(١) مِنْ حُدُودِهَا وَالْعَجَمُ

١ - يقال للبحر كافر من الكفر بمعنى الستر لانه يستر ما فيه .

لَهْفًا عَلَى أُنْدُلُسٍ مِنْ جَنَّةِ
 اسْتَخْلَصَ الْكُفَّارُ مِنْهَا مُدْنًا
 قُرْطُبَةُ هِيَ الَّتِي تَبْكِي لَهَا
 وَحُمْصُ وَهِيَ أُخْتُ بَغْدَادَ وَمَا
 اسْتَخْلَصُوهَا مَوْضِعًا فَمَوْضِعًا
 وَقَتَلُوا وَمَثَلُوا وَأَسْرُوا
 أَيَّامَ كَانَ الْخَوْفُ مِنْ أَعْوَانِهِمْ
 حَتَّى إِذَا لَمْ يَبْقَ مِنْ حَيَاتِهَا
 دَعَا^(١) الْعُهْدَ وَأَعْتَدُوا وَمَادَرُوا
 ظَنُّوا وَكَانَ الظَّنُّ مِنْهُمْ كَاذِبًا
 مَا صَدَّقُوا إِنْ وَرَاءَ الْبَحْرِ مَنْ
 وَلَا دَرَوْا أَنَّ لَدَيْكُمْ حُرْمَةً
 لَوْ عَرَفُوا قِبَالَ الْعُدَّةِ مَا
 الْيَوْمَ يَذْرِي كُلُّ شَيْطَانٍ بِهَا
 تَقَدَّمَتْ نَحْوَهُمْ طَلِيعَةُ

دَارَتْ بِهَا مِنَ الْعِدَا جَهَنَّمُ
 لِكُلِّ ذِي دِينٍ عَلَيْهَا نَدَمٌ
 مَكَّةُ حُزْنًا وَالصَّفَا وَزَمَزَمُ
 أَيَّامُهَا إِلَّا الصَّبَا وَالْحَلَمُ
 وَاقْتَدَرُوا وَاحْتَكَمُوا وَانْتَقَمُوا
 وَاحْتَمَلُوا وَأَيَّمُوا وَأَيَّمُوا
 وَالْجُوعُ وَالْفِتْنَةُ وَهِيَ أَعْظَمُ
 إِلَّا ذِمَّةٌ تَدْعِيهِ الذِّمُّ
 بِأَنَّهَا بِحَبْلِكُمْ تَعْتَصِمُ
 أَنْ لَيْسَ لِلَّهِ جُنُودٌ تُقَدِّمُ
 يَغْضَبُ لِلْإِسْلَامِ حِينَ يُظْلَمُ
 يَحْفَظُهَا شَبَابُكُمْ وَالْهَرَمُ
 عَدَوْا عَلَى جِيرَانِهِمْ وَاجْتَرَمُوا
 أَنْ قَدْ رَمَتْهُمُ الشُّعَاعُ الْأَنْجُمُ
 مِنْ نَحْوِكُمْ أَحْظَاهُمْ التَّقَدُّمُ

فانتصفوا للدين من أعدائه
وامتلات أيديهم من السبا
يا أهل هذي الارض ما أحرركم
تسابق الناس إلى مواطن
تعزز الكفار في ديارهم
فمن سيوف في رؤوس تنحني
وقامت الحرب على ساق فما
باعوا من الله الكريم أنفساً
دعاهم الله إلى رحمته
يضرب بالسيف فيرضي ربه
ميتهم قد قر في رحمة
أخرجه من بينه إيمانه
ما هم إلا قتال أمة
تشارك بالله وتدعو معه
وتدعي أن له صاحبة

واقترعوا عليهم واقتسموا^(١)
وأحسبتهم نعم ونعم
عنهم وانتم في الامور أحزم
الأجر فيها وافر والمغنم
وعزموا أن يهزموا فهزموا
ومن رماح في ذرى تحطم
زلت لأهل الصدق منهم قدم
كريمة ففاض منها الحكم
وحبهم بين يديه يُخدم
وفي رضى الرب النعيم الأذوم
اجتمعوا ببابه وازدحموا
وحبه في فعل ما يُقدم
يكبر عيسى قولهم ومريم
خلقاً يصح جسمه ويسقم
وابناً ولا صاحبة ولا ابنة

لَمْ يَثْنِهِ عَنْ عَزْمِهِ أَهْلٌ وَلَا
كَيْفَ وَعَدْنُ تَحْتَ ظِلِّ سَيْفِهِ
وَاللَّهُ رَاضٍ عَنْهُ وَالْخَلْقُ لَهُ
إِخْوَانَنَا مَاذَا الْقَعُودُ بَعْدَهُمْ
هَلْ هِيَ إِلَّا جَنَّةٌ مَضْمُونَةٌ
حُدُّوا السَّلَاحَ وَانْفِرُوا وَسَارِعُوا
إِنْ أَمَامَ الْبَحْرِ مِنْ إِخْوَانِكُمْ
وَنَحْوَكُمْ عِيُونُهُمْ نَاطِرَةٌ
وَالرُّومُ قَدْ هَمَّتْ بِهِمْ وَمَالُهُمْ
كُلُّهُمْ يَنْظُرُ فِي أَطْفَالِهِ
أَيْنَ الْمَقَرُّ لَا مَقَرًّا إِنَّمَا
يَا رَبِّ وَقَفْنَا وَأَلْهِمْنَا لِمَا
يَا رَبِّ أَصْلِحْ حَالَنَا وَبَالَنَا
يَا رَبِّ وَانصُرْنَا عَلَى أَعْدَاتِنَا
يَا رَبَّنَا مَا دَاوْنَا شَيْئًا سِوَى

مَالٍ وَلَا خَوْفٍ نَعِيمٍ يُعَدَّمُ
وَالْحُورُ عَنْ يَمِينِهِ تُسَلِّمُ
يَدْعُونَ مَهْمَا كَبُرُوا وَأَحْرَمُوا
أَفِي ضَمَانِ اللَّهِ مَا يُتِّهِمُ ؟
أَوْ عَوْدَةٌ صَاحِبُهَا مُكْرَمُ
إِلَى الَّذِي مِنْ رَبِّكُمْ وَعِدْتُمْ
خَلْقًا لَهُمْ تَلَفْتُ إِلَيْكُمْ
لَا تَطْعُمُ النَّوْمَ وَكَيْفَ تَطْعُمُ
سِوَاكُمْ رِدَّةٌ فَأَيْنَ الْهِمُّ
وَدَمْعُهُ مِنَ الْحِذَارِ يَسْجُمُ
هُوَ الْغِيَاثُ أَوْ إِسَارُ أَوْ دَمُ
فِيهِ لَنَا الْخَيْرُ فَأَنْتَ الْمُلِيمُ
أَنْتَ بِمَا فِيهِ الصَّلَاحُ اعْلَمْ
يَا رَبِّ وَانْعَصِمْنَا فَأَنْتَ تَعْصِمُ
ذُنُوبَنَا فَارْحَمْ فَأَنْتَ تَرْحَمُ

ولعبد العزيز المَلْزُوزِي هذه المَلْحَمَةُ البارعة في ذكر غزوات
يعقوب المنصور المَرِينِي بالاندلس وغزوات بنيهِ وقبائل بني مَرِين
والعرب .

وَأَبْدَأُ فِي النُّظَامِ بِهِ الْكِتَابَا	بِحَمْدِ اللَّهِ أَفْتَتَحُ الْخِطَابَا
وَيَفْتَحُ بِالسُّرُورِ عَلِيَّ بَابَا	لَعَلَّ اللَّهَ يُبَلِّغُنِي الْأَمَانِي
وَيَرْزُقُنِي مِنَ الْقَوْلِ الصَّوَابَا	وَيُرْشِدُنِي إِلَى نَقْلِ صَحِيحِ
وَصُورَهُمْ وَقَدْ كَانُوا تُرَابَا	هُوَ الْمَلِكُ الَّذِي خَلَقَ الْبَرَايَا
عَلِيمٌ قَادِرٌ بِالْجُودِ حَابِي	إِلَاهٌ وَاحِدٌ حَيٌّ مُرِيدٌ
وَأَنْ يُعْزِيَ لَهُ الْوَصْفُ اكْتِسَابَا	تَقْدَسَ عَنْ صِفَاتِ الْخَلْقِ طَرَا
طَبَاقُ السَّبْعِ إِنْ دُعِيَ اسْتِجَابَا	يُحِيطُ بِعِلْمٍ مَا تَحْوِي عَلَيْهِ
يُحِيطُ بِعَدِّ حَصْبَاهَا حِسَابَا	وَيَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ السَّبْعَ عِلْمَا
وَوَاعَدْنَا عَلَى الْحُسْنَى الْمُثَابَا	وَلَمْ لَا وَهُوَ أَنْشَأَنَا امْتِنَانَا
وَأَلْبَسَهَا بِزِينَتِهَا ثِيَابَا	وَأَنْشَأَ فِي السَّمَاءِ لَنَا بُرُوجَا
وَسَخَّرَ بِالرِّيَّاحِ لَنَا سَحَابَا	وَأَجْرَى الشَّمْسَ ثُمَّ الْبَدْرَ فِيهَا
هَمُولٌ بِالْحَيَاةِ هَمَى وَصَابَا	لِتَسْقِيَ بَلَدَهُ مَيْتًا بَغِيثِ
مُدَقَّقَةٌ وَأَوْدِيَّةٌ عِذَابَا	وَأَجْرَى فِي بَسِيطَتِهَا عُيُونَا
شَفِيعاً مُصْطَفَى يَتْلُو كِتَابَا	وَارْسَلَ فِي الْوَرَى مِنْهُمْ رَسُولَا

مُحَمَّدًا النَّبِيَّ الْمُجْتَبَى مِنْ سُلَالَةِ هَاشِمٍ فَلأَصْلُ طَابَا
 وَقَدْ أُسْرَى بِهِ مَوْلَاهُ لَيْلًا وَجَبْرِيلُ لَهُ اخَذَ الرِّكَابَا
 دَنَا مِنْ حَضْرَةِ الْعَلِيَّا تَدَلَّى وَحَازَ الْقُرْبَ مِنْهُ فَكَانَ قَابَا
 عَلَيْهِ صَلَاةُ رَبِّ الْعَرْشِ تَتَرَى مَدَى الْإِيَّامِ تُورِثُنَا الثَّوَابَا
 وَمَا سَحَّتْ يَمَاءُ الْمَزْنِ سُحْبُ فَحَلَّى الزَّهْرُ بِالزَّهْرِ الْهِيَابَا
 هُوَ الْمَبْعُوثُ بَشَرْنَا بِبُشْرَى مِنْ الْمَوْلَى وَانْذَرْنَا الْعِقَابَا
 وَحَرَضْنَا عَلَى قَتْلِ الْإِعَادِي نُضِيقُ بِهِمْ تِلَالًا أَوْ شِعَابَا
 وَنَبْذُلُ فِي جِهَادِ الْكُفْرِ نَفْسًا وَمَالًا قَدْ جَمَعْنَاهُ اكْتِسَابَا
 فَصَدَّقَهُ أَبُو بَكْرٍ عَتِيقُ وَثَانِيهِ أَبُو حَفْصٍ اجَابَا
 وَثَالِثُهُمْ أَبُو عَمْرٍو وَوَفَّى أَبُو حَسَنٍ طِعَانًا أَوْ ضِرَابَا
 هُمْ الْخُلَفَاءُ أَرْبَعَةٌ تَوَاصَوْا عَلَى الْإِسْلَامِ صَوْنًا وَاحْتِجَابَا
 وَبَاقِي الْعَشْرَةِ الْمَرْضِي عَنْهُمْ سَمَوْا وَعَلَا ابْنُ عَوْفِيهِمُ الشَّهَابَا
 سَعِيدُ وَابْنُ جِرَّاحٍ وَسَعْدُ زُبَيْرُ طَلْحَةُ كَرُمُوا صِحَابَا
 هُمْ قَدْ بَايَعُوا الْمُخْتَارَ حَقًّا عَلَى أَنْ لَا يُضَامَ وَلَا يُصَابَا
 وَأَنْ تَفْنَى نَفُوسُهُمْ احْتِمَاءً لِدِينِ اللَّهِ بُعْدًا وَأَقْتِرَابَا
 وَهُمْ قَدْ جَاهَدُوا فِي اللَّهِ حَقًّا وَسَلُّوا فِي عُدَاتِهِمُ الذُّبَابَا

عليهم رحمةُ الرّحمان تَمَلَّأَ
فقد بانُوا وبَانَ مِنْ أَقْتَفَاهُمْ
وعاد الدِّينُ بعدهم حَقِيرًا
وصار بَغْرُنَا الْأَقْصَى غَرِيبًا
وَلَمْ يُعْلَمْ جِهَادُ الْأَعَادِي
إِلَى أَنْ فَتَحَ الرَّحْمَانُ فِيهِ
لِمَوْلَانَا أَمِيرِ الْعَدْلِ مُلْكًا
وَلَمْ نَرَ قَبْلَهُ فِي الْعَصْرِ مَلِكًا
فَهَنَاهُ إِلَّا لَهُ السَّعْدُ فِيهِ
دَعَا لِلَّهِ دَعْوَةً مُطْمَئِنِّ
فَلَبَّى اللَّهَ دَعْوَتَهُ وَسَنَّى
فَجَازَ الْبَحْرَ مُجْتَهِدًا مِرَارًا
فَأَلْبَسَ مُلْكَهُمْ ذِلًّا وَصَارَتْ
أَبْعَدَ جَوَازِ أَرْضِ الْبِرْتِ^(١) فَخْرُ

بُنُورٍ مِنْ قُبُورِهِمُ الرُّحَابَا
خَفَا نَوْزُ بَدَا مِنْهُمْ وَغَابَا
وَمُنْسَحِقًا وَمُمْتَنِّهَا مُصَابَا
فَيَا لِلدِّينِ يَغْتَرِبُ أَغْتَرَابَا
بِهَازِي الْأَرْضِ يُحْتَسَبُ احْتِسَابَا
لِيَعْقُوبَ بْنِ عَبْدِ الْحَقِّ بَابَا
بِهَاسَلَتِ يَدُ الْكُفْرِ أَنْسِلَابَا
أَرَانَا فِي الْعِدَا الْعَجَبُ الْعُجَابَا
وَنِيَّةَ صِدْقِهِ بَرَا أَثَابَا
لِمَوْلَاهُ دُعَاءُ مُسْتَجَابَا
لَهُ الْحُسْنَى وَجَنَّبَهُ الصَّعَابَا
يَقُودُ إِلَى الْعِدَا الْخَيْلُ الْعِرَابَا
بِهِ الْأَمْلَاقُ تَرْتَبُ ارْتِهَابَا
تَزِيدُ بِهِ مَنَالًا وَاعْتِجَابَا

١ أي جبال البريني وكان المنصور قد أوغل في أرض العدو حتى وصل إلى تلك الناحية .

هو القطب الذي دارت عليه
بنوه نُجُومُه والبدرُ فيهم
أبو يعقوب مولانا المرَّجى
هو الملك الذي أعطى وأقنى
وأبناء الإمارة ترتجيمهم
أوفي حقهم فردا وفردا
وأذكرُ غزو هذا العام حتى
وأشهرُ من فخار مَرِيْن بُردَا
وأروي مدحهم في الدهر شعرا
لِيَبْقَى ذِكْرُهُمْ فِي الْأَرْضِ يُتَى
فَعِزُّهُمْ مَكِينٌ فِي الْمَعَالِي
سَأُودِعُ غَزْوَهُمْ فِي الرُّومِ نَصًّا
وأذكرُ من وقائعهم أُمُورًا
فهل من سَامِعٍ خَبِرًا لُبَابًا
فِيصْنَعِي سَمْعَهُ نَحْوِي امْتِنَانًا
نجومُ السَّعْدِ لَا تَخْشَى اضْطِرَابًا
وَلِيَّ الْعَهْدِ مَنْ بِالْفَضْلِ حَائِي
لِيَدْفَعِ الْخُطْبَ أَنْ أُرْسَى وَنَابَا
وَصَيَّرَ طَعْمَ عَيْشٍ مُسْتَطَابَا
وَأَحْفَازُ الْعُلَا أَعْتَصَبُوا اعْتِصَابَا
كَمَا جَعَلُوا الْجِهَادَ لَهُمْ نِصَابَا
أذكرُ كُلَّ شَخْصٍ مَا أَصَابَا
كَمَا احْتَزَبُوا لِدِينِهِمْ احْتِزَابَا
أدُونُهُ وَأُودِعُهُ الْكِتَابَا
يَرَاهُ الرَّكْبُ زَادًا وَاحْتِقَابَا
وَعِزُّ سَوَاهِمُ أَضْحَى سَرَابَا
نِظَامًا لَا أَخَافُ بِهِ اضْطِرَابَا
يَصِيرُ بَيْنَ طَعْمِ الشَّرْكِ صَابَا
يُرْدُّ عَلَيَّ بِالصَّدْقِ الْجَوَابَا
يَقُولُ إِذَا أَصَبْتُ: لَقَدْ أَصَابَا

وذلك ان مولانا أناخت عزائمهُ بطنجة الرُّكَّابا
فجازَ البحرَ في صَفَرٍ خَمِيساً بخامسِ شهرِه رَكِبَ الغُرابا^(١)
وحلَّ طَريفاً^(٢) المولى يَجْمَعُ كَسَا شَمَّ المَعَاقِلِ والهَضَابا
وفي غَدِ يَوْمِه ضُرِبَتْ لَدَيْهِ هَنَالِك قُبَّةٌ تُنْسِي القِبابا
زَهَتْ حَسْناً وجَمَلها سَنَاها لها اخْتَارُوا من الحَبَرِ^(٣) الثَّيَابا
ولم يُرَ مثَلُها في الحُسْنِ لكن قَدِ انْخَبَتْ بِسَبْتَةِ انْتِخابا
فحلَّ بها كَأَنَّ الشَّمْسَ لَاحَتْ بَطْلَعَتِه اَزْدَهَاءَ واعتجَابا
فيا لَكَ قُبَّةٌ يَحْكِي سَنَاها سنا الفَلَكِ المَحِيطِ بِهَا انْتِسابا
وخَلَفَ عَامِراً وَأَتَى قَرِيباً من اَرْكُش^(٤) ثُمَّ رَامَ بِهِ اجْتِلَابا
ورَامَ نِكَايَةَ الأَعْدَاءِ فِيهِ فَأَوْسَعَهُ احْتِرَاقاً وانْتِهابا
ومِنه أَتَى شَرِيشاً^(٥) في جُمُوعٍ ووَافَتِهِ مَحَلَّتُهُ^(٦) إِيَابا

١ - الغراب نوع من السفن .

٢ - جزيرة طريف التي في اول المجاز .

٣ - جمع حبرة بالكسر وهي بُرْدِيَّان .

٤ - بلدة من عمل شريش تقع على نهر وادي لكه .

٥ - مدينة شهيرة من مدن الاندلس يقال لها بالاسبانية Jerez

٦ - المحلة في الاصطلاح الغربي الجيش والمسكر .

فَأَوْسَعَتِ الزُّرُوعَ بِهَا احْتِصَادَا
أَذَاقَتْ مِنْ شُلُوقِهِ^(١) كُلَّ رَبْعٍ
مَدِينَتَهَا وَقَلَعَتَهَا بُحَيْرٌ
وَجَهَزَ لِلْعِدَا مَنْصُورَ جَيْشٍ
عَلَى أَشْبِيلِيَّةٍ أَجْرَى خِيُولَا
سَبَى مِنْهُمْ وَغَادَرَ أَلْفَ عِلْجٍ
وَأَبَ مُظَفَّرًا وَأَبُو عَلِيٍّ
وَجَهَزَ جَيْشَهُ عُمَرُ وَوَأَفَى
وَلَمْ يَتْرُكْ بِهَا أَحَدًا سِوَى مَنْ
أَتَى بَغَنَائِمٍ مَلَأَتْ عَدِيدًا
وَجَيْشُ أَبِي مُعَرِّفٍ الْمُعَلَّى
أَتَى بَغْنِيمَةٍ فِيهَا سَبَايَا
بِذَلِكَ الْيَوْمِ سَارَ أَبُو عَلِيٍّ
وَعَزُوزَةٌ مَشْقَرِيطٍ^(٢) لَيْسَ تَخْفَى

وَأَوْسَعَتِ الْغُرُوسُ بِهَا احْتِطَابَا
وَرَوْضٍ مِنْ قَنَاطِرِهَا عَذَابَا
أَشَاعُوا فِي نَوَاحِيهَا الْخَرَابَا
لِيَتْرُكْ دَارَهُمْ قَفْرًا يَبَابَا
فَأَوْسَعَ مَنْ بَسَاحَتِهَا انْتِهَابَا
تُطَارِدُ عَنْهُمْ الطَّيْرُ الذَّنَابَا
أَخُوهُ أَتَى وَقَدْ حَمِدُوا الْإِيَابَا
ذُرَى قَرْمُونَةٍ^(٣) يَحْكِي الْعُقَابَا
بِهَا يَنْكَبُ فِي الْأَرْضِ انْكِبَابَا
بَسِيطَ الْأَرْضِ بَلْ غَطَّتْ شِعَابَا
عَلَى أَشْبِيلِيَّةٍ حَطَّ الْقَبَابَا
وَأَوْصَلَ مِنْ مَرَاكِبِهِمْ لُبَابَا
إِلَى بُرْجٍ فَصَيَّرَهُ خَرَابَا
فَضَائِلُهَا لَقَدْ حَسَنَتْ مَثَابَا

١ - مدينة تقع في مقاطعة قادس ويقال لها بالاسبانية (Sanlucar) .

٢ - بلدة حصينة تقع شرق اشبيلية .

٣ - حصن بناحية قادس يسمى بالاسبانية (Majaceite) .

ولا أنسى البروزَ على شريشٍ
 فذاك اليومُ أعظمُ يومِ حربٍ
 ويومُ وُصولِ مولانا المرجى
 هناكُ بروزُ أهلِ الدينِ رَدَّتْ
 ولا أنسى القناطِرَ حينَ دارَتْ
 وأهلُ شريشٍ لما ان تراءى
 هنالكُ خصَصَ المولى بجيشٍ
 بأربعةٍ من الآلافِ خيلاً
 وأجرى الخيلَ من كلِ النواحي
 فلم يتركْ بتلكِ الأرضِ خلقاً
 فتلكَ غنيمةٌ ما إن سمعنا
 وبعدُ أتى أبو زيانَ وأفى
 بهذا اليومِ جهزه بألفٍ
 وجاء بزرعها وانحازَ عنها
 فأهلُ البرجِ قد ذاقوا العذابا
 رأيناه إذا ذكروا الضرابا
 أبي يعقوبَ أشرفَ واستطابا
 محاسنُه على الدهرِ الشَّبابا
 بها الإسلامُ^١ توسعها انتهابا
 وليَّ العهدِ قد فرقوا ارتعابا
 أبا يعقوبَ مولانا وحابي
 مُسوِّمةً مظفَّرةً عرابا
 على أشبيليةٍ شرفاً وغابا^٢
 أسارى أو سبايا أو سلابا
 بهذا العالمِ أكثرها انجلابا
 شريشاً بالبروزِ وما استرابا
 إلى قرْمُونَةٍ وافى الصوابا
 إلى أشبيليةٍ ولها استنابا

١ - هو على حذف مضاف أي أهل الإسلام .

٢ - الشرف المكان العالي والغاب جمع غاب ويريد بها جبل اشبيلية وغابتها .

وَقَتْلَ أَهْلِهَا وَسَبَى وَوَلَّى حَمِيدًا فِي سُورٍ مَنَ اسْتَطَابَا
 وَمَوْلَانَا أَبُو يَعْقُوبَ وَافَى شُلُوقَةً ثُمَّ حَرَّقَهَا ضِرَابَا
 إِلَى كَبْتُورَ^١ أَعْمَلَ حَدَّ عَزَمِ لَوْ أَنَّ الْهِنْدَ مُسَّ بِهِ لَذَابَا
 أَحَاطَ بِرَبْعِهَا بَرًّا وَبَحْرًا فَدَمَّرَهَا وَصَيَّرَهَا يَبَابَا
 وَخَلَّفَ أَرْضَهَا غَبْرًا وَاضَحَتْ حَمَامَةٌ حُسْنٍ مَغْنَاهَا غُرَابَا

وَلَمَّا دَوَّخَ الْمَوْلَى النَّصَارَى وَالْبَسْمُ مِنْ الذُّلِّ الثَّيَابَا
 وَلَمْ يَتْرُكْ بَارِضِهِمْ طَعَامًا وَلَا عَيْشًا هَنِيئًا مُسْتَطَابَا
 وَأَعْوَزَهُ بِهَا عَلْفٌ وَطَالَتْ بِهَا حَرَكَاتُهُ قَصْدَ الْإِيَابَا
 وَقَدْ ظَهَرَتْ لِأَسْطُولِ الْأَعَادِي عَلَامَاتُ تَزِيدَ بِهِ أَرْتِيَابَا
 فَلَمَّا حَلَّ رُبْعَ طَرِيفٍ وَالَى إِلَى أَجْفَانِهِ^١ الْغُرَّ الْكِتَابَا
 فَيَاْمُرُ أَنْ تُجَهَّزَ لِلْعَادِي أَسَاطِلُهُ فَأَسْرَعَتْ الْجَوَابَا
 فَجَهَّزَهَا وَوَافَتْ بِاحْتِفَالِ وَبَأْسٍ مِنْهُ رَأْسُ الْكُفْرِ شَابَا

١ - قرية من قرى مدينة اشبيلية تقع على الوادي الكبير ويقال لها ايضاً قبتور بالقاف .

٢ - جمع جفن بمعنى السفينة .

هَذَا لِكَ شَنْجَةُ^١ وَافَى شَرِيشاً
فَوَجَّهَ مِنْهُ أَرْسَالَ النَّصَارَى
يُطَالِبُهُ بِعَقْدِ الصُّلْحِ يُعْطِي
وَلَمْ يَقْبَلْ لَهُمْ قَوْلاً وَآبَتْ
وَلَمْ يَرُدُّهُمْ الْمَوْلَى سِوَى مَنْ
فَغَرَّبَ جَيْشُهُ الْمَنْصُورُ بِحُجْرًا
فَلَمَّا بَرَزَ الْأَسْطُولُ فَرَّتْ
وَمَا أَلَوَتْ عَلَى مُتَعَذِّرِيهَا
فَجَازَ إِلَى الْجَزِيرَةِ فِي سُورٍ
فَوَافَقَتْهُ بِهَا الْأَرْسَالُ تَبْغِي
فَأَسْعَفَتْهُمْ بِهِ جَازَاهُ رِنِي
وَيَجْعَلُ فِيهِ لِلْإِسْلَامِ طُرّاً
وَذَلِكَ مِنْ أُمُورٍ قَدْ حَكَاهَا
فَبَادَرَ شَنْجَةُ فِي الصُّلْحِ حَتَّى

بَلَّيْلَ ثُمَّ عَايَنَ مَا أَرَابَا
إِلَى الْمَوْلَى لِيُسْعِفَهُ الطُّلَابَا
لَهُ مَاذَا أَرَادَ وَمَا أَسْتَجَابَا
لَهُ الْأَرْسَالُ حَايِرَةً خِيَابَا
حَدِيثِ الْبَحْرِ لَا يَرْتَبُو أَرْتِيَابَا
إِلَى أَفْرُوطَةَ^٢ الْكُفْرِ أَنْسِيَابَا
جِيُوشُ الْكُفْرِ فِي الْبَحْرِ أَنْسِرَابَا
وَلَوْ سُئِلَتْ لَمَّا رَدَّتْ جَوَابَا
يُجَدِّدُ غَزْوَةً تُبْدِي الْعُجَابَا
بِعَظْفَتِهِ مِنَ الصُّلْحِ اقْتِرَابَا
عَلَى آرَائِهِ الْحُسْنَى الصَّوَابَا
مَصَالِحَهَا الَّتِي تَرِدُ الطُّلَابَا
لَنَا الْمَوْلَى وَأَحْصَاهَا حِسَابَا
تَقَرَّبَ مِنْ مَدِينَتِهِ اقْتِرَابَا

١ - يريد شانتو ابن الفونش العاشر ملك قشتالة .

٢ - الأفروطة الأسطول .

وجاء لِغِيْلِهِ الْأَعْلَى وَأَعْطَى هَدِيَّاتٍ لِمَوْلَانَا رَغَابَا
فَكَانَ هُنَاكَ بَيْنَهُمَا أَمُورٌ يُنَسِّيَنِ السُّرُورُ بِهَا الْخَطَابَا
وَأَسْرَعَ شَنْجَهُ لِلْعَقْدِ حِرْصَا وَأَظْهَرَ فِيهِ لِلْمَوْلَى أَرْتَغَابَا
فَتَمَّ الصُّلْحُ بَيْنَهُمَا لِعُذْرِ مُبِينٍ وَاضِحٍ وَالسُّرِّ غَابَا
فَهَذِي جُمْلَةٌ وَالشَّرْحُ عِنْدِي سَأُودِعُهُ بِإِضَاحٍ كِتَابَا

* * *

هَنِيئًا يَا مَرِيْنُ لَقَدْ عَلَوْتُمْ بَنِي الْأَمْلَاكِ بَأْسًا وَأَنْتِجَابَا
وَفَاخَرْتُمْ بِمَوْلَانَا الْبَرَايَا فَأَعْطَوْكُمْ قِيَادًا وَأَنْغَلَابَا
أَبْعَدَ الْفُنْشِ وَأَبْنِ الْفُنْشِ يَبْغِي رِضَاكُمْ لَا يَخَافُ بِهِ الْعِتَابَا
فَحِزْبُ مَرِيْنٍ حِزْبُ اللَّهِ يَحْمِي حِمِّي الْإِسْلَامَ لَا يَخْشَى عِقَابَا
إِذَا سَلُّوا السُّيُوفَ تَرَى الْأَعَادِي وَقَدْ حَلُّوا الرُّبَى مَدَّتْ رِقَابَا
هُمْ أَشْفَارُ عَيْنِ الْمَلِكِ تَذْهَبُ عَنْ الْمُلْكِ الْقَتَامَ أَوْ الثَّرَابَا
وَهُمْ مِثْلُ الْأَنَامِلِ حَيْثُ مَدَّتْ يَدُ الْأَمْرِ نَالِي تَعْطِي الرِّغَابَا

* * *

مَرِيْنُ لَقَدْ مَدَحْتَكُمْ فَوْقَا لِمَادِحِكُمْ يَبْغِيْتُهُ الثَّوَابَا

وقد ورثت دولتكم وصارت حلى يحدو بها الحادي الركا
وكل منظم شعراً سيفتي ويبقى فيكم مدحي كتابا

ولايي العباس أحمد بن علي الملباني المراكشي الكاتب صاحب
علامة السلطان أبي يعقوب المريني :

العز ما ضربت عليه قبائي والفضل ما أشملت عليه ثيابي
والزهر ما أهداه غصن يراعي والمسك ما أبداه نفس كتابي
فالمجد يمنع أن يزاحم موردي والعزم يأبى أن يضام جنابي
فاذا بلوت صنيعة جازيتها وبجميل شكري أوجزيل ثوابي
واذا عقدت مودة أجريتها ومجرى طعامي من دمي وشرابي
واذا طلبت من الفراقد والسها ثاراً فأوشك أن أنال طلاي

وللرئيس عبد المهيمن الحضرمي :

أبت همتي أن يراني امرؤ على السهر يوماً له ذا خضوع
وما ذاك إلا لأنني اتقنت بعز القناعة ذل الخشوع

ولايي زيد المكودي :

نحن بنو مكود أهل التقى والجود

نَكَرُ فِي الْأَعَادِي كَكِرَّةِ الْأُسُودِ

ولداود بن عبد المنعم الدغوي يَصِفُ مَعْرَكَةَ وَادِي الْمَخَازِنِ ،
 جَنَبِيَّ النَّصْرَمَائِينَ الظُّبَا وَالْكَنَّانِ^١ عَلَى سَابِقَاتِ الْمَذَكِيَّاتِ الصَّوَّافِينَ^٢
 فَبَيْنَ الْمَعَالِي وَالْمَآثِرِ^٣ فِي الْوَعْيِ يَجُولُ الَّذِي يَبْتَغِي اقْتِحَامَ الْمَدَائِنِ
 هِيَ السُّورُ مَنْ يَحْتَزُهُ حُلٌّ بِسَاحِهَا وَمَنْ لَمْ يَخْضِ بَحْرَ الْحُرُوبِ فَلَا يُرَى
 لِحَوْزَتِهِ دُونَ الْعِدَا خَيْرَ صَائِنٍ وَمَنْ لَمْ يَخْضُهَا بِالثَّبَاتِ فَرَأْيُهُ
 فَعِلٌّ لَهُ مِنْهَا أَمْتِلَاكُ الْمَخَازِنِ وَمَاذَا يُفِيدُ الْجَيْشُ إِنْ كَانَ رَبُّهُ
 لِحَوْزَتِهِ دُونَ الْعِدَا خَيْرَ صَائِنٍ وَمَنْ لَمْ يَخْضُهَا بِالثَّبَاتِ فَرَأْيُهُ
 يَفِيلُ^٤ وَيُمْسِي حَظَّهُ جِدًّا خَائِنٌ وَمَاذَا يُفِيدُ الْجَيْشُ إِنْ كَانَ رَبُّهُ
 كَسِيدِ بَسْطِيَّانٍ^٥ عِنْدَ وَادِي الْمَخَازِنِ يَقُودُ لَهَا مَا يَحْجُبُ الشَّمْسَ نَقْعُهُ
 مَيَاسِرُهُ لَا تَلْتَقِي بِمَيْسَانٍ أَتَى سَادِرًا يَخْتَالُ فِي غُلَوَانِهِ
 وَفِي صَدْرِهِ لِلدِّبْنِ غَلِيٌّ الصُّغَائِنِ يُسْرَبُ نَحْوَ الْمَغْرَبِيِّنَ جُنُودَهُ
 كَمِثْلِ الدَّبَابِ عَنْ مَآخِرَاتِ السَّفَائِنِ

١ - الظبا السيوف والكنائن جمع كنانة وهي الجعبة التي تجعل فيها السهام.

٢ - جمع صافن وهو الفرس الذي يقوم على ثلاث قوائم من نشاطه .

٣ - جمع مأثور وهو السيف .

٤ - يخطيء .

٥ - Sebastian هو ملك البرتغال الذي قاد حملة وادي المخازن فكانت الكرة

عليه وراجع الفصل الاول من عصر السعديين الجزء الاول

٦ - صفار الجراد .

وما قصده إلا انتهاك حريمه
وقود أسارى المسلمين لأرضه
ولهو بأبكار الخدور بناتنا
فذا مكره والله يكر مكره
فخيم في تلك الجهات وعينه
ولكنه مع حفه بمدافع
تحلف ربط الجاش عنه فردة
تجمع جند الله من كل وجهة
من الملك المقدام فالعلماء فا
وتلوهم الأجناد والناس كلهم
فشبت لظى الهيجاء ليس وقودها
إذا أرعدت تلك المدافع أبرقت

ودك صياصيه وبعث الدفائن
يقدمهم للصلب مثل القرابين
فيصبحن من خدامه والسوادين^١
به، إذ حده نحو تلك الأماكن
لمراكش الحمراء لا لتطاون
وبيض وسمر وأمتلاء الكناتين
على خزيه صفراً ولو من فراسن^٢
وقد غص من مدينه كل دائن
لشيوخ أولي التقوى وأهل البواطن
تضل بهم أبصار كل معاين
سوى أنف الشجعان وسطاً لميادين
صقيلات بيض الهند فوق اليمائن^٣

١ - حصونه .

٢ - جمع سادنة وهي الخادمة .

٣ - جمع فرسن وهو خف الشاة والبمير .

٤ - أي السيوف الهندية الصقيلة .

٥ - جمع يمين مراداً بها اليد .

فَلَوْلَا الْبُرُوقُ الْحَاطِطَاتُ مِنَ الظُّبَا لَمَا أَبْصَرْتَ عَيْنُ خِلَالِ الْمَدَاخِنِ
 قَدْ أَنْقَضَتْ الْفُرْسَانُ مَنَا عَلَيْهِمْ م أَنْقِضَاضُ صُقُورِ الْجَوْفِ فَوْقَ الْوَرَاثِنِ^١
 وَصَابِرَ كُلِّ قِرْنِهِ فَمُجْنَدَلُ الثَّرَى وَجَرِيحُ سَاحِبٍ لِلْمَصَارِنِ
 وَهَامُهُمْ مِثْلُ الْكَرِينِ^٢ وَقَدْ غَدَتِ سَنَابِكُ خَيْلِ اللَّهِ مِثْلَ الْمَحَاجِنِ^٣
 وَسَيْبَسْطِيَانُ كَفَنَتْهُ مِيَاهُ هَزِيمًا ، وَمَاءُ النَّهْرِ أَفْطَعُ كَافِنِ
 فَحِينَ قَضَى الْبَتَّارُ فِي الْكُفْرِ مَا قَضَى وَأَسْلَاوُهُ نَتْنُ بَغَيْرِ مَدَافِنِ
 رَأَيْتَ أُلُوفًا مِنْ رُؤُوسٍ تَجَمَّعَتْ وَيَا لَيْتَهَا أَيْضًا جِدَارُ الْمَآذِنِ
 هُنَالِكَ نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ مُوزَّرُ^٤ عَلَى كُلِّ ذِي كَفَرٍ ، تَهْجُمُ ، ضَاغِنِ
 فَذَلِكَ يَوْمٌ مِثْلُ بَذَرٍ وَصْنُوهِ حُنَيْنٍ بِأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ أَلْمِيَامِنِ
 لَقَدْ ذَاقَ فِيهِ الْبُرْدُ قِيزُ مِنَ الرَّدَى جَزَاءَ مَنَاحِيسٍ خَزَايَا مَلَاعِنِ
 بَغَوْا فَجَنُّوا جَنِّي الْبَغَاةِ فَأَصْبَحُوا سِمَادَ أَلْفِيَا فِي لَا سِمَادَ أَلْفَادِنِ
 فَلِلْشُّكْلِ مَا كَانَ أَلْهَزِيمُ لَأَرْضِهِ
 وَلِلصَّقْرِ مَنْ ذَاقُوا أَلْرَدَى ، وَالشَّوَاهِنِ

١ - جمع ورشان وهو نوع من الحمام البري .

٢ - جمع كرة .

٣ - جمع محجن وهو العصا المنعطفية الرأس والمراد المضرب الذي ترمي به الكرة .

٤ - جمع شاهين وهو طائر من الجوارح

فَنَحْمَدُ رَبَّ الْعَرْشِ إِذْ كَانَ دِينُنَا لِأَهْلِ الْوَعْيِ وَالْبَأْسِ خَيْرَ الْمَعَادِنِ

ولأبي حامد الفاسي :

وَمُنْكَرِ فَضْلِي مَا سَاءَ نِي بَلْ سَرَّ نِي مَا نَفْسُهُ أَلْزَمَا
مَنْ أَنْكَرَ الشَّمْسَ بَصَحْوِ ضَحَى أَمْضَى عَلَى عَيْنَيْهِ حُكْمَ الْعَمَى

ولاي عليّ اليوسي يُفَاخِرُ أَهْلَ فَاسٍ وَكَانَتْ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُمْ
مُنَافَسَةٌ :

عَلَى رِسْلِكُمْ يَا أَهْلَ فَاسٍ فَإِنِّي فَتَى لَسْتُ بِالْفَدَمِ الْغَيِّ وَلَا الْغَمْرِ
أَنَا الصَّارِمُ الْمَاضِي وَيَارُبَّ نَافِثٍ يُخَلِّقُ^١ فِي الْبَحْثِ الْأَدِيمَ وَلَا يَفْرِي

وله ايضاً :

إِنِّي امْرُؤٌ لَا أَتْنِي غَبْنًا يَوْمَ الْمِصَاعِ بِصَفْقَةِ الْوَكْسِ^٢
وَإِذَا أُسْتَطَالَ الْبُورُ مِنْ فَرَقٍ^٣ لَا يَنْزَوِي خَلْدِي عَلَى رِجْسٍ
وَإِذَا أَلْزَمَانُ أَحَالَ نَائِبُهُ حَالِي عَفَفْتُ فَلَمْ يُحِلْ نَفْسِي

١ - من خلق الأديم اذا قدره قبل القطع وهو ينظر الى قول الشاعر :

ولأنت تفري ما خلقت وبعض القوم يخلق ثم لا يفري

٢ - المصاع بالكسر المجالدة .

٣ - البور الفاسد من كل شيء .

وَإِذَا اسْتَطَابَ الْهُونَ مُحْتَسِبًا نَذَلُّ فَلَسْتُ تَرَاهُ فِي كَأْسِي
أَرَعَى الْهَيْدَةَ عَلَى الْقِنَانِ إِذَا كَانَ الْفُرَاتُ يُشَابُ بِالْكَرْسِ ٢
وَإِذَا اسْتُسِمْتُ الْخُشْفَ فِي بَلَدٍ يَوْمًا زَمْتُ لِغَيْرِهِ عَنِّي ٣
كُلُّ الْبِلَادِ لَدِي الْحِجَا وَطَنُ وَالنَّاسُ كُلُّهُمْ بَنُو جِنْسٍ

وللأديب محمد بن أحمد بن الشاذلي الدلائي المتوفى سنة ١١٣٧

مَا إِنْ يَعْيَبُكَ فَقَدْ الْحَلِي وَالْحَلَالِ إِنْ أَنْتَ بِالْهَمِّ الشَّمَاءُ كُنْتَ مَلِي
قَدْ ضَلَّ مَنْ ظَنَّ أَنَّ الْمَالَ يَرْقَعُ مَا أَوْهَى السُّوَالُ بِعَرَضٍ فِيهِ مُبْتَدَلُ
لَا بَارَكَ اللَّهُ بَعْدَ الْعَرَضِ فِي عَرَضٍ م الدُّنْيَا وَلَا نِلْتُ مَا بِالْعَزْمِ لَمْ أَنْلِ
وَرُبَّ جَاهِلَةٍ هَبَّتْ تُعَاتِبُنِي أَنْ كُنْتُ عَنْ غَمْرِ عَيْشٍ مُوَثِّرٍ أَلَوْشَلِ
قَالَتْ رَأَيْتُكَ ذَا قَوْلٍ تُحْبِرُهُ أَزْهَى مِنَ الرُّوضِ غِبَّ الْوَائِكِفِ الْهَطَلِ
وَفِي الْمُلُوكِ لَهُ كُفُوٌ فَأَمَّهُمْ حَتَّى يُعِيدُوكَ ذَا خَيْلٍ وَذَا خَوَلِ
وَلَسْتُ أَضْغِي وَإِنْ لَجَّتْ لِتَعْدِلِي عَنْ مَنَهِجِ الصَّوْنِ بِالتَّعْتَابِ وَالْعَدَلِ
وَإِنَّ مِنْ كَرَمِي بُخْلِي بِشِعْرِي عَنْ تَقْرِيطِ ذِي كَرَمٍ أَوْ ذِمِّ ذِي بَخَلِ

١ - الهبيد الحنظل .

٢ - الكرّس بالكسر ما تبدد من البول والبعير .

٣ - ناقتي .

فَإِنْ تَرَبَّنِي مُذِيلاً مَا حَبِيتُ لَهُ فِي غَيْرِ ذِكْرِ الْوَعَى وَالْأَعْيُنِ النَّجْلِ
يَأْبَى إِبَائِي وَآبَائِي وَيَأْتَفُ لِي مَجْدُ أَنْفٍ - وَلَمْ يَقْنَعْ - عَلَى زُحْلِ
نَفْسِ الْكَرِيمِ تَعَاْفُ الْوَرْدَ يَصْحَبُهُ ذُلٌّ عَلَى ظَمَأٍ فِي الْجَوْفِ مُشْتَعِلِ

لَوْ كُنْتُ سَائِلَ غَيْرِ اللَّهِ لَمْ أَسْأَلِ غَيْرَ الْمَذَاكِي^١ وَغَيْرَ الْبَيْضِ وَالْأَسْلِ
مَا شِمْتُ^٢ بَارِقَ عَضْبٍ كُنْتُ شَائِمَهُ إِلَّا أَنْتَجَعْتُ^٣ بِهِ أَحْيَا مِنْ السَّيْلِ
لَا تَرْضَ بِالْعَيْشِ فِي ظِلِّ الْهَوَانِ وَخُضْ لِنَيْلِ عَزِيٍّ غَمَارَ الْمَوْتِ وَالشَّكْلِ
فَلَيْسَ يُدْرِكُ بِالْجُبْنِ الْبَقَاءَ وَلَا مِ الْقَدَامِ يُقْضِي بِمَا لَمْ يُقْضَ فِي الْأَزْلِ
حَلَبْتُ شَطْرِي صُرُوفِ الدَّهْرِ مِنْ عَدَمٍ

وَمِنْ يَسَارٍ وَمِنْ صَابٍ وَمِنْ عَسَلٍ وَمِنْ يَسَارٍ وَمِنْ صَابٍ وَمِنْ عَسَلٍ
فَمَا بَطَرْتُ لِإِثْرَاءٍ وَلَا حَسْبِي بَدْتُ بِهِ خَلَّةَ تَنْتَابٍ مِنْ خَلَلٍ
وَكُنْتُ إِمَامًا بَدَالِي مِنْ حِلٍّ عَطَلُ أَلْفَيْتُ مِنْ حَلِي فَضْلِي غَيْرَ ذِي عَطَلٍ
وَشَيْءُ الْمَدِّ يَبْدُو فَوْقَ صَفْحَتِهِ يُغْنِيهِ عَنْ شَيْءٍ الْأَغْنَادِ وَالْحَلَلِ

١ - جمع مذك وهو من الخيل ما تم سنه وكملة قوته .

٢ - شام البرق نظر الى سحابته اين تخطر .

٣ - الانتجاع طلب الكلأ .

٤ - هو من قولهم حلب أشطر الدهر اي جربه وعرفه .

ولأبي حفص الفاسي :

قل لمن يغلو على النأ	س بآباء سراة :
ليس من شأني فخار	بعظام ناخرات
ما فخار المرء إلا	بعلوم زاخرات
وسجايا ومزايا	وهبات وإفراة
ونضال بنصال	في مجال الغمرات
وجفان كالجواني	وقدور راسيات

وللأديب محمد بن الطيب سُكَّيرج المتوفى عام ١١٩٤ :

ألا قل لغمر جاهل وحسود	غبي بليد الطَّبَّعِ حلف جُمود
ينافس في العلواء حبرا مهذبا	له في مقام المجد خيرُ شهود
لعمري لقد أرقيت نفسك للعلاء	بلا سُلَمٍ إذ لم تُبوء بفريد
وحاولت أمرا لست تعلم أنه	تمنع عن ذي منعة وعديد
فكم ظلت أسعى في رشادك علني	أراك حذورا من شديد وعيدي
فها أنا ذا مُستَجْمِعُ الفكرِ راكبا	مطية فخرٍ في مقام شهود

تَيْقِظُ لِقَوْلِي وَأَسْتَمِيعُ كُلَّ حُجَّةٍ
وُحْذِنُ مِنْ قَرَى الْأَبْطَالِ مَا أَنْتَ طَالِبٌ
وَلَا تَأْسَ إِنْ أَبْصَرْتَ زِلْزَالَ بَارِقٍ
وَإِنَّكَ مَا نَبَّهْتَ مِنِّي نَائِمًا
فَأَمَّا اكْتِسَابُ الْمَجْدِ مِنْ عَهْدٍ يَغْرُبُ
وَأَمَّا أَلْعُلَا فَنَسْأَلُ تَرَى فَضْلَ أَهْلِنَا
وَأَمَّا رِعَايَاتُ الذَّمِّ أَمَّا فَإِنَّهَا
وَأَمَّا أَلْنَدَى فَانْظُرْ بَعَيْنَكَ حِينَا
تُخَبِّرُكَ أَلَا نَامُ عَنِّي حَقِيقَةً
ذَوِي الْحَسْبِ الْمَوْفُورِ وَالْحِلْمِ وَالْتَقَى
إِذَا بَرَزْتَ يَوْمًا طَلَانِعُ حِزْبِهِمْ
تَرَاهُمْ لَدَى الْهَيْجَاءِ أَسْدًا فَوَاتِكًا
أَكْفُهُمْ تَجْرِي عَلَى كُلِّ حَالَةٍ

فَإِنَّكَ يَا ابْنَ الْقَيْنِ بَيْتُ قَصِيدِي
فَلَسْتُ عَلَى رَاجِي أَلْنَدَى بِشَدِيدِ
تَقَدَّمَهُ نَكْبَاءُ ذَاتِ الْخُلُودِ
فَلِلطَّغْنِ فَاصِرٍ وَاعْتَجِرْ بِضُمُودِ
فَمَا هُوَ عَنْ أَسْلَافِنَا يَبْعِيدُ
فَكَمْ حَمَلُوا لِلْمُصْطَفَى مِنْ بُنُودِ
بِأَذْيَالِنَا نَيْطَتْ بِغَيْرِ جُحُودِ
فَإِنَّ عُيُونَ الْمَرْءِ خَيْرُ شَهِيدِ
بِأَنِّي فِي لَحْمٍ أَعَزُّ وَلِيدِ
وَكُلُّ فَخَارٍ دَاثِرٌ وَجَدِيدِ
تَرَى أَلْعِزَّ يُؤَمِّي نَحْوَهَا بِسُجُودِ
وَفِي أَلْسَلَمٍ سُبَّاقًا لِكُلِّ مَشِيدِ
بِحَرْبٍ وَسِلْمٍ مِنْ نَدَى وَجَسِيدِ

وَلِحُرْمَةِ بْنِ عَبْدِ الْجَلِيلِ أَلْعُلُويِ أَلشَّنْقِيَطِيِّ يَفْتَخِرُ بِقَوْمِهِ :

دَمْ أَهْدَرَتْهُ سَادَةٌ عَلَوِيَّةٌ وَمَا كَانَ فِيهِمْ مِثْلُ ذَلِكَ مِنْكَرًا

وما أَسْتَنْصِرُوا غَيْرَ الصَّوَارِمِ بَاصِرًا وَأَغْنَتْهُمْ عَمَّنْ أَتَى مُتَنَصِّرًا
يَخْوضُونَ يَوْمَ الرُّوعِ فِي لُجَجِ الرَّدَى لَأَنَّ مَنَالَ الْعَزْ فِيهِنَّ ، أَجْحُرَا
يُسَابِقُ عَزْرَائِيلَ وَقَعُ سَيُوفِهِمْ إِذَا مَا نُحْيَا الْحَرْبَ أَصْبَحَ مُسْفِرَا
فَكَمْ مَشْهَدٍ فِي الْحَرْبِ يُثْنِي عَلَيْهِمْ وَكَمْ مَعَشَرَ مِنْ بَأْسِهِمْ كَانَ أَزُورَا
تَرَاهُمْ وَلَيْسَ الدَّهْرُ إِلَّا نَوَائِبًا إِذَا كَبُرَتْ تِلْكَ النَّوَائِبُ ، أَكْبَرَا
سَمَا لِلْعَالِي مَنْ تَقَدَّمَ مِنْهُمْ وَيَسْمُو عَلَى آثَارِهِ مِنْ تَأَخَّرَا
مَا ثَرَّهُمْ حَلِيُّ الزَّمَانِ لَوْ أَنَّهُ عَلَى صُورَةِ الْإِنْسَانِ كَانَ مُصَوَّرَا
فَكَمْ مِنْ فَتَى مِنْهُمْ يَرُوقُكَ عِلْمُهُ وَيَهْزِمُ مِنْ أَنْجَادٍ وَأَدَانٍ عَسْكَرَا^٢
وَيَجْعَلُ فِي إِحْدَى يَدَيْهِ مُهْنَدًا طَرِيرًا وَفِي الْأُخْرَى كِتَابًا مُطَرَّرَا
يُحِبُّ الرَّدَى يَوْمَ الْوَغَى فَكَأَنَّهُ إِذَا مَاتَ فِيهِ لَا يَزَالُ مُعَمَّرَا
بَطْرَفِكَ فَانْظُرْ كَيْ تَرَى بَعْضَ تَجْدِيدِهِمْ إِذَا أَنْتَ عَنْ إِدْرَاكِهِ كُنْتَ مُقْصِرَا

وللوزير ابن ادريس العمراوي :

شُعْبِي وَشُعْبُ الْغَوَانِي غَيْرُ مِلَّتِهِمْ وَوَصَّلُهُنَّ أَرَى ضَرْبًا مِنَ الْحُلْمِ

١ - أي ناصراً .

٢ - وادان قبيلة كانت في حرب مع قوم الشاعر .

كَمْ لِي أَسْأَلُ عَنْ سَلْمَى وَجَارَتِهَا
وَكَمْ أَكْفَكِفُ دَمْعاً فِي مَرَابِعِهَا
وَالشَّيْبُ قَدْ لَاحَ فِي قَوْدِي وَقَتْنِي
أَسْرَى بَلِيلِ شَبَابِي فَاسْتَنَارَ بِهِ
وَبَصَّرَ الْعَيْنَ سُبُلَ الرُّشْدِ فَانْبَعَثَ
نَفْسِي عَنِ الْكِبَرِ وَالْقَدَرِ قَدْ كَبُرَتْ
مَاذَا يَقُولُ ذُووَا الْبَغْضَاءِ فِي رَجُلٍ
وَالْعُرْبُ بِالْبَابِ وَالْأَخْبَارُ سَائِرَةٌ
أَصُونُ مَاءَ الْمُحْيَا عَنْ إِرَاقَتِهِ
وَلَا أُمَدِّنُ عَيْنِي نَحْوَ عَارِفَةٍ
وَكَمْ فَتَى لِحَنَابِ الْمَلِكِ مُنْتَسِبٍ
يُظَلُّ يُسْدِي وَيَهْدِي فِي زَخَارِفِهِ
وله أيضاً :

وَعَنْ رُسُومٍ عَفَتْ وَأَيْنُقٍ رُسْمِ
ضَلًّا وَأَسْأَلُ عَوْنًا وَكَفِ الدَّيْمِ
وَالسَّيْفُ أَحْسَنُ فِعْلاً مِنْهُ فِي اللَّيْمِ
كَغَاسِقٍ لَاحَ فِي دَاجٍ مِنَ الظُّلَمِ
أَخْلَاقُهُ لِطِلَالِ الْمَجْدِ وَالْكَرَمِ
وَفَوْقَ هَامِ الثَّرْيَا قَدْ غَلَّتْ هِمَمِي
خَالَ عَنِ الْكِبَرِ مَكْسَى حُلَّةَ الْحِكَمِ
وَالسُّنُّ الْخَلْقُ تُبْدِي كُلَّ مُكْتَتَمِ
لَيْسَ الدَّنَاءَةُ وَالْإِلْحَاحُ مِنْ شَيْمِي
مَنْ كَفَّ نَذْلٍ وَلَوْ أَرَبَى عَلَى هَرَمٍ
أَعْدَى عَلَى الْمَالِ مِنْ ذُنْبٍ عَلَى غَنَمِ
وَلَيْسَ يَصْدُقُ فِي ضَرْبٍ مِنَ الْكَلِمِ

سَلِ الرُّوَاةَ عَنْ نَفَثَاتِ شِعْرِي فَكَمْ أَبْرَأَنَ مَنْ قَلْبٍ سَقِيمِ

وكم أظهرن جوداً من بخيل وكم أولدن من فكري عقيم
فان الشعر في التحقيق سحر كما قد جاء في الأثر الكريم
ولي في نظمه القدح المعل وأسرار تغيب عن العليم
فأنظم حين أنظم راعات تفوق الدر في العقد النظيم
وارفع بالمديح مقام قوم وان كانوا ذوي أصل لثيم
وأحل بالهجا منار قوم وان كانوا ذوي قدر عظيم
ولي قلم له بأس شديد يُتلم حده حد الصريم
ويترك صربه الأقران صرعى لدى الميدان بالضرب القويم

ولمحمد بن الشيخ سيدي الشنقيطي :

أزف الرحيل فقرباً أجمالنا ثم أنميأ فوق الجمال رحالنا
إننا إذا بلدنا يوماً بنا حملت لآخر نجبنا أثقالنا
تبدأنا أن لا ننيط جبالنا الا بأجل من يحب وصالنا
نطوي على الشعث المواصل ما طوى صدرأ على أن لا يشد جبالنا

سترأ عليه وفي هواه ووضله	نغضي ولو آباءنا عذآلنا
واذا رماه الدهر كنا دونه	ترساً ونمنح من رماه نصالنا
ما إن بقي أموالنا مهجأتنا	كلأ ولا مهجأتنا أموالنا
واذا دعا كنا الجواب وان سعى	كنا حوآلنه وكان خلائنا
ويصيب من ضافى العدو عداونا	وينال من والى الولي نوالنا
خلقاً لنا لا صالحين لغيره	خلقاً وليس بصالح إلا لنا

الغزل والشوق والتسبيب

قال المولى إدريس الثاني :

لو مَدَّ صَبْرِي بِصَبْرِ النَّاسِ كُلِّهِمْ
بَانَ الْأَحِبَّةُ فَاسْتَبَدَلْتُ بَعْدَهُمْ
كَأَنِّي حِينَ يُجْرِي الْفِكْرُ ذِكْرَهُمْ
وَكَيْفَ يَصْبِرُ مَطْوِيٌّ هَضَائِمُهُ
إِذَا الْهَمُومُ تَوَافَتْ بَعْدَ هَجْعَتِهِ

وقال ابنُ القَابِلَةِ السَّبْتِي :

وَوَجْهَ غَزَالٍ رَاقٍ حَسَنًا أَدِيمُهُ
تَعَرَّضَ لِي عِنْدَ اللَّقَاءِ بِهِ رَشَاءٌ

لَكَلِّ فِي رَوْعَتِي أَوْ ضَلَّ فِي جَزَعِي
هَمًّا مُقِيمًا وَشَمْلًا غَيْرَ مُجْتَمِعٍ
عَلَى ضَمِيرِي يُجْبِلُ عَلَى الْفَزَعِ
عَلَى وَسَاوِسٍ هَمٍّ غَيْرِ مُنْقَطِعٍ
كَرَّتْ عَلَيْهِ بِكَاسِ مُرَّةِ الْجَرَعِ

يَرَى الصَّبُّ فِيهِ وَجْهَهُ حِينَ يُبْصَرُ
تَكَادُ الْحُمَيَّا مِنْ نُحْيَاهُ تَقْطُرُ

١ - يعني جوارحه .

٢ - الرشأ ولد الظبية .

وَلَمْ يَتَعَرَّضْ كِي أَرَاهُ وَإِنَّمَا أَرَادَ يُرِينِي أَنَّ وَجْهِي أَصْفَرُ
وقال الكاتب أبو بكر بن عطاء السبتي مقاطعاً :

سَأَمْنَعُ قَلْبِي أَنْ يَكُونَ لَكُمْ مَثْوَى
وما سرّني بعد الرضا إذ غدرتم
وصيرتم العتبي عتابة فكلما
قضى الله أن أقصى وأصفيكم الهوى
وأستدفع البلوى وأستصرف اللهوا
وغادرتم بين الحشا هضبي رضى
أبشكم شجوي تزيدوني شجوا
وغيري يستدني وإن كان لا يهوى
بمنهلككم يروى وأني لا أروى
شماة أعدائي أجل من البلوى
وما جلت البلوى عليّ وإنما
وقالت السيدة أمة العزيز الحسنية :

لِحَاظِكُمْ تَجْرَحُنَا فِي الْخِشَا
لِحَاظِكُمْ تَجْرَحُنَا فِي الْخِشَا
جُرْحَ بَجْرُوحٍ فَاجْعَلُوا ذَا بِيْذَا
فما الذي أوجب جرح الصدود
وقال أبو الحسن بن زنباع :

يَزَاعُ مَا أَرَى بِكَ أَمْ نَزُوع
لقد شقيت به منك الضلوع
يَرُوعُكَ أَوْ يَرِيعُكَ كُلُّ دَاعٍ
أكل مَثُوبٍ دَاعٍ سَمِيعٍ
جَهَلَتْ وَقَدْ عَلَاكَ الشَّيْبُ أَمْرًا
يقوم بعلمه الطفل الرضيع
وَلَوْلَا ذَاكَ مَا قَدَّرْتَ أَنِّي
أنوء بحمل ما لا أستطيع

فحسبك أو فحسبي منك دهر يثبُ بصرفه الشملُ الجمع
 وشوق تقتضيه نوى شطون فتقضي عنه واجبها الدموع
 حملت الحب مؤتمناً عليه فكيف يضيع ذلك أو يذيع
 لقد جشمت نفسك متلفات بكل ثنية منها صريع
 وحال الصب تخضيه دموع كحال القرن يخضيه نجيع^١
 وقد تحمي الدروع من العوالي ولا تحمي من الحدق الدروع
 ورب فتى تراعى الأسد منه تقنص قلبه الرشأ المروع

وقال أيضاً : ويحتوي على معان فلسفية رائعة :

لهواك في قلبي كريقك في فمي غيري يقول الحب مرُ المطعم
 فأدِر عليّ بمقتلك كووسه حتى يدب خماره في أعظمي
 إن التلدد^٢ في هواك تلذذ لو كان أقتل من زعاف الأرقم
 فأجب بحب لا يُثير ملامه ملئت بمؤليب^٣ عيون النوم
 شغل النواظر والقلوب ولم يدع من لم يسمه من الأنام بميسم
 ومن العجائب شغل شيء واحد في الحال أمكنة ولم يتقسم^٣

١ - النجيع الدم .

٢ - التلدد : التحير والزعاف السم القاتل والأرقم أخبث الحيات .

٣ - يعني والشيء الواحد لا يخل مكانين في زمن واحد .

وَأَقَامَ أَزْمِنَةً وَلَيْسَ بِجَوْهَرٍ^(١) وَجَرَى وَلَيْسَ بِمَائِعَ مَجْرَى الدَّمِ
 يَا أَيُّهَا الْقَمَرُ الَّذِي إِنْسَانُهُ يَرْمِي أَنَا سَاءَ لِلْعِيُونِ بِأَسْهُمِ
 لَمْ أَبْدِ حَبَّكَ غَيْرَ أَنْ جَوَانِحِي فَاضَتْ بِهِ فَيْضَ الْإِنَاءِ الْمُفْعَمِ
 لَا ذَنْبَ لِي عِلِمَ الَّذِي أَسْرَرْتُهُ نَظَرًا وَلَمْ أَرْمُزْ وَلَمْ أَتَكَلَّمْ
 وَأَمَرْتَ بِالشُّكْوَى إِلَيْكَ وَأَنْمَا يُنَمَى إِلَى الْإِنْسَانِ مَا لَمْ يَعْلَمْ
 وَلَزُبْنَا لَمْ تُشْكِنِي فَأَمَاتَنِي بِأَسِيٍّ فَذَرْنِي تَحْتَ أَمْرِ مُبْهَمِ
 وَتَلَا فَنِي قَبْلَ التَّلَافِ فَإِنِّي مِنْ خَمِيرٍ وَسَيَأْخُذُونَكَ فِي دَمِي
 الطَّاعِنِينَ بِكُلِّ أَسْمَرٍ مِذَّ عَسٍ^٢ وَالضَّارِبِينَ بِكُلِّ أَيْضٍ مِخْذَمٍ^٣
 وَالْوَارِدِينَ الصَّادِرِينَ إِذَا الْوُغَى لَقِحتُ بِجَمْرَتِهَا وَجُوهُ الْخُومِ
 وَلَعَلَّهُمْ تَسْمُو بِهِمْ هِمَاتُهُمْ أَنْ يُذَرِّكُوا فِي الظُّبْيِ ثَأَرَ الصَّيْغَمِ

وقال محمد بن عبد الكريم الفندلاوي الفاسي عُرفَ بابن
 الكتَّاني :

وما أبقى الهوى والشوقُ منِّي سوى نفسٍ تردَّدَ في خيالِ

١ - أي بل عرضا والشأن أن العرض لا يبقى زمانين .

٢ - المدعس الرمح .

٣ - المخذم السيف القاطع .

خَفِيتُ عَنِ الْمَنِيِّ أَنْ تَرَانِي كَانَ الرُّوحَ مَنِيَّ فِي مُحَالٍ
وَقَالَ عَلِي بْنُ يَقْظَانَ السَّبْتِيُّ :

أَخْوَانَنَا مَا حُلْتُ عَنْ كَرَمِ الْعَهْدِ
فَيَا لَيْتَ شِعْرِي هَلْ تَغَيَّرْتُمْ بَعْدِي
وَكَمْ مِنْ كُوْثُوسٍ قَدْ أَدْرْتُ بِوَدِّكُمْ
فَهَلْ لِي كَأْسٌ بَيْنَكُمْ دَارًا فِي وَدِّي

وَقَالَ الْقَاضِي عِيَاضُ :

رَأْتُ قَمَرَ السَّمَاءِ فَأَذْكَرْتَنِي لَيْلِي وَصَلِّهَا بِالرَّقْمَتَيْنِ^١
كَلَانَا نَاطِرٌ قَمَرًا وَلَكِنْ رَأَيْتُ بَعَيْنَهَا وَرَأْتُ بَعَيْنِي^٢
وَقَالَ أَيْضًا :

أَقُولُ وَقَدْ جَدَّ ارْتِحَالِي وَغَرَّدْتُ
وَقَدْ غَمِصْتُ مِنْ كَثْرَةِ الدَّمْعِ مُقْلَتِي
وَلَمْ تَبْقَ إِلَّا وَفْقَةٌ يَسْتَحِثُّهَا
حُدَايِي وَزُمْتُ لِلْفِرَاقِ رَكَائِي
وَصَارَتْ هَوَاءً مِنْ فُؤَادِي تَرَانِي
وَدَاعِي لِلْأَحْبَابِ لَا لِلْحَبَائِبِ

١ - الرقمتين اسم موضع .

٢ - يريد رأيت القمر الحقيقي الذي هو المحبوبة ورأت القمر المجازي الذي هو قمر السماء وهذا على سبيل المبالغة .

رَعَى اللَّهُ جِرَانًا بِقُرْطَبَةِ الْعُلَا
وَحَيًّا زَمَانًا بَيْنَهُمْ قَدْ أَلْفَتْهُ
أَخْوَانَنَا بِاللَّهِ فِيهَا تَذَكَّرُوا
غَدَوْتُ بِهِمْ مِنْ بَرِّهِمْ وَاحْتِفَائِهِمْ
وَسَقَى رُبَاهَا بِالْعَهَادِ السَّوَاكِبِ
طَلِيقَ الْحَيَا مُسْتَلَانَ الْجَوَارِبِ
مَعَاهِدَ جَارٍ أَوْ مَوَدَّةَ صَاحِبِ
كَأَنِّي فِي أَهْلِي وَبَيْنَ أَقَارِبِي

وقال الامير ابو الربيع سليمان الموحّد :

أَقُولُ لِرَكْبٍ أَدْجُوا بِسَحِيرَةٍ
وَأَمْلًا عَيْنِي مِنْ مَحَاسِنِ وَجْهِهَا
فَإِنْ هِيَ جَادَتْ بِالْوِصَالِ وَأَنْعَمْتُ
وَقَفْتُ بِهَا أَشْكُو وَأُسْكِبُ عِبْرَةً
فَأَوْمَتُ بِرَخْصٍ مِنْ بَنَانٍ مُخَضَّبِ
وَقَالَتْ أَيْبُكِ الْبَيْنَ مَنْ قَدْ أَرَادَهُ
وَلَمَّا تَنَاعَتْ دَارُهَا وَتَبَاعَدَتْ
كَتَبْتُ إِلَيْهَا أَشْتَكِي أَلَمَ النَّوَى
وَكُنْتُ أَرَى أَنَّ الْجَوَابَ تَعَلَّلُ
قَفُّوا سَاعَةً حَتَّى أَزُورَ رِكَابَهَا
وَأَشْكُو إِلَيْهَا أَنْ أَطَالَتْ عِتَابَهَا
وَإِلَّا فَحَسْبِي أَنْ رَأَيْتُ قِبَابَهَا
عَلَى غَيْرِ بَيْنٍ مَا عَرَفْتُ انْسِكَابَهَا
وَحُطَّتْ عَلَى الْبَدْرِ الْمُنِيرِ نِقَابَهَا
وَيَشْكُو النَّوَى مِنْ قَدَأَثَارِ غُرَابِهَا
وَعَاقَتْ عَلَى بُعْدِ الْمَزَارِ خِطَابَهَا
لَعَلِّي أَرَى يَوْمًا إِلَيَّ كِتَابَهَا
وَقَدْ زَادَ مَا بِي إِذْ رَأَيْتُ جَوَابَهَا

وقال أبو حفص ابنُ عمر :

هُمْ نَظَرُوا لَوَاحِظَهَا فَهَامُوا
وَتَشَرَّبُ عَقْلَ شَارِبِهَا الْمَدَامَ

يخاف الناسُ مقلَّتَها سواها
سما طرفي إليها وهو بآك
وأذكرُ قدَّها فأَنوحُ شوقاً
وأعقبَ بينها في الصدرِ غمّاً
وقال :

أغارَ على الصَّبِّ من أَنبَه
نأى القلبَ عني وشوقي معي
يحنُّ فوادي إلى قاتلي
تروقُ شمائلُ من ذاقه
يجود لمسخطه بالرضا
إذا شفا قلبي غرامُ الهوى
وقال :

مشت كالغصنِ يثنيه النسيمُ
لها ردْفُ تعلّقٍ في ضعيف
ويعذّوه النسيمُ فيستقيم
وذاك الرَدْفُ لي ولها ظلوم

١ - ذكاء الشمس .

٢ - الشمالُ الريح التي تهب من الشمال والمراد بخفّ روحه .

يُعَذِّبُنِي إِذَا فَكَّرْتُ فِيهِ وَيُثْعِبُهَا إِذَا رَامَتْ تَقُومُ
وَمَا حَبَّتِي لَهَا إِلَّا عَذَابٌ عَلَيْهِ مِنْ نَصَارَتِهَا نَعِيمٌ
وَقَالَ يُشَبُّ بِجَهَالِ الْأَعْرَابِيَّاتِ :

مَهَا الْقَفْرُ لَا دُمَيَّةَ الْمَرْمَرِ^١ وَفِي الْعُرْبِ لَا فِي بَنِي الْأَصْفَرِ^٢
بِنَفْسِي يَعْافِرُ^٣ تِلْكَ الْخِيَامَ^٤ وَمَسْرُوحَهَا فِي النَّقَا الْأَعْفَرِ^٥
مَلَاعِبُ يَصُبُّ إِلَيْهَا الْحَكِيمُ وَيُسَلَّبُ فِيهَا فَوَادُ الْجُرِي
وَفِيهَا الظُّبَاءُ بَنَاتُ الْأَسُودِ غِيَارِي مَتَى بَغَمْتُ تَزَارُ^٦
فَخَيْسُ الْهَزْبِ كِنَاسُ الْغَزَالِ بِهِ الشَّبْلُ نَاشٍ مَعَ الْجُوذَرِ
تُخَالِسُهَا نَظْرًا تَحْتَهُ غَرَامٌ بِهِ الْحَيُّ لَمْ يَشْفُرْ
وَبِاللَّحْظِ يُقَدِّحُ زَنْدُ الْهُوَيِ فَطَرَفٌ غَرٍ وَفَوَادُ بَرِي^٧

١ - أي هُنَّ شبيهات ببقر الوحش لا بمائيل الرخام التي تشبه بها الحضريات .

٢ - بنو الأصفر الروم ويعني أنهم سمر لا بيض كالروميات .

٣ - اليعافير الغزلان .

٤ - النقا الرمل والأعفر الذي له لون العفر وهو التراب .

٥ - البُغَام صوت الغزال والزئير صوت الأسد يعني أنهم محروسات بالشجعان

من قومهن .

٦ - يعني أنهم يغرين العشاق بنظراتهن وقلوبهن خاليات من الغرام .

وقال :

هذا فؤادي أَقْصَدَتْهُ الْأَسْهُمُ مَنْ ذَا يَرَى تِلْكَ الْجُفُونَ وَيَسْلَمُ
يا غُرَّةَ حَكَمَ الْجَمَالُ لَهَا عَلَى شَمْسِ الضَّحَى وَأَصَابَ فَيْتَا يَحْكُمُ
يَحْكِي الْجَنَادِرَ جِيدُهَا وَلِحَاطُهَا هِيَّاتَ دُونِ الْعَالَمِ الْمُتَعَلَّمُ
وَكَانَ قَامَتَهَا وَنَعْمَةً لَفْظُهَا غُصْنٌ عَلَيْهِ بُلْبُلٌ يَتَرَنَّمُ
يُضْحِي الْخَلِيَّ إِذَا رَأَاهَا عَاشِقًا وَالْعَقْلُ تَوْقِظُهُ اللَّحَاطُ النَّوْمُ

وقال أبو عبدالله ابنُ المَحَلِيِّ السَّبْتِيُّ ، وهو من شعر الإشارة :

أَبُوحُ بِمَا أَلْقَاهُ فَهُوَ مُبَاحٌ قَبْلِي أَرْبَابُ الْمَحَبَةِ بَاحُوا
إِذَا بَاحَ مَنْ قَبْلِي وَلَمْ يَلْقَ بَعْضَ مَا لَقِيتُ فَإِنِّي مَا عَلَيَّ جُنَاحُ
أَحِبَابِنَا لَا تَحْسِبُوا الصَّبْرَ بَعْدَكُمْ سَخِيًّا وَلَا إِنْ الدَّمُوعُ شَحَاحُ
وَإِنْ فَنِيتُ أَجْسَادُنَا وَقُلُوبُنَا فَتِلْكَ الْعُهُودُ السَّالِفَاتُ صَحَاحُ
سَمَحْتُ لَكُمْ بِالنَّفْسِ كِي أَرْبَحَ الرِّضَا عَلَى ثِقَةٍ أَنَّ السَّمَاحَ رَبَّاحُ
فُؤَادِي مُنْقَادٌ إِلَيْكُمْ مُذَلَّلٌ فَمَا لِي إِذَا لَجَّ الْعَذُولُ جَمَاحُ
وَهَلْ مِنْ سَبِيلٍ إِنْ أَطِيرَ إِلَيْكُمْ وَقَدْ حُصِّلِي رِيشٌ وَقَصَّ جَنَاحُ
تَغَيَّرَ وَقْتِي بَعْدَكُمْ فَكَأَنَّمَا صَبَاحِي مَسَاءٌ وَالْمَسَاءُ صَبَاحُ
وَمَا تَفْضُلُ الْإَيَّامُ أُخْرَى بِذَاتِهَا وَلَكِنْ أَيَّامُ الْمِلَاحِ مِلَاحُ

خَرِسْتُ عَنْ الشُّكْوَى إِلَيْكُمْ مَهَابَةً
تَمْتَعُ لِحَظِي سِنَّةً فِي جَمَالِكُمْ
وَيَا عَجَباً أَنِّي أَسِيرُ وَأَنْنِي
إِذَا هَرَّ أَرْبَابَ السَّمَاعِ تَوَاجَدُ
فَهَا أَنَا عِنْدَ الْبَابِ مُنَوِّأُ أَوْ اطْرُدُوا
وَأَلْسُنُ حَالِي بِالْغَرَامِ فِصَاحُ
فَإِنْ لَاحِظَ الْأَغْيَارَ فَهُوَ سِفَاحُ
أُنَاشِدُكُمْ أَنْ لَا يُتَاحَ سَرَّاحُ
فَحَظِّي مِنْهُ زَفْرَةٌ وَوَصِيَّاحُ
فَمَا لِي عَنْهُ كَيْفَ كَانَ بَرَّاحُ

وقال ايضاً :

غَرَامِي دَعَانِي وَالْعَدُولُ نَهَانِي
أَمَّا عَلِيمًا إِنِّي عَلَى الشَّحْطِ وَالنَّوْيِ
يَقُولُونَ لِي مَنْ ذَا دَعَاكَ لِمَا نَرَى
ضَمَانٌ عَلَى قَلْبِي الْأَسَى بَعْدَ بُعْدِهِمْ
أَعْلَلُ نَفْسِي بِالسُّلُوكِ تَعْلَلًا
إِذَا خَفَقَ الْبَرْقُ الْيَمَانِي بِأُفُقِكُمْ
وَإِنْ هَمَلْتُ مُزْنَ السَّحَابِ بِأَرْضِكُمْ
فَوَجَدْتُ وَعَدْلُ كَيْفَ يَجْتَمِعَانِ
مُقِيمٌ وَإِنِّي وَالْهُوَى أَخَوَانِ
فَقُلْتُ دَعَانِي حُبُّهُ فَدَعَانِي
إِذَا لَمْ يَكُنْ يَوْمُ اللَّقَا بِضَمَانِ
وَتِلْكَ أَمَانٍ مَا بِهِنِ أَمَانِ
أَقَابِلُ ذَاكَ الْخَفَقِ بِالْحَفَقَانِ
يُغَالِبُهَا دَمْعِي عَلَى الْهَمَلَانِ

غنى الله جيران العذيب وأهله
م وعدوا بالغور ثم تراوغوا
صدوا على صدا وبالخيف خوفا
بن حجبوا عن ناظري فكأنهم
ان عيمت انباؤهم حيث يمموا
وان أترعوني من هوى وهوان
وهم عنفوا بالنعفا من بدلان
وبأنوا بذات البين صوب أبان
بقلي يراهم فيه رأي عيان
فسيري يرعاهم بكل مكان

وقال الخليفة عمر المرتضى الموحدى :

ليل دمع مقلته دليل
لم يبايكم يبغي شفاء
يلوني رضا منكم وقرباً
لئن قطعت سبيل الوصل عني
نشافع ما اقترفت هوان ذلي
فحسي أنني عبد قطوع
على ان الحشا فيها غليل
لداء البعد فهو له قتيل
وحاشا فضلكم ان لا تنيلوا
خطوب شرحها عندي يطول
وأعظم شافع اني ذليل
وحسبك انك المولى الوصول

وقال عبد العزيز الملزوزي :

أعلمت بعدك زفرتي وأينني
وصبايتي يوم النوى وشجونني

أَوَدَّعْتَ اذْوَ دَّعْتَ وَجَدًا فِي الْحِشَا مَا إِنْ تَزَالُ سَهَامَهُ تُصْمِينِي
وَرَقِيبُ شَوْقِكَ حَاضِرٌ مَرَقَّبُ إِنْ رَمَتْ صَبْرًا بِالْأَسَى يُغْرِبْنِي
مِنْ بَعْدِ بُعْدِكَ مَا رَكَنْتُ لِرَاحَةٍ يَوْمًا وَلَا غَاضَتْ عَلَيْكَ شُؤْنِي
قَدْ كُنْتُ أَبْكِي الدَّمْعَ أَيْضًا نَاصِعًا فَالْيَوْمَ تَبْكِي بِالدَّمَاءِ جُفُونِي
قُلْ لِلَّذِينَ قَدِ ادَّعَوْا فَرَطَ الْهَوَى إِنْ شِثْتُمَا عَلِمَ الْهَوَى فُسْلُونِي
إِنِّي أَخَذْتُ كَثِيرَهُ عَنْ عُزْوَةٍ وَرَوَيْتُ سَائِرَهُ عَنِ الْمَجْنُونِ

وَقَالَ ابْنُ عَبْدِ دُونَ لِمَكْنَسِي:

يَا جِيرَتِي وَمَنْ أَسْتَجَرْتُ بِهِمْ مِنْ جَوْرِ عِزِّهِمْ عَلَى ذُلِّي
عَوَّضْتُمُونِي بِالْوِدَادِ قَلِي وَأَبْدَلْتُمُ الْإِنْصَافَ بِالْمُطْلِ
وَشَغَلْتُمُ بَالِي بِبَجْرِكُمْ وَوَبَّالِهِ عَنْ كُلِّ شُغْلٍ
مَا هَكَذَا فَعَلُ الْكَرَامِ بَيْنَ مِنْهُمْ تَعَوَّدَ اجْمَلَ الْفِعْلِ
عَلَّقْتُ حَبْلَ مَحَبَّتِي بِكُمْ بِحَيَاتِكُمْ لَا تَقْطَعُوا حَبْلِي
مَا كَانَ أُنْدَى ظِلِّ عَيْشَتِنَا إِذْ كَانَتْ مُنْتَظِمًا بِكُمْ شَمْلِي
إِذْ نَجَّيْتَنِي ثَمَرَ الْمُنَى ذُلًّا فِي رَوْضِ أُنْسٍ وَافِرِ الظِّلِّ
عُودُوا إِلَى عَادَاتِ وَصْلِكُمْ لَا تَحْرِمُونِي لَذَّةَ الْوَصْلِ
حَاشَاكُمْ وَالْفَضْلُ شِيَمَتِكُمْ أَنْ تُعَقِّبُوا الْإِحْصَابَ بِالْمَحْلِ

وَإِذَا أَيْتُمْ غَيْرَ جَوْرِكُمْ فَالْجَوْرُ مِنْكُمْ غَايَةُ الْعَذْلِ
 إِنْ شِئْتُمْ قَتْلِي فَهَذَا أَنَا ذَا لَا تَحْذَرُوا مِنْ طَالِبِ ذَحْلِي^(١)
 وَقَالَ مَالِكُ بْنُ الْمَرْحَلِ :

تَمَلَّكْتُمْ عَقْلِي وَطَرَقِي وَمَسْمَعِي وَتَيَّهْتُمُونِي فِي بَدِيعِ جَمَالِكُمْ
 وَأَوْصَيْتُمُونِي لَا أَبُوحُ بِسِرِّكُمْ فَلَمَّا فَنَى صَبْرِي وَقَلَّ تَجَلُّدِي
 شَكَيْتُ لِقَاضِي الْحُبِّ قَلْتُ أَحِبَّتِي وَعِنْدِي شُهُودٌ بِالضَّبَابَةِ وَالْأَسَى
 سَهَادِي وَشَوْقِي وَأَكْتِنَائِي وَلَوْعَتِي (وَمِنْ عَجَبٍ أَنِّي أَحْنُ إِلَيْهِمْ
 وَتَبْكِي دَمًا عَيْنِي وَهُمْ فِي سَوَادِهَا وَوَجْدِي وَسُقْمِي وَأَصْفِرَارِي وَأَدْمَعِي
 وَأَسْأَلُ شَوْقًا عَنْهُمْ وَهُمْ مَعِي) وَيَشْكُو النَّوَى قَلْبِي وَهُمْ بَيْنَ اضْلَعِي

وَقَالَ فِي عَرُوضِ الدُّوَيْتِ الْمَجْزُوءِ وَهُوَ مِنْ اخْتِرَاعِهِ :

الْصَّبُّ إِلَى الْجَمَالِ مَائِلٌ وَالْحُبُّ لَصِيدِهِ دَلَائِلُ

والدمع لِسَانِي جَوَاب
والحسن على القلوب وَآل
لو سَاعِدَ مَنْ أَحَبَّ سَعْدُ
يا عَاذِلِي إِلَيْكَ عَنِّي
ذَا نَازِلَ كَمَثَلِ ظَنِّي
مَا بَيْنَ جُفُونِهِ حُسَامُ
وَالسِيفُ يَبُتُّ ثُمَّ يَنْبُو
وَالسَّهْمُ يُصِيبُ ثُمَّ يَخْطِي
مَهْلًا فَدَمِي لَهُ حَلَالُ
إِنْ أَقْصَدَنِي فَذَاكَ قَصْدِي
يَا حَسَنَ طُلُوعِهِ عَلَيْنَا
ظَمَانُ مُخَفَّفُ الْأَعَالِي
قَدْ نَمَّ بِهِ شَذَا الْغَوَالِي
وَالطَّيِّبُ مُنَبِّهٌ عَلَيْهِ
وَالْفَتْحُ مُحَرِّكٌ إِلَيْهِ
وَالسَّحَرُ رُسُولُ مَقَلَّتَيْهِ
وَالرُّوضُ يُعِيرُ وَجَنَّتَيْهِ
إِنْ رَوَّجَعَ سَائِلَ سَائِلِ
وَالْقَلْبُ إِلَى الْحَبِيبِ وَآئِلِ
مَا حَالُ عَنِ الْحَبِيبِ حَائِلِ
لَا تَقَرَّبُ سَاحَتِي الْعَوَازِلِ
يَشْقَى بِلَحْظِهِ الْمَنَازِلِ
مَخَارِقُهُ لَهُ حَمَائِلِ
وَاللَّحْظُ يُطَبِّقُ الْمَفَاصِلِ
وَاللَّحْظُ يَمُرُّ فِي الْمَقَاتِلِ
مَا أَقْبَلُ فِيهِ قَوْلَ قَاتِلِ
أَوْ جَدَّائِي فَلَا أَجَادِلِ
وَالشُّكْرُ بِمَغْطَفَيْهِ مَائِلِ
رِيَّانُ مَثْقَلِ الْأَسَافِلِ
إِذَا هَبَّ وَنَمَّتِ الْغَلَائِلِ
مَنْ كَانَ عَنِ الْعِيَانِ غَافِلِ
مَنْ كَانَ مُسَكِّنَ الْبَلَابِلِ
مَا أَقْرَبَ عَهْدِهِ بِيَابِلِ
وَرَدًّا كَهَوَايَ غَيْرُ حَائِلِ

واللّٰين يَهْزَ مَعْطِفِيْهِ كالْفُصْنِ تَهْرِهُ الشَّمَائِلُ
والْكَأْسُ تَلُوحُ فِي يَدَيْهِ كالنَّجْمِ بِأَسْعَدِ الْمَنَازِلِ
يَسْقِيكَ بِرِيقِهِ مُدَاماً مَا أَمْلَحَ سَاقِيّاً مُوَاضِلِ
يَسْبِيكَ بِرَقَّةِ الْحَوَاشِي عِشْقاً وَلَطَافَةِ الشَّمَائِلِ
مَا أَحْسَنَ مَا وَجَدْتُ خِداً إِذْ نَجْمُ صَبَإٍ غَيْرُ آفِلِ

وقال محمد بن أحمد الشبُّوكي الفاسي :

أَلَا مَبْلِغُ عَنِي مَغَانِي شَبُوكَةٍ سَلاماً كَعَرَفِ الْمَنْدَلِ الرَّطْبِ وَالنَّدِ
دِيَارِهَا قَلْبِي مُقِيمٌ وَإِنْ نَأَتْ بِجِسْمِي عَنْ أَطْلَالِهَا أَيْنُقُ الْبُعْدِ
عِدْتُ بِهَا عَهْدَ الْهَوَى لَا يَشُوبُهُ
مِنَ الصَّفْوِ تَكْدِيرٌ مِّنَ الْقَمَرِ السَّعْدِ

وقال الأمير أبو علي ابن السلطان أبي سعيد المريني

أَغْلِبُ فِيكَ الشَّوْقَ وَالشَّوْقُ أَغْلَبُ
وَأَطْلُبُ مِنْكَ الْوَصْلَ وَالنَّجْمُ أَقْرَبُ
وَيُطِمِئُنِي قَلْبِي بِوَصْلٍ وَإِنِّي سَأَعْلَمُ حَقّاً أَنَّ قَلْبِي يَكْذِبُ
حَيَاتِي وَمَوْتِي فِي يَدَيْكَ وَإِنِّي أَمُوتُ وَأُحْيَا حِينَ تَرْضَى وَتَغْضَبُ

فلا الوصل يُحِينِي ولا الهجرُ قَاتِلِي ولا مِنْكَ بُدٌّ ، لا ولا عَنْكَ مَهْرَبٌ

وقال ايضاً :

مِلْ يَا نَسِيمُ عَلَى غُصُونِ الْمَنْدَلِ وَاَنْعَمْ بِتِلْكَ الْمَائِسَاتِ الْمِثْلِ
وَإِذَا مَرَرْتَ عَلَى الدِّيَارِ فَسَلِّ بِهَا عَنْ رَاحِلٍ عَنْهَا وَمَنْ لَمْ يَرْحَلْ
زَمُوا الْمَطِيَّ وَخَلِّفُونِي بَعْدَهُمْ تَجْرِي دُمُوعِي فِي رُسُومِ الْمَنْزِلِ

وقال السلطان ابو عَنَانَ المَرِينِي :

يَا رَامِيًا بِالنَّبَالِ مِنْ غَنَجٍ وَصَائِلًا بِالنِّصَالِ مِنْ دَعَجٍ
وَبَادِيًا كَالْهَلَالِ فِي سُحْبٍ وَطَافِحًا مِنْ سُلَاقَةِ الْقَلَجِ
وَبَاسِمًا عَنْ لَثَالِيءِ نُسَيْقَتُ وَنَاسِمًا كُلَّ عَاطِرٍ أَرْجِ
رِفْقًا بِقَلْبِي فَإِنَّ فِيهِ هَوًى وَلَا تُطِلْ فِي الْمَلَالِ وَالْحَرَجِ

وقال ايضاً :

جِسْمِي أَضَرَّ بِهِ السَّقَامُ وَالْجَفْنُ قَدْ عَدِمَ الْمَذَامُ
يَا هَاجِرِي مَنِّي عَلَى أَنْوَارِ غُرَّتِكَ السَّلَامُ

وقال الوزير عبدُ المَهْتَمِنِ الحَضْرَمِي :

نَفْسِي الْفِدَاءُ لِعَهْدٍ كُنْتُ أَعْهَدُهُ وَطِيبَ عَيْشٍ تَقَضَّيْتُ كُلَّهُ كَرَمُ

وَجِرَّةٌ كَانَ نِي أَنَسُ بَوَّصْلَهُمْ وَالْأَنَسُ أَفْضَلُ مَا فِي الْوَصْلِ يُغْتَنَمُ
كَانُوا نَعِيمَ فَوَادِي وَالْحَيَاةَ لَهُ فَلَا نَ كُلُّ وَجُودٍ بَعْدَهُمْ عَدَمُ
بَانُوا فَعَادَ نَهَارِي كُلَّهُ ظُلْمًا وَكَانَ قُرْبُهُمْ تُمَحَّى بِهِ الظُّلَمُ
وَالْعَيْنُ مَنِي لَا تَرَقَا مَدَامِعُهَا كَأَنَّهَا سُحْبٌ تَهْمِي وَتَنْسَجُمُ
تَبْكِي عُيُودَ وَصَالٍ مِنْهُمْ سَلَقَتْ كَأَنَّمَا هُنَّ فِي إِنْسَانِهَا حُلُمُ
لَيْتَنِي ضَجِجْتُ سُرُورًا بِالْوِصَالِ لَقَدْ بَكَيْتُ حُزْنَآ عَلَيْهِمُ وَالْثُمُوعُ دَمُ
هُمْ عَلَّمُونِي الْبُكََا مَا كُنْتُ أَعْرِفُهُ يَا لَيْتَهُمْ عَلَّمُونِي كَيْفَ أُبْتَسِمُ

وقال ابو عبد الله المكنودي

رَحْمَاكَ بِي فَلَقَدْ خَلَدْتَ فِي خَلْدِي هَوَى أَكَابِدُ مِنْهُ حُرْقَةُ الْكَبِدِ
حَلَلْتَ عَقْدَ سُلُوبِي عَنْ فَوَادِي إِذْ حَلَلْتَ مِنْهُ مَحَلَّ الرُّوحِ مِنْ جَسَدِي
مَرَّآكَ بَدْرِي وَذِكْرَاكَ الْتِذَاذُ فَمِي

وَدِينُ حُبِّكَ إِضْمَارِي وَمُعْتَقْدِي

وَمِنْ جَمَالِكَ نُورٌ لَاحَ فِي بَصْرِي وَمِنْ وَدَادِكَ رُوحٌ حَلَّ فِي خَلْدِي
لَا تَحْسِبَنَّ فَوَادِي عَنْكَ مُصْطَبِرًا فَقَبْلَ حُبِّكَ كَانَ الصَّبْرُ طَوْعَ يَدِي
وَهَاكَ جِسْمِي قَدْ أَوْدَى النُّحُولُ بِهِ فَلَوْ طَلَبْتَ وَجُودًا مِنْهُ لَمْ تَجِدْ
بِمَا يَطْرُقُكَ مِنْ غَنَجٍ وَمِنْ حَوَرٍ وَمَا يَشْغُرُكَ مِنْ دُرٍّ وَمِنْ بَرَدٍ
كُنْ بَيْنَ طَرْفِي وَقَلْبِي مُنْصِيفًا فَلَقَدْ حَايَيْتَ بَعْضُهَا فَاَعْدِلْ وَلَا تَحِدْ

فقال لي قد جعلت القلب لي وطناً
وكيف تطلب عدلاً والهوى حكمٌ
من لي بأغيد لا يرثي لذي شجن
ما كنت من قبل إذ عاني لسطوته
إن جاء بالوعد لم تصدق مواعده
شكوته علتي منه فقال : ألا
فقلت إن شئت برثي أو شفا ألمي

وقال :

غرامي فيك بجلٍّ عن القياس
ولا أنسى هواءك ولو جفاني
ولا أدري لنفسي من كمان

وقال ابو العباس الجزناني :

أعلمت ما صنع الفراق
ووقفت منهم حيث للذ
سبقت مطاياهم فما
أطلقت حمل صدودهم
غداة جدَّ به الرفاق
ظرات والدَّمع اتساق
أبطا بنفسك في السباق
الئين خطب لا يُطاق

عن ذاتِ عِرْقٍ^(١) اضْعَدُوا اتَقُولُ دَارُهُمُ الْعِرَاقُ
 مَا ضَرَّهُمْ وَهُمْ الْمَنَى لَوْ وَاَفَقُوا بَعْضَ الْوِفَاقِ
 وَتَيَّامَنُوا عُسْفَانَ^(٢) اِنْ يَقِفُوا بِمُجْتَمَعِ الْوِفَاقِ
 قَالُوا تَقَرُّقُنَا غَدًا فَشَغِلْتُ عَنْ وَعْدِ التَّلَاقِ
 عَمْدًا رَأَوْا قَتَلَ الْعَمِيدِ فَكَانَ عَيْشُكَ فِي نَفَاقِ
 اَوَّلِي بِجِسْمِكَ ابِ يَرْقَ وَدَمَعِ عَيْنِكَ اِنْ يُرَاقِ
 اَمَّا الْفَوَادُ فَعِنْدَهُمْ دَعَاهُ وَدَعَا الْاَشْتِيَاقِ
 اَعْتَادَ حُبَّ مَحَلِّهِمْ فَرَحِيبُ صَدْرِكَ عَنْهُ ضَاقِ
 وَاِهًا لِسَالِفَةِ الشَّبَابِ مَضَتْ بِأَيَّامِي الرَّفَاقِ
 أَبْقَتْ حَرَارَةَ لَوْعَةٍ بَيْنَ التَّرَائِبِ وَالتَّرَاقِ
 لَا تَنْظِفِي وُورُودَهَا مِنْ ادْمَعِي كَأْسُ دِهَاقِ

وقال :

يَا مُوحِشِي وَالْبُعْدُ دُونَ لِقَائِهِ أَذْعُوكَ عَنْ شَحْطٍ وَإِنْ لَمْ تَسْمَعْ
 يُدْنِيكَ مِنِّي الشَّوْقُ حَتَّى إِنَّنِي لِأَرَاكَ رَأْيَ الْعَيْنِ لَوْ لَا أَدْمَعِي

١ - ذات عرق مكان وهو مهل أهل العراق .

٢ - عسفان قرية على مرحلتين من مكة .

وَأَحْنُ شَوْقًا لِلنَّسِيمِ إِذَا سَرَى بِحَدِيثِكُمْ وَأَصِيخُ كَأَلَسْتَطَلْعِ
كَانَ اللَّقَاءُ فَكَانَ حَظِّي نَاطِرِي وَسَطَالِفِرَاقُ فِصَارِ حَظِّي مَسْمَعِي
فَابْعَثْ خَيَالِكَ تَهْدِيهِ نَارُ الْحَشَا إِنْ كَانَ يَجْهَلُ مِنْ مَقَامِي مَوْضِعِي
وقال :

أَجْمَعُ هَذَا الشَّمْلُ بَعْدَ شَتَايَ وَيُوصَلُ هَذَا الْحَبْلُ بَعْدَ انْبِثَايَ
أَمَّا لِلْيَالِي آيَةُ عَيْسَوِيَّةٌ فَتَنْشُرَمِينَتُ الْأُنْسِ بَعْدَ مَمَاتِهِ
وَيُورِدَ عَيْنِي بَعْدَ مَلْحِ مَدَامِعِي بِرُؤْيَيْهِ فِي عَذْبِهِ وَفُرَاتِهِ

وقال الرئيس ابو العباس الغزني :

لَكُمْ حِمَى فِي فُؤَادِي غَيْرُ مَقْرُوبٍ فَضَائِعُ فِي هَوَاكُمُ كُلُّ تَأْنِيبٍ
إِنْ كَانَ مَا سَاءَ لِي مِمَّا يَسْرُكُمْ فَعَذَّبُوا فَقَدْ اسْتَعَذَّبْتُ تَعْذِيبِي
عُودُوا إِلَى الْوَصْلِ أَوْ عُودُوا عَلَيْنَاكُمْ وَبَادِرُوا فَرِضَاكُمْ طَبُّ مَطْبُوبٍ
كَمْ أُرْسَلْتُ أَذْمَعِي تَتْرَى بِصِدْقِي فِي دَعْوَى هَوَاكُمُ فَقَابَلْتُمْ بِتَكْذِيبٍ
وَلَاذَ بِالصَّبْرِ قَلْبِي حِينَ غَالَبَنِي شَوْقِي كَمَا لَاذَ غَالِبٌ بِمَغْلُوبٍ
لَوْلَا الْحَيْبُ الَّذِي يَنْأَى بِنَائِكُمْ مَا كَانَ قُرْبُكُمْ عِنْدِي بِمَحْجُوبٍ

١ - منسوبة الى عيسى عليه السلام وكان من آياته احياء الموتى .

٢ - المطبوع المسحور .

تَشَكَّتْ جِيَادِي مَا أَضَرَّ بِهَا مِنْ طُولِ رَكْضٍ وَإِسْتَادٍ وَتَأْوِيلٍ
 مِنْكُمْ رَشَاءُ لَوْلَا لَوَا حِظُّهُ مَا كَانَ قَلْبِي مِنْ صَدْرِي بِمَسْلُوبٍ
 بَدَأَ خَرَّتِ الْإِلْحَاطُ سَاجِدَةً لِنُورٍ وَجْهِ بَتَاجِ الْحُسْنِ مَعْصُوبٍ
 لُ حَبَّةٌ قَلْبِي خَالَهُ أَبَدًا يَصْلَى بِجَمْرِ عَلَى خَدَّيْهِ مَشْبُوبٍ
 لَتَ عَقَارِبُ صُدُغَيْهِ وَخَفَّ بِهَا حَيَاتُ وَخَفَّ مَعَ الْأَذْيَالِ مَسْخُوبٍ
 نِي الْقُلُوبُ فَتَجَنَّبِي وَرَدَّ وَجَنَّتِهِ فَتَنَنِّي بَيْنَ مَلْسُوعٍ وَمَلْهُوبٍ
 رِيَاضُ حُسْنٍ رِمَاحُ الْهَدَبِ مُشْرَعَةٌ

لِلذَّبِ عَنْهَا بَطْنٌ غَيْرُ تَذْيِيبٍ^٢
 هَا مَصَارِعُ لِلْعِشَاقِ دَامِيَةٌ فَكُلُّهُمْ بَيْنَ مَطْعُونٍ وَمَضْرُوبٍ

وقال :

لَمَكْتُ رِقِّي بِالْجَمَالِ فَأَجْمَلُ وَحَكَمْتُ قَلْبِي بِاعْتِدَالِكَ فَأَعْدِلُ
 نَتَ الْمَلِيكَ عَلَى الْمَلَاكِ وَمَنْ يَجْرُ فِي حُكْمِهِ إِلَّا جُفُونُكَ يُغْزَلُ
 نَقِيلُ أَنْتَ الْبَدْرُ فَالْفَضْلُ الَّذِي لَكَ بِالْكَهَالِ، وَنَقْصُهُ لَمْ يُجْهَلُ
 وَلَا الْحُظُوظُ لَكُنْتَ أَنْتَ مَكَانَهُ وَلَكِنْ دُونُكَ فِي الْحَضِيضِ الْأَسْفَلُ

١ - الوحف الشعر الكثير شبه صفائره بالحيات .

٢ - التذبيب : الدفع .

عَيْنَاكَ نَازَلَتْ الْقُلُوبَ فَكَلَّمَهَا
هَزَّتْ ظُبَاهَا بَعْدَ كَسْرِ جُفُونِهَا
مَا زِلْتُ أُعْذِلُ فِي هَوَاكَ وَلَمْ يَزَلْ
أَصْبَحْتُ فِي شُغْلٍ بِحَبِّكَ شَاغِلٍ
لَمْ أَهْمِلِ الْكِتْمَانَ لَكِنْ أَدْمَعِي
مَا فِي الدُّبُورِ وَلَا الْجَنُوبَ جَوَابُ مَا
حَمَلْنَاهَا مِنْ طِيبٍ عَرَفَكَ نَفْحَةً
إِنْ كُنْتَ بَعْدِي حُلْتَ عَمَّا لَمْ أَحُلْ
أَوْ حَالَتْ الْأَحْوَالُ فَاسْتَبَدَلْتُ بِي

إِمَّا جَرِيحٌ أَوْ مُصَابٌ الْمَقْتُلُ
فَأُصِيبَ قَلْبِي فِي الرَّعِيلِ الْأَوَّلِ
سَمِعِي عَنِ الْعُذَّالِ فِيكَ بِمَعْزِلِ
عَنْ أَنْ أُصِيحَ إِلَى كَلَامِ الْعُذْلِ
هَمَلْتُ وَلَوْ لَمْ تَعْصِنِي لَمْ تَهْمَلِ
أَهْدِي إِلَيْكَ مَعَ الصَّبَا وَالشَّمَالَ
تُحْيِي ذِمَاءَ عَلِيْلِكَ الْمُتَعَلِّلِ
عَنْهُ وَقَدْ أَهْمَلْتُ مَا لَمْ أَهْمِلِ
فَأَنَا بِحَيِّ فِيكَ لَمْ أُسْتَبَدَلِ

وقال :

لِي فِي سَبْتَةٍ سَكَنُ
فَهُوَ يَزْدَادُ جِدَّةً
أُصْبَحَ الْقَلْبُ عِنْدَهُ
إِنَّ هَارُوتَ^٢ لَوْ رَأَى

حُبَّهُ فِي الْحَشَا سَكَنُ
مَعَ إِبْلَائِهِ الزَّمَنُ
وَبَغْرَ نَاطَةِ الْبَدَنُ
سِحْرَ الْحَاطِظِ افْتَنُ

١ - الدبور الريح الغربية وباقي أسماء الرياح المذكورة معروفة .

٢ - هاروت هو أحد ملكين كانا يسابل يعلمان الناس السحر واسم الثاني ماروت .

رَشَاءُ سِحْرُ بَابِلِ بَيْنَ عَيْنَيْهِ قَدْ كَمَنَ
 زَارِنِي وَالرَّقِيبُ قَدْ غَابَ وَاللَّيْلُ حِينَ جَنَ
 بَعْدَ بُعْدٍ حَتَّى الضُّلُوعِ عَلَى الشَّجْوِ وَالشَّجَنِ
 فَشَهِدْنَا عَلَى نِكَاحِ - ابْنِ مُزْنٍ بِنْتِ دَنَ
 وَنَعِمْنَا إِلَى الصَّبَاحِ كَرُوحَيْنِ فِي بَدَنِ
 وَسَكِرْنَا فَظُنَّ خَيْرًا بِنَا وَاتْرُكِ الظَّنَّ

وقال :

وَعَدْتَنِي أَنْ تَزُورِيَا أَمَلِي فَلَمْ أَزَلْ لِلطَّرِيقِ مُرْتَقِبَا
 حَتَّى إِذَا الشَّمْسُ لِلْغُرُوبِ دَنَتْ وَصَيَّرَتْ مِنْ لَجِينِهَا ذَهَبَا
 أَنَسْتُ بِالْبَدْرِ مِنْهُ حِينَ بَدَا لِأَنَّهُ لَوْ ظَهَرَتْ لَاحْتَجَبَا

وقال :

هَجَرُكُمْ مَا لِي عَلَيْهِ جَلْدُ فَأَعِيدُوا لِي الرِّضَا أَوْ فَعِدُوا
 مَا قَسَا قَلْبِي مِنْ هَجَرِكُمْ وَلَقَدْ طَالَ عَلَيْهِ الْأَمْدُ

وقال ابن هاني السبتي موريا :

مَا لِلنَّوَى مُدَّتْ لِغَيْرِ ضَرُورَةٍ وَلَطَالَمَا عَهْدِي بِهَا مَقْصُورَةٌ

إِنَّ الحَلِيلَ وَإِنْ دَعَتْهُ ضَرُورَةٌ لَمْ يَرْضَ ذَاكَ فَكَيْفَ دُونَ ضَرُورَةٍ

وقال ابو القاسم الشَّريف :

زَارَتْ بِأَكْرَمِ لَيْلَةٍ وَفَى بِهَا حَقَّ الزَّيَارَةِ زَائِرٌ وَمَزُورُ
تَطَارَحَ الشَّكْوَى وَقَدَّشَرَدَ الْكُرَى عَنَّا فَتَنُّجِدُ فِي الْهَوَى وَنَغُورُ
ثُمَّ انْجَلَى الْإِصْبَاحُ فَالْتَفَتَتْ كَمَا يَرْنُو غَزَالُ الرَّبِّبِ (١) الْمَذْعُورُ
حَتَّى إِذَا قَامَتْ تَمُدُّ بِنُورِهَا مُتَبَلِّجُ الْإِصْبَاحِ حِينَ يَنُورُ
طَارَ الْفَوَادُ فَصِرْتُ أَعْجَبُ وَهُوَ فِي شَرَكِ الْهَوَى قَدْ صِيدَ، كَيْفَ يَطِيرُ

وقال :

ظَفِرْتُ بِلَشْمِهَا فَبَدَا احْمِرَارُ بَوَجَّتِيهَا يَزِيدُ الْقَلْبَ وَجْدَا
فَأَغْرَاهَا بِي الْوَإِشِي فَظَلَّتْ تَلُومُ وَلَمْ أَكُنْ مِمَّنْ تَعْدَى
فَمَا كَانَتْ سِوَى قُبَلٍ بِفِيهَا جَنَيْنَ أَقْلِحِيًّا وَغَرَسَنَ وَرْدَا

وقال :

غَزَالُ أَنْسٍ كَمْ اسْتَدْنَيْتُهُ فَنَائِي عَنِّي وَأَعْرَضَ مُزَوَّرًا بِجَانِبِهِ
طَالَتْ عَلَيَّ لَيَالٍ فِي هَوَاهُ كَمَا طَالَتْ عَلَيْهِ لَيَالٍ مِنْ ذَوَائِبِهِ

وقال أبو بكر بن شبرين :

أُخِذْتُ بِكَظْمِ الزُّوجِ يَا سَاعَةَ النَّوَى

وَأُضْرِمْتُ فِي ظِلِّ الْحَشَا لِأَعْيَجِ الْجَوَى

فَمَنْ مُخْبِرِي يَا لَيْتَ شِعْرِي مَتَى الْلَقَا

وَهَلْ تَحْسُنُ الدُّنْيَا وَهَلْ يَرْجِعُ الْهَوَى ؟

سلا كلُّ مشتاقٍ وأَقْصَرَ وَجْدُهُ وعند اللوى ووجدى وفي ساكني اللوى

ولي نية ما عشتُ في حفظ عهدهم إلى يوم ألقاهم وللمرء ما نوى

وقال أيضاً :

مَتَى تَسْمَعُ الدُّنْيَا بِقَرَبِكُمْ مَتَى لقد عاثَ هذا البَيْنُ ظُلماً وَعَثْنَا

أَلَا قَبَّحَ اللَّهُ الْفِرَاقَ فَإِنَّهُ لَأَصْعَبُ مَا يَلْقَاهُ مِنْ دَهْرِهِ الْفَتَى

أَفِي كُلِّ يَوْمٍ رِحْلَةً بَعْدَ رِحْلَةٍ لقد أَعْبَتْنَا رِحْلَةُ الصَّيْفِ وَالشِّتَا

وَكُنْتُ أَرَى ذَا قُوَّةٍ وَشَبِيهَةٍ وَلَكِنْ تَوَلَّيْنِي اللَّيَالِي فَوَلَّيْنَا

وكيفَ احْتِمَالِي ذَاكَ وَالرُّكْنَ قَدْ هَوَى

وهذا مَشِيبِي بِالْحِمَامِ مُبَكَّتَا

وقال أيضاً :

يَا مَنْ أَعَادَ صَبَاحِي فَقَدْ هَلَكَ قَتَلْتَ عَبْدَكَ لَكِنْ لَمْ تَخَفْ دِرَاكَا

مُصِيبَتِي مِنْكَ لَيْسَتْ كَالْمَصَائِبِ لَا وَلَا بُكَائِي عَلَيْهَا مِثْلُ كُلِّ بَكَاءٍ
فَمَنْ أَطَالِبُ فِي شَرْعِ الْهَوَى بِدَمِي لَحْظِي وَلَحْظُكَ فِي دَمِي قَدْ اشْتَرَاكَ

وقال السلطان ابو العباس بن ابي سالم المريني :

أَمَّا الْهَوَى يَا صَاحِي فَأَلْفَتْهُ وَوَعْدَتْهُ مِنْ عَهْدِ أَيَّامِ الصَّبَا
وَرَأَيْتُهُ قُوْتَ النُّفُوسِ وَحَلِيهَا فَتَخَذَتْهُ دِينًا إِلَيَّ وَمَذْهَبًا
وَلَيْسَتْ ذُنُوبُ النَّاسِ مِنْهُ حُجَلَةٌ كَانَ الْوَفَاءُ لَهَا طِرَازًا وَمَذْهَبًا
لَكِنْ رَأَيْتُ لَهُ الْفِرَاقَ مُنْغَصًّا لَا مَرْحَبًا بِفِرَاقِنَا لَا مَرْحَبًا

وقال الكاتب محمد بن أبي مدين :

عَزَّ صَبْرِي وَلَمْ أَكُنْ بِالْجَهُولِ عِنْدَ مَا آدَنِي مَسِيرُ الْحُمُولِ
هَا أَنَا فِي الطُّلُولِ أُرْسِلُ دَمْعًا لَيْسَ إِلَّا بِهِ شِفَاءُ الْعَلِيلِ
لَمْ تَكُنْ أَدْمَعِي بِأَوَّلِ دَمْعٍ طَلَّهَ الْعَاشِقُونَ بَيْنَ الطُّلُولِ
فَدُمُوعِي الْغِزَارُ طُوفَانُ نُوحٍ وَضُلُوعِي الْحِرَارُ نَارُ الْخَلِيلِ
لِجُوبِ الشَّمَالِ مِلْتُ أَرْتِيَا حَا فَكَأَنِّي شَرِبْتُ كَأَلْسِ شَمُولِ
وَالْتِزَامُ الرُّبُوعِ صَيَّرَ جِسْمِي مُشَبَّهًا مِنْهُمْ لِكُلِّ نَحِيلِ
أَهْ مِمَّا أَضْرَبِي مِنْ غَرَامٍ وَاشْتِيَاقٍ وَلَوْعَةٍ وَعُغْلِيلِ
سَادَتِي هَلْ إِلَى الْوِصَالِ سَبِيلُ إِنِّي لَمْ أَجِدْ لَهُ مِنْ سَبِيلِ

إِنَّ أُمَّتْ فِي الْهَوَى فَعَيْزُ نَكِيرٍ كَمْ لَهَا فِي ذَوِي الْهَوَى مِنْ قَتِيلٍ
 فَارْحَمُوا مَنْ شَكَالَ لَغِيرِ رَحِيمٍ بَعْدَكُمْ وَاسْتَنَالَ غَيْرَ مُنِيلٍ
 نَالَ عِزًّا بِكُمْ وَذَلًّا لَدَيْكُمْ فَاعْجَبُوا مِنْهُ لِلْعَزِيزِ الْيَذِيلِ
 وَبِشَوْقِي بَعَثْتُ قَلْبِي رَسُولًا فَارْفُقُوا لَا يَحِلُّ قَتْلُ الرُّسُولِ
 أَنَا عَبْدٌ لَكُمْ عَلَى كُلِّ حَالٍ كُنْتُمْ لَيْسَ لِي بِكُمْ مِنْ بَدِيلِ

وقال يحيى ابن مليل من أهل فاس توفي سنة ٧٥٠ .

عَسَى الْإِيَّامُ أَنْ تُدِنِي نَزُوحًا وَتَشْفِي بِالْكَرَى جَفْنًا جَرِيحًا
 وَتُبْدِلَنَا التَّنَائِيَّ بِالتَّدَانِي وَتُبْرِئَ بِاللَّقَا قَلْبًا قَرِيحًا
 عَسَاهُ أَنْ يُلِمَّ بِهِ خِيَالٌ يُزِيلُ السَّقَمَ وَالْمَرَضَ الصَّحِيحَا
 فَدَاءُ الْهَجْرِ لَيْسَ لَهُ دَوَاءٌ سِوَى وَصْلِ الْأَحِبَّةِ إِنْ أُتِنِجَا
 لَقَدْ بَلَغَ الْمَنَى مَنْ وَاصَلُوهُ وَنَالَ الْفُوزَ وَالتَّجَرَ الرَّيِّحَا
 فَهَلْ مِنْ مُنْصِفٍ مِنْ حُكْمِ دَهْرٍ غَدَا جَوْرًا بَوْصَلِكُمْ شَحِيحَا
 أَعِدْ يَا صَاحِبِ ذِكْرِهِمْ وَصِفْ لِي حَدِيثًا عَنْهُمْ كَيْ أُسْتَرِيحَا
 وَقُلْ هَلْ حَافِظُوا عَهْدِي وَرَاعُوا وَدَادًا أَمْ نَسَوَا وَدَاً صَحِيحَا
 فَذِكْرُهُمْ مُنَى قَلْبِي وَإِنِّي إِذَا بَصَرِي رَأَى بَرْقًا لَمُوحَا
 أَجِنُّ لَأَرْضِهِمْ وَيَزِيدُ شَوْقِي إِذَا مَا شِمْتُ مِنْ نَعْمَانِ رِيحَا
 وَلَوْ أَنِّي شَكَوْتُ إِلَى جَمَادٍ لَحَقَّ لَهُ لِحَالِي أَنْ يَنُوحَا

أَلَا سَقِيًّا لَأَيَّامٍ تَقَضَّتْ عَذُولِي كَانَ لِي فِيهَا . نَصِيحَا
وَكُنَّا لَا نَرَى فِي الْحَبِّ هَجْرًا وَلَمْ نَذِرِ الْبِعَادَ وَلَا التَّزُوحَا
وَلَمْ نَشْكُ النَّوَى حَتَّى رَمَتْنَا بِأَسْهُمِهَا عَلَى قَدَرٍ أُتِيحَا
فَنَثَرَتْ أَنْتِظَامَ الشَّمْلِ مِنَّا وَاصْبَحَ رَبُّعُهُمْ رُبْعًا طَرُوحَا^(١)
أَيَا مَنْ قَدْ أَذَابَ الْجِسْمَ هَجْرًا تَرَفَّقُ قَدْ أَتَيْتُكَ مُسْتَمِيحَا
وَقَدْ أَقَرَرْتُ مَوْلَانِي فَكُنْ لِي بِمَا عَوَّذْتَنِي مَوْلَى صَفُوحَا
وَدَاوِ بِرَغَمِ حُسَّادِي جُفُونًا بَكَتْ بَعْدَ الدَّمُوعِ دَمًا سَفُوحَا
وَلَا زَمْتَ الْبُكَاءَ وَالشَّهْدَ لَمَّا أَبَى شَوْقُ الْأَحِبَّةِ أَنْ يَرُوحَا

وقال القائد عبد الرحمن القبائلي المتوفى سنة ٨٠٢

أَتَسْمَعُ فِي الْهَوَى قَوْلَ اللَّوَا حِي وَقَدْ أَبْصَرْتَ خِشْفَ بَنِي رَبَاحٍ
غَزَالُ خَلْفَ الصَّبِّ الْمَعْنَى مِنَ الْوَجْدِ الْمُبَرِّحِ غَيْرَ صَاحٍ
وَقَدْ قَتَلْتُ - وَلَا إِنْهُمْ عَلَيْهَا - مِرَاضُ جُفُونِهِ كُلِّ الصَّحَّاحِ
يَقُولُ وَلَحَظَهُ بِالْقَلْبِ يُزْرِي عَلَامَ تَطِيلُ وَضْفِي وَأُمْتِدَاحِي
فَقُلْتُ فَنُونُ حُسْنِ فَيْكِ رَاقَتْ قَضَتْ لِلْقَلْبِ بِالْعِشْقِ الصُّرَاحِ
جَبِينُكَ وَالْمَقْلَدُ وَالشَّانِيَا صَبَاحُ فِي صَبَاحٍ فِي صَبَاحٍ

وقال ابنُ جابرِ المكناسي :

تالله بعد أجبائي الذين مضوا وخلّفوني رهين البثّ والشجن
ما أبصرتُ مُقلّتي من بعدهم حسناً ولا نظرتُ إلى شيء فأعجبني

وقال مُورّياً :

إن خفتَ من فتك المَهْنَدِ والقنا فاذا رنتُ وإذا مَشَتْ لا تَقْرُب
في قلب بُرْقُعها حَاسِنُ أنزَلَتْ قَمَرِ السَّماءِ لَنَا بِقَلْبِ الْعَقْرَبِ^(١)

وقال كذلك :

حَلَّتْ عَقَارِبُ ضِدْغِهِ مِنْ خَدِّهِ قَمَرًا فَجَلَّ بِهَا عَنِ التَّشْبِيهِ
ولقد عَهِدْنَاهُ يَحُلُّ بِرِجْهِا فَمِنَ الْعَجَائِبِ كَيْفَ حَلَّتْ فِيهِ

وقال السلطان محمد المتوكل السَّعْدِي :

خَلِيلِي مَا يَخْفَى انْحِصَارِي عَنِ الصَّبَا فَحَلَّا عِقالِي قَدْ أَضَرَّ بِي الرِّبْطُ
وَلَا تَحْفِلَا مَن لَامَ أَوْ تَتَلَوَّمَا فَإِنَّ بَحَارَ اللَّوْمِ لَيْسَ لَهَا شَطُّ

١ - في قلب برقعها اي داخله وبقلب العقرب اي بالبرقع اذ هو مقلوب

العقرب كما لا يخفى والتورية في كون العقرب من منازل القمر .

وقال السلطان المنصور الذهبي :

مِنْ عَنبرِ الشَّحْرَاءِ مِنْ مِثْلِكَ دَارِينَ^(١) بَلَى وَمِنْهُ نُسَيْمَاتُ الرِّيَاحِينَ
مُهَفِّفَ أَنْ تَنْتَنِي قُلْتُ مَقْتَضِبُ مِنْ قَضْبِ نَعْمَانٍ أَوْ مِنْ كُثْبِ يَبْرِينِ^(٢)
ذَنْبِي إِلَيْهِ - وَلَا ذَنْبُ - مُحِبَّتُهُ مِنْ أَجْلِهَا بِسَهَامِ اللَّحْظِ يَرْمِينِي

وقال :

أَقَامَ بِقَلْبٍ فِي هَوَاهِ مُقَلَّبٍ وَأَنْتَى لَهُ بَيْنَ الضُّلُوعِ مُقَامُ
فِيَا شَادِنَا مَرْعَاهُ حَبَّةُ مُهَجَّتِي أَمَا لِحِشًا أَقَمْتَ فِيهِ ذِمَامُ

وقال السلطان أبو المعالي زَيْدَانُ بْنُ الْمَنْصُورِ الذَّهَبِي :

فَتَنَّنَا سَوَالِفُ وَخُدُودِ وَغُيُورُ مُدَعَّجَاتِ رُقُودِ
وَوُجُوهُ تَبَارَكَ اللهُ فِيهَا وَشُعُورُ عَلَى الْمَنَاكِبِ سَوْدِ
أَهْلَكْتَنَا الْمَلَاخُ وَهِيَ ظَبَاءُ وَخَضَعْنَا لَهَا وَنَحْنُ أُسُودِ

وقال أيضاً :

مَرَرْتُ بِقَبْرِ هَامِدٍ وَسَطَ رَوْضَةٍ عَلَيْهِ مِنَ الثُّوَارِ مِثْلُ النَّهَارِقِ
فَقُلْتُ لِمَنْ هَذَا فَقَالُوا بِذِلَّةٍ تَرَحَّمُ عَلَيْهِ إِنَّهُ قَبْرُ عَاشِقِ

١ - اسم فرسة بالبحرين ينسب اليها المسك

٢ - موضع كثير الرمل .

وقال عبد العزيز الفشتالي :

حينَ أزمَعْتُ عندَ خَوْفِ البِعادِ وَعَدْتَنِي مِنَ النِّراقِ العَوادي
قالَ صَخي وقد أَطَلْتُ التِّفاني أَيَّ شَيْءٍ تَرَكْتُ قَلْتُ فَوَّادي

وقال أبو عبد الله الوَّجدي الكاتب المتوفى ١٠٣٣ هـ

ليسَ الصُّفْرَةَ كَيَ يَزْهُو بِها شادِنٌ مِنْ جَنَّةِ الخُلدِ نَفَرٌ
خَلَّتْهُ مِنْ حُسْنِهِ لَمَّا بَدَا هالَةً الأَفقَ بوُسْطَهاها القَمَرُ
ولأبي سالم العيَّاشي :

ولمْ أَنسَها يَقطانَةَ الهَمِّ في الحِشا مُبَلِّلَةَ الأشْجانِ وَسنانَةَ الطَّرْفِ
تَقُولُ وقد جَدَّ الرَّحيلُ أَهْكَذا تُحْمِلُنِي ثِقْلَ الفِراقِ على ضُعْفِي
أَتَرَكُ أَفْراحاً كَرُغِبِ الأَقْطا وما رَحِمْتَ بَنِيكَ إِذْ سَلَوْتَ عَنِ الإِلفِ
فَقُلْتُ لَهَا كَفَيْ المَلامَ فَأَعْرَضْتَ

كَخِشْفِ النِّقا تَسْتَعْرِضُ الدَّمْعَ بِالكَفِّ

فودَّعْتِها وَالقَلْبُ مُنْطَبِقٌ على أَساهُ وَدَمْعِي لا يَمِلُّ مِنَ الوَكْفِ
عَلَيْكَ سَلامٌ لا زِيارَةَ بَيْنَنا مَعَ البُعْدِ إِلَّا أَنْ أَزُورَ مَعَ الطَّيْفِ

وقال احمد بن عبد الواحد الشَّريف المتوفى ١٠٠٩ هـ

مَنْ مُنْقَذِي مِنْ شادِنٍ فَاتِنٍ يُوَثِّرُهُ البَذْنُ على نَفْسِهِ
إِذا انْتَضَى مِنْ لَحْظِهِ مُرْهَفاً ما أَقْرَبَ الانْسانَ مِنْ رَمْسِهِ

وقال ابو علي اليوسي مُتَشَوِّقاً إِلَى زاوية الدَّلَاءِ^(١) :

أَلَا لَيْتَ شِعْرِي هَلْ أَرَى مِنْ ثَنِيَّةٍ عِضَاهَا كَمُصْفُوفِ الْكَتَائِبِ تُشْرِفُ
وَهَلْ أَرَدَنْ مِنْ سَلْسِيلِ مَوَارِدٍ هُنَاكَ لِمَعْسُوقِ الْمَبَاسِمِ تَرُشِفُ
وَهَلْ أَرَيْنَ مَعْنَى الدَّلَاءِ عَشِيَّةً كَأَنَّ بَقَايَاهَا بِنَاءُ مُفَوِّفٍ
ذَكَرْتَكُمْ وَهْنًا وَإِنِّي لَمُدْلِجٌ بِأَجْوَاكِ أَقْطَارِ الصَّحَارَى أُطَوِّفُ
فَقُلْتُ وَقَلْبِي ضَمَنْ شَجْوٍ وَلَوْعَةٍ وَجَفَنِي بَمَنْشُورِ الْجَمَانِ يُكْفَكِفُ
أَدَارًا سُقِيتِ الْوَبْلَ غَيْرَ مُبْرِحٍ

وَلَا بَرَحَتْ عَنْكَ الْحَوَادِثُ تُصَرِّفُ
لَقَدْ هَجَّتْ فِي الْقَلْبِ الْعَمِيدَ صَبَابَةً تَكَادُ لَهَا حُصْمُ الْجِبَالِ تَقْصَفُ

وقال مُورِيَا :

وَعَادِلٍ عَنِ الْهَوَى عَادِلٍ يَدْعُو لِأَمْرِ فِي الْهَوَى إِمْرٍ
قَالَ أَسْلُهُمْ وَاصْبِرْ فَكُمْ ذَائِقِي أَمْرًا فِي الْهَجْرِ مِنَ الصَّبْرِ
وَزَعْ عِنَانَ الْقَلْبِ عَمَا جَرَى عَلَيْهِ مِنْ بَلَوَاهُ أَوْ يَجْرِي
فَأَيُّ عُذْرٍ فِي اتِّبَاعِ الصَّبَا قُلْتُ لَهُ إِنْ الْهَوَى عُذْرِي

وقال الأمير محمد العالم بن السلطان مولاي اسماعيل العلوي
أيام خلافته بسوس يتشوق الى مدينة فاس :

ألا ليت شعري هل أنزه ناظري وللنفس إقبال بوادي الجواهر
أمتع طرفي في رياض أنيقة وأقطف أزهاراً بها كالزواهر
بحيث ترى أسد العرين صريعة وقد فتكت فيها طباء المقاصر
وحيث ترى غلب الحقائق سلسلت

حديثاً صحيحاً عن نسيم الأزاهر

وقد نسجت كف النسيم عشيّة ذروع مياه بين تلك النواعر
وأصبحت الأطيّار فوق غصونها فصاحاً تقص فوق خضر المنابر
سقى الله أدواحاً بفاس عهدتها تغازل أنواء الغيوث الماطر
ولا برحت عين تراها قرية وإن قذفت بالقلب بجمرة حائر
لك الله من ألف بدرعة جسمه وقلب بفاس في قدامة طائر
تراوحه الأشواق في كل ليلة فما بين مزور هواه وزائر
ولو أنه يُعطى على قدر مثله لكان له ما بين يسرّ وياسر

١ - اسم اقليم مغربي معروف .

٢ - يسر اسم ماء لبني يربوع وياسر جبل في منازل أبي بكر بن كلاب .

وقال أخوه الأمير زَيْدَان :

لم أنسَ يومَ زارني قمري فكمَلَ الأنسُ به اذْ جلس
قبَلْتُ منه الخدَّ مُختلياً وأنما العيشُ الشهيُّ خلس
ومِلْتُ للثغرِ على غِرَّة مِنْهُ فَمَا أَطيبَ ذاكَ اللّـُغْس
فجَادَ لي بالرَّيقِ حيثُ دَرَى أَنِّي عليلٌ لا أُطيقُ النَّفس
وبتُ نَشْوَانَ بِعَافِيَةٍ أَغْتيمُ الفرَصَةَ عندَ الْغَلَسِ

وقال ابنُ زَاكُور :

با رَعَى اللهُ لَيَالٍ قد خَلَتْ كلَّتَالٍ في سُلوِكٍ من نُضَار
وعهوداً سَلَفَتْ لي بِالحِمَى فسَقَى الوَبْلُ الحِمَى غيرَ مُضَار
حيثُ لَا هَمٌّ وَلَا عَمٌّ سِوَى رَنَّةِ العُودِ وكَلَسَاتٍ تُدَار
من عُقَارٍ كَنُضَارٍ أَفْرِغَتْ في أَبَارِيقَ حَكَتْ شُهْبَ الدَّرَار
عَلَّلُوا قَلْبَ الشَّجِيِّ مِنْ شُرْبِهَا مَا أَحْيَلَ الشَّرْبَ مِنْ تِلْكَ العُقَار
مَعَ ظَبَاءٍ كَلَفَ القَلْبُ بِهِمْ سَمَحُوا بِالوَصْلِ مِنْ بَعْدِ نِفَار
في رِيَاضٍ كَزَرَابٍ نُمِّقَتْ بِشَقِيقٍ كَعَقِيقٍ وَبَهَار
أَرَى أُحْظَى يَوْضَلُ بَعْدَ مَا نَجَدَتْ مِنْ طَاقَتِي تِلْكَ الدِّيَار
فَعَلَى آرَامِهَا مِنْ مُدْنِفٍ شَائِقٍ نَشَرُ سَلامٍ كَالْعَرَار

وقال مجنساً :

ذابَ قلبي من الصدودِ ولولا
ليتَ شعري وهل يرقُّ لحالي
ما أُرْجِي من الوصالِ قَضَيْتُ
من هَوَيْتُ فإني قد هَوَيْتُ

وقال :

ولقد ذكركَ بالرُّبى من لَمَطَةٍ
فأحتاج ريحَ الشوق بين أضالعي
ونسيمها يُهْدِي إليَّ أريجاً
يُذَكِّي لظيِّ وِجدي فأجَّ أجيجاً

وقال :

ذكرتكَ والبحرُ طَلَقُ المَحْيَا
فأضَ سَريعاً يُحَاكِي فُؤادي
على مَتْنِهِ رَوْنَقٌ وَابْتِهَاجُ
أَلَا لَيْتَ شِعْري يَجْمَعُنَا
لِأَمْوَاجِهِ لَدَدٌ وَأَنْزِعَاجُ
بِلَادِهِ مِنْ سَنَاكِ سِرَاجُ

وقال ابن الطيّب العَلَمي :

اشكُو الى الله لا إلى أَحَدٍ
وما أَكَابِدُ فيه من تَعَبٍ
غَمَّ الفِرَاقُ الذي على كَبْدي
لقد خَلَقْنَا الإنسانَ في كَبْدٍ

غَابَ الَّذِي غَبْتُ فِي مَحَاسِنِهِ وَسَارَ مِنْ بَلَدٍ إِلَى بَلَدٍ
 قَطَعْتُ عَنْهُ يَدَ الْوَفَا فَنَأَى يَا لِلْوَرَى بِيَدِي قَطَعْتُ يَدِي
 بَدْرٌ بِأَفَقِ الْقُلُوبِ مَطْلِعُهُ يَفْتَرُّ عَنْ دُرِّ وَعْنِ بَرْدٍ
 رَوَيْتُ عَنْ ثَغْرِهِ النَّظَامَ إِلَى أَنْ شِخْتُ بَيْنَ الرَّوِيِّ وَالْوَيْدِ
 وَلِي لِسَانٌ يَزِينُهُ لَسَنُ أَكَاذٍ فِيهِ أَقَاسُ بِالصَّفْدِي
 ظَلَّتْ دُمُوعِي فِي الْحَدِّ مُطْلَقَةً يَوْمَ الْوَدَاعِ وَالْقَلْبُ فِي صَفْدٍ
 يَقُولُ إِنْ قُلْتُ مِتْ مِنْ شَغَفٍ مَا إِنْ أَرَى لِلْقَتِيلِ مِنْ قَوْدٍ

وقال :

تَفْتَحَ وَرْدٌ يَانِعٌ فَوْقَ خَدِهِ أَلَا فَانْظُرُوا وَرْدًا تَفْتَحُ فِي الْحَدِّ
 وَفِي ثَغْرِهِ وَرْدٌ مُنِيعٌ وَرُودَهُ وَمَا ضَرَّهُ لَوْ جَادَ بِالْوَرْدِ وَالْوَرْدُ

وقال :

يَا طَلْعَةَ الْبَدْرِ فِي لَيْلٍ مِنَ الشَّعَرِ يَا فِثْنَةَ خُلِقْتَ فِي صُورَةِ الْبَشَرِ
 أَرْحَمُ شَيْدَا لَهُ فِي الْحُبِّ مُعْتَرِكُ بَيْنَ الْمُبَاسِمِ وَالْإِلْحَاطِ وَالطَّرَرِ

وقال الأديب أبو عبدالله الشرقي صاحبُ الْعَلَمِي :

مَنْ لِي بِهَا تَحْتَالُ فِي حَلِيهَا كَرُوضَةٍ تَحْتَالُ فِي زَهْرِهَا
 فَبِشْرِهَا أَرْحَبُ مِنْ بِشْرِهَا وَنَشْرِهَا أَطْيَبُ مِنْ نَشْرِهَا
 وَخَذُّهَا أَبْجَعُ مِنْ وَرْدِهَا وَنُورُهَا أَطْفُفُ مِنْ نُورِهَا
 وَقَدْهَا أَرْفَعُ مِنْ غُصْنِهَا وَوَجْهَهَا أَيْضُ مِنْ فَجْرِهَا
 الْعَيْشُ وَالْجَنَّةُ فِي وَصْلِهَا وَالْمَوْتُ وَالنَّيْرَانُ فِي هَجْرِهَا
 عَاطِئَتُهَا رَاحاً مُشْعَشَعَةً كَيْثُلُ يَاقُوتٍ عَلَى نَخْرِهَا
 رَاحُ أَرَاخِ الْأَنْسِ فِكْرِي بِهَا مِنْ شَارِقِ الدُّنْيَا وَمِنْ شَرِّهَا
 وَهِيَ فِي مَجْلَسِ أَفْرَاحِهَا كَأَنَّهَا الزَّبَاءُ فِي قَصْرِهَا
 لَوْ تُسْعِدُ الدُّنْيَا بِزُورَتِهَا لَا صُطِّلَحَ النَّاسُ عَلَى شُكْرِهَا

وقال :

بَعَثَ الْحَبِيبُ كِتَابَهُ لِيَعُودَنِي وَيَرَى اكْتِسَابِي بَعْدَهُ وَهَيَامِي
 فَكَأَنَّمَا أَمْرُ الْفُؤَادِ بَضَلَةٌ وَالْجَفْنُ أَنْ لَا يَهْتَدِيَ لِمَنَامِ

وقال ، وهو تلخيصٌ بديعٌ لقصة الحب من أولها إلى آخرها :

بَدَأَ الْغَرَامُ مُجُوبٌ وَبَعْدَ ذَاكَ شُجُونٌ
 وَالْحُبُّ نَفْعٌ وَضَرٌّ وَجَنَّةٌ وَجُذُونٌ
 وَرَاحَةٌ وَبَلَاءٌ وَمُنِيَّةٌ وَمَنُونٌ

فاحفظ فَوَادَكَ مِنْهُ فَمَا هُنَاكَ أَمِين
أَوَّلَا فَمْتُ بِهِ وَجَدًا فَاَلَمُوتُ فِيهِ يَهُونُ

وقال الوزيرُ ابنُ ادریس وارتكب فيها انواعاً من البديع :

سَحَرْنَاكَ بِالطَّرْفِ الْكَحِيلِ السَّاحِرِ
وَبَغْرَةً كَالْفَجْرِ تَحْتَ ذَوَائِبِ
وَبِنْقُطَةِ مِسْكِيَّةٍ فِي وَجْنَةٍ
وَبِرِيقِهَا الْمَعْسُولِ إِلَّا أَنَّهُ
رِيقٌ أَعَزُّ عَلَيَّ مِنْ نَيْلِ الْمُنَى
مَاذَا وَكَمْ أَوْقَعْتَنِي فِي حَسْرَةٍ
وَلَكَمْ جَمَعْتَ بَيْنَهُ مَيْدَانَ الْهَوَى
وَتَرَكَتَنِي فِي حَيٍّ لَيْلَى مُتَخَنَأً
يَا سَعْدُ هَلْ لِي فِي الْهَوَى مِنْ مُسْعِدٍ
أَمْ هَلْ يَنْجِدُ هَوَاهُمْ مِنْ مُنْجِدٍ
فَتَكَّتْ عَيُونُ الْعَيْنِ فِي أَحْشَاءِهِ
وَسَطَتْ عَوَامِلُ قَدَّهِنَّ بِقَلْبِهِ
أَوْ تَقْنَهُ بِجِبَالٍ وَعَدٍ مُخْلَفٍ
نَفْسِي الْفِدَاءَ لِطَبِيبَةِ فِتَانَةٍ

وَبُحْسَنُ قَدِّ كَالْقَضِيبِ الزَّاهِرِ
كَدُ جُنَّةٍ فَاعْجَبْ لِحُسْنِ بَاهِرِ
وَرَدِّيَّةِ ذَاتِ الْأَرْبِجِ الْعَاطِرِ
يُشْفِي الْحَشَا مِنْ كُلِّ دَاءٍ ضَائِرِ
وَأَلْذُنُ رَشْفِ الرَّحِيقِ لِحَاطِرِي
وَجَلَبْتَ لِي مِنْ شِقْوَةٍ يَا نَاطِرِي
مَا بَيْنَ جَيْشِ قَوَاضِبٍ وَبَوَاتِرِ
بِطْطَى ظَبَاءٍ لَمْ أَجِدْ مِنْ نَاصِرِ
بِشْفَاءِ شِفَاهِ اللَّغْسِ تَحْتَ غَدَائِرِ
لِمُتِّمٍ فِي حَاجِرٍ بِمَجَاجِرِ
بِشْفَارِ الْحَاطِ رَمَتْ بِمَخَنَاجِرِ
فَعْدَا أَسِيرَ عَوَامِلٍ وَنَوَاطِرِ
وَشَدَدَنْ أَسْرَ وَثَاقِهِ بِمَعَاذِرِ
فَتَاكَ بِشِفَارِ شَفْرِ فَاتِرِ

نَامَتْ نَوَاطِرُهَا وَقَدْ سَلَبَتْ كَرَى
 وَغَدَا الْجَمَالُ بِأُسْرِهِ فِي أُسْرِهَا
 فَإِذَا بَدَتْ سَجْدَ الْعَيُونِ لِحُسْنِهَا
 وَتَرَى الْقُلُوبَ حَوَاشِعًا لَجَمَالِهَا
 شَمْسٌ عَلَى شَمْسٍ تَكُونُ فِي نَقَا
 نَصَبَتْ قِسِيَّ حَوَاجِبِ مَوْتُورَةٍ
 فَكَأَنَّمَا هَارُوتُ عَنْ أَجْفَانِهَا
 وَرَعَتْ رَعَاها اللَّهُ فِي رُبْعِ الْحَشَا
 غَيْدَاءٌ قَدْ وَرِثَتْ تَحَايِينَ يُوسُفِ
 وَتَوَطَّئَتْ بِالْمُنْحَنِ مِنْ أَضْلَعِي
 فَعَدَوْتُ مَا بَيْنَ الْأَنَامِ مُتَيَّا
 وَغَدَا عَذُولِي عَازِرًا فِي حُبِّهَا
 كَمَنْ عَذُولٌ فِي الْهَوَى وَمُكَاشِح
 وَلَكُمْ رَقِيبٌ فِي الْهَوَى أَلْفَتْهُ
 وَلَكُمْ نَظْمٌ سُلُوكُهُ فِي غَادَةِ
 وَلَكُمْ لَيَالٍ قَدْ خَلَتْ فَرِيدَةٍ
 وَمُدِيرُنَا رَفَعَ الْعَقِيرَةَ مَنشَدًا
 طَرَفِي بِطَرَفِ بَابِلِي سَاحِرِ
 وَالسَّحَرُ أَيْدِ جُنْدِهِ بَعَاكِرِ
 تَسْبِيحُهَا : سُبْحَانَ رَبِّي الْفَاطِرِ
 مَكْسُورَةٌ مِنْ كَسْرِ طَرَفِ كَاسِرِ
 مِنْ تَحْتِ لَيْلِ ذَوَائِبِ وَغَدَائِرِ
 بِالسَّحَرِ تَرْمِي كُلَّ صَبٍّ نَاضِرِ
 يَرُوي فَيُسْنِدُ سَاحِرٌ عَنْ سَاحِرِ
 حَبَّ الْقُلُوبِ وَلَمْ تَخَفْ مِنْ زَاخِرِ
 نَاهِيكَ مِنْ حُسْنِ بَيْتِي بَاهِرِ
 وَمُحْصَبِ الْأَحْشَا رَمَتْ مِنْ حَاجِرِ
 بِجَمَالِهَا وَمُهَيَّا فِي سَائِرِ
 فَاعْجَبْ لِعَازِلِ ذِي غَرَامِ عَازِرِ
 غَابَتْ شَوَاهِدُهُ بِوَجْهِ سَافِرِ
 بِالشَّعْرِ حَتَّى عَادَ عِنْدَ أَوَامِرِي
 فَأَتَتْ قَلَائِدُهُ بِدُرِّ فَاخِرِ
 وَالْكَاسُ نَجْمٌ فِي سَمَاءِ أَزَاهِرِ
 قِطْعًا أَلَذَّ مِنَ الْمُدَامِ الدَّائِرِ

يشدو فيبدؤ الدُر من أصدافه تَغْرُ وَشِعْرُ مَعَ عَقُودِ جَواهِرِ
سَقِيًّا لَأَيَّامِ الْوِصَالِ وَقُرْبِهَا وَزَمَانِ أَنْسِ بِالْأَوَانِسِ زَاهِرِ
إِنِّي لَأَذْكُرُهُ فَأُحْسِبُ أَنِّي مِنْ كَثْرَةِ الْأَشْوَاقِ بَيْنَ مُحَاضِرِي
وَأَقُولُ لِلْأَيَّامِ هَلْ مِنْ عَوْدَةٍ لِرِمَانِنَا الْمَاضِي بَوَاضِلِ حَاضِرِ
فَعَسَاءَ يَظْهَرُ لِي الْمَتَابُ بِعَوْدَةٍ وَيُكْفِّرُ الْمَاضِي بِحُسْنِ الْآخِرِ

وقال :

أَلَا خَبَرُوا ذَاتَ الْخَلَاخِلِ وَالْقَرْطِ بَأَنِّي مِلْكٌ لِلْجَمَالِ بِلَا شَرْطِ
لَقَدْ أودَعْتُ قَلْبِي وَحَقَّقْتُ لَوْعَةً

غَدَاةً غَدَّتْ بَيْنَ الْوِشَاحَيْنِ وَالْمِرْطِ غَدَاةً غَدَّتْ بَيْنَ الْوِشَاحَيْنِ وَالْمِرْطِ
تَمِيسُ كَخُوطِ أَلْبَانٍ غَاظَ لَهُ الصَّبَا وَتُسْفِرُ عَنْ بَدْرِ وَتَقْتَرُّ عَنْ سِمَطِ
رَمَتْنِي بِسَهْمِ الْغُنْجِ عَنْ قَوْسِ حَاجِبِ فَأَصَمَّتْ فَوَادَ الْمُسْتَهَامِ وَلَمْ تُحْطِ
وَمَا كَانَ بَدْءُ الْحَبِّ إِلَّا بِنَظَرَةٍ وَتَبْتَدِي النِّيرَانُ مِنْ ضَرَمِ السَّقَطِ
صَجِبْتُ لَهَا مَذْوَودَ الْحَسَنِ خَدَّهَا وَزَيْنَهُ كَفُّ الْحَاسِنِ بِالنَّقَطِ
وَحَلَّتْ بِقَلْبِ الْمُسْتَهَامِ وَأَهْلُهَا بِذَاتِ الْغَضَامَا بَيْنَ نَعْمَانَ وَالشَّطِّ

وقال في سِرْبِ نِسَاءٍ تَعَرَّضَتْ لِلسُّلْطَانِ بِلَادِ زَمُورِ :

أَطْبَاءُ زَمُورِ سَلِمْتُمْ مَهْجَتِي بَقْنَا الْقُدُودِ وَصَارِمِ اللَّحَظَاتِ
وَهَتَكْتُمْ بِالْقَهْرِ حِصْنَ تَنْسُكِي بِجِيُوشِ حُسْنِ خَرِيدَةٍ وَمَهَاةِ
سُنْتُ عَلَيْنَا بِالنَّوَظِرِ غَارَةٌ فَأَخَذْتُمْ الْأَلْبَابَ فِي الثَّارَاتِ

كُفُّوا لِحَاظِكُمُ الْكَحِيلَةَ وَارْذُدُوا أَسْلَابَ أَلْبَابٍ عَلَى الْمُهْجَاتِ
 أَوْ لَا أَيْبَحُوا لِلشِّفَاهِ شِفَاءَهَا وَلْتَسْتَحِلُّوا لَثَمَ تِي الْوَجَنَاتِ
 قَالَتْ أَفِي شَرْعِ الْغَرَامِ تَحْكُمُ أَرَأَيْتَ مِنْ حَكَمٍ عَلَى الْفَتَيَاتِ
 نَحْنُ الْمُلُوكُ عَلَى الْمُلُوكِ وَإِنَّمَا أَحْكَامُنَا بِالْقَهْرِ وَالْغَلَبَاتِ
 الْجَوْرُ عَدْلٌ مِنْدَنَا وَالظُّلْمُ حَقٌّ بَيْنَنَا وَالذَّنْبُ كَالْحَسَنَاتِ

وقال القاضي ابو عبدالله بن طاهر الهواري وهو من تبديل
 الْقَلْب :

قَدْ سَبَى عَقْلِي مَعْسُورُ اللَّيْلِ بِاللَّيْلِ الْمَعْسُورِ عَقْلِي قَدْ سَبَى
 عَذَّبَ الْقَلْبَ اخْتِيَاراً بِالْهُوَى بِالْهُوَى الْقَلْبَ اخْتِيَاراً عَذْباً
 قَدْ أَبَى الْوَصْلَ وَلَكِنْ أُرْتَجِي أُرْتَجِي الْوَصْلَ وَلَكِنْ قَدْ أَبَى

وقال في مליح يسبح :

وَجَرَدٍ قَدْ لَاحَ وَشَطَّ الْمَاءِ مُتَلَأْتاً كَالدَّرَةِ الْبِيضَاءِ
 أَبَدَى لَنَا مِنْ رِدْفِهِ دُعَصَ النَّقَا وَالْخَصْرُ أَخْصَرُ مَا يَرَاهُ الرَّائِي
 يَطْفُو وَيُرْسِبُ وَالْحَاسِنُ يُجْتَلَى بَتَخَالُفِ الْأَوْضَاعِ وَالْأَنْحَاءِ
 عَوَّذْتَهُ كَيْ لَا يُصَابَ بِأَسْهَمٍ مِنْ أَعْيُنِ النَّظَارِ وَالرُّقَبَاءِ

وقال الاديب ابو العباس احمد بن الرضي بن عثمان المكناسي .

هوَى يعلو فأخفِضُهُ اصْطِبارا فما يَزْدَادُ بي الا أَوَارا
وأَضْرِبُ عَنْ حَدِيثِ الْحَبِّ صَفْحاً فَتَسْتَهْوِينِي الذِّكْرَى افْتِكَارَا
لَيْسَتْ الْحُبُّ فَوْقَ الْعَظَمِ جِلْدَاً وَقَيْسُ حَازَهُ ثَوْباً مُعَارَا
فَإِنْ تَعَجَّبَ فَقِي أَمْرِي عَجِيب يَرَى أَهْلُ الْهَوَى فِيهِ اعْتِبَارَا
أَلَيْسَ الدَّمْعُ يُبْرِدُهُمْ غَلِيلاً فما لِلدَّمْعِ لِي يَزِيدُ نَارَا
وَلَوْ كَالشَّمْسِ أَوْ كَالْبَدْرِ أَضْحَى مُحِيّاً مَنْ هَوَيْتُ لَقَلْتُ زَارَا
وَلَكِنْ فِيهِ عَيْنُ الشَّمْسِ غَايَتْ وَأَمَّا الْبَدْرُ أَبْصَرَهُ فَحَارَا
تَعَالَى اللَّهُ كَمْ أَهْدَى بِسْمِهِمْ مِنْ الْأَهْدَابِ لِلْكَبِدِ انْفِطَارَا
وَلَجَّ الْعَاذِلُونَ فَأَوْسَعُونِي غَدَاةَ رَأَوْا لَوَاحِظَهُ اعْتِدَارَا
أَيَّتُ كُلُّ مَنْ يَهْوَى يَيْتُ فِي ضَيُوفِ الْحُبِّ يَقْرِئُهُ الْجِمَارَا
أَفْكَرُ فِي مَبَاسِيهِ الَّتِي مَنْ يَضِلُّ يَقُولُ جَهْلًا وَاعْتَرَارَا
تُغَوِّرُ أَمْ لَأَيِّ الدُّرِّ تَنْدَى اجَادَ النَّسَقُ نَاطِمَهَا جَوَارَا
جَرَتْ أَنْهَارُ كَوْنِهَا رُضَاباً وَلَوْ حَقَّقْتَ قُلْتَ جَرَتْ عُقَارَا
أَغْضَنَّا مَالَ بِالْأَلْبَابِ مِنَّا فَتَرْجُو الْوَصْلَ يُطْلِعُهُ ثِمَارَا
أَكَلَفْتَ الرِّيَاضَ تَذْوِبَ نِشْراً فَقَدْ أَغْنَى الْمَيَّامَ وَالْيَسَارَا
وَمَا أَغْنَى غَنَاءَكَ فِي كِفَاءٍ يُسَاقِ غُضْنَ بَانَكَ حَيْثُ سَارَا

مَتَى أَشْمُمُ عِذَاراً فِي أَصِيلٍ فَأَفْضَحَ رَنْدَ نَجْدٍ وَالْعَرَارِ
فَتَحْطَى بِالْمَتَى مِنَّا نَفُوسٌ تَرَى إِذْ لَهَا فِيكَ انْفِخَاراً

وقال محمد بن الشيخ سيدي الأبيري الشنقيطي :

مَا لِلْمُحِبِّينَ مِنْ أُسْرِ الْهَوَى فَادٍ وَلَا مُقِيدٍ لِقَتْلَاهُمْ وَلَا وَادٍ
وَلَا حَيْمٍ وَلَا مَوْتَى يَرِيقُ لَهُمْ بَلْ هُمْ بِوَادٍ وَكُلِّ النَّاسِ فِي وَادٍ
يَا رَحْمَتِي لَهُمْ مَا كَانَ أَصْبَرَهُمْ عَلَى مُعَانَاةِ جَمْعٍ بَيْنَ أَضْدَادٍ
وَالنَّاسُ إِلْبٌ عَلَيْهِمْ وَاحِدٌ فَلَذَا مَا إِنْ تَرَى مِنْ يُوَاسِيهِمْ بِإِسْعَادٍ
إِمَّا عَذُولٌ وَإِمَّا ذُو مُرَاقَبَةٍ أَوْ زَاعِمُ النَّصْحِ أَوْ سَاعٍ بِإِفْسَادٍ
إِنْ أَظْهَرُوا مَا بِهِمْ لِيَمُوتُوا وَإِنْ كَتَمُوا

لَا قُوا بِمَا كَانُوا تُصَدِّعُ أَكْبَادُ

وَهَيْئَ كُلِّ مَا لَا قُوَّةَ عِنْدَهُمْ لَوْ أَنَّ أَحْبَابَهُمْ لِيَسُوا بِضْدَادٍ
يَا عَازِلِينَ أَقْلُوا اللَّوْمَ وَيَحْكُمُ إِنِّي لَمَنْ رَامَ قَوْدِي غَيْرُ مُتَقَادٍ
وَلَا يُلِينُ قَنَاتِي غَمَزُ غَايِمِهَا وَلَا يُقِيمُ ثِقَافُ الْعَذْلِ مُنْتَادِي
أَحْيَا كُنْتُ أَوْ يَمُتُ مِنْ جِهَةٍ أَلْفِي رَقِيباً وَلَوْ أَمَا بِمِرْصَادٍ
مَا اعْتَادَ قَلْبِي الصَّبَا لَكِنْ مِنْ مَلَكَتْ

يَدُ الْغَرَامِ يَعُودُ غَيْرَ مُعْتَادِ

يَزْدَادُ بِاللَّوْمِ حُبُّ الصَّادِقِينَ هَوَى وَأَمَّا لِحُبِّ بَطُولِ اللَّوْمِ مُزْدَادِ

وَالطَّرْفُ لِلْقَلْبِ مَرْتَادٌ وَلَا عَجَبٌ فِي قَفْوِ مُنْتَجِعِ آثَارِ مُرْتَادٍ
وَالْحُبُّ أَمْرٌ عَزِيزٌ لَيْسَ مَرْتَبِطاً فِي حَكْمِهِ عِنْدَ مَنْ يَدْرِيهِ بِالْعَادِ

وقال السيد مُحَمَّدُ الْحَرَّاقُ المتوفى سنة ١٢٦١ وهو من شعر

الإشارة :

أَحْبَبْنَا إِنْ الْغَرَامَ أَصَابَنِي فَإِنْ رُمْتُ نَوْمًا فَارَقَ النَّوْمُ مُقْلَتِي
وَأَنْ كُنْتُ مِنْ أَهْلِ قَرِيبًا أَخَافُ أَنْ كُنْتُ نَاءً عَنْكُمْ خِلْتُ أَنِّي
وَعِيبَنِي حَتَّى تَحَيَّرْتُ فِيكُمْ وَأَنْ رُمْتُ بَسْطًا خِفْتُ سُلُوَايَ عَنْكُمْ
تَرَوُا مِنْ مُجِبِّ حَالَةِ الْبُعْدِ مِنْكُمْ أَقْصَرَ عَنْ نَهْجِ الْعَبِيدِ لَدَيْكُمْ
أَمُوتُ شَهِيدًا وَالسَّلَامُ عَلَيْكُمْ عَلَى كُلِّ حَالٍ لَيْسَ فِي الْحُبِّ رَاحَةٌ

وقال :

أَتَتْ فِي الدُّجَى كَيْ لَا يَرَاهَا رَقِيبُهَا فَتَمَّ بِهَا إِشْرَاقُ نَوْرِ جَمَالِهَا
فَوَاللَّهِ لَا يَخْلُو بِهَا غَيْرُ عَاشِقٍ غَنَى فَبَدَّتْ فِي مَوْضِعِ الْوَصْلِ وَحْدَهَا
وَيَخْلُصَ مِنْ شَرِّ الْوُشَاةِ حَبِيبُهَا وَأَخْبَرَ عَنْهَا إِذْ تَضَوَّعَ طَبِيبُهَا
رَفِيقُ الْمَعَانِي فِي الْأُمُورِ لَبِيبُهَا وَلَمَّا يَكُنْ شَيْءٌ هُنَاكَ يُرِيبُهَا

وقال مُضْمَنًا قول المجنون في آخره :

أَمَاطَتْ عَنْ حَاسِنِهَا الْحِمَارَا	فَعَادَرَتِ الْعُقُولَ بِهَا حِيَارَا
وَبَثَّتْ فِي صَمِيمِ الْقَلْبِ شَوْقَا	تَوَقَّدَ مِنْهُ كُلُّ الْجِسْمِ نَارَا
وَأَلَقْتُ فِيهِ سِرًّا ثُمَّ قَالَتْ	أَرَى الْإِفْثَاءَ مِنْكَ الْيَوْمَ عَارَا
وَهَلْ يَسْتَطِيعُ كَتَمَ السَّرِّ صَبًّا	إِذَا ذَكَرَ الْحَبِيبَ لَدَيْهِ طَارَا
بِهِ لِعَبِّ الْهَوَى شَيْئًا فَشَيْئًا	فَلَمْ يَشْعُرْ وَقَدْ خَلَعَ الْعِذَارَا
إِلَى أَنْ صَارَ غَيْبًا فِي هَوَاهَا	يُشِيرُ لِبَغْيِهَا وَلَهَا إِشَارَا
يُغَالِطُ فِي هَوَاهَا النَّاسَ طَرَا	وَيُلْقِي فِي عَيْنِهِمُ الْغُبَارَا
وَيَسْأَلُ عَنْ مَعَارِفِهَا التِّدَاذَا	فِيَحْسِبُهُ الْوَرَى أَنْ قَدْ تَمَارَى
وَلَوْ فَهِمُوا دَقَائِقَ حُبِّ لَيْلَى	كَفَاهُمْ فِي صَبَابَتِهِ اخْتِبَارَا
إِذَا يَبْذُونَ أَمْرًا مِنْ حَيِّ لَيْلَى	يَذِلُّ لَهُ وَيَنْكَسِرُ انْكَسَارَا
وَلَوْ لَاهَا لَمَا أَضْحَى ذَلِيلًا	(يُقْبَلُ ذَا الْجِدَارِ وَذَا الْجِدَارَا
وَمَا حُبُّ الدِّيَارِ شَغَفَنَ قَلْبِي	وَلَكِنْ حُبُّ مَنْ سَكَنَ الدِّيَارَا)

الوصف

للقاضي أبي الحسن بن زُنباع يصف الربيع :

أبدت لنا الأيامُ زهرةً طيبها	وتسرَّبتْ بنضيرها وقشيبها
واهتزَّ عطفُ الأرض بعد خشوعها	وبدت بها الدَّعاء بعد شحوبها
وتطلَّعتْ في عُنفوان شبابها	من بعدما بلغتْ عُتْيَّ مَشيبها
وقفتْ عليها السَّحْبُ وقفةً راحم	فبكت لها بغيوبها وقلوبها
فَعَجِبْتُ للأزهار كيف تضاحكت	بيكاتها وتبأشرتْ بقطوبها
وتسرَّبتْ حُللاً تجرُّ ذبُّولها	من لَدَمِها فيها وشقَّ جُيوبها
فلقد أجادَ المزنُ في إنجادِها	وأجادَ حرُّ الشمسِ في ترْيِبها
ما أنصفَ الخيريُّ يَمْنَعُ طيبه	لِحُضورها ويُدِيحُه لِمَغيبها
وهي التي قامتْ عليه بِدِفْقِها	وتعاهدته بدرُّها وحليبها

فَكَأَنَّهُ فَرَضَ عَلَيْهِ مُوَقَّتٌ
وَعَلَى سَمَاءِ الْيَاسْمِينِ كَوَاكِبٌ
زُهِرَ تَوَقَّتْ لَيْلَهَا وَنَهَارَهَا
فَضَلَّتْ عَلَى سِرِّ النُّجُومِ بِأَسْرِهَا
فَتَأَرَّجَتْ أَرْجَاؤُهَا بِبُحُوبِهَا
وَتَصَوَّبَتْ فِيهَا فُرُوعُ جَدَاوِلِ
تَطْفُو وَتَرْسُبُ فِي أَصُولِ ثَمَارِهَا
فَكَأَنَّمَا هِيَ مُوجِسَاتُ أَسَاوِدِ
بَادِرِ كُوُوسِ الْأَنْسِ فِي حَافَاتِهَا
فَحَدِيثُ إِخْوَانِ الصَّقَاءِ لَذَازَةٌ
وَارْكَضْ إِلَى اللَّذَاتِ فِي مَيْدَانِهَا
أُغْرِيتَ خَيْلَكَ صَيْفَهَا وَخَرِيفَهَا
أَوْ مَا تَرَى الْأَزْهَارَ مَا مِنْ زَهْرَةٍ
وَالطَّيْرُ قَدْ خَفَقَتْ عَلَى أَفْنَانِهَا
تَشْدُو وَتَهْتَزُّ الْغُصُونُ كَأَنَّمَا
حَرَكَاتُهَا رَقْصٌ عَلَى تَطْرِيبِهَا

١ - أي وجوب ذلك الفرض عليه مرتبط بوجوب الشمس يعني غروبها .

٢ - جمع لصب وهو الشق في الجبل ونحوه .

وللقاضي عياض في خامات زرع بينهما شقائق نعمان هبت
عليها ريح :

انظر الى الزرع وخاماته تحكي وقد ماست أمام الرياح
كتيبة خضراء مهزومة شقائق النعمان في جراح
ولأبي العباس ابن غازي السبتي يصف ناقة :

حرف كمثل الصاد إلا أنها بعد الشرى جاءت كحرف النون
كالبرقدرة الاله مازلاً في الأفق حتى عاد كالعرجون
ولأبي بكر ابن تافلويت في سيف هزه على بن يوسف ابن
تاشفين ارتجالاً

هزرت حساما فشيته غديراً من الماء لكن جمد
فلما بدا لي إفرنده لهيباً من النار لكن نمد
فلولا الجمود ولولا الحمود لسا لذي الهز أو لا تقد

ولابن عبدون المكناسي يصف نهراً وردته عصاة طير :

قم انظر النهر في انصبابه كأنه الصل في انسيابه
قد انتحته ظماء طير مقتحات على جنبابه

تَنْقَعُ مِنْ مَائِهِ أَوَامًا وَتَلْقُطُ الْحَبَّ مِنْ حَبَابِ

وله في المشيب :

لَمَّا تَرَأَتْ لِلْمَشِيبِ بَمْفَرِّقِي شُهْبُ أَغْرَنَ عَلَى شَبَابِي الْأَدْهَمِ
أَبْدَى التَّجَهُمَ مَنْ أَحَبُّ أَمَادَرَى أَنَّ الدِّيَاجِي حُسْنُهَا بِالْأُنْجَمِ

وله في مدينة مكناس :

إِنْ تَفْتَخِرْ فَاْسُ بِهَا فِي طَيْهَا وَبَأْنَهَا فِي زِيَّهَا حَسَنَاءُ
يَكْفِيكَ مِنْ مَكْنَسَةِ أَرْجَاوُهَا وَالْأَطْيَابِ هَوَاوُهَا وَالْمَاءُ

ولابن جابر المكناسي فيها :

لَا تُنْكِرَنَّ الْحَسَنَ مِنْ مَكْنَسَةِ فَالْحَسَنُ لَمْ يَبْرَحْ بِهَا مَعْرُوفًا
وَلَيْنُ حَتَّى أَيْدِي الزَّامَانِ رُسُومَهَا فَلَرَبَّمَا أَبَقَتْ هُنَاكَ حُرُوفًا

ولابي العباس العزفي في صِفَةِ لَيْلَةٍ :

وَكَمْ لَيْلَةٍ نِلْتُ فِيهَا الْمُنَى وَبَاتَ لِي الْحَبُّ فِيهَا نَحِيًّا
إِذَا ظَلَّ لَحْظِي فِي جُنْحِهَا هَدَتْ وَجَنَّتَاهُ الصَّرَاطُ السَّوِيًّا
أَرَاغُ فَاسْأَلُ عَنْ صُبْحِهَا فَيَرْجِعُ لِي جُنْحُهَا نَمَ هَنِيًّا

إلى أن بدا لي سرحانها يُحاولُ للجدي فيها رُقياً
 فيالك من ليلةٍ بثها أنادمُ بدرَ دُجَاهَا البَهِيا
 حكّت ليلةَ السّفح في حُسْنِها
 فأصبحتُ أحكي الشّريفَ الرّضيا

ولمالك بن المرحل يصف قصرَ الليل :

وعشيّة سَبَقَ الصّباحُ عِشاءَها قِصراً فما أُمِسْتُ حتى أُسفَرا
 مِنكِيةً لِبَسَتْ حُلِيَّ ذَهَبِيَّةَ وَجَلا تَبَشُّمُها نِقاباً احْمَرا
 وكانَ شُهَبَ الرّجَمِ بعضُ حُلِيِّها عَثَرَتْ بِهِ من سُرْعَةٍ فَكَسَرا
 وله في وَصْفِ مَدِينَةِ سَبْتَةَ :

إِخْطِرْ على سَبْتَةَ وانظُرْ الى جَمالِها تَصُبُّ الى حُسْنِها
 كأنها عودُ الغِناءِ وقد أُلْقِيَ في البحرِ على بَطْنِها
 ولأبي القاسم الشّريف يصفُ دُولاباً :

وذاكِ حَنِينٍ تَسْتَهْلُ دُمُوعُها سِجَماً إذا يَخْدُورُ كائِبَها الحادي

١ - السرحان الفجر ، والجدي نجم الى جنب القطب تعرف به القبلة .

٢ - يشير الى قوله :

يا ليلة السّفح هلاّ عُدْتُ نانيةً مَقَى زمانِكَ مطالٌ من الدّيم

تعجبتُ أنْ لَيسْتَ تَريمُ مَكانَها وَلَمْ تَحُلْ مِنْ تَأْوِيبِ سَيْرِ وَإِسْعادِ
وَأَرَصَدْتُها فِي الرَوضِ أَيْةَ عُدَّةٍ فَكَانَتْ لِدَفْعِ المَحَلِّ عَنْهُ بِمِرْصادِ
تَخَالَفَ ماءُ المِزْنِ حُكْماً وَمَاوِها وَكَلَّ عَلَى رَوضِ الرُّبَى رانِحُ غادِ
فَينْجِدُ هَذا بَعدَ ما كَانَ مُتِمِّهاً وَذاك تَراهُ مُتِمِّهاً بَعدَ إِنْجادِ
لِئِنْ قَذَفْتَ ذَوْبَ اللُّجَيْنِ عَلَى الثَّرى لَقَدْ خَلَصَتْهُ القُضْبُ حَلِياً لِأَجْبادِ
وَلَهُ يَصِفُ رُحْماً :

وَأَحَمَّ مَمْطُولِ الكُعُوبِ إِذَا اقْتَضَى
مَهَجَ الكُماةِ فِدْيَتُهُ لَا يُمْتَطَلُ^٢
مُتَوَقِّدٌ حَتَّى أَقُولَ أَذَابِلُ بِيَدَيَّ مِنْهُ أَمْ ذُبَالُ مُشْعَلُ
لَوْ لَا النِّهابُ النَّصْلُ أَيْنَعَ عُودُهُ مِمَّا يَعلُّ مِنَ الدِّماءِ وَيَنهَلُ
فَاعْجَبْ لَهُ إِنْ النَّجِيعَ بِطَرَفِهِ رَمَدٌ وَلَا يَخْفَى عَلَيْهِ مَقْتَلُ

١ - نجد ما ارتفع من أرض تهامة الى العراق يقال أنجد وأنهم إذا أتى نجد:
او تهامة ومن ثم جاء التشبيه في قول شاعرنا .

٢ - الأحم الأسود ، ومطول الكعوب مقوم العقد .

ولابن الجنان المكتاسي ممّا كتبه على دَوْر خَشَبِيٍّ بِدَارِهِ :

انظر الى مَنْزِلٍ مَتَى نَظَرْتُ عَيْنَاكَ يُعْجِبُكَ كُلُّ مَا فِيهِ
يُنْبِيءُ عَنْ رِفْعَةٍ لِمَالِكِهِ وَعَنْ ذِكَاةِ الْحِجَا لِبَنَانِهِ
يُنَاسِبُ الْوَشْيُ فِي أَسَافِلِهِ مَا يَرُقُّمُ النَقْشُ فِي أَعَالِيهِ
كَأَنَّهُ رَوْضَةٌ مُدَبَّجَةٌ جَادَ لَهَا وَابِلٌ بِهَامِيهِ
فَظْهَرَتْ لِلْعَيُوتِ زُخْرُفُهَا وَوَافَقَتْهَا عَلَى تَجَلِّيهِ
فَهَوَّ عَلَى بَهْجَةٍ تَلُوحُ بِهِ وَرَوَّتْ لِلْجَمَالِ يُبْدِيهِ
يَشْهَدُ لِلسَّاكِنِينَ أَنَّ لَهُمْ مِنْ جَنَّةِ الْخُلْدِ مَا يُحَاكِيه

ولعبد المهيمن الحضرمي يصفُ النخل في سِجْلِمَاسَةِ :

لَقَدْ رَأَيْتُنِي مَرَأًى سِجْلِمَاسَةَ الَّذِي يُقَرُّ لَهُ فِي حُسْنِهِ كُلُّ مُنْصِفٍ
كَأَنَّ رُؤُوسَ النَّخْلِ فِي عَرَصَاتِهَا فَوَاتِحُ سُورَاتٍ بِآخِرِ مُصْحَفٍ

وللفقيه المِغِيلِي فِي مَدِينَةِ فَاسَ :

يَا فَاَسُ حَيَّا اللهَ أَرْضَكَ مِنْ ثَرَى
يَا جَنَّةَ الدُّنْيَا الَّتِي أَرَبْتُ عَلَى
غُرْفٍ عَلَى غُرْفٍ وَيَجْرِي تَحْتَهَا
وَبَسَاتِنٌ مِنْ سُندُسٍ قَدْ زُخِرَتْ
وَسَقَاكِ مِنْ صَوْبِ الْعَمَامِ الْمُسْبِلِ
عَدْنٍ يَنْظُرُهَا الْبَهِيُّ الْأَجَلِ
مَا أَكَلْتُ مِنَ الرَّحِيقِ السَّلْسَلِ
بِجَدَاوِلٍ كَالْأَيْمِ أَوْ كَالْفَيْضِ

وَبِجَامِعِ الْقَرْوِيِّ شَرَّفَ ذِكْرُهُ أَنْسَ بِذِكْرَاهُ يَهِيْجُ تَمْلُؤُ
وَبَصَحْنِهِ زَمَنَ الْمَصِيفِ مُحَاسِنُ فَمَعَ الْعَشِيِّ الْغَرْبَ فِيهِ اسْتَقْبَلُ
وَاشْرَبُ بِتِلْكَ الْبَيْلَةِ الْحَسَنَاءِ بِهِ وَاسْكُرْعَ بِهَا عَفْنِي فَدَيْتُكَ وَأَنْهَلُ

وللاستاذ منديل ابن أجرثوم يصف الطبيعة خارج باب
الفتوح بفاس :

أَيُّهَا الْعَارِفُونَ قَدْ: الصَّبُوح جَدُّدُوا عَهْدَنَا بِيَابِ الْفَتْوحِ
جَدُّدُوا ثُمَّ أَنْسَنَا ثُمَّ جَدُّدُوا نَسْرَحَ الطَّرْفَ فِي مَجَالِ فِسِيهِ
حَيْثُ شَابَتْ مَفَارِقُ اللَّوْزِ نَوْرًا وَتَسَاقَطْنَ كَاللَّجَيْنِ الصَّرِيهِ
وَبَدَا مِنْهُ كُلُّ مَا احْمَرَّ يَحْكِي شَفَقًا مَزَّقَتْهُ أَيْدِي الرِّبِيِّ
وَكَانَ الَّذِي تَسَاقَطَ مِنْهُ نُقْطَةُ لَحْنٍ مِنْ دَمٍ مَسْفُوحِ
وَإِذَا مَا وَصَلْتُمْ لِلْمُصَلَّى فَلْتَحَلُّوا بِمَوَاضِعِ التَّنْصِيحِ
وَبِطَيْفُورِهَا فَطُوفُوا لِكَيْمَا تُبْصِرُوا مِنْ ذُرَاهِ كُلِّ السُّطُوحِ
وَلْتَقِيمُوا هُنَاكَ لِمَنْحَةِ طَرْفٍ لِتَرُدُّوْا بِهِ ذَمَاءَ الرُّوْثِ

١ - البيلة اسم سِقَايَةٍ من الرخام بصحن القرويين والكلمة معربة من
pila الإسبانية .

٢ - في مخطوط نثير الجمان مكان هذا العجز: فَلْتَحَلُّوا مَوَاضِعَ التَّنْصِيحِ .
ولعله أنسب للمعنى .

ثُمَّ حَطُّوا رِحَالَكُمْ فَوْقَ نَهْرٍ كُلٌّ فِي وَصْفِهِ لِسَانُ الْمَدِيحِ
 فَوْقَ حَافَاتِهِ حَدَائِقُ خَضْرُ لَيْسَ عَنْهَا لِعَاشِقٍ مِنْ زُرُوحِ
 وَكَأَنَّ الطُّيُورَ فِيهَا قِيَابَ هَتَفَتْ بَيْنَ أُعْجَمٍ وَفَصِيحِ
 وَهِيَ تَدْعُوكُمْ إِلَى قُبَّةِ الْجَوْ زَهَلُمُوا إِلَى مَكَانٍ تَلِيحِ
 فِيهِ مَا تَشْتَهُونَ مِنْ كُلِّ نَوْرِ مُغْلَقٌ فِي الْكِتَامِ أَوْ مَفْتُوحِ
 وَغُصُونٍ تَبِيحٍ رَقْصاً إِذَا مَا سَمِعَتْ صَوْتَ كُلِّ طَيْرٍ صَدُوحِ
 فَأَجِيبُوا دُعَاءَهَا أَثْيَا الشَّرْبِ وَخَلُّوا مَقَالَ كُلِّ نَصِيحِ
 وَاجْنَحُوا لِلْمَجْنُونِ فَهْوَ جَدِيرٌ وَخَلِيقٌ مِنْ مِثْلِكُمْ بِالْجَنُوحِ
 وَاخْلَعُوا ثَمَّ لِلتَّصَايِ عِذَاراً إِنَّ خَلَعَ الْعِذَارَ غَيْرُ قَبِيحِ
 وَإِذَا شِئْتُمْ مَكَاناً سَوَاهِ هُوَ أَجَلِي مِنْ ذَالِكُمْ فِي الْوُضُوحِ
 أَجْعُوا أَمْرَكُمْ لِنَحْوِ خَلِيجِ جَاءَ كَالصَّلِّ مِنْ لِفَارٍ فَيَحِ
 عَطَّرَتْ جَانِبَيْهِ كَفُّ الْغَوَادِي بِشَذَا عَرَفَ زَهْرَهَا الْمُنُوحِ
 قُلْ لِمَيَّارٍ إِنْ شِئِمْتَ شَذَاهَا قَوْلَ مُسْتَخْبِرٍ أَخِي تَجْرِيحِ
 أَيْنَ هَذَا الشَّذَا الذِّكِّيَّ مِنَ الْقَيْصُومِ وَالرَّنْدِ وَالْغَضَا وَالشَّيْحِ
 حَبَّذَا ذَلِكَ الْمِهَادُ مِهَاداً بَيْنَ دَانٍ مِنَ الرَّبِيِّ وَزُرُوحِ
 ثُمَّ مِنْ ذَلِكَ الْمِهَادِ أَفِيضُوا نَحْوَ هَضْبٍ مِنَ الْهُمُومِ مُرِيحِ
 فِيهِ لِلْحُسْنِ دَوْحَةٌ وَدَوَايَا وَأَنْشِرَاخُ لَنِي فُوَادٍ قَرِيحِ

وَحَجَّارٌ تُدْعَى حَجَّارٌ طُيُولُ غَيْرَ أَنْ التَّطْيِيلَ غَيْرُ صَاحِبِ
تَنْشُرُ الشَّمْسُ ثُمَّ كُلُّ غَدُوٍّ زَغَرَانَا مُبَلَّلًا بِنُضُوحِ
وَسَبُّوا مِنْ هُنَاكَ يَسْبِي عُقُولًا وَيُجَلِّي لِحَاطَاطَ طُحُوفِ
وَعُيُونُهَا تَقْرُءُ عُيُونُ وَكَلَامُهَا يَأْسُو كُلُّوْمَ الْجَرِيحِ
فَرِشَتْ فَوْقَهَا طَنَافِيسُ زَهْرٍ لَيْسَ كَالْعَيْنِ نَسْجُهَا وَالْمُسُوحِ
كُلَّمَا مَرَّ فَوْقَهَا طَلِيحٌ عَادَ مِنْ حُسْنِهَا غَيْرَ طَلِيحِ
فَانْهَضُوا أَهْيَا الْمُحِبُّونَ مِثْلِي لَتَرَى ذَاتَ حُسْنِهَا الْمَلْمُوحِ
هَكَذَا يُرَبِّحُ الزَّمَانُ وَالْأَلَا كُلُّ عَيْشٍ سِوَاهُ غَيْرُ رَيْحِ

ولابن عبد المثنان من قصيدة في مدح أبي عنان المريني يصف

الساعة العجيبة التي نصبها بواجهة مدرسته الشهيرة بفاس :

وَأَلِهَ لِلْمَوَاقِيتِ اسْتَقْلَلْ بِهَا صَنَعَ تَقَوْتُ النُّهْيِ لَطْفًا صَنَائِعُهُ
أَيَّاتُهَا عَدُّ أَبْرَاجِ السَّمَاءِ وَلَا قُطْبُ وَلَا فَلَكٌ تُدْرَى مَوَاضِعُهُ
يَجْرِي الْهَلَالُ عَلَيْهَا جَرَّتِيهَا أَبَدًا عَلَى الْمَنَازِلِ صُنْعُ فَاقَ بَارِعِهِ
وَفِي الْبُيُوتِ جَوَارِ كُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْهُمْ خُصَّتْ بِمِيقَاتِ تَطَالُعِهِ
حَتَّى إِذَا جَدَّ إِسْرَاعًا لَوِجَتِهِ وَحُمَّ مِنْهُ فِرَاقُ حَانَ وَاقِعِهِ

وَأَذَنُ الطَّيْرِ مِنْ أَعْلَى مَرَاقِبِهِ وَبَيْنَهُ مُعَرِّبًا عَنْ ذَاكَ قَارِعُهُ
 ثَارَتْ هُنَاكَ تَوْدِيْعًا لَهُ وَدَنْتْ إِلَى الْغِنَاءِ عَلَى دُغْرِ تُشَايِعِهِ
 وَفِي الْيَمِينِ كِتَابٌ بِاسْمِ مَوْقِفَتِهَا إِلَى الْإِمَامِ وَقَدْ أُوْمِتَ تُبَايِعُهُ
 وَشَامِعُ الْمُرْتَقَى آوَى لِأَفْرَحِهِ بِالْوَكْرِ وَهُوَ أَمِينُ السَّرْبِ وَادِعُهُ
 أَتَبَحَّ عَمْدًا لَهُ مُسْتَشْفِعُ سَبِطِ رَحْبِ الْقَدَالِ صَقِيلِ الطَّرْفِ لَا مِعُهُ
 أَحْوَى الْأَدِيمِ يُجَارِي دُونَمَا قَدَمِ هُوجَ الرِّيحِ حَدِيدُ النَّابِ قَاطِعُهُ
 جَمُّ الثَّقَلْبِ لَمْ تُؤْمِنْ غَوَائِلُهُ غَدْرًا وَتُحْذِرُ مِنْ خَتْلِ خَدَائِعِهِ
 يَسْعَى لَهُ الْحَيْنَ بَعْدَ الْحَيْنِ يَرْزَاهُ تُكَلَّا فِيصْفَرُ خَوْفًا أَوْ يُقَارِعُهُ
 كَذَلِكَ اللَّيْلُ لَا يَنْفَكُ مُخْتَلِفًا إِلَيْهِ وَهُوَ عَنِ الْأَفْرَاحِ دَافِعُهُ
 وَمِثْلُهُ لِأَخِيهِ يَنْتَحِيهِ وَمَا إِنْ مِنْهَا لَيْلُهُ إِلَّا مُقَارِعُهُ
 كَأَنَّمَا الصَّلُ أُمْسَى مُنْسَكًا فَذَا مَا سَاعَةٌ ذَهَبَتْ ثَارَتْ مَطَالِعُهُ
 وَظَنُّهَا آخِرَ السَّاعَاتِ قَدْ أَذْنَتْ بِفَطْرِهِ فَسَمَا لِلْفَرُخِ لَا سِعُهُ
 رِيَاضُ حُسْنِ بَدَا لَوْلَا سُعُودُكَ لَمْ تُسْتَجَلَّ يَا مَلِكَ الدُّنْيَا بَدَائِعُهُ

وله أيضاً من قصيدة أخرى فيه يصف قتل الأسد بين يديه
 ودخول المحتال في الأكرة المعدة لذلك وهي أكرة مستديرة من
 خشب يحركها رجل في وسطها يطعن الأسد بجديدة فيظفر بها الأسد
 طامعاً في المحتال فتدور به وهو لا يقدر على المحتال بمنع الأكرة

ويصف شبكة صيد الأسد في القلاة نُصِبتُ لَأْخِذَهُ بِالْقَصْرِ وَالشَّوَرِ
الذي كان من عادته قتلُ الأسود في ذلك المَوْطِنِ وروض المصاراة والناعورة
المنضوبة فيه :

وَضَبَارِمٌ ^(١) رُحِبَ اللَّبَانُ ثِقْلُهُ صَبٌ ^(٢) مَتَيْنٌ خَلَقَهَا، عَيْلِ الشَّوَى
يَفْتَرُ عَنْ نَابٍ كَأَطْرَافِ الْقَنَا بَيْضًا وَيَنْضُو مِخْلَبًا حَدَّ الشَّبَا
فَتَكَّتْ بِهِ فِي الْقَصْرِ سُمْرُ رِمَاحِهِ بِأَكْفُفٍ أُسْدٍ دَوَّخَتْ أُسْدَ الشَّرَى
أُمْسَى صَرِيحًا وَالدِّمَاءُ سُلَاقَةٌ أَتْرَاهُ سُكْرًا مَالٍ مِنْ تِلْكَ الطَّلَا ^(٣)
وَتُنَى عَلَى زَارَاتِهِ كَشْحًا وَقَدْ كَانَتْ يُرَدِّدُهَا فِرَادَى أَوْ تُنَى
لَكِنَّ أَلْسِنَةَ الْقَوَاضِبِ أَظْهَرَتْ مَا أَضْمَرَتْ جَنْبَاهُ مِنْ سِرِّ الْحَشَى
وَلَقَدْ رَمَاهُ قَبْلَ مَضْرَعِهِ الرَّدَى مِنْ مَعْضِلَاتٍ مُكَابِدِهِ بِهَا رَمَى
وُخَايَلٍ فِي جَوْفِ دَائِرَةِ طَوْتٍ أَضْلَاعُهَا مِنْهُ عَلَى شَهْمٍ فَتَى
يَحْكِي بِهَا رَأً ^(٤) بَيِّضَةً سَبَسَبَ لَمْ تَنْفَرِجْ عَنْهُ فَأَنْهَدَهَا كُوَى
يَمْشِي الْهُوَيْنَا وَسَطَهَا فَثِقْلُهُ عَدُّوْا وَمَا إِنْ تَشْتَكِي أَلَمَ الْجَوَى

١ - أسد .

٢ - لعله يريد قوائمه .

٣ - الخمر .

٤ - الرأل ولد النعام .

حَسِبَ الْغَضَنْفَرُ مُرْتَقَاهَا كَعْبَةً
وَلَرَبَّمَا أَلْقَى عَلَيْهَا لَامِسًا
لَكِنَّهُ خَبِثَتْ سَرَايِرُهُ فَلَمْ
عَجَبًا لَهُ وَلِجَاشِ طِفْلٍ لَمْ يَتَبَّ
هَذَا وَلَمْ يُبْصِرْ هُنَاكَ بِمَلْجَأٍ
قَدْ كَانَ طُلَّ دَمٌ لَهُ لَمَّا رَنَا
لَوْلَمْ تَقُمْ بِالنَّارِ مِنْهُ أَسَاوِدٌ ^(١)
مِنْهُمْ فَاغِرَةٌ لَهُ أَفْوَاهُهَا
لَمْ تُرَخَّ شَدَّ وَثَاقُهُ حَتَّى تَوَى
وَمُدْرَبُ الرُّوَقَيْنِ ^(٢) أَصْفَرَ فَاقِعَ
مَا زَالِ يَدْعُو لِلنَّزَالِ أُسَامَةَ
وَلَقَدْ أَرَاهُ مَكَانَ مَضْرَعِهِ وَقَدْ
وَلَقَدْ أَطَالَ وَقُوفَهُ مُسْتَقْبِلًا
وَعَدَا لَهُ وَالظَّنُّ يَقْضِي أَنْ يُرَى

فَدَنَا يُطِيلُ بِهَا الطَّوَافَ وَقَدْ سَعَى
بَأُكْفُهُ وَسَمًا وَقَبْلَ إِذْ سَمَا
يُحْمَدُ عَلَى الْإِلْمَامِ مِنْهَا بِالْجِزَا
أَسَدَ الشَّرَى وَقَدْ اسْتَشَاطَ وَقَدْ دَدَا ^(١)
وَاقٍ وَقَدْ تَرَكَوهُ مُنْفَرِدًا سُدى
أَسَدُ الْعَرِينِ لَهُ غَضُوبًا وَأَرْتَمَى
كَانَتْ هُنَاكَ كَامِنَاتٍ لَا تُرَى
بَأُكْفِ كَرْكَبَةٍ وَمِنْهَا مَا التَّوَى
تَأْبُوتَ مَقْبُورٍ وَقَدْ ظَنَّ الشَّوَى
رِاقَ النَّوَظِرِ نَضْرَةً لَمَّا بَدَا
وَلَقَدْ أَشَارَ بِظُلْفِهِ لَمَّا دَعَا
أَوْمَى بِسَاحِ الْقَضْرَيْنِ كُثِّ فِي الثَّرَى
حِذَرَ الْهَزْبِ رُبُّ مَبَارِزَا حَتَّى انْتَبَرَى
وَقَدْ اعْتَلَاهُ فَكَانَ عَكْسًا مَا قَضَى

١ - استشاط ترجع للأسد، وددا أي لعب، ترجع للطفل .

٢ - يعني حبال الشبكة .

٣ - أي القرنين ويصف الثور .

جالت عليه صدمةٌ من حارثٍ ١ تُنْسِيكَ صدمةَ حارثٍ يومَ الوغى
 أعجبُ بها من صدمةٍ قد عفرت ليدَ الهزبرِ وأوهنتُ منه القوى
 لا تلحِ روقَ الثورِ ان أبصرته عن جانب الليث الطعين وقد نبأ
 ما كلٌّ دون كُلاه لكن ساعةً بقيت له ولكل عُمرٍ منتهى
 فدعته في دعةٍ الى أمثالها ولتعدرنَّ الليث يا ملك الهدى
 أعدى فريسته عليه قولك : ا بَقَ لَذَا وَقَوْلُكَ لِلْغَضَنَفْرِ لَا بَقَا
 عاجلتَ ذا هلكاً فلم يُفْلِتْ وقد أَبْقَيْتَ ذَا مَنَا فِجَانِهِ الْمَنَا
 إن الآله قضى بأن يجري القضا طوعاً لما شاء المطيع المُرْتَضَى
 وعلاكم ما حارثٌ بمقاومٍ لأبيه لولا أن أردت به الردى
 ولقد رأت منه العيونُ عجيبةً رآقتُ، وقد أبلَى النواظر والنهى
 فأبجحه جنات المصارة خالداً فيها فبالجنات يجزى ذو البلاء
 أحسنُ بها من روضةٍ غناء قد غنى الحمامُ بها طروباً أو شدا
 حاكَّتْ بِهَا الْأَنْوَاءُ مُطَرَفٌ سُنْدُسُ

أرج وشاه يدُ الرِّيع بما وشى
 وبجانب البيضاء منها مُرتقي جبارة الأرجاء سامية الذرى

١ - حارث من أسماء الأسد ويكنى أيضاً أبا الحارث .

٢ - المنا : الموت .

كَرَحَى الصَّيَاقِلَ مَا سَقَتْ لِتُدِيرَهَا رَجُلٌ وَلَا نُسَبَتْ لِإِمْنَاءِ الْمُدَى
أَتَرَى حُسَامَ النَّهْرِ جَلَّلَ مَتْنَهُ صَدَأٌ فَمَا تَنْفَكُ تَجْلُوهُ جَلَا
فَلَكَ مَضَى فِي الرُّوضِ مَا حَكَمْتُ بِهِ

أَدْوَارُهُ وَالْقُطْبُ مِنْهُ وَمَا اقْتَضَى
فَقَضَى بَرَفَعِ الْمَاءِ إِلَّا أَنَّهُ قَدْ خَفَّضَ الْأَدْوَاخَ عَيْشًا وَالرُّبَى
حَسَنٌ بَدِيعٌ فِي حِمَى مَلِكٍ بِهِ حَسَنَ الزَّمَانِ وَلَا حَ فِي أَبِي حُلَى
وَاللَّيْثُ إِبْرَاهِيمَ الْفَجِيجِي مِنْ قَصِيدَتِهِ الصَّيْدِيَّةِ الْكَبِيرَةِ يَصِفُ
الصَّيْدَ وَحَيَاةَ الصَّائِدِ وَتَنْقُلُهُ فِي الْبَرِّيَّةِ وَمَا فِي ذَلِكَ مِنَ الْمَتَاعِ
النَّفْسِيِّ وَالْجَسْمِيِّ .

يُلَوِّمُونَنِي فِي الصَّيْدِ وَالصَّيْدُ جَامِعٌ
فَأَوَّلُهَا كَسْبُ الْحَلَالِ أَتَتْ بِهِ
وَصِحَّةُ جِسْمٍ ثُمَّ صِحَّةُ نَاضِرٍ
وَبُعْدُ عَنْ الرُّذَالِ مَعَ صَوْنِ هِمَّةٍ
وَأَيْضًا لِعَرَضِ الْمَرءِ فِيهِ سَلَامَةٌ
وَفِيهِ لِأَهْلِ الْفَضْلِ وَالِدِّينِ عِبْرَةٌ
لَأَشْيَاءَ لِلْإِنْسَانِ فِيهَا مَنَافِعُ
تُصَوِّصُ كِتَابَ اللَّهِ وَهِيَ قَوَاطِعُ
وِإِحْكَامُ إِجْرَاءِ السَّوَابِقِ رَابِعُ
وَإِعْلَاقُ بَابِ الْقِيلِ وَالْقَالَ سَابِعُ
وَحِفْظُ لِدِينِهِ وَذَلِكَ تَائِسُ
وَتَذَكُّرَةُ لَهَا لَدَيْهِمْ مَوَاقِعُ

وَيُورِثُ طِيبَ النَّفْسِ وَالْجُودَ وَالسَّخَا

وَيَأْلَفُ مِنْهُ الصَّبْرَ مَنْ هُوَ جَازِعٌ

وَيَنْفِي الْهُمُومَ الْمُهْرِمَاتِ عَنِ الْفَتَى وَيَقْمَعُ وَفْدَ الشَّيْبِ كَيْلًا يُسَارِعُ

وَيُورِثُ عِنْدَ الْإِلْتِحَامِ شَجَاعَةً وَفِيهِ مِنَ السَّرِّ الْخَفِيِّ بَدَائِعُ

كَرْعِي نِظَامٍ وَافْتِقَادِ رَعِيَّةٍ وَحِفْظِ جَنَابٍ مِنْ عَدُوٍّ يُنَازِعُ

وَتَذْيِيرِ أَمْرِ الْحَرْبِ وَالْفَتْكَ بِالْعِدَا

وَصَيْدِ أُسُودِ الْإِنْسِ وَالْوَحْشِ تَابِعُ

إِذَا الْحَرْبُ خَدَعَتْ وَكَيْدٌ فَرَّبَمَا تَحَيَّلَ بِالْقَنْصِ الدُّهَاءُ التَّبَائِعُ

فَأَظْفَرَهُمْ بِكُلِّ عَادٍ مُعَانِدٍ عَلَى غِرَّةٍ فَضَرَجَتْهُ الضَّرَاجِعُ^١

وَيُصْفِي دِمَاعَ الْمَرْءِ وَالْجِسْمَ جُمْلَةً مِنْ أَخْلَاطٍ سُوءٍ أَوْ فُضُولٍ تُصَادِعُ

وَيُغْنِي عَنِ الطَّبِّ الصَّعِيبِ عِلَاجَهُ وَمَا مِثْلُهُ لِلْحُزْنِ وَالسُّقْمِ دَافِعُ

وَقَدْ جَاءَ سَافِرُوا وَتَصَحَّحُوا وَتَغَنَّمُوا وَذَلِكَ مِنْ قَوْلِ النَّبُوءَةِ شَائِعُ

وَمَا رِيءَ مَقْلُوجًا مُرِيغٌ طَرِيدَةً

حَكَى عَنْ ذَوِي التَّجْرِبِ قَوْمٌ بَلَاتِعٌ^٢

وَأَيْضًا يَزِيدُ فِي الذِّكَاةِ وَفِي الدَّهَاءِ وَذَلِكَ كُلُّهُ إِلَى الْعَقْلِ رَاجِعُ

١ - جمع ضرجع وهو النمس .

٢ - جمع بلتع وهو الحاذق بكل شيء .

وفيه حظوظ النفس من كل بُغْيَةٍ وكلُّ سرور بالمباح فَوَاسِع
كَقَنْصِ ظَبَاءِ الْإِنْسِ فِي حِلِّ صَيْدِهَا
وَقَنْصِ ظَبَاءِ الْوَحْشِ أَوْ مَا يُضَارِعُ

بِنَفْسِي عَظِيفاً مُتَرَفَا ذَا نَزَاهَةٍ لَهُ فِي سَمَاءِ الْمَجْدِ وَالسَّعْدِ طَالِع
عَلَى هَيْكَلٍ نَهْدٍ وَفَوْقَ شِمَالِهِ وَقُورٌ مِنَ الصَّقُورِ أَيْبَضُ نَاصِع
تَصَامَمَ عَنْ لَوْمِ اللَّثَامِ عَلَى الشَّرَى وَمَا زَالَ مَشْغُوفاً بِهِ وَهُوَ يَافِع
وَغَابَ غَدَاةَ الْقَنْصِ عَنْ كُلِّ غَيْبَةٍ وَعَنْ كُلِّ مَا تُصَانُ مِنْهُ الْمَسَامِعُ
فَأَصْبَحَ سَلماً لِلورى يَطَأُ الثَّرَى وَتَنْظُرُهُ فَوْقَ الثَّرْيَا الْقَنَابِعُ
فَلَا خُلْطَةٌ تُرْدِي وَلَا سُوءٌ عِشْرَةٌ وَلَا هَتَكُ هَيْبَةٍ وَلَا مَنْ يُصَانِعُ
أَخَا الْعَدْلِ لَكِنْ فِي سِوَى كُلِّ طَائِرٍ
وَجَارٍ أَمَامَ الْمُرْسَلَاتِ يُسَارِعُ

أَخِي هَلْ تَرَى الْأَيَّامَ تَجْمَعُ شَمْلَنَا وَنَحْنُ عَلَى جُرْدٍ سِرَاعٍ تُطَاوِعُ

١ - جمع قنبع وهو القصير .

لدى كلِّ ربوةٍ وأجرُسُ طيرنا
فَنَقْضِي من السُّلُو ان بعضَ غرامنا
وَنَجْعَلُ ذاتَ الجر جارا لِعَهْدنا
وَنَرُقُب في رَبِي الغَمِيم ونَحْلَه (١)
طويل ثلاثٍ لا كطولِ بُغائِها (٢)
قَصِيرُ ثلاثٍ من زمِكى (٣) ورِيشِها
رَحِيب ثلاثٍ وهى ما هِي كَفُه
عَظِيم ثلاثٍ رأسه ثم فَخْذه
عليه سِماتُ الفَتَكِ إِمَّا نَظَرْتَه
طُموحٌ كثيرُ الالتفاتِ مُسَلِّطٌ
ثَقِيل متى يُحْمَلُ خَفِيفٌ طُلُوعُه
ظُلُومٌ غَشُومٌ من حُفُورِ شَمَارِخِ
لها زَجَلٌ من فَوْتِنا وَقَعاقِع
وَنَجْنِي جَنَى اللِّذاتِ والدَّهْرِ خاضِع
فَيمَّا لِلإِقْتِناصِ ماضٍ وراجِع
بِكلِّ صَيودٍ خاضِب الكَفِّ دارِعُ
جَناحٌ وَعُنقٌ ثم طالت أَصابعُ
وساقٍ تُقَوِّي الرِّصعَ إِنْ هُوَ راصِعٌ (٤)
وَمَا بَيْنَ مَنكِيئِهِ والصَّدْرِ واسِع
وَمَنسِرِهِ مِجْزَار ما هو صارِع
أُطْلَت حواجِبٌ وغازتُ مدايِع
لِأَمِّ السُّلاحِ (٥) الدَّهْرَ مِنْهُ فَجائِع
كَأَسْرَع ما في السَّهْمِ إِنْ هُوَ واقِع
لِحِزَانِها (٦) والطَّيرُ مِنْهُ تَوادُع

١ - الغميم ونحلة موضعان ببلد الشاعر .

٢ - البغات شرار الطير .

٣ - الزمكى ذنب الطائر .

٤ - الرصع الضرب والطمع .

٥ - هي الحبارى سميت بذلك للآزمته لها حتى قيل سلاحها سلاحها .

٦ - جمع خزر وهو ذكر الارنب .

له عُدَّةٌ من نفسه في مَخَالِبٍ شديدٌ سَوَادُهَا حَدَادٌ لَوَاسِعُ
 يَفِرُّ إِلَى الْيَحْبُورِ^١ مِلَيْنٌ بُكْرَةٌ وَأَكْثَرَ بِالْأَصِيلِ إِنْ هُوَ جَائِعُ
 يُمْنَاهُ بَارِقٌ^٢ مُحِيطٌ بِزَنْدِهِ من الْفِضَّةِ الْبَيْضَاءِ كَالسَّيْفِ لَامِعُ
 كَذَلِكَ فِي يُسْرَاهُ ثَانٍ وَجُلْجُلٌ تَلَوْنٌ بِالْإِبْرِيزِ أَصْفَرُ فَاقِعُ
 إِذَا انْفَضَّ خَلَّتِ الْبَرْقُ وَالرَّيْحُ عَاصِفًا وَرَعْدًا بِهِ زَجْرٌ عَلَى الطَّيْرِ وَاقِعُ
 دَوِيٌّ جَلَا جَلٍ وَلَمْعٌ خَلَاجِلُ وَحَفَقُ جَنَاحٍ كُلُّ ذَلِكَ فَاجِعُ
 إِلَى قَهْرٍ غَالِبٍ وَصَوْلَةٍ سَالِبٍ وَهَتِكِ مَخَالِبٍ إِذَا هُوَ سَادِعُ^٣
 هُنَالِكَ يُلْقَى الْحَرْبُ خَوْفًا سَلَاحِهِ وَهَيْهَاتَ مَا السَّلَاحُ لِلْخَرْبِ نَافِعُ
 وَيَلْجَأُ لَا تَحِينَ يَأْوِيهِ مَلْجَأٌ فَلَا الْأَرْضُ تُنْجِيهِ وَلَا الْجَوُّ مَانِعُ
 وَتُبْصِرُهُ يَحْكِي أُسِيرٌ فَوَارِسُ يَجْرُ ذِيُولَ الذَّلِّ يَعْتَزُّ خَانِعُ
 ذُوَابَتُهُ فِي كَفٍّ مَنْ لَا يُقِيلُهُ يُسَاقُ بِهَا لِلْمَوْتِ وَهُوَ يُوَادِعُ
 وَتَنْدُبُهُ حُبَارِيَاتُ أَلْفَنَةٍ بِفَيْفَاءٍ مَجْهَلٍ وَهَنْ جَوَازِعُ
 يُرِدْنَ الْفِرَارَ لَمْ يَجِدْنَ سَبِيلَهُ وَيَحْشُرُهُنَّ الْخَوْفُ وَالْخَوْفُ رَادِعُ

١ - فرخ الحبّارى .

٢ - اى خلخال بارق .

٣ - اى ذابح .

٤ - الحرب محرّكاً وسكنه ضرورة ذكر الحبّارى وسلاحه نجوه يلقيه على

الجراح فينتف ريشه .

أَلَا لَيْتَ شِعْرِي هَلْ تَعُودُ لَنَا الْمُنَى وَتُسَعِّفُنَا الْآيَامُ وَالسَّعْدُ رَاجِ
وَتَكْتَفِينِي وَالصَّحْبَ صَخْرَاءُ بُخْتَرَى وَيَجْمَعُنَا بِجَبَلِ شَتْوَانَ جَامِعِ
وَنُرْسِلُ فِي شَرِيَاظَةِ الْجَرِّ طَيْرَنَا وَفِي دَارَةِ الْأَوْجَامِ وَالْحَيِّ نَاجِعِ
وَنُحْيِي دَوَارِسَ الرُّبُوعِ الَّتِي عَفَتْ مَشَاتٍ لِقَنْصِهَا بِهَا وَمَرَابِ
وَنَنْزِلُ مِنْ مَخْرُوفِهَا^٢ كُلَّ مَخْبَرٍ^١ مَحْزٍ^٣ تَفُوتُ الْحَضْرَفِ فِيهِ الْفَعَا فِعْ
عَفَاءُ^٧ غَرِيرٍ^٨ الصَّيْدِ مَسَارِقَانِصٍ^٩ بِهِ حِقْبَةٌ وَلَمْ يُرْعَ فِيهِ رَائِ
كَسَّتُهُ سَحِيقَةً^٤ مِنَ الْجُودِ دِيمَةً بُرُوداً كَوَشِي لَوْتَتِهِ الصَّوَانِ
وَنَشْهَدُ حُسْنَ الصَّنْعِ فِيمَا نُزِيغُهُ مِنَ الْوَحْشِ أَوْ زَوْغِهِ وَهُوَ هَاجِعِ
وَنَسْمَعُ تَغْرِيدَ الطُّيُورِ إِذَا غَدَتْ^٥ لِمُخْتَلِفِ الْأَصْوَاتِ صُبْحاً تَرَا جِعِ
عَلَى كُلِّ مَيَّادٍ يُرْتَمُّهُ الْهَوَى وَتُظَرِّبُهُ الْأَلْحَانُ وَالْغُصْنُ يَانِعِ

١ - بختري وشتوان موضعان .

٢ - شرياطة الجر ودارة الارجام موضعان ايضاً .

٣ - اي الممطور بمطر الخريف .

٤ - المحبر الارض التي يكثر فيها الجبارى .

٥ - المحز الارض التي يكثر فيها الخرز .

٦ - جمع ففعع وهو الصغير من الغزلان .

٧ - العفاء الارض التي لم توطأ .

٨ - من الغرة يعني انه غير منتبه للصائد .

٩ - سحابة ذات سحق وهول من الرعد والبرق .

فِيهِزُّ شَوْقاً إِنْ تُغْنَّ بَلَابِلُ
وَنَقْطُفُ نَوْرِ الزَّهْرِ مِنْ كُلِّ رَوْضَةٍ
يَعَالِيلُ^١ فِي قَلْتِ^٢ يُصَفِّقُهَا الصَّبَا
يُنَافِحُنَا بِالطَّيِّبِ نَبْتُ شَوَاهِقِ
فَمَنْ لَمْ يُحَرِّ كُهُ الرِّبْعِ وَزَهْرُهُ
وَلَمْ يَتَأَثَّرْ بِالسَّمَاعِ وَنَحْوِهِ
وَلَمْ تَسْتَفِزَّهُ الظُّبَاءُ وَلَا الْمَهَا
وَلَا اهْتَزَّ إِذْ رَأَى الْحَبَارَى بَدَتْ لَهُ
فَتَرَقَّصُ طَوْرًا ثُمَّ تُبْدِي ذَوَائِبًا
وَلَمْ يَدْرِ قَطُّ مَا الْغَرَامُ وَمَا الْهُوَى
فَذَلِكَ مُخْتَلٌ الْمِزَاجِ حَقِيقَةً

وَأَنْ رَنْتِ الْوَرْقَانِ فَهُوَ يُطَاوِعُ
وَتَقْتَحِمُ الْغُدْرَانِ وَهِيَ نَوَاقِعُ
فَمُغْتَرِفٍ بِالْكَفِّ مِنْهَا وَكَارِعُ
وَتَنْصَحُ مِنْ نَبْتِ الْحَزَامَى دَوَافِعُ
وَلَا الْعُودُ حِينَ تَعْتَرِيهِ الْأَصَابِعُ
وَلَمْ يَشْتَمِلْهُ الصَّقَرُ إِنْ هُوَ دَافِعُ
إِذَا اعْتَرَضَتْ وَأَلْجَأَتْهَا الْهَجَارِعُ^٣
تَمِيسُ وَفَوْقَهَا الْبُزَاةُ طَوَالِعُ
وَتُؤَمِّي بِكُمَيْيْنِهَا وَطَوْرًا تُبَايِعُ
وَلَا مُوِجَعَاتِ الْقَلْبِ إِذْ يَتَوَاجِعُ
وَلَا شَكَّ لِلْحِمَارِ فِيهِ طَبَائِعُ

أَلَا يَا حَسُودُ مَتَ بَغِيظِكَ حَسْرَةٌ
عَلَى قَلْبِكَ الْمَسُودُ لَا سُدَّتْ طَائِعُ
أَبَا الْحَسَنِ الْمَذْمُومِ تَطْمَعُ فِي الْعَلَا
وَلَا غَيْرَ إِلَّا الْغِلُّ وَالشُّحُّ هَالِعُ

١ - نفاخات تكون فوق الماء .

٢ - والقلت النقرة في صخرة ونحوها يجتمع فيها الماء .

٣ - الكلاب السلوقية .

أَمِ الْمَجْدَ تَبْتَغِي وَتَأْمَلُ نَيْلَهُ وَلَا وَصَفَ إِلَّا الْعَجْزُ وَالْجِنُّ خَالِعُ
 إِذَا لَمْ تَسُدِّ بِالْعِلْمِ وَالْحِلْمِ وَالتَّقَى وَبِالْجُودِ وَالْإِقْدَامِ إِنَّكَ رَاضِعُ
 كَأَنِّي لَمْ أَرْقُبْ مَسَاءَ بِشَدَّتْ^٢ عَلَى طَلْلِ وَالغَيْثِ طَلٌّ وَهَامِعُ
 وَلَمْ أَتَخَيَّرْ عَنْ بَسَاطِي وَنُمرُوقِي بِسَاطِ نَقِيِّ الرَّمْلِ وَالْفَجِّ وَاسِعُ
 بِذَاتِ الْعَلَنْدَى أَوْ بِذَاتِ الْهَبُورَى^٣

عَطَّاشُ الْفِيَّانِي حَيْثُ لَا مَن يُطَالَعُ

وَأَرْضُ تَحَارُ فِي تَجَاهِلِهَا الْقَطَا وَلَا تَهْتَدِي تَسِيرُ فِيهَا الطَّلَاعُ
 نَرُوحُ وَنَعْدُو فِي نَعِيمِ تَوَدُّهُ وَتَتْرِكُ مُلْكَهَا الْمُلُوكُ التَّبَاعُ
 وَنَحْنُ عَلَى سَلَامَةٍ مِنْ طَوَائِقِ عَلَى جِيْفَةِ الدُّنْيَا سُدَى تَتَقَاطِعُ
 فَلَا طَارِقُ يَغْشَاكَ إِلَّا نَقَاتِقُ وَإِلَّا وَحُوشٌ حَوْلَ بَيْتِي رَوَاتِعُ
 وَلَا رَاكِبٌ بَغْلًا لَهُ عَقْلٌ بَغْلُهُ وَلَا سُوقَةٌ تَضِيقُ مِنْهَا الشُّوَارِعُ
 وَلَا مَلِكٌ فَظٌّ وَلَا ذُو تَجْبَرٍ وَلَا حَاكِمٌ بِالْجُورِ تَدْعُو الْأَقَارِعُ
 وَلَا عَائِبٌ أَمْرًا رَأَيْتَ صَوَابَهُ وَلَا حَاسِدٌ فَضْلًا بِفَضْلِ يُتَابِعُ
 وَلَا جَارٌ سُوءٍ لَيْسَ بِأَمْنٍ جَارُهُ بَوَائِقُهُ إِنْ غَابَ أَوْ هُوَ هَاجِعُ

١ - لثيم .

٢ - الشدق صنف من البزاة .

٣ - ذات العلندی أي أرض ذات شجر اسمه العلندی وكذا ذات الهبوري.

وَلَا مَا كَرُّ يَرْيَكَ شُهْدًا وَيَنْتَنِي فَيَسْقِيكَ أَذْهَى السَّمِّ لَيْسَ يُضَارِعُ
 وَلَا مُتَلَصِّصٌ يُرَاقِبُ عَوْرَةً وَيُبْذِي سِمَاتِ النَّسْكَ وَهُوَ يُخَادِعُ
 وَلَا سَارِقٌ لِلسَّمْعِ اللَّقِيلِ لَا قِطُّ وَلَا فَاسِقٌ يَرْمِي بِمَا هُوَ صَانِعُ
 وَلَا مُتَعَرِّضٌ لِلْأَعْرَاضِ مُوَلِّعٌ يَتَمَزَّيْهَا نَأْتِيكَ مِنْهُ الْفُضَائِعُ
 وَلَا أَهْلُ فِتْنَةٍ حَرَامٌ جَوَارُهُمْ عَلَى مَا ذَوُّوا الْفُتْيَا عَلَيْهِ تَتَابَعُوا
 فَمَا إِنْ تَرَى لِلْحَمِّ الْإِنْسَانَ آكِلًا وَلَا كَيْنَ لَحْمَ الصَّيْدِ مَا مِنْهُ مَانِعُ
 وَخَيْلِي حَلِيبُ الشَّوْلِ صِرْفًا شَرَابُهَا

وَمَا فِي النَّصِيِّ رَعِيهَا لَا الْمَزَارِعُ

وَتَعْلِفُ أَيْضَ الشَّعِيرِ وَأَنْتَقِي لَهَا مِنْ نَبَاتِ الْأَرْضِ مَا هُوَ نَافِعُ
 وَفِي جِرَّةٍ إِخْوَانٌ صَدَقَ أَجَلُهُ كِرَامِ السَّجَايَا وَالْمَعَالِي طَبَائِعُ
 وَفِي لَذَّةِ الدُّنْيَا وَأَرْغَدَ عَيْشُهَا فَلَوْلَا سُيُوفُ لِلصُّرُوفِ قَوَائِعُ
 وَدَاعِي الرَّحِيلِ كُلِّ يَوْمٍ يَرُوعُنِي وَهَوْلٌ وَعَوْلٌ فِي الْفَرِيضَةِ وَاقِعُ
 لَطَابَ السُّرُورِ وَأَطْمَأْنَنْتَ نَفْسُنَا وَلَا كَيْتَهَا دُنْيَا سَرِيعًا تُقَاطِعُ
 فَلَا عَيْشَ إِلَّا عَيْشُ أُخْرَى يُلْبَسُغُ نَعِيمًا مُقِيمًا دَائِمًا لَا يُوَادِعُ

ولعبد العزيز الفشتالي يَصِفُ القُبَّةَ الحَمْسِيَّةَ من مَباني المنصور
الذَّهبي على لِسَانِهَا :

سَمَوْتُ فخرَ البدرِ دُونِي وانحطَّا

وأصبحَ قُرْصُ الشَّمْسِ في أَذُنِي قُرْطَا

وَصُفْتُ مِنَ الْإِكْلِيلِ تاجاً لِمَفْرِقِي وَنَبِطْتُ نِيَّ الْجُوزَاءِ فِي عُنْقِي سِنْطَا

وَلَا حَتَّ بِأَطْوَاقِي الثُّرَيَّا كَأَنَّهَا نَشِيرُ جُهَّانٍ قَدْ تَتَبَّعَتْهُ لَقُطَا

وَعَدَيْتُ عَنْ زَهْرِ النُّجُومِ لَا نَنِي جَعَلْتُ عَلَى كَيَوَانِ رَحْلِي مُنْحَطَا

وَأَجْرِيْتُ مِنْ فَيْضِ السَّاحَةِ وَالنَّدَى

خَلِيجاً عَلَى نَهْرِ الْمَجَرَّةِ قَدْ غَطَّى

عَقَدْتُ عَلَيْهِ الْجَسْرَ لِلْفَخْرِ فَارْتَمَتْ إِلَيْهِ وَفُودُ الْبَحْرِ تَصْرِفُ مَا أُعْطِي

تَنْضَنُضَ مَا بَيْنَ الْغُرُوسِ كَأَنَّهُ وَقَدْ قَرَقَتْ حَصَاوُهُ حَيَّةٌ رَقُطَا

حَوَّالِيهِ مِنْ دَوْحِ الرِّيَاضِ خَرَانِدُ وَغَيْدُ تَجْرُثُ مِنْ خِمَائِلِهَا مِرْطَا

إِذَا أُرْسِلَتْ لَدُنَ الْفُرُوعِ وَفَتَحَتْ جَنَى الزَّهْرِ لَاحَ فِي ذَوَائِبِهَا وَخُطَا

يُرْتَحُّهَا مَرُّ النَّسِيمِ إِذَا سَرَى كَمَا مَالَ تَشْوَانُ تَشْرَبَ إِسْفَنْطَا

يَشْقُ رِيَاضاً جَادَهَا الْجُودُ وَالنَّدَى سَوَاءَ لَدَيْهَا الْغَيْثُ أَسْكَبَ أَمْ أَخْطَا

وَسَأَلَتْ بِسَلْسَالِ اللَّجَيْنِ حَيَاضَهُ بِحَاراً غَدَا عَرَضُ الْبَسِيطِ لَهَا شَطَا
تَطْلَعُ مِنْهَا وَشَطَا وَشَطَا دُمِيَّةٌ

هِيَ الشَّمْسُ لَا تَخْشَى كُسُوفًا وَلَا غَمَطًا

حَكَتْ وَحَبَابُ الْمَاءِ فِي جَنَابَاتِهَا سَنَا الْبَدْرُ حَلَّ مِنْ نُجُومِ السَّمَاءِ وَشَطَا
إِذَا غَارَ لَتَهَا الشَّمْسُ أَلْقَى شُعَاعُهَا عَلَى جِسْمِهَا الْفِضِّي نَهْرًا بِهَا لُطَا
تَوَسَّطَتْ فِيهَا مِنْ صَفَاءِ أَدِيمِهَا نُقُوشًا كَأَنَّ الْمِسْكَ يَنْقُطُهَا نَقْطَا
إِذَا اتَّسَقَتْ بِيضُ الْقِيَابِ قِلَادَةً فَإِنِّي بِهَا فِي الْحُسْنِ دُرَّتُهَا الْوَشْطَى
تَكْنَفْنِي بِيضُ الدَّمَى فَكَأَنَّهَا

عَذَارَى نَضَّتْ عَنْهَا الْقِلَادُ وَالرَّيْطَا

قُدُودٌ وَلَكِنْ زَادَهَا الْحُسْنَ عُرَّتُهَا وَاجْتَلَى فِي تَنْعِيمِهَا النَّحْتُ وَالْخُرْطَا
نَمَتْ صَعْدًا تَبْجَانُهَا فَتَكَسَّرَتْ قَوَارِيرُ أَفْلَاكِ السَّمَاحِ بِهَا صَنْغَطَا
فَيَا لَكَ شَأَوًا بِالسَّعَادَةِ أَهْلًا بِأَكْنَأِ فَوْرِ حُلِّ الْعُلَا وَالْهَدَى حُطَا
وَكَعْبَةً مَجْدِ شَادَهَا الْعِزُّ فَانْبَرَتْ تَطُوفُ بِمَغْنَاهَا أَمَا فِي الْوَرَى شَوْطَا

وَمَسْرَحَ غِزْلَانِ الصَّرِيمِ كِنَاسَهَا

حَنَايَا قِيَابٍ لَا الْكَيْسِبَ وَلَا السَّقْطَا

فَلَكِنْ بِهِ مَا طَابَ لَا الْأَثْلَ وَالْخَمْطَا

وَوَسَدُنْ فِيهِ الْوَشَى لَا السُّدْرَ وَالْأَرْطَى

تَرَاهُ مِنَ الْمِسْكِ الْفَتِيْدِ مُدَبِّرٌ إِذَا مَا زَجَّجَتْهُ الشُّحْبُ عَادَ بِهَا خِلْطَا
وَأَنْ بَاكَرَتْهُ نَسْمَةُ لَسْرَى بِهَا إِلَى كُلِّ أَنْفٍ عَرَفُ عَنَبْرَةٍ قُسْطَا
أَقَرَّتْ لِسَهُ الزَّهْرَاءُ بِالْخُلْدِ وَانْتَقَتْ

أَوَابِينَ كِسْرَى الْفَرْسِ تَغِيْطُهُ غَبْطَا
جَنَابُ رِوَاقِ الْمَجْدِ فِيهِ مُطَنَّبٌ
عَلَى خَيْرٍ مَنْ يُغْزَى لِحَيْرِ الْوَرَى سِبْطَا

وَلَهُ مِمَّا كُتِبَ بَيِّنُوهَا بِمَرَمَرٍ أَسْوَدٍ فِي أَيْضٍ :

لِلَّهِ بَهْوٌ عَزَّ مِنْهُ نَظِيرٌ لَمَّا زَهَى كَالرَّوْضِ وَهُوَ نَضِيرٌ
رُصِفَتْ نُقُوشُ غِلَاهِ رَصْفَ قَلَانِدٍ قَدْ نَضَّدَتْهَا فِي النُّحُورِ الْحُورِ
فَكَأَنَّهَا وَالتَّبَرُّ سَالَ خِلَالَهَا وَشَيْءٌ وَفِضَّةٌ تُرْبِيهَا كَافُورِ
وَكَأَنَّ أَرْضَ قَرَارِهِ دِيْبَاجَةٌ قَدْ زَانَ حُسْنَ طَرَاظِهَا تَشْجِيرِ
وَإِذَا تَصَاعَدَ نَدَاهُ نَوًّا فَفِي أُنْمَاطِهِ نَوْرٌ بِهِ مَمْطُورِ
شَاوُ الْقُصُورِ قُصُورُهَا عَنَ وَصْفِهِ سَيَّانٌ فِيهِ خَوْرَتُ قُوسٍ وَسَدِيرِ
فَإِذَا أَجَلَّتِ اللَّحْظَ فِي جَنَابَتِهِ يَرْتَدُّ وَهُوَ بِحُسْنِهِ مُحْشُورِ
وَكَأَنَّ مَوْجَ الْبِرْكَتَيْنِ أَمَامَهُ حَرَكَاتُ سَجْفٍ حَرَكَتَهُ دُبُورِ
صُفَّتْ بِضَفَّتَيْهَا تَمَائِلُ فِضَّةٍ مَلَكَ النُّفُوسِ بِحُسْنِهَا تَصْوِيرِ
فَتِيدِرُ مِنْ صَفْوِ الزُّلَالِ مُعْتَقًا يَسْرِي إِلَى الْأَرْوَاحِ مِنْهُ سُورِ

ما يَبْنِ آسَادٍ يَهْبِجُ زَيْرُهَا وَأَسَاوِدٍ يُسْلِي لَهْنٌ صَفِيرُ
 وَدَحَتْ مِنَ الْإِنهَارِ أَرْضَ زُجَاجَةٍ وَأَظْلَمَهَا فَلَكٌ يُضِيءُ مُنِيرُ
 رَأَقَتْ فَمِنْ حَصْبَانِهَا وَفَوَاقِعِ تَطْفُو عَلَيْهَا اللَّوْلُوُ الْمُنثُورُ
 يَا حُسْنَهُ مِنْ مَصْنَعِ فَبَهَاوِهِ بَاهَى نُجُومَ الْأَفْقِ وَهِيَ تَنُورُ
 وَكَأَنَّمَا زَهْرُ الثَّرِيَاضِ يَجْنِيهِ حَيْثُ التَّفَتُّ كَوَاكِبُ وَبُدُورُ
 وَلِدَسْتِهِ الْأَسْمَى نَحِيرَ رَضْفِهِ فَخَرُّ الْوَرَى وَإِدَامُهَا الْمَنْصُورُ

ولأبي الحسن الشَّامي في النُّعلِ النبويَّةِ الكريمةِ وأشارَ الى
 كِتَابِ الْمُقَرِّي أَزْهَارِ الرِّيَاضِ بِأَخْبَارِ عِيَاضٍ وَقَدْ رُسِمَ فِيهِ مِثَالُ
 النُّعْلِ الشَّرِيفِ بِمَاءِ الذَّهَبِ وَاللَّازُورَدِ :

دَعُوا شِفَةَ الْمُشْتَاقِ مِنْ سُقْمِهَا تُشْفَى

وَتَرَشَّفَ مِنْ أَسَارِ تَرْبِ الْهُدَى رَشْفَا

وَتَلْتُمُ نَعْلًا لِلنَّبِيِّ كَرِيمَةٍ بِهَا الدَّهْرُ يُسْتَسْقَى الْغَمَامُ وَيُسْتَشْفَى
 وَلَا تَصْرِفُوهَا عَنْ هَوَاهَا وَسُوءِهَا بَعْدَ لَكُمْ فَالْعَدْلُ يَمْنَعُهَا الصَّرْفَا
 وَلَا تَعْتَبُوهَا فَالْعِتَابُ يَزِيدُهَا هَيَامًا وَيَسْقِيهَا مُدَامَ الْهَوَى صَرْفَا
 جَفَّتْهَا بِكُتْمِ الدَّمْعِ بُخْلًا جَفُونُهَا فَمَنْ لَامَهَا فِي اللَّثْمِ فَهَوَّ لَهَا أَجْفَى
 لَيْتَنُ حُجِبَتْ بِالْبُعْدِ عَنْهُمْ فَهَذِهِ مَكَارِمُهُمْ لَمْ تُبْقِ سِرًّا وَلَا سَجْفَا

وإن كَانَ ذَاكَ الْخَيْفُ مَلْفَى وَصَالِهِمْ
 فَهَا نَفْحَةُ الْإِفْضَالِ قَرَّبَتْ الْمَلْفَى
 فَحَرَّكَتِ الْأَشْوَاقَ مِنَّا لِرَوْضَةٍ أَبَاحَ لَنَا الْإِسْعَادُ مِنْ زَهْرِهَا قَطْفًا
 زَمَانًا بِهِ مَوْصُولْنَا نَالَ عَائِدًا
 وَأَكَّدَ نَعْتُ الْوَصْلِ مِنْ نَحْوِهِمْ عَطْفًا
 تَوَلَّى كَيْثِلَ الطَّيْفِ إِنْ زَارَ فِي الْكُرَى
 وَإِلَّا كَيْثِلَ الْبَرْقِ إِنْ سَارَعَ الْخَطْفَا
 كَأَنَّا وَمَا كُنَّا نَجُوبُ مَنَازِلًا يَوْدُهَا الْمَشْتَاقُ لَوْ رَآهُ قَاحَتُهَا
 وَلَمْ تُبْصِرِ الْأَبْصَارُ مِنْهَا مَحَاسِنًا وَلَمْ تَسْمَعْ الْأَذَانُ مِنْ ذِكْرِهَا هَتْفًا
 كَذَاكَ اللَّيَالِي لَمْ تَحُلْ عَنْ طِبَاعِهَا
 مَتَى وَاصَلَتْ يَوْمًا تَصِلُ قَطْعُهَا أَلْفَا
 فَلَا عَيْشَ لِي أَرْجُوهُ مِنْ بَعْدِ بُعْدِهِمْ
 وَهَيْهَاتَ يَرْجُو الْعَيْشَ مَنْ فَارَقَ الْإِلْفَا

أَيَا مَنْ نَأَتْ عَنْهُ دِيَارُ أَحِبَّةٍ
 فَمِنْ بَعْدِهِمْ مِثْلِي عَلَى الْهَلْكَ قَدْ أَشْفَى
 لَيْسَ فَاتِنَا وَصَلٌ بِمَنْزِلِ خَيْفِهِمْ فَهَا نَفْحَةُ مَنْ عَرَفِهِمْ لِلْحَشَا أَشْفَى

وَهَازِيكَ أَنْفَاسُ الرِّيَاضِ تَنْفَسَتْ بِرِيَّاهُمْ فَاسْتَشْفَيْنَ بِهَا تُشْفَى
 وَقُلْ لِلذَّلَّيْ هَامُوا اشْتِيَاقاً لِبَانِهِمْ هَلُمُّوا لَعَرَفِ الْبَانِ نَسْتَشِيقُ الْعَرَفَا
 فَصَفْحَةُ هَذَا الطَّرْسِ ابْدَتْ نِعَالَهُمْ وَصَارَتْ لَهُ ظَرْفَا فَيَا حُسْنَهُ ظَرْفَا
 تَعَالُوا نُغَالِي فِي مَدِيحِ عَلاَنِهَا فَرُبَّ غُلُوٍّ لَمْ يُعَبِّ رَبُّهُ عُرَفَا
 وَلِلَّهِ قَوْمٌ فِي هَوَاهَا تَنَافَسُوا وَقَدْ عَرَفُوا مِنْ بَحْرِ اِمْدَاحِهَا عُرَفَا
 وَإِنَّا وَإِنْ كُنَّا عَلَى الْكُلِّ لَمْ نُطِقْ

نَحَاوِلُ بَعْضَ الْبَعْضِ مِنْ بَعْضٍ مَا يُلْقَى
 لَيْنَ قَبْلُوا أَلْفَا نَزِدْ نَحْنُ بَعْدَهُمْ
 عَلَى الْأَلْفِ مَا يَسْتَغْرِقُ الْفَرْدَ وَالْأَلْفَا
 وَإِنْ وَصَفُوا وَاسْتَغْرَقُوا الْوَصْفَ حَسْبُنَا

نُجِيلُ بَرَوْضِ الْحُسْنِ مِنْ وَصْفِهِمْ طَرْفَا
 وَتَقْبِيسُ مِنْ آثَارِهِمْ قَدْرٌ وَوُسْعِنَا وَتَرْكُضُ فِي مِضْمَارِ آثَارِهِمْ طَرْفَا

أُنَادِيكَ يَا خَيْرَ الْبَرِيَّةِ كُلِّهَا نِدَاءُ عُبَيْدٍ يَرْتَجِي الْعَفْوَ وَاللُّطْفَا
 وَإِنِّي مُحِقٌّ فِي هَوَى حُبِّكَ الَّذِي يَفُلُّ جُيُوشَ الْهَمِّ أَنْ أَقْبَلْتَ زَحْفَا
 وَمَا أَنَا فِيهِ بِالَّذِي قَالَ هَازِلًا (أَلَيْلَتَنَا إِذْ أَرْسَلْتَ وَارِدًا وَحَفَا)

٠ وللاديب أبي عبدالله المكنّي في كتاب أزهار الرياض مورياً:

أتى رياض في عياض وردها مظالم كانت قبل مُعضلة الداء
وفاضت ينيل العلم منه أصابعٌ ومن عجب قبض الأصابع بالماء
خليلي هذي معجزات لأحمد فلا تنكراً إن ردّ عيناً الى الرأء

ولمحمد ابن ابراهيم الفاسي في رقة أنفذهها الى الشهاب
الحفاجي وهو بمصر :

أسقيط طلّ في حديقة آس أم ذا حباب دار فوق الكاس
أم درّ نغر الأقحوانة باسم أم دمع طرف النرجس النعاس
أم جنة جنّ النسيم بحسنها أغصانها من ذاك في وسواس
أم هذه زهر النجوم تزيّنت منها النجوم هداية للناس
أم ذا هو السخر الحلال حلا أم العذب الزلال وكلّ عضو حاس

١ - هذه الأبيات لا كفاء لها في الحسن وقد اشتملت على توريات بديعة
تنبىء عن براعة صاحبها في صناعة البيان على أن فكرتها مستوحاة من قول علي
بن هارون الملقب :

ظلموا عياضاً وهو يحلم عنهم والظلم بين العالمين قديم
جعلوا مكان الرأء عيناً في اسمه كي يكتسوه وأمره معلوم
لولا ما فاحت أباطح سبتة والروض حول فنائها معدوم

أَمْ رُقْعَةً رَفَعَتْ لَوَاءَ بَيَانِهَا
 نَطَقَتْ بِكُلِّ فَضِيلَةٍ ظَلَّتْ لَهَا
 الشَّعْرُ فَأَخْرَجَتْ أَنْجَمَ الشَّعْرِ بِهَا
 مَنْ ذَا يُطَاوِلُهَا وَمَطْلَعُ نُورِهَا
 وَافَتْ فَمَا وَفَيْتُ بَعْضَ حُقُوقِهَا
 طَارَ الْفُرَادُ لَهَا فَقَالَ وَقَارُهَا
 جَاءَتْ تُحَدِّثُ عَنْ مُحَاسِنِكَ الَّتِي
 أَمَّا الْفَصَاحَةُ صَحَّ أَنْكَ قُسْهَا
 اللَّهُ دَرُّ عَقِيلَةٍ أَبْرَزْتُهَا
 مِنْ كُلِّ بَيْتٍ كَادَ يُشْبِهُ لَفْظُهُ
 شَرَحْتُ لِي الْوَدَّ الْقَدِيمَ وَذَكَرْتُ
 مَا أَخْطَأْتُ رُشْدًا وَإِنْ تَكُ أَبْطَأْتُ
 فَالْحُبُّ أَنْ أَرْضَى بِمَا تَرْضَى وَهَا
 فَأَتَى الْبَدِيعُ لَهَا ذَلِيلَ الرَّاسِ
 الْأَحْدَاقُ بَيْنَ مُحَقِّقٍ أَوْ خَاسِ
 وَالْجَوُّ قَالَ: الْفَضْلُ لِلْقِرَاطِ
 أَفْقُ الشَّهَابِ وَظُلْمَةُ الْأَنْقَاسِ
 إِلَّا يَبْذُلُ النَّفْسَ وَالْأَنْفَاسِ
 (مَا فِي وَقُوفِكَ سَاعَةً مِنْ بَاسٍ)^٢
 شَدَّتْ إِلَى حُسْنِ الثَّنَا بِعِرَاسِ
 بِالرَّغْمِ مِنْ غُمْرِ حَسُودٍ قَاسِ
 عَقَلْتُ بِيَهْجَتِهَا عُقُولَ النَّاسِ
 مَعْنَاهُ كُلُّ دَقٍّ عَنْ إِحْسَاسِ
 قَلْبًا فَدَيْتُكَ لَمْ يَكُنْ بِالنَّاسِ
 خَيْرُ اللَّقَا مَا كَانَ بَعْدَ الْيَاسِ
 حُبِّي وَحَقِّكَ رَاسِخًا بِأَسَاسِ

ولعبد السلام بن سوسن من رجال الريحانة في القمر
 ونسبت لغيره :

دَعِ ذَا وَقْلٍ لِلنَّاسِ مَا طَارِقٌ يَطْرُقُهُمْ جَهْرًا وَلَا يَتَّقِي

ليس له رُوحٌ على انه
شيخٌ رأى آدَمَ في عصرِه
وهوَ بوسْطِ البحرِ معَ قومه
هذا ويمشي الأرضَ في لَيْلَةٍ
فتارةٌ ينزلُ تحتَ الثرى
وتارةٌ يُبصرُ في مغرب
وتارةٌ تُبصرُه ساجحاً
وتارةٌ تحسبُه وهوَ في
ذُبَابَةٍ من صارمٍ مُرهفٍ
يدنو إلى عرسٍ بها حسنُها
حتى إذا جامعَها يرتدي
وهوَ على عادته دائماً
ثم يجوبُ القفرَ من أجلها
حتى إذا قابلَها ثانياً
وبعدَ ذا تلبسُه خِلعةً
فجسمُها من ذهبٍ جامد
ثم يرى في حالِ إتمامه
يركبُ ظَهْرَ الأدهمِ الأبلق
وهوَ إلى الآنَ بخَدِّ نقي
لا يثنى عن نهجه الضيق
أعجبُ به من مُوثقٍ مُطلق
وتارةٌ وُسْطَ السَّما يرتقي
وتارةٌ يُبصرُ في مشرق
يجري بِشاطي البَحْرِ كالزَّورق
ضِعَّتْهُ وَالْبَعْضُ منه بقي
بَارِزَةً من جفنه المطبق
يختطفُ الابصارَ بالروْنَق
بَحْلَةً سوداءَ كالمُحرق
يُجامعُ الأنثى ولا يلتقي
مُستميلاً في مُطرفِ أزرَق
تشكُّه بالرمح في المُفرق
يا حُسْنُها في لونها المونق
وَجِلْدُهُ صِغَ من الزُّبُق
مِثْلُ مِجَنِّ المِحرَبِ الملتقي

وَهُوَ إِذَا أَبْصَرَتْهُ هَكَذَا أَحْسَنُ مِنْ صَاحِبَةِ الْمَفْرِقِ

ولأحمد بن يحيى الشَّفْشَاوِيُّ المتوفى ١٠٠١ في رَوْضِ ابْنِ رِضْوَانَ
الكاتب بفاس :

أَجَنَّةُ الْخُلْدِ هَذَا يَا ابْنَ رِضْوَانَ امْ حُسْنُ رَوْضِكَ فِيهِ حَارُ تَبْيَانِي
أَمَّا تَرَى الطَّيْرَ بِالْأَذْوَاحِ سَاجِدَةً أَذْمْتُ أَنَا مَلَهَا أَوْتَارُ عِيدَانِ
تَحْكِي مَزَامِيرَ مَنْ لَانَ الْحَدِيدُ لَهُ تَشْدُو بِالْأَجْزَالِ فِي رُصْدِ زَيْدَانِ
تَنْفِي عَنِ الصَّبِّ مَا بِالْقَلْبِ مِنْ كُرْبٍ بَلْ تَتْرُكُ الصَّبَّ فِي تِيهِ الْهَوَى عَانَ
فَالْبَّانُ يَرْقُصُ مِنْ تَرْجِيْعِهَا طَرَبًا وَالزَّهْرُ يَفْتَرُّ عَنْ أَثْغَارِ مَرْجَانِ
وَالْمَاءُ مُنْسَكِبٌ وَالظَّلُّ مُنْسَجِبٌ وَلِلنَّسِيمِ هُبُوبٌ يُنْعِشُ الْفَآنِي

ولأبي عيسى المهدي الغزالي من رجال الانيس في مُغْنِيَةٍ :

غَنَّتْ فَأَغْنَتْ عَنْ سَمَاعِ الْعُودِ غَيْدَاءُ صَالَتْ بِاللِّحَاطِ السُّودِ
وَرُقُّ الْحَمَامِ تَعَلَّمَتْ أَلْحَانَهَا فَلِذَاكَ تُلْفَى عَذْبَةُ التَّغْرِيدِ

ولابن الزبير النحوي المتوفى سنة ١٠٣٥ في الْحُمْرَةِ :

إِرْكَبْ جَوَادَ اللّٰهُ وَأَشْرَبْ عَلَى وَرَدِ الْحُدُودِ تَحْتَ ظِلِّ الشَّعَرِ

والكَاسُ فِي يُمْنِي مُدِيرٍ لَهَا تَجْمُ الثُّرَيَّا فِي يَمِينِ الْقَمَرِ
ولابن الطَّيِّبِ الْعَلَمِيِّ فِيهَا :

تَفَتَّحَتْ أَزْهَارُ رَوْضِ السَّعُودِ وَغَنَّتِ الْأَطْيَارُ فِي كُلِّ عُودِ
فَبَاكِرِ اللَّذَاتِ فِي رَوْضَةٍ مَا بَيْنَ مِزْمَارٍ وَدَفٍّ وَعُودِ
وَقَمُّ إِلَى الرَّاحِ وَرِدْ ظَرْفُهَا فَطَلَّمَا أَمَلَتْ مِنْهَا الْوُرُودِ
صَهْبَاءُ يَعْلُومُ الْحَبَابُ كَمَا تَعْلُو عَلَى نَخْرِ الْغَوَانِي الْعُقُودِ
فِي كَاسِهَا مَاءٌ وَلَكِنَّهُ فِي الْقَلْبِ مِثْلُ النَّارِ ذَاتِ الْوُقُودِ
وَلَا تَمِلْ عَنْ شُرْبِهَا أَبَدًا مِنْ بَأْسٍ وَآسٍ خِفْتَهُ أَوْ شُهودِ
فَكَمْ زَنْتَ بِكَرًّا مَعَ ابْنِ سَمَا وَلَمْ تَجِبْ يَوْمًا عَلَيْهِ الْحُدُودِ
شَمْسٌ إِذَا غَابَتْ يَجُوفُ أَمْرِيءُ أَشْرَقَ فِي خَدَّيْهِ بَذْرُ السَّعُودِ
فَهَاتِهَا مِنْ كَفٍّ حُلُوِّ اللَّهْمَا لَكِنَّهُ لِلصَّبِّ مُرٌّ الصَّدُودِ
كَأَنَّهَا خِرَاءٌ فِي كَفِّهِ مَعْصُورَةٌ مِنْ وَرْدِ ذَاتِ الْحُدُودِ
سَبَاقِ أَطَارِ النَّوْمِ عَنْ مُقْلَتِي وَكَمْ سَبَانِي بِالْعُيُونِ الرَّقُودِ
أَطْلَقَ دَمْعِي مِنْ أَلِيمِ الْجَفَا وَالْقَلْبُ قَدْ أَوْثَقَهُ فِي قُبُودِ
أَدْخَلَ ذَاكَ الْخَضِرَ فِي عَدَمٍ وَرَدَّفَهُ أَخْرَجَهُ لِلْوُجُودِ
فَذَاكَ مِنْ ضَعْفٍ يَقُومُ وَذَا مِنْ ثِقَلٍ مَا زَالَ يَبْغِي الْقُعُودِ

وله فيها :

أَقُولُ لِلْمَحْبُوبِ فِي رَوْضَةٍ وَالطَّلُّ يَسْقِي وَالثَّرَى يَشْرَبُ
زَوْجُ بَيْنَتِ الْكَرَمِ ابْنِ السَّمَاءِ فَالطَّيْرُ فِي مِثْرِهِ يَخْطُبُ

ولصاحبه ابي عبدالله الشَّرقي فيها :

أَذُنُ مِنَ الدَّنِّ فَكَمْ تَهَرَّبُ إِنَّ ذَهَابَ الْعَقْلِ لِي مَذْهَبُ
وَأَشْرَبُ بِكَأْسِ صَيْغٍ مِنْ فِضَّةٍ لَكِنْ بَتَسْكَابِ الطَّلَا مُذْهَبُ

وله في مُبَاكَرَةِ الصَّبُوحِ :

يَا صَاحَّ صَحَّ اللّهُوَ وَالطَّيْرُ صَاحُ وَأَنْذَرِ الدَّاعِيَ بِقُرْبِ الصَّبَاحِ
قُمْ بِأَكْرِ الرُّوضِ بِبِكْرِ الطَّلَا وَأَشْرَبْ عَلَى زَهْوِ الْخُدُودِ الْمَلَّاحِ

وله في صِفَةِ رَوْضٍ :

يَا حُسْنَ رَوْضٍ فِي الْجَنَانِ أَرِيضُ لِبَرْقِهِ فِي شَرْقِ قَلْبِي وَمِيضُ
تَجْمَعُ أَشْجَاتُ الْهَوَى عِنْدَهُ نَهْرٌ صَحِيحٌ وَنَسِيمٌ مَرِيضُ
هَذَا لَهُ الْأَزْهَارُ بِاسْمِهِ وَأُدْمَعُ الطَّلَّ لِذَاكَ تَفِيضُ

ولابن زَاكُورٍ يَصِفُ رَوْضاً :

مُدَّةً لِلسُّلُوفِ أَشْرَاكَ النَّظَرِ فِي ابْتِهَاجِ الرُّوضِ مَنْ وَجَدَ الْمَطَرِ

وتَلَقَّ الأنسُ عن آسِ الرُّبَى واروِ طَيَّ النُّورِ عن نَشْرِ السَّحَرِ
وارتَشِفْ ثَغْرَ أَقْحاحِ بِاسْمَا واضطَبِّحْ بالطلِّ من كَأْسِ الزَّهَرِ
والتَّشِمِ وَجَهَ المُنَى مُسْتَبْشِرَا حيثُ رامَ الغُصْنُ تَقْبِيلَ النَّهْرِ
وجلا الورْدُ خَدُودَا أُشْرِبَتْ خَمْرَةَ العِقيانِ من فَرْطِ الحَفْرِ
وانْبَرَى النَّسْرَيْنِ يُهْدِي ذَهَبَا في صِحفٍ مُفْرَغاتٍ من دُرِّ
وحبًّا الحِيريُّ أنفاسَ الصَّبَا نَفَحَاتٍ أَنْشَرَتْ مِثْتَ الفِكرِ
وانتَشَى البُستانُ من خَمْرِ الحِيا فاستَقَاءَ النُّورَ من ذاكِ السَّكرِ
نظَّمَتْ في جِده أُنْدَاوُهُ عِقْدَ دُرِّ كَلِّها ماسَ انْتِشَرِ
قَيَّدَ الأَحْظَاظَ في بهجته واجلُ غَيْمِ الغَمِّ عن شَمْسِ العِيرِ
واعْتَبَرْ بالنُّورِ يَذْوِي بَيْنَا هو معشوق لِشَمِّ وبَصَرِ
واشْكُرْ اللهَ على آلائِهِ انما يَنْجَحُ سَعِيَا مَنْ شَكَرِ

وله أيضاً :

حدَّثَ عَرَفُ الصَّبَا عن نَفْحَةِ الزَّهَرِ عن الغُصُونِ عن السُّقْيَا عن المَطَرِ
قَالُوا جَمِيعاً شَرُودُ الأنسِ مَقْتَنَصُ بين الرُّبَى بِشِبَالِكَ الشَّمِّ والنَّظَرِ

وله في هَيْجَانِ البَحْرِ ، وكان أرادَ السَّفَرَ إلى الجَزَائِرِ :

يَا أَيُّهَا البَحْرُ مَهْلًا فَقَدْ دَهَانَا اهْتِجَانُكَ

إِنَّا هَمَمْنَا بِأَمْرٍ مَنَعَ مِنْهُ انْزِعَاجُكَ
لَوْ كُنْتَ تَذَرِي لَأَبْدَى سِيسَا السُّرُورِ ابْتِهَاجُكَ
يَا لَيْتَ شَعْرِي إِلَى كَمِّ يَخْكِي فُؤَادِي ارْتِجَاجُكَ

وقال في مَدِينَةِ تَطْوَانَ :

تَطْوَانُ مَا أَدْرَاكَ مَا تَطْوَانُ سَالَتْ بِهَا الْأَنْهَارُ وَالْخُلُجَانُ
قُلْ إِنْ لَحَاكَ مُكَابِرٌ فِي حُبِّهَا هِيَ جَنَّةٌ فِرْدَوْسُهَا الْكِتَانُ^١

ولأبي علي اليوسي في علاقة الزَّهَرِ بِالْمَطَرِ :

إِنَّ بَيْنَ الْغَمَامِ وَالزَّهَرِ الْغَضُّ لَرَحِمًا قَدِيمَةً وَإِخَاءَ
بَانَ إِلْفٌ عَنْ إِلْفِهِ فَتَوَارَى فِي الثَّرَى ذَا وَذَاكَ حَلَّ السَّمَاءِ
فَإِذَا مَا الْغَمَامُ زَارَتْ جَنَابًا آذَنْتُ فِيهِ بِالْحَبِيبِ اللَّقَاءِ
ذَكَرْتُ عَهْدَهُ الْقَدِيمَ فَحَنَنْتُ عِنْدَ لُقْيَاهُ فَاسْتَهَلَّتْ بُكَاءَ
فَتَرَى الزَّهَرَ بَارِزًا مِنْ خَبَايَا هُوَ يُحْيِي الْوُفُودَ وَالْأَصْدِقَاءَ
بَادِيِ الْبَشْرِ وَالْبَشَاشَةِ جَذَلًا نَ كَبُوسًا مِنْ كُلِّ لَوْنٍ رِذَاءَ
ثَمَلًا مِنْ شَمُولِ شَمْسِ الضُّحَى وَهَوَاً عَلَى بُسْطِ سُندُسٍ خَضْرَاءَ
رَاقِصًا وَالصَّبَا تُهْنِيهِ وَالْوُرُ قُ ، غَوَانِي الْقِيَانِ ، تَشْدُو غِنَاءَ

وله يصف أيام الشباب :

وَطَنٌ عَهْدْتُ بِهِ الشَّبِيَّةَ وَالصَّبَا
وَرَفَلْتُ فِي أَثْوَابِ عَيْشٍ بِاسِقٍ
وَقَطَفْتُ مِنْ زَهْرِ السَّرُورِ نَوَاضِرَا
أَيَّامَ كُنْتُ رَخِيًّا بِالِ فِي ذَرَى
أَلْهُوَ أَحْدَاثِ الزَّمَانِ مُرَاغِمًا
مُرَخِي الْعِنَانَ بِرَوْضِ كُلِّ لُبَانَةٍ
لَا أَخْتَشِي ظَفَرَا وَلَا نَابَا وَلَا
وَالدَّهْرَ سِلْمٌ وَالْخَطُوبَ غَوَافِلُ
مَا دَوْحَةٌ فَيَنَانَةٌ أَوْ رَوْضَةٌ
سَحَبَتْ عَلَيْهِ ذُيُولَهَا مُزْنُ الْحَيَا
إِلْفَيْنِ لَيْسَ أَخُوهُمَا بِمُنْكَدٍ
عَذَابُهُ أَتَقِي الْمَحْيَا أَرْغَدُ
وَهَضَرْتُ مِنْهُ بِالْفَصُونِ الْمِيدِ
حَدِيبٍ عَلَيَّ مُوسِّنٍ^١ وَمُوسِدٍ
لَا تُوفِّهَا عَيْثُ الْوَلِيدِ الْمُسْتَدِيِّ^٢
سَرَحًا بِهَا سَرَحَ الْقَلْوُ الْمُخْضِدِ^٣
أَشْجَى لَيْتِنِ مُغُورٍ أَوْ مُنْجِدِ
وَالْعَيْشِ غَضُّهُ وَالْأَمَانِي حُفْدِي^٤
بِخِمِيلَةٍ أَوْ فِي يَفَاعٍ أَنْجَدِ
وَسَخَتْ عَلَيْهِ بِكَفِّ وَاكْفَهَا النَّدِي

١ - الذرى الجانب والساحة والحذب العاطف المشفق والموسن النوم من السنة وهي أول النوم .

٢ - المستدي اللاعب بالجوز يقال سدى الصبي بالجوز واستدى إذا رمى بها لاعبا .

٣ - الفلو المهر والمخضد الذي يحاذب المزود من النشاط والمرح .

٤ - أي خدائي ، جمع حافد وهو الخادم .

يُسْقَى مِنَ الْوَسْمِيِّ مُتَرَع كَأَيْهِ وَيُصَانُ مِنْ نَسْجِ الْوَلِيِّ يُرْجَدُ^١
مِنْ كُلِّ سَابِغَةِ الذُّيُوءِ كَأَنَّهَا عَكَرَتْ تُسَامُ عَلَى الرَّبِّي بِالْمُرْعَدِ^٢
نَشْرَ الْجَنُوبُ جُمَانَهَا^٣ فَتَقَلَّدَتْ لَبَبُ الرِّيَاضِ بِحَلِيْهَا الْمَتَبَدَّدُ
فَتَدَفَّقَتْ أَنْهَارُهَا وَتَفَتَّقَتْ أَزْهَارُهَا فِي رَوْضِهَا الْمُسْتَأْسَدُ^٤
وَتَسَاجَلَتْ أَطْيَارُهَا وَتَمَايَلَتْ أَشْجَارُهَا كَالْمُثَمِّلِ الْمُتَمَيِّدُ
وَحَرَى اطْبَعَتْ نَسِيمَهَا بِرِيَاضِهَا جَرَى الزُّلَالُ بِغُصْنِهَا الْمُتَأَوِّدُ
مَا شَتَّ مِنْ ثَمَرٍ لَذٌّ وَمَنْظَرُ أَنْقَى وَصُوتٍ فِي الْغُصُونِ مُجَسَّدُ^٥
وَحِبَابِ جَرِيَالٍ يُخَافِلُ سَاقَ أُمْلُوْدٍ بِهَا فَحْمِ الذُّوَابِ ثُمَّ أَدَا^٦
أَوْ أَمِنْ ذِي فَرْقٍ خَاصِعٍ لُبُّهُ أَوْ غَفْوَةُ الْإِصْبَاحِ لِلْمَتَهَجِّدِ
أَوْ عَذْبُ شَارِعَةِ الْفُرَاتِ نَلْمًا أَوْ وَصْلُ حَبِّ بَعْدَ هَجْرِ مُبْعَدِ

١ - الوسمي مطر الربيع الأول والولي الذي يليه والبرجد الكساء المخطط .

٢ - هذا وصف للسحاب والعكر الابل الكثيرة والمرعد صوت الراعي شبهه بالرعد .

٣ - يعني الريح الجنوبية والمراد يجيئها قطرات المطر على التشبيه .

٤ - الملتف النبات .

٥ - المجسد المحسن على أنواع .

٦ - فحم الذوائب أسودها ومماد بمال .

بِأَلَدٍّ مِنْ تِلْكَ اللَّيَالِي لَوْ حَمَا مَا خَطَّهُ الدِّبْرَانُ سَعْدَ الْأَسْعَدِ

وللوزير ابن ادريس :

نَادَى السُّرُورُ بِسَعْدِكُمْ فَتَنَزَّهُوا
بَسَطَ الرَّيِّعُ بِهِ بَسَاطَ زَبَرْجَدٍ
قَدْ كَانَ كَنْزًا فِي التُّرَابِ مُطْلَسَمًا
أَبَدَتْ خَيَابَا الْأَرْضِ مِنْ بَرَكَاتِهِ
طَلَعَتْ طَلَانِعُهُ بِكُلِّ ثَنِيَّةٍ
وُجِيوْشُهُ النُّوَارُ تَظْهَرُ فِي الرَّبِّي
مَلِكُ الْفُصُولِ لَهُ التَّقَدُّمُ بَيْنَهَا
فَخَرَّ الزَّمَانُ بِصَيْفِهِ وَخَرِيفِهِ
مُتَصَرِّفٌ فِي الْأَرْضِ عِنْدَ وُجُوهِهِ
تَتَنَفَّسُ الْجَنَّاتُ فِيهِ أَمَا تَرَى
فَالرَّوْضُ قَدْ أَهْدَى حُلَاهُ وَخَزَّهْ
قَدْ أَحْسَنْتُ أَيْدِيَ السَّحَائِبِ طَرَزَهْ
فَتَحَتْ رُقَى كَنْزِ الْغَنَائِمِ كَنْزَهْ
مَا أَوْضَحَتْ لُسُنُ الْكَمَائِمِ رَمَزَهْ
تُهْدِي بَدَائِعُهُ وَتَنْشُرُ بَزَهْ
أَعْلَامُهُ تُبْدِي عُلاَهُ وَعِزَهْ
مَنْ رَامَ شَاوَ سَنَاهُ مِنْهَا عِزَهْ
وَشَتَائِهِ يَوْمَ الْفَخَارِ وَبَزَهْ
فَأَشْبَّ نَرْجِسَهُ وَشَيْبَ لَوْزَهْ
أَرْجَا سَرَى أَحْيَا الْفُؤَادَ وَهَزَهْ

وله في عَرِيشِ عَنَبٍ .

عَرِيسُ الرَّوْضِ تَزْهُو فِي عَرَائِشِهَا
لَهَا خَدُورٌ لِصَوْنِ الْحُسْنِ وَالْحَسْبِ

١ - الدبران وسعد الأسعد من منازل القمر وهذا من قول الشاعر :
إذا دبرانا منك يوماً لقيته أو مل أن ألقاك غدوا بأسعد

قد رُبِّيتُ فِي مِهَادٍ مَا يُحَرِّكُهُ إِلَّا النَّسِيمُ إِذَا يَهْفُو عَلَى كَثَبِ
وَأَرْضَعْتُهَا نُدْيَ الشَّجْبِ دِرَّتِيَا فِي كُلِّ حِينٍ وَلَمْ تَبْرُزْ مِنَ الْحُجْبِ
فَأُصْبَحَتْ بَعْدَ مَا تَمَّتْ رِضَاعَتَهَا

تُعْزَى إِلَى الْكَرْمِ لَا تُعْزَى إِلَى الشَّجْبِ
تَكَادُ تَسْقُطُ سِكْرًا فِي أَرِيكَتِيَا لَوْ لَمْ تَقُمْ بِسَرِيرِ الْعُودِ وَالْقَصَبِ
فِيهَا لِأَهْلِ التَّقَى شُكْرٌ، وَمُهِمَلَةٌ
وِزْرٌ لِأَهْلِ الْهَوَى وَذَا مِنَ الْعَجَبِ

الآدابُ والوصايا والحكم

للشيخ يعلى أبي جبل دفين باب يَصْلِيَتَن من فاس المتوفى ٥٠٣
في الحث على السفر .

سَافِرٌ لِّتَكْسِبَ فِي الْأَسْفَارِ فَائِدَةً فَرُبَّ فَائِدَةٍ تُلْفَى مَعَ السَّفَرِ
وَلَا تُقِيمُ بِمَكَانٍ لَا تُصِيبُ بِهِ نُصْحًا وَلَوْ كُنْتَ بَيْنَ الظِّلِّ وَالشَّجَرِ
فَإِنَّ مُوسَى كَلِمَ اللَّهِ أَغْوَزَهُ عِلْمٌ تَكْسِبُهُ فِي صَحْبَةِ الْخَضِرِ
وللقاضي عياض في ضده :

تَفَعَّدُ عَنِ الْأَسْفَارِ أَنْ كُنْتَ طَالِبًا نَجَاةً فِي الْأَسْفَارِ سَبْعُ عَوَائِقِ
تَشَوَّقُ إِخْوَانَ وَفَقَدُ أَحِبَّةَ وَأَعْظَمُهَا يَا صَاحِرَ سُكْنَى الْفَنَادِقِ
وَكثْرَةُ إِحْيَاشٍ وَقَلَّةُ مُؤَنَسٍ وَتَبْذِيرُ أَمْوَالٍ وَخِيفَةُ سَارِقِ
فَإِنْ قِيلَ فِي الْأَسْفَارِ كَسْبُ مَعِيشَةٍ وَعِلْمٌ وَآدَابٌ وَصَحْبَةٌ وَإِثْقِ
فَقَدْ كَانَ ذَا دَهْرٍ أَتَقَادَمَ عَهْدُهُ وَأَعْقَبَهُ دَهْرٌ شَدِيدُ الْمَضَاقِ

فهذا مقالي والسلام كما بدا وجرب فقي التجريب علم الحقائق
وله وجنسه :

اذ ما نشرْتَ بِساطَ انبساط فعنه فديتك فاطور المزايا
فان المِزاح كما قد حكى أولو العلم قبلي عن العلم زاحا
وللمهدي بن تومرت :

أخذت بأعضادهم اذ نأوا وخلفك القوم اذ ودّعوا
فكم أنت تنهى ولا تنهى وتسمع وعظاً ولا تسمع
فيا حجر السن حتى متى تسن الحديد ولا تقطع
وللقاضي أبي حفص ابن عمر :

بقلبك يا غافلاً فانظر وعينيك غمضها تبصر
إذا أرسل الطرف هام الفؤاد وبعض المرائي عمى المبصر
وآفة قلب الفتى عينه فإن ترع قلبك لا تنظر
وله أيضاً :

العلم يكسو الحلال الفاخره والعلم يُحني الأعظم الناخره
كم ذنب أصبح رأساً به ومذنب أبجره زاخره

مَا شَرَفُ النَّسَبِ إِلَّا التَّقَى أَيْنَ تَهِيمِ الْأَنْفُسِ الْفَاخِرِ
مَنْ يَطْلُبُ الْعِزَّ بَغَيْرِ التَّقَى تَرْجِعُ عَنْهُ نَفْسُهُ دَاخِرَهُ
أَعْرِضْ عَنِ الدُّنْيَا تَكُنْ سَيِّدًا بَلْ مَالِكًا فِيهَا وَفِي الْآخِرِ

وللاستاذ أبي القاسم ابن الشَّاطِ وَجَنَسُهُ :

إِنِّي سَلَكْتُ مِنْ انْقِبَاضِي مَنَهْجًا وَنَهَجْتُ مِنْ صَمْتِي عَلَى مَنَهَاجِ
وَتَرَكْتُ أَقْوَالَ الْبَرِيَّةِ كُلِّهَا كِي لَا أُمَيِّزَ مَادِحًا مِنْ هَاجِ

ولابن البناء العددي :

قَصِدْتُ إِلَى الْوَجَازَةِ فِي كَلَامِي لِعَلَّمِي بِالصَّوَابِ فِي الْإِخْتِصَارِ
وَلَمْ أَحْذَرْ فُهُومًا دُونَ فَهْمِي وَلَكِنْ خِفْتُ إِزْرَاءَ الْكِبَارِ
فَشَأْنُ فَحْوَلَةِ الْعِلْمَاءِ شَأْنِي وَشَأْنُ الْبَسْطِ تَعْلِيمُ الصَّغَارِ

ولابن عبد الملك المراكشي :

مَنْ لَمْ يَصُنْ فِي أَمَلٍ وَجْهَهُ عَنْكَ فَصْنٌ وَجْهَكَ عَنْ رَدِّهِ
وَاعْرِفْ لَهُ الْفَضْلَ وَعَرِّفْ لَهُ حَيْثُ أَحَلَّ النَّفْسَ مِنْ قَصْدِهِ

ولمالك بن المرحَّل وقد التَزَمَ افْتِتَاحَهُ بِمَا خَتَمَ بِهِ :

بِأَيِّ دَوَاءٍ أَمْ نَأْيٍ أَبَدٍ بُدَاوِي عِذْرُ مَنْ بَاضَ مَشِيدِ

بَيَاضٌ كَالْأَحْتِ كَوَاكِبُ سُحْرَةٍ تُرِيكَ طُلُوعاً مُودِنَاً بَغْرُوبِ
 بَشِيراً نَذِيراً لَاحَ كَالْفَجْرِ صَادِقاً عَلَى كَاذِبٍ حُلُو اللِّسَانِ خُلُوبِ
 بُنَيَّ أَبِكَ لِي إِنْ الْبُكَايِغَتْ الْبُكَاءُ وَلَيْسَ جَوَابِي مِنْكَ غَيْرَ وَجِيبِ
 بِحَاراً رَكِبْنَاهَا بِغَيْرِ سَفَائِنِ غُرُوراً فَإِنْ نَهَلِكَ فَغَيْرُ عَجِيبِ
 بَرْتَنِي يَوْمَآ آيَةٌ فِي بَرَاءَةٍ فَاِنْ ضَحِكْتَ سِنِي فَضْحُكَ مُرِيبِ
 بَنَيْتُ لَهَا قَلْبِي عَلَى كُرَةِ الْأَسَى فَلَمْ تَتَغَيَّرْ لِاخْتِلَافِ خُطُوبِ
 بَكِي صَاحِبِي حَتَّى إِذَا مَالِ فِي الثَّرَى وَسَأَلْتُ مَا قِهِ كَمِثْلُ غُرُوبِ
 بَسَطْتُ لَهُ كَفِّي وَقَبَّلْتُ كَفَّهُ وَقُلْتُ لَهُ هَذَا مَقَامُ كَثِيبِ
 بِحَقِّكَ لَا تَبْرَحْ أَطَارِحُكَ لَوْ عَتِي عَلَى نَعَمٍ مِنْ أَنَّنِي وَنَحِيبِ
 بِدَاراً إِلَى هَازِي الدَّمُوعِ فَرَبَّما غَسَلْتَ ذُنُوباً جَمَّةً بِذُنُوبِ
 بِدَايَةِ حَالٍ إِنْ تَدُمُ فَلَعَلَّمَا وَرُبَّ طُلُوعٍ كَانَ بَعْدَ مَغِيبِ
 بَنِي الدَّهْرِ أَمَّا الدَّهْرُ فَهُوَ عَدُوُّكُمْ وَإِنْ لَاحَ يَوْمَاً فِي ثِيَابِ حَبِيبِ
 بَوَارِقُهُ لَا رِيَّ فِيهَا لِعَاطِشٍ وَلَا خِصْبٍ فِي أَنْوَانِهِ لَجَدِيبِ
 بَلَاكُمْ وَأَبْلَاكُمْ تَقْلُبُ صَرِفَهُ فَيَا وَيْحَهَا مِنْ أَنْفُسٍ وَقُلُوبِ
 بِصَائِرُهَا فِي الرُّشْدِ غَيْرُ ثَوَاقِبٍ وَأَبْصَارُهَا فِي الْغَيِّ ذَاتُ ثُقُوبِ
 بَعِيدٌ مِنَ التَّوْفِيقِ مَن بَاتَ سَاهِراً رَجَاءَ بَعِيدٍ لَا مَخَافَ قَرِيبِ
 بَطِيءٌ لَعَمْرِي مِنْ سَرَى اللَّيْلِ كُلِّهِ وَأَصْبَحَ حَوْلَ الْحَيِّ بَعْدَ لُغُوبِ

بَخِيلٌ لِعَمْرِي مَنْ دَعَاهُ حَبِيبُهُ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَهُوَ غَيْرُ مُجِيبٍ
وَقَالَ عَلَى مِثْوَالِهِ :

جَدِيرٌ بِأَنْ يَبْكِيَ عَلَى نَفْسِهِ أَسَى فَتَى كَلَّمَا تُرْجَى لَهُ تَوْبَةٌ تُرْجَا
جَبَانٌ عَنِ الثَّقْوَى جَرِيٌّ عَلَى الْهَوَى قَرِيبٌ مِنَ الْمَهْوَى بَعِيدٌ مِنَ الْمَلْجَا
جَرَى فِي مَجَالِ الْهَوَى مِلَّةً عَنَانَهُ إِلَى الْآنَ مَا أَلْقَى لِحَامًا وَلَا سَرَجًا
جَنَى مَا جَنَى وَاسْتَسَهَلَ الْأَمْرَ فِي الصَّبَا فَلَمَّا نَهَاهُ الشَّيْبُ عَنْ فِعْلهِ لَجَا
وَلَا بَنَ جَابِرِ الْمَكْنَسِي :

أَيَا مَنْ أَرَادَ التَّخْلَصَ مِنْ دُنَاهُ لِحَوْفٍ إِذَا يَأْتِيهَا
إِذَا شَتَّ تَسَلَّمَ مِنْ شَرِّهَا فَسَلَّمَ لَهُمْ فِي حَوَائِجَاتِهَا
وَلَا بَنَ رُشِيدَ الرَّحَالِ :

تَغَرَّبَ وَلَا تَحْفِلْ بِفُرْقَةِ مَوْطِنٍ تَفُزْ بِالْمُنَى فِي كُلِّ مَا شَتَّ مِنْ حَاجٍ
فَلَوْلَا اغْتِرَابُ الْمِسْكِ مَا حَلَّ مَفْرِقًا وَلَوْلَا اغْتِرَابُ الدَّرِّ لَمْ يَحْظَ بِالتَّاجِ

وللسلطان ابي عنان المريني :

واذا تصدر للرياسة حاملٌ جرت الامور على الطريق الأعوج

وللعامة المكودي من مقصودته في السيرة النبوية :

أرقي بَارِقُ نجد إذ سرى	يَوْمِضُ ما بين فُرَادَى وَثْنَى
أَهْبَنِي إذ هَبَّ منه مَوْهِنًا ^١	ماسدٌ ما بين الثريا والثرى
سَمِيتُ من أَرْجائه إذ شِثْتُهُ	رِيحَ صَبَا أضوعَ من رِيحِ الكِبَا ^٢
فِيَالَهُ من بَارِقِ ذِكْرِي	من الهوى ما كنتُ عنه في غِنَى
أَثَارَ شَوْقَا ما مني كامنًا	بين ضلوع طالما فيها ثوى
فكان قلبي المَجْتَوَى اذ هاجه	كالزبد إذ أَوْرَاهُ مَوْرٍ فَوْرَى
وسحَّ سَحْبٌ مُقْلَتِي فما بقي	نوعٌ من الدمع بها الأهمى
ما كنتُ ادري قبلَ ان أُنْفِذَهُ	أن البُكَى يَمْنَعُنِي من البُكَى
وليلة سَبَحْتُ في ظلماتها	اذ سَحَبْتُ فُضُولَ أذْيَالِ الدُّجَى
أَلِفْتُ فيها كلَّ ما أُنْفِثُهُ	يُوْهِى القَوَى الا التَّسْلِي والكَرْى
طالت وما أَطَّلَ نائي صُبْحها	إِلَّا بِأَغْيَا ^٣ ما لَدَيْهَا من تَوَى

١ - الموهن كالوهن نحو منتصف الليل .

٢ - عود البخور .

٣ - أي بغاية .

قد وقتتْ نجومُها في أفقها وقفة حيرانَ طويلِ المشتكى
 جُبتُ بها وحدي قفراً سبباً ليس به الا النعَامُ والمها
 نائي الزبازي والفلاذاني الصفا خالي الفيافي والثرى خافي الصوى
 قطعته بيازِلِ ذي مرة يُنوعُ السيزَ بأنواعِ المشى
 فتارة يُعمل فيها الخيزلي وتارة يَعِدُو عليها الهديبي
 كأنَّ رَحلي اذ علوتُ ظهره فوقَ مَتِينِ المَتَنِ وَجَرِي القوى
 مِن وَحشٍ مَهْمٍ بعيدِ غوره ذي أكرعٍ أصلبَ من صُمِّ الصفا
 يقذفُ بي من قدْفِدٍ لَقْدَفِدٍ وينتهي بي من فلا الى فلا
 حتى اذا انتضى الصباحُ نصله وقدَّ جِلْبَابَ الدِّياجِي فانفري
 كأنه كَتَائِبُ قد نُشِرَتْ راياتها على الأكامِ والرُّبى
 أحسَّتِ الشَّهْبُ بها فأجفلتْ وأمت الغربَ وجدتْ في السرى
 إذا أنا يَبْقَعَةُ غِيْطَانِها جَرى بها سلسالُ نَهْرٍ وانحنى
 كأنه مِعْصَمُ خَوْدٍ غَاةٍ على رِداءٍ قد وشاهَ مَنْ وشى
 وظلَّ رَوْضٍ راضٍ صوبَ الحيا فاعتمَّ من نورِ حُلاهَ واكتسى
 باكره وشيمه فانفتحتْ كِبامه عن زَهر طيِّبِ الشذا

١ - منسوب الى وجرة مكان كثير الوحش .

وهزَّ أيدي الرِّيح منه قُضْباً ونشَرتْ شمسُ الغداة أَيْدَعَا^١
غنى بها الطيرُ الاغنُّ وشَدَا فيه وقد بلَّه قطُرُ الندَى
مُعْطِراً دَانِي القُطُوف والجَنَى أسْرَحَ طَرْفِي فِي مَبَانِيهِ الْعُلَى^٢
لَمَّا قَضَى بِالْبَيْنِ فِيمَا قَدْ قَضَى نَلْنَا بِهَا حِيناً أَسَالِيْبَ الْمُنى
غَايَاتِهَا بِطَرْفٍ جِدَّةٍ مَا كَبَا بِرَوْضِهَا ذَيْلَ السُّرُورِ وَالْهِنَا
ضَفَّةً نَهْرٍ أَرْجَ رَحْبِ النَّرى لِمَنْزَرِهِ ذِي نُزْهِ لَمَنِ رَنَّا
مَنْ قَدْ ظَلَمِي أَهْيَفَ طَاوِي الْحِشَا مِنْ شَادِنٍ عَذْبِ الثَّنَايَا وَاللَّمَى
يَفْعَلُ بِالْأَلْبَابِ أَفْعَالِ الطَّلَا وَالدَّهْرُ ذُو وَجْهِ مُنِيرٍ يُجْتَلَى
عَرَّائِسُ ذَوَاتُ حَلِيٍّ وَحُلَى تُزَفُّ لِي مِنَ الْأَمَانِي آمِنَا

١ - أي زعفراناً والكلام على التشبيه .

٢ - الطرف بالكسر الكريم من الحيل وبالفتح العين الباصرة .

أَنْتَى أَرْجِي لِفُؤَادِي سَلْوَةً من بَعْدُ بَعْدُ الْمُوْنِقَاتِ الْمُجْتَلَى
يَا لَيْتَ شِعْرِي وَالْأَمَانِي خُدَع هَلْ يُرْجِعُ الدَّهْرُ لَنَا عَهْدًا مَضَى
وَهَلْ لَنَا مِنْ عَوْدَةٍ يَلْعَهْد صَبَوْتُ فِيهِ جُلًّا أَيَّامَ الصَّبَا
إِذَا مَشِيْبَ فَوْقَ فَوْدِي يُرْعَوَى من شَيْنِهِ وَلَا رَقِيبَ يُخْتَشَى
أَيَّامُ أَنْسٍ أَسْرَعَتْ فِي خَطْوِهَا كَذَا اللَّذَازَاتُ سَرِيعَاتُ الْخَطَا

* * *

يَا قَلْبُ لَا تَجْزَعِ فَإِنَّ قَلْبُ وَأَنْتَ عِنْدِي ذُو دَهَاءٍ وَحِجَا
فَلَا يَهْوَانُكَ صَرْفُ الدَّهْرِ فِي مَا قَدْ جَنَى عَلَيْكَ مِنْ خَطْبِ النَّوَى
فَكُلُّ وَضَلٍ يَنْتَهِي لِفِرْقَةٍ تَقْرِي الْعُرَى مِنْهُ وَإِنْ طَالَ الْمَدَى
وَالدَّهْرُ فِي صُرُوفِهِ ذُو عَجَب يُدْنِي بِهَا كُلَّ جَدِيدٍ لِلْبَلَى
يُبْكِي إِذَا أَضْحَكَ يَوْمًا أَهْلَهُ وَيُعِيقُ الْكَرْبَ إِذَا الْعَيْشُ صَفَا
كَمْ مَلِكٍ فِي نَجْدَةٍ مِنْ مُلْكِهِ يَضِيقُ عَنْ جُنُودِهِ رَحْبُ الْفَضَا
قَدْ مَلَكَ الْأَرْضَ وَرَاضَ صَغْبَهَا وَشَيْدَ الْقُصُورِ فِيهَا وَالْبُنَى
أَخْنَى عَلَيْهِ دَهْرُهُ وَعَاقَهُ عَنْ كُلِّ مَا شَيْدَهُ وَمَا بَنَى
أَيْنَ الْأَلَى سَادُوا وَسَاسُوا مُلْكَهُمْ كَيْثَلُ سَاسَانٍ وَعَادٍ وَسَبَا^١

١. — ساسان أبو الملوك الساسانية من ملوك الفرس، وعاد وسبأ من العرب البائدة.

دارت على أذؤرهم^١ دوائرُ
 وأين باني إرم^٢ وجيشه
 ومُلك كسرى حين تمَّ أيده
 ولم تقصّر عن ملوك قيصر
 وكم ملوك قهروا بملكهم
 ولم تدع من ملك غسان فتى
 وكم ملوك قهروا بملكهم
 وأشدّ الشرى صاروا حديثاً في الدنيا
 حتى أبادتهم وطاحوا في البرى^٣
 صاروا رميمًا تحت أطباق الثرى
 ساهى المعالي في ذراها فسما
 وجرعوا كاس المنايا والردي

هاذي هي الدنيا فلا يغررك ما
 فأنقض يدك من عراها وارمها
 وظنّ بالإخوان شراً واخشهم
 وان جهلت حالهم فاخبر فما
 وسرك اكنمه عن الخلق ولا
 واقنع على عز بما يكفي ولا
 وسائر الناس على أخلاقهم
 تراه فيها من سرور وهنا
 وادراً بها ان كنت من اهل الشهى
 وصير الأجاب منهم كالعدا
 يخبر قوماً احد إلا قلى
 تطلع عليه احداً من الورى
 تحرص فان الحرص ذل للفتى
 وساعد المسعد واحيل من جفا

١ - جمع دار .

٢ - مدينة هائلة بناها شداد بن عاد .

٣ - البرى : التراب .

وصافهم وان أساءوا نيةً
 كم من صديق مُظهِرٍ لودّه
 يَبْشُرُ في وَجْهِكَ انْ لاقِيته
 يذيعُ ما يراه من قُبْحٍ وان
 فاتركَ إِخًا مِنْ هَذِهِ شَيْمَتُهُ
 ولا تهابَنَّ ذوي الجهل وان
 كم من أناس كالأناسي منظرًا
 وكم أناسٍ في الدُّنْيا ليس لهم
 يَرَوْنَ أَنَّ الْمَجْدَ وَالْعُلْيَاءَ فِي
 ليس العلا والمجدُ الا لِأَمْرِي
 وصمَّ العزمَ على ترك الهوى
 وانتعل الشَّهْبَ الدَّراري رفعة
 وما المعالي غيرُ علمٍ رائق
 طوبى لمن برَّزَ في مَيدانِهِ
 وجدَّ فيه وحماء جده
 ودانَ بالدين القويم والعلى
 فانما لكل مرء ما نوى
 لكن له قلبٌ على الجِدِّ انطوى
 وان تَغِبْ يَغْتَبِكَ في كلِّ مَلا
 رأى جميلًا منك أخفى ما رأى
 واهجره في الله ودّعه والعَمى
 راقك منهم مُنْتَدِي وَمُنْتَمِي
 فهُم اِذَا أَشْبَهُ شَيْءَ بِالْأَمَى
 من العلا الا الأسامي والكنى
 ما يُغْتَنَى من أَهْبات وكُسى
 رنا الى أَفْقِ المعالي وارْتَقى
 وجدَّ في طِلاب ما يُجْدي الشنا
 وامتهد البدر المنير واعتلى
 يُصَيِّرُ المرءَ على أَعْلَى الشُّها
 وابتدر السَّبْقَ لديه وجرى
 حتى ارتقى منه بِأَسْمَى مُرْتَقَى
 وازدان بالخلق الجميل والتقى

لِلَّهِ قَوْمٌ قَمَعُوا أَنْفُسَهُمْ عَنْ الْهَوَى إِذْ قَرَعُوا بَابَ الرِّضَى
عَابُوا نَفِيسَ الدَّرِّ وَالْعِيقَانِ إِذْ بَاعُوا نَفْسَهُمْ بِأَنْفُسِ عُلَا
وَأَنْتَ يَا نَفْسُ شُغِلْتَ بِالْهَوَى حَتَّى هَوَيْتَ مِنْهُ فِي قَعْرِ هَوَى
فَرَطْتُ إِذْ أَفْرَطْتُ فِي اكْتِسَابِ مَا يُرِيدِي وَلَمْ أَسْلُكْ سَبِيلَ مَنْ نَجَا
كَمْ خَضْتُ فِي بَحْرِ الْمَعَاصِي جَاهِجًا لَا أَرْعَوِي نَصْحًا لِلَّحْيِ مِنْ لَحَا
وَكَمْ تَبِعْتُ إِذْ تَبِعْتُ أَمَلًا قَدْ انْقَضَتْ لَذَائِهُ وَمَا انْقَضَى
وَاحْشَرْنَا قَدْ مَرَّ عُنْزِي ضَائِعًا بَيْنَ خَزَعِبَلَاتٍ لَهْوٍ وَهَوَى
هَلَكْتُ فِي الْهَلَاكِ لَوْلَا أَنِّي ذَخَرْتُ ذُخْرًا أُرْتَجِي بِهِ الْهُدَى
وَلَيْسَ ذُخْرِي غَيْرَ مَذْحِ أَحْمَدٍ سَيِّدِ أَهْلِ الْأَرْضِ طَرًّا وَالسَّمَا

وَيَقُولُ فِي آخِرِهَا مُنْكَتًا عَلَى ابْنِ دُرَيْدٍ وَحَازِمٍ فِي مَدْحِهِمَا
غَيْرَ الذَّاتِ الْمُصْطَفَوِيَّةِ :

مَقْصُورَةٌ لَكِنَّهَا مَقْصُورَةٌ عَلَى امْتِدَاحِ الْمُصْطَفَى خَيْرِ الْوَرَى
فَقْتُ عِلَاءَ كُلِّ ذِي مَقْصُورَةٍ وَإِنْ هُمْ نَالُوا الْآيَادِي وَاللَّهَا
فَحَازِمٌ قَدْ عُدَّ غَيْرَ حَازِمٍ وَابْنُ دُرَيْدٍ لَمْ يُفِيدَهُ مَا دَرَى

ما شَبَّهْتُ بِمَدْحِ خَلْقٍ غَيْرِهِ لِرُبَّتِي أَحْطَى بِهَا وَلَا جَدَا

وللشيخ ابراهيم التازي دفين وهران :

أما آن اَرِعَاوُكُ عَنْ شَنَارِ كَفَى بِالشَّيْبِ زَنْجَرًا عَنْ عُورِ
أَبْعَدَ الْأَرْبَعِينَ تَرْوُمَ هَزَلًا وَهَلْ بَعْدَ الْعَشِيَةِ مِنْ عَرَارِ
فَحُلَّ حُظُوظَ نَفْسِكَ وَالْهَ عَنْهَا وَعَنْدَ عَنْ الرَّبَابِ وَعَنْ سُعَادِ
فَمَا الدُّنْيَا وَزَجْرُهَا بِشَيْءٍ وَمَا أَيُّهَا إِلَّا عَوَارِ
وله ايضاً :

يَا صَاحِبَ مِنْ رُزْقِ الثَّقَى وَقَلَا الدُّنَا نَالَ الْكَرَامَةَ وَالسَّعَادَةَ وَالْهَنَا
فَاصْرِفْهُنَّ دُنْيَاكَ وَاصْرِمْ حَبْلَهَا دَارُ الْبَلَايَا وَالرِّزَايَا وَالْعَنَا
وَوَدَّادُهَا رَأْسُ الْخَطَايَا كُلِّهَا مَلْعُونَةٌ طُوبَى لِمَنْ عَنْهَا انْتَنَى
لَا تَغْتَرِزْ بِغُرُورِهَا فَمَتَاعُهَا عَرَضٌ مُعَدٌّ لِلزَّوَالِ وَالْفَنَاءِ
لَعِبٌ وَلَهْوٌ زِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ لَا تَخْدَعُكَ جِجْنَاهَا مُرُّ الْجَنَى
خَدَاعَةٌ غَدَارَةٌ مَكَارَةٌ مَا بَلَغَتْ لِحْلِيلَهَا قَطُّ الْمُنَى

اليومَ عندك جأها وحطامها وغداً تراه بكفّ غثرك مُقتنى
فأقبل نصيحةً مُخلصٍ وأعمل بها يُدّنيك من رضوان ربك ذي الغنى
ولابن غازي :

عجبتُ لمبتاع الضلالة بالهدى وللمُشتري دُنياه بالدين أعجبُ
وأعجبُ من هذين من باع دينه بدنيا سواه فهو اخزى وأخيبُ
وللشيخ رضوان الجنوي :

لا تركننَّ الى اهل الإمارة في امرٍ تُحاولُ واقطعْ دُونهم أملاً
وان أرادوك يوماً ما على عمل « كلِّ الثراب ولا تعملْ لهم عملاً »
وللامام القصار :

تَسعُ أبى منها أولو الأحلام والهمم السنية
إلا بحال ضرورة تدعو لها معُ حُسن نية
وهي الشهادة والوسا طة والحكومة في القضية
وكذا الإمامة والود يعة والتعرض للوصية
ثم الأجابة للطعا م وللولائم والهدية
فسد الزمانُ واهله إلا القليل من البرية

ولابي زيد البوعقيلي وجنسه :

تَجَبَّرَ بَعْضُ النَّاسِ كِبَرًا وَنَحْوَةً وَعَمَّ جَمِيعَ النَّاسِ مِنْهُ فُسَادُ
فِيَا أَسْفِي إِنْ الْفَاضِلَ قَدْ مَضَوْا فَقَامَ عَلَيْنَا الْارْذُلُونَ فَسَادُوا

وللشيخ عبد السلام جشوس :

إِذَا مَا نُحْصَرَ بِالْأَمْوَالِ نَاسٌ وَنَحْصَرَ اللَّهُ قَلْبُكَ بِالْعُلُومِ
فَلَا زِمَ شُكْرَ رَبِّكَ كُلَّ حِينٍ إِذَا مَا كُنْتَ مِنْ أَهْلِ الْفُهْمِ
وَسَافِرٌ عَنْهُمْ بِالْقَلْبِ سَافِرٌ وَحُطَّ الرَّحْلَ فِي بَابِ الْكَرِيمِ
وَلَهُ أَيْضًا :

إِذَا مَا اعْتَزَّ ذُو جَهْلٍ بِمَالٍ وَعُظِّمَ فِي نَفُوسِ الْجَاهِلِينَ
فَاهِلُ الْعِلْمِ أَعْلَى النَّاسِ قَدْرًا وَأَعْظَمُ عِنْدَ رَبِّ الْعَالَمِينَ
وللشيخ عبد الله العياشي :

قَامَتْ قِيَامَةٌ مَنْ شَابَتْ نَوَاصِيه
فَلْيَتَّقِ اللَّهَ وَلْيَتْرِكْ مَعَاصِيه

وله :

فَوْضِ الْأَمْرَ إِلَى مَنْ حُكِمَ نَافِذٌ فِي كُلِّ وَرْدٍ وَصَدَرٍ

وإذا نازَعَكَ الوهم فقل كلُّ شيء بقضاء وقدر

ولابي العباس الهلالي من نصيحته :

يا أيها الانسان هُبَّ من كراك	واضح من السكر الذي قد اغترأك
إن الرحيل يا أخي قريب	وكلُّنا مسافر غريب
والموت لا يفوته عريب ^١	فكيف لا يزود الأريب
فيا له من سفرٍ ما أطولُه	وبالَه من هائل ما أهولُه
كفى الحمام واعظاً لمن عقل	فانظر فكم من قاطن قد انتقل
يا عجباً لغافل بطّال	مثلي ، حليف لهو المطال
لو ظلَّ يخشى ضرب صاحب امير	كدير عينه وغصّ بالنمير
ولم يكن عن حزنه بلاه	ولا بمصغي الأذن للملاهي
وكيف يلهو وهو كلَّ حال	منتظر الموت والارتحال
وفتنة القبر وهولُه الشديد	وموقف الحشر وكرهه المديد
وكلَّ هولٍ بعده مما تذوب	له الصفا الصم فكيف بالقلوب
وكيف ينسى سكرات الموت	وهولُه وحسرات الفوت
وكيف يلهو ويلذُّ مطعماً	مع علم ذاك إن ذا من العمى

فَأَعِدِدَنَّ لِلرَّحِيلِ الزَّادَا وَافْتَقِدِ الْمِزْوَدَ وَالْمَزَادَا
وَالزَّمْ طِلَابَ الْعِلْمِ بِالْإِخْلَاصِ لَكِي تَرَى مِنْهَا جَعَجَ الْخُلَاصِ
فَالْعِلْمُ نُورٌ وَالْجَهَالَةُ حُلَاكٌ وَمَنْ سَرَى فِي ظِلْمَةِ الْجَهْلِ هَلَاكٌ
وَالْعِلْمُ مَا أَكْسَبَ خَشْيَةَ الْعَلِيمِ فَمَنْ خَلَا عَنْهَا فَجَاهِلٌ مُلِيمٌ
لأنه ميراثُ الأنبياءِ فلم يُحْزِهِ غَيْرُ الْإِتْقِيَاءِ
لِذَاكَ قِيلَ الْعِلْمُ يَدْعُو الْعَمَلَا إِنْ يُلْفِهِ قَرٌّ وَلَا ارْتَحَلَا
فَاعْمَلْ بِمَا عَلِمْتَ تُورِثْ عِلْمَ مَا لَمْ تَكُ تَعْلَمْ وَتَرْبَحْ مَغْنَمَا
وَاعْلَمْ بِأَنْ كَدَرَ الذُّنُوبِ يَكْسِفُ نُورَ الْعِلْمِ فِي الْقُلُوبِ
أَلَا تَرَى الذُّبَالَ فِي الْمَصْبَاحِ إِذَا صَفَا أَرْضَاكَ فِي اضْطِجَاعِ
وَإِنْ يَكُنْ بَوَسَخٌ مُلَطَّخَا كَسِفَ نُورُهُ لِذَاكَ وَطَخَا^١
فاحذَرِ عَلَى النُّورِ الَّذِي وَهَبْنَا وَإِنْ تُضِيعَ نُورَ الْإِلَهِ خَبْنَا
وَزَيْنَ الْعِلْمَ بِزِينَةِ الْوَرَعِ وَاقْنَعْ فَخِذُ الْحَرَصِ فِي الذَّلْكَرَعِ
إِنْ الْقِنَاعَةَ أَعَزُّ مُلْكٍ وَحِرْفَةُ^٢ الْقَنُوعِ شَرُّ هُلْكَ
وَاطْلُبْ شِفَاءَ قَلْبِكَ الْمَرِيضِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُغَصَّ بِالْجَرِيضِ^٣

١ - أي أظلم .

٢ - أي السؤال فهو ضد القناعة .

٣ - أي الموت .

ولا تظنَّ البرءَ من ذَوَاكَ^١ إلا بقطع النفس عن هَوَاكَ
فاجتهدْ أخِي واجتهدْ وجاهدْ عسى بفضل الله أن تُشاهدْ
واستنجِدْ مولاكَ في جميع ما ترومه فلنْ يزال مُنعمًا
فما به تطلبه تيسرًا وما بنفسك قد تعسرًا

* * *

بواحتلَّ على نفسك بالتدريج فانه أذهبُ للتخريج
وخالفنَّها ولا تُطغها وارعِ الدواعي ولا تُضعها
وهي الجوارحُ التي بها اكتساب للخير والشر وخفْ يومَ الحساب
فأنها مشرلةٌ في الآجل شاهدةٌ بما جنتْ في العاجل
فمن عصى بواحد منها فقد فتح باباً للجحيمِ قدْ وقد
وأصلها القلبُ فعالجْ داءه واحشْ بمرهمِ التقى سواداه
صلاحه صلاحها لمن خبر والصدُّ بالصدِّ كما جاء في الخبر
وأصلُ داء القلبِ حبُّ العاجلة فانبذْ واحتفلْ بأمرِ الآجلة
ولا يكنْ همُّكَ في الطعام والشربِ تلكَ شِيتَةُ الطَّعامِ^٢
حاملًا المرءَ وعاءَ شرًّا من بطنه فاجذرْ وقيتَ الشرًّا

١ - هو مصدر دبري كجبري يعني برهن وسئل -

٢ - أي ردال الناس -

ولا زِمَ السَّنَةَ واهْجُرَ الْيَدَعَ فالطُّرُقُ قدْ سُدَّتْ عَلى مَنْ ابْتَدَعَ
ولا زِمَ الصَّمْتَ الْحَيِدَ الا عَن ذِكْرِ مَوْلَاكَ الْكَرِيمِ بَجَلًا
أَوْ مَا جَرَى مَجْرَاهُ عَمَّا تَنْتَفِعُ بِهِ لِيَوْمِ هَائِلٍ وَتَرْتَفِعُ
فَكُلُّ مَا يَحْصِيهِ اللِّسَانُ بِجِدِّهِ يَوْمَ الْجَزَا الْإِنْسَانُ
وَلَتَكُ مَعْنِيًا بِحُسْنِ الْخُلُقِ تُحْزَنُ رِضَا الْحَقِّ بِهِ وَالْخُلُقُ
وَاحْرِصْ عَلَى الْعُزْلَةِ مَا اسْتَطَعْتَ وَإِنْ تَبَرَّ مِنْ ثُونِهَا انْقَطَعَتْ
فَخُلُطَةُ النَّاسِ أَخِي عِقَالُ وَالْقِيلُ لَا زِمُ لَهُمْ وَالْقَالَ
فَدَعِهِمْ تُرِخْهُمْ وَتَسْتَرِخْ فَقُلْ مَنْ خَالَطَهُمْ ثُمَّ رَجَحْ
وَاقْطَعْ إِذَا رُمْتَ الْبَلَا الْعَلَايِقُ وَادْفَعْ بِجَنَّةِ التَّقَى الْعَوَارِقُ

ولابي علي اليوسي :

إِنَّا نُنَاسُ لَسْتَ تُبْصِرُنَا نَتَحَيَّنُ الطَّعْمَ^١ الَّتِي تُزْرِي
يَعْرِى الْفَتَى وَيَجُوعُ وَهُوَ يُزَى مُتَجَمِّلًا بِالصَّبْرِ وَالْبِشْرِ
وَالْحَرَّةُ الشَّمَاءُ رُبَّمَا جَاعَتْ وَلَمْ تُرْضَعْ عَلَى أَثَرِ
وَالْمُورِدُ الْعَذْبُ الْفَرَاتِ إِذَا رَأَتْهُ^٢ حُمُرٌ سِيَمَ بِالْهَجَرِ

١ - جمع طعمة وهي المأكلة والمكسب .

٢ - هو من باب الخذف والإيصال مثل قولهم في المثل أحشك وتروثي .

وإذا ترى طيراً بمنزلة فالطيرُ غيرُ الباز والصقْر
 وإذا رأيتَ المرءَ مُحْتَسِياً كأسَ الهوان فليس بالحر
 والحرُّ ليس بحياته بيوى عزَّ الجَنابِ ورفعة. القدر
 لا بالطعام ولا الشراب ولا استلقائه بأرائكٍ وثر
 وإذا ترايلك الحياة فما من عيشة تبقى ولا عمر
 وسؤالُ ذي لُومٍ وذو بخلي ورجاؤه لنوائبٍ تتجري
 أنكى لقلب أخى المروءة من نقل الجبال وتحمل الصخر
 وأضرُّ من كل المصائب أن عظمتُ عليك فوكلها شر
 وتقلدُ للمَن من يده غلٌّ على هادبك^١ في الأثر
 بل وخزنة في القلب ناكثة بل طعنة في لبة النحر
 وغناك عنه بالقناعة في حالِكَ من عُسر ومن يُسه
 أجدى من الملك الذي جمعت أبناء مُهرٍمِرٍ غابرٍ الدهر
 وألذُّ من بسنة الشباب على جدة ومن وثر على وثر^٢
 وليأسُ صونك عن تملقه أبهى من الاستبرق الحضر
 وحلاّ الوقار عليك أجل من أن تحتلي بقلانيد النضر

١ - الهادي : العنق .

٢ - هو من قول بعض العرب : اعجب الأشياء وثر بالفتح على وثر بالكسر اي
 وقاع على فراش وثير .

وَصَبَابَةٌ مِنْ مَاءٍ وَنَجْهَكَ أَنْ
فَإِذَا عَرَّتْكَ الْحَادِثَاتُ فَثِقْ
وَاصْبِرْ لِرَوْحِ اللَّهِ مُرْتَجِيًا
أَنْ أَصْطَبَارَ الْمَرءِ مُفْتَتِحَ
وَمُنْهَسٍ عَنْهُ الْكُرُوبَ إِذَا
يَكُمُ مِنْ حَزِينٍ بَاتَ مُكْتَبَا
لَا يَرْتَجِي جَلَابَ لَيْلَتِهِ
فَأَبْتَهُ الطَّافُ مُنْقَسَةً
وَلَكُمْ بُعِيدَ الضُّيقِ مِنْ سَعَةٍ
هَلْ بَعْدَ مُعْتَرَكِ الظَّلَامِ سَوَى
وَإِذَا تُحَاوِلُ نَيْلَ مَكْرُمَةٍ
وَارْكَبْ جَوَادَ الْجِدِّ مُكْتَفِيًا
وَاعْلَمْ أَنَّ الْغَرَضَ فِي الْجَنَاحِ
وَلَدَى الرِّبَاحِ الْكَثْرُ يُحْمَدُ مَا
وَلَدَى الصَّبَاحِ يَكُونُ مُغْشِيًا

فَسُ مِنْ رَحِيقِ سَلْسَلِ غَمْرِ
بِمَلِكِهَا ذِي الْخَلْقِ وَالْأَمْرِ
فَلْتَحَدِّثْ عَوَاقِبَ الصَّبْرِ
مُتَغَلِّقَ الْبِأْسَاءِ وَالْعُسْرِ
صَاقَتْ بَيْنَ جَوَانِحِ الصَّدْرِ
مُسْتَعْرِ الْأَحْشَاءِ ذَا زَفَرِ
أَنْ يَنْتَنِي طَرْفَاهُ بِالسَّفَرِ
لِفُؤَادِهِ مِنْ حَيْثُ لَا يَذَرِي
وَلَكُمْ بُعِيدَ الْعُسْرِ مِنْ يُسْرِ
بَلَجِ الصَّبَاحِ وَطَلْعَةِ الْإِتْجَارِ
فَانْهَضْ إِلَيْهَا نَهْضَةَ الشُّبَّارِ
ذَيْلَ الْمَلَالَةِ مِنْكَ وَاللَّهْزِ
خَضِرَ يَحْقُ لِحَالِ الدَّوْرِ
جَابَ الْمَقَاوِزَ صَاحِبُ التَّجَرِّ
وَيُنَالُ بُغْيَتَهُ الذَّنْبِي يَسْرِي

وَتَسْنَمَنَّ ذُرَى الْأُمُورِ وَلَا تَخْلِدَ إِلَى سَفْسَافِهَا الْحُضُرُ
وَأَعْلَمُ بِأَنَّكَ مَا اسْتَطَعْتَ تَجَنَّى
وَالكَرَمُ يُجِدِّي الْمُجْتَنِّي عِنَبًا
وَلَكُمْ قَرَى مَرَعَى وَلَسْتَ تَرَى
وَالنَّاسُ كَالْعَوْنَاءِ هَائِمَةٌ
وَالْمَرْءُ كُلُّ الْمَرْءِ بَيْنَهُمْ
لَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْوَقَاءِ وَلَا
فَتَوَخَّ فِي النَّاسِ الْوَفَى إِذَا
وَأَسْبَرُهُمْ قَبْلَ الْإِخَاءِ وَلَا
كَمِ مِنْ أَخٍ مَدَقَ الْوِدَادِ عَلَى
إِنْ تَلَقَّاهُ فَالشَّهْدُ يَقُولُهُ
وَإِذَا تُصَادِفُ ذَا الْإِضْفَاءِ فَكُنْ
وَأَيْسَمُ سَوَائِمَ سَرَحِهِ طُرّاً
وَصُنِ السَّرَارَةَ^٤ وَاللَّبَابَ وَلَا تَبْذُلْ لَهُ مِنْهَا سَوًى . الْقَشْرُ

١ - الطعن والوخز .

٢ - السعدان والثغر من أفضل المرعى .

٣ - السَّيْرُ بالكسر العداوة .

٤ - سرارة الشيء اطيبيه وخالصة .

فَلَرَبَّمَا يُلَوِّي الزَّمَانِ بِهِ
 وَإِذَا تُصَاحِبُ أَوْ تُجَالِسَ أَوْ
 فَصْدَاقَةُ النَّبِيَاءِ مَفْخَرَةٌ
 وَصَدَاقَةُ اللُّؤْمَاءِ مُعْقِبَةٌ
 وَالسَّاقِطُ الْوَانِي ، مُشَاتِمُهُ
 وَالْحَظُّ وَالْمَقْدَارُ مَا أُحْصِرَا
 بَلْ مِنْحَةٌ أَرْزَلَتْ نَشَأَتْ
 وَإِذَا نَظَرْتَ وَجَدْتِ فِي قَرْنٍ
 وَتَرَى اللَّيْبَ يَبِيتُ فِي ضَفْفٍ
 لِيَكُونَ فَضْلُ حِجَابِ الْفَتَى عَوَضًا
 وَتَكُونَ أَجْكَامُ الْإِلَآءِ جَرَتْ
 وَالْمَرْءُ مَمْدُودٌ لَهُ أَجَلٌ
 فَأَعِدَّ لِلْيَوْمِ الَّذِي خَضَعْتَ
 وَتَحَوَّلَتْ فِيهِ الدِّينُ هُمْ

فَيَكُونُ أَبْصَرَ فَيْكَ بِالضَّرِّ
 تَسْتَبُّ فَالْتَمِسْنِ ذَوِي الْقَدْرِ
 وَكَذَا يَوَاوُهُمْ^١ مِنْ الْفَخْرِ
 لَوْ مَا كَيْثُلُ حِكَاكَ ذِي الْعُرِّ
 كَالْبَانِعِ الْعَقِيَانِ بِالصُّفْرِ
 فِي ذِي الذِّكَاةِ يَبِيتُ يَسْتَمْرِي
 يَبْدِي مُدْبِرَهَا عَلَى قَدْرِ
 عَمْرُ الْغِنَى وَجَهَالَةُ الْغَمْرِ
 يَهُومُهُ مُنْقَسَمَ الْفِكْرِ
 عَنْ فَضْلِ مَالِ الْأَنْوَكِ الْكَثْرِ
 فِيهِ الْخَلْقُ عَنْ غَلَبِ وَعَنْ قَسْرِ
 تَنْشُحُ مَدَاهُ نَصَائِبَ الْغُبْرِ^٢
 فِيهِ الطَّلَا لِرَوَاجِبِ الذُّعْرِ^٣
 قُنَّ الذُّرَى شَمَمًا إِلَى الذُّرِّ

١ - أي عداوتهم .

٢ - الضفف قلة المال مع كثرة العيال .

٣ - جمع أغبار وهي بقايا الشيء .

٤ - الطلا الأعناق .

وتدوُسُهُمْ أَقْدَامُ طَائِفَةٍ
 وَاذْمُمْ رِكَابَكَ لِلرَّحِيلِ غَدَاً
 وَتَسَلَّ عَنْ لَيْلٍ فَقَدْ أَرِفْتُ
 وَاعْلَمْ بِأَنَّ الْوَتَجَةَ ذُو شَحْطٍ
 فَتَرَوْنَهُ وَخَيْرُ زَادِكِ مِنْ
 وَإِذَا ارْتَحَلْتَ فَلَا تَشِيدْ وَسِرْ
 وَحَذَارِ رَحْلِكَ يَقْتَفِي سُبُلًا
 وَارْزَعْ الْبِطَاحَ إِذَا مَرَعَنْ وَلَا
 وَإِذَا ظَلِمْتَ فَفِي الْأَصِيلِ فَرْدُ
 وَإِذَا رَأَيْتَ سَفِينَةً خُرُوقًا
 وَإِذَا تَكُونُ تَزِيلَ ذِي كَرَمٍ
 لَا يَغْدُمُ الْعَافِي نَدَاءَ وَلَا
 فَأَرْحُ فَوَادِكَ أَنْ يَكُونَ بِهِ
 وَحَذَارِ أَنْ يَلْقَاكَ مُرْتَجِبًا
 وَكُنِ الْخَلِيَّ وَأَنْتَ ضَائِفُهُ
 كَانَتْ لَدَيْهِمْ مَوْجِعُ الشَّخْرِ
 إِنَّ الْخَلِيطَ غَسَدُوا عَلَى ظَهْرِ
 عَنْهَا النَّوَى وَمَضَاةُ الْهَجْرِ
 وَمَخَاوِفِ وَمَجَاهِلِ غُبْرِ
 تَقْوَى الْمُهَيَّمِ سَامِعِ الْأَمْرِ
 وَسَطَ الْخَلِيطِ وَمُعْظَمِ السَّفَرِ
 عَنْ نَهْجِهِمْ فَيُضِلُّ فِي الْقَفْرِ
 تَرَقَّيْنِ بِحَالِقِي وَتَعْرِ
 فَرْدًا عَنْ الضَّوْضَاءِ وَالْكَدْرِ
 فَتَأَنَّ لَا تَعْجَلِ إِلَى التُّكْرِ
 رُحْبِ الدَّرَى مُتَفَضِّلِ غَمْرِ
 يَعْثُلُ عَنْ ذَهْلٍ وَعَنْ فَقْرِ
 هُمْ إِلَى زَادٍ عَلَى ذِكْرِ
 مَا يَجْتَنِيهِ سِوَاهُ مِنْ حَبْرِ
 عَارُ النَّزِيلِ عَلَى الَّذِي يَنْتَرِي

١ - أي القصد والنية في السفر والمقصود سفر الآخرة .

٢ - أي يتبع بينات الطريق ويترك النهج القويم ، والمعنى مقتبس من قوله تعالى : « وَإِنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا ، الآية » .

٣ - تليح الى قصة موسى مع الخضر في خرق السفينة .

واللعامة المرغيشي :

مَنْ لَمْ يَكُنْ يَرْضَى بِمَا قَدْ قَسِمَ فَهُوَ ظَلُومٌ ظَنٌّ أَنْ قَدْ ظَلِمَ
يَسْخَطُ حَيْثُ السَّخَطُ لَا يَقْتَضِي نَفْعاً وَلَكِنْ ضُرُّهُ قَدْ عَلِمَ

ولأبي عبدالله الحمسي المتوفى بدمشق ١١٥٨ .

خَبِزُ شَعِيرٍ وَمَاءٌ بِرٍ يَكُونُ قُوِّيَ مَعَ السَّلَامَةِ
أَفْضَلُ عِنْدِي مِنْ خَفْضِ عَيْشٍ تَكُونُ عِقْبَاهُ لِلنَّدَامَةِ

ولأبي عبدالله الشرقي :

كُلُّ امْرِئٍ يَصْبُو إِلَى مِثْلِهِ وَطَائِرٍ يَأْوِي إِلَى شَكْلِهِ
مَنْ لَا يَكُونُ الْخَيْرُ فِي فَرْعِهِ فَكَيْفَ كَانَ الْخَيْرُ فِي أَصْلِهِ
مَنْ أَجْمَعَ النَّاسُ عَلَى لُؤْمِهِ خَابَ الَّذِي يَطْمَعُ فِي فَضْلِهِ
مَنْ جَارَ فِي الْحُكْمِ بِلا قُدْرَةٍ لَمْ تَأْتِهِ الْقُدْرَةُ فِي عَبْدِهِ
وَمَنْ أَسَاءَ النَّاسَ ظُلْماً لَهُمْ دَلَّتْهُ دُيَاهُ عَلَى ذُلِّهِ

وله في شكوى الزمان وغدر الاخوان :

وَمَا فِي الدَّهْرِ غَيْرُ آخِرِ خَوْثُونَ لَوَرَدَ الظُّلْمُ يُسْرِعُ كَالظَّلِيمِ ١

وَلَمْ أَرْ مُنْصِيفًا إِلَّا قَلِيلًا بِصِدْقِ الْوَدِّ وَالْقَلْبِ السَّلِيمِ
وَلَمْ أَنْكَرْ مِنْ الْإِيَّامِ تَعْيِبًا سِوَى رَفْعِ اللَّثِيمِ عَلَى الْكَرِيمِ

ولابي حفص الفاسي من قصيدة على منوال لامية العجم:

لَا تَعْتَبِنَّ عَلَى دَهْرٍ تُسَاءُ بِهِ فَمَا عَلَى الدَّهْرِ مِنْ عَثَبٍ وَمِنْ عَذَلٍ
وَاسْتَغْنِ بِاللَّهِ لَا يُغْنِيكَ مَا جَمَعْتَ أَيْدِي الْأَنَامِ وَغَيْرَ اللَّهِ لَا تَسَلِ
وَكَيْفَ تَسْأَلُ عَبْدًا لَا غَنَاءَ لَهُ أَمْ كَيْفَ تَسْأَلُ ذَا فَقْرٍ وَذَا بَخَلٍ

ما اعتصت عن بذل ماء الوجه من عِوَضٍ

يوماً ولو نلت ما ترجوه من أَمَلٍ

وَالْمَالُ يُبْذَلُ فِي الْأَعْرَاضِ تَالِئِهِ قَلَّا تَنَلُهُ بَعْرُضٍ فِيهِ مُبْتَدَلُ
وَالْمَاجِدُ الْفَخْمُ لَا يَنْفَكُ مُعْتَقِلًا رُمَحَ الْإِبَابَةِ مِنْ سُوءٍ وَمِنْ خَطَلِ
يَحْمِي النَّمَارُ وَيُضْمِي مِنْ يُحَارِبِهِ وَيَسْتَقِيلُ فَلَا يُلَوِي عَلَى رَجُلِ
وَلَيْسَ يُلْفَى عَلَى الْإِثْرَاءِ ذَا بَطَرٍ وَلَا مِنَ الْفَضْلِ فِي الْإِفْلَاسِ ذَا عَطَلِ
تَأْتِي لَهُ أَلْهَمَةُ الشَّمَاءِ مُحِجَّةٌ عَنْ مَوْقِفِ الْأَذَلِ إِنْ يَرْتَعَى مَعَ أَهْلِ
وَيَسْمَخِرُ بِأَنْفِ الْعِزِّ مَنْقَبُضًا عَنْ رُتْبَةِ نَاهَا الْأَوْغَادِ بِالْحِلِّ
وَمُورِثُ الْعِزِّ رَبُّ الْعِزِّ أَجْمَعِهِ فَالْعِزُّ بِاللَّهِ لَا بِالْمَالِ وَالْحَوْلِ
وَالْإِنْسُ بِاللَّهِ لَا بِالنَّاسِ قَاطِبَةٌ وَالنَّصْرُ بِاللَّهِ لَا بِالْبَيْضِ وَالْأَسَلِ
وَالْحَرُّ يَسْتَفُّ تُرْبَ الْأَرْضِ مُحْتِيلًا وَلَيْسَ لِلْعَنِّ مِنْ كَعْبٍ بُمَحْتَمِلِ

ويهجر المنهل العذب البرود اذا
 ملك القناعة لا تنفك امرته
 فتم به غير مزوود^١ ولا وجل
 وان سبحت أو استوخت منزلة
 فالسلسل العذب في الانهار مطرد
 وحض لنيل العلا بجر المكاره لا
 وان ظفرت بغمر العيش في دعة

فاذكر رقيقك إذ أصبحت ذا وثل^٢

ما أيسر المرء والاتباع معيرة
 ولن ترى لعريق لجد من سمة
 ماضر بدر الدجى في الافق تنبئه
 واصبر على مضض الحساد متبدا
 أما يسرك أن القوم قد ضمنت
 يا ونجهم كلما زاد الفتى شرفا
 ولا اعتلى قدره والأهل في نهل
 كسيمة الحلم والإغضاء والرسل
 سود الكيلاب وقد أسرى على مهل
 فالصبر يبريك ما لولاه لم تنل
 صدورهم أعظم الأدواء والعلال
 زادوا به أسفاً يذني من الاجل

١ - عن تعب وعطش .

٢ - مذعور .

٣ - مال .

٤ - عطش .

٥ - السهولة واللين .

أَوَّلِي لَّهُمْ سَخِطُوا صُنَعَ الْحَكِيمِ فَمَا
وَلِلْأَعَادِي أَيْادٍ جَلَّ مَوْقِعُهَا
وَكَمْ تَجَشَّمَتْ طُرُقَ الْجَدِّ مُعْتَجِزًا
وَكَمْ لَبَسَتْ دُرُوعَ الْحَزَمِ مُنْتَطِبًا
وَكَمْ تَسَلَّمَتْ أَعْلَى ذِرْوَةِ فَعْدَتِ
فَقُلْ لِمَنْ لَاتَحْظَ الْعُلِيَاءُ نَاطِرُهُ
أَبَالِ التَّكَاسُلِ تَبْغِي نَيْلَ مَأْثَرَةٍ
عَنْ سَاقِ جِدِّكَ شَمْرٌ ذَيْلٌ مُحْتَرِمٌ
وَقُلْ لِمَنْ يَبْتَغِي صَفْوًا بَلَا كَذْرٍ
وَدُونَ شُهِدَ الْمُنَى مِنْ تَحْلِهِ إِبْرُ
وَسَامِحِ الْخَلَلِ إِنْ زَلَّتْ بِهِ قَدَمٌ
وَإِنْ تَضَعُضِعَ رُكْنُ الْوُدِّ مِنْهُ فَلَا
قَاشِدُ قَوَاهِ وَحَازِرُ أَنْ تُعْتَفَهُ
أَوْ فَالْسَيْنَةُ التَّجْرِبِ قَائِلَةٌ
وَإِنَّمَا الْخِلُّ مِنْ يُؤَلِّكَ نَائِلَةٌ

أَوَّلَاهُمْ بِعَظِيمِ الْخِزْيِ وَالْفَشَلِ
عِنْدِي فَكَمْ جَنَّبُونِي مَوْقِعَ الزَّلَلِ
ثَوْبَ الصِّيَانَةِ عَنْ عَجْزٍ وَعَنْ كَسَلِ
سَوَابِقِ الْعَزْمِ لَمْ ائْكُلْ وَلَمْ أَهْلِ
مَنَازِلِي بِهِمْ تُرْبِي عَلَى زُحَلِ
فَصَارَ يَنْهَضُ نَهْضَ الشَّارِبِ الثَّمِيلِ
هِيَهَاتَ كَمْ بَيْنَ ذِي عَزْمٍ وَذِي وَهْلِ
ذِي قُوَّةٍ غَيْرِ هَيَّابٍ وَلَا وَكَلِ
لَا بُدَّ فِي الْعَيْشِ مِنْ صَافٍ وَمِنْ عَسَلِ
فَاصْبِرْ لَهَا إِنْ أَرَدْتَ الْقَوَزَ بِالنَّحْلِ
فَلَسْتَ تُبْصِرُ خِلَلَ غَيْرِ ذِي زَلِ
تَعْجَلْ وَقَدْ خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلِ
فَرُبَّ نَفْسٍ أَمْرِيءٍ تَغْتَاطُ بِالْعَذَلِ
تَوَهُمُ الْخِلَّ فِي الدُّنْيَا مِنَ الْخَلَلِ
دَابًّا وَيُنْجِدُ عِنْدَ الْخَادِثِ الْجَلَلِ

وَيَكْتُمُ السِّرَّ إِنْ افْشَاهُ ذُو سَفَهٍ
وَيَحْفَظُ الْوَدَّ فِي سِرِّهِ وَفِي عِلْنٍ
وَيَصْحَبُ الصَّدْقَ فِي جَدِّهِ وَفِي هَزَلٍ
فَمُبْرَمٌ الْعَهْدَ مِنْهُ غَيْرُ مُنْقَصِمٍ
وَآيَةُ الصَّدْقِ فِي دَعْوَاهُ يَبْتَنُّهُ
فَرُضٌ عَلَى الْيَأْسِ مِنْهُ نَفْسٌ ذِي كَرَمٍ
فَإِنَّهَا عَقَبَاتُ الْمَجْدِ يُوشِكُ أَنْ
وَدُونَكَ الْعِلْمَ لَا تَبْغِي بِهِ بَدَلًا
فَالْعِلْمُ نُورٌ مُبِينٌ يُسْتَضَاءُ بِهِ
فَأَمْلَأْ جِرَابَكَ مِنْهُ غَيْرَ مُكْتَرِثٍ
وَرَوْضِ النَّفْسِ وَاسْتَكْمِلْ فَضَائِلَهَا

تَجَنَّبِي ثِمَارَ الْمُنَى مِنْ رَوْضِهَا الْخَضِيلِ

وَتَجَنَّبِي انْجِمًا زُهْرًا وَآوَةً
تَمْلِكُ السَّعَادَةَ لَا تَجَاءُ وَمَيْسَرَةٌ
فَالْمَرْءُ بِالنَّفْسِ لَا بِالْجِسْمِ مُرْتَفِعٌ
وَالنَّفْسُ أَنْفُسُ مَا يُعْنَى اللَّيْبُ بِهِ
وَالْجَأُ إِلَى اللَّهِ فِي أَمْرِ يُحَاوَلُهُ
بُدُورَ تَمِّ وَأُخْرَى الشَّمْسِ لَمْ تَزَلْ
وَلَا التَّرَفُّهُ وَالْإِرْقَاةُ فِي الْحَلَلِ
وَالنِّيفُ بِالنَّصْلِ لَا بِالْعِمْدِ وَالْحَلَلِ
فَارَبَّأُ بِنَفْسِكَ أَنْ تُعْنَى بِمُنْسَقِلِ
وَإِبْرَأُ إِلَى اللَّهِ مِنْ حَوْلٍ وَمِنْ حَيْلِ

وَكَيْلٌ إِلَى اللَّهِ كُلَّ الْأَمْرِ وَأَغْنَى بِهِ عَنْ سِوَاهُ فَإِنَّ اللَّهَ خَيْرُ وَلِيٍّ
وَلابنُ الْوَنَانِ مِنْ قَصِيدَتِهِ الشَّمَقِيَّةِ الَّتِي مَدَحَ فِيهَا السُّلْطَانَ مُحَمَّدَ بْنَ
عَبْدِ اللَّهِ وَقَدْ أَلْغَيْنَا هَذِهِ الصِّفَةَ الْعَرَضِيَّةَ وَاعْتَبَرْنَا هَاكِيًا هِيَ قَصِيدَةُ أَدِيبَةٍ
وَلَمْ نَطَوِّلْ بِشَرْحِ غَرِيبِهَا وَتَفْسِيرِ إِشَارَاتِهَا إِلَّا مَا خَفَّ اعْتِمَادًا عَلَى قُرْبِ
ذَلِكَ مِنْ مُتَنَاولِ الْقَارِئِ بِسَبَبِ الرَّجُوعِ إِلَى سُرُوحِهَا الْعَدِيدَةِ * :

مَنْلًا عَلَى رِسْلِكَ حَادِي الْأَيْتُقْ	رَلَا تُكَلِّفَهَا بِمَا لَمْ تُطِيقْ
فَطَالَمَا كَلَّفْتَهَا وَتُقَّتْهَا	سَوَقَ فَتَى مِنْ حَالِهَا لَمْ يُشْفِقْ
وَلَمْ تَزَلْ تَرْمِي بِهَا يَدُ النُّوَى	بِكُلِّ فَجٍّ وَفَلَاةٍ تَمْلَقْ
وَمَا أَتَيْتَ تَذَرَعُ كُلَّ فُذْفَذٍ	أُذْرَعُهَا وَكُلَّ قَاعٍ قَرِقْ
وَكُلَّ أَبْطَحَ وَاجْرَعَ وَجَزَعَ	وَصَرِيْمَةً وَكُلَّ أَتْرَقْ
بِجَاهِلٍ تَحَارُّ فَيَنْزِلُ الْقَطَا	لَا دِمْنَةً لَا رَسْمٌ دَارٍ قَدْ بَنَى
وَلَمْ تَزَلْ تَقْطَعُ جِلْبَابَ الدُّجَى	بِحِلْمِ الْيَدِ ١ وَتَسِفُ الْعُنُقْ
فَمَا اسْتَرَاخَتْ مِنْ عُبُورِ جَعْفَرٍ ٢	وَمِنْ صُعُودِ بَصْعِيدِ زَلَقْ
إِلَّا وَفِي خَضَخَاضٍ دُمِعَ عَيْنُهَا	خَاضَتْ وَغَابَتْ بِسَرَابٍ مُطِيقْ

* - ولنا عليها شرح مختصر طبع بمراراً .

١ - أي بأيديها الشبيهة بالجم وهو المقراض .

٢ - أي نهر .

كأنها رَفْرَاقُه بحرٌ طَمَى والنوقُ أمواجٌ عليه ترقى
 وكلُّ هودَجٍ على أفتابها مثلُ سفينٍ ماخِرٍ أو زورق
 مرَّت بها هَوُجُ الرياحِ فبهى في تفرُّق حِيناً وحِيناً تلتقي
 وكم بِسَوَاطِيفِ البغي سُقَّتْ سَوْفَهَا سوقَ المعنَّبِ الذي لم يَتَق
 حتى غدتُ خَوْصاً عِجَافاً ضَمَّراً أعناقُها تشكو طَوِيلَ العَنَقِ^١
 مَرُثُومَةً الْيَدَي شَكَتْ فَرَطَ الْوَجَا لكنها تشكو لِغَيْرِ مُشْفِق
 من بَعْدِ مَا كَانَتْ هُنَيْدَةً غَدَتْ أَكْثَرَ مِنْ ذَوْدٍ وَذَوْنِ شَنَقِ^٢
 وابنُ تَمَادَيْتَ عَلَى إِنْتَعَابِهَا - ولم تَكُنْ مَتَبِهاً عَنْ رَهَقِ
 فسوفَ تَعْرُوكِ عَلَى إِتْلَافِهَا نَدَامَةُ الْعُسْكَيِّ وَالْفَرَزْدَقِ
 وَكُنْتَ قَدْ عُرِضْتَ عَنْ أَخْفَافِهَا خَفِيَّ حُنَيْنٍ ظَافِراً بِالْأَنَقِ
 لَأَنْتَ أَظْلَمُ مِنْ ابْنِ ظَالِمٍ إِنْ كُنْتَ مِنْ مَعْدُهَا لَمْ تَرْفُقْ
 رَفَقاً بِهَا قَدْ بَلَغَ السَّيْلُ الزُّبْيَ وَاتَّسَعَ الْحَرَقُ عَلَى الْمَرْتَقِ
 وَهَبْ لَأَيِّدِيْنِ أَيْدَاً وَلَهَا مَتْنًا مَتِيناً مَا خَلا عَنْ مَصْدَقِ
 فَمَا لِظُنِّ حَمَلَتْ مِنْ مِرْقٍ يَظُنُّ أَوْتَى بِهَا فِي الْعَسَقِ^٣

١ - العنق نوع من السير فسيح .

٢ - الهنيدة مائة من الابل والذود ما بين ثلاث وعشر، والشنق ما بين عشر الى عشرين .

٣ - الظمن جمع ظمينة وهي المرأة الطاعنة والظمن بالفتح السفر .

إسأتَ للغيْد وللشوق ولي إساءةً بـتوبةٍ لم تُمَحَقْ
لو لم يكن بحبِّ حلمٍ أحنَفِ والمُنْقَرِي قَلْبِي ذا تَعَلَّقْ
حملتُ رأسك على شبا القنا مروِّعاً به حُداةَ الأيُنُقْ
فُسِّقْ فلا نَعِمَ عَوْفُكَ ولا أَمِنَ خَوْفُكَ ولا تَدْرُفُفِقْ
ودعْ يسوقُ بعضُها بعضاً فقد دنا ولُوجُها بوعرِ ضَيِّقْ
ولتَّخِذْنِي رائداً فاني ذو خِبرةٍ بِمُبْهَمَاتِ الطَّرِيقْ
إِن غَرِيتُ عَلفَتُها ولو يا جمَعْتُهُ مِن ذَهَبِ وَوَرِقْ
أو صَدِيتُ أوردتها مِن أدْمعي نَهَرَ الأَبْلَقُ وَنَهَرَ جِلْقْ

رِفْقاً بها شَفِيعاً هَوْنِجْ غدت سماءُ كلِّ بدرٍ مُشْرِقْ
من كلِّ غِنْداءٍ عَرُوبَ بَهْتَةٍ رُعْبُوتِ عَيْطَاءِ ذاتِ رَوْنِقْ
خَريدَةٍ مَسْوَدَةٍ رُقراقَةٍ وَهْنا نِهْنا نِهْنا المَعْتَنَقْ
وَقُلْ لِرَبَّاتِ الهَوادِجِ انْجَلِينَ آمِنَاتٍ فَزَرَعِ وَفَرَقِ حَامِي الطَّعِينَةِ لَدَى وَفَتِ اللَّقِيْ
فإِنِّي أَشْجَعُ من رَبيعَةٍ رِيمٌ إِلَيْهِ طارَ بي تشوْفي
فَرِيًّا يَبْدُو إذا بَرَزَتْ لِي عُرِفْتُ صَبًّا مُغْرَمًا ذا قَلْقْ
لُبْنَى وما أدراك ما لُبْنَى بها

تسبي بشعر أشنبٍ ومرشِفٍ قد ارتوى من قرَّفٍ مُعْتِقِ
وناعِمٍ مُهَيَّكَلٍ وفاحِمٍ مُرَجَّلٍ وحاجِبٍ مُرَقِّقِ
وعقبٍ مُجَبَّلٍ ومَغْصِمٍ مُسَوَّرٍ وعُنُقٍ مُطَوِّقِ
ومُقَلَّةٍ ترمي بقوسٍ حاجِبٍ لاِحْظًا بِسَهْمِهَا المَفَوِّقِ
تَمْنَعُ مَسَّ جِسْمِهَا لِقُوبِهَا ثَلَاثَةٌ مِثْلُ الْأَثَاثِ فِي الرِّقِي
حُقَافٍ مِنْ عَاجِرٍ وَقَعْبُ فِضَّةٍ مِنْ ظَاهِرٍ وَبَاطِنٍ كَالشَّفَقِ
وَزَادَ يَسْكُ الخَالُ وَرَدَ خَدَاهَا حُسْنًا وَقَدْ عَمَّ بِطِيبِ عَيْقِ
وَقَبْلَتْ أَقْدَامَهَا دَوَائِبُ سُودٌ كَقَلْبِ الْعَاشِقِ الْمُحْتَرِقِ
كَمْ أَوْدَعَتْ فِي مُقْلَتِي مِنْ سَهَرٍ وَأَضْرَمَتْ فِي مُهْجَتِي مِنْ حُرْقِ
وَلَا يَزَالُ فِي رِيَاضِ حُسْنِهَا يَسْرَحُ فِكْرِي وَيَجُولُ رَمَقِي
وَلَا تَسْلُ عَمَّا أَبْتُ مِنْ جَوَى وَمَا تُرِيقُ مِنْ دَمَوَعِ حَذَقِي
يَوْمَ اشْتَكَيْ كُلُّ بَا فِي قَلْبِهِ لِحَبِّهِ بِطَرَفِهِ بَا لَقِي
مَا عَذُرْتُ مِنْ شَكْوَى الْجَوَى لِمَنْ جَا وَهُوَ لَلْبَعِ عَيْنُهُ لَمْ يُرِقِ
آهِ عَلَى ذِكْرِ لَيَالٍ سَلَفَتْ لِي مَعَهَا كَالْبَارِقِ الْمُؤْتَلِقِ
فِي مَعْهَدٍ كُنَّا بِهِ كَنَحْلَتِي حُلُوانَ آ فِي وَجَلِ بِلَا تَقَرُّقِ

١ - المعهد المكان لا يزال القوم يتعاهدونه .

٢ - هما نخلتان كانتا يقرب مدينة حلوان يضرب بها المثل في طول الصلابة .

نَلْنَا بِهِ مَا نَشْتَهِي مِنْ لَذَّةٍ وَدَعَا فِي ظِلِّ عَيْشٍ دَغْفَقُ
 اِزْمَانٍ كَانَ السَّعْدُ لِي مُسَاعِدَا وَمُقَلَّةُ الرَّقِيبِ ذَاتُ بَخَقُ^١
 وَالْيَوْمَ قَدْ صَارَ سَلَامٌ عَزَّةٍ يُقْنِعُ مِنْ لُبْنَى إِذَا لَمْ نَلْتَقِ

وَاللَّهُ لَوْ حَلَّتْ دِيَارُ قَوْمِهَا وَاحْتَجَبَتْ عَنِّي يَابُ مُغْلَقِ
 لَزُرْتُهَا وَاللَّيْلُ جَوْنٌ حَالِكِ وَجَفْنُهَا لَمْ يَكْتَحِلْ بِنَارِقِ
 مَعَ ثَلَاثَةِ تَقِي صَاحِبِهَا مَا لَمْ تَكُنْ نُونُ الْوَقَايَةِ تَقِي
 سَيْفٌ كَصِمَامَةِ عَمْرُو بَايَرِ^٢ لَا يُتَّقَى يِلْبَ وَدَرِقِ
 وَبَيْنَ جَنْبَيَّ فَوَاذُ ابْنِ أَبِي صُفْرَةَ قَارِطِعِ قَرَأَ ابْنُ الْأَزْرَقِ
 وَفَرَسٌ كَدَاحِسٍ أَوْ لِاحِقِ يَوْمَ الرِّهَانِ شَأْوُهُ لَمْ يُلْحَقِ
 تَقْدَحُ^٣ نِيرَانَ الْحُبَابِ هَرَا فَرُهُ عِنْدَ خَبَبٍ وَطَلَقِ
 كَالرِّيحِ فِي هُبُوبِهِ وَالسَّمْعِ^٤ فِي وَثُوبِهِ وَكَلَمِهَا فِي فَشَقِ^٥
 بِهِ أَجُوسُ فِي خِلَالِ دَارِهَا وَأَنْشِي كَالْبَارِقِ الْمُؤْتَلِقِ
 فَإِنْ تَكُ الزَّبَا دَخَلْتُ قَصْرَهَا وَكَقْصِيرِ سُقْتِهَا لِلنَّفَقِ

١ - أي عور .

٢ - هو ولد الذئب مع الضبع .

٣ - أي نشاط ومرح .

وَمَنْ حَمَاهَا كَكُلِّبٍ فَلَهُ جَسَّاسُ رُمَحٍ رَايِدُهُ بِالطَّرْقِ
 لَا بَدَّ لِي مِنْهَا وَإِنْ تَحَصَّنَتْ بِالْأَبْلَقِ الْفَرْدِ وَبِالْخَوَرِ نَقِ
 لَا بَدَّ لِي مِنْهَا وَإِنْ عَثَرْتُ فِي ذَيْلِ الْحُسَامِ وَالسَّنَانِ الْأَزْرَقِ
 فَإِنْ ظَفِيرْتُ بِالْمُنَى مِنْ وَصْلِهَا بَالَعْتُ فِي صَيَّانَةِ الْعِرْضِ النَّقِي
 وَإِنْ بَقِيتُ مِثْلَ مَا كُنْتُ فَلَا زِلْتُ بَغِيضَ مَضْجَعِي وَتُمْرُقِي
 أَشْنُ كُلِّ غَارَةٍ شَغَوَا عَلَى مَنْ يَحْمِيهَا فِي مِقْنَبٍ أَوْ قَيْلَقِ
 وَفِي خَيْسٍ مِنْ خِيَارِ يَغْرُبِ ذَوِي رِيحٍ وَخِيُولِ سُبُقِ
 مِنْ أُسْرَتِي بَنِي مُلُوكٍ فَهَمْ اطْوَعُ لِي مِنْ سَاعِدِي وَمَرْفَقِي
 يَسْلُ ابْنَ خَلْدُونَ عَلَيْنَا فَلَنَا يَمْنَنٍ مَا ثَرُّ لَمْ تُمَحِّقِ
 وَبَسَلُ سُلَيْمَانَ الْكَذَّاعِي 'كُمْ لَنَا مِنْ خَيْرِ بَخِيرٍ وَخَنْدَقِ
 وَيَوْمَ بَدْرٍ وَجُنَيْنٍ وَتَبَو كُ وَالسَّبِيْقِ وَبَنِي الْمُصْطَلِقِ
 بِهِمْ فَخَرْتُ ثُمَّ رَادَ مَفْخَرِي بِأَدْبِي الْغَضِّ وَحُسْنِ مَنْطَقِي
 وَزَانَ عِلْمِي أَدْبِي فَلَنْ تَرَى مَنْ شَعْرُهُ كَشِعْرِي الْمُنْتَقِ
 فَإِنْ مَدَحْتُ فَمَدِيحِي يُشْتَفَى بِهِ كَيْثِلُ الْعَسَلِ الْمُرُوقِ
 رَانَ هَجَوْتُ فِيْهَاجِنِي كَالشَّجِي يَقِفُ فِي الْحَلْقِ وَمِثْلُ الشَّرْقِ
 فَبَشِّرْنِ ذَاكَ الْجَسُودَ أَنَّهُ يَظْفَرُ فِي بَحْرِ الْهَجَا بِالْعَرَقِ

وَقُلْ لَهُ إِذَا اشْتَكَى مِنْ دَسٍّ أَنْتَ الَّذِي سَلَكْتَ نَهْجَ الزَّلَقِ
 وَقَفْتَ فِي الْجُرْأَةِ خَاصِي أَسَدٍ فَمَتَّ بَغِيظَكَ وَبِالرَّيْقِ اشْرَقِ
 وَمَا الَّذِي دَعَاكَ يَا خَبُّ إِلَى ذَا الْأَفْعَوَانِ ذِي اللِّسَانِ الْفَرَقِ^١
 نَطَقْتَ بِالزُّورِ أَمَّا كُنْتَ تَعِي أَنْ الْبَلَا مُوَكَّلٌ بِالْمَنْطِقِ
 وَلَمْ تَخَفْ مِنْ شَاعِرٍ مِمَّا اتَّضَى سَيْفَ الْهَجَا فَرَى حِبَالَ الْعُنُقِ
 فَلَتَقِيَ نَفْسَكَ بِكَفِّكَ وَلَا تَسْمُ فَصِيحَ النَّطْقِ بِالتَّمَشُّدِ
 فَذَاكَ خَيْرٌ لَكَ وَاسْتَمِعْ إِلَى نُصْحِ الْحَكِيمِ الْمَاهِرِ الْمَدْقِ
 فَكُنْ مُهَذَّبَ الطَّبَاعِ حَافِظًا لِحُكْمِ وَأَدَبِ مُفْتَرِقِ
 وَعَاشِرَ النَّاسِ يَخْلُقُ حَسَنًا تُحَمِّدُ عَلَيْهِ زَمَنَ التَّفَرُّقِ
 وَلَا تُصَاحِبْ مَنْ يَرَى لِنَفْسِهِ فَضْلًا بَلَا فَمَنْ لِي وَغَيْرِ الْمُنْقِي
 وَكُلُّ مَنْ لَيْسَ لَهُ عَلَيْكَ مِنْ فَضْلٍ فَلَا تُطِيعُهُ بِالتَّمْلُقِ
 وَتَوَقَّنْ سَهْمَ النُّمَيْرِيِّ لِمَنْ لَطَرَقَ الْعِلَامِ لَمْ يُوفَّقِ
 وَافْعَلْ بِمَنْ تَرْتَابَ مِنْهُ مِثْلَ رَفْعِ لِ الْمُتَلَمَّسِ اللَّيِّبِ الْحَذِيقِ
 الْقِي الصَّحِيفَةَ بِنَهْرٍ حَيْرَةٍ^٢ وَقَالَ يَا بَنَ هِنْدٍ أَرْعُدِ وَأَبْرُقِ
 وَلَا تَعِدْ بِوَعْدِ عُرْقُوبٍ أَخَا وَرَفَةٍ وَفَاءِ سَمَوَالٍ^٣ بِالْأَبْلُقِ

١ - أي الم فروق والفرق في لسان الحيات معروف .

٢ - الحيرة بال واسقطها الشاعر ضرورة ، مدينة .

٣ - السموأل بال واسقطها الشاعر ضرورة ايضاً .

شحّ باذرُع امرئ القيس وقد
 ومثل جاري لابي دؤاد لا
 واتخذ جليساً لا تخافُ شره
 ونم كنوم الفهد او عبودَ عن
 ولبتك ابصر من الهدهد والزُر
 وكُن كمثل واسطي غفلة
 واعذُ على رجلي سلكِ هارباً
 وكُن نديمَ الفرقدين تنجُ من
 وكن كعقربٍ وضبٍ مع من
 ثمت لا تغفل وكُن أبطاً من
 مضى لنارٍ طالِباً بعد عام
 وخذ بشارك وكُن كمن اتى
 وانتهمز الفرصة مثل يتهس
 وكان قيسٍ بهم كُن مؤملاً
 ترك نجله غيلَ العلق
 تطمع به ان لم تكن بالاحق
 وكان شورٍ لن ترى من مطرق
 عيب الوري والظن لا تحقق
 قا بعيب نفسك المخبق
 عن شتم ضارِعٍ وعيب سُقُق^١
 من قرب كل خُبُق وسهوق^٢
 مُنقص ومن طرؤ الرنق
 عليك قلبه امتلاً بالحق
 غرابِ نوح او كفيد الموسقى
 جاً يهايبُ فرطَ القلق
 بالجيش خلفَ شجرٍ ذي ورق
 وبالمدى لخم العداة شوق
 وليمة شهيرة . كالقنق

١ - الضارع الذليل والسقق المغتاب .

٢ - الخبُق البخيل والسهوق الكذاب .

يوم ملاكِهِ بأَمٍّ فَرَوَةٍ عَرُوبَ كُلِّ ذَاتِ أَرْبَعٍ لَقِي
ولا تَدْعُ وان قَدَرْتَ حِيلَةَ فِيهِ أَجَلٌ عَسْكَرٌ مُدْهِدِقٌ
إِنْ كَانَ فِي سَفْكَ دَمِ الْعِدَا الشُّفَا سَفْكَ دَمِ الْبَرِيءِ غَيْرُ أَلِيْقٍ
ولا تُحَارِبُ سَاقِطَ الْقَدْرِ فَكَمْ مِنْ شَاهِدٍ قَدْ غُلِبْتَ بِبَيْدَقٍ
وَكَمْ حُبَارَى أَمَّا صَقْرٌ فَلَمْ يَنْظُرْ بغيرِ حَتْفِهِ بِالذَّرَقِ
وَكَمْ عَيُونٍ لِأَسْوَدٍ دَمِيَتْ بِالْعَضِّ مِنْ بُعُوضِهَا الْمُلْتَصِقِ
وَالْخُلْدُ قَدْ مَزَّقَ أَقْوَامَ سَبَا وَهَدَّ سُدَّاءَ مُحْكَمِ التَّائِقِ
ولا تُنْقِصُ أَحَدًا فَكَلَّنَا مِنْ رَجُلٍ وَأَصْلُنَا مِنْ عَلَقٍ
لا تُلْزِمِ الْمَرْءَ عَيُوبَ أَصْلِهِ فَالْمَسْكُ أَصْلُهُ دَمٌ فِي الْعُنُقِ
وَالْحُمْرُ مِمَّا طَهَّرَتْ فِيهَا وَبَيْنَ أَصْلِهَا بِحُكْمِ فَرْقٍ
ولا نُؤَيِّسُ طَامِعًا فِي رَتَبَةٍ لِمِثْلِهَا نَظِيرُهُ لَمْ يَلْحَقْ
فَالزَّرْدُ يَوْمَ الْغَارِ لَمْ يَثْبُتْ لَهُ فَضْلٌ وَكَانَ الْفَضْلُ لِلْخَدِرْتِ نَقِ
وَقَوْسُ حَاجِبٍ بَرَهْنِهَا لَدَى كَسْرِي أَطْمَأَنَّ قَلْبُهُ مِمَّا لَقِي
لا تَغْشَى دَارَ الظُّلْمِ وَاعْلَمْ أَنَّهَا أَخْرَبُ مِنْ جَوْفِ حِمَارٍ خَلَقَ
ولا تَبِغْ عِرْضَكَ بِيَعَةٍ أَيْ غُبْشَانَ يَبِغُ الْغَبْنَ وَالتَّبْلُصُقُ ٢

١ - أي العنكبوب .

٢ - أي الخديعة .

باعَ السَّدَاةَ قُصَيًّا آخِذَا عَوْضَهَا نَحِيًّا مِنْ أُمِّ زَنْبِقٍ^١
 وَلَا تَكُنْ كَأَشْعَبٍ فَرِمَا تَلَحُّقُ يَوْمًا وَافِدَ الْمُحَرِّقِ
 وَلَا تَكُنْ كَوَاوِ عَمْرُو زَانِدًا فِي الْقَوْمِ أَوْ كَمَثَلِ نُونٍ مُلْحَقِ
 لَا تَرْجُونَ صَفْوًا بَغِيرَ كَدَرٍ فَذَا لَعَمْرُ اللَّهِ لَمْ يَتَّفِقِ
 لَا تَكْتُمِ الْحَقَّ وَقُلْهُ مُعَلَّنًا فَهُوَ جَمَالُ صَوْتِكَ الصَّهْصَلِيقِ
 وَصِخْ بِهِ شِبْهَ شَيْبٍ وَأَبِي عُزْوَةَ وَالْعَبَّاسِ عِنْدَ الرَّعَقِ
 لَا تَأْمَنِ الدَّهْرَ فَإِنْ خَطْبُهُ أَرْشَقُ نَبَلًا مِنْ رُمَاةِ الْحَدَقِ
 لَا تَنْسَ مِنْ دُنْيَاكَ حَظًّا وَالِي كَالطَّلَقَانِي^٢ وَالْحَصِيبِ انْطَلِقِ
 وَاعْضُلْ كَهْمًا بَنَاتِ فِكْرَةٍ ضَنَّا بِهَا عَنْ غَيْرِ فَخْلٍ مُغْرِقِ
 كَيْ لَا تَقُولَ بِلِسَانِ حَالِهَا مَقَالَ هِنْدٍ أَلْقَى مَنْ لَمْ يَلِيقِ
 وَسَلْ مُهَوَّرَ كِنْدَةٍ إِنْ تُهْدَمَا لِإِنِّي نَدَى كَالْبَحْرِ فِي تَدْفِقِ
 لَا تَهْجُ مَنْ لَمْ يُعْطِ وَاهِجٌ مِنْ أُنِي إِلَى السَّرَابِ بِالْإِلَّاءِ يَسْتَقِي
 وَعُدْ لِمَا عُوِّدَتْ مِنْ بَذْلِ اللَّهِهَا فَالْعَوْدُ أَحْمَدُ لِكُلِّ مُمْلِقِ
 وَلَا تَعُذْ لِحَرْبٍ مَنْ مَنْ وَلَوْ مَنْ^٣ فَمَا غَلَّ يَدَا كَمُطْلِقِ

١ - من كنى الخمر .

٢ - هو الصاحب بن عباد .

٣ - أي الذي أعطى ولو اتبع العطاء بالئن .

والْعَوْدُ يُخْتَارُ عَلَى مَنْ كَانَ كَالْمُخْتَارِ أَوْ مَنْ كَانَ ذَا تَزْدُقِ
وَالصَّمْتُ حَصْنٌ لِلْفَتَى مِنَ الرَّدَى وَقَلٌّ مَنْ شَرُّ لِسَانِهِ وَوَقِي
وَأَنْ وَجَدْتَ لِلْكَلَامِ مَوْضِعاً فَكُنْ عَرَاراً فِيهِ أَوْ كَالْأَشْدَقِ
لَا تَبْخُلْنِ بَرْدٌ مَا اسْتَعْرَثَهُ كَضَائِيءِ فَاَلْبُخْلُ شَرُّ مُوَبِقِ
شَحٌّ بَرْدِ كَلْبٍ صِنْدٍ وَهَجَا أَرْبَابِهِ ظُلماً فَلَمْ يُصَدِّقِ
وَمَاتَ فِي سِجْنِ ابْنِ عَفَّانٍ كَمَا قَضَى إِلَهُ مِيتَةِ الْمُحْزَرَقِ
وَنَجَلُهُ مِنْ أَجَلِهِ أَجَلُهُ مِنْ سَطْوَةِ الْحِجَاجِ لَمْ يَكُنْ وَوَقِي
وَأَسْتَرُ عَنْ الْحَسَّادِ كُلِّ نِعْمَةٍ كَمْ فَاضِلٍ بِكَأْسِ مَكْرِهِمْ سُقِي
فَصَاعِدٌ عَلَى مَدِيحِ وَرْدَةٍ أَصْبَحَ مُنْحَطّاً بِقَوْلِ سَهْوَقِ
وَأَفْخَرُ كَفْخَرِ خَالِدٍ بِالْعِيرِ وَالنَّ فَمِرٌ لَا يَحُلَّةٌ مِنْ سَرَقِ
وَاتَّخَذَ الصَّبْرَ دِلَاصاً سَابِغاً وَبِمِجَنٍّ عُمَرُ لَا تَقِّ
وَأَنْ حَمَلَتْ رَايَةَ الْأَمْرِ فَكُنْ كَجَعْفَرٍ أَوْدَعُ وَلَا تَسْتَبِقِ
قَدْ قُطِعَتْ يَدَاهُ يَوْمَ مُوْتِهِ وَلَمْ يَدْعُهَا لِكَيْمِي سَوْحَقِ^٢
لَكِنَّهُ احْتَضَنَهَا لِحُبِّهَا فَيَا لَهُ مِنْ سَيِّدِ مُوَفَّقِ
وَكُنْ إِذَا اسْتَنْجَدْتَ مِثْلَ مَنْ غَزَا أَرْضَ الْعَدَا بِكُلِّ طَرَفٍ أَبْلَقِ^٣

١ - هو المحبوس المضيق عليه .

٢ - السوَّحَق : الطويل .

٣ - يشير الى غزو المعتصم لأرض الروم بالخيال البلق وفتحها لعبورية .

وَسُمِّعُوا عِدْوُ الدِّينِ بِالْحَسَفِ وَكُنْ
 رَدًّا كِتَابَ مَنْ دَعَا لِلْوَعْيِ
 وَقَالَ إِنِّي لَا أُجِيبُ بِسُوءٍ
 وَضَرَبَ الْفُسْطَاطَ فِي الْحَيْنِ وَقَدْ
 وَكَانَ مَا قَدْ أَبْصَرُوا مِنْ بَأْسِهِ
 يَا صَاحِبَ وَاشْغَلْ فُسْحَةَ الْعُمْرِ بِمَا
 وَابِكِ عَلَى ذَنْبٍ وَقَلْبٌ قَدْ قَسَا
 بِمُقَلَّةٍ كَمُقَلَّةِ الْخُنْسَاءِ إِذْ
 أَوْ كَبُكَاءَ فَارِغَةٍ عَلَى الْوَلِيِّ
 أَوْ كُنْ مُتَمِّمًا بُكَاءَ مُتَمِّمٍ
 وَكُنْ خَيْصَ الْبَطْنِ مِنْ زَادِ الرُّبَا
 وَحَصِّلِ الْعِلْمَ وَزِنِهِ بِالتَّقَى
 وَلِيكَ قَلْبُكَ لَهُ أَفْرَغَ مِنْ
 وَلَا تَكُنْ مِنْ قَوْمِ مُوسَى وَاصْطَبِرْ
 فَالْعِلْمُ فِي الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَهُ
 وَاعْنِ بِقَوْلِ الشَّعْرِ فَالشَّعْرُ كَمَا

مِثْلَ أَبِي يُوسُفَ ذِي التَّخْبِقِ^١
 مِنْهُمْ مُزَقًّا لِفَرْطِ الْخَنَقِ
 جَيْشَ عَرْمَرَمَ وَخَيْلَ ذُلُقِ
 أَحَاطَ جَيْشُهُ بِهِمْ كَالشَّوْذَقِ
 أَبْلَغَ مِنْ جَوَابِهِ الْمَشْبَرَقِ
 يَعْنِي وَزُرْ غِيَا رُسُومَ الْعَيْتِقِ^٢
 كَالصَّخْرِ مِنْ هَوَاهُ لَمْ يَسْتَفِقْ
 بَكَتْ عَلَى صَخْرٍ بَلَا تَرْفُقْ
 دُوبُكَاءَ خَنْدِفٍ وَخَرْنِقِ
 عَلَى الذُّنُوبِ وَارْجُ عَفْوًا مُعْتِقِ
 وَخِمْرَةَ التَّقْوَى اصْطَبِحْ وَاعْتَبِقْ
 وَسَائِرَ الْأَوَاقَاتِ فِيهِ اسْتَغْرِقْ
 حَجَّامَ سَابَاطٍ وَمَنْ لَمْ يَعِشْ
 لَكَدَّهُ وَلِلْمَلَالِ طَلَّقِ
 فَضْلُ فَبِشْرٍ حِزْبِهِ شَرًّا وَوَقِي
 لُ لِلْفَتَى إِنْ بِهِ لَمْ يَرْتَزِقِ

١ - أي الترفع ويريد به يعقوب المنصور الموحيدي .

٢ - أي اللهو .

والشعرُ للمجد نِجادُ سَيْفِهِ وللعلا كالْعُقْد فوقَ العنُق
ولمحمد بن الطالب اليعقوبي الشنقيطي من مبيته التي عارض بها
ميمية حُمَيْد بن ثور الهلالي :

أَرَأَا لِيَصْرَفَ الدَّهْرَ صَرَعَيْنِ مُقْعَصَا

فَمُضْنِي وَمُنْمِي إِنْ تَخَطَّاهُ أَهْرَمَا

وما مات مَنْ أبقى ثناءً مخلِّداً	وما عاش مَنْ قد عاش عيشاً مُذْمَماً
وما المجدُ الا الصبر في كل موطن	وَأَنْ تَجْشُمَ الهولَ العظيم تَكْرُماً
وما اللؤم الا أَنْ يُرى المرء غائباً	لَيْسَ مالٌ في يَدَيْهِ إِنْ اَعْدَمَا
فذاك الذي كلوت في الناس عيشه	وَمَنْ عَدَّ مَالاً ماله كَانَ الْأَمَّا
وما الدهر الا بين لينٍ وشِدَّة	فَمَنْ سُرَّ مَسِيّاً فيه أَصْبَحَ مُرَغَمَا
وما الحزم الا مِرَّةُ النَّفْسِ تُقْتَنَى	لشدته من قبل أَنْ تَتَحَكَّمَا
وما العجز الا أَنْ تَلينَ لِمَسْهَا	فَتَضَجَّرَ من قبل الرخاء وتَسَامَا
وليس الغنى الا اعتزازُ قناعة	تُجِلُّ أَخَاهَا أَنْ يُذَلَّ وَيُسْتَمَا
وما الفقر الا أَنْ يُرى المرء ضارِعاً	لنكبة دهر قد أَلَمَ فيقْحَمَا
وخيرُ الرجال المُجْتَدِي سَيْبُ كَفِّهِ	وَأَجْرُهُمْ عِنْدَ الكَرِيَةِ مُقَدَّمَا

وشر الرجال كل خبٍّ مُرامقٍ
 تجنّب أصحاب السوء ما عشتَ لهم
 وراعِ حدودَ الله لا تتعدّها
 وراعِ حقوقَ الضيف والجار إنّه
 وإن جهلَ الجهالُ فاحلُم وربما
 وبالحسن اذفعَ سيئاً فاذا الذي
 ولا تقرّبَ الظلمَ والبغي فاطرحْ
 وما اليمنُ الا البرُّ والعدلُ والتقوى
 اذا ما دعا الداعي لأمر تلغثما
 لكأالجرب يُغدينَ الصحيح المسلما
 وصغُرَ وعظُمَ ما أهانَ وعظُمَا
 لعمرُك أوصى أن يُبرَّ ويُكرما
 يكون عليك العارُ أن تتحلّما
 يُعاديكَ كاللؤلئ الأحمِّ وأرحما
 فغيّهما قد كان أردى وأشأما
 وما الشومُ الا أن تخونَ وتأثّما

المدح والتهنئة والاستعطاف

لابن الزيتوني من قصيدة في المعتضد بن عباد يستنجزه :

سفينة الوعد في بحر الرجا وقفت فامنن بريح من الإنجاز يُجريها

وللقاضي ابي الحسن بن زنباع يُخاطب الفتح بن خاقان :

هوَى مُنْجِدٌ يَلْقَى به اللَّيْلَ مُتَمِّمٌ يُصْرِّحُ عَنْهُ الدَّمْعُ وَهُوَ يُجَمِّمُ
يَبِيتُ يُدَارِي أَوْ يُدَارِي مَا به وَيَغْلِيهِ أَمْرُ الْهُوَى فَيُسَلِّمُ
لَأَجْفَانِهِ مِنْ كُلِّ شَوْقٍ مُورِّقٌ وَمِنْ أَثْنِ الْمُشْتَاكِ شَيْءٌ يُنَوِّمُ
وَلَيْسَ الْهُوَى مَا الرَّأْيُ عَنْهُ مُزْخَرِحٌ

وَلَكِنَّهُ مَا الرَّأْيُ فِيهِ مُقَحَّمٌ
وَأَعْذَرُ أَهْلَ الْحُبِّ كُلُّ مُدَلِّهِ
وَأَجَلْدُ ابْنَاءِ الزَّمَانِ مَرَزَأُ
يُقَاسِي خُطُوبَ الدَّهْرِ وَهُوَ مُتَمِّمٌ
فَكَيْفَ تَرَى فِي خَمْلِهِ وَهُوَ تَوَاقُمٌ
وَيَصْغُبُ حَمْلُ الْهَمِّ وَالْهَمُّ مَفْرَدٌ
وَلَوْلَا أَبُو نَضْرٍ وَلَذَاتُ أَنْسِيهِ
تَقَضَّتْ حَيَاتِي كُلُّهَا وَهِيَ عَلَقَمٌ

فَتَى فَتَحَ اللهُ الْمَعَارِفَ بِاسْمِهِ
تَأَخَّرَ فِي لَفْظِ الزَّمَانِ وَإِنَّهُ
أَتَوْا بِالْمَعَانِي وَهِيَ ذُرٌّ مُنْظَمٌ
وَمَا يَسْتَوِي فِي الْحُكْمِ رَاقٍ وَغَانِصٌ
إِلَيْكَ أَبَا نَضْرَ بَدِيَّةَ خَاطِرٍ
أَهْبْتُ بِهِ لِلْقَوْلِ وَهُوَ لِمَا بِهِ
وَكَمْ مِصْقَعٌ لَا يَرْهَبُ الْقَوْلَ فَعَلَهُ
وَلَوْلَمْ يَكُنْ إِلَّا وَدَاعُكَ وَحْدَهُ
فَمَا يَصْنَعُ الْإِنْسَانُ وَهُوَ بِفَهْمِهِ
وَقَدْ كُنْتَ تُشْكِينِي مِنَ السَّهْرِ دَانِيَاً
عَلَيْكَ سَلَامٌ تَسْحَبُ الرِّيحُ ذَيْلَهُ
وَأَنْ لَمْ يَكُنْ إِلَّا وَدَاعٌ وَفُرْقَةٌ

وَمِنْ دُونِهَا بَابٌ مِنَ الْجَهْلِ مُبْتَهَمٌ
بِمَعْنَاهُ فِي أَجْبَائِهِ مُتَقَدِّمٌ
وَجَاءَ بِهَا مِنْ أَفْقِهَا وَهِيَ أَنْجَمٌ
لَقَدْ نَالَ أَسْنَى الرُّتْبَةِ الْمُتَسَنِّمُ
تَوَالَى عَلَيْهِ الثَّقُلُ وَهُوَ مُقَسَّمٌ
فَلَبَّى وَلَمْ يُسْعِدْهُ نُطْقٌ وَلَا قَمٌ
تَلَّتْهُ خُطُوبٌ مَا انْتَنَتْ وَهُوَ مُفْحَمٌ
لَا شَفَقَ مِنْهُ يَذْبُلُ وَيَلْمَلَمُ
يُحِسُّ بِأَشْتَاتِ الْأُمُورِ وَيَفْهَمُ
فَقَدْ صِرْتُ أَشْكُو مِنْكَ مَا أَنْتَ تَعْلَمُ
فَيَعْبِقُ مِنْهُ كُلُّ مَا يُتَنَسَّمُ
فَأَنْ فَوَادِي قَبْلِكَ الْمُتَقَدِّمُ

ولابن حُبُوس يمدح عبد المؤمن وقد حلَّ بالرباط :

أَلَا أَتِيْهَذَا الْبَحْرُ جَاوَرَكَ الْبَحْرُ
وَجَاشَ عَلَى أَمْوَالِكَ الْعَقْلُ وَالْحِجَا
وَسَالَ عَلَيْكَ الْبَرُّ خِيَلًا كَمَا تَهَا
لَعَلَّكَ يُطْفِئُكَ اشْتِرَاكَ سَمْعَتَهُ

وَحِمْ فِي أَرْجَانِكَ النِّفْعَ وَالضَّرْ
وَفَاضَ عَلَى أَعْطَافِكَ النَّهْيُ وَالْأَمْرُ
إِذَا حَاوَلْتَ غَزْوًا فَقَدْ وَجِبَ النَّصْرُ
فَذَلِكَ بَحْرٌ لَا يُشَاكِلُهُ بَحْرُ

فَأَنْتَ خَدِيمُ الشَّمْسِ وَالْبَدْرِ عُقُودَ وَتَخْدُمُهُ فِي أَمْرِ الشَّمْسِ وَالْبَدْرِ
وَيُخَوِّيكَ شَطْرُ الْأَرْضِ تَعْمُرُ بَعْضَهُ وَفِي صَدْرِهِ الْأَفْلاكُ وَالْبَحْرُ وَالْبَرُّ
وَقَدْ وَسَّعَ الْأَيَّامَ جُوداً وَنَجْدَةً وَلَيْسَ لِمَا تَأْتِي بِهِ عِنْدَهُ قَدْرُ
وَمَا لَكَ مِنْ مَعْنَى تُشَارِكُهُ بِهِ سِوَى خُدْعٍ فِي النُّطْقِ زُخْرَ قِهَا الشَّعْرُ
وَمَا لَكَ مِنْ شَيْءٍ يُشِيرُ إِلَى الَّتِي تَقُوهُ بِهَا إِلَّا السَّلَاطَةُ وَالْهَذْرُ
وَلَيْسَ اشْتِرَاكَ الْلفْظُ يُوجِبُ مَدْحَهُ

وَلَكِنَّهُ إِنْ وَافَقَ الْخَبَرَ الْخَبْرُ

وله فيه لما فتح مدينة بجاية وهي الناصرية :

مَنْ الْقَوْمُ بِالْغَرْبِ تُصْنَعِي إِلَى حَدِيثِهِمْ أَذُنُ الْمَشْرِقِ
جَرَوْا وَالْمَنَائِيَا إِلَى غَايَةٍ فَلَمْ يَسْبِقُوهَا وَلَمْ تَسْبِقِ
بِأَيْدِيهِمُ النَّارُ مَشْبُوبَةٌ فَمَهْمَا تُصِيبُ بَاطِلًا تُحْرِقُ
يَقُودُهُمْ مَلِكُ أَرْوَغٍ تَقَرَّدَ بِالسُّودَدِ الْمُطْلَقِ
تَخَيَّرَهُ اللَّهُ مِنْ آدَمِ فَمَا زَالَ مُنْحَدِرًا يَرْتَقِي
إِلَى النَّاصِرِيَةِ سِرْنَا مَعًا وَلَمَّا تَقَشَّتَا وَلَمْ تُلْحَقِ
إِلَى بَرْزَةِ فِي ذُرَى أَرْعَنِ تَجِلُّ عَنِ السُّورِ وَالْخَنْدَقِ
يَعُودُونَ مِنَّا بِمَوْلَاهُمْ وَمَوْلَاهُمْ عَاذَ بِالزُّورِ

وَأَكْسَبَهُ خَوْفَهُ رِقَّةً فَلَوْ خَاضَ فِي الْبَحْرِ لَمْ يَغْرُقْ

ولأبي العباس الجراوي يهنئ يوسف بن عبد المؤمن بفتح :

عن أمرِكُم يتصرَّفُ الثَّقَلانُ
وبما يسوءُ عدوَّكُم ويسرُّكُم
جاهدتم في الله حقَّ جهاده
وتركتُم أرضَ العِدا وقلوبهم
وغزاهم الدينُ الحنيفيُّ الذي
كُتِبَ الإلهُ لكم فتوحاً في العِدا
هذا مقامُ المصطفى يا فوزَ من
مَن يَعْرِفُ الرَّحْمَنَ حقّاً يَعْتَرِفُ
وَيَنْصُرُكُم يتعاقبُ المَلَوَانُ
تتحركُ الأفلاكُ في الدَّورَانِ
ونهضتم بِحِمَايَةِ الإِيمَانِ
في غَايَةِ الرَّجَفَاتِ وَالْخَفَقَانِ
كُتِبَ الظُّهُورُ لَهُ عَلَى الْأَدْيَانِ
هذا لها وسواه كالْعُنُوتِ
حازَ النِّيَابَةَ فِيهِ عَنْ حَسَّانِ
بِحَقْوِهِ الخليفة الرَّحْمَانِ

وله يهنئه بإبلاله من مرض :

سَتَمْلِكُ أَرْضَ مِصْرَ وَالْعِرَاقَا
إِذَا لَمْ يَتَّفِقْ رَأْيٌ وَرَأْيٌ
صفا لك كلُّ قلبٍ غيرُ صافٍ
وَحَقُّكُم ، وَحَقُّكُم عَظِيمٌ
وقد بلغ الوجودُ بكم مُنَاهُ
وتجري نحوك الأُممُ استيقاقا
أفادا في محبتك اتفاقا
وزحزح عن ضائره النفاقا
لقد حسنَ الزمانُ بكم وراقا
وقد أمنت عصا الدين أنشيقاقا

أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ عَلَيْهِ
وَيَا مُلْكَأَ أَحْسَتْ كُلُّ أَرْضٍ
يَحْزَنُ إِلَيْكَ يَوْمٌ غَيْرُ آتٍ
شَكُوتَ فَأَيُّ قَلْبٍ غَيْرُ شَاكٍ
وَلَوْلَا عَظْفَةُ الْإِبْلَالِ كُنَّا
بِنَارِ الْوَجْدِ نَحْتَرِقُ احْتِرَاقًا
سَنَا الْإِسْلَامَ بِأَتْلَقُ انْتِلَاقًا
أَلَى أَرْضِ أَقَامَ بِهَا اشْتِيَاقًا
وَيَشْكُو الذَّاهِبُ الْمَاضِيَ الْفِرَاقًا
وَأَيُّ الْعَيْشِ لَمْ يَمَرُرْ مَذَاقًا

وله مهنه بالعيد :

شِئِلَتْ بِبِقَائِكُمْ النِّعَمُ
وَهَمَّتْ دَيْمٌ مِنْ رَاحَتِكُمْ
وَعَنْتَ لِعِزَائِكُمْ عَرَبٌ
أُسْدٌ تَنْقَادُ الْأُسْدُ لَهَا
حَدَّثَ شَيْمُ الْأَيَّامِ بِكُمْ
بَهَرَتْ أَنْوَارُ خِلَافَتِكُمْ
غَرَأَى مَنْ لَيْسَ لَهُ بَصَرٌ
وَأَنَافُ الْمَجْدِ عَلَى زُجَلٍ
وَسَمَتْ بِرَجَائِكُمْ الْهِمَمُ
هِيَّاتَ تُسَاجِلُهَا الدَّيْمُ
تَشْقَى بِصَوَارِمِهَا الْعَجَمُ
بِهِمْ تَنْقَادُ لَهَا الْبُهَمُ
وَلَكُمْ ذُمَّتْ مِنْهَا الشِّيمُ
وَسَمَاءُ الْعِلْمِ بِهَا عِلْمُ
وَوَعَى مَنْ كَانَ بِهِ صَمَمُ
وَأَتَى بِغَرَائِبِهِ الْكَرَمُ
وَلَوْ أَنَّ مَقَالَهُمُ حِكْمُ
أَعْيَى الْبُلْغَاءِ مَقَامَكُمْ

أَلْعَيْدُ أَحَقُّ بِتَهْنِئَةٍ فَلَهُ بِكُمْ فخرٌ عَمَّ
دمتم والكُلُّ يلوذُ بكم من صَرَفِ الدَّهْرِ وَيَعْتَصِمُ

وله في يعقوب المنصور عند تقبُّضِهِ على الثَّائِرِ الْجَزِيرِيِّ :

قَضَى لَكَ اللهُ بِالتَّائِيدِ وَالظَّفَرِ	وبالسَّعَادَةِ فِي وِرْدٍ وَفِي صَدَرِ
آثَرَتْ فِي نُصْرَةِ الدِّينِ الْمَسِيرِ عَلَى	طِيبِ الْمَقَامِ وَبِغَتِ النَّوْمِ بِالسَّهْرِ
مُظَفَّرٌ مَا لِمَعْرُورٍ يُطَالِبُهُ	فِي الْأَرْضِ مِنْ مَلْجَأٍ عَنْهُ وَلَا وَزَرَ
جَدَّ الْجَزِيرِيِّ فِي إِتْلَافِ مُنْجَتِهِ	حَتَّى تَوَرَّطَ فِي أُحْجُولَةِ الْقَدَرِ
نَارٌ مِنْ الْفِتْنَةِ الْعَمِيَاءِ أَطْفَأَهَا	سَعْدُ الْإِمَامِ وَحَدَّ الصَّارِمِ الذِّكْرِ
مَا زَالَ إِبْلِيسُ فِي الْأَقْطَارِ يُوقِظُهَا	وَتَرْتَمِي مِنْ شِرَارِ الْخَلْقِ بِالشَّرِّ
زَادَ الشَّقِيَّ عَلَى الْخَفَاشِ مُشْبِهِهِ	ضَعُفَ الْبَصِيرَةِ إِذْ سَاوَاهُ فِي الْبَصَرِ
جَارَى إِلَى سَقَرٍ أَصْحَابَهُ فَهَوَّوْا	فِيهَا سِرَاعاً وَوَأْفَاهُمْ عَلَى الْأَثَرِ
إِنْ الَّذِي اتَّخَذَ الْأَهْوَاءَ آلِهَةً	عَلَى الضَّلَالِ مُصِيراً غَيْرَ مُزْدَجَرِ
وَالْوَعْظُ فِي النَّاسِ مَقْبُولٌ وَمُطَرَّحٌ	كَالْخَطِّ فِي الْمَاءِ أَوْ كَالنَّقْشِ فِي الْحَجَرِ

وله فِيهِ عِنْدَ إِيَابِهِ مِنْ غَزْوَتِهِ الْأُولَى لِلْأَنْدَلُسِ :

إِيَابُ الْإِمَامِ حَيَاةُ الْأَمْنِ	تَوَالَى الشُّرُورُ بِهِ وَانْتَضَمَ
وَجَادَ بِهِ الْأَرْضَ صَوْبُ الْحَيَا	وَجَلَّى الظَّلَامَ بِهِ بِدُرِّ تَمِّ

فَشُكْرًا لِحَيْلٍ وَفُلْكَ دَنْتُ	بِمُسْتَأْصِلِ الظُّلْمِ مَا حِي الظُّلْمِ
إِذَا حَلَّ فِي بِلَدَةٍ أُمِرْعَتُ	فَطَابَ جَنَاهَا وَفَاحَ الْمَشَمُّ
وَقَامَ بِأَقْطَارِهَا عَدْلُهُ	وَصَوَّبُ نَدَاهُ مَقَامَ الدَّيَمِ
إِذَا الْخَطْبُ جُيِّشَ نَحْوَ الْوَرَى	تَصَدَّى لَهُ عَزْمُهُ فَانْهَزَمَ
سَلَى الدَّهْرَ عَنْ بَطْشِهِ بِالْعِدَا	تُجِبُ مِنْ وَرَاءِ الدُّرُوبِ الْعَجَمِ
فَتَوْحُ عِظَامِ جَنَاهَا الزَّمَانُ	لِذِي هِمَمٍ دُونَهُنَّ الْهِمَمِ
نَصِيحَتُكُمْ يَا مُلُوكَ الْوَرَى	نَصِيحَةٌ مَنْ لَيْسَ بِالْمُتَّهَمِ
أَنِيبُوا إِلَيْهِ وَلُودُوا بِهِ	تَفُوزُوا وَأَلْقُوا إِلَيْهِ السَّلَامَ

وله فيه بمناسبة استقلاله من مرض :

بُرْءُ الْإِمَامِ حَيَاةُ الْخَلْقِ كُلِّهِمْ	عَمَّ السُّرُورُ بِهِ وَانْثَالَتْ النِّعَمُ
شَكَأَ فَلَا مُقَلَّةَ إِلَّا أَضُرَّ بِهَا	سُقُمٌ وَلَا قَلْبَ إِلَّا شَفَّهَ أَلَمُ
تَجَهَّمَ الدَّهْرُ لَمَّا أَنْ شَكَأَ وَبَدَا	يُؤِيرُهُ وَهُوَ طَلَّقَ الْوَجْهَ مُبْتَسِمَ
صَحَّتْ بِصَحَّتِهِ الْأُمَالُ وَانْتَعَشَتْ	وَزَا حَمَتِ زُحَلًا فِي أَفْقِهِ الْهِمَمُ
أَفَاضَ عَدْلًا عَلَى الدُّنْيَا وَأَلْبَسَهَا	نُورًا فَلَمْ يَبْقَ لَا ظُلْمٌ وَلَا ظُلْمٌ
وَبَثَّ فِي كُلِّ إِقْلِيمٍ هُدًى وَنَدًى	فَلَيْسَ يَوْجِدُ لَا جَهْلٌ وَلَا عَدَمُ

نولا سياسته ما كان مُلتئماً شعث ولا كانت الأسبابُ تنتظم
واللهُ يختصُّ أقواماً برحمته تجري بحكمته الأرزاقُ والقِسَمُ
حاطَ الإلهُ لنصر الدين مُهجته وعُوفيتْ لَكُمْ الأخلاقُ والشِّيمُ
والامير سليمان الموحدي يُخاطب المنصور عند وفود العرب والغز
من بلاد المشرق عليه وكان هو بحال هَجَر فرضي عنه وقرَّبه :

يا كعبةَ الجود التي حَجَّتْ لها عَرَبُ الشَّامِ وَغُرُّهَا وَالدَّيْلَمُ
طُوبَى لِمَنْ أَمْسَى يَطُوفُ بِهَا غَدَاً وَيَخْلُ بِالبَيْتِ الحَرَامِ وَيُحْرِمُ
ومن العجائب أن يفوزَ بنظرة مَنْ بِالشَّامِ وَمَنْ بِمَكَّةَ يُحْرَمُ
وليمون الخطابي في مدح سيد الوجود :

حَقِيقُ عَلَيْنَا أَنْ نُجِيبَ المَعَالِيَا لِنُفْنِيَ فِي مَدْحِ الحَبِيبِ المَعَانِيَا
وَنَجْمَعُ أَشْتَاتَ الأَعَارِضِ حِسْبَةً^١
وَنَحْشُرَ فِي ذَاتِ الإِلَهِ القَوَافِيَا

وَنَقْتَدَّ^٢ لِلأَشْعَارِ كُلِّ كَتِيبَةٍ لِنَضْرُ الهُدَى وَالدِّينَ تُرْدَى الأَعَادِيَا
فَالسَّنُ أَرْبَابِ البَيَانِ صَوَارِمُ مَضَارِبُهَا تُنْسِي السُّيُوفَ المَوَاضِيَا

١ - اي احتساباً و اخلاصاً لله .

٢ - اي نقود .

لِنُطْلِعَ مِنْ أَمْدَاحِ أَحَدٍ أَنْجُمًا تَلُوحُ فَتَجْلُو مِنْ سَنَاهِ الدِّيَاجِيَا
كَوَاكِبَ إِيمَانٍ تُلُوحُ فَيَهْتَدِي بِأَنْوَارِهَا مَنْ بَاتَ يُدْلِجُ سَارِيَا
سَهَوْتُ بِمَدْحِ الْخَلْقِ دَهْرًا وَهَذِهِ سُجُودٌ لِحَبْرِي كُلِّ مَا كُنْتُ سَاهِيَا
فَلَا مَدَحَ إِلَّا لِلَّذِي بِمَدِيحِهِ تُطِيعُ إِذَا مَا كُنْتُ بِالْمَدْحِ عَاصِيَا

رَسُولٌ بَرَّاهُ اللَّهُ مِنْ صَفْوِ نُورِهِ وَالْبَسَهُ بُرْدًا مِنْ النُّورِ ضَافِيَا
وَمَا زَالَ ذَاكَ النُّورُ مِنْ عَهْدِ آدَمَ يُنِيرُ بِهِ اللَّهُ الْعُصُورَ الْخَوَالِيَا
كَوَى فِي ظُهُورِ الطَّيِّبِينَ يَصُونُهُ وَدِيعةً سِرًّا صَارَ بِالْبَعْثِ فَاشِيَا
وَحَصَّ بَطُونَ الطَّيِّبَاتِ لِحِمْلِهِ لِيَحْمِلَ قَرْعًا لِلْسِّيَادَةِ زَاكِيًا
بِهِ وَزَنَ اللَّهُ الْخَلَائِقَ كُلَّهُمْ فَأَلْفَاهُ فِيهِمْ رَاجِحَ الْوِزْنِ وَافِيَا
وَأَنْقَذَنَا مِنْ نَارِهِ بِظُهورِهِ وَلَوْلَاهُ كَانَ الْكُلُّ بِالْكَفْرِ صَالِيَا
وَأَدَمُ لَمَّا خَافَ يُزْرِي بِذَنْبِهِ تَوَسَّلَ بِالْمُخْتَارِ اللَّهُ دَاعِيَا
فَتَابَ عَلَيْهِ اللَّهُ لَمَّا دَعَا بِهِ وَأَذْنَاهُ مِنْهُ بَعْدَ مَا كَانَ نَائِيَا
وَقَدِ يَهْجُرُ الْمَحْبُوبُ فِي حَالَةِ الرِّضَا وَيَأْتِي الْهَوَى أَنْ لَا يُصَدِّقَ وَاشِيَا
(وَعَيْنُ الرِّضَاعِنِ كُلِّ عَيْبٍ كَلِيلَةٌ) وَلَكِنَّ عَيْنَ السُّخْطِ تُبْذِرُ الْمَسَاوِيَا
وَأَدْرَكَ نُوحًا فِي السَّفِينَةِ رَعِيَهُ فَخَلَّصَهُ إِذْ كَانَ فِي الْمَوْجِ جَارِيَا
وَمَا زَالَ سَامٍ وَهُوَ تَلَوَّ بِظَهْرِهِ عَلَى أَخُوَيْهِ بِالْفَضَائِلِ سَامِيَا

فَنُحْصِرُ حَتَّى بِالْمَكَانِ كَرَامَةً
فَأَنْزَلَ حَامٍ بِالْجَنُوبِ مُجَانِبَا
وَأَنْزَلَ سَامٍ لِلْفُضَيْلَةِ وَحَدَهُ
وَبَادَرَ جَبْرِيلُ الْخَلِيلَ لِأَجَلِهِ
وَيَخْبِرُ فِي وَقْتِ الْبَلَاءِ يَقِينَهُ
فَقَالَ لَهُ هَلْ تَسْأَلُنَّ كِفَايَةً
فَكَانَتْ عَلَيْهِ النَّارُ بَرْدًا كَمَا أَتَى
وَجَازَاهُ فِي الْإِسْرَاءِ عَنْهَا نَيْيْنَا
فَلَمَّا انْتَهَى جَبْرِيلُ عِنْدَ مَقَامِهِ
أَشَارَ عَلَى الْمُخْتَارِ أَنْ يَسِرَّ فَإِنَّهُ
فَنَادَاهُ يَا جَبْرِيلُ هَلْ لَكَ حَاجَةٌ
فَقَالَ لَهُ سَلْهُ لِأَبْسُطِ رَغْبَةٍ
فَدُلِّي فِي أَفْقِ الْمَهَابَةِ رَفْرَفُ
وَمَنْ أَجَلُهُ خُصَّ الدِّبْحُ فِدَاءَهُ
فَدَاهُ بِذَبْحِ عَظَمِ اللَّهِ شَأْنَهُ
وَتَنَّى بِعَبْدِ اللَّهِ حَامِلِ فَضْلِهِ
لِذَلِكَ مَا قَالَ الرَّسُولُ مُنَبِّهَا
وَأُسْكِنَ فِي أَعْلَى الْبِلَادِ مَرَاقِيَا
وَيَافِثُ فِي أَقْصَى الشَّمَالِ مُوَارِيَا
بِأَوْسَطِ مَغْمُورِ الْبِلَادِ الْأَعَالِيَا
لِيَحْمِيَهُ إِذَا أَبْصَرَ الْجُمُرَ حَامِيَا
فَصَادَفَ وَرَدَ الْخَلَّةَ الْعَذْبَ صَافِيَا
فَجَاوَبَهُ حُسْبِي بِرَبِّي كَافِيَا
بِهِ وَسَلَامًا وَهِيَ نَارُ كَهَامِيَا
وَأَلْهَمَهَا فَوْقَ السَّمَاوَاتِ سَارِيَا
بِحَيْثُ يَرَى نُورًا وَحُجُبًا عَوَالِيَا
مَقَامِي فَلَا اِعْدُوهُ مَا دُمْتُ بَاقِيَا
إِلَى اللَّهِ فَاسْأَلْهَا لِيُعْطِيَ الْإِمَانِيَا
عَلَى النَّارِ مَنَى لِلْعُصَاةِ جَنَاحِيَا
وَزُجَّ بِرَاقِ الْعِزِّ فِي النَّوْرِ رَاقِيَا
وَفِي ظَهْرِهِ الْمُخْتَارُ أَصْبَحَ ثَلَوِيَا
لَأَنَّ كَانِ دَهْرًا فِي الْفَرَادِيسِ رَاعِيَا
فَكَانَ بِذَاكَ الْفَرْعِ لِلْأَصْلِ وَاقِيَا
أَنَا ابْنُ ذَيْبِحَتِهَا يَعْدُ الْمَعَالِيَا

وعفَّ أبوه اذ دَعَتْه لِنَفْسِهَا
مَضَى وَلِذَاكَ النُّورَ بَيْنَ جَبِينِهِ
فَأَعْرَضَ عَنْهَا ثُمَّ سَارَ لِشَأْنِهِ
وَعَادَ وَقَدْ أَدَّى أَمَانَةَ رَبِّهِ
وَمَرَّ عَلَى خِيِّ الْفَتَاةِ فَنُودِيَتْ
فَقَالَتْ لَهُمْ قَدْ كَانَ ذَلِكَ مُدَّةً
أَرَدْتُ بَانَ أُعْطِيَ سَنَاهُ وَقَدْ مَضَى
وَكَمْ طَالِبٍ مَا لَا يُنَالُ وَقَاعِدٍ

فَتَاةٌ رَأَتْ نُورَ النُّبُوَّةِ ضَاحِيَا
شِعَاعُ سَنَاءٍ يُغْشِي الْعُيُونِ الرُّوَانِيَا
وَكَانَ لَهُ الرَّحْمَانُ بِالْحِفْظِ وَاقِيَا
لَأُثْمِتَهُ وَعُدَّاءُ مَنْ اللَّهُ مَاضِيَا
هَلُمِّي تُصَادِفُ لَوْعَةَ الْحُبِّ رَاقِيَا
لَأُمِرَّ عَصِينَا فِي هَوَاةِ النَّوَاهِيَا
لَعَمْرِي بِهِ مَنْ كَانَ بِالْحَقِّ قَاضِيَا
سَعَادَتُهُ تُبْدِي لَهُ السُّؤْلُ دَانِيَا

وَكَمْ شَاهَدْتُ مِنْ آيَةِ أَمَّةٍ بِهِ
رَأْتُ فِي مَعَالِيهِ مَرَايِي جَمَّةً
وَقِيلَ لَهَا بُشْرَاكِ فُزْتُ بِخَيْرٍ مِنْ
وَحَفَّتْ بِهِ الْأَمْلاَكُ فِي حِينٍ وَضَعَهُ
وَبَشَّرَ رِضْوَانُ الْجَنَانِ بِخَلْقِهِ
وَنَادَى مُنَادِي الْعِزِّ طُوفُوا بِأَحْمَدٍ
بَدَأَ وَاضِعاً كَفَيْهِ بِالْأَرْضِ رَافِعاً
وَأَعْوَلَ إِبْلِيسُ اللَّعِينُ وَقَالَ قَدْ

يَصِيرُ بِهَا جِدُّ الدِّيَانَةِ حَالِيَا
وَصَدَّقَتْ الْآثَارُ مِنْهُ الْمَرَايَا
يُرَى فَوْقَ أَكْنَافِ الْبَسِيطَةِ مَاشِيَا
بَلِيلَةُ إِفْضَالٍ تَزِينُ اللَّيَالِيَا
فَفَتَّحَ جَنَّاتِ النِّعَمِ الثَّمَانِيَا
جِهَاتِ الدَّنَاطِرِ أَوْعُمُوا النَّوَاحِيَا
لِعَيْنَيْهِ نَحْوَ الْأَتْقَى بِالْطَّرْفِ سَامِيَا
يَتَسْتَوْقِدُ مَا كُنْتُ لِلْكَفْرِ رَاجِيَا

وسار الى صنعاء شيبه جدّه
وحيا بغمدان ابن ذي يزن بها
فقرّبه دون الوفود وخصّه
وقال له انا وجدنا بكتبتنا
يموت أبوه ثم تهلك أمه
وقال له والبيت ذي الحجب زاره
لأنت على ما يقتضي الوعد جدّه
وقال له احفظ ما اقول فانه
وقول هرقل اذا أظلم زمانه
وطالع فيه مصحف الأفق ناظراً
فلم تنقض الأيام حتى أتى له
فباحث عنه اهل مكة سائلاً
ولبي الهدى لما دعاه جماله
وورد الرضى لا يهتدي لسيله
وإيوان كسرى اهتز ليلة وضعه
وزاد يرويا الموبدان ارباعه
فحل محلاً للوفادة قاصيا
وهنا بالملك اذ عاد وإيا
ليسمع قولاً في الرسالة شافيا
نبياً يرى في نحو أرضك دانيا
ويكفله بعض العمومة كافيا
وفود الورى جابوا اليه الفياfia
فشيد به للمجد ما كنت بانيا
سيملك ارضي اذ أرى الملك واهيا
يقول أرى ملك الحتان موافيا
كما زعموه يستشير الداريا
كتاب رسول الله للحق داعيا
وكان بأوصاف النبوة داريا
وهام قليلاً ثم ألفي ساليا
فيروى به من كان في البدء صاديا
وبات عليه قصره متداعيا
فأذهله أن يستبين المساعيا

وَفَسَّرَهَا شِقْ^١ وَشَقَّ غُبَارَهُ
فَنَصَّ عَلَى إِرْسَالِ أَحْمَدَ مُثَبِّتًا
وَأُخِذَتِ النِّيرَانُ نِيرَانُ فَارِسٍ
وَكَانَتْ تَلْظِي الْفَ عَامٍ تَوَالِيَا
سَطِيحٌ بِسَجْعٍ قَصْرًا كَانَ رَائيَا
لِدَيْنِ الْهُدَى بِالرَّغْمِ لِلْكَفْرِ مَا حِيَا

وَحُمِلَ ذَاكَ الْحِلْمُ حِجْرَ حَلِيمَةٍ
أَبَى حَمْلَهُ النَّسْوَانُ لِلْيُثْمِ وَانْبَرَتْ
فَحَازَتْ بِهِ السَّبْقَ الْآتَانُ^٢ كَرَامَةً
وَشَارِفُهَا^٣ إِذْ لَا تَبْضُ بِقَطْرَةٍ
وَفِي حَيِّهَا وَافَاهُ جَبْرِيلُ قَاصِدًا
فَشَقًّا بِهِ صَدَرَ النَّبِيِّ لِشَرْحِهِ
وَرَدَّهُ فِي الْحَيْنِ الْتِثَامًا فَمَا تَرَى
وَجَاءَ بِمَنْدِيلٍ وَطَسَّتْ لِيَغْسِلَا
وَعَادَ أَخُوهُ^٤ فَازِعًا مُخْبِرًا بِمَا
لِتَرْضَعَهُ دَرَّ الْفَضَائِلُ صَافِيَا
لَهُ فَرَأَتْ مِنْ حِينِهَا الرِّزْقَ نَامِيَا
وَأَخْصَبَ مَرْعَاهَا فَفَاقَ الْمَرَاعِيَا
فَصَارَتْ بِهِ ثَجًّا تُرَوِّي الصَّوَادِيَا
وَأَقْبَلَ مِيكَائِيلُ بِالْأَمْرِ تَالِيَا
فَكَانَ لِمَا يُلْقَى لَهُ اللَّهُ وَاعِيَا
سِوَى أَثَرٍ مَا زَالَ لِلشَّرْحِ بَاقِيَا
بِمَاءِ الرِّضَا قَلْبًا عَنْ اللَّهِ رَاضِيَا
جَرَى مِنْ مَخُوفٍ كَانَ لِلْأَمْرِ جَارِيَا

١ - شق وسطيح من كهات العرب ، وقد فسرا رؤيا الموبدان بظهور النبي العربي .

٢ - يعني أتان حليلة .

٣ - الشارف الناقة المسنة .

٤ - يعني من الرضاعة .

فَسَارَتْ بِهِ مِنْ حِينِهِ نَحْوُ أُمِّهِ تَخَافُ عَلَيْهِ إِنْ أَقَامَ الْعَوَادِيَا
 وَمَا زَالَ مَخْرُوساً أَمِيناً مُؤَمِّناً سَبُوقاً صَدُوقاً سَامِيَّ الْقَدْرِ عَالِيَا
 حَيِّياً وَفِيّاً خَاشِعاً مُتَوَاضِعاً كَرِيماً حَلِيماً يَسْتَفِيزُ الرِّوَايَا
 وَفِي سَيْرِهِ لِلشَّامِ شَامَ بَقْرَبِهِ بُرُوقُ الْهُدَى مَنْ لَمْ يَكُنْ قَطْرَانِيَا
 أَكْبَّ عَلَيْهِ فِي طَرِيقِ مَسِيرِهِ يَدِيرُ بَحِيرَا^١ لِلْهُدَى مُتَرَامِيَا
 وَلَمَّا رَأَى تِلْكَ الْعَلَامَةَ لَمْ يَزَلْ لِمَا وَافَقَ الْكُتُبَ الْقَدِيمَةَ بَاكِمِيَا
 وَكَانَتْ بِهِ مِنْ عِلَّةِ الشُّوقِ غُلَّةً فَسَاقَ لَهُ مِنْهَا الطَّيِّبَ الْمَدَاوِيَا
 وَقِصَّتُهُ فِي ذَا الْمَجَازِ وَعُمُّهُ بِهِ ظُلماً قَدْ صَيَّرَ الصَّبْرَ فَانِيَا
 فَأَهْوَى وَلَا مَاءَ إِلَى الْأَرْضِ رَاكِضاً فَفَجَّرَ يَنْبُوعاً مِنَ الْمَاءِ جَارِيَا
 وَكَمْ بَانَ مِنْ يُسْرِ لَيْسَرَةٍ^٢ بِهِ يَرْدُّ أَخَا سُكْرِ الْغَوَايَةِ صَاحِيَا
 فَكَانَ إِذَا اشْتَدَّ الْهَجِيرُ أَظْلَهُ عَمَّامٌ عَلَيْهِ لَا يَزَالُ مُمَاشِيَا
 وَأَخْبَرَهُ نَسْطُورُ بُصْرَى^٣ بَيْعَتَهُ فَأَظْهَرَ مِنْ غَيْبِ الرِّسَالَةِ خَافِيَا

* * *

وَبُغِضَتِ الْأَصْنَامُ لِلْمُصْطَفَى فَلَمْ يَزَلْ هَاجِراً فِعْلَ الضَّلَالَةِ قَالِيَا

١ - هو راهب نصراني رأى النبي ﷺ في رحلته الأولى إلى الشام فعرفه بعلامة النبوة .

٢ - هو غلام خديجة وكان صحبه (ص) في سفره بتجارته إلى الشام .

٣ - هو راهب نصراني آخر ، رأى النبي (ص) في سفره الثاني للشام فبشّر

وكان يَرى ضوءاً يلوح لِعَيْنِهِ ويسمَعُ تسليماً عليه مُحاذِياً
ويأتي حِراءَ للتحنُّثِ قاصِداً مُحبّاً لأسباب الوصال مُراعِياً
ويخرجُ من بين البيوت لعلّه يُحدِّثُ عنه النفسَ في السّرِّ خالياً
وكان رآه الله أكرمَ خلقه فأرسله بالحقِّ للحقِّ هادياً
وأسرى به ليلاً الى حَضرةِ العلا فما زالَ فيها للحبيبِ مُناجِياً
وسارَ على ظهرِ البراقِ كرامةً له رَاكباً اذ سارَ جبريلُ ماشياً
ولما أُنْأه الوحيُ وارتاعَ قلبه لِشِدَّةِ ما قد كان منه مُلاقياً
فسارتُ به عنداً خديجةَ زَوْجَه لتسألَ حبراً بالزمانَةِ فانِياً
وكان امرأً قد مارسَ الكتُبَ قارئاً وباتَ لضيْفانِ المعارفِ قارِياً
فبشّره أن سوفَ يطلعَ صبحُه فيكشفُ من ليلِ الغوايةِ داجِياً
وقال له يا ليتني كنتُ حاضِراً بها جَدْعاً أوليكِ نَفسي ومالياً
ووفقتك إن يُدركَ زمانِي يومه ومَن لي به أنصركَ نصراً مُوالِياً

وآيَتُهُ في الغارِ اذ نَزَلَ به وكان له الصِّديقُ بالصدقِ ثانياً
وقد أرسلَ اللهُ الحمامَ وشيَّدتْ من التُّسجِ أيدي العنكبوتِ مبانياً
فدافَعَ عن صديقِهِ ورُسُولِهِ بأضعفِ أسبابِ الوجودِ مُقاوياً
وكم آيةٌ خَصَّتْ سُرّاً اذ مشى على أثرِ المُختارِ للغارِ قافياً

فشلَ هَدَّ آثَاراً مِنَ الْحَشْفِ كَادَ أَنْ
وَلَمَّا دَعَا بِالْهَاشِمِيِّ أَجَارَهُ
وَأَصْحَبَهُ مِنْهُ ظَهِيراً مُكْرَماً
وَأَخْبَرَهُ أَنْ سَوْفَ يَفْتَحُ أَمْرَهُ
وَيُجْعَلُ فِي كَفِّهِ مِنْ بَعْدِ فَتْحِهَا
فَأَخْرَجَهَا الْفَارُوقُ فِي حِينِ فَتْحِهَا
وَأَيَّتُهُ فِي خَبْمَتِي أُمِّ مَعْبِدٍ
وَفِي الذِّيبِ أَذْأَقَعِي وَأَخْبِرَ مَفْصِحاً
وَفِي الضَّبِّ لَمَّا أَنْ دَعَاهُ أَجَاهُ
وَأَيَّتُهُ إِذْ فَارَقَ الْجِذْعَ فَضْلُهُ
وَإِنَّ انْشِقَاقَ الْبَدْرِ أَعْظَمُ آيَةٍ
وَفِي الْجَمَلِ الْآتِي بِحَضْرَةِ صَحْبِهِ
وَقِصَّتُهُ فِي الْمَحَلِّ لَمَّا دَعَا لَهُمْ
وَسَالَ بِهِ وَادِي قَنَاقَةَ لِأَجَلِهِ
وَفِي قِصَّةِ الزَّوْرَاءِ لِلخَلْقِ آيَةٍ
دَعَا بِإِنَاءٍ لَيْسَ يَنْقَعُ مَآوُهُ
فَفَاضَ تَمِيرُ الْمَاءِ بَيْنَ بَنَانِهِ
يَكُونُ لَهَارُونَ السَّفَاهِ مُوَاخِيَا
فَأَبْصَرَهُ فِي الْحِينِ مِنْ ذَلِكَ نَاجِيَا
بَنَاطَ أَبِي بَكْرٍ يُخَيِّفُ الدَّوَاهِيَا
مَدَائِنَ كِسْرَى وَالْبِلَادَ الْأَقَاصِيَا
سِوَارَاهُ مِمَّا يُحْرِزُ الدِّينَ سَامِيَا
لَهُ عِدَّةٌ بِالْصَّدَقِ فِيهَا مُبَاهِيَا
وَفِي الشَّاةِ إِذْ لَمْ تَبْقَ تَصْحَبُ رَاعِيَا
عَنِ الْمُصْطَفَى وَالذِّيبِ مَا زَالَ عَاوِيَا
وَقَالَ لَهُ لَبَّيْكَ لَبَّيْكَ دَاعِيَا
فَحَنَّ إِلَيْهِ الْجِذْعُ بِالْحَالِ شَاكِيَا
تَدَلُّ عَلَى مَنْ كَانَ لِلدِّينِ رَاوِيَا
لَيْشَكُوَ تَكْلِيفَ الْمَشَقَّةِ رَاغِيَا
فَأَبْصَرْتُ سُخْباً كَالْجِبَالِ هَوَامِيَا
ثَلَاثِينَ يَوْماً لَمْ يَزَلْ مُتَوَالِيَا
وَذِكْرِي لِعَبِيدِ كَانَ لِلذِّكْرِ نَاسِيَا
لِقَلَّتْهُ بِالرِّيِّ مَنْ كَانَ صَادِيَا
وَكَانَ وُضُوءاً لِلْكِتَابَةِ كَافِيَا

وَرَكَّوْهُ يَوْمَ الْحَدِيثِ التي أَفَاضَ بِهَا اللهُ الْبَنَانَ سَوَاقِيَا
وَأَشْبَاعَهُ الْجَمِّ الْغَفِيرَ بَقْبُضَةٍ مِنْ التَّمْرِ حَتَّى شَاهَدُوا التَّمْرَ بَاقِيَا
وَإِخْبَارُهُ بِالشَّيْءِ مِنْ قَبْلِ كَوْنِهِ فَيَأْتِي عَلَى النَّصْرِ الَّذِي قَالَ حَاكِيًا
فَأَخْبَرَ ذَا النُّورَيْنِ أَنَّ سَيُصِيبُهُ عَلَى الْأَمْرِ بَلَوِي تُعَقِّبُ الْأَمْرَ وَاهِيَا
وَأَخْبَرَ عَمَّارًا بِأَنْ حَيَاتِهِ سَيَقْطَعُهَا بِالْقَتْلِ مَنْ كَانَ بَاغِيَا
وَقَالَ لِلَّذِي السَّبْطَيْنِ أَشَقَى الْوَرَى الَّذِي

سَيَخْضِبُهَا مِنْ هَامَةِ الرَّأْسِ دَامِيَا
يُصَادِفُ نَوْرَ الشَّيْبِ أَيْضًا نَاصِعَا فَيَسْقِيهِ صِرْفُ الْحَتَفِ أَحْمَرَ قَانِيَا
وَنَصْرًا عَلَى السَّبْطِ الشَّهِيدِ بِكَرْبَلَا فِقَامَ لَهُ الدِّينُ الْحَنِيفِيُّ نَاعِيَا
وَفِي الْحَسَنِ الزَّاكِيِ أَبَانَ بِأَنَّهُ سَيُصْلِحُ بَيْنَ النَّاسِ لِلْأَجْرِنَاوِيَا
وَقَالَ لِقَوْمٍ ' إِنْ آخَرَ كُمْ بِهَا مِمَّا تَأْتِي سَيُصَلِّي فَاحِمَ الْجَمْرِ حَامِيَا
وَقَالَ إِذَا مَا مَاتَ كَسْرَى فَمَا تَرَى سَمِيَّالَهُ أُخْرَى اللَّيَالِي مُسَامِيَا
وَأَخْبَرَ عَنْ مَوْتِ النَّجَاشِيِّ حِينَهُ وَبَيْنَهُمَا مَوْجٌ مِنَ الْبَحْرِ طَامِيَا
وَقَالَ عَلَى قُرْبِ الْحَمَامِ لِبَنْتِهِ تَمُوتِينَ بَعْدِي فَافْرَحِي بِلِقَائِيَا
وَأَيَّتُهُ جَلَّتْ عَنِ الْعَدْبِ كَثْرَةً فَمَا تَبْلُغُ الْأَقْوَالُ مِنْهَا تَنَاهِيَا

١ - يعني من الصحابة : آخرُكم موتاً في النار ، فكان بعضهم يسأل عن بعض وكان سمرّة بن جندب آخرهم موتاً ، اصطلي بالنار فاحترق .

وأعظمها الوحي الذي خصّه به فبلّغ عنه أمراً فيه ناهيا
تحدّى به أهل البيان بأسرهم فكلمهم ألفاه بالعجز وانيا
وجاء به وحيّاً صريحاً يزيدُه مرورُ الليالي جدّةً وتعاليا
تضمّن أحكامَ الوجود بأسرِها وعمّ القضايا مُشْتَباً فيه نافيا
وأخبر عما كان أو هو كائنُ يرى ما ضيأ أو ما يرى بعدُ آتيا
ووافق أخبارَ النبيّين كلّهم وتّمّ بالغايات منها المباديا
وما كتبتُ ثمنه قطُّ صحيفةً ولا رِيء يوماً للصّحائف ثاليا
عليه سلامُ الله لا زال رائحاً عليه مَدَى الأيام حقّاً وغاديا

ولمالك بن المرحل يهني المنصورَ المريني بفتح مراکش :

فتحُ تَبَشَّمَتِ الأَكْوَانُ عنه فما رأيتَ أملج منه مَبْسِماً وفما
فتح كما فتح البستانُ زهرته ورَجَّع الطيرُ في أفنانه نغما
فتح كما انشقَّ صبحٌ في قَمِيصٍ دُجِيَّ

وطرّفَ البرقُ في أرْدَانِه علماً
اضحت له جنةُ الرضوان قد فُتِحَتْ أبواؤها وفؤادُ الدين قد نَعِمَا
الحمدُ لله هذا ما وُعِدَتْ به يا خيرَ مَنْ وَلِيَ الدُّنْيَا وَمَنْ حَكَمَا
لَنْ يُخْلِفَ اللهُ وَعْدًا كَانَ وَعَدَه

فاشكروا بضاعف لك الحظّ الذي قَسِمَا

بفتح مَرَّأَشْ عَمَّ السُّرُورُ فما يَكَايِدُ الغَمَّ الا قَلْبُ مَنْ ظَلَمَا
 حبا بها الله مولانا الامير كما حبا أباه فأَسْنَى فَتَحُهَا لَهَا
 فلم يزل سَعْدُهُ المألوفُ مُتَّصِلَا بسَعْدِ والده المنصورِ مُنْتَظَمَا
 فدولةُ الدين والدنيا قد اختلفتْ في الفتح والنصر والتأييدَ بَيْنَهما
 أَفَاقَتِ الارضُ من نِومٍ بها وَصَحَتْ

وأصْبَحَتْ وَهِيَ تَلْجِي الشُّكْرَ وَالْحُلْمَا

لما رَأَتْ رَايَةَ السُّلْطَانِ قَدِ رُفِعَتْ في أَفْهَى قَرَعَتْ اسنانها ندما
 فاستَقَطَفَتْ مِنْهُ قَوْلًا من سَجِيَّتِهِ أَنْ يَحْقِرَ الذَّنْبَ وَالْعَوَارَ إِنْ عَظُمَا
 مِنْ سُنَّةِ اللَّهِ إِنْ يُحْيِي خَلِيقَتَهُ عَلَى يَدَيْكَ وَأَنْ يَكْفِيَهَا النِّقْمَا
 وَأَنْ يُقِيمَ بِكَ الْإِسْلَامَ مِنْ أَوْدٍ وَأَنْ يُدِيمَ بِكَ الْإِحْسَانَ وَالنِّعْمَا
 وَأَنْ يُقِرَّ عِيُونََ الْمُسْلِمِينَ وَأَنْ

يَشْفِي الصُّدُورَ وَأَنْ يُبْرِئَ بِكَ السَّقْمَا

بُشْرَاكَ يَا مَالِكَ الدُّنْيَا وَحَافِظَهَا فَأَنْتَ أَفْضَلُ مَنْ آوَى وَمَنْ رَحِمَا
 إِنَّا نَسَخْنَا مَعَالِيكَ الَّتِي رَأَفْتَ فَلَمْ نَرِ الْبَأْسَ فِيهَا بُزًّا لِلْكُرْمَا
 كَمَا نَظَرْنَا إِلَى يُمْنَاكَ مِنْ كُتُبِ فَلَمْ تَرَ السَّيْفَ فِيهَا يُسْلِمُ الْقَلَمَا
 اللَّهُ مِنْكَ مَلِيكَ لَا تَظِيرَ لَهُ لَوْلَاكَ كَانَ وَجُودُ الدِّينِ قَدْ عُدِمَا
 مَلِكٌ بَصِيرٌ بِأَدْوَاءِ الْأُمُورِ لَهُ رَأْيٌ نَجِيجٌ وَطِبُّ يَذْهَبُ الْأَلَمَا
 عَدْلُ الْحُكُومَةِ مَاضِي الْعَزْمِ مُعْتَدِلُ كَالرَّيْحِ يُنْضِي بَعْدْلَ كُلِّمَا عَزَمَا

سَيْفٌ وَسَيْبٌ وَعَدْلٌ بَعْدَ مَقْدَرَةٍ وَبَطْشَةٌ وَأَنَاةٌ تَجْمَعُ الْحِكْمَا
أَنْ غَابَ عَنْكَ فَانِ الْأُذُنِ شَاهِدَةٌ

وَأَنْ تُشَاهِدَهُ لَمْ يَنْطِقْ وَقَدْ فَيَّهَا

اللَّهُ أَعْطَاهُ عِلْمًا مِنْ لَدُنْهِ فَلَمْ يَحْتَجْ إِلَى أَحَدٍ فِي عِلْمٍ مِنْ عِلْمَا
وَمَنْ تَخَيَّرَهُ لِلدِّينِ خِيَالُهُ
سُبْحَانَ مَنْ يَجْمَعُ الْفَضْلَ أَفْرَدَهُ
فَلْيُلَوِّرِي أَنْ يَقُولُوا عِنْدَ رُؤَيْتِهِ
مَوْلَايَ يَهْدِيكَ مَا أُعْطِيتَ مِنْ ظَفَرٍ
وَعَنْ قَرِيبٍ إِلَى يُمْنَاكَ مَرْجِعُهُمْ
أَيْنَ الْمَفْرُثُ وَخَيْلُ اللَّهِ تَطْلُبُهُمْ
كَمْ مِنْ مُصِيرٍ يُبْلِقِي مَا جَنَّتْ يَدُهُ
أَنْتَ الْإِمَامُ لِبَعْضِ السُّهُوِ تَحْمِلُهُ
وَقَدْ كَفَى اللَّهَ كُفَّ الْخَائِنِينَ وَقَدْ

يَا بِنْتَ فِكْرِي صَعْبِي عَيْنِكَ النَّقَابِ إِذَا

بَلَغَتْ حَضْرَتَهُ ثُمَّ انْشَرِي النُّظْمَا
وَذَكِّرِيهِ فَإِنَّ الذِّكْرَ مُنْفَعَةٌ
وَذَاكَ فِي مُحْكَمِ التَّنْزِيلِ قَدْ رُسِمَا
عَلَى الْقَدِيمِ وَيُرْعَى السَّيِّدُ الْقَدَمَا

ولابي جعفر الجنان المكناسي يُهني نَفْهاً من مرض :

إِلْبَسِ الصِّحَّةَ بُرْداً قَشِيّاً وارشِفْ النِّعْمَةَ ثَغْراً شَنِيباً
واقطِفِ الآمالَ زَهْراً نَضِيراً واعطِفِ الإقبالَ غُصْناً رَطِيباً
إِنْ يَكُنْ ساءَكَ وَءَاكَ تَقْضَى تَجِدِ الأجرَ عَظِماً رَحِيباً
فانتعِشْ دَهْرَكَ ذَا فِي سُرور يُصْبِحِ الحاسدُ مِنْكَ كَثِيباً

وللعلامة ابن هانيء السبتي مُراجِعاً أبا القاسم الشريف عن شعر بعثه
إليه من نفس الوزن والروي :

لولا مَشِيبٌ بُقُودِي للفُؤَادِ عَصَى أنْضَيْتُ فِي مَهْمَةِ التَّشْيِيبِ قُلُصَا
واستوقفتُ عِبرَاتِي وَهِيَ جَارِيَةٌ وَكَفَاءَ تَذَمُّعٍ رُبْعاً لِلْحَبِيبِ قَصَا
مُسَائِلاً عَنْ لِيَالِيهِ الَّتِي انْتَهَزَتْ أَيْدِي الأَمَانِي بِهَا مَا سِثَّتْهُ فُرْصَا
وَكُنْتُ جَارِيَتْ فِيهِ مِنْ جَرَى طَلَقاً مِنَ الإِجَادَةِ لَمْ يَجْمَعْ وَلَا نَكْصَا
أَصَابَ شَاكِلَةَ المَرْمِيّ حِينَ رَمَى مِنَ الشُّوَارِدِ مَا لَوْلَاهُ مَا اقْتَنَصَا
وَمَنْ أَعَدَّ مَكَانَ النِّبْلِ نَبْلَ حَجِي لَمْ يَرْضَ إِلَّا بِأَبْكَارِ النُّهَى قَنَصَا
ثُمَّ انْتَنَى ثَانِياً عِطْفَ النِّسِيبِ إِلَى مَدْحٍ بِهِ قَدْ غَلَا مَا كَانَ قَدْ رُخْصَا
فَظَلْتُ أَرْفُلُ فِيهَا لِبَسَةً شَرُفَتْ ذَاتاً وَمُنْتَسِباً أُعْزِزُ بِهَا قُصَا
يَقُولُ فِيهَا وَقَدْ خُوِّلْتُ مِنْحَتَهَا وَجُرْعَ الكَاشِحِ المُغْرِي بِهَا غُصَا

هذي عقائلُ وافتُ منك ذا شرفٍ لولا أباديه بيعَ الحمدُ مرتخصاً
فقلتُ هلاً عكستَ القولَ منك له ولم يكن قابلاً في مدحه الرخصاً
وقلتُ ذني يكرُفكرٍ من أخي شرفٍ

يُردي ويُرضي بها الحسادَ والخلصا

لها حُلَى حَسَنَاتٌ على حُلِيٍّ حُسْنِيَّةٌ تَسْتَبِي مَنْ حَلَّ أو شَخَصَا
خَوَّلَتْهَا وقد اعتزَّت ملابسُها بالْبَحْتِ ينقاد للآسان ما عَوْصَا
خُذْهَا أبا قاسمٍ مني نتيجةً ذي وَدَّ اذا شِيبَ وَدَّ للورى خَلَصَا
جاءتْ نُجَاجِبُ عَمَّا قد بعثتَ به ان كنتَ تأخذ من دُرِّ النحور حصَى

ولابن عبد المنان في أبي عنان المريني حين ظفَّره بالثائر أبي مهدي :

نَحْيَاكَ أَهْبَى لا الهلالُ ولا البدر وَرِيْقَكَ أَشْهَى لا الزُّلالُ ولا الخمر
ولحظك أنكى لا البواترُ تُنتَضَى وعرفك أذكى لا الأزاهرُ تَفْتَرُ
أيا مَلِكَ القَلْبِ الذي جارَ في الهوى عليه ترفق رُبَّما وَهَنَ الصبرُ
ويا باخلاً حتى بطَّيف خياله نَشَدْتُكَ هل في الطَّيفِ تَبَعْتُهُ وَزُرُ
أَعْنَدُكَ أَنِّي مِنْذُ أَضْمَرْتُ هَجْرَةَ

هَجَرْتُ الكَرَى سُهْداً سَوَى سِنَةٍ تَعْرُو

ولم يُبقِ مني السَّقَمُ الاُصْبَابَةَ بِحُكْمِ الهوى العُذْرِي عِنْدَ الهوى عُذْرُ

أَلِفْتُ الْهَوَى حَتَّى اسْتَلَنْتُ صَعَابَهُ
وَقَالَ وَشَاةُ الْحَبِّ سِحْرُ أَصَابِهِ
لَكَ الْخَيْرُ هَذَا نَعْتٌ حَالِيَ جَمَلَةٌ
بِنَفْسِي نَشْوَانُ الْمَعَاطِفِ عَاطِفُ
لَهُ الْوُدُّ مِنِّي وَالْخُلُوصُ وَعِنْدَهُ
أَلَا إِنَّ نِعَامَ الْخَلِيفَةِ فَارِسِ
مَلِيكَ مُلُوكِ الْأَرْضِ أَوْحَدُهَا الَّذِي
غَمَامُ النَّدَى الْهَطَالِ وَالْجَوُّ أَغْبَرُ
إِذَا مَا تَرَاءَى الْبَدْرُ يَوْمًا وَوَجْهُهُ
تَأَخَّرَ عَصْرًا فِي الْمُلُوكِ وَإِنَّهُ
إِمَامُ الْهُدَى شُكْرًا عَلَى النُّعْمِ الَّتِي
لَكَ الْجُودُ تُرَدِّي الْمَارْقِينَ جُنُودَهُ
وَعَاوِرُنَا فِي هُوَّةِ الْمَلِكِ قَازِفًا
أَغَارَ عَلَى السِّنِّ الْخَنِيفِ يَهْدُ مِنْ
وَرَامَ مَرَامًا دُونَهُ النُّجْمُ سَارِيًا
وَحَتَّى تَسَاوَى عِنْدِي الْخُلُوفُ وَالْمُرُ
فَهَلْ عَلِمُوا مِنْ لَحْظٍ مِنْ ذَلِكَ السَّحَرِ
وَشَرَحَافِلُ الْعَطْفِ مِنْ بَعْدِهِ ذِكْرُ
كَغَضَنِ النَّفَا كَالظَّنِّي خَامِرُهُ ذُغَرُ
تَجَنُّ كَمَا تَهْوَى الْمَلَا حَةُ أَوْ هَجَرُ
لَنَا الْأَصْفُوفُ مِنْ قِيَاضِهِ وَلَهُ الشُّكْرُ
بِهِ عَلَتِ الْعُلِيَاءُ وَافْتَخَرَ الْفَخْرُ
وَلَيْثُ الْفِدَا وَالْبَيْضُ قَانِيَةُ خُمُرُ
تَحَيَّرَتْ الْأَبْصَارُ أَثِيمَا الْبَدْرِ
إِذَا عُدَّ أَمْلَاكُ الزَّمَانِ لَهُ الصُّدْرُ
يَضِيقُ إِذَا عَدَّدَتْهَا الْعَدُوُّ وَالْحَصْرُ
بِاقْطَارِهِمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْرَحَ الشُّقْرُ
بِهِ الْبَغْيُ وَالرَّأْيُ الْمُضِلُّ وَالْغَدْرُ
قَوَاعِدُهُ مَا شَادَهُ الْقَادَةُ الْغَرُّ
وَلَمْ يَدْرِ جَهْلًا أَنَا الْمُرْتَقَى الْوَعْرُ

وهيهات يأبى الله ذلك والعلی
 جنی ثمر الايمان بالبغي واعتدی
 فیا عجیباً بعد السعادة ناله
 سعی راشداً شطراً (من العمر) وافرأ
 عصی الله فی الشطر الاقل سفاقة
 ورام غنی بالصفر أو سدّ خلّة
 وأمل فی أُنْعَادِهِمْ کتم نفسه
 لعلک عیسی رمت بائسک برّهم
 دعوتهم للغدر لما تخذّله
 فكان النّصارى منك أوفی بذمّة
 لئن رمت دُنیا أنت قاره نها الذي
 له الحرثُ والأنعام والخیلُ والتّبرُ
 وان كنت للأخرى جنحت ولم یکن-

أعذ نظراً ان شئت ما هكذا الامر
 فأدرکك الطوفان وهو الظبا البئر
 وغلب كأسد الغاب یقدمها النّصر
 وتجري بما یومي به الأنجم الزّهر
 أویت الى تلك الرّبا غیر صالح
 وجرد كأمثال الروایي سوانح
 وسعد إمام یخدم الدهر سعده

أَلَا يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِي اهْتَدَى
أَطَعْتَ مَلِيكَ النَّاسِ رَبَّكَ فَأَعْتَدَى
وَأَنْتَ الَّذِي جَدَّدْتَ بَعْدَ دُرُوسِهَا
مَنْحَتَ فَأَوْسَعْتَ الْبِلَادَ رَغَائِبًا
تَدَاعَتْ لَكَ الْأَمْلاكُ دُونَكَ رَغْبَةً
كَأَنِّي بِأَقْطَارِ الْبِلَادِ مُنِيْبِهَا
وَأَنْسَ أَرْجَا تُونِسٍ أَمْرُكَ الَّذِي

هُوَ الْعَدْلُ يُرْضِي مَنْ لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ
وَجَاشَتْ بِبَطْحَاهَا الْجِيُوشُ وَأَصْبَحَتْ

تَقُولُ بَنُو الْعَبَّاسِ قَدْ فُتِحَتْ مِصْرُ
لَعَمْرِي لَقَدْ زِنْتَ الْخِلَافَةَ فَأَعْتَدْتَ
وَرَأَيْتُ بِكَ الدُّنْيَا جَمَالًا وَبِهَجَّةً
وَأَنْجَمُهَا حَلِيًّا وَنَجْوَى نَسِيمِهَا
وَدُونَكَهَا عِذْرَاءَ أَجْلُو عَرُوسِهَا
لَهَا تَسْبُ فِي السَّخْرِ تَعْرِفُهُ النَّهَا
وَهُنَيْتَ عِيدَ النَّحْرِ وَالْفَتْحَ إِنَّهُ

يُقَصِّرُ عَنْ أَوْصَافِهَا النِّظْمُ وَالنَّثْرُ
فَإِظْلَامُهَا صُبْنَحٌ وَإِصْبَاحُهَا بَشْرُ
ثَنَاءٍ بِمَا تُؤَلِّي وَإِمْسَاضُهَا ثَغْرُ
عَلَيْكَ وَمَرْجُوُّ الْقَبُولِ لَهَا مَهْرُ
وَأَنْ قَالَتْ الْأَسْمَاعُ وَالذُّهَاهُ الشُّعْرُ
لَكَ الْعِيدُ مِنْهُ وَالْعِيدَا لَهُمُ النَّحْرُ

١ - هو تلميح لقول ابن هانئ :

فقل لبني العباس قد قضى الأمر

تقول بنو العباس قد فتحت مصر

بقيتَ لدين الله رِذْماً وَعِصْمةً فما غيرُ عَلَيَاك الزمانُ له ذُخْرُ

وللقاضي أبي عبدالله الفشتالي في أبي عَنَان أيضاً :

أَيَا إِمَاماً نَدَى كَفَيْهِ قَدْ وَكَّفَا حَسْبِي اعْتِصَامِي بِجَبَلٍ مِنْكُمْ وَكَفَى
وَكَيْفَ أَصْرِفُ وَجْهَ الْقَصْدِ عَنْ مَلِكٍ

مَا صَدَّ عَنِي سَنَا بَشَرٍ وَلَا صَرَفَا
مَا إِنْ شَكَّوتُ بِمَا أَضْنَى تَطْلُبُهُ
وَلَا وَقَفْتُ عَلَيْهِ مُنْتَهَى أَمَلِي
وَلَا وَقَفْتُ عَلَيْهِ مُنْتَهَى أَمَلِي
فِي كُلِّ يَوْمٍ لَهُ تَجْدِيدُ عَارِقَةٍ
مِنْهَا انْقَضَتْ هَذِهِ لِهَذِهِ اتَّسَفَا
وَلَيْسَ مَن يَرَى أَنْ لَا يُتَبَحَّ يَدَا
حَتَّى يُقَامَ لَهُ بِشُكْرِ مَا سَلَفَا

ولمحمد بن أحمد الشبوكي الفاسي بمدح أبا فارس المريني ويحرضه
على الشيخ عامر بن محمد الهنتاتي صاحب جبل هنتانة لما خرج عليه
بأبن أخيه الملقب بالمُعتمد :

أَبَانَ فِي حَبِّهِ مَا قَالَ عَادِلُهُ
دَمْعٌ جَرَى فَوْقَ صَفْحِ الْخَدِّ هَامِلُهُ
غِيَاثٌ مِنْ وَطْأَةِ التَّفْرِيقِ ذَا وَجَلٍ
يَسْتَنْجِدُ الصَّبْرَ عَوْنًا وَهُوَ خَاذِلُهُ
صَبٌّ إِذَا مَا بَدَا بِالرَّقْمَتَيْنِ لَهُ
وَمِيزُ بَرَقِ الْحِمَى هَاجَتْ بِلَا بِلَهُ
يَبْكِي لِمَنْزِلِ أَنْسٍ بَانَ آهْلُهُ
وِظَالِ عَيْنٍ عَنْهُ قَدْ شَطَّتْ مَنَازِلُهُ
يَا حُسْنَ عَصْرِ بَهِمْ قَضِيَّتُهُ زَمَنًا
رَقَّتْ حَوَاشِيهِ إِذْ رَاقَتْ أَصَائِلُهُ

كَأَنَّ صَوْبَ دُمُوعِي بَعْدَ بُعْدِهِمْ سَيَّبُ الْمَلِيكَ إِذَا وَافَاهُ سَائِلُهُ
عَبْدُ الْعَزِيزِ الَّذِي عَزَّتْ بَدَوْلَتُهُ مَهَابِعُ الْحَقِّ وَانْجَابَتْ دَلَائِلُهُ
وَأَصْبَحَ الْمَلِكُ فِي أَمْنٍ وَفِي دَعَا مِنْ بَعْدِ مَا كَانَ غَالَتْهُ غَوَائِلُهُ
عَادَتُهُ بَعْدَ عَنَاءٍ مِنْهُ نَضَارَتُهُ فَعَادَ يَانِعُهُ وَاشْتَدَّ كَاهِلُهُ
كَالرَّوْضِ بَاكَرِهِ طَلٌّ عَلَى ظَمَائِهِ وَجَادَهُ بَعْدَ ذَلِكَ الطَّلُّ وَآيِلُهُ
هُوَ الْإِمَامُ الَّذِي مَنَ أُمَّ سَاحَتِهِ جَادَتْ عَلَيْهِ بِجَدِّوَاهَا أُنَامِلُهُ
وَمَنْ تَخَلَّفَ جَهْلًا عَنْ إِيَابَتِهِ سَارَتْ إِلَيْهِ عَلَى عِلْمٍ صَوَائِلُهُ
قُلُوبٌ لِلَّذِي عَنْهُ أَقْصَتْهُ جَرَائِمُهُ وَعَقَلَتْهُ عَنْ أَلْعَلْيَا مَعَايِلُهُ
زُرْ حَضْرَةَ الْمَلِكِ الْمَيْمُونِ طَالِعُهُ تَحْطِي بِمَا أَنْتَ فِي دُنْيَاكَ آمِلُهُ
فَطْبَعُهُ الصَّفْحُ وَالْمَعْرُوفُ شَيْمَتُهُ وَالْحِلْمُ وَالصَّوْنُ وَالتَّقْوَى شِمَائِلُهُ
وَإِبْلِغْ جَمِيعَ الْعِدَا أَنْ سَوْفَ يَشْمَلُهُمْ

مِنْ الظُّبَا كُلِّ مَاضِي الْحَدِّ فَاصِلُهُ
هَذَا الْمَلِيكَ أَتَاهُمْ فِي كِتَابَتِهِ لِنَسْخِ آجَالِهِمْ تُنْضِي رَوَاجِلُهُ
بِكُلِّ خَرَقٍ^(١) طَوِيلِ الْبَاعِ مُتَيَّدٌ مُقَصِّرٍ عُمَرٍ مَنْ تَلْقَى مَنَاصِلُهُ
وَجَحْفَلٍ فِيهِ سُمْرُ الْخَطِّ مُشْرَعَةٌ قَدْ حَجَبَتْ أَنْجُمَ الشَّعْرِى قَسَاطِلُهُ^(٢)
سَيَعْلَمُ الْعُمَرُ عُقْبَى مَا جَنَاهُ إِذَا كَلَّتْ مَوَاضِيهِ وَانْقَضَتْ كَلَالِكُهُ

١ - الخرق : الكرم السخي .

٢ - جمع قسطل ، وهو الغبار الساطع في الحرب .

فَأَتَهَضُّ إِلَيْهِمْ أَمِيرَ الْمُسْلِمِينَ فَقَدْ أُعْطِيَ كُلُّ الْمُتَى فِيهَا تُحَاوِلُهُ
مَنْ ذَا يَنْزِلُ جَيْشاً أَنْتَ قَائِدُهُ يَوْمَ الْكَرْيَةِ أَوْ مَنْ ذَا يُنَاضِلُهُ
أَلَا تَرَى الْمَاتِقَ الرَّعْدِيدَ حِينَ عَتَا

وَأُخْضِرَ الْمَكْرَ صَادَتْهُ حَبَائِلُهُ

ظَنَّ الظَّانِينَ بَأَنِّ يَسْمُو وَيَعْلُو فِي دُنْيَا سَمَتْ وَعَلَتْ فِيهَا بِوَاطِلِهِ
فَغَادَرَتْهُ الصَّعَادُ الزُّرْقُ مُنْجِدِلًا فَوْقَ الصَّعِيدِ تُنَاجِيهِ جَنَادِلُهُ
دُنْيَاهُ تَضْحَكُ مِنْ أَحْوَالِهِ عَجَبًا بِهِ وَفِي الْحَيِّ تَبْكِيهِ أَرَامُهُ
فَلَيْسَ دِينَ الْهُدَى مِنْ بَعْدِ صَدْمَتِهِ أَنْ أَنْتَ يَا ذَا الْمُحْيَا الطَّلُقُ كَافِلُهُ
لَمْ يَنْتَصِبْ قَطُّ فِي الدُّنْيَا لِيَاؤُهُ عَلَى الْأَوْ مِنْ آلِ عَبْدِ الْحَقِّ حَامِلُهُ
مَوْلَايَ مَوْلَايَ دُمُ مَا عَشْتُمْ مَصْطَحِبًا عَلَيَّ وَفَخْرًا وَعِزًّا لَا تُرَايِلُهُ
إِنْ سَارَ جَيْشُكَ فَالْتَأَيِدُ يَقْدَمُهُ وَالنَّصْرُ عَاجِلُهُ يَقْفُوهُ آجِلُهُ

ولسعيد بن علي الجزولي الحامدي في محمد الشيخ القائم السعدي

يذكر انتصاره على العدو بالسواحل الجنوبية .

لِللَّهِ مَا غَضِبَهُ هَاجَتْ فَمَا تَرَكَتْ لِلْمُسْلِمِينَ بِأَرْضِ الشَّرْكِ مِنْ وَطَرٍ
فَعَالٌ مُنْتَقِمٌ لِلَّهِ مُلْتَزِمٌ فِي اللَّهِ مُعْتَصِمٌ بِاللَّهِ مُقْتَدِرٌ
رُوحَ الْخِلَافَةِ قُطْبُ تَسْتَدِيرُ بِهِ رَحَى الْمَكَارِمِ بَيْنَ الْبَدْوِ وَالْحَضَرِ
زَانَ الزَّمَانِ بِأَخْلَاقٍ لَهُ شَهَدَتْ بِأَنَّ أَيَّامَهُ لِلدَّهْرِ كَالْغُرَرِ
نَاهِيكَ مِنْ شَرَفٍ يُنَمَى إِلَى حَسْبٍ عُدُولُهُ بَيِّنَاتُ الْوَحْيِ وَالسُّورِ

يا بَهْجَةَ الدِّينِ والدُّنْيَا الَّتِي بَلَغَتْ بِهِ الْعِنايةُ شَأْوَ السَّبْعَةِ الزُّهْرِ
جَمَعَتْ شَمْلَ الْمُعالِي بَعْدَ فُرْقَتِهَا فَبَاتَ ثَغْرُ الْفَخَارِ غَيْرَ مُنْشَغِرِ

وقال النابغة الهوزلي في إبلال المنصور الذهبي من مرضه :

تَرَدَّى اذَى مِنْ سُقْمِكَ الْبَرُّ وَالْبَحْرُ

وَضَجَّتْ لَشَكْوَى جِسْمِكَ الشَّمْسُ وَالْبَدْرُ

وَبَاتَ الْهَدَى خَوْفًا عَلَيْكَ مُسَهَّدًا وَأَصْبَحَ مَذْعُورًا لِقَوَادِئِ الدُّيْ
فَلَمَّا أَعَادَ اللَّهُ صَحَّتَكَ الَّتِي أَفَاقَ بِهَا مِنْ غَمِّهِ الْبَدْوُ وَالْحَضَرُ
تَرَاءَتْ لَنَا الدُّنْيَا بِزِينَةِ حُسْنِهَا وَعَادَ إِلَى إِبَانَةِ ذَلِكَ الْبِشْرُ
وَصَارَ بِكَ الْإِسْلَامُ فِي كُلِّ بَلَدَةٍ يَهْنَأُ وَيَدْعُو أَنْ يَطُولَ لَكَ الْعَمْرُ
وَصَحَّتْ لَنَا الْأَمَالُ بَعْدَ اعْتِلَالِهَا وَعَادَتْ إِلَى الْإِنْعَاقِ أَغْصَانُهَا الْخُضْرُ
وَلَا غَرُّوْا أَنْ خَافْتُ عَلَى عَيْلِمِ النَّدَى

إِذَا غَبَرَ وَجْهَ الْأَرْضِ وَاحْتَبَسَ الْقَطَرُ

لَسَيْبِ أَبِي الْعَبَّاسِ أَنْضَتْ عِجَافَهَا قَدِيمًا فَخَافَتْ أَنْ يَعَاوِدَهَا الضَّرُ
لَئِنْ صَدَيْتَ بَيْضَ الْمُعالِي لَقَدْ غَدَتْ

نَشَاوَى الْكَمَامَةُ الْبَيْضُ وَاللُّدُنُ السُّمُرُ

بَقِيَتْ لِهَذَا الدِّينِ تَحْمِي ذِمَّارَهُ وَيَحْمِيكَ رَبُّ الْعَرْشِ مَا بَقِيَ الدَّهْرُ

وله يهنيه بفتح السودان ودخوله في طاعته :

أَلَمْتُ وَقَدْ أَلَوَى عَلَى وَصْلِهَا الْهَجْرُ كَمَا أَفْتَرَّ إِثْرَ اللَّيْلِ عَنْ ثَغْرِ الْفَجْرِ

وجلّى وقد لاحت دجى الليل وجهها

كما نضراً سَجَفَ الليل من وجهه البدر .

تَسَاقَطَ لِي دَرًّا لَقَطْتُ فَرِيدَهُ
تُحَدِّثُ عَنْ مَسْرَى سَوَارٍ رَمَتْ بِهَا
تَحَامَى هَوَاهَا الطَّيْرُ مِنْ خَشْيَةِ الرَّدَى
وَجَشَمَهَا الْمَنْصُورُ خُرْسَ كِتَابٍ
تُقَادُ نَوَاصِيهَا بِكُلِّ مُتَوَجِّجٍ
عَلَى كُلِّ مَجْبُوكِ السَّرَاقِ إِذَا جَرَى
صَوَافِنُ يَنْمُوها وَجِبُهُ وَلا حَقُّ
بُرْهَفَةٍ مَأْثُورَةٍ مَشْرِقِيَّةِ
غَدَتِ تَحْمِلُ الْمَوْتَ الزَّوَامُ يَحْطُوبُهَا
فَحَلَّتْ بِأَرْضِ السُّودِ لَمْ يَشْنِ عِزْمَهَا
وَرَامَتْ بَنُو حَامٍ لَجْلَهَ بِقَدْرِهَا
هَمَى فَوْقَهَا وَطَفُ الْمَنَآيَا بِحَاصِبِ
لَقَدْ ذَكَرَ الْحَبْشَانُ مِنْ وَقْعِهَا بِهِمْ
هَنِيئًا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ فَقَدْ قَضَى
لِئِنْ أَسْلَمَتْ أَرْضُ الْجَنُوبِ مَقَادَهَا

بَأْنَمُلُ سَمِعَ فِيهِ عَنْ غَيْرِهِ وَقَرَّ
مَرَامُ تَضِلُّ النَّهْجُ فِي فَيْحِهَا الزُّهْرُ
قَدِيمًا وَأَعْيَا الرِّيحَ مَسْلُكُهَا الْوَعْرُ
تُحْمَلُ مَا يَرُوي فِي حِمْلِهِ الصَّبْرُ
نَمَتْهُ إِلَى عَدْنَاتِ آبَاؤِهِ الْغَرَّ
مَعَ الرِّيحِ فَاتِ الرِّيحِ مِنْ عَدُوِّهِ حَضَرَ
مُطَهَّمَةٌ ذَهْمٌ وَمَقُورَةٌ شُقْرٌ (١)
تَوُمُّ غِرَارِيهَا رَذِيئَةٌ سُمِرُ
وَيَكْنُفُهَا يُمْنٌ يُشِيعُهُ نَضْرُ
مَهَالِكُ صَدٍّ عَنْ مَسَالِكِهَا الذُّعْرُ
دِفَاعًا فَبَاتَتْ فَوْقَ آنَافِهَا الْعَفْرُ
ظَوَامِي عِبَالِ النَّبْلِ مِنْ فَيْضِهِ جَمْرُ
وَقِيعةَ يَوْمِ الْفِيلِ لَوْ يَنْفَعُ الذِّكْرُ
عَلَى كُلِّ مَنْ نَاوَاكَ أَسْيَا فُكُ الْبُتْرِ
فَعَنْ كَتَبٍ تُلْقِي مَقَالِيدَهَا مِصْرُ

وَتَزُورُ زَوْرَاءَ الْعِرَاقِ فَتَهْتَدِي إِلَيْكُمْ وَأَعْنَاقُ الْعِدَا خُضَّعَ صُغْرُ
وَتَخْفُقُ بِالوَادِي الْمَقْدَسِ رَايَةً عَلَيْكَ وَتَهْوِي فِيهِ أَلْوِيَّةُ خُمْرِ
فَدُمُ لِفَتْوحٍ يُسْتَحْتُ لِنَيْلِهَا إِلَى كُلِّ قَطْرِ مِنْكَ ذُو لَجَبٍ مَجْرُ

ولعبد العزيز الفشتالي يمدحه ويهنئه بالمولد الشريف :

هُمْ سَلَبُوا فِي الصَّبْرِ وَالصَّبْرُ مِنْ شَانِي وَهُمْ حَرَمُوا مِنْ لَذَّةِ الْغَمَضِ أَجْفَانِي
وَهُمْ أَخْفَرُوا فِي مَهْجَتِي ذِمَمَ الْهَوَى فَلَمْ يَنْتَهِمْ عَنْ سَفْكِهَا حُبِّي الْجَانِي
لَيْنَ أَتَرَعُوا مِنْ قَهْوَةِ الْبَيْنِ أَكْوَاسِي فَشَوْقُهُمْ أَضْحَى سَمِيرِي وَنَدْمَانِي
وَأَنْ غَادَرْتَنِي بِالْعَرَاءِ خُمُولُهُمْ كَفَى أَنْ قَلْبِي جَاهِدُ إِثْرَ أَطْعَامِي
قَفِ الْعَيْسِ وَأَسْأَلُ رَبَّعَهُمْ آيَةً مَضَوَا أَلِلْجِرْعَ سَارُوا مُدْجِلِينَ أَمِ الْبَانِ
وَهَلْ بَاكُرُوا بِالسَّفْعِ مِنْ جَانِبِ اللّوَى مَلَا عِبَ آرَامٍ هُنَاكَ وَغَزْلَانِ
وَأَيْنَ اسْتَقَلُّوا هَلْ يَهْضُبُ تِهَامِي أَنَاخُوا الْمَطَايَا أَمْ عَلَى كُثْبٍ نَعْمَانِ
وَهَلْ سَالَ فِي بَطْنِ الْمَسِيلِ تَشَوُّقًا نَفُوسٌ تَرَامَتْ لِلْعُلَا قَبْلَ جُحْمَانِ
وَإِذْ زَجَرُوهَا بِالْعَشِيِّ فَهَلْ ثَنَى أَرِزْمَتَهَا الْحَادِي إِلَى شُعْبِ بَوَّانِ
وَهَلْ عَرَّسُوا فِي دَيْرِ عَبْدُونِ أَمْ سَرَوْا يَوْمَ بِهِمْ رُهْبَانُهُمْ دَيْرَ نَجْرَانَ
سَرَوْا وَالِدُجَى صَبَغُ الْمَطَارِفِ فَانْتَنَى

بِأَحْدَاجِهِمْ شَتَّى صَفَاتٍ وَأَلْوَانِ
وَأَذْلَجَ فِي الْأَسْحَارِ بَيْضُ قَبَائِهِمْ فَلَحْنَ نُجُومًا فِي مَعَارِجِ كُثْبَانِ

لَكَ اللَّهُ مَنْ رَكِبَ يَرَى الْأَرْضَ خُطْوَةً

إِذَا زَمَّهَا بُدْنًا نَوَاعِمَ أَبْدَانِ

أَرْحَهَا مَطَايَا قَدْ تَمَشَّى بِهَا الْهَوَى
وَيَمَّمُ بِهَا الْوَادِي الْمَقْدَسَ بِالْحِمَى
وَأَهْدِ حُلُولَ الْحَجَرِ مِنْهُ نَجِيَّةً
لَقَدْ نَفَحَتْ مِنْ شَيْخٍ يَثْرِبُ نَفْحَةً
وَفَتَتْ مِنْهَا الشَّرْقُ فِي الْغَرْبِ مَسْكَةً
وَأَذْكُرْنِي نَجْدًا وَطِيبَ عَرَارِهِ
أَحْنُ إِلَى تِلْكَ الْمَعَاهِدِ إِنَّهَا
وَأَهْفُو مَعَ الْأَشْوَاقِ لِلْوَطَنِ الَّذِي
وَأَصْبُو إِلَى أَعْلَامِ مَكَّةَ شَانِقًا
أَهْلُ الْحِمَى دَنَيْتَنِي عَلَى الدَّهْرِ زَوْرَةً
مَتَى يَشْتَفِي جَفْنِي الْقَرِيبُ بِنَظَرَةٍ
وَمَنْ لِي بَأَنْ يَدُنُورِضَاكُمْ تَعْطَفًا
سَقَى عَهْدَهُمْ بِالْحَنِيفِ عَهْدٌ^(١) تَمُدُّهُ
وَأَنْعَمَ فِي شَطِّ الْعَقِيقِ أَرَاكَةَ
وَحِيًّا رُبُوعًا بَيْنَ مَرْوَةٍ وَالصَّفَا

تَمَشَّى الْحِمَى فِي مَفَاصِلِ أَبْدَانِ
بِهِ الْمَاءُ صَدًّا وَالْكَلا نَبَتْ سَعْدَانِ
تُقَاوِحُ عُرْفًا ذَا كِي الرَّنْدِ وَالْبَانِ
فَهَاجَتْ مَعَ الْأَسْحَارِ شَوْقِي وَأَشْجَانِي
سَحَبْتُ بِهَا فِي أَرْضِ دَارَيْنِ أَرْدَانِي
نَسِيمُ الصَّبَا مِنْ نَحْوِ طَيْبَةِ حَيَّانِي
مَعَاهِدُ رَاحَاتِي وَرَوْحِي وَرَيْحَانِي
بِهِ صَحَّ لِي أَنْسِي الْهَنِيَّ وَسُلْوَانِي
إِذَا لَاحَ بَرَقُ مِنْ شَمَامٍ وَتَهْلَانِ
أُحِثُّ بِهَا شَوْقًا لَكُمْ عَزْمِي الْوَائِي
يُزَجُّ بِهَا فِي نُورِكُمْ عَيْنُ إِنْسَانِي
وَدَّهْرِي عَنِّي دَائِمًا عِطْفَهُ ثَانِ
سَوَافِحُ دَمْعٍ مِنْ شَوْئِنِي هَتَّانِ
بِأَفْيَانِهَا ظِلُّ الْمُنَى وَالْهَوَى دَانِ
نَجِيَّةً مُشْتَاقًا لَهَا الدَّهْرَ حَيْرَانِ

ربوعاً بها تتلو الملائكة العلا
وأول ارضٍ باكرت عرصاتها
وعرس فيها للنبوّة موكب
وأدى بها الروح الأمين رسالة
هنالك فضّ ختمها أشرف ألورى
محمد خير العالمين بأسرها
ومن بشرت بالبعث من قبل كونه
وحكمة هذا الكون لولاه ماست
ولا زخرقت من جنة الخلد أربع
ولا طلعت شمس الهدى غبّ دجية
ولا لحقت بالمدنبيين شفاعنة
له معجزات أخرست كل جاحد
له انشق قرص البدر شقين وارتوى

بماء همى من كفه كل ظمئان
وأنطقت الأوثان نطقاً تبرأت
دعاسرحة عجماً فلبت وأقبلت
وضاءت قصور الشام من نوره الذي

علا كل قطر نازح القطر أو دان

أفانين وحي بين ذكر وقرءان
وطرّزت البطحاً سحاب إيمان
هو البحر طام فوق هضب وغيطان
أفادت بها البشرى مدائح عنوان
وفخر نزار من معدّ ابن عدنان
وسيد أهل الارض والإنس والجان
نوامس كهان وأخبار رهبان
سما ولا غاضت طوافح طوفان
تسبح فيها أدم حور وولدان
تجهم من ديجورها ليل كفران
يدود بها عنهم زباني نيران
وسلت على المرتاب صارم برهان

وقد بهج الأنواء بدعوته التي كست أوجه الغبراء بهجة نيسان

وإن كتاب الله أعظم آية
وعدي على شأو التبليغ بيانه
نبي الهدى من اطلع الحق أنجماً
بعزتها ذل الأكاسرة الألى
وأحوز للدين الحنفي بالظبا
ونفع من سمر القنا السم قيصراً
وأضحت ربوع الكفر والشرك بلقعاً

يناعي الصدا فيهن هاتف شيطان
وأصبت السمنحة تروق نضارة
أياخير أهل الارض بيتاً ومختداً
فمن للقواني أن تحيط بوصفكم
إليك بعثناها أمانني أجذبت
أجرني إذا أبدى الحساب جرائمي
فانت الذي لولا وسائل عزه
عليك سلام الله ما هبت الصبا

بهافتضح المرتاب وابتأس الشاني
فهينات منه سجع قس وسحبان
محي نورها أسداف إفك وبهتان
هم سلبوا تيجانها أهل ساسان
تراث الملوك الصيد من عهد يونان
فجرعه منها مجاجة ثعبان
يُنَاجِي الصَّدَا فِيهِنَّ هَاتِفُ شَيْطَانِ

وَوَجَّهَ الْهَدَى بَادِيَ الصَّبَاحَةِ لِلرَّانِي
وَأَكْرَمَ كُلَّ الْخَلْقِ عَجْمٍ وَعُرْبَانِ
وَلَوْ سَجَلَتْ سَبْقاً مَدَانِحَ حَسَّانِ
لِتُسْقَى بُمَزْنٍ مِنْ أَيْدِيكَ هَتَّانِ
وَأَثْقَلْتَ الْأَوْزَارُ كِفَّةَ مِيزَانِي
لَمَّا فُتِحَتْ أَبْوَابُ عَفْوٍ وَغُفْرَانِ
وَمَا سَتَ عَلَى كُتُبَانِهَا مُلْكُ قُضْبَانِ

وَحَمْلٌ فِي جَيْبِ الْجَنُوبِ تَحِيَّةٌ
إِلَى الْعُمَرَيْنِ صَاحِبَيْكَ كَلِيْنَهَا
وَحَيًّا عَلِيًّا عَرَفَهَا وَأَرِيْجَهَا
إِلَيْكَ رَسُولَ اللَّهِ صَمَّمْتُ عَزْمَةً
وَوَخَّطْتُ مِنْي الْقَلْبَ وَهُوَ مُقَلَّبٌ
فِيَا لَيْتَ شِعْرِي هَلْ أَزُمُّ فَلَانِصِي
وَأُطْوِي أَدِيمَ الْأَرْضِ نَحْوِكَ رَاحِلًا
يُرْنَحُهَا فَرَطُ الْحَنِينِ إِلَى الْحِمَى
وَهَلْ تَمَحَوْنُ عَنِّي خَطَايَا اقْتَرَفْتُهَا
وَمَاذَا عَسَى يَثْنِي عَنَّا نِي وَإِنِّي لِي
إِذَا صَدَّ عَنْ زُورَارِكَ الْبَاسُ وَالْغِنَى
عِمَادِي الَّذِي أَوْطَا السَّمَائِينَ أُخْجِصِي

وَأَوْفَى
عَلَى السَّبْعِ الطَّبَاقِ فَأَذْنَانِي
أَحْلَى سُيُوفًا فِي مَعَاقِدِ تَيْجَانِ
إِذَا اضْطَرَبَ الْحَطِيءُ مِنْ فَوْقِ جُدْرَانِ
تَضَاعَلُ فِي أَخْيَاسِهَا أَسَدُ خَفَانِ
مُتَوَجِّعٌ أَمْلَاكَ الزَّمَانِ وَإِنْ سَطَا
وَقَارِي أَسْوَدِ الْغَابِ بِالصَّيْدِ مِثْلَهَا
يَهْزُبُ إِذَا زَارَ الْبِلَادَ زَيْبِرُهُ

وإن أطلعت غيمَ القتامِ جيوُشه
 صَبَّيْنِ على أرضِ العُدَاةِ صَوَاعِقَا
 كَتَّابُ لَوْ يَغْلُوْنَ رَضَوِي لَصَدَّعْتَ
 عَدِيدَ الحَصَى مِنْ كُلِّ أَرْوَعٍ مُعَلِّمٌ
 إِذَا جَنَّ لَيْلُ الحَرْبِ عَنْهُمْ طَلَى الْعِدَا
 مِنَ اللّاءِ جَرَّعْنَ الْعِدَا غُصَصَ الرَدَى
 وَفَتَحْنَ أَقْطَارَ الْبِلَادِ فَاصْبَحَتْ
 إِمَامُ الْبِرَايَا مِنْ عَلِيٍّ نِجَارُهُ
 دَعَائِمُ إِيمَانٍ وَأَرْكَانُ سُودَدِي
 هُمْ الْعَالَوِيُّونَ الَّذِينَ وَجُوهُهُمْ
 وَهُمْ أَهْلُ بَيْتِ شَيْدِ اللَّهِ مُلْكُهُ
 وَفِيهِمْ أَتَى الذِّكْرُ الْحَكِيمُ وَصَرَّحَتْ

بِفَضْلِهِمْ آيَاتُ ذِكْرٍ وَقُرْءَانُ
 فَنَاهِيكَ مِنْ فَخْرَيْنِ قُرْبَى وَقُرْبَانِ
 يُجَادُ بِأَمْوَالِ الرِّسَالَةِ رِيَّانِ
 مَعَدُّ عَلَى الْعَرَبَاءِ عَادٍ وَقَحْطَانِ
 فُرُوعِ ابْنِ عَمِّ الْمُصْطَفَى وَوَصِيَّهُ
 وَدَوْحَةِ مُجْدٍ مُعْشِبِ الرُّوضِ بِالْعُلَا
 بِمُجْدِهِمُ الْأَعْلَى الصَّرِيحِ تَشَرَّفَتْ

اولائك فخري ان فخرتُ على الورى

ونافس بيتي في ألولا بنت سلمان^١

اذا اقتسم المداح فضل فخارهم وقسمي بالمصور ظاهر رُجحان
امام له في جنبه الدهر ميسم ومن عزه في مفرق الملك تاجان
سما فوق هاهنا النجوم بهمة يحوم بها فوق السموات نسران
وأطلع في أفق المعالي خلافة عليها وشاح من علاه وسنطان
اذا ما احتبى فوق الأسرّة وارتنى على كبرياء الملك نخوة سلطان
توسمت لقمان الحجا وهو ناطق

وشاهدت كسرى العدل في صدر إيوان
وان هزه حرّ الشاء تدفقت أنامله عرفاً تدفق خلجان
أيا ناظر الاسلام شمس بارق المنى وباكر لروض في ذرا المجد فينان
قضى الله في عليك ان تملك الدنيا وتفتحها ما بين سوس وسودان
وأنت تطوي الارض غير مدافع فمن أرض سودان إلى أرض بغداد
وتملأها عدلاً يرف لواءه على الهرمين او على رأس غمدان
حكم هنأت خن العراق بك العلأ وزفت بك البشرى لأطراف عمان
فلو شارفت شرق البلاد سيوفكم أذاك استلابا تاج كسرى وخاقان

١ - يعني به بيت لسان الدين ابن الخطيب السلماي وقد مر في ترجمته ان
ممدوحه المنصور كان يباري به لسان الدين .

ولو نشر الاملاك دهرُك أصبحتُ
وشايحك السفاحُ يقتاد طائعا
فما المجدُ إلا ما رفعت سماكه
وهاتيك اباكارُ القوافي جَلَوْتُها
أتتك أميرَ المؤمنين كأنها
تعاطمنُ حسناً أن يُقالَ شبيها
فلازِلتَ للدُّنيا تحوطُ جهاتِها
ولا زاتِ بالنَّصر العزيزِ مُوزَّراً
عيالاً على عليك ابناهُ مروان
برأيتهُ السَّوداءِ اهلَ خراسان
على عمَدِ الشُّمر الطَّوالِ ومُرَّان
تُغازِلُنَّ الحُورَ في دارِ رِضوان
لَطائِمُ مِسْكٍ أو خَمائِلُ بُستان
فرائِدُ دُرٍّ أو قَلائِدُ عِقيان
والدِّينَ تحميه بِمُلكِ سُلَيْمان
تُقادُ لك الأملاكُ في زِيَّ عُبدان

وللاديب أبي عبد الله محمد بن عبد الله الجزولي يمدحُ السلطان
مولاي اسمعيل العلوي ، وهي أمثلُ ما قيلَ فيه :

مولاي إسمعيلُ يا شمسَ الأورى
ما انتَ الا سَيْفُ حَقٍّ مُنتَضَى
يا مَنْ جَميعُ الكائِناتِ فِدَى له
أَللهُ مِنْ دُونِ البَرِيَّةِ سَلَّه
مَنْ لا يَرى لك طاعةَ فاللهُ قد
اعماه عن طُرُقِ الهدى وأضَلَّه

وللشيخ عبد الواحد بن محمد الشريف البوعناني يُهنِّيه بفتح
العراش :

ألا أبشِّرُ فهذا أَلْفَتْحُ نور
وطيرُ السعدِ نادى حيث غنى
قد انتظمت بعزِّكم الامور
قد انشרכת بفتحكم الصدور

وقد وافقكم الخيرات طراً
 حميتم بيضة الاسلام لما
 وجاهدتم وقاتلتم فانتهم
 واطلعتهم صوارمكم نجوماً
 فانت البدر يوم السلم حسناً
 وفي ثغر العرائش قد تبدى
 لقد كان الملوك فساوموها
 فلما جئتها انقادت وقالت
 ملكت قياد عزتها بذل
 قهرتهم بأبطال ضخام
 فكم رأس^(١) من الكفار امسى
 وكم نحر قلادته رماح
 وكم أسرى وكم قتلى بأرض
 تمر بها الطيور فتنتقيها
 وأضحى كلهم نشاوى
 فبشراكم بهذا الفتح بشرى
 وطاب العيش واتصل السرور
 بعين الحق قد حُرست ثغور
 لدين الله أقماراً تنير
 لدى هيجاء صاحبها كفور
 وفي يوم ألوى أسد هصور
 لقد ركم على الشغرى الظهور
 وراموها فبان لها نفور
 اليك بحق مولانا المصير
 فما أغنى الحصار ولا العبور
 على الهيجاؤ كلهم جسور
 قطع الرأس مجروراً يخور
 وسن الرمح مركزه النحور
 وكم جرحى دماؤهم تفور
 وبات الذنب وهو لها شكور
 على طرب وما شربت خمر
 وبشراكم بما من الغفور

به زادت مَا تُرْكُمْ عَلَوًّا
 أَلَا يَا مَعْشَرَ الْكُفَّارِ هَذَا
 أَلَا يَا أَهْلَ سَبْتَةٍ قَدْ أَنَاكُمْ
 إِذَا مَا جَاءَ سَبْتَةٌ فِي عَشِيٍّ
 وَوَهْرَانُ تَنَادِي كُلَّ يَوْمٍ
 مَتَى يَأْتِي وَيَفْتَحُهَا سَرِيعًا
 فَيَهْزُمُهُمْ وَيَقْتُلُهُمْ وَيَسْبِي
 أَيَا مَوْلَايَ قُمْ وَأَنْهَضْ وَشَمِّرْ
 وَجَاهِدْهُمْ وَحَارِبِهِمْ وَفَرِّقْ
 وَلَا يَمْنَعْ بِفَضْلِ اللَّهِ مِنْهَا
 لِسَانُ الْحَالِ يُنْشَدُ كُلَّ يَوْمٍ
 بِقُرْطُبَةٍ تَنَالُ الْمَجْدَ طَرًّا
 وَذَلِكَمُ بَعُونَ اللَّهِ سَهْلٌ
 أَيَا مَوْلَايَ إِسْمَعِيلُ هَذَا
 يَنَادِيكُمْ بِنَادِيكُمْ وَيَدْعُو
 فَيَا رَبَّ الْبَرِيَّةِ يَا أَلَهِي
 أَتُبُّ هَذَا الْإِمِيرَ بِكُلِّ خَيْرٍ
 وَأَبْقِ الْمَلِكَ فِيهِ وَفِي بَنِيهِ
 وَقَدْ عَظُمَتْ بِهِ لَكُمْ الْأَجُورُ
 يُبِيدُكُمْ وَلَيْسَ لَهُ فُتُورُ
 بِسَيْفِ اللَّهِ سُلْطَانُ وَقُورُ
 تُزَفُّ لَهُ إِذَا كَانَ الْبُكُورُ
 مَتَى يَأْتِي الْإِمَامُ مَتَى يَزُورُ
 وَيَلْحَقُ أَهْلَهَا مِنْهُمْ تُبُورُ
 وَسَيْفُ الْحَقِّ فِي يَدِهِ يَنُورُ
 لَا تَدُلُّسِ فَأَنْتَ لَهَا الْإِمِيرُ
 تُجْجِعُهُمْ فَرُبُّكُمْ النَّصِيرُ
 كَمَا قَدْ قِيلَ بَرٌّ أَوْ بُحُورُ
 وَمَعْنَى الْحَالِ تَقْهَمُهُ الصُّدُورُ
 وَيَأْتِي الْعِزُّ وَالْمَلِكُ الْكَبِيرُ
 وَمِنْ بَرَكَاتِكُمْ أَمْرٌ يَسِيرُ
 عُيَيْدُكُمْ الضَّعِيفُ الْمُسْتَجِيرُ
 دَعَاءُ لَا تُعْيِيهِ الدُّهُورُ
 وَيَا رَحْمَانُ يَا نِعَمَ الْمُجِيرِ
 وَلَا تَجْعَلْ تِجَارَتَهُ تَبُورُ
 وَلَوْ كَرِهَتْ زَيْوُدُ أَوْ عُمُورُ

ونحن رعية نرجو هناء • بالسلطان تنتظم الامور
عليكم من عبيدكم سلام مدي الدنيا يضمخه العبير
يعم جنابكم ما قال صب الا ابشير فهذا الفتح نور

ولعبد الله العلوي الشنقيطي يمدح الأمير محمد العالم ابن
السلطان مولاي اسماعيل :

دع العيس والبيداء تذر عها شطحا وسمها بخور الآل تسبحها سبحا
ولا ترعها الا الذميل فطلما

رعت ناضر القيصوم والشبح والطلحا
ولا تصغر للناهين فيما نويته

وخف حيث يخفي الغش من يظهر النصحا
فكن قمرأ يفري الدجا كل ليلة

ولا تك كالقمري يستغيب الصدحا
وقارض هموم النفس بالسير والسرى

على ثقة بالله في نيلك الربحا
وأمر بساط ابن الشريف محمد

مبيد العدا ذكرا ومبدي الهدى ضبا
فتى يسع الدنيا كما هي صدره فأمسى به صدر الدنيا مندحا
ومن هديه ساوى النهار وليله فأمسى ينير الخافقين كما أضحي

وَمَنْ هُوَ غِثٌ أَخْضَلَ الْأَرْضَ رَوْضَهُ
 وَلَيْثٌ يُحَقِّقُ اللَّهُ لَمْ يُبْقِ رُغْبَهُ
 أَمِيرٌ مُلُوكُ الْكُفْرِ أَضْحُوا لِسَيْفِهِ
 تَزِيدٌ عَلَى الْفَاقَاتِ فَيُنْضَاتُ كَفَّهُ
 فَلَا تَرْمِ التَّشْبِيهِ فِيهِ فَقَدْ جَرَى
 سَعَى وَسَعَى لِلْمَكْرُمَاتِ فَاقْصَرُوا
 وَفَلَقَ فِيهِمْ بَيْضَةَ الْمَجْدِ قَاسِمٌ
 هَتَمَى يَسْتَقِيلُ الْبَحْرَ جُودٌ بَنَانِهِ
 مَسَاعِيهِ فِي الْخُطْبِ الْجَلِيلِ يَرُومُهُ
 صِفَاتٌ كَدُرُّ الْبَحْرِ صَفْوًا وَجْهَهُ
 وَآيَاتُ عِلْمٍ أَغْمَدَ الْجَهْلَ نَوْرُهَا
 وَرَأَى يُرِيهِ الْيَوْمَ مَا فِي حَشَا غَدٍ
 وَبَشَرٌ نُحْيَا عِلْمَ الصَّبْحِ مَا السَّيِّئُ
 وَتَأْلِيْفُهُ أَشْتَاتَ كُلِّ فَضِيلَةٍ
 كَفَانَا اخْتِاذَ الْفَالِ فِي الْقَصْدِ يُمْنُهُ
 مَهِيْبٌ يَخُوفُ بَطْشُهُ تَحْتَ حِلْمِهِ
 فَاقْدَمَ حَتَّى فَارَقَ الْجَبْنَ صَافِرٌ^(٢)

فَلَا يَظْمَأُ الْآوِي إِلَيْهِ وَلَا يَضْحَى
 عُوَاءٌ لِكَلْبِ الثَّرَاهَاتِ وَلَا نَبْحَا
 كَمَا تَتَبَعِي الذَّبْحَ فِي عِيدِهَا الْأَضْحَى
 فَيَغْرَقُ فِي التِّيَّارِ مَنْ يَأْمَلُ النَّضْحَا
 مَعَ الظَّاهِرِ الْمُدْنِي إِلَى الشُّكْرِ الْمُلْحَا
 وَلَمْ يَرْضَ حَتَّى اسْتَكْمَلَ الْكَرَمَ الْقُحَا
 فَنَاولَهُمْ قَيْضًا^(١) وَنَاولَهُ الْمُحَا
 عَلَى حَالَةٍ اسْتِكْثَارِ حَاتِمِ الرَّشْحَا
 كَأَمَالٍ مَنْ يَرُجُوهُ تَصْحَبُ النَّجْحَا
 حَسَابًا فَمَنْ يَأْتِي عَلَى مَائِهِ نَزْحَا
 وَغَايَاتُ جِدٍّ لَيْسَ تَطْلُبُهَا مَزْحَا
 وَيَكْشِفُ عَنْهُ مِنْ دُجَا لَيْلِهِ جُنْحَا
 وَقَبْضُ أَرَى النَّارَ التَّاجِجَ وَاللَّفْحَا
 وَهَكَرُمَةٍ غَرَاءَ تُعْجِزُنَا شَرْحَا
 فَلَسْنَا نَخْطُ الرَّمْلَ أَوْ نُضْرِبُ الْقِدْحَا
 عَفْوٌ يَرَى إِلَّا عَنِ الْبَاطِلِ الصَّفْحَا
 وَجَادَ إِلَى أَنْ عَافَ مَادِرُ^(٣) الشُّحَا

١ - القَيْضُ قَشْرُ الْبَيْضِ .

٢ - صَافِرٌ وَمَادِرٌ مَثَلَانِ يَضْرِبَانِ فِي الْجَبْنِ وَالْبَخْلِ .

وَلَمْ تُذْعِنِ الْأَعْدَاءُ مَخْضَ مَوَدَّةٍ إِلَيْهِ وَلَكِنْ إِنَّمَا كَرِهُوا الْقَرَحًا
رَأَوْا ضَيْغَمًا يُعْطِي الْحُرُوبَ حُقُوقَهَا

وإن تَضِيعُ الْأَوْزَارَ يُبْرِمُ لَهَا صَلَاحًا
وَيَسْتَعْرِقُ الْأَوْقَاتَ فِي الْجِدِّ كُلَّهَا
وَيُؤَاوِلُ حَبْلَ الْجِهَادِ جِيَادَهُ
مُعَادِيهِ مَعْطَى بِالْحَيَاةِ مَنِيَّةً
وَيُصَنِّعُ مَا يَرْفَعُ الضَّرْبَ وَالنَّطْحَا
إِلَى الْفَلَكَ الْأَعْلَى فَإِنَّكَ لَا تُلْحَى
لِإِحْرَازِكَ النُّقْطَاتِ وَالْخَطِّ وَالسَّطْحَا
فَكَمْ مِنْ حَدِيثٍ كَانَ يُسْنَدُ لِلنَّدَى
فَأَعْطَيْتَنِي الْأَعْيَانَ وَالْعَيْنَ وَالْكَسَا

وَيُضَرُّ الطُّبَا وَالتُّوقُ وَالْخَيْلُ وَالطَّلْحَا
فَلَا زِلْتَ لِلْإِسْلَامِ عِيدًا مُفَضَّلًا
أَبُوكَ لِلْحُكْمِ الشَّرْعِ وَلَاكَ عَهْدُهُ
فَلَمْ تَلْقَ كَدًّا لِلسُّؤَالِ وَلَا كَدْحًا
وَأَعْطَاكَ إِذْ لَيْسَ غَيْرُكَ أَهْلُهُ
وَلِلْعَقْلِ نُورٌ مَيِّزَ الْحُسْنِ وَالْقُبْحَا
كَفَى دَرَّةً فَخْرًا تَجَلِّيكَ سِمْطُهُ
وَمَنْعُكَ تِلْكَ الْمَعْرَةَ وَالْأَقْدَحَا

١ - السعانيين والفسح من أعياد النصارى ويقال في اولها السعانيين بالشين .

فأهدى إليك الدهرُ بَلْقَيْسَ مُلْكِهِ

وأبدى لك الكرسيَّ والعرشَ والصرحا

وولأك ربُّ العرشِ مُلكَ بَقَاعِهَا

إليك بها يا كَعْبَةَ المجدِ كاعباً

إذا شَهِدْتَ زَكَى الأَعَادِي حَديثَهَا

أَكَلَفَهَا فِرْضَ المَحَالِ أَدَاءَهَا

فخُذْهَا ابْنَةَ الحَاءِ الَّتِي الحمدُ مُبْتَدَأُهَا

ولأبي عَلِيٍّ اليُوسُيِّ فِي الشَّيْخِ ابنِ نَاصِرٍ مِنْ ذَالِيَتِهِ الكُبْرَى :

كَمَا سُنَّةٌ أَحْيَيْتَ بَعْدَ إِمَاتِهِ

وَأَقَيْتَ وَالبَدْعُ الحَوَادِثُ قَدْ دَجَتْ

وَالْبَيْنُ مَطْمُوسُ المَعَالِمِ وَالهْدَى

وَالسُّنَّةُ الغَرَاءُ قَفَرٌ مُوَحِّشٌ

نَشِبَتْ بِضَبْعَيْهَا تَحَالِبٌ ضَيْغَمٌ

وَتَحَا المَحَاقُ بُدُورَهَا فَتَكَنَّفَتْ

وَعَفَتْ أَعَاصِيرُ الهَوَى آثارَهَا

وَاسْتَوَقَّتْ أَيْدِي الغَوَايَةِ وَالهَوَى

وَصَلَالَةٍ أَخَذْتَ بَعْدَ تَوَقُّدِ

ظُلُمَاتِهَا وَالجَهْلُ وَآرِي الأَزُنْدِ

بِيضُ الأَنُوقِ وَلُقْظَةٌ لَمْ تُنْشَدْ

مَا فِيهِ مِنْ هَادٍ وَلَا مِنْ مُهْتَدٍ

مِنْ مَأْلَفِ العَادَاتِ عَادٍ مِخْرَدٍ^١

مُقَلَّ الثَّهْيِ ظُلُمَاءُ لَيْلٍ سَرْمَدٍ

فَاسْتَبْهَمَتْ عَنْ نَاشِدٍ أَوْ مُنْشِدٍ

بِأَزِمَةِ الأَلْبَابِ ، شُلَّتْ مِنْ يَدِ^٢

١ - أي معتدٍ غاضبٍ من الحرد وهو الغضب .

٢ - جمع يد كعصا وععي يدعو عليها بالشلل .

والْعِلْمُ ضَاحٍ ظِلُّهُ^١ وَصَدَى الثَّقَى
 قَدْ صَمَّ^٢ وَالْغَى اعْتَلَى بِمَجْنَدٍ^٣
 فَكَشَفَتْ جِلْبَابَ الْجَمَالَةِ عَنْ سَنَا
 بَدْرٍ لِسَائِمَةِ الضَّلَالِ مُبَدَّدٍ
 بَلْ ضَوْءُ صُبْحِ بَلِّ نَهَارٍ نَاسِخٍ
 آيَاتِهِ لَيْلَ الشُّكُوكِ الزُّرْدِ^٤
 ولابن زاكور يمدح الشيخ علي بركة :

إِلَى مَ فَوَّادِي يَذُوبُ زَفِيرَا
 عَرَانِي مِنَ الْوَجْدِ مَا قَدْ نَفَى
 فَمِنْ رِقَّةٍ قَدْ حَكَيْتُ نَسِيمَا
 وَشَيْبَنِي وَالشَّبَابُ نَضِير
 وَمَنْ لَسَعَتْهُ أَفَاعِي الصَّدُودِ
 فَمَاذَا عَلَيَّ وَدَّهْمَ لَوْ دَنَا
 وَمَاذَا عَلَيَّ عَاذِلِي لَوْ غَدَا
 فَيَا عَاذِلِي لَا تَكُنْ عَاذِرِي
 وَيَا هَاجِرِي لَا تَكُنْ وَاصِلِي
 فَمَذْ شَمْتُ بَرَقَ الْعُلَا وَالْهُوَى
 لَقَدْ كِدْتُ أَقْضِي مُعْنَى حَسِيرَا
 كَرَايَ وَأَذْكِي حَشَايَ سَعِيرَا
 وَمَنْ دَنَفَ قَدْ حَكَيْتُ نَقِيرَا
 صُدُودُ الْأَلَى أَوْدَعُونِي زَفِيرَا
 فَأَجْدِرُ بِهِ أَنْ يَشِيبَ صَغِيرَا
 وَمَا ضَرَّ لَوْ نَعَشُونِي يَسِيرَا
 عَذِيرَا لِمَنْ كَانَ مِثْلِي أُسِيرَا
 وَلَسْتُ أَوْمَلُ مِنْكَ عَذِيرَا
 إِلَى أَنْ تُوَازِي الْحَصَاةُ ثَبِيرَا
 لَدَى بَرَكَاتِ الْعُلَا مُسْتَطِيرَا

١ - اي ذاهب .

٢ - اي انعدم .

٣ - اي بجيش مجند .

٤ - اي الخائفة .

سَلَوْتُكَ فَأُنْجِبَ لَيْلُ الْأَسَى
فَلَا مُقَلَّتِي تَسْتَهْلُ دَمًا
وَمَنْ شَامَ بَرَقَ الْعَلَا مُسْتَطِيرًا
وَهَانَ عَلَيَّ الَّذِي قَدْ لَقِيتُ
وَأَقْذَنِي مِنْ ظَلَامِ الْهَوَى
إِمَامُ تَسْرُبَلٍ بِالْمَكْرُمَاتِ
وَطَاوَلَ بَذَرَ السَّمَاءِ مُنِيرًا
وَأَضْحَى لِكَأْسِ الْمَعَالِي مُدِيرًا
تَوَاضَعَ حَامًا فَزَادَ ارْتِقَاءً
وَمَنْ رَامَ إِخْفَاءَ بَذْرِ الدِّيَاجِي
تَنَاهَتْ مَذَاهِبُهُ فِي الْعَلَا
فَطَوَّرَا تَرَاهُ لِقَوْمٍ بَشِيرًا
وَكَاثِنُ تَرَاهُ يَفُكُّ الْمَعْمَى
إِلَى رَقَّةٍ لَوْ حَوَاهَا النَّسِيمُ
وَتَظْمٍ يُنْسِيكَ شِعْرَ جَرِيرٍ
وَوَجْهَ جَلَى الْبَشْرِ عَنْهُ الْوُجُومُ
تُضِيءُ الدِّيَاجِيرَ غُرَّتُهُ
أَلَا هَلْ أَتَى مَعْشَرِي أَنَّنِي
وَأَسْفَرَ صُبْحُ الشُّرُورِ بَشِيرًا
وَلَا كَبِدِي تَتَدَاعَى فُطُورًا
فَلَا يَغْدَمَنَّ دِيْدًا وَحُبُورًا
لَمَّا سَقَانِي نَدَاهُ نَمِيرًا
وَكَانَ لِقَلْبِي الْمَعْنَى مُجِيرًا
وَأَرْخَى إِزَارَ الْعَفَافِ كَبِيرًا
وَسَاجَلَ قَطَرَ الْغَمَامِ غَزِيرًا
وَأَمْسَى لِرَوْضِ الْعُلُومِ سَمِيرًا
وَرَامَ خَفَاءَ فَزَادَ ظُهُورًا
بِجُنْحٍ دُجَى زَادَ نُورًا كَثِيرًا
فَلَيْسَ يُرَى لِسَوَاهَا ظَهِيرًا
وَطَوَّرَا تَرَاهُ لِقَوْمٍ نَذِيرًا
وَيُوضِحُ مَا كَانَ صَعْبًا عَسِيرًا
لَمَّا قَصَفَ الدَّهْرُ غُضْنَأَ نَضِيرًا
إِذَا أَنْتَ عَايَنْتَ مِنْهُ سُطُورًا
فَلَيْسَ يُرَى أَبَدًا قَمَطَرِيرًا
فَتَحْسِبُهَا قَبَسًا مُسْتَنِيرًا
عَلِقْتُ بِطَوَانٍ عِلْقًا خَطِيرًا

وَأَوَيْتُ مِنْهَا إِلَى جَنَّةٍ فَلَا شَمْسَ فِيهَا وَلَا زَمْهَرِيرًا
لَدَى عَالِمٍ قَدْ حَوَى عَالَمًا وَحَبْرَ تَضَمَّنَ خَلْقًا كَثِيرًا
وَالْخَفَاءَ مِنْ مَخَاسِينِهِ بِرُودًا حَكَتْ سُندُسًا وَحَرِيرًا
وَأَسْرَجَهَا بِسِرَاجِ الْهُدَى وَكَمْ مَكَثَتْ قَبْلَ تَحْكِي قُبُورًا
فَلَا نَجْدَ إِلَّا اسْتَطَارَ سَنًا وَلَا غُورَ إِلَّا تَلَأَلَا نُورًا
وَلَا غُصْنَ إِلَّا تَشَنَّى ارْتِيَا حَا وَلَا طَيْرَ إِلَّا تَغْنَى سُورًا
وَضَاءَ سَنَاهَا وَضَاعَ شَذَاهَا فَشِمْتَ سَنًا وَشِمْتَ عَبِيرًا
إِمَامَ الْبُورَى بِشَفِيعِ الْبُورَى أَصْحَ لِنِظَامِي وَكُنْ لِي عَذِيرًا
وَأُسْبِلْ عَلَيْهِ بُرُودَ الْقَبُولِ فَلَسْتُ حَبِيبًا وَلَسْتُ جَرِيرًا
وَهَبْنِي كَذَاكَ فَمَنْ لِي بِمَا أَحَلَّنِي بِهِ مَجْدَكَ الْمُسْتَنِيرَا
وَمَنْ أَرْهَقْتَهُ خُطُوبُ الدُّنَا فَكَيْفَ يَحُوكُ الْقَرِيبُ الضَّيْرَا
فَعُذْرًا لِمَنْ خَانَهُ دَهْرُهُ وَأَخْنَى عَلَيْهِ الزَّمَانُ مُغِيرَا
وَدُونِكَ مِنِّي سَلَامٌ كَرِيمٌ يُفَاوِجُ عَرْفَهُ رَوْضًا مَطِيرَا

وللقاضي ابن طاهر الهواري يمدح أبا حفص الفاسي :

طَابَتْ بِطِيبِ حَيَاتِكَ الْأَعْمَارُ وَجَرَتْ بِرِفْعَةِ قَدْرِكَ الْأَقْدَارُ
وَعَلَا عَلَى الْجُوزَاءِ أَتْحَافُكَ الَّذِي تَصُبُّوْا إِلَى تَقْيِيلِهِ الْأَحْرَارُ
وَسَمَتْ بِكَ الْعُلِيَاءُ فَوْقَ مَنَازِلِ مِنْ دُونِهَا الْإِفْلَاكُ وَالْأَدْوَارُ
وَجَلَوْتَ فِي أَفْقِ السِّيَادَةِ غُرَّةً تَعْنُو لِجَهَّةِ حُسْنِهَا الْأَقْمَارُ

وَأَتَتْ بِكَ الْإِيَّامُ عِلْقًا طَالَمَا
سَعِدَتْ بِكَ الْإِيَّامُ وَابْتَهَجَ الْوَرَى
وَقَضَى لَكَ الرَّحْمَنُ أَنَّكَ مُخْمِلٌ
حَلَاكَ بِالْعِلْمِ الشَّرِيفِ فَأُشْرَقَتْ
أَحْيَيْتَ رَوْضَ فَنُونِهِنَّ بُعِيدَمَا
وَجَلُوتَ مِنْهُ عَرَائِسَ الْفِكْرِ الَّتِي
وَسَرَتْ بِهَيْمَتِكَ الْمَعَارِفُ فِي الْوَرَى
وَبَدَتْ بِحُسْنِ بَيَانِكَ الْحُكْمَ الَّتِي
لَكُمْ التَّقْدِمُ فِي الْوَرَى سِوَاكُمْ
هَيْهَاتَ سِرُّ اللَّهِ أُوْدِعَ فِيكُمْ
فَلَيْتَ تَلَوْتَ السَّابِقِينَ فَإِنَّمَا
أَنْشَأْتُ إِنْخِبَارِي بِوَصْفِكَ مَادِحًا
مَنْ لِي بِإِحْصَاءِ الثَّنَاءِ عَلَى أَمْرِي
أَنِّي لِمِثْلِي أَنْ يُحِيطَ بِوَصْفِهِ
خُذْهَا أَبَا حَفْصٍ إِلَيْكَ مَدِيحَةً
وَاللَّهُ جَلَّ ثَنَاؤُهُ يُؤَلِّيكَ مِنْ
وَعَلَيْكَ يَا عَلَمَ الْهُدَاةِ تَحِيَّةٌ
مَارَّ نَحْتِ أَيْدِي الْعَصَابُ قَضَبَ الرُّبَا

ضَنْتَ بِهِ فِيمَا مَضَى الْأَعْصَارِ
وَرَقَتْ بِغُرَّةٍ وَجْهَكَ الْأُمُصَارِ
بِحَمِيلِ ذِكْرِكَ مَنْ إِلَيْهِ يُشَارُ
بِحُلِيِّكَ الْآفَاقُ وَالْإِقْطَارُ
عَفَتِ الْمَعَالِمُ مِنْهُ وَالْآثَارُ
تَخْتَالُ مِنْهَا أَلْعُونُ وَالْأَبْكَارُ
وَجَلَّتْ بِنُورِ فَهْمِكَ الْأَسْرَارُ
نَطَقَتْ بِهَا مِنْ قَبْلِكَ الْأَحْبَارُ
يُعْزَى لَهُ التَّقْصِيرُ وَالْإِقْصَارُ
وَاللَّهُ يَفْعَلُ كُلَّ مَا يَخْتَارُ
أَنْتَ الَّذِي تَخْتَارُهُ الْأَنْظَارُ
فَزَهَا بِكَ الْإِنْشَاءُ وَالْإِنْخِبَارُ
شَرُفَتْ لِحْسَنِ مَدِيحِهِ الْأَشْعَارُ
وَلَوْ أَنَّهَ فِي مَدْحِهِ مِكَثَارُ
مِنْ صَفْوِ وَدِّ لَمْ يَشْبِهْ غِيَارُ
عِزُّ الْمَكَانَةِ فَوْقَ مَا تَخْتَارُ
تَحْكِي ذِكْرِي نَسِيمَهَا الْأَزْهَارُ
وَتَرَنَّمَتْ فِي أَيْكهَا الْأَطْيَارُ

والعلامة الطيّب بن صالح الغماري الرّزّيني في السلطان مولاي
سليمان العلوي :

كَمْ بِالصَّرِيمةِ^١ مِنْ جُذَيْلٍ^(٢) عَبَقَرِي
قَذَفْتُ بِهِ قَذْفُ النُّوَى قَلْبَ أَفْلا
فَرْدًا كَسِيفَ بِلِ كَسَنِهِمْ قَدْ هَفَا
يُضْحِي مَعَ الْكَذْرِي وَيُمْسِي تَارَةً
فِي اللَّيْلَةِ الظَّامَاءِ يَعْتَسِفُ الْقَضَا
يَرْمِي. بِهَمَّتِهِ مَخَاطَرَ دُونَهَا
كَلِيَوْمٌ مَوْلَانَا سَلِيانَ الَّذِي
هُوَ فِي مَلُوكِ الْأَرْضِ غَيْرُ مُدَافِعٍ
عِلْمًا وَحِلْمًا فِي مَقَامِ تَحْكُمِ
مَا إِنْ يُرَى إِلَّا بِصَهْوَةٍ سَابِحٍ
لَمْ يَخْلُ مِنْ ضَرْبِ الْجِيُوشِ بَعْضُهَا
وَإِذَا أَسْتَرَا حَ النَّاسُ فِي دَعَةٍ لَهُمْ
يَفْرِي فَلَا يُلَوِي عَلَى مُتَعَذِّرٍ
مُتَعَجِّرًا^٢ ثَوْبَ الظَّلَامِ الْأَعْجَرِ
رِيشُ الزَّمَاعِ بِهِ إِلَى مُسْتَنْفَرٍ
ضَيْفًا لِسِرْحَانِ الْفَيَا فِي الْمَقْفَرِ
وَكَاثِمًا يَمْشِي بَلِيلُ مُقْمِرٍ
هَمُّ الزَّمَانِ لِغَيْرِهِ لَمْ تَخْطُرِ
قَالَ السَّاحُ عَلَيْهِ أَتْنِي خَنْصِرِي
فِيهِمْ بِمَنْزِلٍ مُقَلَّةٍ مِنْ مَحْجَرِ
وَشَهَانًا تَزْكُو بِطِيبِ الْعُنْصُرِ
يَمْشِي الْعَرَضَنَةُ^(٤) أَوْ بِصَهْوَةٍ مِنْبَرٍ
إِلَّا لَدَقَّةَ مُصْحَفٍ أَوْ دَفْتَرٍ
لَمْ يَخْلُ مِنْهُمْ فِي الْجِهَادِ الْأَكْبَرِ

١ - اسم مكان .

٢ - من قولهم هو جذيلها المحكك اي الملتجأ اليه في الامور .

٣ - اي مشتلاً .

٤ - هي مشية فيها نشاط .

وَتَرَاهُ يَسْتَقْصِي وَكَانَ وَظِيفُ مَنْ
 مَا زَالَ يَعْتَدُّ الْعَتَادَ مُشْمَرًا
 تَلْقَاهُ يَوْمَ الرُّوعِ فَوْقَ مُطَهِّمٍ
 مُتَقَلِّدًا سَيْفَ الْحِمَاسَةِ سَافِرًا
 وَالْخَطُّ قَدْ طَافَتْ بِهِ خُرْصَانُهَا
 وَالْخَيْلُ تَمْرَحُ فِي الْأَعِنَّةِ شُرْبًا
 حَتَّى إِذَا أَعْتَجَرَ الْعَوَالِي وَالظُّبَا
 وَأَسِنَّةُ الْمُرَّانِ فِي أَرْجَائِهِ
 وَبَدَأَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ بِمِقْنَبٍ
 عَادَتْ رِعِيَّتُهُ بِهِ وَتَأَنَّقَتْ
 مَا كَادَ سِرْحَانُ الْفَلَاحِ مِنْ عَدْلِهِ
 أَلْقَوْا يَا قَلِيدَ الْأُمُورِ وَأَصْبَحُوا
 يُهْدُونَ مِنْ بَشْرِ الثَّنَاءِ لَهُ شَذَا
 نَذَرِيهِ بَيْنَ مُقَصِّرٍ أَوْ مُقَصِّرٍ
 مِنْ حَزْمِهِ لِلْحَادِثِ الْمُتَنَمِّرِ
 يَخْتَالُ بَيْنَ أَسِنَّةٍ وَسَنُورٍ^(١)
 لَكِنَّهُ مِنْ بَأْسِهِ فِي مِغْفَرٍ
 مِنْ كُلِّ أَسْمَرٍ ذَابِلٍ مُتَاطِرٍ
 يَعُثْرُنَ فِي قِصْدٍ^(٢) أَلْقَانَا الْمُتَكَسِّرِ
 وَالشَّمْسُ جَلَّلَهَا دُخَانُ الْعِشِيرِ^(٣)
 كَالشَّهْبِ تَلْمَعُ فِي خِلَالِ كَنْهَوْرٍ^(٤)
 زَجَلٍ كَلَيْثٍ فِي الْهِيَاجِ غَضَنْفَرٍ
 مِنْ عَدْلِهِ فِي ظِلِّ عَيْشٍ أَخْضَرَ
 يَغْدُو بَظْنِي بِالصَّرِيَةِ أَغْفَرٍ
 يَرْدُونَ مَاءَ الْأَمْنِ غَيْرَ مُكَدَّرٍ
 وَكَأَنَّمَا فَتَقُوا لَطَائِمَ^(٥) عَنَبِرٍ

١ - أي سلاح .

٢ - جمع قصدة وهي القطعة .

٣ - أي العجاج .

٤ - الكنهور: السحاب المتراكم .

٥ - جمع لطيمة وهي نفيجة المسك

ولأبي عبد الله أكنسوس في تهنئة السلطان مولاي عبد الرحمن
العلوي بالمولد الشريف :

عَهْدِي بِكُمْ جِيرةَ الْبَطْحَاءِ مَوْضُول
أَشِيمُ بَرَقاً سَرَى مِنْ نَحْوِ رَبِّكُمْ
فِيْلِبُ الشُّوقِ أَحْشَاءُ مُرَوَّعةً
يَالَيْتَ شِعْرِي وَالْأَيَّامُ شِيَمَتَهَا
هَلْ مِنْ وَفَاءٍ بَوَّعِدَ مِنْ أَحَبَّتْنَا
وَهَلْ تَرَى مُقْلَتِي دَاراً عَهْدَتْ بِهَا
شَقِيتُ حَبِّهِمْ قَدْ مَأَى عَلَى ظَمَأٍ
يَا حَبْذاً فِي هَوَاهُمْ مَا غَدَوْتُ بِهِ
لَا أَجْتَلِي أَحَداً إِلَّا تَمَثَّلَ لِي
وَذَاكَ أَنْ قَدْ سَرَى فِي الْكَوْنِ سِرُّهُمْ
خَوَالِذِي سَجَدْتُ فِي شَطْرِ كَعْبَتِهِ
لَقَدْ سَرَى سِرْيَانُ الرُّوحِ فِي جَسَدِي
يَا لَأَيْمِي إِنَّ فَرْطَ الْحُبِّ مَعَذِرَتِي
فَكَيْفَ أَصْغِي إِلَى اللَّاحِينَ إِنْ عَذَلُوا

فَعَاذِلِي الْمُتَبَلَّى بِالْحُبِّ مَعْدُول
نَعَمْ فَلْيَكِبْدُ تَهْتَاكُ لَوْعَتَهَا
إِذَا دَنَا مِنْ رَيْعِ الثُّورِ تَجْلِيل

شهرٌ تشرّف بالإسلام حَقَّ له بين المَواَسمِ تعظيمٌ وتبجيل
 شهرٌ تَعَاظَمَ مَجْدًا أَن يُمَاتِلَهُ عيدٌ ولا زَمَنٌ بِالْفَضْلِ مَشْمُول
 شهرٌ غدا غُرَّةً في كل مَكْرُمَةٍ وأين من غُرَّةٍ في الْفَخْرِ تَحْجِيل
 فيه تَكُونُ كَوْنُ الْفَضْلِ وَاِنْفَتَحَتْ ابوابُه وَأَنَا الْعِزُّ وَالسُّوْل
 فيه تَفْجَرُ كُلُّ الْخَيْرِ مُنْبَجِسًا على الْخَلَائِقِ طَرًا فهو مَبْذُول
 فيه الْبَشَائِرُ قَدْ لَاحَتْ أَشْعَنُهَا فيه تَعَيَّنَ لِلْخَيْرَاتِ تَسْهِيل
 وَزُخْرِفَتْ لِعِبَادِ اللَّهِ جَنَّتُهُ وَأَسْتَبْشَرَ الْمَلَأُ الْأَعْلَى وَجَبْرِيل
 في لَيْلَةِ الْمَوْلِدِ الْأَسْمَى وَشُخِّرَتْهُ يَا أُمَّةَ سَعِدَتْ بِالْمُصْطَفَى قُولُوا
 قُولُوا وَتَسْهُوا عَلَى الْأَكْوَانِ وَافْتَخِرُوا

فَقُولُكُمْ لِمَكَانِ الصَّدَقِ مَقْبُول

أَهْلًا بِمَوْلِدِ خَيْرِ الْمُرْسَلِينَ وَمَنْ له عَلَى الْكُلِّ تَسْيِيدٌ وَتَمْوِيلُ
 بِمَوْلِدِ الصَّفْوَةِ الْأَعْلَى الرَّسُولِ إِلَى كُلِّ الْوُجُودِ وَمَا لِلْحَقِّ تَبْدِيلُ
 سِرِّ الْعَوَالِمِ وَالْأَرْوَاحِ غُنْصُهَا مَنْ ذِكْرُهُ فِي قَدِيمِ الذِّكْرِ مَنْقُولُ
 أَلْوَا حُ مُوسَى بْنِ عِمْرَانَ مُبَشِّرَةٌ بَيْعُهُ وَبِقُرْبِ الْبَعْثِ إِنْجِيلُ
 يَا مَنْ بَدَأَ رُوحَهُ لِلْخَلْقِ مَبْتَدَأًا وَجِسْمَهُ لِمَنَاطِ الْوَحْيِ تَكْمِيلُ
 يَا دَوْحَةَ الْحَقِّ يَا مَجْلَى الْحَمْدِ يَا مَنْ نُطْقُهُ كُلُّهُ وَحْيٌ وَتَزْيِيلُ
 لَكَ اللَّوَاهُ لَوَاهُ الْحَمْدِ يَشْمَلُنَا

لك الشفاعةُ والحوضُ المَعْدُّ لنا
 لك المَقَامُ الَّذِي قد عَزَّ مَدْرَكُهُ
 إن لم يُطَقْ حَمَلُهَا موسى الكليمُ فقد
 لك الوسيلةُ والجاهُ الْعَظِيمُ إذا
 يا من يُخَلِّصُ مَنْ أَضْحَى لِمَدْحَتِهِ
 هَذي مَدَانِيحُ رَاجٍ أَنْ يَكُونَ لَهُ
 صَلَّى عَلَيْكَ مُفِيضُ الْجُودِ مِنْكَ عَلَى
 وَالْآلِ وَالصَّخْبِ مَا زَمَّتْ عَلَى مَرَحٍ
 يَا حَاشِرَ الْخَلْقِ يَا مَاحِي الضَّلَالِ وَيَا
 يَا وَاضِعَ الْإِصْرِ عَنَّا فِي شَرِيعَتِهِ
 تَرَكْتَنَا وَسَبِيلُ الْحَقِّ وَاضِحَةٌ
 بِآلِ بَيْتِكَ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ لَنَا
 هَذَا حَفِيدُكَ سُلْطَانُ الْمُلُوكِ أَبُو
 سَيْبِ الْخَلَائِقِ بَانِي الْعِزِّ فِي شَرَفِ
 قَرْمٍ تَدَارَكْتَ الْعُلِيَّا سَعَادَتُهُ
 مَا زَالَ مُجْتَهِدًا فِي اللَّهِ مُنْتَصِرًا
 حَتَّى اسْتَنَارَتْ نَجُومٌ لِلْهُدَى فَلَهَا
 فَهُوَ الْمَوْمَلُ لِلسَّمْحَا يُجَدِّدُهَا

لك الْجَنَانِ جِنَانُ الْخُلْدِ تَنْفِيلُ
 بَرُوءِيَّةٍ مَالَهَا فِي الصَّدَقِ تَأْوِيلُ
 عَايِنْتَ رَبَّكَ وَالتَّقْدِيسَ مَسْدُولُ
 مَا أَنْتَ فَوْقَ نِطَاقِ الْعَرْشِ مَحْمُولُ
 عَلَى جَنَابِ كَرِيمٍ مِنْهُ تَطْفِيلُ
 مِنَ الرُّسُولِ بِإِذْنِ اللَّهِ تَنْزِيلُ
 كُلِّ الْخَلَائِقِ وَالتَّعْمِيمِ تَسْجِيلُ
 إِلَى زِيَارَتِكَ الْعِيسَى الْمَرَايِيلُ
 مَنْ مَدَحَهُ لِرُضَى الرَّحْمَنِ تَوْسِيلُ
 فَضْلًا وَمَنْ قَبَّلَنَا بِالْإِصْرِ مَغُولُ
 أَعْلَامُهَا وَحُيَا الدِّينِ مَغْسُولُ
 كُلِّ اعْتِصَامٍ إِذَا مَا اغْتَالَتِ الْغُولُ
 زَيْدُ أَمَامٍ بِنَصْرِ الدِّينِ مَشْغُولُ
 عَالٍ عَلَى تَجْدِيدِهِ لِلنَّاسِ تَعْوِيلُ
 لَمَّا غَدَا وَإِلَيْهِ الْأَمْرُ مَوْكُولُ
 بِاللَّهِ وَالسَّيْفُ فِي يَمِينِهِ مَسْلُوكُ
 وَالْحَمْدُ لِلَّهِ تَقْوِيمُ وَتَعْدِيلُ
 مِنْ بَعْدِ مَا عَزَّ لِلتَّجْدِيدِ تَأْهِيلُ

وَهُوَ الَّذِي سُنَّةُ الْمُخْتَارِ قَدْ حَيَّيْتُ
 وَهُوَ الْمُوَيَّدُ بِالْإِسْعَادِ هِمَّتُهُ
 فَفَضْلُهُ رَوْضَةٌ غَنَاءُ دَانِيَةٌ
 وَبَأْسُهُ فِي دِيَارِ الْكُفْرِ صَاعِقَةٌ
 يَا خِزْيَ مَنْ حَادَّ عَنْ مَنَاجِ طَاعَتِهِ
 إِنْ سَارَ يَوْمًا إِلَى الْهِجَاءِ تَتَّبِعُهُ
 مِنْ كُلِّ أَرْوَاعٍ فِي إِقْدَامِهِ بَطْرُ
 يَجْرُهَا كَعْدِيدِ الطَّيْسِ عَابِسَةٌ
 يُعْنَى بِهِ النَّصْرُ لَا يَنْفَكُ يَلْزَمُهُ
 وَعِزُّهُ نَاقِذٌ لَا شَيْءَ يَحْجُبُهُ
 وَتِلْكَ سُنَّةُ رَبِّي فِي عَزَائِمِهِ
 وَلِلْسَعَادَةِ أَسْبَابٌ مَقْدَرَةٌ
 مِنْ أَسْرَةِ زَيْنِ الْأَقْطَارِ مُلْكُهُمْ
 بَنُو عَلِيٍّ أَدَامَ اللَّهُ عِزَّهُمْ
 يَا أَيُّهَا الْمَلِكُ الْأَتَقَى الْحَيْطُ بِهِ
 بَقِيَتْ لِلْمَوْلِدِ الْمَبْرُورِ تَشْهَدُهُ
 بِهِ وَقَدْ سَامَهَا وَهْنٌ وَتَعْطِيلُ
 لِبْنِيَّةِ الْعِزِّ تَشِيدُ وَتَطْوِيلُ
 قُطُوفُهَا ، وَجَنَى كَفِّهِ مَغْسُولُ
 فِيهَا لِحْزَبِ ذَوِي الْأَهْوَاءِ تَنْكِيلُ
 وَيُلْمُهُ إِنَّهُ وَاللَّهِ مُشْكُولُ
 أَجْنَادُ جُرْدِ أَبَايِلُ أَبَايِلُ
 وَسَيْفُهُ مِنْ قِرَاعِ الْهَامِ مَفْلُولُ
 وَمَا لَهُ غَيْرُ وَجْهِهِ اللَّهُ مَأْمُولُ
 كَأَنَّهُ عِلَّةُ وَالنَّصْرِ مَعْلُولُ
 فَكُلُّ مَا يَبْتَغِي فِي الْحَيْنِ مَفْعُولُ
 وَمَا لِسُنَّةِ رَبِّ النَّاسِ تَحْوِيلُ
 فِي سَابِقِ الْعِلْمِ لَا كَسْبٌ وَتَحْصِيلُ
 كَأَنَّ مُلْكَهُمْ بَاجٌ وَإِكْلِيلُ
 فَهُمْ لِمَعْرَبِنَا عِزٌّ وَتَفْضِيلُ
 مِنَ الْجَلَالَةِ إِجْمَالُ وَتَفْصِيلُ
 وَعِزُّهُ بِجَلَالٍ مِنْكَ مَكْفُولُ

الملح والطرف

قال سعيد بن هشام المصمودي يهجو برّ غواطة ومُنَبِّههم
القائم بدِيانتهم :

قفي قبل التفرّق فاخبرينا بقول صادق لا تكذِّبنا
بأمر برابر خسرُوا وَضَلُّوا وخابُوا لا سُقُوا ماءَ معينا
يقولون النبيُّ أبو عُفَيْرٍ فأخزى الله أمَّ الكاذبين
ألم تسمعْ ولم ترَ يومَ بَهِتٍ على آثارِ خيلهم رَيْنَا
رَنِينَ البَاكِياتِ بهم تُكَالِي وعَاوِيَةَ ومُثَقِّلَةَ جَنِينَا
سَيَعْلَمُ أَهْلُ تَامَسْنَا إِذَا مَا أَتَوْا يَوْمَ الْقِيَامَةِ مُفْطَعِينَا
هَنَالِكَ يُوسُ وَبَنُو أَبِيهِ يَقُودُونَ الْبِرَابِرَ حَاثِرِينَا

وقال عبد الله الكفيف الطنجي يهجو حاميم الغماري الذي
ادعى النبوة في قبيلته غُمارة وظفّر به الناصرُ المُرَوّاني :

١ - اسم لكان وقعت فيه معركة بين أبي عفير والقبائل التي لم تدن له
بالطاعة .

وقالوا أفتراء إن حاميم مُرسل
فلقت كذبهم بدد الله شملكم
فان كان حاميمُ رسولاً فإني
روى عن عجوز ذات إفك كهينة
أحاديث زور حاك إبليس نسجها
وقال ابن حبّوس يأمر بمعاملة الناس على مذهب أبي زيد
السَّروجي :

أعدّ لنا بحيك عصا
وشعشيع للودي شرقا
وكن ورذا خبعتة^١
وعامل بالخديعة من
وغمض عينك النجلا
وهز لمعر سيفاً
وكاثر من يدب لك
ولا تغيب عليه فلو
وسو ظنا بكل أخ
وأقضم ماضيك حصي
مع الساعات أو غصصا
يُراوِغ منهم قنصا
لقيت وبادر الفُرصا
حتى تُنعت الحُرصا
وهز لآخرين عصا
الضرا^٢ وأخرص كآخرصا
ظفرت به لما خلاصا
يُقاسمك الثنا حصصا

١ - الورد والخبعتة من اسماء الأسد.

٢ - أي من يختلك وهو مثل ، وأخرص أي اكذب .

ولا تحفل بِإِمْعَةٍ يَحَالُ الشَّخْمَةُ الْبَرَصَا
 ولا تَحْرُصُ قَرُبَ فِتْنَى مُضَاعٍ عِنْدَمَا حَرَصَا
 وَحِرْصُ الطَّائِرِ الْوَا قِعَ صِيرَ جَوْهَ قَفْصَا
 لَقَدْ رُخِصَ الْإِخَاءُ وَأُهَوِّنُ الْأَعْلَاقُ مَا رُخِصَا
 وَقَدْ ذَهَبَ الْوَفَاءُ فَلَا يَقُولُ مُغَالِطٌ نَقْصَا
 فَلَا تَلْزِمُ مَكَانَ الظِّلِّ إِنْ وَافَيْتَهُ قَلْصَا
 وَغَنٌّ لَذَا الزَّمَانِ إِذَا انْتَشَى وَازْمَرِ إِذَا رَقَصَا
 وَمَنْ شَهِدَ الْخُطُوبَ وَعَاشَ مِثْلِي يَشْرَحُ الْقِصَصَا

وقال الجرأوي يهجو قومه بني غفجوم مُتَذَرِّعاً بِذَلِكَ إِلَى هَجْوِ
 أَهْلِ فَاسٍ وَخَاصَّةً بَنِي الْمَلْجُومِ مِنْهُمْ :

يَا ابْنَ السَّبِيلِ إِذَا مَرَرْتَ بِتَادٍ لَا لَا تَتَزَلَّنَّ عَلَى بَنِي غَفْجُومِ
 أَرْضُ أَغَارِهَا الْعَدُوَّ فَلَنْ تَرَى إِلَّا جُوبَةَ الصَّدَى لِلْيَوْمِ
 قَوْمٌ طَوَوْا ذَكَرَ السَّاحَةِ بَيْنَهُمْ لَكِنَّهُمْ نَشَرُوا لِوَاءَ اللُّومِ
 لَا حِظَّ فِي أَمْوَالِهِمْ وَنَوَالِهِمْ لِلْسَائِلِ الْعَافِي وَلَا الْحَرُومِ
 لَا يَمْلِكُونَ إِذَا اسْتَبِيحَ حَرِيمُهُمْ إِلَّا الصُّرَاخَ بِدَعْوَةِ الْمَظْلُومِ
 يَا لَيْتَنِي مِنْ غَيْرِهِمْ وَلَوْ أَنَّنِي مِنْ أَهْلِ فَاسٍ مِنْ بَنِي الْمَلْجُومِ

وقال في هجاء أهل فاس أيضاً :

مَشَى اللُّومُ فِي الدُّنْيَا طَرِيداً مُشَرِّدَاً يَجُوبُ بِلَادَ اللَّهِ شَرْقاً وَمَغْرِبَا

فلما أتى فاساً تلقاه أهلها وقالوا له أهلاً وسهلاً ومرحباً

وقال يهجو الاستاذ ابن الياصمين :

إنتُ الحبارى ورأس النسر بينهما لونُ الغراب وأنفاسُ من الجعل
خذها إليك بحكم الوزن أربعة كالنعت والعطف والتوكيد والبدل

فأجابه ابنُ الياصمين بقوله :

يا أعرق الناس في نسل اليهود^(١) ومن تأبى شمائله التفصيل للجمل
خذها بحكم اجتماع النعم واحدة تُغني عن العطف والتوكيد والبدل

وقال شاعرٌ متحامقٌ مراكشي يُعرف بابن تليس يهجو الجراوي

وكان يجالس قوماً يعرفون ببني الشحات :

بنو الشحات أنتم خيرُ آلٍ وأكرمُ من تسامى بالجدود
أرى نجل الجراوي لكم جليساً وحرمت الشحوم على آل يهود^(٢)

وقال أبو الحجاج ابن نموى في الاستاذ ابن الياصمين وكان قد

استقبح صورته واستحسن كلامه :

أيها اللابس لونَ الليل ثوباً حين أظلم

١ - نسبه الى اليهود لان جراوة قبيلته كانت تدين باليهودية قبل الاسلام

على ما قيل .

والذي يُضْمِرُ داءَ منه يوماً ما تَأَلَّمْ
أَنْتَ مِنْ أَقْبَحِ خَلْقِ اللَّهِ مَا لَمْ تَتَكَلَّمْ
بِشَذْوَرٍ بِأَهْرَاتٍ سَافِرَاتٍ لَوْ تُجَسِّمُ
أَصْبَحْتَ فِي كُلِّ جَيْدٍ حَسَنٍ عَقْدًا مَنْظَمُ

فلما بلغ ذلك ابنَ ألياسمين قال :

أَيُّهَا الْفَاسِي أَتَى رِيحُكَ قَبْلَ النَّجْوِ يَفْغَمُ
فِي قَرِيضٍ حَسَنٍ الصُّورَةَ بِالْهَجْوِ تُجْذَمُ
فَقِيلِنَاهُ وَقَدْ جَاءَ لَنَا بِالْمَذْحِ مُعَلِّمُ
ثُمَّ قَلْنَا بِمِزَاحٍ مِنْكَ يَوْمًا لَيْسَ يُعْدَمُ
إِنَّمَا الشَّأْنُ فَقِيهٌ عَالِمٌ لَيْسَ يُعْلَمُ
لَا تَرَاهُ الدَّهْرَ إِلَّا بِغَرِيمِ الْكَأْسِ مُغْرَمُ
وَإِذَا صَلَّى رِيَاءَ كَانَ فِيهَا مِثْلُ أُنْبَكَمُ
فِي ثِيَابِ كَرَبِيعٍ قَدْ سَرَى فِيهَا الْمُحَرَّمُ
ذَا جَوَائِي وَهُوَ ظَلَمٌ لَكَ وَالْبَادِي أَظْلَمُ

وقال الامير سليمان الموحي ملغزاً في الْقَلَمِ والدَّوَاةِ :

وَمَيِّتٍ يَرْمِسُ طَعْمُهُ عِنْدَ رَأْسِهِ إِذَا ذَاقَ مِنْ ذَاكَ الطَّعَامِ تَكَلَّمَا
يَقُومُ فَيَمْشِي صَامِتًا مُتَكَلَّمَا وَيَرْجِعُ لِلْقَبْرِ الَّذِي مِنْهُ قُومَا

فلا هو حيّ يستحق كرامةً ولا هو ميت يستحق ترُحماً
وقال في العين :

وطائرةٍ تطير بلا جناح تفوتُ الطائرَين وما تطير
إذا ما مسّها الحجرُ اطمأنتُ وتألمُ أن يُلامِسها الحريرُ
وقال في جاريةٍ اسمها أُلوف :

خليليّ قولاً أين قلبي ومَن به وكيف بقاء المرء من بعد قلبه
ولو شئتُما إسم الذي قد هويته لصَحَفْتُما أُمري لكم بعد قلبه
وقال ميمُون الخطّابي في ادّعاء ابن تومرتَ للمهدويّة :

وجَد النبوءةَ حُلَّةً مطويّةً لا يستطيعُ الخلقُ نَسجَ مثالها
فأَسرَّ حَسْوَا في أَرْتَعَاءٍ^(١) يبتغي بِمُحَالِه نَسْجاً على مِنوالها
وقال عبد العزيز الملزوزي وقد مَرِضَ بالحُمى في مراکش :

لَمَرَّاكشِ فَضْلٌ على كلِّ بلدة وما أَبْصَرْتَ عَيْنٌ لها من مُشابه
وما هي الا جَنَّةٌ قد تَزَخَرَفَتْ وَلَكِنَّهَا حَفَّتْ لَنَا بِالْمَكَارِهِ
وقال مالِك ابنُ المُرَحَّل يَخاطِبُ نفسه حين بلغ ثمانين سنة :

يا أبها الشيخُ الذي عُمُرُهُ قد زادَ عَشْراً بعد سَبْعِينَا

سَكِرْتُ مِنْ أَكْوَاسِ خَمْرِ الصَّبَا فَحَدِّكَ الدَّهْرُ ثَمَانِينَا

وقال في المعنى الذي لأجله يَفْتَتِحُ الشعراءُ قصائدهم بالتشبيب :

ضَلَّ الْمُحِبُّونَ إِلَّا شَاعِرًا غَزَلًا يُطَارِحُ الْمَذْحَ بِالتَّشْبِيبِ أَوْ طَارَا

لَا يَشْتَكِي الْحُبَّ إِلَّا فِي مَدَائِحِهِ دَعَايَ لِيُضْغِيَ أَسْمَاعًا وَأَبْصَارَا

كَضَارِبِ الْعُودِ وَشَى فِيهِ تَوْنِيَّةٌ وَبَعْدَ ذَلِكَ غَنَى فِيهِ أَشْعَارَا

وقال في خضاب الشيب

مَرَرْتُ عَلَيْهَا وَالْخُضَابُ لِمَانِهِ وَيَبِصُّ وَرِيحُ الْمِسْكِ قَدْ كَادَ يَسْطَعُ

فَقَالَتْ مَلِيحٌ مَا أَرَى غَيْرَ أَنَّهُ (سَحَابَةٌ صَيْفٌ عَنْ قَلِيلٍ تَقَشَّعُ)

وقال وملح في ذكر ساقٍ حُرٍّ وهو ذكر القَهَّارِ :

رُبَّ رَّبٍّ وَقَفْتُ فِيهِ وَعِنْدَ لَمْ أَجَاوِزْهُ وَالرَّكَائِبُ تَسْرِي

أَسْأَلُ الدَّارَ وَهِيَ قَفْرٌ خَلَاءٌ عَنْ حَبِيبٍ قَدْ حَلَّهَا مِنْذُ دَهْرٍ

حَيْثُ لَا مُسْعِدٌ عَلَى الْوَجْدِ إِلَّا عَيْنُ حُرٍّ تَجُودُ أَوْ سَاقُ حُرٍّ

وقال في رجل أشهب انتحل شعره :

خَالَفَنِي أَشْهَبُ فِي مَذْهَبِي وَمَالِكُ وَافَقَهُ أَشْهَبُ

فَمَذْهَبِي مُخْتَرَعٌ نَادِرٌ وَسَرَقُ الشَّعْرِ لَهُ مَذْهَبٌ

وقال على هذا المنوال مُورِيًّا :

مَذْهَبِي تَقْبِيلُ خَدِّ مَذْهَبِ سَيِّدِي مَاذَا تَرَى فِي مَذْهَبِي

لا تُخَالَفُ مَالِكًا فِي رَأْيِهِ فِيهِ يَأْخُذُ أَهْلُ الْمَغْرِبِ

وَقَالَ فِي امْرَأَةٍ شَوْهَاءَ تَزَوَّجَهَا عَلَى سَبِيلِ الْمَجَانَةِ:

اللَّهُ أَكْبَرُ فِي مَنَارِ الْجَامِعِ من سَبَّتَهُ تَأْذِينَ عَبْدٍ خَاشِعٍ
 اللَّهُ أَكْبَرُ لِلصَّلَاةِ أَقِيمُهَا بين الصُّفُوفِ مِنَ الْبَلَاطِ الْوَاسِعِ
 اللَّهُ أَكْبَرُ مُحَرِّمًا وَمُوجِّهًا وَتَجْهِي إِلَى رَبِّي بِقَلْبٍ خَاشِعٍ
 الْحَمْدُ لِلَّهِ السَّلَامُ عَلَيْكُمْ آمِينَ لَا تَفْتَحْ لِكُلِّ مُخَادِعٍ
 إِنْ النِّسَاءُ خَدَعْنِي وَمَكَّرْنَ بِي وَمَلَأْنَ مِنْ ذِكْرِ النِّسَاءِ مَسَامِعِي
 حَتَّى وَقَعْتُ وَمَا وَقَعْتُ لِحَانِيبِ لَكِنْ عَلَى رَأْسِي لِأَمْرٍ وَاقِعٍ
 وَاللَّهِ مَا كَانَتْ إِلَيْهِ ضَرُورَةٌ لَكِنَّ أَمْرَ اللَّهِ دُونَ مُدَافِعٍ
 فَخُطِبَنِي لِي فِي بَيْتٍ حُسْنُ قَلْنِ لِي وَكَذَّبَنِي بَلْ هُوَ بَيْتُ قُبْحٍ شَانِعٍ
 بِكْرًا زَعَمْنِ صَغِيرَةً فِي سِنِهَا حَسَنَاءَ تُسْفِرُ عَنْ جَمَالٍ بَارِعٍ
 خَوْدُهَا شَعْرٌ أَثِيثٌ حَالِكٌ كَاللَّيْلِ يَجْلُو عَنْ صَبَاحٍ سَاطِعٍ
 حُورَاءَ بَرَنَاعِ الْغَزَالِ إِذَا رَنَتْ يَجْفُونَ خِشْفٌ فِي الْحِمَائِلِ رَاتِعٍ
 تَتْلُو الْكِتَابَ بَغْنَةً وَفَصَاحَةً فَيَمِيلُ نَحْوَ الذِّكْرِ قَلْبُ السَّامِعِ
 بَسَامَةً عَنْ لَوْلُو مُتَنَاسِقِ مِنْ ثَغَرِهَا فِي نَظْمِهِ الْمَتَابِعِ
 أَنْفَاسُهَا كَالرَّاحِ فَضٌّ خِتَامُهَا مِنْ بَعْدِ مَا خُتِمَتْ بِمِسْكِ رَائِعِ
 غَيْدَاءُ كَالْغُضَنِ الرُّطِيبِ إِذَا مَشَتْ نَأَتْ بِرِذْفٍ لِلتَّعَجُّلِ مَانِعِ
 تَخْطُو عَلَى رِجْلَيْهَا حَمَلَةً أَيْكَةً مَخْضُوبَةً تُضِي فُؤَادَ الْخَاشِعِ

وَوَصَفَنِي لِي مِنْ حُسْنِهَا وَجَمَالِهَا
 فَذَنُوتُ وَاسْتَأْمَنْتُ بَعْدَ تَوْحُشٍ
 فَحَمَلْتَنِي نَحْوَ الْوَلِيِّ وَجِثْنِي
 وَبَغْرَفَةٍ مِنْ نَافِعٍ ^(١) لَتَقَاوُلُ
 فَشَرَطَنَ أَشْرَاطًا عَلَيَّ كَثِيرَةً
 ثُمَّ انْفَصَلْتُ وَقَدْ عَلِمْتُ بِأَنِّي
 وَتَرَكْتَنِي يَوْمًا وَعُذُنْ وَقَلْنِ لِي
 رَأْضِعْ لَهَا عُرْسًا وَلَا تُخَوِّجْ إِلَى
 فَقَرَعْتُ سِنِّي عِنْدَ ذَلِكَ نَدَامَةً
 وَلَزِمْتَنِي حَتَّى انْفَصَلْتُ بِمَوْعِدٍ
 فَلَوْ أَنِّي طَلَقْتُ كُنْتُ مُوَفَّقًا
 لَكِنْ طَبِيعْتُ بِأَن أَرَى الْحُسْنَ الَّذِي
 فَتَظَرْتُ فِي أَمْرِ الْبِنَاءِ مُعْجَلًا
 وَطَبِيعْتُ أَن تُجَلِّي وَأَبْصُرُ وَجْهَهَا
 فَذَكَرْنِي أَن لَيْسَ عَادَةً أَهْلِهَا
 وَظَنَنْتُ ذَلِكَ كَمَا ذَكَرْنِي وَلَمْ يَكُنْ
 وَحَمَلْتَنِي لَيْلًا إِلَى دَارِهَا

مَا أَلْبَعَضُ مِنْهُ يُقِيمُ عُذْرَ الْخَالِعِ
 وَأَطَاعَ قَلْبُ لَمْ يَكُنْ بِمُطَاوِعِ
 بِالشَّاهِدَيْنِ وَجِلْدُ كَبَشٍ وَاسِعٍ ^(١)
 وَاللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ لَيْسَ بِنَافِعِ
 مَا كُنْتُ فِي حَمْلِي لَهَا بِالطَّائِعِ
 أَوْثَقْتُ فِي عُنْقِي لَهَا بِجَوَامِعِ
 خُذْ فِي الْبِنَاءِ وَلَا تَكُنْ بِمُدَافِعِ
 قَاضٍ عَلَيْكَ وَلَا وَكِيلِ رَافِعِ
 مَا كُنْتُ لَوْلَا أَنْ خُدِعْتُ بِقَارِعِ
 بَعْدَ الْيَمِينِ إِلَى النَّهَارِ الرَّابِعِ
 وَنَفَضْتُ مِنْ ذَلِكَ النِّكَاحِ أَصَابِعِي
 زَوَّرْنِي لِي فَذَمَّتْ سُوءَ مَطَامِعِي
 وَصَنَعْتُ عُرْسًا يَا لَهَا مِنْ صَانِعِ
 وَتَقَرَّرَ عَيْنِي بِالْهَلَالِ الطَّالِعِ
 جَلَوْا الْعُرُوسَ وَتِلْكَ خُدْعَةُ خَادِعِ
 وَحَصَلْتُ مِنْهُ فِي مَقَامِ الْفَارِعِ
 فِي مَوْضِعٍ عَنْ كُلِّ خَيْرٍ شَاسِعِ

دار خراب في مكانٍ موحش ما بين آثار هناك بلاقع
 فقعدتُ في بيت صغير مظلم لا شيء فيه سوى حصير الجامع
 فسمعت حسّاعن شمالي مُكرراً وتنحنحاً يحكي - نقيق ضفادع
 فأردتُ أن أنجو بنفسي هاربا ووئبتُ عند الباب وثبة جازع
 فلقيتهن وقد أتين بجدوة فرددني وحسنتي بمجامع
 ودخلن بي للبيت واستجلسني فجلستُ كالمقرور يوم زعازع
 وأشرن لي نحو السماء وقلن لي هذي زويعه وبنتُ زوابع
 هذي خليلتك التي زوّجتها فاجلس هنا معها ليوم السابع
 وتنهأ النعمى التي خوّلتها فلقد حصلت على رياض يانع^(١)
 فنظرتُ نحو خليلتي متأملاً فوجدتها محجوبةً بپراقع
 وأتيتها وأردتُ نزع خمارها فعدتُ تدافعي بجدّ وازع
 فوجأتها في صدرها ونزعته وكشفتُ هامتها بغيظ صارع
 فوجدتها قرعاء تحب أنها مقروعة في رأسها بمقارع
 حواء تنظر قرنبا في ساقها فتخالها مبهوتة في الشارع
 فطساء تحجو أن روثه أنفها قطعت فلا شلت يمين القاطع

١ - فيه وصف الرياض وهو جمع بالمفرد وذلك من مجازاة الاصطلاح العامي .

صَمَاءُ تُدْعَى بِالْبَرِّيحِ ^(١) وَتَارَةً
 بِكَمَاءٍ إِنْ رَامَتْ كَلَامًا صَوَّتَتْ
 عَرُجَاءَ إِنْ قَامَتْ تُعَالِجُ مَشِيهَا
 فَلَقَيْتُهَا وَجَعَلَتْ أَبْصُقُ نَحْوَهَا
 حَيْرَانَ أَعْدُو فِي الزُّقَاقِ كَأَنِّي
 حَتَّى إِذَا لَاحَ الصَّبَاحُ وَفَتَحُوا
 وَاللَّهِ مَا لِي بَعْدَ ذَلِكَ بِأَمْرِهَا
 عِلْمٌ وَلَا بِأُمُورِ بَيْتِي الضَّائِعِ

وقال أبو عبدالله المكودي ، وبعثَ له بعضُ إخوانه بَشْرَابِ

مَذِيق :

بَعَثَ بِخَمْرٍ فِيهِ مَاءٌ وَإِنَّمَا
 فَقُلَّ عَلَيْهِ الشُّكْرُ إِذْ قُلَّ سُكْرُنَا
 بَعَثَ بِمَاءٍ فِيهِ رَائِحَةُ الْخَمْرِ
 فَحَنَ بِلَا سُكْرٍ وَأَنْتَ بِلَا شُكْرٍ

وقال أبو الْقَاسِمِ الشَّرِيفِ فِي طُفَيْلِي :

قَالُوا أَبُو بَكْرٍ مَتَى مَا حَضَرَ الْأَكْلَ طَلَعَ
 وَإِنْ تَكُنْ وَلِيمَةً يَخْبُ فِيهَا وَيَضَعُ
 مَا أَعْجَبَ السَّعْدَ الَّذِي سَاعَدَ ذَلِكَ اللَّكَمَ
 فَقُلْتُ حَقًّا قُلْتُمْ لَكِنَّهُ سَعَدَ بَلَعَ

وقال العلامة ابن غازي في تلاميذه الجاحدين :

أَقَمْتُ بِمَكْنَسَةِ مُدَّةٍ أَعْلَمُ أَبْنَاءَهَا مَا الْكَلَامُ
فَلَمَّا تَوَهَّمَهُ بَعْضُهُمْ عَلِيَ بِهِ بَخِلُوا وَالسَّلَامُ

وقال رابع بن عبد الصمد المديوني ألفشتالي (من أهل القرن
العاشر) في أبي الفضل الشريف المكي :

أَكُلُّ هَجِينٍ أَبْعَدْنَهُ يَدُ النَّوَى يُلُوذُ بِأَبْوَابِ الْوَرَى يَتَكَفَّفُ
وَكُلُّ زَنِيمٍ جَاهِلٍ قَدَرَ نَفْسِهِ يُزَاحِمُ أَهْلَ الْبَيْتِ كِي يَتَشَرَّفُ
وَلَهُ فِي أَسْوَدَ :

وَأَسْوَدُ يَفْتَتُ الدُّجَى مِنْ جَبِينِهِ تَشَاءَمْتُ مِنْ رُؤْيَاهُ عِنْدَ الْمُلَاقَاةِ
لَهُ نِعْمَةٌ لَيْسَتْ تَلِيْقُ بِمِثْلِهِ مِنْ النِّعْمَةِ الْمَغْبُوطَةِ الْحَسَنَاتِ

ولابن الخطيب الزرّويلي المتوفي ٩٩٣ يهجو مدينة مراکش ؛

مَا كَانَ ظَنِّي وَحَقُّ اللَّهِ فُرْقَتَكُمْ لَوْ أَنَّ مَرَّاكُشَا كَانَتْ تُوَاتِنِي
أَظَلُّ فِي نَصَبٍ مِمَّا أَكَابِدُ مِنْ نَقْضِ الْعُبَارِ وَمِنْ طَرْدِ الذَّبَابِ
وَطُولِ لَيْلِي فِي كَدٍّ وَفِي تَعَبٍ مَا بَيْنَ بَقٍّ وَنَامُوسٍ يُنَاغِنِي
أَيِّتُ أَحْرَسَ فَرُشِي مِنْ عَقَارِبِهَا وَالْقَلْبُ فِي فِكْرٍ مِنْهَا وَتُخْمِنِ
إِذَا رَأَيْتُ سَوَاداً مَرَّ بِي وَأَتَى ظَنَنْتُهَا عَقْرَبَا ذَبَّتْ لِتُؤَذِّنِي

لم يبقَ في الفمِ ضرسٌ أَسْعَدُ به أَفناه مَضْعُ الحَصَى من الطَّوَّاحِينِ
 مُنُوا عَلَيَّ بِإِطْلَاقِي بِفَضْلِكُم هذا العَبَاجُ بها قد كَادَ يُعْمِينِي
 لم يبقَ في الكيسِ فلسٌ اسْتَعِين به أَفْنَيْتُ مَالِي فِي غَسِيلٍ وَتَصْبِينِ

وله في القَصْرِ الكَبِيرِ :

إِرْحَلْ مِنَ الْقَصْرِ واسْمَعْ قولَ ذي ثِقَةٍ إِنْ المَقَامَ به ضَرْبٌ مِنَ الحُمُقِ
 إِنْ لَمْ تَمُتْ فِي أَوَانِ الحَرِّ مُحْتَرِقًا لَمْ تَنْجُ فِيهِ زَمَانُ البَرْدِ مِنْ غَرَقِ

ولابن عَمْرٍو الشَّاوي في العُدُولِ الجَهَالِ :

إِنَّ العُدُولَ الأَلَى جَادَ الزَّمَانُ بِهِمْ عَنِ العَدَالَةِ وَالتَّوْفِيقِ قَدْ عَدُّوا
 أَحْدَاثُ سَنٍّ وَأَلْبَابُ كَسَنِهِمْ تَاللهِ لَوْ شَهِدُوا فِي الكَلْبِ مَا قُبِلُوا

وقال عبد الملك التَّجْمُوعِي يهجو البربر :

هُمُ البرابر لَا تَرْجُو نَوَا لَهْمُ وَسَلْ مِنْ الله تَعَجِيلَ النُّوَى لَهُمْ
 لَا بَلِّغْ الله قَلْبًا مِنْهُمْ أَمْلًا وَبَلِّغْ الله قَلْبِي مَا نَوَى لَهُمْ

وقال ايضاً فيهم :

فَلَوْ كُنْتُ فِي الفَرْدَوْسِ جَارًا لِبَرِّيرٍ لَحَوَّلْتُ رَحْلِي مِنْ نَعِيمٍ إِلَى سَقَرٍ
 يَقُولُونَ لِلرَّحْمَنِ بَابَا بِجَهْلِهِمْ وَمَنْ قَالَ لِلرَّحْمَنِ بَابَا فَقَدْ كَفَرَ

وأجابه العلامة اليوسي بقوله :

كفني بك جهلاً أن تحينَّ إلى سقرٍ بديلاً من القردوس في غير مُستقرٍّ
وتجهل معنىً مُستبيناً مجازهُ لدى كل ذي فهم سليم وذي نظر
فإن أبا الانسان يدعوهُ انه كفيلٌ وقبوم رحيمٌ به وبرٍّ
وَمَن قال للرحمن باباً فقد عني به ذلك المعنى المجاز وما كُفرُ
وقد قال عيسى إني ذاهب الى أي وأيكم جاء ذلك في الأثرُ

وقال اليوسي : أنفذه في رُقعة مع طعام لبعض ضيفانه :

كلوا واعذروني في التخلف إني رأيتُ أتباع الظرف ليس من الظرف^١
وأحسنُ ظرقي تركُ ضيفي كما يشا

وليس ارتقاب الضيف من شيم الظرف^٢

وقال الطيب عبد القادر بن شقرون معنياً في التمر المجهول^٣ :

ما أحرَّ اللُّونُ حُلُوَ الطعمِ مَعْسُول يُعزَى لذاتِ عقاصٍ زانها طولُ
قد شاع معروفها بين الوري كرمًا فاعجبَ لمعروف أم وهو مجهول

١ - الظرف الأول بمعنى الاناء والثاني اللطافة والأدب .

٢ - الظرف بالفتح والكسر الفتى الكريم .

٣ - يطلق التمر المجهول في المغرب على اجود انواع التمر واضخمه .

وقال كذلك في اللَّفْتِ البلدي وهو السَّلْجَم :

مَا أبيضُ فِي خَدِّهِ خُمْرَةٌ يرقل فِي ثَوْبٍ مِنَ السُّنْدُسِ
قَدِ بَيَعَ فِي السُّوقِ عَلَى حُسْنِهِ مَظْلَمَةً بِالثَّمَنِ الْأَجَسِ
أَلْفَتْ فِي أَوْصَافِهِ جُمَلًا مُعْجِبَةً لِلْحَاقِقِ الْأَكْبَسِ

وقال محمد بن الشيخ سيدي الشنقيطي في رجل أكل اسمه : نحن
وكان يدَّعي الشرف :

مَا هَزَّ عِظْفِي كَمِيَّ يَوْمَ هِجَاءِ بَيْنَ الْأَوَانِي كَذِي النُّونَيْنِ وَالْحَاءِ
فَرَدَ يَقُومُ مَقَامَ الْجَمْعِ وَهُوَ إِذَا يُدْعَى بِمَضْمَرٍ جَمَعَ بَيْنَ أَسْمَاءِ
يَسْطُو بِأَسْلِحَةٍ لِلْأَكْلِ أَرْبَعَةً يَدٍ وَفَمٍّ وَبَلْعُومٍ وَأَمْعَاءِ
تُخَالُ لُقَمَاتِهِ الْعُظْمَى بِرَاحَتِهِ كَرَائِرَ الْإِبِلِ أَوْ جَمَاجِمَ الشَّاءِ
مَا بَيْنَ طَلْعَتِهَا فِيهَا وَغَيْبَتِهَا فِي فِيهِ الْأَكْلَمَحِ الطَّرْفِ لِلرَّائِي
فَتَنْهَوِي كَدْلِي خَانَ مَا تَحَا أَشْطَانُهَا فَتَرَامَتْ بَيْنَ أَرْحَاءِ
فَبَانَ أَنَّ الَّذِي يَحْوِيهِ مِنْ شَرَفٍ قَدْ صَحَّ لَكِنَّهُ بِالْهَاءِ لَا الْفَاءِ

وقال الأديب عبد السلام الزموري المتوفى ١٢٧٩ في شراب الشاي :

أَلْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَعَّمَنَا بِكُلِّ مَطْعُومٍ بِهِ أَطْعَمَنَا
وَكُلِّ مَشْرُوبٍ لَذِيذٍ طَيِّبٍ حُلُوِّ حَلَالٍ كَالْغَنَامِ الصَّيِّبِ

مثل الآتاي (الَّذُرَيْزِي) مذهبه
تطائر الهمُّ لديه وانشرح
فان يكن مُعْتَبَرًا^١ فذاك في
وذا الى ثلاثة او أربعاً
ما لم يكن مُغْنِيًا او مُطْرِبًا
فهو الذي يُقِيمُهُ وَيُحْسِنُهُ
وان يكنُ مُنْعَمًا فذاك لا
او للذي أُولِعَ بِالْحَتَاوَى^٢
خذه فدتك النفس من قبل الطعام
إِلَّا اذا كان الطعامُ كُنْكَسًا
ووقته وقتُ سرور وانبساط
وقتُ الصباح عندهم مُسْتَحْسَن
اذ وقته وقتُ فراغ البال
والأمن من كل ثقل يدخل
مع اتساع الوقت للمنادمة
وذاك في الصُّباح لا يَتَّفِقُ

على صفا صِيْنِيَّة مُلْتَبِه
صدرُ الذي يشرُّه من الفرح
مذهبن المعروف خيرُ ما اصطَفِي
من الأحبة وما زاد ادْفعا
او ذا مَلَاحة يُرَى مُحِبًّا
وكلُّنا من يده نَسْتَحْسِنُهُ
وَحَقُّكُمْ يَصْلُحُ إِلَّا لِلْمَلَا
او اشتكى ضَرًّا فَلِلْتَدَاوَى
او بعده فما عليك من مَلام
فكلُّ مَنْ آخَرَهُ فَقَدْ أَسَا
وحيثُ دعا لِشُرْبِهِ النِّشَاط
لكنَّه بعد العشاء أَحْسَنُ
وراحة القلب من الاشغال
او خَيْرٌ على النفوس يَنْقُلُ
ولنِّعِ الْجُلُوسِ وَالْمُكَامِلَةِ
وهو من بعد العشا مُحَقَّقُ

١ - يضيف بعض الناس العنبر الى الشاي فهو المعنبر .

٢ - اي النوع الرديء نسبة الى الحناء على غير قياس .

أَكْرِمَ بِذَلِكَ الْوَقْتِ وَقَتِ الْكُرْمَا وَأَمَّا اللَّيْلُ نَهَارُ النُّدْمَا
يُومِنُ فِيهِ مَعَ غَلْقِ الْبَابِ وَسَدْلُ مَا يَسْتُرُ مِنْ حِجَابِ
وَاخْتَرَهُ لَهُ مِنَ الشُّمُوعِ الْأَبْيَضَا كَأَلْسِنِ الْأَفْعَى إِذَا تَفَضَّنَا
عَلَى دُجَابِ الْعُودِ إِذَا يَحْتَرِقُ وَمَاءُ وَرْدِ عِطْرِهِ يَنْتَشِقُ
وَلَا أَرَى الْآتَايَ بِالْقَنْدِيلِ وَالزَّيْتِ وَالْمِنْخَاسِ وَالْمَنْدِيلِ
إِذَا كُلُّ أَمْرِهِ عَلَى النَّظَافَةِ قَدْ انْبَنَى وَشَرَطَهُ اللَّطَافَةِ
لَا سِوَا السَّاقِي الَّذِي يُنَاوِلُهُ كَذَلِكَ الْكَأْسِ الَّذِي تَسْتَعْمِلُهُ
وَشَرِبُهُ عَلَى خِلَاءِ الْمَعِدَةِ جَازَ عَلَى شَرْطِ حُضُورِ الْمَائِدَةِ
تَاخِذُ مِنْهَا لَقْمَةً أَوْ لُقْمَتَيْنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَشْرَبَ مِنْهُ حَلَقَتَيْنِ
وَأَخْرَنَهُ مُطْلَقاً حَيْثُ تَلَا مَا كَانَ مَالِحاً يُرَى مَخْلَلاً
وَشَرِبُهُ عَلَى الشَّوَاءِ وَالْكَبَابِ يَفْتَحُ لِلصَّحَةِ مِنْهُ أَلْفَ بَابِ

الرثاء وَذِكْرُ الْمَوْتِ

لأبي الحسن المُسَفَّرُ فِي الْمَوْتِ وَفَلَسَفَتِهِ ، وَيُقَالُ إِنَّهَا وَجِدَتْ
تَحْتَ وَسَادَتِهِ بَعْدَ وَفَاتِهِ :

قُلْ لِإِخْوَانٍ رَأَوْنِي مَيِّتًا	فَبَكَّوْنِي وَرَثَوْنِي حَزَنًا
أَعْلَى الْغَائِبِ مِنِّي حَزَنُكُمْ	أَمْ عَلَى الْحَاضِرِ مَعَكُمْ هَاهُنَا
أَتَنْظُنُّونَ بَأَنِّي مَيِّتُكُمْ	لَيْسَ ذَاكَ الْمَيِّتُ وَاللَّهِ أَنَا
أَنَا فِي الصُّورِ وَهَذَا جَسَدِي	كَانَ لِبَسِي وَقَمِيصِي زَمَنًا
أَنَا كَنْزٌ وَحِجَابِي طَلَسَمٌ	مِنْ تُرَابٍ قَدْ تَهَيَّأَ لِلْفَنَاءِ
أَنَا دُرٌّ قَدْ حَوَانِي صَدَفٌ	طَرْتُ عَنْهُ فَتَخَلَّى رَهْنًا
أَنَا نُصْفُورٌ وَهَذَا قَفْصِي	كَانَ سِجْنِي فَأَلِفْتُ أَلْسَجَنًا
أَشْكُرُ اللَّهَ الَّذِي خَلَّصَنِي	وَبَنَى لِي فِي الْمَعَالِي رُكْنًا
كُنْتُ قَبْلَ الْيَوْمِ مَيِّتًا بَيْنَكُمْ	فَحَيِّتُ وَخَلَعْتُ الْكَفَنَ
فَأَنَا الْيَوْمَ أَنَا جِي مَلَأٌ	وَأَرَى اللَّهَ جِهَارًا عَلَنًا
عَاكِفٌ فِي اللُّوحِ أَقْرَأٌ وَأَرَى	كُلَّ مَا كَانَ وَيَأْتِي وَدَنًا

وطعاني وشرابي واحدٌ
 ليس خمرًا سائغاً أو عسلاً
 هو مشروب رسول الله اذ
 فافهموا السرَّ فقيه نبا
 فاهدوا بيتي ورثوا قصي
 وقميصي مزقوه رمياً
 قد ترحلت وخلفتكم
 حيّ ذي الدار نووم مغرق
 لا تظنوا الموت موتاً إنّه
 لا ترثكم هجمة الموت فما
 فاخلعوا الأجساد عن أنفسكم
 وحذوا في الزاد جهداً لا تنوا
 حسنوا الظن برّب راحم
 ما أرى نفسي الا أنتم
 عنصرو الأنفس منّا واحد
 فتى ما كان خير فلنا
 فارحموني ترحموا أنفسكم
 أسأل الله لنفسي رحمة
 هو رمز فافهموه حسنا
 لا ، ولا ماء ولكن لبنا
 كان يسري فطره مع فطرننا
 أي معنى تحت لفظ كنا
 وذروا الطلسم بعدي وثنا
 ودعوا الكل دفيناً بيننا
 لست أرضى داركم لي وطننا
 فاذا مات أطار الوسنا
 حياة هي غايات المني
 هي الا نقلة من هاهنا
 تبصروا الحق عياناً بيننا
 ليس بالعاقل منّا من ونى
 تشكروا السّعي وتأثوا أمنا
 واعتقادي أنكم أنتم أننا
 وكذا الجنم جميعاً عنّا
 ومتى ما كان شرّ فبننا
 واعلموا أنكم في إثرننا
 رحم الله صديقاً أمنا

وَعَلَيْكُمْ مِنْ سَلَامِي صَيَّبُ وَسَلَامُ اللَّهِ بَدَأُ وَتُنَى
أَبَدَ الدَّهْرِ إِلَى يَوْمٍ يَرَى بَعْضُنَا بَعْضًا لِرُحْبٍ وَهَنَا

وَلَا يَنْبَغِي جَعْفَرُ بْنُ عَطِيَّةٍ يَبْكِي نَفْسَهُ حَيْثُ نَكَبَهُ عَبْدُ الْمُؤْمِنِ :

أَنُوحُ عَلَى نَفْسِي أَمْ أَنْتَظِرُ الصَّفْحَا فَقَدْ آتَى أَنْ تُنْسَى الذُّنُوبُ وَإِنْ تُحْيَى
وَهَا أَنَا فِي لَيْلٍ مِنْ أَلْسِنَةِ حَائِرٍ وَلَا أَهْتَدِي حَتَّى أَرَى لِلرَّضَا صُبْحَا

وَلْيَسْمُونَ الْخَطَّابِي يَرِثِي عَبْدَ اللَّهِ بْنِ أَبِي بَكْرٍ ابْنَ الْجَدِّ وَيَعَزِّي أَبَاهُ

وَهُوَ يَوْمُنْذُ وَزِيرُ أَشِيلِيَّةٍ وَعَظِيمُهَا وَكَانَتْ حَاضِرَةً الْإِنْدَلُسَ :

أَرْجَةُ الصَّعْقِ يَوْمَ النَّفْخِ فِي الصُّورِ	أَمْ دَكَّةُ الطُّورِ يَوْمَ الصَّعْقِ فِي الطُّورِ
أَمْ هَدَّةُ الْأَرْضِ أَظْهَارًا مَا زَجَرَتْ	بِهِ الْخَلِيقَةُ مِنْ إِيقَاعٍ مَخْذُورِ
أَمْ الْكَوَاكِبُ فِي آفَاقِهَا انْتَثَرَتْ	وَبَاتَتْ الشَّمْسُ فِي طَيِّ وَتَكْوِيرِ
مَا لِلنَّهَارِ تَعَرَّى مِنْ ثِيَابِ سَنَا	وَشَابَةَ اللَّيْلُ فِي أَثْوَابِ دَنْجُورِ
قَدْ كَانَ لِلصُّبْحِ طَرْفُ زَانِهِ بَلَقُ	مُقَسَّمِ الْخَلْقِ بَيْنَ الدَّجْنِ وَالنُّورِ
فَمَا الْمَلَمُّ الَّذِي غَشَّى بِدُفْمَتِهِ	أَدِيمَهُ عَنبرًا مِنْ بَعْدِ كَافُورِ
أَصْحُ لَتَسْمَعِ مِنْ أَنْبَائِهَا نَبَأٌ	يَطْوِي مِنَ الْأَنْسِ فِيهَا كُلَّ مَشُورِ
وَانْظُرْ فَإِنَّ بَنِي عَدْنَانَ مَا حَشَرُوا	الْأَلْرُزَّ عَظِيمَ الْقَدَرِ مَشْهُورِ
وَافِيَ مَعَ الْعِيدِ لَا عَادَتُ مَضَاضَتُهُ	فَشَابَ سَلْسَالَهُ الْإِصْفَى بِتَكْدِيرِ
وَاعْتَامَ دَارًا لَهَا فِي السَّبْقِ جَمْرَةٌ	مِنَ الْمَفَاخِرِ أَزْرَتْ بِالْجَمَاهِيرِ

رَمَى قُرَيْشًا فَأَصَمَى سَهْمُ حَادِثِهِ
 فخانها الجَدُّ في ابن الجَدِّ يومَ قَضَى
 لله والمجدِ ما أبقاه من أثر
 نوَّارةٌ عندما راقَت بدوَحَتها
 جَارَ الذبولُ عليها عندما ملأتُ
 وسيفُ بأسٍ لكسر الخطبِ أغمده
 قضى فراقُ شهرِ الصومِ مُرتحلاً
 واختاره خَاطِبُ الخطبِ المُلَمُّ به
 فسارَ للحينِ مسروراً وخلفنا
 ناديتُ يا حاديَ الأحزانِ يومَ حَدا
 فالوجدُ والدَمْعُ من حُزنٍ قد اقتَسَمَا
 فالقلبُ بالغيْظِ في تصعيدِ مُستَعِرٍ
 وسائقُ الخطبِ يشدُّ الحامِلينَ له
 وللملائكِ في آفاقها زَجَلُ
 ثنى المصابُ على شيخِ الجزيرةِ في
 ذاقَ الرزايا على مقدارِ مَنْصِبِهِ
 إن كانَ فرَّقَ شملَ الأنسِ منه فكم
 يادهرُ حَمَلَتَهُ. وَقَعَ الخطوبُ ولم

أنباءَ فُهِرَ بتوفيقِ المقاديرِ
 وأثرُ الخطبِ فيها أيَّ تأثير
 أخرَى الليالي بطيبِ الذكرِ ما ثور
 أهوتُ إلى التُّربِ من بين النَّواويرِ
 معاطسَ الدهرِ من طيبٍ وتغطيرِ
 صرَفُ الحوادثِ فيها بعدَ تكسيرِ
 ووافقَ الشهرَ في فضلٍ وتطهيرِ
 للصَّبرِ كُفُوا فأمضى العَقْدُ للحوَرِ
 للحُزنِ فاعجَبَ لِمحزونٍ بمسرورِ
 أظعانِ قلبي رِفْقاً بالقواريرِ
 قلبي وجَفني بمنظومٍ ومنثورِ
 والجفنُ بالفيضِ في تصويبِ مُمطورِ
 يسوقهم سَوَقَ حادي العيرِ للغيرِ
 قد شَفَعته بتَهْلِيلٍ وتكبيرِ
 عَقْدَ وحلٍ وتقديمٍ وتأخيرِ
 والابتلاءُ على قَدرِ المقاديرِ
 أولاهُ لِلجَدِّ من جمعٍ وتوفيرِ
 تَزَلُ تُنفِذُ عنه كلَّ ما مُورِ

أردت بالصبر منه أن تُقيمَ لنا
يا عامرَ التُّربِ كم خلَّفتَ من كيدٍ
لو كنتَ تُحمي وتُقدِّي للعُلا ابتدرت
وانما الموتُ حكمٌ ليس يدخُلُه
يقضي على الأسد في الآجام حاكمه
ويعتطي الشَّهبَ في شُمِّ الجبال كما
أعظمُ بآيته من آية عظمت
فسلم الأمرَ فالأقدارُ قد نفذتْ
ما فقرُ ذي الفقرِ عن جَهْلٍ وعن كَلٍّ
ولا الحماةُ بنقص في المزاج ولا
فكم صحيح قضى فيها بلا مرضٍ
برهانَ تقديمه للخير والخير
ومن فُؤادٍ يشاوي الحزنَ مغمور
آلُها بالقنْي أو بالقناطير^(١)
نسخُ لخلق وعدلٌ دون تجوير
وفي الكِناس على البيضِ اليَعاير
في الوكرِ يعتامُ أفراخُ العصاير
فليس تُدرَك في حالٍ بتفسير
وكلُّ شيء بتقدير وتقدير
ولا غنى المرء عن كَيْسٍ وتشمير
ضعف الطبيعة عن أسباب تدبير
وكم مريض أقامته لتغمير

فاسمع بقلبك فالأشياء ناطقة
مقدمات الليالي طالما فضحت
جمع السلامة معدوم الوجود بها
والسنُّ الحال تُغني كلَّ تحجير
نتائج العذر منها كلَّ مغرور
فكم بها للردى من جمع تكسير

(١) القنا جمع قناة وهي الرمح والقناطير المال الكبير جمع قنطار .

والكون طرس وهذا الخلق أحرّفه والحرف ما بين تمحوّ ومبشور
والدهر يُعربُ والافعال يُظهِرُها طوعاً ويُعْجِمُ منها كلّ مسطور
وانما الخلقُ أسماءُ تعاوَرها إعرابه بين مرْفوعٍ ومَجْرور
وكلّهم في مَدَى الاعمار تحسبهم كحَالها بين مَمْدودٍ ومَقْصور
والموتُ مثلُ عَرُوضِي يُقَطَّعُ من أَيْتِهِمُ كلّ موزُونٍ ومَكْشور
يا مَنْ يُؤْمَلُ أنْ يَبْقَى وقد نَفِضَتْ أَيْدِي المَقادِيرِ من إِبْرامِ تَقدير
هذي الحَقِيقَةُ لا ما حَدَّثَكَ به آمالُ نَفْسِكَ عن دُنْيَاكَ من زور
لا تَحْدَعَنَّكَ اللَّيالي إنَّ فِتْنَتِها كادَتْ فَكَادَتْ تُرِينَا كلّ مَحْذُور
كَمْ بَاكَرْتُ بِعَبُوسِ الخُطْبِ من مَلِكٍ قَدْ كانَ بالبِشْرِ وَضاحَ الأَسارِيرِ
سائِلُ بِكَسْرِي مَلِكِ الفَرَسِ هلْ تَرَكْتَ له المَنايا جَناحاً غيرَ مَكْشور
وانزِلْ بَصْنَعاءَ في قَصْرِ ابنِ ذِي يَزَنٍ تُلَمِّمُ بِقَصْرِ على الأَغْيَارِ مَقْصور
واعْبُرْ على حَبِيرَةِ الثُّعْمَانِ مُعْتَبِراً تَعْبُرُ بِأَطْلالِ نُعْمَى ذاتِ تَغْيِيرِ
وَأَيْنَ مَنْ كانَ سِجْنُ الجِنِّ في يَدِهِ والإنسُ والجِنُّ في قَهْرٍ وتَسْخِيرِ
وَأَيْنَ مُخْتَرِقُ الدُّنْيَا بِعِزِّ مَتِهِ يَطْوِي البِلادَ مَعاً طَيَّ الطَّوامِرِ^(١)
بَادُوا فَلَيْسَ بِهَا بَادٍ يُحْسُ بِهِ مِنْهُمْ وَأَفْناهُمُ رَبُّ الدَّهَارِ

★ ★ ★

هو القضاء أبا بكر أضبت به فاصبر وسلم له تسليم مأجور
والله يحرس عليك ويرفع عن سامي معاليك أنواع المحاذير
ولا بي العباس الجزائي يرثي جاريته ضبحاً :

يا صاحب القبر الذي أعلامه درست ولكن حبه لم يدرس
ما اليأس منك على التصبر حاملي أياستني فكأنني لم أياس
لما ذهبت بكل حُسن أصبحت نفسي تعاني شجواً كل الانفس
يا صبح ايامي ليال كلها لا تنجلي عن ضحك المتنفس
وله يخاطب قبرها :

يا قبر صبح حل فيك لمهجي أسنى الأمانى
وغدوت بعد عيانها أشهى البقاع الى العيان
أخشى المنية إنها تني مكانك عن مكاني
كم بين مقبور بفاس وقابر بالقيروان

وللعلامة ابي بكر بن شبرين السبتي يرثي بليده العلامة ابن هاني :

قد كان ما قال البريد فاصبر فحزنك لا يفيد
أودى ابن هاني الرضى فاعتادني للكل عيد
مجر العلوم وصدرها وعيدها إذ لا عييد
قد كان زيناً للوجود ففيه قد جمع الوجود

العلمُ والتَّحْقِيقُ والتَّوَهُّدُ والحَسَبُ التَّليدُ
 تَنَدَّى خِلَاتُهُ فَقُلْ فِيهَا هِيَ الرُّوضُ الْمَجُودُ
 مُغْضٍ عَنِ الْإِخْوَانِ لَا جَهْمُ اللَّقَاءِ وَلَا كُنُودُ
 أَوْدَى شَيْدَا بَاذِلًا مَجْهُودَهُ نِعَمُ الشَّهِيدِ
 لَمْ أَنَسْ حِينَ الْمَعَارِفِ بِاسْمِهِ فِينَا تُشِيدُ
 وَلَهُ صُبُوبٌ فِي طَلَا بِ الْعِلْمِ يَتْلُوهُ صُغُودُ
 اللَّهُ وَقْتُ كَانَ يَنْظِمُنَا كَمَا نَظِمَ الْفَرِيدُ
 أَيَّامَ نَعْدُو أَوْ نَزُوحِ وَسَعَيْنَا السَّعْيُ الْحَمِيدُ
 وَإِذِ الْمَشِيعَةُ جُتِمَ هَضَبَاتِ حِلْمٍ لَا تَمِيدُ
 وَمَرَادُنَا جَمُّ النَّبَاتِ وَعَيْشُنَا خَضِرُ بَرُودُ
 نُهْفِي عَلَى الْإِخْوَانِ وَالْأُتْرَابِ كُلُّهُمْ فَقِيدُ
 لَوْ جِئْتُ أَوْطَانِي لَأَنْكَرَ نِي التَّهَانِمُ وَالنُّجُودُ
 وَلَرَاعَ نَفْسِي شَيْبُ مَنْ غَادَرْتَهُ وَهُوَ الْوَلِيدُ
 وَلَطُفْتُ مَا بَيْنَ اللَّحُودِ وَقَدْ تَكَاثَرَتْ اللَّحُودُ
 سَرْعَانَ مَا عَاثَ الْحِمَامِ وَنَحْنُ أَيْقَاطُ هُجُودُ
 كَمْ رُمْتُ إِعْمَالَ الْمَسِيرِ فَقَيِّدْتُ عَزْمِي قَيُودُ
 وَالْآنَ أَخْلَقْتَ الْوُعودِ وَأَخْلَقْتَ تِلْكَ الْبُرُودُ
 مَا لِلْفَتَى مَا يَبْتَغِي فَاللَّهُ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ

أَعْلَى الْقَدِيمِ الْمُلْكُ يَا وَيْلَاهُ يَعْتَرِضُ الْعَبِيدُ؟
 يَا بَيْنُ قَدْ طَالَ الْمَدَى أَبْرَقُ وَأَرَعِدُ يَا يَزِيدُ ^(١)
 وَلِكُلِّ شَيْءٍ غَايَةٌ وَلَرْبَمَا لَانَ الْحَدِيدُ

إِيهِ أبا عبد الإله وَيَيْنِنَا مَرْمَى بَعِيدِ
 أَيْنَ الرِّسَائِلُ مِنْكَ تَأْ تَيْنَا كَمَا نَسْقِي الْعُقُودِ
 أَيْنَ الرُّسُومُ الصَّالِحَاتُ تَصَرَّمْتُ أَيْنَ الْعُهُودِ
 أَنْعِمُ مَسَاءً لَا تُخْطِئِكَ الْبَشَائِرُ وَالسُّعُودِ
 وَأَقْدَمَ عَلَى دَارِ الرِّضَا حَيْثُ الْإِقَامَةُ وَالْخُلُودِ
 وَالتَّقَى الْأَحِبَّةَ حَيْثُ دَارُ الْمُلْكِ وَالْقَصْرِ الْمَشِيدِ
 حَتَّى الشَّهَادَةُ لَمْ تَفُتِكَ فَنَجِّمُكَ النِّجْمُ السَّعِيدِ
 لَا تَبْعِدَنَّ وَعْدُ لَوْ أَنَّ الْبَدَأَ فِي الدُّنْيَا يَعُودِ
 فَلَنْ بَلَيْتَ فَإِنَّ ذَكَرَ لَكَ فِي الدُّنْيَا غَضٌّ جَدِيدِ
 تَاللهِ لَا تَنْسَاكَ أَنْدِ يَهُ الْعَلَا مَا أَخْضَرَّ عُودِ
 وَإِذَا تُسَوِّحَ فِي الْحَقُوقِ فَحَقُّكَ الْحَقُّ الْأَكِيدِ

(١) تلميح لقول الكميته : أبرق وأرعد يا يزيد فما وعيدك لي بضائر .

جَادَتْ صَدَاكَ غَمَامَةٌ يُرْمَى بِهَا ذَاكَ الصَّعِيدُ
وَتَعَهَّدَتْكَ مِنَ الْمُهَيَّمِنِ رَحْمَةٌ أَبَدًا وَجُودُ

وَلَهُ يَرِثُنِي مَلِكُ غَرْنَاطَةِ الْمُغْتَالِ مُحَمَّدَ بْنَ إِسْمَاعِيلَ بْنِ الْأَحْمَرِ :

عَيْنُ بَكِّي لَمِيتَ غَادَرُوهُ فِي ثَرَاهُ مُلْقَى وَقَدْ غَدَرُوهُ
دَفَنُوهُ وَلَمْ يُصَلَّ عَلَيْهِ أَحَدٌ مِنْهُمْ وَلَا غَسَلُوهُ
إِنَّمَا مَاتَ حِينَ مَاتَ شَهِيدًا فَأَقَامُوا رَسْمًا وَلَمْ يَقْصِدُوهُ^(١)

وَلابن عبد المنان يرثي الحاجب أبا عبد الله التميمي وفيه
جناس وتورية :

مَنْ كَانَ يَبْكِي مَا جَدًّا فَلْيَجِدْ بِالْمَدْمَعِ السَّكْبَ عَلَى الْحَاجِبِ
يَمَّ وَجْهَ الْمَجْدِ فَأَغْتَالَهُ صَرَفُ الرَّدَى لَمْ يَخْشَ مِنْ حَاجِبِ
عَيْنُ أَصَابَتِهِ وَيَا قُرْبَ مَا فِي الْوَجْهِ بَيْنَ الْعَيْنِ وَالْحَاجِبِ
وَالشَّيْخُ الْقَصَّارُ عَلَى مَا نَسَبَهُ إِلَيْهِ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ الْأَثْبَاتِ بِخُطُوطِهِمْ
وَالْبَيْتُ الْأَوَّلُ رَأَيْنَاهُ فِي كُتُبِ الْقَدَمَاءِ فَهُوَ مُضْمَنٌ :^(٢)

(١) يعني دفنه دون غسل ولا صلاة كما يدفن الشهداء وذلك للهرج والفتنة

(٢) من غريب أمر هذه الأبيات أننا رأيناها في كتاب (منتخبات

أدبية) للاب بشير إجميا اليسوعي ج ٢ ص ٣١ تحت عنوان (وصيقي) منسوبة
لحمد الدكدجي ؛ فيا لأدبيات المغرب البتيمة من الاممال !

(زُرْ وَالِدَيْكَ وَاقِفْ عَلَى قَبْرَيْهِمَا
 لَوْ كُنْتَ حَيْثُ هُمَا وَكَانَا بِالْبَقَا
 أَنْسَيْتَ عَهْدَهُمَا عَشِيَّةَ أَسْكِنَا
 مَا كَانَتْ ذَنْبُهُمَا إِلَيْكَ وَإِنَّمَا
 كَانَا إِذَا مَا أَبْصَرَا بِكَ عِلَّةً
 كَانَا إِذَا سَمِعَا أُنَيْنَكَ أَسْبَلَا
 وَتَمَنَّى لَوْ صَادَفَا لَكَ رَاحَةً
 فَلْتَلَحِّظْنَهَا غَدَاً أَوْ بَعْدَهُ
 وَلْتَقَدِّمَنَّ عَلَى فِعَالِكَ مِثْلَ مَا
 بُشْرَاكَ إِنْ قَدَّمْتَ فَعَلًا صَالِحًا
 وَقَرَأْتَ مِنْ آيِ الْكِتَابِ بِقَدْرِ مَا
 فَاحْفَظْ بُنْيَ وَصِيَّتِي وَاعْمَلْ بِهَا

وَاللَّيْثُ رِضْوَانُ الْجَنُودِ :

إِذَا شِئْتَ أَنْ تَبْكِي فَقِيدَا مِنَ الْوَرَى
 فَلَا تَبْكِينَ إِلَّا عَلَى فَقْدِ عَالِمٍ
 وَفَقْدِ إِمَامٍ عَادِلٍ قَامَ مُلْكُهُ
 وَفَقْدِ شُجَاعٍ صَادِقٍ فِي جِهَادِهِ
 وَتَذُدْهُ بَعْدَ النِّيِّ الْمَكْرَمِ
 يُبَادِرُ بِالتَّفْهِيمِ لِلْمُتَعَلِّمِ
 بَانَوَارِ حُكْمِ الْعَدْلِ لَا بِالتَّحَكُّمِ
 وَقَدْ كُسِرَتْ رَايَاتُهُ فِي التَّقَدُّمِ

وَقَدْ سَخِيٌّ لَا يَمِلُّ مِنَ الْعَطَا لِيُطْفِئَ بؤْسَ الْفَقْرِ عَنْ كُلِّ مُعْدِمٍ
وَقَدْ تَقِيٌّ زَاهِدٌ مُتَوَرِّعٌ مُطِيعٌ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ مُعْظَمٍ
فَهُمْ خَمْسَةٌ يُبْكِيهِمْ عَلَيْهِمْ وَغَيْرُهُمْ إِلَى حَيْثُ أَلَقَتْ رَحْلَهُمَا مُقْشَعَمٌ^(١)

والشيخ ابي عثمان سعيد بن علي الجزولي الحامدي يرثي المولى
محمد الحران ابن محمد الشيخ المهدي السعدي وقد توفي سنة ٩٥٥ وكان
يذكر بالشجاعة والحلم والعلم :

أَتَرَوِي الْأَمَانِي وَالْأَمَانِي سَرَابٌ وَتُغْنِي الْمَغَانِي وَالْمَغَانِي خَرَابٌ
إِلَى مَ التَّعَامِي وَالتَّعَلُّ بِالْمُنَى وَقَدْ قُرِّبَتْ لِلظَّاعِنِينَ رِكَابٌ
خَلِيلِي مِنْ سُودِ اللَّيَالِي أَسَاوِدُ تَعْصُرُ بِصَرْفٍ وَالْمَنَايَا لُعَابٌ
فَمَنْ تَكُنْ الْإَيَّامُ يَوْمًا سَرَرْنَاهُ فَإِنِّي بِأَيَّامِ الزَّمَانِ مُصَابٌ
نَعِي أَتَانِي وَالنَّعِي مُحَمَّدٌ^(٢) رَدَدَتْ عَلَيْهِ وَالْدَمُوعُ جَوَابٌ
بُكَاءَ لِمَنْ شَدَّتْ عُرَى الْمَلِكِ كَفَّهُ وَمَنْ رَأَيْتُهُ فِي الْمُغْضَلَاتِ شِهَابٌ
مَهِيًّا تَلَاقِيهِ الْقَبَائِلُ وَالْقَنَا فَتُغْضِي وَأَعْمَارُ الْكُهُمَا نِهَابٌ
كَرِيمٌ غَذَّتْهُ الْمَكْرُمَاتُ وَسَيِّدٌ ثَمَّةَ كِرَامِ النَّاسِ طَابَ وَطَابُوا
أَنَّهُ الْمَنَايَا خَلَسَتْ حَيْثُ أَيْقَنْتَ بَانَ اخْتِلَاسًا فِي الْقُلُوبِ غِلَابٌ
فَتَى نَيْطَ حُبِّ الْمَأْثُرَاتِ بَلَحْمِهِ فَمَنْ خَلَاهُ وَالْمَدِيحِ ثِيَابٌ
فِيَالَيْتَ مَنْ نَادَى صَدَاهُ يُجِيبُهُ كَمَا كَانَ مَنْ نَادَاهُ فَهُوَ يُجَابُ

(١) الداهية والمنية . (٢) يرد النعي بمعنى الناعي والمنعي .

وإنَّ طَلابَ النَّاسِ لِلْعُرْفِ بَعْدَهُ وقد غَيَّبُوهُ فِي الثَّرَى لَعُجَابِ
لَقَدْ بَثَّ بَثَّ الْحُزَنِ فِي الْأَرْضِ هُلْكُهُ فكلُّ عَمِيدٍ فِي الْبِلَادِ مُصَابِ
نَعْتُهُ الْقَوَائِي لِلْعَوَائِي فَأَعْوَلَتْ بَنَاتُ الْقِيَامِي أَنْشُرُ وَذَنَابِ
أُظُنُّ صُرُوفَ الدَّهْرِ تَحْدُثُ بَعْدَهُ سَتَحُلُّوْا وَإِنَّ الْحَادِثَاتِ لَصَابِ
كَمَا حَالَ حَالَ الطَّيِّبَاتِ لِفَقْدِهِ ^(١) عَنْ الْعَهْدِ حَوْلًا فَالْعَذَابُ عَذَابِ ^(٢)
عَظِيمٌ أَلَمٌ فِي عَظِيمٍ بِمِثْلِهِ وَبَيْنَ الشُّكُوفِ فِي الْقِيَاسِ نِسَابِ
فِيَا طَيِّبًا طَابَ الثَّرَى بِعِظَامِهِ قَضَيْتَ وَلَمْ يُلَمِّمْ بِسَاحِكِ عَابِ
سَلَامٌ وَرِضْوَانٌ عَلَيْكَ وَرَحْمَةٌ يُوَافِيكَ مِنْهَا فِي الضَّرِيحِ رِغَابِ
عَلَيْكَ أبا الْحَرَّانِ صَبْرًا فَذُقْ بِهِ دَوَاءٌ لِأَدْوَاءِ الزَّمَانِ يُشَابِ
رُزِئْتَ جَلِيلًا فَاحْتَسِبْهُ فَاتَهُ وَإِنْ جَلَّ خُطْبُ فَالْعَزَاءُ عَصَابِ ^(٣)
لَعَلَّ مِسَاسَ الرُّزْءِ يَقْدَحُ مَا بِهِ تُهْدُ صِلَادُ أَوْ تُفَتُّ صِلَابِ
فَكُنْ هَضْبَةً نَازِيًّا إِلَيْهَا فَإِنَّمَا الْخُطُوبُ سُيُولُ وَالْمُلُوكُ هِضَابُ
عَلَى أَنَّهُ التَّمْجِيسُ وَالْمِيزُ حَاكِمُ بِإِنَّكَ تَبْرُ وَالْمُلُوكُ تُرَابِ
فَإِنْ غَاضَ مِنْهُ جَعْفَرُ الْبَاسِ وَالنَّدَى فِي الْبَحْرِ وَالْخُلُجِ الْعِظَامِ حِسَابِ
وَمَا ضَاعَ مَجْدُ قَطُّ حُفَّ بِقُبَّةِ فَكَيْفَ وَقَدْ حَفَّ الْقَبَابُ قِبَابِ
رَعَى اللَّهُ لِلْإِسْلَامِ فِيهَا بُدُورَهُ وَأَخْصَبَ مِنْهَا لِلْأَنَامِ جَنَابِ

(١) حال يحول حولاً: تبدل. (٢) بكسر العين في الاول وفتحها في الثاني..

(٣) ما عصب به .

وللاديب علي بن احمد مصباح يرثي الشهيد أبا الفضل جشوس :
حلّ بالدين يا لقوم بلاء أحجمت دون وصفه الشعراء
قتل اليوم أعلم الأرض ظلماً فيه في الاسلام يحقّ العزاء
قتلوه من أجل أن كان أستا ذا أعزته السنه السمعاء
قتلوه من أجل أن كان عن سبل الهوى فيه نفرة وإباء
قتلوه أن كان للشرع شمساً ليس تخفي ضياءها الظلام
قتلوه أن كان حصناً به تمنع عما تريده الاشقياء
قتلوه من أجل أن كان للشرع ع حساماً تنأيه الامراء
قتلوه أن كان للحق قوفاً لا وما إن تفضله الأهواء
فاظنوا الدين أن قضى نحبه عبد السلام أودت به الغرباء
واذا نوذي العباد يوم الفصل جاءوا وهم له شهداء
وهناك الإلاه والخلق والأفلاك طرأ عن قتله خصماء
ما يكون الجواب منهم اذا ما سجبوا في لظى ويدس الجزاء
لحف نفسي عليه هددت به اليوم م من الدين هضبة قعساء
لحف نفسي عليه ما لشموس العلم حيث اختفت عليه انجلاء
عذوبه حياً وقد كان سيئاً من لديه السراء والضراء
واجتنوا ماله الذي سوف يُجنى بؤسهم حين لا يقيم نجا
فعدا عائلاً واولاده والاهل طرأ جميعهم فقراء

غَيْرَ أَنَّهُمْ لَمَّا رَأَوْهُ مِنْ اللَّهِ وَانْ أَمَلَقُوا فَهُمْ أَغْنِيَاءُ
 صَبَرُوا لِلْقَضَاءِ وَاحْتَسَبُوا الْإِجْرَ وَمَا غَيْرُهُمْ الْبِئْسَاءُ
 ثُمَّ طَافُوا بِهِ عَلَى النَّاسِ فِي الْأَسْوَاقِ كَمَا يَكُونُ مِنْهُمْ عَطَاءُ
 فَقَدْ أَمْسَاهُونَ يُلْقُونَ أَمْوَالَهُمْ عَلَيْهِ رَجَالُهُمُ وَالنِّسَاءُ
 مَا حَبَبُوهَا إِلَّا لَظَنَّهُمْ أَنَّهُ سَوْفَ يَأْتِي لَهُ مِنْ الْفِدَاءِ
 ثُمَّ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَقَوْهُ الْمَنَاءِ لَا لِسِيسِ وَاللَّهِ بَعْدَ هَذَا بَلَاءُ
 يَا لَهَا مِنْ مُصِيبَةٍ سَارَ فِي الْأَرْضِ وَفَوْقَ السَّمَاءِ بِهَا الْإِنْبَاءُ
 عَمَّتِ الْمَسَامِينُ رُزْءًا فَأَضْحَتْ كُلُّ عَيْنٍ مِنْهُمْ عَرَاهَا الْبُكَاءُ
 يَا بَنَ جَسُوسٍ إِنْ تَكُنْ حَبَسْتَ لِلْخَوْفِ عَنْكُمْ لِسَانُهَا الْأُدْبَاءُ
 فَأَنَا الْيَوْمَ مُفْصِحٌ بِرِثَائِكُمْ مِثْلًا صَخْرَهَا رَأَتْ خَنْسَاءُ
 فَلْيَقُلْ مَنْ يَشَاءُ مَا شَاءَ وَلْيَفْعَلْ فَبِي مِنْ بَلَوَاتِكُمْ بُرْخَاءُ
 فَعَسَى إِنْ لَقِيتُمْ يَوْمَ حَشَرٍ تَشْفَعُنَّ لِي فَإِنَّكُمْ شُفَعَاءُ
 وللشيخ أبي عليّ اليوسي يرثي زَاوِيَةَ الدَّلَاءِ لَمَّا أَوْقَعَ بِهَا
 السلطان مولاي رشيد العلوي سنة ١٠٧٨ :

أَكَلَفُ جَفْنِ الْعَيْنِ أَنْ يَنْثُرَ الدَّرَّاءَ فَيَأْبَى وَيَعْتَاضُ الْعَقِيقَ بِهَا حَرًّا
 وَأَسْأَلُهُ أَنْ يَكْتُمَ الْوَجْدَ سَاعَةً فَيُفْشِي وَإِنَّ اللَّوْمَ آوَنَةً أَغْرَى
 وَقَدْ كُنْتُ أَسْتَضْحِيهِ حَتَّى تَوَقَّدَتْ * جُذْدًا الْوَجْدَ فَاسْتَسْقَيْتُهُ يُطْفِئُ الْجَمْرَا
 عَلَى أَنَّ دَمْعَ الْعَيْنِ فَضْلٌ حُشَّاشَةٌ تَذَابُ فَمَاذَا يَنْفَعُ الدَّمْعُ أَنْ يُجْرَى

وَكَاثَتْ سُرُوحُ الْهَمِّ عَنِّي عَوَازِيَا وَكَانَتْ عَيُونُ الْحَادِثَاتِ غَوَافِلَا
 وَبَعْدَ النَّوَى أَضْحَتْ مَرَاتِعُهَا الصَّدْرَا لِيَالِي كَانَ الْبَيْنُ عَنْ جِيرَةِ الْحِمَى
 زَمَانًا وَخَطْبُ الدَّهْرِ كَانَ بِنَا غِرَا وَكَانَتْ مُدَامَاتُ الْوَصَالِ مُدَامَةً
 صَدُودًا وَنَظْمُ الشَّمْلِ لَمْ يَسْتَجِلْ نَثْرَا تَجَاذَبُ أَخْدَانُ الصَّفَاءِ كُؤُوسَهَا
 عَلَى الْقَوْمِ صِرْفًا لَا مَزِيحًا وَلَا نَزْرَا فَبَيْنَا لِيَالِي الْوَصْلُ بَيْضٌ وَرَوْضُهُ
 فَلَا تَخْتَشِي مِنْهَا خُمَارًا وَلَا سُكْرَا عَدَتْ غُدُوءَةُ أَيْدِي الْحَوَادِثِ فَاخْتَلَتْ * خَلَاهَا^(١) فَعَادَتْ بَعْدَ نَظَرِهَا غُبْرَا
 بَوَاحِشٍ وَحَوَائِنَ الْأَهْيَلِ بِهَا قَفْرَا وَأَبْدَلْنَ مَانُوسَ الْبِيَارِ وَأَهْلَهَا
 بِمَاءٍ فَمَا تَخْشَى جَفَاءً وَلَا نَعْرَا وَيَبْنِ الْجَمُوعُ الْحَيَّ كَالرَّاحِ شِبْثَهَا
 وَصَاحِي الْمَلِكِ الَّذِي نَادَمَ الشُّعْرَى^(٢) وَكَالْفَرْقَدَيْنِ الطَّالِعَيْنِ تَأَلَّفَا
 أَكْفَهُمْ مِنْ كُلِّ مَا جَمَعَتْ صِفْرَا أَصَابَتْهُمْ عَيْنُ الْكَمَالِ فَعَادَتْ
 سَهِيلًا بِسَخَطِ الْبَيْنِ أَوْ أَوَّلِ الرَّأ^(٣) وَرَدَّتْهُمْ مِثْلَ الثَّرْيَا إِذَا رَأَتْ
 يُرَدِّدُ مَا قَالَ مَنْ قَدْ خَلَا شِعْرَا : فَأَسْبَحَ فِي أَرْجَائِهَا الْيَوْمُ مُنْشِدَا
 أَيْنِسُ^(٤) بَلَى لَكِنْ هَوَى جَدُّهُمْ عَثْرَا (كَأَنَّ لَمْ يَكُنْ بَيْنَ الْحَجُونِ إِلَى الصَّفَا

(١) الخلا النبات الرطب الرقيق واختلاؤه قطعه . (٢) هو جذية بن الأبرش ونديماء الفرقدان (٣) كناية عن البعد والفراق فان الثريا نجم شامي وسهيل نجم يماني وأما واصل فهو ابن عطاء شيخ المعتزلة كان يلثغ بالراء فيبذلها غيبًا ولاقنذاره على الكلام يتجنبها فلا تقع في كلامه .

فلا جفنَ إلا وهو مغضٍ على القذا
ولا وجدَ إلا وهو مُرخٍ سُدُولَه
صبرتُ فؤادي للخطوب فلم يزلْ
وأزمتُ نهرَ الدمعِ عني تعزياً
ووجهتُ نحو الحيِّ أعربُ عن هوى
وأحسبُ ما قد كنتُ أحسبُ دائماً
ولا عينَ إلا من نجيع الشَّجَا حُمرَا
ولا همَّ إلا وهو يكتنفُ الفُكرَا
به رشقها حتى تقضى فلا صبرا
فلما جرى كالنهر لم أملك النهرَا
ضميري فلا ألفتُ زيدا ولا عمرا
فخطتُ بنانُ البين في راحتي صفرا

ألا قل لأرواح الصِّبَا لا تُغادينا
وقل لبُروق الشَّرْقِ تُغمدُ سيوفها
بلادُ إذا ذُقنا رُضابَ معينها
وان نحن رُحنا بالشَّذا من رياضها
رياضُ إذا أبصرتها ونشقتها
وأزري على من كان حنَّ صباةً
فمن لي بواديها إذا فاح رندُه
فإنَّا بأرواح الجنوب لنا ذكري
فإن بُروقَ الجوفِ صيرَناها بُترا
فما لِرُضابِ العين نلتَمِسُ الثَّغرا
رَبِحنا فما نرجو على العنبرِ التَّجرا
فلا تذكرنُ نجداً ولا تذكرنُ شجرا
اليها قديماً إذْ على مثلها يُزرى
ومَن لي بمرعاها إذا أطلعَ المَشرا^١

١ - أي زجره وهو بهذا المعنى في قافية البيت .

٢ - أي الشمال .

٣ - المشر : النبات الأخضر .

وَمَنْ لِي بِرَوْضَاتٍ يَفُوقُ ضِيَاوُهَا
عَلَى الشَّمْسِ حُسْنًا كُلَّمَا ابْتَهَجَتْ زَهْرًا
وَهَيْهَاتَ وَاِدٍ يُنْبِتُ الرِّندَ أَيْكُهُ

وَهَيْهَاتَ رَوْضَ يُطْلِعُ الشَّمْسَ وَالْبَدْرَا

وَعَذِبُ فُرَاتٍ تَسْتَقِيهِ وَقَايَةً
فَهَلْ نَفْحَةٌ تَكْفِينِي الْمَسْكَ فَارِحًا
وَهَلْ طَلْعَةٌ تَكْفِينِي الْبَدْرَ طَالِعَا
وَهَلْ وَقْفَةٌ بَيْنَ الطُّلُولِ الَّتِي قَضَتْ
هَنَالِكَ إِخْوَانُ الْفَوَادِ وَفَتِيَّةُ
نُزَايِلُهُمْ لَا عَنْ هَوَى لِنَوَاهُمْ
وَنَنَائِي عِجَالًا عَنْهُمْ مَثَامَا نَائِي
فَمِنَّا إِلَيْهِمْ صَبُوءُ ابْنِ مُلَوِّحٍ^٢
فَمَا أَنْزَرَ الصَّبْرَ الْجَمِيلَ عَلَى النَّوَى
فَلَوْلَا هَوَى نَجْدٍ وَطِيبُ نَسِيمِهَا
وَعَذِبُ فُرَاتٍ تُسَلْسِلُ سَخَتْ بِهِ
وَمَشْمُولَةٌ صَهْبَاءُ مَا قَطُّ شَابَهَا
بِهَا هَامَتِ الْأَرْوَاحُ مِنْ قَبْلِ خَلْقِنَا

وَتَطْعَمُهُ رَاحًا وَتُبْصِرُهُ دُرًّا
وَهَلْ شَرِبَةٌ تَكْفِينِي الشَّهْدَ مُسْتَمِرًّا
وَهَلْ لَمْعَةٌ تَكْفِينِي الثَّغَرَ مُفْتَرًّا
صُرُوفُ اللَّيَالِي فِي مَعَالِمِهَا نَذْرًا
هُمْ لِلْحَشَا خَيْرٌ فَمَا يَطْلُبُ الْحَمْرَا
كَمَا لِفِطَامٍ زَايِلَ الْمَرْضَعِ الظُّثْرَا
أَبُو صَبِيَّةٍ عَنْهُمْ إِذَا يَمَّمُ الْقَبْرَا
وَمِنْهُمْ شَجَا الْخُنُسَاءِ إِذَا فَارَقَتْ صَخْرَا
وَمَا أَغْزَرَ الدَّمْعَ الطَوِيلَ وَمَا أَجْرَى
وَرِيحُ حُزَامَاهَا إِذَا سَاوَقَ الْفَجْرَا
أَكْفُ الْغَوَادِي فِي حَدَائِقِهَا غَمْرَا
بِرَاوُوقِهِ الْحَانِي وَلَا حَلَّتِ الْقِدْرَا
وَمِنْ بَعْدَمَا كُنَّا وَإِذَا نَبْلَغُ الْحَشْرَا

فَكَمْ وَلَّهْتُ فِكْرَ ابْنِ عِيسَى وَمَالِكٍ

وَكَمْ أَطْرَبْتُ سَهْلًا وَكَمْ اشْغَلْتُ بِشْرًا^١

إِذَا مَا تَحَسَّاهَا الْفَتَى لَمْ يَخَفْ بِهَا جُنَاحًا وَلَكِنْ يَرْتَجِي عِنْدَهَا أَجْرًا

تَحْمَلُهُ الْأَوْزَارَ غَيْرَ مُذَمَّمٍ بِأَعْبَانِهَا الْعُظْمَى وَلَمْ يَكْسِبِ الْوِزْرَ

وَيُبْرِدُ غُلَّاتِ الْحَشَا وَتَشْبِهَا أَوَارَآوُ تُعْطِي الرُّشْدَ وَالسَّفَهَ الْحِجْرَ

وَتُورِثُهُ قَبْضًا وَبَسْطًا وَفُرْقَةً وَجَمْعًا وَنَسْيَانًا وَتُورِثُهُ شِعْرًا

فَلَوْلَا رَجَاءُ الْفَوْزِ مِنْهَا بِشَرِيبَةٍ

تُدَاوِي عَقَائِلَ الْهَوَى وَالْجَوَى الْمُضْرَى

لَكَانَتْ أَكْفُ الْبَيْنِ تَصْدَعُ بِالْجَوَى

زُجَاجَةً أَحْشَائِي فَلَا أُمْلِكُ الْجَبْرَ

عَلَى أَنْ هَذَا الدَّهْرُ لَيْسَ بِضَارِعٍ لَهُ غَيْرُ مَنْ أَمْسَى بِأَحْدَانِهِ غُمْرًا

هُوَ الدَّهْرُ لَا يُبْقِي عَلَى مُتَخَشِّعٍ ذَلِيلٍ وَلَا ذِي نَخْوَةٍ مُزْدَهٍ كِبَرًا

حُسَامٌ إِذَا مَا صَمَّمَ الدَّهْرُ فِي أَمْرٍ غَدًا دُمَهُ بَيْنَ الْوَرَى خَضِرًا مَضْرًا^٢

وَسِيلٌ إِذَا مَا يَمُمُ الْإَرْضَ أَصْبَحَتْ أَخَادِيدَ وَانْقَلَبَتْ كِرَادٍ سُهَا كَسْرًا

١ - أحمد بن عيسى الخراز ومالك بن دينار وسهيل بن عبد الله التستري

وبشر الحافي من كبار الصوفية .

٢ - غذا: سال ، وخضرًا مضرًا: هدرًا .

وليثُ هَـصُور ما تَغَشَّى حَظِيرَةً
 غُشُومٌ فما يَرْتاع من بأس خادِرٍ
 فليس عجيباً ما أتى من عجائب
 وليس بَنَزَر ما أَبادَ وما بدا
 فكم من عظيم يغتلي فوق باذِخٍ
 وكم من ملك كان يُزهى بَثْوَةٍ
 تَغشاه بالارزاء حتى كأنما
 وأفرط في استنفاد ما قد أعدّه
 أدارَ على داراً صريفَ صُروفه
 فأودع ذاك التُّربَ بعد أُسْرَةٍ
 وناوى بني ساسانَ في غُلُواتِها
 وغادر في تلك المدائن أعيناً
 تُحلي نُحوراً بالمدامع حُسرَةً
 وصيرها مَقْصُورَةً بعد بَسْطَةٍ
 ومدَّ إلى تلك المقاصير كَفَّه
 فيسْطُوَ إِلَّا أَنْعَمَ الْغَضُّ وَالْعَقْرُ
 كَمِيٍّ ولا من حُسْنٍ ساكِنَةٍ خَدْرُ
 ولو أطلع الغُبراء واستنزل الحُضرُ
 ولا بَغْرِبٍ ما أعلَّ وما أبرا
 من المجد أَرْدَنَهُ صَوارِمُه حَدْرُ ١
 وعزَّ ولا يالو اعتلاء ولا فخرُ
 له رِثَةٌ منه فلم يَأْلُه دَفْرُ ٢
 وما عدَّ حتى ما استطال وما أثرُ
 وأتبعه غَلابُهُ الْمَلِكَ الْحَبْرُ
 وأودعَ هذا بعد بَسْطَتِهِ بَرا ٣
 وعزَّتْها الْعُظْمى فذلَّلها قَسْرُ
 لِعَيْنِ غَدَتِ من رَيْبٍ أَحْدائِهِ خَزْرُ
 وكانت تَعَالَى أَنْ تُحْلِيها شَذْرُ
 ومجد على نَشْرِ بَيْطُنِ الثَّرَى قَصْرُ
 فلم يَدْعِ الْبَيْضاءَ فيها ولا الصَّفْرُ

١ - نزولاً ومبوطاً

٢ - ذلاً .

٣ - ملاكاً .

وأُشْرِقَتِ الْأَرْجَاءُ مِنْهَا بِشِيرَعَةٍ حَنِيفِيَّةٍ مِنْ بَعْدِ مَا أَظْلَمَتْ كُفْرًا
 وَجَرَّ عَلَى أَوْلَادِ جَفْنَةٍ ذَيْلَهُ فَجَرَّعَهَا حَتْفًا وَأَلْبَسَهَا صُغْرًا
 فَكَانُوا لِآفَاتِ الزَّمَانِ جَزَائِرًا وَكَانُوا قَدِيمًا آفَةً تُتْلَفُ الْجُزْرَا
 وَأُنْحَى عَلَى لَحْمٍ فَعْفَى رَبَاعَهَا وَرَامَ بَنِي بَدْرِ فَأَتَبَعَهَا بَدْرًا
 وَأَدْرَكَ أَوْتَارًا بِسَيْفٍ وَبِيْهَسٍ فَعَادَا كَأَن لَمْ يُذْرِكَا قَبْلَهُ وَثَرًا
 وَظَمَّ عَلَى مَرَوَانَ إِذْ تَلَّ عَرْشَهَا فَمَا خَافَ عُقْبَاهَا وَلَا احْتَمَلَ الْإِصْرَا
 وَوَعَادَ عَلَى بَغْدَادَ فَاجْتَثَّ مُلْكَهَا وَلَمْ يَخْتَرِمْ أَمْلَاكَهَا النَّجْبُ الْغُرَا
 وَرَامَ ابْنَ عَبَادَ بِخَسْفٍ فَنَالَهُ وَأَعْلَقَ مُنْتَشَاً بِهِ النَّابَ وَالظُّفْرَا
 أَسِيرًا بِأَنْعَمَاتٍ كَأَن قَدْ فُدِيَ بِهِ مَنِ احْتَلَّ فِي تِلْكَ الْجَزِيرَةِ مِنْ أَسْرَى
 وَلَمْ يَرِثْ إِذْ يَنْكِه فِيهَا سَرِيرَهُ وَمِنْبَرُهُ وَالْدَّهْرُ مَا يَخْتَشِي نُكْرَا
 فَهَلْ تَمْتَرِي فِي صَوْلَةِ الدَّهْرِ بَعْدَمَا أَتَتْكَ عَلَى ذِكْرٍ وَقَائِعُهُ تَتْرَى
 وَكَمْ مِنْ مُحِبٍّ صَادِقٍ الْحُبَّ رَوْضَةً أَيْنِقَةُ أَزْهَارٍ تَوَسَّطَتِ الْغُدْرَا

إِذَا رَامَ وَصَلَ الْحِبَّ أَلْفَاهُ فِي الْهَوَى

يُسَارِعُ لَا هَجْرًا يَخَافُ وَلَا غَدْرًا عَلَى أَلْفَةٍ وَالْعَيْشُ دَانٍ قُطُوفُهُ
 كَأَنَّهَا الْفَرَّخَانُ قَدْ أَلْفَا أَلْوَكْرَا فَلَمْ يَنْشَبِ الدَّهْرُ الْمُشْتَّتُ أَنْ فَرَى
 مِنْ أَلْوَصَلِ مَا قَدْ أَبْرَمَاهُ وَمَا زَرَا وَأَوَّلَاهُمَا بِالْقُرْبِ يَبْنِئَانِ وَبِالْهَوَى
 جَفَاءً وَبِالْوَصْلِ الْقَطِيعَةَ وَالْهَجْرَا وَأَبْدَلَ ذَاكَ الْأَنْسَ وَخَشَا وَغَمَّةً
 وَذَاكَ اللَّذِيذَ الْغَضَّ مُسْتَوْبِلًا مَرَا

فلا تَهْتَبِلْ بِالْحَادِثَاتِ وَلَا تَتَّقْ
مُقَرَّبَهَا مُقْصَى وَمَرْفُوعَهَا لَقَى
وَلَا تَرَكِنْ لِلدَّهْرِ إِنَّ نَعِيمَهُ
فَبِينَا تَرَاهَا قَدْ كَسَتْكَ بِرْدِهَا
مَلُولٌ فَمَا بَاقٍ عَلَى عَهْدِ خُلَّةٍ
فَإِنْ سَرَّ فَلْتَظْفَرْ وَإِنْ سَاءَ فَاصْطَبِرْ
عَشِيرٌ مَتَى يُحْسِنُ فَقَدْ بَرَّ عِشْرَةً
وَإِنْ كَانَ يَمْضِي الْخَطْبُ وَالْحَرْمُ لَمْ يَنْلِ
وَإِنْ سَبَقَتْكَ الْحَادِثَاتُ بَغَائِتِ
أَلَمْ تَرَ أَنَّ الدَّهْرَ حُبْلَى أَيْتَةً
فَمِنْ مَنَحٍ تُسْلِي وَمِنْ مَحَنٍ تُسِي

فَمَا وَهَبَتْ يَوْمًا فَمَوْهَبَهَا مُعْرِى
وَمُنْهَلَهَا مُظْمًا وَمَكْسُوهَا مُعْرِى
ظِلَالُ سَحَابٍ يُمْسَحُ السَّهْلُ وَالْوَعْرَا
تَجَافَتْ بِأُمِّيَالٍ فَأَلْبَسَتْ الْحَرَا
وَلَا مُسْتَدِيمٌ فَيْكَ يُسْرَأُ وَلَا عُسْرَا
لِعَوْدَتِهِ فَالدَّهْرُ مَا يَأْلَفُ الصَّبْرَا
وَأَلَّا فَكُنْ بِالْهَرَفِ فِي حُكْمِهِ الْبَرَا
جُحَا حَا وَلَا عَارًا بِهِ فَكُنْ الْحَرَا
فَسَوْفَ يُرِيهِ الدَّهْرُ فَاَنْتَظِرِ الدَّهْرَا
وَلَا دُتْهَا يَوْمًا وَإِنْ لَمْ تَكُنْ تُذْرى
تَتَانِجُهَا صُغْرَى عَلَى الْمَرْءِ أَوْ كُبْرَى

لَا تَأْمَنْ أُنْبَاءَهُ إِنْ تَحَبَّبُوا
وَكُلُّ بَنِي دَهْرٍ فَأَشْبَاهُ دَهْرِهِمْ
مَتَى مَا ارْتَجَبُوا رَغْبَاءَ مِنْكَ تَقَرَّبُوا
وَأَخْفُوا دَمِيمًا كَانَ فِيكَ وَأَظْهَرُوا

إِلَيْكَ فَمَنْ يُشْبِهُ أَبَاهُ فَقَدْ بَرَّ
عَلَى مَا قَضَى اللَّهُ الْكَرِيمُ وَمَا أَجْرَى
إِلَيْكَ وَأَبْدُوا خَالِصَ الْوُدِّ وَالْبَرَّ
جَمِيلًا وَقَالُوا ذُو مَحَاسِنٍ لَا تُعْرِى

١ - اي مدركة توشك ان تضع حلها .

٢ - لا تجحد .

فذلك أحرى أن يجلّوا ويُنصِتُوا
 وإن لم يُرجّوا منك خير أرايتهم
 وينشون عنك المنديات وإن رأوا
 فلا تُصنع سَمْعاً للذي ذمّ منهم
 فإنّ بني الدنيا عبيدُ هواهم
 وإنّ هواهم حيثُ ترتبُ الغنى
 إذا مارأوا إذا ألوفُ لا ذوا بذيله
 وإن بصّروا بالمملىق اهتزأوا به
 وقالوا بغيضُ إن نأى ومتى دنا
 فان غاب لم يُفقدوا إن علّ لم يُعدّ
 إليك رَشاداً كان قَوْلُكَ أو تبرا
 جفاء وإِعراضاً يُؤلّونك الظّهرا
 جميلاً أعاروه الغشاوة والوقرا
 ولا للذي أبدى الجميل وإن أطرى
 على مرّكز الأهوال دورتُهم طرا
 وليس هواهم حيثُ ترتبُ الفقرا
 وإن لم ينالوا من سحائبه قطرا
 ومدّوا إليه طرفهم نظراً شزرا
 يقولوا ثَقيلٌ مُبرمٌ أذبر الفقرا
 وإن مات لم يشهدوا وإن ضاف لم يُقرى

وفي الله للمرء اللبيب كفاية
 فكن رابثاً بالنفس عنهم ومغضياً
 ولا تجعلن في غير مولاك همّة
 وإن شئت ودّا فيهم وتوفراً
 فشاركهم فيما بكفك واكفهم
 عن الناس والمحروم من حريم الأنجرا
 بعين الحشا عما تكفّت الغبرا
 فمنه ترى لو تعلّم النفع والضرا
 لعرضك أو شئت النباهة والذكرا
 مؤونك واستبق التّجمل والسترا
 وخالّل ولا تكلم وجامل ولا ترم
 وواصل ولا تضرم ولكن خذ الحذرا

وَلَا تَفْتَحْ عَيْنَاكَ ذَا سَمِيلٍ وَلَا
 فَإِنَّ أَلْفَتِي بِالنَّفْسِ لَا اللَّبْسَ مَجْدُهُ
 وَمَا ذَا عَلَى أَلْعَضْبِ الَّذِي رَثَ جَفْنُهُ
 وَإِنَّكَ تُلْفِي النَّاسَ كَالنَّبْتِ ذَابِلُ
 وَقَدْ مَا يَكُونُ التُّبْرِ فِي التُّرْبِ تَخْتَفِي
 وَإِنْ كُنْتَ لَا تَعْتَدُّ إِلَّا بِمَلْبَسِ
 وَإِنْ أَلْفِي مَا أَوْرَثَ الْمَرْءَ فِي الْوَرَى
 وَكَمْ مُتَرَفٍ لَمْ يَرَأْمُ الضَّيْفُ سَاحَهُ
 فَلَا خَيْرَ فِيمَنْ لَا يُعَاشُ بَظْلَهُ
 وَلَا مَالٌ فِي الدُّنْيَا لِمَنْ لَيْسَ رَاشِحاً
 وَلَا مَجْدٌ لِلْمَسِيكِ يَوْمًا وَلَوْ حَوَى
 فَأَغْرِقْ عَلَى الْعَوْرَاتِ مِنْكَ بِسَابِغٍ
 وَإِنْ تُغَوِّرِ النُّعْمَى فَجُدْ بِبَشَاشَةٍ
 تَرَى الْمَرْءَ مَزْهُوًّا فَتُعْظِمُهُ قَدْرًا
 فَمَا شَانَ ذُرًّا كَوْنُ أَصْدَافِهِ كُدْرًا
 إِذَا كَانَ فِي الْهَيْجَاءِ يُنْعِمُكَ الْبُتْرَا
 لَذِيذُ وَغَضٍّ كُلَّمَا ذُقْتَهُ مَرًّا
 مَكَانَتُهُ حَتَّى تُخْلَصَهُ سَبْرًا
 فَسَيِّانٌ مِنْ يُكْسَى الْعِلْمَانِمَ وَالْحُمْرَا
 تَحَامِدُ فِي الدُّنْيَا وَعَلِيَاءُ فِي الْآخِرَى
 وَكَمْ تَرِبٍ طَابَتْ تَحَامِدُهُ نَشْرَا
 وَلَوْ فَاقَ تَخْلِيقًا بِجَوِّ أَلْعُلَى النَّسْرَا
 بِفَضْلِ عَلَى الْعَانِي وَلَوْ جَمَعَ الْوَفْرَا
 وَأَثْلَ مَا قَدْ كَانَ أَثْلَهُ كِسْرَى
 مِنَ الْعُرْفِ تَغْفِرُ مَا تُسَامِيهِ غَفْرَا
 فَخَيْرُ الْقِرَى أَنْ تَبْذُلَ الرَّحْبَ وَالْبِشْرَا

وعاصِ الهوى إن الهوانَ مع الهوى

وفي الصبرِ عزٌّ فاستسِغِه ولو صبرًا

فَمَنْ لِلْهَوَى أَلْقَى الْقِيَادَ فَقَدْ هَوَى
 وَكُنْ بِالذِّبَى آتَاكَ اللَّهُ مِنْ جَدَى
 وَمَنْ لَمْ يَكُنْ مُسْتَغْنِيًا بِقَنَاعَةٍ
 وَلَوْ أَنَّهُ فِي الْمَجْدِ قَدْ وَطِيءَ النَّسْرَا
 قَنُوعًا رَضُوا تَبْلُغَ الْأَنْجَمِ الزُّهْرَا
 فَلَيْسَ بِمُنْفَكٍّ عَنِ النَّاسِ مُعْتَرَا

وَمَنْ لَمْ يَكُنْ يَسْتَرْغِدُ الْعَيْشَ بِالرُّضَى
وَمَنْ لَمْ يَكُنْ بِالْحَزَمِ مُحْتَرِمًا فَقَدْ
وَمَنْ لَمْ يُبَادِرْ صَيْدَهُ وَهُوَ مُعْرِضٌ
وَمَنْ يَشْرِبُ بَخْسًا نُوقَهُ وَهِيَ سُؤْلٌ
وَمَنْ يَصْطَنِعُ عُرفًا إِلَى غَيْرِ أَهْلِهِ
وَمَنْ يَحْتَسِبُ يَهْمِلُ كَالْغَيْثِ وَابِلًا
وَمَنْ لَا يُثَقِّفُ مَتْنَهُ الدِّينُ وَالْحِجَابُ
وَمَنْ لَا يُجَنِّبُ قَوْلَهُ دَنَسَ الْحَنَاءُ
وَمَنْ يَبْغِ بَدَلًا بِالسَّبَابِ وَبِالنَّوَى
وَمَنْ يَصْحَبُ الْأَمْجَادَ تَنْظُفُ ثِيَابَهُ
وَمَنْ لَا يُجَالِسُ مَنْ يُجَانِسُ لَمْ يَدُمُ
وَمَنْ لَمْ يُجَاوِزْ بِالصَّدِيقِ وَيَلْمَحْهُ
وَمَنْ يَرْمُ بِالْبُغْضِ الْوَدُودَ مُعْتَفَاً
وَمَنْ لَمْ يَكُنْ يُبْدِي سَجَايَاهُ يُبْدِيهَا
وَمَنْ يَطْلُبُ الْأَعْلِيَاءَ يُلْفِ مَذَاقَهَا
وَمَنْ يَسْرِ فِي دَرْكِ الْمَعَالِي بِهَمَّةٍ
وَمَنْ لَا يَزَلُ كَلًّا يُمَلِّ وَتَحْتَمِلُ

يَقْسِمَتِهِ لَمْ يَبْرَحِ الدَّهْرَ مُضْطَرًّا
فَرَى حَبْلَهُ عَنْ نُجْحِهِ قَبْلَ أَنْ يُفْرَى
لِيَرْمِيهِ كَانَ الْعَنَاءُ لَهُ قَصْرًا
عِجَافًا تَمَنَّاها لَدَى غَيْرِهِ شَكْرَى
فَلَيْسَ بِلَاقٍ مِنْ جَزَاءٍ وَلَا شُكْرًا
فَلَا الْعَقْلُ يَجْفُو بِالْعِبَادِ وَلَا الصَّبْرُ
وَيَرْمُ الْوَزَى يَلْقَى الْمُثَقَّةَ السُّمْرَا
فَلَا يَتَمَتَّعُ يَوْمًا إِذَا سَمِعَ الْهَجْرَا
يَكُنْ بِنُضَارٍ جَيِّدٍ يَشْتَرِي الصُّفْرَا
وَمَنْ يَصْحَبُ الْأَرْدَالَ يُكْسِي بِهَا الْعُرَا
لَهُ أَحَدٌ فَالْأَسَدُ مَا تَرَأَى الْحُمْرَا
يَجِدُ لُبَّهُ نَغْلًا إِذَا نَزَعَ الْقَشْرَا
لِيَصْفُو يُورِثُ قَلْبَهُ الْبُغْضَ وَالْغُمْرَا
إِذَا مَا ارْتَجَى الرَّغْبَاءُ وَأَنْسَى الذُّعْرَا
هَبِيدًا ١ لَذُوْعًا لِلْحَنَاجِرِ لَا يُمْرَى
لِجُوجٍ رَمُوقٍ لِلْعَلَا يَحْمَدُ السَّيْرَا
بِهِ الْأَرْضُ أَنَّي سَارَ مِنْ ثِقَلِهِ وَقَرَا

ومن لا يَكُنْ يُرَجَى لِحَطَبٍ فلا يَكُنْ

فَتَى في نَدَى وليكن نَاهِداً بِكراً
ومن لم يُخَلِّ النَّفْسَ ثم يُحَلِّها
ومَن يَدَّخِرْ تَقْوَى الإله وذِكْرَه
على كُلِّ حال يَحْمَدِ السَّعْيِ والدَّخْرَه
ومَن يَغْنِ بالمولى فلن يَعمَدَ العِنى
إذا لم يَجِدْ يوماً لِحَيْناً ولا نَضْرَه

ولعبد الله بن محمد العلوي الشنقيطي يرثي غمّر التروزي :

هو الموت عَضْبٌ لا تَخُونُ مَضَارِبُه
وما الناس إلاَّ وارِدُوهُ فسايق
يُحِبُّ الفتى ادراكَ ما هو راغِب
فكم لا بسِ ثوبَ الحَيَاةِ فجاءَه
ولسنا نسبُ الدهرَ فيما يُصِيبنا
مضى مُشرقَ الأيامِ حتى اذا انقَضَت
نَقِيبُ نَسِنا كُلَّ شيءٍ لِرُزْنِه
أنا عِيَه أُرسلتَ عزلاءَ مُهْجَتِي
طوى نَعِيَه وعِيِي فيها أنا غَائِبُ
تَمَكَّنَ من نَفْسِي بِنَفْسِ سَمَاعِه
أَهَادِي السحابِ الغُرِّ وهي مُلْتَه
لقد صَحَّ موتُ المَكْرُماتِ بموته
وحوضُ زُعافِ كُلِّ من عاش شارِبَه
اليه وَمَسْبُوقُ تَحْبُ نَجَائِبِه
وَيُدْرِكُه لا بُدَّ ما هو رَاهِبَه
على فُجْأَةٍ عادٍ من الموتِ سَالِبَه
فلا الدهرُ جَالِيَه ولا هو جَالِبُه
ليالي أُنِي حَفْصٍ تَوالتْ غَيَاهِبُه
تَذَكَّرْنَاهُ كُلَّ آنٍ مَنَاقِبُه
فها دُمُها خِلاقُ جَفْنِي سَاكِبُه
عن الحسِّ فيه ذَاهِلُ العَقْلِ ذَاهِبُه
جوى فيه كُلِّي ذابَ قَلْبِي وَقَالِبُه
بَوَاكِيه أَمْ تلكَ الرَعُودُ نَوَادِبُه
وصرَّحَ ناعِيَه وَلَوَّحَ نَاعِبُه

دعاهُ السميعُ المستجابُ وطلما
هو السيدُ المتمدُّ في الناس ذكره
يُلاينُ مُرتاضاً أريباً وينبري
فتى يهبُ الآلافَ عفواً وتنكفي
تنوعُ فيه الناسُونُ فكلُّهم
فللاًبُحرُ الرّاوونُ أخبارُ جوده
والأسدُ الواعونُ شدةَ بأسه
يُجِدُّ فيفني من يُناوي مهابةً
علاينةً يَأْتُمُّه الجُمُّ واردةً
يُنَاجِي بما في نفس عافيه قلبه
فلم يُغْنِه المجدُ الذي هو حائز
على حزمه من طبعه مُتَعَقِّب
مَعَاظِفُهُ ما ضِقْنَ ذَرعاً بِجَاحِث
إِمَامٌ نَدَى في جامع المجد راتبُ

دعا الأَجْفَلِ^١ وَالْعَامُ أَشْهَبُ آدِبُهُ
وفي البوس كَفَاهُ وفي البأس قاضيه
هزبراً أبا أَجْرٍ^٢ على مَنْ يُغاضيه
تَخَفَتَهُ الآلافُ حين تُحاربه
الى كلِّ جنسٍ كامل الوصف نَاسِبُهُ
وللقمر الراوونُ كيف مَنَاصِبُهُ
وما دَفَعَتْ في كلِّ حرب مَنَاقِبُهُ
ويُجْدِي فَتَغْنِي مَنْ يُوالي مَوَاهِبُهُ
فِيضْرِبُهُ^٣ أو مَارِداً فَيُضَارِبُهُ
فِيَتَحِفُّهُ ما فِيهِ نِيْطَتْ مَآرِبُهُ
تُرائاً عن المجد الذي هو كَاسِبُهُ
يُبَاعِدُهُ الأَمْرُ المَلُومَ مُقَارِبُهُ
جَلِيلٍ وان كانت تُخَافُ مَعَاظِبُهُ
تُحِيلُ القضايا أن تُتال مَرايِبُهُ

١ - هي كالجفلى الدعوة العامة للطعام .

٢ - أي أشبال جمع جرو .

٣ - أي يعطيه .

مُنَوَّرُ مِرَاةِ الْفَوَادِ مُوَفَّقُ تَرَاءَى لَهُ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ عَوَاقِبُهُ
 تُفَرِّقُ مَا يَكْفِي الْبَرِيَّةَ كَفَّهُ وَتَجْمَعُ مِنْ فَوْقِ التَّرَابِ تَرَائِبُهُ
 عَلَى يَدِهِ الطُّولَى تَقْمَصُ مِطْرَفًا مِنْ الْعِزِّ وَالْإِثْرَاءِ هَا أَنَا سَاحِبُهُ
 إِلَى بَابِهِ فِي كُلِّ تَنْهَاءٍ مِنْهَجٍ يُؤَدِّي إِلَيْهِ طَالِبَ الْعُرْفِ لَاحِبُهُ
 سَقَى اللَّهُ قَبْرًا ضَمَّهُ وَبَلَّ رَحْمَةً مِنَ الرُّوحِ وَالرَّيْحَانِ تَهْمِي سَحَابَتُهُ
 وَأَوْفَضَ فِي وَحْشِ التَّرَابِ بَرُوحَهُ إِلَى حَيْثُ أَتْرَابُ الْجِنَانِ تُلَاعِبَتُهُ

وللاديب الطيب بن مسعود المريني المتوفى ١١٤٥ :

أَتَيْتُ الْقُبُورَ أَدَاوِي بِهَا قَسَاوَةَ قَلْبِي الَّتِي أَجِدُ
 وَقَمْتُ أَسَائِلُ عَنْ أَهْلِهَا وَهِنَاتٍ لَا خَيْرَ يُوجَدُ
 رَأَيْتُ مَصَارِعَهُمْ عِبْرَةً تُذِيبُ حُشَاشَةً مِنْ يَشْهَدُ
 أَقَامُوا قَلِيلًا وَقَدْ رَحَلُوا وَغَابُوا بِالْعَوْدِ مَا وَعَدُوا
 كَأَنَّ حَيَاتَهُمْ حُلُمٌ أَفَاقُوا بِهِ بَعْدَ مَا رَقَدُوا
 دَعَاهُمْ عَلَى الرِّغْمِ دَاعِي الرَّدَى فَلَبَّوهُ حِينَ انْقَضَى الْأَمَدُ
 وَقَدْ هَدَمَ الْمَوْتُ لَذَاتَهُمْ وَغَيَّرَ عَيْشَهُمُ الْارْغَدُ
 وَحَلَّوْا بُطُونََ الثَّرَى تَحْتَهُمْ تَرَابٌ وَفَوْقَهُمْ جُلُمُدُ
 وَقَدْ أَنْكَرَتْهُمْ مَعَارِفُهُمْ وَخَانَهُمُ الْأَهْلُ وَالْوَلَدُ
 تَسَاوَوْا بِأَجْمَعِهِمْ تَحْتَهَا فَيَسَّانِ الْأَحْمَرُ وَالْأَسْوَدُ

على كل ما قَدَّمُوا قَدِّمُوا وما زَرَعَتْ يَدُهُمْ حَصَدُوا

ولابن الطيب العلمي يرثي ابن زاكور :

قَضَى أَخُو النِّظَمِ والنَّثَرِ ابنَ زَاكُورٍ فَجَادَ دَمْعِي بِمَنْظُومٍ وَمَنْشُورٍ

وَأَمْتَدَّ شَوْقِي بِمَقْصُورِ الْحَيَاةِ لَهُ مَا حِيلَتِي بَيْنَ مَمْدُودٍ وَمَقْصُورٍ

ولابن زاكور يرثي امرأة من قرابته :

سَقَى الرَّحْمَانُ قَبْرَ أَضْمَ شَخْصاً تَسْرُبَلُ بِالْمَكَارِمِ وَارْتَدَاهَا

وَنَضَّرَ مَضْجَعاً لِفَتَاةٍ صِدْقٍ حَوَى غُرَرَ الْفَضَائِلِ إِذْ حَوَاهَا

لَقَدْ كَانَتْ تَحْضُ عَلَى الْمَعَالِي وَتَنْدُبُ لِلْمَكَارِمِ مَنْ أَبَاهَا

وَقَدْ كَانَتْ بِأَفْقِ الْفَضْلِ شَمْساً فَحَطَّتْهَا الْمَنِيَّةُ عَنْ ذُرَاهَا

وَأَلْبَسَهَا الْمُنُونُ حُلِيَّ كُسُوفٍ فَهَلَّا فَضْلُهَا الْوَافِي حَمَاهَا

فَكَمْ أَتَحَيَّتْ مَوَاهِبُهَا كَثِيباً أَحَلَّتْهُ النَّوَابِغُ فِي حِمَاهَا

وَكَمْ رَبَّتْ بِأَنْعَمِهَا يَتِيماً فَلَتَهُ أُمُّهُ حَتَّى سَلَاهَا

لَنْ مَاتَتْ فَمَا مَاتَتْ حُلَاهَا وَإِنْ أَوْدَتْ فَمَا أَوْدَى عُلاَهَا

فَقَدْ أَبَقَتْ مَائِرَ مُشْرِقَاتٍ تُخْبِرُ عَنْ عُلاَهَا فِي نَوَاهَا

وللوزير ابن ادريس يرثي السلطان مولاي سليمان العلوي :

نَبَأُ عَرَا أَوْهَى عُرى الْإِيمَانِ وَأَبَانَ حُسْنَ الصَّبْرِ عَنْ إِمْكَانِ

شَقَّتْ لِمَوْقِعِهِ الْقُلُوبُ وَزُلْزِلَتْ أَرْضُ النُّفُوسِ وَرُجَّ كُلُّ مَكَانِ

فَقَدْ الْإِمَامُ أَبِي الرَّبِيعِ الْمُرْتَضَى
وَبَكَتْ عَيُونُ الدِّينِ مَلَأَتْ جَفُونَهَا
لَمَّا نَعَى النَّاعُونَ خَيْرَ خَلِيفَةٍ
مَزَّقَتْ ثَوْبَ تَجَلُّدِي مِنْ فَقْدِهِ
عَجَبًا لِمَوْتِ غَالِهِ إِذْ لَمْ يَخَفْ
وَسَمَّا لِمَنْصِبِهِ الْمُنِيفِ وَلَمْ يَهَبْ
لَوْ كَانَ يُنَمَّعُ خَاضَ فُرْسَانُ الْوَعَى
وَحَمَوَهُ بِالنَّفْسِ النَفِيسَةِ إِيَّامَا
لَا كُنْ قِضَاءُ اللَّهِ حُمًّا فَلَا يُرَى
وَالْمَوْتُ مُورِدُ كُلِّ حَيٍّ كَأَسَمِهِ
إِنْ غَابَ عَنَّا شَخْصُهُ فَلَقَدْ تَوَى
وَمَنَاقِبُ وَمَفَاخِرُ وَمَآثِرُ
وَمَعَارِفُ وَعَوَارِفُ وَرَسَائِلُ
وَبَدُورُ أَوْلَادٍ وَآلٍ قَدْ قَفَّوْا
تَحَذُّوْا الدِّيَانَةَ وَالصِّيَانَةَ شِرْعَةً
اخْلُقْهُمْ وَوَجُوهَهُمْ وَاصْفُهِمْ
إِنْ حَارَبُوا أَبَدُوا شَجَاعَةً جَدُّهُمْ
مِنْ كُلِّ مَنْ جَعَلَ الْقُرْآنَ سَمِيرَةً

جَزَعَتْ لِغُظْمِ مُصَابِهِ الثَّقَلَانِ
وَجَدَّ عَلَيْهِ وَكُلُّ ذِي إِيمَانٍ
وَعَرَى الْفَوَادِ طَوَارِقُ الْأَحْزَانِ
وَنَثَرَتْ دَرَّ الدَّمْعِ مِنْ أَجْفَانِي
فَتَكَ الْمُلُوكَ وَسَطَوَةَ السُّلْطَانِ
غَضَبَ الْجُنُودِ وَغَيْرَةَ الْأَعْوَانِ
حِرْصًا عَلَيْهِ مَوَاقِدَ النَّبَرَانِ
يَحْمُونَ رُوحَ الْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ
لِلرَّءِ فِي دَفْعِ الْقِضَاءِ يَدَانِ
وَسَوَى الْمُهَيَّمِ فِي الْحَقِيقَةِ فَانَ
فِينَا الثَّنَاءُ لَهُ بِكُلِّ لِسَانٍ
شَاعَتْ لَهُ فِي سَائِرِ الْأَوْطَانِ
وَمَسَائِلُ قَدْ أُوضِحَتْ وَمَعَانِ
آثَارُهُ فِي الْعِلْمِ وَالْعُرْفَانِ
وَتَقَلَّدُوا بِصَوَارِمِ الْإِيْقَانِ
كَالزُّهْرِ وَالْأَزْهَارِ وَالْأَمْزَانِ
أَوْ خَاطَبُوا أَزْرَوْا عَلَى سَحْبَانِ
وَسَمَّا يُوَصِّفُ الْعِلْمَ وَالَّتِيَانِ

كم آيةٍ ظهرتْ له وكرامةٍ
 قد كانَ أوَّحدَ دهرِه وزمانه
 قد كانَ فرداً في البلاغة ان جرتْ
 مَن للعلا مِن بَعْدِه مَن للنهي
 يا رَمْسَه ماذا حَوَيْتَ مِنَ العلى
 يا رَمْسُ كَم وَاَرَيْتَ مَن كَرَمٍ وَمِن
 يارَمْسُ كَيْفَ حَجَبْتَ عَنَّا شَمْسَه
 فَلَوْ اسْتَطَعْتَ جَعَلْتَ فِي قَلْبِي قَبْرَه
 وَلَوْ اَنَّ عُمْرِي فِي يَدِي لَوَهَبْتُهُ
 لَ اَكُنْ يُخَفِّفُ بَعْضَ اَثْقَالِ الْاَسَى

دامتْ دلائِلُها مَدَى الاَزمان
 فِي الْعِلْمِ وَالتَّحْقِيقِ وَالْإِتْقَانِ
 أَقْلَامُه جَهَرَتْ بِسُحْرِ بَيَانِ
 مَن لِلتَّقَى وَتِلَاوَةِ الْقُرْآنِ
 وَطَوَّيْتَ مَن عِلْمٍ وَمِن عِرْفَانِ
 جُودٍ وَمِن فَضْلٍ وَمِن إِحْسَانِ
 وَضِياوُها فِي سائِرِ الْبُلْدانِ
 حَباً وَأَحْشائِي مِنَ الْاَكْفانِ
 وَفَدَيْتُه بِالْأَهْلِ وَالْإِخْوانِ
 عِلْمِي بِهِ فِي جَنَّةِ الرِّضْوانِ

الموشحات والأزجال

لَا بِنِ غُرْلَه مُوشَح غَزَلِي :

يا من حكى خَدُّهُ الشَّقَاتِقُ وما لَهُ في أَلْبَها شَقِيقُ
تَرَكَتَنِي بِالذَّمْعِ شَارِقُ لَمَّا بَدَا خَدُّكَ الشَّرِيقُ

سَلَّلْتَ مِنْ نَاطِرَيْكَ صَارِمٌ لِلْفَتَّكِ يَا شَادِنَ الصَّرِيمِ^(١)
وَسِرْتَ يَوْمَ الْفِرَاقِ سَالِمٌ وَقَدْ تَرَكَتَ الْحِشَا سَلِيمِ^(٢)
مَتَى أَرَاكَ الْغَدَاةَ قَادِمٌ يَا مَنْ حَدِيثِي بِهِ قَدِيمُ
شَبَّتَ مِنْ أَجْلِكَ الْمَخَارِقُ وَسِرْتَ مَعَ جُمْلَةِ الْفَرِيقِ
مَا بَيْنَ حَادٍ حَدَا وَسَائِقُ قَلْبِي بَيْنَ سَاقِهِ وَسِيقُ

لِسَائِلِ الدَّمْعِ صرْتَ نَاهِرُ مِذَّ سَالٍ فِي وَجْنَتِي نَهَرُ

١ - الصريم : الرمل ، ويعني غزال الصحراء .

٢ - اي ملسوع .

وَسِرْتَ وَالْقَدْ مِنْكَ خَاطِرُ وَالْقَلْبُ مِنِّي عَلَى خَطَرُ
لَسْتُ عَلَى ذَا الْجَفَا بِقَادِرُ لَكِنْ بِهَذَا جَرَى الْقَدَرُ
سَهْمُ النَّوَى مِنْ يَدَيْكَ مَارِقُ وَقَدْ غَدَا لِلدَّما مُرِيقُ
فَاسْمَعْ بَوَعْدٍ يَكُونُ صَادِقُ وَلَا تَكُنْ تَهْجُرُ الصَّدِيقُ

قَلْبِي غَدَا لِلْجَعِيمِ صَالٍ يَا مَنْ بِسَيْفِ الْجُفُونِ صَالٍ
وَعَيْرُ مَغْنَاكَ مَا حَلَالِي فَلِمَ تَرَى قَتَلَتِي حَالٍ
يَا نَاحِلَ الْحَضَرِ كَالْحَلَالِ ^(١) يَا كَامِلَ الْوُصْفِ وَالْحَلَالِ
سَاعَاتُ عُثْمَرِي غَدَتُ دَقَائِقُ لَمَّا بَدَا خَضْرُكَ الدَّقِيقُ
تَنْطِقُ عَنْ إِذْنِهِ الْمَنَاطِقُ تَقُولُ بِالرَّدْفِ مَا نَطِيقُ

يَا حَادِيَّ الْعَيْسِ مَعَكَ أَحْوَى رَقِي بِإِحْسَانِهِ حَوَى
رَيْمُ لَهُ الْقَلْبُ صَارَ يَهْوَى نَجْمِي بِهِ فِي الْهَوَى هَوَى
لَكِنَّهُ بَعْدَ ذَاكَ أَلْوَى دَيْنِي وَلِلْعِشْقِ مَا لَوَى
قَدْ سَرَّحَ النَّوْمَ فَهُوَ طَالِقُ عَنْ مُقْلَةٍ دَمْعُهَا طَلِيقُ
وَأَنْكَرَ الْعَهْدَ وَالْمَوَاقِيقُ وَعَنْدُ وَدِّي بِهِ وَثِيقُ

جَبِينُهُ يُنْجِلُ الدَّرَارِي وَتَغْرُهُ يَفْضَحُ الدَّرَرُ
وَالْحَدُّ أَزْهَى مِنَ النَّصَارِ نَزَّهَتْ فِي حُسْنِهِ النَّظَرُ
عَلَيْهِ سَطَرٌ مِنَ الْعِدَارِ كَمْ عَاذِلَ فِيهِ قَدْ عَذَرَ
جَمَالُهُ يَفْتِنُ الْعَوَاتِقُ وَخَمْرُ أَرْيَاقِهِ عَتِيقُ
وَطَرْفُهُ بِالنَّبَالِ رَاشِقُ وَقَدُهُ كَالْقَنَا رَشِيقُ

يَا مَنْ يَسْقُمُ الْجُفُونَ أَعْدَى جِسْمِي وَيِ أَشْمَتَ الْعِدَا
أَجْرَيْتَ دَمْعِي فَصَارَ مَدًّا وَطَالَ مَا بَيْنَنَا الْمَدَى
مُضْنَاكَ بِالْهَجْرِ مَاتَ صَدًّا وَمَا جَلَا قَلْبَهُ الصَّدَا
يَا مَنْ حَوَى الْحُسْنَ فِهْوَ فَائِقُ مِنْ سَكْرَتِي فِيهِ لَا أُفِيقُ
فَارْسِلِ الطَّرْفَ مِنْكَ طَارِقُ وَأَقْطَعْ عَلَى سَلَوَتِي الطَّرِيقُ

قَدْ سَاعَدَ الْوَقْتُ يَا نَدِيمَ فَقُمْ بِنَا لِلْهَوَى نَدِيمَ
وَأَسْتَجِلْهَا مَعَ رَشَا كَرِيمَ يَرْنُو بِالْحَاطِظِ كَرِيمَ^(١)
كَأَنَّهُ قَلْبِي الْكَلِيمَ وَكَأَنَّهُ جَذْوَةُ الْكَلِيمِ^(٢)
بِكُرْعَدَتِ فِي الدَّانِ عَاتِقُ مَا الْحُرُّ مِنْ رِقِّهَا عَتِيقُ

١ - اي كظبي ابيض .

٢ - يعني موسى عليه الكلام .

تُنِيرُنِي الْكَأْسُ شِبْهُ بَارِقٍ إِنْ مَزَّجْتَ صِرْفَهَا بِرَبِيقٍ
وله أيضا هذه الموشحة وتُعرفُ بالعُرُوسُ :

مَنْ يَصِيدُ صَيْدَا فَلْيَكُنْ كَمَا صَيْدَى
صَيْدِي الْغَزَالَةُ مِنْ مَرَاتِعِ الْأَسَدِ

كَيْفَ لَا أَصُولُ وَاقْتَنَصْتُ وَحْشِيَّةً
ظَلْمِيَّةً تَجُولُ فِي رِداً ^(١) سُوسِيَّةً
صَاغَهَا الْجَلِيلُ فِيهِ شِبْهُ حُورِيَّةٍ
تَتَشَنَّى رُوَيْدَا إِذْ تَمِيسُ فِي الْبُرْدِ
تَعْجِنُ الْغَلَالَةَ وَالرِّدَا مَعَ النَّهْدِ

رُبَّ ذَاتِ لَيْلَةٍ زُرْتُهَا وَقَدْ نَامَتْ
وَالرَّقِيبُ فِي غَفْلَةٍ وَالنَّجُومُ قَدْ مَالَتْ
رُمْتُ مِنْهَا قُبْلَةً عِنْدَ ضَمِّهَا قَالَتْ
قَرَّ قَرَّ وَأَهْدَا لَا تَكُنْ مُتَعَدَّى

تَكْسِيرُ النَّبَالَا^(١) وَتَقْرِطُ الْعِقْدِ^(٢)

تَحْدُهَا الْأَسِيلُ بَدَتْ مِنْهُ أَنْوَارُ
طَرَفُهَا الْكَحِيلُ سُلَّ مِنْهُ بَتَّارُ
هَا أَنَا الْقَتِيلُ فَهَلْ يُؤْخَذُ الثَّارُ
قَدْ أُسِرْتُ عَبْدًا وَلَمْ أَكُنْ بِالْعَبْدِ
مُتٌ لَا مَحَالَةَ فَاطْلُبُوا دَمِي بَعْدِي

ولسعيد بن إبراهيم السدراقي هذا الموشح في مدح الامير
إسماعيل بن الاحمر :

نَشِرَتْ فِيكُمْ بَنِي نَصْرِ لَا بِي الصَّدْقُ رَايَةُ النَّصْرِ
أَيُّ شَهْمٍ وَأَيُّ صِنْدِيدٍ حَازَ إِرْثَ السَّمَاحِ وَالْجُودِ
شَيْدَ الْمَجْدِ أَيُّ تَشْيِيدِ

لَمْ تُخَادِعْهُ أَلْسُنُ الشُّكْرِ فَهَوَ فِي الدَّهْرِ طَيْبُ الذِّكْرِ
ثَاقِبُ الذَّهْنِ وَافِرُ الْعَقْلِ عَالِمٌ بِالْعُلُومِ وَالثَّقَلِ
بُجَيْلُ النَّصْرِ مِنْهُ فِي النَّصْلِ

١ - النبالة ويقال النبایل في الدارجة المغربية: الاسورة الرقيقة .

٢ - بالكسر وهذا اللحن هو التزئيم الذي غيب على ابن غرلة ، راجع

ص. ١٣١ من الجزء الاول .

صَيِّقُ الْحَزْمِ وَاسِعُ الصَّدْرِ بَارِعُ الْحُسْنِ بِاسْمِ الشَّغْرِ
أَيُّ بَدْرِ بِطَالِعِ السَّعْدِ سَعِدَتْ مِنْهُ رُتْبَةُ الْمَجْدِ
لَمْ تَحِذْ رَاحَتَهُ عَنْ رِفْدِ

صَادِقُ الْوَعْدِ سَابِقُ الْفَخْرِ جَالِبُ النَّفْعِ دَافِعُ الضَّرِّ
رَافِعُ الْحَقِّ بَاسِطُ الْعَدْلِ قَاهِرُ الظُّلْمِ قَاتِلُ الْمَحَلِّ
مَانِعُ الْبَغْيِ مَانِعُ الْبَذْلِ

مُذْهِبُ الضِّيمِ عَاجِلُ الْبِرِّ نَاجِحُ الْفِعْلِ ذَاهِبُ الْعُسْرِ
يَا أَبَا الصَّدْقِ أَنْتَ مَوْلَانَا كَمْ نَوَالٍ بِذَلِكَ أَغْنَانَا
رُقْتَ حُسْنًا وَفُقْتَ إِحْسَانًا

لَكَ جُودٌ كَوَائِلِ الْقَطْرِ وَمَقَامٌ أَرْبَى عَلَى النَّسْرِ
وَلْتَنْصُورِ اذْهَبِي هَذَا الْمُوَشَّحَ الْغَزَلِي :

رَيَّانُ مِنْ مَاءِ الصَّبَا أَهْيَفُ مُتَمَلِّي الْبُرْدِ



كَالْغُصْنِ هَزَّتْهُ الصَّبَا فَوْقَ الرَّبِيِّ الشَّهْبِ
قَدْ قَلْتُ ، لَمَّا أَنْ سَبَا بِحُسْنِهِ ، لَبِّي
مِنْ عَيْنِهِ سَلَّ طُبَا وَأَعْمَدَهَا فِي قَلْبِي



أَسْرَنِي مَاضِي الشَّبَا أَوْطَفُ مُرْنَحُ الْقَدِّ

يَا فَاضِحَ الرِّوَضِ سَنَا وَخُجِّلَ الْبَذْرِ
وَقَاطِعِي ظُلُمًا عَنَا وَمَنْ مَقَرُّهُ صَدْرِي
إِنْ لَمْ تَكُنْ شَمْسَ دُنَا فَإِنَّهَا تَجْرِي

عَلِقْتُهُ مِنَ الظُّبَا خِشْفًا يَسْطُو عَلَى الْأُسْدِ

قُلْتُ لَهُ وَقَدْ نَهَدَ وَجَدًا فِي حَرِّي
وَعَلَبَ الظُّبَى الْأَسْدُ وَفَازَ بِالْغُلْبِ
الشَّمْسُ بُرْجَهَا الْأَسْدُ فَاسْعَ إِلَى قَلْبِي

وللسيد العربي المنالي مَوْشَحٌ إشاري :

الطَّرْفُ دَافِقُ وَالْقَلْبُ خَافِقُ
فَكَيْفَ أَخْفِي وَالْحَالُ نَاطِقُ

حَالِي يُنَادِي عَلَى فَوَادِي
مِسْكِينُ هَذَا لَا شَكَّ عَاشِقُ

قد كَانَ قُرْبِي عَوْنًا لِقَلْبِي
على اسْتِثَارِي من الحَلَائِقِ

فَانْظُرْ حَبِيبِي الى الذي فِي
إِنْ كَانَ يُرْضِيكَ أَنَا مُوَافِقُ

قَالَتْ لِي رُوحِي فِي عَيْنِ مَلِيحٍ
مُتٌ فِي غَرَامِهِ إِنْ كُنْتَ عَاشِقُ

وَلَهُ تَجَرَّدُ عَنْ كُلِّ مَقْصَدٍ
فَمَهْرٌ وَصَلِهِ قَطْعُ الْعَلَائِقِ

مَوْلَايَ لَيْتَكَ لَيْتَكَ لَيْتَكَ
فَلَيْسَ لِلْعَبْدِ عَنْكَ عَائِقُ

بِحَقِّكَ ارْحَمْ مَنْ أَنْتَ أَعْلَمُ
بِهِ وَوَاصِلُ وَلَا تُفَارِقُ

ولا بن زَاكُور هذا المَوْشَح في وَصْفِ الطَّبِيعَةِ وَالْحَثِّ عَلَى

الْغَبُوق :

جاءَ الأَصِيلُ مُنْجِي قَتِيلِ النَّائِبَاتِ
قُمْ يَا حَمِيمِ نُبْرِدِ حَمِيمِ الْحَسَرَاتِ
قَدْكَ مِنَ الْأَشْجَانِ يَا مَنْ لَهُ قَلْبُ رَقِيقِ
أَصْغِ إِلَى الْحَانَ وَرُقِ تُنَادِي مِنْ سَجِيقِ
قَدْ أُنِيعَ الْبُسْتَانُ فَهَاتِهَا مِثْلَ الْعَقِيقِ
تُشْفِي غَلِيلِ صَبَّ غَلِيلِ ذِي زَفَرَاتِ
هَبَّ النَّسِيمِ يَهْدِي شَمِيمِ الزَّهْرَاتِ
وَالشَّمْسُ بِالْوَرْسِ تَرْقُمُ بِالرَّقْصِ مُلَا
تَفْعَلُ بِالنَّفْسِ فِعْلَ الْخَلِيعِ بِالطَّلَا
حَيَّ عَلَى الْأَنْسِ يَا ذَا الْأَنْسِ وَاَنْظُرْ إِلَى
غُصْنِ يَمِيلِ بِصَبَا بَلِيلِ ذِي نَسَمَاتِ
مَنْ لَا يَهِيمُ بِشَذَا النَّسِيمِ أَقْسَى الْقَسَاةِ

وله آخر من معناه :

أَرْسِلْ جِيَادَ النَّظَرِ وَاعْتَبِرِ وَأَشْرَبْ طَلَا السُّلُوفِ
وَوَذْ شَرُودَ الْغَيْرِ وَلَتَشْكُرِ مَنْ طَرَزَ الْبُسْتَانَ

حَلَّاهُ غِبَّ الْمَطَرِ بِالزَّهْرِ مُكَلَّلَ التَّيْجَانِ
وطائرُ الْبَشْرِ صَدَحَ لِأَنِّ قَدَحَ زَنَدَ الْمُنَى السَّعْدُ
بَاكِرُ مَعَاهِدِ الْفَرَحِ فَقَدْ شَرَحَ جَمَاهَا الْوَرْدُ



وَأَعْتَنَقَتْ هَيْفُ الْغُصُونِ يَسْتَنْشِرُونَ جَوَاهِرَ الْأَطْوَاقِ
كَأَنَّهُمْ مُدْلَهُونَ مُتَيَّمُونَ سَمَتْ لَهُمْ أَشْوَاقُ
وَالْبَنَفْسُ عَيُوبَ لَا يَنْعَسُونَ تَبْكِي مِنَ الْإِيْرَاقِ
وَالنَّجَسُ الْغَضُّ نَفَحَ لَمَّا اضْطَبِغَ مِنْ نَشْرِهِ نَدُّ
فَارْكُضْ سَوَاقِ الْفَرَحِ فَقَدْ جَرَحَ خُدُودَهُ الْوَرْدُ



وَزَانَ وَجَنَاتِ الشَّقِيقِ نَدَى رَقِيقٍ رَوَاوَهُ يَبْهَرُ
كَأَنَّمَا عَلَى الْعَقِيقِ دُرٌّ أُنِيقُ مِنْ أَنْفَسِ الْجَوْهَرِ
أَوْ دَمْعُ مَنْ ضَمَّ الْعَشِيقُ يَشْكُو الْحَرِيقَ بِخَدِّهِ الْأَحْمَرِ
يَسْلُو بِهِ مَنْ انْتَرَحَ مِنَ الْمَرَحِ مَنْ لِلنَّوَى مَدُّوا^(١)
لَبَّ مُنَادِي الْفَرَحِ فَقَدْ جَرَحَ خُدُودَهُ الْوَرْدُ
وَلَهُ أَيْضاً فِي الرَّبِيعِ :

جَلَّ صَنِيعَ الْبَدِيعِ الْفَاعِلِ الْمُخْتَارِ

حَلَّى الرَّيِّعَ الرَّفِيعَ بِحِلْيَةِ النُّوَارِ
 سِرَّ بَدِيعَ لِي مُذِيعَ سِرَائِرِ الْأَزْهَارِ
 الرُّوضُ رَاضٍ وَهُوَ رَاضٍ غُصُونُ أَشْجَارِهِ
 شِفَا الْمَرَضِ فِي مَرَضٍ جُفُونُ أَنْوَارِهِ

•

صَحَّ الْعَلِيلُ مِنْ غَلِيلِ نَسِيمِهِ الْمِغْطَارِ
 إِذْ فِي مَمِيلٍ النَّخِيلِ مِنْ غُصْنِهِ أَسْرَارِ
 وَفِي مَسِيلٍ^(١) سَلَسِيلِ مِيَاهِهِ اسْتِعْبَارِ
 فِعْلُهُ مَاضٍ عِنْدَ قَاضٍ أَفْكَارِ زُؤَارِهِ
 إِذْ لَا اعْتِرَاضَ فِي اقْتِرَاضٍ نَقُودِ أَزْهَارِهِ

•

وَلَا جُنَاحَ فِي مُبَاحِ أَلْحَانِ وَرَشَانِهِ
 وَهَلْ يُتَاحَ ارْتِيَاحُ أَلَا بَرِّيْحَانِهِ
 تَرَوِي الرِّيحَ عَنِ صَحَّاحِ آثَارِ نَيْسَانِهِ
 مَنْ فِي الرِّيَاضِ وَالْحِيَاضِ أَجَلُّ أَوْطَانِهِ
 فِيهِ تَرَاضٌ عَنِ تَرَاضِ بَنَاتِ أَفْكَارِهِ

وله مُوشَحٌ غَزَلِيٌّ عَلَى وَزْنِ لَيْلِ الْهُوَى يَقْظَانُ^١ :

مَنْ عَلَّمَ الْغَزْلَانَ	الْفَتْكَ بِاللَيْثِ الْجَرِي
وَسَلَّطَ الْاَعْيَنَانِ ^٢	عَلَى قُلُوبِ الْبَشَرِ
يَا ضَرَّةَ الشَّمْسِ	اللَّهِ فِي الصَّبِّ الْكَيْبِ
يَا مُنِيَّةَ النَّفْسِ	هَجْرُكَ لِلنَّفْسِ مُذِيبِ
حَدَّثَنِي حَدِيثِي	أَنَّكَ لِلْبِّ سَلِيبِ



بِأَنَّهُمُ الْأَجْفَانِ	ذَاتِ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ
مُضِيَّةِ الْوَلَهَانِ	بِالدَّعْجِ وَالْحَوَرِ
مَا ضَرَّ يَا مَحْبُوبُ	يَا هَاجِرِي بِلَا ذُنُوبُ
لَوْ تُنْعِشُ الْمَطْلُوبُ	بِلَفْظِكَ الْعَذْبِ الْخُلُوبُ
بِغَايَةِ الْمَرْغُوبُ	مِنْ وَضَلِكَ الْمُخِي الْقُلُوبُ
تَذَكَّرُ يَا وَسْنَانَ	يَا ذَا الرُّوَاءِ الْأَنْضَرِ
لَيْلِيَّ الْبُسْتَانِ	تَحْتَ الْعَرِيشِ الْأَخْضَرِ
وَأَنَا فِي نَشْوَةٍ	مِنْ خَمْرِ تَغْرُكِ النَّعْيِ

١ - هو موشح مشهور لابن سهل الاسرائيلي .

٢ - رفعه على لغة من يلزم المثني الالف في الاحوال كلها .

مُهَيِّجُ الصَّبْوَةِ لِكُلِّ مَنْ لَمْ يَعْشُقْ
لَمْ تَعْرِضْنَا جَفْوَةَ تُثِيرُ نَارَ حُرْقِي

مَا يَبْنِنَا نَدَمَانِ إِلَّا أَرِيحُ الزَّهْرِ
أَوْ نَعْمَةُ الْوَرَّشَانِ عَلَى غُصُونِ الشَّجَرِ
وَالْبَدْرُ مِنْ بُغْدِهِ يَرْقُبُنَا بِكُلِّ عَيْنِ
أَرْسَلَ مَنْ وَجَدَهُ عَيْنَا عَلَيْنَا الْفَرَقْدَيْنِ
فَغَابَ فِي قَصْدِهِ وَخَيْبَةُ الرُّقْبَانِ شَيْنِ

وَالْوُرُقُ فِي الْأَغْصَانِ فَاقَتْ حَيْنِ الْوَتْرِ
بِطَرْبِ الْأَلْحَانِ عِنْدَ الصَّبَاحِ الْمُسْفِرِ
تُثِيرُ أَشْوَاقِي بِصَوْتِهَا الْمُبْرِي السَّقَمِ
قَامَتْ عَلَى سَاقٍ إِذْ عَنَبَرُ اللَّيْلِ بَسَمِ
عَنْ تَغْرِ أَشْوَاقٍ تَشْدُو بِطَيْبِ النِّعَمِ :

مَقَالَ ذِي أَشْجَانِ حَلْفِ أَسَى وَضَرَرِ
« لَيْلُ الْهَوَى يَهْطَانِ وَالْحُبُّ تَرْبُ السَّهْرِ »

وله توشيح من وزن « شَقَّ جَيْبُ اللَّيْلِ عَنْ تَحْرِ الصَّبَاحِ »^١
تَخَلَّصَ فِيهِ لِلْمَدِيحِ :

عَلَّلَانِي فَلَقَدْ جَاءَ الصَّبَاحُ بِسَلَاكِ الرَّاحِ
وَأَمَزَجَاهَا بِلَمَى غَيْدِ صِبَاحٍ وَامْلَأِ الْأَقْدَاحِ
وَاسْقِيَانِي فَلَقَدْ غَنَّى وَصَاحُ طَائِرُ الْإِصْبَاحِ
إِنَّ فِي الْكَاسَاتِ مِنْ خَمْرِ الدُّنَانِ سَاوَةَ الْمُحْزُونِ
فَإِثْرُ بَنَاهَا فَلَقَدْ آتَى وَحَانُ زَمَنُ مَبْمُونِ

مَذْ بَدَتْ تَطْلُعُ أَقْمَارُ الْمَدَامِ فِي سَنَا الْفِكْرِ
قَوْضُ الْأَشْجَانِ مِنْ بَعْدِ التَّيَامِ رَائِدُ الْبِشْرِ
مِثْلَهَا قَوْضَ غِرْبَانِ الظَّلَامِ أَجْدَلُ الْفَجْرِ
يَا لَهَا مِنْ خَمْرَةٍ رَقَّتْ مَعَانِ مِنْ بِهَا مَلْبُونِ^٢
حَاكَتِ الْأَقْمَارَ فِي أَيْدِي الْقِيَانِ فِي اللَّيَالِي الْجُونِ

مَزَجَتْهَا رَاحَةُ الْإِسْكَندَرِ بَشْرَى سِرْنَدِيْبِ
فَلَذَا أَزْرَتْ بِطْعَمِ السَّكَّرِ وَأَرْبِجِ الطَّيْبِ
وَأَشْبَتْ بِسَنَاهَا الْإِبْهَرِ أُمْنِيَّاتِ الشَّيْبِ
فَاسْقِنِيهَا قَهْوَةً تَكْسُو الْبَنَانَ عِنْدَمَ الْمَطْعُونِ -

١ - هو موشح مشهور لصفي الدين الحلي .

٢ - الملبون من به مثل الكسر من شرب اللبن والمراد من سقى بها .

مَكَثْتُ فِي الدَّنِّ دَهْرًا مُذْ زَمَانَ صَانَهَا أَفْرِيدُونَ

بِنْتُ كَرَمٍ حُبِيتْ كَرَمَتُهَا لِأَبِي بَلْقَيْسٍ
وَسَقَاهَا فَبَدْتُ نَضْرَتُهَا أَرِسْطَاطَالِيْسٍ
خِلْتُهَا لَمَّا غَشَتْ سَوْرَتُهَا فِي حِشَا الْبَنِيْسِ
زَجَلَ الرَّهْبَانُ يَوْمَ الْمَهْرَجَانِ فِي حِمَى عَبْدُونَ
أَوْ فُؤَادِي إِذْ عَلَاهُ الْخَفَقَانُ فَهُوَ كَالْمَجْنُونِ

دَاجَهُ ذِكْرُ تُهَوْدٍ بِاللَّوَى فِي ظِلَالِ الْبَانِ
وَبِرُوحِي يَا عَذُولِي فِي الْهَوَى شَادِنٌ قَتَانِ
وَجْهَهُ وَالْبَدْرُ فِي الْحُسْنِ سَوَا فَمَهَا مِثْلَانِ
يَا لَهُ مِنْ أَجْوَرِ الْجَفْنِ بَرَاتٍ لِحُظِّهِ الْمَسْنُونِ
وَجَفَا عَيْنِي الْكَرَى لَمَّا جَفَانِ وَضَلُّهُ الْمَمْنُونِ

لَيْتَ إِذْ مَزَّقَ صَبْرِي بِالْجَفَا وَسَبَا لُبِّي
وَكَسَا جِسْمِي الضَّنَا وَالْدَّنْفَا وَبَرَى قَلْبِي
يَتَّقِي الرَّحْمَنَ فِيمَنْ أَتْلَفَا دُونَ مَا ذَنْبِ
فَلَقَدْ أَوْدَى بِرُوحِي الْهِيمَانُ وَكَسَانِي الْهُونُ
وَحَكَّى لَوْْنِي مِمَّا قَدْ عَرَانُ صُفْرَةَ الْعُرْجُونِ

يا حياةَ الرُّوحِ صلِ ذا المُبتلى باللهوى قَهراً
لا تظنَّ القلبَ منه قد سلا أو نوى غَدراً
لا ومن فضلهُ اللهُ على خلقه طُراً
الرَّسولُ المصطفى الثَّبتُ الجنان ذي السَّمي الميْمُونِ
من حباهُ اللهُ بالآي الحسن والنبا المكنون
ولابن الطيب العَلَمي توشيح في وزن « يا لَيْلَةَ الوُصلِ وكأْسِ
الْعُقارِ » ١ :

يا لَيْلَةَ السُّكْرِ ويومَ الخمار بين الصُّغار علمتُما لاكواسَ رميَ الجِمار
باتَ نَحِينُنا نَسيمُ الرِّياضِ
حتى اكْتسى الليلُ قَميصَ البِياضِ
كأنَّما يَمَلَا الطَّلَا من حِياضِ
مُهَفِّفٌ يَنْسِيكَ ذاتَ الخِمارِ غِبَّ المَزارِ يُدِيرُ باليَمْنى لناوِ اليَسارِ
فاشْرَبْ فَا في شُرْبِها من جُناحِ
هذا غُرَابُ الليلِ ضَمَّ الجِناحِ
وقَهقه الإبريقُ والطَّيرُ ناحِ
وفاحَ كالعَنْبَرِ نَشْرُ العَرارِ بين الثَّمارِ وأنشدَ القُمْريُّ حيَّ الدِيارِ
واستَنطَقَ الاوتارَ تحتَ الوَرَقِ
طَبِي صفاً منه الجَبِينُ ورَقَ

نَامَ وَأَهْدَى لِلْعُيُوفِ الْأَرْقَ

عَارِضُهُ فَوْقَ الْخُدُودِ اسْتَدَارَ ثُمَّ اسْتَنَارَ وَأَلْبَسَ الْحُمْرَةَ ثَوْبَ اخْضَارَ

بَدَرْتُ عَلَى جَيْشِ الْمِلَاحِ ظَهْرُ^(١)

يَعْبَقُ رِيحُ الْمِسْكِ مِنْهَا ظَهْرُ

فَهَلْ رَأَيْتَ الْغُصْنَ لَمَّا زَهَرَ

مُسْتَأْنَسِرُ أَصْبَحَ يَبْغِي النَّفَارَ فَمَا يُزَارُ وَوَجْهُهُ الْجَنَّةُ خُفَّتْ بِنَارُ

لَا اسْتَحَلَّ الْوَصَلَ لِي وَاسْتَبَاحَ

فِي لَيْلَةٍ تُنْسِي الْيَالِي الصَّبَاحَ

قَلْتُ وَقَدْ أَسْفَرَ وَجْهُ الصَّبَاحِ

« يَا لَيْلَةَ الْوَصْلِ وَكَأْسَ الْعُقَارِ ذُونَ اسْتِنَارَ عَلَّمْتَانِي كَيْفَ خَلَعُ الْعِذَارِ »

وللقاضي محمد بن طاهر الهواري هذا الموشح في مליح شريف :

شَاذِنْ بِالْغَرَامِ يَسْتَفِزُّ الْغَرِيمَ

وَصَلُّهُ لَا يُرَامُ وَالْهُوَى لَا يَرِيمُ



أَعْيَدُ لَا يَقِيلُ مُهْجَتِي بِالْمَقِيلِ

وَبَطْرِفٍ كَحِيلِ حَلٌّ فِيهِ الْكَحَلِ

وَبَحْدُ أَسِيلِ فَوْقَ غُصْنِ الْأَسَلِ

بُخِّلَهُ بِالسَّلَامِ أَضْنَى قَلْبِي السَّلِيمُ
لَيْتَهُ بِالْكَلَامِ أَحْيَى صَبَا كَلِيمٍ



وَحْشَةُ الْهَاشِمِيِّ صَيَّرَتْنِي هَشِيمُ
مَنْ غَدَا لَأَمِّي فِي هَوَاهُ لَثِيمُ
أَيُّهَا الْفَاطِمِيُّ صَلِّ مُحِبًّا فَطِيمُ
لَحْظُهُ كَالْحُسَامِ لِفُؤَادِي حَسِيمُ
مُظْهَرٌ بِابْتِسَامِ دُرٌّ ثَغَرِ بَسِيمِ

وللشيخ محمد الحراق هذا الموشح الإشاري:

زَالَ عَنِ قَلْبِي تَوَلُّهُ^(١) الْفَنَاءُ وَصَفَا أَمْرِي
إِذْ غَدَا لِي كُلُّ رُبْعٍ وَطَنًا وَانْتَفَى نَكْرِي



كُلُّ مَاءٍ قَدْ حَوَّثَهُ شَرْبِي فَأَنَا رَيَّانُ
لَسْتُ يَوْمًا أَحْتَسِي مِنْ خَرْتِي وَأَنَا نَشْوَانُ
مَنْ رَأَانِي ثَابِتًا فِي حَيْرَتِي ظَنَنِي وَشْنَانُ
لَمْ أَزَلْ بَيْنَ هُنَاكَ وَهُنَا دَائِمًا أُسْرِي

(١) دخله الكف وهو في الرَّمَلِ صالح .

وَأَزْجُ الْفَقْرِ فِي عَيْنِ الْغِنَى إِذْ هُمَا سِرِّي



مِنْ جُبُونِي كُلُّ طِيبٍ عَيْقًا عِنْدَ إِيقَانِي
عَجَبًا كَيْفَ يُنَافِينِي الْبَقَا فَأَرَى فَانِي
وَوُجُودِي كُلَّ شَيْءٍ سَبَقًا لَيْسَ لِي ثَانِي
شَارِبًا أُلْفَى وَمَشْرُوبًا أَنَا وَأَنَا غَيْرِي
وَإِذَا غَيْرِي بَدَأَ فَهُوَ أَنَا لِلَّذِي يَدْرِي



إِذْ بَطُونِي يَقْتَضِي لِي سَاتِرًا فِي مَقَامِ الْبَيْنِ
وُظْهُورِي يَبْتَغِي لِي مُبْصِرًا فِي ضِيَاءِ الْعَيْنِ
فَأَنَا فِي الْبَيْنِ وَالْعَيْنُ أَرَى وَاحِدًا فِي اثْنَيْنِ
ظَاهِرٌ مَنِّي مَا قَدْ بَطْنَا فَأَعْرِفُوا قَدْرِي
مَنْ رَأَى يَجْتَنِي زَهْرَ الْمُنَى مُدَّةَ الْعُمُرِ

وهذا زَجَلٌ في النقد الاجتماعي لابن شجاع من أهل تازة :

المَالُ زِينَةُ الدُّنْيَا وَعِزُّ النُّفُوسِ يُبْهِي وَجُوهًا لَيْسَتْ هِيَ بِأَهْيَا^(١)

١- تقوم الف الاطلاق في العامية مقام التاء المربوطة ويلاحظ هذا في كل ما يأتي من ذلك .

فَهَا كُلُّ مَنْ هُوَ كَثِيرُ الْفُلُوسِ وَلَوْهُ الْكَلَامُ وَالرُّتْبَةُ الْعَالِيَا

يَكْبُرُ مَنْ كَثُرَ مَالُو^(١) وَلَوْ كَانَ صَغِيرَ
مِنْ ذَا يَنْطَبِقُ صَدْرِي وَمَنْ ذَا يَصِيرُ
حَتَّى يَلْتَجِي مَنْ هُوَ فِي قَوْمٍ كَبِيرِ
لِذَا يَنْبَغِي يُحْزَنُ عَلَى ذِي الْعُكُوسِ
اللِّي صَارَتْ الْأَذْنَابُ أَمَامَ الرُّؤُوسِ
وَيَصْغُرُ عَزِيزُ الْقَوْمِ إِذَا يَفْتَقِرُ
يَكَاذُ يَنْفَقَعُ لَوْ لَا الرُّجُوعُ لِلْقَدَرِ
يَمَنْ لَا أَصْلَ عِنْدُو وَلَا لَوْ خَطَرَ
وَيَصْبَغُ عَلَيْهِ تَوْبُ فَرَاشِ صَافِيَا
وَصَارَ يَسْتَمِدُّ الْوَادَ مِنَ السَّاقِيَا

ضَعُفَ النَّاسُ عَلَى ذَاوِ فَسَدِذَا الزَّمَانِ
اللِّي صَارَ فُلَانٌ يَصِيحُ بِأَبُو فُلَانِ
عِشْنَا وَالسَّلَامَ حَتَّى رَأَيْنَا عِيَانِ
كِبَارِ النُّفُوسِ جَدًّا ضَعْفَ الْأُسُوسِ
يَرَوْنَ أَنَّ هُمُ النَّاسُ وَيَرَوْنَهُمْ ثِيُوسِ
وَجُوهَ الْبِلَادِ وَالْعُمْدَةَ الرَّاسِيَا
مَا يَدْرُوْنَ أَعْلَى مَنْ يَكْثُرُوا ذَا الْعَتَابِ
لَوْ رَأَيْتَ كَيْفَ يُرَدُّ الْجَوَابِ
أَنْفَاسَ السَّلَاطِينِ فِي جُلُودِ الْكَلَابِ
هَمْ نَاحِيَا وَالْمَجْدُ فِي نَاحِيَا
وَجُوهَ الْبِلَادِ وَالْعُمْدَةَ الرَّاسِيَا

وَلَهُ زَجَلٌ غَرَامِي :

تَعْبُ مَنْ تَبَعَ قَلْبُو مَلَا حَذَا الزَّمَانِ أَهْمَلِ يَا فُلَانُ لَا يَلْعَبُ الْحُسْنَ فِيكَ

١- يقوم الواو المتولد عن اشباع الحركة قبله مقام الضمير هنا وفيما هو مثله مما يأتي في هذه الأرجال .

ما منهم مَليح عاهدٌ إِلَّا وَخَانٌ قليلٌ من عليه تجبُّسٌ ويخبُّسٌ عَلَيْكَ

يَتَّبِعُوا عَلَى الْعِشَاقِ وَيَتَمَتَّعُوا يَتَعَمَّدُوا تَقْطِيعَ قُلُوبِ الرِّجَالِ
وَأَنْ وَاصِلُوا مِنْ حَيْثُ يَقْطَعُوا وَأَنْ عَاهَدُوا خَانُوا عَلَى كُلِّ حَالِ
مَليحٌ كَانَ هُوَيْتُ قُلُوبِي وَنَسْتُ مَعُو وَصِيرْتُ مِنْ خَدِّي لَقَدَامُو نَعَالِ
وَمَهَّدْتُ لَوْ مِنْ وَسْطِ قُلُوبِي مَكَانَ وَقُلْتُ لِقُلُوبِي أَكْرَمَ لِمَنْ حَلَّ فِيكَ
وَهُوَ ثَنْ عَلَيْكَ مَا يَغْتَرِيكَ مِنْ هُوَانٍ فَلَا بَدَّ مِنْ هَوْلِ الْهَوَى يَغْتَرِيكَ

حَكَّمْتُو عَلِيٍّ وَرَضِيْتُ بِهِ أُمِيرَ فَلَوْ كَانَ يَرَى حَالِي إِذَا يُبْصَرُو
يَرْجِعُ مِثْلَ دَرِّ حَوْلي بِوَجْهِ الْقَدِيرِ مَرْدِيهِ وَيَتَعَطَّسُ بُحَالِ انْخِرُو
وَتَعَلَّمْتُ مِنْ سَاعَا بَسْبَقِ الضَّمِيرِ يَفْهَمُ مَرَادُو قَبْلَ أَنْ يَذْكُرُو
وَيَحْتَلُّ فِي مَطْلُوبُو وَلَوْ أَنَّ كَانَ عَصْرِي الرِّيعِ أَوْ فِي اللَّيَالِي يُرِيكَ
وَيَمِشِي يَسُوقُو وَلَوْ كَانَ بِأَصْبَحَانِ إِشْنُ مَا يَقُولُ يَحْتَاجُ يَقُولُو يُجِيكَ

وَمَنْ زَجَلَ سِيَاسِي لِلْكَفِيفِ الزَّرْهَوْنِي يَذْكُرُ فِيهِ هَزِيمَةَ أَبِي الْحَسَنِ
الْمَرِينِيِّ بِأَفْرِيقِيَّةٍ وَانْقِطَاعِ خَبْرِهِ عَنْ رَعِيَّتِهِ :

سُبْحَانَ مَا لَكَ نَحَاطِرُ الْأُمَرَا وَنَوَاصِيهَا فِي كُلِّ حِينٍ وَزَمَانِ

إِنْ طَعْنَا عَظْمَهُمْ لَنَا قَسْرًا وَإِنْ غَصِينَاهُ عَاقِبَ بَكْلٍ هُوَانُ



كُنْ مَرْعِي قُلْ وَلَا تَكُنْ رَاعِي فَالرَّاعِي عَنْ رَعِيَّتِهِ مَسْئُولُ
وَأَسْتَفْتَحْ بِالصَّلَاةِ عَلَى الدَّاعِي لِلْإِسْلَامِ وَالرَّضَا السَّنِي الْمَكْمُولُ
عَلَى الْخُلَفَا الرَّاشِدِينَ وَالْأَتْبَاعِ وَادْكُرْ بَعْدَهُمْ إِذَا تَجَبَّ وَقَوْلُ
أُحْجَا جَاءَ تَحْلَلُوا الصَّحْرَا وَدَوَّا سَرْحَ الْبِلَادِ مَعَ السَّكَّانِ
عَسْكَرَ فَاسِ الْمِينَةِ الْغَرَا وَتَيْنَ سَارَتْ بِهِ غَزَائِمُ السُّلْطَانِ



أُحْجَا جَاءَ بِالنِّيِّ الَّذِي زُرْتُمْ وَطُطِعْتُمْ لَوْ كَلَاكُلَ الْبَيْدَا
عَنْ جَيْشِ الْغَرْبِ حِينَ يَسْأَلُكُمْ الْمَثْلُوفِ فِي أَفْرِيقِيَا السُّودَا
وَمَنْ كَانَ بِالْعَطَايَا يَزُوذُكُمْ وَيَدْعُ بَرِيَّةَ الْحِجَازِ رَغْدَا
قَامَ قُلُوبٌ لِلْسَدِّ صَادِفِ الْجُزُرَا وَيَعْجُزُ شَوْطَ بَعْدِ مَا يُخْفَانِ
وَيَزِفُّ كَرْدُومَ وَتَهَبُ فِي الْغُبُرَا أَيُّ مَا زَادَ غَزَا لَهُمْ سَبْحَاتِ



لَوْ كَانَ مَا بَيْنَ تُونِسَ الْغَرْبَا وَبِلَادِ الْغَرْبِ سَدًّا اسْكَنْدَرُ
مَبْنِي مِنْ شَرْقِهَا إِلَى غَرْبَا^(١) طَبَقَةً مُجْدِيدِ وَثَانِيَا بَصْفَرُ

١- يعني غربها فالهاء فيه مختلصة .

لا بُدَّ لِلطَّيْرِ انْ تُجِيبَ نَبَا او يَأْتِي الرِّيحَ عَنْهُمْ بِفَرْدٍ خَبَرٍ
ما اعوضها من امور وما شَرًّا لو تَقَرَّأَ كُلَّ يَوْمٍ عَلَى الدِّيَّوَانِ
لَجَرَتْ بِالْدَّمِ وَانْصَدَعَ حَخْرَا وَهُوتَ الْخَرَابُ وَخَافَتِ الْغَزْلَانِ



أَذِرْ لِي بِعَقْلِكَ الْفَحَّاصِ وَتَفَكَّرْ لِي بِخَاطِرِكَ جَمْعَا
انْ كَانَ تُعَلِّمُ خَمَامَ وَلَا رَقَاصِ عَنْ السُّلْطَانِ شَهْرَ وَقْبَلِهِ سَبْعَا
تَظْهَرُ عِنْدَ الْمُهَيْمِنِ الْقَضَاصِ وَعَلَامَاتُ تُنْشَرُ عَلَى الصَّمْعَا^(١)
أَلَّا قَوْمَ عَارِيَيْنِ بَلَا سُرَا مَجْهُولِينَ لَا مَكَانَ وَلَا إِمَّكَانَ
مَا يَدْرُونَ كَيْفَ يَصُورُوا^(٢) كَسْرَا وَكَيْفَ دَخَلُوا مَدِينَةَ الْقَيْرَوَانِ



امولاي ابو الحسن خطيننا لبَابِ قَضِيَّةَ سِيرِنَا اِلَى ثُونَسِ^(٣)
فُقْنَا كَنَّا عَلَى الْجَرِيدِ وَالزَّابِ وَاشْ الْكَفَى اَعْرَابِ افْرِيقِيَا الْقُوْبَسِ
مَا بَلَغَكَ مِنْ عُمرِ فَتَى الْخَطَّابِ الْفَارُوقِ فَاتِحِ الْقُرَى الْمُؤَلْسِ
مُلْكِ الشَّامِ وَالْحِجَازِ وَتَاجِ كِسْرَى وَفَتْحِ مِنْ افْرِيقِيَا وَكَانِ

١- يريد الصومعة .

٢- اي يكسبون كسرة .

٣- راجع فصل الوجهة السياسية من العصر المريني في الجزء الاول .

رَدَّ وَلَيْتَ لَوْ كَرَّةً ذَكَرَى وَنَقَلَ فِيهَا تَفَرَّقَ الْأَخْوَانَ



هَذَا الْفَارُوقُ مُرَدِّي الْإِعْوَانَ صَرَّحَ فِي أَفْرِيقِيَا بِذَا التَّصْرِيحِ
وَبَقِيَ حَمَى إِلَى زَمَانِ عُثْمَانَ وَفَتَحَهَا ابْنُ الزُّبَيْرِ عَنْ تَصْحِيحِ
لَمَّا دَخَلْتُ غَنَائِمَهَا الدِّيَّانَ مَاتَ عُثْمَانُ وَانْقَلَبَتْ عَلَيْنَا الرِّيحُ
وَأَفْتَرَقَ النَّاسَ عَلَى ثَلَاثَةِ أَمْرَا وَبَقِيَ مَا هُوَ لِلسَّكُوتِ عُتْوَانُ
إِذَا كَانَ ذَا مِنْ مَدَّةِ الْبَرَا أَشْ نَعْمَلُ فِي أَوَاخِرِ الْأَزْمَانِ
وَمَنْ زَجَلَ لَابِنِ دَاوُدَ يَتَضَمَّنُ قِصَّةَ الْجَوَارِي الْعِشْرِ الَّتِي صَاغَهَا عَبْدُ
الْمُهَيْمَنِ الْحَضْرَمِيُّ فِي شَكْلِ مَقَامَةِ ذِكْرِنَاهَا فِي الْجُزْءِ الثَّانِي :

أَنَا نَدُورُ فِي فَاسَ بَيْنَ زَنَاقِي وَدَرْوَبِ بِالطَّبْعِ وَالتَّأْدُبِ
حَتَّى سَمِعْتُ هَوْلَ فِي وَاحِدِ الزَّنَقَا^(١) بَيْنَ الرِّيَامِ دَعَقَا^(٢)
لَمَّا سَمِعْتُ ذَا الْغِيَاطِ يَا حَضْرَا أَوْقَفْتُ رِدَّتْ خَبْرَا
وَانْظُرْتُ فِي الرِّيَامِ وَجَدْتُهُمْ عَشْرَا يَنْضَا وَلَوْ نَحْمُرَا
وَرَقِيقَةَ غَزَالٍ فِي بِلَادِ الصَّحْرَا وَآخَرَى فَمَلَاتِ عَبْرَا
وَآخَرَى شَطًّا مِثْلَ غَضَنِ الْبَنَانِ وَقَصِيرَةً وَرَدَّةً فِي كَمِّ مَلِكِ

١- الزقاق .

٢- خصومة .

والبلدية بزينة الفتان وعربية كستها باللك^١
 وعجوزة متهدمة الأسنان وصيبة بشقارها تهلك
 من بعد ما هدثوا حضروا هناك أجواد
 وقفوا وقد ردوا وتأدبوا الاغباد^٢
 والصدع مع ضدوا يتعائروا الجهاد
 ينضام مع الحميرا وشطاً مع القصيرا وعجوزة والصغيرا
 والساكنة البلاد بانوجه المحجوب وعربية بغنوب^٣
 واللي ملات بالشحم في عرفا واللي تملات برقا

نطقت وقالت البيضا حسني هاج لوني ابيض كما العاج
 بدني كما الفصن يبدن نساج وانت كذاك التمساح
 بين البياض وبين السواد ذراج مثل النهار والداج
 النشري* واللوز والازهار والسوسان والياسمين لوني
 وكواكب والشمس والاقمار من وجهي والصبح من حسني

١ - بالحمرة التي هي لون اللك .

٢ - يريد جمع غيداء .

٣ - يعني بوجهها المكشوف .

٤ - كذا في الأصل ، فهل يدخل الأكفاء الزجل ؟

• - أي النسرين .

وأنتِ لَوْنُكَ يَحْكِي لِلْقَارِ وَذُنَيْتِي يَا سَوْدَا تَعَانِدُنِي
 أَوْعَايَ مَعَ عَمَلِكَ أَوْ أَصْمَتِ وَبَاعِدُنِي
 وَانْظُرْ إِلَى لَوْنِكَ وَانْظُرْ إِلَى لَوْنِي
 عِنْدِي أَحْسَنَ مِنْكَ فِي الدَّارِ تَخْدُمُنِي
 لَوْنُ الْبَيَاضِ زَهْوَا لَوْنُ الْعِبَادِ تَهْوَى نَصْفُ الْجَمَالِ هُوَا
 انْظُرْ بِفِكْرَتِكَ فِي الثَّوْبِ الْمَجْلُوبِ صَاحِبُ الْبَيَاضِ مَحْبُوبِ
 وَمَا السَّوَادُ مَنْ رَادٍ يَتَنَقَّى بَاطِلُ كَذَاكَ يَشْقَى



نَطَقَتْ وَقَالَتْ السَّمْرَا بِالزَّعَاجِ^٢ لَوْنِي بَدِيعٌ وَهَّاجٌ
 يَشْرِقُ كَمَا الْخَمْرُ فِي قِطْعَانِ الزَّاجِ نَسْمَةٌ وَطِيبَةٌ وَعُلَاجٌ
 وَبِمَا الذَّهَبُ كَيْتُ كَتَبِ التَّاجِ وَنَقَشَ الْقَبَاقِبِ الْعَاجِ
 مَارِيتُ فِي الْبَيَاضِ سِوَى خَمْسَا مَعْرُوفِينَ بِالثَّقَلِ وَالْبِرَادِ
 مَلَحٌ وَجِيرٌ وَثُلُجٌ بِهِ تُكْسَا وَرَخَامٌ وَعَاجٌ فِي الْبَيَاضِ قَدَادِ
 مِنْجُوسِينَ وَقَلَمًا بِخَمْسَا^٣ تَحْتَ الْأَقْدَامِ يَجْرُعُوا النَّكَادِ
 وَرِفْعَةُ الْأَسْوَامِ تُعْرِفُ لِلْأَشْمَرِ
 شَهْدُ الْعَسَلِ وَمَدَامِ وَالْمِسْكِ وَالْعَنْبَرِ

١ - أي من البلاء ان تكوني انت منافسة لي.

٢ - يريد بالزجاج .

٣ - أي وما ابخسها .

والتبر حين يغنام والبرهان الاحمر
 والتمر في اوانو والزهر في أغصانو والعود في مكانو
 الاتمر بديع في الماكول والمشروب ما فيه شيء معيوب^١
 وللعذراوي زجل^٢ يعرف بالصبحي :
 الصبح كشریف، أرخی ذیل إزارو ونبس من الديباج غفارا
 والليل كغلام أسود شاب عذارو وشغل من البياض منارا



الصبح كفسر يتعلی والليل سالد مع غرايو
 والضوء في سماه تولى وارسل على الظلام عقابو
 انظر تر حمام القبلا مثل الامام في محرابو
 الفلك كيف دار بصنعة دوارو وخفا كواكب السيارا
 هب النسيم بين الداعي ونهارو شوش دواخنا المشرارا



الأشجار بارزة في حليها تجلى على سواقي البستان
 ومياه خلخلت رجليها والزهر دار لها تيجان

١ - نشرنا هذا الزجل بتمامه مع بحث قارئنا فيه بينه وبين مقامة الحضرمي

مدّت من الكمام يديها تطلب من الكريم الغفران
الأغصان كلّ واحد يغرم دينارو يعطي على الصباح بشارا
والطير كالخطيب ظلع في منبارو وعظ والأغصان سكارى

أقبلت محاسن الغدويّا للوالعين ولليّ تآبوا
والرّوض في ثياب نقّيّا يعيق على طراف جنابو
والمرج كسما ذهبيّا يرمي على الرّقيب شهابو
صبّ تشوف يا ساقمي من بلّار اسع وطف بالحمّار
وأعطف على شمس مقامك واقمار وكمل على وُجوه الدّار

اغنم مع المليح صباحك أما ترى الزمان في غفلا
وأشعل من الهنا مصباحك من لا يفوز ما يسلا
إذا انجرت بك ريانك جفئك نعوم فوق الحملّا
خلّ عدوك يتقلب فوق جمارو وادّ من الشرور إمارا
من جادّ لو زمانو يقطف نوارو الايام صاحبها مطّارا

والشيخ الحراق زجل غرامي :

جاد الزمان واستبشر قلب الهائم وتخلّى بالسعد حين صاب مناه
نكي الحسود وظفر بالعزّ الدائم واصبح يتبختر في ثياب هناء

طاب السرور

مَعَ البَدُورِ
بِيسْرِ التَّحُورِ
فَاغْنِمِ كَأْسَ الرِّاحِ هَا حَبِيبُكَ زَارِ
اسْقِ وَدُورِ
وَأَنْفِ الشُّرُورِ
طُولِ الدُّهُورِ

سَاعَةَ السُّلُوفِ فَايْدَةَ الْأَعْمَارِ
آتِ الْمَلِيحَ وَاعْصِي بِاللُّومِ اللَّائِمِ وَاعْمَلْ فِي أَيَّامِكَ مَا تَهْوَاهِ
وَأَنْشُدْ مِنْ أَشْعَارِكَ فِي الْحُسْنِ الْقَائِمِ نَجْمُكَ صَاحِ صَارَ فِي صُعُودِ سَمَاهِ

صَلِّ الشَّرَابِ
فَالنَّكَاذِ غَابِ
وَالْحَيْرِ صَابِ
وَسَرُجِ الْفُرَجَاتِ شَغَشَعَتِ الْأَنْوَارِ

رَشَفَ الْإِكْوَابِ
مَعَ الْأَحْبَابِ
عَيْنِ الصَّوَابِ

فَا زَهَى فِي زَمَانِكَ لَوْ تَعِيشُ نَهَارِ
نَظْرَةً فِي الْحَبِيبِ تَمُحِي كُلَّ نَجْرَائِمِ وَالرَّحْمَنُ كَرِيمُ يَا لَلِي يَرْجَاهِ

إِذَا مَا رَضَى مَا تَنْفَعُ عَزَائِمُ لَوْ بِاعْتِمَالِ الْخَيْرِ كُلِّهَا تَلْقَاهُ
وَلَهُ أَيْضاً :

زَارُ حَبِيبِي بَعْدَ مَا نُجِفَا وَتُبَدَّدَ كَرْبِي
وَتُبَقِّنْتُ بُخَاطِرُو صَفَا حِينَ بَغَى قُرْبِي
وَاجْذُبْنِي بِالصَّدْقِ وَالْوَفَا وَأَقْلَعْ عَنِ حَجْبِي
وَاطْهَرِ لِي سِرّاً مَا خَفَا عَنِّي فِي جَذْبِي
نَارُ غَرَامُو مَا تُنْطَفَا عُمرِي مِنْ قَلْبِي
مَا مِنِّي لِلَّوْ نَخَالَفَا يَقْتُلْ أَوْ يَسْبِي
لَا مُورِي فِي هَوَاةٍ مَا كَفَى وَاتَّقُوا عَجْبِي
وَأَنَا حَالِي مَا يُنْتَفَى رَانِخٌ فِي شُرْبِي
نَلْتُ وَصَالُو بِالْمَسَاغِفَا مَا هُوَ مِنْ كَسْبِي
غَيْرُ تَلَاقِيَتُو مُصَادِفَا سَابِقَةً مِنْ رَبِّي
وَلَهُ كَذَلِكَ :

جَادُ عَلِيٍّ بَرَضَاهُ
الْحَبِيبُ اللَّيِّ حَبِيتُ زَارْتَنِي وَانْعَمَ لِي بِالْوَصَالِ
حِينَ أَشْرَقَ نُورُ نَبَاهِ
كُلِّ شَيْءٍ بِالْقَهْرِ نُسِيتُ يَا أَهْلِي عَقْلِي إِذَا شَفْتُوهُ زَالَ
مَا بِي غَيْرُ هَوَاهُ

بَانَ فِي بَعْدِ مَا خُفِيتُ والغرام اذا هو تقوى وصال
 مَا يَقْدِرُ مَنْ يَلْقَاهُ
 شُوفَ حَالِي حِينَ لَقِيتُ حاطني واقهرني بالنصال
 كُلِّي فِي الْحَقِّ مَنَاهُ
 قَالَ لِي غَيْرُكَ مَا رِيتُ يالواله زول شك الحيال
 مَا تَمَّ غَيْرَ اللَّهِ

وللسيد عبد القادر العَلَمِي المتوفى سنة ١٢٦٦ زجل غزلي :

الْخَالُ غَلَامٌ عَسَّاسٌ فِي رَوْضَةٍ مَنَعْمَا
 كَيْنُو ضِرْغَامٌ^١ فِي يَمِينُو حَرْبَةٍ لِيَا أَوْ مَا
 مِنْ حَاذَاهُ يَتْرُكُو رَمِيمٍ
 صُنِعَ الْعَلَامُ نُقْطَةً فِي ضَفْجَةٍ مَكْرَمَا
 مَا نَزَلْتُ بِأَقْلَامٍ حَكَمْتُ رَبِّي رَافِعَ السَّمَاءِ
 كَوْنُ اللَّهِ الدَّائِمُ الْقَدِيمُ

وَجَعَابُ ارْوَامٌ^٢ وَكُوَابِسُ^٣ لِلضَّرْبِ رَايَا
 مَا تُقْبَلُ تَذَمُّامٌ فِي مَكَاتِبِ كُفَّارِ ظَالِمَا

١ - يعني كانه .

٢ - أي جعاب بنادق رومية وهو يريد الحواجب والعيون .

٣ - جمع كابوس وهو في العامية المغربية المسدس .

مَوْلُوعَةٌ بِالْقَتْلِ وَالْهَجِيمِ
 وَالْجِلْدِ رَامٌ قُدَّامَ جَلِيلٍ وَهَائِيَا
 شَرَّادَاتِ اللَّوْهَامِ عَلَى الْعَفَّةِ وَالطَّيِّبِ قَائِيَا
 مَا تَقْرَأُ أَمَانَ مَا تُقِيمُ
 زِينِ الْأَعْجَامِ الْعَيْنِ الشُّهْلَا النَّائِيَا
 وَالْبَيَاضِ نَهَامِ وَحُرُوفِ الزَّيْنِ الْمُسْتَقِيمَا
 وَضَفِ الزَّيْنِ فِي صِنْعَةِ حَكِيمِ
 قَامَةِ الْأَعْلَامِ نَجِينِ وَغُرَّةِ مُبَسِّمَا
 حُسْنِ بَغْيَرٍ وَشَامِ وَخُدُودِ كَوْرَدَةٍ نَاسِمَا
 صُنْعِ اللَّهِ الْمَلِكِ الْعَظِيمِ
 وَلَهُ أَيْضاً :

رَاحَ الْوَقْتُ وَلَا يَبْقَا إِلَّا وَقْتُ الْمَعَانِقَا
 كُبَّ وَرَأَى وَارْخِي رَوَاقِ
 وَالْأَشْجَارَ الْبَاسِقَا وَالْأَطْيَارَ النَّاطِقَا
 عَمَّرَتْ بُلْعَاهَا أَسْوَاقِ

-
- ١ - أي جمال عجمي غير عربي فهو كالبيت المشهور :
 الله اكبر ليس الحزن في العرب كم تحت لمة ذا التركي من عجب
 ٢ - أي املا الكأس وناولها .

كَبَّ الصَّهْبَا الحَارِقَا فِي كَيْسَانٍ بُنَادِقَا^١

مِنْ زَاجٍ بِلَادِ الْعِرَاقِ

تَظْهَرُ خَمْرُ بَارِقَا فِي الْاَوَانِي شَارِقَا

كَلَوْنٍ شَحِيقِ الرَّهَاقِ^٢

وَلَهُ مِنْ زَجَلٍ فِي مَذْحِ الْمَوْلَى اَدْرِيسِ الْاَكْبَرِ :

بُوجُودُكَ يَا سِرَاجَ مَحْفَلِ اَهْلِ الْيَقِينِ

سَعَدَ الْغَرْبُ بَعْدَ كَانٍ فِي بُرْجِ نُحَيْسٍ

اَنْتَصَرْتَ مِلَّةَ النَّبِيِّ وَتَشَهَّرَ الدِّينُ

وَالْحَقَّ اسْتَقَامَ مِنْهَجُوكَ بَعْدَ التَّنْكِيسِ

وَقُطِعَ سَيْفُ الْهُدَى رَقَابَ الْمُرْتَدِّينِ

بِاقْبَرٍ وَلَا بَقَى رَهِيْبٌ وَلَا قِسِيْسٌ

نَبَنَاتُ مُسَاجِدِ الْعِبَادَةِ لِلْمُبِينِ

وَفَنُونُ الْعِلْمِ بِالتَّلَاوَةِ وَالتَّدْرِيسِ

بُوجُودُكَ يَا سَيِّدَنَا مَوْلَايَ اَدْرِيسِ

١ - يعني من صنع البندقية .

٢ - يريد به الزعفران .

مصادر الكتاب

لهذا الكتاب مصادر عامة وخاصة ، أما العامة فهي التي تتناول موضوع المغرب مع غيره من الموضوعات كالتواريخ الكبرى ودوائر المعارف وكتب التراجم الجامعة ، وما الى ذلك ، وأما الخاصة فهي التي لا تتناول الا المباحث المغربية فقط ، من تاريخ وتراجم وأدب وهذه كلها من المصادر المظان ، أما غير المظان ككتب الفقه والحديث والتفسير والعربية وبقية العلوم الأخرى ، والشروح والحواشي والرسائل الموسوعة في مختلف المسائل والمجاميع الأدبية والصحف والمجلات فضلاً عن السماعيات والوجدات الموثوق بها كل الوثوق فانها تكاد تكون أكثر مصادر ولا سيما في الجزأين الثاني والثالث الشتملين على الآثار والمنتخبات الأدبية ، ويعسر علينا تعداد هذه المصادر التي لا تنضب فنتقصر هنا على ذكر المصادر المظان عامة وخاصة .

المصادر العامة

ابن الأبار

- تكملة الصلة - ط . مدريد ١٨٨٦ .
 مجمع أصحاب أبي علي الصديقي - ط . مدريد ١٨٨٥ .
 الحلة السيرة
 اعتاب الكتاب
 تحفة القادم

{ مُصَوَّرٌ مَخْطُوطٌ لَاسْكُورِيَال .

ابن الأثير

السكامل في التاريخ - ط مصر ١٣٠١ - ١٣٠٢ .

أحمد بابا السوداني

نيل الابتهاج بتكميل الديباج - ط . مصر ١٣٥١ .

أحمد توفيق المدني

تقويم المنصور - ط. الجزائر ١٣٤٨ .

ابن الأحمر (اسماعيل)

نشير الجمان فيمن ضمني وإياه الزمان ، مخطوط خاص .

الادويسي (الشريف)

نزهة المشتاق في اختراق الآفاق - القسم الخاص بالمغرب والسودان ط. ليدن ١٨٦٦ .

ادوارد فنديك

اكتفاء القنوع بما هو مطبوع ط. مصر ١٣١٣ .

اسماعيل باشا البغدادي

اظهار المكنون في الذيل على كشف الظنون - ط. استنبول ١٣٦٤ .

مدية العارفين في أسماء المؤلفين وأثار المصنفين - ط. استنبول ١٩٥١ .

ابن أبي أصيبعة

عيون الأنباء في طبقات الأطباء - ط. بيروت ١٣٧٦ .

الافرواني (محمد الصغير)

المسلك السهل في شرح توشيح ابن سهل - ط. فاس ١٣٢٤ .

ابن بسّام

الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ، القسم الأول والجزء الأول من القسم الرابع ط.

مصر ١٣٥٨ - ١٣٦٤ .

ابن بشكوال

الصلة - ط. مدريد ١٨٨٢ .

ابن بطوطة

الرحلة المسماة بتحفة النظار - ط. مصر ١٣٢٢ .

البكوي (أبو عبيد)

المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب ، طرف من كتابه المسالك والممالك ط .
الجزائر ١٩١١ .

بلا فويج (أحمد)

الأدب الأندلسي ، بالاشتراك مع عبد الجليل خليفة ط . تطوان ١٣٦٠ .

البلفيشي (احمد)

الابتهاج بنور السراج ط . مصر ١٣١٩ .

بيل (القريد)

برنامج المخطوطات العربية الموجودة بخزانة القرويين - ط . فاس ١٩١٨ .

التمجروتي (محمد)

النفحة المسكية في السفارة التركية - ط . باريز (بدون تاريخ) .

التمناوتي

الفوائد الجمة في اسناد علوم الأمة - مخطوط خاص .

ابن نوموت (المهدي)

أعز ما يطلب وما معه - ط . الجزائر ١٣٢١ .

الجراوي (أبو العباس)

الحماسة المغربية - مصوّر مخطوط استنبول .

جوزيف ماكيب

مدينة العرب في الأندلس ، ترجمة الدكتور تقي الدين الهيلالي ط . بغداد ١٣٦٩ .

حاجي خليفة

كشف الظنون عن أسماء الكتب والفنون ط . استنبول ١٣٦٠ .

ابن حجر العسقلاني

الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة ط . حيدر أباد ١٩٤٥ - ١٩٥٠ .

الحجوي (محمد)

الفكر السامي في تاريخ الفقه الاسلامي - ط. الرباط وتونس وفاس ١٣٤٠ - ١٣٤٩

ابن حماد

أخبار ملوك بني عبيد وسيرتهم - ط. الجزائر ١٣٤٦ .

الحميدي

جذوة المقتبس في ذكر ولاية الأندلس تحقيق محمد بن تاويت الطنجي ط مصر ١٣٧٢ .

ابن خاقان (الفتح)

قلائد العقيان - ط مصر ١٣٢٠ .

مطمح الأنفس - ط . مصر ١٣٢٥ .

ابن الخطيب (لسان الدين) .

الاحاطة في تاريخ غرناطة الجزء الأول والثاني - ط . مصر ١٣١٩ ومُصَوَّر

مخطوط الاسكوريال رقم الحلل في نظم الدول - ط . تونس ١٣١٦ .

اعمال الأعلام ، القسم الثاني الخاص بالأندلس ط . الرباط ١٣٥٣ .

اللمعة البدرية في تاريخ الدولة النصرية - ط . مصر ١٣٤٧ .

معيار الاختيار المعروف بمقامات البلدان - ط . فاس ١٣٢٥

الكتيبة الكامنة في شعراء المائة الثامنة - مخطوط خاص .

ريحانة الكتاب - مُصَوَّر مخطوط مكتبة الاسكوريال

الخفاجي (الشهاب)

ريحانة الالباء - ط . مصر ١٣٠٦ .

طراز المجالس - ط . مصر (بدون تاريخ) .

ابن خلدون (عبد الرحمن)

تاريخ العبر وديوان المبتدأ والخبر - ط . مصر ١٢٨٤ .

التعريف بابن خلدون ورحلته غرباً وشرقاً تحقيق محمد بن تاويت الطنجي ط .

مصر ١٣٧٠ .

ابن خلدون (يحيى)

بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد - ط . الجزائر ١٣٢٩ .

ابن خلكان

وفيات الأعيان - ط . مصر ١٣١٠ .

ابن خير

معجم ما رواه عن شيوخه - ط . سراقوسة ١٨٩٣ .

خير الدين الزركلي

الأعلام الطبعة الجديدة - مصر ١٣٧٣ - ١٣٧٨ .

الدباغ (عبد الرحمن)

معالم الايمان في معرفة أهل القيروان وذيله لابن ناجي - ط . تونس ١٣٢٠ .

ابن دحية (ابو الخطاب)

المطرب من أشعار أهل المغرب تحقيق ابراهيم الابياري وآخرين - ط . مصر ١٩٥٤ .

ذوذي (رينهاريت)

ملوك الطوائف ترجمة كامل كيلاني - ط . مصر ١٣٥١ .

دبي سلان (البارون)

فهرس المخطوطات العربية بمكتبة باريز الوطنية - ط . باريز ١٨٨٣ .

الرجواحي (عبد الله)

فهرس المخطوطات العربية للخزانة العامة ، بالاشتراك مع س . علوش - ط . باريز ١٩٥٤ .

ابن رحوون (التهامي)

شذور الذهب في خير النسب - مخطوط خاص .
الانجم الزاهرة في الذرية الطاهرة - مخطوط خاص .

ابن رشيد الفهري

رحلة ملء العيبة فيما جمع بطول الغيبة في الوجهتين الكريميتين الى مكة وطيبة -
مخطوط الاسكوريال .

ابن ويسون (محمد بن الصادق)

فتح العلم الخبير في تهذيب النسب العَلَمِي بأمر الأمير - مخطوط خاص .

ابن زاكور

رحلة نشر أزاهر البستان فيمن أجازني بالجزائر وتطوان - ط. الجزائر ١٣١٩ .
ديوان الروض الأريض في بديع التوشيح ومنتقى القريض - مخطوط خاص .

ابن الزبير (أبو جعفر)

صلة الصلة ، القسم الأخير منه - ط. الرباط ١٩٣٧ .

ابن الزيات (أبو يعقوب)

التشؤف الى رجال التصوف - مخطوط خاص .

الزياني (أبو القاسم)

رحلة الترجانة الكبرى التي جمعت أمصار المصور كله برأ وبجرأ - مخطوط خاص .

الساحلي

بنية السالك في أشرف المسالك - مخطوط خاص .

السائح (محمد)

المنتخبات العبقريه لطلاب المدارس الثانوية - ط. الرباط ١٩٢٠ .

سركيس (يوسف)

معجم المطبوعات العربية والمعرية - ط. مصر ١٣٤٦ .

ابن سعيد المغربي

المغرب في حلي المغرب تحقيق الدكتور شوقي ضيف - ط. مصر ١٩٥٣ .

الفصول الیانة فی محاسن شعراء المائة السابعة تحقیق ابراهیم الیباری - ط .
مصر ١٩٤٥ .

عنوان المرقصات المطربات ، نشر محمد عبد القادر ، الجزائر ١٩٤٩ .
رايات المبرزین و غایات المیزین ، نشر غرسية کومیز - مدريد ١٩٤٢ .

السیوطی (جلال الدین)

حسن المحاضرة فی تاریخ مصر القاهرة - ط . (بدون تاریخ) .
بنية الوعاة فی طبقات اللغویین والنحاة - ط . مصر ١٣٢٦ .

ابن شاکر الکتبی

فوات الوفیات - ط . مصر ١٣٩٩ .

الشربسی (ابو العباس)

شرح المقالات الحریة - ط . مصر ١٣٠٦ .

شکيب أرسلان (الأمير)

الجلل السندسية فی الأخبار والآثار الأندلسية ، ٣ مجلدات - ط . مصر ١٣٥٥ -
١٣٥٨ .

الشام

تاریخ الدولة الحفصية - ط تونس .

الصفدي (صلاح الدین)

الغیث المسجیم فی شرح لامية المعجم - ط . مصر ١٣٠٥ .
الوافی بالوفیات ، الجزء الأول - ط . استنبول ١٩٣١ .

صفوان بن ادريس

زاد المسافر وغرة بحیا الأدب السافر نشر عبد القادر محداد - بیروت ١٣٥٨ .

الطبري (ابن جریر)

تاریخ الأمم والملوك - ط . مصر ١٣٢٦ .

ابن ظافر الأزدي

بدائع البدائنه - ط . مصر ١٣١٦ .

ابن عبد الحكم المصري

فتوح افريقيا والاندلس - ط . الجزائر ١٩٤٢ .

ابن عبد الملك المراكشي

الذيل والتكملة ، الأجزاء الثلاثة المصورة بالخرزانة العامة بالرباط ، ومصور جزء الاسكوريال .

ابن عبد المنعم الجبري

صفة جزيرة الاندلس ، انتخبها من كتابه الروض المعطار ليفي بروفينسال - ط . مصر ١٩٣٧ .

ابن عذاري

البيان المغرب في اخبار المغرب ، الاول والثاني ط . بيروت ١٩٥٠ الثالث ط . باريز ١٩٣٠ الرابع ط . تطوان ١٩٥٨ .

ابو العوب (محمد بن تميم)

طبقات علماء افريقية وما معه - ط . الجزائر ١٣٣٢ .

ابن عوي الحاتمي

محاضرة الأبرار ومسامرة الاخيار - ط . مصر ١٣٠٥ .
رسالة القدس - ط . ١٩٣٩ .

ابن عمار

نحلة اللبيب بأخبار الرحلة الى الحبيب - ط . الجزائر ١٣٢٢ .

العياشي (أبو سالم)

رحلته المسماة ماء الموائد - ط . فاس .

عياض (القاضي)

ترتيب المدارك وتقريب المسالك الى معرفة أعلام مذهب مالك - مخطوط الاستاذ محمد بن أبي بكر التطواني .
فهرسته المسماة بالغنية - مخطوط خاص .

ابن غازي (محمد)

الروض الهمتوني في أخبار مكناسة الزيتون - ط. فاس ١٣٣١ .

الغبريني (أبو العباس)

عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية - نشر ابن أبي شنب - الجزائر ١٣٢٨ .

غريط (محمد)

فواصل الجمان في أنباء وزراء وكتاب الزمان - ط. فاس ١٣٤٧ .

الغزال (أحمد بن المهدي)

رحلة نتيجة الاجتهاد في المهادنة والجهاد ، نشر فريد البستاني العرائش - العرائش ١٩٤١ .

الغزيري

فهرس المخطوطات العربية بمكتبة الاسكوريال - ط. مدريد ١٧٦٠ - ١٧٧٠ .

القسائي

رحلة الوزير في افتكاك الأسير - ط. العرائش ١٩٤٠ .

ابن غلبون

تاريخ طرابلس المسمى بالتذكار - ط. مصر ١٣٣٩ .

فؤاد السيد

فهرس المخطوطات المصورة بمعهد احياء المخطوطات العربية بالاشتراك مع الدكتور لطفي عبد البذيع - ط. مصر ١٩٥٤ - ١٩٥٦ .

ابن فروحون

الديباج المذهب في معرفة علماء المذهب - ط. مصر ١٣٥١ .

ابن الفرضي

تأريخ علماء الأندلس - ط. مدريد ١٣٩١ .

فريد وجدي (محمد)

دائرة معارف القرن العشرين - ط. مصر ١٩١٠ .

الفشتالي (محمد بن علي)

نظم الوفيات لابن قنفذ والزيادة عليها - مخطوط خاص .

أبو القاسم الشريف

رفع الحجب المستورة في محاسن المقصورة - ط. مصر ١٣٤٤ .

ابن القاضي (أحمد)

درة الحجل في غرة أسماء الرجال - ط. الرباط ١٩٣٤ .

لقط الفرائد من حقائق الفوائد - مخطوط خاص .

قدوري حافظ طوقان

تراث العرب العلمي في الرياضيات والفلك - ط. مصر ١٩٤١ .

القوافي (بدر الدين)

توشيح الديباج - مخطوط خاص .

النفطي

اخبار العلماء بأخبار الحكماء - ط. مصر ١٣٢٦ .

القلقشندي

صبح الأعشى - ط. مصر ١٩١٣ - ١٩١٨ .

ابن قنفذ (ابن الخطيب القسنطيني)

وفياته المسماة شرف الطالب في أسنى المطالب نشر هنري بيريس - مصر
أنس الفقير وعز الحقير - مخطوط خاص .

الكتاني (عبد الحي)

فهرس الفهارس - ط. فاس ١٣٤٦ - ١٣٤٧ .

الكمالك (عثمان)

موجز التاريخ العام للجزائر - ط. تونس ١٣٤٤ .

كنون (عبد الله)

التعاشيب - ط. تطوان ١٣٤٢ .

واحة الفكر - ط. تطوان ١٣٤٨ .

خل وبقل - ط. تطوان ١٣٧٨ .

شرح مقصورة المكودي - ط. مصر ١٣٥٦ .

شرح الشمقمقية - ط. مصر ١٣٥٤ .

المنتخب من شعر ابن زاكور - ط. العرائش ١٣٦١ .

الكوهن (الحسن)

طبقات الشاذلية الكبرى - ط. مصر ١٣٤٧ .

كين روير

فهرس المخطوطات العربية بمكتبة مدريد الوطنية ط. مدريد ١٨٨٩ .

المالكي (أبو بكر)

رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وإفريقية الجزء الأول نشر الدكتور

حسين مؤنس - مصر ١٩٥١ .

مبارك الملي

تاريخ الجزائر في القديم والحديث - ط. الجزائر ١٩٣٢ .

الحمي

خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر - ط. مصر ١٢٨٤ .

ابن مخلوف التونسي

شجرة النور الزكية في طبقات المالكية - ط. مصر ١٣٤٩ .

المرادي (محمد خليل)

سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر - ط. مصر ١٢٩١ .

المراكشي (عبد الواحد)

المعجب في تلخيص أخبار المغرب - ط. مصر ١٩٤٩ .

ابن أبي مریم

البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان - ط. الجزائر ١٣٢٦

ابن معصوم

سلافة العصر في محاسن الشعراء بكل مصر - ط. مصر ١٣٢٤ .

المقري (أحمد)

نفح الطيب - ط. مصر ١٣٠٢

أزهار الرياض في أخبار عياض ، تحقيق مصطفى السقا وآخرين - مصر ١٣٥٢ .

فتح التمتع في مدح النعال - ط. حيدر آباد ١٣٣٤ .

ابن ناصر (أحمد)

رحلته الحجازية - ط. فاس ١٣٢٠ .

الناصرى (أحمد بن خالد)

زهر الأفنان من حديقة ابن الوتان - ط. فاس ١٣١٤ .

طلعة المشتري في النسب الجعفري - ط. فاس (بدون تاريخ) .

النباهي (أبو الحسن)

المرقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا - ط. مصر ١٩٤٨ .

الونشريسي (أحمد)

المعيار المغرب والجامع المغرب عن فتاوى أهل افريقية والأندلس والمغرب - ط .
فاس ١٣١٥ .

ياقوت الحموي

معجم البلدان - ط . مصر ١٣٢٤ .
معجم الأدباء المسمى ارشاد الأريب طبعة الدكتور فريد رفاعي مصر ١٣٥٧ .

يوسف أشباخ

تاريخ الاندلس في عهد المرابطين والموحدين ترجمة محمد عبدالله عنان - ط .
مصر ١٣٧٧ .

اليوسي (الحسن)

المحاضرات - ط . فاس ١٣١٧ .
القانون في ابتداء العلوم - ط . فاس ١٣١٠ .
مناهج الخلاص من كلمة الاخلاص - ط . فاس ١٣٢٧ .
ديوان شعره - ط . فاس .

المصادر الخاصة

ابن ابراهيم (عباس)

الاعلام بن حل مراکش وأغمت من الأعلام - ط . فاس ١٣٥٥ - ١٣٥٨ .

الافراني (محمد الصغير)

نزهة الحادي بأخبار ملوك القرن الحادي - ط . فاس (بدون تاريخ)
صفوة ما انتشر من أخبار صلحاء القرن الحادي عشر - ط . فاس (بدون تاريخ)

أكنسوس (محمد)

الجيش المرمرم الخامس في دولة أولاد مولانا علي السجلمامي - ط . فاس ١٣٣٦ .

ابن أبي محمد صالح (أحمد بن ابراهيم)

المنهاج الواضح في تحقيق كرامات أبي محمد صالح - ط. مصر ١٣٥٢ .

الأنصاري (محمد بن القاسم)

اختصار الأخبار عما كان بشعر سبته من سني الآثار - ط. باريس ١٣٥٠ .

بروفينسال (ليفي)

مجموعة رسائل موحديّة - ط. الرباط ١٩٤١ .

البندق (أبو بكر الصنهاجي)

أخبار المهدي بن تومرت وابتداء أمر الموحدين - ط. باريس ١٩٢٨ .

الجزناني (أبو الحسن)

زهرة الآس في بناء مدينة فاس - ط. الجزائر ١٣٤٠ .

أبو جندو (محمد)

مقدمة الفتح من تاريخ رباط الفتح - ط. الرباط ١٣٤٥ .

الحضرمي (محمد)

بلغة الأمنية ومقصد اللبيب فيمن كان بسبته من مدرس وأستاذ وطبيب ، قطعة منه - مخطوط خاص .

الطلي (أحمد بن عبد الحمي)

الدر النفيس في مناقب الامام ادريس بن ادريس - ط. فاس ١٢٩٩ .

داود (محمد)

تاريخ تطوان الجزء الأول - ط. تطوان ١٩٥٩ .

مختصر تاريخ تطوان - ط. تطوان ١٣٧٥ .

ابن أبي زرع

الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس -

ط. فاس ١٣٠٣ .

الزياني (أبو القاسم)

الترجمان المغرب عن دول المشرق والمغرب ، قطعة منه نشرها هوداس ١٣٠٣ .
الحادي المطرب في رفع نسب شرفاء المغرب - مخطوط خاص .

ابن زيدان (عبد الرحمن)

اتحاف أعلام الناس بجمال أخبار حاضرة مكناس - ط . الرباط ١٣٤٧-١٣٥٢ .
الدرر الفاخرة بآثار الملوك العلويين بفاس الزاهرة - ط . الرباط ١٩٣٧ .

ابن سودة (عبد السلام)

دليل مؤرخ المغرب - ط . تطوان ١٣٦٩ .

السوسي (محمد المختار)

سوس العاملة - ط . فضالة ١٣٨٠ .
المعسول ، الجزء الأول - ط . الدار البيضاء ١٣٨٠

ابن عثمان (محمد)

الجامعة اليوسفية في تسعمائة سنة - ط . الرباط ١٩٣٧ .

ابن عسكرو (محمد)

دوحة الناشر لمحسن من كان بالمغرب من مشائخ القرن العاشر - ط . فاس ١٣٠٩

العلمي (محمد بن الطيب)

الأنيس المطرب فيمن لقيته من أدباء المغرب - ط . فاس ١٣١٥ .

الفاسي (المهدي)

ممتع الأسماع في ذكر الجزولي والتبائع - ط . فاس ١٩٠٥ .

الفشتالي (عبد العزيز)

مناهل الصفا في أخبار دولة الملوك الشرفاء ، الجزء الثاني - مخطوط خاص .

القادري (عبد السلام)

الدر السني في بعض من بفاس من أهل النسب الحسني - ط . فاس ١٣٠٨ .

القادري ، محمد بن الطيب (

نشر المتاني لأهل القرن الحادي عشر والثاني - ط . فاس ١٣١٠ .

ابن القاضي (أحمد)

جدوة الاقتباس فيمن حل من الأعلام بفاس - ط . فاس .

الكتاني (جعفر)

الشرب بالمختصر والسر المنتظر من معين بعض أهل القرن الثالث عشر - ط . فاس ١٣٠٩ .

الكتاني (محمد بن جعفر)

سلوة الأنفاس ومحادثة الأكياس فيمن أقبر من العلماء والصلحاء بمدينة فاس ط . فاس ١٣١٦ .

الأزهار العاطرة الأنفاس بذكر بعض محاسن قطب المغرب وتاج مدينة فاس - ط . فاس ١٣٠٧ .

كنون (عبدالله)

مدخل الى تاريخ المغرب - الطبعة الثالثة تطوان ١٣٧٩ .

أمراؤنا الشعراء - ط . تطوان ١٣٦١ .

ذكريات مشاهير رجال المغرب ٢٥ حلقة ط . تطوان .

رسائل سعدية - ط . تطوان ١٣٧٣ .

مؤلفون مجهولون

الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية - ط . تونس ١٣٢٩ .

مفاخر البربر - ط . الرباط ١٣٣٤ .

الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية نشر ابن أبي شنب - الجزائر ١٩٢٠ .

ملين (محمد الرشيد)

عصر المنصور الموحدي - ط . الرباط ١٩٤٦ .

المثوني (محمد)

العلوم والآداب والفنون على عهد الموحدين - ط . تطوان ١٩٥٠ .

ابن الموقت (محمد)

السعادة الأبدية في التعريف بمشاهير الحضرة المراكشية - ط . فاس ١٣٣٦ .

تمطير الأنفاس في التعريف بالشيخ أبي العباس - ط . فاس ١٣٣٦ .

الناصري (محمد المكي)

الدرر المرصعة في أخبار صلحاء درعة - مخطوط خاص .

الناصري (أحمد بن خالد)

الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى - ط . مصر ١٣١٢ .

النميشي (أحمد)

تاريخ الشعر والشعراء بفاس - ط . فاس ١٣٤٣ .

مصادر أجنبية

لم نستعمل من المصادر الأجنبية الا القليل لأن موضوع كتابنا قلما تناوله الباحثون الأجانب ولكننا على كل حال استعنا في بعض المواضع بالمصادر التالية :

C. Brockelmann

تاريخ الأدب العربي

Geschichte der Arabischen Literatur - Leyde 1943 - 1949.

Angel Gonzalez Palencia

تاريخ الأدب الإسباني

Historia de La Literatura Arabigo - Espanola - madrid 1928.

تاريخ إسبانيا الإسلامية

Historia de La España musulmana - madrid 1922.

Encyclopédie de L'Islam.

دائرة المعارف الإسلامية

ed. française - Leyde 1908 - 1938.

E. Lévi Provençal

مؤرخو الشرفاء

Les Historiens des Chorfa - Paris 1922.

محتويات الكتاب

فهرس الكتاب

الجزء الأول - الدراسة -

صفحة	صفحة
٦٢ يوسف والمعتمد	مقدمة الطبعة الثانية
٦٥ الحياة الفكرية في هذا العصر	هذا الكتاب ٧
٧٨ رعاية المرابطين للأدب وأهله	عرض وتحليل ١٧
٨٦ تراجم بعض الشخصيات من هذا العصر	أول تقرظ ٢٧
٩٤ تسمية بعض الكتب المؤلفة في هذا العصر	مقدمة الطبعة الأولى
	فاتحة الكتاب ٣١
عصر الموحدين	عصر الفتوح
٩٩ انقلاب	الفاتحون الحقيقون ٣٧
١٠٤ توحيد المغرب العربي	كيف انتشر الإسلام في المغرب ٣٩
١١٠ الدولة والثقافة العربية	استعراب المغاربة ٤١
١١٨ الحركة العلمية	الصراع بين العرب والمغاربة ٤٣
١٤٦ الهيئة العلمية وآثارها	الوسط الفكري في هذا العصر ٤٥
١٦٣ الحياة الأدبية	عصر المرابطين
عصر المرينيين	سياسة الجامعة الإسلامية ٥٧
١٧٥ الوجهة السياسية	

صفحة	صفحة
٢٤٦ الهيئة العلمية وآثارها	١٨٣ .. في دائرة العروبة والإسلام الصحيح
٢٦٠ الحياة الأدبية	١٨٨ الحركة العلمية
عصر العلويين	٢٠٤ الهيئة العلمية وآثارها
٢٦٩ الدولة الشريفة	٢٢٢ الحياة الأدبية
٢٧٤ الحركة العلمية	عصر السعديين
٢٨٣ الهيئة العلمية وآثارها	٢٢٣ سياسة الدولة
٣١١ الحياة الأدبية	٢٣٩ الحركة العلمية

الجزء الثاني

- المختارات النثرية -

صفحة	الموضوع
٣٢١	رسالة من المستشرق بروكلمان إلى المؤلف
٣٢٥	المتخبات الأدبية : قسم المنشور
٣٢٧	التحميد والصلاة
	تحميد للقاضي عياض - تسيح للمهدي بن تومرت - دعاء ومناجاة لأبي العباس السبتي - صلاة لعبد السلام بن مشيش - الحزب الكبير لأبي الحسن الشاذلي - صلاة لمحمد بن سليمان الجزولي - صلاة لإبراهيم التازي - تحميد لمحمد ميارة - صلاة لمحمد بن ناصر - صلاة للمعطي ابن الصالح - تحميد لخالد العمري - صلاة للمختار الكنتي
٣٤٧	الخطب
	خطبة لطارق بن زياد - خطبة لادريس الأزهر - خطبة أخرى له - خطبة لعبد الله بن ياسين - خطبة للقاضي عياض - خطبة لمهدي بن تومرت - خطبة للقاضي أبي حفص بن عمر - خطبة للمنصور المريفي - خطبة لابن رشيد - خطبة وعظية لأبي مدين الفاسي - خطبة في التذكير والترغيب لأبي عبد الله الرهوني - خطبة للسلطان مولاي سليمان العلوي - خطبة وعظية للعربي الزرهوني

الموضوع	صفحة
المنظرات	٣٦٦
(أ) في الدين	٣٦٦
- مناظرة أبي عمران الفاسي - مناظرة الخروبي واليسيني والمهبطي .	
(ب) في الأدب	٣٧٣
- مناظرة مالك بن المرحل .	
(ج) في السياسة	٣٩٠
- مناظرة المهدي بن تومرت - مناظرة السلطان زيدان بن المنصور الذهبي	
الرسائل	
(أ) السلطانيات	٤٠٧
- توقيع يوسف بن تاشفين كتابة بالفتح - ظهير له - كتاب عبد المؤمن - رسالة من عبد المؤمن إلى أهل تلمسان - توقيعه - رسالة أبي حفص الهتاني - توقيع المنصور الموحد - توقيع آخر له - رسالة للمأمون الموحد - رسالة أخرى له - توقيع له - رسالة للأمير سليمان الموحد - توقيع له - كتاب السلطان أبي الحسن المريني إلى الملك الناصر قلاوون - كتاب منه إلى الملك الصالح أبي الفدا - كتاب السلطان أبي سعيد المريني الأصغر - بيعة صاحب مملكة برنو - كتاب المنصور الذهبي إلى الشيخين البدر القرافي والزين البكري - توقيعه على كتاب جؤنر - كتاب للسلطان مولاي الحسن العلوي - توقيعات له .	
(ب) الإخوانيات	٤٦٠
- رسالة للقاضي عياض - رسالة لأبي الحسن بن مروان - رسالة لابن هاني السبتي - رسالة لأبي جعفر الجنان - رسالة للقاضي أبي عبد الله الفشتالي - رسالة للأديب محمد بن إبراهيم الفاسي .	
(ج) المتفرقات	٤٧٥
- رسالة للقاضي أبي موسى ابن عمران - رسالة أبي جعفر ابن عطية إلى عبد المؤمن - رسالة أبي الخطاب بن دحية - رسالة إلى عبد الواحد المراكشي - عقد توبة لميمون الخطابي - اهداء أبي القاسم الشريف ديوان شعره - كتاب الأستاذ ابن حكم السلوي - رسالة لأبي بكر بن شبرين .	

صفحة

الموضوع

المقامات ٤٩١

مقامة الافتخارين العشر والجوار - المقامة الزهرية في مدح المكارم البكرية - مقامة
الحجام لابن الطيب العلمي - المقامة الحسائية - المقامة التطوانية - مقامة للوزير ابن
ادريس .

المحاضرات ٥٤٧

شجاعة ادريس الأزهر - الحسن الحجام - محاسن الزهد والورع - تحري القاضي ابن
محسود - ملح أهل التصوف - وكل ناطقة في انكون تطربني - همة عالم - عالم ابن دلال
- حسن الجواب - بين عبد المؤمن ووزيره - أعاقبه بالحلم - المنصور الموحي والفيل
- سوء الفال - وقف على الشعراء - بين أميرين - ملح نحوية - من محاسن التصحيح
- حديث اللطافة - نجابة الأولاد - بديهة الجرواي - الأصيل في فاس - بين ابن
عبدوس وابن الجهم - الوجد مع الوجد - حسن الاعتذار - حسن التعلل - من
اللطائف في التشميت - شاعر بليد الطبع - المودة في القربى - إنك لبحر - حلم
المنصور الموحي وعلمه - من اكرام أبي العلاء الموحي للعلماء - هي الشمس
- حيوانات معلمة - أحب سلا - نتيجة العلم - تظليل صحن القرويين - تحت ثريا
القرويين - قاض حضرمي - فتحت لنجلك باب الفتوح - بين ابن المرحل وابن
رشيق - زكاة ابن البناء - شعر للشريف المونامي - محتسب وشاعر - حلف لا يمشي
شاعره إلا على الذهب - من حكاياتهم في العفاف - من محاسن الكناية - غريبة رابع
- آخر ماسمع منهم - كلم نوايغ .

المقالات ٥٩١

البلاغة النبوية للقاضي عياض - النعوت والألقاب لابن الحاج القاسي - النارجيل
لابن بطوطة - أصول الطريق لأحمد زورق - التأريخ والألفاظ المستعملة فيه لأحمد بن
عرضون - التوشيح والشاحون للأفرائي - تقسيم العلوم إلى فلسفية ومالية لأبي علي
اليوسي - القلم في اللغة لآكنسوس .

الجزء الثالث

- المختارات الشعرية -

صفحة	صفحة
بيتان لأبي علي اليوسي	النبوغ في ميزان القيمة بقلم الأستاذ
قطعة له	الكبير حنا فاخوري ٦٣٣
قصيدة لمحمد الدلائي ٦٦٦	المتخبات الأدبية
قطعة لأبي حفص الفاسي ٦٦٨	قسم المنظوم ٦٣٧
قصيدة لمحمد سكيج	الحماسة والفخر
قصيدة لحرمة العلوي ٦٦٩	أبيات للمولى ادريس الأزهر ٦٣٩
قصيدة للوزير ابن ادريس ٦٧٠	قطعة لولده القاسم
قصيدة أخرى له	أبيات لإبراهيم المؤبل ٦٤٠
قطعة لمحمد بن الشيخ سيدي الشامي	أبيات للشريف الادريسي
الغزل والشوق والنسيب	قصيدة لعبد المؤمن بن علي
أبيات للمولى ادريس ٦٧٥	قصيدة للمنصور الموحد ٦٤٢
قطعة لابن القابلة السبتي	أبيات للسيد عبد الله الموحد
قطعة لابن عطاء السبتي	قصيدة لأبي العباس الجراوي ٦٤٤
بيتان للسيدة أمة العزيز	قطعة له
قصيدة لأبي الحسن ابن زنباع ٦٧٨	قصيدة لابن حبوس ٦٤٥
أخرى له	أبيات لأبي حفص بن عمر
بيتان لابن الكتاني ٦٧٨	بيتان للأمير أبي مالك المريني ٦٤٧
بيتان لعلي بن يقطان	بيتان لأبي الحسن المريني
آخران للقاضي عياض	قصيدة لمالك بن المرحل
قطعة له	قصيدة عبد العزيز الملزوزي ٦٥١
بيتان له	قطعة لأبي العباس الملياني ٦٦١
قطعة للأمير أبي الربيع ٦٨٠	بيتان لعبد المهيمن الحضرمي
قطعة لأبي حفص بن عمر	بيتان لأبي زيد المكودي
قطعة أخرى له ٦٨١	قصيدة لداود بن عبد النعم ٦٦٢
أبيات له	بيتان لأبي حامد الفاسي ٦٦٥

صفحة

قطعة له	
أبيات له	
أبيات للسلطان أبي العباس	
المريني	٧٠٠
قصيدة لـحمد بن أبي مدين	
قصيدة لـحيى بن مليل	٧٠١
قطعة لـعبد الرحمن القبائلي	٧٠٢
بيتان لابن جابر المكناسي	٧٠٣
بيتان له	
آخران له	
بيتان للمتوكل السعدي	
أبيات للمصور الذهبي	٧٠٤
بيتان له	
أبيات لـزيدان بن المنصور	
بيتان له	
بيتان لـعبد العزيز الفشتالي	
بيتان لأبي عبد الله الوجدي	
قطعة لأبي سالم العياشي	
بيتان لأحمد الشريف	
قطعة لأبي علي اليوسي	٧٠٦
قطعة أخرى له	
قطعة للأمير محمد العالم	٧٠٧
قطعة للأمير زيدان	
قطعة لابن زاكور	٧٠٨
بيتان له	
آخران له	
أبيات له	
قطعة لابن الطيب العلمي	٧٠٩
بيتان له	

صفحة

قطعة له	
أخرى له	
قصيدة لابن المحلى	٦٨٣
أخرى له	
قطعة للمرتضى الموحي	٦٨٥
قطعة للملزوني	
قصيدة لابن عبدون المكناسي	٦٨٦
قطعة للملك بن المرحل	٦٨٧
قصيدة له	
أبيات لـمحمد الشوكي	٦٨٩
أبيات للأمير أبي علي المريني	
أبيات أخرى له	
أبيات لأبي عنان	٦٩٠
بيتان له	
قطعة لـعبد المهيمن الحضرمي	
قصيدة لأبي عبد الله المكودي	٦٩١
أبيات له	
قصيدة لأبي العباس الجزنائي	٦٩٢
قطعة له	٦٩٣
أبيات له	
قصيدة لأبي العباس العزفي	٦٩٤
قصيدة أخرى له	٦٩٥
قطعة له	
أبيات له	
بيتان لابن هانئ السبتي	٦٩٧
قطعة لأبي قاسم الشريف	٦٩٨
أبيات له	
بيتان له	
أبيات لأبي بكر بن شبرين	٦٩٩

صفحة

٧٢٧	قطعة لابن الجنان
	بيتان لعبد المهيم الحضرمي
	قصيدة للمغيلي
٧٢٨	قصيدة لمنديل ابن أجروم
٧٣٠	قصيدة لابن عبد المنان
٧٣٢	أخرى له
٧٣٥	قطعة لإبراهيم الفجيجي
٧٤٤	قطعة لعبد العزيز الفشتالي
٧٤٦	أخرى له
٧٤٧	قصيدة لأبي الحسن الشامي
	أبيات للمكلاطي
٧٥٠	قصيدة لمحمد بن إبراهيم الفاسي
٧٥١	قصيدة لابن سوسن
٧٥٣	أبيات للشفاوني
	بيتان للغزال
	آخران لابن الزبير
٧٥٤	قصيدة لابن الطيب العلمي
	بيتان له
٧٥٥	بيتان لأبي عبد الله الشرقي
	بيتان له
	أبيات له
٧٥٥	قصيدة لابن زاكور
	بيتان له
	أبيات له
	بيتان له
٧٥٧	قطعة لأبي علي اليوسي
٧٥٨	قصيدة له
٧٦٠	قصيدة للوزير ابن ادريس
	أخرى له

صفحة

	آخران له
٧١١	قطعة لأبي عبد الله الشرقي
	بيتان له
	قطعة أخرى له
٧١٢	قصيدة للوزير ابن ادريس
٧١٤	قطعة له
	أخرى له
٧١٥	أبيات لابن طاهر الهواري
	أخرى له
٧١٦	قصيدة لابن عثمان المكناسي
٧١٧	قصيدة لمحمد بن الشيخ سيدي الشنقيطي
٧١٨	قطعة لمحمد الحراق
	أخرى له
٧١٩	قصيدة له
	الوصف
٧٢١	قصيدة لأبي الحسن بن زنباع
٧٢١	بيتان للقاضي عياض
	بيتان لأبي العباس بن غازي
	أبيات لأبي بكر بن تافلويت
	أبيات لابن عبدون المكناسي
	بيتان له
	آخران له
	بيتان لابن جابر المكناسي
٧٢٤	قطعة لأبي العباس العزفي
	أبيات لمالك بن المرحل
	بيتان له
٧٢٥	قطعة لأبي القاسم الشريف
	أبيات له

صفحة

قطعة لأبي عبد الله الشرقي	
أبيات له	
قصيدة لأبي حفص الفاسي	٧٨٨
الشمقمقية	٧٩٢
قصيدة لابن الطالب يعقوبي	٨٠٤
الملح والتهنئة والاستعطاف	
بيت لابن الزيتوني	٨٠٧
قصيدة لابن زنباع	
قصيدة لابن حبوس	٨٠٨
أخرى له	٨٠٩
قطعة للجرأوي	٨١٠
قصيدة له	
أخرى له	٨١١
أخرى له	٨١٣
أخرى له	
أخرى له	٨١٤
أبيات للأمير سليمان الموحي	
قصيدة لميمون الخطابي	٨١٥
قصيدة للملك بن المرحل	٨٢٤
أبيات لأبي جعفر الجنان	٨٢٧
قصيدة لابن هانء السبي	
قصيدة لابن عبد المنان	٨٢٨
قطعة لأبي عبد الله الفشتالي	٨٣٢
قصيدة لمحمد الشوكي	
قطعة لسعيد بن علي الحامدي	٨٣٤
قصيدة للنابغة الموزلي	٨٣٥
أخرى له	

صفحة

الأدب والوصايا والحكم	
أبيات للشيخ يعلى	٧٦٣
بيتان له	
أبيات للمهدي بن تومرت	٧٦٤
أبيات لأبي حفص بن عمر	
أخرى له	
بيتان لابن الشاط	٧٦٥
أبيات لابن البناء	
بيتان لابن عبد الملك المراكشي	
قصيدة للملك بن المرحل	٧٦٦
أبيات له	
بيتان لابن جابر المكناسي	٧٦٧
بيتان لابن رشيد	
بيت لأبي عنان	
مقصورة المكودي	٧٦٨
أبيات لإبراهيم التازي	٧٧٥
قطعة له	
بيتان لابن غازي	٧٧٦
بيتان لرضوان الجنوي	
قطعة للقصار	
بيتان للبوعقيلي	٧٧٧
أبيات لعبد السلام جسوس	
بيتان له	
بيتان للعايشي	
آخران له	
نصيحة الهلالي	٧٧٨
قصيدة لأبي علي اليوسي	٧٨١
بيتان للمرغيثي	٧٨٧
بيتان للخمسي	

صفحة

أبيات له	٨٣٧
آخران له	٨٤٤
قصيدة له	٨٦٨
بيتان لأبي عبد الله المكودي	٨٧١
أبيات لأبي القاسم الشريف	٨٧٢
بيتان لابن غازي	٨٧٣
بيتان لرايح بن عبد الصمد	
بيتان آخران له	
قطعة لابن الخطيب الزوريلي	
بيتان له	
بيتان لابن عمرو والشاوي	
آخران لعبد الملك التجموعي	
آخران له	
أبيات لليوسي	٨٧٤
بيتان له	
بيتان لعبد القادر بن شقرون	
أبيات له	٨٧٥
قطعة لمحمد بن الشيخ سيدي	
رجزية لعبد السلام الزموري	
الرثاء وذكر الموت	
قطعة لأبي الحسن المسفر	٨٧٩
بيتان لأبي جعفر بن عطية	٨٨٠
قصيدة لميمون الخطابي	
أبيات لأبي العباس الجزنائي	٨٨٥
أخرى له	
قصيدة لابن شبرين	
أبيات له	٨٨٨
أبيات لابن عبد المنان	

صفحة

قصيدة لعبد العزيز الفشتالي	٨٣٧
أبيات لمحمد بن عبد الله الجزولي	٨٤٤
قصيدة للشريف البوعناني	
قصيدة لعبد الله العلوي الشنقيطي	٨٤٧
قصيدة لأبي علي اليوس	٨٥٠
قصيدة لابن زاكور	٨٥١
قصيدة لابن طاهر الهواري	٨٥٣
قصيدة للطيب بن صالح الرزيني	٨٥٥
قصيدة لأكنسوس	٨٥٧
الملح والطرف	
قطعة لسعيد بن هشام المصمودي	٨٦١
أبيات لعبد الله الكفيف	
قصيدة لابن حبوس	٨٦٢
قطعة للجراوي	٨٦٣
بيتان له	
آخران له	٨٦٤
بيتان لابن الياسمين	
بيتان لابن تليس	
أبيات لابن نموي	
قطعة لابن الياسمين	٨٦٥
أبيات لسليمان الموحدي	
بيتان له	٨٦٦
آخران له	
بيتان لميمون الخطابي	
بيتان للملزوذي	
أبيات مالك بن المرحل	
أبيات له	٨٦٧
بيتان له	

صفحة

٩٢٠	وله أيضاً
٩٢٢	وله كذلك
٩٢٤	وله
٩٢٦	ولابن الطيب العلمي
٩٢٧	ولابن طاهر الهواري
٩٢٨	وللشيخ الحراق
٩٢٩	زجل لابن شجاع
٩٣٠	آخره
٩٣١	آخر للكفيف الزرهوني
٩٣٤	آخر لابن دواد
٩٣٧	آخر للعدراوي
٩٣٨	آخر للشيخ الحراق
٩٤٠	آخره
	آخره
٩٤١	آخر للسيد عبد القادر العلمي
٩٤٣	آخره
٩٤٥	المصادر والمراجع
٩٦٣	فهرس عام للدارسة والمختارات ..

صفحة

	قصيدة للقصار
٨٨٩	قطعة للجنوي
٨٩٠	قصيدة لأبي عثمان الحامدي
٨٩٢	قصيدة لعلي مصباح
٨٩٣	قصيدة لليوسي
٩٠٤	قصيدة لعبد الله الغلوي الشنقيطي ..
٩٠٦	قطعة للطيب بن مسعود المريني
٩٠٧	بيتان لابن الطيب العلمي
	قطعة لابن زاكور
	قطعة لابن ادريس
	الموشحات والأزجال
٩١١	موشح لابن غرلة
٩١٤	آخره
٩١٥	آخر لسعيد بن إبراهيم السدراي
٩١٦	آخر للمنصور الذهبي
٩١٧	آخر للعربي المنالي
٩١٩	آخر لابن زاكور
	وله آخر